



الدكتور شوقي ضيف

عصر الدولة والمعارضة

الجزائر - المغرب الأقصى
موريتانيا - السودان

تاريخ
الأدب
العربي



عصر الدّول والإمارات

الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان

عصر
الدول والإمارات

الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان

تأليف
الدكتور شوقي ضيف



shiabooks.net

رابطہ بديل < mktba.net



منشورات ذوي القربى

اسم الكتاب :	تاريخ الادب العربي (ج ١٠) □
المؤلف :	شوقي الضيف □
الناشر :	ذوي القربى □
الطبعة :	الأولى □
تاريخ الطبع :	١٤٢٨ □
الكمية :	١٠٠٠ نسخة □
المطبعة :	ستاره □
شابك ج ١٠ :	١٩٣ - ٥١٨ - ٩٦٤ - ٩٧٨ □
مركز التوزيع : قم - پاساژ قدس - الطابق الاول - رقم ٥٩ - تليفون : ٧٧٤٤٦٦٣ - ٢٥١ - ٩٨ +	

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١

هذا الجزء الأخير من تاريخ الأدب العربي خاص بالجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا والسودان بدأت بالحدث عن الجزائر وجغرافيتها وتاريخها القديم أيام الفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين وولاتها أيام الدولتين الأموية والعباسية وتبعية القسم الشرقى منها لتونس أيام الدولة الأغلبية وتأسيس الخوارج الإباضيين للدولة الرستمية فى تاهرت ، وأسس إدريس الحسنى دولة الأدارسة فى فاس ، وقضت الدولة العبيدية على الدول الثلاث : الأدارسة والرستمية والأغلبية ، واتخذت القيروان عاصمة لها ثم المهديّة . وتحول المعز العبيدى بتلك الدولة إلى القاهرة وتشتهر باسم الدولة الفاطمية وينب عنه فى تونس والبلاد المغربية ولكن الصنهاجى ، وجعلها وراثية فى أبنائه ، وتتطور الظروف ويعلم المعز بن باديس حفيده استقلاله بالمغرب وتونس وإسقاط الدعوة العبيدية من بلاده ، فيسلط عليه الخليفة الفاطمى المستنصر أعراب بنى هلال وبنى سُلَيم النازلين بشرقى الصعيد ، وكانوا نصف مليون أو يزيدون ، فزحفوا على ليبيا وتونس ، واستولوا على القيروان وغيرها من المدن ، وأهلكوا الحرث والنسل . وكان حماد بن بلكين عم المعز بن باديس استقل فى بجاية شرقى الجزائر واستطاع بُناؤه أن يداوروا بنى هلال وتَسَلَّم لهم دولتهم إلى أن قضى عليها عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وأسس أحد ولادة دولته الدولة الحفصية فى تونس وشرقى الجزائر . وفى نفس التاريخ قامت دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان فى تلمسان وغربى الجزائر ، وتدهور الدولتان منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ويستولى الإسبان على مدن متعددة، فى الساحل الجزائرى، شرقية وغربية ، ويفضّب للجزائر بطلان تركيان من رجال البحر هما عروج وخير الدين . وتحرّر الساحل الجزائرى فيما عدا مدينتى المرسى الكبير ووهران ، وتحرر مدينة المرسى الكبير سريعا ، وتبعّت الجزائر الدولة العثمانية وظلت تابعة لها إلى أن احتلتها فرنسا سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م.

وتنزل الجزائر - مع أهلها من البربر - عناصر من أجناس آسيوية وإفريقية وأوربية : فينيقية وقرطاجية ورومانية ويهودية وألمانية من الوندال وبيزنطية ثم حملة مشاعل الدين الخفيف من

جنود العرب والشعوب الإسلامية التي انتظمت في جيوشهم . وظل ينزلها في المدن الساحلية بعض اليهود، وهاجر إليها جمهور السكان في صقلية حين استولى عليها النورمان وكتلة كبيرة من مسلمي الأندلس حين استولى عليها نصارى الإسبان ، وجلب إليها قراصنتها كثيرا من نصارى أوروبا كما جلب إليها ولاتها العثمانيون حاميات من الإنكشارية: ترك وغير ترك ، وكل هذه العناصر ذابت في الجزائر لما تمتاز به من قوة الشخصية .

وأساس المعيشة في الجزائر زراعة القمح والشعير ورعى الأنعام ، وتكثر بها أشجار النفل والفواكه من كل صنف ، كما تكثر الصناعات اليدوية وصناعة الحلي وأولى الخزف والمنسوجات الكتانية والقطنية والصوفية والحمرية ، ومعاصر الزيتون كانت منتشرة في بلدان مختلفة ، ومواد البناء كانت متوفرة ، ولذلك كثرت إقامة المدن الجديدة ، وكثر على السواحل صيد السمك والخيتمان . وازدهرت التجارة واتسع الثراء وجرّ إلى رفه في اللبس والمأكل والسكن ، حتى لشعر إزاء تلمسان وبعض المدن أنها متحضرة حضارة حقيقية . ويتم هذه الحضارة وما طوى فيها من رفّه عناية الجزائريين بالموسيقى . وعرفت الجزائر الديانتين النصرانية واليهودية ، ولا يكاد يمر نصف قرن - بعد الفتح - حتى يصبح شعبها إسلاميا عربيا ، وكنوا سنية على مذهب مالك إلا ما كان من تاهرت وقيام دولة الإباضية فيها لنحو قرن ونصف . وتكاثر في محيط تلك الدولة المعتزلة وحملوا السلاح ضد الإباضية ولم يكسب لهم النصر . ونشط المذهب الحنفي في عهد العثمانيين، ولكن عامة الجزائريين ظلت مالكية إلى اليوم . وشاعت في الجزائر نزع صوفية ، ونزلها بعض أصحاب التصوف الفلسفي الأندلسي وفي مقدمتهم أبو مدين شعيب ، غير أن التصوف السني هو الذي ساد في الجزائر وانتشرت طريقته القادرية والشاذلية .

وكان أول من قام على الحركة العلمية بالجزائر الفاتحون الناشرون للإسلام ، إذ كان الجندي الفاتح بمجرد أن يضع قدمه في بلدة أو قبيلة يأخذ في تحفيظ معتقّي الإسلام القرآن الكريم أو بعض سوره وبعض كلم العربية في التخاطب وفروض الإسلام ونوافله . وأخذت الحركة العلمية في الجزائر تنمو سريعا بفضل الكتابات والمساجد وما بها من حلقات الشيوخ حيث تلقى محاضرات في مختلف العلوم الشرعية واللغوية . وزاد الحركة سرعة في النمو تأسيس المدارس والزوايا وإنشاء المكتبات فيهما وفي المساجد ، وكانت ترعى الحركة العلمية الدول التي نشأت في الجزائر ، الدولة الإباضية في تاهرت ودولة بني حماد في بجاية وقلعتها ودولة بني زيان أو بني عبد الواد في تلمسان ، وكان من العوامل القوية في نشاط الحركة العلمية بالجزائر نزوح الأندلسيين إليها بالآلاف في القرن السابع الهجري والحادى عشر . وعرضت علماءها الأعلام في علوم الأوائل الرياضية والفلكية والطبية وفي الفلسفة وعلم المنطق ، وبالمثل

فى علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة ، وفى علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام والتاريخ . ومع كل علم من عشرات هؤلاء الأعلام فى الميادين العلمية أهم كُتبه ، ومع كل علم ما يصور تطوره فى مختلف العصور ،

وكانت اللاتينية منتشرة فى الساحل الشمالى للجزائر قبل الإسلام ، وكان الشعب الجزائرى يتكلم البربرية لغة آبائه وقومه ، وأخذت العربية تقهر اللغتين فى ألسنة البربر ، لأنها لغة دينهم الخفيف ، وبدون ريب تعربت المدن الكبيرة منذ القرن الثانى للهجرة ، وخاصة المدن الشمالية أما فى الداخل والجبال فيظل يغلب على الناس التخاطب بالبربرية فى حياتهم اليومية. وأتمت الزحفة الأعرابية فى منتصف القرن الخامس الهجرى تعرب الجزائر ، والمظنون أن لغة الأعراب الفصيحة أخذت تفسد منذ القرن السابع وأخذ ينشأ شعر شعبي على نحو ما نعرف فى قصة الهلالية ، غير أن الشعر الفصيح ظل هو المسيطر ، وله الكلمة العليا ، وقد أخذ يكثر شعراؤه ، وذكرت أعلامهم فى الدول والعصور المختلفة . ثم أخذت أفضل الحديث عن شعراء المديح وأهمهم على مر الزمن والدول ، وترجمت منهم لعبد الكريم النهشلى وعبد الله بن محمد التنوخى (قاضى ميله) وابن خميس ومحمد بن يوسف القيسى الثغرى التلمسانى والشهاب بن الخلوفاً ومحمد القوجيلى . وعرضت شعراء الفخر ، ومن أعلامه أبو حمو موسى الثانى ، وبالمثل شعراء المهجاء ، ومن كبار المهجائين بكر بن حماد التاهرتى وسعيد المنداسى ، كما عرضت أصحاب الشعر العلمى ومن أفادهم عبد الرحمن الأخرى ناظم السلم المرونى فى علم المنطق. وتحدثت عن شعراء الغزل على مر العصور وترجمت لأهم أعلامه : محمد بن أحمد الأربسى وابن على ، وعرضت شعراء وصف الطبيعة مع الترجمة لإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى وتحليل ملحمة فى الصيد . وتناولت شعراء الرثاء على مر الزمن ، وترجمت لملمة : محمد بن على بن حماد القلمى . وعرضت شعر الزهد والتصوف وترجمت لعلمين هما أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجى وإبراهيم التازى . وتحدثت عن شعراء المدائح النبوية على مر التاريخ الجزائرى ، وترجمت لمحمد بن عبد الله العطار ، وله ديوان فى المديح النبوى الشريف .

وتحدثت عن الخطب والوصايا فى عهد الدولة الرستمىة وفى بجاية وتلمسان مع الإمام بكتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، وهو وصية كبيرة قدمها أبو حمو موسى الثانى لابنه : أبى تاشفين . وعرضت الرسائل الديوانية فى عهد الدولة الإباضية والدولة الحمادية ودولة بنى زيان أو بنى عبد الواد فى تلمسان ، وبالمثل فى العهد العثمانى ، كما عرضت الرسائل الشخصية ، وحملت رسالة ابن الربيب المشهورة ملاحظا شيوخ السجع فى الرسائل الشخصية حتى نهاية العهد العثمانى . ويكتب الأدباء مقامات أشبه برسائل أدبية يتناولون فيها بعض الموضوعات دون أى اهتمام بتقاليد مقامات الهذلى والحريرى القائمة على الكدية والشحاذة الأدبية .

وترجمت بعد ذلك لأعلام الكتاب الجزائريين ، وهم أبو القاسم عبد الرحمن القالمى والوهرلى وأبو الفضل بن عشرة .

٢

وانتقلت إلى المغرب الأقصى وتحدثت عن جغرافيته وتاريخه القديم زمن الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والقوط ، وأتمَّ العرب فتح المغرب الأقصى ونشر الإسلام به فى الأعوام السبعين المتتمة للقرن الأول الهجرى وجند الولاة العظام حيثند بعض الشباب المغربى فى الجيش العربى فأصبحوا رفقاء سلاح للعرب واختاروا منهم بعض الولاة والقواد ، غير أن ولاة بنى أمية فى القرن الثانى الهجرى اغرفوا عن هذه السياسة التى يأمر الدين الحنيف باتباعها فى الشعوب الإسلامية الجديدة ، فأذاقوا أهل المغرب خسفا وظلما ، وانتهاز الفرصة الصفرية من الخوارج وأرسلوا دعائهم إلى المغرب الأقصى ، وتبعهم كثيرون ونشبت حروب متعددة بين صفرية المغرب وولاة بنى أمية إلى أن قُضى على ثورتهم فى الشمال ونسحبوا إلى سجلماسة وقامت بها حكومة بنى مدرار الصفرية ، وقضى عليها أمويو الأندلس . واستطاع إدريس سليل الحسن بن على بن أبى طالب أن يكون فى فاس دولة أدارسة ، وهى أول دولة إسلامية عربية فى المغرب الأقصى ونشرت به الإسلام والعلوم الإسلامية والعربية ، وقُضى عليها فى القرن الرابع الهجرى . وتَظَلَّ دولة المرابطين المغرب الأقصى فى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وتحدثت به نهضة علمية وأدبية ، وتنقذ الأندلس من براثن نصارى الإسبان وتشر الإسلام فى ربوع إفريقيا المدارية ، وتخلفها دولة الموحدين محاولة أن تنشر لزعيمها ابن تومرت عقيدة متأثرة ببعض مبادئ الشيعة والمعتزلة ، وتبلى هذه الدولة بلاء حسنا فى إيقاظ ساحل ليبيا وإفريقيا التونسية من التورمان والتكنيل بنصارى الإسبان فى غير موقعة وخاصة موقعة الأرك التى سَحَقُوا فيها سحفاً . وتخلفها دولة بنى مرين ولها دور عظيم فى منازلة نصارى الأندلس والدفاع عن غرناطة ، غير أنها تآذلت فى أواخر أيامها إزاء الاحتلال البرتغالى لبعض الموانئ على المحيط والزقاق . ونوهتُ بشاين مغربين قاوما البرتغاليين مقاومة عنيفة . وقاومهم الوطاسيون فرع من بنى مرين بقدر استطاعتهم ، وخلفهم السعديون وعحقوا البرتغاليين محقا فى معركة وادى المخازن وقتل ملكهم وأخذوا ينسحبون من الموانئ التى استولوا عليها . وقاومهم الصوفية ومن أهمهم أبو عبد الله محمد العياشى محرر الرائش ولزومر والجديدة وإن كانوا عادوا إليها بعده . وقامت الدولة العلوية ومن أهم حكامها إسماعيل محرر طنجة والرائش وحفيده محمد بن عبد الله محرر الجديدة ، ويحتل عرش تلك الدولة الحسن بن محمد سنة ١٨٧٣ ويقود نهضة حضارية وفكرية ، وفى رأينا أن عهده يعد بدء العصر الحديث فى المغرب الأقصى .

وعناصر السكان فى المغرب الأقصى هم البربر سكنته منذ العصور السحيقة ومن استقر
بديارهم من الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والقوط ثم العرب ومن انتظم فى جيوشهم من
الشعوب الإسلامية الآسيوية وإفريقية ، والأندلسيون المهاجرون إلى المغرب الأقصى فى عهد
الحكم الرضى بالقرن الثاى الهجرى ومن هاجر بعدهم فى القرنين السابع الهجرى والحادى
عشر ، واليهود ومن نزل منهم بالمغرب فى عهد الفينيقيين والرومان واليهود الإسلامية ،
والنصارى وظلت منهم بقايا فى المغرب من الرومان والبيزنطيين ، واتخذ المنصور الموحدى
حرسا من الروم عداوه خمسمائة ، وجلب القراصنة من البحر المتوسط كثيرا من نصارى
أوربا . وكان أهل المغرب الأقصى يعيشون على زراعة القمح والشعير والذرة والبقول والخضر
ويكثر الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والبحيرات والأنهار كما يكثر صيد البر من
الحيوقات الوحشية : النعام والوعول والبقر الوحشى ، وتكثر أشجار الفواكه من جميع الأصناف
والنخيل والنقل وأشجار النيلة للصباغة ، وتكثر المعادن وخاصة الحديد ، وصنعوا فى بنى بازعة
« تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وتكثر مواد البناء مماها لبناء بعض المدن والمنشآت
العمرية الكثيرة ، وتكثر المنسوجات القطنية والصوفية والكتانية والحريرية . وكان بمراكش
حديقة للحيوان الوحشى . وازدهرت التجارة ازدهارا عظيما وكثر ثراء الناس فى المدن الكبيرة
والموانئ ، وكان بفاس مائة خمار ومائتا فندق ، وعظم الرفه فى الملبس والمأكول ولعب التسلية
وأقام سلاطين فاس مسرحا لصراع الرجال والثيران مع الأسود ، وعنوا بالموسيقى عناية واسعة .
وكانت المرأة فى المجتمع المغربى تغطى بمكائة عظيمة ، وكانت كثيرات منهن عالمات وأديبات
وطبيبات ، وكان لبعض فضلياتهن ندوات أسبوعية يلقين فيها الشعراء ويحاورنهم وينقدن بعض
أشعارهم ويمنحنهم جوائز نفيسة ، وكان منهن من تحاضر النساء فى الفقه كما يحاضر العلماء
فيه الطلاب ، وألمت بشيوع المذهب المالكى الفقهى . وفصلت القول فى عقيدتى الصغرية
والمعتزلة اللتين انتشرتا فترة فى المغرب الأقصى وفى مذهب الظاهرية وازدهاره فى عصر دولة
الموحدين ، وألمت بمركبى الزهد والتصوف وانتشاره . وتناولت الحركة العلمية وكيف أن
الفائحين كانوا ناشرين للإسلام ومعلمين ، وتحدثت عن دور العلم من الكتابيب والمساجد
والمدرس والزوايا والمكبات وعن إثناء الدول المختلفة للحركة العلمية وما كان لنزول الأندلسيين
فى المغرب الأقصى من عمل فى هذا الإنماء وبعث حركة تعليمية واسعة فيه . وعرضت علوم
الأوائل وأعلامها فى الرياضيات والطب والفلسفة وعلم المنطق ، وتحدثت عن أعلام علوم اللغة
والنحو والعروض والبلاغة وبالمثل تحدثت عن أعلام علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه
والكلام والتاريخ ، ومع كل علم من هذه العلوم جميعا بيان واضح عن تطوره على مر العصور ،
ومع كل عالم أهم أعماله .

وكان المغرب الأقصى قد أخذ فى التعرب منذ دخول جماهيره فى الإسلام ، وأُسست دولة

الأدارة فى فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م وكانت دولة عربية إسلامية ، فعلمت - بقوة - على تعريب المغرب الأقصى ، وعُتبت بفتح الكتائب فى المدن وتحفيظ الناشئة بها القرآن الكريم وتُشأت فى المساجد حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومن يعلمون الناس العربية ، وبذلك رسخت العروبة ورسخ الإسلام فى المغرب الأقصى . وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف القرن الخامس الهجرى غير أن عشائر قليلة منها تسربت إلى المغرب الأقصى . وبدور الزمن ، وبدخل المرابطون المغرب الأقصى ويطهرونه من الروافض ومن نخلة يرغواطة الضالة وأخذ الأندلسيون فى عهد تلك الدولة يندمجون فى سكان المغرب الأقصى وكان لذلك أثره فى تعريبهم إذ كانت الأندلس عربية خالصة . وينقل عبد المؤمن إلى المغرب الأقصى ألفا من قبائل الأعراب فى الجزائر : من قبائل الأنبج وزغية ورياح وقرة ، امتزجوا بسكانه ، وفى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م استصرخ عبد المؤمن أعراب بجاية والجزائر للجهاد فى الأندلس ولبّاه كثيرون ، ولنفس الغاية دعا ابنه يوسف قبيلة رياح فلباه حشد ضخم منهم ، ونقل ابنه يعقوب بقايا قبائل الأنبج ورياح وجشم إلى المغرب الأقصى: أنزل قبيلة رياح منطقتى الهبط فى الشمال وأزغار فى الغرب وأنزل قبيلة جشم منطقة تامسة فى الغرب والأنجب فى منطقتى دكالة وتادلة ، واتساح كثيرون من هؤلاء الأعراب فى ديار المغرب الأقصى ، وبذلك كله تعرب المغرب الأقصى نهائيا .

ويكثر الشعراء منذ عصر الدولة الإدريسية ويتكاثرون كثرة مفرطة فى عصر دولة المرابطون وما تلاها من عصور ، وعرضت أعلامهم المهمين فى كل تلك العصور وما كان بها من دول ، وتحدثت عن شعراء الموشحات وتلمذة شعراء المغرب الأقصى لشعراء الأندلس فى فن التوشيح وظهور وشاحين مفاربة نلهين ، وترجمت منهم لابن غُرلة وابن الصباغ وابن زاكور ، كما تحدثت عن شعراء الأرحال ، وترجمت من بينهم لابن عمير وابن شجاع التازى . وعرضت شعراء المدبح وترجمت من بينهم لابن زنباع وابن حبوس والجرأوى وابن عبد المنان والهوزالى وأحمد بن القاضى والدغوغى والبوعننى ، كما عرضت شعراء الفخر والمجاء وترجمت للشاذلى ولأصحاب الشعر التعليمى وترجمت لعبد العزيز المازوزى ولبنى الونان . وتحدثت عن شعراء الغزل وترجمت لأبى الربيع الموحدى ولعمر السلى ، وبالمثل تحدثت عن شعراء الوصف وترجمت لعبد العزيز الفشتالى ، وعرضت شعراء الرثاء وترجمت لابن شبيب الجزائى ولبنى على اليوسى الحسن بن مسعود ، وشعراء الزهد والتصوف وترجمت لابن الهللى ، وشعراء المذاهب النبوية وترجمت لميمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

وتركت الشعر إلى النثر وكتبه ، وبدأت بالخطب والمواظع مع بيان أهم الخطباء والوعاظ ، وتحدثت عن الرسائل الديوانية وأهم كتبها مع عرض بعض الرسائل فى مختلف العصور والدول ، وبالمثل تحدثت عن الرسائل الشخصية وعن المقامات وأهم نماذجها وكتبها ، وعرضت

الرحلات المهمة وفى مقدمتها ر. بن رشيد ورحلة العبدري ورحلة العياشى ، وأُلمت برحلات أخرى مختلفة مثل رحلة الوزير الفسلى ورحلة محمد بن عثمان المكاسى ثم ترجمت لكبار الكتاب ، وهم : القاضى عياض وأبو جعفر أحمد بن عطية وابن بطوطة ومحمد بن على الفشتالى ومحمد بن الطيب العلمى .

٣

وتحولت إلى موريتانيا ففرضت جغرافيتها وسكانها من قبائل صنهاجة الصحراوية ونفوذ الإسلام إليهم منذ عتبة بن نافع وقيام إمارة لهم فى أودغشت حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ونزول الشيخ عبد الله بن ياسين بينهم وتسميته لهم باسم المرابطين ودفعه لهم للجهاد فى السودان الغربى وتطهير قائدهم أبى بكر بن عمر للمغرب الأقصى من دعوة الروافض ودعوة قبيلة برغواطة الضالة ، ورجوعه إلى السودان المداوى لنشر الإسلام وتركه المغرب الأقصى لابن عمه يوسف بن تاشفين . وأنقذت دولة المرابطين أو دولة صنهاجة الموريتانية بقيادته الأندلس حين استصرخه أمراؤها ضد نصارى الإيبان. وضّمها إلى دولته . وبذلك يكون لصنهاجة موريتانيا ثلاثة أعمال كبرى : تطهير المغرب الأقصى من الدعوات الضالة وإنقاذ الأندلس من براثن نصارى الإيبان ، ونشر الإسلام فى شعوب السودان بإفريقيا المداوية . ويبدو أن دولة المرابطين فى موريتانيا تفككت بعد وفاة البطل المغوار المجاهد أبى بكر بن عمر ، وتبع بعض مدنها غانة ، وبغى بعض الفقهاء من عاصمتها كومي صالح إلى مدينة ولاته حين غزتها قبيلة الصوصو ، وبالمثل من تنبكو حين غزتها مالى . ويمر بها جيش أحمد المنصور السعدى فى غزوه للسودان المداوى ، وينقل إلى موريتانيا كثيرا من قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها، ويكون لذلك تأثير واسع فى موريتانيا وتعريبها نهائيا ، وتنشأ بين قبائلها وعشائرها حروب متصلة ولا تقوم فيها حكومة منظمة حتى العصر الحديث .

وكان سكان موريتانيا يتألفون من قبائل صنهاجة وعبيدها ، ونزها كثيرا من قبائل المعقل العربية وخاصة قبائل حسان والبرابيش وأوداية ، ويعيش السكان على زراعة الشعير والدخن والقمح ورعى الأنعام متنقلين بها وراء الكلا ، ومن أهم ما يزرعون النخيل ليقطّوا بتمورها ، وأهل المدن والزروع أحسن حالا من أهل المراعى . ولهم مع أهل السودان المداوى تجارة واسعة بالملح ويبيعونه لهم بأثمان مرتفعة ، ذهل لها ابن بطوطة فى رحلته إلى السودان الغربى فى إفريقيا وكأنه لم يكن يعرف مدى حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية فى ديارهم ، وأنه هو الشيء الوحيد الذى يحفظ الماء فى الجسم فلا يتجفّر سريعا . وتلى تجارة الملح فى الأهمية تجارة الصمغ . وليس لهم نقود ، وإذا لم يكن معهم ملح أو صمغ يشترون بهما ما يريدون قدموا

للبائع الثمن أغناما . وصناعاتهم أولية ، ومعيشتهم بدوية ، ولهم سادة وشيوخ وقد تعين القرية أو البلدة قاضيا ، والزواج شرعى مالكي ، والصدقات والجهاز بحسب العرف .

ولم يدخل الإسلام بلدا إلا رافقه التعليم والعلم ، إذ كان المسلمون لا ينزلون بلدا أو يفتحونه إلا أقاموا فيه مسجدا وأخذوا يدعون للإسلام ويحفظون الناس القرآن وينشئون لهم الكتائب ، وتحول الناشئة بعد حفظ القرآن إلى حلقات العلماء فى المساجد يدرسون عليهم شيئا من تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى والفقه كما يدرسون عليهم العربية ، وكل ذلك حدث فى موريتانيا مثلها فى ذلك مثل بقية البيئات الإسلامية ، وقد تحول أهلها إلى مجاهدين فى سبيل الله ينشرون الدين الخفيف ويعلمونه فى السودان الغربى . وكانت تلك حركة دينية تعليمية كبرى لصنهاجة فى القرن الخامس الهجرى وبعده ، وحاولت أن أتعرف إلى علماء موريتانيا قبل القرن العاشر الهجرى الذى استكملت فيه تعريبها بفضل قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها ، وكاتب النساء هن اللاتى يقمن على تحفيظ الصبية القرآن الكريم إلى الثانية عشرة من عمرهن ، وبعد هذه الدورة فى الكتائب يتقلون إلى حلقات الشيوخ . والبلدان تختلف فيما يدرسه الصبى بعد ذلك مباشرة فبلاد تبدأ بالفقه وكبه ، وبلاد تبدأ بالعربية ودواوين الشعر والعقيدة الأشعرية . ولم تكن هناك حكومة تنفق على التعليم ، فكان العلماء مثل الطلاب يعملون لكسب عيشهم . وذكرت أهم الكتب التى كانوا يتدارسونها فى مختلف العلوم والآداب ، وعرضت أعلام العلماء فى قرلة القرآن الكريم وتفسيره وفى الحديث النبوى والفقه وفى العربية وعلم الكلام .

وتحدثت عن تعرب موريتانيا وأنه بدأ بطيئا ، وأخذ فى النمو مع حركة الشيخ عبد الله ياسين ويبدو أن ولاته سبقت غيرها من المدن إلى هذا التعرب بفضل ما قام بها من حركة علمية غير أن الكثرة فى موريتانيا - وربما أيضا فى ولاته - كانت تستخدم اللغة البربرية فى حياتها اليومية حتى إذا انتشرت القبائل الحسانية وأخواتها من قبائل المعقل العربية تم تعربها ولكنها لم تنطق العربية ، إنما نطقت العامية العربية التى كانت شائعة على ألسنة عرب المعقل . وأخذت فى استعراض شعره الموضوعات المختلفة ، وبدأت بشعره المديح ، وترجمت لابن رازكه ومحمد البدالى الديمانى وحرمن عبد الجليل العلوى ، وعرضت شعراء الفخر والهجاء ، وترجمت للمختارين بون ومحمد بن سيدى الأبييرى ، وبالمثل شعراء الرثاء ، وترجمت لباب بن أحمد ييب العلوى . وتحدثت عن شعراء الغزل ، وترجمت للأحوال الحسنى ومحمد بن الطلبة البعقوبى ويقوى الفاضلى ، كما تحدثت عن شعراء التصوف وترجمت للمختار الكنتى والشيخ سيديا ، وعن شعراء المادائح النبوية ، وترجمت لمولود بن أحمد الجواد البعقوبى ومحمد بن محمد العلوى ومحمد بن حنبل الحسنى ، وبالمثل تحدثت عن الشعر والشعر التعليى ومنظوماتهم العلمية .

ومضيت إلى السودان وتحدثت عن جغرافيته وتاريخه القديم وعلاقته بمصر الفرعونية منذ عهد الأسرة الأولى ، وكانت أراضي السودان فى حوض النيل تسمى أرض النوبة ، وبها تكونت ثلاث دول : نوبة شمالية ووسطى باسم مقرة وجنوبية تحت الخرطوم باسم علوة ، وتنصرت هذه الدول معتنقة المذهب اليعقوبى المصرى . وفى سنة ٣١٠هـ/٦٥٢م أرسل إلى النوبة عبد الله بن سعد بن أبى سرح وإلى مصر لعثمان حملة توغلت حتى دنقلة . وأخذت تنزل إقليم البجة شرقى السودان قبائل وعشائر عربية سيطرت على معدن الذهب بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى ميناء عيذاب ، وتغلغل المسلمون فى أرض النوبة لعهد الفاطميين حتى علوة فى الجنوب . وتنشب حروب بين النوبة والماليك وتقوم فى دنقلة أول دولة إسلامية سنة ٧١٦هـ/١٣١٧م وتأخذ المسيحية فى التضاؤل بإقليمها وإقليم علوة . وكان انتشار الإسلام فى غربى السودان أسرع منه فى بلاد النوبة ، نشر هناك تجار الكاثم والبرنو وكتلة ضخمة من قبيلة زواوة البربرية وعرب الشاوية، وتكونت فى إقليمى وادان ودارفور مملكة إسلامية منذ القرن الخامس الهجرى . وتقوم دولة الفونج الإسلامية فى سار أوائل القرن العاشر الهجرى/السادس عشر الميلادى لمدة ثلاثة قرون ، وتتخذ العربية لغة رسمية لها وتحدث فى البلاد نهضة علمية وأدبية وتضعف فى أواخر أيامها . ويفتح محمد على السودان سنة ١٨٢٠م ويضم إليه مينائى مصووع وسواكن على البحر الأحمر ، وأهم من خلفه الخديوى إسماعيل ، وينشئ خمس مدارس فى العواصم الكبرى ويشارك السودانيون فى الحكم ويستولى على مرتفعات إريتريا ، وأخطأ بتعيينه صموئيل يكرثم غردون الإنجليز حاكمين لإقليم منطقة البحيرات فى أعالي النيل . ويقوم المهدي بحركته الدينية الإصلاحية ويدين له السودان بجميع أرجائه ، ويخرج منه الجيش المصرى ، ويتوفى المهدي سريعا ويخلفه عبد الله التعايشى ويتنصر على الحبشة مرارا ، ويمد المصريون خطا حديديا من وادى حلفا إلى أبى حمد ليساعد جيشهم فى تحركاته ضد التعايشى ، وكان يقوده كشنر الإنجليزى ، وتنصر على جيش التعايشى نصرا حاسما فى أم درمان ، وتوفى التعايشى وقام فى البلاد الحكم الثانى المصرى الإنجليزى فى أول سنة ١٨٩٩ للميلاد، وبمقتضى وثيقة سياسية جُمعت مقاليد الحكم فى السودان لحاكم إنجليزى كان أشبه بحاكم مستقل، ووضعت للسودان نظم جديدة للشئون المالية والإدارية والتعليم والقضاء والمصالح الحكومية، وأنشئت كلية غردون حتى إذا كانت سنة ١٩٢٤ للميلاد قامت فى السودان ثورة ضخمة تعد بدءا لعصره الحديث .

ولا نصل إلى القرن العاشر الهجرى حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا ، وإن بقيت بعض جيوب مسيحية ووثنية ، وفسحت دول الفونج الإسلامية للتصوف والصوفية وانتشرت الطريقتان القادرية والشاذلية وعمت النزعة الصوفية فى جميع أرجاء السودان . وكانت للمرأة السودانية

مكانة مهمة اجتماعية وروحية ، فكانت تحضر دروس العلماء وحلقات الصوفية وتنظم بين مريديهم وتشد أحياناً فى حلقات الذكر . وكان بعض الصوفية يتشدد فى العهد الذى يلزم به أتباعه كعهد أحمد ود مريم الذى يدل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية خلقية قوية . وشجع محمد على الطرق الصوفية المصرية على أن ترسل بعض دعائها إلى السودان . وأرسل الشيخ أحمد بن إدريس الصوفى المكى أحد دعائه إلى السودان وهو محمد عثمان الأميرغى ، فنشر طريقته من وادى حلفا إلى دنقلة وفى كردفان . ونزلت السودان طرق صوفية كالطريقة السماتية ، وهى فرع من القادرية . وظهر المهدي بطريقة جديدة دعا فيها إلى ستة مبادئ هى : الزهد ، والعمل بالشريعة المحمدية ، والأخذ بالبساطة فى الحياة ومتاعها ، ونيل جميع الطرق الصوفية ، ونيل كعب التحل الدينية وكعب فقهاء المذاهب الأربعة ، والهجرة إلى مراكز دعوته . وظلت هذه المبادئ حية فى عهد خليفته التعايشى وانتهت الدعوة بوفاته . وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها القديم .

وكانت الناشئة فى السودان تحفظ القرآن الكريم فى الكتائب والخلوات ، وتنقل بعد ذلك إلى دراسة العلوم بالمساجد والزوايا على شيوخ بلغت حلقات بعضهم ألف طالب أو تزيد ، وظلت الحركة العلمية فى عهد دولة الفرنج نشيطة بل مزدهرة وأرخ لها ود ضيف الله فى كبله الطبقات ، وفيه ترجم لنحو مائتين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وأفاض فى ذكر من درسوا من علماء السودان فى الأزهر والمدينة بالحجاز كما أفاض فى ذكر علماء الأزهر الذين رحلوا إلى السودان لتعليم أبنائه شريعة الإسلام وعلوم العربية والكلام والأصول والمنطق . ولما فتح محمد على السودان شجع علماء الأزهر على الهجرة إليه ، ويقال إنه شجع بعض الطلاب السودانيين على الالتحاق بمدرسة المتبدان ، وأنشأ الجامع العتيق بالخرطوم ليكون معهداً دينياً كبيراً على غرار الأزهر ، وأنشأ خليفته وحفيده عباس الأول مدرسة بالخرطوم جعل ناظرها رفاعة الطهطاوى ، وأغلق المدرسة سعيد خليفته ، غير أن إسماعيل أمر بإنشاء خمس مدارس فى عواصم المديرية ومدرسة سادة فى مدينة سواكن . ووقف المهدي هذا النشاط التعليمى حتى إذا قام الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى عاد وزداد إذ أنشئت كلية غردون وكثرت المدارس الحكومية وغير الحكومية وأنشئت مدارس أولية ووسطى فنية ، وأنشئت مدرسة للبنات ثم أربع أخرى ، وتعددت مدارس الإرساليات الدينية ، وأنشئ معهد دينى فى أم درمان ، ونما التعرف على الثقافة الغربية الحديثة وتعلم اللغات الأجنبية وخاصة الإنجليزية ، وأنشئ نادى للخريجين تبارى فيه الخطباء ، ينادون بالإصلاح الاجتماعى والسياسى .

وكان أول نزول للعرب المسلمين بالسودان فى حلة وجه بها عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى الخليفة عثمان على مصر ، وتوغلت الحملة - كما ذكرنا - حتى دنقلة وأخذ كثير من قبائل

العرب وعشائرها ينزل بين قبائل البجة في شرقي السودان وأسلمت منها قبيلة الحدارب كما ذكر ذلك المسعودي في القرن الرابع الهجري ، وظل الإسلام - ومعه العربية - ينتشر في قبائل البجة ببطء ، وبالمثل في بلاد النوبة . أما في الغرب فكان العرب سريعا بفضل الكلفة الضخمة من قبائل زواوة البربرية وشاوة العربية النازلة في دارفور بالقرن الخامس الهجري . ونشرت دولة الفونج العربية في ربوعها ، وبالمثل مملكة تغل في جبال النوبا وسلطنة دارفور وفي كردفان . ولا نصل إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حتى يكون السودان تعرب ما عدا بعض الجبال الشاهقة في أقصى الغرب ومنطقة الغابة في الجنوب وقبيلة الأمرار البجاوية . وعرضت شعراء المدح وترجمت للشيخ حسين زهراء والشيخ محمد عمر البنا ، وشعراء الفخر والحماة وترجمت للشيخ يحيى السلاوي السوداني ولعثمان هاشم ، كما عرضت شعراء رثاء الأفراد وترجمت للشيخ محمد سعيد العباسي وبالمثل شعراء رثاء المدن . وتحدثت عن شعراء الغزل وترجمت للشيخ أبي القاسم أحمد هاشم ، وعن شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن ، وترجمت للشيخ عبد الله البنا وصالح عبد القادر ، وعرضت شعراء التصوف وشعراء المدايح النوبة ، وترجمت للشيخ عمر الأزهرى والشيخ عبد الله الرحمن . ولم أؤرخ للنثر الأدبي السوداني قبل العصر الحديث إذ تكرر فيه الألفاظ العامة في عصر الفونج ، وكُتبت بعض رسائل فصيحة في القرن التاسع عشر ، ولكنها من القلة بحيث لا يتيح لباحث دراسة خصبة فيها . وقد تأخرت نهضة النثر السوداني حتى عصر السودان الحديث إذ نشأت فيه المقالة الأدبية والأقصوصة والقصة والمسرحية .

ومصادر ومراجع كثيرة قديمة وحديثة أفدت منها فوائد شتى في تأليف هذا الجزء ، وخاصة ما كبه الأعلام المعاصرون في كل بلدة من البلدان عن الحياة الأدبية فيه ، إذ كان لي منارات تهديني الطريق . وبذلك انتهت هذه السلسلة المستوعبة بأجزائها العشرة دراسة تاريخ الأدب العربي وأعلامه من الشعراء والكتاب قبل العصر الحديث ، وعيت بأن أعرض لكل أديب روائع أدبه . وذكرت بجانب ذلك أعلام الفلسفة والعلوم المتنوعة من علوم الأوائل والعلوم الإسلامية وعلوم العربية والتاريخ في كل بلد عربي على مر الزمن . وبذلك تحمل هذه الموسوعة تاريخ الأمة العربية الأدبي والفلسفي والعلمي والحضاري قبل العصر الحديث ، مبتغيا بذلك خدمة العروبة والإسلام ، والله ولي المحدث والتوفيق .

القاهرة في أول سبتمبر سنة ١٩٩٥م

شوقي ضيف

القسم الأول

الجزائر

الفصل الأول الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

توسط الجزائر فى الشمال الإفریقی بین المغرب الأدنى : تونس شرقا والمغرب الأقصى : مراكش غربا ، ولذلك سماها جغرافيو العرب المغرب الأوسط . ويحدها شمالا البحر المتوسط ويمتد عليه ساحلها نحو ١٢٠٠ كيلومترا ، وهو ساحل صخرى حجرى ، ولذلك ثقل عليه - بل تنعدم - الخلجان العريضة ، وعلى منعطفات فيه أو خلجان صغيرة نشأت موانئ الجزائر ، وأهمها من الشرق إلى الغرب عنابة (بونة قديما) فأسككدة ، فجيغل ، فبجاية ، فدلّس ، فالجزائر (المدينة) فشرشال ، فتنس ، فآزرو ، فوهران ، فالمرسى الكبير .

وتلى الساحل من الشرق إلى الغرب جبال أهدوغ المشرفة على عنابة ، ثم زكار والظهرة بين مدينة الجزائر وميناء أزرو ، ثم الطرارة إلى الغرب . وجنوبى تلك الجبال تمتد من الشرق إلى الغرب سلسلة جبال الأطلس التلى بادية بجبال مجردة ، فجبال الباور ، فجبال الجرجرة شمالا والبيان جنوبا ، فجبال تيطرى وشمالها جبال مدينة البليدة ، ثم جبال الونشريس ، فجبال سعيدة ، فجبال الضاية ، فجبال تلمسان . وتكتظ مناطق تلك الجبال بسهول واسعة وعيون ونهيرات وبعض أنهار ، مما جعلها أوسع مناطق الجزائر عمرانا ، وإذا كان ساحل الجزائر يتميز بكثرة حدائقه وبساتينه فإن تلك المناطق التلية تتميز بغلاتها وزروعها وأشجارها المثمرة ومن أهم مدنها قالة وقسنطينة فى الشرق ، ومليانة جنوبى شرشال وتلمسان فى الغرب .

وتمتد جنوب هذا الأطلس التلى هضبة كبيرة ، وهى قفار واسعة ينبت بها شجر الخلفا وعشب كثير فى الربيع فتؤمها قطعان الأغنام والماشية من الجنوب للرعى حتى اقتراب زمن الشتاء ، فتسحب إلى ديارها ومواطنها جنوبا . وتطوق الهضبة سلسلة جبال الأطلس الصحراوى ، ومن أهم أجزائها شرقا جبال أوراس ، وإلى الشمال من تلك الجبال جبال

لاين حوئل وكتاب الجزائر للأستاذ أحمد توفيق المدنى
(طبع الجزائر) وكتاب تاريخ الجزائر لمبارك الخليل (طبع
الجزائر) ص ٢٧ وما بعدها ومادة الجزائر فى دائرة
المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى جغرافية الجزائر كتاب المغرب فى ذكر
بلاد إفريقية والمغرب لأبى عبد البكرى وصفة المغرب
وأرض السودان ومصر والأندلس (مقتبس من نزعة
المشتاق للإدريس) طبع ليدن ، وكتاب صورة الأرض

الحضنة ، وأُنشأ في أحد سهول «خليفة الفاطمي المهدي مدينة المَسيلة (المحمدية قديما)
وشرقي سهلها خرائب مدينة طَبْنة عاصمة الزاب أيام الدولة الأغلبية التونسية ، وإلى الجنوب
من المسيلة قلعة بنى حماد عاصمة دولتهم . وإذا مضينا بعد جبال الأوراس غربا في سلسلة
جبال الأطلس الصحراوية لقينا جبال الجلفة ، فجبال عمور ، فجبال القصور . وجبال هذه
السلسلة أعلى وأضخم من جبال الأطلس التلي وكثير منها جبال جرداء .

وإذا انحدرنا من هذه الجبال نحو الجنوب لقينا الصحراء الكبرى ، ويسمى القسم الشرقي
منها أرض تُقَرَّت ، وبه واحات متناثرة تكتظ بالنخيل وبعض الأشجار المثمرة ، وإلى الغرب
من هذه القسم الصحراوي الشرقي أرض ميزاب وعاصمتها غرداية ، وهي أكثر جديبا من
القسم الشرقي ، وإليها هاجر الإبااضيون حين دالت دولتهم في تاهرت ، وقد حفروا بها آلاف
الآبار ، وأحالوا بقاعا منها كثيرة إلى واحات غنية بالنخيل والحدائق والبساتين ، وبذلك بثوا
فيها غير قليل من الحياة والحضارة والعمران .

والأمطار تبدأ في الجزائر منذ شهر أكتوبر وتزخر في شهر يناير بالمنطقة الساحلية ومنطقة
الأطلس التلي ، وتأخذ في القلة بالمهضة الوسطى بين سلسلي جبال الأطلس التلية والصحراوية ،
وتكاد تنعدم في أكثر أجزاء الأطلس الصحراوي وجنوبه في الصحراء الكبرى . ولقلة الأمطار
داخل الجزائر لم تتكون بها أنهار كبيرة ، إنما تكونت غالبا نهيرات ومجار للمياه قصيرة ،
وهي جميعا لا تجرى إلا في الشتاء فضل الأمطار، ومنها مايتجه إلى البحر المتوسط ، وقد تتجه
إلى البحيرات المالحة في الهضبة أو إلى الصحراء حيث تغيب في طبقات الرمال . وأهم أنهارها
مجردة في الشرق ، وينبع من الجبال المتاخمة لإقليم الزاب ، وهو كثير المنرجات في مجراه
الجلي ، ويخترق شرقي الجزائر متجها إلى الديار التونسية حتى مصبه بالقرب من قرطاجة في
البحر المتوسط ، ويعد نهرا تونسيا أكثر منه جزائريا لمسيرته الطويلة في الديار التونسية . وأطول
أنهار الجزائر الداخلية نهر شلف وينبع من جبال عمور في الأطلس الصحراوي ، ويتجه إلى
الشمال ، وترفده نهيرات كثيرة ، ويخترق منطقة الأطلس التلي ، ويتجه شرقا ثم يغير اتجاهه
إلى الشمال ، وعند مدينة مليانة جنوبي شرشال يتجه إلى الغرب حتى مدينة مستغانم ويصب
في خليج أزرو . ووراء هذين النهرين الكبيرين نهيرات كثيرة أو أنهار ومجار صغيرة منها
نهر سيوز التابع من الجبال المتاخمة لقسنطينة ويصب في البحر المتوسط بالقرب من عنابة ،
ونهر العروش ومصبه بالقرب من إسككدة ، ونهر الرمل أو الوادي الكبير ويرفده بومرزوق
المخترق لقسنطينة ويصب شرقي جيجل ، ونهر الصمام ومصبه بالقرب من بجاية .، ونهر
حميز ومصبه في خليج مدينة الجزائر ، ونهر الحراش ويخترق سهول المتيجة ومصبه قريب من
مدينة الجزائر إلى غير ذلك من نهيرات ، كلها غير صالحة للملاحة . والنهيرات الداخلية ، منها

نهر جدى الذى يمر بمدينة الأغواط ويصب فى بحيرة ميغليخ، ونهر ميا ومصبه سبخة ورقلة إلى غير ذلك من نهيرات داخلية ، وتوجه إلى الصحراء الكبرى نهيرات كثيرة، تغيب فى الرمال ومنها تنبع فى الصحراء الآبار الفوارة الارتوازية.

وراء المواتى على الساحل سهول تُعد لنمو أشجار النارج والليمون والفواكه ، وفى الأطلس التلى سهول واسعة متقطعة ، تزرع بها الحبوب والفروس ، وأكثر سكان الجزائر يعيشون من خيراتها . وتتسع السهول جنوبى عنابة ومدينة الجزائر وفى تلمسان ، وتزرع الحبوب فى وديان الأطلس التلى ، ومن أهم مناطق زراعتها شرقى الهضبة بين ذراعى الأطلس التلى والأطلس الصحراوى ، وبالمثل منطقة وهران والقسم الغربى من الجزائر . ولاختلاف الطقس فى الجزائر تلقاك على جبالها وسفوحها أشجار مختلفة ، ففى السفوح النخيل ، وفوقها أشجار الفواكه من مثل التين والخوخ ، وفى أعلاها أشجار الزيتون والنقل . وتشغل الغابات مساحات شتى فى الأطلس التلى وجبال أوراس الصحراوية ، وعليها جميعا فى أماكن مختلفة تترأى أشجار القرو والأرز والصنوبر وخاصة فى جبال الأوراس والونشريس . ويكثر النخيل فى الواحات ومعه بعض الفواكه وخاصة فى بسكرة . وفى الهضبة بين ذراعى الجبال التلية والأطلسية الصحراوية بحيرات عدة ، من أهمها بحيرة الحضنة .

والطقس على الساحل الجزائرى معتدل مثل سواحل البحر المتوسط عامة ، والسهول الداخلية وراء وهران حارة جائه . وجبال الأطلس التلى معتدلة صيفا باردة شتاء ، والثلوج تنوج الجبال أحيانا فى الشتاء ، وتتجمد المياه فى قسنطينة نحو شهرين كل عام . ومناخ الهضبة بين ذراعى الجبال التلية والصحراوية قارى ، شديد البرد شتاء شديد الحر صيفا . ومناخ جبال الأطلس الصحراوية والنواحي الجنوبية المنحدرة منها والمترامية فى الصحراء شديدة البرد شتاء ، وتشتد الحرارة فى الصحراء بالصيف شدة لا تطاق .

٢

التاريخ^(١) القديم

يتوغل تاريخ الجزائر فى العصور القديمة السحيقة إلى آماذ بعيدة ، ويأخذ هذا التاريخ فى الجلاء والوضوح مع ارتياد الفينيقيين الشاميين لسواحل إفريقيا فى القرن العاشر قبل الميلاد وقبله وبعده بحثا عن مواقع تصلح لرسو سفنهم التجارية ونزولهم بها لتبادل سلع التجارة مع

وتاريخ الجزائر القديم والحديث لمبارك الحلى : الكتاب الأول فيه وأبوابه الثمانية .

(١) انظر فى تاريخ الجزائر القديم والحديث تاريخ المغرب الكبير لعمد على ديز (طبع بالقاهرة) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المنى (طبع دار المعارف بالقاهرة)

السكان . وكانوا شعبا ملاحيا متحضرا عريقا يحترف التجارة ، ومضوا طويلا يتعرفون على المواقع التي تلائمهم فى سواحل إفريقيا ، وبحرور الزمن ودوراته المتعاقبة أقاموا مدينة قرطاجة بالقرب من مدينة تونس الحالية ، ونزلت فيها منهم جالية فينيقية كبيرة ، وأداهم البحث عن أماكن صالحة مماثلة فى شمالى الجزائر لتبادل السلع مع السكان إلى موقعين مهمين هما بونة (غلبة الحالية) وجيجل ، وأضافوا إليهما - فيما بعد - مواقع أو مدنا جديدة هى إسكيكدة وبجاية وشرشال ، واتخذوا من سكانها جميعا إدارات تدعى لهم بالولاء ، واختلطوا بهم وبثوا فيهم حضارتهم الفينيقية ، ونقلوا إليهم - كما نقلوا إلى قرطاجة وإقليمها - من ديارهم الأصلية فى الشام أشجارا متنوعة من الفاكهة والنفل ، وعلموا كثيرين من أهل الجزائر لغتهم وما استحدثوه من حروف الكتابة الفينيقية التي نشروها فى العالم القديم .

ولما نشبت الحرب بين قرطاجة وروما وظلت طويلا من سنة ٢٦٤ حتى سنة ١٤٦ قبل الميلاد استطاعت روما أن تستميل سكان الجزائر وملكهم ماصينصا ، حتى إذا علت كفتهم فى الحرب وتغلبوا نهائيا على القرطاجيين فرضوا على الجزائر وماصينصا ملكها الولاء لهم ، ورضخ إلى أن قضى نحب ، وخلفه ابن أخته يوغورطة وكان بطلا مغوارا ، فثف من التبعية للرومان ونازلهم مرارا ، غير أن صهره ملك موريثانيا خاته وسلمه إليهم سنة ١٠٦ قبل الميلاد . وحكم بعده ملوك أو أمراء جزائريون كانوا يعدون موظفين رومانيين أكثر منهم حكاما جزائريين ، ومن أهمهم يوبا الأول وابنه يوبا الثانى الذى نشأ فى روما حتى أصبح كأنه مواطن روماني ، وجعلوه ملكا على نوميديا أخذوا من اسم كان يطلقه الجزائريون على القسم الشرقى من ديارهم أو لعله اشتق من لفظة نوماد الإغريقية وتعنى الرعاة الرحل ، واتخذ شرشال عاصمة له ، وضموا إليه - فيما بعد - موريثانيا الشرقية والغربية من وهران فى غربى الجزائر إلى أقصى بلاد المغرب على المحيط الأطلسى ، ولم يلبث الرومان بعده أن ضمّوها إلى إمبراطوريتهم ، وأخذوا يولون عليها حكاما رومانيين تابعين لروما أو لحاكم قرطاجة الكبير . وتوغلوا فى ديارها جنوبا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ماأسوسه من مدن فى الداخل إلى مسافات بعيدة عن الساحل مثل تبة الواقعة على بعد ١٥٠ ميلا جنوبى جيجل وبها أطلال لمبنى كان يقوم على أعمدة رخامية ، ويقول الحسن الوزان : على تلك الأعمدة كتابات لاتينية ، وكان اسمها الرومانى نيفسته ، وفى شمالها الشرقى واحة بسكرة ، واسمها الرومانى فيسكرا وهى قرية جزائرية عتيقة . وجنوبى بسكرة نقطة وبها آثار وأطلال رومانية ، وإلى الجنوب من جيجل فى الداخل قسنطينة وكان اسمها أيام الفينيقيين سرتا ، وكانت بها أسرة سيفاكس التي أسست لها مملكة فى الجزائر ، ومنها انحدر ماصينصا الذى وضع يده فى يد الرومان - كما أسلفنا - للقضاء على القرطاجيين ، وخربت سرتا فى بعض ثورات الجزائريين على الرومان ، وأعاد الرومان بناءها فى عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) . وسموها قسطنطينة وسمّاها العرب قسنطينة ،

والأطلال والآثار الرومانية كثيرة في مدن الجزائر الداخلية . وأرهُق الرومان الجزائريين طوال حكمهم بـصور شتى من العسف والظلم والضرائب الفادحة مع نهب طيات الأرض من الحبوب والزيتون . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمي أخذت في نشرها بإمبراطوريتها والجزائر ، وساعد على انتشارها فيها الجاليات والأسر الرومانية التي استوطنت المدن الجزائرية ، فبنيت الكنائس والأسقفيات في غير مدينة لا في المدن الساحلية فحسب ، بل أيضا في المدن الداخلية مثل قالمة جنوبي عنابة (بونة قديما) وبها آثار رومانية ، ومثل بسكرة وكان بها أسقفية ، واشتهر في تلك المدن بعض القديسين مثل أوغسطين قديس بونة في القرن الرابع الميلادي ، ويُعدُّ بمواعظه ومؤلفاته من أكبر آباء الكنيسة ووعاظها البارعين .

ومع نهاية العقد الثالث للقرن الخامس الميلادي تكسح البلاد موجات الوندال التي قضت على الدولة الرومانية الغربية ، وتظل نحو مائة عام تخرب في الجزائر وتدمر كل ما أسسه بها الفينيقيون والرومان من منشآت العمران والحضارة إلى أن خلصتها منهم الدولة البيزنطية سنة ٥٣٤ للميلاد على يد القائد البيزنطي المشهور بليزير ، وأصبحت الجزائر - من حيثذ - تابعة لتلك الدولة ، ولم تحاول أن تنشر بها لغتها اليونانية على نحو ما نشر بها الرومان لغتهم اللاتينية وظلت هي المسيطرة في البلاد طوال العهد البيزنطي . وكان عهدهم لا يقل عسفا وظلما عن عهد الوندال ومن قبلهم الرومان ، وكنوا يحكمون الجزائر بولاة تلبعين لحاكم قرطاجة الكبير الملقب بالطريق ، وكان اسمه بأخرة من عهدهم جريجوريوس ، وسماه العرب جرجير ، وحين رأى ضعف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب منها على أكبر دُرُوتين في تاجها : الشام ومصر صمَّم على الاستقلال عنها بما تحت يده من إفريقية التونسية والجزائر وقامت خصومة عنيفة بينه وبين الدولة البيزنطية وخلق طاعنها وضرب الدنانير باسمه .

٣

الفتح والولاء - الأغالة - الإماضية - تلمسان (أ) الفتح^(١) والولاء

بينما جريحوريوس غارق في حلمه بتكوين دولة له مستقلة في البلاد المغربية إذا عمرو بن العاص والى مصر لعمر بن الخطاب يقدم على رأس جيش عربي مجاهد في سبيل الله لتعقب الروم في برقة وديار المغرب تأمينا لحدود مصر في أواخر سنة ٢١ للهجرة ، وسرعان ما يستولى على برقة وزويلة حاضرة فزان سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢ م وبعد أن رتب شئون الحكم فيهما تقدم غربا

للبلادى ومقدمات كتاب رياض النفوس للملكى،
والجزء الثانى من تاريخ المغرب الكبير لعمد على دوز
وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمارك بن عمدة الحلى.

(١) انظر فى الفتح والولاء: فزوح مصر والمغرب لابن
عبدالحكم والمكامل فى التاريخ لابن الأثير، والبيان المغرب
لابن عذرى، وتاريخ ابن خلدون، وقروح البلدان

فتفتح طرابلس سنة ٢٣ هـ/٦٤٣ م . ويعود عمرو إلى مصر ويتوفى الخليفة عمر ويخلفه عثمان فيولى على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ويستأذن عثمان فى غزو إفريقية التونسية ، وأذن له ، وانضم إلى جيشه بعض أبناء كبار الصحابة ، ودق الجيش أبواب إفريقية التونسية سنة ٢٧ هـ/٦٤٧ م واستولى على مدينة قابس . وكان جريجوريوس قد عرف أن العرب لابد أن يمزوا دياره وكان قد ترك عاصمته قرطاجة واحمى بمحصن أنشأه الروم فى الداخل جنوبى القيروان يسمى سبيلة خوفاً من أن يهاجمه بقرطاجة أسطول الروم ، وجمع إليه جيشاً ضخماً من الروم وغيرهم استعداداً لمنازلة العرب وسرعان ما أداروا معه معركة حامية ، ودارت عليه وعلى جيشه الدوائر وقتل فى المعركة ، قتل عبد الله بن الزبير ، وكانت معركة حاسمة ، قضت على الروم فى إفريقية التونسية وضحت بلداتها أبوابها للجيش العربى إلا ما كان من قرطاجة فقد ظلت بها حامية رومية ، ورجع ابن أبي سرح إلى مصر وترك عليها نافع بن عبد القيس الفهرى ، ويولى عليها عثمان سنة ٣٤ للهجرة معاوية بن حُديج ، ويبدو أنه عاد منها أيام فتنة عثمان ، وأعادها إليها معاوية بن أبي سفيان ، فنازل الروم فى بنزرت وركبوا البحر فأرغن ، وولاهها بعده معاوية عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ/٦٧١ م وكان قد شهد فتح برقة وطرابلس وقابس والديار التونسية ، وكان قائداً حريئاً ممتازاً بعيد النظر ، فرأى أن يتخذ لجيشه العربى مدينة تكون مستقراً له وداراً لا يرحها ، وأخذ توا فى بناء مدينة القيروان أى المعسكر وأتمها سنة ٥٥ هـ/٦٧٦ م وبنى بها المسجد الجامع ودار الإمارة ودوراً لقواده وجنوده ، وبنى حولها سوراً منيعاً ، وأصبحت عاصمة للمغرب . غير أنه لم يلبث أن عُزل ووُلّى المغرب بعده أو بعبارة أدق إفريقية التونسية أبوالمهاجر ، وصمم على فتح نوميديا أو القسم الشرقى من الجزائر ، وتقدم فيه بجيشه حتى بجاية ، وواصل سيره إلى مورتانيا الشرقية حتى تلمسان ، وهو ينشر الإسلام ، وسكان الجزائر يقبلون عليه .

ومضى يتغلغل فيها وكانت الزعامة بها حينئذ لقبيلة أوربة ورئيسها كسيلة ، وكان قد جمع الجموع من البربر والروم ، والتقى به أبوالمهاجر فى تلمسان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انتهز فيها جيش كسيلة ، ووقع فى الأسر ، فعامله أبوالمهاجر معاملة كريمة جعلته يعتنق الإسلام ، وأخذت أفواج من قبيلته الكبيرة تدخل فيه . وعُزل أبوالمهاجر سنة ٦٢ هـ/٦٨٣ م وتولّى مكانه عقبة بن نافع ، وكان قائداً حريئاً بأسلاً ، غير أنه لم يكن سيوساً ، فأساء إلى كسيلة مما جعله يصرُّ على الانتقام منه ، واستخلف عقبة على القيروان زهير بن قيس البلوى وخرج إلى الجهاد فى سبيل الله ، فاتحهم بلاد الزاب فى وسط الجزائر بحالفه النصر ، ومضى يفتح بقية الجزائر والمغرب الأقصى حتى طنجة قاعدته ، وضع السوس الأدنى والأقصى واتجه إلى المحيط قبل قواثم فرسه منه ، ونادى ربه قائلاً : « اللهم إني أشهدك نبي وصلت برأية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبد أحد سواك » وفى عودته رصده كسيلة وقومه ، حتى

إذا تقدم جيشه وبقي في جمع قليل حاصره واستشهد البطل المغوار هو ومن معه سنة ٦٣هـ .
ومضى كسيلة بجموعه حتى استولى على القيروان ونصب نفسه ملكاً على البلاد ، وتراجع
زهير بن قيس إلى برقة منتظراً لمدد ضخم ، وكان قد توفي يزيد بن معاوية واضطربت الأمور
حتى إذا أصبح زمام الخلافة بيد عبد الملك بن مروان أرسل إليه جيشاً وولاه على المغرب سنة
٦٩هـ/٦٩٠م وواقع كسيلة ، وأُقر الله نصره عليه وعلى المسلمين وقُتل في الواقعة كسيلة
المرتد الباغي الأثيم . ورأى زهير بعد هذا النصر العظيم أن يعود إلى المشرق ، وبينما هو في
نفر قليل من أصحابه عند برقة - وقيل عند طرابلس - إذ هو يرى بعض سفن الروم وهم
يسوقون أمامهم بعض المسلمين فنزلهم وكسبت له عند ربه الشهادة .

وفي سنة ٧١ يرسل عبد الملك بن مروان إلى المغرب حسان بن النعمان أحد ولادة القيروان
العظام في القرن الأول الهجري ورأى في بدء حكمه بثاقب بصيرته أن البلاد لن تهدأ ما دامت
قرطاجة لم تستسلم وما دامت بها الجالية الرومية الكبيرة التي تنزلها ، والتي تتجسس منها لحساب
بيزنطة والتي تميت وتفسد في البلاد موعرة صدور البربر على العرب بكل وسيلة ، فحاصرها
وافتحها وفرت كثرة الروم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وهدم أسوارها حتى لا يتجمعوا فيها
مختبئين مرة ثانية ، وطهر ميناء بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم ، وفرض الجزية على
من بقي على دينه المسيحي منهم ومن البربر . ومنذ أوائل عهده اشتعلت فتنة كبرى بقبيلة جراوي
من قبائل زناتة بجلال أوراس في الجزائر بزعماء كاهنة هناك ، ونازها بجيش جرار قرب باغاية
شمالى جبال الأوراس وتهزم المسلمون وطاردتهم حتى قابس ، ومكث بمدينة سرت في ليبيا
خمس سنوات ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك ، وجاءه مدد ضخم سنة ٨٠ واشتعلت مع
الكاهنة في حرب ضروس بجلال الأوراس ، حتى كانت الموقعة الفاصلة فانهزمت الكاهنة مع
جيشها ، وولت وجهها نحو تبسة هاربة ولحقها كتيبة فتكت بها ، واستأنم إليه من بقي من
جيشها على الإسلام فأنتمهم وأنس سكان أوراس الجزائريين جميعاً على أن يكون منهم اثنا عشر
ألفاً مجاهدين معه ، فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم وولّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه من
جراوي وعلى جبل أوراس ، وأكرمهم وأكرم أبناء الكاهنة ، فملك قلوب الجزائريين وساد الأمن
والهدوء . وكان حسان سيوسا ، فنظم البلاد تنظيماً إدارياً ومالياً محكماً إذ دون الدواوين :
ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل . وأصلح القنوات للرى ، وأقام لإفريقية التونسية
ميناء جديداً ليكون قاعدة لأسطول لها يحمى السواحل من غزوات الروم ، مما جعله ينشئ مدينة
تونس ، ويلحق بها دار صناعة كبرى ، وسرعان ما أنشأ أسطولاً ضخماً وضرب للبلاد سكة
جديدة .

وخلفه موسى بن نصير سنة ٨٦ فعمل على استكمال نشر الإسلام في ربوع المغرب ،
وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ثم قام بمحلمة الكبرى فأكسح بلاد المغرب حتى طنجة وإقليم

السوس ، وولى على طنجة طارق بن زياد مولاه البربرى . وكان يترك فى النواحي التى لم يتم إسلامها من يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم كثير من البربر فى أيامه . وأتم التنظيم الإدارى لبلدان المغرب ، فقسمه إلى ولايات ولكل ولاية قاعدتها وحاكمها ، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة ، وغربى المغرب الأوسط (الجزائر) عاصمته تلمسان ، وشرقى المغرب الأوسط (إفريقيا التونسية ونوميديا الجزائرية وطرابلس) عاصمته القيروان ، وجعل لبلاد السوس جنوبى المغرب الأقصى ولاية مستقلة عاصمتها سجلماسة ، وجعل إقليم برقة ولاية مستقلة عاصمته برقة . وقام بعمل عظيم مع مولاه طارق والى طنجة إذ فتحا إسبانيا ونشرا الإسلام بها فى إقليمها الجنوبى والأوسط المسمى - فيما بعد - باسم الأندلس ، وهو شرف للبطالين لا يماثله شرف .

وعزل الخليفة سليمان بن عبد الملك قصير النظر موسى بن نصير . ويعد عهد موسى بن نصير نهاية الفتح العربى للربوع المغربية ونشر الإسلام فى جميع أرجائها . وقد خلفه محمد بن يزيد مولى قريش سنة ٩٧ للهجرة وكان حسن السيرة - كما يقول الرقيق القيروانى - عادلا رفيقا كل الرفق بالرعية . وبصبح عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين سنة ٩٩ فيصلح أداة الحكم فى الدولة ، ويوصل إلى إفريقيا والقيروان بعثة من عشرة فقهاء ليعملوا على نشر الدين الحنيف فى الديار المغربية واختار أحدهم وهو إسماعيل بن عبيد الله حفيد ثمى المهاجر والى القيروان بن فترتى عقبه بن نافع الذى فتح المغرب الأقصى ونشر به الدين الحنيف ، وكان الحفيد مثل جده تقوى وسياسة حكيمة ، فأصلح الجباية بالمغرب وسوى فيها - كما أمر عمر بن عبد العزيز - بين البربر والعرب ، وعمل بقوة - مع زملائه الفقهاء التسعة الذين أرسلهم معه عمر - على نشر الدين الحنيف فى المغرب ، ودخله منهم أفواج لا تكاد تحصى . وتوفى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ للهجرة ، وخلفه يزيد بن عبد الملك ، فعاد ولاته إلى الخسف والظلم فى جمع الضرائب والأموال من الولايات المغربية ، وقد اختار للمغرب يزيد بن ثمى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ فسل المغرب بسياسة الحجاج الفاشعة التى قامت على التفرقة بين العرب والموالى المسلمين فى العراق ، غير ملاحظ أن أهل المغرب من البربر انتظموا فى سلك الجيوش التى أتمت فتح المغرب الأوسط والأقصى وأنهم كانوا الأكثرية فى الجيش الذى فتح إيبريا وأدخل الشطر الأعظم منها فى الدين الحنيف ، وبذلك أصبحوا - بالقياس إلى العرب - رفقاء سلاح وجهاد ، ولم يلبث البربر أن أجمعوا على قتله ، فقتلوه سنة ١٠٣ للهجرة ، وكان ذلك درسا ليزيد بن عبد الملك ، فولى على المغرب فى نفس السنة بشر ثمن صفوان الكلبي ، وكان رءوفا بالرعية ، وأرسل حملة من العرب وإخوانهم البربر لغزو صقلية سنة ١٠٧ وعادت الحملة بخنائم وفيرة ، وتوفى سنة ١٠٩ للهجرة ، فولى هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمى سنة ١١٠ وأخذ البربر بالرفق والمعاملة الحسنة ، وأرسلت

حملة إلى صفلية وعادت في ربيع عاصفة ففرقت كثرة منها . وتولى بعده عبدالله بن الحبحاب سنة ١١٤ للهجرة ، فأعاد بناء جامع الزيتونة بتونس الذي بناه حسان ، ولم يلبث أن أساء السيرة هو وعماله في جميع أنحاء المغرب ، إذ تشددوا في جمع الخراج وجباية الأموال من البربر ، ورفضوا - في إصرار غريب - التسوية بين العرب والبربر في الشئون المالية كما تقتضى بذلك شريعة الإسلام ، وبلغ من تهور عامل طنجة عمر بن عبيد الله المرادى وسفهه أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضي البربر زاعماً أنهما آثما أنها فتىء للعرب وغنائم حرب لهم . وكان طبيعياً أن يثور البربر على هذه السياسة الغاشمة الظالمة ، وكان دعاة الخوارج صُفْرِيَّةً وإباضيةً قد أخذوا ينشرون في المغرب مبادئهم التي تحتم التسوية بين العرب والموالى المسلمين في جميع الشئون المالية وفي الخلافة فهمى حق لجميع المسلمين بحيث يتولاها أكفأهم جميعاً عرباً وموالى . واعتنق البربر في جيل نفوسة بلبيا العقيدة الإباضية المعتدلة التي لا يكفر أصحابها إخوانهم المسلمين ولا يقاتلونهم إلا إذا بادروهم بالقتال ، بينما اعتنق المغرب الأقصى عقيدة الصُفْرِيَّة الذين يكفرون غيرهم من المسلمين ويوجيون على أنفسهم حربهم ، وترغم الدعوة لتلك العقيدة بالقرب من طنجة على المحيط بربرى من قبيلة مضفرة البُثْرِية يدعى ميسرة ، وبإيعامه البربر واتخذوه إماماً لهم ، وكوّن منهم جيشاً ضخماً احتلّ به طنجة سنة ١٢٢هـ/٧٣٦م وقتل عاملها الغشوم عمر بن عبيد الله المرادى . ولم يلبث أن هُزم في بعض معاركه مع جيوش ابن الحبحاب فظن به بعض أنصاره الخيانة فقتلوه ، وولت الصُفْرِيَّة في المغرب الأقصى عليها خالد بن حميد الزناتى سنة ١٢٣هـ إماماً لها وقائداً ، وأخذ يعدّ العدة للقاء جيش ابن الحبحاب ، والتقى به في الجزائر على نهر شلف شمالى تيهرت ، ونشبت بين الطرفين معركة عنيفة كان النصر فيها حليف الصُفْرِيَّة وقُتل فيها كثيرون من أشراف العرب ، ولذلك سُمّيت معركة الأشراف . ويعزل هشام بن عبد الملك ابن الحبحاب ، ويولى المغرب كلثوم بن عياض القشيري وشدّ أزره بابل أخيه بلج بن بشر ، ويقدمان إلى المغرب الأقصى في جيش ضخم ، ويديران مع خالد بن حميد إمام الصُفْرِيَّة جنوبى طنجة معركة ضارية ، وبهزمان ويتوفى كلثوم ، فينسحب بلج ببقية جيشه إلى مدينة سبتة ، وتحاصره الصُفْرِيَّة فيها وتشدد الحصار وبضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس ، ويثور البربر في المغرب بجميع دياره . ويولى هشام عليه حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وأمدّه بجيش جرار . وعرف أن قائدين صُفْرِيَّين هما عكاشة بن محسن الفزاري وعبد الواحد بن يزيد الهوارى حشداً جموع الصُفْرِيَّة في الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا أن يسيرا في طريقين لمهاجمة القيروان : عبد الواحد من الشمال وعكاشة من الجنوب ، وعلم حنظلة بخطتهما فأسرع لبلقاء عكاشة ومزق جيشه ، وأخذ يستعد في القيروان لمنازلة عبد الواحد ، واستثار الفقهاء لحربه ، فانضموا إلى جيشه ووزع عليهم السلاح ، وبرزت النساء مع الجيش حاملات السلاح وامتلأ الجيش حمية ، ودارت المعركة فسحق جيش عبد الواحد

وَحُمِلَتْ رَأْسُهُ إِلَى حَنْظَلَةَ فَخَرَهُ اللَّهُ سَاجِدًا . وَقُتِلَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ الْخَلِيفَةُ الْأُمَوِيُّ سَنَةَ ١٢٦ م فَاحْسُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَبِيبٍ حَفِيدَ عَقِبَةٍ بِدَنُوا أَجَلَ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةَ فَأُعْلِنَ الثَّوْرَةُ سَنَةَ ١٢٧ هـ/٧٤٤ م وَكَانَ حَنْظَلَةُ تَقِيًا فَكَرِهَ أَنْ يَتَقَاتَلَ الْمُسْلِمُونَ وَعَادَ إِلَى الْمَشْرِقِ . وَلَمَّا أَصْبَحَ صَوْلَجَانُ الْخِلَافَةِ يَدُ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ سَنَةَ ١٢٩ هـ/٧٤٦ م أَقْرَ وَلايَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَبِيبٍ عَلَى الْمَغْرِبِ ذَرَّةً الْفَتْنِ هُنَاكَ ، وَلأنَّهُ أَعْلَمُ مِنْ غَيْرِهِ بِشُئُونِهَا إِذْ هِيَ دَارُهُ وَدَارُ جَدِّهِ عَقِبَةُ بْنُ نَافِعٍ ، وَثَارَتْ الْإِبَاضِيَّةُ بِطَرَابُلُسَ سَنَةَ ١٣٠ هـ بِقِيَادَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودِ التَّجِيبِيِّ وَأَخَذَ الثَّوْرَةَ ، وَبَايَعَ الْإِبَاضِيَّةَ هُنَاكَ الْحَارِثُ بْنُ تَلِيدٍ بِالْإِمَامَةِ وَأَخَذَ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ قَيْسِ الْمَرَادِيِّ وَزَيْرًا لَهُ وَمُسْتَشَارًا ، وَأَدَارَا الْحَرْبَ مَعَ جَبِيوشَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَاغْتِيلَا سَنَةَ ١٣٢ هـ/٧٤٩ م . وَفِي نَفْسِ السَّنَةِ تَحَوَّلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْعَبَّاسِيِّينَ فَأَقْرَأُوا عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَبِيبٍ فِي وَلايَتِهِ ، وَسَمِعَ بِتَجَمُّعٍ لِلصَّفَرِيَّةِ بِتَلْمَسَانَ فِي الْجَزَائِرِ سَنَةَ ١٣٥ هـ فَفَاجَأَهُمْ وَكُتِبَ لَهُ النَّصْرُ عَلَيْهِمْ . وَأُرْسِلَ حَمَلَةٌ إِلَى صَقْلِيَّةَ رَجَعَتْ بِكَثِيرٍ مِنَ الْغَنَائِمِ ، وَاسْتَوَلَى عَلَى جَزِيرَةِ قَوْصَرَةَ الَّتِي تَبْعِدُ عَنِ الشَّاطِئِ الْتُونِسِيِّ نَحْوَ ثَلَاثِينَ مِيلًا ، وَتَنَازَلَ عَنْهَا - فِيمَا بَعْدَ - أَبُو زَكْرِيَا مُؤَسِّسُ الدَّوْلَةِ الْخَفَصِيَّةِ بَنُو نَسْرِ لِفَرْدَرِيكِ الثَّانِي إِمْرَاطُورِ الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ « مَلِكِ صَقْلِيَّةِ » سَنَةَ ١٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م . وَتَأَمَّرَ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَخُوهُ الْيَاسُ وَعَبْدُ الْوَارِثِ فَقَتَلَاهُ سَنَةَ ١٣٧ هـ وَتَوَلَّى بَعْدَهُ الْيَاسُ ، وَقَتَلَ ابْنَ أَخِيهِ : حَبِيبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَتَوَلَّى مَكَانَهُ ، وَلَمْ تَلْبَثْ قَبِيلَةُ وَزْجُومَةُ النِّفَزَاوِيَّةِ الصَّفَرِيَّةِ الْغَالِيَةِ أَنْ هَاجَمَتْهُ وَاسْتَوْلَتْ عَلَى الْقَيْرَوَانِ وَاسْتَبَاحَتْهَا سَنَةَ ١٣٨ هـ/٧٥٥ م وَحَاطُوا حَبِيبًا أَنْ يَسْتَرِدَّهَا سَنَةَ ١٤٠ هـ/٧٥٧ م فَفَتَكَتْ بِهِ وَرَفُجُومَةُ . وَكَانَتْ قَدْ اسْتَحْلَتْ الْحَارِمَ فِي الْقَيْرَوَانِ فَغَضِبَ لِأَهْلِهَا أَبُو الْخَطَّابِ عَبْدِ الْأَعْلَى إِمَامُ الْإِبَاضِيَّةِ بِطَرَابُلُسَ وَجَبَلِ نَفُوسَةَ ، فَهَاجَمَ وَرَفُجُومَةَ وَخَلَصَ مِنْهَا الْقَيْرَوَانُ سَنَةَ ١٤١ هـ/٧٥٨ م وَوَلَّى عَلَيْهَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ رَسْتَمٍ أَحَدَ قَوَادِهِ ، وَلَمْ يَلْبَثْ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ وَالْيَاسُ أَنْ يَصْرُفَ رَأْسَ جَيْشِ ضَخَمٍ ، فَاشْتَبَكَ مَعَ أَبِي الْخَطَّابِ فِي مَعْرَكَةٍ ضَارِيَةٍ قَتَلَ فِيهَا أَبُو الْخَطَّابِ ، وَفَرَّ وَآلِيهِ عَلَى الْقَيْرَوَانِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ رَسْتَمٍ إِلَى الزَّابِ فِي الْجَزَائِرِ وَأَسَّسَ فِي شِمَالِيهِ دَوْلَةً لِلْإِبَاضِيَّةِ بِمَدِينَةِ تَاهَرْتِ ظَلَّتْ بَعْدَهُ حَتَّى سَنَةِ ٢٩٦ هـ . وَوَلَّى ابْنُ الْأَشْعَثِ عَلَى الزَّابِ الْأَغْلَبُ بْنُ سَالِمِ التَّمِيمِيِّ وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَوَلَّى عَلَى الْمَغْرِبِ الْأَدْنَى سَنَةَ ١٤٨ هـ/٧٦٢ م وَيَقْتُلُ فِي بَعْضِ حُرُوبِهِ سَنَةَ ١٥٠ هـ/٧٦٧ م وَيَتَوَلَّى عَلَى الْمَغْرِبِ عَمْرُو بْنُ حَفْصِ الْمُهَلَّبِيِّ (هَزَارْمَد) بَاتِي طَبْنَةَ بِالزَّابِ ، وَنَازَلَ فِي الْجَزَائِرِ الصَّفَرِيَّةِ وَالْإِبَاضِيَّةِ بِتَاهَرْتِ ، وَثَارَتْ عَلَيْهِ الْإِبَاضِيَّةُ طَرَابُلُسَ وَحَاصَرَتْ الْقَيْرَوَانِ وَخَرَجَ إِلَيْهَا وَاسْتَشْهَدَ فِي الْمَعْرَكَةِ سَنَةَ ١٥٣ هـ/٧٧٠ م . وَخَلَفَهُ ابْنُ عَمِّهِ يَزِيدُ بْنُ حَاتِمِ الْمُهَلَّبِيِّ سَنَةَ ١٥٤ هـ وَيَقُولُ عَنْهُ الرِّقِيُّ الْقَيْرَوَانِيُّ : « كَانَ كَثِيرَ الشُّبْهِ بِجَدِّهِ الْمُهَلَّبِ فِي حُرُوبِهِ وَدَهَائِهِ وَكِرَمِهِ وَسَخَائِهِ وَكَانَ خَبِيرًا بِشُئُونِ الْإِدَارَةِ فَرْتَّبَ الْقَيْرَوَانِ وَسَوَّقَهَا ، كَمَا كَانَ خَبِيرًا بِشُئُونِ السِّيَاسَةِ وَالْحَرْبِ ، فَقَلَّمَ أَظْفَارَ الصَّفَرِيَّةِ فِي الْجَزَائِرِ وَلَمْ يَعُدْ لَهُمْ نَشَاطٌ إِلَّا فِي دِيَارِ زَنَانَةِ بِالصَّحْرَاءِ ، وَقَلَّمَ بِالمَثَلِ أَظْفَارَ الْإِبَاضِيَّةِ ، فَلَمْ يَعُدْ لَهُمْ نَشَاطٌ إِلَّا فِي تَاهَرْتِ وَجَبَلِ نَفُوسَةَ ،

وهذأت الأمور بإفريقية واستقرت طوال عهده ، وكان أدبيا ، وأسبغ عطايها على الشعراء ووفدوا عليه من المشرق ، وأحدث فى القيروان حركة أدبية واسعة ، وجدّد جامع عقبة الأعظم بها ، وازدهر فى عهده العمران . وظل واليا على إفريقية التونسية ونوميديا أو شرقى الجزائر حتى قسنطينة والزاب ستة عشر عامًا كانت أعوام رخاء وهدوء بالمغرب إلى أن توفى سنة ١٧١هـ/٧٨٧م وتولى بعده أخوه روح بن حاتم ، وكان لا يقل عن أخيه شجاعة وبطولة وحكمة سياسية ، ونعمت إفريقية التونسية والزاب فى أيامه باطراد الهدوء والرخاء وفى عهده تأسست الدولة الإدريسية الحسنية فى ولىلى جنوبى طنجة بالمغرب الأقصى ، وتوفى سنة ١٧٤هـ/٧٩١م وخلفه ابنه الفضل حتى سنة ١٧٩ وخلفه هرثمة بن أعين أحد قواد الدولة العباسية العظام ، ونشر فى الاقليم التونسي والطاربلسي الأمن والنظام ، وبنى مدينة المنستير وقصرها الكبير سنة ١٨٠ واختار للزاب واليا إبراهيم بن الأغلب التميمي ، وأعجب بشجاعته وحسن سياسته ودهائه ، وعاد إلى بنّاداد سنة ١٨١هـ/٧٩٧م وخلفه محمد بن مقاتل المعكى إلى سنة ١٨٤ وكان ضعيفا سىء السياسة . واستشار هرون الرشيد هرثمة فيمن يوليه المغرب ويحسن القيام عليه وقمع ثوراته ، فأشار عليه بإبراهيم بن الأغلب وامتدحه له طويلا ، فارتضى ولايته عليه منذ سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م وجعله له ولأبنائه من بعده آملا أن يكون به أسرة حاكمة له حكما سديدا كحكم المهالبة المذكورين آفا .

(ب) الأغالية^(١)

كانت الجزائر تحظى حينئذ فى شرقها (نوميديا القديمة) بدولة الأغالية المستقلة ، وكان منذ الفتح تابعا للقيروان ، وكان يمتد غربى الإقليم التونسي إلى بجاية على البحر المتوسط ومنها إلى الصحراء جنوبا شاملا قسنطينة وإقليم الزاب وعاصمته طبة . ونعم هذا القسم من الجزائر فى عصر الدولة الأغالية بنهضة عمرانية وحضارية وعلمية شأنه فى ذلك شأن عاصمته الكبرى القيروان وما تحقّق لحكامها الأغالية من مجد حربى عظيم باستيلاء الأمير زيادة الله الأغلبى على صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ونقله هو وخلفائه من أسرته إليها الدين الخفيف العظيم والحضارة العربية المزدهرة وكل ما ارتبط بها من العلوم والصناعات . وكان ذلك فخا عظيما للدولة الأغلبية ورعاياها فى الإقليمين التونسي والجزائري ، فرحل منهم كثيرون إليها ينعمون بما فيها من طبيبات الأرض ، مما عاد على التونسيين والجزائريين بخير وفير ، مع شعورهم بغير قليل من العزة . وظل هذا الشعور يزداد قوة طوال أيام الأغالية بفضل أسطولهم العظيم وغزواته

لمبارك بن محمد الطيل والجزء الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وما كتبه فيه عن أئمتها .

(١) انظر فى الأغالية المصادر السابقة والجزء الثالث من كتاب أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب والحلة السيرة لابن الأبار ، وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث

لبارى فى شرقى إيطاليا ولروما نفسها ، ولحصون وبقاع إيطالية كثيرة جنوبها ، واستولى على مملكة سنة ٨٢٥٥هـ/٨٦٨م ونشر بها الإسلام وحضارته الباهرة . وتبلغ هذه الدولة التونسية الجزائرية أعظم قسط من الحضارة والمدنية فى عهد إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٨٢٦١هـ/٨٧٤م - ٨٢٨٩هـ/٩٠١م) إذ يؤسس فى مدينته رقادة التى بناها بجوار القيروان بيت حكمة على غرار بيت الحكمة للرشيد والمأمون ببغداد ، وهو أول جامعة للعلوم نشأت فى البلاد المغربية ، وكان يدرس بها الطب والفلك وتقويم البلدان والفلسفة ، وقاد إبراهيم الأسطول بنفسه إلى جنوبى إيطاليا ، واستولى فيه على طائفة كبيرة من الحصون . وكل ذلك كان يملأ الرعية فى الإقليم التونسى وشرقى الجزائر بالبهجة . وكان الأغلبية على وعى كبير بالسياسة وتدير شئون الحكم ، فكثرتا يولون على شرقى الجزائر فى طَبَنَة ولاية يحسنون إدارة الحكم ، وكانوا يمنحونهم سلطة إدارية واسعة ، وكان قاضى القيروان يولى على البلاد قضاء زهين ثقافة يحكمون بين الناس بالعدل والإنصاف لافرق بين عربى وبربرى ، بل مساواة تامة فى الحقوق والواجبات ، فازدهرت الحياة فى شرقى الجزائر - لمهد الأغلبية - وازدهرت الحضارة الإسلامية ازدهارا رائعا .

(ج) الإباضيون^(١)

تأسست الدولة الإباضية فى القسم الغربى من الجزائر الداخل قديما فى مورتانيا الشرقية ، أسسها عبد الرحمن بن رستم فى منطقة جبلية وعرة متخذاً مدينة تاهرت عاصمة لها ، ولما أن كثر أتباعه من الإباضية أعلنها سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م وقد أقامها على أسس مبادئ الإباضية المثالية إذ جعلها ديمقراطية يولئ الإمام فيها بمشورة ستة من وجوه القوم ورؤساء القبائل على نحو ما صنع عمر بن الخطاب واشترط فى الإمام أن يكون عادلا منتهى العدل عالما بالإسلام وتعاليمه حق العلم عاملا بمبادئه التى تكفل بدقة مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة ، ويأتبع الإمام بيعة عامة بعد انتخاب الشورى له ، ويستشير فى الأمور المهمة « الشراة » وهم عظماء المذهب الإباضى وعلماءه ، كما يستشير فى الأمور العامة سادة القوم والقبائل ، ويعين القضاة بعد استشارة الشراة ، ويضبط الحكم عن طريق نوعين من الشرطة : شرطة تقوم بالحراسة والمحافظة على الأمن ، وشرطة تسمى شرطة الحسبة تشرف على الأسواق وتحكم فى خصوصياتها وتطوف فى المدينة أو القبيلة ، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر . وتداول الإمامة فى تاهرت ستة أئمة ، أولهم عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة حتى سنة ١٧١ وكان يتميز

الثالث من تاريخ المغرب الكبير لمحمد على ديزو والأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية لسليمان البارونى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث للمبلى ص ٣٦ وما بعدها .

(١) انظر فى الدولة الإباضية تاهرت كتاب أخبار الأئمة الرسميين لابن الصغير بتحقيق الدكتور ناصر والأستاذ النجار والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب السير للشامخى وتاريخ الجزائر لأحمد توفيق المننى والجزء

بالمعاصرة والتفوق وسعة العلم ، واختارت شورى الإباضية بعده ابنه عبد الوهاب وظل إماما للإباضية حتى سنة ٢١١هـ/ ٨٢٧م غير ملاحظين أن ذلك يفضي بالإمامة إلى أن تكون وراثية ، مما يناقض إنكارهم لنظام الخلافة الوراثي ، وأدّى ذلك إلى انشقاق في صفوف الإباضية هناك إذ نشأت بينهم طائفة تسمى النكارية فكثرت إمامة عبد الوهاب الوراثية . وتعددت عليه في شمالى الدولة فرقة الواصلية المعتزلة نسبة إلى زعيم المعتزلة فى البصرة وأصل بن عطاء وحاربها وقضى على فتنها ، وانضم إلى مذهبه الإباضى جبل أوراس أو بعضا منه ، وخلفه ابنه أفلح حتى سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م وكانت النكارية لا تزال تشاق جماعة الإباضية شاعة السلاح فأدار معها حربا انتهت بمقتل قائدها ونشأت أنصاره فى البلاد والقبائل ، وخلفه ابنه أبو اليقظان حتى سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م وأخذت الدولة فى الضعف وتفاقم فى عهد ابنه أبى حاتم وأبى اليقظان . وكان أبو عبد الله الشيعى داعية المهدي الفاطمى قد نشر الدعوة الفاطمية فى قبيلة كمامة وأيدته فى القضاء على الدولة الرسمية نهائيا سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م . وما يذكر لهذه الدولة تنشطها التجارة إلى الصحراء الإفريقية المديارية فى بلاد تشاد والنيجر ومالى وفولتا وإلى السودان النيلي فى مناطق كردفان ووادى . وقد عنيت الدولة عناية واسعة بحراسة السبل وإقامة الفنادق والمحطات وحفر الآبار للقوافل وحراستها ، وأهم من ذلك أنها أقامت فى الواحات وفى كثير من الجهات زوايا بها مساجد لنشر الإسلام فى كل البقاع التى كانت تنزلها القوافل ، وهى خدمة دينية وحضارية كبرى . ولما قضى على الدولة الإباضية فى تاهرت انحاز الإباضيون فى الجزائر إلى الجنوب - حتى اليوم - فى أرض ميزاب والواحات مثل بسكرة والأغواط وغرداية وورجلان . وتبع سقوط الدولة الرسمية سيطرة المذهب السنى - وخاصة مذهب مالك - على البلاد وعلى مراكز التجارة والزوايا فى الصحراء الإفريقية المديارية والسودان النيلي .

(د) تلمسان

فى أقصى الغرب من الجزائر تقع تلمسان وإقليمها ، وكان بها من قديم بنو يفرن الزناتيون مؤسسوها وكانوا يعتنقون مذهب الصفرية الخوارج ، وشدوا أزر ميسرة فى حربه ضد جيش ابن الحبّاب كما شدوا أزر الإمام الصفرى بعده خالد بن حميد . ونراهم فى سنة ١٤٨ يايعون بالإمامة الصفرية رجلا منهم هو أبو قرّة اليفرنى الزناتى ، ويعدّ فى سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م جيشا كبيرا لمنازلة الأغلب بن سالم التميمى فى ولايته على المغرب الأدنى (الإقليم التونسى وشرقى الجزائر) ويبلغ النبا الأغلب فيقدم إليه بجيش جرار ، حتى إذا اتّرب منه هرب وتفرقت عنه جموعه . ويتولى المغرب الأدنى سنة ١٥١هـ/ ٨٦٨م عمر بن حفص المهلبى ويأخذ فى إعداد جيش لمنازلة أبى قرّة ويحصن طينة عاصمة الزاب ، وكان أبو قرّة أعد جيشا كفيفا للملاقاة ، وتقدم إلى طينة ، غير أن خلافا دبّ فى جيشه ، وتفرّق عنه جنوده . واضطر عمر بن حفص

إلى العودة إلى القيروان لبلوغه نبأ ثورة قبيلة هواراة بطرابلس عليه ، وفتنهم أبو مرة غلبه عن طينة فهاجمها ، وكان عمر بن حفص ترك بها المهنا مع قطعة من جيشه ، فاشتبك مع أبي مرة فهزمه وولى الأديار وأخذ المهنا عسكره بكل ما فيه . ولا نعود نسمع بثورة لأبي مرة ، وتظل تلمسان خاضعة لقبيلة بني يفرن الزناتية حتى تأخذها منهم قبيلة مغراوة سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م . ولما أسس إدريس الأول الحسنى دولة الأدارسة فى ولى بإقليم فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م ودار العام واشتدت شوكة رأى الزحف على تلمسان وماجاورها من قبيلة مغراوة ، وعلم يزحفه محمد بن خزر المفاوى فخرج إليه حين اقرب من البلدة ، وبأيمه هو وجميع وجوه تلمسان ، وعينه إدريس واليا عليها وأمره ببناء مسجدها وعاد إلى ولى وتوفى سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وخلفه ابنه إدريس الثانى حتى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م وكان فقيها وراويا للحديث وشجاعا مقداما فى مهام الأمور ، وهو الذى بنى مدينة فاس واتخذها عاصمة للدولة ، ونزل تلمسان وأقام بها ثلاث سنوات نظم فيها شئونها الإدارية والمالية ومحا منها دعوة الصفرية . ونزها - كما يقول ابن خلدون وبعض المؤرخين - عمه سليمان بن عبد الله ، ويبدو إن إدريس الثانى أو ابنه محمد تركها له فملكها وبأيمه أهلها ، وتوارثها هى وإقليمها فى الجزائر عنه بُنائوه وأحفاده إلى أن أخذها منهم موسى بن أبي العافية فى القرن الرابع ثم تصير للدولة العبيدية .

٤

الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - بنو حماد (أ) الدولة العبيدية^(١)

لم يلبث أبو عبد الله الشيعى أن دخل القيروان وقضى على الدولة الأغلبية ، وبذلك يكون قد قضى فى عام واحد على الدول الثلاث التى كانت تنقسم الجزائر : دولة الأغلبية فى شرقها ودولة الإباضيين بناهت فى وسطها ودولة الأدارسة من أبناء سليمان بن عبد الله فى غربها ، وبذلك دانت الجزائر للدولة العبيدية منذ أواخر القرن الثالث للهجرة فكان يديرها المهدي الفاطمى من القيروان ثم من مدينة المهدية التى بناها بجوارها عاصمة له ولمن بعده ، ونالت الجزائر فى أيامه رخاء وأمانا واتعمشت التجارة بينها وبين الصحراء المدارية والسودان ، وأبضا بينها وبين أوربا ، وبنى عامله على الزاب على بن حدود الزناتى بسهل الحصنة مدينة المسيلة (المحمدية) سنة ٣١٥ ، وتوفى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م . وخلفه ابنه القائم وفى أيامه أخذ ناثر ببرى من الخوارج يبعده العدة فى الجزائر للاتقاض عليه والثورة يُدعى فبايزيد مخلد بن كيداد ،

١) نظر فى الدولة العبيدية اتماظ الحفا بأخبار الخلفاء للمفريزى وكتابه المخطط والبيان الغرب لابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب وأخبار بنى عبيد وسيرتهم لابن حاد وفتح الدعوة للقاضى النعمان وكتابه المجالس والمسائر وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الللى ص ٥٠٢ وما بعدها .

(١) نظر فى الدولة العبيدية اتماظ الحفا بأخبار الخلفاء للمفريزى وكتابه المخطط والبيان الغرب لابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب وأخبار بنى عبيد وسيرتهم لابن حاد وفتح الدعوة للقاضى النعمان وكتابه المجالس والمسائر وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الللى ص ٥٠٢ وما بعدها .

أصله من مدينة توزر التونسية في بلاد الجريد ، وكان في أوائل حياته يحفظ الصبية والفلمن
القرآن الكريم في مدن مختلفة بتونس والجزائر ، ونزل تاهرت في أواخر أيام الرستميين ،
ويقول المؤرخون إنه اعتنق عقيدة الإباضية النكارية ، وأخذ يجمع إليه كثيرون من قبيلة زناتة
ومن البربر الخوارج لباضيين وصرفيين ، وكون منهم جيشا لقي به قبيلة كمامة في الأرس
وغير الأرس وهزمها مرارا . وكان يبيع لجيشه نهب البلاد وحرقها وسقى النساء وقتل الأطفال
مما يؤكد أنه لم يكن ياضى العقيدة كما يذكر المؤرخون ، إذ الإباضية لا يستحلون شيئا من ذلك
كله ، ومن أجل ذلك نرى أنه كان على مذهب الصفرية من الخوارج لا الإباضية ، ويدور أنه
قرأ عن الخوارج الأزارقة المتطرفين الذين كانوا يستحلون سقى النساء وقتل الأطفال ، فاعتدى
بهم ، وشس القدوة . وماتوا في سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م حتى يحمّد جيشا ضخما يستولى به على
كثير من البلدان في الجزائر والإقليم التونسي ، ويتقدم بجيشه حتى مدينة رقادة بالقرب من
القيروان وينهبها ، ويقتل واليها العبيدى خليل بن إسحق . ويقصد القيروان ويستولى عليها
وينضم إلى جيشه أهل السنة من سكانها يريدون الانتقام من العبيدين لمحاولتهم فرض عقيدتهم
الإسماعيلية عليهم وعمو مذاهب السنة من مثل مذهب مالك ، وزحفوا معه إلى أسوار مدينة
المهدية عاصمة العبيدين وحاصروها . وتوفى الخليفة العبيدى القائم في أثناء حصاره لها سنة
٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م وخلفه ابنه الخليفة المنصور ، وظلت الحرب بينه وبين ابن كيداد سجالا ،
واستصرخ زيرى زعيم صنهاجة في الجزائر ، فلبى صراخه ، وانهزم ابن كيداد هزيمة ساحقة ،
وولّى الأديار إلى الجزائر ، والخليفة المنصور من ورائه يتبعه في باغاية بجبال الأوراس وغير
باغاية إلى أن جاءوه به مكبلا بالأغلال ، فقتل به سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م وبالقضاء على ثورته
انتهت ثورات الخوارج في الجزائر .

(ب) الدولة^(١) الصنهاجية

إذا كانت قبيلة كمامة الجزائرية هي التي لعبت الدور الأول في نصرة أمي عبد الله الشيعي
على دول الجزائر الثلاث : الأدارسة في تلمسان والإباضيين في تاهرت والأغالبية في القسم
الشرقي من الجزائر فإن قبيلة صنهاجة هي التي كان لها الدور الأول في القضاء على ثورة أمي
يزيد مخلدين كيداد الصُفري ، والقيلتان جميعا كانتا تحتلان شمالى الجزائر : كمامة إلى الشرق
وصنهاجة إلى الغرب ، وكانتا تأخذان بحظ من الحضارة ، وهما من قبائل البرنس المتحضرة .
وكانت قبيلة زناتة تحتل الجنوب الجزائرى ، وهى من قبائل البُئر المشيخة ، وكانت شعبها

ترجم يندى والمر وميم وتاريخ الجزائر في القديم
والحديث للملك بن محمد الملى ص ٥٢٩ وما بعدها .

(١) انظر في الدولة الصنهاجية الكامل لابن الأثير والبيان
للغريب لابن علقمى وأعمال الأعلام لابن الخطيب
والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وابن خلكان في

وفروعها تمتد إلى تلمسان والمغرب الأقصى غربا وإلى جنوبي الإقليم التونسي وطرابلس شرقا .
وروى الخليفة الفاطمي المنصور زوى الصنهاجي على المنطقة الغربية في الجزائر وحين تولى
لمعز الخلافة العبيدية سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م أبناه عليها ، وكان مثل قبيلته على حظ من الحضارة
ويتضح ذلك في بنائه مدينة أشير إلى الشمال الشرقي من تاهرت سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م واتخاذها
عاصمة له ولقبيلته ، ودفع ابنه بلكين - فيما بعد - لتأسيس مدينة الجزائر على البحر المتوسط
ومدينة مليانة جنوبي شرشال على الضفة الشرقية لنهر شلف ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقي
من مليانة . وساعد زوى جوهر الصقلي في سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م في حملته التي استولى بها
على جميع بلدان المغرب الأقصى ماعدا سبتة وطنجة اللتين كانتا تدينان بالولاء لعبد الرحمن
الناصر الخليفة الأموي في قرطبة . وكان جوهر الصقلي قد استولى على مصر للمعز سنة
٣٥٩ هـ / ٩٦٨ م وشاع عقب ذلك أن الخليفة العبيدي المعز سترك عاصمته المهدية في إفريقية
التونسية إلى مصر ، وسيوئى زوى على المغرب جميعه نابا عنه ، فامتعض لذلك جعفر بن
علي بن حمدون الزناتي والى الزاب للمعز سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م وكانت بينه وبين زوى صفائين
وأحقاد وعداوة ، ولم يلبث أن جمع عسكره وسلاحه وأمواله وخرج من مدينة المسيلة عاصمة
ولايته التي بناها أبوه في ولايته عليها كأمراً بنا ، واتجه إلى قبيلته : زناتة خالما طاعة المعز ،
واحتفت به قبيلته وملكته عليها ، واستطاع في سنة ٣٦١ أن يجمع منها جيشا ضخما وزحف
به على أراضي صنهاجة ، وعلم زوى فجمع رجاله بسرعة ، والتقى به ، واشتبك الخصمان
ورجحت كفة جعفر بن علي وزناتة وقتل زوى في المعركة . وكان ابنه بلكين في أشير وجاءه
نبأ مصرع أبيه ، فأعد العدة سريعا للأخذ بثأر أبيه ، والتقى بزناتة ومزق جموعها ونكل بها
تكتيلاً شديداً ، وبلغ انتصاره عليها المعز ، فأقره على ولاية أبيه وأضاف إليه الزاب وتاهرت
وسائر أعمال المغرب . وقبل مبارحة المعز المهدية إلى مصر ولاه على إفريقية التونسية والمغرب
جميعه في ذى الحجة لسنة ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م مع استثناء طرابلس وصقلية ، وكان ينبغي أن
يترك له صقلية لأنها بعيدة عن مصر ، ولن تستطيع حمايتها عند الضرورة .

وأخذ بلكين ينهض بمسئوليات الحكم في المغرب ويرتب شؤنه ، وهو يهرى مغربى من
صنهاجة ، وقد مضى يعمل على تأسيس دولة صنهاجية مغربية يتوارثها أبناؤه ، وهى أول مرة
فى التاريخ الإسلامى تنشأ دولة مغربية إسلامية فيه ، وتتوالى بعدها دول مغربية كبيرة ، مما يجعل
حكم بلكين للمغرب فاتحة انتقال الملك والسلطان فيه من العرب إلى البربر وبعبارة أدق إلى
زعماء البربر ورؤساء قبائلهم ، وهو تطور طبيعى إذ ظل البربر ، وبعبارة أخرى لبناء المغرب ،
يتدربون قرونا - طوال الحكم العربى - على النظم الإسلامية فى إدارة الدولة وأخذوا يحكمون
أقاليمها المختلفة . وأن تنشأ لهم دولة مغربية أو دول من ذات أنفسهم ، أما ما يقوله مارسه
فى كتابه : « البربر المسلمون فى العصور الوسطى » وكتبه : « بلاد المغرب الشرقية » من أن

هذا التحول فى المغرب من حكم العرب إلى البربر كان نفورا من العرب وكرها لهم وتحقيقا لآمال البربر فى الاستقلال عن العرب . ودولهم فإن ذلك كله ليس بصحيح ، إنما الصحيح أنه تطور طبيعى لتحرر البربر على أساليب الحكم وبناء الدول ، وأيضاً بناء المدن ، ومرتبطاً ببناء على بن حمدون لمدينة المسيلة وبناء زيرى لمدينة أشير وبناء بلكن لمدينتى الجزائر ومليقة .

واتخذ بلكن القيروان عاصمة له ، وتوفى الخليفة البيدى المر سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م وتولى ابنه العزيز وثبته فى ولايته وأضاف إليه طرابلس وإقليمها . وثارت فى أوائل عهده بالجزائر تاهرت وبأغاية وتلمسان واستسلمت له سريها ، وكانت الخلافة الأموية بقرطبة لا تزال توزع لزنانة وتلمسان وسجلماسة وفاس بالثورة على الخلافة البيدية وبلكن ، وقاد فى سنة ٣٦٨ هـ/ ٩٧٩ م جيشاً كبيراً إلى تلك الأنحاء ، واستسلمت له جميعاً . وتوفى فى أثناء عودته من المغرب الأقصى سنة ٣٧٣ للهجرة ، وخلفه ابنه المنصور فى أوائل سنة ٣٧٤ هـ/ ٩٨٤ م ففقد لأخيه يطوفت على أشير عاصمة صنهاجة . وكان المنصورين أمى عامر المستبد بحكم الأندلس باسم خلفته الشرعى المؤيد قد أعلن زيرى ابن عطية زعيم زناتة على بسط سلطانه على سجلماسة ، وبالمثل على فاس واتخذها عاصمة له ، فأمر المنصور أن يحارب أن يغزو جيشاً إلى المغرب الأقصى ليسترجعه من زيرى ، وصدع بأمره ، غير أن زيرى هزمه وعاد إلى أشير يجر أذيال الهزيمة . وكان المنصور رجل سلم فصمم أن تضع الحرب أوزارها بين قبيلته صنهاجة وقبيلة زيرى زناتة فلا يعودوا إلى القتال ، وأعلن أن تلك آخر حرب بين القبيلتين حتى ينهى الحروب العقيمة التى أنهكت قواماً طويلاً . وعرف العزيز الفاطمى فى القاهرة هذا النبأ فغضب لما يؤدى إليه من ضياع المغرب الأقصى نهائياً ، فأرسل إلى كتامة فى الجزائر داعية يسمى أبا الفهم الخراسانى سنة ٣٧٦ لتأليبها على المنصور ، وظل سنة بشير الكمامين وجميعهم حوله ، ولقيه المنصور هو وجموعه فى سطيف شرقى تاهرت وقضى عليه . وأدت سياسته الحكيمية مع زناتة إلى أن تنضم إليه جماعة منها سنة ٣٧٩ بزعامة سعيد بن خزررون فولاه على طبة ، وتوفى سنة ٣٨٢ فولى ابنه فلللا مكانه . وعم الجزائر الأمن والمهدوء فى بقية أيامه وتوفى سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م وخلفه ابنه باديس فى الثالثة عشرة من عمره فقدر له أمور الدولة فى إفريقيا التونسية والجزائر أعماهم ، وخاصة يطوفت فى تاهرت وحامدا وقد ولاه على أشير سنة ٣٨٧ . وماتوفى سنة ٣٨٩ حتى يُعيد زيرى بن عطية صاحب فاس جيشاً ضخماً ويحاصر يطوفت فى تاهرت ، وينجده سريها حماد كما ينجده باديس بجيش يقوده محمد بن أمى العرب ، ويضع القادة الثلاثة الخطط ويشنون هجوماً على زناتة ، وتدور عليهم الدوائر ، ويولى جيشهم الأدميرال تاركين وراءهم مضاربهم وما فيها من الأموال والسلاح غنيمة لزنانة وزيرى . وبلغ باديس الخير فخرج على رأس جيش للقاء زيرى ، وعلم به فعاد إلى فاس ، وخرج عليه فلل بن سعيد فظلت فرق من الجيش تطارده ، وفر إلى طرابلس سنة ٣٩١ واستوطنها . وجاءه خبر

فى نفس السنة من عمه حماد أنه قضى على الثائرين من أخصامه عليه بقتله ماكن وأولاده ورحيل زاوى بن زيرى وإخوته إلى الأندلس ، وكان لهم فى الفتنة التى نشبت بقرطبة وقضت على الخلافة الأموية دور فى غاية السوء . وفى نفس السنة توفى زيرى بن عطية صاحب فاس والمغرب الأقصى وتنفست منهاجة وحماد الصمدلة ، وعادت زناتة فى سنة ٣٩٢ إلى مهاجمة منهاجة فى أشير ولكن بطلها زيرى كان قد توفى فهزمها حماد هزيمة ساحقة .

(جـ) بنو حماد^(١)

كان حماد - كما يقول لسان الدين بن الخطيب - نسيج وحده وفريد دهره شجاعا حسيفا ، قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كعب « الجدل » وفكر جاداً فى الاستقلال عن ابن أخيه : باديس وتكوين دولة له ولأبنائه فى الجزائر ، وكان أول ما فكر فيه ببناء قلعة تكون عاصمة للدولة ، ولم يلبث أن بنى فى سنة ٣٩٨ قلعة بنى حماد على منحدر وعرف فوق سفوح جبال كيانة على الحدود الشمالية لسهول الحضنة على بعد ٢٦ كيلومترا من المسيلة (المحمدية) وأحاطها سريعا إلى مدينة تكثظ بالأحياء والفنادق والمساجد توسطها قصبة أو بعبارة أخرى حصن منيع ، ولا تزال خرائبها وأطلالها قائمة إلى اليوم . وصمم حماد على إعلان استقلاله . وماتوفى سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م حتى يعطى استقلاله عن باديس فى القيروان وعن الدولة العبيدية وعقيدتها الشيعية المتطرفة ويدعو للعباسيين على المنابر معتقاً لمذهب أهل السنة . وصمم باديس على حربه ، وأعد جيشاً ضخماً لمنازلته سنة ٤٠٦ . واتجه به إلى القلعة وهزمه بجوارها ، وفر حماد إلى القلعة تاركا خيامه ومضاربه . وتوفى باديس فى نفس السنة وخلفه ابنه المعز فى الثامنة من عمره ، ودبر له شئون الحكم أعمامه ورجال دولته ، وانتهاز حماد الفرصة واستولى على مدينتى المسيلة وأشير عاصمة منهاجة وحاصر باغاية ، فزحف إليه جيش للمعز سنة ٤٠٨ للهجرة وهزمه فى معركة عيفة ، وفر على وجهه إلى القلعة محميا بها ، ولم يجد بدا من طلب الصلح ، وتم ، وبمقتضاه يستقل حماد وأبنائه بأشير والمسيلة وطبنة والقلعة وتاهرت وبلاد الزاب وكل ما يفتحونه فى المغرب الأقصى . وانقسمت دولة الصنهاجيين بذلك إلى دولتين : دولة آل المنصورين بلكين فى القيروان بإفريقية التونسية ، ودولة آل حماد بن بلكين بالقلعة فى الجزائر .

وتعدّ دولة حماد وأبنائه فى القلعة أول دولة جزائرية فى العصور الإسلامية بأدق معنى لهذه الكلمة ، وحقا سبقتها الدولة الرستمية فى تاهرت ، كما مر بنا ، ولكن مؤسسها كان فارسى الأصل ، وحكمها هو وأبنائه من بعده . وكانت اللغة البربرية تشارك اللغة العربية فى أيامهم

القلعة وسجاية لإسمايل العربى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث للمراكم الملى ص ٦٠٢ وما بينهما وراجع مادة : « بنو حماد » فى دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى بنى حماد الكامل لابن الأثير والجزء الثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب والبيان للمغرب لابن عشارى وتاريخ ابن خلدون وكتاب دولة بنى حماد ملوك

وآلف بها كثير من الكتب وخاصة فى الدعوة الإلهية ، أما الدولة الحمادية فكانت لأسرة من صميم البربر ويؤمنهم العريفة فى صنعها ، وبذلك كانت دولة بربرية بحثة ، وأيضا فتحها اتخذت العربية لسانها ولغة رسمية لها ، وعملت - بكل وسيلة - على نشرها لافى العاصمة فحسب ، بل أيضا بين القبائل ، وعملت أيضا - بكل ما استطاعت - على ازدهار نهضة فى بلادها أدبية وعلمية وحضارية .

وعاش حماد هاتنا بقلته ودولته حتى سنة ٤١٩ وخلفه ابنه المسمى بالقائد ، ووسّع حدوده فى المناطق الشرقية للمغرب الأقصى ، ونشب نزاع وبينه وبين ابن عمه المزعز سنة ٤٣٢ وزحف إليه بجيش ، ولم تقع بينهما حرب ، وعادت العلاقات بينهما طيبة كما يقول ابن خلدون ، وتوفى القائد سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م وخلفه ابنه محسن وخرج عليه بعض أعمامه وتغلب عليهم ، وكانت مدة ولايته قصيرة : تسعة أشهر ، وتولى بعده بُلْكَيْن بن محمد بن حماد سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م . وكان المزعز باديس فى القيروان قد خلع سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م طاعة الفاطميين العبيدين وقطع اسمهم من خطبة الجمعة وجعل مكانهم فيها اسم الخليفة العباسى وحمل الناس على الرجوع إلى مذهب مالك الذى يرتضيه فقهاؤهم ، وبذلك تطهر المغرب من عقيدة الإسماعيلية الفاطمية ، وجُنَّ جنون المستنصر الخليفة الفاطمى العبيدى بمصر فأشار عليه أحد وزرائه المسمى اليازورى أن يتخلص من جموع كبيرة من بنى هلال وسليم كانت نزلت بشرقى النيل فى الصعيد بدفعها إلى إفريقيا التونسية وبلاد المغرب ، وكانوا يعدون بضات الألوف ، فاكسحوا برقة وطرابلس وإفريقية التونسية ، ولم يستطع المزعز باديس دفع هذه السيول الجارفة فانحاز إلى المهديّة سنة ٤٤٩ وبقي بها إلى نهاية حكمه ووفاته سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م . وكانوا بدوا غير متحضرين يهتبون ويخربون المدن ويفسدون الزروع ، وأصبَّ منهم إلى الجزائر لعهد بلكين سيل هلالى جارف على رأسه قبائل أثيج وعدى وعامر ، وحاولت زناتة فى تلمسان بزعامة ففى سعيد الخزرى أو الخزرونى أن تكبح جماح هذا السيل فقتل زعيمها وتشت جيشه ، أما بلكين فى القلعة فرأى من الخير أن يترك للأثيج وعدى الأرياف يهتبون فيها ، وتحالف معهم لحرب المغرب الأقصى وزحف عليه بجيش ضخم ودخل مدينة فاس . وفى عودته فاجأه ابن عمه الناصر بن علناس جنوبى وهران وقتله نارا لأخت له كان بلكين ظن أنها هى القاتلة لزوجها ، وكان شقيقا له ، وأعلن نفسه حاكما للقلعة وصنهاجة مكثه سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م .

والناصر بن علناس أعظم ملوك هذه الدولة وأكثرها دهاء وحكمة سياسية ، وقد دام حكمه سبعا وعشرين سنة ، ولم يشمل الجزائر جميعها فحسب ، فإن انحياز المزعز باديس وابنه تميم إلى المهديّة وأحوازها جعل حكمه يمتد من حدود المغرب الأقصى إلى القيروان

وصفاقس ، ولعل ذلك ما أوغر عليه صدر تميم ، فأوغر إلى أمراء بنى رباح أن يهاجموا الناصر قبل أن يفتك بهم ، ونالهم فى سبية شرقى الجزائر ودارت عليه الدوائر ، غير أن الناصر استطاع أن يسترد ما كان معه من البلدان فى الاقليم التونسى حتى القيروان . وكان يحدث شغب فى كثير من البلدان ويستطيع الناصر القضاء عليه ، وصاته زناته ، وعادت العلاقات حسنة بينه وبين تميم بن المعز . وكان بعيد النظر فعمل على التسامح مع المسيحيين ببلاده حتى يشعروا بالأمان ، ويعظم إنتاجهم وعملهم فيها ، وأرسل إلى البها جريجورى السامع بتركيس قيس يسمى سرفاند أسقفا لأبرشية بونة واخذى جميع الأسرى المسيحيين فى بلاده أو مملكته . وكان لذلك أثر طيب فى نفس البها فأجلبه إلى تركيس سرفاند ورد عليه سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م برسالة لطيفة قال فيها إن المسلمين والمسيحيين جميعا يؤمنون بإله واحد خالد . وخوفا على القلعة عاصمة الدولة من أن يصيبها من التخريب على أيدي العربان من بنى هلال ما أصاب القيروان وغيرها من مدن إفريقية التونسية بنى بجاية على البحر المتوسط فى الشمال سنة ٤٦١ هـ لتكون عاصمة جديدة للدولة ، وعنى بتخطيطها وتشيد قصور شامخة فيها وظلت بعده تشتهر بما فيها من مساجد ومدارس وفنادق وحمامات ومستشفيات .

وخلفه ابنه المنصور سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م وفى أول حكمه ازداد ضغط القبائل الهلالية عليه واضطرتته إلى أن تقاسم معه نصف غلة الأرض ، مما جعله يصمم على هجران القلعة إلى مدينة بجاية سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م . وخلال الستين اللتين قضاهما فى القلعة شيد عددا من القصور ، حتى إذا اتخذ بجاية عاصمة له شاد بها طائفة من القصور أهمها قصر اللؤلؤ ، وخرج عليه بعض الثوار فى بونة وقسنطينة ، وعادنا إليه ، واشتبك مع زناته فى الجنوب الغربى ورد المرابطون إلى المغرب الأقصى بعد أن استولوا على تلمسان وتقدموا إلى مدينة الجزائر . وظل سيد الجزائر دون منازع إلى وفاته سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م . وتولى الدولة بعده ابنه باديس ، وكان فظا سريع الغضب ، وتوفى بعد ستة أشهر من حكمه ، وولى بعده أخوه العزيز ، وعمل على عودة السلام بين قبيلته صنهاجة وقبيلة وامتو الزناتية وتزوج بنت زعيمها مانوخ ، وكانت أيامه هادئة وآمنة . وعنى بتشجيع الحركة العلمية والأدبية وإعداد بجاية لإيواء اللاجئين من الأدباء والعلماء الذين غادروا القلعة إلى عاصمته حين تدهورت وأصبحت نهبا للأعراب ، وكانوا قد أخذوا يتوغلون من جبال الباور إلى بونة . وتوفى العزيز سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م وخلفه ابنه يحيى ولم يستطع إعادة الدولة إلى ما كانت عليه إذ اتسعت زغبة وغيرها من القبائل الهلالية فى التخريب والقضاء على العمران فى الجزائر وخوفا على ما فى القلعة من ذخائر وطرف ومن أدوات ترف وبذخ نقلها يحيى إلى بجاية سنة ٥٤٣ هـ للهجرة .

دولة الموحدين - الدولة الحفصية - بنو عبد الواد (أ) دولة^(١) الموحدين

لم يلبث عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين بالمغرب الأقصى أن دخل بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م واصطحب يحى معه إلى عاصمته مراکش ، واتسع في إكرامه . وبذلك انتهت دولة بنى حماد في الجزائر ، وكان حكامها يأخذون بأسباب من الحضارة ، وكانوا بصيرين بشئون الحكم ، وعاملوا رعاياهم معاملة حسنة ، وأحدثوا في القلعة وبجاية وعاصمتيهما نهضة في الآداب والعلوم والتحضّر بلغت شأواً عظيماً ، وعنوا بالصناعة والزراعة والتجارة مع إفريقيا والسودان في الجنوب ومع أوروبا في الشمال ، وكان أسطولهم التجارى يبحر عباب البحر المتوسط إلى مدن إيطاليا والأندلس ، وأقاموا له ببجاية دار صناعة بحرية كبرى تمدّه بالسفن ، وقد عقدوا مع الدول البحرية الأوربية معاهدات تجارية . وبدون ريب كان لهجرة الأعراب البدو من بنى هلال واكساحهم للزاب يلهمهم ويخيلهم ورجلهم في القرن الخامس الهجرى أثر غير قليل في إفساد الزاب ، وحدثت الطامة في القرن السادس الهجرى إذ أخذوا يتقدمون إلى الأطلس التلى وجبال البايور وامتدوا شرقا حتى سهول بونة (غنابة) وأصبح بنو حماد وبجاية فى حاجة إلى من ينقذهم ، وأنقذهم عبد المؤمن خليفة الموحدين فى مراکش . وكان يعرف خطورة الهلاليين على البلاد ، فأدار معهم معركة حاسمة بالقرب من سطيف جنوبى بجاية ومزقهم تمزيقا وطارد فلولهم حتى تبة جنوبى باغاية . وتمتد هذه المعركة نهاية المعارك الكبرى للهلاليين فى الجزائر ، وأخذوا بعدها يتأقلمون ويتفرغون أو يصبّحون جزءا من الشعب المغربى ، وانتفع بهم عبد المؤمن فى حروبه بالأندلس وكذلك ابنه يوسف وحفيده يعقوب وخاصة فى معركة الأرك المشهورة . وكان نورمان صقلية قد استولوا على المهديّة سنة ٥٤٣ وبالمثل على طرابلس وطلب أهلها من عبد المؤمن النجدة ، فصار سنة ٥٥٣ بجيش ضخم وأسطول كبير إليهم ، وقلم فى الجزائر وإفريقية التونسية أطفالا الأمراء المستبدّين بالبلاد ، وحاصر المهديّة ثم طرابلس برا وبحرا سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وفر النورمان خاسئين مدحورين ، ويطبق فى الأقليمين التونسي والجزائرى ما اتخذّه فى المغرب من التراتيب المخزنية فى إدارة الحكم ، وظلت قائمة إلى نهاية الدولة الحفصية . وتظلّ الجزائر هادئة فى عهده وعهد ابنه يوسف الذى خلفه سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م وتوفى يوسف ويخلفه ابنه يعقوب

المدونين الموحدة والحفصية للزركشى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الملى وعصر المرابطين والموحدين لحمد عبد الله عتلى .

(١) انظر فى دولة الموحدين البيان المغرب لابن عذارى وكتاب المصباح للمراكشى والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون وكتاب اللئ بالإمامة لابن صاحب الصلاة وتاريخ

سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م. وفي عهده ثار عليه بنو غانية ولاية المرابطون في جزيرة ميورقة، ونزل منهم على وأخوه في الجزائر والإقليم التونسي محاولان أن يقيما فيها دولة لمقاومة دولة الموحدين بالمغرب الأقصى وبعدا جيشا لحربهم . وأحدث على قلاقل كثيرة في الساحل الجزائري بين بجاية ومليقة وكذلك في الساحل التونسي، فخرج إليه يعقوب بجيش جرار سنة ٥٨٣ وظل طوال مسيرته إليه في بلدان الجزائر وتونس بين المساجد كما بينى المستشفيات، وعلى بن غانية يفر أمامه إلى أن لقي مصرعه، وعاد يعقوب إلى عاصمته. وخلف على في شغبه على الموحدين أخوه يحيى وظل يستعين بالمصالحات الحلالية، ومرة يتصر ومرة يهزم حتى توفي في برية تلمسان سنة ٦٣١.

(ب) الدولة^(١) الحفصية بجونس

في هذه الأثناء قامت الدولة الحفصية ، وكان مؤسسها أبو زكريا بن عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص واليا للموحدين على إفريقية التونسية ، واستطاع أن يخضع الجزائر ، أو بعبارة أدق أن يضمها إلى ولايته ، إذ كانت دولة الموحدين قد ضعفت ضعفاً شديداً ، فاستقام له حكم البلدين حكماً رشيداً يقوم على نشر العدل والأمن في البلاد ، وحين نشأت الدولة المرينية ظلت تملن البيعة والولاء له حتى وفاته سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٨ م وكذلك لابنه محمد ، وكان التار قد قضوا على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وأصبح المسلمون بدون خلافة ، فانتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعمل بعض أتباعه على أن يتابعه مكة بالخلافة وبإيعته، وتسمى باسم أمير المؤمنين وتلقب بلقب المستنصر بالله ، وكان عهده في الجزائر شرقاً وغرباً - كعهد أبيه - عهد رخاء واستقرار إلى وفاته سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٥٨ م . وقامت منافسات على الحكم بين أبنائه واقتتلوا وأخذ حكم الدولة ينحسر عن غربي الجزائر كما أخذ المرينيون ينخلصون من الولاء لهم ، واقتحم الجزائري أبو يحيى أخو السلطان يوسف بن يعقوب المريني سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م ودخل بجاية وخرّب يستئنها المسى بالبديع وعاد أدراجة . وانتهى من حيثذ حكم الدولة الحفصية بالجزائر ، فلم تعد تمد سلطتها على تاهرت وشرشال ومدينة الجزائر ، إذ تراجع حكمها - حتى نهاية أيامها في القرن العاشر الهجرى - إلى بجاية وسطيف وبسكرة وقسنطينة والزاب . وفي الأكثر كانت تفرض تلمسان في عهد بنى زيان سلطتها على الجزائر الغربية وأحياناً كان يفرضه عليها بنو مرين وقلما كانت تفرضه الدولة الحفصية . وحاول الخليفة الحفصى أبو عصيد تلافى هذه الخصومة سريما ، فأرسل في سنة ٧٠٣ وفدا

الحفصية لابن الشماخ والقارسية في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنط وتاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد الللى .

(١) انظر في الدولة الحفصية البيان المغرب لابن علقري وتاريخ ابن علقري والاستنصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي وتاريخ الدولتين الموحدة والحفصية للزركشى والأدلة الفقهية للتونسية في طائفة الدولة

إلى السلطان المريني لتحسين العلاقات بينهما ، وتحسنت وتعددت بينهما السفارات . وأخذت الدولة الحفصية تزداد ضعفا في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، مما جعل السلطان المريني أباً الحسن يحتاج تلمسان والجزائر ويدخل تونس سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ويظل بها ستين ، ويعلم بثورة أبي عنان ابنه عليه في المغرب الأقصى فيعود إلى بلاده . وتعود للحفصيين دولتهم في طرابلس وتونس والجزائر الشرقية حتى بجاية ، ويحاول أبو عنان - بعد توليه الحكم - الاستيلاء من جديد على تونس ويكسح الجزائر سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م ويوجه إلى تونس حملة بحرية لمعاونة القوات البرية . ويستولى عليها لمدة شهرين ، إذ يضطر إلى مبارحتها لثورة قبيلة رياح عليه ويهدم حصونها في الزاب ، ويعود إلى فاس عاصمته . وتستعيد الدولة الحفصية مدنها في الجزائر الشرقية وتحسن العلاقات بينها وبين الدولة المرينية . وتعود إليها قوتها في عهد السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز فيعد سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م جيشا جرارا يفتح به غربي الجزائر وتلمسان حتى إذا اقترب من فاس يريد غزوها أرسل إليه صاحبها أبو سعيد عثمان المريني رسالة يقول فيها : « إن البلاد بلادكم والسلطنة سلطتكم وجميع ماتأمروننا به ننتله » وكانت الرعية شكت من ظلمه فأمره أبو فارس بالعدل الذي لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وعاد إلى عاصمته تونس . ويتولى الحكم بعده حفيده أبو عمرو عثمان سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م وامتد حكمه إلى خمسة وخمسين عاما نعمت فيها تونس والجزائر الشرقية بالأمن والعدل والرخاء ، واثارت عليه تلمسان فاستردّ ولأهأا لدولته وهو خاتمة الخلفاء الحفصيين المهين ، وتوفي سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م وأخذت الدولة بعده في التدهور وأخذت تستقل عنها بعض البلاد في إقليم الجزائر الشرقية .

(ج) بنو عبد^(١) الواد بلمسان

لم تفصل القول حتى الآن عن تلمسان ، وكان بنو زناتة يسيطرون عليها ، ومر بنا أن الأدراسة استولوا عليها ، وأن الفاطميين أخضعوها لهم بعدهم ، وانحسرت عنهم دولتهم ، أو ثاروا عليها ، مما جعل صنهاجة يزعمه بلكن تغزوهم سنة ٣٦٨ للهجرة ويثأرون لأنفسهم يزعمه زيري بن عطية سنة ٣٨٩ وتهمهم صنهاجة سنة ٣٩٥ وتظل زناتة مهيمنة على تلمسان إلى أن يستولى عليها يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقي للدولة المرابطية بمراكش سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م وتظل تابعة للمرابطين إلى انتهاء دولتهم ، ويتبع بعدهم دولة الموحدين . وقرّبوا منهم بنو عبد الواد الزناتيين . وفي سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م ولوا منهم جابر بن يوسف

حاجب وكاتب الاستنساخ لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي وتاريخ ابن خلدون وكاتب أبو حو موسى الريني للدكتور عبد الحميد حاجب وتاريخ الجزائر في القديم والحديث المبارك بن محمد الليل

(١) انظر في بني عبد الواد أبوي زيان كتاب تاريخ بني زيان ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التسي تحقيق د. محمود بوعاد وكتاب بنية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد لمحي بن خلدون تحقيق د. عبد الحميد

على تلمسان فأخذ يعمل على الاستقلال ببلده عن الموحدين ، غير أنه توفي سرعاً ، وخلفه بعض أفراد من أسرته ، وصارت سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م إلى يَفْعُرَاسَن فأعلن استقلاله عن الموحدين ، ونصب نفسه أميراً للمسلمين ، وسير إليه أبو زكريا الحفصى أمير إفريقية التونسية والجزائر الشرقية جنده فأعلن له الولاء ، وعاد بجنده . وزحف إليه السعيد الموحدى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م واتصر عليه يفراسن . ونشبت بينه وبين قبيلة المعقل وغيرها من القبائل الصحراوية حروب كثيرة ، وجعل بينه وبينها قبيلة بنى عامر لتدراً خطرها ، وواقع مرارا بعض أعمال تلمسان فى غربى الجزائر ، وتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م بعد أن ثبت فى تلمسان دعائم الملك لأبنائه . وخلفه ابنه أبو سعيد عثمان ، وقد وسع أطراف مملكته فى غربى الجزائر حتى جبال ونشريس ومدينة المديّة فى الأطلس التلى جنوبى مدينة الجزائر ومدينة تنس على الساحل غربى شرشال . وغزا تلمسان لهده سلطان الدولة المرينية يوسف خمس مرات هزم فى أربع منها وفى الخامسة حاصر تلمسان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م وظل محاصرا لها ثمانى سنوات وثلاثة أشهر ، ومات أبو سعيد فى الحصار كمدا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وأعقبه ابنه أبو زيان وتوفى كمدا مثله سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وفى نفس السنة توفي السلطان المرينى يوسف وفكّ المريدون الحصار عن تلمسان ، وكان وليها أبو حمو موسى الأول فاشتغل بتثبيت ملكه وغزا غربى الجزائر واستولى على مليانة ومدينة الجزائر وسهل متيجة جنوبيها وكاد يستولى على بجاية وقسنطينة واغتيال سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وخلفه ابنه أبو تاشفين ، وكان مولما بتشيد القصور ونزل قسنطينة وأفسد الزرع ، واستولى على بجاية من الدولة الحفصية مما جعل سلطانها يطلب العون من بنى مرين أصحابه فتشعق له سلطانهم أبو الحسن ، فرد أبو تاشفين رسله إليه أسوأ رد . فحاصر تلمسان ، وبنى أمامها مدينة غريبها لسكانها المنصورة وضيق عليها الحصار وشدّ الخناق ستين حتى دخلها عتوة سنة ٧٣٧هـ وقاتل أبو تاشفين وأبناؤه دونها وقتلوا جميعا ، وبذلك انتهت دولة بنى عبد الواد الأولى بتلمسان بعد أن حكمتها مائة عام ونيفا .

وأخذ أبو الحسن المرينى يستولى على بعض البلدان فى غربى الجزائر . وفى سنة ٧٤٨ عين ابنه أباعنان على تلمسان وماصار إليه من بلدان الجزائر ، وزحف شرقا إلى تونس واستولى عليها من السلطان الحفصى وظل بها مايقرب من ستين ، وعصته القبائل العربية فى تونس ونازلته وهزمت ، وجاءته أخبار بأن أباعنان ابنه غادر تلمسان إلى فاس العاصمة ودعا لنفسه فيها فبارح تونس سرعاً إلى فاس ، وفى هذه الأثناء انتهز أميران من الأسرة الزيانية الفرصة هما : أبو سعيد وأبو ثابت واستوليا على تلمسان سنة ٧٤٩ واشتركا فى حكمها ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ نازلها السلطان المرينى أبو عنان واستولى منهما على تلمسان ، ونرى الشاب الزياني أباحمو موسى الثانى يفر إلى تونس ويكرمه سلطانها ووزيره ابن تافراكين . وفى سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م جهز أبو حمو موسى الثانى جيشا من تونس والجزائر وفتح تلمسان وأخرج

منها المرينين وأعادها إلى أسرته . ولم تسم الدولة حينئذ دولة بنى عبد الواد ، بل تسمت باسم دولة بنى زيان نسبة إلى أحد الجدود الأولين ، وهو أبو يغمراسن مؤسس الدولة الأولى ودبر أبو حمو أمور الدولة تدبيرا سديدا ونهض بتلمسان نهضة علمية وأدبية ، وكان شاعرا ، واتخذ هو وخلفاؤه لقب أمير المؤمنين واصطنعوا بها لما نظاما شبيها بنظم الخلافة فى الشرق فصل القول فيه الحسن الوزن فى كتابه وصف إفريقيا قائلا إنهم اتخذوا مراسم دقيقة إذ قسموا الإدارة قسمين إدارة عسكرية وإدارة مدنية ، وعلى رأس الأولى القائد ، وعلى رأس الثانية الكاتب الأول ، ومن ورائهما خازن المال أو الصراف الذى يأمر بصرفه إلى مناصب ووظائف عديدة . وتوفى أبو حمو موسى الثانى سنة ٧٩١ وتنازع أبنائه وتقاتلوا فى سبيل الاستيلاء على الحكم ، ومن أهمهم أبو زيان استولى على مقاليد الحكم سنة ٧٩٦ وكان عالما شاعرا وتهادى مع السلطان المملوكى بقرق وقتل سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م بيد أخيه أبى محمد عبد الله وحكم تلمسان حتى سنة ٨٠٤ . وخلفه أخوه أبو عبد الله محمد المعروف بلبن خولة إلى سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م وأخذ يكثر فى الأسرة القتل والخلع ، وتدخل الدولة الحفصية لنصرة الأخ على أخيه أو القريب عما أو غير عم على القريب . وفى سنة ٨٢٧ استولى السلطان أبو فارس الحفصى على تلمسان ، واتسع من حينئذ تدخل الدولة الحفصية فى تولى حكام الدولة الزيانية ، وقد ولّى عليها أبو فارس الحفصى أبا مالك عبد الواحد وقتل سنة ٨٣٣ وتولاها أحمد العاقل ابن أبى حمو وتولاها المتوكل بعده سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦١م وثار عليه محمد بن غالبية وقضى على ثورته وتاريخ وفاته شديد الغموض .

وأخذت دولة بنى زيان بتلمسان وغربى الجزائر تدهور سريعا منذ نهاية القرن التاسع الهجرى ، وبالمثل تدهورت الدولة الحفصية فى شرقي الجزائر وتونس وطرابلس ، وكان فرديناند ملك إسبانيا قد أخرج العرب من غرناطة آخر قلعة بالأندلس ، فنزلوا سواحل الجزائر وتونس وطرابلس ، فرأى أن يستألف الحروب الصليبية بتعقبهم فى تلك السواحل ، وأطمعه أنه لم يجد للدولة الزيانية ولا للدولة الحفصية أسطولا يحمى ثغورها على البحر المتوسط ، واستولى فى الساحل الغربى للجزائر على المرسى الكبير إلى الشمال الغربى من وهران سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٥م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٩م وأيضا على مستنقعات ومدينة الجزائر إلى الشرق من وهران ، واستولى فى الساحل الشرقى للجزائر التابع للدولة الحفصية على بجاية سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م وأيضا على ثغرى جيجل وعنابة ، وكثما أصبح الساحل الجزائرى جميعه غربا وشرقا فى قبضته ، إذ أحمل التلمسانيون والحفصيون الرباطات والمحارس الساحلية التى أكرم الأسلاف من إقامتها على البحر المتوسط حماية للبلاد من قراصنة الغرب .

وفى هذه الأثناء كان يجوب البحر المتوسط بطلان تركيان من رجال البحر هما عروج وخير الدين (بربروس) وكنا قد تطوعا بنقل الأندلسيين المطرودين من غرناطة وإقليمها إلى سواحل البلاد المغربية، وغضبا غضبا شديدا لاستيلاء النصارى الإسبان على سواحل الجزائر الإسلامية والبلدان المغربية وصمما على إيقادها منهم، واتفقا مع الخليفة أمي عبدالله الخفصى أن يتخذوا جزيرة جربة في تونس قاعدة لضرب الأسطول الإسباني وتحرير الساحل الجزائري. ولم يلبث أن استولوا من الإسبان على مدينة الجزائر سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م وأنشأ يديران منها معارك حامية مع الإسبان، اشترك معهم فيها الجزائريون والأندلسيون المهاجرون الموتورون من فرديناند والإسبان، وحميت المعارك وأخذت بعض الموانئ الساحلية تسقط في حجر البطليين، وتوفى عروج قبل الأوان، ومضى خير الدين في حملاته، ورأى - بشاقب نظره - أنه لا يستطيع إقامة ملك تركي مستقل بالجزائر، فأرسل إلى السلطان العثماني بولاته له هو وفتوحاته في الساحل الجزائري، وقبل منه ذلك، وسماه: «بايلاريك»، أي أمير الأمراء، وأمه بجند وأسطول، وبذلك دخل الأتراك الحرب ضد الإسبان المعتدين، واستطاع خير الدين (بربروس) حتى سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٦م أن يحرق الساحل الشرقي والغربي من الجزائر ما عدا المرسى الكبير وهران، ودمر الأسطول الإسباني في مواقع عديدة. وبذلك وقف هذه الحرب الإسبانية الصليبية، وثققت الإسلام في إفريقيا، وأسس بقوة السلاح - في الجزائر - دولة إسلامية عثمانية. وظلت الملمحة الحربية دائرة في الجزائر بين النصرانية تمثلها إسبانيا والإسلام يمثلها الترك. ويخلف خير الدين (بربروس) ابنه حسن، وتمنحه الدولة العثمانية لقب بايلاريك مثل أبيه، وكان على شاكلته بطلا مقداما. وشن شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م حملة بحرية على مدينة الجزائر ظل يستمد لها طويلا، وما إن ألم بأسطوله بها حتى سُحق سحقاً أمام المدينة، وغنم البايلاريك حسن والجزائريون والأندلسيون المهاجرون كل ما كان بالأسطول من سلاح وآلات وعُدَد. واستولى البايلاريك حسن على المرسى الكبير وهدمه، كما استولى عنوة على كل المواضع التي كان يحتلها الإسبان هناك ما عدا وهران، فقد بقيت في يد الإسبان حتى سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م إذ استطاع القائد أوزن حسن في عهد الباشا محمد بكداش فتحها وطرد الإسبان منها، وعادت إليهم سنة ١١٤٤هـ/١٧٣٢م إلى أن طردوا.

القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر المجرى للذكور
أمي القلم سعد الله ومادة الجزائر في ملحة المعارف
الإسلامية.

(١) انظر في المعهد العثماني بالجزائر كتاب الجزائر
لأحمد توفيق اللقي وكتاب تاريخ الجزائر
لمحمد الرحمن الجيلال وكتاب تاريخ الجزائر الثقاني من

منها نهائيا فى عهد الباي محمد الكبير سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١م . وفى عهد البايلاريك حسن عاد الإسبان بعد هزيمة شارل الخامس بقيادة الكونت دالكادوت سنة ١٢٦٥هـ/١٥٥٧م وأدبروا معركة عند مدينة مستغانم شرقى للرسي الكبير وسرعان ما قادهروا وقُتل قائلهم وفروا إلى البحر وماورله ، وهو ما حدث للأسطول الدنماركى سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م ولحملة أدرلى الإسبانية آخر القرن الثاقى عشر للمجرى .

ويذكر للبايلاريك حسن بن خير الدين أنه بسط الحكم التركى أو العثمانى على الجزائر جميعها على الساحل والجبل التلى والدانخل ، وكان ملوك تلمسان الزناتيون يناورونه - كما ناوروا أباه خير الدين - فارة معه وتارة مع الإسبان ، وسم أهلها من هذا الصنيع ، وأقضى مجلس علماء تلمسان بخلع الحسن آخر ملوكهم سنة ٩٦٢ فالتجأ إلى إسبانيا وبها قضى نفيه ، وأظلم الحكم العثمانى تلمسان منذ هذا التاريخ مثل أخواتها من المدن الجزائرية . وكانت تحدث أحيانا مناقشات حرية بين الجزائر والدولة العلوية فى المغرب الأقصى ، ولعل أهمها ما حدث زمن إسماعيل العلوى فى ستنى ١١٠٢هـ/١٦٩١م و ١١١٤هـ/١٧٠٣م إذ باءت بالإخفاق الفزع محاولاته فى نزاع إقليم تلمسان من الجزائر العثمانية .

وقد وضع البايلاريك خير الدين للجزائر العثمانية ناموس الحكم وقوانينه ورتب الدولوين وقدر الرواتب ، وخلف حلبة عسكرية عثمانية من الإنكشارية ، وهم جند الدولة العثمانية الذين كانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وكانوا من الأناضول أو من رعاياها . وفى الأكثرية كانوا من سايها فى أوربا ، وكان على كل مائة منهم رئيسا يسمى الداي . وخطب الخطباء فى بلدان الجزائر باسم السلطان العثمانى وضربت السكة باسمه ، وتولى أربعة بلقب البايلاريك (أمير الأمر) حتى سنة ٩٩٥هـ/١٥٨٧م ، وكانوا أشبه بمحكام مستقلين يديرون شئون البلاد مع الاعتراف بسيادة السلطان العثمانى الأعظم ، وحاولوا الحد من سلطان الإنكشارية بتكوين فرق مجتدة من العرب ، وخاصة من قبائل التلى وزواوة .. وأقلق استقلالهم الدولة العثمانية فى الآسنة ، فرأت أن يتحول الحكم فى الجزائر من البايلاريك إلى الباشا وظل عهد الباشاوات حتى سنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م وكان الباشا يولى لمدة ثلاث سنوات ، وقد تجبره الإنكشارية وروساؤها إلى العودة قبل ذلك ، مما جعل مددهم قصيرة وحاولوا لذلك جمع ثروات طائلة ، وثار عليهم الأغوات من قادة الإنكشارية فاستولوا على لزمة الحكم ولم يعد للباشاوات إلا بعض المهام التشريعية حتى سنة ١٠٨١هـ/١٦٧١م واختل الأمن فى هذا العهد ، واغتيال الأغوات جميعا ، واغصب السلطة رؤساء الإنكشارية المعروفين باسم الدايات حتى الاحتلال الفرنسى سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م وانخفضت الباشاوات فلم يعد الباب العالى العثمانى يولى منهم أحدا ، إذ أصبح الداي الذى يتخبه رؤساء الإنكشارية الحاكم المطلق فى الجزائر ،

وكانوا يولونه ويخلعونوه وفقا لأهوائهم ، ويستجيب لهم الباب العالي ، وبلغوا حتى الاحتلال الفرنسى ثمانية وعشرين دايّا ، اغتيل نصفهم . وأخذ الحكم يفسد ، وزاد فى فسادة أن القرصنة التى كانت مصدر دخل كبير للدولة فى القرنين السادس عشر الميلادى والسابع عشر ضعفت وتضاءلت لسيطرة الدول الأوربية العظمى على البحر المتوسط ، وعوض ذلك الدايات بكثرة السلب والنهب من الجزائريين مما أدى إلى فساد الحكم العثمانى فى هذا العهد - وخاصة فى أواخره - فسادا شديدا . وكانت سلطة الداي - كما قلنا - مطلقة ، وكان يعاونه فى الحكم مجلس يعرف بالديوان لا يقطع أمرا دون مشورته ، وهو أشبه بمجلس وزراء ، وكان يتألف من ستة : الأغا وهو القائد الأعلى للقوات البرية ، ووكيل الخرج وهو وزير البحرية ويشرف على القرصنة ، والقبودان وهو القائد للأسطول وجند البحر ، والخزنجى وهو وزير المالية ، وخوجة الخوّل وهو جلّى الضرائب وشيخ المدينة المشرف على القضاء والشرطة ، والباشا كاتب وهو رئيس الديوان ومعهم بعض كبار رجال الدين ونيقب الأشراف . ويجتنب هذا الديوان أو المجلس مجلس الديوان العسكرى ويتألف من رؤساء الجنود ، ومجلس الرياس البحرى ويتألف من قواد البحر ، وكان لهذين المجلسين نفوذ كبير . وكان هناك مجلس أعلى للقضاء يرأسه القاضى الخفى ، وكان فى أول الأمر يأتى من الأستاذة مع الوالى ، ويعاونه فى المجلس قضاة مذهبى الحنفية والمالكية . وكانت تعرض على المجلس بعض أحكام القضاة مما يستوجب إعادة النظر ، وهو أشبه بمجلس استئناف شرعى . وكانت الجزائر مقسمة إلى ثلاث ولايات كبرى : ولاية قسنطينة فى الشرق ، وولاية تبطرى فى الوسط وعاصمتها مدينة المديّة ، وولاية غربية وكانت عاصمتها مدينة مزونة ثم معسكر منذ سنة ١١٢٢هـ/١٧١٠م ثم وهران منذ سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م وقسمت هذه الولايات - أو كما كانت تسمى البكويات نسبة إلى البك حاكمها من قبل البابلاريك أو الباشا أو الأغا أو الداي ، وكان لكل بك سلطة واسعة فى ولايته . وكانت صلته بالحاكم العثمانى فى مدينة الجزائر تنحصر فى شيئين أساسيين هما : جباية الأموال فى ولايته وأداؤها للخزينة العامة ، وجمع الجند الذين يبنى أن يرسل بهم للخدمة فى الجيش ، وكنوا جندا معاونا يعاونون فى الأزمات تحت قيادة الضباط العثمانيين . وكانت بالجزائر قبائل كثيرة فى الأطلس التلى ووراءه وبالتلى فى الأطلس الصحراوى ووراءه فى الصحراء الجنوبية ، وكانت هذه القبائل قسمين : قسا تفاوت تبعته للدائى أو للعثمانيين قوة وضعفا ويدفع العشور وضرريته تسمى لازمة ، وقسا مواليا للدولة معفى من الضرائب ما عدا الرسوم القانونية ، وتسمى قبائله باسم قبائل المخزن ، وكانت تمد الدولة العثمانية فى الجزائر بالهارين وجباة الضرائب وموظفى الشرطة المحافظون على الأرض فى البلاد . ودعموا دائما شيوخ القبائل ، فكانوا يقطعونهم الأراضي ويمدونهم ، - إذا شاءوا - بالحمايات العسكرية ،

ورفضوا على أنفسهم تجلة علماء الدين ، وأشركوا بعض كبارهم فى ديوان الحكم ، كما مر بنا ، وبالمثل كانوا يجلبون المتصوفة ويحمون طرقهم ويطلبون منهم البركات والعون على الرعية . وكان العثمانيون طوال حكمهم للجزائر يستأثرون بكل مناصب الدولة ، مع أنهم دخلوها يطلب من أهلها لعونهم ضد الغزو الإسباني ، وهم إخوانهم فى الدين ، والعدو عدو لديهم معا ، فكان ينبغي أن يطبقوا تعاليم الإسلام وأن يوثقوا الأخوة بينهم وبين الجزائريين وأن يشاوروهم فى الحكم وأن يفسحوا لهم فى تولى مناصب الدولة الرفيعة . ونعجب إذ نراهم يعاملون الجزائريين معاملة المتصهر للمهزوم . وكثيرون من القوة الإنكشارية ورؤسائها تزوجوا من جزائريات ، ومع الزمن نشأت طبقة من الأبناء آبائهم عثمانيون وأمهاتهم جزائريات ، وكان العثمانيون يسمونهم كراغلة جمعا لكرغلى ، وجعلوهم أدنى منهم مرتبة فلا يولون منصبا رفيعا من مناصب الدولة ، فضلا عن منصب الداي الحاكم للبلاد باستثناء اليايلارليك حسن بن خير الدين ، فقد كانت أمه جزائرية . وفى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى (السليح عشر الميلادى) تمرد الكراغلة فقبضوا على رؤسائهم ونكّلوا بهم ، وبذلك أوصدوا الأبواب فى وجوههم ، فلم يتولوا المناصب العليا فى الدولة مثلهم فى ذلك مثل الجزائريين . وكان الجزائريون يثورون أحيانا على العثمانيين ، غير أن لب الثورة كان ينطفئ سريعا ، ومن أهم ثوراتهم ثورة زواوة سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م بسبب ضرائب جديدة فرضت عليها وظلت الثورة نحو عام وقضى عليها حين جندت لها الدولة جيشا جرارا .

وكانت الجزائر قد منيت - منذ أواخر القرن الحادى عشر الهجرى (السليح عشر الميلادى) بعهد الدايات وفى عهدهم أخذت تشيع الرشوة ويشيع الظلم واغتصاب الجنود الإنكشاريين من المواطنين الأموال عسفا دون أى مراعاة لدين أو خلق . وظل الدايات بعيدين عن الشعب الجزائرى لا يعرفون لغته ولا عاداته وتقاليده وطرق معيشته ، ولم يحاول أحد منهم أن يجعل حكم الجزائر وراثيا فى أبنائه كما فعل بايات تونس وباشوات طرابلس ، ولو حدث ذلك لأصبح الحكم العثملى فى الجزائر شيئا فنيئا وطنيا على نحو ما حدث فى تونس وطرابلس . وما نصل إلى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) حتى يهبط الدخل العام للدولة بسبب ضعف القرصنة كأأسلفنا وما تنجس الدولة منها من أموال . ولم تكن القرصنة فى نظر الجزائريين والترك لصوصية بحرية كما قد يظن ، بل كانت فريضة جهاد لإزاء دار الحرب الأوربية النصرانية ، وظلت موردا مهما للجزائر منذ القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر . وكان القرصنة الجزائريون والترك والمهاجرون من الأندلس يغيرون على سواحل إسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا ويعودون بثنائهم وأموال وافرة . ومنذ أواسط القرن الثانى عشر الهجرى (السليح عشر الميلادى) كانت تقاومهم أساطيل إنجلترا وفرنسا ، غير أن الدول والإمارات الأوربية الصغيرة مثل السويد والدانمارك وهولندا وناپولى ظلت طويلا تدفع لدولة الجزائر العثمانية إتاوة سنوية نظير ضمان

قراصنتها لسلامة رعاياها ، وكان القراصنة يجلبون إلى الجزائر مئات بل آلاف من الأسرى الأوربيين المسيحيين ، وكثيرا ما كانت تكتظ موانئ الساحل الجزائري بأفواج منهم ، وكانوا يعاملون - حسب تعاليم الإسلام - معاملة كريمة ويؤدون شعارهم الدينية في حرية تامة ، في الوقت الذي كانت فيه إسبانيا تخير الأندلسيين فيها بين التنصر أو الموت ، راكلة بأفداهما حقوقهم الإنسانية المشروعة . واعتنق كثيرون من هؤلاء الأسرى الدين الحنيف ، وآثروا البقاء في الجزائر ولم يقبلوا الرجوع إلى أوطانهم وبلدانهم الأوربية .

وبينما كانت الجزائر العثمانية تعاني من أزمة اقتصادية خانقة في أواخر القرن الثاني عشر الهجري وأوائل الثالث عشر (أواخر القرن الثامن عشر الميلادي) بسبب تضائل موارد القرصنة إذا شركان يهوديان ليهودي يسمى نقتال تسيطران على اقتصاد البلاد وتمتصان خيراتها منذ سنة ١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م وما يزال سخط الجماهير والإنكشارية العسكرية يزداد على هذا الرجل حتى إذا كانت سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م ثاروا عليه وعلى اليهود ثورة عنيفة قتلوه مع كثيرين من إخوانه في الدين . وفي سنة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م حطم الداي على خوجه النفوذ التركي باعتماده على الجند الزواوي الجزائري الوطني ، وبذلك أخذت الحكومة العثمانية في الجزائر شكلا وطنيا كان له فرحة عميقة في نفوس الجماهير ، ولم تبق للعثمانيين في الجزائر إلا سلطة اسمية ، وتوفى على خوجة سنة ١٢٣٤هـ/ ١٨١٨م . وولى الجزائر بعده وزيره حسين دايًا ، وفي هذه السنة اتخذ مؤتمر لاشليل قرارا بإلغاء القرصنة ، وذهب إلى الجزائر وفد إنجليزي فرنسي لإقناع الداي بإلغائها نهائيا ، غير أنه أصرَّ على إبقائها مع كل دولة لا تؤدّي للجزائر إتابة لسلامة سفنها ورعاياها . وكانت الشركان اليهوديان المذكورتان أقبا مدينتين للداي والجزائر بنحو مليونين ونصف من الفرنكات ، وكلتا تدينان فرنسا بنحو سبعة ملايين لصفقات من القمح اشتريتها ، وقررت في سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م أن تدفع للشركين مبلغ أربعة ملايين ونصف ، وكان الداي أبلغها ماله على الشركين من دين حتى تحتفظ عندها بدينه عليهما ، ولم تمره اثنتان مما أثار غضبه ، وفي استقبال الداي لرجال السلك السياسي ببلربل سنة ١٢٤٣هـ/ ١٩٢٧م تناور مع القنصل الفرنسي ويقال إنه أثار حفيظته فصاح به مشيرا بمروحة في يده مسها طرفه وطرده . وعُدّت فرنسا تلك إهانة وطلبت من الداي اعتذارا علنيا ، فلم يعتذر . وفي يونيو من هذه السنة أعلنت الحرب على الجزائر وحاصرتها لمدة ثلاث سنوات وأخذت في الإعداد لحملة عسكرية ، وفي مارس سنة ١٨٣٠هـ/ ١٢٤٥م قال شارل العاشر ملك فرنسا في خطاب العرش : إنه سيقوم بعمل لرضية الشرف الفرنسي فيه فاتمة للمسيحية ، وكأنه عدّ حربه للجزائر حربا دينية بين المسيحية والإسلام . وفي آخر مايو سنة ١٨٣٠م أقلع وزير الحرب الفرنسي دي بورمون بلسطول حربي ضخم أنرسى بسيدى فرج بالقرب من مدينة الجزائر ، ودارت معارك ضارية لمدة شهر اضطر الداي بملها إلى الاستسلام في الخامس من

شهر يولييه وأُجبر هو والإنكشارية على الرحيل عن البلاد . وبذلك انتهت مدة العثمانيين في الجزائر بعد أن استمرت أكثر من ثلاثمائة عام وبدأ الاحتلال الفرنسي الآثم وظل الجزائريون يجاهدون الفرنسيين جهادا عنيفا أبلوا فيه بلاء عظيما تحت راية البطل المغوار الأمير عبد القادر حتى سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م ولم تسقط الراية من أيدي المجاهدين فقد تسلمتها لالا فاطمة في شرقي الجزائر سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م وحملها سى سليمان وبيته من عشيرة سيدى شيخ لمدة عشرين عاما منذ سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م كما حملها مُقرّاني وأخوه في منطقة قسنطينة لمدة عامين . وهذه الحركات التحررية جميعها مكاتها في صحف تاريخ الأدب الجزائرى فى العصر الحديث .

الفضل الثاني

المجمع الجزائري

١

عناصر^(١) السكان

البربر هم العنصر الأول الذى ملأ بقائله وشعوبه وبطونه السواحل والسهول والتلال والجبال والهضاب من إقليم الجزائر ، مثله فى ذلك مثل بقية أقاليم المغرب ، واختلف المؤرخون طويلا فى نسب البربر من الأمم القديمة ، فقليل إنهم أخلاط من اليمن فى آسيا ، وقيل إنهم من لخم وجذام كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها بعض ملوك فارس ، فلما وصلوا إلى مصر منعهم ملوكها من المقام بها ، فعبروا النيل إلى ديار المغرب وانتشروا فى أرجائها ، وقيل إنهم من ولد القبط المصريين ، وقيل هم من ولد جالوت ولما قتل رحل بهم إفريقش من ساحل الشام إلى ديار المغرب وأسكنهم إفريقيا ، وقيل هم قبائل شتى من حمير اليمنية ومضر العدنانية والقبط والعمالقة والكنعانيين ، وقيل إنهم أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح ، وكان مازيغ أخا لفلسطين ، وبارح أبنائه الشام إلى ديار المغرب فهم حاميون . ويعلق ابن خلدون على هذه الأقوال فى أتساب البربر وما يماثلها بقوله : إنها « أحاديث خرافة » ، إذ مثل هذه الأمة (البربرية) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض لا تكون متقلة من جانب آخر وقطر محصور ، والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام ، فما الذى يوجبنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم ، ولا يحتاج إلى مثله فى كل جيل وأمة من العجم والعرب . ويذكر ابن خلدون أن من النسلين البربر من يزعم فى بعض قبائلهم وشعوبهم أنهم من حمير اليمنية مثل لواته وهوارة وزناتة ، ثم يقول : الحق الذى شهدت به الرطاة والحجة (فى ألسنة البربر) أنهم بمعزل عن العرب . وابن خلدون محق فى قوله إن ذلك كله خرافة وترهات ومزاعم باطلة ، ولا حاجة - أى حاجة - للبربر به ، إذ هم شعب عريق لا يقل عراقة عن العرب والمصريين والفرس والروم ، عاشت

تاريخ المغرب لرشيد الناصورى وتاريخ المغرب فى القديم والحديث لبارك الملى وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني وكلمة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى تلك العناصر الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان ولبيان المغرب لابن عذارى والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ المغرب الكبير لديبوز والجزء الأول من

قبائله فى ديار المغرب : جزائر وغير جزائر من عصور حقيقه ، وهم لا يمتون إلى السامين عربا وغير عرب بأى عرق ، وأولى أن يُعدّوا حاميين إفريقيين ، ولعل ذلك ما جعل لبن خلدون يقول عن اقتناع : « والحق الذى لا ينفى التعميل على غيره فى شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح .. وأن اسم أبيهم مازيغ بن كنعان » ويؤيد رأى لبن خلدون ما ترجمه الدراسات اللغوية المقارنة بين اللغتين البربرية والمصرية القديمة الحامية من أن بينهما تشلها فى النظام الفعل وفى بعض الصيغ مما يؤكد أن البربر من الحاميين .

وكأن فى نسب البربر اختلافا فى الآراء كذلك كلمة البربر نفسها ، فمن قائل إن البربر هم الذين سما أنفسهم بهذا الاسم من قديم ، ومن قائل إن العرب هم الذين أطلقوا هذا الاسم على سكان البلاد المغربية لعدم فهمهم للغتهم ، ومنه قالوا « بربر » الشخص إذا تسم بالكلام ولم يعرف السامع المراد ، ومن قائل إن الكلمة من أصل لاتينى هو بربروس Barbarus وهو من لا يفهم كلامه ، وأطلق الرومان الكلمة على شعوب البربر ، لأنهم يتكلمون بلغة لا يفهمونها ، ولعل هذا القول أكثر الأقوال سدادا ، لنزول الرومان فى المغرب من قديم ، وعندهم أخذها العرب وأطلقوها على سكان المغرب جميعا .

وما زال البربر بعيدين عن الشعوب القديمة لا يتصلون بها حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد - وربما قبله أو بعده بقليل - أخذ الشعب الفينيقي اللبنتى - وكان شعبا يحترف الملاحة - تجوب أسراب منه سواحل البلدان المغربية بحثا عن أماكن صالحة لرسو سفنهم وتبادل السلع مع السكان من البربر ، واختاروا قرطاجة فى الإقليم التونسى فنزلوا بها أو قل اختاروا موقعها فأسسوا به أول موطن إفريقى لهم ، وأخذوا يحثون سريعا عن مواطن لهم فى ساحل الجزائر ، فاختاروا بونة (عنابة) وجيجل وبجاية وشرشال وإسكيكدة غريبها وأخذوا يختلطون بسكان تلك المدن وينشرون بينهم حضارتهم الفينيقية ، ويعلمونهم الزراعة وغراسة الأشجار . ويُظنّ أنهم نقلوا إلى الجزائر أشجار الزيتون والنقل والفاكهة ، وعلموا الجزائريين أيضا الملاحة والتجارة وكانت قوافلهم تجوب الجنوب وتحمل منه بعض الزنوج ، وسمحو لليهود منذ القرن الثالث قبل الميلاد بالنزول فى مدنها . وبذلك كانت تعيش فى الجزائر لعهد الفينيقيين عناصر من اليهود والزنوج بالإضافة إليهم وإلى البربر .

وينشب صراع هائل بين قرطاجة وروما وينتهى سنة ١٤٦ قبل الميلاد باستيلاء روما على المدن الفينيقية فى الإقليمين الجزائرى والتونسى ، ويستوطن هذه المدن كثير من الأسر الرومانية ، وتكثر روما من قوافلها إلى الجنوب ، وتعود محملة بكثير من الزنوج الذين يستخدمون فى الزراعة والرعى . ومنذ سنة ٧٠ للميلاد يفد على المدن الفينيقية بعض الأسر اليهودية بعد تدمير الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس . وتستولى جموع الوندال الألمان من روما على الإقليمين

الجزائري والتونسي في سنة ٣٩٠ للميلاد ، وتظل بها نحو مائة عام إلى أن يخرجهم منها قائد
يزنطى سنة ٥٣٤ للميلاد ، ويخلفهم البيزنطيون وجنودهم وموظفهم الإغريق . ومعنى
ذلك أنه كان يعيش في الجزائر بالقرن السادس الميلادي سبع سلالات : سلالة أساسية من
البربر أصحاب البلاد ثم سلالات من الفينيقيين والزنوج واليهود والرومان والوندال الألمان
واليونان .

ويفتحهم العرب أسوار الجزائر حاملين مشاعل الدين الحنيف ، وتظل تفتحها جيوش عربية
لإكمال الفتح ولل قضاء على ما ينشب بها من ثورات طوال القرن الأول الهجري ، وتستجيب
الجزائر لدعاة الدين الحنيف ولولاتها العظام في هذا القرن الذين سووا فيه بمتهى العدل بين
الجنود المسلمين الفاتحين وبين من يسلم من البربر في جميع الحقوق والواجبات : في الضرائب
وفى دخول الجيش والجهاد . ويتولى المغرب مع فواتح القرن الثاني الهجري ولاية طغاة بغاة
أخذوا يحرمون البربر من حقوقهم التي شرعها الإسلام ، مما جعل بعض البربر يعتنقون مذهبي
الإباضية والصفرية اللذين يريان التسوية المطلقة بين البربر والعرب في الخراج وغير الخراج
وحتى في الخلافة فلا يصح أن تقصر على قريش وحدها ، وهبت ثورات متعاقبة منذ سنة
١٢٢ هـ / ٧٣٩ م يقوم بها أتباع الصفرية أو أتباع الإباضية حتى عهد يزيد بن حاتم المهلبى
(١٥٤ - ١٧٠ هـ) . ولما ذكر ذلك لندل على أن الجيوش العربية ظلت تقدم إلى الجزائر
منذ الفتح ، وكان كثير من جنودها جميعا يقيمون في الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية ،
ولم يكونوا جميعا عربا بل كان بينهم كثيرون من أهل الرافدين والشام ومصر وإيران ، ومن
كل هذه العناصر استقرت سلالات في الجزائر وعاشت مع أهلها وامتزجت بهم امتزاجا سريعا
بحكم ما يجمع بين الجانبين من الدين واللغة . وأخذ ينزل في المدن الساحلية بعض المسيحيين
واليهود لما رأوا في الإسلام وأصحابه من المعاملة السمحة .

وحول منتصف القرن الخامس الهجري تحدث هجرة قبيلتي بنى هلال وسليم إلى الإقليمين
التونسي والجزائري انتقاما من المعز بن باديس حين وقف الدعوة البعيدة الفاطمية وخلع طاعة
ال خليفة ولقضى تحت لواء الخليفة العباسي ، وكان آباء هاتين القبيلتين قد وضعوا أيديهم في
أيدى القرامطة ضد الدولة الفاطمية ، فلما استسلموا لها أقرت لهم في القفار بين النيل والبحر
الأحمر ، ورأى وزير خبيث للمستعصر أن يستخدمهم ضد المعز بن باديس ووعدهم بامتلاك
ديارهم ، فانقضوا عليها واكسحتهم سيولهم اكساحا حول منتصف القرن الخامس ، مما اضطره
إلى الانسحاب من القيروان إلى المهديّة ، وتدافعت سيول من هلال وبطونها : أتيج ورياح
وعامر ومعلل وعدى ، وكذلك من سليم وعشائرها : دباب وزغبة وعوف ومرداس والطرود ،
وكلوا بدرا رعاة غير متحضرين فمضوا ينهون ويتلفون الزروع ، ورأى صاحب قلعة بنى

حماد أن يترك لهم الريف . وبدون ريب أحدثت هذه الهجرة الأعرابية كثيرا من الاضطراب في الجزائر ، غير أنها أفادتنا فائدة كبرى إذ أكملت تعريبها وكانت قد أخذت في التعرب منذ القرن الأول الهجرى واستيطان كثير من الجنود المسلمين لها ، وقد تحولوا ينشرون الإسلام ومبادئ العربية وأخذ ذلك يتسع مع الزمن . غير أن تعرب الجزائريين كان لا يزال محدودا ، حتى إذا حدثت هذه الهجرة الأعرابية الكبيرة لمئات الألوف من العرب ، إذ لم يلتق بذلك بضعة آلاف من الأعراب بالشعب الجزائري ، بل التقت به مئات الألوف ، بل التقى شعبان : الشعب البربرى صاحب الديار والشعب العربى المهاجر ، ولم يلبث الشعبان أن اندمجا وأصبحا شعبا واحدا دينه واحد ولغته فى الغالب واحدة ، إذ ظل هناك من يحافظون على لتهم البربرية وخاصة فى أوعار الجبال ، ومع ذلك كانوا يستخدمون مع قومهم اللغة التى تكونت فيما بعد ، ونقصد العامية المشتقة من العربية . وقد أصبحت الكثرة الكثيرة من الجزائريين عربا فى اللغة والزى وعادات المآثم والأفراح ، بل لقد أصبحت الجزائر جميعها شعبا عربيا ضخما بفضل هذه الهجرة الأعرابية .

وما نصل إلى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٢ م حتى يستولى النورمان نهائيا على جزيرة صقلية وفى العام التالى يستولون على جزيرة مالطة ، وينزح إلى الجزائر وتونس كثير من المسلمين فى الجزيرتين فرارا بدينهم من اضطهاد النورمان ، وكانت كثرتهم - إن لم يكن جمهورهم - من أبناء إفريقية التونسية من سلالات الفاتحين للجزيرتين وكان بينهم بعض أبناء الجزيرتين ممن اعتنق آباؤهم الدين الحنيف . ونمضى إلى القرن السابع الهجرى وتسقط بلدان أندلسية كثيرة فى حجر نصارى الإسبان الشماليين ، وينزح كثيرون من مسلمى الأندلس إلى الجزائر وبلدانها . وإذا كانت الهجرة الأعرابية أفادت الجزائر اكتمالا فى التعرب فإن الوفود المسلمة التى نزحت إليها من الأندلس أفادتنا فى الزراعة والصناعات المختلفة : صناعة النسيج وغيره ، وأفادتنا فوائد كثيرة فى حياتها العلمية والأدبية ، إذ نزح إليها كثير من العلماء وشاركوها فى حياتها العلمية كما شاركها فى حياتها الأدبية كثير من أدباء الأندلس الذين هاجروا إليها واتخذوها دارا ومقاما . واتسع نزوح من بقى بالأندلس من المسلمين منذ سنة ١٠١٦ هـ / ١٦٠٩ م حين نفى الإسبان من كان لا يزال بالأندلس من المسلمين إلا من أعلن تنصره أو تظاهر بأنه نصرانى وتضاعفت إفادة الجزائر من هؤلاء النازحين - كماخوتهم السابقين - فى العلوم والآداب والزراعة والصناعات وما حملوا من الأندلس إلى الجزائر من مدينتهم الأندلسية العظيمة . وقد نزح معهم كثيرون من اليهود فرارا من عسف الإسبان ويطشهم .

وكان الولاة فى العهد العثمانى يحيطون أنفسهم بحمايات عسكرية من الإنكشارية ، ومعروف أنها كانت تتكون من الترك فى الأناضول ومن أجناد شتى من أنحاء الدولة العثمانية ومن

أسرى جيوشها الغازية فى البلاد الأوربية ، وكانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وترسل إلى الجزائر - كما ترسل إلى ولاياتها الأخرى - بضعة آلاف منهم ، وكانوا يتزوجون من جزائريات أحيانا مما جعلهم يرتبطون بأسرهن وبالجزائر ارتباطا وثيقا . والمجتمع الجزائرى لا تتداخل فيه سلالات هذه العناصر الكثيرة فحسب ، فإن القرصنة جلبت إليه كثيرا من العناصر الأوربية ، ومُرُّ بنا أنها أخذت تتسع اتساعا شديدا منذ استطاع خير الدين وعروج أن يجعلوا من البحر المتوسط فى القرن العاشر الهجرى بحرا عثمانيا ، وكان النازحون المسلمون من إسبانيا يملئون قلوب البحارة الترك حاسة لينسعوا ما استطاعوا بالقرصنة انتقاما من الإسبان والأوربيين ، وكانوا يسحبونهم على وجوههم من البحر المتوسط بالآلاف إسبانياً وفرنسيين وإيطاليين ويونانيين وكريتين ، وكان كثيرون منهم يعتنقون الإسلام وتُرَدُّ إليهم حرياتهم ويصبحون جزائريين دينا ولفة ، ويندمجون فى أهل البلاد اندماجا تاما .

وواضح أن الجزائر دخلتها من قديم عناصر كثيرة إفريقية وآسيوية وأوربية بجانب سكانها الأصليين من البربر ، وقد فتحتها وعاشت فيها أُم كثيرة : فينيقيون ورومان ووندال وبيزنطيون وعرب وترك ، وقد أفادت منها جميعا فى نظمها وطرق معيشتها وزراعتها وصناعاتها . وكان كل من ينزلها من هذه الأمم ويستوطنها لا يلبث أن يفصل عن موطنه ويؤايل صيفته الأولى ويذوب فى الجزائر لما تتميز به من قوة الشخصية والهوئية الراسخة .

٣

المعيشة^(١)

كان أساس المعيشة فى الجزائر الزراعة ورعى الأنعام ، وتأتى بعد ذلك الصناعات اليدوية والملاحة وما ارتبط دائما بها من الصيد فى البحر وما تحولت إليه فى أواسط العصر من القرصنة . والإقليم يعوج بطيبات الرزق ، ونستطيع أن نتمثل ذلك بوقوفنا أولا عند النواحي الزراعية فى مدن الساحل الشمالى ثم فى المدن الداخلية وما وراءها من المدن الصحراوية . وإذا سرنا فى الساحل من الشرق إلى الغرب لقيتنا مدينة الغالة ، وكانت تسمى قديما مرسى الخزر ، وتليها مدينة بونة ومُرُّ بنا أن القديس أوغسطين كان أسقفا لها فى عهد الرومان ، وهى تقع وسط سهل زبرجدى بالقرب من مصب نهر سيبوز وبها صهاريج رومانية قديمة . وكان الرومان

تحقيق الأستاذ محمود بو عياد وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ترجمة د . عبد الرحمن حميدة (نشر جامعة الإمام محمد بن سعود) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المنى .

(١) راجع فى المعيشة كتاب أمى عبد البكرى : للمالك والمالك وابن حوقل بنفس العنوان (وصف المغرب وأرض السودان ومصر - مقتبس من كتاب نزعة المشتاق) وكتاب الجغرافيا لابن سعيد تحقيق إسماعيل العربى ومجمع البلدان لياقوت وتاريخ بنى زيان للتسى

يسمونها هيون ثم أصبحت بونة العربية . وسميت فيما بعد عنابة لكثرة ثمر العناب بها ويجف ويصدر ، ويقول ابن حوقل : إنها ذات أسواق حسنة ، والأرض المحيطة بها ذات تربة خصبة ، وتنتج القمح والشعير والكتان والفواكه والعسل بكثرة ، ويقول الحسن الوزان : « الأرض المزروعة خارجها تبلغ أربعين ميلا طولا وخمسة وعشرين ميلا عرضا ، وكل الأراضي ممتازة لزراعة القمح ، ويملك أهلها من قبيلة مرداس العربية أعداد كبيرة من الأبقار والثيران والأغنام » . وإلى الغرب منها ميناء جيجل وأرضها وعرة ، كما يقول الحسن الوزان غير صالحة إلا لزراعة الشعير والكتان والقنب ، وبها كثير من شجر الجوز والتين . وغربها بجاية وكانت أكبر ميناء فى الساحل الجزائرى ، ويقول الإدريسى : الخنطة والشعير موجودان فيها بكثرة والتين وسائر الفواكه . وإلى الغرب منها مدينة الجزائر ، وهى ثغر روماني جدّد بناءه بنو مزغنة ، ثم زيرى بن مناد سنة ٣٥٦ للهجرة ويقول الحسن الوزان : « حولها الكثير من البساتين والأراضي المزروعة بأشجار مثمرة ويمر بجوارها من الجانب الشرقى نهر نصبت عليه طواحين ، وسهول منطقتها جميلة جدا ولا سيما سهل المتيجة ويبلغ طوله حوالى خمسة وأربعين ميلا بعرض مقداره ستة وثلاثون ميلا حيث ينمو قمح وفير للغاية من أجود الأنواع » . وغربها مدينة شرشال وهى ميناء فينيقى روماني ويقول الإدريسى : بها مياه جارية وآبار عذبة وفواكه حسنة كثيرة وسفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق الفرع الصغار وبها كروم وبعض أشجار التين . ويقول الحسن الوزان إنها كانت قد هُجرت فى أعقاب الحروب بين ملوك تلمسان وفلس وظلت خاوية خلال مدة تقارب ثلاثمائة عام حتى سقط غرناطة بأيدي النصارى فى عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م فقصدها كثير من الفرناطيين (الأندلسيين المسلمين) فأعادوا بناء قلعتها وقسم كبير من منازلها وزرعوا أراضيها . وإلى غربها مدينة تنيس ، وهى ميناء فينيقى قديم ، ويقول الإدريسى : بها من الفواكه كل طويفة ومن السفرجل الطيب المعنى ما يفوق الوصف فى صفته وكبره وحسنه ، ويقول الحسن الوزان تنتج أرضها الكثير من القمح والكثير من العسل . وكانت قد خُرُت فأعاد إليها مهاجرو الأندلس الفرناطيون العمران والزراعة مثل أختها شرشال . وغربها مدينة وهران ويقول الإدريسى : « على مقربة منها نهر عليه بساتين وجنات ، وبها فواكه كثيرة وأهلها فى خصب ، والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبدة والبقر والغنم فيها رخيصة وبالمن اليسير » . وكانت وهران قرية صغيرة حتى إذا كانت الهجرة الأندلسية نزها كثيرون من الفرناطيين وأسسوا وهران الحديثة .

وإذا تركنا مدن الساحل الشمالى إلى ما وراءه وسرنا فيه من الشرق إلى الغرب لقيتنا قلعة جنوى بونة أو عنابة وهى مدينة فينيقة قديمة ، ويقول الأستاذ أحمد توفيق المدني إنها اشتهرت بترية نوع من البقر يعد من أجمل أنواع البقر الموجود فى الجزائر ، وبه صفات لا توجد فى غيره ، ويذكر أنه يوجد بقرها حمام بديع يدعى حمام المسخوطين وبه مياه معدنية تفور من

عشرة عيون شديدة الحرارة وهى تتراوح بين ٩٤ و ٩٨ درجة ، ولها قيمة طبية عالية .
ونلتقى بعدها بمدينة نقاوس ويقول الحسن الوزان إنه يمر بجوارها نهر تقع مزارع التين والجوز
على ضفافه ، ويشتهر تين المنطقة بأنه أفضل أنواع التين وينقل منها إلى قسنطينة ، وحول نقاوس
سهول جيدة صالحة لزراعة القمح . وتلقا مدينة قسنطينة وهى مدينة فينيقية رومية ، جدد
بناءها الإمبراطور قسطنطين فنسبت إليه ، وهى - كما يقول الأستاذ المدنى - أم المدن بالناحية
الشرقية الجزائرية ، وكانت تنبع صاحب القيرون وتونس ، وكان ينزل بها نائبه ، وكانت
لذلك مركزا كبيرا للإدارة ، ويقول الحسن الوزان : جميع الأراضي الزراعية الواقعة حول
المدينة طيبة وخصبة ويبلغ محصولها ثلاثين ضعفا لما بذر فيها ، وتوجد بساتين جميلة جدا فى
السهل على طول النهر الذى يمر بأسفلها وبجوارها نبعان : نبع ساخن ونبع بارد بجانبه بناء
من الرخام . وعلى بعد ٥٠ كيلومترا منها مدينة ميلة وهى مدينة رومانية ، ويقول الحسن الوزان
إن منطقته ذات إنتاج غزير من التفاح والكمثرى والشار الأخرى . وغربها جنوبا مدينة
المسيلة (المحمدية) وهى مدينة رومانية وسهولها مشهورة بإنتاج القمح والشعير والفواكه ،
كما تشتهر بتربية الحيوانات : البقر والغنم والخيول ، وينهرها سمك صغير مزدان بخطوط حمراء ،
ويقول الإدريسي إنه لم يرقى المعمورة سمكا على صفته . وإلى الشرق منها طينة عاصمة الزاب
الأعلى شرقى شط الحضنة المالح وتقع على نهر يسقى بساتينها وزروعها وحقول الخطة والكتبان
ومختلف أنواع الفواكه . وشمالى طينة والمسيلة مدينة سطيف وهى مدينة رومانية وتوسط
منطقة من أغنى مناطق الجزائر الزراعية . وإلى الجنوب من قسنطينة باغاية وبجوارها نهر يسقى
بساتينها وحقولها الواسعة المنتجة للحبوب من القمح والشعير ، وسكانها إياضيون اغاروا إليها
بعد سقوط تاهرت فى آخر القرن الثالث الميلادى . وإلى الجنوب شرقا من باغاية تبسة ،
وتشتهر بكثرة الفواكه وبالجوز ، وينوه أبو عبيد البكرى بكبر حجمه وطيبة . وإلى الجنوب
الغربى منها مدينة بسكرة وتقع فى أشهر الواحات الجزائرية ، وكان الرومان يسمونها فيسبكرا
وكان بها قديما أسقية ، وعلى مقربة منها استشهد عقبة بن نافع وأصحابه كما مر بنا فى الفصل
الماضى ويكثر بها النخل والزيتون ومختلف الثمار ويشيد البكرى بآبارها الكثيرة . وإذا اتجهنا
إلى الشمال الغربى التقينا بتاهرت عاصمة الدولة المرستية الإباضية ، وهى على سفح جبل
يسمى جزول وكان يجرى بجوارها نهر يروى زروعها وبساتينها التى وصفها البكرى بقوله :
« فيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الأفاق حسنا وطعما ومشما » وينوه الإدريسي
بمزارعها وحقولها وما اشتهرت به من تربية الأنعام والخيول ، ويقول إنها وافر العسل والسمن .
وإلى الشمال منها مدينة مليانة وهى مدينة رومانية قديمة تشرف على نهر شلف وحولها بساتين
زاهرة بالفواكه وقرى عامرة ومزارع واسعة ، ويقول الإدريسي عنها : حسنة البقعة كريمة
المزارع وتقع على نهر يسقى مزارعها وحدائقها وجنتاتها ولها أرحاء على نهرها . وعلى بعد

مائة وأربعة وسبعين كيلومترا من وهران تقع مدينة تلمسان الكبيرة بين جبال تزدان بالخضرة والخصائل النظرة وسهول مكشوفة بالزروع والبساتين الخلابة ، يقول ابن حوقل فيها : مدينة لطيفة قديمة ولها أنهار جارية وعليها أودية وفيها فواكه كثيرة وغللاتها عظيمة ومزارعها كثيرة ، ويقول الحسن الوزان : « توجد في خارج تلمسان عدة كور بدية بها منازل غاية في الأنافة ، ومن عادة سكان المدينة قضاء الصيف فيها حيث ينعمون بأكثر متعة ، فلهم فيها بساتين فاخرة تنتج أغلبا من كل الألوان وذات نكهة رائحة ، وكروا من كل نوع تبلغ وفرة حد لم أر له مثيلا في أى مكان آخر ، وتينا شديد الحلاوة أسود اللون كبير الحجم يجف ليؤكل في الشتاء ، ودراقا ، وجوزا ولوزا وبطيخا وخيارا وثمارا أخرى مختلفة » وعلى نهريها العديد من طواحين القمح . وإذا توغلنا جنوبي تاهرت لقينا واحة الأغواط بنخلها الكثير ، وإلى الجنوب منها منطقة ميزاب ومدنها وأهمها غرداية ويكثر بها النخيل والحدائق والبساتين ، ومن ورائها ست قرى واحة النخيل والفواكه ، وأهلها جميعا يهاضون وكان آبائهم حين قضى على الدولة الرستمية في تاهرت انسحبت كثرة منهم إلى ورقلة (ورجلان) في الجنوب الشرقي من الجزائر ، ولما غادروها إلى بلاد ميزاب بقيت منهم بقية قليلة وحل محلهم في تلك الواحة كثير من الزنوج . وشرقي بلاد ميزاب وادي سوف وهو بلاد واحات شاسعة تمتد من أراضي ميزاب إلى أراضي الجريد في تونس ، وتنتج واحاته تمرا بديعا . وطبيعى أن تغطي الهضاب الصحراوية الكثيرة في جنوبي الجزائر أثناء الربيع أعشاب ونباتات ، ويتنقل البدو فيها لرعى أغنامهم وليلهم ، وينقسمون إلى بدو أو رعاة شبه مقيمين إذ يقل طعنهم وهم المجاورون لتخوم جبال أطلس والجبل التلي ، وبدو أو رعاة رحّل وهم المتنقلون في الهضاب والصحارى ، وهم جميعا يمدون مدن الجزائر بكثير من قطعان مواشيهم .

ومن قديم تعنى مدن الجزائر بالصناعات اليدوية كالحداثة والنجارة والحياكة واستخراج المعادن وتصنيعها وخاصة الحديد ، وكانت بونة (غلة) تشتهر بمصانعها ، ومنها الرصاص والزنك في جبال الونشريس ونواحي سطيف ، وكان بجاية دار صناعة كبرى لإنشاء الأساطيل والسفن وكانت تلك الدار تستمد الخشب من أوديتها وجبالها ، كما كان بها معدن الحديد اللازم لتلك الصناعة وكان الزفت والقطران البالغوا الجودة يجلبان إليها من أقاليحها كما يقول الإدريسي ، وكان بها من الصناعات طرائف كثيرة ، واشتهر ميناء دليس غربي بجاية بأن أكثر سكته - كما يقول الحسن الوزان - من الصباغين لكثرة ما فيها من النيليع والجداول ومثلها في ذلك ضاحية تلمسان المسماة مدينة عباد . ويتوقف الحسن الوزان مرارا عند بعض المدن ليقول إن كثيرين - أو الكثرة - من سكنتها صناع ، ويذكر عن صناع تلمسان أنهم يبيعون حياة هادئة بمحة وينعمون بأوقات لراحتهم ويلبسون ثيابا لائقة وقليل منهم الذين يضعون عمامة على الرأس ، فيستخدمون قلنسوة دون ثياب ويلبسون أحذية تصمد حتى أواسط سيقانهم ، وكنت

تلمسان تشتهر بصناعة الجلد ، ويقول ابن سعيد الأندلسي : « منها تُخَمَلُ أَلْجَمُ الْخَيْلِ والسروج وما يتبع ذلك » مما يدل على ما كان بها من مصنع للحديد .

وكانت تنتشر في أنحاء الجزائر المنسوجات الكتانية والصوفية والقطنية والحريمية ، واشتهرت بونة (عنابة) بمنسوجاتها الكتانية ، ويقول الحسن الوزان إن أكثر سكان وهران من الصناع والحائك . ولما سكن الأندلسيون الغرناطيون في هجرتهم الكبرى إلى الجزائر مدينة شرشال نهضوا فيها بصناعة الحرير إذ وجدوا بجوارها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود فربوا فيها دود القز ، واتسع إنتاجهم من المنسوجات الحريمية . ويذكر الحسن الوزان كثرة ما بمدينة قسنطينة من الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا وكذلك الكتانية ، ويقول الحسن الوزان : في مدينة ميله عدد كبير من الصناع ولاسيما الذين يعملون في نسج الأقمشة من الصوف التي تصنع منها أغطية الأسيرة . ويطلق الحسن الوزان في تلمسان من وصف أكسية الصوف والجلد والقطن ووصف المعاطف . وقد اشتهرت نساء المدن الجزائرية بصناعة التطريز على الأقمشة الحريمية والجلدية ، وتحفظ المتاحف الجزائرية بمجموعات منها لا تزال أسلاكها الذهبية والحريمية والقطنية تومض كأنها وضعت عليها بالأسس .

ويكثر الحسن الوزان وغيره من المتحدثين عن المدن الجزائرية عن كثرة من بها من الصناع والحائك ، وقلما يذكرون ما يقومون به من الصناعات والحياكات ، ويذكر الوزان عن أهل مليانة أنهم جميعا من الصناع ومن الحائك ومن الخراطين الذين يصنعون أولئى جميلة من الخشب . وكان أهل الجزائر يصنعون بجانبها أولئى جميلة من الخزف الملون والجص المجزّع ، ولابد أن تفننوا طويلا في صناعة الحلى إرضاء للمرأة ، وبالمثل في صناعة أحذيتها وأحذية الرجال . وكانت معاصر الزيتون متشرة في بلدان كثيرة ، وكان الزيت لذلك يصدر بكثرة من الجزائر . ولابد أن صناعة الورق من الكتان كانت متشرة وخاصة في المدن الكبرى وفاء بحاجة العلماء والطلاب وما تلبث في الجزائر من نهضة علمية وأدبية واسعة .

ومنذ القرون الإسلامية الأولى تشاد في الجزائر المنشآت العمرانية ، ولا يشاد بناء مفرد أو أبنية مفردة فحسب بل تشاد مدن بمساجدها وقصورها وفنادقها وحماماتها ومارستاناتها فقد بنى فيها الخليفة العبيدى المهدي سنة ٣١٣ مدينة المحمدية أو المسيلة . وبنى زيرى الصنهاجى والى الجزائر من قبل الخليفة العبيدى المنصور « أشير » إلى الشمال الشرقى من تاهرت ، وبنى ابنه بلكين مدينة الجزائر ومدينة مليانة جنوبى شرشال ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقى منها ، وبنى حماد بن زيرى قلعة ضخمة شمالى المسيلة عاصمة لدولته وجدد الناصر الحمادى مدينة بجاية وأحضر لها العمال والمهندسين ومواد البناء واتخذها عاصمة للدولة . وكل حاكم منهم كان يعنى بإثشاء قصور كثيرة في عاصمته على نحو ما نقرأ في دولة بنى زيان ملوك تلمسان ،

وبخاصة فى تاريخ عبد الرحمن لمى تاشفين (٧١٨-٧٣٧هـ) فقد كان مولما بتشيد القصور - كما يقول يحيى بن خلدون - مستظهرا على ذلك بآلاف عديدة من فلة الأسارى الأجنب وغيرهم من نجارين وبناءين ومبطلن للخرف وزوآقين ، وشاد قصورا عدة : دار الملك ودار السرور ولها فھر وغيرها والصھريج الأعظم الذى لا يزال موجودا - كما يقول الأستاذ محمود أبو عياد - غربى المدينة . وإذا كان بناء ثلاث قصور استلزم آلافا من العمال فما بالنا بمن بناوا مدنا بقصورها ومساجدها وكل منشآتها العمرانية . وكل هذه القصور والمدن استلزمت صناعات كثيرة من نجارة وحدادة ونقاشة وقدرة على استخدام الفسيفساء (الموزايكو) فى المحيطان والسقوف والأروقة مع رسوم مختلفة من الرياحين والأزهار ، ونضرب مثلا لروعة الصارة فى مدن الجزائر بقول الحسن الوزان عن مدينة بجاية المبنية فوق سفح جبل شديد الارتفاع على ساحل البحر المتوسط إنها تمتد من حيث العرض على خاصرة الجبل امتدادا كبيرا خارقا للعادة ، وسائر بيوتها جميلة ، وهى مجهزة بالجوامع بشكل طيب والمدارس التى يكثر فيها الطلاب وكذلك أساتذة الشريعة والعلوم ، كما تحوى أيضا زوايا للمتعبدين المسلمين ، وحمامات وفنادق ومارستات وكلها عمارات حسنة البنيان وأسواقها جميلة حسنة التسيق ، وتقوم المدينة كلها على تلال صغيرة حتى إنه ليتعذر السير بضع خطوات بدون صعود أو نزول . وإلى جانب الجبل - أو جبلها - توجد قلعة كبيرة ذات جدران متينة ، وتزدان بالكثير من الفسيفساء والبجص المجزّع والأخشاب المحفورة بالنقوش التى تملوها رسومات عجيبة بلون أزرق سماوى ، حتى لتسارى هذه الأشغال الفنية من حيث القيمة أكثر من البنيان ذاته . وإنما نقلنا هذا النص الطويل لنلذ بوضوح على ارتقاء صناعة المدن والقصور فى الجزائر وكيف أنه رافقها ارتقاء فى الحفر والنقش والزينة بالفسيفساء والرسومات العجيبة باللون الأزرق البهيج ، وقد خلبت بروعتها وحسنها لبّ الحسن الوزان كما خلّبه جمال البيوت وعمارتها وعمارة جميع المؤسسات وحتى الأسواق . وكل ذلك إنما نهض به فى بجاية وغيرها من مدن الجزائر أيّد بالغة المهارة فى العمارة وكل ما يتصل بها من زخرف وزينة .

وهيّا هذا الإنتاج الصناعى الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعى القطر الجزائرى لأن تصبح موانيه أسواقا عالمية ، فكثرت تصدر منتجاتها شمالا إلى الغرب وشرقا إلى تركيا والشام ومصر ، ومنذ عصر الفينيقيين كانت قوافلها تمر فلولات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربى محملة بالسلع الجزائرية من المنسوجات على اختلاف أنواعها صوفية وكتانية وقطنية ومن النقل جوزا وغير جوز ومن الزيتون والزيت ومن السروج واللبود والمفاتيح وأقال الحديد ، وتعود محملة بالعاج وريش النعام والتبّير والجلود والرقيق السودانى . ونستطيع تصور الحركة التجارية ومدى نشاطها إذا رجعنا إلى ما كبه الحسن الوزان وغيره عنها فى الموانئ والمدن الكبرى ، فمن ذلك ما يقوله عن ميناء القالة ، وكانت تعرف باسم مرسى الخزر : « إن أهلها يقومون

تجارة طيبة لأنهم يستمدون من جبلهم الكثير من الشمع ولديهم كمية كبيرة من الجلود ويقايضون هذه المتجات بالسلع التي يجلبها الجنويون (تجار جنوة) الذين يترددون على مينائهم . ويقول الوزان عن أهل بونة إنهم يبيعون كمية كبيرة من أقمشتهم الكتانية ، ويقول عن أهل سكيكلدة إن سكانها يزاولون التجارة بكثرة مع الجنويين فيقدمون لهم القمح ويأخذون منهم بالمقابل أقمشة ومتجات أوربية أخرى . ويذكر عن ميناء جيجل غربيها أنه يوجد به الكثير من شجر الحوز والين وتنقل ثمار هذا الشجر إلى تونس . وكانت بجاية سوقا تجارية كبرى ، وفيها يقول الإدريسي : « السفن إليها مقلعة ، ولها القوافل متجهة ، والأمتعة إليها بحرا وجوا مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء ، وبها تباع البضائع بالأموال المقنطرة » . ومن أجل هذه الحركة التجارية الواسعة فيها عقدت الدول البحرية الأوربية مع بجاية في عصر الدولة الحمادية قديما معاهدات تجارية . ويقول الإدريسي عن ميناء تونس : « به فواكه وخصب وإقلاع وحط ، وبه الخنطة وسائر الحبوب تخرج منه إلى كل الآفاق في المراكب » . وكان ميناء وهران سوقا كبيرة . ويقول الوزان : كانت وهران مقصد التجار القطالونيين (الإسبان) والجنويين (الطليان) ولا زال فيها - لعصره في القرن العاشر الهجري - بيت يُدعى بيت الجنويين لأنهم كانوا يسكنون فيه . وكانت قسنطينة في الداخل مركزا تجاريا كبيرا ، ويقول الوزان : « فيها عدد كبير من الباعة الذين يزاولون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا ، ويصدر بعض التجار الزيت والحرير وكذلك الأقمشة الكتانية ، ويبيع كل ذلك بالمقايضة مقابل التمور والبيد . ويجتمع أهل قسنطينة مرتين في العام في قافلة تجارية ، ونظرا لكثرة تعرضهم لهجمات الأعراب يصطحبون معهم بعض رماة البنادق من الأتراك الذين ينالون أجرا طيبا على ذلك . ولا يدفع تجار قسنطينة رسم دخول إلى تونس (إذ كانت جزءا من مملكها) ولكنهم يدفعون عند خروجهم من قسنطينة مقدار اثنين ونصف بالمئة من قيمة بضائعهم » . ويقول الحسن الوزان عن تجار تلمسان إن متجرهم إنما هو الرحلة إلى السودان وجلب متجاته ، وبها كما يقول بضعة فنادق من بينها اثنان لسكن التجار البنادقة والجنويين .

ولإتمام بيان وجوه المعيشة والكسب في الجزائر كان كثير من سكان المدن الشمالية الساحلية يشغلون أنفسهم بصيد السمك والحيتان من البحر المتوسط ويقول الحسن الوزان عن أهل دليس إنهم يصيدون بالشباك الكثير منه وينطبق ذلك على أهل الموانئ الشمالية جميعا . واشتهرت مدينة القالة المسماة قديما بمرسى الخزر بكثرة مايساحلها من المرجان ، وهو شجر في البحر لين أبيض اللون ، وإذا ضربه الهواء احمر وصلب ، ويقول الحسن الوزان : ليس لأحد من أهل القالة الحق في صيده أو التقاطه من الساحل حين تقذف به الأمواج إلى البر لأن سلطان تونس أعطى هذا الساحل بالتأجير إلى أهل جنوة الإيطاليين . وهو تصرف مخطيء لأن ذلك

من شأنه أن يطمع الجنوين أو غيرهم في احتلال ذلك الجزء من البلاد ثم في احتلال البلاد جميعها حين تحين الفرصة ، على نحو ماسوّل الشيطان ذلك لفرنسا بالأمس .

٣

الثراء^(١) - الرفه - الموسيقى

(أ) الثراء

طبيعي أن أهلت التجارة الواسعة في موالي الجزائر الساحلية أهلها ليكونوا أثرياء ، وكل ثراؤه حسب قدرته في التجارة وحسب نشاطه ، ونضرب مثلا لذلك مدينة القالة التي كان يتجر أهلها مع الجنوين في الشمع والجلود كما مر بنا ، ويقايضونهم عليهما بما يحملون من السلع ويقول الحسن الوزان : « لا يوجد على الساحل مدينة أكثر غنى من هذه المدينة ، فهي ترمح من تجارتها مع الجنوين (تجارجنوة) ضعف قيمة ما تعطيه لهم ، ثم تبيع بالقطاعي في الجبال المجاورة لها البضائع التي جلبها الجنويون وتجنّ من ذلك كسبا ضخما . ومثلا في هذا الاتجار والغنى بقية المواني الشمالية ، ويعبر المؤرخون عن ذلك بعبارة كثيرة كأن يقول البكري عن بونة (غنبة) إنها كثيرة اللحم واللبن والعسل ويقول الوزان إن أهلها يبيعون كمية كبيرة من الأقمشة الكتانية وكل أراضيها ممتازة لزراعة القمح ويمتلك أهلها عددا كبيرا من الأبقار والثيران والأغنام ، وتنتج المواشي كمية ضخمة من السمن . وكل تلك مؤهلات كبيرة للثراء . ويقول الوزان عن أهل بجاية إنهم مياسير وعلى قدر كبير من الغنى ومررنا أنها كانت مركزا تجاريا ضخما وأن السلع كانت تباع فيها بالأموال المقنطرة . ولم يكن أهل مدينة الجزائر يفلون ثراء عن أهل بجاية ، واتسع ثراؤهم في العهد العثماني اتساعا كبيرا ، وبالمثل أهل وهران . وينوه الوزان بثناء قسنطينة وكثير من المدن الداخلية ويقول عن تجار تلمسان إنهم أغنياء جدا بما يملكون من عقار ومتاع ونقود وهم ذوو هندام جيد ، وينوه - كما مر بنا - بالصناع وتيلهم اللاتفة ، ويقول أفضل الناس كساء في تلمسان الأساتذة والقضاة والأئمة والموظفون لما كانوا يتقاضون من رواتب عالية ، ويذكر أن العساكر يتقاضون أجورا مرتفعة . ويذكر عن أهل ميزاب أنهم أغنياء لأنها كانت مركز التلاقي التجاري بين تجار مدينتي بجاية والجزائر وتجار بلاد السودان ، ويقول عن مدينة وڤقلة (ورجلان) الداخلية في الصحراء

الساعة ٤٠/٢ وتقلها عنه التنسي في تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان وتقلها عن التنسي المقرئ في فتح الطيب وأزهار الرياض . وراجع في الموسيقى وصف إفريقيا للحسن الوزان وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني .

(١) انظر في الثراء المصادر السالفة في المعيشة وخاصة كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ، ونفس المصادر تراجع في الرفه وراجع معها كتاب بنية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبد الواد في وصف المكائنة أو

الكبرى إن أهلها من كبار الأغنياء لأنها مركز تجارى يتبادل فيه تجار البربر من قسنطينة وتونس منتجات بلادهم بالسلع التى جلبها تجار بلاد السودان .

وزاد فى ثراء سكان المدن الشمالية الساحلية - على مر العصور - تحول بعضها إلى ما يشبه قاعدة للقرصنة فى البحر المتوسط ، ونقرأ أخبار هذه القرصنة منذ أيام الدولة الحمادية ، فقد كان من قرصنة الجزائر من يتخذ بونة (عنابة) فى عهدهم مركزاً ينطلق منه للقرصنة ، ومثلها بجاية عاصمة الحماديين وظل ذلك ذئاب أهلها طويلا ، ويقول الحسن الوزان : « كان أهل بجاية على قدر كبير من الغنى ، فكثرتا يسلحون مراكب وسفنا حربية ويرسلونها لغزو إسبانيا ولجلب غنائم البحر من السلع والرقيق رجالا ونساء » وكثير منهم كثروا يسلمون ويصبح لهم ما للمسلمين من الحقوق ، واتسعت هذه القرصنة فى الموانئ الشمالية حين استقر بها الفرنايطون والأندلسيون فى هجرتهم الكبرى أواخر القرن التاسع للمجرى وكان يحفزهم عليها محاولتهم الانتقام من نصارى إسبانيا الذين أخرجوه من ديارهم ومواطنهم فى الأندلس ، ولم يلبث أن ظهر خير الدين (بربروس) وعنهج القائدان التركيان البحريان العظيمان واستوليا على الجزائر ، وأخذ خير الدين يطرد الإسبان من الموانئ التى كانوا قد استولوا عليها واستطاع خلال عشرين عاما أن يطهر الساحل الجزائرى منهم واستدار بالبحارة الترك ومن انضم إليهم من المهاجرين الأندلسيين يتوغل فى البحر المتوسط ، وظل ذلك طوال هذا العصر حتى العقد الثانى من القرن التاسع عشر ، وظلت بجاية والجزائر وهران تستقبل جميعا غنائم البحر من السلع والرقيق وبالمثل غنائم ميورقة ومنورقة والساحل الإسباني . ولكي يتضح لنا مدى هذه الغنائم يبنى أن نعرف أنه كان يُجلبُ أحيانا فى الغزوة البحرية الواحدة مئات من رقيق النصارى رجالا ونساء سوى ما كان يجلب من الغنائم ، وكان ذلك مصدر ثروة واسعة لقرصنة الساحل الجزائرى من جهة وللدولة نفسها من جهة ثانية ، مع ما كانت تموج به الجزائر من طيات الرزق فى الزراعة والصناعات اليدوية والتجارة الواسعة .

(ب) الرُفْه

معروف أن الغنى الواسع يجر إلى الرُفْه ورغد العيش ، ولم يكن هذا الغنى أو الثراء خاصا بفرد أو أفراد قليلين فى المدن الجزائرية ، بل كثيرا ما كان يشمل كل أفراد المدينة فالجميع فى يسار وبلهنية وسعة من العيش تتيح لسكان المدينة رفاهية واسعة ، ومن خير المدن التى تصور ذلك مدينة نفاوس ، وفيها يقول الحسن الوزان : « مدينة رومانية على مسافة نحو ثلاثين ميلا من مدينة المسيلة ، وسكانها أغنياء شرفاء كرماء ويلبسون ثيابا لائقة مثل سكان بجاية ، وبالبلدة بيت معد لسكنى الغبراء وفيها مدرسة للطلاب الذين جرت العادة أن يعفوا من نفقات الكساء والغذاء ، كما أن فيها جامعا جميلا فيحيا جدا ومجهزا بكل ما تمس الحاجة إليه ،

والنساء هنا جميلات ، لون بشرتهن أبيض ، وشعرهن فاحمة ولامعة ، لأنهن يكثرن من التردد على الحمامات ويعتنين بأنفسهن كثيرا ، ويوتها جميعا من طابق أرضى واحد ، ومع ذلك أليفة جدا وبهجة المنظر ، لأن لكل بيت منها حديقة مليئة بالزهور المتنوعة لاسيما من الورود والرياحان والبنفسج والقرنفل وأزهار أخرى لا تقل عنها بهاء ، ولجميع البيوت عيون ماء تنسج منها . وعلى الجانب الآخر من الحديقة تكمية بديعة تغطي في الصيف ظلاً ظليلاً ومنعشا . ولذلك فإن من ينزل في نقاوس يود لو يبقى فيها حينا طويلا من الدهر ويأسف لاضطراره إلى مغادرتها لما لديه من أهلها المضيفين من حفاوة وترحاب . « ونقاوس لم تكن ميناء تتوسط حقول عنب مثل بونة مثلا ولا كانت تتلقى غنائم البحر مثل بونة وموانئ الساحل الشمالى ، إنما هى مدينة عادية فى البقاع الداخلية تعيش على ما تنتجه سهوها من قمح ومزارعها من تين وجوز ، مثلها فى ذلك مثل بلدان عادية كثيرة فى الجزائر ، ومع ذلك فيها دار ضيافة لإكرام الغرباء ومدرسة مجتية تكفل لطلابها الكساء والغذاء وجامع فسيح جميل مجهز بكل متطلباته ونساء جميلات ، والبيوت جميعا من طابق أرضى واحد ، فليس بينها قصر أو قصور ، بل الجميع سواء فى المسكن والمعيشة ، ولكل بيت حديقته المكثفة بالأزهار العطرة وتكعبته التى تتيح لسائكه فى الصيف ظلا ظليلا منعشا . ولكأن الحسن الوزان يصف فردوساً من فراديس الجنان امتلاً برفاهية لاحداً لها ولا نهاية ، وإته لآسف أشد الأسف لمبارحته لها . وتلك كانت مدن الجزائر وقراها قبل أن يحتلها الفرنسيون ، وبون بعيد بين نقاوس الأمس ونقاوس أيام الفرنسيين وما نزل عليها من بلاء حين وطنتها هى وأمثالها أقدام المحتلين الباغين . وبدون ريب كانت مدن - أو على الأقل بعض المدن وخاصة الساحلية بل أيضاً الداخلية يغمرها مثل هذا الرفه الرائع . ويتوقف الحسن الوزان مرارا أمام بعض المدن التى بهرته مباتيها ليقول إنها بديعة ، ومن قوله عن بجاية : « سائر بيوتها جميلة » ويذكر جوامعها ومدارسها وحماماتها وفنادقها ومارستاتها ويقول : « كلها عمارات حسنة البناء » ويقول عن وهران : إنها مجهزة بكل العمارات والمؤسسات التى تميز مدينة حضرية كالجوامع والمدارس والمارستات والحمامات والفنادق . ويغض فى الحديث عن رفه أهل تلمسان ، وما يذكره بها خمس مدارس بديعة حسنة البناء جدا ومزدانة بالبلاط الملون وسواه من الأعمال الفنية . « ومرُّ بنا ما ذكره من أن سكاتها يقضون الصيف فى كور بديعة لهم فيها منازل غاية فى الأناقة ومن حولها بساتين فاخرة تنتج كرزا وأعنابا من كل الألوان ودرقا وجوزا ولوزا وثمارا مختلفة ، وينو بملابس أهلها من صناع وغير صناع ومن أساتفة مدرسين وقضاة ، ويتسع فى الحديث عن البلاط الملكى بها وموظفى الدولة ورؤس التشريعات ، وكأنا بإزاء عاصمة دولة حديثة متحضرة غاية التحضر ناعمة بغير قليل من الرفاهية .

ويدل بلبغ الدلالة على ما نعمت به تلمسان من رفه أيام دولة بنى زيان ما نفذ إليه عالم

رياضي عظيم بها يسمى أبا الحسن علي بن أحمد الملقب بلبن الفحم من صنع منكة أو ساعة كانت دقاقة ، وقد وضعها في خزانة كبرى ذات تماثيل فضية محكمة الصنع ، وبأعلاها أيقنة - أو شجرة ملتفة - تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويختاله فيهما ثعبان نافذ من كوة بجذر الأيقنة يحاول الصعود ينظر غفلة ، ويصدر الخزقة أبواب موصدة بعدد ساعات الليل الزمانية - إذ كانت توضع في الاحتفال الكبير بليلة المولد النبوي زمن أبي حمو موسى الثاني (٨٧٦٠/ ١٣٥٩ م - ٨٧٩١/ ١٣٨٩ م) - ويصاقب (يجاور) طرفي هذه الأبواب بلبن متلفان أطول من الأبواب الأولى وأعرض ، وفوقها جميعا دون رأس الخزقة قمر مكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك ويسامت (يوازي) أول كل ساعة بلها للزنج (الملقق) فينفص من البابين الكبيرين غُلبان بظفرى كل واحد منهما صنجة من الصُفر يلتقيها إلى طست مجوف من النحاس بوسطه ثقب يفضى بها إلى داخل الخزقة فيرن وينفص الثعبان على أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، وهنالك يفتح باب الساعة الراهنة (الحالية) وتبرز منه دمية على هيئة جارية ينصرها حزام كأظرف مائت راء ، يمتاها صحيفة فيها رقم ساعتها (العاشرة مثلا) منظوما ، ويسراها موضوعة على فمها ، وكثفها تعلن عن الساعة على استحياء . ومن يزور مدينة بيرن عاصمة سويسرا سيأخذ مرافقه السويسري قبيل الساعة الثانية عشرة إلى مشهد ساعة كبيرة مثبتة على برج شاهق وفي الجزء العلوي منها مهرج يدق جرسين قبيل دق الساعة لجرسها معلنة الثانية عشرة ، وفي الحال يصبح ديك على اليسار ويمحرك أحد جناحيه ، ويواجه تماثل أسد مائزال يمرك رأسه وتتماثل عمدة يمرك عصاه وتدور مجموعة من الدبة ، وفي الساعة الثانية عشرة تماثا تدق الساعة ويصبح الديك ويمحرك أحد جناحيه كأنه يهم بالطيران . وهذه الساعة السويسرية التي يفخر السويسريون باختراع أحد مواطنهم لها سنة ١٥٣٠ للميلاد ليست أروع ولا أبعد من ساعة ابن الفحم التي اخترعها قبلها بقرن ونصف مما يدل على ذكائه الوقاد من جهة وعلى ما أصابه الجزائريون في تلمسان من رفه من جهة ثانية .

(ج) الموسيقي

ليس بين أيدينا أخبار عن تعلق أهل الجزائر بالموسيقى والغناء في الحقب الأولى من هذا العصر ، وإذا رجعنا إلى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان وجدناه يصف أهل بجاية بأنهم « ميالون إلى المرح وإلى الموسيقى والرقص ولا سيما الأمراء » . ويقول عن سكان ميناء دلس الواقعة غربي مدينة بجاية إنهم « لطفاء ويحيون حياة مريحة ويجيدون كلهم تقريبا الضرب على العود وعلى القانون » . ولم يصور لنا الوزان حياة المرح ومختلف وسائله عند أهل بجاية كما لم يصور رقصهم وأوقاته ، ومع أنه ذكر آتى العود والقانون الموسيقيتين اللتين كان يضرب عليهما جميع أهل دلس لم يذكر هل كانوا يصحبون هذا الضرب بتلاحين لأشعار يشدونها أو يثنونها دائما أو في بعض الأحوال .

وأكبر الظن أن الجزائر ظلت طويلا تعتمد على موسيقاها والضرب على العود والقانون على لحن بسيطة ، حتى إذا كتبت هجرة الفرناطين الكبرى إليها بعد سقوط عاصمتهم غرناطة في أيدي فرناند وإيزابيلا نقلوا معهم إلى مدنهم التي استوطنوها وخاصة على الساحل الشمالى موسيقاهم الأندلسية ، ولا نعرف إلى أى حد امتزجت هذه الموسيقى بموسيقى الجزائر المحلية ، وكانت الموسيقى الأندلسية موسيقى راقية ذات قواعد وقوانين فى تلاحينها وذات رُفْم مضبوطة (أى نُوتَ جمع نوتة) وكانت تصحبها أغان أندلسية بهيجة أوشجية من الغزل وغير الغزل . ولم تلبث الموسيقى التركية أن انتقلت بدورها إلى الجزائر فى العهد العثماني عن طريق الطاقم الموسيقى العسكري الذى كان يلازم الوالى وما يحمل من آلات النفخ والدق . وأخذت تسع معرفة الجزائريين بالموسيقى التركية وآلاتها وقواعدها فى التنغيم والتلحين . وهذه الموسيقى التركية وأختها الأندلسية التحمتا بما كان فى الجزائر من موسيقى أولية ، وتآلفت من ذلك كله منذ القرن الحادى عشر المجرى الموسيقى الجزائرية بطولبعها وخصائصها الموسيقية ، وقد أدخل الجزائريون فى ديوان موسيقاهم مصطلح الشرف وهى كلمة تركية معناها الافتتاحية ولا ينشد معها أوفى كلام ثم تتوالى الأدوار فى الموسيقى ، وكل دور يسمى نوبة ، ولكل نوبة اسمها الخاص وتلاحينها . وتعتمد الموسيقى الجزائرية على الآلات الموسيقية التالية : الناي والعود والرباب والقانون والكنجة والطبل والدريكة والطار والمزمار .

وبجانب هذه الموسيقى الجزائرية التى كانت تشيع بين الحضر فى المدن الجزائرية كان للبدو من الأعراب أغانيهم البدوية التى توارثوا طرائق التغنى بها وإثاءها من آبائهم فى الجزيرة العربية، وقد أخذوا يستعيدون تلك الطرائق فى هضاب الجزائر ومراعيها الواسعة التى كانوا ينتقلون فيها، وأخذوا عنهم جيرانهم من البربر المتبدلين مثلهم، وكانوا يشدونها مع طبل وزمر أحيانا فى أسماهم وحفلات اعراسهم وأفراحهم واستقبالانهم للحجاج بلهجاتهم البدوية الدارجة.

٤

الدين - المالكية والحفية - الإباضية - المخرلة

(أ) الدين^(١)

كان البربر فى القطر الجزائرى - مثل إخوانهم من البربر فى الأقطار المغربية - وثنيين

كتاب دولة بنى حماد لإسماعيل العرى وفى نشاط القرصنة وصف إفريقيا لـ Depper وكلمة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية وفى اعتناق البربر للإسلام ونحوهم إلى شعب عرى مسلم مواضع مختلفة فى كتاب البيان للغرب لابن عفرى وغيره من كتب التاريخ السليقة .

(١) راجع فى الدين قديما الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان وفى اليهود والنصارى تاريخ الجزائر فى القديم والحديث للمارك الملى وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وفى علاقة الثاسرين عتلى الحمادى بالها جريجوار السليق

يعبدون الشمس والقمر والكواكب السيارة ويقدمون لها المعابد ويقدمون إليها القرابين ويوقدون لها النار لحراستها ويقدمون كثيرا من الأحجار . ونزل بديارهم الفينيقيون وكانوا مثلهم وثنيين وكذلك القرطاجيون . وأخذ اليهود يهاجرون إلى بلدان الجزائر بعد استيلاء الملك الكلداني بختنصر على بيت المقدس ، ولهم هجرة إليها ثانية حين هدم الإمبراطور تيتوس هيكلهم بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد . وحاول يهود الهجرة الأولى والثانية أن ينشروا دينهم اليهودي بين البربر ، واستجاب لهم بربر مختلفون في جبال الأوراس ، وما زالت توجد آثار للقبائل البربرية التي اعتنقت اليهودية وتمسكت بها إلى اليوم . وفي ذلك ما يفسر وجود بعض اليهود البدو الذين يلبسون ملابس البربر المسلمين ويعيشون معيشتهم . ولهم هجرة ثالثة إلى الجزائر وغيرها من البلاد المغربية ، حين أنزل الإسبان بهم بعد سقوط غرناطة أهوالا من العذاب وأوصدت أوربا أبوابها دونهم فلم يجدوا لهم ملاذا سوى الجزائر وشقيقاتها العربيات المسلمات وعاملوهم معاملة الإسلام السمحة ولم يشعروهم أنهم عنصر غير مرغوب فيه ، بل فسحوا لهم في المعيشة وكانوا يعدون بالآلاف في قسنطينة والجزائر وغيرها من المدن الكبرى مثل تلمسان ، ويقول الحسن الوزان : كان بها خمسمائة بيت من اليهود ، وما زالت المدن الجزائرية تنفسح لهم في المعيشة بها ، حتى إذا كانوا في أواخر هذا العصر احتكروا التجارة والأعمال المالية ونار الشعب الجزائري فحففوا قليلا من وطأة احتكارهم وسرعان ما استعادوا احتكارهم ونفوذهم المالى على نحو ما عرضنا ذلك في الفصل الماضى .

وأخذت المسيحية تنتشر في الجزائر منذ القرن الثاني للميلاد ، وأخذ انتشارها يتسع منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلائه في روما على صولجان الحكم سنة ٣١٢ للميلاد إذ أعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأخذ يعمل على نشرها في إفريقيا والبلاد التابعة لروما ، وتكاثرت الأسقفيات والكنائس في المدن الساحلية وفي الداخل فقد كان لهم أسقفية في بونة (عنابة) وكان القديس أوغسطين أسقفها وكانت في قسنطينة أسقفية ثانية وكذلك في باغاية ، وكانت هى وأمثالها تتبع كنيسة روما . ويظن أن المسيحية سقط منها بعض التأثير إلى القبائل الرحل في الجنوب إذ توجد بعض كلمات في لغة الطوارق ترجع إلى أصل مسيحي مثل اسم ميسى ومعناه عندهم إله وأنجلوس ومعناه عندهم ملاك . ولكن من المؤكد أن البربر ظلوا - قبل الإسلام - لا يقبلون على المسيحية لصعوبة تصوره لعقيدة التثليث المسيحية المعقدة ولأن حملتها من الرومان كانوا يذيقونهم قهراً وبطشاً شديداً ، فظلوا منصرفين عنها ، ومن اعتنقها منهم ظل يعتنقها اعتناقا ظاهريا دون أن تحتل قلبه وفؤاده ، وظل يشعر أنها ديانة رومانية أوربية غريبة عليه . ومع ذلك فإن الجاليات والأسر والحاميات الرومانية ومن تنصّر من القرطاجيين كانوا كثيرين مما أتاح لتأسيس بعض الأسقفيات والكنائس وبدون ريب حاول بعض القساوسة الدعوة للمسيحية . جاهدن في أرجاء البلاد حتى صحاريها . وبعد الفتح العربى أخذ كثيرون ممن

اعتنقوها يعتنقون الدين الخفيف ، وأقبلت عليه جموع البربر وجماهيرها ، لبطانته ولتحريره الشعوب من كل عبودية وإسترقاق وظلم مع عموه لجميع الفوارق الطبقية والاجتماعية بين رعيته فهم جميعا سوله فى الحقوق والواجبات ، وهذا هو التفسير الصحيح لقضاء الإسلام على المسيحية فى القطر الجزائرى وغيره من الأقطار المغربية ، مع ملاحظة أن العرب عاملوا من ظلوا على مسيحياتهم من الروم وغيرهم معاملة سمحة كما يقضى بذلك دينهم وجعلوا لهم حقا مفروضا إقامتهم لشعائر دينهم المسيحى وتجديد كنائسهم ولم يمسوا أى مس حرمتهم الدينية . وظل ذلك لافى القرون الأولى بعد الفتح فحسب ، بل أيضا فى جميع القرون ، حتى لنجد الناصر بن علناس أمير دولة بنى حماد فى بجاية والقلمة يرسل - كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الماضى - خطبا رقيقا إلى البابا جريجوار السابع الذى تولى البابوية بين سنتى ١٠٧٣ و ١٠٨٥ خطبا رقيقا يطلب إليه فيه تكريس القديس سرفاند أسقفا على لُبرشية بونة (غلبة) وأرسل إليه معه بهدايا نفيسة ، وأهم من ذلك أنه اختدى جميع الأسرى المسيحيين الذين جلبهم القراصنة إلى مملكته وأرسل بهم إليه . وكان لذلك أجمل وقع فى نفس البابا وكبار رجال الكنيسة فى روما ، وأرسل إليه مع الأسقف الجديد لبونة برسالة تفيض بشكره وشكر القسيسين وأشرف روما لهذا العمل النبيل عينا عقيدة المسلمين التى تشترك مع عقيدة المسيحيين - كما يقول - فى الاعتقاد بإله واحد خالد . وإنما سقت ذلك لأدل على مدى المعاملة الطيبة للمسيحيين فى الجزائر ، وكانت لهم فى مدنها الكبيرة بعض الأحياء ، كما كان لهم - مثل اليهود - مقابر خاصة . ومُرَّ بنا أن القرصنة اتسعت منذ القرن العاشر إلى نهاية هذا العصر ، مما أدَّى إلى وفود آلاف من الأسرى المسيحيين على الجزائر من مختلف مناطق البحر المتوسط (إسبان وفرنسيين وإيطاليين وكرتيين وصقليين ويونان) وكانوا يعدون رقيقا فى خدمة الدولة أو فى خدمة بعض الأعيان ، وكانوا يزاولون الزراعة وحرف الصناعة والبناء ويزعم دابِر Dapper فى وصف إفريقيا أنه كان بمدينة الجزائر ستة آلاف أسرة من هؤلاء المسيحيين الأسرى ممن جلبهم القراصنة ، وكان كثيرون من هذا الرقيق المسيحى الأسير يسلمون وتُرَدَّ إليهم حرياتهم ويكونون أَسْرًا ما زال بعضها يحمل اسم بلدنهم الأصلى ، وعمل بعضهم فى الدولة وارتقى إلى المناصب الرفيعة .

ومنذ فتح المسلمون المغرب الأوسط أو إقليم الجزائر ، والبربر يسارعون إلى الدين الخفيف واعتناقه ، ويبدو ذلك واضحا فى عهد نُمى المهاجر دبنار (٥٥ هـ / ٦٧٤ م - ٦٢ هـ / ٦٨١ م) إذ يرجع إليه الفضل فى فتح جميع الجزائر ونشر الدين الخفيف فيها وكثرت قد فُتحت بعض أرجائها وأُخذ أهلها يتعرفون على الإسلام ويدخلون فيه ، فأتى ذلك كله ، متخذًا له جيشًا جرارًا من العرب والبربر المسلمين . وسمع أن الروم وبعض البربر يتجمعون لحربه فى مدينة ميلة إلى الجنوب الشرقى من بجاية ، فانزلهم واحل البلدة واتخذها مركزًا لأعماله الحربية وظل

فيها عامين ، تخرج فيهما سراياه للفتح بعد الفتح . وكانت الزعامة في الجزائر حينئذ لقبيلة أوربة البرنسية ورؤسها أو زعيمها كسيلة وكان نصرانيا وأخذ يستعد استعداداً واسعاً للقاء أمي المهاجر ، ولقيه بجيش كثيف من الروم والبربر بالقرب من تلمسان ودارت عليه وعلى جيشه - كما مر بنا في الفصل الماضي - الدوائر ، ووقع أسيراً فعامله أبو المهاجر معاملة سمحة ، جعلته يدخل - وتدخل معه قبيلته أوربة - في الدين الحنيف . وخلف أباً المهاجر في ولاية القيروان والبلاد المغربية عقبة بن نافع سنة ٦٢ هـ/ ٦٨٣ م فرأى أن يقتحم الجزائر والمغرب الأقصى جميعاً ، وأعد جيشاً ضخماً أخذ يهزم به البربر ومن اجتمع إليه من الروم حتى أوطأ حافر حصانه مياه الأطلسي . ومنذ هذا التاريخ أصبحت البلاد المغربية جميعها من أذناها إلى أقصاها بلاداً إسلامية . غير أن عقبة كان قد عامل كسيلة الأوربي معاملة أغضبه وصمم على الانتقام ، حتى إذا كان عائداً بالجيش في المغرب الأوسط وتخلف عنه مع فرقة صغيرة بالقرب من طنبجة هجم عليه كسيلة مع جنود من الروم والبربر كان قد أعدهم لثل هذه الفرصة ، واستشهد البطل العظيم عقبة . وانتقم له خليفته زهير بن قيس فنازل كسيلة في موقعة ضارية خَرَّ صريعاً فيها وتفرق من معه في البلاد والجبال . وعاد زهير فتولى البلاد المغربية بعده حسان بن النعمان فرأى أن يفتح قرطاجة التي كان ينزل فيها الروم ومحاولون الاتصال بالبربر للحرب والإفساد ، وفر كثير من الروم إلى البحر ومن بقي منهم فرضت عليه الجزية . وكانت كاهنة بربرية تزعم البربر في جبال أوراس بالجزائر قد أعلنت الحرب على حسان والعرب ، ولقبها حسان ولم يكتب له النصر فانسحب انتظاراً لمدد يأتيه من الخليفة عبد الملك بن مروان وأتاه المدد سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠ م فنالها وسحق جيشها سحقاً ذريعاً وأمن من بقي منه وأمن سكان أوراس في الجزائر جميعاً وولى أكبر أبناء الكاهنة على قبيلته جراوة وجبل أوراس ، واتخذ من قومه كتيبة في جيشه عداها اثنا عشر ألفاً . ومن حينئذ أصبحت الجزائر عريّة إسلامية تعتق الدين الحنيف وتجاهد في سبيله عن إيمان وإخلاص . ويخلف حساناً على القيروان والبلاد المغربية موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م فيمكن لهذا الامتزاج التام بين العرب والبربر في الجيش وحكم المدن وفي جميع الحقوق والواجبات ، ويعمل بكل ما استطاع على نشر الدين الحنيف بين البربر ، ويتوَّج ذلك بالبعثة التي أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز لنشر الدين الحنيف وتعاليمه في البلاد المغربية .

وبذلك أصبحت الجزائر - مثل بقية البلاد المغربية - عريّة إسلامية ، وحقا ولى على البلاد المغربية منذ أوائل القرن الثلثي الهجري ولاية أمويون باغون نساءوا حكم البربر سواها شديداً فلم يسووا بينهم وبين العرب في الحقوق وظلموهم في الخراج والضرائب ظلماً شديداً ، وعرفوا دعوة الخوارج وما يدعون إليه من المساواة التامة بين جميع المسلمين عرباً وغير عرب في كل الحقوق حتى في ولاية الأمة وخلاتها أو إمامتها ، فليس من الحتم أن يكون الخليفة قرشياً بل

يتولى الخلافة أكفأ المسلمين ولو كان عبداً جشياً ، وسارع إليهم دعاة مذهبي الإباضية والصفرية ، وكان المذهب الأول معتدلاً وقرية من مذاهب أهل السنة ، وتبع دعائه جبل نفوسة في طرابلس واستطاعوا أن يكونوا لهم دولة في تاهرت ، وبذلك كثر أتباع هذه الفرقة الخارجية وسنخسها فيما يلي بمحدث مستقل ، أما فرقة الصفرية فكانت فرقة متشددة غاية التشدد وكانت تسيح دماء المسلمين ، وتأسست في سجلماسة والمغرب الأقصى ، فلم يتبعها جزائريون إلا ما كان يحدث أحيانا من مرور جيوشها بأراضي الجزائر في ذهابها لحرب ولاية المغرب أو لحرب الدولة العبيدية ، فكان ينضم إليها بعض الجزائريين . ويقاع محدودة في الجزائر هي التي شاعت فيها الدعوة الإباضية ، ومعنى ذلك أن الجمهور في الجزائر ظل سنيا وظلت الجزائر دارا كبيرة للمذاهب السنية .

(ب) المالكية^(١) والحنفية

ظل شرقي الجزائر طويلا جزءا لا يتجزأ من ولاية القيروان ، وكانت قد سبقت - كما مر في القسم الخاص بالإقليم التونسي - إلى الاعتماد في الفقه على مذهب مالك ، وفتحت أبوابها للمذهب الحنفي وخاصة في عهد الأغلبية الذين تابعوا بغداد في اتخاذ القضاة غالبا من بين فقهاء الأحناف حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، إذ خيمت - حيثذ - العقيدة الشيعية على الإقليمين الجزائري والتونسي ، وكادت تتوقف فيهما دراسة الفقه السني المالكي والحنفي حتى إذا فارقوا المهديّة إلى القاهرة في أواخر العقد السادس من القرن الرابع عادت إلى الفقهاء السنيين حريتهم ، وأخذوا يعنون بدراسة الفقه المالكي ، وتولى المعز بن باديس شئون القيروان وشرقي الجزائر سنة ٤٠٦ هـ واشتد في عهده تدمير أهل القيروان من ذكر الخطباء على المنابر أسماء الخلفاء العبيدين والدعاء لهم في خطب الجمعة ، وبلغ بهم الأمر أن قطعوا صلاة الجمعة احتجاجا على الدعوة والدعاء لهم فيها ، ويقول ابن عذاري إن بعضهم كان إذا بلغ إلى المسجد قال سرا : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، واتصرف ، فصلّى الظهر . وانتهى الحال إلى تعطيل الجمعة في القيروان زمتا ، وأخذت تقوم مشادات عنيفة بين أنصار السنة وأنصار الدعوة العبيدية الشيعية منذ سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م وفي نفس هذه السنة قُتل العامة من أنصار العبيدين خلقا كثيرا رجلا ونساء ونهبوا دور قوم منهم وأموالهم . ومن حين إلى حين كانت تتور بهم العامة في القيروان وأيضا في المهديّة عاصمة العبيدين ومديتهم المنصورة حتى إذا كانت

(١) انظر في المالكية الجزائريين كتاب رياض النفوس للمالكي والدجاج المنع لابن فرحون وفي المالكية المصريين الكبار المذكورين كتاب حسن الحضرة للسيوطي وراجع في قرار المعز بن باديس بقطع الدعوة العبيدية وحل أهل المغرب على مذهب مالك البيان

المغرب لابن عذاري والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وانظر في تمليله لأتباع أهل المغرب مذهب مالك مقدّم في الحديث عن علم الفقه وراجع المذهب الحنفي في العهد العثماني بالجزء الأول من كتاب تاريخ الجزائر الثنائي في العهد العثماني لأبي القاسم سعد الله .

سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ثارت بهم العامة ثورة دامية سفك فيها كثير من الدماء فى الحواضر والبادى ، ولم يتمكن المزم من إيقافها ، فرأى نزولا على إرادة شعبه نبد الدعوة العبيدية أو الفاطمية علانية وخلع طاعة خلفائها فى القاهرة ، وأمر بأن يحمل جميع أهل المغرب على اتباع مذهب الإمام مالك سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م وقيل بل فى السنة التالية ، وأمر أن يخطب على المنابر باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله وجاءه منه تقليد يعترف له فيه باستقلاله . ومن حيثذ أصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهى السنى الذى تتبعه البلدان المغربية وجماهيرها لافى الإقليم التونسى وشرقى الجزائر فحسب ، بل فى جميع بلدان الجزائر والمغرب الأقصى وأيضا فى طرابلس وبرقة وأخذ يدرس فى كل بلد مغربى وكثر فقهاؤه كثرة مفرطة .

ويقول ابن خلدون - فى المقدمة - إن أهل المغرب اختاروا مذهب مالك دون غيره من المذاهب السنية كاللذهب الحنفى والمذهب الشافعى لأنه مذهب أهل الحجاز الذين تجمعهم بهم البداوة ، وفى رأينا أن هذا التعليل غير دقيق ، لما سئرى عما قليل من شيوع مذهب الاعتزال فى الجزائر - ومثلها المغرب الأقصى - ومعروف أن البصرة هى التى وضعت دون الكوفة لأن عقلها - كما قلت فى كتاب المدارس النحوية - كان أدق وأعظم من عقل الكوفة لاتصالها بالثقافات الأجنبية وبالفكر اليونانى ، ولذلك وضعت أصول الاعتزال . فالتعليل لاختيار أهل المغرب مذهب مالك بالبداوة تعليل لا يستقيم ، وأولى من ذلك أن يعمل إيتارهم للمذهب مالك من قديم ، لأنهم كانوا يقصدون إلى المسجد الحرام للحج ويوزرون المدينة دار الهجرة وكان مالك إمام المدينتين غير مدافع وإمام أهل الحجاز ، فجلسوا إلى محاضراته فى المدينة دار الرسول ﷺ منذ أواسط القرن الثانى للهجرة وحملوا عنه موطأه إلى القيروان وتدارسوه فيها كما تدارسوه على تلاميذه المصرين النابهن يتقدمهم عبد الرحمن بن القاسم ، وكان قد فرغ على المذهب فروعا فى مدونة له حملها عنه أحد تلاميذه القيروانيين : سحنون ، وأذاعها فى طلابه ، وأصبحت فى البلاد المغربية : الجزائر وغير الجزائر أمًا للمذهب المالكى مثل كتاب إمامه الموطأ ، وظل المغاربة بعد سحنون يلتصون للمذهب المالكى عند أئمتهم المصرين الذين خلفوا عليه ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ هـ / ٨٠٦ م وخلفه على إمامة المذهب المالكى بالفسطاط أشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م وتولاها بعده عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م وإمام المالكية بعده فى الفسطاط أصبح بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ م فكل هؤلاء الأئمة كان يرحل إليهم شباب المالكية المغاربة للتزود فى المذهب من حلقاتهم العلمية ، كما كانوا يتزودون من تلامذة سحنون فى ديارهم المغربية ، وتوالت طبقات فقهاء المالكية فى الجزائر إلى اليوم .

وقد أخذ للمذهب الحنفى وفقهاؤه ينشطون فى المعهد العثمانى إذ كتلت الدولة العثمانية

تقصر الفتوى والقضاء على فقهاء المذهب الحنفى ، وكان كبير المفتين أو أصحاب الفتوى عندهم يلقب بلقب شيخ الإسلام وما إن استقر الحكم العثماني حتى أشرك الولاة العثمانيون مع القاضى المالكي قاضيا حنفيا ، وكان يأتى فى أول العهد من إستقبال . وكان حكم القاضى المالكي لا يصبح نافذا إلا إذا وقع عليه القاضى الحنفى ، وتبع هذا القضاء الحنفى مدارس تعنى بالفقه الحنفى ، وأخذت تنشأ فقه كبيرة من فقهاء ومدرسيه ، وبعد أن كان القاضى الحنفى يأتى فى صدر العهد العثماني من إستقبال أخذ أولو الأمر يعينون القضاة من أسر حنفية توارثت للمذهب فى الجزائر .

(ج) الإباضية^(١) والصفرية

الإباضية - قديما - من فرق الخوارج الذين أنكروا التحكيم الذى ارتضاه على بن أبى طالب فى الحرب الدائرة بينه وبين معاوية فى صفين ، وقالوا إن الخلافة - أو إمامة المسلمين - لا يصح أن تقصر على قرش ، إذ ليست حقا لها ، بل هى حق لله ، وينبئ أن يتولاها خير المسلمين تقوى وإقامة للعدل ولو لم يكن قرشيا بل لو كان عبدا حبشيا ، وحاربهم على بن أبى طالب وهزمهم ، وظلوا بعده يقاتلون الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية ، وانقسموا فرقا كان من أكثرهم غلوا فرقتا الصفرية والأزارقة الذين عدوا دار المسلمين دار حرب ينبئ حربهم وجهادهم ماداموا يستسلمون لحكام الأمويين والعباسيين القرشيين الجائرين ، وتبع فرقة الصفرية كثيرون فى سجنلماسة والمغرب الأقصى وحملوا السلاح ضد حكامهم من العرب وخاضوا معهم حرباطاحنة ، وكانت جيوشهم تمر أحيانا بالجزائر قاصدة القيروان مقر الحاكم الأموى والعباسى ومن بعدهما الحاكم العبيدى لحربه ، وكان يتبعهم بعض العامة من الجزائر ، ولكن جماهير الجزائر ظلت بعيدة عن اعتناق هذه العقيدة الخارجية الغالية .

وإذا كانت الجزائر لم تعتق العقيدة الصفرية فإن جماعات فيها اعتنقت العقيدة الإباضية ، وتأسست لها دولة فى مدينة تاهرت ، حتى إذا قضى عليها أبو عبيد الله الشيعى داعية المهدي العبيدى انسحب منها الإباضيون إلى باغاية وورقلة ، ثم تجمعوا فى غرداية وقرى ميزاب ، ولا يزالون إلى اليوم فى كل هذه الأنحاء . وفرقة الإباضية لم تكن تغلو - من قديم - غلو فرقة الصفرية ، فهى لا تعدد دار المسلمين دار حرب ولا تحمل السلاح لقتالهم وسفك دماهم مثل الصفرية ، إلا أن يضطروها إلى ذلك ، وهى لا تمد - مثل الصفرية والأزارقة - مرتكب الكبيرة كافر ملء يجب قتله ، إنما هو كافر نعمة فلا ينبغى قتله ، وهم يتوارثون مع إخوانهم السنيين

لأحمد توفيق المدنى والمجزء الثانى من تاريخ المغرب الكبير
لديوز .

(١) انظر فى الإباضية والصفرية كتاب الملل والنحل
للشهرستانى وراجع فى الإباضية السير للشحاشى
والأزهار الرياضية لسليمان البارونى وكتاب الجزائر

ويصهرون إليهم ، ولذلك يرى بعض الباحثين المعاصرين منهم أنهم ليسوا خوارج إذ لا يخرجون على الدين الخفيف وتعاليمه إمامهم فرقة إسلامية كانت - ولانزال - ترى أن تكون الخلافة - أو إمامة المسلمين - جمهورية ، فالمسلمون يختارون لها أكفأهم وأولاهم بحكمهم وتحقيق العدل بينهم ، وهم - إلى ذلك يختلفون مع أهل السنة مالكية وغير مالكية وجوها من الاختلاف ، من ذلك أنهم - مثل المعتزلة - ينفون تشبيه الله بالمخلوقين نفيًا مطلقًا ، والآيات القرآنية التي قد يفيد ظاهرها ذلك تؤوّل كما أوّلها المعتزلة ، وهم مثلهم يرون أن صفات الله عين ذاته الكاملة كلاً مطلقاً ويرون أن مرتكب الكبيرة إن مات على غير توبة خُلد في النار ، بينما يذهب أهل السنة إلى أن أمره مفوض إلى مشيئة ربه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ . ويذهبون إلى أن الإيمان لا يكفي فيه القول وحده ، بل لابد من العمل معه بحيث لا يعد المسلم مؤمناً إلا إذا أدّى جميع الفروض الدينية . وكان أهل السنة يرون أن تظل الخلافة في قريش ، بينما يرى الإباضية - كما أسلفنا - أنها حق للمسلمين جميعاً يتولاها أصلحهم لها . وكلها خلافات يمكن عدّها خلافات فرعية لفرقة إسلامية .

(د) المعتزلة^(١)

أخذ واصل بن عطاء إمام المعتزلة بل مؤسس مذهب الاعتزال يتألق - في أواخر العصر الأموي - في عمليتين كبيرين : وعظه المؤثر في الناس ودعوته لهم أن يعتنقوا مذهبه في الاعتزال ومبادئه التي كان يدعوها ، وفي مقدمتها مسألة مرتكب الكبيرة وهل يعد مؤمناً أو كافراً ، وكانت المرجحة تعدّه مؤمناً وكان الخوارج من الصفرية والأزارقة يعدّونه كافراً وكان أهل السنة يعدّونه مؤمناً فاسقاً ، وعدّه الإباضية كافر نعمة لا كافر ملة ، ونفذ واصل إلى القول بأنّه في منزلة وسطى بين منزلي الإيمان والكفر ، وأضاف إلى هذا المبدأ في الاعتزال أربعة مبادئ أخرى هي وحدانية الله وتنزيهه عن الشبه بالمخلوقات ، ومبدأ أن الإباضية يأخذون بهذا المبدأ الاعتزالي ، ومبدأ ثان هو العدل على الله وتترتب عليه حرية الإرادة عند الإنسان بحيث يحاسب على عمله فلا جبر ولا قدر مقدور كما يرى ذلك أهل السنة والإباضية ، ومبدأ ثالث اتفاد الوعد بشواب المتقين المؤمنين والوعيد بعذاب العاصين الكافرين ، ومبدأ رابع هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان واصل ينفذ إلى القلوب بوعظه المؤثر وإلى العقول ببراهينه الساطعة لمبادئه الاعتزالية ، وأعجب به في المجالين شباب موطنه البصرة إعجاباً شديداً ، واتخذهم دعة يدعون إلى نخلته الاعتزالية ، في أطراف الأرض ويصور ذلك صفوان الأنصاري في مدحته له التي تشدها الجاحظ في أوائل الجزء الأول من حياته قائلا :

مجادلاتهم للإمام الإباضي عبد الوهاب وعلماء الإباضية
وثورة جموعهم عليه الجزء الثالث من تاريخ المغرب
الكبير للعوز .

(١) انظر في مبادئ المعتزلة الملل والنحل للشهرستاني
وكتابتها عن العصر العباسي الأول ، وراجع في قصيدة
صفوان الجزء الأول من البيان والنبين ، وانظر في

له خلفَ شغب الصّين في كلِّ نَفْرةٍ إلى سوسها الأقصى وخلفَ البربر
رجالاً دعاة لا يفلُّ عَزمهم نهكُم جَبَّار ولا كيدُ ماكر
وأوتاد أرض الله في كلِّ بلدةٍ ومو ضع قِيّاها وعلم الشّاجر

ويصفهم صفوان بالقدرة على الشاجر والجدال وقرع الحجة بالحجة اليّنة ، ويصفهم في أبيات تالية بروعة البيان والخطابة ويقول إنهم رسله ودعائه وحاملو مبادئة الاعتزالية إلى أطراف الأرض في أقصى الشرق حتى الصين وفي أقصى الغرب حتى بلاد السوس وقد استطاع هؤلاء الدعاة لواصل أن يجذبوا إلى نخلته الاعتزالية جماعات في الجزائر شمالا بين ميناءى مستغتم وهران وجنوبا في وادى ميزاب بمدينة المظفا ، ولاتزال لهم مقبرة بها ، ونجد المناظرات محندمة في تاهرت بين الإباضية والمعتزلة المقيمين شمالها وكثوا يملغون ثلاثين ألفاً ، وهو عدد ضخم ، واشتعلت هذه المناظرات في عهد إمام الإباضية عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١هـ) ونازله هو وعلماء دعوته أحد علماء هؤلاء المعتزلة وهزمهم جميعا ، واستجد عبد الوهاب بعلماء نفوسة في طرابلس وأرسلوا إليه شيخا منهم يسمى مهدي ، وتناظر مع عالم المعتزلة مناظرات حادة ، ولم تلبث المعتزلة أن حملت السيوف لقتال الإباضية ، ولم يكتب لهم النصر كما يقول مؤرخو الإباضية ، ولو كُتب لهم لتكونت في الجزائر دولة معتزالية لأول مرة في التاريخ العربى . ويبدو أن الدعوة الشيعية التى قضت على الدولة الإباضية في تاهرت لأواخر القرن الثالث المجرى قضت أيضا هناك على الدعوة الاعتزالية لا في الجزائر وحدها بل أيضا في المغرب الأقصى .



الزهد^(١) والتصوف

أخذت تشيع في الجزائر نزعة مبكرة للزهد في متاع الحياة العاجل والإقبال على العبادة والنسك طلبا للثواب عند الله في الآجل . وكان مما عمل على إشاعة الزهد والتقوى في نفوس الجزائريين الوعاظ في أيام الجمع بالمساجد وفي غير أيام الجمع إذ كانوا مايزالون ينقرون الناس من ملذات الدنيا مذكرين لهم بيوم القيامة وما ينتظر العصاة فيه من العذاب الأليم والتقاة من النعيم المقيم ، مستشهدين لهم بآيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية التى تصور عذاب الجحيم ونعيم الفردوس ، حاثين لهم على القناعة بالكفاف من العيش وطيباته فذلك هى الوجهة المفلحة

في ذكر الأولياء والعلماء بتلسان لآين مرهم نراجع عن أعلام الصوفية ، ونظر في صوفية الأندلس للذكورين كتبنا عن الأندلس وما فيه لهم من مراجع .

(١) تفيض تراجم الفقهاء والمحدثين الجزائريين في كتاب عنوان الدراية للفرنبى والديباح للمذهب لآين فرسون بأخبار زهد الزهاد . وفي كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف لآين الزيات التادلى وكتاب البستان

والصفقة الراجعة . لذلك لا نعجب أن يتكاثر الزهاد في البلاد المغربية بالجزائر وغير الجزائر وأن يمت العديد من الفقهاء والمحدثين بالزهد في خيرات الحياة وإثارة التقشف والرضا بالقليل .

وتنقل موجة الزهد حادة في الجزائر ، وتندافع معها موجة تصوف منذ ولاية يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠هـ) وينتاه على الساحل التونسي لرباط المستير الذى أوى إليه كثرة من العباد لحراسة الساحل التونسي ، وأخذت تبني رباطات أخرى على سواحل البلاد لحمايتها من قراصنة أم البحر المتوسط الأوربية . وكان ينزها كثير من النساك والفقهاء للإسهام في هذه الحماية قايماً بحقوق الدين والوطن ، واستحالت هذه الرباطات قروناً إلى دور عبادة ونسك كبرى . ومنذ القرن السادس الهجرى يتخذ بعض النساك لهم في المدن مراكز يتابعون فيها نسكهم وما قد يُلْقون من دروس إن كانوا فقهاء أو محدثين ، وسميت هذه المراكز رباطات وزوايا ، ويترع كثيرون لبعض هذه المراكز ، فيتضاعف حجمها وتضاعف مريدو الشيخ الناسك وقصّاده . وأخذت هذه الزوايا والرباطات تتكاثر مع الزمن لافى المدن فحسب ، بل أيضاً في سفوح الجبال وفي الهضاب والصحارى البعيدة القاحلة .

وكانت الطرق الصوفية قد شاعت في المشرق على نحو ما هو معروف عن الطريقة القادرية المنسوبة إلى عبد القادر الجيلانى المتوفى ببغداد سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م والطريقة الرفاعية المنسوبة إلى أحمد بن على الرفاعى العراقى المتوفى سنة ٥٨٧هـ / ١١٨٢م . وأخذت هاتان الطريقتان تشيعان في جميع البلاد الإسلامية ، وكان أتباع الطريقة القادرية في الجزائر أكثر عدداً . وتصوف الطريقتين جميعا تصوف سنى . وكان يجرى بجانبهما في المشرق تيار من التصوف الفلسفى الذى يفسح لفكرة الحلول الإلهى فى الكائنات كما يفسح لفكرة الاتحاد الصوفى مع الذات العلية ، وهو تيار قديم فى التصوف منذ الحلاج مؤسسه المتوفى سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م وأخذ أتباع هذا التصوف الفلسفى يتكاثرون فى الأندلس منذ القرن السادس الهجرى على نحو ما بسطنا ذلك فى كتابنا عن الأندلس ، وقد تحدثنا هناك عن أبى عبد الله الشاذلى الإشبلى وتلميذه إبراهيم بن دهاق المتوفى سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م كما تحدثنا عن ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م بدمشق وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧١م بمكة . وهم جميعا من أصحاب التصوف الفلسفى ونزلوا جميعا فى تلمسان ، وبها تلمذ ابن دهاق على أبى عبد الله الشاذلى ونزل بها فترة ابن عربى وابن سبعين وتوجلا فى بعض مدن الجزائر ، ونزها قبلهم جميعا الصوفى المشهور وبخاصة فى الجزائر أبو مدين شبيب واسترحم له بين شراء التصوف وتصوفه فلسفى ، وقد استوطن بجاية وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م .

وهذا التصوف الفلسفى لم تتكون حول أئمنه طرق صوفية ، فقد ظلت تلك الطرق تخص التصوف السنى وتكونت معها فى القرن السابع الهجرى طريقة صوفية سنية مغربية هى طريقة

نبي الحسن علي بن عبدالله الحسني الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٩م ولم يكذب بدعو إليها في شاذلة بالقرب من تونس وفي تونس نفسها حتى تكاثرت أتباعه في البلاد المغربية ونزل القاهرة مع تلميذه أبي العباس المرسى ، وكُتب لطريقته أن تصبح أهم الطرق الصوفية السنية لافى مصر وحدها ، بل أيضا في الجزائر وجميع البلاد المغربية . وتكاثر شيوخ الصوفية وزواياهم في الجزائر منذ القرن الثامن الهجرى ويعنى بعض المؤرخين بالترجمة لهم وفي مقدمتهم يحيى بن خلدون إذ نراه في كتابه « بنية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبد الواد » يسوق ترجمات لمائة وتسعة من العلماء وأهل التقوى والصلاح ، ويتكاثرت رجال التصوف في القرن التاسع الهجرى ويزدادون زيادة مفرطة في العهد العثماني ، لنتايت بالتصوف وتقريه لهم وإغداقه الأموال على زواياهم وكان الولاة العثمانيون يزورونهم ويتبركون بهم ويوزرون أضرحة المتوفين منهم ، ودخلت معهم إلى الجزائر الطرق الصوفية التي اشتهرت ببلادهم مثل البكداشية والنقشبندية والمولوية أتباع جلال الدين الرومى ، ولكن الطريقتين الشاذلية والقادرية ظلتا تجذبان إليهما كثرة من الأتباع . وأخذ بعض أتباع الشاذلية يؤسس لنفسه فيها طريقة فرعية جديدة ، بحيث أصبحت هي والطرق التي اشتقت منها مثل المليتية والزيتية والرحامية والدراقوية أهم الطرق التي استوعبت جماهير الجزائر في المدن والقرى والمضارب والصحارى . ولا بد أن نشير إلى أن هذه الفئة من المتصوفة لندس بينها كثيرون في الحقب الأخيرة من هذا العصر يدعون لأنفسهم التقوى وهى منهم براء ، بل لقد كانوا يدعون أنهم أولياء يكشفون الغيب وينسبون لأنفسهم الكرامات ، ولندس معهم كثيرون من الدراويش الجوالين والمشعوذين الدجالين ، مما جعل عبد الكريم الفكون يؤلف كتابه : « منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية » وهو فى ثلاثة فصول أولا فيمن لقيه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم ومن كانوا قبل زمنهم ممن نقلت إليه أحوالهم وصفاتهم . والفصل الثانى فى التشبهين بالعلماء والصلحاء ، والفصل الثالث فى المتدعة « الدجاجلة » الكذابين على طريقة الصوفية . والفصلان الثانى والثالث مليان بنقد متصوفة عصره من أدعياء العلم ودجاجلة الشعوة الصوفية الذين يتخذون الرقص الصوفى أو مايسى بالذكر والتغنى عليه بضاعة لهم يستغلون بها العامة مع غالفهم عليها مع أصحاب الحكم والسلطان ، ويصيح ضد البدع والخرافات ، ويدعو إلى الاجتهاد واستخدام العقل والعمل بالكتاب والسنة .

الفصل الثالث

الثقافة

٩

الحركة العلمية

(أ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

عجب كثير من المستشرقين فى السرعة التى انتشر بها الإسلام فى الجزائر وغيرها من أقطار المغرب ، إذ لم يمض نحو قرن أو بعبارة أدق لم يمض القرن الأول الهجرى ، حتى أصبحت الأقطار المغربية أقطاراً إسلامية ، ومبعث العجب عندهم أن الفينيقيين ظلوا - وحدهم - فى البلاد أكثر من ستة قرون ولم يستطيعوا أن ينقلوهم إلى لغتهم وحضارتهم وديانتهم وعاداتهم ، وخلفهم الرومان نحو ستة قرون أخرى وظل تأثيرهم لا يكاد يعدو مدن الساحل الشمالى ، وحاولوا نشر المسيحية فى تلك المدن ، ولم يعتنقها فيها من البربر إلا قليلون . ونزلتها بيزنطة وشعبها الإغريقى ، وكان تأثيرهم فى المدن الشمالية محدودا . وظل البربر بعمامة محافظين على دينهم الوثنى ولغتهم وعاداتهم ، حتى إذا فتح العرب الجزائر وغيرها من بلاد المغرب أخذت جماهير البربر تعتنق الإسلام وتحاول النطق بلغته ، وكان لذلك عاملان : عامل الإسلام نفسه وتعاليمه الدينية البسيطة وما فرضه على الفاتحين من العرب والمسلمين أن يعاملوا الأمم المفتوحة معاملة سمحة وأن يصبح للمسلمين منها أو بعبارة أدق من يسلمون منها كل ما للفاتحين من حقوق ، فلا عبودية ولا استعمار ولا استنزاف لخيرات البلاد ولا استعباد لفرد فضلا عن شعب ، فالجميع متساوون ، وقد محيت بين المسلمين الجدد من البربر والفاتحين كل الفوارق الجنسية والاجتماعية . والعامل الثانى هو الفاتحون أنفسهم ، إذ لم يكونوا يفتحون للغنائم والسلب والنهب ، ولم تكن تلك أمنيته حينما خرجوا من ديارهم للفتوح فى الأقطار المغربية وغيرها ، إنما كانت أمنيته أن يتنظموا فى جيوش المجاهدين فى سبيل الله ابتغاء نشر دينه الخفيف فى أرجاء الأرض .

كان الجندى فى الجيش العربى الفاتح بمجرد أن يضع قدمه فى بلدة جزائرية أو مغربية أو فى أى قبيلة جبلية أو صحراوية يحاول أن يُدخل فى الدين الخفيف من يتأسون إليه من البربر ، فيحفظهم فاتحة الكتاب وبعض كلم العربية فى التخاطب . وأخذت الكتاب تنشأ

سريعا فى كل مكان لتعليم البربر فروض الإسلام وتخفيظهم بعض سور القرآن . وأخذ الولاة يسندون نشر الدين الحنيف بوسائل كثيرة ، ومن أهمهم فى هذا الجانب حسان بن النعمان (٧١-٨٦هـ) وكان قد ثار عليه شطر كبير من الجزائر فى جبل أوراس قادته قبيلة جراوة وزعيمتها الكاهنة : « داهية » وأشعلت جميع الجزائر نارا ، وامتدت نار ثورتها حتى طنجة فى أقصى المغرب ، وساعدها الروم ، وواقعت حسان بن النعمان سنة ٧٧ للهجرة وهزمت ، وظل ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك بن مروان سنوات ، وبمجرد أن جاءه نازل الكاهنة وجموعها ودارت عليها الدوائر . وبإلغام من الإسلام وتعاليمه فى معاملة البلاد المفتوحة جند حسان من هذا الجيش الجزائرى المنهزم اثنى عشر ألفا أدخلهم فى الجيش العربى للمشاركة معه فى الجهاد بنفس الأعطيات والرواتب والحقوق للجنود العربى وليس ذلك فحسب ، فقد عدّ أرض الجزائر - والمغرب عامة - فُتحت صلحا لا غُوة ، وهى بذلك تظل لأهلها مع ما يؤدون عنها من خراج أو زكاة ، وأيضا ليس ذلك فحسب ، فإنه ولّى على قبيلة جراوة وجبل أوراس واليا بربريا هو أكبر أبناء الكاهنة « داهية » . وكل تلك كانت بواعث فعالة لدخول الجزائريين والمغاربة فى دين الله أفواجا ، فلم يعودوا مستعبدين لفاطمين فينيقيين أو رومان أو بيزنطيين يظلمونهم ويهفونهم بالضرائب المتنوعة ، بل أصبحوا أحرارا فى ديارهم ولهم مال للفاطمين من الحقوق ، فهم إخوة دين حنيف وهم زملاء سلاح وهم حكام أنفسهم . وبهذه السياسة الحصيفة الرشيدة افتتحت قلوب البربر فى الجزائر وغير الجزائر لدين الله القويم . وخلف حسنا موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) فوثق هذه السياسة وزادها ضبطا وإحكاما ، إذ جاس خلال الديار المغربية حتى أقصاها فى الغرب ، وفى كل بلد وفى كل قبيلة خلف معلمين يحفظون الناس القرآن ويعلمونهم فروض دينهم وتعاليمه ، واتخذ للبربر ولاية من ذات أنفسهم ، ومن أهمهم طارق بن زياد والى طنجة الذى عهد إليه بفتح الأندلس وعبر إليها بجيش من العرب والبربر ، وتبعه موسى بن نصير بجيش مماثل ، مما يدل بوضوح على اندماج البربر فى العرب دينا وجهادا فى سبيل الله ونشر دينه الحنيف .

ولانبلغ سنة مائة للهجرة فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، حتى نجده يكلف عشرة من الصفوة فى فقهاء التابعين بالذهاب إلى إفريقيا لاستكمال نشر الإسلام فيها وتعليم البربر شريعة الإسلام ومانقوم عليه من الإيمان بوحدة الله وغير ذلك من أصول العقيدة الإسلامية وأيضا مانقوم عليه من العبادات والفرائض ، واختار أحدهم ، وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ليكون الوالى على جميع البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، ويقول عنه ابن عذارى : « ما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلمت بقيتهم على يديه » وعلى أبهى معاونيه من الفقهاء الثمسة الذين اصطفاهم عمر بن عبد العزيز لهذه المهمة ، وهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى وعبد الله بن يزيد الماعفرى الحلبى وإسماعيل بن عبيد الأنصارى وحبان بن أبى جبلة وبكر بن سودة

الجدامى وجعل بن عمير وموهد بن حى المعافى وطلق بن حبان وسعيد بن مسعود التجيبى وكل منهم كان فقيها يتقن معرفة الشريعة ويروى الحديث النبوى عن الصحابة من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب ولئى أئوب الأنصارى وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكانوا يحسنون تفسير القرآن الكريم ، وقد تحولوا جميعا مع إسماعيل بن عبيد الله بن أئى المهاجر فى إفريقية إلى معلمين يفقهون البربر أمور شريعتهم ، وأتاهم البربر من كل فج من الجزائر وغير الجزائر يدرسون عليهم الشريعة الإسلامية ، وعنا بتحفيظهم القرآن الكريم . واتخذ كل منهم بجانب المسجد الذى بناه كتابا لتحفيظ الناشئة القرآن . فأسلمت وتفقهت على أيديهم جموع كبيرة من البربر ، وهم يُعتَدون - بحق - المعلمين الأولين للبربر تعاليم الشريعة الإسلامية ، وهم تمّ العمل الكبير من نشر الجيوش العربية وولاة المغرب من أمثال حسان بن النعمان وموسى بن نصير الدين الخفيف فى ربوع المغرب جزائر وغير جزائر ، وانضمت الأمة البربرية إلى الأمة العربية فى دين واحد وعقيدة واحدة .

(ب) دور العلم : الكتابيب - المساجد - المدارس - الزوايا - المكاتب

الكتائب

أخذت تتأسس عقب الفتح الإسلامية فى بلدان الجزائر كتائب لتعليم الناشئة والناس القراءة والكتابة العربيتين وتحفيظهم القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية وترفيفهم بما ينبغى أن يعلموه من فروض الإسلام وتعاليمه . وكانت هذه الكتائب تُبنى مستقلة أو ملحقة ببعض المساجد ، وأخذت المعارف فى هذه الكتائب تتسع بمر الزمن ، فشملت مبادئ الحساب وسيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ولكن العناية الكبرى إما كانت تنصب على تحفيظ القرآن وبعض الأحاديث حتى يرسخ الإيمان فى نفوس الناشئة ، وتأتى بعد ذلك مدارس الحساب وغيره من مبادئ العلوم ، وكانت الكتائب منبثة فى المدن والقرى وفى كل تجمع للقبائل الجزائرية الجبلية والصحراوية وتكاثرت فى المدن كثرة مفرطة ، حتى كانت تمد بالعشرات فى طينة وقسنطينة وبونة وبجاية وتاهرت والجزائر وتلمسان والميزاب فى بسكرة وغير بسكرة .

المساجد

كانت الناشئة حين تنهى حفظها للقرآن الكريم وبعض متون الحديث وتعرف على مبادئ العربية والعلوم فى الكتائب تنجّه إلى حلقات المساجد وما يلقى فيها الشيوخ من الدروس فى موضوعات كثيرة ، فى مقدمتها تفسير الذكر الحكيم ، ورواية الحديث النبوى ، والفقّه

وما يصور من تعاليم الشريعة ، وتاريخ الرسول والخلفاء الراشدين والفتوح الإسلامية والأمة العربية ، وكان من هؤلاء الشيوخ من يقدم في دروسه أوليات المواد والعلوم في الدراسات الدينية والدراسات النحوية واللغوية وكثفه هو ومن يماثلونه يشبهون معلمى التعليم الثانوى فى عصرنا ، حتى إذا أتقنها الناشء وفقهها حق الفقه انتقل إلى حلقات شيوخ أعلى فى المستوى العلمى ، يلقون محاضرات متعمقة فى تفسير الذكر الحكيم ، ويقرءون - ويشرحون - بعض كتب الحديث النبوى المهمة ، ويلقون على الطلاب كتاب الموطأ لمالك أو ما يماثله حتى يتسع فهمهم وفقههم لتعاليم الإسلام فى فروع الدين ووجوه المعاملات ، ويحاضرونهم فى قواعد العربية ، ويقرءون لهم بعض كتبها المهمة مع الشرح والتفسير ، كما يقرءون لهم بعض كتب الشعر والنثر محاولين أن يفرسوا فى نفوسهم السليقة العربية وأن يصبحوا قادرين على نظم الشعر والكتلة الأدبية . ومع مر الزمن أخذت تلك الحلقات الكبرى وخاصة فى الجامع الأعظم أو الكبير بالمدينة تدرس علوم أصول الفقه والكلام والمنطق والطب والفلسفة ، وبذلك كان الجامع الأعظم فى كل مدينة جزائرية يعد جامعة كبرى لدراسة العلوم النحوية والعقلية . وكانت تلحق به وبعض المساجد أبنية أو زاوية بها غرف معدة بالأثاث والفرش اللازمة لسكنى الطلاب من خارج المدينة وبعض الشيوخ ، ويقوم عليها من يعد لهم الطعام ومن يخدمهم . وكان يُنْفَقُ على الجوامع والمساجد من أوقاف محبوسة وكان أهل الثراء والسعة فى الرزق يتنافسون فيما يمحسون عليها من عقارات . ومن التوليع الضرورية للجوامع والمساجد الثريات والمصليح المضيفة والمبضات للوضوء والطهارة .

المدارس

بجانب الجوامع والمساجد أخذت تنشأ منذ عصر الحفصيين فى القرن السابع الهجرى المدارس فى القسم الشرقى من الجزائر الذى كان تابعاً لهم ، أسوة بما أسسوا من مدارس فى عاصمتهم تونس ، حتى إذا استولت دولة بنى زيان على مقاليد الحكم عنى بعض حكامها بتشييد المدارس فى عاصمتهم تلمسان ، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة . وأول مدرسة أسسوها مدرسة أولاد الإمام أسسها أبو حمو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) للفقهاء أبى زيد وأبى موسى بنى الإمام الخطيب أبى عبدالله ، وأسس بعده ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (٧١٨-٧٣١هـ) المدرسة التاشفينية ، وأسس أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) المدرسة اليقوية ، وأسس أحمد العاقل مدرسته الجديدة ووقف عليها أوقافاً جليلة ، وأسس أبو الحسن مدرسة خامسة بالعباد ضاحية تلمسان . ويذكر الحسن الوزان فى كتابه : وصف إفريقيا أنه شاهد بتلمسان حين زيارته لها حوالى سنة ٩٢٠ للهجرة خمس مدارس بديعة حسنة البنيان جدا (لعلها المدارس السابقة) ومزدانة بالبلاط الملون وسوله من الأعمال الفنية . وأخذت

للمدارس تتكاثر فى العهد العثماني بالجزائر لا فى العاصمة : مدينة الجزائر وحدها بل أيضا فى المدن المختلفة مثل قسنطينة ، وكان بها وحدها سبع مدارس . وكان يقوم على التدريس فى مدارس الجزائر جميعا علماء مهرة فى العلوم الدينية واللغوية والأدب والفلسفة والطب والمنطق ، وكانت تنفق عليها الدولة أحيانا . وفى أكثر الأحيان كانت تعتمد على أوقاف حبسها ذور اليسار عليها ، وكانت تلحق بها مبان لسكنى الطلبة الغريباء وكانت تزود بكل ما يلزمهم من مطعم وملبس وأثاث ومن يخدمهم ويوفر لهم النظافة والراحة .

الزوايا

أخذت تتكاثر منذ القرن الثامن المجرى الزوايا فى أنحاء البلاد المغربية جميعها جزائر وغير جزائر ، وكانت الزاوية تشتمل على مسجد تؤدّى فيه فروض الصلاة ، وأبنية لسكنى الطلبة الغريباء والفقراء (الزهاد) ، وكانت تحبس عليها أوقاف كثيرة ينفق منها على شيوخها الذين ينهضون فيها بدروس العلوم الدينية واللغوية وعلى طلابها الغريباء والنازلين بها من الفقراء ، وكانت بذلك دار تعليم ودار عبادة ، وكثيرا ما كان يدفن فيها الشيخ الصالح الذى أقامها ، فيصب له ضريح فيها وتقام عليه قبة ، ويقصده الناس للزيارة والتبرك به ، ويعد مؤسس الزاوية المسئول الأول عنها ، وترث ذريته القيام عليها ، ويتبعها موظفون للقيام بالخدمات المختلفة . وكانت الزوايا بجانب أئمة دور عبادة تعنى بإلقاء المحاضرات فى الموضوعات والعلوم الدينية المختلفة ، فهى دور عبادة وتعليم ، وتعمل كثير منها - وخاصة فى المدن الجزائرية - إلى ما يشبه مدارس عالية . وكان كثير من التلامذة يقصدها من الأماكن القريبة والبعيدة ، وكما كانت تعنى بتعليم الناشئة كانت تعنى بتنوير العامة ، وكثرت كثرة مفرطة منذ القرن العاشر فى منطقة زواوة وبجاية وعنابة أو بونة ، ويقال إنها بلغت فى مدينة الجزائر نحو ١٥ زاوية ، وبلغت فى قسنطينة نحو ١٦ زاوية ، أما فى تلمسان فبلغت نحو عشرين زاوية .

المكبات

فى كل مسجد - من قديم - كانت الزوايا تتخذ للمكبات ، وكانت تجمع إليها بجانب المصاحف وكتب الحديث النبوى أمهات الكتب فى الفقه وغير الفقه ، وكانت الدولة تساعد فى شرائها ويساعد ذور اليسار ، وكثيرا ما كانت توقف أو تحبس لطلاب العلم وشيوخه ، واشتهر لإبراهيم الثاينى الأعلى باتخاذها فى عاصمة رقادة بقرب التيروان بينا أو مؤسسة سماها بيت الحكمة جلب إليها أصحاب علوم الأوائل وغيرهم من العلماء وأقام بها مكتبة ضخمة تتبعها قاعات للجلوس والمطالعة . وكأنما أراد بها أن ينافس الدولة الرسمية فى تاهرت التى عيّنت منذ إمامها عبد الرحمن بن رستم (١٦٠-١٧١هـ) بإنشاء مكتبة كبيرة فى عاصمتها وتبعه خلفاؤه يعنون بها ، ويذكر عن ابنه عبد الوهاب (١٧١-٢١١هـ) أنه أرسل إلى بعض

الإباضيين فى البصرة بألف دينار ليشترؤا له كتبها ، فاشترؤا له كثيرا من الكتب وأرسلوها إليه على أربعين بعيرا كما يقول البارونى فى الأزهار الرياضية . وما زال خلفاؤه يجمعون لتلك المكتبة الكتب مسمين لها باسم المعصومة حتى بلغت ثلاثمائة ألف كتاب فى الدراسات الدينية واللغوية والرياضية وغير الرياضية من علوم الأوائل ، وهالت أبا عبيد الله داعية العبيدين حين استولى على تاهرت سنة ٢٩٦ للهجرة ، فأمر بإحراقها ماعدا الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من طب وغير طب .

وظل الاهتمام بجمع الكتب لمكتبات المساجد مطردا فى عهد الدولة الحمادية ، ولها وللمدارس والزوايا فى عهد الدولة الزيانية . وينوه المؤرخون بما كان فى زاوية إبراهيم التازى بالقرن التاسع الهجرى من خزائن متعددة مكتظة بالكتب العلمية . وظلت - طوال القرون المختلفة فى العصر - الكتب تهاجر مع طلبة العلم الوافدين على المشرق إلى الجزائر ، وظلت تودع فى المكتبات المختلفة للزوايا والمدارس والمساجد . ومن يقرأ تراجم العلماء فى كتاب مثل عنوان الدراية يشعر أنه لم يؤلف فى المشرق ولا فى تونس والأندلس كتاب مهم إلا نقل إلى الجزائر : فى القراءات والتفسير أو الحديث النبوى أو الفقه المالكي أو النحو أو الأصول أو المنطق أو علوم الأوائل وخاصة كتب الشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات لابن سينا ، وبالمثل كتب ابن رشد الأندلسى . فالتيار العلمى فى الأقطار العربية كان جارفا ، وكانت كبة شرقا وغربا تصبُ فى مكبات كل بلد عربى جزائرى وغير جزائرى ، فيما بها من مساجد وزوايا ومدارس . وكثير من الأسر التى كانت تتوارث العلم اشتهرت باقتنائها مكبات كبيرة مثل أسرة الفكون فى قسنطينة ، وكان بالجزائر هواة للكتب ينفقون فى جمعها أموالا طائلة ، وكانوا مبيئين لافى المدن فحسب بل أيضا فى الواحات والصحارى ، ويذكر العياشى فى القرن الحادى عشر الهجرى برحلته أن مكتبة شيخ يسمى محمد بن إسماعيل تيكوران كانت تضم نحو ألف وخمسمائة كتاب ، فما بالنا بما ضمته مكبات المساجد والمدارس والزوايا .

(ج) نمو الحركة العلمية

أخذت الحركة العلمية تنمو فى الجزائر منذ القرن الثانى الهجرى ، وخاصة منذ عهد الدولة الأغلبية إذ كانت ترعاها فى شرقى الجزائر فى بونة (عنابة) وقسنطينة وطبنة وغيرها من البلدان . وتأسست منذ سنة ١٦٠ للهجرة فى غربى الجزائر بمدينة تاهرت الدولة الرستمىة الإباضية ، وظلت طوال قيامها حتى سنة ٢٩٦ للهجرة ترعى العلم والعلماء ، ويعدُّ الأستاذ محمد على دبوز فى الجزء الثالث من كتابه : تاريخ المغرب الكبير عشرات منهم قاتلا إن الدولة الرستمىة كانت دولة العلم والمعرفة وإن العلماء كثروا فيها ، وزخرت بهم مدنها وقرأها ، حتى

ليعدون بالثبات . وخلفت الدولة الرستمية دولة بنى حماد واتسع سلطانها ، فشمّل الجزائر أو أكثرها ، وقد بنى حماد مؤسسها قلعة سنة ٣٩٨ على منحدر جبلى بالقرب من المسينة (المحمدية) وسرعان ما أصبحت مدينة عربية ضخمة ، يقول ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه إن « حمادا استكثر فى القلعة من المساجد والفنادق فاستجرت فى العمارة واتسعت فى التمدن ورحل إليها من الثغور القاصية والبلدان البعيدة طلاب العلوم وأرباب الصنائع لرواج أسواق المعارف والحرف والصنائع بها » وظلت - من حينئذ - مركزا كبيرا للدراسات الدينية واللغوية ، حتى بعد انتقال الناصر الحماوى منها سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م إلى عاصمته الجديدة : بجاية وكان كثير من أبنائه وأحفاده يكرمون العلماء ويعقدون لهم منازلات فى مجالسهم ويعثوا فى القلعة ثم فى بجاية نهضة علمية وأدبية ، وأمّ حاضرتيهما بعض العلماء والشعراء المرموقين من أمثال ابن حمديس مادح المصور بن الناصر بن علناس (٤٨١ - ٤٩٨) بالنصائذ الطنّانة فى مدحه ووصف قصوره ، واشتهر ابنه العزيز (٤٩٨ - ٥١٨هـ) بأنّ بلاده كانت سلاما وأمانا وأن العلماء - كما يقول ابن خلدون - كانوا يتناظرون فى مجالسه وقد بذل جهودا خصبة فى إيماء الحركة العلمية ببجاية ، حتى أصبحت مركزا علميا ضخما لا بعلمائها المحلّين فحسب ، بل أيضا بوفود العلماء المتقّلين إليها من القلعة ووفودهم اللاجئة إليها من الأندلس والبلاد المغربية ، واطردت هذه المكتبة العلمية لبجاية بعد سقوط دولة بنى حماد سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م إذ اشتهرت بها طائفة أو طوائف من العلماء والأدباء وظل يفد عليها غير عالم وأديب وخاصة من الأندلس ، ويوضح ذلك كتاب عنوان الدراية فى علماء بجاية للغبريى إذ ترجم فيه لأكثر من مائة عالم من علماء بجاية فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، وهؤلاء هم المشهورون ووراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم فى الشهرة . ويدل على كثرة غير المشهورين ما رواه الغبريى عن أبى على المسيلى المتوفى سنة ١١٨٤هـ / ١٥٨٠م أنّه قال : « أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا » ويعلق الغبريى على كلمته بقوله : وإذا كان من المفتين ببجاية تسعون فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم ممن لم يدركهم . وظلت النهضة العلمية بها مزدهرة فى القرون التالية وزارها الحسن الوزان حوالى سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م وقال إنها « مجهزة بالجوامع بشكل طيب وبالمدارس التى يكثر فيها الطلاب وأساتذة الشريعة والعلوم سوى الزوايا للنسك المتعبدين » .

ومنذ سنة ٦٣٣هـ / ١٢٤٠م نشأ فى تلمسان دولة بنى زيان ، وقد بثّت فيها نهضة علمية وأدبية رائعة ، ويقول التنسى فى كتابه تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان عن مؤسس الدولة : يَغْمُرُاسَن (٦٣٣ - ٦٨١هـ) إته كان له فى أهل العلم رغبة عالية يبحث عنهم أينما كانوا ويستقدمهم إلى بلده ويقابلهم بما هم أهلّه ، ومن استقدمهم لإبراهيم بن يخلف

التنسي وأنطعته إقطاعات واسعة ، ولما اشتهرت عنايته بأهل العلم والأدب وفد عليه من الأندلس أبوبكر بن خطاب الكاتب، فأكرمه، وجعله رئيس ديوانه . ويقول التنسي عن حفيده أبي هو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) إنه كان محبا للعلم وأهله محتيا به قائما بحقه، ولما وفد عليه الفقيهان أبو زيد وأبو عيسى ابنا الإمام محمد بن عبد الله من أهل برشك بالقرب من تنس على الساحل الشمالي للجزائر احتفل بهما، وبنى لهما المدرسة التي سميت مدرسة أولاد الإمام فنشرا بتلمسان كثيرا من العلوم، وكان ابنه أبو تاشفين حفيبا مثله بالعلم وأهله ولما وفد عليه الفقيه أبو موسى عمران المشدالي الزواوي احتفى به وولاه التدريس بمدرسته التاشفينية الجديدة. وكان على شاكلته أبو حمو موسى الثاني (٧٦٠-٧٩١هـ) في رعاية العلم والعلماء، وكان أدبيا وشاعرا بارعا وله كتاب نظم السلوك في سياسة الملوك ضمنه بعض أشعاره، وهو أول من احتفل من ملوك الدولة بليلة المولد النبوي، وبلغ من احتفائه بالفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد الإدريسي أن بنى له مدرسة ليلقى فيها دروسه. ويشيد التنسي بأبي زيان محمد بن أبي حمو (٧٩٦-٨٠١هـ) قائلا إنه «كلف بالعلم حتى صار منهج لسانه وروضة أجنافه، فلم تخل حضرته من مناظرة ولا عمرت بالإبذكرة ومحاضرة، وكب يده نسخا من القرآن الكريم ونسخة من صحيح البخاري ونسخا من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، ووقفها جميعا بخزنته في مقدم الجامع الأعظم أو الكبير بتلمسان ، وألف كتابا نحا فيه نحو التصوف ، سماه « كتاب الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة » ووجه هدية إلى برقوق سلطان مصر ومعها قصيدة بديعة .

وينوه التنسي بأبي مالك عبد الواحد (٨١٤-٨٣٣هـ) قائلا: «في أيامه نفق (راج) سوق الأدب ، وجاء بنوه إلى بله يسلون (يسرعون) من كل حذب (موضع) فينقلبون بجزر (مملوئي) الحقايب ظافرين بجزيل الرغائب (بوافر المطايا). ورزى يحيى بن خلدون في كتابه «بنية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبدالواد يعدد من أنجبته تلمسان أو استقر بها من العلماء الصالحين ويبلغ بهم مائة وتسعة وجمهورهم من العلماء الذين دوى صيتهم، وإذا كان عددهم قد بلغ ذلك في عهد يحيى بن خلدون المتوفى في أواسط عصر الدولة الزيانية حول سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م فإن عددهم - لاشك - تضاعف بعده ، وبلغ بعددهم بعده ابن مريم في أوائل القرن الحادى عشر الهجرى في كتابه : « البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان » مائة واثنين وخمسين عالما . وأخذت تلمسان - كما أخذت بجاية - تراجع علميا وثقافيا في العهد العثماني ، إذ أصبحت مدينة الجزائر العاصمة ، وأخذت تجذب إليها العلماء والأدباء وإن ظلوا مبعوثين في عاصمتي بني حماد وبني زيان وبونة ويسكره وغيرها ، وخاصة قسنطينية إذ ظل بها في العهد العثماني نشاط علمي غزير .

ولم أتحدث - حتى الآن - عن هجرات الأندلسيين إلى الجزائر منذ هزيمة دولة الموحدين في واقعة العقاب بالأندلس سنة ١٢١٢هـ/١٦٠٩م فقد بدا لكثيرين منهم أن المستقبل ينذر برجحان كفة الإسبان وقرب استيلائهم على البلدان الأندلسية ، وأخذ نفر منهم غير قليل بهاجر إلى البلاد المغربية باحثا له عن وطن جديد يلتجئ إليه ، وأخذت مدنهم تتساقط في حجر الإسبان منذ العقد الرابع من القرن السابع الهجري ، وسقطت جواهرتهم الكبرى قرطبة ، وتبعها في السقوط دانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس وبلنسية ثم مرسية . وكانت كل مدينة أندلسية تسقط ينزح منها إلى مدن الجزائر وغيرها من المدن المغربية أندلسيون كثيرون ، وكان الأثرياء منهم والعلماء ينزلون مدن الساحل الشمالي في الجزائر وينزل معهم بعض أصحاب الحرف والصناعات . أما أهل القرى الأندلسية فكانوا ينزلون في السهول والوديان - وربما نزلوا في سفوح الجبال كما كانوا ينزلون في الأندلس - وكانوا يمتون بالزراعة وغرس الأشجار وإنشاء الحدائق والبساتين . وأخذت تكثف بهم المدن الشمالية مثل وهران ومستغانم وبونة (عنابة) وبجاية ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان الدراية في علماء بجاية بالقرن السابع الهجري سيجد من بينهم أكثر من عشرين عالما وأديبا نزحوا من الأندلس إلى بجاية حينذاك وملئوها علما وأدبا ، وكانوا من العوامل الفعالة في نهضةها العلمية والأدبية . وتهبط إلى الجزائر من الأندلس موجة ثانية كبيرة بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ويستوطنون المدن الساحلية المذكورة آنفا وأخواتها على الساحل الشمالي مثل شرشال ويقول الحسن الوزان « إن كثيرا من الفرناطين قصدوها وأعادوا بناء قسم كبير من منازلها وكذلك قلعتها وزرعوا أراضيها ، وزاولوا فيها أعمال صناعة الحرير لأنهم وجدوا بها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود وتحسنت أحوالهم يوما بعد يوم حتى أصبحوا يسكنون ألفا ومائتين من البيوت وتوطنوها مثل إخوانهم في المدن الجزائرية الأخرى ، وبنوا كثيرا من سفن الملاحة لمطاردة السفن الإسبانية في البحر المتوسط والاستيلاء على مافيهما من غنائم انتقاما من فرديناند واستيلائه على غرناطة . ويدور الزمن دورة حتى ستنى ١٠١٦ - ١٠١٧هـ/١٦٠٨ - ١٦٠٩م فينفى ملك إسبانيا كل من بقى في إسبانيا من المسلمين ، وتوجه أفواج كبيرة منهم إلى المدن الجزائرية ، ويتخذوها وطنا ثانيا لهم ، وقد نقلوا معهم كل حضارتهم ومدنيتهم مما كان له تأثير واسع في الجزائر أثناء العهد العثماني . وقد بعثوا فيها حركة تعليمية واسعة منذ جاءت أعدادهم الكبيرة بعد سقوط غرناطة ، وكانوا يؤسسون جمعيات خيرية للإتفاق على فقراتهم ولإنشاء المدارس كمدرسة مازونة ومدرسة الأندلسيين في مدينة الجزائر ، ولا بد أن كتلت لهم مدارس في المدن الأخرى ، وكانوا يحبسون عليها أموالا أو عقارات للإتفاق منها على الأساتذة والطلاب . وتبه النشأون لقدرة الأندلسيين التعليمية ، فكانوا يعينون منهم كبار المعلمين في المدارس ويفرضون لهم رواتب مجزية .

علوم^(١) الأوائل

اهتمت الجزائر - كما اهتمت البلدان العربية المختلفة - بدراسة علوم الأوائل من فلسفة وطب وغير طب، وانصبت عناية علمائها خاصة على ماسمونه علوم التعاليم، يقصدون بها علوم الرياضيات وما يتصل بها من حساب وجبر وهندسة وفلك. ولم يحدث بين الفقهاء وهذه العلوم وما يتصل بها من الفلسفة والطب أى تخصص أو تقاطع طوال هذا العصر، بل إن من يرجع إلى تراجمهم سيجد كثيرين من كبارهم ينعتون بأنهم سادوا أهل عصرهم فى العلوم العقلية أو يقال إن فلانا بدأ فقهاء عصره فى علوم التعاليم أو كان مستبحرا فى فنونها إلى غير ذلك من نعوت تدل على أخذهم منها بحظ وافر، وكثيرا ما يجمع الفقيه المشهور بين الفقه والطب.

وأول رياضى فلكى نلتقى به فى الجزائر على بن أبى الرجال التاهرتى الذى هاجر من بلدته تاهرت إلى القيروان وأصبح معلما ومربيا لحاكمها الصنهاجى المعز بن باديس ثم وزيرا له ورئيسا لديوان الإنشاء حتى وفاته سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م وباسمه ألف ابن رشيق بعض مؤلفاته الأدبية مثل كتاب «العمدة فى صناعة الشعر ونقده». وهو أول مغربى تعمق علم الفلك والتنجيم وألف فيه كتابه: «البارع فى علم الفلك الذى ترجمه قسطنطين الإفريقى إلى اللاتينية فى القرن الحادى عشر الميلادى وتناقلته اللغات الأوربية المختلفة ولتنتفع به العلماء الغربيون الفلكيون أيضا نفع». وظل الجزائريون ينعون بعلم الفلك وغيره من العلوم الرياضية مثل محمد بن يحيى النجار التلمسى المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م وكان إماما فى النجوم وأحكامها، وكان يعاصره محمد بن إبراهيم الآبلى المتوفى سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م الذى فاق أهل زمانه فى جميع العلوم العقلية، وهو شيخ ابن خلدون وأحد معلميه. وكعب عالم قسنطينة المشهور ابن قنفذ المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٨م شرحا على أرجوزة فلكية لابن أبى الرجال ضمنه جداول فلكية. ومن أهم الفلكيين فى القرن التاسع بعده الحباك محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٣م وله منظومة فى الإسطرلاب الفلكى عُدَّت - منذ زمنه - ألفية لعلم الإسطرلاب كآلفية ابن مالك فى النحو. وقد شرحت مرارًا وممن شرحها الفقيه الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م وظلت تدارس حتى نهاية هذا العصر. ومن الأعمال الفلكية بعده

(١) انظر فى ابن أبى الرجال دائرة المعارف الإسلامية وراجع فى غيره عنوان الدراية للغربى وتعريف الخلف برجال السلف للحنفاوى ومقدمة عبد الرحمن بن خلدون فى علمى الحجة والمقدد ونبذة الرواد لأخيه يحيى وطبقات الأطباء لابن أبى أصيمة ورويات ابن قنفذ

والبيان فى ذكر الأولياء والعلماء ببلسان لابن مريم وتاريخ الجزائر الثقاتى من القرن المشر إلى القرن الرابع عشر لأبى القاسم سعد الله ومجمع الأعلام الجزائريين لعادل تويجس.

منظومة السراج لعبد الرحمن الأخضرى التى ألفها سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م وقد شرحت مراراً وطبعت فى مصر مع شرح لها من تأليف سحنون الراشدى . وفى العهد العثمانى ألف محمد الصخرى الجزائرى سنة ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م كتاباً فى علم الإسطرلاب سماه : « الفلادة الجوهريّة فى العمل بالصفحة العجميّة » جملة فى مقدمة وخمسة عشر باباً وخاتمة ، ولعبد الرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م مؤلف فى علم الفلك وآخر فى علم الإسطرلاب .

ومنذ نظم عبدالله بن الحجاج بن الياسمين المغربى المتوفى سنة ١٢٠٤هـ/١٦٠١م منظومة الياسمينيّة فى الجبر والمقابلة وكذلك منذ ألف أبو العباس بن البناء المراكشى المتوفى سنة ٧٢١هـ/١٣٢٦م كتابه : « تلخيص أعمال الحساب » وعلماء الجزائر يتدارسون العملين للطلاب ويشرحونهما ، وللفقيه سعيد العقباني التلمساني المتوفى سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م شرح على كل منهما ، ولعاصره ابن قنفذ القسنطينى شرحان على تلخيص ابن البناء سعى أحدهما شرح التلخيص ويقال « التمهيد فى شرح التلخيص » وسمى الثانى : « حطّ النقاب عن وجوه أعمال الحساب » . ومن شرح التلخيص معاصرها على بن موسى البجائى المتوفى سنة ٨١٦هـ/١٤١٤م ونظم ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م كتاب التلخيص شعراً . ونزل البلاد المغربية الفلصادى على بن محمد القرشى الغرناطى المتوفى ببجاية سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م وكان رياضياً كبيراً وظل المخابرة يتداولون كنهه وخاصة كتابه : « كشف الجليلاب عن علم الحساب » . وفى أواخر النصف الأول من القرن العاشر الهجرى عنى عبد الرحمن الأخضرى القسنطينى بعلمى الحساب والفرائض وألف فيها منظومة سماها « الدرّة البيضاء » طبعت مع شرحها بمصر .

ويدور أنه كان للهندسة حظ غير قليل من الجزائريين . وقد مر بنا فى الفصل الماضى كيف أن عالماً تلمسانياً رياضياً ومهندساً كبيراً فى زمن أبى حمو موسى الثانى (٧٦٠ - ٧٩١هـ) هو أبو الحسن على المعروف بلبن الفحام اخترع ساعة دقاقة عجيبة فى أعلاها أبكة تحمل طائراً معه فرخاه احتضنها تحت جناحية وثعبان خارج من كوة يخالته فيها ، وفمر تكتمل دورته كل تمام ساعة أمام باب مغلق فيفتح وينقضى منه عقبان وينهش الثعبان أحد الفرخين فيصفر الطائر أبوه . ويفتح باب الساعة الذهبية ، وتراعى جارية جميلة بيدها صحيفة تعلن رقم الساعة ، والساعة تدق . ومن المهندسين المهمين فى القرن التاسع الهجرى الفلكى المار ذكره الحباك ، وله كتاب فى شكل من الأشكال الهندسية هو الربع المجيب يقول فى مقدمته : « لما كان الربع المجيب أحسن الآلات شكلاً وأحقها عملاً وأخفها حملاً ، مع استخراج الأعمال منه لجميع العروض للوقت المفروض هجس فى خاطرى أن أقيد عليه رسالة تذكرة لنفسى ولئن شاء الله من جنسى » وقد جعله - كما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله - فى مقدمة وعشرة أبواب تناول فيها الجيب وجيب التمام والسهم والقوس والقطر والدائرة والارتفاع

الذى لاسمت له إلى غير ذلك من مباحث هندسية مع بيان حركات الشمس والقمر ومعرفة مواقيت الصلاة .

ورأينا فى القسم الخاص بتونس أنه كان بها نهضة كبيرة فى دراسة الطب منذ أواخر القرن الثالث الهجرى وامتدت إلى القرن العاشر ، وكان القسم الشرقى من الجزائر حتى قسنطينة وبجاية مندمجا فى الإقليم التونسى إلى نهاية القرن الرابع ، وقامت فيه دولة بنى حماد ، وتكاد تستولى على أكثر الجزائر ، وعينت بتشجيع العلوم والآداب ، فكان طبيعيا أن تعنى بالطب ، وبلغنا من أطبائها فى القرن الخامس الهجرى ابن النباش محمد بن عبدالله البجائى ، وكان يعنى بعلم الطب وعلاج مرضاه عناية شديدة ، ومن أطباء هذه الدولة فى القرن السادس ابن أبى المليلح ويقول العماد الأصبهائى فى الخريدة إنه كان طبيبا ماهرا وشاعرا مجيدا ، غير أن اشتهاره إنما هو فى الطب . وتلقى فى قلعة بنى حماد بصيدلى هو أبو جعفر القلقى عمر بن اليدوخ وكان خبيرا بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة ، ومن مؤلفاته حواشى على كتاب القاتون فى الطب لابن سينا . ومن أطباء بجاية فى القرن السابع ابن أندراس محمد بن أحمد الأموى أندلسى من مدينة مرسية هاجر منها إلى بجاية فى عشر السنين وستمائة مستوطنا وكان يدرس للطلاب الطب ويقرئهم كتبه ويقول الغبريني إنه قرأ عليه أرجوزة ابن سينا فى الطب وجملة من كليات القاتون ، وكان يحضر دروسه نهاء الطلبة ويشير فيها من الأبحاث الطبية ماتعجز الكتب عن بيانها ، وكان متوليا لطلب الولاية ببجاية مع بعض خواص الأطباء بها ، وله رجز نظم فيه بعض الأدوية ، واستدعاه المستنصر الحفصى إلى تونس ولم يلبث أن توفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م . وكان يعاصره محمد بن يحيى بن عبد السلام وكان له حظ من الطب علمى وعمل ، وكان مزاولا له بعلاج المرضى . وانتقل إلى تلمسان فى عهد الدولة الزيانية ، ومن أطبائها المهمين محمد بن أبى جمعة التالسى أحد أطباء أبى حموموسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) وكان شاعرا مجيدا . ويذكر عبدالباسط بن خليل المصرى الذى زار تلمسان فى أواخر القرن الثامن الهجرى وسجل زيارته لها فى رحلته أنه رأى فيها طبيين : طبيبا مسلما هو محمد بن على بن فشوش وهو أحد أطبائها فى تلمسان والطب ومزاولة المهنة ، وطيبيا يهوديا وفد على تلمسان من الأندلس يسمى موسى بن صمويل ويعرف بلبن الأشقر اليهودى ويقول إنه كان ملازما لسلطان تلمسان محمد بن أبى ثابت (٧٩٦-٨٠١هـ) . ومن تلاميذ ابن فشوش فى القرن التاسع الهجرى أبو الفضل محمد المشدالى ، وكان يعاصره إبراهيم بن أحمد الثرى وله معجم صغير فى الطب . وتلقى فى العهد العثمانى بعد الرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ/١٧٦٥م وله كتاب الجواهر المكنون من بحر القاتون فى الطب وفروعه ، وقد طبع منه قسم خاص بالصيدلة يسمى كشف الرموز .

وإذا تركنا العلوم الطبية والرياضية إلى الفلسفة وبدأنا ببجاية التى كانت عاصمة للدولة الحمادية التقينا فيها بنزيلها الأندلسى الحرالى على بن أحمد من قرية من قرى مدينة مرسية المتوفى

سنة ١٢٤١هـ/١٢٤١م ويقول الغريزي إنه كان أعلم الناس بالطبيعات والإلهيات ، ولته كان يقرأ عليه مع بعض الطلاب كتاب النجاة لابن سينا فيوضح منه ما يليق ويقرره بأحسن طريق ثم ينقذه ويوهنه . ونزل بجاية بعده من مالقة أحمد بن خالد التوفى حوالى سنة ١٢٦٠هـ/١٢٦٢م وكانت له مشاركة فى الفلسفة فى الطبيعات والإلهيات ، وكان طلاب بجاية يقرءون عليه كتاب الإشارات والتهيهات لابن سينا من فائحه إلى خاتمته . وكان يعاصره ابن أساطير على بن عمران الملياني التوفى سنة ١٢٧٠هـ/١٢٧١م وهو من تلامذة الحرالي ومن خواصهم ، وكان الطلاب يقرءون عليه أيضاً كتاب الإشارات والتهيهات لابن سينا . ونمضى إلى تلمسان فلتقى بالشريف الحسنى التلمستى التوفى سنة ١٢٧١هـ/١٣٦٩م والذي انتهت إليه إمامة المالكية بالمغرب ، ويقول يحيى بن خلدون إنه لم يكن يعزب عن علمه فن عقلى ولا نقل ، وكانت تقرأ عليه كتب ابن سينا من مثل الإشارات والتهيهات وكتاب الشفاء كما كانت تُقرأ عليه تلاخيص ابن رشد لفلسفة أرسطو وبعض كتب التعاليم الرياضية فضلا عما كان يُقرأ عليه من كتب الدراسات الدينية وما كان يلقى من محاضرات فى تفسير الذكر الحكيم .

ومنذ القرن التاسع المجرى يقل القول بأن هذا الفقيه أوداك درس الحكمة أو درس معقولات الحكماء أو له مشاركة فى الحكمة أو كان حاذقا فى الطبيعات والإلهيات أو كان يقرأ عليه كتاب النجاة أو كتاب الشفاء لابن سينا فقد أخذ يحمل محل ذلك فته من أهل الورع والتسك أو من أهل التصوف أو أنه من المتصوفة أو الأولياء الكبار مكاشف يترك به أو أنه متصوف من أهل العرفان أو أنه من العلماء الصالحين الأولياء أو زاهد ورع ذو كرامات أو من أهل الخلوة ترك الدنيا وما فيها أو سالك طرق المتصوفة أو سنن الفضلاء الصالحاء الأمجاد إلى غير ذلك من نعوت تدل على انغماس الفقهاء مع الشعب فى التصوف وطرقه الكثيرة التى عمت الجزائر وخاصة الطريقة الشاذلية وفروعها المتعدده ، وكلما قطعنا شوطاً أو شطراً من الزمن فى المعهد العلمى ازدادت موجة التصوف - كما مر بنا فى الفصل الماضى - حدة ، وازدادت المؤلفات فيه وفى شيوخه وأقطابه وفرة .

على أن فرعاً من فروع الفلسفة ظل مزدهراً فى حلقات الشيوخ بالجزائر حتى نهاية هذا العصر ونقص علم المنطق ، وقد ألف فيه الحرالي المار ذكره كتاباً سماه « المعقولات الأول » . وألف الخونجى التوفى سنة ١٢٤٨هـ/١٢٥٠م كتاباً فى المنطق سماه : « الجمل فى المنطق » تداوله علماء الجزائر سريماً يدرسون للطلاب ويشرحونه . ويقال إنه لم يكن يوجد ببجاية فى القرن السابع المجرى أعلم بكتاب الجمل للخونجى من عبد الوهاب بن يوسف التوفى سنة ١٢٨١هـ/١٢٨١م . وللشريف الحسنى التلمستى المار آتفا شرح للجمل ، يقول ابن مريم فى كتابه البستان إن العلماء اتفقوا به وأكبوا عليه قراءة ونسخا . ولابن قنفذ القسنطينى شرح

له ، ولسعيد العقباني معاصره شرح له كان يتداوله العلماء والطلاب ، وشرحه محمد بن مرزوق الخفيد المار ذكره وسمى شرحه : « نهاية الأمل في شرح الجمل للخنوجي . » ومحمد بن يوسف السنوسي المحدث المتوفى سنة ١٤٨٩هـ/١٨٩٥م ثلاثة أعمال في المنطق : مختصر له فيه شرح مرارا ، وشرح على الجمل للخنوجي ، وحاشية على شرح إيساغوجي في المنطق للبقاعي . وللغني محمد بن عبد الكريم المصلي التلمساني المتوفى سنة ١٥٠٣هـ/١٥٠٣م ثلاثة أعمال أيضا في المنطق : مختصر فيه وشرح الجمل للخنوجي ومنظومة فيه سماها فتح « الوهاب » وكتب لها ثلاثة شروح . وكان عبد الرحمن السيوطي المصري المشهور معاصره كتب كتابا نهى فيه عن الاشتغال بعلم المنطق وذكر فيه بعض ما قاله العلماء في ذمه ، فكذب إليه فصيحة بدعية يدافع فيها عن علم المنطق وأنه الحق أو يهدي إلى الحق بدلالاته وأشكاله المنطقية السديدة . وقد ظل علم المنطق يدرس في الأزهر كما يدرس في الجزائر وشغف الأزهريون والجزائريون بمنظومة فيه لعبد الرحمن الأخضرى القسنطيني الجزائري المتوفى سنة ١٥٤٦هـ/١٥٤٦م وسماها السلم وشرحها وهي في مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقال إنه نظمها في الحادية والعشرين من عمره ، ووضعت عليها شروح كثيرة لجزائريين ومصريين كما وضعت حواش كثيرة من أهمها حاشية الفقيه الكبير سعيد قدورة المتوفى سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م ويقول في مقدمته لها إنها « إضافة لشرح الأخضرى على منظومته كالتذييل لما أغفله في شرحه ، مظهرًا لمقاصده ومستخرجًا بعض فوائده » . وظلّ يدرس مع السلم في الجزائر مختصر السنوسي في المنطق وتوضع له بعض الشروح مثل شرح عبد الرزاق بن حمادوش ، المار ذكره سماه « الدرر على المختصر » . وظلت لسلم الأخضرى وشروحه وحواشيه الشهرة المدوية .

٣

علوم^(١) اللغة والنحو والعروض والبلاغة والنقد

أخذت الجزائر تعنى بعلم اللغة منذ أُلِّم بها أبو علي الفاي في طريقه إلى الأندلس زمن عبد الرحمن الناصر ، ونرى بين تلاميذه تلميذا جزائريا هو إبراهيم بن عبد الرحمن التنسي وقد حمل عنه كتابه الأمالي ومحاضراته في اللغة ، ونجد مدينة طينة عاصمة الزاب تعنى بمادة اللغة ومدارسها ، وينبغ فيها زيادة الله بن علي الطنبي نزيل قرطبة في عهد المنصور بن أبي عامر وزير

الخلف برجال السلف للحنفاوى . وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني وراجع في النهشل الأنسوز لابن رشتي ص ١٧٠ وكتابه العمدة في مواضع متعلدة . ونشر الدكتور النجى الكمي كتابه المتع .

(١) انظر في علماء اللغة والنحو والعروض والبلاغة إنباه الرواة للطنفي ونبية الوعاة للسيوطي وعنوان الدراية للبريني ونبية الرواد ليحيى بن خلدون والبستان لابن مريم ومجمع الأعلام الجزائريين لعادل نويسه ، وتاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله ، وتعرف

الخليفة المؤيد منذ سنة ٣٦٦ إلى ٣٩٢ فاحتفى به . يقول ابن بسام فى الذخيرة إنه اتخذهُ نديمه إذ كان من أمتع الناس حديثاً وأصمهم ظرفاً ، وأحذقهم باللاطفة وأخذهم بالقلوب ، وكان عالماً لغوياً يقول القفطى : « كان من أهل العلم بالآداب واللغات والأشعار ، روى الناس عنه علماً كثيراً ، وكان كثير الإغراب » ، توفى سنة ١٠٢٤هـ/١٠٢٤م ونشأ ابنه عبد الملك - وكان محدثاً - تنشئة لغوية جيدة حتى ليقول السيوطى فى البغية إنه كان إماماً فى اللغة له رواية وسماع . وتهض الدولة الحمادية بالقلمة عاصمتها الأولى وبجاية عاصمتها الثانية نهضة علمية خصبة حتى نهاية مدتها سنة ٥٤٧ هـ وتظل النهضة مطردة فى العاصمتين وتجذبان كثيراً من علماء الأندلس ، كما مر بنا ، فضلاً عن علماء المدن والأصقاع الجزائرية . وينزل بجاية المحدث الأندلسى الكبير عبد الحق الإشيلى المتوفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ويتولى بجامعها الأعظم الخطبة وصلاة الجمعة كما يتولى بها القضاء ، ويؤلف فى غريب القرآن الكريم والحديث النبوى كتاباً ضخماً فى ثمانية عشر مجلداً سماه الحاروى ضاهى به كتاب الغريين فى القرآن والحديث للمهرورى . وللفقيه التلمسانى محمد بن عبد الحق المتوفى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م كتاب فى غريب الموطأ للإمام مالك . وكان يعاصره يحيى بن عبد المعطى الزواوى المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م من كبار علماء العربية ، وكان قد أخذ يكثر فى الجزائر نظم العلوم والمعارف ، وقد نظم معجم الجماهرة فى اللغة لابن دريد ، وحاول نظم معجم الصحاح للجوهرى ولم يكب له أن يتمه .

وكان محمد بن الحسن بن ميمون القلعى المتوفى سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م بقرراً للطلاب ببجاية كتاب الأمالى للقالى وكتاب زهر الآداب للحصرى ومقامات الحرورى ومنتخبات من شعر أبى تمام والمنتبى ، وكان شاعراً ونحوياً كبيراً مثل ابن عبد المعطى . وكان يعاصره أحمد بن يوسف اللبلى نزيل بجاية المتوفى بها سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م وله شرح على كتاب الفصيح للعلب وكتاب فى التصريف ضاهى به كتاب المتع لابن عصفور . ومن لغوى القرن السابع الهجرى ونحاته الكبار يوسف بن يخلق الجزائرى وكان يدرس لطلابه فى بجاية شعر أبى تمام والمنتبى والأشعار الستة برواية الشتمرى المسندة إلى الأصمعى ، وهى دواوين امرئ القيس وزهير والنابغة وطرفة وعنترة وعلقمة ودواوين أبى العلاء : سقط الزند واللزومات والحماصة للتبريزى والمرزوقى وإصلاح المنطق لابن السكيت والأمالى لأبى على القالى والمقامات وغير ذلك من الكتب الأدبية . ولعل فى عمل ابن يخلق اللغوى ببجاية ما يبدل بوضوح على مدى العناية الواسعة فيها بمدرسة كتب اللغة والأدب ودواوين الشعر الجاهلية وغير الجاهلية . ولابن مالك كتاب لامية الأفعال غنى به غير جزائرى ، ولابن العباس محمد التلمسانى المتوفى سنة ٨٧١هـ/١٤٦٧م شرح عليها نوه به معاصروه . وتكثر الشروح للأشعار وخاصة قصيدة البردة النبوية للبوصيرى ، ومن أهم شروحها شرح سعيد العقبلى المتوفى سنة ٨١١ هـ وشرح ابن مرزوق الحفيد

المتوفى سنة ٨٤٢ وشرح الفلصادى المتوفى سنة ٨٩١ . وتكاثرت الشروح اللغوية فى العهد العثماني ومن أهمها شرح عبد الكريم الفكون على أرجوزة المكودي الفاسى فى التصريف ألفه سنة ١٠٤٨ للهجرة ، وكسب محمد بن بدوى الجزائرى سنة ١١٢٧ رسالة الارتضاء فى الفرق بين الضاد والظاء . وبأخرة من المصر كتب محمد بن أحمد الجليلى الملقب بأبى راس المتوفى سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م كتابا لغويا فى نقد القاموس المحيط سماه : إضاءة القابوس على كتاب القاموس .

وعلى شاكلة ازدهار الدراسات اللغوية فى الجزائر منذ القرن السابع الهجرى تزدهر الدراسات النحوية وحامل لوائها فى هذا القرن يحى بن عبد المعطى الزواوى المار ذكره بين اللغويين والمتوفى بالقاهرة بعد أن تصدّر لتدريس النحو واللغة بها فى الجامع العتيق : جامع عمرو ، وله فى النحو ألفية على غرارها نظم ابن مالك ألفيته ، ومن مؤلفاته النحوية شرح لكتاب الجمل للزجاجى وحواشى على كتاب أصول النحو لابن السراج ، وكتاب فى النحو سماه العقود والقوانين ، وله كتاب فى شرح أبيات سيويه . ولعبد الله النفزى الشاطبى نزيل بجاية المتوفى بها سنة ١٢٤٤هـ / ١٢٤٤م شرح على كتاب المفصل للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ للهجرة وكان يتفنن شرحه ودرسه للطلاب .

ومن كبار نخبة بجاية فى القرن السابع لغويها المار ذكره يوسف بن يخلف الجزائرى وكان يشرح لطلابه الكتب التالية : كتاب الجمل للزجاجى وكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب المفصل للزمخشري ومقدمة ابن بابشاذ النحوى المصرى وقتون أبى موسى الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧هـ / ١٢١١م أو منته النحوى المنتضب الذى أخذته عن ابن بَرى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م . وكان يعاصره محمد بن الحسن بن ميمون القلمى المار ذكره آنفا بين اللغويين وهو من قلعة بنى حماد ، وكان لغويا ونحويا كبيرا مثل ابن يخلف ، استوطن بجاية ، وعاش يدرس لطلابها ويقول تلميذه الغبريني فى ترجمته : « كان له درس يحضره من الطلبة فضلاؤهم ونهاؤهم ، وتجرى فيه المذاكرات المختلفة فى التفسير والحديث وأبيات الغريب من الأشعار ، ويعرض من المعاني والأفكار ما لا يكاد يوجد مثله فى نواذر الكتب ، وكان قويا فى علم التصريف وعبا للتحليل ، جاريا فى ذلك على سنن أبى الفتح بن جنى ، وكان كثير التلامذة والأصحاب ، وتفرّأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، ويقوم على جميعها أحسن قيام ، وهو أفضل من لقيت فى علم العربية » . ويذكر الغبريني من كتب النحو التى كان يدرسها ابن ميمون القلمى للطلاب كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب سيويه والمفصل للزمخشري وقتون أبى موسى الجزولى المسمى بالجزولية . ومن نخبة بجاية فى القرن السابع عبد الله بن محمد الأغماتى نزيل بجاية ، وكان فى علم العربية بارعا ، وكان يفقه كتب سيويه فقها حسنا ، إذ كان من أعلم الناس به ، وكان يقرن مسائله بعضها إلى بعض ويدرك مقاصده

إدراكا دقيقا ، ويقول عنه الغبريني ناقلا عن بعض تلاميذه : « أما كتاب مفصل الزمخشري وقانون أبي موسى الجزولي فكانا عنده من المبادئ دالا بذلك على تعمقه لكتب النحو ومسائله وقواعده » . ومحمد بن عبد الرحمن الخزرجي قاضى بجاية المتوفى سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م شرح محكم على الجزولية ، وكان يدرسها للطلاب دراسة جيدة . وللغنية الكبير ابن قنفذ أحمد بن حسن القسطنطيني المتوفى سنة ٨١١هـ/١٤٠٩م الإبراهيمية فى مبادئ علم العربية ، وله على ألفية ابن مالك شرح سماه « آية السالك إلى ألفية ابن مالك » . وكان ابن مرزوق الحفيد يقرأ لطلابه - أو يقرأ عليه - كتاب سيبويه وكتاب الإيضاح لأبي على الفارسي والألفية وكتاب التسهيل لابن مالك والكافية لابن الحاجب وكتاب المغنى وأوضح المسالك لابن هشام . ولعاصره إبراهيم بن فائد القسطنطيني المتوفى سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م شرح على ألفية ابن مالك ، ومنذ ألف ابن أجروم الصنهاجى الفاسى المتوفى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م منه البديع فى النحو المسمى الأجرومية . والعلماء فى الجزائر وغير الجزائر يتناولونه بالدرس والشرح ، ومن شروحه فى الجزائر شرح المحدث الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م وشرح معاصره القلصادى الأندلسى نزير تلسمان وبجاية المتوفى سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م .

ويظل علماء النحو فى العهد العثماني يعنون بشرح متن الأجرومية وألفية ابن مالك ، ومن شروح الأجرومية حينئذ شرح محمد بن محمد الصباغ القلعي من نحاة القرن العاشر الهجرى ، ونظمتها فى القرن الثانى عشر خليفة بن حسن القمارى فى أرجوزة قبل إته « يرقص لها البتدى لسلاسة نظمها وعذوبة موسيقاها » . ومن نحاة الجزائر المهمين فى القرن الحادى عشر يحيى الشاوى المتوفى سنة ١٠٩٦هـ/١٦٨٥م ومن مصنفاته حاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، ومختصر فى أصول النحو استضاء فيه بكتاب الاقتراح للسيوطى . ويكثر الشارحون لشواهد كتب النحو ، ولأبى القاسم بن محمد البجائى من نحاة القرن الحادى عشر الهجرى شروح لشواهد ثلاثة من كتب ابن هشام ، هى القطر وشذور الذهب والقواعد الصغرى .

وبعض النحاة كان يدرس العروض لطلابه ، ولذلك يُنعتُ بالعروضى مثل عبد الله بن محمد القسطنطيني المتوفى بأخرة من القرن السادس الهجرى ، ويحيى بن عبد المعطى المذكور بين النحاة واللغويين منظومة فى العروض بجلب ألفيته فى النحو ونظمه اللغوى لمعجم الجهمرة . وينظم ضياء الدين الخزرجي السبتي فى عصر اللوحدين قصيدة فى العروض فى نحو مائة بيت ضمَّنْها قواعد علم العروض والقوافى ، وطارت شهرتها وسميت الخزرجية نسبة إليه ، وينسبها بعض الباحثين المعاصرين خطأ لابن أبى الجيش وليس هو صاحب الخزرجية . وشغف بها الجزائريون وتناولها كثير من أعلامهم بالشرح مثل ابن قنفذ المذكور بين النحاة وسمى شرحه :

« بـط الرموز الخفية فى شرح عروض الخزرجية » وشرحها ابن مرزوق الحفيد وسمى شرحه :
« الفاتيح المرزوقية فى استخراج رموز الخزرجية » وشرحها القلصادى ، وله بجانب شرحها
مختصر فى العروض . ومن شروح العهد العثملى على الخزرجية شرح لسعيد قدورة الحفيد
التوفى سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م وشرح ثان لبركات بن باديس التوفى فى أوائل القرن الثلثى
عشر الهجرى .

وكانت الجزائر - فيما يدو - تعتمد فى دراسة البلاغة على ما كبه ابن رشيق التوفى سنة
١٠٦٣هـ/١٠٦٣م فى كتابه « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » وكان قد طار صيته لا فى
القيروان وحدها بل فى جميع البلدان المغرية والمشرقية . وأخذت تشيع شرقا وغربا دراسة
للتون البلاغية وشرحها فى القرن السابع وما بعده منذ وضع السكاكى مصنفه أو كتابه المفتاح
وعرض فيه علمى المعانى والبيان ، وألحق بهما دراسة للمحسنات اللفظية والمعنوية ، وخلفه
الخطيب القزوينى وصنع لقرض السكاكى هذه العلوم فى القسم الثالث من كتابه المفتاح
تلخيصا ، ولم يلبث أن بسط قضاياها فى كتاب ثان سماه الإيضاح ، منذ ذلك ودارسو البلاغة
العربية فى الجزائر وغير الجزائر يُعَوِّنونَ عناية واسعة بكتابه المذكورين ، وخاصة بالتلخيص إذ
أُخذ يتجرّد غير عالم فى كثير من البلدان العربية لشرحه . وكان الفقيهان الكبيران التلمسليان
ابنا الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الشريف التلمسلى وأخوه أبو موسى عيسى رحلا إلى
المشرق فى شبابهما لأوائل القرن الثامن الهجرى للتزود من حلقات علمائه ولقيا فى رحلتهم
بدمشق أو فى القاهرة الخطيب القزوينى قاضى القضاة بهما فى عهد الناصر بن قلاوون ،
فحضرا دروسه وحملوا عنه مصنفيه البلاغين : متن التلخيص وكتاب الإيضاح ، وأذاعهما فى
موطنهما ، وكان الجزائر اشتغلت بهما عقب تأليفهما سريعا مثل مصر والبلدان المشرقية ،
ونرى الشريف الحسنى التلمسلى محمد بن أحمد التوفى سنة ٧٧١ كما مر بنا يعنى بالتلخيص
والإيضاح جميعا ويأخذهما عنه الطلاب ، وبالمثل كان يدرسهما للطلاب بتلمسان الحافظ الكبير
ابن مرزوق الحفيد التوفى سنة ٨٤٢م وضم إليهما كتاب المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع
لبدر الدين ابن النحوى الكبير ابن مالك التوفى سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م . ولماصره إبراهيم بن
فائد شرح وضعه على متن التلخيص ، وشرحه أيضا محمد بن عبد الكريم الخليل . ويضع
عبد الرحمن الأخضرى فى أوائل العهد العثملى صاحب متن السلم فى المنطق كتابا مختصرا
فى علوم البلاغة سماه : « الجوهر المكنون فى الثلاثة فنون : المعانى والبيان والبديع » وشرح
مرارا ، ومن شروحه شرح محمد بن يوسف الثغرى التوفى سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م سماه :
« موضح السر المدفون فى الجوهر المكنون » ويضع على بن عبد القادر المشهور باسم ابن الأمين
حاشية على شرح السعد التفتازلى لمتن التلخيص .

وتَهْدِي مدينة المسيلة (المحمدية) في الجزائر إلى الفيروان ناقدًا مبكرًا في أواخر عهد
المصورين بلكين (٣٦٨ - ٣٨٦ هـ) هو عبد الكريم النهشل ، وكان شاعرا يحسن الكتابة
كما كان شاعرًا مجيدًا فألحقته الدولة بدواوينها وظل بها إلى أن توفي سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م .
وله في النقد كتاب يعد باكورة الكتابات النقدية في البلاد المغربية هو كتاب للمتع في علم
الشعر وعمله . ونشر الدكتور منجى الكمي اختيارا منه لأحد الأدباء السابقين يقع في خمسمائة
صفحة حققها تحقيقًا علميًا جيدًا . ويدل هذا الاختيار على أن النهشل بنى الكتاب على مستحبات
شعرية وثرية تخللها نظرات نقدية ، ووزعَ المستحبات على أبواب متعاقبة انتفع بها ابن رشيق
في تأليفه لكتابه : « العمدة في صناعة الشعر ونقده » كما أوضح ذلك الدكتور منجى في
هوامش التحقيق بيان ما يلتقي فيه الكتابان من أبواب ونصوص مختلفة منذ الصفحة الثالثة من
المتع إذ نقل ابن رشيق عن عبد الكريم ما قاله من أن « أصل الكلام منثور ثم تعقبت العرب
ذلك واحتاجت إلى الفناء بأنعالها وذكر سلبقتها ووقائها وتضمن مآثرها ، إذ كان المنطق هو
المؤدى عن عقولهم ، وألستهم خدم أفدتهم » وتبعه ابن رشيق فقال : « وكان الكلام كله
منثورا ، فاحتاجت العرب إلى الفناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة » .
ويعقد عبد الكريم ص ٢٤ فصلا في فضل الشعر ، ويتلمعه ابن رشيق بفصل مماثل يرد فيه
ما يقوله (انظر صفحتي ٢٤ و ٢٥) . ومن الحق أنه قد يصرح به ولكن في مواطن معدودة
من العمدة ، وقد يأخذ عنه أبوابا مثل باب ألقاب الشعراء ص ١٩٢ وهو في العمدة (تحقيق
محيى الدين عبد الحميد) ٣٣/١ وباب احتفاء العرب بالشعر وذبهم به عن الأعراض ص ٢٢٠
وهو عند ابن رشيق في ٤٩/١ وباب الأنفة من السؤال ص ٢٤٩ وهو عند ابن رشيق باب
التكسب بالشعر والأنفة منه ص ٦٣ ويقول الدكتور منجى في الهامش : « وتجد عند ابن
رشيق فصولا كثيرة من هذا الباب ضمن أبواب أخرى لها علاقة به مثل باب الاقتضاء والاستنجاز
في الجزء الثاني من العمدة . ومن ذلك باب فيمن نوه به المدح وحطه الهجاء ص ٢٤٣ وهو
عند ابن رشيق ٢٩/١ . ومن ذلك باب فيه النهى عن تعرض الشعراء ص ٢٧٩ وهو عند ابن
رشيق ٥٩/١ . والكتاب يحمل في كل باب وفي كل موضوع نصوصا أدبية : شعرية وثرية
بديعة تدل - دلالة واضحة - على ما كان يمتلكه عبد الكريم النهشل من ذوق أدبي مرهف مع
حسن العرض . ويبدو أن أصل الكتاب كان يحمل بعض نظرات نقدية بارعة لم يعن صانع
المختار من الكتاب بإثباتها ، بدليل ما سجل ابن رشيق منها ، إذ عقد في الجزء الأول من
العمدة فصلا للقديما والمحدثين ذهب فيه مذهب ابن ختية في أنه ينبغي أن لا يقدم في الشعر
القديم لقدمه ولا الحديث لحداثته ، إذ المعول في ذلك على جودة الشعر لا على قدمه أو حداثته ،
ولا يليت أن يقول : « ولم أر في هذا النوع أحسن من فصل أتى به عبد الكريم (النهشل)
فإنه قال :

« قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويُستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعر له الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء وحدّ الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت في بلد ألقاها لا تستعمل كثيرا في غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادر حكاياتهم . قال : والذي أختاره أنا التجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر ، ويبقى غلبه على الدهر ، ويعد عن الوحش المستكره ، ويرتفع عن المولد المتحل ، ويتضمن المثل السائر والتشبيه المصحب والاستعارة الحسنة » .

فبعد الكريم يرى أن الجودة في الشعر تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وأن المدار فيها ليس على القدم والحداثة ولا على بلد شرقا دون بلد غربا إنما المدار فيها على حسن النسق وجمال الصياغة بحيث لا يكون الكلام حوشيا جافيا ولا مولدا سفسافا غثا بل يكون رصينا جزلا أو رقيقا سلسا مع ما يحمل من تلاوين التشبيهات والاستعارات البارة . ونمضي مع ابن رشيق في الجزء الأول من كتابه العمدة فنجده يعقد بابا في الشعراء والشعر يذكر فيه عن عبد الكريم قوله : « الشعر أصناف ، فشر هو خير كله ، وذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثّل به بالخير وما أشبه ذلك ، وشعر هو ظرف كله ، وذلك القول في الأوصاف والنوع والتشبيه وما يفتنّ به من المعاني والآداب ، وشعر هو شر كله ، وذلك الهجاء وما تسرع به الشاعر إلى أغراض الناس ، وشعر يتكسّب به ، وذلك أن يخلع إلى كل سوق ما يتفقّ فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتي إليه من جهة فهمه » .

وهي أنواع تستقصى أغراض الشعر ، فمنه الخير الذي يهدي إلى السنن القويم من الزهد والسلوك المستقيم إثارا لما عند الله من الثواب على متاع الحياة الفاني، ومنه ما تسترجم إليه النفس من وصف الطبيعة ومن الحكم والمعاني الطريفة، ومنه ما هو شر خالص وهو الهجاء المقذع الذي ينتهك الأعراض، ومنه ما يتكسب به ، وهو شعر المديح الذي يعود على صاحبه بالنفع في كل سوق. ويعقد ابن رشيق عقب هذا الباب بابا لحد الشعر وبنيته، ويذكر فيه لعبد الكريم قوله : « يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح والهجاء والحكمة واللبو ، ثم يتفرّع من كل صنف من ذلك فنون فيكون من المديح المرائي والافتخار والشكر ، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرود والخمر والمخمور » . وفنون الشعر الأربعة التي ذكرها عبد الكريم نقلها عن ابن وهب في كتابه نقد النثر ، وقد عرف كيف يرد إليها كل أغراض الشعر ، فالمدح منه المرائي إذ هو مديح لبيت ، ومنه الفخر إذ هو مديح للشاعر الذي نظمه ، مديح لنفسه ، وكذلك الشكر مديح لمن يقدم إليه وعرفان بفضلته ، ومن السهل إدخال الذم في الهجاء أما العقاب والاستبطاء فيدخلان فيه بشيء من التوسع إذ قد ينقلبان هجاء . وبحق تدخل الأمثال في الحكمة كما يدخل فيها

التزهد والوعظ لأنهما يقومان على ضرب الأمثال والتأمل في مصير الإنسان وما يتظر من السعادة أو الشقاء في الآخرة ، ويدخل في اللهو الانشغال عن الحياة الجادة بالفرح أو بالصيد أو بالخمر أسوأ صور اللهو الماجن .

وواضح أننا عرفنا عن طريق الفهرّ الثلاث السالفة التي نقلها ابن رشيّق عن كتاب الممنوع في علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلي جانباً من نظراته النقدية التي ضمنها كتابه ، ونظن ظناً أنه كان في الكتاب نظرات نقدية أخرى مماثلة أهمّ لها - كما ذكرنا - صانع هذا الاختيار الذي حققه ونشره الدكتور منجى الكمّبي . ولم يظهر بعد عبد الكريم في الجزائر نقد على شاكلته إلا ما كان من ظهور ابن رشيّق الناقد الفذ مواطنه الذي ولد مثله بالمسيلة الجزائرية ونشأ بها وعلمه أبوه صنّعه وهي الصياغة وهاجر في سن السادسة عشرة إلى القيروان فتأدّب بها ونضجت فيها موهبته الأدبية والنقدية وظل مستوطنها لما بقية حياته بحيث عدّ من أهلها وأدبائها ، ولذلك عمدنا في القسم الخاص بالإقليم التونسي عنه وعن كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده الذي يعد بحق أروع عمل نقدي أنتجته البلدان المغربية طوال هذا العصر .

٤

علوم^(١) القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

يمكّن المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على حفظ القرآن الكريم وتلاوته ، وحين نشأت فيه القراءات أخذ يحملها عن أئمتها في المشرق مقرّون كثيرون في المغرب ولا بد أن

والخشي والرياض للملكي وما ذكر من مصادر الإباضية والدياج المنع لابن فرحون وعنوان الدراية وما ذكر معه من المصادر في المحدثين ، وعلم الفقه في مقدمة ابن خلدون . وراجع في المذهب الكلامية وخاصة الاعتزال والأشعرى ما كتبه عنهما في المصيرين المبشرين الأول والثاني وكذلك ما كتبه في تونس وانظر في مبادئ الإباضية ديوز في تاريخ المغرب الكبير ، وراجع في الاعتزال ونشره في المغرب والجزائر لمهد وأصل مؤسسه كتاب فضل الاعتزال وطبقات المحرّلة بتحقيق فؤاد سيد . وانظر في المناظرة بين الإمامية والعتقية لابن الصغير ، وانظر في تأليف علم الكلام وكثرتها البستان وتعريف الخلف ، وتاريخ الجزائر الثقافي ، وراجع في كتابات الإباضيين في علم الكلام كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني .

(١) راجع في القراء غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري وعنوان الدراية في علماء بجاية للفريني وبنية الرواد لبني بن خلدون والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وتعريف الخلف برجال السلف للحنفاوي وتاريخ الجزائر الثقافي للدكتور سعد الله . وانظر في المفسرين عنوان الدراية وبنية الرواد والبستان وتعريف الخلف برجال السلف وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني في الحالة العلمية في الجزائر وتاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لسعد الله . وراجع في المحدثين طبقات أبي العرب والدياج للمذهب لابن فرحون والجزء الأول من الذخيرة لابن بام في أسرة بني الطنّيني وعنوان الدراية وبنية الرواد والوفيات لابن قنفذ والبستان وتعريف الخلف وكتاب الجزائر للمدني وتاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله . وانظر في الفقهاء طبقات أبي العرب

كان للجزائر حظ كبير من هؤلاء المقرئين مثل بقية البلاد الإسلامية ، ويذكر ابن الجزرى من كبار قرائها فى القرن الرابع الهجرى عبد الحكيم بن إبراهيم نزىل بجاية تلميذ ابن خيرون كبير القراء فى القيروان وقد حمل عنه قراءة ورش المصرى عن نافع وهى القراءة التى لا تزال فى البلاد المغربية إلى اليوم . ومن كبار القراء فى القرن الخامس الهجرى يوسف بن على بن جبارة من بسكرة عاصمة الزاب ، وله كتب الكامل فى القراءات العشر ، ويقول ابن الجزرى إنه طاف البلاد فى طلب القراءات ، ويذكر فى كتبه الكامل إنه لقى ثلاثمائة وخمسة وستين مقرئاً من شيوخ القراء وذكر منهم فى كتبه مائة واثنين وعشرين شيخاً . ومن قرأه القرن السادس ابن عفره محمد بن عبد العزيز وعنه حمل القراءات محمد بن عبد الله القلمى المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٤م ويقول الغبريني إنه جلس للأستاذية ببجاية وأقرأ الناس وانضموا به . وكان يعاصره ببجاية المقرئ أحمد بن محمد المعافى قرأ عليه عالم واستفاد منه خلق كبير ، وله مختصر كتاب التيسير للدلائل فى القراءات السبع ، وبالمثل أحمد بن محمد الصدفى المتوفى سنة ٦٧٤هـ وله كتابان فى قرأه ورش . ومن قراء القرن السابع الذين ذكرهم ابن الجزرى فى غاية النهاية سعيد بن على بن زاهر المتوفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م استوطن بجاية وأقرأ بها الطلاب ، ومثله محمد بن صالح الكتنى المتوفى سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٧م ولحق إقامة القريضة والخطبة بجامع بجاية الأعظم ماينيف على ثلاثين علماً ، وكان مع إلامته القراءات يقرأ للطلاب مفصل الزمخشري ودواوين الأشعار الستة وألقى تمام والمتنى . ومن مقرئى القرن الثامن الهجرى محمد بن محمد بن غريون البجائى تلميذ محمد بن صالح الكتنى وأستاذ محمد بن محمد البلفيقي ببجاية ، وكان يقرئ القراءات الثمان . ومن المقرئين فى منتصف القرن الثامن أحمد بن محمد الزواوى مقرئ قسنطينة ، ومن مقرئى النصف الثانى من هذا القرن يحيى بن موسى الغمارى مقرئ ببجاية . وكان يعاصره يعقوب بن على الصنهاجى شيخ أهل تلمسان فى القراءات .

ومن كبار القراء فى القرن التاسع ابن مرزوق الحفيد ، وله فى القراءات أرجوزة فى محاذاة الشاطبية المشهورة ، وتلاه فى العناية بالقراءات بأخرة من القرن محمد بن يوسف السنوسى وله شرح كبير على الشاطبية ومختصر فى القراءات السبع ، وكان يعاصره محمد بن أحمد المصمودى وله فى القراءات رجز باسم : « المنحة المحكية لبتدىء القراءة المحكية » عرض فيها الخلاف بين قراءة ابن كثير المكى ونافع المدنى ، ومن معاصره محمد بن شقرون الوهراتى وله كتاب تقريب النافع فى الطرق العشر (طرق الروايات) لنافع ، وهى أكثر من ذلك فى حديث ابن مجاهد عن أسيد قراءة نافع فى مقدمته لكتابه : « السبعة » . واشتهرت زواوة فى العهد العثماني بكثرة المقرئين فيها ، ومن أشهرهم فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر محمد بن صولة وكان الطلاب يأخذون عنه القراءات السبع . ولابد أن كان بالجزائر مقرئون آخرون فى

زواوة وغيرها يتجاوزون القراءات السبع إلى ما بعدها من القراءات العشر ، وربما إلى ما وراءها من القراءات .

وللجزائر نشاط في التفسير مماثل لنشاطها في القراءات ، وخاصة منذ القرن السادس الهجري ، وفيه نلتقى يوسف بن إبراهيم الورجلاني الإباضي المتوفى ببلدته : ورجلان سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ويذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر أنه كان له في التفسير كتاب كبير في ٧٠ جزءاً . ويتكاثر المفسرون بالجزائر منذ القرن السابع ، ومنهم علي بن أحمد الحرالي نزيل بجاية المار ذكره ، ويقول الغبريني : « له تفسير على كتاب الله تعالى سلك فيه سبيل التحرير فتكلم عليه لفظة لفظة وحرفاً وحرفاً » ومن مفسري القرن السابع بتلمسان ابن أبي العيش الخزرجي محمد بن عبد الرحيم وفيه يقول يحيى بن خلدون في كتابه بغية الرواد : له مشاركات في فنون العلم وكان مؤلفاً متقناً فسر الكتاب العزيز . ومن مفسري القرن الثامن الهجري الشريف الحسني التلمساني محمد بن أحمد إمام المغرب قاطية ، وفيه يقول ابن مريم : « فسر القرآن في خمس وعشرين سنة أتى فيه بالعجب العجيب ، وكان عالماً بحروفه ونحوه وقراءاته وبيانه وبلاغته وأحكامه ومعانيه » . ومن مفسري القرن التاسع سعيد العقباني المتوفى سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م وله تفسير لسورة الأنعام والفتح والفاحة أتى فيه بفوائد جلييلة ، ولإبراهيم بن فائد المتوفى سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م تفسير للقرآن الكريم . ونلتقى بالمفسر الكبير عبد الرحمن الثعالبي التلمساني المتوفى سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م وله تفسير دُرّت شهرته في عصره والصور التالية اختصر فيه تفسير عبد الحق بن عطية الأندلسي ورجع فيه إلى عشرات من كتب التفسير ، يقول في مقدمته : « ضمت - بحمد الله - المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية ، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة حسبما رأيته ورويته عن الأثبات ، وذلك قريب من مائة تأليف ، وما منها تأليف إلا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين ومعدود في المحققين ، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئاً فمن تأليفه نقلت وعلى لفظ صاحبه عوّلت ، ولم أقفل شيئاً من ذلك بالمعنى خوف الوقوع في الزلل » وقد سمي تفسيره : « الجواهر الحسان في تفسير القرآن » . وقوله إنه رجع في التأليف إلى مائة تفسير يدل - بوضوح - على أن المشرق لم يؤلف تفسيراً مهماً إلا نقله الشيوخ إلى الجزائر . ولا يختص هذا العمل من نقل التراث العلمي المشرقى إلى الجزائر بالتفسير وحده ، فقد عم هذا التراث في القراءات والحديث النبوى والفقه وعلم الكلام والتاريخ وكتب النحو ومعاجم اللغة ، بفضل طلاب العلم الجزائريين وشيوخه البررة الذين ظلوا يعملونه طوال القرون الماضية إلى بلدان الجزائر وغير الجزائر من الأقاليم المغربية . ولمحمد السنوسى مختصر حاشية التفاتزائى على تفسير الزمخشري المسمى بالكشاف . ومن تلاميذ الثعالبي محمد بن عبد الكريم المغلى المار ذكره ، ومن مصنفاته : « البدر النير في علوم التفسير » . ونلتقى في العهد العثماني يحيى الشاوى المار ذكره المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م وله في

التفسير كتاب فى أجوبته على اعتراضات أبى حيان الأندلسى فى تفسيره المحيط على عبد الحق بن عطية والزمرخشى . وبأخرة من هذا العصر نلتقى بمحمد بن أحمد بن عبد القادر الملقب بأبى راس ، وله تفسير فى ثلاثة مجلدات .

وزخرت الجزائر بالنشاط فى دراسات الحديث النبوى مثلها فى ذلك مثل بقية البلاد الإسلامية فكثر بها المحدثون من أنبائها والنازحين إليها من الأندلس والبلدان المغربية والمشرقية ، ومن أوائل الوافدين عليها من المحدثين أبو معمر عباد بن عبد الصمد التميمى من أهل البصرة كان قد لقى الصالحى أنس بن مالك وعليه معتمده وكذلك لقى الحسن البصرى وعطاء بن أبى رباح التلميعين وروى عنهم جميعا الحديث وقدم البلاد المغربية فأخذ الحديث عنه أناس كثيرون فى طرابلس والقيروان وقسنطينة وبها توفى ، ويقول أبو العرب فى طبقاته إنه روى مناكير فى الحديث عن أنس لم يروها غيره ولكنه مشهور بكثرة من أخذ الحديث عنه . ومن بكروا فى النزوح إليها من الأندلس سعيد بن فحلون نزىل بجاية المتوفى بها سنة ٣٤٦هـ/٩٥٨م عن ثلاث وتسعين سنة ، وكان قد رحل إلى المشرق وحمل عن السائى كتبه السنن أحد كتب الصحاح الستة المشهورة ، وكانت إليه الرحلة للسمع من البلدان الأندلسية . وفى نفس هذا القرن الرابع استوطن أحمد بن نصر الداودى تلمسان حتى وفاته سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م ، وكان فقيها كبيرا وله شرح على صحيح البخارى سماه النصيحة . واشتهرت فى طينة عاصمة الزاب فى القرون الأولى أسرة بنى الطنبى برواية الحديث النبوى ، ومنها عبد الملك بن زيادة الله الطنبى نزىل قرطبة المتوفى سنة ٤٥٧ . ومن محدثى القرن السادس بتلمسان يعقوب بن أحمد ، لقى بخرية فى الأندلس أبا على الصدفى سنة ٥١١ وعاد إلى تلمسان فحدث الطلاب بها إلى وفاته . ومن كبار المحدثين فى نفس القرن عبد الحق الإشبلى نزىل بجاية المتوفى بها المار ذكره ، وله الأحكام الكبرى فى الحديث ست مجلدات والأحكام الصغرى والأحكام الوسطى والجمع بين الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم . وكان يعاصره مواطنه أبو بكر بن سعادة الإشبلى نزىل تلمسان المتوفى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م ويقول ابن مريم : « كان ضابطا نقادا محدثا على الرواية » ومن تلاميذه ابن أبى العيش الخزرجى . ومن محدثى الإلباضيين يوسف بن إبراهيم الوريجلانى المار ذكره بين المفسرين وله ترتيب مسند الربيع بن حبيب الإلباضى البصرى المتوفى سنة ١٧٠هـ/٧٨٧م . ومن محدثى القرن السابع أبو زكريا الزواوى استوطن بجاية وتوفى بها سنة ٦١١هـ/١٢١٤م وكان يُقرأ عليه صحيح البخارى إلى وفاته عن سنٍ عالية . ومن محدثى هذا القرن فى مدينة الجزائر محمد بن قاسم بن منداس المتوفى بها سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٦م وكان يعكف على تدريس علوم الحديث . وكان يعاصره فى بجاية على بن فتح بن عبد الله المتوفى بها سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٥م واشتهر بسنده العالى لصحيح البخارى الذى أخذه فى رحلته إلى المشرق ، إذ أخذه عن أبى محمد بن يونس عن أبى الوقت وروايته إحدى الروايات الأساسية

التي اعتمد عليها اليوناني في إخراج صحيح البخارى وتحقيق نصوصه ، وسمع أبو الوقت روايته عن أبي الحسن الداودى عن ابن حموية عن محمد بن يوسف القزيرى عن الإمام محمد بن إسماعيل البخارى . وهو سند عال لصحيح البخارى ، تسامع به الأندلسيون فرحلوا إلى بجاية لأخذ رواية صحيح البخارى عنه لقصور سندهم له عن هذا السند . وكان يعاصره أحمد بن محمد بن السراج الإشبلى نزىل بجاية المتوفى سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م وكنت له فى الحديث رواية عالية . وكان يعاصرها حسن بن على بن قنفذ محدث بلده : قسنطينة المتوفى بها سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م . وتوفى بمطلع القرن الثامن المحدث الفقيه قاضى الجماعة ببجاية أحمد بن محمد الفيرنى صاحب كتاب عنوان الدراية فى علماء بجاية .

ومن محدثى القرن الثامن الهجرى محمد بن يحيى الباهلى البجائى المتوفى سنة ٧٤٤هـ ومحمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب التلمسلى المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م ويقول ابن قنفذ فى كتابه الوفيات : كان له طريق واضح فى الحديث وأستمنا حديث البخارى وغيره ، وله شرح جليل على كتاب عمدة الأحكام فى الحديث ، وأيضاً شرح على كتاب الشفاء للقاضى عياض . وفى سنة ٧٨٤هـ توفى محدث قسنطينة وقاضيهما حسن بن ميمون بن باديس . ومن كبار المحدثين فى القرن التاسع الهجرى محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق الملقب بالحفيد إشارة إلى أنه حفيد ابن مرزوق الخطيب ، الحافظ المحدث الثقة جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية ، وكان لا يترك علماً عقلياً ولا نقلياً إلا ألف فيه ، فهو يؤلف فى المنطق كما مر بنا وفى النحو وفى الفقه وينظم فى علوم الحديث أرجوزتين كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ويدرس للطلاب الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم وجامع الترمذى وسنن أبى داود وعمدة الأحكام فى الحديث سوى الأمهات فى الفقه المالكى والنحو والعربية والبلاغة . وكان يعاصره أحمد بن زاغو المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م وله شرح على صحيح البخارى وشرح على صحيح مسلم . وتلقى بأخرة من هذا القرن بالإمام محمد السنوسى ، وله مختصر لشرح الأئمة على مسلم ، وشرح خصه بمشكلات البخارى ومختصر لشرح الزركشى عليه . وتلقى فى العهد العثماني بأسماء علماء كثرين يدرسون للطلاب بعض أمهات كتب الحديث وخاصة صحيح البخارى ، وكانت تقام المهرجانات لخمه فى رمضان . وكان ابن أبى جمره قد غنى بوضع مختصر لصحيح البخارى نشره عبدالقادر المجاوى . ويضع بأخرة من العصر عبد العزيز الثمينى الإباضى مختصراً لحاشية مسند الربيع بن حبيب فى ثلاثة أجزاء ، ويضع معاصره أحمد بن عمار حاشية على صحيح البخارى .

ومنذ الفتح الإسلامى يتجرد كثيرون من الجيوش الفاتحة لنشر الإسلام فى الجزائر وغيرها من البلاد المغربية وتعليم أهلها الشريعة الإسلامية وتحفيظهم القرآن الكريم . ومرُّ بنا فى هذا

١٠٠ الفصل كيف أن موسى بن نصير (٨٦-٩٦ هـ) ظل خلال مسيرة جيشه حتى المحيط يترك في كل بلد مغربي في الجزائر وغير الجزائر معلمين يحفظون أهل القرآن ويقفونهم على تعاليم الإسلام وعلى قواعد العربية . وبظل معلمون قاطنين بذلك طوال القرن الأول الهجري ، وكان عمر بن عبد العزيز في آخر هذا القرن قد أرسل إلى القيروان عشرة من الفقهاء ليعلموا الناس فروض الشريعة ، ومنذ هذا الحين أخذت تزدهر في القيروان - عاصمة المغرب جميعه حينذاك - الدراسات الفقهية ، وأخذ كثيرون من أهل الجزائر يؤمنونها ليحسنوا معرفة الفقه ويثروا في بلدانهم ، وكان منهم - من يقتدى بشباب القيروان فيرحل إلى المشرق للنهل من حلقات فقهاء الكبار في الحجاز والعراق وخاصة حلقة الإمام مالك بن أنس (٩٣-١٧٩ هـ) . ومن أوائل الجزائريين الراحلين إلى المدينة للاستماع إليه والتلمذة عليه أبو القاسم عبد الله الزواوي . وتلتقى مع أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة بفقهاء جزائري هو إبراهيم الطنبلي الذي كان يشارك أسدين الفرات في القضاء .

وكانت الدولة الرسمية الإباضية قد نشأت منذ أواسط القرن الثاني وتولى أمورها الإمام عبد الوهاب ، وهو من أوائل الفقهاء الإباضيين إذ ينسب إليه الأستاذ ديبوز في تاريخ المغرب الكبير كتابا يجمع فتاويه الشرعية لأتباعه يسمى نوازل نفوسة . واشتهر قضاء مالكية في أواسط القرن الثالث ولأهم سحنون في بعض مدن الجزائر حين أصبح قاضي القيروان : عاصمة الإقليم التونسي وشرقي الجزائر حينذاك منهم حدون قاضي طلبة وعلى بن منصور قاضي ميلة ويحيى بن خالد السهمي قاضي الراب ، وكتبوا جميعا يعنون بنشر الفقه المالكي الذي درسه على أستاذهم سحنون . ومن الفقهاء الجزائريين في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عبد الملك بن سباح أستاذ فضل بن سلمة البجائي المتوفى سنة ٣١٩هـ/٩٣٢م وكان من أعرف الفقهاء باختلاف أصحاب مالك ، وكان يُرَحَّلُ إليه للسمع منه ، أقرأ - ودرس - بالمسجد الجامع في بجاية ، وله مختصر لمدرسة سحنون فقيه القيروان ومختصر ثان لكتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيب فقيه قرطبة المعاصر لسحنون والمتوفى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م وقد زاد فيه من فقهه كثيرا ، وله مختصر ثالث لكتاب الفقيه المالكي المصري ابن المواز . وتلتقى في القرن الخامس بمرwan بن علي نزيل بونة (عنابة) المتوفى قبل سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله شرح على الموطأ لمالك نوّه به ابن فرحون .

وفي نفس القرن الخامس يلمع بين الإباضيين فقيه يسمى أحمد بن محمد بن بكر ولد لأبيه القادم إلى وادي ميزاب من جبل نفوسة بليبيا . ويقال إن أباه هو الذي أسس هيئة العزبة في بلدان قرى ومدن ميزاب ، ويقال بل مؤسسها هناك ابنه أحمد المذكور المتوفى سنة ٥٠٤هـ/١١١١م كما يذكر معمر في كتابه الإباضية في موكب التاريخ ، وهي هيئة دينية عليا تشرف على جميع شئون المجتمع الإباضي في كل مدينة وقرية ومنها يختار شيخ البلد والمفتي

وناصر الأوقاف ومؤدب الناشئة والمؤذن والإمام . وكان أحمد فقيها وله من المصنفات كتاب أحكام الحرب وكتاب القسمة وكتاب أصول الأرضين فى كل ما يتصل بها من شئون الملكية والاستثمار والضرائب وهو فى ستة أجزاء ، وله أيضا كتاب الألواح وكتاب تبيين أعمال العباد . ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السادس أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن نبي قنون التوفى سنة ١١٦٢هـ/٥٥٧م وله المنتضب الأشفى فى اختصار المستصفى للغزالي . ومن فقهاء الظاهرية عبد الله بن جبل الزهراني الظاهري المذهب قاضى عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين . ومنهم ميمون بن جبارة التوفى سنة ١١٨٩هـ/٥٨٤م قاضى بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه معيار المعالم والمقاصد للغزالي ، ومنهم محمد بن على بن مروان بن جبل قاضى الناصر الموحدى التوفى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م .

ومن فقهاء الإباضية فى هذا القرن يوسف بن إبراهيم الورجلاني التوفى سنة ١١٧٤هـ/٥٧٠م ، وهو تلميذ أحمد بن محمد بن بكر السابق ذكره بين المفسرين - المحدثين ، وله كتاب العدل فى أصول الفقه فى ثلاثة أجزاء وكتاب مرج البحرين . ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السابع الهجرى أبو زكريا الزواوى البجائى التوفى سنة ١٢١٥هـ/٦١١م ومنهم محمد بن عبد الحق التلمساني التوفى سنة ١٢٢٨هـ/٦٢٥م وله فى الفقه : المختار فى الجمع بين المتفقى للبايجى والاستذكار ، وكتاب غريب الموطأ ، ومنهم أبو الحسن على المشهور بلبن الزيات مستوطن بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه تهذيب مدونة سحنون وكتاب التلقين لعبد الوهاب إمام المالكية وكتاب التفريع لابن الجلاب وكتاب الرسالة لابن أبي زيد . ومنهم إبراهيم بن أبي بكر التلمساني التوفى بأخرة من سنة ١٢٩٧هـ/٦٩٧م وكان فقيها نابها ، وله فى الفرائض أرجوزة لُقبت بلفظ « التلمسانية » وهى ضابطة للفرائض محكمة عجيبة الوضع كما يقول ابن فرحون ، وشرحها غير فقيه جزائرى مثل ابن زاغو والجبك .

ومن فقهاء بجاية المهمين أبو على ناصر الدين الزواوى وهو الذى جلب إلى بجاية والمغرب مختصر ابن الحاجب فى الفقه المالكي آخر المائة السابعة ومن هذا التاريخ عكف عليه أهل بجاية والمغرب يدرسونه ويشرحونه . ومن كبار الفقهاء فى القرن الثامن الهجرى أبو زيد بن الإمام التوفى سنة ١٢٤٣هـ/٧٤٣م وأبو موسى بن الإمام التوفى سنة ١٣٤٩هـ/٧٤٩م نزلا تلمسان أيام أبي حمو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) فبنى لهما المدرسة المعروفة باسم مدرسة أبناء الإمام كما مر ، وكان يعاصرها عمران المشدالي التوفى سنة ١٣٤٥هـ/٧٤٥م ويقول يحيى بن خلدون : « لم يكن فى معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك وحفظا لأقوال الصحابة وعرفانا بنوازل الأحكام وصولا فى الفتيا » وفى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مناظرة بينه وبين أبي زيد الإمام موضوعها الفقيه المصرى عبد الرحمن بن القاسم الذى حمل عنه سحنون المدونة المنسوبة إليه خطأ وهى من إملاء أستاذه عبد الرحمن .

وقد تناظر الفقيهان في عبد الرحمن بن القاسم هل هو مقلد أو هو مجتهد . وقال عمران
إنه مجتهد اجتهادا مطلقا بدليل مخالفته لمالك في كثير من المسائل . وولتقى في القرن الثامن
بالإمام العالم الفذ فارس العقول والمنقول محمد بن أحمد الشريف الحسن التلمساني المتوفى سنة
٧٧١هـ/١٣٧٠م ومُر ذكره في علوم الأوائل وبين المفسرين وإليه انتهت إمامة المذهب الفقهي
المالكي في عصره ، وكان مع علمه الواسع بالفقه عالما بأصوله ، ومن مصنفاته مفتاح الوصول
في بناء الفروع على الأصول طبق فيه الأصول على مسائل الفقه ، ويقول ابن خلدون إنه ملا
المغرب معارف وتلاميذ . ومن فقهاء هذا القرن عبد الرحمن الوغليسي المتوفى سنة
٧٨٦هـ/١٣٨٥م شيخ العلماء في بجاية وعالمها ومفتيها ، وله « الجامعة في الأحكام الفقهية
على مذهب الإمام مالك ، وتسمى : « الوغليسية » نسبة إليه .

ومن كبار فقهاء القرن التاسع الهجري أحمد بن حسن المشهور باسم ابن قنفذ قاضي قسطنطينية
المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م ، وله شرح على رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي وشرح ثانٍ
على كتاب التفرغ لابن الجلاب المالكي وشرح ثالث على الأرجوزة التلمسانية باسم معونة
الرائض في مبادئ الفرائض . ومن فقهاء القرن الكبار محمد بن مرزوق الحفيد المار ذكره في
علوم الأوائل وبين العرويين والبالغيين والمحدثين ، وله : شرح على باب الطهارة بمختصر
خليل بن إسحق الفقيه المصري المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨ . ومنذ ألف خليل هذا الكتاب
الموجز وشرحه تتكاثر في الجزائر كما تتكاثر شروح مختصر ابن الحاجب الفقيه المصري المالكي
المتوفى قبله بنحو قرن . ومن الفقهاء أحمد بن زاغو التلمساني المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م ،
ومن تأليفه شرح التلمسانية في الفرائض .

ولتلقى بعبد الرحمن الثعالبي كبير المفسرين في العصر ، ومن مصنفاته الفقهية شرح ابن
الحاجب الفرعي في سفرين ، وجواهر المدونة وعيون مسائلها في سفرين ، وجامع الأمهات
في أحكام العبادات . ويلقنا بعده تلميذه وتلميذ ابن زاغو الفقيه يحيى المازوني المتوفى سنة
٨٨٣هـ/١٤٧٩م وله الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، جمع فيه فتاوى الفقهاء المتأخرين من
أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم في سفرين . ولتلقى في أواخر القرن التاسع
الهجري وأوائل العاشر بالفقيه أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م حامل
لواء المذهب المالكي في أيامه ، وكان يدرس لطلابه مدونة ابن سحنون وابن الحاجب الفرعي
ومن مؤلفاته : تعليق على ابن الحاجب الفرعي والقواعد في الفقه والفروق ، وأهم مؤلفاته الميعار
المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب في ستة أسفار ، وهو موزع على أبواب
الفقه في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية .

ونمضى إلى العهد العثماني في الجزائر وكان سلاطين آل عثمان يرسلون مع ولاتهم قضاة

أحنافاً ، وعادة كانوا يعودون مع الولاية بعد حكمهم نحو ستين ، ويأتى الوالى الذى خلفه ومعه قاض جديد ، وبعد عدة أجيال كان يدرس لهم الفقه الحنفى فى بعض المدارس والجامع أخذ ينشأ فى الجزائر علماء أحناف من أبناء العثمانيين المولودين فيها . وأخذ الولاية يولون منهم القضاة دون حاجة إلى جلب قضاة من العاصمة : إستنبول ، وأول قاض حنفى جزائرى هو الحسين بن رجب الذى تولى القضاء سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م وكان القاضى الحنفى يسمى المفتى وشيخ الإسلام ودائماً كان بجواره فى المدن قاض مالكى ، إذ كانت جماهير الشعب مالكية ، وله بلبوره حق الفتوى ، وإذا اختلف مع القاضى الحنفى عُقد لهما مجلس من العلماء للمناظرة ومن انتصر منهما أخذ بفতোاه وقد يمزلان معا ويؤلى غيرهما .

وعلى الرغم من كثرة الدروس فى المذهب الحنفى لم ينشط أصحابه فى التأليف إذ ظلوا طويلاً يمتكون ستين فى الجزائر ويعودون إلى استنبول فلم تهيأ لهم الفرصة حيثذ للتأليف طوال القرن الحادى عشر المجرى إبتاتياً ذلك حين أصبح القضاة يختارون من أبناء العثمانيين الجزائريين ، ويوضح ثبت فى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مدد توليهم فى القرن الثانى عشر المجرى وكيف كانت تتوارث وظيفة للقضاء الحنفى بعضُ الأسر مثل أسرة العناى ولها نشاط محمود فى التأليف ، وعلى شاكلتهم عبد القادر الراشدى القاضى الحنفى فى أوائل القرن الثنى عشر ولكنه غنى بمباحث علم الكلام . أما الفقه المالكى فظل التأليف بالمعهد العثمانى متصلاً به وخاصة فى وضع الشروح والحواشى ونظم التون ، ولمصطفى الرماضى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر حاشية على شرح لمختصر خليل بن إسحق ، ونظمه أحمد البونى المتوفى سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٧م تيسيراً لحفظه على الناشئة ، ولعبد الرحمن الأخضرى صاحب متن السلم فى المنطق مختصر فى العبادات شرحه عبد الكريم الفكون (الحفيد) المتوفى سنة ١١٧٣هـ/١٧٦٠م ولعبد الرحمن البيدرى التلمستى ياقوتة الحواشى على شرح الإمام الخراشى لمختصر خليل فى أربعة أسفار فرغ منه سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٦م ونظم المختصر خليفة بن حسن القمارى فقيه بسكرة وفرغ من نظمته سنة ١١٩٢هـ/١٧٧٩م .

ومن كبار فقهاء الإباضية فى المعهد العثمانى عبد العزيز الثمينى المتوفى سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م وله كتاب التيل فى ثلاثة أجزاء وهو مرجع أساسى فى الفقه الإباضى وفروعه فى العبادات والمعاملات ، وهو يقوم عند الإباضيين مقام مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى وشروحه وحواشيه . وأكمله بكتابه : الورد الباسم فى رياض الأحكام ، وله مختصر التهاج فى علوم الشريعة فى أربعة أجزاء وكتاب الألواح فى الفقه وكتاب التاج فى حقوق الأزواج وفيه يعرض الحقوق الزوجية وقضايا الأسرة إلى غير ذلك من كتب فى المنطق وعلم الكلام وأصول الدين .

ومرّ بنا في القسم الخاص بالإقليم التونسي وما كان يتبعه من شرقي الجزائر أن كل ما كان يتحاور فيه علماء الكلام من مرجئة وجبرية ومعتزلة انتقل هناك مبكرا ، وكان المعتزلة قد انضموا قديما في البصرة إلى جيش إبراهيم بن عبد الله الحنسي في حربه لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي سنة ١٤٥ ولم يكب له الظفر بل دارت عليه وعلى أخيه محمد النفس الزكية في المدينة الدوائر ، وأخذ المنصور يتقرب أبناء الأسرة هو وخلفاؤه ، فهرب إدريس أخواهما إلى المغرب ، وغلب على مدينة فاس وأعانتها وأسّس هناك دولة الأدارسة . وكان دعاة وأصل بن عطاه رأس المعتزلة وصلوا إلى هذه الأنحاء وأصبح لهم في كورنى طنجة والبيضاء أتباع كثيرين ، فوضعوا أيديهم في أيدي إدريس ، وأعلّوه في تأسيس دولته كما أعلن - من قبل - معتزلة البصرة أخاه إبراهيم في ثورته على المنصور ، ونزاهم بتكاثرون في شمال الجزائر الغربي لعهد عبد الوهاب أمير الدولة الرستمية (١٧١ - ٢١١ هـ) ، وعقدت مناظرات طويلة بينهم وبين علماء دولته الإباضية ، وأعلن للحرب عليه منهم نحو ثلاثين ألفا ولم يقدر لهم النصر فهزموا ولم تقم لهم بعد ذلك في الجزائر قائمة . وطبيعي أنهم كانوا يعتنقون مبادئ المعتزلة الخمسة المشهورة ، وهي التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقين فهو ليس جسما ولا ما يشبه الجسم ، والعدل مما يترتب عليه نفى سيطرة القدر على إرادة الإنسان حتى يكون مسئولاً عن أعماله مما يستوجب له الثواب والعقاب ، وحمية وعداؤه - بجلّ شأنه - بالثواب ووعيده بالعقاب فلا تبدل لهما ، مما يترتب عليه عقاب مرتكب الكبيرة إلا إذا تاب وأُتُوب ، ونفذوا في مناقشة الحكم عليه إلى مبدئهم الرابع وهو أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الكفر والإيمان بينما قال أهل السنة إنه مؤمن فاسق ، وقالت الإباضية إنه كافر لكن لا كفر ملّة بل كفر نعمة ، والمبدأ الخامس الذي اعتنقته المعتزلة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويبدو أن أبا عبيد الله الصنعلي الداعية الإسماعيلي العبيدي كما قضى على الدولة الرستمية في تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجري قضى أيضا على الدعوة الاعتزالية ، فلم نعد نسمع عن جماهير تمتنعها في الجزائر والمغرب ، إنما يلقاها من حين لآخر بعض أفراد من العلماء يعتنقونها .

وكان أبو الحسن القابسي التوفى بالقيروان سنة ١٠١٢/٤٠٣ قد حمل مذهب أبي الحسن الأشرى الكلّاسي إلى القيروان وأشاعه فيها وشاع في الجزائر بعده إلى نهاية هذا العصر ، ومذهبه يقوم على التوفيق بين آراء المعتزلة وأهل السنة ، فإذا قال أهل السنة بالقضاء والقدر في أفعال الإنسان وقال المعتزلة بل الإنسان هو الذي يخلق أفعاله قال إنها لله خلقا وتقديرا وللإنسان كسبا وإرادة ، وإذا قال أهل السنة القرآن أنزل غير مخلوق وقال المعتزلة إنه محدث مخلوق قال إنه قديم وحادث فأفادته دلالات على كلام الله الأزل والدلالات مخلوقة محدثة والمذلولات قديمة أزلية ، إلى غير ذلك من آراءه مثل تفضيل الأنبياء على الملائكة .

وكان يعاصر الأشعرى الماتريدي السمرقندي المتكلم ، ومذهبه مثل مذهب الأشعرى فى التوفيق بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، ولم يشع مذهبه فى العالم العربى إنما الذى شاع مذهب الأشعرى حتى فى يقة الماتريدى فى خراسان ، ومن أكبر مؤيديه هناك إمام الحرمين الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م الذى رأس المدرسة النظامية فى نيسابور ، ويتردد اسم كتابيه البرهان والإرشاد فى أصول الدين فى تراجم عنوان الدراية للغبرنى فى القرنين السادس والسابع وتراجم الكتب التالية . وحاول جزائريون كثيرون أن يكتبوا فى علم الكلام - أو كما يسمى أحياناً علم التوحيد - وخاصة منذ القرن التاسع الهجرى ، وكانت تكتب فيه قصائد وتشرح ، ولعل أحداً لم تثل أعماله من الشهرة فيه ما ناله الحافظ محمد بن يوسف السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠م كما مر بنا فى علوم الأوائل وهو من كبار المفسرين والمحدثين ، ويعد كبير علماء الجزائر فى زمنه ، وقدم له أحمد بن عبد الله الجزائرى قصيدته فى علم التوحيد المسماة باسم « القصيد فى علم التوحيد » فشرحها وشاعت باسم الجزائرية وأيضاً شرح لتلميذه أحمد بن عبد الرحمن الحوضى فى نفس الموضوع أرجوزته : « واسطة السلوك » ، ثم رأى أن يؤلف فى نفس الموضوع فألف فيه ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها ، والعقيدة الوسطى وشرحها ، ثم العقيدة الصغرى وشرحها .

وهذه الأعمال سيطرت فى مباحث علم الكلام على الدارسين منذ وُضِعَها وطوال العهد العثماني لا فى الجزائر وحدها بل فى بلدان المغرب والعالم الإسلامى ، وقد وضعت على العقيدة الصغرى شروح لا تكاد تخصى ، يتقدمها شرح لتلميذه محمد بن عمر الماللى وشرح عمر الوزان فى قسنطينة وتلميذه عبد الرحمن الأخضرى صاحب متن السلم فى المنطق وشرح ابن مريم صاحب كتاب البستان المتوفى سنة ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م وشرح سعيد قدورة للمتوفى سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٦م وشرح مصطفى الرماضى فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى وشرح خليفة القمارى بأخرة من هذا القرن إلى غير ذلك من شروح للعقيدة الصغرى ، سوى ما وراءها من شروح للعقيدتين الآخرين ومن كتب أخرى فى علم الكلام أو علم التوحيد .

وللاباضيين نشاط واضح فى هذا العلم من قديم ، على نحو ما نجد عند عبد الكافى الورجلانى فى القرن الخامس الهجرى ، إذ له « الموجز فى علم الكلام » كتاب فى جزئين ، ولتلميذه يوسف بن إبراهيم الورجلانى « الدليل والبرهان » فى علم الكلام ، ولعمرو بن جميع فيه مختصر باسم « متن عقيدة التوحيد » عُنِيَ به علماء الإباضية وشرحوه مراراً ، ولعبد العزيز الثمينى كتاب « معالم الدين » فى علم الكلام وأصول الدين .

التاريخ^(١)

نلتقى فى التاريخ بكبب مختلفة ومن أوائلها كتاب « أخبار الأئمة الرستمين » لابن الصغير ومعروف أنها دولة لإباضية أقامها عبد الرحمن بن رستم وأبناؤه من سنة ١٦٠ للهجرة إلى سنة ٢٩٦ للهجرة ، وقد أُلْمنا بها فى حديثنا عن تاريخ الجزائر ، وكتاب ابن الصغير ينتهى حول سنة ٢٩٠ فى حكم لمى حاتم يوسف (٢٨١ - ٢٩٤هـ) . ولم يكن ابن الصغير لإباضيا غير أنه يعرض أخبار الدولة وأئمتها عرضا حياديا ويصور ما كان يأخذ به أئمتها الرعية من العدل وما كانوا يحاولونه من ازدهار الأحوال الاقتصادية والفكرية ، كما يصور ما حدث من مناظرات بين المذهب الإباضى ومذهب المعتزلة مما عرضنا له فى غير هذا الموضع . وكان المظنون أن يعنى بعض الجزائريين بتاريخ دولة بنى حماد فى القلعة وبجاية ، فيكتب تاريخها منفصلا ، غير أنه تكفل بذلك البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لابن الخطيب .

أما تاريخ دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان فى تلمسان فقد عُنى بتاريخها وعرض حكامها وأعمالهم مؤرخان : يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنىسى ويتوسط بينهما ابن قنفذ ولكن لا يكتب عن الدولة الزيانية وإنما يكتب عن الدولة الحفصية بتونس . أما يحيى بن خلدون المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م فيؤلف كتابا عن دولة بنى زيان باسم « بنية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور عبد الحميد حاجيات ، والكتاب فى القسم الأول يتحدث عن أصل قبيلة بنى عبد الواد وماضيها والبلاد التى حكموها وعاصمتهم تلمسان ويستطرد إلى ذكر علمائها وصلحاتها وترجم لمائة وتسعة منهم ثم يتحدث عن الدول التى ملكت تلمسان قبل بنى عبد الواد واستقرارهم بنواحيها . وفى القسم الثانى يترجم لمؤسس الدولة بفمراسن وخلفائه حتى استيلاء أبى الحسن المرينى على تلمسان وعودة الحكم إلى بنى عبد الواد . ويخص القسم الثالث بالحديث عن عهد لمى هو الثانى حتى سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م .

وكتب ابن قنفذ القسطنطينى المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٧م كتابا مجعلا عن الدولة الحفصية فى تونس بعنوان : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية . ثم يكتب محمد بن عبد الله التنىسى المتوفى سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٩م كتابا تاريخيا أدبيا بعنوان « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان » وجعله فى خمسة أقسام كبيرة وزعها على أبواب ، والقسم الأول فى سبعة أبواب قدّم فى سنة أبواب منها لتاريخهم بحديث طويل عن أسلافهم ونسبتهم إلى قريش وآل البيت وتاريخ الإدارة فى المغرب . وهى أبواب تسبق الباب السابع الخاص بتاريخ بنى زيان ملوك

(١) انظر فى التاريخ الكب المذكورة خلال هذا الحديث .

تلمسان ، وينتهي القسم الأول في الكتاب ، ويتبعه بأربعة أقسام في السياسة وفي طرف من الأخبار والنوادر من الشر والشر . ونشر الباب السابع من القسم الأول الخاص بتاريخ ملوك بني زيان حتى عصر التوكل (٨٦٦-٨٧٣هـ) المذكور محمود بوعياذ عمقاً له ومعلقاً عليه ومقدماً له .

ونمضى إلى العهد العثماني فيكتب لإبراهيم المرنيني البجائي كتاب عنوان الأخبار فيما مر على بجاية من الأخبار في القرن العاشر الهجري مؤرخاً مامراً بها من الأحداث في استيلاء العثمانيين عليها بعد استيلاء الإسبان ، ويكتب معاصر له يسمى بركات الشريف كلبا يصور فيه هزيمة شارل الخامس أمام مدينة الجزائر واستيلاء خير الدين (برباروس) عليها ويتحدث عنه وعن خلفه من ولادة العثمانيين في القرن العاشر الهجري . والكاتب المذكوران لم ينشرا حتى الآن . ويستول محمد بكداش على مدينة وهران من يد الإسبان سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٨ م فيكتب محمد ميمون عنه وعن هذا الفتح كلبا باسم : التحفة المرضية في الدولة البكداشية ، ويستعيد الإسبان سنة ١١٤٥ هـ / ١٧٣٣ م ويستردها الباي محمد الكبير سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ وتظم في فحه لما قصائد كثيرة .

وتكتب في السيرة النبوية مؤلفات كثيرة في العصور المتأخرة وربما كان أهمها عنوان الأنوار في آيات النبي المختار لعبد الرحمن الثعالبي المتوفى سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م وتظم في الرسول مدائح كثيرة تتناول سيرته وتشرح شروحا مطولة ، ولأحمد البزني في العصر العثماني سيرة نبوية بديدة باسم تنوير السيرة بذكر أعظم سيرة .

ومنذ القرن السابع الهجري تتكاثر كتب التراجم عن العلماء في البلدان الكبرى بالجزائر ، وما نشر منها كتاب « عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية » لأحمد الغبريني المتوفى سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م وينهم كثيرون من علماء المائة السادسة .

ويكتب محمد بن مرزوق جد المرزوقة المتوفى سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٩ م كلبا عن السلطان أبي الحسن المرنيني باسم « للسند الصحيح الحسن في مآثر وعلمان مولانا أبي الحسن » انتهى منه سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م لخص فيه تاريخ الدولة المرنينية ثم أرخ لأبي الحسن تاريخاً مفصلاً . ولا ينبغي إذا قلنا إن أروع ما خلفه الجزائريون في التراث العربي التاريخي والحضاري كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية لأبي الحسن علي الخوازمي التلمساني المتوفى سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٨ م والكتاب نفيس إلى أبعد حد ، إذ يصور تاريخ الحضارة الإسلامية في أقدم عهودها وما يتصل بها في عهد الرسول وصدر الإسلام من الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والكتاب بحق مفخرة من مفاخر علماء الجزائر في العصور الماضية .

^١ ويؤلف لمن القنفذ المار ذكره كتاب الوفيات لأعلام الصحابة والعلماء والمحدثين والمؤلفين استهله بتفان سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ثم رتبته على العقود أو على العشرات في كل مائة يذكر أشهر من توفوا فيها حتى العشرة الأولى أو العقد الأول من المائة التاسعة أو عبارة أدق إلى قبيل وفاته سنة ٨٠٩ وقيل بل سنة ٨١١ للهجرة وكان له كتاب في طبقات علماء قسطنطينة وهو مفقود ، وحقق له الأستاذ محمد الفاسي وأدولف فور كلفه قس الفقير وعز الحقير في رجال من أهل التصوف كثنى مدين شيب وأصحابه . ومن حيث يتكاثر تأليف الجزائريين في المتصوفة كثرة مفرطة ، من ذلك ترجمة ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢/١٤٣٢م للشيخ إبراهيم بن موسى الصنهاجي . وكان الشيخ محمد السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥/١٤٩٠م محدثا وفقها كبيرا وكان فيه نزوع قوى إلى التصوف وترجم له غير واحد من تلاميذه ومن ترجم له منهم أحمد العبادي ومحمد بن عمر اللاتني وسمى ترجمته : « المواهب القدسية في مناقب السنوسية » ولابن سعد المتوفى سنة ٩٠١/١٤٩٥م كتاب النجم الثاقب في الصلحاء والمتصوفة بعامة ، وله كتاب روضة السرين في مناقب الأربعة المتأخرين : محمد الطواري وإبراهيم التازي والحسن لمركان وأحمد الغماري .

ويكتب العلماء في العهد العثماني على الترجمة لمشايع الطرق . ومن أهم كتب التراجم التي تجمع في هذا العهد بين العلماء والمتصوفة كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وهو كتاب نفيس انتهى من تأليفه ابن مريم سنة ١٠١١هـ/١٦٠٢م . وهناك كتابان لا يقلان نفاسة عن كتاب البستان بل يتفوقان عليه تفوقا واضحا ، هما أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به ارتياح ولرباط ، وكتاب نفع الطيب في أخبار الأندلس ولبن الخطيب لأحمد بن محمد المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١هـ/١٦٣٢م وهو يترجم في القسم الثاني من أزهار الرياض لحافظ سبة وفقهها : عياض كما يترجم في القسم الثاني من نفع الطيب لابن الخطيب أما في القسم الأول في الكتالين فيفيض في أخبار الأندلس وتراجمها بحيث يصبح الكتالين موسوعتين تاريخيتين حضاريتين للأندلس على مر التاريخ ، وقد نقل فيهما عن كتب قدقدت أو فقدت الكثير منها مع مر الزمن وقد أشرت في سنة ١٩٥٣ حين نشرت ما بقى من أوراق كتاب المغرب في حلل المغرب من أخبار الأندلس لابن سعيد في مجلدين أنه كاد ينقلهما إلى نفع الطيب ، ومع ذلك تظل له أهمية كبيرة في التعريف بالأندلس وتاريخها الحضاري . وملتقى بعده في العهد العثماني بكثيرين يترجمون لكبار المتصوفة وخاصة أصحاب الزوايا في كتب وأراجيز على نحو ما يلقاها لأحمد بن قاسم البوني بأوائل القرن الثاني عشر الهجري في أرجوزته : الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة (غنابة) وهي أرجوزة طويلة . وللبروني كتاب في تراجم مشاهير النحاة سماه « فتح المستبين في تراجم بعض مشاهير النحاة والفقهاء » .

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

٩

تعرب^(١) الجزائر

ذكرنا - فيما أسلفنا - أنه كان بالجزائر قبل الفتوح العربية الإسلامية عناصر جنسية مختلفة ، جمهورها من البربر ومن نزلوا بديارهم من الفينيقيين والقرطاجيين واليهود والرومان والوندال الألمان والإغريق البيزنطيين ، ثم نزلها العرب ومن انتظم في جيوشهم من أهل البلاد الإسلامية : من إيران والعراق والشام ومصر ، وظلت جيوش متعاقبة تنزلها في المهدين الأموي والعباسي ، كما ظلت جموع متفاوتة من هذه الجيوش تستقر في البلاد المغربية من برقة إلى المحيط الأطلسي محتلة بالسكان وناشرة للإسلام ولغته العربية . وعاملان أساسيان ساعدا بسرعة على نشر الإسلام ولغته هناك ، هما تعاليم الإسلام السمحة التي حررت البربر من ظلم الدول السابقة التي احتلت ديارهم قرونا متزاولة وأرهقتهم بضرائب باهظة مع المصف والبيي الشديد ، وليس ذلك فحسب ، فقد رآوه دنيا قويمًا يسوَّى بين أتباعه في جميع الحقوق ، والعامل الثاني سياسة ولاته وخاصة في القرن الأول الهجري وما كفلوا للبربر من العدل والمساواة بينهم وبين العرب في جميع الحقوق : في الجهاد وفي غنائم الحرب وفي الولاية على القبائل والمدن . وعُني موسى بن نصير الوالي هناك (٨٦-٩٦ هـ) بأن يعهد في الأنحاء التي لم يتم إسلامها حتى عهده إلى فقهاء ومعلمين يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، ودخلت جماعات بربرية كثيرة لعهد في الدين الخفيف ، وانضم كثيرون من البربر إلى جيوشه في فتوح المغرب ، وفتح الأندلس بقيادة قائد منهم هو طارق بن زياد على نحو ما هو معروف . وعُني عمر بن عبد العزيز بإرسال بعثة - كما مر بنا - لنشر الإسلام هناك بأخرة من القرن الأول الهجري . وبتحرف حكام بني أمية - منذ أوائل القرن الثاني - عن جادة الإسلام الرشيدة في حكم الشعوب التي اعتنقت ، وينور البربر في الجزائر وغير الجزائر ، وتقدم إليهم جيوش مختلفة وتظل منها بقايا كثيرة في ديارهم . ويحدث ذلك نفسه في أوائل عهد العباسيين ، حتى إذا ولي يزيد بن حاتم المهلب (١٥٤-١٧٠ هـ) هدأت المغرب في الجزائر وغير الجزائر وعمَّ الأمن والرخاء في البلاد ، ويؤسس إبراهيم بن الأغلب الدولة الأغلبية منذ سنة ١٨٤

(١) راجع النصوص عن ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه .

ويقول ابن خلدون : « في أيامه اتخذت شوكة البربر واستكلوا للقلب وأطاعوا الدين ، ف ضرب الإسلام بجره » ، أى ثبت واستقر نهائيا فى الديار المغربية .

ونمضى إلى القرن الخامس الهجرى ، ويحدث حدث كبير أتمّ تعرب البربر فى الجزائر وغير الجزائر ، فإن المعز بن باديس الصنهاجى حاكم برقة وإفريقية التونسية وشرقى الجزائر للدولة العبيدية الفاطمية فى القاهرة نقض طاعته لتلك الدولة ، وحول الدعوة فى ولايته إلى الخلافة العباسية وأرسل إلى الخليفة العباسى القائم أبى جعفر بن القادر ببيته له ودعا له على منابر القيروان وغير القيروان سنة ٤٣٨ وأرسل إليه القائم بالتقليد وبالخلع ، وعرف ذلك الخليفة العبيدى الفاطمى المستنصر وصمم على الانتقام منه . وكان القرامطة قد اشتبكوا فى حرب سنة ٣٥٩ مع الخليفة الفاطمى العزيز نزار فى فلسطين ومدخل مصر ، وكانت تؤلّزهم قبيلتا سليم وهلال اللتان كانتا تزعجان قوافل الحجاج حول المدينة ، فلما انتصر عليهم العزيز أنزل هاتين القبيلتين فى الصحراء الشرقية بالصعيد بين النيل والبحر الأحمر ، وكانتا تحدّثان غير قليل من الإضرار بسكانه ، فأشار على الخليفة الفاطمى العزيز وزيره اليازورى أن يصطنع مشايخ هاتين القبيلتين وأن يغريهم بالمجرة إلى المغرب مع من يوالونهم من البدو وقال له إن ظفروا بالمعز بن باديس الصنهاجى صاروا أولياء للدولة وعمالا لها بتلك الأنحاء النائية ، وإلا دبّرنا له ما يقضى عليه ، وأعجبت المستنصر الفاطمى تلك الفكرة ، فاستقدم شيوخ القبيلتين وعرضها عليهم سنة ٤٤١ للمجرة فقبلوها ، وفرض لكل بدوى مهاجر بعيرا ودينارا . وعبرت سيولهم النيل سنة ٤٤٢ واندفعت إلى برقة وما وراءها من البلاد المغربية كالجراد المتشرلا يعمرون بشيء إلا أتوا عليه كما يقول ابن خلدون ، واستولت سليم على برقة جميعها وبعض البلدان الشرقية لإفريقية التونسية ، واتجه بنو هلال إلى إفريقية ووصلوا القيروان سنة ٤٤٣ للمجرة ونازلوا المعز بن باديس ، وتمت لهم الغلبة واحتلوا القيروان وغيرها من البلدان التونسية وخربوا المباني وطمسوا معالم الحسن والرواق فيها ، وأهلكوا كثيرا من الزروع فى الريف ، حتى أصبحت يابا ومفاوز كما يقول ابن خلدون . ولما تمّ استيلاؤهم على البلاد التونسية اكسحت سيولهم الجزائر واقتسمتها القبائل الهلالية وبعض عشائر من سليم ، وظلت تتقاتل مع القبائل البربرية هناك فى السهول وخاصة زناتة وصنهاجة وعشائرهما حتى عجزوا عن مدافعتهم ، ونازلوا الناصر بن علّاس الحمادى صاحب القلعة وخربوا جنباها وجناب طينة والمسيلة (المهدية) وغيرها . ويقول ابن خلدون إنهم أزعجوا ساكنى هذه البلدان وكل ما يتصل بها من المنازل والقرى والضياء حتى أصبحت قاعا صافصفا ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى هجر الناصر بن علّاس سكنى القلعة واختط بالساحل مدينة بجاية ونقل إليها ذخيرته وأعدّها لسكنه ، ونزلها بعده ابنه المنصور فرارا من ضيق هؤلاء الأعراس ، واتخذ كثيرون من البربر الجبال والمرتفعات الوعرة حصونا منيعة لهم . أما هم فتمسوا السهول خصبة التى احتلوها واستقروا فيها شمال

البلاد وأواسطها ، وبمرور الزمن اختلطوا بالبربر وصاهروهم . وتبته عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين لهم فنزلهم فى الأربعينيات من القرن السادس حتى إذا تغلب عليهم أخذ يصطغهم هو وابنه يوسف وحفيده المنصور وجنلوا منهم كثيرين أشركوهم فى حرب نصارى الأندلس وألبوا فيها بلاء عظيما ، وأفلوا عشائر كثيرة منهم فى الشمال الغربى لمرآش ، واستوطن كثيرون منهم إقليم وهران وكان لهم فيما بعد أثر عظيم فى مجاهدة الإسبان مع بنى زيان .

وهذه الهجرة الأعرابية الضخمة التى يقول المؤرخون إن عددها كان يزيد عن نصف مليون أعرابى والتى انتشرت فى الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية كان لها فضل عظيم فى إتمام تعرب المغرب واصطبغاه بصيغة عربية كاملة ، ويصور ذلك ابن خلدون فى حديثه عن بعض القبائل البربرية مثل بنى يفرن إذ يقول إنهم « نسوا رطلغة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتخلوا بشعائهم فى جميع أحوالهم » ويقول عن قبيلة هواة إنهم صاروا فى عداد الناجمة (طلاب المرامى) من عرب بنى سليم فى اللغة والزى وسكنى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين فى الشتاء والصيف فى تلالهم قد نسوا رطلغة البربر واستبدلوا منها فصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم . وهو قول يعم جميع البربر فى سهول الجزائر ومنهنا إلا من اعتصم بالجال والأنجاد الوعرة ، أما عامة البربر فقد أصبحوا عربا فى اللغة والدين والزى والعادات وأساليب الحياة والخصال الكريمة من المروءة والفروسية ، أو بعبارة أخرى أصبح المغرب جميعه فى الجزائر وغير الجزائر شعبا عربيا عظيما وتغلغل الشعور برويته فى أعماقه ، مما جعل قبائل البربر فى جميع أنحاء المغرب شرقا وغربا تصطنع لها أنسابا إلى القبائل اليمنية والمضرية وتكلم العربية إلا فى أنحاء من الجبال لتوعر مسالكها وفى بعض جهات نائية اعتنقوا الإسلام وظلوا يتكلمون لغتهم البربرية مع غيرتهم وحبيتهم للدين الحنيف .

ولانبالغ إذا قلنا إن الجزائر - منذ هذه الهجرة الأعرابية الكبرى - أخذت تصطنع العربية لغة هؤلاء الأعراب فى لسانها ، وعمت بين جماهيرها فى الزاب وقسنطينة وبونة (عنابة) والمدن الساحلية التى سكنها هؤلاء الأعراب . والمطلون فيها ظلت نصيحة سليمة طوال قرنين على الأقل ، ثم أخذت تحول حتى فى السنة الأعراب أنفسهم إلى لغة عامة تفتقد للإعراب وكنت كثرتهم فى الجزائر من القبائل الملالية ، ونزلت منها الأتيج فى الشمال ومنها دريد ، وقد نزلوا بين بونة (عنابة) وقسنطينة ، وانتشرت بطونهم غربى قسنطينة ونواحي جبال أوراس ، ونزلت زغبة فى القفار من نواحي تلمسان ، ونزل بنو رياح الملاليون فى قسنطينة بينما نزل بنو عامر فى وهران وأنهاها . ويسهب ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه فى توزيع القبائل الملالية فى الجزائر من بونة إلى تلمسان ، وفى أثناء ذلك يقول : ول هؤلاء الملالين فى الحكاية عن دخولهم إلى إفريقيا طرق فى الخبر يزعمون أن الشريف ابن هاشم

كان صاحب الحجاز وبسمونه شكرين لئى الفتوح أصهر إلى أحد رجالات وشيوخ بنى هلال الحسن بن سرحان فى أخته الجازية ، ولدت منه ولدا سمته محمدا . ثم حدث بينهم وبين الشريف مناضبة ، فأجمعوا على الرحلة من نجد إلى إفريقية ، واحتالوا عليه فى استرجاع الجازية ، وطالبته بزيارة أبويها ، فأزارها إياهم ، ولم يلبثوا أن ارتحلوا به وبها وكسبوا عنه مقصودهم من رحلتهم بموهين عليه بأنهم ياكرون به للصيد والقتل ثم يعودون إلى منازلهم ، وآهم يعمدون فى ارتحالهم ، ولما تبين له أنهم مكروا به فارقهم إلى دار ملكه فى مكة وبين جوانحه من حب الجازية داء دفين ، وكلفت بحبه على الرغم من اقترانها ببعض أبناء عمومتها فى مسيرتها معهم إلى إفريقية ، إذ ظلت تذكره إلى أن ماتت . يقول ابن خلدون إنهم يتناقلون من أخبارها فى ذلك ما يفتى على أخبار قبس (صاحب ليل) ويروون كثيرا من أشعار الحكاية بحكمة الملبى متقنة الأطراف ، وفيها المطبوع والمتحل والصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شيء ، وإنما أخذوا فيها بالإعراب فقط .. والخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون فى روايتها ويستكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب .. وفى هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة وفقدت فيه صحة الرواية ، ولذلك لا يؤتى به ، ولو صحت روايته لكنت فيه شواهد بأيامهم ووقائعهم وحرورهم مع زناته (فى المغرب) وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم ، لكننا لا نتق بروايتها . وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويستهزئ ، وهذا قصارى الأمر فيه ، وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل . والحكاية التى يتحدث عنها ابن خلدون هى حكاية اللالاية المعروفة فى الملحمة المشهورة باسم « سيرة بنى هلال » وتعرف أيضا باسم قصة لئى زيد اللالاي ، وكانت إلى عهد قريب ينشدتها شخص يسميه المصريون باسم الشاعر على ربلية فى مقامى مصر وبلداتها المختلفة . والتاريخ الحقيقى للرحلة اللالاية إلى إفريقية وسببها ذكرناها فيما أسلفنا ، غير أن ما وضع للحكاية أو الملحمة من قصة زواج الجازية اللالاية بشكرين لئى الفتوح أمير مكة الحسمى (٤٣٠-٤٥٣ هـ) يبدو أنه صحيح وقد أنجب منها ابنه محمدا الذى خلفه فى الحكم ، ويبدو أيضا أنها زارت أبويها وعشيرتها حين كانوا يتنوعون الرحلة مع القرامطة لحرب الفاطميين ، وارتحلت معهم . والحكاية أو القصة تجعلها بطلتها ، وتزوى على لسانها أشعارا بدعية ، من ذلك قولها لولدها أو غلامها الصغير ناصحة مرشدة :

ولا خير فى الطفل الصغير إذا نشأ وكلمه رقاذا كثير هَمائِدة
وإما يمت يرتاح من عيشة الرزى ولا يَمُدُّ كالصقر سال مخالبه

وهى تقول لطفلها لا خير ولا نفع فيمن ينشأ نواما كسولا ، يرضى بالجلوس ولا يخرج فى طلب الرزق ، وحرى بالشخص أن يمضى شرقا وغربا طالبا معاشه مقطعا فى ذلك أوعية زاده غير مبق منه شيئا . وإما أن يموت فيرتاح من المعيشة الصعبة الضنك ، وإما أن يموت كالصقر

الجراح بصيده وقد ملأ مخالبه . وينشد ابن خلدون لبعض بني دريد الحلالين من عشيرة الجازية مفخرةً بصاداتها مع حنينه إلى القيروان حين نزلوا بها في أول قدمهم إلى الإقليم رمازها بصرة التي بناها في جنوبها المنصور العبيدي :

دريد سراً البدو للجود منقَع كما كلُّ أرض منقَع المساء خيأها
وهم غرَّبوا الأعراب حتى تعرَّفَتْ بطرُقِ المسال ما يوفى قصارها
وطرأوا طريقَ البارمين ثِيَّة وقد كان ماتقوى المطايا حِجارها

والشاعر يقول دريد الراحلة أشراف البدو ومنقَع الجود ينهل منه كل ظامئ ، وهم أصحاب الفضل في قيادة الحلالين إلى ديار المغرب حتى تعرفوا طرق المعالي المفرطة الطول الشاقة وقد طرأوا أى مهدوا طريق البارمين إلى الجزائر وأنحاء بونة وما بها من ثنيات وممرات في الجبال وكانت المطايا والإبل لا تستطيع السير فيه لكثرة مابه من الحجارة والصخور ، فأصبح مهدداً ذلولاً . والأبيات فصيحة وتجرى على سنن العربية في الإعراب ، ولا ندرى هل أشعار القصص في الحلاية بدأت معربة ثم فقدت الإعراب مع الزمن أو أنها وضعت غير معربة ، ومن المؤكد أنها لم توضع عقب الرحلة والاستقرار في المغرب مباشرة ، بل وضعت بعد ذلك حين أخذت تسود العامية في الأفواه بالقرن السادس وما بعده ، وبها كثير من الأشعار البليغة بما تحوى من العبارات الرصينة والشاعر الرقيقة والصور البديعة . ومن هذا الميراث عن الأعراب ما دخل على اللغة البربرية من ألفاظ عربية سليمة اقترضوها من الفصحى وتبلغ في بعض الأنحاء نحو ثلث اللغة البربرية المتداولة .

ويعقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً في أشعار العرب المستعجمة أو المستحدثة بالعامية لهذه في القرن الثامن الهجري فيقول : « فأما العرب أهل هذا الجيل المستجمعون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء ، ويستتردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام ، وربما هجموا على المنصود لأول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ؛ ثم بعد ذلك ينسبون ، وأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد باسم الأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راوية العرب لأشعارهم . ولهم فن آخر في كلامهم كثير التداول في نظمهم يجيئون به معصياً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة قبله في رويهم ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت (دور) إلى آخر القصيدة شبيهاً بالمرعات والخمسات التي أحدثتها المتأخرون من المولدين . وهؤلاء العرب (البدو) في هذا الشعر بلاغة فائقة ، وفيهم الفحول والمتأخرون

(المتخلفون) . والكثيرون من المتحليين للعلوم لهذا العهد - وخصوصا علم اللسان - يستنكرون هذه الفنون التي لهم إذا سمعوها ، ويمجّون نظمهم إذا أشيد ، ونعتقد أن ذوقهم إنما نبا عنها واستهجنها لفقدان الإعراب منها .. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ماعدا حركات الإعراب في أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر (ساكنة) ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب . وينشد ابن خلدون طائفة من أشعار الملحمية الهلالية على لسان الشريف ابن هاشم يكي الجازية أعت الحسن بن سرحان ، ويذكر ارتحالها مع قومها إلى المغرب وعتابا منه لزوجها ماضى بن مقرب ورتاء بعض شعرائهم للزناتى خليفة ، ويسوق أشعارا أخرى لشعرائهم . ومن الصعب التمثل بآيات منها لأنها غير مضبوطة بالشكل ، ولأن كثيرا من الكلم فيها أصابه غير قليل من التحريف ، بحيث يصعب فهمها ونطقها نطقا سليما . وكلما تقدمنا في الزمن بعد عصر ابن خلدون في القرن التاسع الهجرى يتكاثر هذا الشعر العامى أو الشعبي . ويزداد طغيانه على الشعر الفصيح في العهد العثماني ، وكان ينظم في المولد النبوى وفي الجهاد الحربي للأجانب وفي الأزمات الاقتصادية والأحوال المعيشية . ولسعيد المنداسى مدحة نبوية عامية سماها « العقيقة » عُنى بها غير شارح ، ومن شرحها ابن سحنون . واشتهر بتلمسان في القرن الثاني عشر الهجرى ثلاثة شعراء شبيون هم : محمد بن مسائب وابن التريكي والزناتى ، ولهم أشعار دينية مختلفة ، سوى ما لكل منهم - كما في كتاب تاريخ الجزائر الثقاتى - من رحلة حجازية منظومة .

ومن الحق أن الشعر العامى الشعبى فى الجزائر سواء نظم على لسان البدو من الأعراب أو على لسان أهل الحضر والمدن لم ترجح يوما كفته على كفة الشعر الفصيح ، والجزائر فى ذلك مثل بقية البلاد المغربية والعربية عامة إنما كانت تُعنى الطبقات المثقفة فيها عناية أكبر وأوسع بالشعر الفصيح . ومن الحق أيضا أن الهجرة الأعرابية الكبرى إلى الجزائر استطاعت - منذ القرن الخامس الهجرى - أن تفرض لغتها العربية على سكان البوادر وسفوح الجبال والسهول والحواسر بفضل امتزاج هؤلاء الأعراب بالبربر فى المعاش وعن طريق المصاهرة ودفعهم إلى التخاطب بالعربية مما جعل اللغة البربرية تتفقر وتراجع أمامها إلى الجبال والماعقل النائية المنيعة ، ومع ذلك لحقتها العربية هناك واستولت على ألسنة كثيرين من أهلها ، بل لقد استولت على اللغة البربرية هناك فأشاعت فيها كثيرا من ألفاظها ، مما جعل سكان الجزائر - منذ أواسط القرن الخامس الهجرى أو بعد ذلك بقليل - يعدون شعبا عريبا تاما فى دينه الحنيف ولغته وثقافته وآدابه وأشعاره ، مع ما اقتبسوه من معيشة هؤلاء الأعراب ومن تقاليدهم وعاداتهم فى حياتهم الاجتماعية ، وكل ذلك استقر وثبت ثبوت الرسايات .

كثرة الشعراء

طبعي أن لا نلتفى بشعره كثيرين في الجزائر طوال القرن الأول الهجري وشطر غير قليل من القرن الثاني إلا ما كان يجري على ألسنة بعض نزلائها من العرب ، حتى إذا تأملت الدولة الرسمية في تاهرت (١٦٠-٢٩٦هـ) وأخذت تعنى بتعليم العربية ونشرها بين الجزائريين ، حينئذ أخذ جيل ناشئ يتقنها ويتقن نظم الشعر ، وكان من حكام هذه الدولة من أحسن نظمهم ، مثل الإمام أفلح بن عبد الوهاب الرنسي (٢١١-٢٤٠هـ) وله قصيدة طويلة في الدعوة إلى العلم والتعلم وبين منزلة العلماء . وكنت الأسرة الرسمية جميعا تهتم بالحركتين العلمية والأدبية ، وأخذ الشعر يتدفق على بعض الألسنة ، وأنتجت الجزائر في عهدها أكبر شاعر عرفه في القرن الثالث الهجري ، ونقصد بكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م وكان له ديوان شعر كبير ، وعاصره شاعر يسمى ابن حزاز التاهرتي .

وكان للقسم الشرقي من الجزائر - حينئذ - تلبا للدولة الأغلبية في القيروان ، ثم تبع الدولة العبيدية مع الجزائر جميعها ثم أصبح تلبا للدولة الصنهاجية وحكامها في القيروان ، ولذلك كان شعراؤه يرحلون إلى العاصمة المذكورة حين تنفتح ملكاتهم الشعرية ، إذ كانت مركز الحركة الأدبية في الدولة ، وقد يظلمون بها ويتخذونها موطناً لهم ، كما حدث لابن رشيق ، وهو ما جعلنا نسلكه بين شعراء القيروان لأن مرماه الأدبي تكامل فيها . ومنهم من نظن أن مرماه الأدبي تكامل في الجزائر ثم هاجر منها إلى القيروان أو غيرها ، مثل محمد بن الحسين الطنبي الذي هاجر بأسرته الطنبية إلى قرطبة في الأندلس واستقر بها . ومن نزل القيروان بعد نضجه الأدبي في موطنه بالجزائر عبد الكريم النهشل المتوفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م وهو من المسيلة (المحمدية) ومنهم ابن قاضي ميلة المعاصر للنهشل ، والحسن بن محمد التميمي المعروف باسم ابن الربيع المتوفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م وهو من تاهرت ومثله علي بن أبي الرجال الفلكي المشهور المتوفى سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م فهو أيضا تاهرتي .

وكان حماد بن بلكين قد عقد له أخوه المنصور على مدينتي أشير والمسيلة (المحمدية) وضم إليهما أيام ابن أخيه باديس المغرب الأوسط وأخذ يفكر في الاستقلال عن باديس والقيروان واختط مدينة القلعة سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م وتم له استقلاله سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م كما مر بنا في الفصل الأول ، واستكثر حماد في القلعة من المساجد والفتاوى ، واتسمت في التمدن ، وكان مثقفا قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدل ، وعنى في قلعة بالحركة العلمية ، ورحل إليها من النور القاصية - كما يقول ابن خلدون - طلاب العلوم . وتبعه تبارؤه وأحفاده في الدولة الحمادية بالقلعة ثم يجاية منذ نقل إليها المنصور بن علناس (غلاء الناس) عاصمة الدولة

سنة ٤٨٣ ومع ذلك ظل للقلعة نشاطها العلمى والأدبى حتى الحقب المتأخرة من هذا العصر ، كما ظل نفس النشاط لِبجاية بعد قضاء دولة الموحدين على الدولة الحمادية سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م . ومن المؤكد أن القلعة وبجاية أنتجتا كثيرا من الشعراء والعلماء فى عهد الدولة الحمادية ، وداعت للحركين العلمية والأدبية شهرة غير قليلة مما جعل غير عالم وشاعر يرحل إليها مثل ابن حديد الصقلى الذى أقام فى بجاية فترة لعهد المنصور الحمادى (٤٨١-٤٩٨هـ) وله فيه وفى وصف قصوره مدائح بديعة . وإلى المنصور التجأ عز الدولة بن صمادح بعد قضاء يوسف بن تاشفين المرابطى على دولة أسرته فى مدينة المرية ، فأكرمه وقلده ولاية دلس على البحر المتوسط غربى بجاية وظل بها إلى وفاته ، وكان شاعرا وله شعر يشكو فيه من الدهر وأحداثه . ومن كبار الشعراء الذين نزلوا بقلعة بنى حماد واستوطنوها أبو الفضل يوسف بن محمد التوزرى التونسي ، وبها تصدر للتدريس حتى وفاته سنة ٥١٣هـ/١١١٩م وهو صاحب قصيدة الاستغاثة المشهورة باسم المنفرة السائرة فى الآفاق . ومعروف أن العماد الأصبهاني ترجم فى كتابه « الخريدة » لشعراء العالم الإسلامى فى عصره بالقرن السادس الهجرى ، ومن ترجم له من شعراء الدولة الحمادية فى عهدهما الأخير يوسف بن المبارك وله مدحة جيدة فى أمره تلك الدولة ، وابن أبي الملبح الطيب شاعر الأمير الحمادى : العزيز (٤٩٨-٥١٥هـ) وطيبه الخاص ، وعلى بن الزيتونى وقشد له مقطوعة فى مدح قاض ، والفتية عمر بن فلفلوك كاتب الأمير الحمادى يحيى بن عبد العزيز (٥١٨ - ٥٤٧هـ) وقشد له مقطوعة غزلية . وفى السنة المذكورة سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م قوّضت دولة الموحدين بقيادة أميرها عبد المؤمن دولة بنى حماد نهائيا فى بجاية والقلعة وإقليمهما ، وظلت الحركة الأدبية والعلمية مزدهرة بهما على الرغم مما أحدثت على بن غلّة من اضطراب فى الجزائر ، إذ فاجأ أسطولوه الذى جلبه معه من ميورقة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م بقيادته مدينة بجاية واستولى عليها . وطوال النصف الثانى من القرن السادس أخذ بعض متصوفة الأندلس ينزلون مدن الجزائر ، وأخذت تشيع فيها منذ هذا التاريخ حركات صوفية واسعة ، ونمتها عند الجزائريين الطرق الصوفية السنية التى شاعت بديارهم : شاذلية وغير شاذلية ، ومن كبار نزلائها من صوفية الأندلس أبو مدين شعيب نزيل بجاية ، وسمع به المنصور أمير الموحدين أو خليفتهم ، فطلبه ، وفى طريقه إليه توفى بتملسان سنة ٥٩٤ . ومنهم أبو عبد الله الشاذلى الصوفى نزيل تلمسان ، ومنهم أيضا يحيى الدين بن عربى وقد قام بسياحات متعددة فى بلدان المغرب والجزائر ، ونزل بجاية ولزم أبامدين شعيب الصوفى فترة ممجبا به وبطريقته الصوفية ، ثم ولّى وجهه نحو المشرق : مصر والحجاز والشام . ومن شعراء الجزائر فى عهد الموحدين الحسن بن الصكون القسنطينى الشاعر المبدع المتوفى بأوائل القرن السابع الهجرى ، ومعاصره محمد بن علي بن جبل الوهراتى قاضى تلمسان ثم قاضى الجماعة بمراكش توفى سنة ٦٠١ وله مدائح فى الخليفة المنصور للموحدين ، ومنهم أبو عبد الله بن الحجام

التلمساني المتصوف المتوفى سنة ٦١٤ ومحمد بن علي بن حماد القلمي المشهور بمرثية للدولة الحمادية المتوفى سنة ٦٢٨ .

وتنقسم الجزائر - منذ العقد الثالث في القرن السابع الهجري - الدولة الحفصية في الشرق : قسنطينة وبجاية وما إليهما ، ودولة بني زيان أو بني عبد الواد في الغرب : تلمسان وما إليها . وينزلها من صوفية الأندلس ابن سبعين نزيل بجاية ، كما ينزلها أبو الحسن الششتري ، ويقال إنه تلمذ لأصحاب أبي مدين شبيب ومريديه واعتنق طريقته الصوفية ، ولقى ببجاية ابن سبعين وأعجب به ولزمه فترة ، ورحلا إلى المشرق . وكان لهما ولمن سبقهما من صوفية الأندلس إلى النزول بالجزائر وكذلك لشيوع الطرق الصوفية وانتشارها بها أثر عميق في موجات التصوف التي عمت في البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، وبلغت - منذ هذا القرن - شعر صوفى كثير على ألسنة الجزائريين . وظلت الدولتان : الحفصية والزيانية تتقلبان في الجزائر طوال ثلاثة قرون ، ومن الشعراء لمهدما في القرن السابع الهجري عبد الله بن نعيم الشاعر الصوفى المتوفى سنة ٦٣٦ ومحمد بن أحمد الأريسي وله غزليات وخمريات ، وعبد الله بن محمد بن علوان وهو من شعراء المديح النبوى ومحمد بن يحيى بن عبد السلام وهو من شعراء المديح ، ومحمد بن الحسن القلمي المتوفى سنة ٦٧٣ وهو من شعراء الزهد والمديح النبوى وعبد الحق بن ربيع الصوفى المتوفى سنة ٦٧٥ . وكل هؤلاء الشعراء بجائيون ، ومثلهم عبد المنعم بن محمد التلمساني نزيل بجاية وهو من أهل مدينة الجزائر وله مشاركة في المديح النبوى توفى سنة ٦٨٠ ولإبراهيم بن أحمد بن الخطيب الشاعر الصوفى وعبد الرحمن بن أبي دلال وهو من شعراء المديح . ومن شعراء تلمسان عفيف الدين التلمساني الصوفى المتوفى بدمشق سنة ٦٩١ وأبو العيش الخزرجى محمد بن عبد الرحيم وله في التصوف شعر كثير .

ويفتح القرن الثامن بمحمد بن محمد المعطار ودواوينه النبوية المتوفى سنة ٧٠٧ وهو من مدينة الجزائر ، وكان يعاصره في تلمسان ابن خميس المتوفى سنة ٧٠٨ وله شعر تصوف وزهد ومديح كثير ، وعاصره في مليانة أحمد بن علي الملياني المتوفى سنة ٧١٤ وله فخر بديع ، ومن شعراء هذا القرن محمد بن عمر المليكي من مدينة الجزائر المتوفى سنة ٧٤٠ وله غزليات متنوعة ، وابن مرزوق الخطيب المتوفى سنة ٧٧٠ وله مدائح نبوية وغير نبوية وابن أبي حجلة التلمساني نزيل القاهرة المتوفى سنة ٧٨٠ ومعاصره يحيى بن خلدون شاعر أبي حمو موسى الثاني ومؤرخ الدولة الزناتية المتوفى في نفس السنة . ويظهر شعر المولدات الذي ينشد في مولد الرسول ﷺ ومن كبار ناظميه شاعرا الدولة محمد بن يوسف الثغرى ومحمد بن أبي جمعة التلمساني . ومن شعراء القرن أيضا الأمير الزياني أبو حمو موسى الثاني (٧٦٠-٧٩١هـ) وله شعر فخر كثير وكان ابنه أبو زيان محمد شاعرا ، توفى سنة ٨٠١ . وتنتهى في القرن التاسع

وبعده حتى العهد العثماني بشعراء كثيرين ، ومن كبارهم ابن فنفذ القسطنطيني المتوفى سنة ٨٠٩ . وله أشعار دينية ، وابن مرزوق الحفيد التلمساني المتوفى سنة ٨٤٢ وله منظومات تعليمية كثيرة ، والصوفي الكبير إبراهيم التازي المتوفى سنة ٨٦٦ وله أشعار صوفية بديعة ، والرياضي المشهور محمد بن أحمد الحبّاك المتوفى سنة ٨٦٧ وله منظومة فلكية في الإسطرلاب ، وأبو عبد الله بن البنا وله غزل بديع . وأحمد بن عبد الله الجزائري المتوفى سنة ٨٨٤ وله منظومة في علم التوحيد ومرتبة بديعة لأستاذه عبد الرحمن الثعالبي ، ومحمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥ وله منظومتان في علم التوحيد باسم السنوسية الكبرى والسنوسية الصغرى ، ومحمد بن عبد الجليل التنسي مؤرخ دولة بني زيان المتوفى سنة ٨٩٩ وله مدحة طويلة في الأمير الزياني المتوكل وأبنائه ختم بها تاريخه ، وكان يعاصره الشهاب بن الخلوفا القسطنطيني المتوفى أيضا سنة ٨٩٩ شاعر السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان ، وعاصرها محمد بن عبد الرحمن الحوضي المتوفى سنة ٩٠٠ ويشتهر بعرية له في أستاذه السنوسي ، وله غزل ومدح نبوي وغير نبوي ، وكان يعاصره محمد بن عبد الكريم المغيلي المتوفى سنة ٩٠٩ وله - كما أسلفنا - قصيدة مشهورة أرسل بها إلى السيوطي في الدفاع عن علم المنطق وضرورة تعلمه . ومن معاصريه إبراهيم بن أحمد الفعيجي صاحب قصيدة في الصيد مشهورة ، وعني ابن أخيه بشرحها سنة ٩٨٦ وسمى شرحه : « الفريد في تقييد الشريد » وسعرض للقصيدة وشرحها في غير هذا الموضع . ونمضى إلى العهد العثماني وتلقى في القرن العاشر الهجري بمحمد بن علي بهلول المجاجي المتوفى سنة ١٠٠٢ وله شعر صوفي كثير ومنظومات علمية ، وتلميذه أحمد الماتجلائي مرثية بديعة فيه وتنسب خطأ إلى سعيد قدورة ، وللماتجلائي مدح نبوي كبير وديوانان وموشحات . وتلقى بعبد الرحمن بن موسى المتوفى سنة ١٠١١ وله قصائد متوسطة في الحث على الجهاد وفي الاستغاثة بالله ورسوله . وكان يعاصره محمد بن عبد الرحمن البوني المتوفى سنة ١٠١٨ وله شعر كثير في الخمر ، وتلاههم أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ وكان يعاصره يحيى بن أبي راشد وله أشعار في الجهاد وفي وصف مدينة تلمسان ، ومحمد بن رأس العين المتوفى حوالي سنة ١٠٦٠ وهو من شعراء الموشحات والهزل والمجون . وجاء في إثره عبد الكريم الفككون صاحب منشور الهداية في نقد المتصوفة المتوفى سنة ١٠٧٣ وله ديوان في المدح النبوي . وكان يعاصره محمد القوجيلي المتوفى سنة ١٠٨٠ وله مدح ورتاء وغزل . وبلغنا في القرن الثاني عشر الهجري محمد بن أحمد البوني المتوفى سنة ١١١٦ وله منظومات علمية كثيرة كثيرة مفرطة ، ومحمد بن محمد بن علي منفي الجزائري الحنفي وله شعر كثير في جهاد الإسبان وانتصار بكداش عليهم وقتحه لوهران سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٨ م وقد قيلت فيه وفي هذا الفتح مدائح لشعراء جزائريين كثيرين سجلها ابن ميمون في كتاب له سماه « التحفة المرضية » . ومن شعراء هذا القرن أيضا أحمد بن عمار الفتى المالكي المتوفى في أوائل

القرن الثالث عشر الهجرى ، وله موشحات نبوية بدعية ، ومنهم أحمد بن سحنون شاعر الباي محمد الكبير صاحب الفتح الثاني لوهرا ن بعد أن استردّها الإسبان سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م وتنتهى بهذا الفتح النهائى لوهرا ن كثير من الشعراء الجزائريين وسجل أشعارهم ابن سحنون فى كتابه « الثغر الجملى » .

٣

شعراء المدح

يُعَدّ المدح أهم موضوع استغرق صفحات الشعر العربى على مر العصور ، وقد نشأ أول ما نشأ عند العرب حول التفضى ببطولات فرسانهم وشجعانهم فى الحروب ومكارم ساداتهم ونصالحهم الحميدة فى السلم والحرب ، وظل لكل عصر أبطاله وساداته وأمرأؤه وحكامه ، وتفنن الشعراء فى وصف البطولات الحرية والخصال الكريمة وحكم الخلفاء والحكام العادل الرشيد على مدى العصور الإسلامية المتعاقبة . وطبيعى أن يكون للجزائر حظ فى هذا الوصف منذ تكونت فى تاهرت الدولة الرسمية الإباضية ، وكان من أمرائها من يجرى الشعر على ألسنتهم مثل أطلع بن عبد الوهاب (٢١١ - ٢٤٠هـ) وله قصيدة - كما مر بنا - فى العلم والتعليم والترغيب فيهما ، وهى رمز لعناية تلك الدولة بالحركتين العلمية والأدبية فى تاهرت ، ويلقنا من مبكرى شعرائها أحمد بن ضح التاهرتى وابن حزاز ، وأهم شعرائها - حيث - بكر بن حماد ، وتصبح تاهرت - مثلها الجزائر جميعها - تابعة للدولة العبيدية فى المهدية ، ويأمر المهدي العبيدى قائده على بن حمدون الزناتى بتأسيس مدينة المسيلة (المهدية) واتخاذها عاصمة لإقليم الزاب فى الجزائر بدلا من طينة من سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م . وكان قد نشأ تنافس بين عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى فى الأندلس وبين المهدي العبيدى وخلفائه العبيدين فى البلدان المغربية . ونرى أسرة طينية تهاجر من موطنها إلى قرطبة سنة ٣٣١ برعاية مؤسسها بالأندلس محمد بن الحسين الطنبى ويوحب عبد الرحمن الناصر به ومن قدم معه من أهله ، ويصبح من شعرائه وطلقاته ، ويكثر من مدحه ، حتى ليقول ابن حبان إن مدائحه فيه تملأ ديوانا كاملا ، ويقره بعده ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٥هـ) حين استولى على صولجان الخلافة بعده ، وكان كلما قدم على المستنصر عيد مدحه بقصيدة طويلة ، ونراه فى عيد الفطر لسنة ٣٦١ ينشده قصيدة جمية مهبها الناس لما كان يريده المستنصر من تولية ابنه هشام - وكان لا يزال طفلا - ولاية العهد قائلا له (١) :

(١) نظر للقتس لان حيان (تحقيق د . عبد الرحمن الهجى) ص ٨٣ .

حَصَنَ بِهِ دِينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
لَجَّتْ بَيْتَهُ النَّفْسُ فَأَخَذَهَا
عَوْدُ النِّيَّةِ وَالْخِلَافَةِ أَصْلُهُ
وَارِثُ الْمَشَارِقِ بِاسْمِهِ فَلَقِّنَتْهُ

وَأَقْبَمَ بِهِ أَوَدَ الرِّسَالِ الْأَعْوَجِ
مَنْ وَاجِبَ الْأَشْيَاءِ لَوْ لَمْ تَلْهَجْ
وَالْفَرْعِ مِنْ تِلْكَ الْعُرُقِ الْوُشَجِ^(١)
مَا بَيْنَ مِصْرَ إِلَى بِلَادِ الرُّجَجِ^(٢)

وواضح أنه كان يضع نفسه في خدمة الخلافة الأموية بالأندلس ومناصرتها والاحتطاب في حبليها إلى أن توفي سنة ١٠٠٣/٣٩٤ م. وكان قد هاجر معه إلى قرطبة أخوه علي وتجب لبنا له هو أبو مضر زيادة الله ، وعنى بترتيه وأصبح - فيما بعد - نديما للمنتصوريين أبي عامر حاجب هشام المؤيد ثم لولديه من بعده عبد الملك المظفر وأخيه عبد الرحمن الملقب بشنجل ، وحين قام بالحجابة بعد وفاة أخيه أرغم الخليفة هشاما المؤيد على أن يعهد إليه بولاية العهد ، ولما دخلت الوفود عليه للتهنئة كان مما هنأه به^(٣) :

تَخَيَّرَ اللَّهُ وَالسُّلْطَانُ لِلْأَمْرِ
وَلِيَّ عَهْدٍ بَرَاهَ اللَّهُ مِنْ كَرَمِ
اخْتَارَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ يَحْفَظُهُ
وَرَحْمَةً يَمْلُؤُ الْقَدْرَ وَالْهَمَّ

وكان صنع شنجل المذكور سببا في القضاء عليه وفي فتنة قضت على الدولة الأموية في الأندلس ، وكان حريا بالشاعر أن يترث وأن لا يكيل للشاء لشنجل ، إذ مضى يمدحه بقصائد أخرى. وكان لزيادة الله ابن يسمى عبد الملك عني بتأديبه ويقول ابن سعيد بترجمته له في كتابه المغرب إنه كان إماما في علم الحديث وكان شاعرا وأشعر منه ابن أخيه علي بن عبد العزيز ، وفيه يقول الحجازي إنه أشعر بنى الطنبى وأشد له ابن سعيد أشمارا في الخمر والزلزل.

وإذا كانت طلبة عاصمة الزاب القديمة أهدت إلى قرطبة أسرة بنى الطنبى في القرن الرابع الهجري وكل ما نظمته أفرادها من الشعر فإن قرطبة بدورها لم تلبث بعد نزول تلك الأسرة فيها بقليل أن أهدت إلى للسيلة عاصمة الزاب الحديثة وواليتها من قبل العبيدين منذ سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥ م جعفر بن علي بن حمدون وكان قد خلف فيها أباه الذي أسسها - كما مر بنا - وكنا قد اتسعا فيها بالعمران وأصبحت مدينة شامخة وقصدها الشعراء والعلماء ، وعن اختارته قرطبة لقصد جعفر فيها شاعرها الفذ ابن هاني ، وله فيه مدائح رائعة خللت اسمه ، ومن قوله فيه^(٤) :

لِلْمَشْرِقَاتِ النِّهَارَاتِ ثَلَاثَةٌ
الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجَعْفَرُ

بولاية العهد في أعمال الأعلام لابن الخطيب ٩٤/٢
وسامعها ولقب الشاعر محرف .
(٤) راجع أشعر ابن هاني في ديوانه المطبوع بالهند .

(١) الرشح : للفتنة للشهامة .
(٢) بلاد الرشح : بلاد بالقرب من مدينة كابل في أفغانستان .
(٣) انظر البيتين التاليين وأمثالهما أخرى في تهفة شنجل

ويقول مخاطباً له في إحدى مدائحه :

لَمْ تُدْنِي أَرْضُ إِلِكْ وَإِنَّمَا
وَرَأَيْتُ حَوْلِي وَفْدَ كُلِّ قَبِيلَةٍ
جِئْتُ السَّمَاءَ فَفَتَحْتُ أَبْوَابَهَا
حَتَّى تَوَهَّمْتُ الصَّرَاقَ الزُّبَابَ^(١)
وَالْمَسْكَ تَرْبَاتَهَا وَالرِّيَاضَ جَنَابَهَا

وسمع بالشاعر ومدائحه في جعفر الخليفة المميز العبيدي الفاطمي فطلبه منه ، ولم يستطع مخالفته فجهزه إليه ، وأحسن حينما بعد عن المسيلة والزاب كأنما فارق فردوسه ، وصور ذلك في إحدى قصائده منشداً :

خَلِيلُ أَيْنَ الزُّبَابُ مِنِّي وَجَعْفَرُ
وَقَبْلِي نَأَى عَنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ آدَمُ
وَجَنَاتُ عَذْنٍ بَنَتْ عَنْهَا وَكَوْثَرُ
فَمَا رَاقَهُ مِنْ جَانِبِ الْأَرْضِ مَنَظَرُ

وهو يتحسر على فراقه للزباب وجعفر ، فقد فارق جنة الخلد ونهرها « الكوثر » كما فارقهما أبوه آدم قبله ، ولم ينفعه ندمه ولا أسفه ولا تحسره ، ولا راقه بعدهما مشهد في الأرض ولا منظر . وإذا كانت الجزائر أهدت إلى الشعر العربي شاعرا كبيرا في القرن الثالث الهجري هو بكر بن حماد فإنها أهدت إليه في النصف الثاني من القرن الرابع شاعرين كبيرين هما عبد الله بن محمد التنوخي المعروف باسم ابن قاضي مدينة ميلة الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة فسطاطية ، واشتهر بمدح فائده مدح بها وإلى صفلية يوسف ثقة الدولة وسنخسه بترجمة . والثاني عبد الكريم النهشلي المسلي شاعر المنصور الصنهاجي وابنه باديس ، وسفرد له ترجمة . وقادت الدولة الحمادية في القلعة وبجاية طوال القرن الخامس الهجري حركة أدبية وعلمية نشطة ، وارتحل إلى أمرائها الشعراء لينحوهم الجوائز والصلوات من ثمال ابن الفكاه أبي القاسم عبد الخالق القرشي القيرواني ملاح الناصر بن علناس (٤٥٤ - ٤٨١ هـ) وفيه أنشد^(٢) :

قَالَتْ سَمَادٌ وَقَدْ زُمْتُ رَكائِبُنَا
مَهْلًا عَلَيْكَ فَأَنْتَ الرَّائِعُ الْغَادِي
فَقُلْتُ تَاللَّهِ لَا أَفْكَ ذَا سَفَرٍ
تَجْرِي بَيْنَ الْفَلَكَ أَوْ يَحْدُو بَيْنَ الْحَادِي
حَتَّى أَقْبَلَ تَرْبُ الْعَزْ مُتَصَرًّا
بِالنَّاصِرِ بْنِ عَلْنَّاسِ بْنِ حَمَادٍ

وكان ابنه المنصور (٤٨١ - ٤٩٨ هـ) كاتباً شاعراً وفيه يقول ابن خلدون : « هو الذي حضر ملك بني حماد وصير بجاية دار المملكة وجدد قصورها وشيد جامعا وتأنق في اختطاط المباني وتشيد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين ، فبنى في القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام وبنى في بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميون » . ونزل به عبد الجبار بن حمديس شاعر صفلية الفذ فقلده صلات سنية وقلده ابن حمديس قصائد باهرة ،

(٢) يُعْمَلُ الْأَعْلَامُ لِابْنِ الْخَطِيبِ (طبع الدار البيضاء)

٩٦/٣ زمت ركايبنا : شدت بالزمام استمداذاً للرحيل .

(١) الزباب : أرض سهول في وسط الجزائر وراء جبال

الأورلس شرقاً .

منها رائية بديعة يصف فيها أحد قصوره وما امتد أمامه من بهو يتوسطه حوض كبير به نافورة تحملها مجموعة من الأسد المذهبة تجم المياه البلورية من أفواهها إلى بركة عجيطة بها ، وفوقها شجرة ذهبية ترصع أغصانها بطيور بمنقارها مياه كمتائر الآليء الصافية ، يقول^(١) :

قصر لؤلؤك قد كحلت بنورو
أذكرتنا الفردوس حين أربتنا
فلك من الأنلاك إلا أنه
وضراغم سكت عرين رئاسة
وكأنما غشى النصار جسونها
وبديعة الثمرات تعبر نغوها
قد صوفحت أغصانها فكأنما
خرنس تمد من الصفاح فإن شدت
أعنى لعماد إلى المقام بصيرا
غرغا رفعت بناءها وقصورا
حفر البدور فأطلع النصورا
تركت خمر الماء فيه زئيرا^(٢)
وأذاب في أفواهها البلورا^(٣)
عينائ بحر عجائب منجورا^(٤)
قبضت بهن من الفضاء طورا
جملت تفرّد بالمياو صفيرا

وليات القصيدة جميعها درر نفيسة على هذه الشاكلة ، حتى ليقول المقرئ بعد إتشاده لها في كتابه « نفع الطيب » : « لم أر لهذه القصيدة في لفظها ومعناها من نظير » . ومعروف أن العماد الأصمهاني ترجم في كتابه الخريدة لشعراء العالم العربي في القرن السادس الهجري ، وقد ترجم لنفر^(٥) من شعراء الدولة الحمادية نقل ترجماتهم عن كتاب المختار من النظم والنثر لابن بشر بن المهدي القيرواني مع نعتة لهم بأنهم من المقلين ، وهم ثلاثة : علي بن الزيتوني الشاعر ويوسف بن المبارك وابن أبي الملبح الطيب ، وقال عن علي بن الزيتوني إنه شاعر المغرب الأوسط (الجزائر) وأديبه ، وألمعيه وأريبه ، وهو صاحب توشيح وتوشيع وتقصيد وتقطيع ، وأتشد له قطعة من قصيدة في مدح قاض ، وفيها يقول :

نهاه عن محاربه نهاه
وشد به عرى الإسلام حتى
أمين عدله غمر البرايا
لقد ظفرت يد غلفت نداءه
ورقره لخالفه نقاه^(٦)
رأينا النجح واتعدت غراه^(٧)
فما يخشى على أحد قضاة
ومن ناواه قد تبث يده^(٨)

المغرب) طبع تونس ١٨٠/١ وما بعدها .

(٦) الهوى : العقل .

(٧) عرى الإسلام : مواثيق التي لا تنفصل عنه .

(٨) تبث : خسرت خسرا كبيرا .

(١) ديوان ابن هديس (تحقيق د. إحسان عيسى) .

(٢) عرين الأسد : مأواه .

(٣) النصار : الذهب .

(٤) مسحورا : مملوعا .

(٥) انظر فيهم وفي الأشعار التالية الخريدة (قسم

وكان يوسف بن المبارك من موالى بنى حماد ، وله فيهم مدائح مختلفة ، من ذلك قوله فى بعض قصائده يخاطب الأسرة :

ما منكم إلا همائم حَوَى مناقباً جُلَى ومجدا صُراح^(١)
وتبذلون الرُفْدَ يوم النُدَى وتُسرون الحرب يوم الكفاح^(٢)
وترفمون الجار فوق السُّها وتكرمون الضيفَ مهما استباح^(٣)
لا زلتمُ تجنون زهر العُلا فى معرضِ العزِّ بمحذِّ الصفاح^(٤)

أما ابن أبى المليلح فكان اشتهاره بالطب أكثر من اشتهاره بالشعر إذ كان طبيباً ماهراً ، ويقول العماد إن له مقطعات فى الغزل جليلة للحب سائلة للـب ولم يرو منها شيئاً له ، إنما روى قطعة من قصيدة يهنيء بها الأمير عبدالله بن العزيز الحمادى فى أحد الأعياد واصفا فيها خيله ، يقول:

وجالت به جُرْدُ المذاكى كأنها عذارى ولكنْ نطفهنَّ تَحْمُمُ^(٥)
وصفرلة كالتبرِّ العتيقِ صقيلةً ودماء يتلوها كَمَيْتٍ وأذهمُ^(٦)
وأشقرلو يجزى مع الترقِّ جهده لكان له يوم الرُّهانِ التقدّم
وحامٌ لواءُ النصر يتبع رايته بها العِزُّ معقودٌ عليها منمَّ^(٧)

ويترجم العماد فى نفس الجزء السالف من خريدته لشاعرين من شعراء القلعة الحمادية قدما إلى مصر فى أواخر عهد تلك الدولة هما محمد بن عبدالله بن زكريا القلى الأصم وعلى بن إسماعيل القلى ، أما محمد فينقل عن كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان للرشد بن الزبير المؤلف حول منتصف القرن السادس الهجرى أنه قال عنه: « كان جيد الشعر ، وارى^(٨) زناد الفكر » وتُشد له قطعة فى وصف فوارة من قصيدة فى مدح كرامة بن المنصورين الناصر بن علناس وفيها يقول:

وحاكبة بالماء لَوْنُ اضطرابه قوامها وحنا حين يبدو ويوبص^(٩)
قضيْبٌ لُجَيْنٍ ألع الصُّقْلُ مَنته وأخلصه فى السُّبْكِ من قِلْ مَخْلَص^(١٠)
تسامى قليلاً ثم عاد كأنه جمانٌ حواليا على الماء يَرْقُصُ^(١١)
كان نوالاً من يمين « كرامة » يمدُّ به إذ لا ترى الماء يَنْفُصُ

(١) جل : عظيمة ، صراح : خلاصا .

(٢) الرُفْد : العطاء . تُسرون : توفدون .

(٣) السُّها : كوكب صغير غفى الضوء . استباح :

استبح فى الطلب .

(٤) الصفاح : السيوف .

(٥) المذاكى : الخيل اللدنية . التحسُّم : صوت الخيل

دون المال .

(٦) كَمَيْت : آخر ضارب إلى السواد .

(٧) حام : دُر .

(٨) وارى : متقد .

(٩) يوبص : يبرق ويلم

(١٠) لجين : فضة .

(١١) جمان : لؤلؤ .

وينقل العماد عن ابن الزبير أنه كان مخبوس الجذ^(١) وأنه ورد إلى الإسكندرية ومصر (القسطلط) وأقام بهما زمنا لا يجد من يروى ظمأته ويسد خلته^(٢) ، وعاد إلى المغرب ونزل بيني الأشقر في طرابلس الغرب ، واستدحهم بقصيدة ميمية فأحسنوا صلته وعظموا جازته ، ومن قوله في مدحهم :

وفى ذا الحيتى المأسول بأمر خائف وفى ذا الندى المعبول ينفع حائم^(٣)
عقدتكم على أحسبكم بفعالكم كما عضدت أسر البناء الدعائم^(٤)
على كل أرض من نذاكم مياهم وفى كل نادر من نناكم مواسم^(٥)

وأما على بن إسماعيل القلمى فينقل العماد عن الرشيد بن الزبير أنه كان من الواردين أيضا على مصر وأن الخليفة الفاطمى الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) استوزر أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى ، وكان هو وأبوه وجده سنيين ، ويدو أنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، فأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا فى خطب يوم الجمعة للحافظ وأن يسقطوا من أذانهم للصلاة : « حى على خير العمل » شعار الفاطميين ، وتنبه أنصار الفاطميين وشيعتهم فقتلوه ، ويقول ابن الزبير إن على بن إسماعيل القلمى نظم فى هذا الحادث قصيدة مدح بها الحافظ ومن قوله فيها :

وليل صحبت السيف يرعد حده وقد شاب فيه مفرق الصعدة السمر^(٦)
إلى أن بدا وجه الصباح كنه لحافظ دين اللس آيت الكبرى

ويعلق العماد على وصف الخليفة الحافظ بأنه حافظ لدين الله قائلا : « أستغفر الله من ذلك فقه لم يكن حافظا وإنما كان مضيقا » .

وتقضى دولة الموحدين وزعيمها عبد المؤمن على الدولة الحمادية فى بجاية وتصبح الجزائر تابعة لها ، ويشتهر بها حيثند شاعران : الحسن بن على بن عمر القسنطينى المعروف باسم ابن الفكون وسنخسه بترجمة ، ومحمد^(٧) بن على بن مروان بن جبل الممدانى الوهراتى الأصل الناشئ بتلمسان ، وكان فقيها ناهيا تولى قضاء تلمسان ثم استقدمه المنصور الموحدى (٥٨٠-٥٩٥ هـ) لقضاء الجماعة بمرآكش وظل حميد السيرة مشهورا بالعدل فى أحكامه ، وعزله المنصور بعد فترة ، وأعاد ابنه الناصر إلى أن توفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م ومن مدائحه للمنصور قوله :

(٦) الصعدة : لقناة .

(١) الجد : الحظ .

(٧) انظره فى بنية الرواد ليحيى بن خلدون ١١٣/١

(٢) خلته : حاجته .

والمعجب للمراكشى ص ٢٦٤ و ٣١٢ والكلمة

(٣) ينفع حاتم : يروى ظمأه .

لاين الأبار رقم ١٠٦٣ .

(٤) عضدت : أعتم .

(٥) مياهم : جمع ميسم : علامة وأثر .

أَسِيدَتَا يَا بَنِي الْإِمَامَيْنِ أَمْرُكُمْ مَنْوُوطٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مَا عِنْدَهُ مَعْدَلٌ
نُغَيِّرُكُمْ لِأَنَّ الْحَقَّ أَنَّ ظَهْرَهُ وَنَاصِرَهُ فِي اللَّهِ مَا كَانَ يُخْذَلُ
مَلَأْتُمْ بِسِلَاطِ الْأَرْضِ عَدْلًا وَمَا بَقِيَ فَأَنْجَارَكُمْ فِيهِ تَسِيرُ وَتُنْقَلُ

ويؤسس أبو زكريا منذ سنة ٦٢٥ بتونس الدولة الحفصية وتتبعها بجاية وقسنطينة وشرقي الجزائر إلى ما بعد مليانة ، بل حتى أحيانا إلى مدينة الجزائر شمالا وحتى مدينة ورقلة جنوبا ، وكانوا يتخذون للمدن الكبرى : قسنطينة وبجاية وبونة ولاية حفصيين . وظلت لبجاية أهمية كبيرة طوال القرن السابع الهجري ثم خلفتها قسنطينة أو بعبارة أدق نازعتها الأهمية ، فقد ظلت في كليهما حركة أدبية وعلمية نشطة ، على الرغم من أنه لم تنشأ فيهما ولا في شرقي الجزائر عامة دولة كبيرة كدولة بني حماد في بجاية التي قضى عليها عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين ولا كدولة الزيانيين في تلمسان التي سلم بها بعد قليل ، ولا يلقانا شعر مديح يتعلق بصداقات مثل قول محمد بن يحيى بن عبد السلام في صديقه علي بن سيد الناس وعشيرته^(١) :

شَمْسُ السَّعَادَةِ لَأَسَا النَّبْرَاسِ حَلَّتْ بِأَفْقِي عَلَى بَنِي سَيْدِ النَّاسِ
مِنْ مَعَشَرٍ بِذُلِّ النِّوَالِ شِعَارِهِمْ وَهُمْ الْأَسْوَدُ لَدَى احْتِدَامِ الْبَاسِ
فَالْبَيْتُ رِذَاءُ الْفَخْرِ جِرْرُ ذِيْلُهُ وَاتَّعَمَ بَطْيِبُ الْعَيْشِ وَالْإِنْسَانِ

وأهم شاعر مديح أنتجه شرقي الجزائر في عهد الدولة الحفصية شهاب الدين بن الخلوف القسنطيني شاعر السلطان أبي عمرو عثمان ، وسنخصه بترجمة عما قليل .

وتؤسس بن تلمسان الدولة الزيانية منذ سنة ٦٣٣ ويقود يُغَمْرَاسَن مؤسسها وأبناؤه وأحفاده نهضة علمية وأدبية عظيمة فينشئون المدارس ويكثرون في مجالسهم من مناظرات العلماء بين أيديهم ، ويتخذون المفتين من كبار الفقهاء كما يتخذون الأقطاب ويتغنى بمدحهم الشعراء ويجزلون لهم في العطاء ، ومن أول ما يلقانا من ذلك قصيدة لشاعر يُغَمْرَاسَن حين هاجمه السعيد الموحدي صاحب مراكش سنة ٦٤٦ وانتصر عليه بغمراسن ، وفيها يقول مهتاله بالانتصار^(٢) :

بُشِّرِي بِعَاجِلِ فَتْحٍ أَوْجِبِ الْغُرْسَا وَأَسْفِرِ الدُّهْرُ عَنْهُ بَعْدَ مَا عَبَسَا^(٣)
فَتَحْ تَبَجَّسْتَ الْأَنْوَاءَ صَادِقَةً بِوَدْفِهِ وَمَحَسَّتْ أُنْوَارُهُ الْغَلَسَا^(٤)
فَتَحْ تَفْتَحْ بَابُ السَّعْدِ عَنْ كَتَبِ عَنْهُ وَتُجْزِ فِيهِ الْيُمْنُ مَا لَمَسَا^(٥)
فَتَحْ جَرَى فِي الْوَرَى مَجْرَى الْحَيَاةِ فَقَدْ سَرَى فَمَا جَزَ مَنَا النَّفْسَ وَالنَّفْسَا

(١) نبحت : تفجرت . الأنواء : الأمطار ، ودق المطر : شديده . الغلس : ظلمة آخر الليل .
(٢) كعب : قرب .
(٣) أسفر : انكشف . عس : فطَّب وجهه ونجَّه

(١) عنوان المدابة ص ٣٤٣ .
(٢) انظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان للتسي (تحقيق محمود بوعباد) ص ١١٩ .
(٣) أسفر : انكشف . عس : فطَّب وجهه ونجَّه

والقصيدة جيدة وفيها بشير الشاعر إلى تطور الأحداث في الحرب ومقتل السعيد الموحدي ويشيد بشجاعة الجيش التلمساني وبأس فرسه ، وكان من جملة الذخائر التي استولى عليها يَمُراسن من محلة الأمير الموحدي السعيد والتي بعد بها صيته وضخم ملكه كما يقول التنسي العقْدُ النجم المشتمل على عشرات من خبزات الياقوت والدرر الثمينة بل على مئات كما يقول ابن خلدون في تاريخه ، وعُضاد^(١) الزمرد ، وأنفس من ذلك وأعظم مصحف عثمان بن عفان الذي خطه يمينه ، وكان قد صار إلى بني أمية ، ونقل إلى عبد الرحمن الداخل في قرطبة فوقفه بجامعها وغشاه بصفائح الذهب ونظم في مواضع منها لآلئ نفية وأحجار ياقوت وزمرد . وكان أبناؤه يقدمونه أمامهم في أسفارهم قائمين بحقه إلى أن كان من نعم الله على يمراسن أن حظى به ، إن صح ما قاله يحيى بن خلدون وغيره من المؤرخين . ولا تلبث تلمسان أن تنجب الشاعر البارح ابن خميس كاتب أبي سعيد عثمان الأول ابن يمراسن (٦٨١ - ٧٠٣ هـ) وشاعره ، وسنفرد له ترجمة . وكان يعاصره ابن أبي حجلة الذي ترجمنا له في الجزء الخاص بمصر من هذه السلسلة ، وكان قد رحل في بواكير حياته إلى الحج واستوطن مصر وولى إحدى مشيخات الصوفية وكان يزور على أصحاب الوحدة من الصوفية ، وله مدائح نبوية متعددة وكب أدبية متنوعة ، منها سكردان السلطان أي إثناء السكر ، وديوان الصلبة أهداهما للسلطان حسن المملوكي ، مضمنا فيهما بعض مدائحه فيه من مثل قوله في الكتاب الأخير :

ملكٌ أسودُ الغاب تحذرُ بأسَهُ لأن ملوك الأرض طُرّاً تحاذرُهُ
وأى كُماةٍ لم يرغهم نزائِلُهُ وأى مكانٍ ما علته منابرُهُ

ولعل حاكما من حكام الدولة الزيانية لم يمدح كما يمدح أبوحمو موسى الثاني (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) الذي خلص تلمسان من حكم المرينيين واستعادها لأسرته ، وكان أدبيا فذاً وشاعراً ماهراً ونهضت تلمسان في عهده نهضة علمية وأدبية عظيمة وأحاطت به كوكبة من الشعراء ألم بها وبتدائحها فيه التنسي في كتابه : « راح الأرواح فيما قاله أبوحمو وقيل فيه من الأمداح » وسنخصه بترجمة بين شعراء الفخر ، ومن مداحه وكتابه محمد بن صالح شقرون وأبو الفضل المصامى ومحمد بن قاسم ، ومن مداحه أيضا محمد بن أبي جمعة التالاسي أحد أطباة ، وفيه يقول في قصيدة^(٢) :

مطاع شجاعٌ في الوغى ذو مهابة	حسامٌ على الباغيين في الأرض قد سُلَا
له راحةٌ كالنيت ينهلُ وذَقْها	وصارمٌ نصرٍ مرهفُ الحدِّ لأفلا
إمامٌ جباهُ الله ملكاً موزَّرا	فلا مَلِكٌ إلا لَمَسْرَتِهِ ذَلَا
من الزبابِ وافاتنا عزيزا مظفرا	يجرُّ من النصر المنسوط به ذَمْلَا

(١) العضاد : الحلية توضع في العضد .

(٢) بنية الرواد ١ / ٩٠ .

لطاقه كل الأنعام تبادرت
فيلمد من وافي وبأونع من رلى
لقد جبر الله البلاد بملكه
به ملكنا أنا به ملكنا عدلا

.والقصيدة بديعة وقد استهلها التلاسى بوصف طبيعة تلمسان الجميلة ، ونوه بوجود قبر الصوفي الكبير فى مدين شيب فيها ، وعاد إلى الإشادة بحسنها وأنها جنة الدنيا ثم أخذ فى مدح أبي حمو واستيلائه على تلمسان من يد الدولة المرينية فهرا ومبادرتها إلى عقد الصلح . وله موشحة أشدها للمقرى فى أزهار الرياض يجمع فيها بين مدحه ومدح الرسول الكريم ، ومن مدحه له فيها^(١) :

مَنْ لَمْ يَزَلْ يَسْمُو إِلَى الْعَالَى كُلِّ حِينٍ
ذَلِكَ أَبُو حَمُو المولى أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ
طَاعَتُهُ غَنَمٌ نَلْنَا بِهَا دُنْيَا وَدِينِ

وكان أبو حمو استر في تلمسان الاحتفال بليلة مولد سيد المرسلين ، وكان المنشد يستهلّ الخفل بإشاد مدحه النبوية ، ثم يظل ينشد طويلا ما رُفِعَ إليه من مدائح شعره البلاط فى أبي حمو وفى الرسول الكريم ، وتسمى تلك القصائد باسم المولديات ، وظل ذلك تقليدا بعده ، وسترجم لشاعرين من شعرائه عما قليل ، هما يحيى بن خلدون ومحمد بن يوسف الثغرى . ومن تولى مقاليد الحكم بعده ابنه أبو زيان محمد الثانى (٧٩٦ - ٨٠١ هـ) وكان كلنا بالعلم والأدب - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - وراجت سوقهما فى عهده ، وكان شاعرا كما كان عالما ، وتهادى مع السلطان الملوكى برفوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) والطريف أنه وجه إلى برفوق مع هديته قصيدة من نظمته استهلها بتصوير أشواقه وحبينه إلى زيارة المصطفى والباق المقدسة ، ومن قوله بها فى مدح السلطان برفوق^(٢) :

مَلِكٌ بِهِ نَامَ الْأَنْبَاءُ وَأُنْتُ سَلُّ الْمَخَافِ، لَا يُخَافُ سِلُّ
وَالْمَلِكُ ضَخْمٌ وَالْجَنَابُ مَوْئِلٌ وَالْفَضْلُ جَمٌّ وَالْعِطَاءُ جَزِيلٌ
وَالصَّنْعُ أَجْمَلُ وَالْفَخَارُ مَوْئِلٌ وَالْمَجْدُ أَكْمَلُ وَالْوَفَاءُ أَصِيلٌ^(٣)
بِاخْدَامِ الْحَرَمِينَ حَقُّ لَكَ الْهَنَاءُ وَحَبْلُكَ مِنْ رَوْحِ الْإِلَهِ قَبُولُ

ومن أتمش الأدب فى أيامه بعده فهو مالك عبد الواحد الزيلى (٨١٤ - ٨٢٧ هـ) ويقول
التنسى إن الأدباء جلهوا إلى بهله يملكون من كل حَدَبٍ^(٤) فينقلبون بُجَرٍ^(٥) الحَقَابِ ، ظافرين

(١) نوهل الرضى ٢٤٧/١ .
(٢) تلخ بهي زيان التنسى ص ٢٢٥ .
(٣) موكل : أصيل .
(٤) يملكون من كل حدب : يسرعون من كل طريق .
(٥) بجر الحَقَابِ : يملون الحَقَابِ ، كتابة عن كثرة العطاء .

بجزيل الرغائب ، ويضرب مثلا لما دحجه من غير التلمتين قصيدة لشاعر فاسي يسمى على الشَّاب يهته فيها بعض فتوحه قائلا^(١) :

ملك تجلّل بالمهابة وارتدى وسما فدان له الزمان الأستد
كم يثّ آراؤه من مشكلو واللّه يكفل ملكه ويؤد
ملك أبي الرحمن إلا نصره فمن الذي يخفي سنأه ويخمد

وربما كان أهم حاكم زيني بتلمسان بعده التوكل (٨٦٦ - ٨ هـ) ويعني الفقيه التسي بوضع كتاب أرخ فيه له ولأسرته - كما مر بنا - سماه نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، وأنهى حديثه فيه عنه بقصيدة في مدحيه ومدح أبنائه الستة ، وفيه يقول^(٢) :

حوى في عباه من وثاقه رأيه مع الحزم ما لم تحوه اللّم الشّط^(٣)
هو البحر جوداً من جميع جهاته فمروفيه لجّ وإحسانه الشّط
وكل بني الآمال ساعون غموه كذا كل من أضناه من دهره قنط^(٤)
وبرز من بين الملوك مجلياً وأعطاه ربّ العرش فوق الذي أعطوا

وتضعف الدولتان الزيرية والحفصية مع أوائل القرن العاشر الهجري ويستولى فردينند ملك إسبانيا من الدولتين على الثغور الشمالية المهمة للجزائر . ويتصدى له خير الدين (بربروس) وعروج ويستخلصان منه مدينة الجزائر سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م وما يزال خير الدين ينازله مستولياً منه على الثغور الشمالية ما عدا المرسى الكبير وهران ، ويضيف إقليم الجزائر إلى الدولة الشمالية ، ويخلفه عليه ابنه حسن ، ولا يزال الجزائريون يستحثونه على منزلة الإسبان ، ويسترجع منهم في سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م المرسى الكبير والجزء الأعلى من وهران ، ويهته الشاعر عبد الرحمن بن موسى بمثل قوله^(٥) :

هنيأ لكم باشا الجزائر والغرب بفتح أساس الكفر مرسى قُرَى الكلب
وإفكاك ربي فاتحاً لحصونهم وكهفاً منيعاً ذا عتوً وذا ضَرْب

ويريد بالكلب شارل الخامس ملك إسبانيا وكان قد ساق إلى الجزائر حملة كبيرة ، فحقها البابلياريك حسن . وتظل وهران مع الإسبان ، وما يزال الشعراء يستحثون الولاة العثمانيين في فتحها من مثل محمد بن عبد المؤمن الذي يستحث الداى « باب حسن » على فتحها في حامية طويلة منشداً :

(١) قسط : جور وظلم ، وهي من لفاظ الأضداد .

(٢) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن

مريم ص ١٣٢ .

(٣) التسي ص ٢٣٨ .

(٤) التسي ص ٢٦٥ .

(٥) اللّم الشّط : المخطوط فيها سواد الشعر بياضه .

نادتك وهران فلبسُ بَداها واتزل بها لا تقصدن سواها
واستدع طائفة العساكر نحوها يمزونها وليزلوا بفناها
أضحى الصليب مؤيدا والدينُ قد درستُ معالهُ فليست تراها
فاذعُ الفزاة لغزوها مستجدا واتهض إليها واتزلن مرساها

وعلى شاكلته محمد القوجلي .. وسنخصه بكلمة . ويتولى محمد بكداش مقاليد الولاية سنة ١١١٨ هـ/١٧٠٦ م فيعظم الأمل في نفوس الجزائريين أن يحقق لهم أمنيتهم في فتح وهران ، ويهتته يحيى بن ثني راشد مشيدا به في مثل قوله :

ملك تفرّد بالكمال ولم يكن لكماله في السالفين مثال
دانت له الأيام طرأ مثلما دانت للبيث الغابة الأشبال
خضعت لسلطوته الملوك وسلّمت لجلاله الأمراء والأقبال^(١)

ويكثر الشعراء من استشارة بكداش . ويدور العام الأول من حكمه ، ويفتح وهران عنوة سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٧ م وكان أدبيا يجمع الشر والخطابة والشعر ، وتبارى شعراء الجزائر والمغرب في تهنته بهذا النصر العظيم ، وجمع محمد بن ميمون ما نظم فيه من شعر منذ ولايته في كتابه « التحفة المرضية في الدولة البكداشية » وجعله في ست عشرة مقامة . ومن شعرائه أحمد بن قاسم الزيوني ومحمد القوجلي والمستغامي وابن علي الذي هنأه تهنته حارة مصورا كيف يسحقهم سحفا لا يفي ولا يذر بمثل قوله :

إسام سقى الكفار كأس منبئة لهم شبة بالنمل والسيف حاطم
ومزقهم في الأرض كل ممزق فزعمهم - بعد العماره - طاسم^(٢)
وعاد لوهران السيرة فخرها وعاد إليها عهدُها المتفادم

ويتوفى بكداش سريعا سنة ١١٢٢ هـ/١٧١٠ م . ويسترد الإسبان وهران وتظل في حوزتهم حتى سنة ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ لعهد الباي محمد الكبير ، فيفتحها نهائيا ، وكانت الحياة الأدبية نشطت لعهده والتف حوله غير شاعر مثل أحمد القرومي ومحمد بن الطيب المازري وأحمد بن عمار ، ومن أهمهم أحمد بن سحنون كاتبه ، وله في فتحه لوهران أرجوزة طويلة افتتحها بقوله :

حمدا لمن آزر نصرَ الدين ودان ناصرِه أسنى الدّين
وفتح الأقطار بالجهاد حتى غدت لبنة المهادر

وشرح الأرجوزة شرحا أدبيا تاريخيا سماه : « الثغر الجماني في لبثام الثغر الوهراني » وصف فيه الفتح وسيرة الباي والشعراء الذين مجّدهه وبعض أشعارهم في تهنتته بالفتح ،

(٢) طاسم : دارس .

(١) الأقبال : جمع قبل : ملوك اليمن .

ووصف منشأته العمرانية وخاصة الجامع الكبير الذى شاده والمدرسة الملحقة به وفيها يقول^(١)
أحمد القروى :

وترى المدرّس قد علا كرسه يُلقى على العلماء حبّ الجوهري
نُحويه مدرسة غدت آثارها نُحيه بالعلم الشريف الأشعري

وكانت عقيدة الأشعري قد شاعت فى البلدان المغربية - مثل العراق والشام ومصر - منذ القرن الخامس الهجرى . ويعترف ابن سحنون فى « الثغر الجمائى » بضعف الشعر فى زمنه لغلبة العجمة على الألسنة ، فصار الناس يتغنّون بالملاحون (العالمى) وبه يهجون ويمدحون ، ويضيف أن الشعر الفصيح شاع فيه الكسر فى الأوزان والاختلال فى المباني والمعاني .

ويكثر فى العهد العثماني مدح التلامذة لشيخوهم على نحو ما يلقانا عند محمد القوجيلى فى مديحه لأستاذه على بن عبد الواحد الأنصارى ، وسنفرد له ترجمة عما قليل . ويكثر الشعر المتبادل بين العلماء فى الجزائر وبينهم وبين علماء تونس والمغرب الأقصى ، وحرى أن نتوقف لترجم لبعض شعراء المدح .

عبد^(٢) الكريم النهشل

ولد ونشأ فى مدينة المسيلة (المحمدية) بالجزائر الشرقية فى أرض الزاب ، وفيها كان مرباه وتلمذته لشيخوهم فى الأدب وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، مما جعله يترك بلدته إلى القيروان العاصمة ، ولا يلبث أن يتنظم فى دواوين الدولة الصنهاجية ، ويقال إنه كتب لحميم بن باديس بن المنصور ، غير أنه كتب للمنصورين بلكين من قبله ثم لباديس من بعده وأصبح شاعرهما . ومربنا أن له فى الشعر والنقد كتابا سماه المتع وأن ابن رشيق نقل عنه فى كتاب العمدة فى « صناعة الشعر ونقده » وذكره مرارا وترجم له فى كتابه الأنموذج ومما قاله عنه أنه : « كان شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيراً بأيام العرب وأشعارها بصيرا بوقائعها وآثارها » ويدل كتابه المتع على ثقافة واسعة بالشعر سعة لا حدود لها كما يدل على ذوق أدنى مرهف مع البصر بنقد الشعر وأحكام النقاد عليه . ويقول ابن رشيق إنه توفى بالقيروان أو مدينة المهدية سنة ١٠١٤/٥٤٠٥م وتشد له قبياتا من قصيدة فى مدح المنصورين بلكين وما ذكر فيها من هدية أرسلت إليه من الخليفة الفاطمى العزيز نزار سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م وكان بها طائفة من

(١) انظر تاريخ الجزائر الثنائى للدكتور نبي الفاسم
(٢) انظر فى ترجمة عبد الكريم النهشل المراجع التى
سبق ذكرها فى مامش ص ٨٩ .

الخيّل الكريمة والإبل البخاتىّ النجبة وحمارا مخططا من حر الوحش وفلا ضحما ، ووصفها
 النهشلى جميعا وصفا بارعا ، استهله بقوله :

هتَكَ أَمِيرُ الْجُودِ غَيْرُ هَدِيَّةٍ تَقْدِمُهَا الْإِيْمَانُ وَالْيَمْنُ وَالْفَخْرُ

ومضى يصف المدينة ، وكان حريا ببلن رشيق أن ينشد شيئا من مديحه الذى كان يرفع فيه
 براعة فائقة كما تشهد بذلك بآلية له فى المنصورين ولكن أنشد منها طائفة كبيرة فى كتابه
 المنع ، وفيها بصور هية مجلسه منشدا :

ومجلس موقور الجلالة تنشئ عيون الورى عنه وينبو خطبها
 ترى فيه رفع الطرف خفضا كلما لحاظ الرجال رية تستريها
 إذا حكمتها ظلت نواسج عبقري حواسد مدسوسا إلى عتليها
 على ملك تهنذى إلى مكرماتيه عفاتل أشعار يرف شأليها
 همام دعت كفاه قاصية العلا فلباه منها صفوها ولبلها

فهو مجلس محفوف بالجلال حتى لتنشئ عنه العيون مهابة ويتمثر الكلام فى الأنواء وينخفض
 الطرف رية يستشرها . وإذا حاك قصيدته الرائعة فيه ظلت نواسج عبقري تحسده على إحسانه
 فيها إحسانا يفوق كل وصف ، وما تزال نفائس الأشعار تترف إليه ، ولله لهما تستجيب إليه
 ذروة العلا فينال منها صفوها ولبلها الخالص ويقول :

إذا ورد المنصور أرضا تهللت وجوه رباها واستهل رباها^(١)
 إذا اغرمت الآفاق بلى سماؤه نراها بأيد ما يجف رغبها^(٢)
 كأن الموالى الزرق عنه مضارها وخضر السحاب من نداء غلبها^(٣)
 فمن يولس سعدا ينله ومن يرد به شقوة تخلع عليه ثيابها
 يحل بنا - ما حلها - البر والتقى ويخضر من بعد اصفرار جنبها

فما ينزل المنصور أرضا حتى تمتلئ رباها بشرا ويسقط بها الغيث مدرارا ، وما إن تغير
 الآفاق وتجف الديار حتى يهطل عليها من سمائه ما يروها ويحلبها أرضا سهلة خصبة . ويقول
 كأن أسنة العوالى أو الرماح الزرق من مضائه وعزمه ، وكأن غيث السحاب المنهمر من نداء
 وكرمه الفياض ، وإن من يمنحه سعدا ينله ومن ينزل به شقاء يصبه ، وإن أى أرض يحل بها
 يحل فيها التقى والرحمة والربيع الزاهى ، ويمضى قائلا :

وما بلد لم يؤتلك الطوع أهلها بآنية أن لأنتك مضلها
 تحط بها الأسد الضوارى خواضعا لديك ولوان الكواكب غلبها

(٣) العوالى : الرماح . حباب السحاب : الأمطار
 المنهرة .

(١) الرباب : السحاب .
 (٢) الرغب بفتح الراء : الأرض اللينة السهلة .

ولو أنها عاصتك غير مجيبة
تهلك آفات الخطوب فتتهي
أجابتك من تحت السيوف رقابها
ولاتتهي عن خطيئتها
وماحك أحناء الضلوع بقافها
وخيلك تلمور النفوس شرابها^(١)

وهو يقول للمنصور إن بلدا لم تستسلم لك ولم تأتك طاعة أهلها لا تأمن أن تدك هضابها دكا كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وإن الأسد الضارية المفترسة بها لتحط لديك خواضع مهما كان غابها وغيلها بعيدا ولو أنها أعلنت عصيانك لأجابتك رقابها من تحت السيوف ذليلة خاتمة ، وإن الخطوب - مهما عظمت - لتهلك ، بينما أنت لتهاب خطة ، إذ لا تزال ترم الخطط ، وتلك رماحك لا تزال تضرب في أحناء الضلوع ، ولا يزال شراب خيلك دم الأعداء . والقصيدة مكتوبة بلغة جزلة رصينة وكأنها تفرغ الأذان قرعا بموسيقاها اللجة ، وكثما تمتلئ برعد قاصف . ويدون ريب كان عبد الكريم النهشلي شاعرا مبدا .

عبد^(٢) الله بن محمد التوخي (ابن قاضي ميلة)

تقع ميلة في الشمال الغربي لقسطنطينة والجنوب الشرقي من بجاية ، وبها نشأ عبد الله بن محمد التوخي في بيت علم إذ كان أبوه قاضيا ، ولذلك اشتهر باسم ابن قاضي ميلة ، ويقول ابن رشيق إنه صاحب أباه إلى جزيرة صقلية ، فافتصل عن طريقه بوالها ثقة الدولة (٣٧٩-٣٨٨ هـ) وكان حسن السيرة ، ضبط صقلية وساس رعيته سياسة عادلة حبته إليها ، ودوخ الروم واستقامت له فيها الأمور ، وكان كريما كرميا فياضا فقصده كثيرون من كل فج ، فأكرمهم وفي مقدمتهم قاضي ميلة . وكان ابنه عبد الله شاعرا محسنا ، فمدحه بقصيدة فائقة بارعة ، فحرف منزله ومنزلة أبيه وأجزل صلته ، ويبدو أنهما لم يمكنا طويلا بصقلية . وأشاد بلبن قاضي ميلة من ترجموا له ، فابن رشيق يقول فيه : « شاعر لسن مقتدر يؤثر الاستعارة ويسلك طريق ابن أبي ربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات ، وله في الشعر قدم سابقة ومجال متسع ، وربما بلغ في الإغراق والتعمق إلى فوق الواجب ، وهو لهج بذلك طالب له » . ويقول ابن بسام فيه : « ضرب في الأدب بأعلى قدح واضر عنه على أوضح صبح » . ونوه ابن خلكان بغايته في ثقة الدولة ، ويقول أحبيت إثباتها لحسنها وغربتها ، وأشدّها . وهو يستهلها بغزل حوارى لصاحبه له التقى بها محرمين في الحج ، وهو غزل بديع سذكر طرفا منه في غير هذا الموضع ، وخرج منه إلى مديح ثقة الدولة وإلى صقلية في يوم عيد من أعيادهم ، وفيه يقول :

ص ٢٠٩ ولبن خلكان ١٥٩/٦ راجع ٨٤٣/٥

والذخيرة لابن بسام ٥٢٩/٤ .

(١) اللغاف : مضرب الرماح . تلمور : دم .

(٢) انظر في ابن قاضي ميلة نموذج الزمان لابن رشيق

أَغْرُ قُضَاعِي بِكَادِ نَوَالُهُ
سَعَى وَسَعَى الْأَمْلَاكِ فِي طَلَبِ الْعَلَا
وَيَقْظَانِ شَابَ الْبَطْشِ بِالْبِرِّ وَالتَّقَى
حَسَامٌ عَلَى مَنْ نَاصَبَ الدِّينَ مَصْلَتُ
يَسَائِرِهِ جَيْشَانِ : رَأَى وَقِيلَ
مَطْلٌ عَلَى مَنْ شَاءَهُ فَكَانَمَا
لَكثَرَةُ مَا يَدْعُو إِلَى الشُّكْرِ بِجِحْفٍ^(١)
فَقَازَ وَأَكْدَوَا إِذْ أَخْفُ وَأَقْظَفُوا^(٢)
بِكُنْيَسِهِ مَا يُرْجَى وَمَا يُخْشَوْ
وَسَتَرٌ عَلَى مَنْ رَاقِبَ اللَّهَ مُغْدِفٌ^(٣)
وَيَصْجِهَ سَيْفَانِ : عَزَمَ وَمَرْهَفُ
عَلَى حَكَمِهِ مَرْفُ الرَّدَى يَتَصَرَّفُ

وهو يقول إن كثرة نواله وعطائه تُكَلِّفُ من الشكر ما لا يكاد يطلق لعظم ما ينثر من أمواله على الناس ، وقد سعى وسعى الملوك من حوله في طلب العلا ففاز وخابوا إذ أسرع فسبقهم وأبطأوا فتخلفوا ، وإنه ليقظان دائما يجمع بين البر والتقوى والبطش الشديد ، ففي كفيه ما يرجى من الجود ويخشى من البأس العنيف ، وإنه لحسام مسلول على أعداء الدين وستر مسبل على أوليائه ، يرافقه جيشان من حزمه وجنده ، وسيفان : سيف مرهف وسيف من عزمه ، وكأنما ينزل صرف الملاك على رأيه ويتصرف على حكمه ، ويدعوه الله أن يرعاه :

رَعَى اللَّهُ مَنْ تَزَعَى جَمَى الدِّينِ عَيْتُهُ
وَمَنْ وَعَدَهُ فِي مَسْرَحِ الْحَمْدِ مَطْلَقُ
وَمَنْ يَضْرِبُ الْأَعْدَاءَ هَبْرًا فَتَشِي
رَمَاهُمْ بِمَجَرٍّ ضَعْفَعَ الْأَرْضَ رَزَهُ
كَانَ الرُّدْبِيَّاتِ فِي رَوْنِقِ الضُّحَى
يَعُودُ الدُّجَى مِنْ بَيْضِهِ وَهُوَ لَيْبِضُ^(٤)
وَيَحْمَى جَمَى الْإِسْلَامِ وَاللَّيْلُ أَغْضَفُ^(٥)
وَارِعَادُهُ فِي ذِمَّةِ الْحَلَمِ مَوْقُ
صَنَادِيدُهُمُ وَالْبَيْضُ بِالْهَامِ تَقْدَفُ^(٦)
كَانَ الرُّوَالِي مِنْهُ بِالْبَيْسَلِ تَذَلُّفُ^(٧)
أَرَاقِمُ فِي طَامِرٍ مِنَ الْآلِ تَرْحَفُ^(٨)
وَيَدُو الضُّحَى مِنْ نَفْعِهِ وَهُوَ أَكْلَفُ^(٩)

وهو يدعو الله أن يحمى حامى الدين والإسلام والليل أشد ما يكون ظلاما ، الوافى بوعده والمسلك بوعده يمسك به حلمه ، وإنه ليضرب الأعداء ضربات متوالية والسيوف تقذف بالرهوس إذ رماهم بجيش كثيف تهتز الأرض تحت أقدام خيله حتى لكان الروالى تقدم إليها ، وكان الرماح أرقام ترحف في أمواج من السراب ، وشاب الدجى ، وبدا الضحى كلفا مغبرا في احمرار لكثرة النقع وغبار الحرب ، ويقول :

- (١) أى يكلفهم ما لا يطيقون .
(٢) أكّدوا : خابوا . أخف : أسرع . أقظفوا : أبطأوا .
(٣) مصلت : مسلول . مغدّف : مسبل .
(٤) أغضف : مظلم شديد الإظلام .
(٥) هبرا : ضربا . البيض : السيوف .
(٦) مجر : جيش كثيف . رزه : أضواته . تذلف : تسير مطقة .
(٧) الردييات : الرماح . أرقام : حيات . الآل : السراب .
(٨) النقع : غبار الحرب . أكلف : كدر .

فِيانَفَةَ الْمَلِكِ الَّذِي الْمَلِكُ سَهْمُهُ
 هِنِيئًا لَكَ الْعِيدُ الَّذِي مِنْكَ حُسْنُهُ
 بَدَا مُتَعَلِّمٌ الْأَرْجَاءُ يُزْهِمِي كَثْمَا
 أَنِّي بَعْدَ حَوْلٍ زَاهِرًا عَن تَشَوُّفِ
 فَطَرَفَتِهِ عِزًّا وَشَفْتِهِ بِمِ
 وَلَا زِلْتَ تُسْتَجِدِّي قَوْلِي وَتُرْتَجِي
 يَرَأْسُ الْأَكْبَادِ الْأَعَادِي وَيُوصَفُ^(١)
 يَرُوقُ وَمِنْ أَوْصَافِكَ الْفَرْ يُوصَفُ
 عَلَى عِظْفِهِ وَشَى الْعِرَاقِ الْمَشْفُفُ^(٢)
 وَفَدَّ كَانَ ذَا طَرْفٍ لِلْقِيَاكِ يَطْرَفُهُ
 فَلَاحَ لَنَا وَهُوَ الْحُلَى الْمَشْفُفُ^(٣)
 فَتَكْفِي وَتُسْتَدْعَى لَخَطْبٍ فَتَكْشِفُ

وهو يقول له يا ناقة الملك لا زال سهم ملكك يُسَدُّ إلى أكباد الأعدى فينفذ فيها ويصيبها
 وهنيئًا لك العيد الذي يستمد منك حسنه وأوصافه البديعة ، وإته ليحتلّ زهوا بما على جواربه
 من وشى العراق الشفاف الرقيق ، وقد ظل حولًا يتطلع إليك ويتمنى زيارتك ، فحلت به بطوق
 رائع وقُرْطٍ بديع ، فلا زلت تستجدي فتعلم وترتجي فتكفي وتستدعي لخطب فتكشف نوازله .
 وتُشد ابن رشيق من مديحه قوله :

طَبَّ بِأَدْوَاءِ الْجِهَادِ إِذَا صَدَمَ الْمَجَاجُ قَوَادِمَ النَّسْرِ
 وَإِذَا احْتَبَى فِي شَمْلَةٍ ضَرَبَتْ بِيضُ النَّوَالِ جَمَاجِمَ الْفَقْرِ
 يَبْدَى وَأَيْدَى الْمَزْنِ جَامِدَةً وَبِلَيْنُ عِنْدَ قِسَاوَةِ الدَّهْرِ

فصاحبه يعرف كيف يشفى أدواء الجهاد حين تشتد الحرب وتحدث ويصدم عجاجها
 وغبارها الكيف قوادم النور وأجنحتها المخلقة . هذا شأنه في الحرب أما في السلم فلا تزال
 سيوف نواوله وعطائه تضرب جماجم الفقر ، وإن يديه لتجودان جودًا متصلًا حين تشع أيدى
 السحاب ، وإن جابه ليلين لوارديه عند قساوة الدهر وشدة . وواضح ما يتميز به ابن قاضي
 ميلة من التعمق والبعد في التصاوير .

ابن^(١) خميس

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس الحميري الحَجْرِي الرُّعَيْنِي التَّمْلِسَانِي ، ويتضح
 من نسبه أنه ينتمي إلى حمير من عرب اليمن في الجنوب ، وبالذات من حَجْر ذِي رُعَيْن ،
 وذكر ذلك في شعره مفاخرًا به قائلًا :

عمل الأستاذ عبد الوهاب بن منصور وتقديمه له عن
 حياته وشعره . وراجع ما ذكره من مصادر عنه وخاصة
 الإحاطة للسان الدين بن الخطيب ونفع الطب وأزهار
 الرياض للمقرئ ٣٠١/٢ وما بعدها .

-
- (١) يَرَأْسُ وَيُوصَفُ : يُسَدُّ .
 (٢) الْمَشْفُفُ : الرقيق .
 (٣) شَفْتُهُ بِهِ : زينت به قُرْط .
 (٤) لَطَفَ فِي شِعْرِ ابْنِ خَمَيْسٍ وَتَرَجَمَتْهُ دِيَارُهُ بِاسْمِ
 الْمُتَخَبِّ النَّفِيسِ مِنْ شِعْرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَمَيْسٍ مِنْ

وإن انتسبَ فَيُنَى من دوحَةٍ
تَنبِيْ الأَنسَلْبُ بَرْدَ ظِلَالِهَا
من حَجَرٍ من ذِي رُغْنٍ من ذُرَا
حَجَرٍ من العِظَاء من أَقْيَالِهَا^(١)

ولد تلمسان سنة ١٢٥٠هـ/١٣٥٣م أوقلها بقليل ، وبها كان منشؤه ومراه ، ولا نعلم شيئا عن أسرته وأكبر الظن أنه كان من أسرة متواضعة ، وقد أقبل على حلقات العلماء ينهل منها ، وسرعان ما عُرِف بين أقرانه بذكائه . وتفتح موهبته الأدبية ، ويصبح من كتاب ديوان الإنشاء في عهد السلطان التلمساني يُعْمَرَسَن ثم في عهد ابنه أبي سعيد عثمان (٦٨١-٧٠٣هـ) وقد التقى بالمعدي الرحالة وأكثر المعدي من مجالسته ورواية أشعاره في رحلته وأثنى عليه . وحدث في أواخر عهد هذا السلطان سنة ٦٩٨ أن حاصر السلطان يوسف بن عبدالحق المرنيني تلمسان ومات سلطانها أبو سعيد في أثناء الحصار كمدا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م . ونجد ابن خميس ينادي تلمسان في نفس السنة إلى سبعة على مضيق جبل طارق ، ويستظهر ناشر الديوان وعقفه اللقدم له الأستاذ عبد الوهاب بن منصور أن يكون ذلك بسبب نصيحة قدمها ابن خميس إلى أولى الأمر التلمسانيين بالدخول في طاعة المرينيين مما أوغر صدورهم عليه وجعلهم يفكرون في قتله ، وأحسن بذلك ففر عن تلمسان ، وهو ينشد :

وَأَغْرُوا بِنَفْسِي طَلَابَهَا سِرَارًا فَجَاءُوا لِقَتْلِي صَرَا
فَسَاوَرْتُ نَفْسِي فِي ذَا فَمَا رَأَتْ لِي بَغِيرَ الْفَلَاةِ فَلَاحَا

وقد فرَّ ابن خميس إلى الفلاة ثم إلى سبعة وأمرائها من أسرة بني العزقي فرحبوا به وأغدقوا عليه من نوالهم وأغدق عليهم من مدائحه ، وكان قد عزم على الإقامة بها وإقراء طلابها ، غير أن بعض الماكزين من شيوخها دسوا عليه أشئلة نخوية على لسان الطلاب فلم يعجبه المقام بها ، وجرَّاز الزقاق إلى مالقة بالأندلس فترنطة أواخر سنة ٧٠٣ وكان يحكمها حينئذ الأمير محمد الثالث (٧٠١ - ٧٠٨هـ) ووزيره أبو عبد الله بن الحكيم وكان أديبا وراعيا للأدباء من أمثال عبد المهيمن الحضرمي وأبي العباس العزقي فما إن وفد عليه ابن خميس حتى ألحقه بمجلسه وأسبغ عليه عطايها ، وأخذ ابن خميس يضيئ عليه مدائحه ، وجال في المرية وغير المرية بعض جولات غير أن استقراره كان في غرناطة بجوار راعيه ابن الحكيم ، ويقال إنه كان يقرئ فيها العربية مع ملازمته لمجالس ابن الحكيم ، وحين دبر خصوم الوزير لمقتله وقتلوه قتلوا معه شاعره ابن خميس يوم عيد الفطر مستهل شوال سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٩م .

ويعد ابن خميس أهم شعراء المائة السابعة في الجزائر بل في المغرب عامة ، وفيه يقول لسان الدين بن الخطيب إنه « فحل الأوان في المطول وأقدر الناس على اجتلاب الغريب » ويقول ابن خاتمة : « كان - رحمه الله - من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، بصرف المويص ،

(١) حجر ذي رهين : قبلة مينة . أمثالها : أمراؤنا وملوكها .

ويرتكب مستصعبات القوافي ، ويطير في القريض مطارَ ذوى القوادم الباسقة والخوافي ، ولقبه يحيى بن خلدون بشاعر المائة السابعة الدُّبَّاج الذى لانظير له ، ويقول محققه إنه « يمتاز فى شعره على الخصوص بظاهرتين : الجانب القصصى وغلبة الألفاظ ، وقلٌ من شعراء القرن السابع من يضارعه فى قوة العارضة وخصب الفريضة وفيض الخاطر وطول النفس ، وندر من يمثله فى سلاسة المبنى وسلاسة المعاني ». والقصص عنده قصص تاريخي ولذلك يحتاج قارؤه فى فهم بعض اشعاره إلى الرجوع للمصادر التاريخية ، وكان يكلف بالغريب قاتلا فى بعض شعره :

ما ذاق طعمَ بلاغةٍ من ليس للوحشٍ ماضٍ

ولم يكن يعممه فى أشعاره ، وكأنا كان يريد باستظهاره أحيانا العودة إلى الصياغة الشعرية القديمة إمعاناً فى العروبة . ولم يكن يفزع إلى الغريب دائما إنما كان يفزع إليه فى مخاطبة بنى العزفى ولبن الحكيم لما عرفوا به هم ومجالسهم من اتساع الثقافة اللغوية . ومن أشعاره فى بنى العزفى خاتمة طنانة استهلها برثاء تلمسان وما أصابها من حصار السلطان يوسف المرينى منذ سنة ٦٩٨ وتعمل معاهد أئمه بها ، ويلوم بنى زيان لتشتيتهم له ولأمثاله ممن نصحوهم بالدخول فى طاعة المرينين حتى فكوا عنهم هذا الحصار الذى طال أمده ، ويخرج إلى مدح سبتة وبنى العزفى منشدا :

تَرَكْتُ لِمَيْنَا سَبْتَةَ كُلُّ نَجْمَةٍ	كَأُتْرَكْتُ لِلْعَزْ أَعْضَالُهَا الشُّمُغُ ^(١)
وَأَلَيْتُ أَنْ لَا أُرْتَوَى غَيْرَ مَائِهَا	وَلَوْ حُلُّ لِي فِي غَيْرِهِ الْمُنْ وَالْمَذْخُ ^(٢)
فَأَمْلَاكُهَا الصَّيْدُ الْمَقَالَةُ الْأَلَى	لِعَزْمِهِ تَعْنُو الطَّرَاخِمَةُ الْبَلْحُ ^(٣)
كَوَاكِبُ هَذِي فِي سَمَاءِ رِيَاةٍ	تَضِيءُ فَمَا يَذْجُو ضَلَالٌ وَلَا يَطْخُو ^(٤)
بَنُو الْعَزْفِيِّينَ الْأَلَى مِنْ صُدُورِهِمْ	وَأَبْدِيهِمْ تُمَلَّا الْقَرَاطِيسُ وَالطُّرُخُ ^(٥)
رِيَاةٌ أَنْخَبَارٍ وَمَلِكٌ أَفَاضِلُ	كَرَامٍ لَهُمْ فِي كُلِّ صَالِحَةٍ رَضُخُ ^(٦)

وهو يقول إنه ترك لبناء سبتة كل ما يرجى من نجمة ومعروف ، كما تُرَكُّ للز ودبياتها الشامخة ، وآلى أن لا يرتوى بغير مائها حتى لو عرض له فى غيرها غسل المن المذكور فى القرآن وغسل الرمان ، فحسبه أن ينعم ببقاء ملوكها المقام الذين يخضع لهم الأشراف المزهوون ، ولهم لكواكب هدى فما يظلم ضلال ولا يطم ، علماء أجلاء تمتلئ القراطيس والطوامير

(١) النجمة: المعروف والكلأ . أعضائها : عضبتها .

(٤) يطخو : يظلم .

(٥) الطرخ : القنطرة من الخوص ، ويريد الطوامير لأنها

الشمخ : العالية .

(٢) لمن والمذخ : نوعان من الممل .

كلفت تصنع من ورق البردى .

(٣) الصيد للقاتلة : السادة المقام . تنو : نقل .

(٦) رَضُخ : عطاء .

الطراخمة البلح : الأشراف المذكورون .

بعلمهم ، أختيار أفاضل كرام ، لهم فى كل صالحة من عمل رضى أو عطاء جليل ، ويقول لهم :

بَنَى التَّرَفِيعَ لِبُلُغُوا مَا أُرِدْتُمْ
وَلَا تَقْعُدُوا عَمَّا أَرَادَ سِجَالُكُمْ
وَعَلُّوا وَرَاءَ كُلِّ طَالِبٍ غَايَةَ
وَلَا تَذَرُوا الْجُزْءَ تَعْلُو عَلَيْكُمْ
فَمَادُونِ مَا تَبْغُونَ وَخَلَّ وَلَا زَلَّجُ^(١)
فَمَا غَرَّكُمْ جَفُّ وَلَا غَرَّفَكُمْ وَضِغُ^(٢)
وَتَبْهُوا عَلَى مَنْ رَامَ شَاؤَكُمْ وَانْخَرُوا^(٣)
فَقَى رَأْسِهَا مِنْ وَطْءٍ أَسْلَفَكُمْ شَذْخُ^(٤)

وهو يقول لهم إن الدنيا تبلغكم كل ما أردتم من منى وآمال فخذوا منها ما تشاءون فما عائق يحول بينكم وبين ما تمنون وتأملون ولا تلتفتوا إلى من ابتغى مفاحرتكم بأعماله ، فما ذلُّكم خال ولا غرَّكم قليل ، وعلُّوا وراءكم كل طالب غاية وتبها واستلثوا اختصاراً على من يروم أن يبلغ شأوكم من المجد والفخار ، ولا تدعوا الجزاء تشعربأنها تعلو عليكم فقى رأسها من وطء أسلافكم شذوخ وشروخ . ويمدح ابن الحكيم الوزير الفرناطى فى شعبان سنة ٧٠٦ للهجرة بقصيدة هزمية يستهلها بخمين وشوق ظامىء إلى تلمسان ويخلص إلى مدح الوزير منشدا :

وَلَوْلَا جِوَارُ ابْنِ الْحَكِيمِ مُحَمَّدٍ
حَمَلْنِي فَلَمْ تَنْشَبْ عَلَى نَوَائِبِ
دَعَانِي إِلَى الْمَجْدِ الَّذِي كُنْتُ أَمَلَا
وَبَوَّأَنِي مِنْ هَضْبَةِ الْمَجْدِ تَلْقَى
يَشْبَعْنِي مِنْهَا إِذَا سَرْتُ حَافِظُ
وَلَا شِلْ نَوْمِي فِي كِفَالَةِ غَيْرِهِ
إِذَا كَانَ لِي مِنْ نَائِبِ الْمَلِكِ كَانِلُ
لَمَانَاتِ نَفْسِي مِنْ بَنَى الدَّهْرِ إِقْمَاءُ^(٥)
بَسُوءٍ وَلَمْ تَرَزَّأَ فِرَوَادَى أَرْزَاءُ^(٦)
فَلَمْ يَكْ لِي عَنْ دَعْوَةِ الْمَجْدِ لُطَاءُ
يَسْجَى السُّهَّا مِنْهَا صُعُودُ وَطَاطَاءُ^(٧)
وَبِكُلُّوْنِي فِيهَا إِذَا نَمْتُ كَلَاءُ^(٨)
وَلِلذَنْبِ الْإِمَامُ وَلِلصُّلِّ الْإِمَاءُ^(٩)
فَقَى حَيْثَمَا هَوَّمْتُ كَيْنُ وَإِذْنَاءُ

وهو يعترف بما للوزير ابن الحكيم الفرناطى عليه من منة مشكورة ، فلولاه لساق إليه الناس مايشعره بالذل فقد حماه منهم ومن نوائب الدهر وعنه ، بل لقد دعاه إلى ما كان يتحنى من مجد وأثرله من هضبة مكاناً علياً ينجى منه نجم السُّهَّا صعوداً وهبوطاً ، وحافظ يشبعه إذا سار وحافظ يكلِّه ويسهر عليه إذا نام ، لا كمثل من لا يروعون من يحمونهم من الذئاب والأفاعى ، بل رعاية وكفالة تامة وكين مريح يرد البرد ودفع ما بعده دفع . وله وراء ذلك فى ابن الحكيم مدائح تموج بالغريب وبالصور البديعة ، فقد كان مصوراً بارعا ، وكان يخف عليه الجناس

(٥) إقماء : إذلال .

(٦) لم ترزأه أرزاء : لم تصبه مصائب .

(٧) تلمة : ربوة . طاطاء : هبوط .

(٨) يكلوئى : يرعاه ويحفظه . كلاء : حافظ .

(٩) إملاء : انتفاض .

(١) زلج : ترحلن .

(٢) السجال : المفاخرة . الغرب : الدلو الكبير .

جف : خال . وضغ : قليل .

(٣) شأوكم : سداكم وغايكم . انخروا : تبهاوا ونكبوا .

(٤) الجزاء : كوكب معروف . شذخ : شرخ وجرح .

والطباق حين يريد هما ، وهو يعد في الذروة من شعراء المغرب عامة والجزائر خاصة وسنشد له أشعارا في الطبيعة وفي النزعة الصوفية إذ كان فتانا كبيرا في كل ما ألم به من موضوعات .

محمد^(١) بن يوسف القيسي الثغرى التلمساني

أهم شعراء الجزائر في المائة الثامنة لمعهد أبي حمو موسى الثاني، وكان يعاصر كوكبة من الشعراء المبدعين أمثال ابن أبي جمعة التلاسي وعبد المؤمن بن يوسف المديوني ومحمد بن صالح الشقروني وابن ميمون السنوسي ومحمد بن علي العصامي ويحيى بن خلدون وغيرهم كثير. وليس بين أدينا ما يشير إلى التكوين الأدبي للثغرى ، غير أن بيته كانت تكتظ بالعلماء والأدباء ، وكان من ترى فيه مخايل النبوغ الأدبي يختار للعمل في دواوين الدولة ، واختير الثغرى وأصبح كاتب الإنشاء لأبي حمو الثاني، كما أصبح شاعره الفذ الأول، وكان أبو حمو الثاني (٧٦٠-٧٩١هـ) يرعى الأدباء ويجزل لهم العطاء ، وكان أديبا كما كان شاعرا كبيرا فطيمى أن يعنى بالأدباء والشعراء لمعهده وأن يكون لشاعره محمد بن يوسف الثغرى حظ كبير من هذه العناية . وكان قد استنّ الاحتفال بالمولد النبوي منذ استولى على صولجان الحكم فكان ينظم فيه مدحة مولدية وكذلك شعراؤه وفي مقدمتهم الثغرى ، وكانوا يستطردون فيها من مدح الرسول ﷺ إلى مدحه ، وسلم بذلك في حديثنا عن المدح النبوي إنما نهمنا الآن مدائح الثغرى في أبي حمو موسى الثاني ولبنيه أبي ناشفين وأبي زيان، ومن قصيدة يمدح فيها أبا حمو :

ياإمام الهدى وشمس المعالي	وغمام الندى وبدر التوايدي
لك بين الملوك سيرٌ خفيٌ	ليس معناه للمقول بيادي
وكان البلاد كفك مهما	كان فيهما ينتمى لعناد
لم تنزل دائما نحن إليكم	كحنين السقيم للسواد
قد أطاعتكم البلاد جميعا	طاعة أرغمت نفوس الأعادي
فأرجموا الجياد أتعبتموها	وأزفروا السيوف في الأغمار

وهو يشيد به ، فيجمله إمام الهدى وشمس المعالي وسحاب الكرم والبدر المضيء الهادي ويقول إن له سر اخفيا بين الملوك جعله محبوا من شعبه ، وكثما يقبض على البلاد بكفه ، بل هي كفه ، حتى لو كان فيها خارج عليكم ، وإنها لاتزال نحن إليكم حنين السقيم للمواد ،

فهارسهما) وكذلك فهارس الجزء الثامن من فتح الطيب وأزهار الرياض ٣٢٩/٢ وما بعدها .

(١) انظر في محمد بن يوسف الثغرى التلمساني كتاب نيل الانتهاج لأحمد بابا ص ٢٩٤ ونية الرواد لحيى بن خلدون وتاريخ بني زيان لمحمد بن عبد الله التتسي (انظر

فَأَتَتْ بِلِسْمِهَا الْمَدَارَى الشَّافِي . ويقول إن البلاد جميعاً تطيعك فَأَرْجُ الْجِيَادِ الَّتِي طَالَمَا أَتَعَيْتَهَا
وَأَقْرَبُ السُّيُوفِ فِي أَعْمَادِهَا وَعَشْ قَرِيرِ الْعَيْنِ مَطْمَئِنِ الْبَال . وله فيه من أُخْرَى أَشَادَ فِيهَا بِتَلَمَّاسَانِ
وَمَشَاهِدِهَا إِشَادَةً بِدِيمَةٍ ، وفيه وفي قِيلَتِهِ بَنَى عَبْدُ الْوَادِ يَقُولُ :

فُرْسَانُ عَبْدِ الْوَادِ آسَادُ الْوَعَى حَامُوا الذَّمَّارِ أُولُو الْفَخَارِ الْأَطْوَلِ
وَإِذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رَأَيْتَهُ فَالْتَمَّ ثَرَى ذَاكَ الْبِطَاطِ وَقَتْلِ
بُشْرَى لِعِدَالِ الْوَادِ بِالْمَلِكِ الَّذِي خَلَصُوا بِهِ مِنْ كُلِّ خُطْبٍ مُفْضَلِ
وَكَفَاهُمْ سَعْدًا أَبُو حَمْسٍ الَّذِي يَحْمِي حِمَاهُمْ بِالْحِمَامِ الْفَيْضَلِ
وَيَحْسِنُ يَتْنَهُ لَهُمْ وَبِجْدِهِ وَيَسْمَعُهُ وَيَسْمَعِيهِ التَّنْفِيلِ
ذُو الْهَمَّةِ الْعَلِيَا الَّتِي آثَارُهَا حَلَّتْ بِهِ فَوْقَ السَّمَاءِ الْأَغْزَلِ

وهو يشيد بفُرسان قبيلة عبد الواد أسد الحروب أصحاب الفخار العظيم الذين يحمون
الحصى ، وإذا رأيت أمير المؤمنين فقدم له كل ما يمكن من تجلة ، وبشرى لعبد الواد ملكهم
الذي خلصهم من كل ما ألم بهم من خطوب خطيرة ، ويكفيهم سعداً أنه أبو حمو حامى حماهم
بشجاعته الباسلة وهمة القساء التي حلت به فوق نجم السماك المصعد في السماء . وكان
ما يزال ينظم مولديات في احتفال أبي حمو بليلة المولد النبوي وكان يستطرد فيها إلى مدحيه دائماً
بمثل قوله في إحداها :

ظَفَرُ الثَّقَى وَالْمَذَلُّ مِنْ مُوسَى الرُّضَا بِالْجَوْهَرِ الْفَسَدُ الَّذِي لَا يَنْتَامُ
بِأَيِّهَا الْمَلِكُ التَّقَى وَمَنْ لَهُ شَرَفٌ عَلَى سَمَكِ السَّمَاءِ مَخِيَمُ
أَعْطَيْتُ بِالْعَدْلِ الْخِلَافَةَ حَقُّهَا فَمَلُوكُهَا فِي حَقِّهَا لَكَ سَلَمُوا
جُودٌ وَإِحْسَانٌ وَصَدَقْتُ فِي الْمَدَى حَسَنٌ وَعَقْدٌ فِي التَّقَى مُتَحَكِّمُ
وَتَوَاضَعٌ يَعْلَى وَقَدَّرْتُ بِحَسَلِ وَنَذَى يَدِي تَهْنِي وَبَشَرٌ يَسْمُ
وَالْحَلْمُ أَوْسَعُ وَالْجَنَابُ مُؤَثَّلُ وَالْعَزُّ أَمْنَعُ وَالسَّجِيَّةُ أَكْرَمُ

وهو يقول إن الثقي والعدل جميعاً ظفرا من أبي حمو بالجواهر الفرد الذي لا نظير له ،
وإن تقاه ليخلع عليه شرفاً يسمو به فوق نجم السماك الأعلى ، وبالمثل عدله الذي يسبح على
الخلافة جميع حقوقها مما جعل ملوكها يسلمون لك عن يد ، وهذا تمت جود وإحسان وهدي
وتقى وتواضع ومكثة كبيرة وكرم يهيم ويهطل وبشر يسم وحلم أوسع وكف مؤثّل وعز
منيع وسجاية كريمة . ويظل يوصف له فضائل كريمة كثيرة . ويتحول الثغرى بعد أبي حمو
الثقلى شاعراً لابنه أبي تاشفين (٧٩١-٨٧٩هـ) وينشد مولديات يستطرد فيها إلى مدحيه
من مثل قوله في الاحتفال بليلة سابقة لليلة المولد الشريف :

إِسْمًا تَوَلَّى اللَّهُ تَشْيِيدَ فَخْرِهِ
يَعُدُّ إِلَى الْأَعْدَاءِ كُلِّ كَيْبَةٍ
بُيُوبٍ وَيَرْجِي فِي جَلالِ جَمالِهِ
فِي مَالِكَا يَحْمِي الرُّعْيَةَ رَعِيَّتُهُ
وَيَكْلِفُهُم بِالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَالنَّدَى
فَمَا شَتَّ مِنْ مَجْدٍ وَمِنْ كَرَمٍ عُدَّ
بِهَا الْجُرْدُ تَزْدَى وَالْقَوَارِسُ كَالْأَسَدِ
كَلِيبٌ وَغَيْبٌ فِي وَعْدِهِ وَفِي وَغْدِهِ
وَيَحْيِيهِم بِالْبَذْلِ وَالْعَيْشَةِ الرُّغْدِ
وَيَشْمَلُهُم بِالْجُودِ وَالرَّقِّ وَالرُّفْدِ

وهو يمدح أبا تاشفين بما أسبغ الله عليه من مجد ومن كرم فياض ، ويقول إنه يعد إلى الأعداء كائب تضرب نخيلها الأرض بمخايفها الصلبة ويضرب فرسائها الأعداء ضربات مصيبة ، وإنه ليهاب كليث في وعيده ويرجى كنيث في وعده ، ودائما يحمي الرعية برعايته ويحييهم بما يسبغ عليهم من عطاء ورخاء مع ما يكلفهم به من العدل والفضل ويشملهم به من الرق والجود والكرم المدار . ويلحق الشاعر عصر أبي زيان (٧٩٦ - ٨٠١ هـ) وفيه يقول من ميلادية طويلة :

لَنْ كَانَ بَحْرًا فِي الْعِلْمِ فَإِنْ فِي
وَمَاهِهِ إِلَّا كَابٌ وَسَنَةٌ
فَسَنَخُ كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ
وَمَنْ كَانَ يَحْدُ الشِّفَاءَ شِفَاءُهُ
وَلَمْ أَدْرِ وَالْأَوْرَاقُ رَاقَتْ بِخَطِّهِ
أَلَا هَكَذَا فَلَيْسَ لِلْمَجْدِ مَنْ سَمَا
بَنانَ يَدِيهِ لِلنَّدَى أَمَحْرًا عَشْرًا
يَنْسَخُهُمَا قَدْ أَحْرَزَ الْفَخْرَ وَالْأَجْرًا
وَنَسَخَ الْبِخَارَى ضَامِنًا لَهُ النُّصْرَا
فَمَنْ عَلَّلَ الْأَوْرَارَ فِي نَسْخِهِ يَبْرَا
أَسْكَا عَلَى الْكَافُورِ يَنْتَرُ أَمْ جَبْرَا
وَيُجْرَى لَأَسَادِ الْفَضَائِلِ مِنْ أَجْرَى

وكان أبو زيان كلّفا بالعلم كما وصفه التنسي ولم يخل مجلسا له من مناظرة أو مذاكرة وعاضرة ، وكان غيا مدرا في الجود والكرم ، وجعل همه - كما يقول الثغري والتنسي - كتابة نسخ من المصحف الشريف ، وتحفظ الخزقة العامة للرباط بإحدى هذه النسخ النفيسة ، وهي على رق غزال وعلا بالذهب وجميع ما فيها من أسماء الله الحسنى مكتوب بالذهب . وكتب نسخة من صحيح البخاري ونسخا من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض . وبحق ما يقوله الثغري من أن من يحد شفاء القاضي عياض شفاء له يرا به من جميع الأوزار فما بالك بمن يحد بالبخاري وأهم من ذلك وأعظم بالقرآن الكريم . ويقول الثغري إن من يرى المداد على تلك الأوراق إنما يرى مسكا متورّا على الكافور ، وما أعظمه من مجد حققه نفسه أبو زيان ، وهو مجد خلّيق بأن يتسابق إليه المتسابقون ويتنافس فيه المتنافسون . ولم تذكر المراجع متى توفي الثغري ، وأكبر الظن أنه توفي في آخر القرن الثامن أو في أوائل التاسع الهجري .

الشهاب^(١) بن الخلوف

هو شهاب الدين أحمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن بن الخلوف لقباً الحميري نسباً ، ولد لأبيه في قسطنطينة سنة ٨٢٩ هـ/١٤٢٥ م وقصد بلده بعد ولادته ترواً لأداء فريضة الحج ، وظل مجاوراً بمكة أربع سنوات ، وبارحها إلى مدينة بيت المقدس واستقر بها حتى توفي سنة ٨٥٩ هـ/١٤٥٥ م . وفيها نشأ ابنه الشهاب ، حفظ القرآن واختلف - بعد حفظه - إلى حلقات الفقهاء واللغويين والقراء وغيرهم من العلماء ، واستوعب كثيراً مما عندهم ، وشُغف - منذ صباه - بالأدب شعراً ونثراً كما يحكى الدكتور هشام بوقمرة محقق ديوانه في مقدمته له ، إذ ذكر أن الشاعر قال في إحدى مخطوطات ديوانه : « كنت ممن ولع بعصفوري النظم والنثر في الصبا ، مستوها من دوحتهما نستحي القبول والصبا ، مقتظاً لزهريتهما من رياض الآداب ، ملتقطاً لذريتهما من أصداف الطلاب^(٢) » ، لأسلك وادياً لم يترنم فيه حمامها ، ولا أعكف على حديقة لم يطر فيها غمامها ، ولا أرقب سماء لم تلح فيها زواهرها^(٣) ولا أخوض بحراً لم تتكون فيه جواهرها إلى أن ظفرت من المطلوب بأوفى نصيب ، واحويت من كتابتيهما^(٤) على كل سهم مصيب . وسرعان ما تفتحت موهبته الشعرية ، وأعجب بشعره أبوه ، فأثقل أن يكون له شأن بين شعراء تونس ، فنصحه بالمجرة إليها في تاريخ غير معروف ، وبظن أنه هاجر إليها في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وأخذ يظفر بغير قليل من إعجاب الأدياء ، مما أتاح له وهو في السادسة والعشرين أن يكون في مقدمة المهتمين لسلطان تونس عثمان الحفصى (٨٣٨ - ٨٩٣ هـ) باقتران ابنه وولى عهده المسعود من ابنة عمه سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م وأعجب به السلطان وابنه المسعود فعاش في حاشيتهما واتخذ المسعود كاتباً له ، وكان يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، ولذلك كان يلقب في حياته بصاحب الصناعتين . ويشكو مراراً وتكراراً في مدائحه للسلطان عثمان وابنه المسعود من حساده ومنافسيه ، ومن أهمهم زميله في الكلية بديوان المسعود الشاعر محمد الخير المالمقى الذى كان يكثر من معارضة أشعاره . وظل ابن مخلوف يلازم المسعود حتى سنة ٨٧٧ هـ/١٤٧٣ م إذ يعزم فيها على أداء فريضة الحج ، ويؤديها ويظل في القاهرة نحو أربع سنوات تعتقد فيها الصداقة بينه وبين مؤرخ مصر الكبير السخاوى صاحب كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، وقد ترجم له فيه ، ويقول عنه إنه : « حسن الشكل والأبهة ظاهر النعمة طلق العبارة بليغ بارع في الأدب ومتعلقاته »

الديوان الدكتور هشام بوقمرة (طبع تونس) وله طبعة
قديمة في القرن الماضي غير محققة .
(٢) الطلاب : المطلوب .
(٣) زواهر : جمع زاهر : النجم المضيء .
(٤) الكتلة : جملة السهام .

(١) قنطر في ترجمة الشهاب بن الخلوف رحلة
عبد الباسط بن خليل المصرى إلى المغرب ودره الحجال
لاين القاضى والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع
للسخاوى وشذرات الذهب لاين المساد ونيل الانهاج
للتبكي وانشاف أهل الزمان لاين أبى الضيف وتاريخ
الأدب التونسي لحسن حنى عبد الوهاب ومقدمة محقق

ويصفه بالظرف وحسن الهيئة . وعاد إلى تونس سنة ٨٨١ هـ/١٤٧٧ م ويعود إلى الكتلة عند المسعود ، ويقول الدكتور هشام بوقرة إن المسعود جفاه سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٤ م ولم يلبث أن رضى عنه سنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٦ م وظل كاتباً له حتى وفاته سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٨ م وفى نفس السنة توفى السلطان عثمان الحفصى ، وخلفه حفيده يحيى بن المسعود بوصية منه ، ولم يدر العام حتى قتل فى معركة مع ابن عمه عبد المؤمن والى بجاية ، واستولى عبد المؤمن على صولجان الحكم فى تونس ، ولم يهنا به طويلاً فقد ثار منه زكريا بن السلطان يحيى المقتول فى أوائل خريف العام التالى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠ م واستولى على أزمة الحكم ، وصوّر ذلك ابن الخلف فى رائية له يمدحه بها قائلاً :

حَزَتْ الخِلافة عاصباً لا غاصباً والحق ورثك النفي المذخر

وهو يقول له إنك حزت الخلافة أو السلطنة عاصباً أى عن طريق الإرث عن الآباء لا غاصباً عن طريق الظلم والمعدون ، واجتاح تونس سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٤ م طاعون توفى فيه السلطان زكريا وأيضاً توفى فيه الشهاب بن الخلف ، وربما توفى قبله بقليل . ونجده لا يكفى بما ينظم من الشعر فى أغراضه المعروفة من المدح والثناء والزل والخبرات والوصف وغير ذلك من الأغراض التى رتب عليها الدكتور هشام بوقرة ديوانه ، إذ نظم كثيراً من الشعر التعليمي وله فيه منظومات كثيرة ، فقد نظم كتاب المغنى لابن هشام كما يقول مترجموه وله فى النحو أيضاً منظومة فى صيغ الأفعال ، ونظم كتاب التلخيص فى علوم البلاغة للغزوينى ، وله بديعة صور فيها ألوان البديع ومحسناته لمصره ، وله أرجوزة فى علم الفرائض ، وله فى العروض تحرير الميزان لتصحيح الأوزان . وله بجانب ديوانه المذكور آتفا ديوان فى المدائح النبوية سماه « جَنَّا الجنتين » ويشيد مترجموه به إشادة رائعة . ونراه يستهل ديوانه العام قبل أغراضه المختلفة ببعض قصائد وأزجال وموشح فى المدح النبوى ، ويبدو أن له كثيراً من الأزجال فى أغراض مختلفة ، وبالمثل له موشحات متعددة . وهو مداح كبير ، وقد ظل طوال أربعين عاماً يمدح السلطان عثمان الحفصى وابنه المسعود فى الأعياد والمناسبات المختلفة ، ويلزمهما ملازمة المتنبى لسيف الدولة ، ومن قوله فى السلطان عثمان :

إِسْمَ بَرَاهِ اللهَ أَوَّلَى عِبَادِهِ	بِحَقِّ وَأَهْدَاهُمْ لِأَوْضَحِ حُجَّةٍ
تَوَكَّلْ نِعْمَاهُ وَيُخَشِّى لَتَقَاتِهِ	لِطَالِبِ يَلْمُ أَوْ لَطَالِبِ قِتَّةٍ
بِصَوْلٍ وَيَحْمَى شِرْعَةَ نَبْوَةٍ	بِسُورٍ رِشَاقٍ أَوْ بِيضِ جَلِيلَةٍ ^(١)
لَهُ دَوْلَةٌ أَرَسَتْ عَلَى كُلِّ دَوْلَةٍ	بِتَأْيِيدَارِهِ وَتَأْيِيدِ نَصْرَةٍ
يَحْنُ إِلَى الْمَعْرُوفِ حَتَّى يُبْلِهِ	كَأَحْنٍ مُشْتَاقٍ لِمَوْصِلِ الْأَحْيَةِ

(١) السر : الرماح . البيض : السيف .

وهو يقول إنه إمام اختاره الله لرعيته لأنه أولاهم بحق الخلافة وأهداهم لأوضح حجة دامغة ، وإنه ليوزع نعماءه وعطاياه على طلاب السلم المطيعين بينما ينزل نقمه على طلاب الفتن العاصين ، وإنه ليحمي الشريعة النبوية ويذود عنها بالرماح والسيوف المصمية ، وإن دولته لتسمو على كل الدول بالآراء الصائبة والانتصار الساحق ، وإنه يصبو دائما إلى بذل المعروف والأعمال الخيرة كما يصبو المحب إلى وصل محبوبته ، ويقول فيه من أخرى :

تملك رِقَّ الجود واستخدم الغنى	فلم يبقَ علان يشتكى أَلَمَ الفقر ^(١)
إذا مادعاه العسرُ يا محيى الوفا	بدا فدعاه اليسرُ يا قاتل العسر
رَوَى الفضلُ أخبارَ التقى عن كماله	كأنمُ عن طيب الرُّبى طيبُ النشر ^(٢)
لقد ذُكرتُ للأولَين فضائلُ	ولكنُ هذا الفضلُ لم يَجْرِ فى ذِكْرِ
سخاء يد تروى الجداول ماءها	عن السيل عن قطر الغمام عن البحر
ومجد كما تروى الأشعةُ نورها	عن البرق عن زهر النجوم عن البدر
وحسبك يا فرغ المكارم والُقلا	أصول زكت فى روضة المجد والفخر

وهو يصفه بأنه استرقَّ الجود وامتلكه وأصبح الغنى أو الثراء له خادما يرسله ويوزعه كيف شاء حتى لم يبق بائس يشتكى أَلَمَ البؤس والفقر ، ويتخيل أن العسر ناداه يا محيى الوفاء ، ولم يكذب يدو ويظهر حتى ناداه اليسر يا قاتل العسر : كناية عن كرمه الفياض ، ويقول إن الفضل والتقوى يمان عن كماله ونيل خلقه وشماله كما ينم الشذى العطر عن طيب الرُّبى وأزهارها الأرجة ، وينزه بفضلته ويقول إنه يفوق فضائل الأولين ، فلم تنطق الألسنة بفضل يمانته ، ويشيد بسخائه وكرمه ، ويقول إن مياهه لتغمر أنحاء تونس وكثما تفيض عن سيل ، عن غمام منهمر ، عن بحر تدفق أمواجه ، وهى مبالغة شديدة . ومثل ذلك قوله إن مجده كما تروى الأشعة نورها الساطع عن البرق عن النجوم المضيئة عن البدر ، ويقول له حسبك الأصول التى نمت فى روضة المجد والفخر الذى ليس مثلهما فخر ولا مجد . وله ينشد فى إحدى مدائحه :

ملك إذا هز الحسام بكفه	خرَّت لبارق رَعْدِه الخُرْصان ^(٣)
لو فرقت عزماته وهباته	فى الناس لم يك باخل وجبان
ويرى العواقب فى صحيفة فكره	فكأنما أفكاره كُهان
تُعزى إلى الفيت السكوب هباته	هيئات أين الفيت والطوفان
يُصنى الزمان لأمره ولنهيته	وتطيع الانس لحكمه والجان

(٣) الخُرْصان : السيوف يريد سيوف الأعداء .

(١) علان : بالى قهقر .

(٢) النشر : الرابحة الذكية الساطعة .

وتراه ما بين الأُسنة سافرا
أنت الإمام ومَنْ عداك رعية
كالبدر دارتْ حوله الشُّهُبانُ^(١)
أنت المقدّم والسَّوْزَى أعوانُ

وهو يقول له إنه مفرط الشجاعة حتى إذا صال في ميادين الحروب وهزُ حسامه سقطت السيوف من أيدي أعدائه هية ورهة ، ويمضى الشاعر في مبالغاته فلوزعت هباته وعزماته في الناس لم يبق بخيل ولا جبان ، ويلغ من نفاذ بصيرته أن يتبأ بعواقب الأمور وأن تحدث طبق تنبؤه ، حتى لكان تنبؤاته أنكار كهان يصرون الغيب ويخبرون به ، وإن هباته لتعزى إلى النيث المنهمر ، بل أين النيث منها والطوفان ، وقد بلغ من عظم السلطان أن أصبح الزمان يصدر عن أمره ونهيه وأصبحت الإنس تطيع حكمه والجنان ، وإته ليخوض الحروب بين السيوف والرماح بوجه مشرق كالبدْر تحفّ به النجوم الساطعة ، ويقول له إنك الإمام والرعية من حولك أعوان ونصراء . وله في مديحه موشحة بديمة ، يقول في تضاعيفها :

قابل النورُ ظلمة الخلكِ	بِمَصْبَاحٍ مَنِيرٍ ^(٢)
ورقا النجمُ ذروةَ الفلكِ	خائفًا مستجيرٍ
بَلْمِي عمرو الرضا الملكِ	من سَعِيرِ المَجِيرِ ^(٣)
مَنْ رَوَى المجد عن علا عُمرٍ	بطريقِ الصُّحاحِ
وسرى في النُهي على قدرٍ	بمطايا الفلاح
لورأى البدر وجهه الطلعا	لاعتراه السجود
لورأى النيث جوده العذقا	لاشحنى أن يجود
فاق خلقًا وقد حوى خلقًا	قارننه السمود
بَوَا الملكَ رتبةَ الظُفَرِ	بمِوَالِ الرُّمَاحِ
ومحى غَزْمُهُ دُجَى النَيمِ	بِمَصْبَاحِ الصُّفَاحِ ^(٤)

والموشحة طريفة ، وهو يستهلها بوصف الطبيعة وصفا بدعيا ويخرج منه إلى مدح أبي عمرو عثمان الحفصى وكأنما يتخذ من نور الفجر رمزا لحكمه الرشيد ، وكان الوقت صيفا والقيظ شديد الحرارة ، فقال إن النجم علا ذروة الفلك مستجيرا بالسلطان أبي عمرو المحبوب من نار المجير ، ويقول إنه روى مجده عن آبائه المتين إلى عمرين الخطاب نسبة صحيحة أو بطريق الآثار الصحاح كما يقول ، ويمضى في مبالغاته فلورأى البدر وجهه المستشر لخرُ ساجدا ولورأى النيث جوده المدرار لملاء الخجل والاستحياء ونوّه به خلقًا وخلقًا ، ويدعو

(١) الشهبان جمع شهاب : النجم للنسيء والشعلة
الساطعة .
(٢) المجير : نصف النهار في القبط .
(٣) الصفاح : السوف . الفير : الأحداث .

(٤) الخلك : سواد الليل

له أن يقترب هو وحكمه بالسعود . ولعل صوت الشهاب بن الخلوفاً اتضح لنا اتضاحاً تاماً ، وهو صوت يحفظ بالمذوبة والسلاسة وصفاء التعبير ويجمع بين الرقة والمثانة ، وكأنما يستمد من معين لا ينضب ، معين زلال تمتع دون أن يكلفك أى عناء فى فهم لفظة أو عبارة ، إذ كان يشغف بالوضوح التام كل الوضوح .

محمد^(١) الفوجيلى

من كبار شعراء مدينة الجزائر فى القرن الحادى عشر الهجرى لعهدها العثماني ، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ، غير أن من المؤكد أنه عكف على حفظ القرآن الكريم فى صباه مثل لداته ، حتى إذا أتقن حفظه وجوَّده على قرائته أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الفقه والحديث النبوى والعربية والأصول والتوحيد والبيان والبلاغة ، وتميز فى علمه بالفقه والشريعة ، مما أَعَدَّه ليصبح قاضياً من قضاة الدولة . وشغف مبكراً بالشعر ، وأخذ ينهل من دواوينه حتى استقامت له ملكته الشعرية . وسرعان ما أصبحت ملكته خصبة ، واتجه بها أول ما توجه إلى المشاركة فى الشؤون السياسية والتعبير عن أممى أمته الجزائرية ، وكان من أهم أمالها فى بواكير شبابه تخلص وهران من أيدي الإسبان الذين طال احتلالهم لها منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ، ونراه حين ولى الجزائر أحمد باشا سنة ١٠٠٧هـ / ١٥٩٩م يهتبه بولايته ويحضه على الجهاد ضد الإسبان حتى ينهزم جمعهم فى وهران ويولون عنها فراراً ، بل حتى يسحقهم سحقاً لا يفيى منهم باقية ، يقول :

فرحتُ جزائرنا بكم وثأستُ بمقامكم فيها بحال حُبور^(٢)
فلتفتُ نحو الجهاد بقوة والكفر فاقطعُ أصله بذكور^(٣)
وبغزينا وهرانَ ضِرْضَ مؤلِّمٍ سهلُ اقتلاعٍ فى اعتناءٍ يسير
فانهضُ بعزمك نحوها مستنصراً بالله فى جدِّ وفى تَشْمِير
بمساكرٍ مثل السيول تزاومتُ للبق تحت لوائك المنصور

ونرى الفوجيلى يتحول من دعوة الوالى لجهاد الإسبان وفتح وهران إلى نصحه بأن يصرف للعلماء والأدباء شعراء وكتبا إعانات تعينهم على الجيش الكريم ، إذ كان ولاية العثمانيين على الجزائر لا يفهمون العربية ، فكأنوا لا يحنون برجال الدين فضلاً عن الشعراء والكتاب وساعد على ذلك أن ديوانهم - حيثذ - كان تركيا خالصاً ، فلم يعد للأدب ولا للعلم سوق رائجة فى عهدهم ، مما جعل الفوجيلى يدعو الوالى الجديد إلى تلافى ذلك حتى لا تتكسر الحركة العلمية والأدبية ، وإنه ليهتف بالوالى العثماني :

(١) انظر فى ترجمة محمد الفوجيلى كتاب أشعار جزائرية تحقيق د . أبو القاسم سعد الله وما ذكره عنه فى كتابه تاريخ الجزائر الثقاتى (انظر الفهرس) .

(٢) حور : سرور .

(٣) المذكور جمع ذكر : السيف الصلب القاطع .

العلم ميراث النبوة ناله
كم في بلادك من نجيب حافظ
ومحقق ومدقق ومناظر
لكنهم فقدوا الإعانة واغتدوا
ضاعوا وجاعوا لا محالة وأبتلوا
فوقهم لهم حظ من التوسر
ومشارك في النظم والمثور
من كل درك الحجي نخبر
ما إن يرابعهم ذور التأسير
في ذا الزمان الصعب بالتغير

وهو يقول له إن العلماء ورثة الأنبياء ، وكم في البلاد من حافظ محدث وشاعر وكاتب وفقه محقق وعالم مدقق ومناظر يدرك براهين الحجى والعقل تحرير حاذق في عمله كل الحذق ، غير أنهم فقدوا ما يبد رمقهم ، ولبلوا في العصر بالتغير والتضييق عليهم في النفقة ، إذ لا يرابعهم أمراؤهم أو ذور التأسير .

ويصبح القوجلى قاضيا في تاريخ غير معروف ، وتدل تلك الوظيفة على ما حاز لنفسه من الدراسات الدينية وخاصة الفقه وما عرف به من القدرة على الفتوى السديدة ، وأكب على دراسة الحديث مما جعله ينظم عملا شعريا حول الجامع الصحيح للبخارى سماه : « عقد الجمان اللامع المنتقى من قمر بحر الجامع » وهو منظومة في مخرجى أحاديث البخارى وعدد الأحاديث التى لكل منهم مع بيان المكثر منهم والمقل فى السند على ما أورده ابن حجر المصرى وزاد عليه تراجم الرواة . ويبدو أنه كان يضيف إلى اشتغاله بالقضاء اشتغاله بتدريس الفقه والحديث للطلاب . ويتولى صديق له الفتيا بسمى أبا عبد الله محمد بن قرواش ، ويتصادف حدوث زلزال عند توليه ، فيطير من ذلك ، فيدحه بقصيدة محاولا فيها أن يجعل الزلزال بشرى لفرح الأرض بتوليه هذا المنصب الدينى الجليل قائلا :

إهنا أبا عبد الإله بخطبة
والأرض قد فرحت بما خولتم
ومحركت أرجائها طربا بكم
بل إتما ماث لذلك نخوة
جاءتك وهى لدى الزمان جمال^(١)
مرحت بسائطها ومال جبال^(٢)
ما منها رجف ولا زلزال
حتى لقد رقصت بنا الأطلال^(٣)

والآيات تدل على أن ملكه الخيالية كانت خصبة ، وأنه كان يعرف بها كيف يجعل ما قد يظن أنه غس أو شوم فالأحسا لفرح وسرور وحياة هنية طيبة . واتعمدت صداقة متينة بينه وبين الفقيه الحافظ على بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى الذى هاجر بأسرته من مدينته سجلماسة بالمغرب الأقصى إلى مدينة الجزائر حوالى سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣١م واتخذها وطنا ثانيا له حتى وفاته سنة ١٠٥٧هـ/١٦٤٨م وكان عالما متبحرا فى جميع العلوم الدينية

(١) يراد بالخطبة منصب الفتوى .
(٢) خولتم : أعطيتهم . ويريد بسائطها : المنبسط من
(٣) ملت : اختالت .

واللغوية والبلاغية ، وطارت شهرته في إقليم الجزائر والمغرب الأقصى وقصده الطلاب من كل فج ، ونزى القوجيلي يمدحه بقصائد متعددة . وهي ظاهرة كبرى في العهد العثماني بالجزائر أن نرى الشعراء منصرفين بمدائحهم عن الولاة العثمانيين إلا قليلا ، لأنهم كانوا تركا ولم تكن كثرتهم تفهم العربية فضلا عن إحسانها ، فقل منهم من فتح أبوابه للشعراء إلا نفرا محدودا لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ولذلك انحاز الشعراء الجزائريون بمدائحهم عن الولاة العثمانيين وأخذوا يسبقونها على الشيوخ من العلماء الأجلاء ، على نحو ما نرى عند القوجيلي في إكثاره من مدح الحفاظ الفقيه على بن عبد الواحد الأنصاري ، يمدحه - كما يمدح أمثاله من الشيوخ - لا طلبا لنوال أو عطاء ، وإنما تجلّة وعرفانا لهم بالفضل وما أوتوا من العلم النافع . ومن مدح القوجيلي للشيخ الأنصاري قوله في إحدى مدائحه :

أبو الصلاح على في الكرام غلا	من لا يماثلته في الناس من أحد
بحر طمى فرمى ذرا للتنقيط	غيث همتي فمنا نفعا لمجهت ^(١)
أكرم بمجلسه السامي فقد ظهرت	لنا به نفحات القون والسد
تلاطم في أنوار العلوم كما	تلاطم البحر بالأمواج والزبد
من يحرم الرى من صافى مشاره	بعض من ندم في شفة ويد

وهو ينعت الشيخ الأنصاري بالصلاح حتى يجعله آياه ويرفعه درجات فوق الناس قائلا إنه لا يماثله أحد من العلماء ، يريد من نظرائه الفقهاء ، ويشيد بمجلسه العلمي وما يعرض فيه من نفحات العلوم ، بل يقول إنه تلاطم فيه تلاطم الأمواج والزبد في البحر المتوسط ، ويقول إن من لا ينهل من صافى علومه يندم ندما شديدا . وله يقول في مدحة ثانية :

علامة أحيا العلوم وقد	خفيت معانيها على الكثر
يا طالباً للعلم هل لك في	رشد وفي الإكثار من خير
اقصد لمجلسه تنل شرفا	وتحوز فخرأ أيها فخر ^(٢)
إن جئت مجلسه تجد عجا	منه العلوم تفيض كالبحر
بدراية ورواية ثبتت	بصحيح إسناد عن الفخر ^(٣)

وهو يشيد بعلمه وتنايه فيه أو بلوغه متناه ، حتى ليعده محيا له ، وينصح طالب العلم أن يقصد إلى مجلسه لينال شرف العلم وفخره ، إذ سيجده يفيض على طلابه بسيول من علومه وسيجده يجمع بين الدراية والرواية ، وبعبارة أخرى بين المعقول والمنقول ، فهو من أهل الاجتهاد والرواية الوثيقة بأستيد صحيحة عن رواة أعلام . وكانت قد حدثت اضطرابات في

الأمر لضرورة الشعر .

(٣) الفخر : القاتل .

(١) طما : مثلاً . مى : سال .

(٢) رفع تحوز ولم يحزمها عطفاً على فعل تنل في جواب

العقد الحادى عشر الهجرى وظنَّ أن الباب العالى فى إسطنبول سيَعين على الجزائر واليا جديداً ، ونرى القوجلى يذهب إلى إسطنبول على رأس وفد جزائرى سنة ١٠٦٥هـ/١٦٥٥م ملتصقا من السلطان - وكان حينئذ محمد خان الرابع - موافقته على إصدار فرمان بتولية يوسف باشا ، وما إن يضع القوجلى قدمه فى تلك المدينة حتى يتجه بقصيدة إلى مفتى إسطنبول أبى سعيد ، يمدحه بها ويسأله أن يكون شفيع وفداهم لدى الخليفة العثمانى فى قبول ملتصقهم ، ومن قوله فيها :

سعدت فذم في العز واستكمل العلياً	وذم في اقتناء الملوات مدى المحيا ^(١)
وكن ملجأ للوافدين فمن عين	أخا فهو في عون الذى كؤن الأشيا
شكايتنا مما دهانا بقطرنا	توالى علينا أعصر أورثت غيا ^(٢)
وكم من أمير ظن بكشف ضره	فلم يلف ما قد ظن بل قد وهى وهيا ^(٣)
وأولاهم في العزم والحزم والوفا	سمى الذى فى السجن قد عبر الرؤيا
فكن عوننا عند الخليفة وامضين	بنا بين أيدينا لحضرته العليا

وهو يدعو للمفتى أبى سعيد بدوام العز واقتناء الرفعة والشرف ويرجوه أن يكون ملجأ للوفد الجزائرى وعونا فى إنجاز مهمته عند الخليفة مشيرا إلى الحديث النبوى : « إن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ويقول إن شكايتنا مما نازل بقطرنا الجزائرى مشيرا إلى المنازعات فى السلطة وصراع الإنكشارية العثمانية ، وكل وال يظن أنه سيتلافى الاضطرابات بها حتى إذا تولاها عجز عن إصلاحها . وقال إن أصلح أمير لحكمها سى الذى أول الرؤيا فى السجن لصاحبه أى أنه يوسف باشا سى يوسف الصديق عليه السلام . ويطلب إلى المفتى أن يتقدم وفدهم لدى الخليفة شافعا لهم عنده فى تحقيق ما يأمون . ولا نعرف شيئا عن القوجلى بعد هذه الوفاة ، وقد نجح فى مهمته ، وتولى يوسف باشا أمر الجزائر . وعاد إلى موطنه ، وظل به حتى وفاته سنة ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م وهو يعد من أتبه شعراء العهد العثمانى .

§

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر غرض قديم من أغراض الشعر العربى فمنذ الجاهلية يتغنى به الشعراء طوال المصور التالية إلى اليوم مثالياتهم وأحلافتهم الرفيعة من مثل المروءة والكرامة والجود والشجاعة إلى غير ذلك من شيمهم وخصالهم الحميدة ، كما يتغنون عصبياتهم ومشاعرهم القومية ، ومن طريف

(٣) بلقى من ألقى : وجد . وهى : ضعف .

(١) الملوات جمع مطورة : الرفعة والشرف .

(٢) الفى : الضلال .

كما يلقانا في الجزائر من فخر قول شاعرها ابن أبي الرجال الشيباني وزير المزمين باديس مفتخرًا بقومه^(١) :

يَا آلَ شيبَانَ لَا غَارَتْ نَجُومُكُمْ وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ
أَنْتُمْ دَعَائِمُ هَذَا الْمَلِكِ مَذْ رَكُضَتْ قَبْلُ الْخِيُولُ لِإِسْرَامِ وَتَوَكِيدِ
الْمَتَعَمُونَ إِذَا مَا أُرْمَتْ أُرْمَتْ وَالْوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ الزَّوَارِيدِ^(٢)
سَيُوفُكُمْ أَفْقَدَتْ كَسْرَى مَرَايِبِهِ فِي يَوْمِ ذِي قَارٍ إِذْ جَاءُوا لِلْمَوْعِدِ

وهو يفتخر بقومه من آل شيبان ويدعو أن تظل نجومهم مضيئة في سماء العروبة وأن تظل نيرانهم متقدة لا تطفئ أبدًا ، إذ هم دعائم الملك العربي منذ نشبت الحروب وصهلت فيها خيول الفرسان لفرض المعاهدات وعقد الميثاق ، وقد اشتهروا بما ينعمون في الأزمات وبهبون من العطايا الجزيلة ، ويرفع أمام الأعين بطولتهم العظيمة يوم ذى قار الذي نكلوا فيه بالفرس تنكيلا شديدا : متقة عظيمة لقبيلته شيبان في الجاهلية لا ينساها العرب ولا ينساها التاريخ . ونرى الحسن بن الفكون الفسطيني المتوفى بأوائل القرن السابع الهجري يفتخر ببلدته « بجاية » ومسقط رأسه قائلا^(٣) :

دَعِ الْعِرَاقَ وَبَغْدَادًا وَشَامَهُمْ فَالْناصِرِيَّةُ مَا مِنْ مِثْلِهَا بَلَدُ
بَرْ وَخَرَّ وَسَرَجٌ لِلْعِيُونِ بِهِ مَسَارِحُ بَانَ عَنْهَا الْهَمُّ وَالنَّكَدُ
حَيْثُ الْحَوَى وَالْهَوَاءُ الطَّلُقُ مَجْمَعُ حَيْثُ الْبَنَى وَالْمَنَى وَالْعَيْشَةُ الرُّغْدُ
وَالنَّهْرُ كَالصَّلِّ وَالْجَنَاتُ مُشْرِفَةٌ وَالنَّهْرُ وَالْبَحْرُ كَالْمَرَاةِ وَهُوَ يَدُ
إِنْ تَنْظُرَ الْبَرَّ فَلْأَزْهَارُ يَانِمَةٌ أَوْ تَنْظُرَ الْبَحْرَ فَلْأَمْوَاجُ تَطْرُدُ
يَا طَالِبَا وَصَفْهَا إِنْ كُنْتَ ذَا نَصَفٍ قُلْ جَنَّةُ الْخَلْدِ فِيهَا الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ

وهو يفضل الناصرية أو بجاية على بغداد ودمشق ، ويقول إنه ليس مثلها بلد جمعت بين البر والبحر ومشاهد مَرَجَ بأشجاره ونباتاته البديعة التي تزيل الهم والنكد حيث مجتمع الحب والهواء الطلق الذي يستروحه المحبون ، وحيث الثراء والمنى والعيشة الطيبة ، والنهر يجري كصل أو أنعمان ، والجنان تخف من كل جانب ، وكثما البحر مرآة والنهر يدها الثابتة . إن تنظر إلى البر راعتك أزهاره ، وإن نظرت إلى البحر راعتك أمواجه المطردة ، وهي - يتصاف - جنة الخلد ، وفيها الأهل وفلذات الكبد من الولد أو الأولاد . ويقول أحمد^(٤) بن علي المليتي المتوفى سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٦ م :

(٣) تعريف الخلف ١٣٥/٢ .

(٤) تعريف الخلف ٦٨/٢ .

(١) المنتخبات لحسن حسني عبد الوهاب ص ٧٦ .

(٢) المزاوي جمع مزود : وعاء الزلا .

العزم ما ضُرِبَتْ عليه قبلى
والزهر ما أهداه غَضَنُ براعتى
فالمجد يمنع أن يزاخَمَ مؤردى
وإذا بلوت صنعةَ جازيتها
وإذا عقدتْ مودةَ أجريتها

والفضل ما اشتملتْ عليه ثيابى
والمسك ما أبدها نَفْسُ كلى
والعزم يلى أن يُسامَ جنلى
بجزيل شكرى أوجزىل ثوابى
مجرى طعامى من دُمى وشرابى

وهو يفخر فخرا مسرفا ، فالزم ما ضُرِبَتْ عليه خيامه ، والفضل ما اشتملت عليه ثيابه ،
والزهر كلماته مما كتبه قلمه ، والمسك نقش كتبه ، وبلغ من المجد أن لا يزاخمه أحد فى مورد
كما بلغ من العزم أن لا يُرعى جنبه ، فحماء لا يسام ولا يضام ، وإذا اختير صنعة أو معروفا
بادر بالشكر وجزيل الثواب ، وإذا عقد مع شخص مودة كانت غذاء لروحه وجرت مجرى
الطعام من دمه وشرابه . ويفخر ابن خميس

إنا - بنى قحطان - لم نُخلَقْ لِف
بسوفنا البيض اليمانية التى
تلى لنا الإحجام عن أعدائنا
أنصار دين الماشمى وحزبه
وحُماته بنفوسهم ونفسيهم
من التبابعة الذين يبابهم
ولأمرهم كانت تدن ممالك
أبوابهم مفتوحة لضيوفهم

ير غياثٍ ملهوفٍ ومنعة لاجى
طُبت لحز غلاصم ووداج^(١)
يوم اللقاء طهارة الأشماج^(٢)
وحُماته فى الجحفل الرجراج^(٣)
من غدر متالٍ وسورة هاج^(٤)
كانت تنسخ جُباة كل خراج^(٥)
دُنيا بلا جَنرٍ ولا إخراج
أبدا بلا قُفْلٍ ولا مِزلاج

وهو يفخر بأصوله من بنى قحطان اليمنيين الذين إنما خلقوا لفيات الملهوف وحماية اللاجئ
لهم بسيوفهم اليمانية التى صيغت لقطع الرقاب ، وإن أنسلهم لتلى لهم الإحجام عن لقاء
أعدائهم وسحقهم ، ومعروف أن أنصار الرسول ﷺ من أهل المدينة كانوا يمتن أو من
أصول يمنية ، وهو لذلك يفخر بنصرتهم للرسول وأنهم كانوا حماة حين تنشب الحروب حموه
بنفوسهم وبكل ما يملكون من غدر متالٍ ومن حدة هاج إذ كان منهم حسان بن ثابت وغيره
من شعرائهم الذين كانوا يذودون عن الرسول وصحه ضد شعراء قريش وأهائجهم . ويفخر
بأن منهم قديما التبابعة ملوك اليمن وأرواها فى الجاهلية الذين كان يُجبى لهم الخراج من
أنحاء دولتهم ، وكانت ممالك الدنيا تدن لهم طوعا لا قسرا ، وبلغوا من جودهم أن كانت

(١) طبت: صيغت. الغلاصم جمع غلصة: الحلق .
الوداج : عرق فى العنق إذا قطع انتهت حياة المنبوح .
(٢) الأشماج جمع مشج : النطفة .
(٣) الجحفل الرجراج : الجيش الذى لا يكاد يسير
لكثرة
(٤) سورة : حدة
(٥) تنسخ : تنزل .

أبولهم مفتوحة لضيوفهم دائماً لا تغلق أبداً . ويحتل عرش دولة بني عبد الواد أو الدولة الزيانية أكبر شعراء الفخر في الجزائر على مر العصور ، وأقصد أباحو موسى الثاني ، وحرى أن أقف قليلاً لأترجم له وأعرض أطرافاً من فخره .

أبو حو^(١) موسى الثاني

ولد أبو حو موسى لأبيه يوسف بن عبد الرحمن بن يغماسن في أواخر مقامه بغرناطة في بلاط سلطانها أبي الوليد بن فرج سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م وفي تلك السنة استدعى يوسف وإخوته إلى تلمسان سلطانها أبو تاشفين الأول (٧١٨ - ٧٣٧ هـ) ولّوه وأكرمهم وأعلى مكانتهم بين أمراء الأسرة ، وبذلك كان منشأ أبي حو موسى ومرابه الأول في تلمسان حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان وأرغم أباه وبعض أمراء الأسرة على الاستقرار بفاس ، وعلى شيخها أتم أبو حو موسى تعلمه ، وظل بها مع أبيه إلى بداية إمارة عمه أبي سعيد وأبى ثابت سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م حتى إذا فلك بهما السلطان أبو عنان المريني سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م رأبنا أباحو موسى يقصد تونس وسلطانها أباحو إسحق فأكرمهم غاية الإكرام ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م واستولى فيها السلطان المريني أبو عنان على تونس ارتحل أبو حو مع السلطان الحفصي إلى إقليم الجريد جنوبي الإقليم التونسي ، واضطرت الظروف لأبوان بالعودة إلى فاس مع جيشه في السنة التالية ، وعاد السلطان الحفصي وأبو حو موسى إلى تونس ، والتف حوله عرب الدواودة وأخذ يستعين بهم في مطاردة المرينيين ، وسارعت إليه قبيلة بني عامر شعبة أسرته ووطنه وتوجه بهم إلى الزاب ثم ورقلة ، ونازل أولاد عريف من قبيلة سويد المالالية وهزمهم هزيمة ساحقة ، وجاءه عقبها بأ وفاة السلطان أبي عنان المريني في أواخر ذي الحجة سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م فصمم على أخذ تلمسان ، وبايعه جميع من كان معه في الخامس من محرم سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م وجدّ في السير مع جموعه من العرب وغيرهم ، وتسامع به كل من كان في طريقه إلى تلمسان ، وكان أبو عنان ولّى عليها ابنه محمداً وترك معه حامية ، فحاصره أبو حو مدة كانت فيها مناقشات ، وتيقن المرينيون أنه لا طاقة لهم بمنازلة أبي حو ، فطلبوا الأمان ، وأسلموا تلمسان إليه وبايعه أهلها حين دخلها في غرة شهر ربيع الأول ، ويقول التنسي إنه « ساس أهل مملكته بالسيرة الحسنى وغمر الرعية قسطاً عدله الأسنى ، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه وحق يمضيه ، وعاقب يرضيه ، وسيف لحماية الدين يُنْضيه ، وسبيل إلى رضا الله تعالى ورسوله يقضيه » . وقد غيّر اسم الدولة ، إذ

ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التنسي ص ١٥٧ وما بعدها وكتاب أبو حو موسى الزبقي : حياته وأثره للدكتور عبد الحميد حاجات .

(١) انظر في ترجمة أبي حو موسى الثاني تاريخ ابن خلدون والجزء الثاني من بنية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد لمحمد بن خلدون وتاريخ بني زيان

كان اسمها بنى عبد الواد نسبة إلى قبيلتهم ، فرأى أن تسمى باسم الدولة الزياتية نسبة إلى زيان والدبغمراسن مؤسس الدولة . وقد أعاد لها عزها وسلطانها واسترد لها بلداتها في الجزائر : وهران والجزائر وتونس ، وكثرت الحروب في أيامه بينه وبين بعض القبائل العربية والدولة المرينية . وثار عليه ابن عمه أبو زيان بن السلطان أبي سعيد . وقصص له قبيلة علمر واستولى على مدينتي المدية ومليقة ، ونشبت بينه وبين أبي حمو وقائع ، واستطاع أبو حمو القضاء على ثورته في أواخر سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م . وتنهز السلطان عبد العزيز المريني فرصة تضعف جيشه من كثرة الحروب واستولى على تلمسان سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م وظل أبو حمو يتنقل في الصحراء حتى علم بوفاة السلطان المريني سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م فعاد إلى عاصمته تلمسان ، وبدأ منافسات بين ابنه وولي عهده أبي تاشفين وإخوته ويُنْتَخَل يحيى بن خلدون كاتب أبي حمو ومؤرخه في مؤامرة شُبرها ولي العهد سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٩ م حتى إذا كانت سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٥ م أغار السلطان أبو العباس المريني - واستولى - على تلمسان ، غير أن الأحداث في عاصمته فاس اضطرتة إلى العودة إليها سريعا ، وعاد أبو حمو إلى تلمسان . وتسوء العلاقات سوءا شديدا بين ولي العهد أبي تاشفين وإخوته ، مما جعل أبو حمو يخلع نفسه إرضاء لأبي تاشفين سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م ويتجه إلى الحج . وما إن نزل بجاية حتى غيّر رأيه ، وأتجه إلى تلمسان ، واستأجر كل من كان في طريقه وأقبل إليها بجموعه ، وعلم ابنه أبو تاشفين ، فلتحق بفاس واستعان بسلطانها المريني ، وأعانه بجيش كثيف والتقى مع أبيه وجموعه واقتلوا قتالا شديدا وكبا الفرس بأبي حمو وتوفى . وهو من خيرة سلاطين الأسرة الزياتية وقد نهض بالعلم في دولته واشتهر بها كثير من العلماء في مقدمتهم أبو عبد الله الشريف الذي بنى له مدرسة كبيرة أكثر عليها من الأوقاف ورتب فيها الجرايات للشيخو والطلاب . وكان نهض بالعلم نهض بالأدب ، ومن كتبه وشعره محمد بن يوسف الثغري الذي مرت ترجمته ، ومنهم محمد بن علي العصامي ومحمد بن صالح شقرون ، ومن مآثره احتفاله بالمولد النبوي احتفالا عظيما ، كان يُدأ فيه بمدحة نبوية له ثم تتوالى مدائح نبوية أخرى شطرا كبيرا من الليل وكان يُدعى إليه الناس من العامة والخاصة ، وتقام قبيل الصباح مأدبة ضخمة ، وتعرض لذلك في حديثنا عن شعره المدائح النبوية . وكان أدبيا بارعًا وله كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك ، وسلم به في حديثنا عن الشر في الجزائر . وكان يحسن نظم الشعر ، واحتفظ يحيى بن خلدون بكثير منه في الجزء الثاني من كتبه بغية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، وجمع منه كثيرا الدكتور عبد الحميد حاجيات في كتبه عن أبي حمو موسى ، وهو موزع بين فخر ونبوءات مع مرثيتين لأبيه . ونراه عقب استقراره في تلمسان وتمام الملك له ينظم ميمية طويلة يصور فيها حركته من تونس إلى تلمسان لاسترداد ملك آبيه وكيف أخذ يمد جيشا لمنازلة المرينيين من قبيلة علمر واقتحمه للزبا وريخ وورقلة والحمادي

والتفاته بالجنود المربين وبطشه بهم وتقدمه إلى وادى يسر ودخوله تلمسان عنوة ، وينهى القصيدة منشدا :

نظمتنا شَيْتَ الملك بعد افتراقه	وكم بات نهبا شمله دون ناظر
شدَدْنَا له أنزرا وشِدْنَا بناءه	بأوثق أركانٍ وأقوى دعائم
فصارتْ ملوك الأرض تأتي مطيعة	إلى بابنا تبغى التماس المكارم
وجاءتْ لنا من كُلِّ أوب ووجهة	تبايعنا طوعا وفود العمام
وقمتنا بأمر الله فى نصر دينه	وفى كف مأقد أخذتْ من مظالم

وهو يفنخر بأنه أعاد للملك الزياني المنهوب نظامه وسلطانه ، وشد أنزره وقوته وشاد بناءه وأعلاه أقوى ما يكون الإعلاء بأركان وثيقة ودعائم متينة ، مما جعل ملوك الأرض يقصدون بابه معلنين طاعتهم زلفى إليه والتماسا لمكارمه ، وإن قبائل العرب ليفدون عليه من كل ناحية وجهة تبايعه طوعا ، وإنه ليقوم بنصر دين الله ونشر العدل فى ربوع بلاده والقضاء على ما أحدث المريبون من مظالم ، ويفنخر فى قصيدة ثانية من وزن المتدارك بسياسة الرشيدة فى الحكم قائلا :

فَنَزَلْتُ الناس منازلهم	وتركت الظالم فى وجل
أحمى المظلوم وأنصره	وأقيم الحق على عجل
وأنا للحرب كفتريها	وأنا فى السلم أخو جدل
وأنا موسى وأبو حمز	أصلح للملك ويصلح لى
سيفى إن صُلّت بقائمه	أذنى المُرَاق إلى الأجل
وكذا كفأى إذا تبسطتْ	من كان مقلأ عادَ ملى

فهو يسوس رعيته سياسة حميدة ينزل الناس فيها منازلهم دون خفض أو رفع ، وهى سياسة تقوم على العدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وإنه ليحمى المظلوم من ظالمه وينصره عليه ، ويقيم الحق سريعا لا يخشى فيه ملامة لائم ، وإنه شجاع شجاعة عتبرين شداد فى الحرب ، أما فى السلم فإنه صاحب دعة وحياة آمنة رافهة ، ويقول أنا أبو حمز موسى أصلح للملك بعدلى وحكمى القويم ويصلح لى ، وإنه لبطل فى الحرب يقطع رقاب المارقين والثائرين ، أما فى السلم فغيث مبدّر وإن كفيه لتتثران الأموال نثرا ، حتى ليصبح المقل الفقير مليا ثريا ، ويقول مناخرا :

وما يسرى العلياء ههنا جلاله	إذا هام قومٌ بالحسن التواضع
بروق السيوف المشرفيات والقنا	أحبُّ إلينا من بروق المباسم

وأحسنُ من قَدْ الفَتَاةَ وَخَدَّهَا قُدُودُ العَوَالِي أَوْخَدُودِ الصَّوَارِمِ^(١)
 وَأَمَّا صَهِيلُ السَّابِجَاتِ لَدَى الوَغَى فَأَشْجَى لَدَيْنَا مِنْ غِنَاءِ الحِمَائِمِ
 إِذَا نَحْنُ جَرَدْنَا الصَّوَارِمَ لَمْ تَعُدْ لِأَعْمَادِهَا إِلَّا بَحْرُ الْفَلَاصِمِ^(٢)

وهو يقول عن نفسه وقومه إذا كان الناس يهيمنون بالحسان الجميلات فإنتا لا نهيم إلا بالعلياء والمجد والشرف ، وإن بروق السيوف المشرفيات والرماح لأحب إلينا من بروق المباسم الفتاة ، وأحسنُ عندنا من قَدْ الفَتَاةَ وقوامها وخدّها الجميل قُدُودِ الرماح وخذود السيوف الصوارم الفاطمة ، وإن صهيل الخيل في الحرب لأشجى عندنا من غناء الحمائم الذي طالما تنفنى به الشعراء ، وترثنا في الحرب إن نحن شهرنا السيوف لم تعد لأعمادها إلا بحرُ الفلاصم والرقاب ، ويمضى في القصيدة قائلاً :

أَلَا أَيُّهَا الْآتِي لظِلُّ جَنَابِنَا نَزَلَتْ بِرَحْبٍ فِي عِرَاصِ المَكَارِمِ^(٣)
 وَقَوَّلَتْ مِنَّا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَفَاضَ عَلَيْكَ الْجُودُ فَيْضُ الغَمَائِمِ
 بِهِمَّتْنَا الْعَلِيَا سَمَوْنَا إِلَى الْعُلَا وَكَمْ دُونَ إدْرَاكِ الْعَلَا مِنْ مَلَاحِمِ

وهو يشير من ينزل بجانبهم وفي كفهم أنه ينزل برحب أو واسع في عرصات أو ساحات المكارم ويقابل بما يليق به ، ويفيض عليه الجود فيض السحاب الماطل . ويقول إتهم لذورهم عالية سميت بهم إلى العلا وكَمْ دُونَ إدراكها والحصول عليها من ملاحم وحروب طاحنة ، ويقول مفاخرًا في انتصار له على الدولة المربنية :

لَقَدْ نَهَضْتُ بِعَمَلِ اللَّهِ مُشْكَلا عَلَى الْإِلَهِ وَمَنْ يَرْجُمُوهُ لَمْ يَخْبِ
 بِعَمَلٍ لَجِبِ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِهِ كَالْبَحْرِ أَعْظَمَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ لَجِبِ
 مَنْ كُلِّ لَيْثٍ شَجَاعَ فَارِسٍ بَطْلٍ حَامِيَ الذُّمَارِ مِنَ الْأَعْجَامِ وَالْعَرَبِ^(٤)
 عَلَى سَبَاقِ خَيْلٍ ضَمُرٍ غُرْبٍ تَزْهَى بِمَجْلِيهَا كَالْخَرْدِ الْعُرْبِ^(٥)
 بِهَا وَطَنُنَا بِلَادًا لَا سَبِيلَ لَهَا وَمَا أَرَدْنَا تَنَاوُلْنَاهُ مِنْ كَتَبٍ^(٦)

وهو يقول إنه نهض لحرب المربنيين مستعينا بربه متكلًا عليه راجيا النصر منه ، ومن يرجوه لا يخيب رجاءه ، وقد نازلهم بعمر كثير ضاق الفضاء به ، وكأته بحر زاخر بالليوث الشجعان والفرسان الأبطال حماة الذمار من العجم والعرب ، يركبون إلى الحرب خيولا ضامرة نجية

(١) العوالى : الرماح . الصوارم : السيوف .
 (٢) الفلاصم جمع غلصمة : ملغى للهواة والريء .
 (٣) عرصات : الساحة .
 (٤) الذمار : الحصى وما يحمله الإنسان من الأهل والولد .
 (٥) الخرد جمع خريدة : الجميلة . عرب : معجبة بنفسها .
 (٦) كتب : قريب .

تزهى بجملها زهو الجميلات للمجبات بحسنهن. ويقول إنهم يطئون بحوافرها بلادا بعيدة يذلونها تذليلا ، ولا بلدا ولا ناحية أردناها إلا انتصرنا فيها وانتقادت إلينا انتقادا . وجمع الحافظ التسي فيه كتابا سماه : «راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حو من الشعر وما قيل فيه من الأمداح».

(ب) شعراء المهجاء

المهجاء قديم في الشعر العربي ، وكان في الأصل لعنات بصيها الشاعر على القبيلة المعادية أو على سيدها راجيا أن تنزل بهم المقادير هزائم متوالية ، وتحول من هذه اللعنات إلى ذم شديد على لسان الشاعر الجاهلي ، فما يرجعون من حروبهم حتى يسلب شعراؤهم على أعدائهم ألسنتهم ملحقين بهم مثالب شتى . ومعروف ما كان بين مكة والمدينة لعهد الرسول ﷺ من أهاج ينظمها شعراؤهما عقب كل معركة . واستحال المهجاء في العصر الأموي على لسان الفرزدق وجريز إلى ما يشبه مناظرة حادة في بيان فضائل ومساوئ عشيرتهما وقبيلة تسمم التي كان يدافع عنها الفرزدق وقيس التي كان يدافع عنها جريز . وظل الشعراء لعصرهما يكثرون هم وشعراء العصر العباسي الأول من المهجاء ، وتحول عند الأخيرين إلى بيان المساوئ الفردية والاجتماعية في المهجوع مع التهوين منه والإيلام بإلاما شديدا ، وطار شرر كثير من هذا المهجاء إلى الأقاليم العربية . وكان قد بارح المغرب إلى بغداد الشاعر الجزائري بكر بن حماد التاهرتي وهو أول شاعر جزائري له أهاج مختلفة ، وسترجم له عما قليل ، وكان يعاصره ابن خزاز التاهرتي في القرن الثالث الهجري ، وكان قد نزل مدينة تنس شمال تاهرت على البحر المتوسط ، فقال بأسى على بعده عن مسقط رأسه هاجيا تنس ومقامه فيها^(١) :

نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر	وأصبحتُ عن دار الأحبة في أسر
وأصبحت عن تاهرت في دار غربة	وأسلمني مر القضاء من العُذر
إلى تنس ذات النحوس فأنها	بُاق إليها كل متقص العُمر
بلاذ بها البرغوث يحمل راجلا	ويأوى إليها الذئب في زمن الحر
ترى أهلها صرعى ومن أم يلدّم	يروحون في سكر ويفدون في سكر

فالنوم بُعد عن عينه لا يلم بها وفرغ منه الصبر ، حتى ليشعر كئنه في أسر بعيد عن دار الأحبة : تاهرت ، إذ أسلمه مر القضاء إلى دار غربة إلى تنس ذات النحوس التي لا يدفع إليها إلا متقص العمر ليشقى بما فيها من براغيث ، وإن الذئاب لتملأ عرصاتها صيفا ، أما أم يلدّم أي الحصى ، فكل أهلها من صرعاها ، وإنها لتخدر عقولهم وكأنتهم في سكر دائم . ولمحمد بن الحسيني الطنبلي في أحد قصوده^(٢) :

(٢) الجذوة للحبيدي ص ٥٠ .

(١) الأزهار الرياضية للباروني ص ٤٧ .

وَوَغِدَ إِنْ أُرِدْتُ لَهُ عَقَابًا عَفَى عَنْ ذَنْبِهِ حَسْبَىٰ وَدِينِي
يَوْمُنِي بَنِيَّةٌ مُسْتَطِيلَةٌ وَهَلَقَانِي بِصَفْحَةٍ مُسْتَكِينٍ
وَقَالُوا قَدْ هَجَاكَ فَقُلْتُ كَلْبٌ عَوَى جَهْلًا إِلَىٰ لَيْثِ الْعَرِينِ

وهو يقول عن خصمه إنه رَذُلٌ دَنِيءٌ إِنْ فُكِرْتُ فِي عَقْلِهِ عَفَا عَنْ ذَنْبِهِ شَرَفِي وَدِينِي ،
يَأْكُلُ لَحْمَهُ غَالِبًا وَيَلْقَاهُ خَاضِعًا ذَلِيلًا ، وَمِثْلُهُ إِلَّا مِثْلُ كَلْبٍ يَمُوتُ إِلَىٰ أَسَدٍ فِي عَرِينِهِ وَمَأْوَاهُ .
وَكَانَتْ أَسْرَةُ هَذَا الشَّاعِرِ قَدْ هَاجَرَتْ إِلَىٰ قَرْطَبَةِ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ ، وَمِنْهَا عَبْدُ الْمَلِكِ الطَّبِئِيُّ
الْمُحَدِّثُ جَلِيسُ الْمَنْصُورِينَ أَبِي عَامِرٍ ، وَيُرْوَى أَنَّ الْمَنْصُورَ عَدَا عَلَىٰ شَخْصٍ يُسَمَّى الْمُحَدَّلِيَّ فِي
مَجْلِسِهِ وَضَرَبَهُ ضَرْبًا مُوجِعًا ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ مُتَشَفِّيًا فِيهِ وَهَاجِبًا ^(١) :

شَكَرْتُ لِلْعَامِرِيِّ مَا صَنَعَا وَلَمْ أَقُلْ لِلْمُحَدَّلِيِّ لَقَا
لَيْثُ عَرِينٍ عَدَا لِعَزَّتِهِ مَفْتَرِسًا فِي وَجَاهِهِ ضَبْعَا
وَدِدْتُ لَوْ كُنْتُ شَاهِدًا لَهَا حَتَّى تَرَى الْعَيْنُ ذَلِكَ مَنْ خَضَعَا
إِنْ طَالَ مِنْهُ سَجُودُهُ فَلَقَدْ طَالَ لِفَيْرِ السُّجُودِ مَارِكَمَا

وهو يشكر العامري ولا يقول للمحدلي : لِمَا أَمَى أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَكَ ، وَيَصُورُ الْعَامِرِيُّ لَيْثَ
عَرِينٍ اقْتَرَسَ ضَبْعًا فِي وَجَاهِهِ أَوْ يَتَنَّهُ وَمَأْوَاهُ ، وَيَقُولُ لَيْثُهُ كَانَ حَاضِرًا لِيَرَى مَارَكَبَ الْمُحَدَّلِيِّ
مِنَ الذَّلِّ وَالْهَوَانِ ، وَيَرْمِيهِ بِأَنَّهُ كَثِيرًا مَارِكِعٌ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ ، يَرِيدُ أَنَّهُ عَاهِرُ الْخُلُوعِ ، وَهُوَ
هَجَاءٌ مُفْذَعٌ . وَكَانَتْ الْجَزَائِرُ وَغَيْرُ الْجَزَائِرِ مِنَ الْبِلَادِ الْمَغْرِبِيَّةِ تَعْتَنِقُ مَذْهَبَ الْأَشْعَرِيِّ غَالِبًا ،
وَبَلَغَ مِنْ تَغْلُغْلِ عَقِيدَتِهِ فِي نَفْسِهِمْ أَنَّ نَرِي بْنَ مَرْزُوقٍ الْخَطِيبَ الْجَزَائِرِيَّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ
٧٧١هـ / ١٣٧٠مَ يَغْضَبُ حِينَ سَمِعَ قَوْلَ الزَّمْخَشَرِيِّ فِي كِتَابَةِ مَعْزُضٍ بِأَهْلِ السَّنَةِ بَلْ هَاجِبَا
هَجَاءٌ قِيحًا قَاتِلًا :

وَجَمَاعَةٌ سَمَوْا هَوَاهِمَ سَنَةٍ وَأَرَاهِمُ حُمْرًا لِعَمْرِي مَوْكَنَةٍ
قَدْ شَبَّهُوا بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا شُعَ السَّوَرِيِّ فَضَرُّوا بِالْبَلْكَفَةِ

وهو يقول إِنْ جَمَاعَةٌ سَمَتْ هَوَاهَا الَّذِي تَعْتَنِقُهُ سَنَةٌ ، وَهِيَ حُمْرٌ ، عَلَيْهَا وَكُفُّهَا أَوْ
بِرَادِعُهَا ، إِذْ شَبَّهُوا اللَّهَ بِخَلْقِهِ ، فَقَالُوا إِنَّهُ يُرَى مُتَسَتِّرِينَ بِالْبَلْكَفَةِ أَوْ يَقُولُهُمْ إِنَّهُ يَرَى بِلَاكِيْفَةٍ
حَتَّى يَنْفُوا عَنْهُ التَّشْبِيهَ بِالْأَدَمِيِّينَ ، وَرَدُّ عَلَى الزَّمْخَشَرِيِّ كَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَزَائِرِ وَغَيْرِهِمْ ،
وَرَدُّ ابْنِ مَرْزُوقٍ الْخَطِيبِ مَعْفًا لَهُ وَلَأَصْحَابِهِ مِنَ الْمَعْزَلَةِ جَمِيعًا قَاتِلًا :

(١) الذخيرة لأبي نعيم تحقيق د. إحسان عباس ١/ ٥٤٣ .

وجماعة عرفت لعمرى بالسفة
عدلت عن النهج القويم فلقبت
صلت وقالت لن يرى رب الزرى
وكذلك أسلمت الأمور لنفسها
كيف السيل لصرها عن غيها
وتمسكت بضلال أهل الفلسفة
غذية وعدولها عن معرفه
يوم الجزاء وألزمت نفى الصفة
هيئات تنفذ نفسها من تلفة
والعدل يمنع صرفها والمعرفه

ولبن مرزوق الخطيب يرمى المعتزلة بالسفه ، وأنهم ضلوا ضلال الفلاسفة الملحدين إذ عدلوا عن النهج القويم وسموا أنفسهم عدلية ، لأن من مبادئهم وجوب العدل على الله جل شأنه ، ويقول إنهم ضلوا حين نفوا رؤية الله يوم القيامة بينما أثبتها أهل السنة وقالوا إنها رؤية بلا كيفية . وينسب على المعتزلة قولهم بنفى الصفة عن الله وقولهم إن صفته هي عين ذاته . ويستبعد أن يستطيع المعتزلة إنفاذ أنفسهم من تلف العقيدة ويتسنى لو وجد سبيلا أو طريقا لهداهم ، ولكن كيف ذلك وهم يؤمنون بالعدل على الله وغير ذلك من مبادئهم المخالفة لمبادئ أهل السنة . ونمضى إلى العهد العثماني ونلتفى فيه بلبن على الفتى الحنفى فى القرن الثلى عشر الهجرى ، وكان شاعرا بارعا ونراه يهجو خصومه وحساده قائلا :

نصبوا حبال مكرهم وتعرضوا
بسهامهم للنجم فى كيوينة
من كل أهوج أرغى الأخلاق قد
أرئى على فرعون مع هامه
أجلاف هذا المصر حقاً لو رأوا
حسان ما جنحوا إلى إحسانه
إن أنكروا فضلى لخبث طباعهم
فالدرد ليس يعز فى أوطانه

وهو يقول إنهم نصبوا حبال مكرهم وأرسلوا على سهام هجائهم ولكن تى لهم ، إنهم يحاولون أن يصيبوا نجما لا يستطيعون الوصول إليه ، نجما شديد البعد هو كيوان أو زحل وهل منهم إلا أهوج أو أحرق قد زاد على فرعون ووزيره هامان فى بهتانه ، إنهم أجلاف لا يقدرّون الشعر ولا الشاعر حتى لو كان حسان بن ثابت شاعر الرسول فى روعة بيانه ، ويقول إنهم إن أنكروا فضلى لخبث طباعهم وضمايرهم ، فالدر لا يُعرف فضله فى وطنه . وكان ولاية العثمانيين يطمشون أحيانا بالجزائريين ، وكان الشعراء يوجهون إليهم سهام هجاء كثيرة من شعرهم الفصيح والشعبي على نحو ما كان يصنع سعيد المنداسى ، وهو حرى بالترجمة له مع بكر بن حماد التاهرتى الذى مر بنا ذكره .

بكر^(١) بن حماد التاهرتى

تقع تاهرت مسقط رأس حماد فى الجنوب الغربى من مدينة الجزائر ، ومر بنا فى غير هذا

والحديث المبارك الملى ٥٣/٢ . وقد جمع ديوانه وشرحه
وقدم له محمد بن رمضان شارش باسم الدر الوقاد من
شعر بكر بن حماد التاهرتى .

(١) انظر فى ترجمة بكر رياض النفوس للملكى ومجال
الإيمان للباغ ٩٢/٢ والأرهار الرهاضة لسليمان
البارونى ٧١/٢ وما بعدها وتاريخ الجزائر فى القديم

للموضع أن عبد الرحمن بن رستم أقام بها الدولة الرستمية ، وكان يعتنق مذهب الخوارج الإباضية ، وأنته جموع الخوارج من كل مكان في المغرب . وكان أئمة هذه الدولة - على شاكلته - يفسحون لأهل السنة والمعتزلة في مدينتهم ، وفيها ولد بكر بن حماد سنة مائتين للهجرة ، وكان من قبيلة زناتة البربرية الضخمة ، ولا نعرف شيئا عن أسرته . ويبدو أن أباه لم يكن ياضيا ، وكانت بتاهرت حركة علمية خصبة بُشّتها فيها الدولة الرستمية ، ووجهه أبوه إلى العلم ، فحفظ القرآن ، وأخذ يختلف إلى حلقات العلماء وشُغف بالشعر وتفتحت ملكته مبكرة ، كما شُغف بحلقات المحدثين ، ونراه يرحل في سن السابعة عشرة إلى القيروان فالبلاد الشرقية ، يأخذ الحديث واللغة ، وأوغل في رحلته حتى البصرة وفيها تتلمذ على مسدد بن مسرهد وأخذ عنه مسنده في الحديث النبوي ، وسيعنى فيما بعد بإذاعته في الديار المغربية . وتتلمذ على شيوخ البصرة في اللغة حينذاك من أمثال ابن الأعرابي ، ودفعه طموحه إلى أن يذهب إلى بغداد ، وفيها لفت أبا تمام وغيره من شعرائها الكبار بمهارته في الشعر ، ففسحوا له في مجالسهم ، وتعرّف على دعلج هجاء الخلفاء : المعتصم العباسي وغيره ، ويبدو أن الفتى الجزائري مدح المعتصم وأجزل له في العطاء مما جعله يخاصم دعلجا ، وربما خاصمه غضبا لخليفة المسلمين ، ونراه يحرّضه على عقابه والقصاص منه قائلا :

أبهجو أمير المؤمنين وزهطه ويمشي على الأرض العريضة دغيلُ
أما والذي أرسى ثيرا مكانه لقد كادت الدنيا لذاك تززلُ
ولكن أمير المؤمنين بفضله يهيمُ فيعمو أو يقول فيفعلُ

وكأنه في الكلمة الأخيرة من أبياته يحرّض المعتصم على الفتك بدعلج ، ويقال إن أبا تمام حين سمع منه هذه الأبيات قال له : لقد قتله يا بكر ، وكأتما أعجبتك كلمة أبي تمام - حبيب بن أوس - فألحق بالأبيات بيتين إشارة إلى كلمة أبي تمام قائلا :

وعاتني فيه حبيبٌ وقال لي لسانك محذور وسُكٌ يقتلُ
وإني - وإن صرّفت في الشعر منطقي - لأنصف فيما قلتُ فيه وأعدلُ

ولم يطل ببكر المقام في بغداد ، فقد عاد إلى الديار المغربية سريعا واستقر في القيروان عاصمة المغرب الأدنى (الإقليم التونسي) واختلف إلى حلقات شيخين كبيرين فيها هما سحنون صاحب المدونة في فقه مالك الذي كانت شهرته تدوى في المغرب ، والثاني محدث كبير هو عون بن يوسف الخزاعي وكان قد تتلمذ لعبدالله بن وهب المحدث المصري صاحب كتاب الجامع في الحديث ، وعنه أخذه بكر بن حماد ، كما أخذ في البصرة مسند مسدد بن مسرهد . ويبدو أنه أخذ يعني بعد وفاة شيخيه الكبيرين : عون وسحنون برواية مسند مسدد وجامع ابن وهب وإملائهما على الطلاب في القيروان ، وقد نال في دراسته للحديث النبوي شيئا من

الشهرة فى زمنه ، إذ يقال إنَّ الحافظ الأندلسى الكبير قاسم بن أصبغ (٢٤٤ - ٣٤٠ هـ) حضر دروسه وأخذ عنه أحد الكتّاب المذكورين آتفاً أو هما معا . وكان بكر مع تدرسه الحديث النبوى يمدح أمراء الأغالبة حكام القيروان ، ويسبغون عليه بعض عطائهم ، ويروى أنه قصد يوماً الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد (٢٦١ - ٢٩٠ هـ) فى قصره حاملاً إليه بعض مديحه حسب عادته ، فسمعه الحاجب وقال إنَّ الأمير مشغول الآن بحواربه ، وأمر أن لا يصل إليه أحد ، فكذب بكر ليأتا فى رقعة ، وتلطف إلى الحاجب فى إيصالها إليه ، وفيها :

خُلِقَ الفسوفى للرجال يَلِيَّةُ فهنَّ موالينا ونحن عبيدا
إذا ما أردنا الورْدَ فى غير حينه أتنا به فى كل حين خدودها

وبمجرد أن قرأ الأمير الرقعة أرسل إليه بصرّة بها مائة دينار ، ولما رويها هذا الخبر لندل به على أن بكرا كان دائم الصلة بأمراء الأغالبة بمدحهم ويشيونه على مديحه . وكان يزور تاهرت أحيانا للقاء أهله ومعارفه فيها ونراه بها فى عهد أميرها الرسمى الإباضى أبى حاتم يوسف بن محمد بن الأملح (٢٨١ - ٢٩٤ هـ) ويبدو أنه عاتبه على مديحه للأغالبة دون حكام بلده ، فقال له فى مدحه :

أبا حاتم ما كان ما كان بِفَضَّةٍ ولكن أتت بعد الأمور أمور
فأكرهنى قومٌ خشيتُ عقابهم فداريتهم والدائرات تدور

وكان يزور بعض الأمراء الأدارسة فى المغرب الأقصى وينال جوائزهم ، والمظنون أنه بأخرة من أيامه اختار المقام بتاهرت إلى أن لى نداء ربه سنة ٢٩٦ للهجرة .

وديون بكر بن حماد سقط من يد الزمن غير أن الأستاذ محمد بن رمضان شاول استطاع أن يجمع طائفة كبيرة من أشعاره تناول من أغراض الشعر العربى الهجاء والوصف والمدح والزهد مع الوعظ والاعتذار والثناء ، وذكر فى الهجاء المقطوعة السالفة فى دعلب التى يمرض فيها الخليفة المتصم على الفتك به . ويبدو أنه لم يكن يسلم من لسانه أحد ، حتى المحدثون ، إذ نراه يسلق شيخا جليلا من شيوخهم وحفاظهم هو يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣هـ / ٨٤٧م قائلا :

لقد جفت الأنلام بالخلق كلهم فمنهم شقٌّ خائبٌ وسعيدٌ
أرى الخير فى الدنيا يقلُّ كثيرة وينقص نقصا والحديث يزيد
ولابن معين فى الرجال مقالة سيئال عنها والملِكُ شهيد
فإن بك حفا قوله فهو غيبة وإن بك زورا فلقباص شديد
وكل شياطين البعاد ضعفة وشيطان أصحاب الحديث مرید

وهو يقول إن أقلام القضاء أحاطت بالخلق فمنهم شقى خاسر وسعيد فائز ، وإن الخير فى الدنيا أخذ فى القلة والنقص ، والحديث فى ذلك يطول . ويتعرض ليحى بن معين مؤسس نقد رجال الحديث مما هباً بقوة لنشوء علم الرجال أو علم الجرح والتعديل ، وهو علم محض رواية الحديث النبوى الشريف ، ونفى عنها الزيف والكذب والتدليس ، وهل من يوثق راوياً للحديث يكون منتاباً له أو يكون قد أولاه شرفاً رفيحاً ؟ ومعاذ الله أن يكون يحى بن معين قد زور على راو صدوق للحديث تجريحاً أو اتهاماً بسوء ، ومعاذ الله ثلثة أن يذكر بكر الشياطين وأن يلقب يحى بثمة شيطان مريد أو خبيث للمحدثين ، نصر الله وجه يحى بن معين وجزاه الجزاء الأوفى عن الحديث النبوى والمحدثين . وكان عمران بن حطان الخارجى قد أشاد بشقى الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل على بن أبى طالب ، وفى طعنه له يقول (١) :

يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
بئى لأذكره حيناً فأحببته أوفى البرية عند الله ميزانا

وسمع - أو قرأ - البيتين بكر بن حماد السنى فاستشاط غضباً وحمية للإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعارض البيتين بقصيدة هجا فيها ابن ملجم هجاء مرياً مع بيان ما للإمام على من فضل عظيم فى الإسلام ليبن مدى جناية ابن ملجم وما ارتكب من إثم شنيع ، وفيها يقول :

قل لآبن ملجم والأقدار غالبية هدمت - وملك - للإسلام أركاننا
قلت أفضل من يمشى على قدم وأول الناس إيماناً وإسلاماً
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما سن الرسول لنا شرعاً وتبينا
صهر النبى ومولاه وناصره أضحت مناقبه نورا وبرهاناً
وكان منه - على رغم الحسود له - مكان هرون من موسى بن عمران
ذكرت قاتله والدمع منحدر فقلت سبحان رب الناس سبحاناً
أشقى مراد إذا عدت عشائرها وأخسر الناس عند الله ميزاناً
يا ضربة من شقى أورثته لظى مخلداً وأتى الرحمن غضباناً

وبكر يصور فضائل الإمام على لجسد جريمة ابن ملجم وفداحة ما اقترفه إذ هدم ركناً ضخماً من أركان الإسلام ، وكان على أول الناس إيماناً وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكان صهره وسيفه المسلول على أعدائه وأعداء الدين فى جميع غزواته . ويشير إلى الحديث النبوى : « على منى بمنزلة هرون من موسى » . ويته ليزرف عليه الدمع مدراراً ، ويقول إن ابن ملجم أشقى قاتله مراد وأخسر البرية ميزاناً عند ربه ، وبإلها ضربة أوطنة ستصلية نار جهنم خالداً فيها مع غضب الله عليه غضباً شديداً . وواضح أنها أهجية مريوة لسنى ضد قاتل

(١) انظر كتابها : العصر الإسلامى فى ترجمة ابن حطان ص ٣٠٧ .

الإمام علي . ولعل في كل ما أسلفت ما يصور شعر بكر بن حماد ، وهو استهلال مبكر في القرن الثالث الهجري لما يتظر الجزائر في الشعر من مستقبل خصب .

سعيد^(١) النداسي

هو سعيد بن عبد الله النداسي الأصل التلمسني موطناً ومنشأً ، عاش في القرن الحادي عشر الهجري ، ولا يعرف تاريخ مولده كما لا يعرف شيء عن أسرته ونشأته ، ولابد أن نشأ مثل لداته يعني بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه أخذ ينهل من حلقات علماء اللغة والبلاغة والأدب والعلوم الدينية . وتفتحت موهبه الشعرية مبكرة واستطاع أن يجمع بين الشعر الشعبي والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من النوع الأول وشهره فيه قصيدة نبوية سماها « العقيقة » في نحو ثلاثمائة بيت . وكانت تلمسان في شبهة تغل دائما بفتن واضطرابات ضد العثمانيين وظلمهم ، وكان أهلها يثورون ضدهم ويثور معهم الشاب سعيد النداسي ، وكثيرا ما كان يذكي ثورة التلمسانيين بشطائيا من شعره الشعبي ، وأحيانا يفرغ إلى سهام من الشعر الفصيح ، وخوفه كثيرون مغبة ذلك . وحدث أن أغار على تلمسان صاحب سجللمسة محمد بن الشريف رأس الدولة العلوية بالمغرب الأقصى في الخمسينيات من القرن الحادي عشر الهجري ، وأقام بها فترة قصيرة التحق فيها سعيد النداسي بنحاشيته ، وعاد معه إلى عاصمته ، ويقول صاحب الاستقصا إن النداسي مدحه بفصائد شبيهة كثيرة وإنه أعاد عليه كثيرا من نواله ، وخلفه أخوه الرشيد ، وظل سعيد يقدم إليه مدائحه الشعبية ، والرشيد يقره ويجزل له في العطاء حتى قال صاحب الاستقصا إنه منحه خمسة وعشرين رطلا من الذهب جائزة على بعض مدائحه فيه ، وتوفى وخلفه أخوه السلطان إسماعيل العلوي سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م واتسع في الاستيلاء على بلدان المغرب الأقصى وخلّص كثيرا مما كان منها شمالا يد الإسبان . وكان عهده عهد عدل وأمن ورخاء ، وشيد كثيرا من الآثار ، مما جعل سعيدا النداسي يتغنى طويلا بمدائحه في شعره الشعبي ، وكان السلطان إسماعيل بدوره يسبغ عليه كثيرا من عطاياه ، حتى يقال إنه أعطاه خمسة وعشرين رطلا من الذهب الخالص جائزة على بعض مدائحه فيه . وقد توفى الشاعر في عهده بسجللمسة ، ويقال بل إنه عاد إلى بلده وتوفى فيها ولا يعرف تاريخ وفاته ، واستظهر بعض الباحثين أنها كانت سنة ١٠٨٨هـ/ وربما كانت بعد ذلك بسنوات معدودة .

وشعر سعيد النداسي سواء الشعر الشعبي والشعر الفصيح يتناول المديح كما أسلفنا والغزل

ونظر في الدولة العلوية وعلاقة النداسي بها الاستقصا في مواضع مختلفة .

(١) انظر في ترجمة سعيد النداسي وشعره ديوانه تحقيق وتقديم الأستاذ راجع بونار (طبع الجزائر) . وراجع ديوان النداسي في الأدب الشعبي لمحمد بخوشة .

والمذائح النبوية والموعظة والوصف ، وكان يكثر من الهجاء - قبل مبارحته تلمسان - للعثمانيين ، ومن قوله في وصف أهاجيه :

كأن قسوافي الشعر منى جنادل وكف الزمان منجنيق بها يرمى

وهو يقول إنه كان يرسلها جنادل على العثمانيين وغيرهم ، واضطرته إلى مبارحة تلمسان خشية أن ينزل به العثمانيون عقابا أليما ، ومن أشد أهاجيه فيهم أهجية طويلة سماها : « الإعلام فيما وقع للإسلام » نظمها عقب مذبة لحاكم تلمسان العثماني ، إذ سلب جنده على بعض أعلامها وعلمائها ، فسفكوا دماءهم بغيا وظلما وهدموا مبانيهم وسبوا نساءهم وذريعتهم . وكان أحد الفقهاء المسمى ابن زاغو سوغ لهم ذلك في فتوى جائرة ، فصب عليه وعلى العثمانيين في أهجيته سيلط هجائه غاضبا غاضبا شديدا ، وهو يستهلها بهجائهم بمثل قوله :

وأكبر شيء أفسدته أكفهم تلمسان عني الغرب علما وإيمانا
وكانت لهم لما أرادوا فسادها أرادل منهم كالبطارق أعوتا

وهو يقول إن أكبر شيء أفسدوها تلمسان حاضرة الدولة الزيانية أم مدائن الجزائر علما ودراسات دينية ، أفسدها منهم أرادل كبطارقة النصارى العتاة ، وبلغت للفقهاء ابن زاغو الذي قدم لهم فتوى سولت للحاكم العثماني جريمته الآثمة فيقول :

فقل لابن زاغو للضلال أئمة تدبر - لحاك الله - ما قال مولانا
ولا تركوا - والركن منك سجيئة - كأتك لم تسمع من الله قرآنا
قلت فحول العلم صبرا ولم نزل على عهدك المعلوم في الزيف هيما
فأبمت بالفنوى نساء كريمة وبئمت بالقول المضلل ولدنا

وهو يقول إن ابن زاغو الفقيه إمام لا من أئمة التقوى بل من أئمة الضلال والفساد في الأرض ، وبتجه إليه قائلا : تدبر - بحك الله - ما قال الله في كتابه : ﴿ ولا تركوا إلى الذين ظلموا فمسكم النار ﴾ أي لا تبيلوا ، ويقول إنه دائما من المائلين إلى العثمانيين الظالمين ، وبس الميل لقد أفتيتهم بقتل العلماء العظام وما زلت على عهدك غارقا في الزيف والضلال ، لقد أبمت نساء وجعلتهن ثكلى فائدات لأزواجهن الذين يعملونهن باقيات عليهم نادبات وبئمت أطفالا صغارا لا تخاف الله ولا تخشاه . ويصور بعد ذلك في الأهجية سفك العثمانيين لدماء العلماء وما حملوا من رهوس كم باتت ساجدة لله وكم ظلت تدرس الدين وكسب التوحيد من مثل السنوسية الكبرى سوى من قيدوهم بالأغلال وزجوا بهم في السجون ، ويعود إلى تصوير فتوى ابن زاغو ويكويه بمثل قوله :

وقال اخلوا بالقتل نَزَعُ غيرهم
تعالوا تروا ضَيْلٌ في زِي ناسك
وقد قُدَّ ذلك الثوبُ من كل موضع
إذا شيم منه الخير فالبرق كاذبٌ
ولا رَقَّ ذاك القلبُ منه ولا لانا
يطولُ من ثوب الضلالة أُرْدانا
ومرُّ بالبصار الخلائق عَرَبنا
وإن حال منه الرعدُ يهلك بَلْدنا

ويقول إنه أفتى بقتل من سفكت دماؤهم لجر غيرهم وردعهم لا يرعى فيهم عهدا ولا ذمة ، وكُنْما قسا قلبه وخلا منه كل شعور حتى غدا كالحجر الصلد أو أشد قسوة ، ويعجب أن يتظاهر بالنسك وعبادة ربه وهو بطول من ثوب الضلالة أُرْدانه أو أكمامه ، ويقول إن هذا الثوب قُدَّ وشقَّ ومزق حتى أصبح - رغم لبسه له - عربنا ، وحتى لو رُؤى منه برق خير فالبرق كاذب ، أما إذا أُرعد فهلاك للبلاد والعباد . ويهيب الشاعر بأهل تلمسان أن يثوروا بالعثمانيين ثورة عنيفة ، ويتوعد ابن زاغو بما سيلقى عند ربه قائلا :

أيا آلَ دين الله مالى أراكمُ
أما تذكرون الأهل والزمن الذى
وهلا سألتم عن يمامي تفرقتُ
فقل لابن زاغو رأس كل خطيئة
ألا إنك الدجال للناس فتنة
نيامًا وكان الطُرفُ من قبلُ يفظنا
عهدتم فذاك الوصلُ قد صار هجرنا
أبادى سبًا فى القرب أثنى وذكرنا
قلبي تحبون الفتك بالأهل سلونا
تأهب لزورح الله فالحينُ قد حانا

وهو يستصرخ أهل تلمسان ليها من نومهم الطويل وينودوا عن أهلهم وحريمهم الذين قتل العثمانيون أزواجهن ويَتَموا أبناءهن وتفرقوا فى البلدان مِرْقًا أُناتا وذكورا ، ويقول لابن زاغو رأس هذه الخطيئة قُلِّ ويغضا لك حين تتخذ الفتك بالأهل سلوانا ، إلا إنك الدجال الذى يموه الحق ويزين الباطل ويوقد الفتنة ، فتأهب واستعد لإزاحة الله لك من على وجه الأرض ، فقد آن موتك ولم يعد لك مفر منه . وواضح أن سعيدًا المنداسى كان شاعرا بارعا ، ولم يكن يعيش بمعزل عن قومه ، فقد كان يشاركهم فى ثوراتهم على ظلم الحكام العثمانيين فى أيام شبابه ، وإن فاتته أن يحمل السلاح فى وجوههم فإنه لم يفته أن يجعل من أبيات شعره النصيح والعامى سهاما يسلطها على جباه العثمانيين ويقذفها على رؤوسهم وصدورهم معاولا - بكل جهده - أن يستير مواطنيه من أهل تلمسان ضدهم حتى يذهبهم نكالا ووبالا .

الشعراء والشعر التعليمي

مرَّ بنا فى الجزء الخاص بالمصرع العباسى الأول أن رقى الحياة العقلية فيه هُيأ لاستحداث الشعر التعليمي الذى يعنى بنظم التاريخ والعلوم والقصص التعليمية ، وكان من السابقين إلى

ذلك بُنَان بن عبد الحميد ناظم قصص كيلة ودمنة شعرا ، وله منظومات سقطت من يد الزمن في تاريخ ملوك القرس وأيضا له منظومة في الفقه وأحكام الصلاة ، ونظم في هذا الفن التعليمي الأصمعي في الملوك والأمم البائدة كما نظم لإبراهيم الغزالي منظومة طويلة في الفلك يقال إنها استوعبت عشر مجلدات .

ومنذ العصر العباسي الأول رسخ هذا الفن في الشعر العربي وأصبح أحد موضوعاته ، وقد اصطلاح بُنَان وأصحابه في العصر المذكور على أن يُنظَّم من وزن الرجز ، لأنه من أوفر أوزان الشعر العربي نغاما ومن أكثرها قبولا للتغير في تقاعيله ، وهو بذلك أكثرها مرونة لحمل للمعارف العلمية . وأخذت الأقاليم العربية تسهم في هذا الفن كلما اتسعت فيها الحركات العلمية وكثر علماءها ، إذ يرون أن يضعوا في علومهم منظومات لمساعدة الناشئة على حفظ قواعدها .

وأقاليم عربية تسرع في هذا الصنيع ، وأقاليم أخرى تتأخر قليلا أو كثيرا ، ونلتقي في القرن الخامس الهجري ببلن أبي الرجال المتوفى سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م وله أرجوزة في الفلك والتنجيم ، ويلقنا في القرن السابع بحسب^(١) بن عبد المطلب المولود سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م وهو من قبيلة زواوة البجائية ، وقد نشأ في بجاية ، وأتقن فيها علم النحو كما أتقن نظم الشعر ، غير أنه اتجه به نحو التمرن على نظم بعض المعارف ، ورحل إلى دمشق وسكنها واتفق به خلق كثير ، ورغبه السلطان الكامل الأيوبي في الانتقال إلى مصر وانتقل إليها وتصدّر لإقراء الطلاب في الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) وكان يقرأ لهم ألفيته التي نظمها في النحو ويفسر آياتها لهم ، ولا يعرف متى نظمها ؟ هل نظمها قبل رحيله إلى دمشق أو بعد ذلك ومازال يقرئها الطلاب المصريين حتى توفي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م وعلى غرارها نظم ابن مالك ألفيته المشهورة في النحو . ونمضى في القرن السابع وملتقى بلني إسحق^(٢) إبراهيم بن أبي بكر الأنصاري التلمساني المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م وقد نظم في الفرائض (علم الميراث) وهو ابن عشرين سنة أرجوزة اشتهرت باسم التلمسية ، وهي أرجوزة محكمة ضابطة لعلم الميراث عجيبه الوضع لم يصنف في فنائها مثلها وقد طارت شهرتها في الجزائر وغير الجزائر وشرحت مرارا . ومن كثر نظمهم في الشعر التعليمي ابن^(٣) مرزوق الحنيد وله ألفية في القراءات في محاذاة ألفية الشاطبي : حرز الأملاني ، وأرجوزتان في علم الحديث : كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ، وأرجوزة في تلخيص كتاب المتناح في علوم البلاغة للقرويني ، وأرجوزة في الميقات أو الفلك

(١) انظر ترجمته في معجم الأدباء ٣٥/٢٠ ولبن خلكان ١٩٣/٦ .

(٢) راجع ترجمته في الدياج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة) بتحقيق د. محمد الأحدي أبو النور

٢٧٤/١ ونسخة الرواد لحسن بن خلدون ١٠٩/١ .

(٣) انظر ترجمته في البستان ٢٠١ - ٢١٤ وراجع

تريف الخلف برجال السلف للحنفاوي ١٢٨/١ ونيل

الانتهاج بطريق الدياج لأحد بها ص ٣٠٥ .

فى ألف وسبعمائة بيت سماها المفتح الشافى ، وله أرجوزة فى تلخيص أعمال الحساب لابن البناء ، وأرجوزة فى نظم كتاب الجمل فى المنطق للخونجى . ومن ناظمى الشعر العلمى فى القرن التاسع بين أصحاب علوم الأوائل الحباك^(١) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م وله أرجوزة فى الإسطرلاب كانت ألفية هذا العلم فى العهد العثمانى ، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وقد سماها : « بغية الطلاب فى علم الإسطرلاب » وفيها تحدث عن رسوم الإسطرلاب وأجزائه ومطالع البروج والجهات الأربع إلى غير ذلك من موضوعات علم الفلك . ومن ناظمى هذا القرن أحمد^(٢) بن عبد الله الجزائرى المتوفى سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م وله منظومة فى علم التوحيد أو علم الكلام استهلها بقوله :

الحمد لله وهو الواحد الأزل سبحته جل عن شيه وعن مثل

نظمها فى مقبل عمره وسماها الجزائرية وأرسلها إلى العلامة محمد السنوسى فأعجب بها وشرحها ، وقد دوت شهرتها فى الجزائر وغير الجزائر ، وبالمثل شرح السنوسى أرجوزة فى نفس العلم لتلميذه محمد^(٣) بن عبد الرحمن الحوضى، سماها واسطة السلوك افتتحها بقوله :

الحمد لله الذى دلّ عليه إيجادنا ثم افتقارنا إليه

وبعد فالتوحيد أشرف العلوم وهو أساسها الذى به تقوم

ولابن^(٤) زكرى معاصرها المتوفى سنة ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م أرجوزة فى نفس الموضوع شرحها الورتلانى . وحرى بنا أن نعرف أن الجزائر وكل بلاد المغرب - كما قلنا فى غير هذا الموضوع - كانت تعتق مذهب الأشعرى فى قضايا العقيدة وعلم التوحيد . ونمضى فى القرن العاشر الهجرى ونلتقى بالفقيه أحمد^(٥) بن الحاج البجائى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وقد رأى للشيخ السنوسى كتابين فى علم التوحيد باسم العقيدة الكبرى والعقيدة الصغرى ، فنظم الصغرى فى أرجوزة له ابتدأها بقوله :

الحمد لله الذى عرفنا بنفسيه وبالمهدى شرقنا

وبعد فالمقصود من هذا النظام

من غيّر تبديل ولا تغيير سوى اختلاف اللفظ والتعبير

وله منظومات فى مسائل فقهية متعددة . ولكثيرين منظومات أو أراجيز فى علوم مختلفة ، على نحو ما نرى عند عبد الرحمن الأخصرى وسنخصه بكلمة أو ترجمة ، وكثيرا ما كانوا

(١) انظر فى البستان ص ٢١٩ وتاريخ الجزائر الثقاتى لسمد الله ١٠٩/١ وما بعدها .

(٢) راجع تعريف الخلف ٣٨/١ وسمد الله ٨٤/١ .

(٣) انظر فى البستان ص ٢٥٢ وعند سمد الله ٩٠/١ .

(٤) انظر فى ابن زكرى البستان ص ٣٨ وعند سمد الله ٨٥/١ .

(٥) راجع ابن الحاج فى البستان ص ٨ - ٢٤ .

ينظمون في بعض مسائل العلوم الدينية واللغوية ، ولحمد بن علي يهلول المجاجي في ألقاب الإعراب والبناء^(١) :

سَنَ يَتَنَحَّ العِزُّ بِرُفْعِهِ هَيْمَةً بالضمِّ عن كلِّ مَخْلُوقٍ يَرَى عَجَبًا
وبين عينيه يَنْهَيْنِ مَنِيَّةً يَفْتَحُ بابَ لَيْثِ المَوْتِ قد نَصَبًا
ويخفض النفسَ لَا يَخْفِي لَهَا شَرْفًا بكسرِ شَهْرَتِهَا يَنَالُ ما طَلِبًا
بذا يَجْرُلُهَا النَّفْعُ مِجَاهِلَهَا فإنَّ عَصَتَهُ رَمَى بِسَهْمِهِ عَطَبًا
واجْزَمَ على اللُّهُو نَفْسًا طالما اضْطَرَّتْ وبالسكون يكون الجَزْمُ خُذْ أدبًا

وواضح أن ألقاب الإعراب تتوالى في الآيات ، وهي الرفع والنصب والجر والجزم ، وبالمثل تتوالى ألقاب البناء ، وهي الضم والفتح والكسر والسكون . ونظم خليفة بن حسن القماري الأجرومية في قصيدة نسي اللامية في نظم الأجرومية في النحو لابن أجروم الصنهاجي . وملتقى بأحمد^(٢) البوني المولود سنة ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٣ م والتوفي سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م وذكر له الحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف نحو ستين منظومة نقلها عن رسالته : « التعريف بما للفقير من التأليف » منها نظم السيرة المحمدية ، وما يتعلق بالقرآن الكريم نظم غريب القرآن في تفسير ابن عباس ، ونظم غريب العزيزي للقرآن العظيم المسمى تحفة الأرب بأشرف غريب ، ونظم الخصائص الكبرى للسيوطي وأكبر الظن أنها شمائل رسول الله ، ونظم تحفة الفكر لابن حجر ، ونظم الفرائض (علم الميراث) في رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ونظم الوغليسية في الفقه لعبد الرحمن الوغليسي المتوفي ببجاية سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٥ م ونظم مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصري حامل لواء المذهب المالكي المتوفي سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م في عشرة آلاف بيت ، ونظم كتابه الجامع في ألف بيت ونظم الأجرومية في تسعين بيتا ، أما علم الكلام أو كما يسمى علم العقيدة في الجزائر فكاد لا يترك فيه كلاما لإمام مشرقي أو مغربي إلا نظمته ، فله نظم في عقيدة الماتريدي والطحاوي والغزالي وعبد القادر الجيلاني وابن عربي وأبي الحسن الشاذلي والعزّين عبد السلام والتفتازاني والنسفي وابن الحاجب وعبد الكريم الفكون ، ونظم العقيدة الوسطى والصخرى للسوسى وعقيدة أبي مدين ، وكاد لا يترك كلاما لإمام من الأئمة الماضين سنين أو صوفيين إلا وضع فيه منظومة . وحرى بنا الآن أن نخص عبد الرحمن الأخضرى أحد أصحاب هذا الشعر التعليمي بكلمة .

عبد^(٣) الرحمن الأخضرى

وُلد عبد الرحمن الأخضرى في بنطوس من قرى بسكرة في الزاب حوالي سنة

(٣) راجع ترجمته عند سعد الله ٥٠٧/١ وما بعدها

و ١٥٩/٢ ، ٤١٧ وما بعدها .

(١) تعريف الخلف ٤٤٨/٢ .

(٢) انظر في ترجمته تعريف الخلف برجال السلف

. ٥٢٢/٢ .

١٠٢٠ هـ/ ١٦١١ م وبها حفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه تلمذ لشيخها ولأبيه محمد وله حاشية على مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى . وبعد أن أخذ كل ما عند أبيه وأقره من فقه ولفه ارتحل إلى قسنطينة ، فأكبَّ على حلقات شيوخها ، واستوعب كل ما أخذه عنهم من علوم أوائل وأدب تصوف وعلوم بلاغة ومنطق ، وعاد إلى موطنه يدرس لطلابه كل ما فقهه وتمثله من علوم مختلفة ، ويشيد ترجموه بروسخه فى المقول والمنقول ، وظل يربى طلابه إلى أن توفى سنة ١٠٥٣ هـ/ ١٦٤٣ م . وشغف بنظم العلوم ، فألف مجموعة من المتن يتدارسها الطلاب والعلماء شرقا وغربا ، منها فى الفلك منظومة السراج وقد شرحها سحنون بن عثمان معاصره ، ومنها الدرة البيضاء فى الحساب وعلم الفرائض وجعلها فى ثلاثة أقسام : قسم خاص بالحساب ، وقسم خاص بالفرائض (علم الميراث) وقسم خاص بقسمة التركات . وطبعت مع شرحها فى القاهرة ونصَّ فى الطبعة على أن شرح قسم الفرائض من عمل المؤلف الأخضرى . وله فى التصوف منظومة سماها القدسية ، وهى فى آداب السلوك ونكران البدع ، وشرحها حين الورتلاى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/ ١٧٩٥ م وسمى شرحه الكواكب العرفية والشوارق الإنسية فى شرح ألفاظ القدسية ، ونظم الأخضرى تلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للقرزوينى وسمى منظومته الجواهر المكنون فى الثلاثة فنون : المعنى والبيان والبدیع ، وشرحها فى القاهرة الشيخ أحمد الدمنهورى فى القرن الماضى .

وأهم منظومات الأخضرى فى العلوم منظومته فى علم المنطق ، وقد سماها : « السلم المروتن فى علم المنطق » وهى أرجوزة فى مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقول فى آخرها أنه نظمها وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وشرحها ، وطارث شهرتها ووُضعت عليها شروح كثيرة ، ويستهلها بقوله :

الحمد لله الذى قد أخرجنا	نتائج الفكر لأرباب الحجا
وحطَّ عنهم من سماء العقل	كل حجاب من سحاب الجهل
حتى بدت لهم شمس المعرفة	رأوا مخدراتها منكشفه
نحمده جلَّ على الإنعام	بنعمة الإيمان والإسلام
من خصنا بخير من قد أرسلنا	وخير من حاز المقامات العُلا
عمدٌ يَدُ كل متنفى	المربى المسامى المصطفى

وقد بدأ أرجوزته بالحمد لله والثناء عليه . والحجا : العقل ، وفى البيت الأول براعة استهلال إذ أشار بنتائج الفكر لأرباب العقل إلى موضوع الأرجوزة وهو علم المنطق ، ومضى فى البيتين الثانى والثالث يكمل معنى البيت الأول بما رفع الله من الحجاب عن قلوب أولى الألباب حتى ظهرت لهم شمس المعرفة ورأوا مخدراتها وعرائسها المستورة منكشفة . ويحمد الله

على إتمامه بنعمة الإيمان والإسلام ، وأن جعله من أمة محمد سيد المرسلين العربى القرشى المصطفى من بنى هاشم لرسالة العظمى . ويمضى فى هذه المقدمة قائلًا إن المنطق زمام للعقل كما أن النحو زمام للسان ، ويوزع الأرجوزة على فصول متوالية ، وأولها فصل عن جواز الاشتغال بالمنطق كما قال الغزالي خلافا لابن الصلاح والنواوى ، إذ به تصحح الأفكار ويُهتدى فيها إلى الصواب . ويضع عنوانًا : أنواع العلم الحادث أى العلم الإنسانى لا العلم الربانى وينشد :

إدراك مفرد تصورًا عُلِمَ ودَرَكَ نسبةً بتصديقٍ وُسِمَ
وقدَّمَ الأول عند الوضع لأنه مقدَّم بالطَّبع
والنظري ما احتاج للتأمل وعكسه هو الضرورى الجَلَى

وهو يقول إن العلم قسمان : إدراك مفرد ويسمى تصورًا كإدراكنا معنى الحيوان أو الإنسان أو الإخلاص ، وإدراك نسبة ويسمى تصديقًا مثل « العالم حادث » نسبة الحدوث إلى العالم تصديق وإدراك العالم فى نفسه وكذلك الحدوث تصور ، فالتصور يسبق دائما التصديق على وجه الإثبات كما فى المثال السالف أو على وجه النفي كقولنا : « العالم غير حادث » . والتصديق إما جازم وهو التصديق اليقيني مثل « الشمس تطلع كل يوم » وهو حكم لا يتغير ، وإما غير جازم مثل : « السماء تمطر غدًا » وهو حكم يقارنه احتمال : ظن أو وهم . والعلم الحادث قسمان : ضرورى ونظرى ، والضرورى ما يدرك بداهة بلا تأمل كقولنا : « الكل أعظم من الجزء » و « الواحد نصف الاثنين » والنظرى ما يحتاج إلى نظر واستدلال كقولنا : « الأرض كروية » و « الصبر مفتاح الفرج » . ويجمل الأخيرى الدلالة الوضعية أو اللفظية بقوله :

دلالة اللفظ على ما وافقه بدعونها دلالة المطلق
وجزئه تضمنًا وما لزِمَ فهو التزامٌ إن بعقلٍ التزمَ

وهو يقول إن الدلالة إما دلالة مطابقة كدلالة الحيوان المفترس على الأسد . وإما دلالة جزئية أى دلالة الجزء فى ضمن الكل كدلالة الأسد على الحيوان لأنه من أفرادهِ . وإما دلالة التزام كدلالة العمى على البصر ودلالة الدخان على النار . ويوجز بيان الكل والكلية والجزء والجزئية فى فصل على هذا النمط :

الكلُ حكمًا على المجموع ككل ذلك ليس ذا وقوع
وحيثما لكل فردٍ حكمًا فبه كليةٌ قد علما
والحكم للبعض هو الجزئية والجزء معرضه جليّه

وهو يذكر أن الكل هو المجموع المحكوم عليه كقولك « طلاب الجامعة مجتهدون ،

ففيهم من ليس مجتهدا ، والكلية الحكم الشامل لكل فرد في المجموع كقولك : « كل إنسان قليل للعمل » . والجزئية الحكم على بعض الأفراد كقولك : « بعض طلاب الجامعة مجتهدون » والجزء ما تركب منه ومن غيره كالسماز والخيظ للحصير والمبتدأ والخبر للجملة الاحمية . ويعقد فضلا للتعريفات والحدود قائلا :

معرفٌ إلى ثلاثة فِيمَ حَدٌّ ورسمٌ ولفظٌ عَلِمَ
فالحدُّ بالجنس وفصلٌ وقعا والرسم بالجنس وخاصةً معا
وناقص الحدُّ بفصلٍ أو معا جنسٌ بعيد لا قريبٌ وقعا
وناقص الرسم بخاصة فقط أو مع جنسٍ بُعِدَ قد ارتبط
وما بلفظٍ لديهم شهرا تبديل لفظ يردي أشهر

والأخضري يقول إن التعريفات خمسة أقسام : حدٌ تام وهو التعريف بالجنس والفصل وهو الصفة الملازمة التي لا يشترك فيها أحد مع المعرف مثل : « الإنسان حيوان ناطق » أى ذو عقل مفكر . والحد الناقص هو التعريف بالفصل وحده مثل ناطق أو بالفصل مع الجنس البعيد مثل : « الإنسان جسم ناطق » . والرسم التام التعريف بالجنس القريب والخاصة وهى صفة غالبية غير ملازمة وقد تكون مشتركة كتعريف الإنسان بأنه حيوان ضاحك لأن من النسائيس والقردة ما قد يضحك . والرسم الناقص إما بالخاصة فقط مثل ضاحك أو مع جنس بعيد مثل الإنسان جسم ضاحك . والتعريف اللفظى أو باللفظ التعريف بالمرادف الأشهر مثل تعريف الغضنفر بأنه الأسد . وواضح مدى إحكام عبد الرحمن الأخضري للتعبير عن مسائل علم المنطق وقواعده بمتهى الوضوح ومتهى الدقة فى الإيجاز والاختصار . وهو - بحق - يعد فى طليعة المجيدين لنظم العلوم لا فى الجزائر وحدها بل فى العالم العربى جميعه . وقد أكتب كثيرا على شرح هذا المتن البديع فى علم المنطق فشرحه سعيد قدورة فى الجزائر وشرحه فى مصر الملوى شرحين كبيراً وصغيراً ووضع عليه حاشية الشيخ إبراهيم الباجورى سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١٦ م وطبع مع تقرير عليها للشيخ محمد الأنبلوى سنة ١٢٩٧ هـ / ١٨٨٠ م . وشرحه الشيخ أحمد الدمنهورى وطبع شرحه مع شرح الناظم الأخضري سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٧ م وهى صورة من التواصل العلمى بين مصر والجزائر . ومرُّ بنا أن الجزائر ظلت تعنى طويلا بكلمات ابن الحاجب وخليل بن إسحاق المصريين فى الفقه المالكي .

الفصل الخامس طوائف من الشعراء

٩

شعراء الغزل

يُعَدُّ الغزل من أهم الموضوعات التي شغلت شعراء العرب من الجاهلية إلى العصر الحديث ، فمن قديم يتغنون بمعاطفة الحب الخالدة ، ويصورون مشاعرهم وأحاسيسهم إزاء المرأة وما يكون بينهم وبينها من لقاء ووداع ووصال وهجران ، وهم تارة سعداء بوصالها وتارة أشقياء يشكون الهجران والحمران ، ويتمنون ولو نظرة من بعيد ، وكثرتها الفردوس الذي حرموا منه ، وهم يألمون لذلك أشد الألم مع الإكثار من الاستعطاف . والغزل من قديم نوعان : نوع مادي يعنى فيه الشاعر بتصوير المرأة تصويراً حسياً صادراً فيه عن الغريزة النوعية وما تتطلب من المتاع المادي ، ونوع عذري طاهر يتسامى فيه الشاعر إلى بث الوجد الذي يَصُلِّي بناره في دخائله وبلوغاته لوعات لا تنتهى ، وهو يتغنى فيه بمحبوبته ظاهراً إلى رؤيتها ظمناً متصلاً متضرعاً ، وكثرتها ملاك من عالم غير عالمه ، ودائماً يبكى بدموع غزار . وهذا النوع الثاني من الغزل القائم على الحرمان وعلى السمو في الحب هو الغالب على غزل شعراء الجزائر ، وما من شاعر جزائري مشهور إلا نجد عنده من هذا الغزل إشعاعات كقول عبد الكريم النهنشلي^(١) :

يشكو هواك إلى الدموع نَيْسٌ لم يبق فيه للمزاء نَيْسٌ
لولا الدموع تحرقَتْ من شوقه يوم الوداع قِلبكم والميسُ

وهو يقول إنه ودَّع صاحبه ولم يعد يستطيع أن يقدم شكواه إلا دموعه ، وقد أضناه الحب ، ولم يعد فيه إلا نيس أو بقية من الروح ، ولولا الدموع وطوفاناتها لتحترقت بنار حبه قلبها وخيامها وهوادجها والميس أو الإبل الطاعنة عليها . والتفت ذات يوم إلى شجرة فرأى عليها حمام وسَمِعَهَا تترنم وتنوح ، فتأثر وتشد^(٢) :

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(١) نموذج الزمان لابن رشيق ص ١٧٦ .

لَوَاجِدَةٌ وَجَدَى حَمَامٌ أُيْكَةُ
نَشَاوَى وَمَا لَتْ بِخَمْرِ رَقَبِهَا
أَعِيدَى حَمَامَتِ اللَّوَى إِنْ عَلِنَا
تَمِيلُ بِهَا مَيْلَ الزَّيْفِ غَصُونُهَا
بِلَوَاكٍ وَمَا غَاضَتْ بِدَمْعِ عَيُونِهَا
لَشَجُوكَ أَمْسَالًا يَمُودُ حَيْنِهَا^(١)

ويسأله النهشل أهذه الحمامات تداخلها مواجد مثل مواجده ، وإن غصون الأيكة لتحايل بها ميل الزيف أو السكران المتشى ، وإن الحمامات نفسها لنشاورى سكارى وما شربت خمرًا ، وإنما لبواك تثير الشجون وما بكت عيونها ، وإنه ليلتمس منها أن تعيد بكاءها ونواحها فإنها تثير فيه نفس الشجر وما يعتاده من الحين والشوق . ولتلقى بلبن قاضى ميلة وقصيدته الفاتية التى نوه بها لبن خلكان التى مدح بها ثقة الدولة أمير صقيلة ، وقد استهلها بنزل حواري على طريقة عمر بن لى ربيعة أبدع فيه كل الإبداع ، وننتطف منه الآيات التالية^(٢) :

ولما التقينا عمرمين وسيرنا
نظرتُ إليهما والمطى كتمنا
فقلتُ أما منكن من يَعرِفُ الفتى
أراه إذا سيرنا يسيرُ حِذاءَنَا
فقلتُ ليرينِها ألبناها بئنى
وقولا لها بما أم عمرو أليس ذا
وفى عَرَجاتٍ ما يخسرُ أننى
فأوصلنا ما قلته قيسُمن
وقد أُنذر الإحرامُ أن وصلنا

بليلك رثا والركائبُ تنيف^(٣)
غواربها منها معاطسُ رُغف^(٤)
فقد رابنى من طول ما يتشوف^(٥)
ونوقفُ أخفافُ المطى فيوقف^(٦)
بها مستهامٌ قالتا تلتطف^(٧)
منى والمنى فى خيفه ليس تخلف^(٨)
بعارفة من عطف قلبك أُنصف^(٩)
وقالت: أحاديث العياقة زُخرف^(١٠)
حرامٌ ولما عن مزارك نصدف^(١١)

ولبن قاضى ميلة يذكر التفاءه بصاحبه وهما عمرمان يلبيان ربهما قاتلين ليك اللهم ليك ، وكل منهما يركب مطية مجهدة كبقية مطايا الحج والعرق يسبل منها مدرارا ، وهو ما يزال ينظر إلى صاحبه ، سائرا بجوارها ، وكلما توقفت مطاياها وصحبها توقف ، فقال لصاحبتها وقد دنا منهما ألبناها بئنى هاتم بها ، وقولا لها إتنا سنزل منى ، وينبى أن تحقق لى فى خيف

- (١) اللوى : ما التوى من الرمل أو منقطه .
(٢) انظر فى القصيدة ابن خلكان ١٥٩/٦ والأنسودج ص ٢١١ والذخيرة ، القسم الرابع ص ٥٣٣ .
(٣) الركاب جمع ركوبة من الدواب والإبل . نصف : تسير فى الطريق على غير هدى .
(٤) معاطس جمع معطس : الأنف . رُغف جمع راحف : تسيل . الغارب فى البحر : ما بين السام والمق .
(٥) يشوف : يشرف وينظر .
(٦) أخفاف : جمع خف وهو للبر كالحافر للفرس .
(٧) ليرينها : المائلين لها فى السن . مستهام : هاتم أى مشغوف حبا .
(٨) منى بكسر الميم : ينزل بها الحجاج فى أيام التشريق . خيف منى : منحدرها .
(٩) عارقة : الجميل والإحسان . عرقات : جبل به موضع وقوف الحجاج .
(١٠) العياقة هنا : التناؤل .
(١١) نصدف : نعرض ونميل .

منى اللقاء ، وسنقف بعدها فى عرفات ، فهل تجود على بملاقة ، وحدثنا عما فلبست
وقالت تلك أحاديث عيافة وكهانة وتقاؤل مزخرف . ولنا حرمان والإحرام يحرم وصلنا ،
ولمى لصادفة عنه مزورة ، ولن ألقاه ، وتمضى قائلة إن قدنا للجمرات ليخبرك بأن كلامنا
سيقذفه البعد والنوى إلى ديار متباعدة . ويسوق الغريبي فى كتابه « عنوان الدراية » غزليات
طريقة لشعره بجاية ، منها قول^(١) محمد بن يحيى بن عبد السلام :

ألا بلّى من لا أرى فى الموى سوى محياه شمساً أو سناً تفسره برّقا
ولا خمرة إلا من لَمَاهُ ولحظه ولا غصن إلا القدُّ لا ما ارتقت ورّقا
لئن لدغست قلبي عقاربُ صُدْغِهِ فريفته التزيّاقُ لى وبها أرقى
تعلّمت من عينيه عشقى لحسنه فَلِلَّهِ الحِصَاظُ تعلّمنى العِشْقَا
ولو أن هاروتاً رأى سحرَ طَرْفِهِ أقرُّ بأن السحر من لحظه اشْتَقَا
فيا طامعاً فى الوصل منه نسلٌ هل سمعت بأشراكٍ تُصاد بها العِشْقَا

وهو ينوه فى أول الأبيات بهجمال صاحبه التى يرى وجهها شمساً وضوء نغرها برقا ،
ولا خمر مسكرة إلا من سمره شفتيها ولحظ عينيها . ولا حسن غصن إلا رشاقة قدّها
لا ما ارتقت الورّاء من قدود الأغصان الجميلة . ويقول لئن لدغت عقارب شعرها المتوى
على صدحها فإن ريفتها التزيّاق والبسم الذى يترقى به لشغفه ، ويذكر أن جمال عينيها هو
الذى ألقى فى فؤاده عشقها ، وما أبدعه ، فلو أن هاروت الساحر المذكور فى القرآن الكريم
رأى سحر عينيها لأقر بأن السحر مشتق منه . ثم يُلقي اليأس فى قلوب من يطعمون فى
وصلها ، فيقول هل يمكن لأحد أن يصيد العنقاء الطائر الخرافى بشباكه وأشراكه . وكان
يعاصر هذا الشاعر فى بجاية محمد بن أحمد الأرسى وله غزليات رقيقة ، وسترجم له عما قليل .

ونهضت الدولة الزيانية : دولة بنى عبد الواد بالأدب شعرا ونثرا وسرعان ما أنتجت النهضة
الأدبية فى زمنها شاعرا كبيرا هو ابن خميس وله غزليات رقيقة بديعة كثيرة ، من ذلك قوله^(٢) :

نظرت إليك بشل عيني جَوْدَرِ وتبسمت عن مثل سِنطَى جَوْدَرِ^(٣)
عن ناصر كالدر أو كالبرق أو كالطلع أو كالأمحوان مَوْشَرِ^(٤)
تجرى عليه من لَمَافاً نُظْفَةً بل خمرة لكنهما لم تُعَصِّرِ^(٥)

والغلاة .

(٤) مؤشر : مفلج .

(٥) ألسى : الشفتان . نطفة : ماء صاف .

(١) عنوان الدراية للنرجسي ص ٣٤٢ .

(٢) الديوان ص ١١٠ وأظهر بنوة الرواد لبسى بن
خلدون ص ١١١ .

(٣) الجوّذر : ولد البقرة الوحشية . السط : العند

لو لم يكن خمرا سلافا ريفها نَزَرى وتلعب بالنهى لم تُحْظَرْ^(١)
وكذلك ساجى جَفَنها لو لم يكن فيه مَهْنَدُ لَحْظِها لم يُحْذَرْ^(٢)
لو عَجَبْتَ طَرْفَكَ فى حَديقَةِ خَدَّها وَأَمِنْتَ سَطْوَةَ صَدْغِها الْمُتَمَرِّ^(٣)
لَرَمَعْتَ مِنْ ذَاكَ الْحِمَى فى جَنِبِ وَكَرَعْتَ مِنْ ذَاكَ أَلْمَا فى كَوْثَرِ^(٤)

وابن خميس يشبه عيني صاحبه يعينى جوْزُرُ وأَسْنَانُها فى ثغرِها يعفدى جوهر ويقول إته
ثغر ناصع البياض كالدرُّ أى اللؤلؤ أو كضوء البرق أو كطلع النخل أو كثره الأتھوان الأبيض
الملجج الأوراق كأنسان هذا الثغر المفلجة ، وهو ثغر يجرى عليه من شفتى صاحبه نقطة
(قطرات) سائلة من الريق بل خمرة ، وإن لم يعصرها خمرا ، -خمرة تلعب بالعقول ، غير
محرمة ، ولو لم يكن فى فاتر جَفَنها سيف لحظها يحميها ما حُذِرَتْ ، ولو أُتِيحَ لك أن تعطف
طرفك فى خدِها وجمالها المتنوع ، وكأنه حديقة باهرة ، وأمنت بطش عقرب صدغها المتتمر
لنعمت بجنة رائعة ، ونهلت من لَمَّاها أو شفتيها من الكوثر نهر الفردوس . ويمضى ابن خميس
فى هذا النزول قائلا :

طَرْفَكَ وَهَنَا وَالْجَوْمُ كَأَنَّهَا حَصْبَاءُ دُرٍّ فى بَسَاطِ أَخْضَرِ^(٥)
يَبِضًا إِذَا اعْتَكَرَتْ ذَوَابُّ شَرِّهَا سَفَرَتْ فَازَرَتْ بِالصَّبَاحِ لِلْسَفَرِ^(٦)
طَرَحَتْ غِلَالِهَا قَفْلَتْ سِيكَةً مِنْ فُضَّةٍ أَوْ دِمَّةٍ مِنْ مَرْمَرِ^(٧)
مَنْحَكَ مَا مَنَعَكَ بِقَطَانًا فَلِمَ تُخْلِفُ مَوَاعِدَها وَلَمْ تَتَغَيَّرْ
هَاجَتْ بِلَابِلُ نَازِحٍ عَنِ الْفِهِ مَتَشَوِّقٍ ذَاكِي الْحَشَا مُتَمَرِّ^(٨)

وهو يقول إن صاحبه طرفه أو زارته فى منتصف الليل والسماء تشر لآلء نجومها فى
بساطها الأخضر ، ويقول إتها إذا أَحَسَتْ بكثافة شرها وكشفت عن وجهها أَزَرَتْ بِالصَّبَاحِ
المضى الجميل ، أما إذا خَلَعَتْ غِلَالِها فَبِهَا تَبَدُّرُ كَثَافَتِها سِيكَةً مِنْ فُضَّةٍ أَوْ دِمَّةٍ مِنْ مَرْمَرِ ،
ويقول إته لم ير شيئا منها يقظان وإنما ذلك حلم رآه فهاج شجون مغترب عن إلفه متشوق
تنفد أحشائه وتشتعل حبا وهياما . ولابن خميس غزل كثير فى مطالع مدائحه يصف فيه
لوعات حبه وما تكن ضلوعه من مواجعه ، وقد يحيله غزلا صوفيا بدِما . ولمحمد^(٩) بن عمر
المليكشى البجائى المنتسب إلى مدينة الجزائر والمتول خطبة الإنشاء بتونس والتوفى بها سنة
٧٤٠ للهجرة قوله :

- (١) سلافا : خمرا خالصة . تحظر : تحرم .
(٢) ساجى : فاتر . المهند : السيف .
(٣) عجت : عطفت .
(٤) رمت : نعمت . كرعت : نهلت .
(٥) وهنا : نحو نصف الليل .
(٦) اعتكرت : تكاثرت . ذواب : ضفائر . سمرت :
كشفت وجهها .
(٧) الغلالة : ثوب رقيق .
(٨) بلابل : حوم وشجون . متمر : متفد .
(٩) تعريف الخلف برجال السلف ١٧٦/١ .

رِضًا نلت ما تَرْضَيْنَ من كل ما يُهَوِّى
وصفحاً عن الجاني المسيء لنفسه
قضى أَتَشْكِي لوعةَ التَّينِ ساعةً
قضى ساعةً فى عَرْمَةِ الدار وتظرى
وكم قد سألت الرِّيح شوقاً إليكم
فياربِّ حتى أَنتِ ممن يفسارِ بى
خلقتْ لى قلب جليدٌ على النَّوى
فلا توقىنى موقف الذلِّ والشكرى
كفاه الذى يلقاه من شدة البَلْوَى
ولا يك هذا آخرَ العهد بالنَّجْوَى
إلى عاشقٍ ما يستغنى من البَلْوَى^(١)
فما حنَّ مَسْراها على ولا أَلْوَى^(٢)
ويتجندُ حتى أَنتِ تهَوِّى الذى أهْوَى
ولكن على فقد الأحبة لا يَقْوَى

وهو يلتمس رضا صاحبه وأن لا تقفه شاكيا من حبه متذلا ، وأن تصفح عما قد
نظن من تجبه فكفاه ما يلقى من عنة الحب ، ويسألها أن تقف ليشكو لها لوعة الين والبعد
ساعة أو بعض ساعة آملا أن لا يكون هذا آخر العهد بلقاها ونجواها ، بل إنه يسأل
تقف لحظة فى ساحة الدار وتنظر إلى ما اعتراه فى عنة الحب وبلواه ، ويقول إنه يسأل
الريح المقبل من دارها عنها فلا تحن عليه ولا تعطف ، فحنى الريح تغار منه ، ويخال كأنها
أُخت ليل معشوقة المجنون ساكنة نجد ، وحتى نجد تهواها وتهيم بها ، ويقول إن قلبه
يتحمل النوى والفراق ، ولكنه لا يتحمل فقد الأحبة . وكان يعاصره بتلمسان أبو عبد الله
محمد بن البناء ويقول يحيى بن خلدون عنه إنه « كاتب شاعر متخلق ظريف » وينشد من
غزله^(٣) :

عِيدٌ وَغِيدٌ وَعُودٌ وابنةُ العودِ
وشادنٍ خِيشِ الأعطاف من ترفِ
يَجْنِي قَمَحَ جَناباهِ محامتهُ
لما سأناه عن خميرٍ يرفقه
وَسَالَفِيهِ وَصَدُغِيهِ فقال لنا
باليلة جمعتُ شَمْلِي بها عودى^(٤)
عَلَّقْتَهُ بِذَرْتِمُ فوق أُمْلودِ^(٥)
وللجمال شَفِيعٌ غيرُ مردود
يحميه بالبيض من أجفاته السود^(٦)
هذى المدامَةُ من تلك العنايدِ^(٧)

وهو يذكر ليلة عيد اجتمع له فيها خيات حسان والعود يترنم وابنة العود يريد الخمر بنت
شجرة العنب وفتاة جميلة ناعمة الأعطاف تعيش فى ترف ونعيم شغف بها وبقلدها الرشيق
وكلُّها بدر فوق غصن ناعم ، وكم جنت عليه وعاسنها تشفع لجناياتها شفاعا لا ترد ، ويتمنى
لوارثشف من خمير ريقها ولا يستطيع إذ تحميه سيوف مسلولة من أجفاتها السود وعقربى

(٥) شادن: ولد الطيبة. خث: لين وناعم. الأعطاف:

الجواب. بدرتم: بدر كمل. أملود: غصن ناعم لين .

(٦) البيض: السيوف .

(٧) السالف والسالفة : صفحة الجيد وجانبه .

(١) عرصة الدار : ساحتها .

(٢) ألوى : عطف .

(٣) بنية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١٢٤ .

(٤) غيد جمع غادة : الفتاة الناعمة .

صدغها وصفحتي جيدها الجميلين ، ويقول إنهم لاسألوها عن خمر ريقها قالت لم مدلة
 إن هذى الدامة من تلك العنايد . وينشد يحيى بن خلدون للشاعر موشحة بحكمة الصنعة
 مثل مقطوعته السالفة وفيها يقول :

بدرٌ أزراره تبذت فلكا	قلبي ملكا
عيناها مع الهوى دمي سفكا	فيه اشتركا
قد أشبهت المها لحظا فتكا	والخال حكى
مسكا مستمسا على سوسان	غضٌ عيني ^(١)
يَهْدِي كسيم جنة الرضوان	للمتشق

هو يقول كأنها بدر وأزرارها الفلك ملكت قلبه واشتركت عيناها مع الهوى في سفك
 دمه وقد أشبه لحظها الفاتك لحظ البقر الوحشي حسنا وجمالا ، وحكى الخال مسكا على
 سوسان يُبْضِ غَضٌ عَطِيرٌ ، يَهْدِي كسيم الفردوس الذكي للمتق . وللشهاب بن الخلود
 غزليات كثيرة وهي تشغل في ديوانه نحو مائة وعشرين صفحة سوى ما يودعه مقدمات
 مدائحه من غزل رقيق ، ومن طريف غزله قوله^(٢) :

إذا القمرى غرَّد في النُصُونِ	أعانَ المتهمَ على الشُّجُونِ
وإن ناحَ الحمام بكيتُ وجداً	بُمرنَ سحابِ الدُّمُوعِ الهُتُونِ ^(٣)
وقلَّ الله هل أبصرتُ صبياً	حزينَ القلبِ مقروحِ الجفونِ
تطارحه الصلبة بالصلى	وتلَّمه الأملئى للنُّصُونِ ^(٤)
ينسوحُ على الديار وساكنيها	إذا ما النوقُ سارتْ بالظُّمُونِ
ويكتم في حشاه الوجْدُ سراً	فظهره المدلَّعُ فى اليُونِ

وهو يقول إن قمرى الحمام يترنم فى النُصُونِ بتخاريدهِ يثير الشجون فى قلوب المحبين ،
 وحين ينوح الحمام يبكي وجداً ويدرف الدموع مدراراً . ويدعو لمخاطبه أن يقيه الله من الحب
 وأوصابه ، ويسأله أرايت مغرماً حزين القلب قريح الجفون من كثرة البكاء ، يمينه الشوق أن
 يُصْنِي صاحبه ، وما يزال يتننى ذلك حتى الموت . وترجل صاحبه مع أهلها وتسير النوق
 بالظُمُون أو الموادج ، ويكتم نار وجده ووجهه فى صدره وأحشائه ، وتعلن سره دموعه المنهلة
 الغزيرة . ونمضى إلى العهد الشملى وعن نقرأ له غزلاً طريفاً فيه محمد القوجيلى من مثل قوله^(٥) :

(٤) الصلبة : الحب والشوق .

(٥) نُشَارُ جَزْأِيَّةٍ ص ١٣٠ .

(١) غض : حديث . عتي : عطر .

(٢) الديوان ص ٣٥٧ .

(٣) مرن جمع مزنة : مطرة . الهتون : الغزير .

الحبُ صعبٌ والرقيبُ أعقَبُ والدمعُ باحٌ بِذَا المَوى وَلَبَنَه
والحبُّ يستدعى القلوبَ إلى المَوى فحُبُّهُ مَنفَادَةٌ وَلَهْفَةٌ
وبجسمي المُضنى قِصَاةٌ غَاظِلْتُ قَلْبَ الكِيبِ بِأَعْيُنٍ قَتَانَه
خَرَجْتُ مع الأتْرَابِ بَيْنَ أَزَاهِرٍ فَكَأَنَّهُمَا بِدَرٍّ تَكَلَّلُ بِقَنَه^(١)

وهو يقول إن الحب صعب والرقيب يعين جذوته اشتعالا ، وهو لا يخفى فالدمع دائما يوح به ويعلنه إعلانا ، ويذكر أن الحب يستدعى القلوب إلى العشق قلبه خاضعة ولهفة وقد غاظله قِصَاة جميلة أفضته وشغفته حبا بسحر عيونها حين رآها مع أترابها الفاتنات وكثما وجهها بدر يتوج قامتها الرشيق . ولسعيد المنداسي معاصره قصيدة نبوية يستهلها بزل ويطل فيه طولا شديدا . وهي منسوبة في كتاب تعريف الخلف برجال السلف لمحمد بن عبد الرحمن الحوضي وبالمثل في تاريخ الجزائر الثقافي والغالب أنها للمنداسي لوجودها في ديوانه ، وفيها يقول^(٢):

أَرَاذُ الْمَرْنَ مِنْ عَيْنِي نَزَلَ أَمْ دَمَوْعُ الشَّوْقِ إِذْ رَقَّ الْغَزْلُ^(٣)
فَبِعَيْنِي دِيمَةً وَكَأَفَةً أَمْ شَيْبٌ لِلنَّوَى مِنْهَا فَبَزَلَ^(٤)
دَعْ - عَذُول - اللَّوْمَ إِنِّي شَاقٌّ رَقَّ طَبْعِي حِينَ صُنْعِي فِي الْأَزْلِ^(٥)
مَا الْمَوْى إِلَّا عَذَابٌ لِلْفَتَى أَوْ يَخْفَى إِنْ بَقِلْبُ الْمَرْءِ حَلَّ
لَا تَلْمِزْنِي دُونَ عِلْمٍ - عَاذِل - فَيَسْمَعُ صَمَمَ عَمَّنْ عَاذِلْ
كَمْ دَمَوْعٍ مِنْ عَيْنِي أَتَهَمَرْتُ لِمَيُونٍ مِنْ عَذَابٍ لَا تَمَلْ
مَنْ دَعَلَنِي الْبَيْنَ وَالْدمْعُ عَلَى صَحْنٍ خَلَى وَلَيْلٌ يَهْمِي وَطَلْ

ويستمر هذا الغزل إلى نحو ستين بيتا كلها بهذه الموسيقى العذبة وهذه اللغة المتخية الصافية ، والشاعر يتساءل عن الدموع المنهمرة من عينيه أهي قطرات سحب هائل أم دموع شوق تتقاطر متوالية ، وهل حقا بينه سحابة سائلة أو سيل للنوى تشق ، ويقول لعاذله لا تلمني فيقي الطبع منذ صُنْعِي فِي الْأَزْلِ ، وهل الموى والحب إلا ألم للفتى وعذاب متصل إن حل بقلب لا يخفى ، فلا تكرر على لومك دون علم بحقيقة الحب ، فبأننى وَفَرَّ لَا أَصْحَمُكَ ، وكثما تخاطب حجرا أصم ، وكَمْ أُسْرِبُ دَمَوْعَ سَالَتْ مِنْ عَيْنِي وَصَاحِبَتِي لَا تَمَلْ هَذَا

(٣) رذلا : قطرات .

(١) البانة : مفرد البان وهو شجر لين القوام كالصنّاف

(٤) ديمة : مطر . وكأفة : سائلة . شيب : سيل .

تشبه به الجميلات في الطول واللين .

فبزل : تشق .

(٢) الديوان النحوي للمنداسي نشر محمد نجوش

(٥) الأزل : القدم ، أول الزمان .

ص ٨٣ . وديوانه الفصح تحقيق ربيع بوتار ص ٣١ .

العذاب . ومذ دعاه الفراق والدمع يجرى على خديه وكفه مطر متصبّ وطلّ ماينى يتقاطر ويتساقط . ومن أهم شعره الغزل فى الجزائر الأريسي ولين على وحرى أن نخصّ كلا منهما بترجمة مفردة .

محمد^(١) بن أحمد الأريسي

من شعره بجاية فى القرن السابع الهجرى ، ولا نعرف شيئاً عن تاريخ مولده ولا عن نشأته وتعلمه ، غير أنه من بيت علم وفقه فقد كان جده الأريسي فقيها بجاية وكان اعتماد قاضيهام أبى محمد بن حجاج المتوفى بعد سنة ٦٤٠ للهجرة عليه وعلى الفقيه أبى على بن عزون وبينهما كان جلوسه إذ كانا المشاورين له . وعكف الحفيد فى كتاب على حفظ القرآن ثم أخذ ينهل من حلقات الشيوخ فى موطنه دارساً عليهم الفقه حتى برع فيه ، وبالمثل درس عليهم الأدب . وفتحت موهبته مبكرة فى الشعر والنثر ، مما سلكه بين الكتاب ، ولمع اسمه بينهم حتى أصبح رئيس كلية الديوان بجاية ، وكما كان يتفنن الكتابة والنثر كان يتفنن الشعر ، وكان يسلك فيه طريقة المتنبى بينما كان صاحبه أبو عبد الله محمد بن الحسن التميمي القلمى يسلك طريقة أبى تمام ، كما يقول الغبريني ، وكانا يتراسلان بالأشعار وكل منهما يجاوب صاحبه على طريقته ، ويقول الغبريني عن الأريسي : « كان سهل الشعر كثير التجنيس يأتيه من غير تكلف .. وله شعر كثير فى كل فن من فنون الشعر » وتشد له الغبريني مطلع مدحة وقصيدتين غزليتين ، وفى المطلع يقول :

ونادى خطيبُ الورق يدعو هديله	وغنى فأغنى عن ضروب التلاحين ^(٢)
وذكرُ أيام الصلبة والصبا	ولذة عيشٍ كان لى غير ممتنون ^(٣)
فيا ساكنى نجدُ أطرقُ حيكم	وأرجع مغلوباً بصفقة مغبون
ويا ساكنى الجرعاء إن كان عندكم	نصيبٌ من الصبر الجميل فواسوني ^(٤)
تركْتُ فوداى عند خيمة زينت	وما سحرُ عينها على بماسون
أغارَتْ عليه حين لم يلفِ ناصرًا	وأغرته بى حتى تعلم جفوني

فخطيب الحمام دعا للمدليل ليتغنى بصوته الجميل فتأثر به الشاعر وذكره أيام الصبا والحب ولذة عيش هنى متصل ، وثار منه كمين الوجد ، فنادى أهل صاحبه من ساكنى نجد متذلاً ، أيطرق حيهم ويرجع مغلوباً مغبوناً ، وبالمثل نادى ساكنى حُبها فى الجرعاء بنجد هل عندهم

(٢) الورق جمع أورق وورقاء : الحمام . هديله : قرينه من الحمام .
(٣) ممنون : منقطع .
(٤) الجرعاء : من مواضع نجد .

(١) انظر فى محمد الأريسي ترجمته فى عنوان العروبة ص ٣٣٧ وترجمة جده ص ٢٤٩ وترجمة أبى عبد الله محمد بن الحسن التميمي فى ص ٧٢ وراجع فى الشاعر تعريف الخلف ٣٠٩/٢ .

له نصيب من الصبر يواسونه به ، ويقول إن فؤاده تخلف عنه عند خيمة زينب الساحرة العينين ، وقد أغارت عليه ولا ناصر له ، وأغرته به حتى جفاه ولئى الرحيل معه . ويقول الأربى فى قصيدته الغزلية الأولى :

لعلك بعد الهجر تسمعُ يا بدرُ
ليتُ كما ترضى الكلبة والأسى
إذا قطعتُ نفسى ينادى بها الرجا
ولا تسَ يوماً للسرور وتيتا
ووالله ما أدرى لطيب حديثها
خليلُ قولاً إن بدا لكما الحمى
على مَ تناسيم حديث عهدكم

والأربى يتذلل لمحبهته أن تسمح له بالوصل فقد كادت مهجته أروحه أن تزهق وإنه لبيت كنيا محزونا ويضحى مفكرا مهموما ، وينادى الرجاء عليه لا يد بعد العسر من اليسر . ولا ينسى يوم لقاء مع صاحبه كان يوم سرور لا حد له ، مع ما شابه من شظايا عتاب كالجمهر أو أشد ، ومع ذلك لا يدري لجمال حديثها أضمن سحرا أو هو السحر نفسه ، وينادى صاحبه إن ألما بالحمى أن يقولاً لأهلها إن المشغوف بنتاكم منه الضر وأصابه الضنا ، وقد نسيتم عهدكم دون عذر لكم ودون ذنب جناه . ويستهل قصيدته الغزلية الثانية بقوله :

أهل الحمى هل لكم عن قصنى خبرُ
وفى ضلوعى نيران يضرُهما
لما رأيت بدور الحمى سافرة
ولا عوامل إلا من قدودهم
سألتك الله يا حادى المطى بهم
عرج على قل قلب يميل إلى
وقت - يا سعد - إن غنت ظباؤهم

والشاعر يعرض قصته على أهل الحمى وأن حبه لللى يشغل قلبه حتى لبيت مسهدا ، وفى ضلوعه نار ما تزال توقد جذوتها دموعه المنهمرة على صفحات خده . ورأى بدور الحمى سافرة فعرف أنها تستعد للسفر ، وتراءت له قدودهن كأنها أسنة رماح تصيب قلوب الرجال ،

- (١) أودى به : أهلكه وذهب به .
(٢) قطعت : جئت .
(٣) العوامل : أسنة الرماح . اتضى العارم : سلَّ .
(٤) بنظر : يشفق .
السيف .

وكنّا حَوْرَ عيونهنّ يملّ سيود مصمية ، وبسأل حادى المطى يرفق به لعل الصدع الذى أحدثته صاحبه فى فؤاده ينجر ، كما يسأله أن يميل بالركب عليه فقلبه يتمنى لو سمع حديث من قتل منهم ومن أسرن ، وإن تغين فقف ليرى فؤاده كيف ينظر ويتصدع ألما . وبعرض حوارا لصاحبه معه منشدا :

تقول والحسن يطفيها تظلمنى	ولا مؤثّرَ إلا صارمٌ ذكر ^(١)
دع الحسام وضع حمل السلاح فما	فى كل وقتٍ يفيد الحزم والحذر
ما للمهند حكيم فى عفتنا	بل للمهند فيها الحكم والنظر ^(٢)
فإن طمعت بلين فى لواحظنا	فحن أهل قلوب مثلها الحجر
وإن حلت لك ألفاظ نرددها	ما بيننا فهناك الصاب والصبر ^(٣)
فأرحم شبلك وارحل دون غلبة	واقبل من الحسن ما أعطاكه النظر

حدثته صاحبه كما يقول وهى شاعرة بحسها حتى ليجعلها طاغية ، وكان يعمل سيفا فقالت له ليس للسيف حكم فى منازلنا وإنما الحكم والرأى القاطع للفناء ، وإن أطمعتك لين فى نواظرنا فحن أهل قلوب كالخجاجة أو أشد صلادة وصلابة ، وإن أطمعتك ألفاظ حلوة نرددها بيننا فوراءها الصاب والصبر شديدا المرارة مرارة لا تنطاق ، فأرحم شبلك وارحل دون قهر ، واكف من الحسن بالنظر إليه . وهذه الأبيات التى أجراها الأربسى على لسان صاحبه لثملا نفس قارته إعجابا بخصب شاعريته .

ابن^(٤) على

هو محمد بن محمد بن محمد المهدي بن رمضان بن يوسف العلج ، وذكر العلج فى آباءه يدل على أن أسرته عثمانية وأن جده يوسف العلج من أوائل العثمانيين النازلين بالجزائر حين أصبحت ولاية عثمانية . وغلب عليه اسم ابن على مما يدل على أن أحد آباءه كان يسمى عليا ، ويؤكد ذلك أن شاعرا هو محمد الشباح سمى أباه فى مدحة له كما جاء فى مجموعة أشعار جزائرية محمد بن على قائلا :

وسمى غوث الغرب من مجاجة واصلك من رب الملا إقبال

ويريد الشباح بسمى غوث الغرب من مجاجة محمد بن على المجاجى ، فاسمه إذن بشهادة هذا الشاعر ابن على ، وإما أن يكون على أباه أو أحد أجداده ، وسقط من سلسلة نسب الشاعر .

سجد الله فى مجموعة أشعار جزائرية ص ٢١ وما بعدها
وكتابه تاريخ الجزائر الثانى ٣١١/٢ وفى مواضع متفرقة . وقد حقق ونشر مجموعة كبيرة من أشعاره فى مجموعة أشعار جزائرية .

(١) الصارم الذكر : السيف الشديد .

(٢) المهند : السيف . المهند : الناعد : الفناء .

(٣) الصاب : شجر شديد المرارة . الصبر : صلالة شجر مر .

(٤) تنظر فى ترجمة ابن على ما كبه د . أبو القاسم

واشتهرت هذه الأسرة بنظمها للشعر منذ رمضان بن يوسف قفى مجموعة أشعار جزائرية نيات له فى الحث على طلب العلم، وكذلك لمحمد المهدي قصيدة ضمنها شكوى إلى علماء إسطبول ونيات لوالد الشاعر، فهو من بيت شعر وأدب، وأيضا فإن بينه كان بيت قفه حنفى وقضاء وفتوى، يدل على ذلك بوضوح أن جده محمد المهدي عيّن مفتيا للحنفية سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م ولقب بشيخ الإسلام وهو لقب كان يتلقب به المفتى الحنفى فى الجزائر طوال العهد العثماني وظل فى هذا المنصب حتى وفاته فى أواخر العقد السابع من القرن الحادى عشر الهجرى. وطبعي أن يكون والد الشاعر فقيها على غرار أبيه، إذ نرى الشباح ينوه فى مدحته له بقوله:

العالم العلامة القطب الذى ضربت بحسن صنيعه الأمثال

ولا نعرف متى ولد الشاعر ، ويبدو أنه ولد فى أواخر القرن الحادى عشر ، كما قال الدكتور أبو القاسم سعد الله ، مستدلا على ذلك بأنه كان أحد من هتأوا محمد بكداش والى الجزائر بفتحه لوهـران وانتصاره فيه على الإسبان سنة ١١١٩هـ/ ١٧٠٧م ومن قوله فى قصيدته :

وعهدى بحور الشعر عنى أذودها زمنا وفكرى مؤجّه متلاطم

وكأنه قد عالج الشعر قبل عام فتح وهران مما يدل على أن سنه كانت حينئذ فى نحو العشرين من عمره على الأقل . وكان يكبّ على حلقات فقهاء المذهب الحنفى والحديث النبوى وتفسير الذكر الحكيم مما أهله فيما بعد ليدرس للطلاب التفسير والحديث والفقه الحنفى ، وليصبح خطيب المسجد الكبير يعظ الناس كل جمعة مواعظ مؤثرة ، ويختار سنة ١١٥٠هـ/ ١٧٣٨م مفتيا حنفيا للجزائر ويلقب بشيخ الإسلام ، ويظل شاغلا هذا المنصب حتى وفاته سنة ١١٦٩هـ/ ١٧٥٦م . وبعد ابن على فى الذروة من شعراء الجزائر فى القرن الثمى عشر الهجرى ، وكان ينظم فى المديح والمنشآت ووصف الطبيعة والرتاء ، وأكثر من شعر الغزل إكثارا يسبق فيه شعراء عصره ، وجمع لنفسه ديوانا ضم أشعاره وأشعار بعض معاصريه وأشعار آباءه ومعاصريهم فى القرن الحادى عشر الهجرى . وسقط هذا الديوان من يد الزمن غير أن أكثره - أو كثيرا منه - مبثوث فى المجموعة التى أشرنا إليها المنشورة باسم أشعار جزائرية . ويبدو أنه أخذ ينصرف عن نظم الغزل حين ولى الخطابة والتدريس فى المسجد الكبير ، وولى منصب الإفتاء الجليل ، ويصرح بذلك قائلا :

لولا - وحققك - خطبة قلّدتها زهرت بها فى الخافقين شموعى

ومنبر فيها رقيت إلى العلا وقد استدار بها كيف جموع

لنحوت منحنى العاصرى صلبة ولكن من حرق الجوى مشفوعى

وهو يقول لولا خطبة الفتوى - على المذهب الحنفى - التى تقلدتها وتلاأت وتأقت بها شموعى فى الجزائر ، ولولا منبر فيها صعدت بها إلى العلا بوعطى الجموع الكيفة من أهل

الجزائر لظلمتْ أنظمتْ غزلا عذريا عفيفا مثل غزل قيس العامري مجنون ليلى كله صلبة وهيام
وحرق من الحب والوجد تضطرم اضطراما ، وله يتنزل :

يمينًا لقد عزتْ على الطالبُ ولى أبدا من سحر عينيكِ طالبُ
فسبحان من سواك في الحسن صورةُ لها اعترفت بالحسن حورُ كواعبُ^(١)
مراشفُ من شكل العقيق مصوغة ومبسم درُ للعقيق مناسبُ^(٢)
ومصدرٌ بدت رؤيته كحقتى لجنين وغمر مشرق وترائبُ^(٣)
تحوم عليها الشمس غيرى كية تجاذب ثوبا للنا وتجلبُ^(٤)
وقد حاولوا منى التلى بغيرها لقد أخفقت تلك الظنون الكواذبُ
وهل يستوى المصباح والشمس في النا وهل يستوى بدرُ السما والكواكب

وهو يعجب بسحر عيني صاحبه في البيت الأول وبجمالها في البيت الثاني الذى تعترف
به الحور الجميلات الشابات ، وكأن مراشفها مصوغة من فصوص العقيق ، ويلتصم بها مبسم
اللائء البديعة ، ويتوه بجمال صدرها وغمرها وترائبها ، ويقول إن الشمس تغار من جمالها
وتشعر بغير قليل من الحزن حين تراها وتجاذبها ثوب ضوئها ، وتحاول تجنبها شعورها منها
بأنها أروع وأبهج . ويظن غير واحد أنى أستطيع التلى عنها بغيرها وخالت ظنونهم جميعا ،
وهل يمكن أن يتساوى المصباح والشمس أو يمكن أن يتساوى البدر فى تمه وكاله بالكواكب
والنجوم ؟ ! . ومن غزلياته قوله :

أغصون تأودتْ لم قدودُ أم ررودُ تفتحتْ أم خدودُ^(٥)
لم وجوه بدت لنا أم بدورُ طالمات يحفهن السعودُ
فى سماء الجمال تسطعُ نورًا وبغلي منها - الزمان - وقود
كم لها فى الأسود من فتكاتٍ وبروق - من صدها - ورعودُ
سحر تلك العيون فيه تناهتْ وتفتت زيلاب وهنودُ
جثا وجثيه عذُ تلتى وجثا الجثين عنى بعيدُ^(٦)

وهو لا يدرى أيرى قدودا وقامات لهؤلاء الحسان أم يرى غصونا تنثنى دلالا ، وهل يرى
خدودا فاتنة بمحمرتها أم ورودا تفتتح جمالا ، وهل يرى وجوها فاتنة أم بدورًا يحفها السعد بل
سعد السعود ، وكلها كواكب تسطع فى سماء الجمال نورا ، ولقلبه منها وقود ما ينى مشتعلا ،
وكم لها فى الأهد من فتكات وكم لها بروق ورعود ، وإن سحر عيونها ما بعده سحر ، ذاب

(١) كواعب ، جمع كاعب : الفتاة الشابة .

(٢) المبسم : جمع كاعب ، الفتاة الشابة .

(٣) تأودت : تفتت .

(٤) العقيق : حجر كريم أحمر تتخذ منه الفصوص .

(٥) الجنا : كل ما يجنى من الشجر .

(٦) لحن : فضة .

فيه سحر العيون جميعا وسحر كل زينب وهند ، ويقول إنه لا يستطيع الدنو أو القرب من وجنتها فضلا عن أن يقتطف منهما شيئا ، وهو لذلك يتمذب عذبا شديدا ، وربما كان أهم الغزلين في عصره .

٢

شعراء وصف الطبيعة

وصف الطبيعة غرض مهم من أغراض الشعر العربي في كل عصر وفي كل إقليم ، ف دائما الشعراء يتغنون بماتقع عليه أبصارهم من مشاهد الطبيعة الصامتة: من الرياض والأزهار والحدائق والجبال والأنهار والبحار ، وما يرووهم من مشاهد الحياة المتحركة في الطير والحيوان الوحشي والأليف . و نلتقى بيكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ومقطوعة له في الطبيعة الصامتة إذ يصف البرد في بلدته تاهرت عاصمة الدولة الرسمية قائلا^(١) :

ما أُنشِنَ البردَ ورِيَعَتُهُ وأَطْرَفَ الشَّمْسَ بِنَاهِرَتِ
تبدو من الغيم إذا ما بدت كَأَنَّمَا تَنْشُرُ مِنْ تَحْتِ
فنحن في بحر بلا لجة تجري بنا الرِّيحُ على السُّمْتِ
نفرح بالشمس إذا ما بدت كفرحة الذئب باللب

وهو يقول ما أشد خشونة البرد وصعوبته في تاهرت وما أطرف طلوع الشمس بها إذ تبدو محجة دائما من وراء الغيم وكأنا ننشر من وراء تخت أو ستر صفيق ، وإنا لنشعر لشدة البرد كأننا في بحر بلا لجة ، وما أشد فرحتنا بالشمس حين تبدو كفرحة اليهودى يوم السبت يوم عيده الأسبوعي . ولبكر مقطوعة حزينة يكي بها بلدته تاهرت حين خربها في سنة ٢٩٦ بُاعيد الله داعية العبيدين وقضى على الدولة الرسمية بها ، وفيها يقول^(٢) :

زُرْنَا منازلَ قومٍ لم يزوروا إنا لفي غفلة عما يقاسونا
لو ينطقون لقالوا الزادُ وبحكمُ حلُّ الرِّحْلِ فما يرجو المقيمونا
الموتُ أحجفُ بالندى فخرُّها وفعلنا فعلَ قومٍ لا يموتونا
فالآن فابكوا فقد حقَّ البكاء لكم فالخاملون لمرش الله يكونوا
ماذا عسى تنفع الدنيا بجمعها لو كان جُمِعَ فيها كثرُ قارونا

وهو يقول إنا زرنا منازل قوم في قبرهم قضى عليهم بُاعيد الله ولا نعرف ما يقبلون ولو نطقوا لقالوا لنا تزودوا للآخرة فقد حلَّ بالمقيمين الرحيل عما قبل ، وقد استأصل الموت أهل

(١) ديوان بكر بن حماد : نسخة مصورة طبع الجزائر (٢) الديوان ص ٩٠ .

تاهرت وخربرها، وغن لانتعظ كُنْنا لن نموت، والآن فابكوا فالحاملون لعرش الله يكون عليكم ومن أجلكم، وماذا ينفع الدنيا لو أن حكام تاهرت جمعوا فيها كثر قارون فكل شيء فيها صار إلى فناء. ولابن قاضي ميلة المترجم له بين شعراء المدح في وصف عود وماغار إليه من النغنى عليه^(١):

جاءتْ بعود يُناغيها ويُسمِّعها انظرْ بدائع ما يأتي به الشجرُ
غنتْ عليه ضروبُ الطير ساجعةً حيناً فلما ذوّى غنى به البشرُ
فلا يزال عليه - أو به - طربُ يهيجهُ الأعجمان: الطيرُ والوترُ

فقد كانت ضروب الطير وصنوفه تغنى على هذا العود، وهو موصل بشجرته، فلما قطع منها وذوّى غنى عليه البشر بما شذّوا عليه من أوتار، وكُنْنا يهيجه طوال حياته أعجمان: الطير قديما والوتر حديثا. ويبدو أن سمك القرش المنترس كان يترأى أحيانا في مياه تونس فقال ابن قاضي ميلة يصفه^(٢):

وأشقى بفكيه مثلُ المَدَى طويلُ القَرَا مُدْمِجُ الأعْظَمِ^(٣)
نصرته في ضمان المِاءِ ومهجنه في يدِ الخِضْرَمِ^(٤)
يخاف الهواء ويخشى الضياء وإن كان أجراً مِنْ ضَيْقَمِ^(٥)
له داخلُ الِيسْمِ بَطْشُ الأسود وتصحبهُ مِشْيَةُ الأَرْقَمِ

وقد وصف ابن قاضي ميلة القرش وصفا دقيقا فقال إنه مختلف الأسنان وإن بفكيه مثل المدى أو السكاكين وإته طويل الظهر مدمج العظيم واللحم، ولا يعيش إلا في الماء يخاف الهواء والضياء، وإن كان أجراً من أسد فانتك، غير أنه لا يعلو على سطح الماء بل يظل في داخله متلويا في مشيته كالأنعموان. وكان يعاصر ابن قاضي ميلة عبد الله بن محمد الجراوى وسنخسه بترجمة. وأهدى نزار الخليفة الفاطمي في القاهرة المنصورين بلكين سنة ٣٨٤ هدية فيها خيل وليل وحمار وحشى مخطط وفيل، ووصفها جميعا عبد الكريم النهشلي، وفي الخيل يقول^(٦):

وَبَلَقَ تَقَاسَمَ الدُّجْنَةِ وَالضُّحَى فَمِنْ هَذِهِ شَطْرٌ وَمِنْ هَذِهِ شَطْرُ
وَصَفْرُكَانَ الزَّعْفَرَانِ خِضْلُهَا وَالْأَمِنْ مَاءَ الْعَيْنِ لَهَا قِشْرُ
وَشُهْبٌ مِنَ اللَّحْجِ اسْتَمِيرَتْ مَتْنُهَا وَمِنْ صُورِ الْأَقْمَارِ أَوْجُهَا قُمْرُ^(٧)
عَلَيْهَا السُّرُوجُ الْمُحْكَمَاتُ إِذَا مَتَّ بِهَا خَيْلَاءُ الْخَيْلِ رَنْحُهَا كِبْرُ

والخيل بينها بلق يلتقى فيها السواد بالياض، وكان الظلمة والضحي اقتسما لونها فلكل

(١) ابن خلكان ٥ / ٣٤٨.

(٢) الأسودج ص ٢١٣.

(٣) أنشئ: متخالف الأسنان. القرا: الظهر.

(٤) الخضرم: البحر: معاطم الموج وتلاطمه.

(٥) ضميم: الأسد الواسع الشدق.

(٦) الأسودج ص ١٧٣.

(٧) قمر: مشرقة كالقمر.

منهما نصيب ، ومنها صفر كأنما خُصِبَتْ بالزعفران وإلا بقشر من ماء العقيق ، ومنها شهب يختلط فيها يياض الشعر بسواده ، وكأنما استمرت ظهورها من لُجَّ الليل وظلمته الشديدة السواد أما أوجهها فمضيئة ضياء الأفتار الساطعة ، وتمشى مزهوة مشية خيلاء متعالية ، ويقول في الفيل الذي كان مصاحباً للهدية^(١) :

وأخضمُ هندی النجار تُعِدُّ ملوكُ بني ساسانَ إن رابها أمرُ
يجىءُ كطُودٍ جاتِلٍ فوق أربع مضيرةٌ لُتْ كما لُتْ الصُخْرُ^(٢)
له فخذان كالكيين كُبدًا وصدرٌ كما أوفى من الحضبة الصُدرُ
ووجهٌ به أنفٌ كراووقِ خمرة ينال به ما تُدركُ الأنملُ القُشْرُ^(٣)

والهشلي يقول عن الفيل إنه ضخم هندی الأصل ، كانت تعده ملوك الفرس حين يريها أمر . ويشبهه بجبل يتحرك فوق أربع مكتنزة اللحم والعظم تضامت أجزاءها تضامً أجزله الصخر ، وله فخذان كأنهما كيان متراكبان وصدر عريض متنع ، ووجه به أنف طويل طول عنق ليريق الخمر ينال به ما يناله الإنسان بتمامه العشرة . وملتقى في بلاط بني حماد ييجاية بالطبيب ابن أبي المليلح شاعر الأمير العزيز الحمادي (٤٩٨ - ٥١٥ هـ) وله يصف خيوله وموكبه في قصيدة عبيدة منشدا^(٤) :

وجالت به جردُ المذاكي كأنها عذارى ولكن نطقهن تحمّم
بصفراء كالنبر العيسقِ صفيلةً ودماء يتلوها كميّت وأدهم
وأشقر لو يجرى والبرق جهده لكان له يوم الرهان التقدّم
وجاء لولهُ النصر يتبع رايةً بها العز معقود عليها متمم

وهو يقول : جالت بالأمير خيل كريمة مدربة كأنها لم تركب لأول مرة : صفراء كالنبر ودماء كالليل يتلوها كميّت وأسود وأشقر ، ولو أن الأشقر سبق البرق لسبقه ، وجاء موكب الأمير تقدمه راية العز والنصر .

وإذا اتجهنا إلى تلمسان التقينا بشاعرها في القرن السابع الهجري ابن خميس، وكان قد بارحها إلى الأندلس، وله قصيدة بديعة يتشوق فيها لرؤية مشاهداتها ومتنزهاتها في مثل قوله^(٥) :

(١) الأسودج ص ٧٥ .
(٢) مضيرة : مكتنزة للحم
(٣) الراووق : ليريق الخمر .
(٤) الخريدة ١ / ١٨٤ .
(٥) الديوان : النسخة المصورة ص ٨٥ .

تلمسانُ جادتها السحابُ الذوالجُ
ففسى كل شفر من جفوني ماتحُ
كمتُ هولاءُ ثم برح بي الأسى
لساقية الرومى عندى مزنةُ
وكم لى عليها من غدو وروحةِ
ظباء مغتبا عواطٍ عواطفُ
تقتلهم فيها عيون نواظرُ
وإن قس لا قس الوربط ووقفةُ
مطلاً على ذاك الغدير وقد بدتُ
أساؤك أم دمعى عشبة صدقتُ
لئن كنت ملاناً بدمعى طافحاً
ولئن خميس يخلط مشاهد تلمسان بالغرل بها وبفتياتها الحسان ، وهو يستهل قصيدته بالدعاء لتلمسان أن تجود عليها السحب دائماً وتظل بواديهما الرياح الملقحة المتجة ، ويقول إن فى كل حرف من جفونه ماتح يملأ دلاء بدموعه شوقاً إليها وفى كل شطر من فؤاده قاذح ليران الوجد والحب ، وكم كم حبه ووجده غير أن دموعه تفضحه ، فلم يعد بُد من إعلانة ، ويذكر مشهد الفتاة المسماة بساقية الرومى وإن عبت عليه الرومى من حولها ، ويذكر كم له فيها من غدو وروحة وأبواب المنى والآمال مفتوحة فى وجهه وحسانها يدين له المطف ، والطير من حوله ترقص وتصيح وتنغى ، وهن يقتلن بجمالهن من يطيل النظر إليهن ، وينصرفون عنهن بعيون باكية ذرفت كل ما كان بها من دموع ، ولا ينسى منتزه الوربط وما كان يتناحه فيه ويفاوحه من نسيم عطر ، ولا ينسى جناح الغدير به ، وقد بدت لرصد مياهه الصافية صفائح الدروع ، ويسأله ألبك ماؤك أم دمع عيني عشبة صدقت عتبة ما قال العذول المعادى ، ولئن كنت ملاناً بدمعى طافحاً به ففى سكران طافح بحمى . ويقول الشهاب الخلوف شاعر قسنطينة فى أواخر عصر الدولة الحفصية يصف الطبيعة فى يوم ممطر (١٠) :

والن خميس يخلط مشاهد تلمسان بالغرل بها وبفتياتها الحسان ، وهو يستهل قصيدته بالدعاء لتلمسان أن تجود عليها السحب دائماً وتظل بواديهما الرياح الملقحة المتجة ، ويقول إن فى كل حرف من جفونه يملأ دلاء بدموعه شوقاً إليها وفى كل شطر من فؤاده قاذح ليران الوجد والحب ، وكم كم حبه ووجده غير أن دموعه تفضحه ، فلم يعد بُد من إعلانة ، ويذكر مشهد الفتاة المسماة بساقية الرومى وإن عبت عليه الرومى من حولها ، ويذكر كم له فيها من غدو وروحة وأبواب المنى والآمال مفتوحة فى وجهه وحسانها يدين له المطف ، والطير من حوله ترقص وتصيح وتنغى ، وهن يقتلن بجمالهن من يطيل النظر إليهن ، وينصرفون عنهن بعيون باكية ذرفت كل ما كان بها من دموع ، ولا ينسى منتزه الوربط وما كان يتناحه فيه ويفاوحه من نسيم عطر ، ولا ينسى جناح الغدير به ، وقد بدت لرصد مياهه الصافية صفائح الدروع ، ويسأله ألبك ماؤك أم دمع عيني عشبة صدقت عتبة ما قال العذول المعادى ، ولئن كنت ملاناً بدمعى طافحاً به ففى سكران طافح بحمى . ويقول الشهاب الخلوف شاعر قسنطينة فى أواخر عصر الدولة الحفصية يصف الطبيعة فى يوم ممطر (١٠) :

(٥) مغتبا : منازل . عواط : لا تنصب .

(٦) نواضح : جمع ناضح تزف كل ما بها من دموع .

(٧) الوربط : منزله . نافع : أسترخى نفسه وشغله وكذلك أفراح .

(٨) صفاء : يبرد ماءه الصافى .

(٩) المكاشح : الخبض .

(١٠) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢٢٧ .

(١) الدوالج : الثقلة بالأقطار . اللقحة بما

تحمل من أقطار وغير أقطار .

(٢) الشفر : حرف الجفن . ماتح : نازع للدلو من اللتر . قاذح : أى للتأثر .

(٣) ساقية الرومى : قناة جميلة يشاهد الزروع حولها .

السواغ : القمصة .

(٤) اللناح جمع منحة : العطية .

لقد بَلَّ أَرْدَانُ الثُّرى دَمْعُ مَرْئَةٍ
وَجِرَّ عَلَى هَامِ الرِّى ذَيْلُ وَبَلَةٍ
وَحَطَّ بِطِرْسِ الْجَوِّ سَطْرًا مَذْهَبًا
وَشَابَ لَجِينِ الطَّلِّ عَسْجَدُ بَارِقِ
وَدَارَ بِسَاقِ الْغَصَنِ خَلْخَالُ جَدُولِ
تَسَاثُرَ فِي أَسْلَاحِهَا فَتَنْظُمًا^(١)
فَدَبِيعَ أَثْوَابِ الرِّبْعِ وَسَهْمًا^(٢)
فَنَقَطَهُ قَطَرُ الْغَمَامِ وَأَعْجَمًا^(٣)
فَنَفَّرَ أَزْهَارَ الرِّبْعِ وَدَرَاهِمًا
كَأَنَّ سَوْرَ التَّجْعِيدِ لِلنَّهْرِ بِمَقْصَمًا

وهو يقول إن دموع السحابة بَلَّتْ أَكْثَامَ الرِّبْعِ وتناثرت في أسلاكها وانتظمت ، وسحب المطر على رؤوس الرِّبْعِ ذَيْلُ وَبَلَةٍ ثيلها وخططها تخطيطا بدبها ، وخط على صفحة الجو سطرًا مذهبًا نقطه قطر الغمام ، وشاب لجينَ الطلِّ عَسْجَدُ الْبَارِقِ ، فاستحالت أَزْهَارُ الرِّبْعِ دنائير ودراهم ، واستحال ما في الجدول من تجعدات للرياح خلاخيل لسيقان النصوص على نحو ما جعلت تجعداتُها للنهر أساور تزين معصمه . واشتهر إبراهيم بن عبد الجبار النجيجي التلمساني بأخيرة من عصر الدول الحفصية بقصيدة طويلة في مائتي بيت وأربعة عشر وصف فيها صيد الصقر ، وسنخصه بكلمة . ونمضي إلى العهد العثماني ، ومن طريف ما نقرأ فيه وصف ابن أبي راشد لمدينة الجزائر في الربيع ، وفيه يقول^(٤) :

سَقَى الْمَطَرُ الْمَطَالَ أَرْضًا تَشْرَفَتْ
بِمَرْغَةِ الْفِيحَاءِ تَظْهَرُ مِنْ مَدَى
وَحَيْثُ الرِّبْعِ الْغَضُّ تَمَّ شَبْلُهُ
تَرِيكَ أَحْمَرَارًا فِي لِيضَاضِ كَثَمَا
دَوَالِيهَا تَسْقَى الْغُصُونُ فَتَنْثَنِي
تَحْبِرُ أَغْصَانُ الْحَدَائِقِ سُجْدًا
وَمَا هِيَ إِلَّا جَنَّةٌ قَدْ تَارُجَتْ
بِمَصْرِ غَدَتٍ لِلْفُضْلِ وَالْفَخْرِ جَامِعَةً
تُرَى كَسْفِيطَ الثَّلَجِ بِيضَاءَ نَاصِعَةً^(٥)
تَرَى أَرْضَهَا تَبْدَى النُّضَارَةَ يَانِعَةً
دَمَاءً عَلَى أَرْضٍ مِنَ الثَّلَجِ وَاقِعَةً
حَمَائِمُهَا تَشْدُو عَلَى الْقُضْبِ سَاجِعَةً
تَمِيدُ مِنَ الصَّوْتِ الْحَنُونِ وَرَاكِعَةً
مَبَاخِرُهَا بِالطَّيْبِ وَالْمَسْكِ سَاطِعَةً

ولبن أبي راشد يدعو بالسُّقْيَا لمدينة الجزائر التي أصبحت مصرًا وعاصمة لقطرها في عهد العثمانيين وغدت جامعة للفضل والفخر ، ويظل المطر يهطل على مَرْغَةِ الْفِيحَاءِ ، وكأنه يسميها باسمها القديم ، ويقول إن مَبَاتِيهَا جميعًا بِيضَاءَ بِيَاضِ الثَّلَجِ المتساقط الناصع ، وإنها تُرَى في الربيع وقد لبست ثوبًا من رفاة العيش والنضارة ، وترى ورودها الحمراء تكسو ورودها البيضاء ، وسواقيها تروى بمائتيها والحمام يشدو على النصوص مبتهجا ، وكثما الأغصان تستمع إلى صوتها الحنون الشجي ، فماتزال بفعل الرياح ساجدة راكعة ، ومامدينة الجزائر

٣٠٧/٢

(٥) مَرْغَةُ: القنبلة التي بنت مدينة الجزائر وقد تسمى باسمها .

(١) لردان جمع ردن : كم .
(٢) دبج : زين ونقش . سهم : خطط .
(٣) طرس : صفحة . أعجمه : أزال عجمته بنقطه .
(٤) تاريخ الجزائر الثقاتي للذكور أبي القسم سعادته

الإلحقة ، قد فاحت مباخرها بالطيب والمسك وسطع شذاها سطوعا عظيما . وحرى أن نغرد
ترجمة لكل من عبد الله بن محمد الجراوى وإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى .
عبد الله بن محمد الجراوى^(١)

شاعر جزائرى من جروة بين مدينة قسنطينة وقلمة بنى حماد ، تأدب فى مسقط رأسه جروة
داخل الجزائر ، وقدم إلى القيروان - كما يقول ابن رشيق - فى أوائل العقد الرابع من حياته ، وتعلق
بخدمة المعز بن باديس . ويقول ابن رشيق : كان شاعرا فحلا وصافا جيد الفكر والخطر ، تحسب
بديهته رويته ، يتحدر كلامه كالسيل ، وكان حسن الخلق جميل العشرة مزاحا ، سأله أيوب بن
يطوفت أحد رجالات صنهاجة : أى بروج السماء لك؟ فقال : واعجبا منك مال فى الأرض
يت فكيف يكون لى برج فى السماء ، فضحك ، وأمر له بدار جواره . ويذكر ابن رشيق أنه :
توفى سنة خمس عشرة وأربعمائة وقد بلغت سنه نيفا وأربعين سنة ، وكنوا قد أغروا به القائد
حماد بن سيف (العزير بالله) فدى عليه من قتله ليلا ، وعرف خطاه فأسف عليه . وقد أشاد به
ابن رشيق كأربابنا فى الشعر إشادة رائعة ، ومما تشد له قوله البديع فى وصف ديك :

وكائن نَفَى النَوْمِ عَنْ عُرْفَانِ	بديع الملاحه حلوا المعاني ^(٢)
بأجفان عينية يا قوتان	كأن وميضهما جمرتان
على رأسه الناج مسترقا	كاج ابن هرمز فى المهرجان
وقرطان من جوهر أحمر	يزينه زين قرط الحصان
له عُنُق حولها رونق	كما حوت الخمر إحدى القناني
ودار برائله حولها	كما نورت شفرة الزعفران ^(٣)

والجراوى يقول إن النوم انتهى عن الديك وظل مسهدا طوال الليل بديع الجمال حلوا
المعاني وأجفائه باقوتان نومضان كأنهما جمرتان وعلى رأسه ناج عُرْفَه كاج ابن هرمز
فى احتفال يوم المهرجان ، وله قرطان من باقوت أحمر يزينه كما يزنان المرأة العفيفة الطاهرة ،
ويستدير حول جده رونق من الجمال الرائع : وله ريش بديع زاو زهو الزعفران ، ويستمر
وصفه للديك قائلا :

ودارت بجوئيه حلة	تروق كما راقك الخسروانى ^(٤)
وقام به ذنب معجب	كباقة زهر بدت من بنان
وقاس جناحا على ساقه	قيس ستر على خيزران

(٣) برائله : ريش يستدير حول عنقه .

(٤) الجوزجوز : الصدر . الخسروانى : الطليان .

(١) انظر ترجمة الجراوى فى الأنموذج ص ٢١٦ .

(٢) العرفان : الديك .

وصَفَّقَ تَصْفِيقًا مَسْتَهْتِرًا
بمَحْمَرَةٍ مِنْ بَنَاتِ الْفُتَّانِ
وَعُغْرَدُ تَغْرِيدَ ذِي لَوْعَةٍ
يَسُوحُ بِأَشْوَاقِهِ لِلْفُتُوَانِ

يقول الجراوى : قد استدارت حلة ب صدره كما يروق الطيلسان الخسروائى ، وبدا له ذيل زاه كبقعة زهر ، ورغرف بجناحه على ساقه وكثفه مقيسٌ عليه كستر يُنْذَلُ على خيزران ، وصَفَّقَ به تصفيق مخمور ، وغرد تغريد ملثاع يوح للفتوى بأشواقه الحارة .

إبراهيم^(١) بن عبد الجبار الفجيجى الطلمسانى

فجيج المنسوب إليها إبراهيم بن عبد الجبار هو وأبوه وأسرته فى أقصى الجنوب من تلمسان ، وكان أبوه فقيها ومفسرا وله تفسير للقرآن الكريم فى اثنى عشر جزءا ومختصر لحياة الحيوان ، ونشأ ابنه إبراهيم على غرارهِ يعنى بتحصيل العلوم ، ورحل فى سبيل العناية بها إلى فارس وتلمسان ولقى علماءها وأخذ عنهم ، ويقال إنه رحل إلى مصر وأخذ عن علمائها . وعاد إلى موطنه ، وله منظومتان : منظومة فى علم الصيد بالصقر سماها روضة السلوان وهى فى مائتى بيت وأربعة عشر ، ومنظومة ثالثة فى الفقه سماها مفيدة الولدان . وكان حيا سنة ٩٢٠ وتوفى بمدينة جى ببلاد السودان الغربى القديم . وشرح قصيدة الصيد لابن أخيه أبو القاسم بن محمد بن عبد الجبار سنة ٩٨٦ . ويستهل أبو إسحق إبراهيم الفجيجى مطلوته ببيان منافع الصيد فى عشرين بيتا ويتلوها بصفات الصائد فى اثنى عشر بيتا ، ومنها العفة والزراعة وعدم الاختلاط بأهل اللؤم والغيبة ، فلا سوء عشرة ولا هتك هية . ويصف الصقر بمثل قوله :

جَنَاحٌ وَعُنُقٌ ثُمَّ طَالَتْ أَصْلَابُ^(٢)
وَمَا بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ وَالصَّدْرِ وَاسِعٌ^(٣)
وَمِنْسَرَّةٌ لِحِزْرِ مَا هُوَ صَارِعٌ^(٤)
شَدِيدٌ سَوَادُهَا ، جِدَائِدٌ ، لَوَاسِعٌ^(٥)
مِنَ الْفُضَّةِ الْبَيْضَاءِ كَالسَّيْفِ لَامِعٌ^(٦)
تَلْسُونُ بِالْإِبْرِيْزِ أَصْفَرُ فَاقِعٌ^(٧)

طَوِيلٌ ثَلَاثٌ لَا كَطُولُ بُغَائِهَا
رَحِيبٌ ثَلَاثٌ وَهَى مَا هَى كَفَهُ
عَظِيمٌ ثَلَاثٌ : رَأْسُهُ ثُمَّ فَخْذُهُ
لَهُ عُدَّةٌ مِنْ نَفْسِهِ فِى مَخَالِبِ
يُخْنِصُهُ بَارِقٌ عَجِطٌ يَزِيدُهُ
كَذَلِكَ فِى بُسْرَاءِ ثَلَاثٍ وَجُلْجُلٌ

(٢) رحب : متسع .
(٤) التسر من الطير كالشفة من الإنسان . جزر : نحر .
صارع : قاتل .
(٥) حداد : قاطعة . لواسع : تلح كالقنبر .
(٦) بارق : خلخال لامع .
(٧) الجلجل : الجرس الصغير . الإبريز : الذهب الخالص .

(١) انظر فى إبراهيم الفجيجى وترجمته شرح ابن أخيه أبى القاسم محمد بن عبد الجبار لتصديده المسمى الفريد فى تهديد الشريد وتوسيد الوليد بتحقيق الدكتور عبد الحادى الطازى ، وراجع تعريف الخلف ٧/٢ ولأبى رلى شرح عليها باسم الشقائق العمانية فى شرح الروضة السلوانية .
(٢) البغاث : من ضعاف الطير .

إِذَا انْقَضَ خَلَّتْ الْبَرْقُ وَالرَّيْحُ عَاصِفًا وَرَعْدًا بِهِ رَجَزٌ عَلَى الصَّيْدِ وَاقِعٌ^(١)
دَوَى جَلَّاجِلٍ وَلَمَعُ خَلَاخِلٍ وَخَفَقَ جَنَاحُ كُلِّ ذَلِكَ فَاجِعٌ

والفجيجي يقول إن صفه يحوز صفات الصقر الحميد فهو طويل الجناح والعنق والأصابع ، وهو واسع الكف والصدر بعيد ما بين التكيين عظيم الهامة مملئ الفخذين صلب التقار لجَزْر مايفتك به ، وعُدَّتْه مخالبه الشديدة السواد القاطعة التي تلسع لسع العقارب ، وفي يمانه خلخال لامع من الفضة بزنده ، وفي يسراه خلخال وجرس صغير أصفر موه بذهب فاقع ، وإذا انقض على فريسته من الطير ظنت البرق والريج والرعد كل ذلك هجم عليه ، ولا تسمع سوى دوى جلاجل ولمع خلاخل وخفق أجنحة ، كل ذلك ينقض على الفريسة . ويصور الفجيجي انقضاضه على طائر الجباري منشدا :

وَلَجْجًا لَا تَحِينَ يَأْوِيهِ مَلْجَأٌ فَلَا الْأَرْضُ تَنْجِيهِ وَلَا الْجَوُّ مَانِعٌ
ذُو قُوَّةٍ فِي كَفٍّ لَا يُقِيلُهُ يَسَاقُ بِهَا لِلْمَوْتِ وَهُوَ يُوَادِعُ
وَتَنْدُبُهُ حُبَارِيَّاتُ الْفَنَاءِ بِفِيَاءِ مَجْهَلٍ وَهْنُ جَوْلَازِ^(٢)
نَوَاحٍ أَعْرَابٍ عَلَى الطُّبُلِ خَلْفَةً بِمَاجِلِنَ مَجْنُونًا لِمَنْ تَوَاجِعُ
شَقَقْنَ جَبُونًا نَاشِرَاتِ الرُّءُوسِ قَدْ جَرَحْنَ خَدُّوهُنَّ مَا لِهِنَّ بَرِاقُ

والفجيجي يقول إن الجباري كان يطلب ملجأ حين رأى الصقر ، وضاق عليه الجو بأعاليه وضائق عليه الأرض ببجائها الشاهقة وما رَحَبَتْ ، وأخذ الصقر بذؤابة رأسه وربشه الطويل ، ولم يعد يجد مناصا ولا خلاصا منه فهو يوادعه موادعة الياثس من الحياة ، وتندبه جباريات ألفته منجرعات عليه غصص الجزع . وشبههن الفجيجي بنوائع الأعراب حين يتحلقن على الطبل بمحمة الحزن ، وبماجلن ندأبهن الذى يزيد فى حزنهن ويشعله فى نفوسهن ، ويشققن جيوههن وينشرن شعورهن ويخمشن وجوههن السافرة حزنا على فقيدهن . ويمضى الفجيجي متنيا لو عادت أيام الصغر أو أيام الشباب ويذكر مواضع كثيرة فى الربيع والشتاء كان يرودها للصيد ويندد بمن كانوا يتلومونه لاهتمامه به ، ويقول إن مثلهم مثل من لا تحركه بهجة الربيع ولا متعة العود والموسيقى وكأنهم لم يشعروا يوما بالحب والهوى . ويفيض فى عرض فقه الصيد وما أحله الشارع منه وما حرّمه وواجبات القتل إزاء ذلك وأجناس صيده فى البر ، ويتجه إلى قارئ قصيدته بعد نحو ماثنى بيت قائلا :

أَتَيْتُكَ بِالْحَقِيقِ نَظْمًا فَخُذْ بِهِ وَدَعْ عَنكَ مَا سِوَاهُ فَهَوَّ جَمَاعُجُ
فَدُونَكُمَا مِنْ مَحْسَرِ فِكْرِي دُرَّةٌ تَفْجُرُ مِنْهَا لِلْعُلُومِ يَنَابِغُ
فَمَنْ كَانَ ذَا جِدٍّ وَغَى خِيَصْبٍ حِكْمَةٌ وَمَنْ يَتَنَغَّ الْإِحْمَاضُ فَالْمَرْجُ وَاسِعُ

(٢) فهاه : صراره ولسته .

(١) رجز : شدة فى الصوت .

فقل روضة السلوان إن شئت في اسمها وقل رَجِمَ الرحمن من هو ساجع
ولا تَعْدُونَ عيناك عنها لكونها بدت بدويةً وثى واضح
وكم رمية لغير راي فرطست وأخرى لراي أخطأت هل تنازع ؟
فأعصوا على ما كان واغصوا وسامعوا وإن كان خرق فليداركه رافع

وهو يقول لقارئ قصيدته إنه أتاه من وصف الصقر وأحواله وأحكام صيده وفقهه وأحكامه
بملا مزيد عليه في التحقيق ، ودع سواه من الجماجم التي لا فائدة فيها ولا طائل وردها ،
وقد غصت عليها في بحر فكري واستخرجتها لك درة تنفجر بكبير من المعارف عن الصيد
وفقهه ، فمن كان صاحب جد وثى منها حكمة ، ومن كان صاحب لحو وجد فيها مبتغاه ،
وسمها باسمها : روضة السلوان ، وقل رحم الله ناظمها رحمة واسعة ، ولا تحقرها لأنها تناول
موضوع الصيد البدوي وثى ناظمها ، وكم رمية قرطست وأصلبت الهدف وكم رميات أخرى
اغترفت عن الهدف والغرض المقصود ، وذلك فضل الله يمن به على من يشاء . ويطلب من
قارئه في تواضع أن يغض الطرف عن هفواته ويغفو ، وإن كانت في قصيدته زلة فليتداركها
بلفظه .

٣

شعراء الرثاء

الرثاء من أغراض الشعر القديمة ، والشاعر فيه إما أن يتفجع على الميت ويكيه ويتوجع
لفقده ويسمى ذلك ندبا ، وإما أن يكي فيه خلاله ومناقبه التي حرم منها المجتمع ويسمى
ذلك تليثا ، وإما أن يفضي إلى ذكر الموت وأنه حوض لا بد للحي من وروده ، ويسمى ذلك
عزاء ، وقد يمزج الشاعر بين نوعين من هذه الأنواع وقد يمزج بين الثلاثة . ويلقنا الرثاء
مبكرا في الشعر الجزائري على لسان بكر بن حماد شاعر تاهرت في القرن الثالث الهجري ،
وكان قد مات له ابن فندبه طويلا بمثل قوله يخاطب نفسه وقد وقف على قبره^(١) :

قِفْ بالقبور فنادِ الهامدين بها من أعظم بليت فيها وأجساد
قومٌ تقطعت الأسباب بينهم من الوصال وصاروا تحت أطواد
كيف البقاء وهذا الموت يطلبنا هيهات هيهات يا بكر بن حماد
بينا ترى المرء في لهو وفي لعب حتى تراه على نعش وأعواد

وهو يقول قف بالقبور ونادِ بأعلى صوتك فلن يرد عليك أحد فقد تقطعت أسباب الوصال
بينك وبين من فيها ولا سميع ولا مجيب ، ويقول كيف البقاء والموت يطلبنا في كل لحظة ،

(١) الديوان ص ٨١ .

وينسا المرء لاؤه عنه في هو وفي لعب إذا هو محمول على نعيش وأنعود وآلة حدياء تقذف به في مهاوى القبور . ويكي ابنه طويلا بمثل قوله^(١) :

بكيتُ على الأحبة إذ نسولُوا ولو نئي هلكتُ بكوا عليَّ
فيا ولدي بفاؤك كان ذخرًا وفقدك قد كوى الأكباد كيَّ
كفى حزنًا بقى منك خلوً وفلك نيتٌ وبقيتُ حيًا
ولم أك يائسا فبنتُ لما رمتُ التُّرب فوقك من يديما

وهو يكي أخته ولفظة كبده بكاء حارا ، وقد كان بقاء ابنه ذخرا لا يمثله ذخره له وقد كوى فقدته كبده كيًا مؤلا أشد الألم ، ويقول إنه يكفيه حزنا أن مات ابنه وأنه عاش بعده يتلظى موجدة وحزنا ، ولم يك يعرف اليأس إلا حين فقدته ، ورمت يدها عليه التراب فأظلمت الدنيا في عينه . ولابن الرِّيب يرى خمسة من القواد في عهد باديس (٣٨٦ - ٤٠٦ هـ) غامروا بأنفسهم في معركة خاسرة بالزَّاب ، وفيهم يقول مصورا بأنهم^(٢) :

أبتَ لهمُ أن يرتضوا الضيمَ أنفسُ كرامَ رأيتُ رميا بها الموتَ أخزما
فهوَّا وما هابوا الردى خدرعوا على خطرٍ قطعًا من الليل مُظلمًا^(٣)
وهوَّوْ وَجَدَى أنهم خمسة مضوا وقد أقصوا خمسين قرما مسوما^(٤)
وكان عظيما لو نجوا غير أنهم رأوا حسنَ ما أبغوا من الذكر أعظما
أبوا أن يفرُّوا والقنا في غورهم وأن يرتقوا من خشية الموت سلما
ولو أنهم فرُّوا لفرُّوا أعزَّة ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

وهو يقول إن أنفس هؤلاء القواد الخمسة كانت من الشعور بالهزة والكرامة بحيث أبت لهم أن يفرُّوا بها عن الحرب فرموا بها في أتونها وضرامها غير هائين وتدرعوا طائفة من الليل ومضوا يتقدمون حتى لم يجدوا متقدما وحتى تقطعت السيوف في أيديهم . خمسة أبطال قتلوا خمسين شجاعا معلما من الأعداء ، وكانوا يستطيعون النجاة ولكنهم رأوا الضرب في الأعداء حتى النفس الأخير فإن في ذلك ذكرا عاظرا باقيا لهم . وتكاثر عليهم الأعداء وأخذتهم الرماح من كل جانب وأبوا أن يفرُّوا خشية الموت ، ولو فرُّوا لفرُّوا أعزَّة بما أذاقوا أعداءهم من كثرة القتل والطمع ، غير أنهم رأوا أن يصبروا وأن يموتوا في ميدان الحرب ، لينالوا شرف التضحية بالنفس . ويقول ابن قاضي ميلة في وصف غريق بالبحر^(٥) :

وما زلتُ أنسقى له الفطرَ دائيا وأنسودع الريح السلام المجذبا

(١) الديوان ص ٨٥ .

(٢) أنقصوا : قتلوا . قرما : شجاعا . مسوما : معلما

(٣) الأنسودج ص ٢١٥ .

(٤) الأنسودج ص ١١٣ وما بعدهما

(٥) الردى : الموت . قطعًا : طائفة .

فكان الذى استسقيتُ أولَ خاتلٍ له والذى استودعتُ من أعظم العبد^(١)

حتى فظاظ بين الماء والريح روحه وما زاره أهنن ولا زار ملحد^(٢)

وهو يقول إن الذى كان يستقى القطر له ويستودع له الريح السلام حين تمر بدياره كان الماء أول خاتل غادر له إذ أتاه من حيث لا يشعر ، وكان الريح من أعظم أعدائه ، وقد فاظت روحه بين الماء والريح وصعدت إلى بارئها ، وما زاره أهل ، ولا زار لحدا ، فقد ذهب أدراج أمواج البحر ولم يَبْنِ له أثر . وتلتقى فى بجاية بمحمد بن علي بن حماد فى القرن السابع وراثيه للدولة الحمادية ، وسنخصه بترجمة . وكان السلطان أبو حمو موسى (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) شاعرا وممرت له ترجمة فى الفصل الماضى ، ومن قوله يرمى أباه^(٣) :

قد كان لى فى الدنى أب يساعدى فصار تحت الثرى فى لحده اكتفا^(٤)

مددت فى ظل نعماء يدي زما ونلت من رفده فى دهرى الثخفا

يا فقد يوسف ما لبقيت لى جلدا يا فقد يوسف إن الصبر عنك غفا

ما مثل يوسف مفقود لفاقيه ولا كموسى أخو فقدي إذا وصفا

يا قبر يوسف لا تمدوك هامة من النعمام ولا زال الثرى وجفا^(٥)

وأبو حمو موسى ييكى أباه ويذكر ككرة ما كان يساعده به فى الدنيا حربا وسما ، ويذكر كم مثله يده فيملؤها له نعماء وتخفا ، وقد أصبح تحت الثرى يكتفه اللحد من جميع جوانبه ، وقد أفقده موت أبيه الصبر والجلد ، ويشيد به -أبا مثاليا ويدعو لغيره أن تظل السحب وافدة عليه تهيم وتهطل ، ولا يزال الثرى أو القبر خائفا . ويقول محمد بن يوسف الثغرى فى تلنيه مواسيا أبا حمو موسى^(٦) :

أسفا لمن فاق الملوك جلالة ودبانة وبكل فضلي حوى

أنظمت به من زاهد ومجاهد ومنيل رفس تارة ومنيب

هوت النجوم الزاهرات لفقدو وذوى من الأزهار كل رطيب

وتغيرت شمس النهار له أسى وتبدلت من نورها بشوب

وبكت سيوف الهند فى أعمادها بدم ، بماء فزنيها مخضوب

ولقد بكته جياده بصهيلها وغدت تحن له حين النب^(٧)

من للوفود إذا لوت لجنيه بلفاسهم بالبشر والترحب

والثغرى يجعله فوق الملوك جلالة ومهابة ودبانة وبكل ضروب الفضل من زهد وجهاد

جانب.

(١) خاتل : غادر .

(٢) وحننا : خائفا .

(٣) فظا : مات . ملحد : لحدا .

(٤) فظ : الجزء الثغرى من بنية الرواد لحيى بن خلدون .

(٥) كتاب أبو حمو موسى ليعلم السجد حاجيات ص ٣٣٦ .

(٦) النب : الإبل المروقة يحثنها إلى أولادها .

(٧) الثغرى : جمع دنيا . اكتفه اللحد : أسطه من كل

وكرم وإتابة لله ، وكثما هوت النجوم الثلاثة لفقده وذوت الأزهار الغضنة ، وحى شمس
النهار تغيرت حزنا وتبدلت من نورها بشحوب . وإن سيوف الهند التى طالما شهرها على أعدائه
لتبكيه بدم مخضوب بما يلعب على صفحاتها من تموجات الضوء ، وإن جياده لتنتظره مؤملة
بصهيلها التى تعبر به عن حنينها له أن يمتطيها للقاء الأعداء . ويتساءل الشاعر من سبلى
الوفود الكثيرة التى كانت تقف على بلبه بالبشر والترحيب وقضاء حاجاتها الكثيرة . ويقول
الشهاب الخلوفاً شاعر السلطان عثمان الحفصى يبكى لبنا له مات صغيراً^(١) :

أصبتَ عينَ المِها يا موتُ بالرَّمْدِ وقد أفضتَ جناحَ المجد فأنهد^(٢)
ناجزتَ فى صَرْفِ آجالٍ قد اقتربتَ إذ لا تسلّمها إلا يداً يسد^(٣)
كم زدتَ فى تفصك العليّا جوى كبدٍ خرى فيا ليت لم تنقص ولم ترد
وكم تركتَ بُهاً يبكى على ولدٍ أذنته طعمَ نُكُلِ الأم للولد
بُنَى ليتك لم تخلق لِسَوْرَى بلى يا ليتنى لم أتم بالصبر عن شهد^(٤)
سقى الحيا فبك الزاكى وواصله سحابٌ غفِرَ وغفرانٍ مدى الأبد^(٥)

وهو يخاطب الموت فحزونا ويقول له اتكد ، فقد أصبت عين الأم بالرمد لكثرة البكاء
على من تفقدتهم وحطمت جناح المجد وناجزت فى حدث الموت وأبيت إلا أن تستلم ابني
يدايد ، وكم نقصت العليّا وزدت الكيد حزنا وحرارة ، وكم أذنت أبا فقده لابنه فذاق
طعم حزن الأم حين تفقد ابنها . ويخاطب ابنه فليته لم يخلق للى جسده وعظامه حتى
لايسام أبوه ولا يكلف الصبر على ما نزل به ، ويستسقى له السحاب وأن يمنحه الله عفوه
وغفرته .

ويكثر منذ أواخر عصر الدولة الحفصية رثاء التلامذة لشيخوهم الأعلام فى تلمسان وغيرها
من مدن الجزائر ، وكان من كبار علماء تلمسان فى القرن التاسع الهجرى محمد بن يوسف
السوسى نسبة إلى قبيلة مغربية وهو حَسَنى من ذرية الحسن بن على بن أبى طالب ، وفيه ألف
تلميذه الملاالى كتابا سماه « المواهب القدسية فى المناقب السنوية » وكان فقيها ، بل كان إماما
فى الفقه وفى علم التوحيد وله فيه الكتاب المشهور عقيدة أهل التوحيد وشرح مرارا ، ورثاه
تلميذه الشاعر محمد بن عبد الرحمن الحوضى حين توفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م بقصيدة
بديعة ، وفيها يقول^(٦) :

-
- (١) الديوان ص ٢٥٠ .
(٢) أفضت : حطمت .
(٣) صرف : حدث . آجال : أعمار .
(٤) ورى على : اكتام على . أتم : أكلف .
(٥) الحيا : الميت . الزاكى الطاهر .
(٦) تعريف الخلف برجال السلف ص ٤٠٤ .

ما للمنازلِ أظلمتْ أرجاؤها
هذا الذى ورث النىءُ فأصبحتْ
ودعا إلى التوحيد دعوةً مخلص
يا أُوحد العلماء يا علما به
مَنْ للتأليفِ التى ألفتها
مَنْ للعلوم على اختلاف فنونها
باربُ قدسٍ روحه وضريحه
والأرضُ رُجَّتْ حين غاب رجاؤها
عللُ الضلال به استفيد دواؤها
وإلى الشريعة فاستنار ضياؤها
كلُ العلوم بدتْ لنا أنحاؤها
يُبدى بها ما استشكلتْ قُرأؤها
يبدى لها نكتا يروق سناؤها
ومِنَ الجنان تحفه نغماؤها

والحوضى يقول إن الدبار أظلمت والأرض كُتِّمًا زلزلت زلزلا عظيما بموت السنوسى الذى ورث الهدى عن الرسول الكريم فكُتِّمًا علل الضلال وجدت عنده أدواءها جميعا .
وعملان عظيمان له الدعوة إلى عقيدة التوحيد والشريعة وفقهاها المصطفى ، بل لقد أضاء للطلاب كثيرا من أنحاء العلوم التى درسها لهم لا فى الفقه والتوحيد فحسب بل أيضا فى المنطق والقراءات والفرائض وغير ذلك مما درسه وألف فيه . ويتكاثر رثاء التلاميذ لشيخوهم فى المهد الشملى ، ونسوق من ذلك رثاء : شاعر مدينة الجزائر سعيد قدورة الذى اشتهر بشرحه لمتن السلم فى المنطق والمتوفى سنة ١٠٦٦ هـ/ ١٦٥٥ م فقد رثى أستاذه محمد بن على المجاجى وكان قد توفى مقتولا وفيه يقول^(١) :

مصابٌ جسيمٌ كاد يُضنى مقاتل
ومَنْ لفتون العلم نَحوا ومنطقا
لمنزلهِ كانتْ تُشدُّ رحانا
أحقا قلتِ الألمي عَميدا
قلتِ امرءا من شأنه العلم والتقى
ومالك يوم القرضِ إلا جهنم
عليه من الرحمن أوسعُ رحمة
ورزءٌ عظيمٌ قاطعٌ للمفاصل
وفقها وتوحيدا وقوى لسائل
فمن راكبٍ يَسْتَمِي إليه وراجل
على قول حق لا على قول باطل
فيا خيرَ مقتولٍ وبأ شرِّ قاتل
نقادُ إليها صاغرا بالسلاسل
وأزكى سلامٍ فى الضحى والأصائل

وسعيد قدورة يقول إنه مصاب جسيم ورزء عظيم أن يقتل هذا العالم الجليل دون ذنب جناه ، ويقول إلى أين يذهب طلاب العلم نَحوا ومنطقا وفقها وتفسيرا وتوحيدا ، وإلى من يرجعون فى الفتوى . وكانت تشد إليه الرحال من فجاج الأرض بين راكب وراجل ، ويعجب أن يقتله شخص وهو لا يصدر إلا عن حق لعلمه وتقاه ، وإنه لخير مقتول ، أما قاتله فشر قاتل ، ويتوعد أنه يكون مصيره إلى جهنم يقاد إليها بالسلاسل والأغلال ، أما الشيخ المقتول

(١) تعريف الخلف ص ٤٤٢ .

فعلية من ربه أوسع رحمة وأظهر سلام وأعطره . وتوقف قليلا لترجم لشاعر بجاية محمد بن على بن حماد .

محمد^(١) بن على بن حماد القلي

من أهل قلعة بني حماد وفضلاتها ، قرأ بها وتفقه على علمائها ، ثم طلب المزيد فقرأ على علماء بجاية وكان بها أبو مدين شبيب فأخذ عنه كتابه : « المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى » وشرحه من فاتحته إلى خاتمته ، ولزم دروس عبد الحق الإشبيلي وأخذ عنه كتاب الموطأ للمالك وغيره من الكتب ، وحضر على جلة الشيوخ في بجاية وغيرها ، وكان له برنامج يشتمل على مائتين واثنين وعشرين كتابا مسندة إلى مؤلفيها ، ويبدو أنه كان ينزع نحو المذهب الظاهري مذهب دولة الموحدين ، ولذلك عيَّنه - في رأينا - قاضيا بالأندلس في مدينة الجزيرة الخضراء ، ثم نقلوه منها سنة ثلاث عشرة وستمائة إلى سلا في المغرب على المحيط وظل بها إلى أن توفي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م . وكان شاعرا بارعا ، وله قصائد أو مرات مختلفة يرثي بها دولة بني حماد التي أزالها الموحدون عن موطنه سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م ، وفي إحداها يقول^(٢) :

أين العروسان لا رَسَمَ ولا طَلَّلُ
وقصر بلارة أودى الزمان به
وما ورا الكوكبِ العلوى معصم
وقد عفا قصر حماد فليس له
وإن في القصر قصر الملك معتبرا
وما رسومُ المنار الآن مائلة
حتى المصلى امحَّت آياته وعَفَّتْ
كرجلك الطرفَ كانت كلُّ أبدة
فانظر ترى ليس إلا السهلُ والجبلُ
فأين ما شادَ منه السادة الأولُ
وقد عرا الكوكبُ التخيير والبدلُ
رَسَمَ ولا أثرُ باقي ولا طَلَّلُ
لمن تغرره الأيام والدولُ
لكنها نَبَذَ يَجْرِي بها المثلُ
إلا جدارا وما طَلَّتْ به الطللُ^(٣)
عما تراه كذلك العمرُ والأجلُ

وهو يقول أين القصران العروسان المهجان ، لم يمد حتى رسم ولا طلل ولم يمد إلا الفضاء ، وقد أمحى قصر بلارة المجيد وما شاده فيه ملوكه الأول ، وإمحي قصر الكوكب العلوى وقصر حماد إذ لم يبق منه رسم ولا أثر ولا طلل ، وإن في ذلك لعبرة أى عبرة لمن يفتخر بالأيام والدول ، وأين قصر المنار ؟ إنه لم يبق منه إلا آثار يشتمل بها الناس ، وحتى المصلى الذى كان يلحق بالقصور لم يبق منه إلا جدار وبقياء أطلال إذ سرعان ما زاهلته النعمة سريعا وزايلت كل أبدة

(١) انظر في ترجمة محمد بن على بن حماد عنوان الدابة

(٢) المطبوع من ٦٢٤ هـ والطمار ص ١٢٣ .

(٣) الطلل : جمع طلل .

(١) انظر في ترجمة محمد بن على بن حماد عنوان الدابة

ص ٢١٨ وتعرف الخلف ص ٤٨٧ وتاريخ الجزائر

في التقديم والحديث للمبلى ص ٦٣٤ وتاريخ الأدب

وغرية مما كان فى القصور من عجائب ونقوش ، فكل ذلك ذهب كرجلك الطرف إلى غير مآب كما تذهب الأعمار والآجال ، ويقول^(١)

ألا ليت شعرى هل أَيْتَنُ لَيْلَةً
وهل أُسَمِّعَنَّ تلكَ الطيورِ عَشِيَّةً
وهل أُرِدَّنَ عَيْنَ السَّلامِ عَلَى الصَّدَى
ونَظَرَ طَيْقَانٍ « الْمَنَارِ » مُطَلَّةً
بِوَادَى الْهَوَى مَا بَيْنَ تِلْكَ الْجُدُولِ
تُجَاوِبُ فِي تِلْكَ الْفُصُوفِ الْبَلَابِلِ
فَأُرِيدُ مِنْ حَرِّ الضُّلُوعِ النَّوَاهِلِ^(٢)
عَلَى الْوُجُنَاتِ الزَّاهِرَاتِ الْخِمَائِلِ^(٣)
نَجُومٌ تَبْدُءُ فِي سُعُودِ الْمَنَازِلِ
وَتُنْزِلُنِي فِي غَيْرِ تِلْكَ الْمَنَازِلِ
سَتَفِي بِقَاءِ الطَّالِعَاتِ الْأَوَافِلِ
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ غَيْرُ أَنْ صَبَابَتِي

وابن حماد يمتنى فى غربته الطويلة ببلاد المغرب والأندلس لو بات ليلة بوادى بجاية :
وادی الهوى والحبُّ بين جدواهما يسمع إلى الطيور وهى تجاوب البلابل فى المساء ، ويمتنى
أن يرد على عين السلام ليبرد صداه ويشفى ظمأه الطويل وحر ضلوعه ، وينظر طيقان المنار
وهى مطلة على الخمائل المزهرة فوق الأرض الصخرية حول بجاية ، ويتصور كأن قباب هذا
القصر التى كانت تشرف على ما حوله نجومٌ مُنْعَدَةٌ . ويمتلئ شوقا وحنانا لبلدته بجاية فيقول
إن ثنت الأيام أعتى عنها إلى سلا وغير سلا من مدن المغرب والأندلس فسأزفع إلى الصبر
الجميل ولكن صلبتى يلبدى وموطنى سظل جائمة فى فؤادى ما حييت ، وستظل باقية بقاء
النجوم الطالعات الأوافل ، ويقول فى عين السلام^(٤) :

عَلَى غَيْنِ السَّلامِ سَلامٌ صَبَّ
غَذَاهُ مَاوَهَا الْعَذْبُ النَّمِيرُ
تَأَوَّدُ أَيْكُهَا وَجَرَّتْ صَبَّاهَا
وَرَشَّمْ لَهَا كَأَفْتَقَ الْعَبِيرُ
وَأُتْدَى حِينَ يَحْتَدِمُ الْمَجِيرُ
وَلَتَدَى حِينَ يَحْتَدِمُ الْمَجِيرُ
وَقَدْ قَامَ الْمَنَارُ عَلَى ذُرَاهَا
كَأَقَامَ الْعُرُوسُ أَوِ الْأَمِيرُ
بِنَاءً يُزْدَرَى إِسْلَوَانُ كِبَرَى
لَدَيْهِ وَالْخَوَزَنِيُّ وَالسَّيْئِرُ

وهو يرسل بالتحية إلى عين السلام التى طالما نهل من مائها العذب الصافى الزاكى ، وإن
أَيْكُهَا أو شجرها ليشئ بفعل الرياح ويهب صَبَّاهَا عليلًا حاملًا منها شذى عطرا ، وحين
تتشدد حرارة الهاجرة وراء بجاية فى الصحراء تصبح بجاية تُبْرَدُ وتُتْدَى ما تكون ، وإن
قصر المنار ليقف فى أعاليها وكأته عروس ينتظر الزفاف أو أمير ينتظر الموكب الحافل ، ولته

(١) نظرى فى الأبيات التالية المجلد ص ٦٣٤ والطمار
ص ١٢٣ .

(١) المرجع السابقين .

(٢) الصدى : المعطش .

(٣) الوجنات : مرتفعات الأرض .

لقصر مشيد يُؤدّرى بجانبه إيوان كسرى ، والخورنق والسدير : قصران كانا للملك الحيرة فى الجاهلية .

٤

شعراء الزهد والتصوف

(أ) شعراء الزهد

الزهد قديم فى الأمة منذ العصر الإسلامى وزاهد الأمة الأول محمد ﷺ وكان كثيرون فى أيامه يأتسون بزهده وتقشفه ، ويفرد الجاحظ للزهاد صحفا كثيرة فى البيان والتبيين حتى عصره ، ويروى مَنْ بعده فى الكتابة عنهم ، ويلقنا بنهم فى المغرب كثيرون فى كتاب رياض النفوس للمالكى ، يقبلون على ما عند الله من ثواب الآخرة ويرفضون الدنيا ، ودائما يذكرون الموت وأنه مقبل لا محالة وأن من واجب الإنسان أن يتدبر أمره وغده وأنه عما قريب محمول على آلة حلبة وسيلقى ربه ، وحرى بالإنسان أن يعمل لآخرته قبل أن يفجأه الموت ويأتيه على حين غرة أو غفلة ، وفى ذلك يقول بكر بن حماد متحدثا عن الموت^(١) :

لقد جمحتُ نفسى فصَدْتُ وأعرضتُ	وقد مَرَقْتُ نفسى فطال مَرُوقُهَا ^(٢)
فيا أسفى من جُنَحٍ ليلٍ يفودها	وضوء نهارٍ لا يزال يسوقُهَا ^(٣)
إلى مشهدٍ لأبدٍ لى من شهودِهِ	ومن جُرْعٍ للموت سوف أذوقُهَا
سحاب النايابا كلُّ يومٍ مظلةٌ	فقد هطلتْ حولى ولاخٌ بُروقُهَا
تجهمتُ خمسا بعد سبعين حجةً	ودام غروبُ الشمس لى وطلوعُهَا
وأبدى النايابا كلُّ يومٍ وليلةٌ	إذا فُتقتْ لا يستطيع رُتوقُهَا
تَصْبِحُ أقواما على حين غفلةٍ	ويأتبك فى حين اليأسِ طروقُهَا

وهو يقول إن نفسه جمحت منه وركبت هواها وعصته عصيها شديدا ، إذ لا تسمع إلى نصحه وإرشاده ، وكثما زمامها بليل مظلم مما يؤسفها وإنها لا تطلع إلى ضوء نهار مشرق يريها المشهد الحقيقى من الموت وجُرْعَه وما سيَحْسُو منه ، وإن سحاب الموت ليظلمه ، وإنه ليهطل من حوله وتلمع بروقه ، وقد احتمل خمسا وسبعين سنة ، وطالما أشرقت عليه الشمس وغربت وأبدى الموت من حوله إذا فُتقت فتقا لا يستطيع أحد رتقه ، وتصبح أقواما فجأة بمن تختطفه منهم وبالمثل تسيبهم ، وما أحرقتنا أن نعمل لآخرتنا قبل فوات الأوان . ويحدثنا صاحب

(٣) جنح الليل : ظلامه .

(١) الديوان ص ٧٨ .

(٤) عنوان الدراية ص ٧١ .

(٢) جمحت : نفرت . مرق : خرجت وصحت .

عنوان الدراية عن الشيخ الفقيه النحوى محمد بن الحسن بن ميمون القلمى البجائى ،
وكان كثير التلامذة والطلاب وقرأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، وكان يسلك
فى شعره طريقة لمى تمام ، وتوفى سنة ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤ م وله منظومات فى الزهد والمدح
النوى ، ومن قوله فى الزهد^(١) :

الخَيْرُ أَصْدَقُ فى الْمُرْأَى مِنَ الْخَيْرِ	فَمَهْدُ الْعَذْرِ لَيْسَ بِالتَّيْنِ كَالْأَثَرِ
وَأَعْمَلُ لِأُخْرَى وَلَا تَبْخُلْ بِمَكْرَمَةٍ	فَكُلُّ شَيْءٍ عَلَى حَدٍّ إِلَى قَدْرِ
وَكُلُّ حَيٍّ وَإِنْ طَالَتْ سَلَاتُهُ	يَخْتَالُهُ الْمَوْتُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالصَّدْرِ
هُوَ الْحِمَامُ فَلَا تُبَيِّدْ زِيَارَتَهُ	وَلَا تَقُلْ لِيَتْبَى مِنْهُ عَلَى حَدَرِ
يَاوَجُ مِنْ غَرِّهِ دَهْرٌ فَسَرُّ بِهِ	لَمْ يَخْلُصِ الصَّفْوُ إِلَّا شَيْبَ الْكَدْرِ
تَنَافَسَ النَّاسُ فى الدُّنْيَا وَقَدْ عِلِمُوا	أَنَّ الْمَقَامَ بِهَا كَاللَّنَحِ بِالْبَصْرِ
نَظَرُوا لِمَنْ بَادَ تَنْظُرَ آيَةً عَجَبًا	وَعِمْرَةً لِأَوَّلَى الْأَبْصَابِ وَالْعَبْرِ

وهو يقول إن التجربة أَصْدَقُ من الخبر إذ ما يُرى بالعين ليس كالأثر ، وأعمل لآخرتك
ولا تبخل بصالحه ، فكل شيء مقدر ، وكل حى وإن طالَّت سلاته سيخاله الموت فجأة بين
ورده لشيء وصَدَره عنه ، إنه الموت فلا تظن أن زيارته سَتَبْطِئُ عنك ، ولا تظن أنك تستطيع
أن تكون على حذر منه ، ويأوج من غَرِّه زمن سره ، فإن الصفو دائما يشاب بالكدر ، ويأوج
الناس فبئهم يتنافسون فى الدنيا وأمانيتها ومظاهرها وهم يعلمون أنهم راحلون عنها سريعا سرعة
اللمح بالبصر ، وانظر لمن باد من السالفين فإن فى ذلك عبرة لأولى الألباب . ويذكر ابن
ميمون البجائى الملوك المالكين : دارا الفارسى ودايزن اليمنى وهرقل البيزنطى وغيرهم فكلهم
أنفاهم الدهر ولم تبق منهم إلا الأسماء والسير .

وتكثر الانتهالات إلى الله والاستغاثات والتوسلات على ألسنة الزهاد ، ويتسع ذلك فى
المهد العثملى ويتسع معه وضع الأذكار والأوراد ، ومن أطول الاستغاثات استغاثته^(٢) محمد بن
حواء المستغنى بربه ، وسميت التوسية الكبرى فى الكرب والشدائد إذ تقع فى أربعمائة بيت ،
بدأها بالحمد لله والصلاة على رسوله روح الوجود ومطلع الأنوار وقدرة الأقطاب ويخرج إلى
دعاء ربه والاستغاثة به إلى أن قال^(٣) :

يَا سَامِعَ الدُّعَاءِ يَا قَدِيرُ	يَا مَنْ إِلَيْهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ
يَا مَالِكَ الْمُلُوكِ يَا جَبَّارُ	أَنْصُرْ ذَلِيلًا مَالَهُ أَنْصَارُ

(١) تعريف الخلف ٣٧٣/٢ .

(٢) سعد الله ١٤٨/٢ .

(٣) نفس المرجع السابق .

ولعبد الكريم الفكيون ، صاحب رسالة فى التصوف ونقد رجاله وما صار إليه ، قصيدة يتوسل فيها إلى ربه جعل مطلعها^(١) :

بأسمائك اللهم أبدى توسلا فحقق رجائى بألهى تفضلاً

وكرر التوسل فى هذا العهد بين الفقهاء والشعراء جميعا ، وللمفتى المالكى محمد بن الشاهد صاحب القصائد المولدية : توسل مطلعها^(٢) :

بأسمائك الحسنى فحقتُ توسلى ومنك رجوتُ العفو أسمى مطالبى

(ب) شعراء التصوف

نزل الجزائر أئمة التصوف الأندلسيون منذ القرن السادس الهجرى يتقدمهم أبو مدين شعيب^(٣) المتوفى سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٧ م ويقال إنه من تلامذة الشيخ ابن حزمهم بفاس المتوفى سنة ٥٥٩ ولبس الخرقة على يد الشيخ أبى عبد الله الدقاق وسلك طريقته على يد أبى يعزى المتوفى سنة ٥٧٢ واستوطن بجاية وانتشرت بها طريقته الصوفية ، وأرسل فى طلبه سلطان الموحدين المنصور يعقوب فمضى إليه عن طريق تلمسان وتوفى بها وقيمه بالعباد فى جوارها ، ومن قوله : « بى قل ، وعلى دُل ، فانا الكل » وهى عبارة قد تفيد أنه كان يؤمن بالانحداد بالله ، وربما كانت شطحة من شطحاته وكان تصوفه فلسفيا . ومن نزل تلمسان فى القرن السادس أبو عبد الله^(٤) الشوذى الإشيلى من كبار العبّاد العارفين ، ويروى تلميذه ابن دهاق المتوفى سنة ٦١١ أنه رآه بتلمسان فى يده طبق به حلوى يبيعها للصبيان الصغار وهم ينقرون له ويدور ويشطح ، وكان يمزج التصوف بالفلسفة ويقول بوحدة الوجود^(٥) . ومن هؤلاء الأئمة النازلين بالجزائر محى^(٦) الدين بن عربى المولود سنة ٥٦٠ والنّاشئ فى إشبيلية ، وعلى متصوفيهما تلقن التصوف وفى سنة ٥٩٠ بارحها متجولا فى الأرض ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفى فترة ثم اتجه إلى المشرق . ومن نزل بجاية ابن^(٧) سبعين عبد الحق وأبو^(٨) الحسن الششتري ، ويروى أنهما التقيا وأراد الششتري أن يتركه إلى أصحاب أبى مدين فقال له : إن كنت تريد الجنة فسر إليهم ، وإن كنت تريد ربّ الجنة فاهلم إلى . وكأنته لم يبق فى القرنين السادس

للتنازلى ٧١ - ٧٥ .

(١) سعد الله ١٥٧/٢ .

(٥) انظر فى ابن عربى عنوان الدراية ص ١٥٦ وكتابتها عن الأندلس ص ٣٦٣ وما به من مراجع .

(٦) راجع فى ابن سبعين عنوان الدراية ص ٢٣٧ وكتابتها عن الأندلس ص ٣٥٩ وما به من مراجع .

(٧) انظر عنوان الدراية ص ٢٣٩ وكتابتها عن الأندلس ص ٣٧٧ وما به من مراجع .

(٢) انتصح الغرنبى كتابه عنوان الدراية بترجمة خافيه لأبى مدين وانظر نفس الفقير لابن منقذ والبستان ١٠٨ وانشوف للتادل رقم ١٦٢ .

(٣) انظر فيه البستان ص ٦٨ ونبذة الرواد لحيى بن خلدون ص ١٢٧ وكتابتها عن تاريخ الأدب العربى فى الأندلس ص ٣٥٨ .

(٤) راجع كتابها عن الأندلس وكتاب ابن سبعين

والسابع إمام من أئمة التصوف الأندلسيين المتفلسفين إلا نزل الجزائر والبلاد المغربية واستمعوا أشعاره . وهو ما جعل كثيرين من الجزائريين منذ القرن السابع الهجري ينظمون أشعارا صوفية أو تنزع نحو التصوف كثيرا ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بهذه الصلة إذ يترجم الغبريني في عنوان الدراية لكل من ذكرتهم من أئمة التصوف الأندلسيين ماعدا الشاذلي نزيل تلمسان وقد كتب عنه يحيى بن خلدون في تعداد من أئجه تلمسان أو استقر بها من العلماء والصالحين . وطبيعي أن يكون أكثر التأتيرين بهؤلاء الأئمة من أهل بجاية التي نزل بها أبو مدين في القرن السادس ونزلتها بعده ككرة من هؤلاء الأئمة . ونبدأ بعلي بن أحمد الحارال المتوفى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م وفيه يقول الغبريني : « العالم المطلق الزاهد الورع ، بمن جمع العلم والعمل ، أما علمه فإنه قد جمع فنون العلم بجملتها ، واستوى على كليتها : أما علم الأصول فأصول الدين وأصول الفقه وأما معقولات الحكماء فهو أعلم الناس بالمنطق ، وله فيه تصنيف سماه بالمعقولات الأول ، وأما علم الطبيعيات والإلهيات فكان أعلم الناس بها ، وكنا نقرأ عليه كتاب النجاة لابن سينا فيقرره ، ثم يوهنه ، وله تفسير على كتاب الله تعالى ، تكلم عليه لفظة لفظة وحرفا حرفا . وله في التحقيق أو التصوف ^(١) :

ما لنا منا سوى الحال العدم	ولبارنا وجود . وقدم ^(٢)
نحن بنينا بته حكمة	وخلق بالنا أن ينهدم
أشرقت أنفسنا من نورو	فوجود الكل عن قبض الكرم
ففرق النفس عن عالمها	باختباء ليس تدينه الهمم
ليس يدري من لنا إلا لنا	ها هنا الفهم عن العقل اتبهم
كلما رمت بذاتي وصلة	صار لي العقل مع العلم جل ^(٣)
يقطعني بخيالات الفنا	عن وجود لم يقيد بعدم

وهو يقول ما لنا إلا العدم منه جتنا وإليه نمضي ، ولبارنا وجود أزلي وقدم سرمدى ، وهل نحن إلا بنيان ، بته حكمة عليا ، وكل بنيان مصيره أن ينهدم ، وهماي أنفسنا قد أشرقت من نور رب العزة ، وهل وجودنا إلا بفيض كرمه ، وإن النفس لترقى يوما عن عالمها الأرضي باختباء ما بعده اختباء ، وليس أحد سوى يدري حقيقتي حتى ليغمض الفهم وتغار العقول ، وكلما رمت وصلة بذاتي تصلني بربي وقف العقل مع العلم في طريقي يمزقتني بخيالات الفناء دون وجودي المأمول مع ربي الذي لم يقيد بفناء ولا بعدم . وكان يعاصره أبو العيش الخزرجي محمد بن أبي زيد المتصوف التلمساني وسنخه بترجمة . ومن تلازمة الحارال أبو زكريا

(١) عنوان الدراية ص ١٥٥ .

(٢) الجمل بالتقص يقص به الصوف .

(٣) بارنا : عاقلنا .

يحى بن زكريا المتوفى سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م ومازال به الحرال حتى ظهر له بعض التحقيق ، واعتمد - كما يقول الغبرنى - جادة الطريق ، وتشدّه نُور زكريا - فى معنى ما ظهر له وبين له الحلق فيما لم يظهر له - هذه الأبيات^(١) :

جلت لك كَلَى من شئْ يُقلِّبها	طريقا وأبدت لمعةً من جمالها ^(٢)
فطبت بها عيشاً ونهت لذة	ويك الإلماغ برزّ ظلالها ^(٣)
فكيف ترى لىلى إذا هى أسفرت	ضحاءً وأبدت وارفاً من دلالها
وكيف بها إن لم يغب عنك شخصها	ولم تُخل رقتاً من نصال وصلها
وكيف يكون الأمر إن أمت كنتها	وكانتك تحقّقاً فحلّت لحالها

وهو يكتى عن الذات الإلهية باسم لىلى ، ويقول إنها كشفت قليلا من شئى نقلها وأبدت لمعة من جمالها فطاب بها عيشا وتاه لذة وكثما أظله الإلماغ بجمالها برد ظلالها فكيف إذا أسفرت ضحى وأبدت ناضرا من دلالها ولم يغب عنا شخصها ونال وصلها ، واتحدت بها وأصبحت كأننى هى وتبدلت حال . ويدون رب تصوف أستاذ الحرالى أروع من تصوفه ، إذ تغيب فيه المادة والحس ، ولا تصبح الذات العلية لىلى ولا غير لىلى بمن يهيم بهن الشعراء ويتخذهن بعض المتصوفة رمزا للذات الربانية . وكان يعاصر يحيى بن زكريا فى بجاية عبد الحق بن ربيع العالم المحقق الصوفى المجتهد المتوفى سنة ٦٧٥ هـ/١٢٨٥ م وكان فقيها وعالما بأصول الدين وأصول الفقه والمنطق ، وله قصيدة صوفية طويلة أعجب بها أستاذ الحرالى به وانقضى منها طائفة من أبياتها من مثل قوله^(٤) :

سفرت على وجه الجميل فأسفرا	وبدا هلال الحسن منها مقفرا
ودنت فكاشفت القلوب بسرّها	وسفت شراب الأنس منها كوثرا
ورأيتها فى كل شئ لبصرت	عينائى حتى غدت كل مبصرا
وسمعت نطق الناطقين فكلهم	بالحمد والتسبيح عنها أخيرا
وبها فبت عن الفناء وغصت فى	ماء الحياة مُسرّدا ومدفرا
إنصاح قول لا يفى بمواجدى	ويئسه لا يستقل بما جبرى
لو كان سرّ الله يكشف لم يكن	سرّا ولكن لم يكن ليذكرا

وهو يقول إن الذات العلية سفرت وأشرقت فأشرقت الدنيا وبدا هلال الحسن منها كنهه البدر فى تمه واكتماله ، ودنت ففرت القلوب سرها وسقتها كوثرا من شراب الأنس . وأحسن كنهه يراها فى كل شئ من حوله (فكرة الحلول التى يرددها بعض متفلسفة الصوفية) وكان

(٣) نك : أظلك .

(٤) عنوان الدرباية ص ٥٩ .

(١) عنوان الدرباية ص ١٠٣ .

(٢) شئى : منقلب .

كل شيء فيه أصبح مبصرا ، وسمع حمد كل ما فى الكون لربه وتسبيحه ، ويقول إنه فنى عن الفناء ، وهو بذلك يردد فكرة الفناء فى الذات الإلهية التى يرددها بعض متفلسفة المتصوفة . ويصرّح بأن إنصاحه لا يقى بمواجهه وكذلك بيانه ، ويقول إن سرائقه فى الوجود لا يكشف ، ولو كشف لم يكن سرا غير أنه لا يكشف ولا يذكر . وعبد الحق بن ربيع بذلك كله أقرب إلى روح أستاذة الحارثى وتصوفه من زميله يحيى بن زكريا . ويقرب من روح الحارثى أيضا تصوف إبراهيم بن أحمد بن الخطيب ، ومن نظمه قوله^(١) :

روضُ المعارفِ حَضْرَةُ العُرْفَاءِ	وَجَنَّا التَّفَكُّرِ جَنَّةَ العُقَلَاءِ
ونعيمُ أهلِ الحقِّ ذَرْكُ حَقَائِقِ	لَا حَتَّ بِأَقْبَى القَلْبِ حَالُ صَفَاءِ
فأقرأ سَطَوَرَ الكَوْنِ فى منشورها	بِعِيَانٍ عَيْنٍ أَوْ بِفَرْطِ ذِكَا
ونظر إلى الأكوان كيف تمايلت	طَرِبَا لِسُرُوحٍ عِنْدَ خِفَاءِ
وأفاض عن بحر الجمال أهلة	بَهْرَتِ بِدَرِّ سَمَاءِ
وتذكرت نجدا فهاج لذكره	وَجَدْتُ وَنَادَى الشُّوقُ بِالرَّحَاءِ ^(٢)
ورأت به كلِّ العوالمِ أَحْكَمَتِ	فَتَرَيْتِ وَتَوَشَّحَتِ بِضِيَاءِ

وهو يقول إن حضرة المعلمين روض المعارف وجنّ الفكر جنة العقلاء ، أما أهل الحق من المتصوفة فنعيمهم إدراك الحقائق التى تلوح بالقلب فى حال الصفاء . وتأمل فى الكون ، بل تأمل فى الأكوان وما تحمل من سر بل أسرار لرب الكون وما أفاض عن بحر جماله من أهلة تترى بهرت بدر السماء ، وتذكرت نفسه نجدا فهاج به وجد ملتاع وشوق مضطرم ورأت كل العوالم أحكمت وترينت بلمعة من ضياء الله ونوره .

وإذا تركنا بجاية ومتصوفتها إلى تلمسان وجدنا المتصوفة بها فى القرن السابع قليلين بالقياس إلى بجاية ، ومن متصوفتها أبو عبد^(٣) الله بن الحجام محمد بن أحمد بن محمد اللخمى واعظ أهل زمانه ، حسن صوت وغزارة حفظ من سمعة واحدة لكل ما يطرق أذنه ، استقله المنصور الموحدى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى مراكش فاستوطنها وحظى عند المنصور والناصر والمستنصر ، وكان يتصدق براتبه ، ويجهز منه ضعيفات البنات ، وله فى الوعظ كتاب أسماء حجة الحافظين وحجة الواعظين ، توفى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٨ م ، وما يؤثر من نظمه فى التصوف قوله :

غريبُ الوصفِ ذو علمٍ غريبِ	عليلُ القلبِ من حُبِّ الحبيبِ
إذا ما اللبيلُ أظلم قام يكي	ويشكو ما يكنُ من الوجيبِ ^(٤)
يقطعُ ليله فكمرا وذكرًا	وينطق فيه بالعجب العجيبِ

وتعرف الخلف ٣٦١/٢ وفيه أنه ابن اللحام لا الحجام .

(٤) الوجيب : الخفقان .

(١) عنوان الغرابة ص ٢٢١ .

(٢) البرحاء هنا : شدة الحب ولواصبه .

(٣) انظر فيه بنية الرواد لحيى بن خلدون ١٠٢/١

بِهِ مِنْ حُبِّ سَيِّدِهِ غَرَامٌ يَجْلُو عَنْ التَّطَبُّبِ وَالطَّبِيبِ
وَمَنْ يَكُ هَكَذَا عَبْدًا مَحْبُوبًا تَطِيبُ ثِيَابُهُ مِنْ غَيْرِ طِيبٍ

وهو يصف نفسه بفرقة الوصف والعلم واعتلال القلب من حب الحبيب ، ويقول إنه يتهدج ليلا وهو يكي ويشكو ما يكن من خفقان قلبه ، وما يزال يقطع ليله فكريا وذكرًا لربه سبحانه مستغفرا وبه من حبه غرام يعز على التطيب والطبيب ، ومن يكن مثله عبدا محبا لا تذا بربه تطيب ثيابه من غير أن يمسه طيب . وتلتقى بعد ابن الحجام في تلمسان بالنصف الأول من القرن السابع الهجري لابن أبي العيش وسترجم له . وتضمن علينا كتب التراجم بشعر صوفي في القرن الثامن حتى إذا كنا في القرن التاسع الهجري التقينا بصوفي كبير هو إبراهيم التازي نزيل وهران وسترجم له ، وينظم عبد الرحمن الأخرى قصيدة في التصوف وأدله بسميها القدسية .

ونمضى إلى العهد العثماني فتكثر المنظومات في الطرق الصوفية المشهورة وأصحابها وتكثر معها الشروح وتمثل لذلك بسنية ابن باديس في طريقة عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م ومطلعا^(١) :

أَلَا سِرٌّ إِلَى بَغْدَادَ فَهِيَ مَنَى النَّفْسِ وَحَدَّثَ بِهَا عَمَّنْ تَوَى بَاطِنَ الرَّئِيسِ

وشرحها أحمد بن محمد الحاج البجائي التلمساني قاضي بجاية وسمى شرحه : « أس الجليس في جلّو الخاديس عن سنية ابن باديس » . وشرحت أيضا المنظومات في التصوف وأحواله وفي مقدمتها منظومة « القدسية » لعبد الرحمن الأخرى ، شرحها الورتلاني وسمى شرحه : « الكواكب العرفية والشوارق الإنسية في شرح ألفاظ القدسية » . ويتكاثر في العصر التصوف الشعبي وال دراويش وتدخل عليه شعوزات هو منها براء . ونقف للترجمة لابن أبي العيش وإبراهيم التازي .

أبو العيش^(٢) بن عبد الرحيم الخزرجي

هو محمد بن أبي زيد عبد الرحيم (وفي بعض الروايات عبد الرحمن وفي بعضها عبد الحق) بن محمد بن أبي العيش التلمساني إشبيلي الأصل وكان فقيها جليلا ، روى يلبه تلمسان عن أبي بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة المتوفى سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م وعن أبي عبد الله بن عبد الرحمن التجيبى المتوفى سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٤ م وعن أبي محمد بن حوط الله

٣٣٢ والنسم الأول من السفر الثامن من كتاب الذيل
والكلمة لكتابي الوصول والصلة ل محمد بن عبد الملك
الراكشي (طبع المغرب) ص ٣١٣ .

(١) سعد الله ١٣٦/٢ - والرس : الفهر .
(٢) انظر في أبي العيش الخزرجي وشعره بنية الرواد
ص ١٠٣ وتعريف الخلف ٣٤٢/٢ ونيل الانتهاج ص

المتوفى سنة ٦١٢ هـ/١٢١٦ م وعن أبي عبد الله بن عبد الحق المتوفى سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م وكان عالما وأديبا بارع الكتابة وشاعرا جيد الشعر ، صنف كتابا في أصول الفقه وعقائد أصولية في الدين ، وفسر القرآن الكريم وشرح الأسماء الحسنى ، وله في التصوف نظم كبير وكذلك في الزهد وسبل الخير والوعظ وتنزيه الباري جلّ شأنه . ولم تنص كتب التراجم على تاريخ وفاته ولكن كثرة أساتذته الذين عاشوا بين سنتي ٦٠٠ و ٦١٢ يدلون بحياتهم على أنه عاش في القرنين السادس والسابع للهجرة . ومن قوله في التصوف :

اللَّهُ قُلُّ وَدَعِ الْوُجُودَ وَمَا حَوَى	إِنْ كُنْتَ مَرْتَادًا بِلَوْحٍ كَمَالٍ
فَالْكَلُّ دُونَ اللَّهِ إِنْ حَقَّقْتَهُ	عَدَمٌ عَلَى التَّصْفِيلِ وَالْإِجْمَالِ
وَالْعَارِفُونَ قَنُوا وَلَمَّا يَشْهَدُوا	شَيْئًا سِوَى التَّكْبِيرِ الْمُتَعَالِ
وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكَا	فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْآسِقَالِ
مَنْ لَا وَجُودَ لِدَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ	فَوُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ مُحَالٍ
فَالْمَحْ بَطَرُكَ أَوْ بِعَقْلِكَ هَلْ تَرَى	شَيْئًا سِوَى فَضْلٍ مِنَ الْأَنْعَالِ
وَنَظَرُ إِلَى أَعْلَى الْوُجُودِ وَسُفْلِهِ	نَظَرًا تَوَهُدُهُ بِالْإِسْتِدْلَالِ
تَجِدُ الْجَمِيعَ يَشِيرُ نَحْوَ جَلَالِهِ	بِلِسَانِ حَالٍ أَوْ لِسَانِ مَقَالٍ
وَجِبَ الْوُجُودُ لِدَاتِهِ وَصِفَاتِهِ	فَرَدًا عَنِ الْأَكْفَاءِ وَالْأَمْثَالِ
يَقْبَى وَكُلُّ يَضْمَحِلُّ وَجُودُهُ	مَا وَاجِبٌ كَمَقْيَدٍ بِزَوَالِ

والآيات من أول بيت إلى آخر بيت تقول ليس في الوجود سوى الله فتعلق به ودع ما سواه ، فالكل - كما يقول في البيت الثاني - عدم ، والعارفون من المتصوفة قنوا في ربه ، ولم يشهدوا في الوجود سواه ، ويقول إن من لا وجود لذاته من ذاته كرب العزة فوجوده لولاه ضرب من المحال ، وانظر بعينك أو بعقلك هل ترى إلا فعلا من أفعاله : أعلى الوجود وسفله ، والجميع يشير نحو جلاله بلسان مقال معترف أو بلسان حال شبه معترف بأنه واجب الوجود لذاته وصفاته الإلهية ، متفردا بذلك عن الأشياء والأمثال ، فليس كمثله شيء في الوجود ، إذ يبقى وحده ويفنى الكل ، فهو وحده واجب الوجود وكل ما عليها فان . ويستمر منشدا :

هُوَ مُنْصِبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ غُلُوٍّ إِلَى	سُفْلٍ وَمَتَدِعُهَا بِغَيْرِ مَشَالٍ
فَالْكُنْ إِلَيْهِ بِهَيْئَةِ غُلُوبَةٍ	مُنْتَزِعًا عَمَّا سِوَى التَّغَالِ
وَهُوَ الَّذِي تَرَجَّى وَبُخِشَى لَا تَلْذُ	بِسِوَاهُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ
فَالشَّرْعُ جَاءَ بِذَا وَتَمَوَّرَ الْهَدَى	قَدْ أَبْدَنَتْهُ فَيْضُ خَلْقِ الْبَالِ

وأين أئبى العيش يقول إن الله هو الذى يمسك السموات وغير السموات أن تزول وهو الذى يبدعها على غير مثال مرسوم ، فاطمئن إليه بهمة روحية فإنه الفعال لما يريد ، وهو موضع الخوف والرجاء فلا تَلذَّ بسواه . جاء بذلك الشرع والحديث النبوى ، وتمسك بذلك تعش رضى النفس على البال . وله آيات يصور فيها اعتزاله الخلق وانقطاعه إلى الحق رب الخلق يقول :

تعت بما رزقتُ فليستُ أُنسى لدار أئبى فلانٍ أو فلانٍ
وآثرتُ المقامَ بكسرِ بيتى ولا أحدَ أراه أو يراى
ولا ألقى خليلاً غيرَ صَبْرٍ مُعينٍ فى المعارفِ أو معلى
وقد أبقتُ أن الرزقَ آتٍ وإن لم آتِه سَعياً أُنسى
وقد حققتُه فهما وعلمًا وقد شاهدته رأى اليانٍ
فلازمَ ذا بإخلاصٍ تَمَكَّنَ هنا وهناك من أُنسى مكانٍ

والقطعة مع ما تصور من الانقطاع إلى عبادة الله تصور مبدأ التوكل المعروف عند المتصوفة بحيث لا يفكرون فى رزقِ الغد وأن ما سيزقون به آت لا ريب فيه ، وهو يقول إبنى قطع برزقى ، ولست أحاول أن أتسول من فلان أو أئبى فلان ، إذ تكفينى كسرة بيتى ولا أحد يراى متذللاً لأحد ، ولا أبحث عن خليل يمينى ، غير صبر أستعين به فى دراسة المعارف أو بعض المعلى ، وقد أبقت أن رزقى آتٍ سمعت إليه أو لم أسمع ، عرفت ذلك وتحققته منه فهما وعلمًا وخبرة . واعمل بذلك تحظ بأرفع مكان .

إبراهيم^(١) التازى

هو إبراهيم بن محمد بن على التازى حفظ القرآن وأكب على دراسة العلوم ، وحج وحضر دروس الشيوخ فى مكة والمدينة وتونس وتلمسان ، وبدت فيه ميول قوية للتصوف وليس الخرقه من الشيخ صالح الزواوى بسنده إلى أئبى مدين ، واشتهر بالتازى لولادته فى بربر تازا بالمغرب الأقصى ، وانتهى به المطاف إلى وهران ولقيه شيخها الصالح محمد بن عمر الموارى لقاء حسنا ، وعنه ورث زاويته وطلابها بعد وفاته ، واشتهر ذكره ، ومن تلمذ له الإمام السنوسى ، ويقال إنه هو الذى ألبه الخرقه الصوفية . ويقول القلصادى إنه أقام معه فى زاويته ، ووجده معنيا بكلام شيخه الموارى ، وكان يقول : العالم لا تعاديه - والجاهل لا تصافيه - والأحق لا تواخيه . وتوفى لإبراهيم التازى سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م ذكر ذلك

(١) انظر فى ترجمة الهازى تعريف الخلف ١١/٢

والهستان ص ٥٨ .

غير واحد ممن ترجموا له . وشعره الصوفى والنبوى كثير ويموج الأول بالدعوة إلى المحبة
الرهبية من مثل قوله :

نَعمد الأربعين ترومُ هَزلاً
فخلُ حَظوظَ نَفسِكَ واللهُ عَها
نَما الدُّنيا وَزَخرُفُها بِشئٍ
فُتِبَ واخْلُجْ عِذارِكَ فى هوى مَنْ
جَمالُ الله أَكَمَلُ كُلِّ حُسنٍ
وذكرُ الله مرهمُ كُلِّ جُرحٍ
ولا مَوجودَ إلا اللهُ حَقّاً
وهل بعد العشي من عَرايرِ
وعن ذكر المنازل والديار
وما أبانها إلا عَواري
له دارُ النعيم ودارُ نارٍ^(١)
فَلِلَّهِ الكَمالُ ولا مُمارى
وَمَقصعُ من زُلالٍ للأوارِ^(٢)
فَدَعُ عَنكَ التَعلقَ بالشَّارِ^(٣)

وهو يقول لصاحبه أتروم هزلاً بعد سن الأربعين ، والنظر الثانى شطر بيت للصمة
القشيري ، والمرار نرجس يرى ، يقول الصمة لصاحبه والإبل تسرع بهم إليه لن يتمتع بعد
العشية بمرار فقد فات وقته ، كما فات وقت الهزل بعد الأربعين كما يقول التازى ، ويقول دع
ما أنت فيه من غزل وتعلق بجمال المرأة ، فالدنيا ليست باقية ، وتعلق بمن لديه دار النعيم
ودار الحميم ، فبخاله أعظم وأكمل من كل جمال ، وإن ذكره لشفاء لكل جرح ، وزلال
بارد لكل عطش متقد ، إنه لا موجود سواه ، فدع عنك التعلق بما تعاب به ، ويُعد قبيحا
منك أى قبح . وله :

حسامى ومنهاجى القويمُ وشرعيتى
عِجَّةُ رَبِّ العالمين وذَكرُهُ
وأَفضَلُ أَعمالِ الفتى ذَكرُ رَبِّهِ
وما من حَسامٍ للمريدِين غَيرُهُ
وَمِمَّ يَدُوداً شَملاً لَدى جِزْءِهِ وَكَم
وَمِمَّ دافِعَ اللهَ الكَريمُ بِذَكرِهِمُ
وأَفضَلُ ذَكرٍ دَعوَةَ الحَيِّ فَلتَكنِ
فَكثرةُ ذَكرِ الشَّيْءِ آيةُ حُبِّهِ
ومنجى فى الدارين من كل فتنة
على كل أخيلى بقلبي ومنهاجى
فَكُنْ ذاكراً بِذَكرِكَ بارى البَريقِ
وَكَم حَسَمُوا ظَهِراً لَزارٍ وباهتِ^(١)
أَبادوا عَدواً مَئُهم بِمَضَرَّةٍ
عَنِ الخَلقِ مِنْ مَكروهِةٍ ومُبيرةٍ^(٢)
بِها لَهجاً فى كُلِّ وَقْتٍ وحالَةٍ
وَحَبُّ الفتى تَشرِيفُهُ بِالْمُحِبَّةِ

هو يقول إن شجاعتى ومنهاجى القويم فى الحياة وشرعيتى ومنجى فى الدارين من كل

(١) زار : طالب . هات : متعش .

(٢) ميرة : ثلثة ، مهلكة .

(١) خلع الملل : أراد به الشاعر الانهماك فى الحب .

(٢) الأول : حرارة العطش .

(٣) الشار : الحب والتمتع والعار .

فتنة كل ذلك في محبة رب العالمين ولئلي لأذكره في كل حين بقلبي ومهجتي ، وهل في الدنيا عمل أفضل من ذكر الإنسان لربه ، فأذكره دائما ، اذكر خالق الخلق ومنشئهم ، وهل للمريدين تلامذة المتصوفة حسام سواه ، وكل قضا على زار هازيء وباهت متعجب وكل بدؤوا جمعا جريئا وكل أبادوا عدوا لهم حاول أن يؤذيه ، وكل دفع الله الكريم بذكرهم له عن الخلق من مهالك . وإن أفضل ذكر دعوة الله فكرها في كل وقت وإن كثرة ذكر الشيء لأكبر دليل على حبه ، وإن محبة الله لشرف للإنسان أي شرف . وله قصيدة صوفية ذاعت وشاعت في الجزائر باسم المرادية ، وتسمى أيضا باللامية ، استهلها بقوله :

مُرَادِي مِنَ الْمَوْلَى وَغَايَةُ آمَالِي دَوَامُ الرِّضَا وَالْعَفْوُ عَنْ سُوءِ حَالِي
وَسَطْلُ تَنْدِيرِي وَحَوْلِي وَفَوْزِي وَصِدْقِي فِي الْأَحْوَالِ وَالْفِعْلِ وَالْقَالِ

والتأزي يقول إنه يطلب من ربه دوام الرضا والعفو ، وإنه ليأمل منه أن يسقط عنه التدبير شأن الصوفية العظام فلا يفكر في شأن من أمور معاشه وحياته ، ولا حول ولا قوة حتى ولا صدق له في حال ولا في فعل أو قول . وقد شرحها محمد الصباغ القلعي في القرن العاشر الهجري بشرح سماه : « شفاء الغليل والفؤاد في شرح النظم الشهير بالمراد » سماها المراد استكمالاً للسجدة ولابن مريم عليها شرح كما ذكر في ترجمته له . ومنها في وصف المريد تلميذ الشيخ الصوفي وتابعه :

وَعَنَّمُ مَرِيدٌ فِي انْقِسَادٍ لِكَامِلٍ لَهُ خَيْرَةٌ بِالْوَقْتِ وَالْعِلْمِ وَالْحَالِ
هُوَ السَّرُّ وَالْإِكْسِيرُ وَالْكِيْمَاءُ لِمَنْ أَرَادَ وَصُولًا أَوْ بَقَى نَيْلَ آمَالِ
وَقَدْ عَدِمَ النَّاسُ الشُّيُوخَ يَقْطُرْنَا وَآخِرَهُمْ شَيْخِي وَمَوْضِعُ إِجْلَالِ
وَقَدْ قَالَ لِي : لَمْ يَقِ شَيْخٌ بَعَثْنَا وَذَا مِنْذُ أَعْوَامٍ خُلُونُ وَأُحْوَالِ^(١)
يُشِيرُ إِلَى أَهْلِ الْكِمَالِ كَمَثَلِهِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ الرِّضَا مَا تَلَا تَالِي

وهو يجعل المريد كأنه آلة مسخرة في يد شيخه الخبير بزمه وبالعالم وبأحوال التصوف ، إذ ينقاد له بكلية ولا يخرج بأى صورة عن إرادته . ويعظم الشيخ الصوفي إذ يجعله السر الإلهي والإكسير والكيماء اللذين يحولان المعدن ذهابا ، ويده الأصول ومفتاح كل الآمال . وكنا نوثر أن يرفع الشيخ التأزي عن مثل هذه الدعاوى في شيوخ الصوفية ، التي جعلت الناس يبالغون فيهم ويقولون بالقطب وما إلى القطب من الأبدال ، بل لقد أعد ذلك لظهور دجاجة المتصوفة ومن يرتزقون باسم صوفي سني كبير . والتأزي يستمر فيقول إن الناس عدمو

(١) خلون : مضين . أسوال : سنوات .

فى الجزائر شيوخ المتصوفة الحفيين. وآخريهم كان شيخه محمد بن عمر الهوارى الذى كان يقول له ذلك قاصدا به أهل الكمال من الصوفية أو الصوفية الحفيين .

٥

شعراء المدائح النبوية

يأخذ شعراء المدائح النبوية فى الكثرة بالجزائر والبلاد المغربية منذ القرن السابع الهجرى، وخاصة منذ النصف الثانى منه، وفى مقدمتهم محمد بن الحسن بن ميمون القلعى البجائى الذى أنشدنا له مقطوعة طريفة فى التصوف وكان يكثر من النظم فيه وفى المديح النبوى مثل قوله^(١) :

وَقَلْبُكَ خَفْصًا وَدَمْعُكَ بَمَجْمُ	أَمِنْ أَجَلٍ أَنْ يَأْتُوا فَوَازُكَ مُفَرَّمُ
وَقَلْبُكَ مَعَ مَنْ سَارَ فِي الرِّكْبِ مُتَهَمُ	وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنْ جَمْعَكَ مَجْدُ
فَوَادَى بِتَذْكَارِ الصَّبَابَةِ يُغْنِمُ	وَمَا ضَرُّهُمْ لَوْ وَدَّعُوا يَوْمَ أَوْدَعُوا
عَسَى أَنْظَرُ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَأَلَمُ	وَأِنِّى لِأَدْعُو اللَّهَ دَعْوَةَ مَذْنَبِ
وَمَا شَدُّ مَا يَلْقَى الْفَوَادَى وَبِكُمْ	فِي طَوْلِ شَوْقِي لِلنَّبِيِّ وَصَحْبِهِ
فَأَنْتَ شَفِيعُ الْخَلْقِ وَالْخَلْقُ هَيْمُ	إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ أَرْفَعُ حَاجَتِي
وَلَكِنْ عَفْوُ اللَّهِ أَعْلَى وَأَعْظَمُ	وَقَدْ أَثْقَلْتُ ظَهْرِي ذَنْبًا عَظِيمًا

وهو لا يخفى صابته بأصحابه الذين فارقوه موكبهم العظيم إلى الحج وزيارته الأراضى المقدسة وقلبه يخفق ودمعه يسجم ، فقد أنجد جسمه وفارق قلبه منهما مع من يرودون تهامة إلى مكة والمدينة ، ويقول ما ضر رفاقي الذين ستكحل عيونهم بنور هذه البقاع الطاهرة لو ودعوني يوم رحيلهم حين أودعوا فى فوادي نار الصبابة مضطربة ملتهبة ، وإنى لأدعو الله دعوة خاشع بل دعوة مذنّب أن يتاح لنظري أن يكحل بنور البيت العتيق وأقبل الحجر الأسود كما قبله الرسول الكريم ، وما أشد شوقى للرسول وصحبه ، وما أشد ما يلقى فوادي وأكظم . وإنى يا رسول الله أتمنى عليك أن تشفع لى كما تشفع لجميع الخلق يوم القيامة ، وهم جميعا عطاش عطشا شديدا والحر من الزحام أخذ بخناقهم ، وقد أثقلت ظهري ذنوبى ، ولكن أملى فى عفو الله أكبر وأعظم . وكان عبد المنعم النسلى فقيه مدينة الجزائر وأديها وشاعرها فصاحة لسان وإحكام بيان وتولى القضاء فى بجاية مدة طويلة ، وتوفى فى عشرين الثمانين وستمائة ، ومن نبوياته قوله^(٢) :

(١) عنوان الغرابة ص ٧٠ .

(٢) هيم : عطاش .

(٣) عنوان الغرابة ص ١١٢ .

(٤) يسجم : يسيل .

(٥) مجد : فى نجد . منهم : فى تهامة .

لكل نبي دعوة مستجابة
إلى يوم لا يُنقضى عن المرء منطق
ويوم يفر المرء من وليده
وكل نبي سأل الله نفسه
خلا شافع فينا كريم مشفع
فيا ربّه بَلِّغْ عَيْدَكَ قَبْرَهُ
وجازِهِ عنا بالذي تَت أَهْلَهُ
وسَيَقُومُ طُوراً غِيَاباً لَأَيَّتِهِ
فَصِيحٌ وَلَا يَذْأَلِي الْبَلِيغُ بِحُجَّتِهِ
حَيْبٌ وَلَا يُجْزَى أَبٌ بِهُوْنِهِ
وَيَضْرِبُ صَتْحاً عَنْ سَوَالٍ لَأَيَّتِهِ^(١)
به يشمل الله العباد برحمته
ليحظى بتقبل قبره الطاهر نزيه
أعز السورى تَم الكفيل بعتّه

وهو يقول إن لكل نبي دعوة مستجابة ، وسيد الأنبياء جميعا محمد ﷺ خبا دعوته إلى يوم القيامة الموصوف في سورة عبس بقوله جل شأنه : إنه يوم الصاخة التي تصخ الآذان وتصمها ، فلا يستطيع أحد نطقا ولا كلاما (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) وحتى الأنبياء يشغلون بأنفسهم عن أمهم إلا سيد الخلق جميعا رسول الأمة الإسلامية فيدعو الله متشفعا لأفرادها في هذا اليوم يوم المحشر الرهيب ، ويقبل الله شفاعته ، ويشمل بها العباد برحمته . ويتوسل الشاعر إلى ربه أن يخلقه المدينة ليحظى بتقبل قبره الطاهر ، ويسأله أن يجزيه عن أمته بما هو أهله ، إنه خير الورى وهو الكفيل بإعطائه ما يتكافأ مع حقه وجزائه . ونلتقي بإبراهيم^(٢) بن أبي بكر التلمساني المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م والذي افتتح به أبو القاسم الحفناوى كتابه : « تعريف الخلف » وله أمداح نبوية منها - كما ذكر من ترجموا له - المشرقات على أوزان العرب ، وكانت كل قافية تشتمل على عشرة أواخر ، وله مدحة في المولد النبوى ، ولم يذكر من ترجموا له شيئا من شعره في مدح الرسول ﷺ . ويلقانا بأخرة من القرن السابع ومطلع القرن الثامن عند بن عبد الله بن محمد العطار ونسخه بترجمة.

وكان المشرق قد استنّ الاحتفال بالمولد النبوى في ليلة الثمانى عشر من ربيع الأول في القرن الحادى عشر الميلادى بمصر أيام الفاطميين بطريقة رسمية ، وأول احتفال به بطريقة جماهيرية شعبية كان في إربل لأوائل القرن الثمانى عشر الميلادى إذ احتشد له الحاكم الأيوبي والعلماء والشعراء والمتصوفة من مختلف البلاد العراقية وذبح في ذبائح كثيرة وطاف الناس ليلا فى مواكب بمشاعل متوهجة وشاع ذلك فى البلدان . ونقله أبو العباس^(٣) العزفى الشريف إلى ستة مدبته ، وعنها شاع فى تلمسان وغيرها من البلاد المغربية . وكان الذى أشاعه فى

(١) يضرب صفحا : يمرض .

(٢) له ترجمة فى هيئة الرواد لبحى بن خلدون ١٠٩ والإحاطة ٣٢٦/١ والبستان ص ٥٥ وتعريف الخلف

١٣/١ .
(٣) تزعمر الرياض ٣٩/١ .

تلمسان والجزائر وجعله تقليدا للدولة الزيانية أبا هو موسى (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) . يقول أبو عبد الله التتسي في كتيبه^(١) : « راح الأرواح فيما قاله أبو هو من الشعر وقيل فيه من الأمداح » ونظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان : إن أبا هو موسى كان يقيم ليلة مولد المصطفى ﷺ ويدعو لها في احتفال كبير يحشد فيه الناس خاصة وعامة ، وما شئت من نمارق (وسائل) مصفوفة ومجالس مبثوثة وبسط مشاة ، ووسائل بالذهب مفتاة ، وشمع كالأسطوانات وموائد كالهالات ، وتفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، رُبَّ فيها الناس على مراتبهم ، تطوف عليهم ولدان لبسوا أقبية الخز الملون ، بأيديهم مباخر ومرشات ، ينال كل منها بحظه . ويعقب ذلك يدا المنشدون بأمداح المصطفى ﷺ ، وبمكفرات ترغب في الإقلاع عن الآثام ، يخرجون في كل ذلك من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب . وبالقرب من السلطان خزنة المنجاة « الساعة الدقاقة » الموصوفة في الحديث عن الرفه بفصل المجتمع ، وقد زخرفت ، ولها أبواب مغلقة على عدد ساعات الليل الزمانية ، وكلما مضت ساعة وقع النقر بفقر حبلها ، ويفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وتبرز منه جارية بديعة ويدها اليمنى رقعة تشتمل على نظم فيه تلك الساعة ، ونسوق ما تقوله بعد انقضاء ثلاث ساعات من الليل ، وجميع ما تقوله مديح في نبي هو^(٢) :

أمولاي يا بن الملوك الألى لهم في المعالي سنى الرُتب
تولت ثلاث من الليل بُقت لك الفخر في عجبها والعرب
فدُم حُجة الله في أرضه تسأل الذي شته من أرب

ولا يزالون في هذا الحفل النبوي إلى ابتلاج عمود الفجر ونداء المؤذن حي على الفلاح يشر بصلاة الصباح . وكانت كل ليلة في المولد النبوي لكل عام تبدأ بمدحة نبوية ، وتسمى المدحة في مولده ﷺ مولدية نسبة إلى أنها نظمت في مولده ، ومن قول أبي هو في إحدى مولدياته^(٣) :

حياتي وموتى في هواكم وإبنى أعلى نفسى فيكم بالأملى
فيا أهل نجد أجدوني على الهوى فبتى في بحر من الشوق لجى^(٤)
مقيم بأقصى الغرب أشكو به الجوى وحالى على حكم النوى غير مخفى

(١) الرياض ٢٤٣/١ .

(٢) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان لأبي عبد الله التتسي ص ١٦٦ .

(٣) لمى : مزامير الأمواج .

(٤) أزهار الرياض ٢٤٣/١ .

ملبستها وقارن بتاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان لأبي عبد الله التتسي ص ١٦٢ .

(٥) انظر في نيات المنجاة طوال ساعات الليل أزهار

تَنَاسَيْتُمْ عَهْدِي وَحَفِظْتُ مَوَدَّتِي
وَمَا أُرْتَجِي إِلَّا شَفَاعَةَ خَيْرٍ مِّنْ
بِي يُرْتَجَى الْعَاصُونَ غُفْرَانِ ذَنبِهِمْ
بِمَوْلَدِهِ قَدْ أَشْرَقَ الْكَوْنُ كُلُّهُ
وَجَبَّكُمْ فِي الْقَلْبِ لَيْسَ بِنَسِيٍّ
أَتَى بِالْهَدَى يَهْدِي بَدِينِ حَنِيفِي^(١)
وَمَا عَمَلُوا فِي الدَّهْرِ مِنْ عَمَلٍ سِوَى^(٢)
وَكُلُّ شَيْءٍ شَمْسٍ وَبَدْرٍ وَذُرَى

فحياة « أبو حمزة » وموته في هوى الرسول ﷺ ، وإن نفسه لثملت ، إزاءه بما لا يحصى من الآمال ، ويستغيث بأهل نجد أن ينجدوه على الهوى فإنه غارق من الشوق في بحر لجي كثير اللجج لا أول له ولا آخر ، مقيم بأقصى الغرب في تلمسان يشكو الوجد ، وحاله من البعد غير خاف . وتتابه لحظة شك ، فيقول : تناسيت عهدي ومودتي ونار جبكم في قلبي لا تخمد ولا تنطفئ ، وإن كل رجاء أن يشفع لي خير مشفع أتى بالهدى وبدين حنيفي مستقيم لا عرج فيه ، وإن العاصين ليقفون بيليه آمليين في شفاعته وأن يغفر لهم ربهما ما اقترفوا من آثام أو أعمال بالغة السوء ، وإنه لنور الوجود فمنه أشرق الكون كله ، ومنه ضوء كل شمس وبدر وكوكب درى . وللغنى مولدته في نفس السنة التي قال فيها أبو حمزة مولدته السالفة وفيها يقول^(٣) :

شَمْسُ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْهَدَى
هُوَ رَحْمَةُ اللَّهِ الَّتِي يَهْمِي بِهَا
يَا مَنْ لَهُ قَبْلَ الْوِلَادِ وَبَعْدَهُ
أُنْزِلَتْ لِلسَّبْعِ الطُّبَاقِ فَأَقْبَلْتُ
وَتَرَمَّكَتْ بِصَلَاتِكَ الْأَرْسَالَ إِذْ
رُفِئَتْ لَكَ الْحُجُبُ الْعَظِيمَةُ فَاعْتَلَى
حَتَّى سَمِعْتُ صَرِيرَ أَقْلَامٍ بِمَا
تِلْكَ الْمَرَاتِبُ لَمْ يَكُنْ لِيُنَالَهَا
بَدْرُ الْجَلَالَةِ نَوْرُهَا الْمُتَجَسِّمُ
فِي الْخَلْقِ بِالْحَقِّ الْمُبِينِ وَبِحُكْمِ^(٤)
آيَاتِ إِرْشَادِ مَنْ يَتَوَسَّمُ^(٥)
أَمْلَاكُهَا طُورًا عَلَيْكَ تَلَمُّ
صَلَّتْ وَتَمَّتْ إِمَامُهَا الْمُتَقَدِّمُ
بِكَ لِلْعَلَى ذَاكَ الْمَقَامُ الْأَعْظَمُ
فِي اللَّوْحِ مَحْفُوظًا تَخْطُ وَتَرْسُمُ
إِلَّا النَّبِيُّ الْهَاشِمِيُّ الْأَكْرَمُ

والغنى يقول إن الرسول شمس الرسالة الساطعة وبدر الجلالة النير ونورها الدرى المتجسد ، إنه رحمة الله التي لا تزال تنصب في الخلق بالحق وتحكم ، يا أيها الرسول العظيم الذى سبقته وجاءت معه آيات ومعجزات لمن يتوسم الخير وبأمله . وهل معجزة أعظم من معجزة المعراج واختراق السموات السبع والملائكة حاثون به مسلمون عليه ، وهبط إلى بيت المقدس قائم به الرسل ، إنه إمامهم المقدم الأعظم ، ورفعت له الحجب حتى سمع صرير الأقلام وهى تكب في اللوح المحفوظ ما خطت للناس ورسم لهم . وتلك المراتب العليا لم يكن ليظفر

(٤) يهيم بها : يصب بها وينثر .

(٥) يتوسم : يتفكر ويتأمل .

(١) حنيفي : مستقيم لا عرج فيه .

(٢) سى : سىء ، وخفف للثاقفة .

(٣) انظر تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ص ١٧١ .

بها أحد إلا النسي العربي الهاشمي العظيم. ويذكر لنا يحيى بن خلدون في الجزء الثاني من كتابه بغية الرواد مولدية له ألقاها بين يدي نبي حوموسى سنة ٧٧٨ وفيها يقول مادحا الرسول الكريم:

سَيِّدُ الْعَالَمِينَ دُنْيَا وَآخَرَى أَشْرَفُ الْخَلْقِ فِي الْمَلَأِ وَالسَّمَاحِ
صَفْوَةُ الْخَلْقِ أَرْفَعُ الرُّسُلِ قَدْرًا وَسَرَّاجُ الْمَدَى وَشَمْسُ الْفَلَاحِ
مَنْ رَفَعَنِي فِي السَّمَاءِ سَبَقًا طَبَقًا وَرَأَى أَيْ رَبُّهُ فِي اتِّصَاحِ^(١)
وَدَنَا مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ قُرْبًا ظَانِسِرَا فِي الْعَلَا بِكُلِّ اقْتِرَاحِ
مَنْ يُجِيرُ الْوَزَى غَدًا يَوْمَ يُجْزَى كُلُّ عَاصِرٍ وَطَائِعٍ بِاجْتِرَاحِ^(٢)
مَنْ إِلَى حَوْضِهِ وَظِلُّهُ لِسَوَاهِ يَلْجَأُ النَّاسُ بَيْنَ ظِلَامٍ وَضَاحِ^(٣)

ويحيى بن خلدون يقول إن الرسول سيد العالمين طرا دنيا وآخرى ، وأشرف الخلق وصفوتهم وأرفع الرسل قدرا ومنزلة عند ربه ، وسراج الهدى وشمس الفلاح ، من منحه الله معجزة المعراج الكبرى ، فصعد به سبع سموات طبقة بعد طبقة و (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) كما جاء في سورة النجم ودنا منه أي من جبريل (قاب قوسين أو أدنى) أي قدر ذراعين تقريبا ظافرا من ربه بكل ما توسل به إليه ، منزلة لم يحظ بها رسول قبله . وحسبه من عجة الله له أنه سيكون المجير لا للطائعين فحسب بل أيضا للعصاة يوم الفزع الأكبر : يوم الحشر الموعد ، وسيقف على حوضه ويمتد عليه لواء معلم ويسقى منه أمته يوم القيامة . وعلى عادة أصحاب المولديات التي تلقى في الاحتفالات الكبرى بليلة المولد النبوي يستطرد يحيى بن خلدون في مولديته - كما استطرد الثغرى أيضا في مولديته - لمديح نبي حوموسى . وعادة يتقدم المديح النبوي في المولدية نسب يكظ بالوجد والصلبة وأحيانا يمزج ببعض الوعظ .

وكانت المدائح النبوية لا تزال تنظم بجوار هذه المولديات ، واشتهر بالنظم فيها غير شاعر مثل عبد الله البسكري الصوفى معاصر يحيى بن خلدون ، فهو من شعراء النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، وله في مديح المدينة قوله^(٤) :

دَارُ الْحَيْسِبِ أَحَقُّ أَنْ تَهْوَاهَا وَتَحْنُ مِنْ طَرَبٍ إِلَى ذِكْرَاهَا
وَعَلَى الْجَفَوْنَ مَتَى مَمَّتْ بَرْزُورَةٌ بِمَا بَيْنَ الْكِرَامِ عَلَيْكَ أَنْ تَنْشَاهَا
فَلَا تَنْتَ أَمْتُ إِذَا حَلَلْتَ بِطَيْبَةٍ وَظَلَّلْتَ تَرْفَعُ فِي ظِلَالِ رَبَاهَا^(٥)
مَعْنَى الْجَمَالِ مَتَى الْخَوَاطِرُ وَالَّتِي سَلَبَتْ عَقُولَ الْعَاشِقِينَ حُلَاهَا

الشمس .

(١) رقى : صعد . طباقا : طبقة فوق طبقة .

(٢) تعريف الخلف ٢٤٠/٢ .

(٣) اجتراح : اكتساب السمات والخصات .

(٤) طية : المدينة .

(٥) ظام : في أشد العطس . ضاح : أصابه حريرة

لا تَحْسَبِ الْمِسْكَ الذِّكْرُ كَثْرُهَا هيها! أين المسك من رِيّاها^(١)!
طابتْ فَإِنْ تَبَغَّ الطَّيْبُ بِمَا فَنَى فأدوم على الساعاتِ لثَمَ ثَرَاها

واليسكري يقول إن دار الحبيب أحق دار بأن تهولها ويملاك الحنين شوقا إلى ذكرها ومتى هممت بزيارة أصبح واجبا عليك أن تغشى تلك الدار وتكحل جفونك بمرآها وما أعظمك إذا حلت بها وتقلت فيها ، إنها معنى الجمال وبها جميع منى الخواطر ، وطالما سلبت حلّها عقول عاشقها الهائمين بها وجدا وصبابة . وإن ترابها ليفوق المسك العاطر وهيها ؟ أين المسك من شذاها الطيب ، لقد طابت فإن تبغ التطيب والعطر فأدم تقبيل ثراها الذكى العطر . وتلفنا شروح كثيرة لبردة البوصيري في المديح النبوى ، من ذلك شرح لسعيد^(٢) العقباني المتوفى سنة ٨١١ للهجرة وثلاثة^(٣) شروح لابن مرزوق الحفيد أكبر وأوسط وأصغر ، وسمى الأكبر إظهار صدق المودة فى شرح البردة ، وسمى الأصغر الاستيعاب لما فى البردة من البيان والإعراب ، وشرح قصيدة الشقراطسى التونسي النبوية بشرح سماه المفاتيح القرطاسية فى شرح الشقراطسية . وتلقى بالشهاب بن الخلوف بأخرة من القرن التاسع الهجرى ، وله ديوان جميعه مديح نبوى ، ولم يُنَجِّ لى أن أراه ، غير أن ديوانه الكبير المنشور بتونس به مجموعة من المديح النبوية ، ونذكر منها توسلا بديها بالرسول كى ينفخ الله له ذنوبه ، وفيه يقول^(٤) :

يا أرحمَ الراحمين ارحمَ وجذ كرمًا فقلتُ أنتَ أمانُ الخائفِ الوجِلِ
واغفرْ بطله ذنوبًا ليس يغفرُها إلّاك يا غافرَ الأوزارِ والخطَلِ^(٥)
ونجّنى واغفرْ عني وأتّينى مِنَعًا تنيلنى الفوزَ فى جِلِّ ومُرْتَحِلِ
وصلِّ ربُّ على المختارِ من مُضَرِّ خيرِ النبىين والأُملاكِ والرُّسلِ
روحِ العوالمِ سِرُّ الكونِ أجمعِهِ إكثيرُ كثيرِ المعالي عِلَّةُ العلَلِ^(٦)
عليه صلّى إليه القَرَشُ ما اتضحتْ آياتُ شمسِ الضحى فى دارةِ الحَقْلِ^(٧)
وآلهِ القُرُ والأصحابِ ما خطرتْ معاطفُ البانِ فى أثولِها الخُضَلِ^(٨)

وهو يدعو ربه أن يجود عليه بالرحمة ، فإنه أمان الخائف الفرع ، ويتوسل إليه بالرسول أن يغفر ذنوبه وآثامه ، وهل يغفرها سواه ؟ إنه الرحيم الغفار ، ويسأل رب العزة النجاة والفوز مقيما وراحلا ، كما يسأله أن يصلى على رسوله العربى خير النبیین والملائكة والرسل ، ويقول إنه روح الوجود وسر الكون ، وإكثير المعالى الذى يرضعها إلى الذرى وعلة العلل فى الوجود

(١) رِيّاها : راحتها الذكية الطيبة .

(٢) البستان ص ١٠٦ .

(٣) البستان ص ٢١٠ .

(٤) الديوان ص ٦٦ .

(٥) الأوزار : الآثام .

(٦) الإكسر : مادة تحول المعلن ذمبا .

(٧) القارة : الهالة . الحمل : برج الشهر الأول فى

الربيع .

(٨) الخضل : الخضراء الندية .

أجميمه . وهذا البيت يجمع كل ما قاله البوصيرى وغيره عن الحقيقة المحمدية وأنها سر الكون وعلة ، ومنها يستمد نوره وضياءه . ويقول صلى عليه إله العرش طالما اتضحت شمس الضحى فى أُنْزَمَةِ الربيع أى طوال الدهر ، وصلى أيضا على آله الأشراف وأصحابه ما ظلت أغصان البان رُبَّة ندية أى على مر الزمن .

ونمضى إلى العهد العثماني ، وفيه يكثر المدح النبوى كثرة مفرطة حتى لينظم فيه كل شاعر مدحة أو أكثر ، وقد ينظم فيه ديوانا مثل عبد الكريم الفكون التوفى سنة ١٠٧٣ هـ/١٦٦٢ م إذله ديوان فى المدح النبوى وقد رتبته على حروف المعجم ، وجعل مبدأ كل مجموعة من أبيات كل قافية حرفا من حروف : « اللهم اشغنى بجله محمد أمين » وجملة حروف هذه الصيغة خمسة وعشرون حرفا ، فى كل حرف مثلها أبياتا فى قافية المعزة خمسة وعشرون بيتا ، وهكذا إلى آخر الحروف ، ولتتهى الفكون من نظم الديوان سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢١ م وكان قد أصيب بشلل فى هذه السنة ألزمه الفراش ، فشفاه الله منه ، وله قصائد مختلفة فى التوسل إلى ربه . وكان يعاصره سعيد المنداسى التلمسلى الذى ترجمنا له فى شعراء المهجاء وكان يجمع بين الشعر الشعبى والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من الشعر الأول ، واشتهر فيه بقصيدة نبوية فى نحو ثلاثمائة بيت سماها « العقيقة » وشاعت بين أهل الجزائر شيوعا كبيرا ، ولأبى راس عليها شرح سماه الدرة الأنيقة ، ويقال له عليها سبعة شروح ، ولكل شرح عنوانه الخاص . وفى الديوان الذى نشره له الأستاذ راجح بونار أربع قصائد نبوية ، وقد أمتدنا قطعة من غزل أولائها فى باب الغزل ، ومن قوله فى مدحها النبوى^(١)

هل رأيتم أو سمعتم حسنا	فى الورى من حُسن الحسن اكتمل
أحمد المبعوث فىنا رحمة	خير من قام بحق وكفّل
آية الله أمين صادق	وحبب الله بر متفضل ^(٢)
قد تجلى - إذ تجلى - بذرة	بالبها من ربه عز وجل
فاتطى متن جوايد للعلا	خافتي كالبرق للوصل زل ^(٣)
ثم رُسل الله ليلًا وارنقى	للمنى يطوى من السّاح الكليل ^(٤)
آدم المبرور صلى خلفه	وأولو المزم مصليح الملل
قد رأى من ربه سلا رأى	قبله طرّف نبي مُرتّل

والمنداسى يقول : هل رأيتم أو سمعتم حسنا فى الورى ، كل حسن يستمد من أشعته النورية ؟ إيه أحمد المبعوث رحمة هدية للعالمين ، أعظم من رعى الحقوق وأداها ، آية الله الأمين

(١) ديوانسعيدالمنداسى تحقيق الأستاذ راجح بونارس-٤٠.

(٣) رقل : زما وتخير فى سيره

(٤) السّاح : يبرد السموات . الكليل : يبرد الطبايق .

(٧) متضل : شجاع .

الصادق وحبيبه البر المجاهد فى سبيله ، وقد حَفَّه الله بهالة من البهاء ، فسَخَّرَ البُرَّاقَ له يَمْرُجُ به إلى السموات السبع ، وأَمَّ الرُّسُلَ ليلاً تَكْرِيمًا له . ويفيض سعيد المنداسى فى بيان معجزاته ، ثم يعود إلى معجزة المِراج ويقول إن الله خص به رسولنا من دون الرسل جميعاً تَكْرِيمًا لا يَمِائِلُهُ تَكْرِيم . ويتحدث المنداسى عن مولد الرسول فى مدحة نبوية ثالثة قائلا^(١) :

طَهَّ الْأُمَمِينَ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ	يَوْمَ التَّلَاقِ وَطَى الْخَلْقَ مَنْشُورًا ^(٢)
مَنْ سَبَقَ الرُّسُلَ عِنْدَ اللَّهِ فِي أَرْزِلٍ	فَضْلًا وَلِلْخَلْقِ بَعْدَ الرُّسُلِ تَأْخِيرَ
وَانْقَضَ إِيَّوَانُ كَسْرَى عِنْدَ مَوْلَدِهِ	وَعَابَ مِنْ نَارٍ وَنَطَرَ الْفَرْسَ تَسْمِيرًا ^(٣)
وَجَلَّلَ الْأَفَقَ مِنْهُ النَّوْرُ فِي سَحَرٍ	كَأَنَّ فِي الْفَجْرِ هَذَى الصَّبْحِ مَنْحُورًا ^(٤)
وَفِي السَّمَاءِ خَيُولُ الشُّهْبِ رَاكِضَةً	كَأَنَّهَا فِي وَغَى الْجَوِّ الزَّنَابِيرَ ^(٥)
وَفِي الْمَنَازِلِ تَحْتَ الْعَرْشِ إِذْ عَلِمْتُ	بِمَوْلِدِ الْمُصْطَفَى الْوَلَدَانِ وَالْحَوْرَ
تَزَيَّنَتْ وَازْدَهَشَتْ وَسَاغَ مَشْرِئُهَا	وَطَرَّتْهَا مِنَ الطَّيْرِ الزَّمَامِيرَ ^(٦)
حَوْلَ الْخِيَامِ الْغُصُونُ اللَّذْنُ سَاجِدَةً	وَلِلْمَلَائِكَةِ تَهْلِيلٌ وَتَكْبِيرَ

وهو يقول إن طه الرسول الأمين الذى تُرْجَى شفاعته يوم الحشر الأكبر يوم كل إنسان يرى عمله المطوى منشوراً تحت بصره . قد سبق الرسل فى الخلق والقدم الأزل كما أن الرسل سابقون فيه بقية الخلق . ولقد حدثت معجزات شتى يوم مولده ، فقد انقضَّ إيوان كسرى وانطفأت نار الفرس المجوس بعد أن ظلت مشتعلة متوهجة قروناً ، وعم الأفق منه نور فى السحر ، حتى ظنَّ أن هذى الإبل وغيرها إلى الكعبة ذبح فى فجر هذا النور استبشاراً به . أما فى السماء فإن الشهب - ملأته - زنبير . ويقول إن الولدان والحور العين فرحت بمولد الرسول وتزينت وامتلات زهوا وسرورا وغطتها الطيور بمخلف الأغصان ، وحتى الغصون اللينة الناعمة حول الخيام سجدت لربها شكرًا . وهللت الملائكة وكبرت تكبيراً .

وينقل أبو القاسم الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف عن أحمد^(٧) بن عمار بترجمته أن مجلَّى حلية المولدات ومقدم الجماعة فيها وإمام الصناعة وركاب صاعلها ومذلها عاشق الجنب المحمدى ومادحه بلا معارض ، ومثلث طريقتى البوصيرى وابن الفارض ، الشيخ أبو العباس أحمد المتجلاتى ، أغفقه الله بمتفقه رضوانه ، وألحقه مطارف (حلل) التكريم فى

(٥) الزنبير جمع زنبور : حشرة تلسع .

(٦) الزمير : يردد أصوات الطير وألحانها .

(٧) نظر تعريف الخلف ٨٩/٢ .

(١) ديوان سعيد المنداسى التلمسانى ص ٦٩ .

(٢) طى الخلق : الكتاب الذى كان مطوياً عن الخلق .

(٣) تسير : اشتعال وتوهج .

(٤) الهدى : ما يضيئ به من الإبل وغيرها نسكا .

أعلى جنته ، ويقول الحفناوى أثبت من مولدياته ما يطرب ويروق ، ويهر الشمس عند الشروق ، فمن ذلك قوله من موشحه^(١) :

بِاللَّهِ حَادَى الْقَطَارُ قِفْ لِي بِنِكَ الدِّيارِ واقْصِرَ السَّلامُ
سَلِّمْ عَلَى عَرَبِ نَجْدٍ وَاذْكُرْ صِلَةَ وَجْدِي كَيْفَ يُلَامُ
مَنْ بَادَرْتَهُ الدُّمُوعُ شَوْقًا لِنَلَكِ الرُّبُوعِ مَعَ الْمُقَامِ

وهو ينادى بالله على حادى القطار أى القافلة أن يقف بديار الحبيب وبقرته السلام ، ويسلم على عرب نجد ، أصحاب الصبابة والوجد ، ويتساءل كيف يلام من ابتدته الدموع شوقا لتلك الربوع وساكنها ومقامه العظيم . والمتجلاتى من شعره القرن الحادى عشر الهجرى وذكر ابن عمار أنه كان له ديوان نبوى جميعه قصائد مولدية تُزرى بالأزهار الندية ، ويقول : وجله مصليا خلفه (تالياله) سبحانه البلاغة وقُسُ الرعاة شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد المشهور باسم ابن على . وأشد له موشحاً نبوياً على غرار موشح المتجلاتى فيه يقول :

بِاللَّهِ طَاوَى الْقَفْصَارِ عُرْجُ بِذَلِكَ الْمَزَارِ حَيْثُ الْكَرَامِ
عُرْجُ بَرْتَعِ الْمَعَالِ وَبِرْدُ بِذَلِكَ الْوِصَالِ حَرُّ الْفِرَامِ
حُبُّ الْمَشُوقِ الْكَلْبِ أَنْ شَمْلُهُ بِالْحَبِيبِ لَهُ السَّامِ
نَأَتْ عَلَيْنَا الدِّيارِ وَفَى الْفَوَادِ جِمَارِ لَهَا أَنْصِرَامِ

وابن على يقول : بالله يا قاطع القفار عُرْجُ نحو مزار الأحبة الكرام ، عرج نحو منزل المعالي وَرَدَ بهذا الوصال النار المضطربة فى الفؤاد وحسى أن اجتمع شملى بالحبيب . ولقد بعدت عنا الديار ، وفى الفؤاد قطع من الوجد الملهب تضطرم نارا حامية . ولأحمد بن عمار نفسه فى موشحة :

يَا نَسِيمَا بَاتَ مِنْ زَهْرِ الرَّيِّ يَتَفَنَّى الرِّكْبَانُ
أَحْمِلْنِ مِنِّي سَلَامًا طَيِّبًا لِأَحْيِلَ الْبَنَانُ
أَفْرَأْنِ مِنِّي سَلَامًا عَقِيفًا إِنْ بَدَتْ نَجْدُ
إِنْ لِي قَلْبًا إِلَيْهَا شَيْفًا شَفُّهُ وَجْدُ

وموشحه يهبط أسلوبها درجة عن الموشحين السابقين ، ومع ذلك كان يعد من كبار الشعراء فى القرن الثامى عشر الهجرى ، وله شعر كثير فى الوصف وغيره من الموضوعات ، ويقال كان له ديوان فى المديح النبوى ، يشتمل على منظومات من القصائد والموشحات . وتحدث الآن عن أبى عبد الله محمد بن عبد الله المطار أهم شعراء المديح النبوى الجزائريين .

(١) انظر فى المقطوعة التالية وتلبيتها تعرف الخلف

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن الططار ، هكذا نقلنا عنه في آخر ديوانه النبوي الذي سماه : « نظم الدرر في مدح سيد البشر » وسماه أيضا : « الورد العذب المين في مولد سيد الخلق أجمعين » والاسم الأول هو الذي اشتهر به الديوان لأنه أخف وأطرف ، وجاء في ختامه : « كان الفراغ منه ضحوة يوم الجمعة الثاني من شعبان سنة ست وتسعين وستمائة ما عدا أربع قصائد ، فإنها تقدمت على إثنائه أودعتها فيه ، وذلك بمدينة الجزائر ، جزائر بني مزغنة من أقصى إفريقية من أرض متيجة » . ومتيجة هي الإقليم الذي تقع فيه مدينة الجزائر . وبذلك يكون قد فرغ من نظم هذا الديوان النفيس بمدينة الجزائر سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٧ م ويقول المقرئ : « ليس هو بلبن الططار المشرقي الذي كان معاصرا لابن حجة الحموي [المتوفى سنة ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م] فإن ذلك متأخر عن هذا .. وهذا مغربي وذلك مشرق فلم يتفقا لا في زمان ولا في مكان سوى في اشتراكهما بلبن الططار » . ويذكر المقرئ - وتبعه في ذلك الحفناوي - أن محمد بن أحمد بن الأمين الأشهرى روى الديوان عن ناظمه ابن الططار وأنه قرأه عليه قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر في ذى القعدة أواخر عام سبعة وسبعمائه . ويدل هذا النص على أن ابن الططار كان في سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م قاضيا بمدينة الجزائر . وقد اطلع المقرئ على ديوانه ، وجاءنا منه ببعض روائعه ، بادئا بتسديس ، وقوافيه تكون عادة بعدد الحروف الهجائية ، ولكل حرف أربع شطوط ، يليهما شطران يتهيان بحرف يُلتزم فيهما بكل دور كقوله في تسديس له^(٢) :

صَلُّوا عَلَى الْبَدْرِ الْمُنِيرِ الْأَكْمَلِ	صَلُّوا عَلَى الرَّوْضِ الْبَهِيِّ الْأَجْمَلِ
صَلُّوا عَلَى الْهَادِي النَّبِيِّ الْأَخْفَلِ	المصطفى الْأَرْقَى الْأَنْزَهْ عَجَلِ
فيه تقدّم وحده تقدّما	صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلُّمُوا تَسْلِيمَا

وهو يقول صلوا على البدر المنير الكامل والروض البهي الطاهر الهادي لأنته الخاني عليها واختمتي بهداها ، المصطفى الذي صعد به ربه لأنزه وأروع مقام - تقدم فيه وحده دون الرسل جميعا يناجي ربه ، صلوا عليه وسلّموا تسليما . والشطر الأخير يكرر في كل دور مع شطر منه بالميم محدثا رنينا صوتيا بديها للتسديس . ويذكر المقرئ للططار تسديسا ثانيا ، نذكر منه هذا الدور :

(١) الخلف لأبي القاسم الحفناوي ٥٥٠/٢ .
(٢) نفس المرجعين السابقين .

(١) انظر في ترجمة الططار نفع الطب للمقرئ (طبعة
د. إحسان عباس) ٤٨٠/٧ وما بعدها وكتاب تعريف

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَنَامَى فَخْرُهُ صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَعَاظَمَ قَدْرُهُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَأَرَّجَ نَشْرُهُ صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَنَاسَى دُرُهُ
عَقَدَ السَّنَاءَ لِمَجْدِهِ إِكْلِيلًا صَلُّوا عَلَيْهِ بِكَرَّةٍ وَأَصِيلًا

وهو يقول صلوا على من فخره لا يقف عند حد بل كل يوم في نمو وازدياد لمحبة الخلق له ومحبة ربه . صلوا على من يتعظم قدره عند الناس وعند الذات العلية . صلوا على من عطفه بفوح من كل جنب ، ومن لآلء تعاليه تطرد لأتباعه في أنساق محكمة ، وقد عقد له الشرف والمجد تاجاً عظيماً ، صلوا عليه بكرة وأصيلًا . ويختم بهذا الشطر كل دور مع شطر لامي قبله . ويثُ العطار في قصيدة له حيناً طامناً إلى زيارة يثرب والرسول الكريم منشداً :

أَهْدَتْ لَنَا طَيْبَ السَّرَوَاتِحِ يَثْرِبُ فَهَبْهَا عِنْدَ التَّنَسُّمِ يَطْرِبُ
رَقَّتْ فَرْقٌ مِنَ الصَّبَابَةِ وَالْأَسَى قَلْبٌ بِبِيرَانِ الْيَعَادِ يَعْذِبُ
شَوْقًا إِلَى أَشْنَى نَيْيْ حُبِّهِ يَحْلُو عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وَيَعْذِبُ
فَرْنَا بِهِ بَيْنَ الْأَنْامِ بِدِيمَةٍ بُدَا عَلَيْنَا بِالْأُمْتَى تَنْكِبُ
حَازَ السِّيَادَةَ وَالْكَمَالَ عَمْدٌ فَإِلَيْهِ أَشْنَاتُ الْحَمَادِ تَنْسِبُ
عَمِيُونَا وَنَبِيُنَا وَشَفِيعُنَا يُبْنِي إِلَى وَرْدِ الرِّضَا وَيَقْرُبُ
إِنْ طَلَبْتَ الْأَنْفَاسُ مِنْ زَهْرِ الرَّيِّ رَبِّهَ أَذْكَى فِي النُّفُوسِ وَأَطِيبُ

والعطار يقول إن يثرب أهدت لنا مع الرياح طيباً ، واختلطها في هبوبها بالأرج يملأ قلوبنا طرباً ، ويقول إنها رقت ورق معها قلبى المعذب بالصباية والوله شوقاً إلى أعظم نبي حبه دائماً عذب مستحب مهما كان الزمان مرّاً كريهاً ، ويقول إنا فرنا منه بسحابة لا تزال تسكب علينا بكل ما نريد من الأمانى . وقد حاز السيادة والكمال ، إنه محبوبنا ونبينا وشفيعنا يوم الفزع الأكبر ، وإن حبه ليدنى من رضا الله ، وحسبك بذلك نعمة كبرى . ويقول إن أريج زهر الري لا يقاس في شيء إلى شذاه العطر ، إنه أذكى في النفوس وأطيب في القلوب . ومن قوله متشوقاً إلى طيبة وزيارة الرسول الكريم :

أُبْدَا تَشْوَقُكَ أَوْ تَرَوْكَ يَثْرِبُ فَإِلَى مَنَى يُفْصِلُكَ عَنْهَا الْمَرْغِبُ
هِيَ حَتَّةٌ فِي النَّفْسِ يَعْذِبُ ذِكْرُهَا وَالْقَرَبُ مِنْهَا وَالشَّدَائِي أَعَذِبُ
وَالشَّوْقُ يَشِينَا إِلَيْهَا كَلَمًا وَقَفَ الْحَمَامُ عَلَى الْأَرَاكَةِ يَخْطِبُ
يَا حَبْدًا فِي رَيْعِ طَيْبَةٍ وَقَفَّةً بَيْنَ الرِّكَائِبِ وَالِدَّمَاعِ تَنْكِبُ
حَتَّى يَرْقُ لِلْوَعْدَى وَصْبَابَتِي وَدَمُوعَ عَيْنِي كُلِّ مَنْ يَتَغْرِبُ
شَوْقًا لِمَنْ زَانَ الْوُجُودَ وَحُبِّهِ يَبْنِي إِلَى رَبِّ الرِّضَا وَيَقْرُبُ
خَيْرَ السُّورَى عَمِيُونَا وَنَبِيُنَا حَزْنَا بِهِ الْجَاهِ الَّذِي لَا يُسْلَبُ

فدائما تشوق العطار يثرب ودائما يقصبه عنها المغرب ، إنها الجنة التي يحلو له ذكرها ، والقرب منها والدنو أكثر حلاوة وعذوبة . وإته ليحن إليها كلما سمع الحمام يشدو ويترنم على أغصان الأراك والأشجار . ويتمنى وقفة في ريع الأحبة ودموعه تهطل صبًا ملتاغا حتى ليحطف عليه المحبون مثله ، شوقا للرسول الكريم الذي زان الوجود بطلعه السنية ، والذي يندى حبه من رضا رب العباد ، خير الورى ، محبوب أمته ، ونبيها الذى حازت به جاهها ومكاتها العالمية . ويشيد بالرسول ويحمل السلام إليه من يزورونه من جيرانه وصحبه ،
مشدا :

أَشْفَى النَّبِيْنَ قَدْرًا نَسْرُهُ لَيْدَا يَزِيدُ حَسَنًا عَلَى الْأَقْمَارِ بَاهِرُهُ
وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ مِنْ غَرْبٍ وَمِنْ عَجْمٍ أَرَيْتَ عَلَى الرُّمْلِ أَضْعَافًا مَآثِرُهُ
رَوْضٌ مِنَ الْحِلْمِ غَضٌّ رَاقٍ مَنْظَرُهُ بَحْرٌ مِنَ الْعِلْمِ عَذْبٌ فَاضٍ زَاخِرُهُ
إِنْ جَادَ صَاحِرٌ بِلِقَايَا الزَّمَانِ فَعِلْ إِلَى مَقَامِ حَبِيبٍ أَنْتَ زَائِيْرُهُ
وَصِفْ لَهُ حَالِ صَبٍّ مُغْرَمٍ ذَيْفٍ رَامَ الدَّنُوَ فَأَقْصَنَهُ جِرَارُهُ^(١)
وَإِذْكَرْ هُنَاكَ بَعِيدَ الدَّارِ غَرْبُهُ غَرْبٌ فَمَا غَائِبٌ مِنْ نَفْسٍ ذَاكِرُهُ
أَهْدِي السَّلَامَ بِلَا حَدٍّ وَلَا أَمِدٍ إِلَى مَحَلِّ رَسُولِ اللَّهِ عَامِرُهُ

وهو يصف الرسول بأنه أعظم النبيين قدرا ، ونوره يزيد حسنا على نور الأقمار حين تكون بدورا كاملة ، وهو أفضل الخلق عامة من عرب ومن عجم ، ومآثره أضعاف الرمل إحصاء وعذا ، وإته لروض زاه من الحلم يروق منظره ، وبحر عذب من العلم يفيض زاخره . ويتمنى إلى بعض من أسعدته الظروف بالرحلة إلى زيارته ، فيطلب إليه أن يصف له صباهه بزيارته وغرامه ، وكيف حاول الاقتراب منه ولبعده فنبوه ، ويقول له اذكر حال بعيد الدار عاجز عن الوصول إليه . وإته ليهدي السلام إلى يثرب بلا حد ولا غاية ولا نهاية . ويتخيل نفسه وقد اكتحلت عيناه بطيبة وترابها ، فينشد مبهجا :

وَلَمَّا بَدَتْ أَعْلَامُ طَيْبَةٍ قَصْرَتْ مِنْ الشُّوقِ مَا قَدْ طَوَّقَتْهُ السَّبَابِ^(٢)
وَقَفْنَا وَسَلَّمْنَا وَفَاضَتْ دُمُوعُنَا وَحَنَتْ إِلَى ذَاكَ الْجَنَابِ الرِّكَابِ
نَزَلْنَا وَقِيلْنَا مِنَ الشُّوقِ تَرَبُّهَا وَطَلَبْتُ بِذَلِكَ التُّرْبِ مَنَا الثَّرَابِ^(٣)
فَلِلْعَيْنِ مِنْ تِلْكَ الْمَعَادِ نَزْهَةٌ وَلِلْقَلْبِ فِي تِلْكَ الرَّسُومِ مَارَبٌ
حَوَتْ سَيِّدَ الرُّمْلِ الَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ لَهُ فِي مَقَامِ الْقَرَبِ تَقْضَى الْمَطَالِبُ
تَرْقَى إِلَى السَّيِّحِ الطَّبَاقِ وَمَا بَدَا لَهُ فِي تَرْقِيهِ مِنَ الْحُجْبِ حَاجِبٌ

(٢) الثراب : عظام الصدر .

(١) مفرم دنف : أشفى على الملاك . جرارته : فنوبه .

(٢) السلب جمع سلب : للفازة والقلادة .

لقد أشرقت شمسُ النهار بنوره
 وأعلل قلبي بالوصولِ لقبره
 وإن غبتُ ما قلبي - وحَقُّك - غائبُ
 وإنى تُناديه وإن كنتُ نازحاً
 نداءَ غريبٍ غرَّبتَه المِغَارِبُ
 والقطار يقول إنه حين بدت علامات طيبة أى المدينة قصرتُ خطا الشوق التى كانت قد
 طوَّنتها مفازات الطريق فى إفريقيا وجزيرة العرب ، وما أعظم فرحه - كما يقول - فقد وقفوا
 وسلموا على ربوع طيبة أو ربوع الحبيب ، وحنَّت معهم الركائب لهذه المنازل . ويقول إنهم
 نزلوا وقبَّلوا تراب طيبة العطر وطابت به صدورهم وأخذتهم ، ونِعِمَّت العيون بمشاهد تلك
 المعاهد ونعمت القلوب ، إذ حوت تلك المعاهد ميد الرسل الذى تجاب عنده المطالب ، والذى
 صعد به جبريل إلى السموات السبع طبقة بعد طبقة ورُفِعَت من دونه الحجب . وإنه لنور
 خالص ، نور أنزل ، ومن نوره تستمد الشمس والقمر والكواكب . وكأما يفتق القطار من
 حلمه ، فيرى نفسه لا يزال فى مدينة الجزائر لم يرحها ، ويقول إنه يحنى نفسه بزيارة الرسول ،
 وإن غبت عنه فإن قلبي ليس غائباً ، وإنى تُناديه ، وسأظل تُناديه نداء غريب ظامئ أشد الظمأ
 لرؤية خبره العطر الشريف .

الفصل السادس

الشر وكتابه

١

الخطب والوصايا

طبيعى أن تكثر الخطب والوصايا مع الدولة الرسمية منذ تأسيسها سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٦ م إلى انتهاء مدة حكمها سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م إذ كانت دولة إمامية ، وكان أئمتها لا يزالون يدعون رعيّتهم فى محيطها بتاهرت وخارج محيطها إلى امتثال دعوتهم مع تقوى الله وخشيته والقيام بفروضه الدينية ، وقد يطلبون إليهم فى بعض خطبهم طاعة من يولونهم عليهم من ولائهم ، كما يلقانا عند إمامهم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٧١ - ٢١١ هـ) حين ولى على تاهرت فى غيته عنها السمع بن أمى الخطاب نائباً عنه ، فقد جمع زعماء تاهرت وأهلها وخطبهم قاتلاً^(١) :

« قد علمتم - معشر المسلمين - أن السمع وزيرى وأخص الناس بى وأحبهم إلىّ وأوصحهم لدولتى وأنى لا أصبر على فراقه ، وقد أثرتكم على نفسى ، تنميماً لرغبتكم ، وها أنذا قد وليته عليكم فأحسنوا الطاعة والانقياد لأمره ما سار فيكم سيرة المسلمين ، ولم يحد عن جادة العدل والإنصاف ، ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرب أو بمخالفتنا » .

وهذا المأثور من الخطبة ليس فيه تكلف لضروب السجع ولا لألوان البديع ، وهو بلغة جزلة مقبولة كلفة الخطب فى الصدر الإسلامى الأول . وعلى شاكلة هذه الخطبة كتبت الوصايا فى أيام هذه الدولة كوصية عبدالله اللواتى وزير أفلح بن عبد الوهاب (٢١١ - ٢٤٠ هـ) وهى تطرد على هذه الصورة^(٢) :

« إبنى موصيكم إخوانى ونفسى بتقوى الله العظيم فى السر والإعلان ، وباتباع آثار أهل دعوة المسلمين ، فإن الاتباع أولى من الابتداع وعليكم بالانتماء لما أمر الله به من طاعته ، والانتفاء عما نهى عنه من معصيته ، فاقفوا آثار المسلمين فإن الله أوعد بالنار من خالفهم ، كما أوعد بها من خالفه وخالف رسوله ، إذ قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ

(١) انظر المغرب العربى : تاريخه وثقافته للأستاذ راجع (٢) النشاط الثقافى فى ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر بنارس ٥٥ .
ص ١٨١ .

ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَصُفِّهِمْ جَهَنَّمَ مَصِيرًا ﴿١٠﴾ . فافتقروا
الله إخواني واحذروا مخالفة آثار أئمتكم في القليل والجليل .. وعليكم بالحذر من الانهماك
في الشر والخلاف بعد الزجر عنه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وغضب
منه وقال : أنتم تكونون أئمتهم فيها (أى الدنيا) بعد ما جئكم بها (أى الرسالة) يضاء نقيض
حنيفية سمحة سهلة .

وهو يوصى بالتقوى واتباع أهل الدعوة من أئمة الإباضية ، فإن الاتباع كما يقول أولى
من الابتداع ، ولغته رصينة قوية ، يحتج بالقرآن والحديث النبوي ملوحا بهما من بعيد على
صححة معتقده . ويذكر صاحب الأزهار الرياضية عظة عامة للإمام أبي اليقظان محمد بن
أفلق بن عبد الوهاب (٢٤١ - ٢٨١ هـ) وجهها إلى جميع رعاياه في تاهرت وجبل
نفوسة ، وفيها يقول^(١) :

« إن أفضل ما تواصى به العباد ويتحاضون عليه تقوى الله ولزوم طاعته ، والزجر عن
معصيته ، والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب والعمل الصالح . وعليكم معاشر
المسلمين بالتهنيء للقدوم على الله والتأهب والاستعداد ليوم تشخص فيه الأبصار وتنفر فيه
الألوان ، ويشيب فيه الولدان ، و﴿تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل
حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ . واعلموا - رحمكم
الله - أن أهل العلم القائمين بهذه الدعوة قد انقرضوا وقُلت الخلوفا منهم ، فرحم الله امرأة
مسلمة احتسب نفسه ، وأرصدها الله في طلب العلم والنقض على من ضاد الله وعدل عن
منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وضاد المحققين من عباده ، حتى تكون كلمة رسول الله
صلى الله عليه وسلم هي العليا والباطل زهوقا . وعليكم معاشر المسلمين اتباع الماضين من
أسلافكم والمتقدمين من أئمتكم الصالحين من أهل دعوتكم ، فاقتفوا آثارهم ، واهتدوا بهداهم ،
واحذروا الزيغ عن طريقهم والميل عن مناهجهم .

رواضح أن الإمام أبا اليقظان محمد بن أفلق يدعو في عظته صراحة أهل دعوته من الإباضية
أن يروصدوا أنفسهم ويحتسبوا للدفاع عنها ، ضد خصومها الذين عدلوا في رأيه عن منهاج
رسول الله ومنهاج أهل الحق من أئمتهم ، ويدعوهم إلى اتباع ما تواضع عليه هؤلاء الأئمة من
مبادئ آمنوا بها مخالفين الجماعة . ولابنه أبي حاتم يوسف (٢٨١ - ٢٩٤ هـ) عظة بديعة
كان يخطب بها الخوارج الإباضية في عهده أيام الجمعة وفيها يقول^(٢) :

عمر ص ١٧٩ .

(١) الأزهار الرياضية للداروني ص ٢٤٠ .

(٢) النشاط النقابي في ليبيا للدكتور أحمد مختار

والحمد لله الذى ابتدأ الخلق بنعمائه ، وتغنمهم جميعا بحسن بلائه ، لا يشتمل عليه زمان ولا يحيط به مكان ، خلق الأماكن والأزمان ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ فقدّرهما أحسن تقدير ، واخترعها من غير نظير ، لم يرضها بأعمدة تُذكر بالمعانيه ، ولم يستعن عليها بأحد استكباراً عن الشراكة والمعاونة ، وزيّنها للناظرين ، وجعل فيها رجوماً للشياطين (فبارك الله أحسن الخالقين) جعل القرآن إماماً للمتقين ، وهدى للمؤمنين ، وملجأً للمتأزعين ، وحكماً بين المتخالفين ، ودعاً أولياءه المؤمنين إلى اتباع تنزيله ، وأمرهم عند التنازع فى تأويله بالرجوع إلى قول رسوله ، فقال الله عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ .

وهذه الخطبة أو العظة تصور نهاية تطور كبير حدث فى كتابة النثر الأدبى ، فقد بدأ بسيطاً عند الإمام أبى الیقظان محمد بن أفلح ، واتسع هذا الرقى عند ابنه الإمام أبى حاتم يوسف لا من حيث انتخاب الألفاظ فحسب ، بل أيضاً من حيث ما يشيع فيها من السجع ومن التوازن فى العبارات والمقلبلات الدقيقة . وتمضى بجاية وشرقى الجزائر فى عصر الحمادين والموحدين ثم الحفصيين بالنمائية فى الخطبة والعظات ، وتتردد فى الكتب أسماء خطباء فى الجامع الأعظم ببجاية أو بقسنطينة ولكن الكتب لا تحتفظ حتى بشظايا من خطبهم ، سوى أن يقال مثلاً إن فلاناً ولى خطبة الجامع الأعظم ببجاية أو جامع القصبة بها أو جامع الموحدين وكان فصيح القلم واللسان . ويكفون بذلك دون أن يذكرنا شيئاً من خطبه الفصيحة أو البليغة ، أو يقولون مثلاً إن بآ تمام الواعظ الوهراني سكن بجاية واشتغل فيها بالتذكير واستدعاء الخلق لباب الله تعالى ، ولا تذكر لنا كلمة من مواعظه . ويمكن أن نجد صوراً من العظات فى نثر الأذكار والأوراد التى كان يرددها المتصوفة عقب الصلوات ، ونقتطف كلمات مما كان يردده على بن أحمد الحرالي عقب صلاة الصبح إذ كان يجلس فى مصلاه مترجماً ويردد بعض أقوال له منها^(١) :

« سبحان من سبقت رحمته غضبه ، سبحان من لا منجى ولا ملجأ إلا إليه ، يا مثبّت القلوب ثبت قلبي . العقل أصل ديني ، الحب أساسى ، ذكر الله أنسى ، الثقة كثرى ، العلم سراجى ، الصبر ردائى ، الرضا غنيمتى ، الزهد حرصى ، اليقين قوتى ، الطاعة حسى ، الجهاد خلقى ، قرأ عيني فى الصلاة » .

والثبات بل الآلاف من مواعظ الخطباء والأوراد والأذكار كانت تفرغ أسماع الناس كل يوم فى بجاية وقسنطينة وغيرهما من بلاد الجزائر . وكان النساك وأهل الصلاح يكتبون أحياناً

(١) عنوان الدربة ص ١٥٢ .

وصية لربهم أن يرعى ذريتهم وأهلهم وما استودعوه من أموالهم صيانة للورثة والمال، من ذلك وصية رواها صاحب عنوان الدراية لابن نعيم الحَضْرَمِيّ المتوفى بفسنطينة سنة ٦٣٦ وفيها يقول^(١):

« هذا ما أودع العبد الله الذى خلق الأشياء ، ورزق الأحياء ، وملك العالمين ، وحفظ السموات والأرضين ، أودعه جميع ولد نبيه وأهله وأهل أخيه وجميع ما خوّلهم من نعمه ظاهرا وباطنا ، وصيّر ذلك إلى أمانته ، وأسلمه إلى رعايته ، واستحفظه فى ذلك كله ، وتبرّا إليه من حوله وقوته ، ولم يرج سوى فضله وطوّله (أفضاله) هو الحفيظ الذى لا يهمل ، الوكيل الذى لا ينفل ، الجواد الذى لا يخل ، الأول الذى ينعم ويتطول ، والأخير الذى لا يزال ولا يتحول » .

والفاظ الوصية مثل ألفاظ الخِرائى ألفاظ متتخية مصفاة ، وقد يجيء فيها السجع عفوا دون قصد ، وهى تدل على أن الشر كان قد أخذ يتطور ، وأخذ أصحابه يعنون بالملاءمة بين اللفظة واللفظة إرضاء للسمع وإمتاعا للسامع بما يسمع أو يقرأ من الكلم .

وإذا تركنا بجاية والقسم الشرقى من الجزائر إلى قسمها الغربى وتلمسان خاصة رأينا صاحب بغية الرواد يسوق فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد بجزئها الأول طائفة من مشاهير خطبائها وعاطلها مثل أبى عبدالله محمد بن أحمد الحجّام المار ذكره بين شعراء المتصوفة والمتوفى سنة ٦١٤ وسميه يحيى بن خلدون فى البنية : واعظ أهل زمانه ، ويذكر له - كما مر بنا - كتابا فى الوعظ اسمه « حجة الحافظين وعجدة الواعظين » . ومن كبار الخطباء الوعاظ الذين يذكّرهم صاحب بغية الرواد عبد الرحيم بن أبى العيش الخزرجى المترجم لأبيه بين شعراء الصوفية ، وكان خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه ، وكان يعاصره أبو محمد عبد الله المجاصى المتوفى سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣ م وكان كثير البكاء فى وعظه حتى اشتهر بذلك ، وكان لا يرفع طرفه إلى السماء حياء من الله تعالى وخشية منه ، وكانت له مواعظ قيمة . ومن الوعاظ بعده سعيد العقيلى المتوفى سنة ٨١١ هـ/١٤٠٨ م خطيب الجامع الأعظم بتلمسان . ونقرأ أخبارا عن روعة مواعظ هؤلاء الخطباء وأن منهم من كانت تقشعر من وعظه الجلود لما يعرض له من عذاب الآخرة وكأنه يرى الجحيم تحت بصره ، ومنهم من كان يبكى سامعيه بمواعظه وما يورد من زواجره . ومع ذلك لم تحتفظ المصور السالفة بشظايا - ولو قليلة - من خطبهم ومواعظهم .

ولم تصلنا وصايا عن تلمسان لا من حكام الدولة الزيانية لأبنائهم ولا من شيوخ تلمسان

(١) عنوان الدراية ص ٣٣٢ .

لتلاميذهم فيما عدا وصية كبيرة استحالَت إلى كتاب أوصى بها السلطان أبو حو موسى الثاني (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) ابنه أبا تاشفين وسماها « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » وقد جعلها فى أربعة أبواب بين يديها مقدمة عن السياسة العملية ، والأبواب الأول نصائح فيما ينبغى على المالك أو الحاكم من العدل والتقوى وصيانة المال والعناية بالجيش ، والأبواب الثانى خاص بقواعد الملك أو الحاكم وأركانه ، وهى العقل والعدل وحسن السبلة والعناية بالمال والجيش ، والأبواب الثالث خاص بالصفات التى تزين الملك والحكم ، وهى الشجاعة والكرم والحلم والعفو ، ويصرّح فى خاتمة الكتاب بأنّه وضعه لابنه أبا تاشفين ليتبع نصائحه فيه ، ويستقيم حكمه وملكه ، وتنتظف من هذه الوصية الكبرى بعض وصاياه لابنه عن الشجاعة^(١) فى الحروب .

« يا بُنى إذا كان الملك شجاعا ، كان منصورا مطاعا ، ترهبه الأعداء ، وتطمئن إليه الأولياء ، يعتد به جيشه فى مواقع الحروب ، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب . وإذا اتحمّت القتال ، واختلطت الأبطال بالأبطال ، فغابتك أن تكون حاكما على نفسك ، صابرا ثابتا فى جأشك^(٢) ، ناظرا إلى ساقك التى هى قلب جيشك ، فلتلزم بها الثبات ، ولا تتزعزع إلى جهة من الجهات ، ولتشدّ بثباتك الأنجاد^(٣) والحماة ، والمقاتلين الكُماة^(٤) ، وإن انكسر أحد الجناحين من جيشك فلا تهتم به ، ولا تتقل بسببه ، فإن انكسار الجناحين مع ثبات القلب لا يضر ، والصبر فى مثل هذا عائد عليك بما يسر ، لأنّه إذا كانت رايات القلب تخفق وطبولة تزار كان ذلك حصنا للجناحين ، وأمانا للمسكر من الحين^(٥) ، وأرجى للظفر بالعدو عند رجوع الجانبين . »

وهو ينصح ابنه حين تلتحم المعركة أن يثبت فى قلب جيشه ، وإذا رأى فى أحد الجناحين انكسارا لا يميل إليه بمن معه من العساكر ، حتى لا يتشوش الموقف ويُظنّ أنّه منهزم ، وحتى لو انكسر الجناحان فإن ثبات القلب يردّهما إلى المعركة ويكسب للجيش النصر . ويوصى ابنه أن تظل رايات الجيش فى قلبه تخفق وطبولة تزار ليكون قدوة لقواد الجناحين ويعودوا إلى مواقعهم من المعركة . ويستمر أبو حو موضحا لابنه أن الشجاعة لا تكون صحيحة إلا مع الرأى السديد ، أما بدونه فتكون مذمومة بل قد تصبح نهورا يؤدى إلى الهلكة وإلى زوال الملك . ولا يلفتنا فى هذه الوصية الطويلة ما تحمل من فكر دقيق ولفظ متخّص رشيق فحسب ، بل يلفتنا فيها أيضا أنها مسجوعة سجعاً محكما ، وهى شهادة قوية بأن النثر الأدبى رقى بالجزائر فى القرن الثامن الهجرى ، بحيث أصبح الكاتب يفكر فى جرس كلامه الذى يخلب به سامعه ،

(١) انظر قاعدة الشجاعة من الباب الثالث من كتاب (٣) الأنجاد جمع نجد : الشجاع .

واسطة السلوك . (٤) الكُماة جمع كُسى : القدامى المسلح .

(٢) جأشك : قلبك . (٥) الحين : الملاك .

وأياها ليس ذلك فحسب ، فإن الكاتب يلائم بين الكلمات فى السياق بحيث يأتى مع الكلمة بشقيقتها ورفيقتها التى يحسن أن تصاحبها والتى تؤلف معها لونا من التجانس أو الجنس ، حتى يروق السامع أو القارئ ويجذبه إليه .

وإذا مضينا إلى العهد العثماني سمعنا - كما سمعنا فى الحقب السابقة له - عن خطباء كانوا بارعين فى الوعظ ، وكان الناس يجتمعون لهم فى خطبة الجمعة وينبهرون بما يسمعون منهم من وعظ مؤثر ، غير أننا لا نجد شواهد من هذا الوعظ ، وقد أشاد الكاتب محمد بن ميمون فى القرن الحادى عشر الهجرى بخطبة الشيخ مصطفى بن عبد الله البونى قائلا : « له فى الخطب الساعد المشتد ، والإلقاء الذى تميل إليه الموادى (الأعناق) وتمتد ، والسكينة (الوفار) التى تجذب إليها الأبصار فلا ترتد ، ولم أر منذ عقلتُ بسنًى ، وعلقت خطبته بذهنى ، أحق منه فى طريقة الوعظ والخطبة والإمامة ، ولا رأيت من شيوخنا من تقدم أمامى لا جرم أنه استحوذ عليها ، صناعة استوفى شرطها واستكمل أسبلها - وكذلك هو فى وعظه آية من آيات فاطره ، زعم من رآه أنه لم يسمع من حضرة الجزائر إلى أم القرى أخطب منه ، ولا من يدانيه إلا واحد من الأفاضل لم يكن بمثاله »^(١) . وهذا الخطيب الممتاز الذى ليس له نظير فى وعظه من مدينة الجزائر إلى أم القرى : مكة لم يؤثر عنه شيء من خطبته ، فما بالنا بمن لا يبلغون مبلغه من روعة الخطبة . ومن المحقق أن الأسلاف من الجزائريين أضاعوا تراثا مهما من مواظب أدبية لو أنها وصلتنا لأمكننا أن نؤرخ للأدب الجزائرى تاريخا أكثر دقة .

٢

الرسائل الديوانية

طبيعى أن لا توجد الرسائل الديوانية فى أمة إلا إذا وجدت فيها دولة ، واتخذت لها كتابا يكتبون عنها الرسائل الديوانية ، وكان قيام الدولة الرسمية فى تاهرت مبشرا بأن تصدر عن حكامها رسائل ديوانية مختلفة ، وقد توجد الدولة وتوجد الرسائل الديوانية ولا يوجد من يهتم بتسجيلها ، غير أننا نجد رسائل الدولة الرسمية تدون وتنقلها ككاتب متأخرون مثل الشماخى فى السير والبارونى فى الأزهار الرياضية ، فمن ذلك رسالة للإمام عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١ هـ) كتب بها إلى أهل طرابلس وكانوا يوالونه ، وكان واليه السماح بن أبى الخطاب توفى ، واستخلف بعضهم غيره وراجعوه ، فكتب إليهم الرسالة التالية^(٢) :

« أما بعد فإني آمركم بتقوى الله ، والاتباع لما أمركم به ، والانتفاء عما نهاكم عنه ، وقد

(١) تاريخ الجزائر الثغافى للدكتور سعادته ٢١٣/٢ . (٢) السير للشماخى (طبع قسنطينة بالجزائر) ص ١٨٠ .

بلغنى ما كتبتم إلى به من وفاة السمع واستخلاف بعض الناس « خلفا » له وردّ أهل الخير ذلك ، فإن من ولى « خلفا » من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين ، ومن لى توليته فقد أصاب ، فإذا اتاكم كلنى هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السمع على عمالته التى ولى عليها إلا خلف بن السمع ، فحتى يأتيه أمرى ، وتوبوا إلى بارئكم ، وراجعوا التوبة ، لعلكم تغفحون . »

والرسالة مع إيجازها تؤدى الغاية المطلوبة منها ، إذ تبين حق الإمام وما جرى عليه عرف الإباضيين وبسببهم المسلمين ، وتصف فعل من ولى خلفا بعد السمع بالخطأ لا ضد الإمام وحده بل أيضا ضد المسلمين وعزفهم ، وتحرمه من أن تكون له صفة الشرعية فلا تصح له ولاية الناس بحال ، ويطلب إليهم التوبة مما وقعوا فيه من إثم . وكان عهد ابنه أفلح طويلا (٢١١ - ٢٤٠ هـ) ، وخرج عليه بعض الثوار ، منهم نفلت بن نصر من جبل نفوسة إذ كان يطن فى إمامته ويكثر من نقده ، فبادل معه عددا من الرسائل كان آخرها الرسالة التالية ، وهى طويلة ، ولذلك سنختصرها شيئا من الاختصار ، وفيها يقول^(١) :

« أما بعد فالحمد لله المنعم علينا ، المحسن إلينا ، الذى بنعمته تتم الصالحات ، ولا يهتدى مهتد إلا بعونه وتوفيقه ، فله الله علينا ، وهو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه ، وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين ، وأئمتنا المهتدين .. قد كتبت إليك غير كتاب ، أوصح لك فيه ، وأدعوك إلى رشدك ، وفى كل ذلك لا يبلغنى من عمالتك إليك إلا ما أكره ، ولا أرضاء لك فى دين ولا دنيا ، حتى حررتُ كتابا منشورا إلى عمالتنا ، أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين . وابتدع غير طريقتهم ، وسار بغير سيرتهم .. فكبت إلى كتابك كتبتك تسخط ذلك . أترى أنى أؤازر من ابتدع فى ديننا ؟ ما كنت بالذى يفعل ذلك ، ولا أؤازر من يسعى فى خلافتنا ما كنا على الهدى . ثم قلت إنا أمرنا فى كتابنا بالبراءة منك ، فإن كنت كما كتب به إلينا عمالتنا فأنت محقوق بالبراءة (منك) ومقصى من جماعتنا ، لأننا ما كتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع فى ديننا خلاف أسلافنا .. فهو محقوق بالبراءة (منه) ومقصى من جماعة المسلمين ، فإن تكن أنت منهم فأنت الذى أئمت لنا البراءة منك ، وأحللت بنفسك ما لا بد أن نفضله بك وبغيرك ، وإن لم تكن كذلك فأظهر الانثناء منه ، وكذب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التى تستحقها وتستوجبها ... وئى غير كاتب إليك كتابا بعد هذا إلا إذا انتهى إلينا ما نحب ، فنترك من أنفسنا بحيث نحب ، والله المستعان . »

وأفلح متمكن من لغته بأروع مما تمكن أبوه عبد الوهاب ، إذ هى فى يده سلسة القيادة ،

(١) الأزماع الرياضية ٢ / ١٩٥ .

وهو بصرفها كما يشاء ، ويجعل الله هو الذى اختاره خلفا لأسلافه الصالحين وإماما لأهل دعوته حتى يجعل خروج نفثات عليه خروجاً على طاعة الله وعصياناً لمشيئته وإرادته . وقد بنى الرسالة على الملاينة والترغيب تارة والتهديد والترهيب تارة ثانية ، مما يدل على حنكه السياسية وخاصة أن جعل باب الترغيب والتفريب مفتوحاً على مصاريعه حتى يدخل إليه نفثات من راضياً إذ ينزل منه بحيث الود والحب . ولأنه رسالة عامة كتب بها إلى جميع رعاياه بهذه الصورة^(١) :

« الحمد لله الذى هدانا إلى الإسلام ، وأكرمنا بمحمد عليه السلام ، ولقينا بعد تناسخ الأمم ، حتى أخرجنا فى الأمة المكرمة التى جعلها الله أمةً وسطاً شاهدة لنبيها بالبلغ ، ومصدقة لجميع الأنبياء ، وشاهدة على جميع الأمم بالبلاغ من الأنبياء عليهم السلام متاً من الله ورحمته ، وأرسل إلينا نبيه محمداً ﷺ بالهدى ، ووعده بالنصر على الأعداء ، وضمن له الفلاح والغلبة ، ووعده بالعصمة ، قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَةَ اللَّهِ وَعَصَمَكَ مِنَ النَّاسِ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فأدى - عليه السلام - ما أمره الله به ، ونصح لأمة ، ودعا إلى سبيل ربّه ، وجاهد عدوّه ، وغلظ على الكفار ، ولان للمؤمنين ، فكان لهم - كما وصفه الله - رءوفاً رحيماً ، حتى انتفضت مدته ، وفيت آياته ، واختار له ربّه ما عنده ، فقبضه محمود السقى مشكور العمل ﷺ ، فلم تبق خصلة من خصال الشر الداعية إلى الملكة إلا وزجر عنها ، وأمر باجتنابها ، رحمة من الله بعباده ، فله الحمد على ذلك كثيراً . ثم أمر تعالى بالجهاد فى سبيله والقيام بحقه ، والأخذ بأمره ، والانتهاه عما نهى عنه ، وفرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإغاثة الملهوف ، والقيام مع المظلوم ، والقمع للظالمين ، لكى لا تقوم للشيطان دعوة ، ولا تثبت لأهل حزبه قدم ، ولا ينفذ لهم حكم ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عماد الدين وإعزازه ، وهو الجهاد وتأديبة الحقوق الواجبة له تعالى . فعليكم معشر المسلمين بتقوى الله العظيم والقيام بحقه فيما وافق هواكم أو خالفه ، وتقربوا إلى الله بالقيام بطاعته وطلب مرضاته ، لتنالوا بذلك ما وعد من جزيل الثواب وكرم المآب » .

وأنه يقول فى عظمته إن الرسول ﷺ بَلِّغْ الرسالة كما أمره به على خير وجه فحين لأمة الأوامر والنواهي الإلهية وجاهد الكفار ، وزجر عن كل خصال الشر ودواعيه وكان رحمة لأمة وفرض الله عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقمع الظالمين . ويردد الدعوة إلى تقوى الله وطاعته وطلب مرضاته ، مما ينال به التقى المطيع جزيل الثواب وحسن المآب .

وقضى أبو عبيد الله الشيعى داعية المهدي على الدولة الرستمية سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م ولم

(١) الأزمهر الرضاية ٢ / ٢١٤ .

تقم في الجزائر دولة حتى إذا أصبحنا في أواخر القرن الرابع الهجري وتولى حماد بن بلكين شأن المغرب الأوسط عمل على الاستقلال وأسس دولة بنى حماد في قلعة بجاية (٤٠٦-٥٤٧هـ) وظلت يرثها الأبناء عن الآباء نحو قرن ونصف ، وكان آخر حكامها يحيى بن العزيز (٥١٨-٥٤٧هـ) ومنه استولى عبد المؤمن على دولته وبلادها وضمها مع الجزائر وتونس وطرابلس إلى دولته . وكانت هذه الدولة تتخذ دواوين للإشراف على شئون الدولة ، وكان لها ديوان إنشاء بنى فيه بعض الكتاب ، نذكر منهم أبا عبد الله محمدا الكاتب المعروف بلبن دفرير ، ذكره صاحب الخريدة ، وقال عنه : أحد كتاب الدولة الحمادية المتصرفين في الكتابة السلطانية ، وذكر له رسالة كتبها عن سلطانها يحيى بن العزيز الحمادى وقد فر من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن يستنجد فيها ببعض أمراء العرب القريين من دولته ، وفيها يقول^(١) :

« كتبنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسر ، رضا وتسليما للقدر ، وتعوila على جزائه الذى يجزى به من شكر ، ونصلى على النبى محمد خير البشر ، وعلى آله وصحبه ما لا ح نجم بسحر ، وبعد فاته لما أراد الله أن يقع ما وقع ، لقبح آثار من خان فى دولتنا وضع ، استغفر أهل موالانا الشان^(٢) ، وأغزى من اصطنعناه ولقمعنا عليه الكفران^(٣) ، فاتوا من حيث لا يحذرون ، ورموا من حيث لا يصرون ، فكنا فى الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفى من داء بلاء ، ويفر من صل^(٤) حيث إلى حية حساء ، حتى بُيئت مكرهم ، وأعجل عن التلافي أمرهم ، ورد وبال أمرهم إليهم . فعند ذلك اعتزلنا حلة الفتنة ، وملنا إلى مظنة الأمانة ، وبعثنا فى أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة ، ونستغفر من كنا نراه للمهم علة ، ولقم فى هذا الأمر أول من يلهم الخاطر ، وتثنى عليه الخناصر . »

ولبن دفرير فى رسالته لا يهمل الأسجاع لا قليلا ولا كثيرا ، إذ يوفر لها ما يستطيع من السجع وجرس الكلام لا بين عبارة وتاليتها فحسب ، بل بين عبارة وتواليها من العبارات ، حتى يلد الأسجاع حين تصفى إليه والألسنة حين تنطق به ، مع العناية باصطفاء الألفاظ والملاءمة بين الكلمات . وذكر العماد فى الخريدة من كتاب هذه الدولة الحمادية أبا القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بالقالى الذى اتخذ عبد المؤمن سنة ٥٤٧هـ كتابا له ، وظل يكتب له ولابنه يوسف من بعده إلى أن توفى واستنسخه بترجمة ، وكان يخدمه فى عمله الكتلى عند الموحدين بجائى مثله هو ابن محشرة جعفر بن أحمد فلما توفى كتب مكته لسلطان الموحدين يوسف ثم لابنه يعقوب حتى وفاته ، وسنفر له ترجمة ، وكان يعاصرها لبن محرز الوهراتى ، وسنفر

(١) الخريدة للعماد الأصبهاني (نشر الدار التونسية) (٣) الكفران : الجحود وإنكار الموعود

(٤) صل : أنى .

١ / ١٧٩ .

(٢) الشان : الحقد والضغينة .

له أيضا ترجمة . وظل بعض الولاة فى بجاية يهتمون باتخاذ بعض الكتاب المجدين ، ويذكر من بينهم صاحب عنوان الدراية محمد الوغليسى فى القرن السابع ، ويقول : عليه كان المعتمد فى وقته فى المخاطبات السلطانية إنشاء وجوبا^(١) .

وإذا تركنا بجاية إلى تلمسان وجدنا بنى عبد الواد يؤسسون فيها الدولة الزيانية برعاية يُعْمَرُاسَن منذ سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م وتظل تلك الدولة نحو ثلاثة قرون ونصف ، وبمجرد أن أسس يغمراسن ملك أسرته أسس فيها الدواوين واتخذ أدبيا من أبرع الأدباء الأندلسيين كتابا له هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقى من أهل مرسية ، كتب قبله لأمرأه غرناطة ونزل تلمسان فاتخذته كاتباً^(٢) له ، غير أنه توفى سريعا سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م ، ولم يعم المؤرخون بذكر كتبه بعده إلا ما أشار إليه يحيى بن خلدون من أن الشاعر الكبير ابن خميس التلمسانى المترجم له بين شعراء المدح كان يكتب له ، وظل - كما يبدو - يكتب لابنه عثمان الأول (٦٨١ - ٧٠٣ هـ) ونراه يترك تلمسان وعمله الكلى بها فجأة سنة ٧٠٢ ويولى وجهه نحو سبتة ثم الأندلس ويتوفى فجأة . ومن أهم من خلفوه فى عمله الكلى بتلمسان أبو عبد الله محمد بن منصور بن هدية المتوفى بأواسط^(٣) سنة ٧٣٥ . وينزل مصر أديب تلمسانى هو ابن أبى حجلة المتوفى بها سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م وفى كتابنا عن مصر دراسة عنه وتحليل لكتابه « ديوان الصبابة » . ويذكر صاحب بغية الرواد أن أباحو موسى الثانى (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) اختار للكتابة العلامة المميزة لرسائل دولته أبا عبد الله محمد بن^(٤) محمد بن المشوش ، وغالبا كانت تسند إلى صاحبها رياسة الدواوين . ونحن إنما نقف فى كتاب الدولة الزيانية على أسماء ، ولا نقف على كتاباتهم بحيث نستطيع أن نصفها وصفا دقيقا . وإذا كنا لاحظنا على كتاب بجاية فى عصر الدولة الحمادية شيوع السجع فى كتاباتهم فإن ذلك سيستمر عند أبى القاسم القالى والوهراتى وابن عشرة ، وقد لاحظناه عند أبى حمو موسى فى وصيته الطويلة لابنه ، وحتى المؤرخون من أمثال محمد بن عبد الله التنسى فى كتبه تاريخ بنى زيان ويحيى بن خلدون لا يخلون كتبهم التاريخية من السجع أحيانا وخاصة فى تقديمهم للأمرأه الزيانيين فإتهم يعنون فيه بجمال الجرس والملاءمة بين نهايات العبارات بحيث تزدان بالسجع حلية الأدب فى زمنهم .

ونضى إلى العهد العثمانى ، وفيه ضعفت كتابة الرسائل الديوانية بالعربية لأن الدولة الحاكمة كانت تركية وكانت تعتمد على اللغة التركية فى رسائلها ومنشوراتها الديوانية إلا فى عهود باشوات أو ولاة معدودين هم : محمد بكداش ومحمد الكبير والحاج أحمد فى قسنطينة ،

(٣) بغية الرواد ١ / ١١٦ والبستان ص ٢٢٥ .

(١) عنوان الدراية ص ٢٨٢ .

(٤) بغية الرواد ١ / ١٢٣ .

(٢) بغية الرواد ١ / ١٢٩ والإساحة ٢ / ٢٧٥ .

فإنهم اتخذوا لهم كتابا يحذقون العربية . أما من عداهم فظل يتخذ التركية فى المعاملات الرسمية ، ويدون ريب أضعف ذلك من شأن الكتابة الديوانية العربية التى كانت تلتف حولها طبقة من الكتاب المتأخرين المتنافسين ، وكل منهم يحاول الامتياز على زملائه فى براعته الأدبية ، أما فى هذا العهد فلا تنافس ، وحسب الكاتب أن يكتب بلغة مسجوعة لا تخلو من ضعف وركاكة أحيانا . ومن رسالة لكاتب يسمى عمداً القالى قدمها إلى محمد بكداش طالبا منه بعض العون ، وفيها يقول^(١) :

« جَلَّ اللهُ تعالى مالك الملك ومقيم قسطلى العدل بما أرادَه من إعزاز السادات الترك ، جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الحنيف ، وآثرهم بهذا الملك الكبير وهذا العز الشريف ، وشرفهم بما وهبهم من الرتب العالية وهم أصل للرفعة والتشريف ، ونخصهم بمكارم الأخلاق ونزاهة الأقدار ، وجعلهم بهذا القطر رحمة للبلاد ، وأحمد بشوكهم نار الفتنة والعناد ، فسلكت بهم السبل وأمنت بهم البلاد ، لطفاً منه سبحانه بهذه الأقطار ، نسأل الله أن يقي جنباهم السعيد عالياً على كل جناب ، وأن يخلد الملك فيهم على مرور الدهور وانقضاء الأعمار .. وبعد فإن الله تعالى من على المسلمين بسيدنا مولانا سلطان الملوك والأكابر ، المخصوص بأفضل الشرائع والمآثر ، الإمام العادل ، السلطان الفاضل ، العالم العامل ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، الذى أطلعه الله فى سماء الجلالة بدرأ ، ورفع له فى درجات الأمراء قدراً ، وأجرى له على السنة الخلق نساء جميلاً وذكرأ ، فأصبح الدين مبهجاً بكريم دولته ، وجناب الكفر مهتضماً بمظلم حوصلته » .

وواضح ما يجرى فى الرسالة من التكلف الشديد ، فالترك أهل الرتب العالية ولكن الصيغة لا تتم من حيث السجع فيضيف إليها قوله : « وهم أصل للرفعة والتشريف . ويطيل العبارة بعدها حتى يقع على سجمة : « للبلاد » واستعصت عليه سجمة الرأء بعدها فأطال العبارة حتى تمكن من إيرواها بقوله : « الأقطار » . وقد أكثر من القاب محمد بكداش وأوصافه وبالغ ما شاءت له المبالغة مع كثرة الأدعية . وكل ذلك تكلف وتمحل فى الرسالة ، وكلما أصبح من الصعب أن تعود إلى الرسالة الديوانية حيويتها ونضرتها القديمة .

الرسائل الشخصية

يدو أنه لم يكن بالجزائر اهتمام مكر بتسجيل الرسائل الشخصية ، ولولا أن الإباضية

(١) تاريخ الجزائر الثغافى ٢ / ١٩٦ .

اهتموا بتدوين الرسائل الدبلوماسية لحكام الدولة الرسمية لضاعت أو سقطت من يد الزمن وأول رسالة شخصية جزائرية مهمة وصلتنا عن الحقب الأولى رسالة نُمي على ابن الريب الحسن بن محمد التميمي التاهرتي الذي ترجم له ابن رشيقي في كتابه : « الأنموذج » وقال إنه تولى القضاء طويلا في بلدته تاهرت وأنه توفي سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٣٠ م ولم يذكر الرسالة ولا أشار إليها ، وإنما ذكرها ابن بسلام في كتابه الذخيرة ، إذ قال في ترجمة نُمي المغيرة عبد الوهاب بن حزم : كتب إليه أبو علي بن الريب رقعة يقول فيها^(١) :

« إِنِّي فَكَّرْتُ فِي بِلَدِكُمْ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ ، إِذْ كَانَ قَرَارَةٌ كُلِّ فَضْلٍ ، وَمَقْصِدُ كُلِّ طَرَفَةٍ ، وَمُورِدُ كُلِّ نَحْفَةٍ ، إِنْ بَارَتْ تِجَارَةٌ أَوْ صَنَاعَةٌ فَإِلَيْكُمْ تُجَلَّبُ ، وَإِنْ كَسَدَتْ بَضَاعَةٌ فَعِنْدَكُمْ تَنْفَقُ^(٢) » ، مع كثرة علمائه ، ووفور أدبائه ، وجلالة ملوكه ، ومحبتهم للعلم وأهله ، وزمهم مَنْ رَفَعَهُ أَدَبُهُ ، وكذلك سِيرَتُهُمْ فِي رِجَالِ الْحَرْبِ ، يَقْدُمُونَ مَنْ قَدَّمَتْهُ شَجَاعَتُهُ ، وَعَظُمَتْ فِي الْحُرُوبِ نِكَائَتُهُ ، فَشَجَّعَ عِنْدَكُمْ بِذَلِكَ الْجَبَانَ ، وَأَقْدَمَ الْهَيَّيَانَ^(٣) ، وَبَنَى الْخَامِلَ ، وَعَلَّمَ الْجَاهِلَ ، وَنَطَقَ الْغَيِّيَّ ، وَشَعَرَ الْبَكِّيَّ .. وَتَنَافَسَ النَّاسُ فِي الْعُلُومِ ، ثُمَّ هُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ التَّقْصِيرِ ، وَنَهَايَةِ التَّضَرُّعِ مِنْ أَجْلِ أَنْ عُلَمَاءُ الْأُمُصَارِ دُونُوا فَضَائِلَ أَعْيَانِهِمْ ، وَقَلَّدُوا الْكُتُبَ مَآثِرَ أَقْطَارِهِمْ وَأَخْبَارَ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ ، وَالْكِتَابَ وَالْوُزَرَ ، وَالْقَضَا وَالْعُلَمَاءَ ، فَأَبْقُوا لَهُمْ ذِكْرًا فِي الْغَابِرِينَ ، وَ (لِسَانًا^(٤) صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) . وَعِلْمَاؤُكُمْ مَعَ اسْتَظْهَارِهِمْ عَلَى الْعُلُومِ ، كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ قَائِمٌ فِي ظِلِّهِ لَا يَبْرَحُ ، وَثَابَتْ عَلَى كَعْبِهِ لَا يَتَزَحَّزَحُ ، يَخَافُ إِنْ صُنِفَ ، أَنْ يَنْفُتَ ، أَوْ (تَخْطِفَهُ^(٥) الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) لَمْ يَنْبَغِ أَحَدٌ مِنْهُمْ نَفْسًا فِي [جَمْعٍ] مَفَاخِرِ [أَهْلِ] بِلَدِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمِلْ نَفْسًا (مَدَادًا) فِي فَضَائِلِ مُلُوكِهِ ، وَلَا يَلُّ قَلَمًا بِمَنَاقِبِ كِتَابِهِ وَوُزَرَائِهِ ، وَلَا سَوْدٌ قَرَطَانًا بِمَحَاسِنِ قَضَائِهِ وَعِلْمَائِهِ . عَلَى أَنَّهُ لَوْ أُطْلِقَ مَا عَقِلَ الْإِغْفَالُ مِنْ لِسَانِهِ ، وَسَطَّ مَا قَبِضَ الْإِهْمَالُ مِنْ يَدِيهِ ، لَوَجَدَ لِلْقَوْلِ مَسَاغًا ، وَلَمْ تَصِفْ عَلَيْهِ الْمَسَالِكُ هُنَاكَ .

ولكن هُمُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَطْلُبَ شَأْرًا^(٦) مِنْ تَقْدِيمِهِ مِنْ رُؤَسَاءِ الْعُلَمَاءِ ، لِيَحْزَوْا قَصَبَ السَّيْقِ ، وَيَفْزَوْا بِقِدْحٍ^(٧) ابْنِ مَقْبِلٍ ، وَيَأْخُذَ بِكَظْمٍ^(٨) دَغْفَلٍ ، وَيَصِيرَ شَجْوِي فِي خَلْقٍ

(١) الذخيرة ١٣٣/١ .

(٦) شَأْرٌ : غَايَةٌ .

(٢) تَنْفَقُ : تَرُوحُ .

(٧) ابْنُ مَقْبِلٍ شَاعِرٌ جَمَلْتُ بِقَدْحِهِ فِي الْفُوزِ وَالظَّفَرِ .

(٣) الْهَيَّيَانُ : الْخَالِبُ الْخَائِفُ .

(٨) دَغْفَلٌ : نَسَبَةٌ كَبِيرَةٌ عِنْدَ الْعَرَبِ ، يَأْخُذُ بِكَظْمِهِ :

(٤) اتَّخَذَ مِنْ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ .

يَمِثِّلُهُ فِي عِلْمِ النَّسَبِ ، وَأَمْسَلُ الْكَلِمَةِ : يَأْخُذُ بِكَظْمِهِ

(٥) اتَّخَذَ مِنْ سُورَةِ الْحَجِّ .

الْإِسْلَامَ عَلَى مَا عِنْدَ الْمَرْءِ مِنَ الْعِلْمِ وَغَيْرِهِ .

أُمِّي الْعَمِيلُ^(١) ، فإذا أدرك بغيته ، واخترته - بعد - منيته ، دُفِنَ علمه معه ، ومات ذكره ، وانقطع خبره . وَمَنْ قَدَّمْنَا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم ، فألقوا دواوين يبقى لهم بها ذكر يتجدد طول الأبد . فإن قلت إنه كان مثل ذلك من علمائكم ، وألقوا كتباً لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم إلا روحاً راكب ، أو رحلة قارب ، لو نفث^(٢) يلدكم مصدور ، لأسمع بيلدنا مَنْ في القبور ، فضلاً عَنْ مَنْ في الدور والقصور ، وتلقوا قوله بالقبول ، كما تلقوا ديوان ابن عبد ربه منكم الذي سماه بالعقد^(٣) . على أنه يلحقه فيه بعض اللُّوم ، إذ لم يجعل فضائل بلدته واسطة^(٤) عقده ، ومناقب ملوكه بتيمة سلكه ، لكنه أكثر وطولاً ، وأخطأ المِفْصَلَ^(٥) ، وأطال المَرْبِيفَ غير مِفْصَلَ^(٦) ، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيه ، وإغفال ما يهمهم . فأزِيدُ أُنْحَاكَ - أُرشدك الله - إن كان عندك في ذلك الجلبية ، ويبدك فَصْلُ القضية ، إن شاء الله .

وقد ذكرت الرسالة بتمامها لأدل على ما أصابه نثر الرسائل الشخصية من إحكام في الصياغة ، حتى ليقترب أسلوب الرسالة من أسلوب الجاحظ وما اشتهر به من المزاجية وكثرة الترادف ، فالعبارات تتقابل دون أن تتحد نهاياتها بأسجاع متعاقبة ، وإن حدثت سجمة عفواً سرعان ما يعدل ابن الريب عن مثيلة لما إلى التعادل والترادف في العبارات . ونشعر بجنب ذلك أن الصياغة محكمة ، فالألفاظ جزلة مصقولة ، أحكم ترتيبها كما أحكم وضع الاقتباسين القرائين فيها ، مع الإطراف في الكنايات والاستعارات ، كعبيره في تكاسل الأندلسيين عن الكتابة عن أعلام بلدهم ، إذ يقول : « كل امرئ منهم قائم في ظله لا يرح ، وثابت على كعبه لا يتزحزح » ويقول عن أهل الكتابة عن الكتاب والوزراء : « إنه لم يَلْ قُلماً بمنابيحهم » يقصد أنه لم يغمس قلمه في مداد للكتابة عنهم . ويترك الكناية إلى الاستعارة قائلاً : « على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه » . ويستغل ثقافته في التعبير عن الغور والظفر ، إذ يقول : وليستغل قَصَبُ السَّقِّ ، ويفوز بقدح لمن مقبل الذي تغنى في شعره بفوزه ، وبأخذ بكظم دَغْلٍ كُنْما يساويه في قدرته المشهورة بعلم الأنساب ، ويصبح شَجَى وَغَصَّةً في حلق أُمِّي الْعَمِيلِ على نحو ما أصابه أبو تمام بغصة مريوة حين ردَّ عليه ردّاً مفحماً . وتلطف ابن الريب لمخاطبه أُمِّي الميرة بن حزم الأندلسي حين قال له :

(١) أُمِّي الْعَمِيلُ هو الذي ترضى لأبي تمام يقول له

(٢) نفث : نفخ .
(٣) هو كتاب العقد الفريد المشهور .

(٤) واسطة العقد : الجوهرة الكبيرة في وسط العقد .

(٥) للفصل : كل مفتاح عظيم في الجسد وضرب

التعبير مثلا للخطأ الجسم .

(٦) للفصل من السور : القاطع .

« لو نفت بيلدكم مصدور (مريض بصدرة) لأسمع بيلدنا من فى القبور فضلا عن فى الدور والقصور » . ثم أورد عليه إشكالا ربما كان هو السبب المهم فى الرسالة ، ذلك أن ابن عبد ربه الأندلسى ألف كتابا أدبيا فى مجلدات سماه العقد الفريد ، وهو مطبوع بمصر مرارا فى أربع مجلدات كبار ، وفيه يعرض الثقافة الأديبة فى المشرق ، ولم يمن فيه بالحدث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله ببعض شعرهم وذكره للشاعر الأندلسى يحيى الغزال ، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من أخبار وشعر ونثر مما جعله الصاحب بن عباد حين اطلع عليه يقول : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . وابن الريب عرق فى اعتراضه على كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، لأنه لم يعرض فضائل بلده وما أنتج من نثر وكتاب وشعر وشعراء ، غير أن ابن عبد ربه قصد بكتابه العقد إلى ذلك وأن يعرض على مواطنيه الأدب المشرقى . على أن ابن الريب بالغ ، فإن وراء ابن عبد ربه كثيرين من الأندلسيين عتوا يعرض أخبار ولانهم وحكامهم ، نذكر منهم عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ وفى كتبه تحدث عن تاريخ الأندلس حتى أيام معاصره : عبد الرحمن الأوسط ، ولأحمد بن محمد الرلزي المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة كتاب أخبار ملوك الأندلس ، وابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧ كتاب تاريخ اختاح الأندلس يتحدث فيه من الفتح حتى نهاية أيام الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ وفى أخبار الفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف تلقانا كتب مثل كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى المتوفى سنة ٣٦١ ومن كتب الأطباء والصيدالة طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل المتوفى سنة ٣٧٧ ومن كتب اللغويين كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ ومن كتب العلماء الأندلسيين عامة تاريخ علماء الأندلس لابن القرضى المتوفى سنة ٤٠٣ . فالأندلسيون لم يقصروا فى حق ملوكهم وعلمائهم كما تبادر إلى ظن ابن الريب ، وسيكترون بعد زمن ابن الريب من كتبه المجلدات الضخام فيهم وفى الشعراء كما نعرف مثلا عن المقتبس لأبى حيان والذخيرة لابن بسام .

ولا تسجل كتب التراجم والأدب فى الحقب التالية رسائل شخصية جزائرية أدبية طريفة من طراز رسالة ابن الريب ، بل تظل مغفلة هذا النوع من الرسائل ، ومن المؤكد أنها أخذت تزدان بالجمع منذ ازدادت به الرسائل الديوانية الحمادية ، وكان مما عمل على ذلك أن الأندلس أخذت تلقى بطائفة من صفوة كتبتها منذ القرن السابع الهجرى إلى بداية وشقيقتها من مدن الجزائر ، وكان لبجاية منهم الحظ الأوفر ، فقد نزلها واستوطنها - على الأقل فترة طويلة - غير كاتب منهم ، وقد عرضنا فى غير هذا الموضع لمن نزلها واستوطنها وكيف كان لهم تأثير كبير فى أهلها وفى شيوع الشعر الصوفى بينهم واستقرار كثير منه فى صدورهم وأخذتهم . ونلاحظ نفس الملاحظة على من نزلها من كبار الكتاب الأندلسيين واستوطنها إلى آخر حياته أو أقام فيها شطرا كبيرا من حياته ثم رحل عنها إلى تونس ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان

الدراية للغيربى الذى ترجم فيه للعلماء والأدباء بيجاية فى القرن السابع وشطر من القرن السادس يحس أن تراجم الكتاب مقسومة بين تراجم بجائية وتراجم أندلسية . وكان البجائيون أخذوا يتأقنون فى كتابتهم الأدبية ولدمج ذوقهم فى الذوق الأندلسى الأتيق وأصبحت بإزاء كتابة ثيقة عامة فى الرسائل الشخصية والديونية ، وحتى فى كتب التراجم كما نجد فى صدر كثير من تراجم الغيربى فى كتابه عنوان الدراية ، وفى التعريف بملوك الدولة الزيانية عند يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التتسى .

فإذا قلنا إن الرسائل الشخصية أخذت تطبع فى الجزائر - منذ القرن السادس الهجرى - بطوابع السجع ، بل لقد كانت تضيف إلى ذلك حلى من المحسنات البديعية لم تكن مبالغين . ونمضى إلى العهد العثماني ونظّل للرسائل الشخصية هذه السمات مع ما يداخلها من التكلف ، وكان أحمد المقرئ صاحب نفح الطيب راسل عبد الكريم الفكون شيخ الإسلام بقسنطينة ، وظل حكام الجزائر العثمانيون يعينونه أميراً للحج عن بلده والجزائر عامة ، وكان المقرئ أرسل إليه بمنظومة فى علم الكلام يمتنى أن يتلطف بصنع شرح لها ، فردّ عليه برسالة أثبتتها المقرئ فى نفح الطيب قتالا فى ديباجتها إنها كتاب وافاه من عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها وقبيلها ، سلالة العلماء والأكابر ، وارث المجد كائرا عن كابر ، المؤلف العلامة الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله . وبعد البسملة والصلاة على الرسول الكريم يقول الفكون^(١) :

« بئى أحمد الله إليك وأصلى على نبيه سيدنا محمد ، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم ، فبئى أحوج الناس إليه ، وأشدّهم فى ظنى إلحاحا عليه ، لما تحفقت من أحوال نفسى الأثارة ، واستبطلت من دخيلاتها المثيرة على حب الدنيا الفرارة ، كأنما عمت عن الأهوال التى أشابت رءوس الأطفال ، وقطعت أعناق كُمل الرجال ، فتراها فى لُجج هواها خائضة ، وفى ميدان شهواتها راکضة ، طفت فى غيها وما لانت ، وجمحت فما افقادت ولا استقامت ... والله أسأل حُسن الألفاف ، والسُر عما ارتكبناه من التعدى والإسراف ، وأن يجعلنا من أهل الحيمى العظيم ، وعمن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم : سنلنا سيدنا ومولانا وشفيصنا النبى الرؤوف الرحيم .. وقد اتصل يدي جوابكم ، أطال الله فى العلم بقاءكم ، فرأيت من عذوبة ألقاظكم وبلاغة خطابكم ، ما يذهل من العلماء فحولها ، وينيلها لدى الجنّ^(٢) لسماعه سؤلها ومأمولها .. وقد ذلّتموه بليّات فما أقل من أن أوصف بمثلها ، على ثنى غير قائم بفرضها ونفلها ، فالله تعالى يمدكم بمعونه ، ويجعلكم من أهل مناجاته بمحضته .. وظننا لكم أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعنى : « إضاعة الدجّة » تقييدا

(١) نفح الطيب ٢٢٨/٣ وبظفر تعريف الخلف (٢) البحر : الجلوس على الركبتين .

أرجو من الله فيه توفيقاً وتسديداً بحسب قدرى لا على قدركم ، وعلى مثل فكرى القاصر لا على عظيم فكركم .. »

ويختم الرسالة بالصلاة على سيد الخلق ويذكر أنها كتبت فى سابع أو ثامن رجب من عام ١٠٣٨ للهجرة . ووضح ما يجرى فى الرسالة من سجع متكلف وأنها تقوم على المبالغة المسرفة حتى لينسب الشيخ إلى نفسه الإسراف فى الشهوات والآثام ، لا لأن ذلك حقيقة ولكن لأنه يريد صنع سجمات ، ويقول إن نفسه عمت عن الأحوال التى أشابت رهوس الأطفال وقطعت أعناق كُمل الرجال ، والمبالغات فى الرسالة أكثر من أن نحصيها أو نقف عندها ، وقد اجتلبت من أجل السجمات ورصفها .

ودائما نلتقى فى رسائل العهد العثملى بمثل هذه المبالغات حتى فى رسائل التعزية ، على نحو ما نجد فى تعزية للمفتى محمد بن حسين عزى بها عبد الرزاق بن حمادوش فى ابن له توفاه الله ، فكتب إليه^(١) :

« بلنا ما أحرار الأذهان وأشجاءها^(٢) ، وأطار النوم من الأجناف ولبلأها ، وأضرمت لواعج الأشواق ، وأذكى^(٣) زواجع الاحراق ، بالذى صدع أعشار^(٤) القلوب ، وأفاض على صحن الخد الدموع من الغروب^(٥) .. حتى أدركنى عمتك وموت ولدك فأخذتنى الصدمة ، وهيجت لى المحنة ، فلقد رمنا الدهر بسهام صروفه فأصمنا^(٦) ، وتمهدنا خطبه فهد عروشا وأركنا .

والرسالة مبنية على المبالغة الشديدة فقد بلغه ما أشجاء وأغصه ، وأطار النوم من جفونه وجعلها بالية خلقة ، وهى مبالغة شديدة أتيها بلواعج الأشواق ، ومكاتها فى التعزية قلق وأشد منها قلقا السجعة التالية لها . وقد بلغه ما صدع وشقق قطع قلبه . والمجىء بصحن الخد شديد التكلف . ويبدو أنه كان فقد عزيزاً قبل ذلك فتكسر النصل على النصل فى فواده ، وأصابته سهام الدهر فى الصميم كما أصابت ابن حمادوش ، وقد بالغ مبالغات شتى فى تصوير حزنه . ولعله حشدها من أجل السجع .

٤

المقامات

يدو أن الجزائر - مثل بقية البلدان العربية - عرفت المقامات مبكرة ، إذ كتبت فنا جديدا أعجب به أدياء العرب فى كل مكان وأخذوا يتدارسونه ، ونلتقى فى القرن السادس الهجرى

(١) أنشار : قطع .

(٢) الغروب : المتى .

(٣) فأصمنا : أصابنا فى الصميم .

(١) تلرخ الجزائر الثنائى ٢/ ٢٠٥ .

(٢) أنجلنا : أصعبنا .

(٣) أذكى : أوقد .

بجزائري يكتب في هذا الفن هو الوهراني المتوفى سنة ٥٧٥ هـ وسنفر له ترجمة ، ويذكر الغبريني في كتابه عنوان الدراية طائفة من الأساتذة كانوا يدرسون مقامات الحريري للطلاب طوال القرن السابع الهجري مثل عبد الله بن نعيم الحضرمي ويوسف بن يخلف ومحمد بن الحسن بن ميمون القلعي ، غير أن أدباء الجزائر قبل العهد العثماني لم يحاولوا محاكاة الوهراني في مقاماته ولا محاكاة كتابها الأصليين من أمثال بديع الزمان الهمداني والحريري . أما في عهد العثمانيين فنجد غير أديب يحاول كتابتها على نحو ما نجد عند أحمد البوني ، إذ كتب سنة ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤ م مقامة^(١) في أربع صفحات بعنوان : «إعلام الأخيار بغرائب الوقائع والأخبار» وهي في بيان علاقة العلماء بالسلطة والشكوى من وشايات أهل العصر ، ويستهلها بقوله :

« الحمد لله الذي جعل المصائب وسائل لمغفرة الذنوب ، والتواب فضائل لذوى الأقدار والخطوب ، وسلط - سبحانه وتعالى - على الأشراف أرباب الزور والفجور والإسراف ... وبعد أيها العلماء والفضلاء النبلاء الكملاء فرغوا أذهانكم وألقوا آذانكم ، وتأملوا ما يلقي إليكم من الخبر الغريب ، وما يرسله الله تعالى على كل عاقل أريب ، فقد ارتفعت الأشرار ، وانضمت أرباب المعارف والأسرار ، وانقلبت الأعيان ، وفشا في الناس الزور والبهتان ، وأملت أحكام الشريعة ، وتصدّى لها كل ذى نفس للشر سريعة . بينما نحن في عيش ظله وريف ، وفي أنها لذة بقراءة العلم الشريف ، إذ سمى في تشبث أحوالنا وقلوبنا ، وهتك أستارنا وعيوبنا ، من لا يخاف الله ولا يتقيه ، فرمى كل صالح وفقه ، بما هو لافيه ، واعتدّ في ذلك بقوم يظنون أنهم أفاضل ، وهم - والله - أوباش أراذل . وما كفاه بث ذلك في كل ميدان .. حتى أوصله لمسامع السلطان ، فلم نشر إلا ومكاتبات واردة علينا من جانب الأمير ، بعزل صديقنا الشهير .. من خطة الفتوى ، مع أنه ذو علم وتقوى ، ونحمرنا من ذلك أشد التحير ، وتغيرنا بسببه أعظم التغير » .

ومن التجوز تسمية ذلك مقامة إذ لا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية وأفاقيص الأدباء السيارين الذين يجولون في البلاد متفاصحين بأدبهم ، مختالين على الناس حيلة شتى في أخذ دراهمهم ودنايتهم ، على نحو ما نعرف عند بديع الزمان والحريري ، إنما ذلك أشبه برسالة تتناول موضوعا هو وشاية الناس الثمانين لذوى السلطان للوقفة بينهم وبين بعض العلماء ، ولا مقامة ، ولا ما يشبه المقامة .

وبعد نحو عشر سنوات أو تزيد قليلا ألف محمد بن ميمون ترجمة لوالى الجزائر محمد بكداش سماها التحفة المرضية فى الدولة البكداشية فى بلاد الجزائر المحمية » ، وجعلها فى ستة

(١) انظر فى هذه المقامة تاريخ الجزائر المتأنى ٢١٨/٢ .

عشر فصلا ، وسمى كل فصل مقامة تحكى جلجا من سيرة الوالى العثمانى محمد بكداش (١١١٧-١١٢١ هـ) والمقامة الأولى أو الفصل الأول فى نبذة من أخلاق محمد بكداش ، ثم تتوالى المقامات أو الفصول عن أعماله . والصلة الوحيدة بين الفصول وبين المقامة هو تسمية فصولها مقامات ، أما بعد ذلك فهى ترجمة متكاملة لسيرة وال عثمانى وكل ما يمكن أن يكون بينها وبين المقامة من شبه هو كتابتها سجعاً ، وقد بدأ كعب العنقى التوفى سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م سيرة محمود الغزنوى سجعاً فى كتابه عنه الذى سماه اليبينى نسبة إلى لقب محمود الذى لقبه به الخليفة العباسى : يمين الدولة ، ونسج على منواله العماد الأصبهائى فى كتابه : « الفتح القسسى فى الفتح القدس » وفيه يصف بإسهاب فتح صلاح الدين لبيت المقدس سجعاً . ولم يقتبس محمد بن ميمون فى كتابه من أسلوب المقامات السجع وحده ، فقد اقتبس أيضاً ألفاظاً لغوية وأنواعاً بدعية كما قال فى مقدمته .

ويقدم ابن حادوش الجزائرى التوفى بأخرة من القرن الثانى عشر الهجرى ثلاث مقامات فى رحلته المنشورة بالجزائر بتحقيق د . أبى القاسم سعد الله ، وأولها تصف الطريق من تطوان إلى مكناس وما رآه فيها من غرائب ، يقول (١) :

« ومن غريب ما رأيت فى مرج طويل أنى رأيت غُرْبَيْن ، كل واحدة فى أنحوصها (٢) فوق الماء ، تحضن بيضها ، وشهد أهل الحى كبيرهم وصغيرهم أن الغر وأبنا غطاس وطيوراً أخرى لا تلد إلا فوق الماء فى الموضع الذى يكون عليه كقطعة حصير من الكتلا (٣) ، ينون به أنحوصهم ويبيضون ويفرخون ، ولا يمس بيضهم الماء ، وإن مسه الماء فسد ، وهو يتنى بناء صحيحاً جداً . وأتونا ببيض الغر ، معظمه كبيض الدجاج ، ولونه كلون بيض الحجل (٤) ، إلا أنه أشد يابضاً من بيض الحجل ، وفيه نقط سود . والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء .. ومن غرائب ما رأيت أن فى هذا المرج قوارب يصطادون بها السمك والطير ويضه ، ويعتدون (يجتازون) عليها من ناحية إلى أخرى ، ويحملون عليها أحمال الزرع وغيره ، وهى من حزم البردى (٥) ، يعقدون حزمة بحال الدوم الرقاق ويجعلونها وسطى ، ويعقدون حزمتين ، يجعلون من كل ناحية واحدة عالية يميناً وشمالاً ، ووسطها منخفض ، ويجمعون بينها بالربط من مقدمها ، ويشدون الكل بالربط بينها . ويركب فيها ، ويمسك الراكب فى يده عوداً طويلاً يكذ (٦) به ولا يقذف » .

(١) رحلة ابن حادوش الجزائرى (طبع المكتبة الوطنية .

بـالجزائر) ص ٧٣ .

(٢) أنحوص الطائر : مكان يبيضه ورقاده عليه - والغر

نفس الطائر المعروف فى مصر .

(٣) الكتلا : العشب .

(٤) الحجل : طير فى حجم الحمام .

(٥) قوارب النيل والبحيرات فى الدلتا كتت تصنع أيضاً من البردى أيام الفراعة .

(٦) يكذ بالعود : يدفع القارب بعود فى يده وعلى صدره كما فى مصر حين يقترب من البر .

ولبن حمادوش يقول إن أغرب ما رآه في طريقه من تطوان إلى مكناسة طائرات من الفر في بركة بأحد المروج ، والفر معروف في مصر بنفس الاسم ويُرى كثيرا شتاء في الإسكندرية ودمياط وبورسعيد أو بعبارة أدق في البرك والبحيرات هناك . ويذكر للناس هناك قصة عنه : أنه يبنى أفحوصه أو مرقده للبيض على قطعة من حصير الكلأ ، ولهُ ما يزال يتعهد بيضه حتى لا يفسد الماء فيفسد ، وحتى يفرخ ، ويصف بيضه وصفا دقيقا ، ثم يذكر ما رآه في نفس المروج وبركه من قوارب صيد السمك والطيور وبيضه ، وكيف أنها كانت تصنع من نبات البردى ، وتُصنم حزمه بعضها إلى بعض بحبال الدوم الرقاق ، وهي بذلك تشبه أدق الشبه قوارب الصيد أيام الفراغة ، وتطورت هذه القوارب عند المصريين حتى أصبحت سفنا كبيرة تجرى في المياه بمجاديف متعددة ، ولم تكن أعواد القوارب التي رآها ابن حمادوش تقذف بعياء أى أنها لم تكن مجاديف ، إنما كانت ما يسمى في مصر عند صياديها وملاحيها باسم يذرى . وهي عود طويلة من خشب يدفع به النوى القارب ، ممسكا به بيديه ودافعا له بصدرة بمتهى ما يملك من قوة ، ليندفع القارب كما يريد . وليس في المقامة كذبة ولا شحاذة أدبية بل هي وصف لطريق ومشاهده وصفا أدبيا . ولا يلبث ابن حمادوش أن يورد في رحلته مقامة ثانية باسم المقامة المركلية ، ويستهلها قائلا^(١) :

« الحمد لله حدا بي حادى الرحلة إلى أن دخلت في بعض أسفارى حركة^(٢) ، فنزلت بها في خان^(٣) كُتبه من آيات التيران ، أو كتائب الرهبان ، بل لا شك أنه من آيات المصيان ، فلذلك لا يُسرُّ به الناظر ، ولا ينشرح له الخاطر ، فاختصت منه بحجرة ، أو نقرة في حجرة ، وكُنّى وقعت من السماء في حفرة ، لو تبعت أفعلونا فدخلت جُحره ، فغلقت بلى ، لأحفظ حياتى وأزمن جنائى ، من شدة أتعلّى .. حتى مدّ الليل جناحه ، ولوقد في السماء مصباحه ، وهذأت الأصوات ، وصرنا كالأموات ، وتوغلت في حبالل النوم ، ولم أدر ما هنالك من القوم ، ولم توقظنى إلا جلبة الأصوات ... وشددت الرحال ، وتهيأت للترحال » .

والمقامة ليس فيها إلا هذا الوصف للخان ، فهي أضعف من صاحبها أدبيا أو من حيث المشاهد الأدبية ، وسمى البلد حركة ولمله يريد هرجلة لما سمع في الفندق من هرج وصياح وجلية هنا وهناك ، مما جعله يشد الرحال ويعزم على الترحال . ويورد في رحلته مقامة ثالثة لكن لا في وصف بعض المشاهد أو المدن أو الفنادق ، وإنما في وصف زوجته التي كانت تمتلئ عليه سخطا كما يقول في رحلته حين تجده يخسر أمواله في التجارة ، وكذلك حين

(٣) خان : فندق .

(١) رحلة ابن حمادوش الجزائى ص ٧٨ .

(٢) حركة : بلدة .

تجد علمه لا يروج ولا يردّ عليه ما يخسره ، مما كان يجعلها تمسّد إلى مغاضبته ، وفيها يقول في مقامه الثالثة التي سماها المقامة الحالية واصفا لها^(١) :

« قُرِنْتُ بِجَارَةٍ غِرَّةٍ^(٢) ، عِشْتَهَا مَرَّةً ، آمَالًا ظَنُّونَ وَرَغْبَتَهَا فِيمَا لَا يَكُونُ ، الدَّهْرُ كُلُّهُ سَاخِطَةٌ ، وَمَطَالِبُهَا شَائِطَةٌ^(٣) ، تَخْزِيكَ أَوْ تَحْجُجَكَ أَوْ تَحْزِنَكَ ، لَا تَطْلُبُ إِلَّا الْعَنْقَاءَ^(٤) ، وَلَا تَرْغَبُ إِلَّا فِي الرُّخِّ^(٥) ، وَلَا تَتَعَذَّى إِلَّا بِيَضِّ^(٦) الْأَنْوَقِ ، وَلَا تَجْنِي إِلَّا ثَمَرَةَ الْخِلَافِ ، وَلَا تَرْكُنْ إِلَّا لَدَمِ الْإِسْعَافِ .. غَذَّتْهَا أُمُّهَا لَبِنَ الْقُرُودِ ، فَشَبَّتْ لَا تَأْلَفُ الْمَقْصُودَ .. يَدُهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ ، وَتُصْنِي السَّامِعِينَ ، يَصُبُّ إِلَيْهَا الْحَلِيمُ ، وَيَرْوِي إِلَيْهَا الْكَرِيمُ .. أَشْبَهَتْ فِي الْقَدِّ النَّصْنَ الْقَوِيمَ ، وَالسَّمْهَرَى^(٧) الْمُسْتَقِيمَ ، وَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهَا قَوْلُ الشَّاعِرِ :

أَسِيلَاتُ لُبْدَانٍ رَقَاقٌ خُصُورُهَا وَثِرَاتُ مَا التَّائَتْ عَلَيْهِ الْمَآزِرُ^(٨)

كُنْهَا دُرَّةٌ مَصُونَةٌ ، أَوْ جَوْهَرَةٌ مَكُونَةٌ .. فَلِذَا اخْتَرْتَهَا أَمَّا لِلْأَوْلَادِ ، وَمَنْفَقَةٌ^(٩) لَطَارِفِي وَتَلَادِي عِلْمًا مَنِ أَنْ الدُّنْيَا دَارُ كَدَرٍ ، وَقَلِيلٌ فِيهَا مَا يَسِرُّ ، نَظَرًا لِقَوْلِ الْمَصَادِقِ الصَّدُوقِ : « اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْآخِرَةِ » .

وهو قضاؤه وقضاء كثيرين مثل لبين حمادوش يسيئون اختيار زوجاتهم ، لما قد يُصْنِبُهُمْ فِيهِنَّ مِنْ حَسَنِ وَجَمَالٍ كَمَا أَصَابَ لَبِينَ حَمَادُوشَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهَنَّاكَ زَوَاجَاتٍ كَثِيرَاتٍ جَمِيلَاتٍ خَلَقَةً وَخُلُقًا لِأَنَّهُنَّ مِنْ أَصْلِ كَرِيمٍ . وَقَدْ صَوَّرَ لَبِينَ حَمَادُوشَ زَوْجَتَهُ غِرَّةً يَسْهَلُ انْخِدَاعُهَا ، بَلْ جَمَعَتْ السُّوءَ كُلَّهُ إِذْ عِشْتَهَا مَرَّةً ، وَدَائِمًا غَاضِبَةٌ سَاخِطَةٌ تَطْلُبُ مَا لَا يَنْتَاقِي وَلَا يَكُونُ ، وَلَا تَتْرَكَ وَسِيلَةً لِحَزْزِي زَوْجِهَا وَإِحْرَاجِهِ إِلَّا تَقْتَرِفُهَا ، وَدَائِمًا تَطْلُبُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ مِنْ مِثْلِ طَيْرِ الْعَنْقَاءِ وَالرَّخِّ الْأَسْطُورِيِّينَ وَيُضِضُ النُّوقَ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَوْجِدَ . وَدَلَّيْنَاهَا دَائِمًا الْخِلَافَ بَلْ لَكُنَّامَا تَجِدُ فِيهِ لَذَّتَهَا فَهِيَ تَجْنِبُهُ وَتَقْطَعُهُ مِنْ كُلِّ وَادٍ وَمِنْ كُلِّ طَرِيقٍ ، وَلَكُنَّامَا غَذَّتْهَا أُمُّهَا بَلْبِنَ الْقُرُودِ فَهِيَ مَا تَنْتِي تَقْفُزُ مِنْ خِلَافٍ إِلَى خِلَافٍ وَمِنْ نَكْدٍ وَغَمٍّ إِلَى نَكْدٍ وَغَمٍّ . وَقَدْ يَكُونُ لَبِينَ حَمَادُوشَ أَرَادَ أَنْ أَنْ يَدَاعِبَ زَوْجَتَهُ ، فَجَرَّتْهُ الْمَدَاعِبَةُ إِلَى هَذِهِ الْمَيَالِغَاتِ الَّتِي اسْتَحْدَمَ فِيهَا مَحْفُوظَاتِهِ مِنْ مِثْلِ الْعَنْقَاءِ وَطَائِرِ الرِّخِّ وَيَضِضُ الْأَنْوَقَ وَثَمَرَ الْخِلَافِ أَوْ شَجَرَهُ . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ عَادَ يَصْنَعُهَا بِصِفَاتٍ جَمَالٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَيَجْعَلُهَا دُرَّةً مَصُونَةً أَوْ جَوْهَرَةً مَكُونَةً . وَوَاضِحٌ

(١) رحلة لبين حمادوش ص ١٦٤ .

(٢) غِرَّة : يسهل أن تخدع .

(٣) شائطة : متجاوزة الحد .

(٤) العنقاء : طائر عراني لا وجود له .

(٥) الرخ : طائر عراني .

(٦) البيض : البيض .

(٧) السمهري : ناقصة .

(٨) أسيلات : ناصات . وثيرات : ثيابات . فلتات : ثيابات .

أن هذه المقامة الثالثة تبعد بدورها عن فن المقامة كما رسمه بديع الزمان والحريري ، وكان حربا بلبن حمادوش أن لا يسمى تلك الأعمال الثلاثة مقامات . وكان الجزائر لم تعرف فن المقامة برسومه وتقاليده وخصائصه ، ولذلك يكون من الصعب أن يقال إنها شاركت فيه ، لأن أديبا سمى عملا له مقامة أو سماء له آخرون ، بينما هو لا يمت إلى فن المقامة بصلة حقيقية .

٥

كبار الكتاب

أبو القاسم عبد^(١) الرحمن القالمى

أغفلت كتب التراجم الحديث المفصل عن سيرة هذا الكاتب الفذ الذى تنبأ إليه عبد المؤمن سلطان دولة الموحدين حين استولى على بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وقضى فيها على الدولة الحمادية ، فألحقه بكتابه كما يقول عبد الواحد المراكشى ، ويذكر أنه من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكان من كتاب الدولة الحمادية وربما قرأ له عبد المؤمن رسالة عن يحيى بن العزيز آخر ولاية هذه الدولة إليه فأعجب بكتابته ، وكان قد استسلم له يحيى وصحبه معه إلى مراكش ، فربما هو الذى أشار عليه به . على كل حال صحبه معه عبد المؤمن - كما صحب يحيى - إلى مراكش ، وألحقه بكتاب الإنشاء فى ديوانه ، وكان يكتب معه فيه أبو جعفر أحمد بن عطية وأخوه أبو عقيل وعبد الملك بن عياش ، ولما توفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م وخلفه ابنه يوسف ظل يكتب له مع عبد الملك بن عياش ، ويبدو أنه لم يعمر طويلا فى عهده ، وأنه ظل فيه سنوات معدودة ، إذ لم تؤثر له رسالة عنه دُوِّنت فى مجموع رسائل موحدية المنشور بالرباط ، وكل ما له فيه رسالتان عن عبد المؤمن ، يتحدث فى إحداهما عن تنكيه بالنصارى فى ضواحي قرطبة ، حين حاولوا الإغارة على الجيش العربى وولوا على وجوههم مدحورين ، وفى الثانية يتحدث عن هزيمة الأعراب الهلاليين واستسلام الكثرة من القبائل للموحدين ودخولهم فى طاعتهم ، بحيث لم تدخل سنة خمس وخمسين وخمسائة حتى اتدعوا فى دعوة الموحدين والشعب المغربى بعد أن ظلوا يعيشون فسادا فى ديار المغرب نحو قرن كامل ، وهو يستهل الرسالة الثانية بقوله^(٢) :

« من أمير المؤمنين - أيده الله بنصره ، وأمدّه بمعونه - إلى الطلبة والشيخ والأعيان

(١) رسائل موحدية (طبع الرباط) رسائلان .

(٢) انظر مجموع رسائل موحدية ص ١١٣ .

(١) انظر فى القالمى كتاب الغريدة ١٨٠/١ وكتاب

المحب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (طبع

القاهرة) ص ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ وله فى مجموع

والكافة من الموحدين من أهل فارس ، أعزهم الله بتقواه ، وأدام كرامتهم بمسناه - سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فالحمد لله الذى تتم مقاصد أولياته فيما اعتمده من إقامة أمره الواجب ، وأناف^(١) بأغراضهم المقصورة على مرضاته على مطامع المطالب ومدارك الرغائب . ولتفهم فى أعدائهم - الذين ولوا أمر الله - وقد استقبلهم - جنب الإعراض والإدبار ، و ﴿بدلوا﴾^(٢) نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار ﴿ - أمتى الظافر الغالب . ووكل بهم أئمةٌ ولجوا ، وعلى أى مدرج درجوا من النصر المحالف المصاحب ما يكون لعامة أكتافهم ، وجنات أوساطهم وأطرافهم ، عَيْنَ المحافظ المراقب . ومكن لهم إنفاذاً لمقدوره ، وإغاضةً لأشعة نوره ، أسباب الثقل فى أفياء^(٣) الأمنة وظلال السكون من جنب إلى جنب ، وأحظاهم^(٤) نعمةً منه وفضلاً وقد فاءوا^(٥) بشرف الفتح الجسيم^(٦) ، واحتقاب^(٧) الحظ العميم ، وابتغوا ﴿رضوان﴾^(٨) الله والله ذو فضل عظيم ﴿ وجعل أمرهم الذى هو أمره ناظماً إلى قيام الساعة بين أطراف المشرق والمغرب . والصلاة على محمد عبده ورسوله الحاشر^(٩) العاقب^(١٠) ، الصادر^(١١) بنوره الثاقب^(١٢) ، ليلية^(١٣) الانتخاب وسلالة الانتخاب من لوى بن غالب ، المنبت لتتيمم مكارم الأخلاق بما خصه من الضرائب^(١٤) المقدسة والمناقب ، وعلى آله وصحبه أولى العزم العاكف الدائب ، والجد الثابت للآزب^(١٥) والأثرة (المنزل) المشتملة على شرف المناسب ، وزلف المناسب . وأسأل الله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله وقد التفت حجب الغيايب ، وتفرقت سبل المذاهب ، وخيط من ليل الحيرة فى حيث لا منقذ لجاء ولا مخلص لذهاب ، فهدى الله بهداه إلى الواضح اللاحب^(١٦) ، وأتقذ به من هوة العائر وشفا العاطب .

وهذه فاتحة الرسالة وهو يطيل فى تكميدها وشكر الله على ما أتاح للموحدين من نصر عظيم ، وكثته يجعل ذلك استهلالاً وإرهاصاً لموضوع الرسالة ، وهو هزيمة العرب الهلالية هزيمة ساحقة . ولا نكاد نقرأ فى التوحيد حتى نلاحظ طول السجعة البائية التى بناها عليها ، بل لقد بنى عليها سجمات المقدمة جميعها فى التوحيد والصلاة على الرسول الكريم والدعاء

-
- (١) أناف : أنشرف .
(٢) الآية رقم ٢٨ فى سورة إبراهيم .
(٣) أفياء : ظلال .
(٤) أحظاهم : أتاح لهم حظوة .
(٥) فاءوا : رجعوا .
(٦) الجسيم : العظيم .
(٧) احتقاب : ادخار .
(٨) الآية ١٧٤ فى آل عمران .
(٩) الحاشر : اسم من أسماء الرسول ومعناه الحاشد .
(١٠) العاقب : اسم من أسماء الرسول ومعناه خاتم الرسل .
(١١) الصادر : مبلغ الرسالة .
(١٢) الثاقب : المصيب .
(١٣) ليلية : خلاصة .
(١٤) الضرائب : الطوائع والشمائل .
(١٥) للآزب : التملك .
(١٦) اللاحب : البين .

لاين تورمت مهدى الموحدين . وهذا الطول فى السجعات قصد إليه قصدا ، لكى يضن كل سجعة فى داخلها سجتين أو أكثر . وهو يتدى ذلك منذ السجعة الثالثة : « ولعنهم فى أعدائهم الذين ولوا أمر الله وقد استقبلهم جانب الإعراض والإدبار ، و (بدلو نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) أمانى الظاهر الغالب . والسجعة بائية وفى داخلها سجتان راثيتان حتى تشابك الكلمات فى داخلها وتعلق ، فتم بذلك تناسق صوتي بديع . وهو تناسق تضفيه آية قرآنية وتزيه وتضيف إليه روعة . وتليها هذه السجعة : ووكّل بهم آية ولجوا وعلى أى مدرج درجوا ، من النصر المحالف المصاحب ، ما يكون لعامة أكافهم ، وجنات أوساطهم وأطرافهم ، عَن المحافظ المراقب » . وفى داخل السجعة البائية سجعة جيمية فى أولها ثم سجعة ميمية ، وكان الكلمات داخل السجعة تريد أن تتعلق عن طريق هذه الإرنات المتلاحقة . وتكثر بجانب ذلك الصور والاستعارات ، ويكثر تلاحم الألفاظ لدقة انتخابها واختيارها مما يدل على أن القالى كان كاتباً بارعاً حقاً .

والرسالة طويلة ، غير أنها - بجانب بلاغتها - ذات أهمية تاريخية فإن القالى يذكر أنه لم يعد للقبيل الرياحى من بنى هلال المستولى على أنحاء كثيرة فى الجزائر ذكر يسمع ولا حديث يرفع ، ولا أثر يتقصى ويتبع ، إذ لحقوا بقبيل العدم وأصبحوا كهشيم ألبته نفحة ضرم (شرر) ولم يجدوا إلى مستخلص سبيلا ويمثل بالذكر الحكيم : (أينما تَقَفُوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) إلا ما كان من قبيلة بنى محمد الرياحية ، إذ ألّفوا بمقاليذ الانقياد ، وانخرطوا فى سلك أهل التوحيد بجميع الأنفس والأموال والأولاد ، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مضافرة^(١) الغزو ومصلرة الجهاد . وأما قبيلة جشم فهم بمحلات أهل التوحيد مسكرون وعلى أعدل طريق المطاوعة والمتابعة مستمرون ، وهم عدد لا يحمله إلا البساط الفياح^(٢) ، وكل من هذين الحين : الجشمى والفخذ المهدى الرياحى غزم - وعزم به - على أن تخطّ إن شاء الله بالمغرب دارهم ، ويؤا هنا لك قرارهم ويُفصر على خدمة هذا الأمر العزيز (يقصد دعوة الموحدين) جوارهم . فالحيان الأعريان الكيران : فخذ بنى محمد الرياحى اللالى وفخذ جشم سيختط لهما منازل فى الديار المغرية يكون فيها مستقرهم . وأما قبائل الأنج وزغية فيقول القالى عنهم إن أعيتهم وصلوا مراكز عاصمة الموحدين بمدون يد الاستلبة ، ويطلقون ألسنة الإنابة والعودة إلى الطاعة . يقول القالى : « وعلى الجملة فقد أظهر الله تعالى من بركة هذه الحركة الميمونة السعيدة ما لم يكن ينشأ بسماء الوهم والإحساس ، ولا يجرى على أنساب القياس » . فإن من درس القرن السلى لتلك الحركة وتسلط الأعراب فيه على المغرب الأوسط وتونس يظن أنهم لن يغلبوا على ما فى أيديهم ، حتى ككت هذه الحركة لعبد المؤمن بعد أن

(٢) الفياح : الفلاح ، الولع .

(١) مضافرة : معاونة .

استولى على بجاية سنة ٥٤٧ ، فإذا هو لا يصل إلى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م حتى حر فيها القاملى هذه الرسالة كما يقول فى نهايتها حتى يكون قد قلم أظفار أعراب اهلالية فى المغرب الأوسط ، واتسحت منهم عشيرة المحمدية كما اتسحت قبيلة جشم وانضمتا إلى جنبه وخطت لهما منازل فى الديار المغربية . وجاءته قبائل الأبيج وزغبة معلنة طاعتها . واندمج الأعراب الذين عاشوا قرنا كاملا فى المغرب الأوسط وتونس وبعض ديار المغرب يسلمون وينهون ، اندمجوا فى البربر وأصبحوا شعبا واحدا بفضل هذه الحركة المباركة لعبد المؤمن كما يقول القاملى . ورسالته لذلك بجلب أنها وثيقة أدبية تُعدّ وثيقة تاريخية فى غاية الأهمية .

الوهراني^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن محرز الوهراني ، منشؤه ومرياه فى وهران الواقعة على البحر المتوسط غربى مدينة الجزائر ، وكانت فيها - مثل بقية بلدان الجزائر - حركة علمية وأدبية أنتجت غير فقيه وأديب . وتفتحت موهبة الوهراني الأدبية مبكرة ، ورأى - بعد نضجه وشهرته بالأدب - أن يرحل إلى مصر لعل أدبه يروج فيها ، فرحل إليها فى عهد السلطان صلاح الدين ، ولقى وزيره الكاتب المشهور القاضى الفاضل ومنّ حوله من نهاء الكتاب ، وأحس أن بضاعته لا تروج عنده ، فانصرف عنه وعن الكتلة الأدبية الجادة إلى الكتلة الأدبية الخفيفة . وعرف القاضى الفاضل فيه قدرته على الخطابة ، وكان كثير النزول بالشام مع صلاح الدين فى حروبه للصليبيين ويبدو أنه استدعاه هناك - أو لعله هو الذى رحل إليها - فعمل على تعيينه خطيبا فى جامع داريا بضواحي دمشق ، وظل فى تلك الوظيفة حتى توفى سنة ٥٧٥ هـ / ١١٨٠ م . ويقول ابن خلكان أنه لما علم قصوره عن طبقة القاضى الفاضل عدل عن طريق الجد وسلك طريق الغزل وعمل النامات والرسائل المشهورة به والمنسوبة إليه ، وهى كثيرة الوجود بأيدى الناس ، وفيها دلالة على خفة روحه ورقة حاشيته وكال ظفره ، ولو لم يكن له فيها إلا النام الكبير لكفاه ، فإنه أتى فيه بكل حلالة ، ولولا طوله لذكرته .

والنام الذى يشيد به ابن خلكان فى نحو أربعين صفحة من التقطع الكبير ضمنه رسالة يرد بها على بعض أصحابه متاجنا بما ساقه من ألقابه الطلمية والأدبية ومن كلام هزل غلبه النوم فى أثنائه ، فرأى فى حلمه أن القيامة قامت وأن ناديا ينادى الناس هلموا إلى العرض على الله ويليهِ كثيرون بين قدماء ومعاصرين منهم الملوك والحكام والسلاطين والأدباء والشعراء والعلماء من العرب والعجم والفساق والصلحاء ، وهو دائما يهذى ويهزل فى لقله كل من يلزم به أو يمر

الوهراني ومقاماته ورسالته نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

(١) انظر ترجمة الوهراني عند ابن خلكان ٣٨٥/٤ وتعريف الخلف ٤٩٤/٢ . وحقق أحصاه وطبعها فى القاهرة بإمرام شعلان وعهد نشر باسم : ملفات

عليه . ويرى بعض عظماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يرى مالك خازن النار وبخاره ، ويرى الرسول مقبلاً في موكب عظيم من المقام المحمود يؤمُّ مورد الحوض الذي يسنى منه أمته . يقول^(١) :

« لما انتهى إلى شاطئ المشرقة^(٢) تقدمت إليه الصوفية من كل مكان وفي أيديهم الأمشاط وأخلت الأسنان ، وقدموها بين يديه ، فقال : صلى الله عليه ، مَنْ هؤلاء ؟ فقيل له : قوم من أمتك غلب العجز والكسل على طباعهم ، فتركوا العماش وانقطعوا إلى المساجد ، يأكلون وينامون فقال : فيماذا كانوا يفعلون الناس ويعينون بنى آدم ؟ فقيل له : والله ولا بشيء البتة ، ولا كانوا إلا كمثل شجر^(٣) الخيزوع في البستان ، يَشْرَبُ الماء ويضيق المكان . »

وهو نقد مغربي مبكر للصوفية وما يحملون من أمشاط لشهرهم وخلال لأسنتهم ولا عمل لهم يفعلون به الأمة ، إلا ما كان من البطالة والكسل والتمويه على العامة بما يؤدون لهم من أطعمة وأكسية متظاهرين بالعبادة والنسك في المساجد . وعلى نحو هذا النقد للصوفية ينقد كثيرين من معاصريه علماء وغير علماء كما ينقد كثيرين من القدماء ومواقفهم من على بن أبي طالب في حرب صفين ومن الحسين في مقتله بكرلاء ، بينما نراه ينوّه بالأيوبيين : أسد الدين شيركوه وأخيه أيوب وابنه صلاح الدين ، ولعله كان يحاول بذلك أن يتقرب من دولتهم . وربما كانت مقامته البغدادية الجادة أروع من هذا المنام الهرلي ، وهو يستهلها بقوله^(٤) :

« لما تعذرت ماري ، واضطربت مغاري ، ألقى حبل على غاري^(٥) ، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي ، ومن أخلاف الأدب وضاعتي ، فما مررت بأمر إلا حلتل ساحتها ، واستمطرت راحتها ، ولا وزير إلا قرعت بهله ، وطلبت ثوبه ، ولا بقاضٍ إلا أخذت سيئه^(٦) ، وأفرغت جبيه ، فنقلت بي الأعصار ، وتفاذنتي الأمصار ، حتى قريت من العراق وشمت من العراق ، ففصدت مدينة السلام^(٧) ، لأقضى حجة الإسلام ، فدخلتها بعد مفاصة الضر ، و مكابدة العيش المر .. وتاقت نفسي إلى محادثة الغلاء ، واشتأقت إلى معاشرة الفضلاء ، فدلتني بعض السادة الموالي ، إلى دُكان الشيخ أبي المعالي ، فقال هو بستان الأدب ، وديوان العرب ، يرجع إلى رأى مصيب ، ويضرب في كل علم ينصيب ، فقصدت قصده ، حتى جلست عنده ، فحين نظر إلي ، ورأى أثر السفر علي ، بدأني بالسلام ، وبسطني بالكلام ، وقال : من أي البلاد خرجت وعن أيها درجت ! فقلت : من المغرب الأقصى .. وقال كيف معرفتك بدهرك ؟

(١) انظر منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ٤٩ . (٥) الغارب : الكاهل : ألقى حبله على غاريه : ذهب .

(٢) المشرقة : الموردة .

(٣) شجر رزقه كوروك الثين لثمره مر . (٦) سيئه : عظماءه .

(٤) منامات الوهراني ومقاماته ص ١ . (٧) مدينة السلام : بغداد .

ومن تركته وراء ظهره . وسأله عن دولة الملثمين ثم عن دولة الموحدين قائلا : ما تقول فى عبد المؤمن (أول ملوك الموحدين) وأولاده ، وسيرته فى بلاده ؟ فقلت : مؤيد من السماء ، مسلط على من فوق الماء ، خضع له ذرو التيجان ، وخدمه الإنس والجان ، ولو أن للقلم لسانا ، وللورقة إسماعيل^(١) ، لتأملت ، وتظلمت ، ولأنشدتك فى الملا^(٢) قول الشيخ فى العلا^(٣) :
جَلَوْا صَارِمًا وَتَلَّوْا بَاطِلًا وَقَالُوا صَدَقْنَا فَقُلْنَا نَعَمْ^(٤)

ولكن السكوت عن هذا أتجح ، ومسألة الأفاعى أصلح .

وأول المقامة شيه بمقامات الحريرى وبديع الزمان فى تصوير حيلهم على الناس واستخراجهم لدرامهم ودنايتهم . ولكنها لا تلبث أن تتحول إلى حديث عن الدول المعاصرة ورجالها ، وصاحب الدكان يسأل وهو يجيب ، وقد سأله بعد الملثمين والموحدين من ملوك المغرب الأقصى عن حاكم صفلية النورماتدى ، وعن الدولة الفاطمية وزوال الحكم منها فى مصر إلى الدولة الأيوبية . ويشيد بغير أمير منها وخاصة صلاح الدين واستقدامه لأبيه وأهله ونقله الخلافة بمصر من الفاطميين إلى بنى العباس ببغداد ، ويمتدح المستضىء الخليفة حيثذ وبعض وزرائه وصاحب ديوانه . ولعل أسلوبه انتضح من خلال ما ذكرته من هذه المقامة ، إذ يتميز سجعهم بالقصر مما يشيع فيه عذوبة بديعة ، وقد مزج مديحه لعبد المؤمن بنقد لاذع لحكمه وأنه يقوم على البطش والقهر الشديد . وتلك طريقته العامة فى رسائله الكثيرة ، إذ يخلط السم بالسل ، وقد تصبح سما خالصا . وله أكثر من ثلاثين رسالة موجهة إلى القاضى الفاضل وغيره من رجال الدولة محملة بكثير من هذه السموم . ويدل منامه الكبير ومقاماته ورسائله على ثقافة واسعة ، وحياته وتحليل أعماله خليقان بدراسة مفصلة .

(ج) أبو الفضل^(٥) بن محشرة

هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن على القيسى المشهور باسم ابن محشرة ، من أهل مدينة بجاية ، كان أبوه قاضيا بها وعنى بترتيبه علميا وأديبا ، مما جعل الغبرينى ينعت فى عنوان الدراية بأنه الفقيه الجليل العالم الصدر النبيل النبيه الذكى السنّى القدر الكاتب البارح . وينعت عبد الواحد المراكشى فى كتابه : « المعجب » : ببراغة الكتبية وسعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس . ويقول الغبرينى : « استدعاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) إلى حضرتهنهم بمراكش وكان يجله لحسن سمته وروايته ووقاره ، وفى المعجب أنه كان يخدم أبا القاسم القالى

(١) إسماعيل : إسماعيل بن .

(٢) الملا : الجماعة .

(٣) أى العلا : أى العلا المرى .

(٤) جلوا صارما : صقلوا سيفا وشحذوه .

(٥) انظر فى ابن محشرة عنوان الدراية ص ٥٣ والمعجب

للمراكشى ص ٣١٧ ، ٣٢٨ ومجموع رسائل موحدة

ص ١٤٩ - ٢٢٨ .

إلى أن مات ، فكتب للخليفة يوسف بن عبد المؤمن مكانه ، وقد يدل ذلك على أن القائل - لا الخليفة يوسف - هو الذى استدعاه - ربما لمرعته المظنونة بئيه القاضى موطنه أو لمرعته بفضل . ويقول النبريني إنه ولد سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م أو قبلها بقليل ، وتوفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م غير أن المراكشى فى المعجب يقول إنه كتب للخليفة يعقوب الموحدى بعد كتابته لأبيه يوسف ، ولم يزل كتابا له إلى أن توفى . ويقول أيضا إنه كتب ليعقوب بعد وفاته أبو عبد الله بن عياش ، وفى التكملة^(١) أن يعقوب استكتب ابن عياش فى سنة ٥٨٦ هـ / ١١٤٠ م وكان هذه هى السنة التى توفى فيها ابن محشرة لا سنة ٥٩٨ كما توهم النبريني .

ولابن محشرة فى مجموع رسائل موحدية تسع رسائل : رسالة على لسان الخليفة يوسف الموحدى سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م وثمان على لسان الخليفة يعقوب الموحدى تبدأ فى سنة ٥٨٠ وهى السنة التى توفى فيها أبوه واستولى على صولجان الحكم ، والرسالة الأولى موجهة من الخليفة يوسف الموحدى إلى الطلبة والموحدين والشيخ والأعيان والكافة بقرطبة يخبرهم فيها بأنه قام بحركة مباركة فى سنة ٥٧٥ إلى إفريقية التونسية استولى فيها على قفصة جنوى تونس وقضى على نثار بها وأنه اجتمع إلى سادة قبائل رياح وشيوخها فى تلك الرحلة وأنه أغرامهم بارتحال قبائلهم إلى الأندلس لجهاد نصارى الإسبان مذكرا لهم بجهاد آبائهم فى الفتوح الإسلامية ، وأنهم لبوا دعوته ، يقول ابن محشرة على لسانه^(٢) :

« جُمع أشياخ العرب وأعيانهم والمشار إليهم من رؤسائهم ووجوههم وكبرائهم من جميع قبائل رياح (الملالية) فذكرُوا بحقوق هذا الأمر العظيم وآلآله الجزيلة ومِنه الجسام ، ونُبِّهوا إلى ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق فى أول الإسلام ، وعَرَّفُوا أن الغرض منهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس ، فقد طال استئراؤهم^(٣) ، وأملَى الله لهم فزاد عليه اجترأؤهم . ونُذِّبُوا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضئهم وقضيضهم^(٤) ، نفرة من ثبت^(٥) عن الوطن ، وبَدَّ عُلُقَ المسكن والسكن ، وإن كانت هذه البلاد هى التربة التى مَسَّتْ أولا جلودهم ، وقضوا فيها من الشباب عهدهم ، فالذى يتقلون إليه من الرُّبَاط فى سبيل الله يجمع لهم الخير فى الدين والدنيا ، والشرف بالكون فى عداد كلمة الله العليا .. وذاكرنا الجماعة المذكورة فى ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ، وتغلغلت^(٦) فى بواطنهم ، فحَرَّكَتْ إلى ذلك حفاظَهم^(٧) ، ومارت^(٨) لنصر دين الله عزائمهم .. وقد سألت بهم

(١) التكملة (طبع مدريد) رقم ٩٥٢ .

(٢) مجموع رسائل موحدية ص ١٥٢ وما بعدها .

(٣) استئراؤهم : اشتداد شرهم وتغلبه .

(٤) بقضئهم وقضيضهم : بجمعهم بقضى أسرهم على أولهم وينفذ .

(٥) ثبت : قطع ، وفى الأصل : أثبت .

(٦) تغلغلت : تمسكت ، وفى الأصل : تغلقت .

(٧) حفاظ جمع حفيظة : الحمية والغضب .

(٨) مارت : تحركت ، وفى الأصل : ثارت .

الأباطح^(١) ، وانتلأت بجمعهم الموامي^(٢) الفسائح .. وإن جموعهم لتكثر الحصى^(٣) ، وتماد^(٤) البني ، وتملا النيطان^(٥) والرئي^(٦) .

ولغة الرسالة جزلة مختارة ، اختارها كاتب حاذق يعرف كيف يسوي من اللغة أساليب تروق القارئ بسجعها ورسالة ألفاظها علما في أحيان كثيرة إلى تأكيد معنى العبارة التي يوردها بجملة أو جمل ترادفها ، فزيدها إيضاحا وبيانا كقوله في أواخر ما أقيس من رسالته : « وذاكرنا الجماعة المذكورة في ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ، وتغلغلت في بواطنهم ، فحزرت إلى ذلك حفائظهم ، ومارت لنصر دين الله عزائمهم » . والرسالة وثيقة تاريخية مهمة لأنها ترينا سياسة الموحدين المحيصة ، إذ لم يكنوا بأن يستشر أعراب الجزائر وإفريقية التونسية الولاء لهم فحسب ، فقد رأوا أن ينقلوا جماهير غفيرة منهم إلى الأندلس للاستعانة بهم في الحرب الدائرة هناك بين دولة الموحدين ونصارى الأندلس وكان لهم أثر كبير في رجحان كفة الموحدين على أولئك النصارى في وقتهم معهم ، واستمر تلك السنة الخليفة يعقوب الموحدي مثل أبيه يوسف ، وبذلك انتصر في موقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م . ولم تنفص هذه السياسة إلى انتصار الموحدين في الأندلس لمهد يوسف ويعقوب فقط فقد أفضت أيضا إلى كف أيدي الأعراب عن العبث لمدة قرن في بلاد المغرب وخاصة في الجزائر . وآخر رسالة لابن محشرة احتفظ بها مجموع رسائل موحدية كتبها - كما مر بنا - سنة ٥٨٦ على لسان يعقوب الموحدي إلى الطلبة - الموحدين - الأعيان والأشياخ والكافة بسنة يخبرهم فيها بغزوة جيشه لابن الريق النصراني في غربي الأندلس وتكليه بمن معه واستيلائه على حصن عظيم من حصونهم يسمى طرُش . وهو يستهل الرسالة بقوله^(٧) : « الحمد لله الذي أرغم لهذا الأمر العزيز شُم المعاطس^(٨) ، وألان بأيده قَباح^(٩) الجامع الشامس ، وأخضع لعزته وسطوته كل جيل متطاوّل ، وأخضع كل لحظ مشاوس^(١٠) ، وحكم بظهور أمره ، واستيلاء غلبته وقهره على ما توقّل^(١١) في الشُم الشوامخ وتوغّل في البيد الباسبس^(١٢) ويسر له من الفتوح الخارقة للعادة ، المقودة بزماني الركبة والسعادة ، ما تجاوز^(١٣)

(١) الأباطح جمع أبطح : المكان التسع يمر به السيل ويترك فيه التراب والحصى .

(٢) الموامي جمع مومة : المغارة الواسعة ، وفي الأصل : الموامي .

(٣) الحصى : صغار الحجارة ، وفي الأصل : الحصر .

(٤) تماد : تفاخر في كثرة العدد ، والبني : الجراد وفي الأصل : مُداد الرئي .

(٥) النيطان جمع غيط : المطنين الواسع من الأرض .

(٦) الرئي جمع ريو : ما ارتفع من الأرض .

(٧) مجموع رسائل موحدية ص ٢١٨ .

(٨) المعاطس جمع مطس : الألف والمراد بشم المعاطس

الأعداء المتطلون .

(٩) قباح : عيب . الشامس : الجامع المنصبي .

(١٠) مشاوس : منكبر .

(١١) توقّل : صعد .

(١٢) الباسبس : الثفر الخالية .

(١٣) تجاوز : زاد عن .

تقدير المقدّر وقياس القاتس ، والصلاة على محمد نبيّه المصطفى ، ورسوله الأكرم المُجَنَّبِي ،
للمختار من أشرف المَختات^(١) وأطيب المغارس ، المسكت بُفَرَقته المعجز ، وبيته الموجز ، كلُّ
نافس ، والمأحى بنور نبوته الخاتمة للملل ، وشرهته الناسخة للأديان والنحل ، مظلمات
الغياهب^(٢) ومد لهلمات الحنادس .

وابن عشرة في هذا التحميد وما تلاه من الصلاة على الرسول الكريم يختار حرف السين
لسجعاته فيها ، وبدءًا من السجعة الرابعة أخذ يطيل السجعة لتوازن العبارات أو التعبيرات
داخلها بحيث تشابك ألفاظها وتتعلق في سجعات داخلية ، ليدل على مدى قدرته في السجع
وصياغته ، وهو يضيف إلى ذلك عنابة واضحة بالصوير كما في قوله « ألان بأيده قباح أو عضد
الجامع الشاس » وتتوالى كتابات وتصاوير مختلفة كقوله عن الرسول إله من أطيّب المغارس
ومعا بنور نبوته مظلمات الغياهب ومدلهلمات الحنادس . ويقول - على لسان يعقوب - إن
صاحب قشتالة المسيحي في الشمال حين علم بهذا الجيش سارع إلى إعلان تمسكه بعهد
مع الموحدين وأنه مستعد من أجلهم لمحاربة أهل ملته ، فأمنى له يعقوب السلم . وبالمثل سارع
صاحب ليون يطلب تجديد مهادته ، وهادنه يعقوب ليفرغ لابن الريق النصراني في الغرب .
ويصف ابن عشرة انتصاف الجيش لزروعه في شترين وإحراقه وتخريبه لمنازله وربوعه ،
ويصور استيلاء جنوده على قلعة طُرُشُ المنيعه ، بقوله^(٣) :

« نهدوا^(٤) إلى قلعة للأعداء تسمى « طُرُش » على هضبة منيفة^(٥) المراقب ، مسامية
للكواكب ، قد تقطعت حافاتها ، وبعدت قذافات^(٦) من كل الأرجاء والجوانب ، ولعظمها
ومكانها من نفوسهم أنشوها^(٧) بالبناء الشامخ وحصونها ، وألقوا بها جموعهم الموشية^(٨)
ووثقوا بها على حفظ نفوسهم وأموالهم وأثمنوها ، واعتدوها^(٩) قُفْل بلادهم ، فخانتهم -
بحمد الله - آمالهم التي أُمْلوها^(١٠) ، وكذبتهم ظنونهم التي ظنوها . ولقد كانت من المنعة بحيث
لا تُرام ، ولا يُهْتَضَم^(١١) المتوكل فيها ولا يستنضم ، ولا تثبت لمحاربتها - لوعورة مراقبها^(١٢)
وجوانبها - الأقدام . لولا سعد هذا الأمر^(١٣) الذي تؤيده الأقدار وتجنده الأيام ، والحمد لله

(١) المَختات جمع مَخت : الأصل .

(٢) الغياهب جمع غيب والغنادس جمع حنسل وهما
الظلمة .

(٣) انظر مجموع رسائل موحدة ص ٢٢٣ .

(٤) نهد : نهض .

(٥) منيفة المراقب : عالية مواضع المراقبة .

(٦) قذافات جمع قذفة : جانب بعيد .

(٧) أنشوها هنا : حرّوها .

(٨) الموشية : الملتفة .

(٩) اعتدوها : عدوها وفي الأصل : اعتدوا .

(١٠) بعد أُمْلوها كلمة زائدة: وهي استقصاءه: حُلِّيت .

(١١) يهْتَضَم المتوكل : يفهر القيم فيها . يستنضم :
يظلم .

(١٢) مراقبها : أماكن الصدور فيها وفي الأصل :
مراقبها .

(١٣) هذا الأمر : هذه الدعوة دعوة الموحدين .

على ذلك حمدا تُستنجز به المن وتستدام ، لا ربَّ سواه . فنازلها الموحدون - أعزهم الله -
أصدق نزال ، وصالوا على كفرتهم أعظم صيَال^(١) .. وعندما عَضَّتْهم الحرب الضروس^(٢)
بنلها^(٣) ، وجَرَعَتْهم أَكْوُسُ مرَّها^(٤) وصلبها .. رُغِموا^(٥) فى أن يخرجوا بحشاشتهم ، ومن
مَعهم من نسلتهم وذرياتهم ، وبفرجوا للموحدين - أعزهم الله - عن كل ما اشتمل عليه
حصنهم من أموالهم وأقواتهم .

والسجع مرصوف بإحكام والكلمات متخبة بدقة والصور تتوالى بكثرة ، فقد ائتمنوا هذا
الحصن وعدوه قتل بلادهم ، فختنتهم آمالهم وكذبتهم ظنونهم ، بفضل دعوة الموحدين التى
تؤبدها الأقدار وتنجدها الأيام ، وعَضَّتْهم الحروب الضروس بنلها وجَرَعَتْهم أَكْوُسُ مرها
وصلبها ، فولَّوا على وجوههم خاشعين مدحورين إلى غير مآب .

(٤) فى الأصل : مرقها .

(٥) فى الأصل : رغوا .

(١) فى الأصل : صال .

(٢) الضروس : الموض المهلكة ..

(٣) فى الأصل : بها .

القسم الثانى

المغرب الأقصى

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

المغرب الأقصى أبعد أجزاء المغرب عن بلدان المشرق ، فهو نهايته الواقعة على المحيط الأطلسى غربا والبحر المتوسط شمالا ، وتعدّه الجزائر شرقا والصحراء الكبرى جنوبا ، وسطحه فى الجملة جبلى إذ تمتد فيه سلسلتان من الجبال تتصلان جيولوجيا بجبال الألب الأوربية ، وهما تمتدان فيه من الغرب إلى الشرق ، وأولاهما شمالية ، ويتفرغ منها فى الشمال الغربى فرع جبال الريف الذى يتخذ شكل قوس يحتضن الساحل الشمالى من مدينة سبتة جنوبى جبل طارق إلى مدينة مليلة غربى مصب نهر الملوية . ويمتد فرع عماد له يسمى أطلس التل ، بين سلسلة جبال الأطلس الصحراوى هضبة وتكثر فى هذا السطح الجبلى أنهار ونهيرات وسهول . وسلسلة الجبال فى الأطلس الصحراوى شديدة الارتفاع وتتميز بكثرة المنحدرات الوعرة ، وتفرغ منها سلسلة جبال صغيرة يسميها ابن خلدون جبال درن ، وكثير من جبال الأطلس الصحراوى تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج .

ولكى نتصور المغرب الأقصى جغرافيا ينبغى أن نعرض مناطق ، وأول ما يلقانا منها فى الشمال الغربى منطقة المحيط ، وتنتهى شمالا على مضيق جبل طارق وشرقا على البحر المتوسط وغربا على المحيط الأطلسى ، ومن أهم مدنها سبتة وطنجة شمالا وتطوان على البحر المتوسط شرقا وأصيلا على المحيط الأطلسى غربا ومنطقة أزغار جنوبا ، ويبلغ طول المحيط نحو مائة ميل وعرضها نحو ثمانين ميلا ، وتكثر فيها البحار والنهيرات المائية وأرضها خصبة جدا ووافرة الإنتاج ، وسهولها وجبالها مأهولة بالسكان . ولعب سكانها دورا مهما فى الدفاع عن غرناطة وإقليمها حين ظلت قرنين ونصفا تقاوم نصارى الإسبان الشماليين ، وخاصة سكان جبل ودراس البواسل ، وقد ظلوا يتداولون قصصا كثيرة فى عبارات نثرية وقصائد شعرية عن

محمد عبد المنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصياد وكتاب
وصف إفريقيا للحسن الوزان طبع حلقة الإمام محمد بن
سعود الإسلامية .

(١) انظر فى جغرافية المغرب الأقصى كتابات نبي عبيد
البكرى والإدريسى (انظر جغرافية الجزائر) وجغرافية
الوطن العربى للدكتور محمد محمود الصياد وصورة
الأرض لابن حوقل وملاح المغرب العربى للدكتورين

بطولات بطل شمسى من أبطالهم يسمى « هُلولا » وطلوته فى المغرب الأقصى تماثل البطولات التى تحكى فى فرنسا عن أبطالهم رولان فى ملحمة المشهورة ، وحرى بنا أن تكون لنا ملحمة مماثلة عن « هُلولا » . وجنوبى هذه المنطقة على المحيط منطقة أزغار ، وهى سهل خصب وتكثر بها المدن والقرى والسكان ، وتمتد على المحيط نحو ثمانين ميلا ومن مدنها القصر الكبير وميناء العرايش ، ولكثرة زروعها تَمُونُ مدينة فاس ، ويؤلف شبلها زهرة الجيش الفاسى . وإلى الجنوب منها منطقة فاس ، وهى مدينة متحضرة من قديم أو بعبارة أدق منذ بناها إدريس مؤسس الدولة الإدريسية سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٧ م وخطت فى الحضارة خطوات واسعة منذ الدولة المرينية ، وهى تتوسط سهلا خصبا أتاح لسكان منطقتها معيشة طيبة لكثرة حقولها وبساتينها ومن مدنها مكناس وتنتج أرضها مختلف الفواكه والثمار ، ومن مدنها أيضا سَلا وهى ميناء على المحيط ونشأت بجانبها مدينة الرباط ، ومدن كل هذه المنطقة تتميز بحضارة رفيعة . وجنوبى هذه المنطقة منطقة تامسنة وهى منطقة غنية وبها كثير من المدن والقرى ، تُعَدُّ بالمعشرات . وتنتهى فى الجنوب بـجبال أطلس التل ، ومن أهم مدنها تَغْفة وخلفتها حديثا الدار البيضاء ، وكانت تَغْفة مزدانة بجوامع وفنادق جميلة ، وهى ميناء على المحيط فى وسط سهل كبير الزروع والحبوب . وإلى الجنوب منها منطقة دكالة ، وكان أهلها فى العصور الوسطى متأخرين لا يعرفون طرق الزراعة وغرس البساتين ومن أهم مدنها آسفى . وتليها على المحيط منطقة حاحة وتمتد امتدادا لمنطقة مراكش الداخلية ، وهى منطقة وعرة مليئة بالغابات والجبال والأودية المائية الصغيرة وتردحم بالسكان ، وأكثر مدنها القديمة أصبحت أطلالا ، وتنتهى هذه المنطقة عند الأطلس الصحراوى . وتليها إلى الجنوب على المحيط منطقة السوس آخر المناطق الغربية للمغرب الأقصى ، وتقع وراء الأطلس الصحراوى جنوبا ، ويكثر فيها النخيل ، ومن أهم مدنها أغادير عند نهاية جبال الأطلس وقرب مصب نهر السوس ، ومنها أيضا ماسة على المحيط وتبوت فى الشمال ، وأرض هذه المنطقة خصبة وتنتج كمية وافرة من الحبوب والفاكهة وخاصة من التين والعب .

ونعود إلى أقصى الشمال على البحر المتوسط ، فنلتقى بمنطقة الريف متاخمة لمنطقة المحيط ، وتمتد شرقا نحو مائة وأربعين ميلا حتى نهر النكور وجنوبا نحو أربعين ميلا حتى الجبال التى تخاذى نهر الوردغة الواقع فى منطقة فاس ، وهى منطقة مليئة بالجبال والغابات شديدة البرودة ، وبها كثير من أشجار البرتقال والتين ، ولكن القمح قليل . وليس فى الجبال سوى مدن قليلة ، وأكثر السكان فى مدن الساحل صيادون وملاحون ، وتنتج الجبال أو كثير منها الأعشاب والزيتون والتين والكان والسفرجل والليمون . وإلى الشرق على البحر المتوسط من هذه المنطقة منطقة غارت ، وتبدأ من نهر النيكور وتنتهى عند مصب نهر الملوية ، وتمتد جنوبا حتى محاذة جبال منطقة الحوز شرقى فاس وطولها نحو خمسين ميلا فى أربعين ميلا عرضا ، وهى منطقة

شديدة الجفاف قليلة السكان وأهم مدنها مليلة على البحر المتوسط . وإلى الجنوب من إقليم غارت إقليم الحوز وهو يمتد شرقى منطقة فاس فى نحو مائة وتسعين ميلا طولاً ومائة وأربعين ميلا عرضاً ويشتمل على كثير من السهول والجبال الصحراوية أو جبال أطلس ، ومن أهم مدنها تازة وهى تعد ثالثة المدن فى ولاية فاس من حيث الحضارة والثقافة ، ولها أراض خصبة شديدة الاتساع ، والحياة مزدهرة فى كثير من مدن وجبال هذه المنطقة . وجنوبى الحوز منطقة تادلة ، وتشمل الإقليم من جنوبى نهر العبيد إلى نهر أم الربيع فى الشمال ، ولأهلها مهارة فى ديبغ الجلود ونسج الصوف ، وأكثر السكان بالمدن والجبال فى رخاء ومن مدنها تفرزة وأفرزة . وغربى هذه المنطقة منطقة هسكورة وتبدأ من التلال الغربية فى دكالة وتمتد شرقى منطقة مراكش وتوجه إلى الجنوب ، ويعنى سكانها بصناعة الجلود لكثرة المزر بديارهم وأيضاً محصول الزيت ، ومن مدنها المدينة وتاغوداست وتغطى بعض جبالها الثلوج على مدار السنة . وإلى الجنوب منها منطقة جزولة شرقى السوس وغربى منطقة الدرعة ، وتوجد بهاعدة مناجم للححاس والحديد ، أهلت السكان لصناعة كثير من الأوعية ويزرعون الشعير وعندهم الكثير من الماشية . وإلى الشرق من هذه المنطقة منطقة الدرعة وتمتد جنوباً إلى مسافة مائتين وخمسين ميلاً . أما السكان فيقيمون فى حوض نهرها وتمتد فيه حدائق النخيل . وفى الجنوب الشرقى من منطقة هسكورة منطقة سجلماة ، وتمتد على طول نهر زيز ، وتتغلغل جنوباً إلى مسافة مائة وعشرين ميلاً حتى حدود الصحراء ، وأهل مدينة سجلماة أغنياء لتبادلهم التجارة مع بلاد السودان ، وتكثر بمنطقتها التمور .

ولعل فى كل ما قدمت ما يصور من بعض الوجوه أن جغرافية المغرب الأقصى معقدة لكثرة مناطقه واتساع أقاليمه التى تبلغ نحو خمسمائة ألف كيلو متر مربع ، وجباله فى الشمال وفى أطلس التل والأطلس عالية علواً شامخاً ، وهو علو هياً من جهة لتكوّن الثلج على قممها وذراعا الشامخة ، كما هياً من جهة ثلثة لكثرة نزول الأمطار بها ، وهى تنزل بها منذ شهر أكتوبر وتنزل فى الشتاء . وكثرة الجبال على سطحها هياً لأن تكثر فيها الأنهار والنهيرات والمجارى المائية ، ومعظمها تجرى طوال العام ، ومن أهمها نهر الملوية ، وينبع من منطقة فاس ويجرى إلى الشمال الشرقى ويصب فى البحر المتوسط شرقى مليلة ، ونهر سبو ويجرى من الشرق إلى الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى مخترباً منطقة فاس وحوضه بعد أغنى أحواض المغرب الأقصى وأكثرها سكاناً ، ويبلغ إنتاجه أربعين فى المائة من إنتاج المغرب الأقصى ، ونهر أم الربيع وينبع من منطقة الحوز ، ويتجه جنوباً ثم غرباً حتى المحيط ويندى مناطق تادلة وتامسة ودكالة ، ونهر تنسيف ويتجه من الشرق إلى الغرب ويخترق منطقتى مراكش وحاحة ، ونهر السوس ويتجه إلى الغرب مخترباً شمالى جزولة والسوس ويصب فى المحيط بقرب أغادير .

والغرب الأقصى كما يعتمد على الأنهار يعتمد على الأمطار ، وعلى الرغم من كثرة الجبال

على سطحه الأجزاء الهائلة للزراعة كثيرة ، وهى أولا سهول ساحلية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، والأولى محدودة المساحة وكثافتها فى بعض الأنحاء أشد ضيقة ، والثانية أكثر اتساعا ، ويتراوح عرضها بين ثلاثين وتسعين كيلومترا . وتبعد اللواتى على المحيط عن مصبات الأنهار لكثرة ما تحمل من الرواسب . وثانيا سهول نهريه وهى سهول كونتها الأنهار بكثرة ما حملت من الرواسب ، مثل سهول الأنهار المذكورة آنفا . وهى تصلح لإنتاج جميع الغلات الزراعية وغرس الأشجار وإقامة الحدائق والبساتين . وثالثا سفوح منحدرات الجبال . وربما تربة الأطلس التلى وبه سهول واسعة لزراعة الحبوب وغرس الأشجار . ولاختلاف الطقس بين الوديان والسهول والجبال ومنحدراتها تلتفك فى المغرب مختلف أشجار الفواكه والنفل ، ويكثر النخيل فى المناطق الجنوبية . والمناخ فى جملته معتدل على السواحل وأحواض الأنهار إلا ما قد يميز بعض الجبال من البرودة الشديدة حتى لتتوجها الثلوج طول العام .

٢

التاريخ^(١) القديم

تاريخ المغرب الأقصى موغل فى العصور السحيقة ، وأخذ يتراءى على صفحات التاريخ مع ارتداد الفينيقيين لسواحل إفريقيا الشمالية أو بعبارة أخرى لسواحل البلاد المغربية منذ القرن التاسع قبل الميلاد وقبله وبعده للبحث عن مواقع غنية بطبيات الخيرات والسلع يؤمنون بها سفنهم ليجادلوا مع أهلها وجوه التبادل التجارى المختلفة . وكانوا شعبا ملاحيا متحضرا يحترف التجارة ، وظلوا طويلا يحاولون التعرف على المواقع الملائمة لهم فى الساحل الإفريقى الشمالى : ويعرور الزمن ومع كثرة البحث أعجبهم موقع بالقرب من مدينة تونس الحالية أقاموا فيه مدينة قرطاجنة ، وسكنتها منهم جالية فينيقية كبيرة ، أقامت بها دولة ظلت قرونا طويلة ، وأخذوا يحثون لتجارته عن أماكن أخرى صالحة لتبادل السلع ، واختاروا فى الجزائر بونة وجيجل وإسكيكدة وبجاية وشرشال ، ونشروا فيها جميعا حضارتهم الفينيقية ، وعلموهم غرس الأشجار وبعض شئون الزراعة والرعى ، ونقلوا إليهم من موطنهم القديم فى الشام حول صور فى لبنان بعض أشجار الفاكهة والنفل . واتسحوا فى اتخاذ المواقع على سواحل البحر المتوسط الغربية لتكون مراكز لتجارتهن الواسعة ، فاتخذوا موقعا على الساحل الجنوبى الشرقى لإسبانيا سموه « قرطاجنة » واتخذوا موقعا مماثلا فى الجنوب الغربى لإسبانيا سموه « قانس » ونما الموقعان وأصبحا مدينتين فينقيتين كبيرتين ، وكان طبيعيا أن يحثوا عن مواقع مماثلة فى سواحل

(١) انظر فى التاريخ القديم للمغرب الأقصى كتاب تاريخ المغرب الكبير - الجزء الأول محمد على دبور - (طبع القاهرة) وكتاب مدينة المغرب العربى للأستاذ أحمد صفر .

المغرب الأقصى ، وأعجبتهم موقع غرى مصب نهر الملوية سموه « روسادير » وهو نفس موقع مليلة الحالية وهو فى صدر خليج يساعد على رسو السفن فيه ، وكُنُتْما اختاروه للاتصال عن طريقه بسلع منطقة فاس الغنية . واختاروا فى آخر ساحل المغرب الأقصى الشمالى موقعا مطلا على المحيط الأطلسى ويطل من الشمال الشرقى على مضيق جبل طارق ، سموه « طنجة » والسهل من ورائها خصب ومتسع ووافر الغلات . وكما مدوا ذراعهم شمالا فى إسبانيا إلى « قادس » مدوه جنوبا فى المغرب الأقصى إلى أصيلا نحو سبعين ميلا من طنجة ، وهى فى نفس إقليمها الخصب . وفى كل المواقع التى أقام الفينيقيون لهم فيها مدنا بالساحل المغربى جميعه استقرت حضارتهم الفينيقية قرونا وأجيالا متعاقبة منذ القرن الثامن قبل الميلاد على الأقل وفى القرون التالية . وكنوا شعبا عريقا فى الحضارة لا فى شئون الملاحة البحرية وبناء السفن فحسب ، بل أيضا فى كثير من شئون الزراعة والصناعة : صناعة الزجاج الملون وغيره ، وثنا ذلك كله بين كثيرين من سكان المغرب ، ولابد أن ثرا بينهم أبجديتهم التى وضعوها على هدى الأبجدية الهيروغليفية المصرية ، بعد أن أدخلوا فيها غير قليل من التعديل بحيث صارت أساس الأبجديات العالمية ، وتعلم بعض المغاربة أبجديتهم ولغتهم ، ومعروف أنها لغة سامية . والتقى دين الفينيقيين الوثنى بدين المغاربة الوثنى فى كل مكان ، وكان سكان المغرب الأقصى - مثل بقية سكان المغرب والفينيقيين - يعبدون الشمس والقمر ، ويعتقدون بوجود أرواح مقدسة فى بعض الأشجار والأحجار والطير والحيتان .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الفينيقيين فى عصرهم الممتد قرونا نقلوا المغرب الأقصى وغيره من البلدان المغربية من حياة البداوة إلى حياة جديدة من الحضرة ، فقد تعلم المغاربة على أيديهم كثيرا من شئون التجارة وزراعة الحبوب والبقول والخضر وغرس بساتين الفواكه وأشجار الزيتون وتربية المواشى وصناعة السفن واستخراج المعادن من الحديد والنحاس وغيرهما وصنع الأوتى وحلى الزينة وحياكة الملابس والدباغة ، وعرفوا منهم - فيما يظن - صناعة العطور والعقاقير .

ومن المراكز التى أسسها الفينيقيون لتجارتهم مراكز فى شمالى صقلية من أهمها بالرم ، وتبهم اليونان - فيما بعد - وأسسا لهم مراكز فى شرقى صقلية بـمـسـينا وسرقوسة وقطانية ، وكان ذلك فى نشوب الحرب بالقرن السادس قبل الميلاد بين الشعبين أو الفئتين ، وظلت طويلا بينهما دون أن ترجح كفة إحدهما رجحانا نهائيا ومنذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد تدخل روما وتحاول إزالة القرطاجيين الفينيقيين من صقلية ومن الساحل الإفريقى ونشبت الحرب بين الفئتين لمدة نحو مائة وعشرين عاما (٢٦٤ - ١٤٦ ق م) ويكسب النصر أخيرا لروما وجيشها ، فيقضى على قرطاجة قضاء مبرما ، ويهدم مبانيها الشاهقة ، ويبنى بجوارها قرطاجة جديدة ، وتستولى روما على كل ما كان بيد القرطاجيين الفينيقيين من بلدان وأقاليم فى إفريقيا

التونسية والبلاد المغربية ، وبذلك تبعتها نوميديا بما تشمله من الصحارى فى غربى الجزائر وشرقى المغرب الأقصى حتى نهر الملوبة وإلى الجنوب حتى سجلماسة ويقال إن قائدا رومانيا بناها وسماها سيجيلوم ماسة ، وحُرِّف الاسم مع الزمن إلى سجلماسة ، وبنى قواد آخرون مدنا فى نوميديا الجزائرية على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عن تاريخها القديم .

وكما مدت روما ولاءها على المدن الجزائرية الفينيقية مدته أيضا على مدن الفينيقيين فى المغرب الأقصى : مليلة وطنجة وأصيلا ، وكان حكامها من البربر سكاتها يتخذون عاصمة لهم طنجة . وكان المغرب الأقصى شرقى نهر الملوبة يسمى موريتانيا الغربية ، أما موريتانيا الشرقية فكانت تتداخل مع نوميديا . وربما كان أهم حاكم قديم لموريتانيا الغربية هو بوكوس الأول ، وإليه أصهر يوغورطة حاكم نوميديا ، ودخل يوغورطة فى حروب مع الرومان فأعنتهم فى القبض عليه سنة ١٠٦ قبل الميلاد صهره بوكوس ، وخلفه ابنه بوغيد سنة ٨٠ قبل الميلاد وظل قائما عليها حتى سنة ٤٤ قبل الميلاد فخلفه ابنه بوكوس الثانى حتى سنة ٣٣ قبل الميلاد . واستولى عليها الرومان بعده ، وفى سنة ١٧ قبل الميلاد جعلوا عليها بوبا الثانى صاحب نوميديا ، وخلفه عليها ابنه بطليموس حتى سنة ٤٠ للميلاد ، ثم جثم الرومان على المغرب جميعه . ونرى الرومان ينشئون فى المغرب الأقصى مدنا على ساحل البحر المتوسط مثل سبتة القرية من جبل طارق وكانوا يسمونها «سيفيتاس» واتخذوها مقرا لحكومتهم الرومانية فى المغرب الأقصى ، فهى متحضرة من قديم ، وعمالها مهرة فى صناعة النحاس والشمعدانات ، وخارجها بساتين وحدائق بديعة . ولم يكف الرومان بما كان على المحيط للفينيقيين من مدن مثل طنجة وأصيلا ، فقد توغلوا على ساحله إلى موقع سلا وبنوا فيه مدينتها قرب نهر لئى الرقراق على مسافة ميلين من المحيط ، بل توغلوا أكثر من ذلك إلى إقليم تامسة ، وبنوا على ساحل المحيط مدينة أنفة مدينة الدار البيضاء الآن ، وهى فى سهل خصب صالح لزراعة كل أنواع الحبوب . وجلس الرومان خلال ديار المغرب الأقصى ، بدليل أننا نجدهم يتفرجون على منطقة فاس وما بها من زروع مزدهرة ، وأعجبهم بجوارها جبل زرهون الذى يمتد نحو الغرب ثلاثين ميلا ويمتد عرضه إلى عشرة أميال ، وهو مغطى بأشجار الزيتون ، وقد بنوا فوق قمته مدينة وليلي ، والأرض حولها مزدانة بمزارع وبساتين بديعة ، وكان الوالى الرومانى يقيم إما فى هذه المدينة وإما فى مدينة سبتة . وأرهب الرومان سكان المغرب الأقصى بكثير من العسف والضرائب الباهظة ، وكانوا يهبون خيرات الأرض من الحبوب والزيتون وعصيره . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمى حاولت نشرها فى أرجاء إمبراطوريتها والبلاد المغربية ، غير أن من اعتنقوها من المغرب الأقصى كانوا قلة شديدة فى المدن الساحلية ، وأكثروهم كان من الجاليات الرومانية والأجنبية . وظل البربر يقومون بفنن وثورات كثيرة فى أيام الرومان لكثرة مظالمهم وفداحة ما كانوا يفرضونه من الضرائب على الشعب البربرى ولبنائه ، وأخذت دولتهم تضعف منذ القرن الثالث

الميلادى وأخذت تسود الفوضى وتعم الثورات فى الإمبراطورية الرومانية والبلاد المغربية ، وتفاقم ذلك فى القرن الرابع الميلادى . وطمعت شعوب أوروبا الشمالية فى اقتسام أراضي الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وأخذت تكسح أجزاءً أوروبية منها حتى إذا كتبت سنة ٤٣٤ للميلاد اكسح الوندال كل ما تملكه روما فى إفريقيا التونسية والجزائر وتونيدبا ورحب بهم المغاربة وأعانوهم ضد الرومان ومكنوهم من الانتصار عليهم ، لما ظنوا فيهم من وقف الظلم الرومانى ورفعه عن كواهلهم غير أنهم لم يلبثوا أن ذاقوا الأمرين فى عهدهم الذى امتد نحو مائة عام إلى أن قضى على مجموعهم القائد البيزنطى : « بليزير » سنة ٥٣٩ للميلاد . وكانوا شعباً حربياً فلم يخلقوا فى المغرب علما ولا فنا ولا صناعة ولا أخلاقا ولا نظاما . وخلفتهم فيه بيزنطة لنحو مائة عام أخرى ، واتسم عهدهم بالعسف والظلم كمهد الوندال والرومان . على أن الرومان حاولوا نشر المسيحية فى البلاد المغربية ونجحوا فى بعض المدن الساحلية كما مر بنا فى الجزائر وتونس ، كما نجحوا فى نشر لغتهم اللاتينية وخاصة فى المدن الساحلية ، أما بيزنطة فلم تحاول نشر لغتها ولا شىء من ثقافتها فى البلاد المغربية . وكانت تمد ذراعاها على بعض المدن مثل سبتة على ساحل البحر المتوسط وربما مدته أيضا على بعض المدن على ساحل الأطلسى . وأكبر الظن أن الوندال لم يستطيعوا وضع أيديهم على المغرب الأقصى لبعده الشديد عن مراكز انتشارهم فى تونس والجزائر ، ونظن ظنا أن قوط إسبانيا انتهزوا الفرصة فى أيامهم وأيام بيزنطة فاستولوا على أجزاء من ساحل البحر المتوسط ، وبنوا عليها مدينتى باديس وترغة بجانب مليلة الفينيقية التى كانت خاضعة لهم قبل الفتح العربى ، وبجانب سبتة وطنجة فى الشمال ومدن الساحل الغربى الفينيقية والرومانية مثل أصيلا - سلا - أفة بناو مدينة كونتى جنوبى مدينة آسفى فى منطقة دكّالة كما بناو مدينة مراير فى الداخل على مسافة نحو عشرين ميلا من كونتى . والقوط مثل الوندال لم يكونوا أصحاب حضارة ينشرونها فى البلاد التى نزلوها أو بنوا لهم فيها بعض المدن .

٣

الفتح والولاية - ثورة الصفرية - بنو مدرار - الإدارة - بعد الإدارة والمدارين

(أ) فتح^(١) المغرب الأقصى وعصر الولاية

بدأت أولى محاولات فتح البلاد المغربية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، إذ رأى عمرو بن العاص واليه على مصر فى أواخر سنة ٢١ للهجرة تأمينا لحدود مصر الغربية أن يتعقب الروم

(١) انظر فى فتح المغرب الأقصى : فخر البلدان
للإفريقى وفتح مصر والمغرب لابن عبد الحكم
والاستنفا فى أخبار دول المغرب الأقصى والكمال لابن
الأثير وتاريخ ابن خلدون والبيان المغرب لابن عذرى .

فى بركة وديار المغرب ، واستولى سريعا على بركة وزويلة عاصمة فزان سنة ٢٢ هـ/٦٤٢ م ودار
 العام ففتحت له طرابلس أبوابها سنة ٢٣ هـ/٦٤٣ م . وتوفى الخليفة عمر بن الخطاب وخلفه
 عثمان بن عفان فعزل عن مصر عمرو بن العاص ، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ،
 فاستأذنه فى معاودة فتح ديار المغرب ، وأمدّه بجيش كبير كان به عدد من الصحابة ، فاتحهم
 به ديار المغرب سنة ٢٧ هـ/٦٤٧ م . ونازل والى بيزنطة جريجوريوس فى حصن داخل الإقليم
 التونسى يسمى « سبلة » وسحق جيشه سحقا ، وقُتل جريجوريوس فى ساحة المعركة ،
 وفتحت جميع البلاد التونسية أبوابها لابن أبى سرح ما عدا قرطاج إذ ظلت بها حامية رومية .
 وتبع إفريقية التونسية الخلافة الأموية ويتعاقب عليها الولاة ، حتى إذا وليها عقبة بن نافع سنة
 ٥٠ هـ/٦٧١ م أنشأ مدينة القيروان أى المعسكر وأتمها سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م واتخذها قاعدة
 للجيش العربية الفاتحة للمغرب ودارا لحكومته وتدير شئونها ، وبعبارة أخرى اتخذها عاصمة
 للمغرب وبنى فيها جامعا كبيرا ودارا للحكومة وسرعان ما أصبحت مدينة كبرى ، وغُزل ،
 وخلفه أبو المهاجر سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م فصمم على فتح نوميديا فى المغرب الأوسط وما وراءها
 من الصحارى وظل يفتح البلدان حتى انتهى إلى موريتانيا الشرقية وتلمسان ، ولقيته قبيلة أوربة
 ورئيسها كسيلة ، فهزمها وأسر كسيلة واعتنق الإسلام واعتنقه معه كثيرون من قبيلته . وغُزل
 أبو المهاجرين سنة ٦٢ هـ/٦٨١ م وولى مكانه عقبة بن نافع ثانية ، وهو يعد الفاتح الحقيقى
 لديار المغرب الأقصى ونشر الإسلام فيه ، إذ قام بعمليات عسكرية واسعة النطاق ، وبدأ بالمغرب
 الأوسط فانزع ما كان لا يزال بأيدى البيزنطيين من الحصون فى إقليم الزاب ، وأوغل غربا ،
 وأعلنت له قبيلة غمارة فى شمالى المغرب الأقصى بالريف والميط ولأهأ وهادته ورسالته ،
 وأخضع ولىلى فى منطقة فاس ، وسار إلى قبيلة مصمودة فى مناطق مراكش وحاحة وجزولة
 ونازها واستسلمت . ثم سار إلى السوس آخر معاقل البربر فى المغرب الأقصى ، والنصر يواكبه
 حتى بلغ ماسة على المحيط ، وأدخل فرسه فيه حتى بلغ الماء تلايب (طوق) الفرس وهتف
 قائلا : « اللهم إني أشهدك أنى وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبد رب سواك » .
 وكان قد أوغر صدر كسيلة فرصه فى طريق عودته ، حتى إذا سبقه الجيش فى الزاب بالجزائر
 وكان فى فئة قليلة حاصره ، واستشهد البطل العظيم هو ومن كانوا معه سنة ٦٤ هـ/٦٨٣ م
 واستولى كسيلة بجموعه على القيروان ، وتراجع زهير بن قيس خليفة عقبة عليها إلى بركة انتظارا
 للدد يأتيه ، وأنه الدد مع توليته على المغرب سنة ٦٩ هـ/٦٨٨ م وينازل كسيلة ويهزمه ويقتل
 فى المعركة . ويتولى القيروان والبلاد المغربية بعده حسان بن النعمان سنة ٧١ هـ/٦٩٠ م وكان
 سياسيا قديرا يحسن تدبير الحكم فدون دواوين للجند وللخراج وللرسائل ، وافتتح قرطاج
 وطرده منها جالية الروم التى كانت تتجسس لحساب بيزنطة وبذلك أصبحت إفريقية التونسية
 خالصة للعرب ، وأنشأ مدينة تونس لتكون قاعدة لأسطولها ، وبنى بها دار صناعة تمد الأسطول

بما يلزمه من السفن ، ونشبت في أيامه ثورة عنيفة لقبيلة جراوة الزناتية بجبال أوراس ، وكانت تقودها كاهنة ، فنازها ولم يكتب له النصر ، واضطر إلى الانسحاب إلى « سرت » انتظاراً لمدد ، وجاءه جيش جرار فهزمها وقتلت في أثناء فرارها ، وصالحهم على أن يكون ابنها الأكبر الوالي عليهم وأن يجندوا منهم اثني عشر ألفاً ليكونوا جزءاً لا يتجزأ من جيشه ، وكانت سياسة حكيمة فقد أصبح أهل المغرب رقاء سلاح وأصبح منهم ولاية لا فرق بينهم وبين العرب في شيء . وبذلك ملك قلوب المغاربة ، وأخذ انتشار الإسلام يتسع في المغرب الأقصى وفي كل مكان بالديار المغربية . وخلفه على القيروان وبلاد المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م فوضع نصب عينيه استكمال نشر الإسلام في ربوع المغرب الأوسط والأقصى وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ومعها فقهاء يعلمون الناس قواعد الإسلام وشريعته ثم نهض على رأس حملة كبرى اكسحت البلاد المغربية حتى أقصى الغرب شمالاً في طنجة وجنوباً في إقليم السوس ، وخلف في النواحي التي لم يتم إسلامها فقهاء يعلمونهم شئون دينهم وفروضه ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم في أيامه كثيرون من البربر وأتم التنظيم الإداري للديار المغربية ، فولاية لبرقة هي عاصمتها ، وولاية ثاية لإفريقية التونسية وشرقي المغرب الأوسط عاصمتها القيروان ، وولاية لغربي المغرب الأوسط عاصمتها تلمسان ، وولاية لبلاد السوس في المغرب الأقصى عاصمتها سجلماسة ، وولاية لبقية المغرب الأقصى حتى شماليه عاصمتها طنجة، ولكل ولاية حاكمها من العرب أو البربر ، وجعل حاكم طنجة بربرياً هو طارق بن زياد، وأكثر من ذلك جعله قائداً لفتح الأندلس ، وكان أكثر جيشه من البربر ، ومعنى ذلك أنه ألغيت كل تفرقة بين العرب والبربر بحيث أصبحوا سواسية في حكم المدن وفي قيادة الجيوش وفي الجهاد نصرة لدين الله وابتغاء نشره في أطباق الأرض طلباً لما عند الله من الثواب. وبذلك لم يعد هناك أى فارق بين العربي والبربري ، فهما أخوان مسلمان يعملان على إعلاء كلمة الله . ونستطيع أن نقول إن فتح العرب للمغرب الأقصى والديار المغربية تم في القرن الأول الهجري وكان تمامه على يد موسى بن نصير والفاطميين اللذين سقاه حسان بن النعمان وعقبة بن نافع ولم يجعلوه فتحاً حرياً بل جعلوه فتحاً عقائدياً أخوياً لأمة وثنية أصبحت تدعى بوحدانية الله ، وأصبحت تستشر أخوة العرب أصحاب هذا الدين، فهي تشاركهم في العمل تحت لوائه جهاداً في سبيله ونصرة لعقيدته وتعاليمه.

وتوفي الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ م وخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك وكان قصير النظر فعزل البطالين العظمين : موسى بن نصير وطارق بن زياد عن عملهما في الأندلس وغير الأندلس ، وتوقف الفتح العربي في شمال إسبانيا وجنوبي فرنسا ، وخلفه عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، فحاول أن يصلح أداة الحكم في الدولة ، وولى على القيروان وديار المغرب فقيهاً هو إسماعيل بن عبيد الله حفيد أمي المهاجر الوالي في فرتى عقبة

وأرسل معه تسعة من الفقهاء ، وكلفهم بالعمل جميعا على نشر الدين الحنيف ، ودخله مغاربة كثيرون من كل أنحاء المغرب . وتوفى الخليفة عمر بن عبد العزيز سرهما ، وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، فأرسل إلى القيروان يزيد بن فني مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢٠ م . وبدأ عهد جديد في المغرب لولاة بنى أمية ، عهد يقوم على الخسف والظلم للبربر في جمع الضرائب والأموال ، ولم يطق البربر الصبر على سياسة هذا الوالى الجائرة فقتلوه في السنة التالية ، وكان ذلك عبرة وعظة ليزيد بن عبد الملك فولى عليهم بشرين صفوان وخلفه سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ، ولا تؤثر لأحدهما أعمال جليلة يؤلف بها قلوب الرعية المغربية . وتولى عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م ويذكر له إعادة بناء جامع الزيتونة الذى بناه قبله حسان بن النعمان ، وقد ساس الرعية هو وعماله سياسة متعسفة ظالمة أشد الظلم ، إذ أزهقوا البربر بضرائب فادحة ، وأبوا أن يسوا بينهم وبين العرب فى الخراج وجميع الشئون المالية ، كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، متعامين عن أنهم أصبحوا للعرب رفقاء سلاح وجهاد فى الأندلس وفى المغرب نفسها ، وبلغ من سفه عامل طبخة القائم على شئونها المالية أن أعلن للمغاربة هناك أنه عازم على تخميس أراضي البربر زاعما زعما كله إثم وكذب وبهتان أنهم قتلوا للعرب وغنائم حرب لهم .

(ب) ثورة الصفرية

لم يتنبه حكام بنى أمية وعملهم فى القرن الثانى الهجرى إلى أن من الخطأ بل من أكبر الخطأ هذه المعاملة الظالمة للمغاربة بدم التسوية بينهم وبين العرب فى الشئون المالية ، مع أنهم أصبحوا رفقاء سلاح وجهاد وأسهموا معهم فى فتح الأندلس ونشر دين الله ، بل كان لهم فى ذلك النصيب الأوفر ، وكان الإسلام قد استقر فى ديارهم وأصبح لهم فيه شيوخ كثيرون يفقهون تعاليمه وما يفرضه من العدل والتسوية بين أتباعه ، لذلك انطوت نفوس كثيرين منهم على سخط شديد لحكام بنى أمية وعملهم . واتضاف إلى ذلك أن كثيرين من أتباع فرقتى الصفرية والإباضية نزلوا المغرب فرارا من اضطهاد الأمويين ، واختار الأولون المغرب الأقصى واختار الثانون جبل نفوسة بجوار طرابلس ، ووجدت كل ففة منهما الجو مهيئا لترويج دعوتها القائلة برفع الظلم عن أبناء الأمة الإسلامية والتسوية بينهم جميعا فى الشئون المالية ، وكأنا وجد مغاربة جبل نفوسة فى الدعوة الإباضية مخلصا لهم من ظلم حكام بنى أمية وبغى عملهم ، وأحسن مغاربة المغرب الأقصى فى دعوة الصفرية نفس الإحساس . وملأ نفوسهما جميعا إيمانا بدعوتيهما ما تقرران من التسوية حتى فى تولى الخلافة فلا يصح أن تقصر على قريش ، بل هى حق للمسلمين جميعا عربا وغير عرب يتولاها أكفؤهم . ولم يعد فى المغرب الأقصى شخص يسمع بدعوة الصفرية إلا ويستجيب إليها ضد من يسومونهم العذاب فى سلب أموالهم

باسم الخراج سوى ما يكلفونهم من المغارم والجبايات مما كثر معه - كما يقول ابن خلدون - عيّنهم في أموال البربر وجورهم عليهم ، بحيث أصبح لا مفر من ثورتهم على هؤلاء الحكام الباغين الظالمين المطلين لتعاليم الإسلام . لذلك كان طبيعياً أن يتشر في المغرب الأقصى مذهب الصفرية وأن تعتقه القبائل هناك ، تعتقه قبيلة مضفرة وشيخها ميسرة وقبيلة مكناسة وشيخها سمكو بن واسول وقبيلة برغواطة وبعض قبائل زناتة وتغلغل في بعض المدن في جماعات السودان الفاطنين جنوبي الصحراء وجميع أرجاء المغرب الأقصى . وأجمع دعاة الصفرية فيه على زعامة ميسرة شيخ قبيلة مضفرة ، وبوع بالإمامة ، وزحف بجموع الصفرية إلى طنجة ، فاستولى عليها وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادي ، وعين عليها والياً من قبله ، واتجه بجموعه إلى السوس فقتل واليها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ودلت له ، وتمت له بذلك السيطرة على جميع المغرب الأقصى .

وعرف ذلك عبيد الله بن الحبحاب ، فبادر بإرسال جيش بقيادة خالد بن حبيب الفهري فالتقى بميسرة وجيشه قرب طنجة ، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس ، رجحت فيها كفة خالد ، فانسحب ميسرة إلى طنجة ، ولم يعجب ذلك أتباعه من الصفرية ، فنجّوهم عن قيادتهم وولوها خالد بن حميد الزناتى كما ولوه الإمامة سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م وأخذ يعد جيشاً للقاء خالد الفهري ، ونصب له ولجيشه كميناً على نهر شلف شمالى تاهرت ، ودارت معركة حامية انتهت بالقضاء على جيش خالد الفهري قضاء مبرماً وكان فيه كثير من أشراف العرب فسميت معركة الأشراف لكثرة من مات فيها من حماة العرب وفرسانهم وكثافتهم وأبطالهم . وغضب هشام بن عبد الملك لهذه الهزيمة الساحقة ونحى عبيد الله بن الحبحاب عن ولاية المغرب ، وولّى عليه كلثوم بن عياض القشيري ، وأعانه بلبن أخيه بلج بن بشر ، وبعث معه جيشاً ضخماً عداده ثلاثون ألفاً ، وزحف بلبن أخيه وهذا الجيش إلى خالد بن حميد الصفرى بطنجة ، والتقىا جنوبيها ، ودارت معركة ضارية انهزم فيها كلثوم وتوفى ، فلجأ بلج إلى سبتة بمشرة آلاف من جنده ، وحاصره خالد بن حميد والصفرية ، واضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس .

ونشب ثورات للبربر في جميع الديار المغربية ، وولّى هشام بن عبد الملك عليه حظظة بن صفوان سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م ، وتطايّر شرر كثير من دعوة الصفرية إلى المغرب الأوسط والأدنى ، وأخذ يعتنقها كثيرون في المغرب الأوسط بين قبائل نفزة وزناتة ، ويفاجأ حظظة بقاتدين صفرين كبيرين هما عكاشة بن محصن الفزاري وعبد الواحد بن يزيد المواري يحشدان جموع الصفرية في الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا على أن يتخذا طريقين لمهاجمة القيروان : عكاشة من الجنوب ، وعبد الواحد من الشمال ، وعلم حظظة بخطتهما فأسرع بلقاء عكاشة وسحق جيشه ، وعاد إلى القيروان وأخذ يستعد للقاء عبد الواحد ، ونجح في استمالة أهل القيروان وفي مقدمتهم الفقهاء ، ووزع عليهم جميعاً السلاح ، وبث القصاص والقراء يحرضون

على الجهاد ، وبرز نساء القيروان ففقدن الألوكة وأخذن معهن السلاح ، وعزم على القتال واستسعلن للموت مع الرجال ، وحلفن لأزواجهن لئن اتهم أحد منكم إلينا موليا عن العدو لنقتله ، فامتأ الجيش حامية وحمية ، ودارت المعركة وهزمت الصفرية هزيمة ساحقة قتل منهم فيها مائة وثمانون ألفا .

وكان المغرب الأقصى حينئذ هادئا بإمامة خالد بن حيد الزناتى ، وخلفه على إمامة الصفرية وزعاتهم أبو قرّة المخلّى ، ويقال إنه حضر مع عبد الواحد الهوارى معركة القيروان وفر حين تراءت له الهزيمة . ونفاجأ سنة ١٣٩ هـ/٧٥٦ م بقبيلة ورفجومة الصفرية أشد قبائل نفزة بأسا بأوراس تستولى على القيروان وتستحل المحارم وترتكب العظائم كما يقول الرقيق القيروانى إذ ربطوا دوابهم فى المسجد وهتكوا عرض بعض النساء . وكل ذلك غريب على دعوة الصفرية فهى فقط تكفر مرتكب الكبيرة وتستحل قتال المسلمين ولكنها لا تستحل ارتكاب العظائم ، ولعل ذلك ما جعل أهل المغرب الأقصى فيما بعد ينصرفون عنها وعن دعائها بينهم كما جعل أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافى زعيم الإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة حين علم بمايرتكبون من المآثم فى القيروان ينازلهم ويقاتلهم حتى يقضى عليهم سنة ١٤١ هـ/٧٥٨ م وولّى عليها عبدالرحمن بن رستم أحد قواده . وسرعان ما يهزم والى القيروان العباسى الجديد محمد بن الأشعث أبا الخطاب المعافى فى موقعة فاصلة، وينسحب عبدالرحمن بن رستم من القيروان إلى الزاب ويؤسس به دولته الرستمية الإباضية فى تاهرت. وعلى أثر ماحدث من هزيمة الصفرية فى القيروان نجد أبا قرّة الصفرى يكون له إمارة مستقلة بتواحي تلمسان. وفى الوقت نفسه نجد أحد زعماء الصفرية منذ التفافهم حول ميسرة، وهو أبو القاسم سمكون واسول ينشئ للصفرية دولة فى سجلماسة، ولم ينشئها فى طنجة ولا فى المناطق الساحلية والداخلية للمغرب الأقصى ممايدل على انصراف الناس فيهما عن تلك الدعوة ، وخاصة بعد ماشاع عنهم فى احتلالهم للقيروان من استحلال المحارم وارتكاب العظائم وربط دوابهم فى المساجد.

وعلم ابن الأشعث أن أبا قرّة يعدّ العدة فى تلمسان لمهاجمة الزاب والقيروان ، فأرسل فى سنة ١٤٨ هـ/٧٦٥ م الأغلب بن سالم التيمى على رأس جيش لمواجهة قواته ، والتقى به وجموعه فى الزاب ، واضطر أبو قرّة إلى الانسحاب . وتولى المغرب عمرو بن حفص المهلبى سنة ١٥٠ هـ/٧٦٧ م ونازل الصفرية فى الزاب ونكّل بهم ، وخلفه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٤ هـ/٧٧٠ م وكان بطلا مغوارا ففرض على الصفرية فى المغرب الأوسط (الجزائر) قضاء نهائيا ، وحاولت ورفجومة الثورة فقمع حركتها سنة ١٥٧ هـ/٧٧٤ م ويقال إنهم تفرقوا فى القبائل بعد هذه الحركة ولم يعد لهم كيان قبل مستقل . ونشعر بوضوح أنه لم يعد للصفرية شأن يذكر فى المغرب الأوسط والأقصى بعد عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠هـ) فإن من بقى منهم اتسحب إلى سجلماسة وحكامها الصفرية من بنى مدرار .

استقر في أذهان كثيرين من الصفرية - وخاصة صفرية مكناة - بعد إخفاق حملتي عكاشة وعبد الواحد على القيروان وكثرة من قتل فيهما من الصفرية حتى لقد بلغوا أكثر من مائة ألف صفري أنه ينبغي أن يحثوا لهم عن مدينة نائية يصعب وصول الجيوش القيروانية العباسية إليها يتخذونها مأوى لهم ويعيشون فيها شبه منزولين عن مسالك تلك الجيوش ، واختاروا سجلماسة لذلك سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م لأنها تقع في أقصى مكان بالجنوب الشرقي من المغرب الأقصى على نهر زيز والطرق المؤدية إليها شديدة الوعورة ، وتكتنفها متاهات من القفار . وكان الذي اختارها زعيم من زعماء الصفرية بمن أسهموا في حروب ميسرة وخالد بن يزيد إمامي الصفرية ، وهو أبو القاسم سمكو بن واسول الملقب بمدرار زعيم صفرية مكناة ، وكان من حملة العلم وارتحل في سبيله إلى المدينة وإلى تونس ، وفيها تلمذ على عكرمة المفسر مولى ابن عباس وتلميذه ، وكان يعتنق دعوة الصفرية فحملها عنه تلميذه سمكو ، ورجع إلى قومه في مكناة يشرب بها ويدعوهم إليها ، فاستجاب له كثيرون وشاركوا في حروب ميسرة وخالد بن يزيد كما أسلفنا . وكان حصيفا ، وكان قد درس مذهب الصفرية أو عقيدتهم ، ورأى من أسسها الأخذ بالثقبة وأن من حق الصفري أن يعلن أنه مع الجماعة في الظاهر ويطن الدعوة الصفرية ، وكان لا يمد دار المسلمين أو دار الجماعة دار حرب ، بل يتعاش معهم ، والصفري لذلك من حقه القعود عن الحرب وأن لا يحمل السلاح في وجه المسلمين ، وهو ما آمن به ، وكأنه كره الحروب التي خاضها ميسرة وخالد بن يزيد ضد جيوش القيروان وأن يسل المسلم السيف في وجه أخيه المسلم ، لذلك رأى أن ينحاز عن معاركهما الطاحنة إلى سجلماسة وتبعته كثرة من صفرية قومه أهل مكناة ، وجاءته عناصر صفرية مختلفة من صنهاجة وزناتة وزنوج السودان من سكان القبايلي والصحراء بين سجلماسة وغانة ، وسرعان ما أصبحت مدينة كبيرة .

وكان سمكو الملقب بمدرار صالحا تقيا متواضعا ، فرأى أن يكون أول إمام في هذه الدولة سودانيا من رءوس الخوارج ، وهو عيسى بن يزيد ، وارتضته الصفرية وبايعته ، فقام بأمر سجلماسة وشق القنوات واستكثر من غرس النخيل والزروع . واتسع ثراء أهل سجلماسة لكثرة ما كانوا يتبادلونه - ويتجرون فيه - من السلع مع السودان . وظلت الصفرية - مع السنين - تنعم على عيسى بن يزيد - بعض تصرفاته ، حتى إذا كانت سنة ١٥٥ هـ/ ٧٧١ م

(طبع ليدن) ص ٦٠ وفي مواضع مختلفة وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (طبع الدار البيضاء) ١٣٧/٣ وما بعدها وتاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ١٣٠/٦ وما بعدها .

(١) انظر في دولة بني مدرار بسجللماسة كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (طبع باريس) للكبرى ص ١٤٨ وما بعدها والبيان المغرب لابن عذري (طبع بيروت) ص ٢١٥ وما بعدها وصفة المغرب للإدرسي .

نخته عن الإمامة ، ونصبت مكانه نبا القاسم سمكو الملقب بمدرار حتى سنة ١٦٧ هـ/ ٧٨٣ م وظلت الدولة في أسرته ، ولذلك قيل لها دولة بني مدار ، وقد عمل على إرساء قواعد الدولة على أسس المبدئين اللذين أشرنا إليهما : مبدأ التقية ومبدأ القعود عن الثورة على حكام الجماعة الإسلامية وعماهم عباسين وغير عباسين ، وبذلك ضمن لسكان سجلماسة الصفرين أن يعيشوا معيشة هادئة آمنة لا يعمر صفوها حرب مع ولاة العباسيين ودولة بني الأغلب التي قامت باسمهم في القيروان . وبهذا الموقف الذي وضع فيه سمكو الملقب بمدرار سجلماسة وسكانها من الصفرين نفهم ما يقوله ابن خلدون من أن سمكو مدارا كان يخطب في عمله لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي (١٣٦-١٥٨ هـ) وابنه المهدي (١٥٨-١٦٩ هـ) . وتوالى أبناؤه وأحفاده من بني مدار يدعون في خطبهم لخلفاء بني العباس ، وبذلك كفوا شر حروبهم وجيوشهم . واتخذت الصفرية في سجلماسة ابنه إلياس إماما بعده ، وتظل تقم عليه وجوها من سياسته وتصرفاته ، وتُجمع أمرها في سنة ١٩٤ هـ/ ٨٠٩ م على خلمه وتولية أخيه اليسع مكانه ، ويذكر البكري أنه هو الذي دبر أمر خلع أخيه ، وكان حازما يحسن تدبير الملك ، فأعد جيشا قويا وسع به أطناب إمارته ، واستطاع احتلال درعة وضمها إلى إمارته وأخذ الخمس من مناجم الفضة فيها ومعدن الذهب ، وبني بجانب سجلماسة مدينة شيد قصورها واختط مصانع بها وأقام حول سجلماسة سورا لتحصينها جعل فيه اثني عشر بابا ، وأصهر بانه مدار للحاكم الرستمي عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١ هـ) في ابنته أروى توثيقا للعلاقة بين دولته الخارجية الصفرية والدولة الخارجية الرستمية الإباضية في الجزائر ، وتوفي سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٣ م فولى إمامة الصفرية بعده ابنه مدار ، وطالت ولايته ورزق بلبين من الرستمية وقرينة لها صفرية ، وسمى كلا منهما ميمونا ، وكان يؤثر ابن الرستمية على أخيه ، وحاول أن يولي مكانه سنة ٢٢٤ هـ/ ٨٣٨ م فأرغمته الصفرية على التنازل عن الإمامة لأخيه ميمون بن الصفرية ، فنفي أباه إلى بعض قرى سجلماسة حتى وفاته سنة ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م وظل هو يلي الإمامة حتى وفاته سنة ٢٦٣ هـ/ ٨٧٧ م وخلفه عليها ابنه محمد حتى سنة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٤ م وخلفه ابنه اليسع ، وفي عهده نزل أبو عبد الله الشيعي داعية المهدي الإمام العبيدي كتابا في الجزائر وظل فيها سنوات يث دعوته ، ونجح في بها واستطاع تكوين جيش منها لمنازلة الدولة الأغلبية في القيروان ، وشعر بأنه يوشك أن ينجز مهمته لصالح المهدي ، فأرسل إليه يستقدمه ليشترك في الأحداث الأخيرة ، ولأه المهدي واصطحب معه رفقة من رجاله سنة ٢٩٣ هـ/ ٩٠٥ م والتزم التخفي من عمال الدولة العباسية في طريقه وسلك طرقا غير معهودة أدته إلى سجلماسة ، فأكرمه اليسع ، وبعد فترة ارتاب فيه ، فسجنه هو ورفقائه . وعلم بذلك أبو عبد الله الداعية العبيدي الشيعي ، فانتظر حتى انتصر على الأغلبية سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م وزحف إلى سجلماسة لإخراج عبيد الله المهدي من السجن ورد حريته إليه ، وعلم اليسع بقدمه إلى سجلماسة ،

فخرج إليه بجيشه من مكناة ودارت معركة كسب فيها النصر لأبي عبد الله الشيعي وجيشه ،
وقتل اليسع في المعركة واستولت كتامة على سجلماسة ، وخرج المهدي ورفاقه من محسهم ،
وبابه أبو عبد الله الشيعي ، وبابه الناس وولى على سجلماسة واليا من كتامة ، وانصرف مع
داعيته إلى إفريقية التونسية .

ولم تلبث صفرية سجلماسة أن انتفضت على والي المهدي الكمامي وقتله هو ومن معه من
كتامة سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م وبايعت الفتح بن ميمون بن الرستمية ، وتوفي سريعا فخلفه أخوه
أحمد ، واستقام أمره وحكمه إلى أن زحفت إليه كتامة بقيادة مصالة بن حبوس سنة
٣٠٩ هـ / ٩٢١ م فانتصت سجلماسة وقبض على أحمد وولاه ابن عمه المعتز ، وتوفي سنة
٣٢١ هـ / ٩٣٣ م وبايعت الصفرية ابنه سمكو ، وكان لا يزال في المهدي ، فثار عليه ابن عمه
محمد بن الفتح بن ميمون ، وتلقب بالشاكر لله ، ورفض الدعوة الصفرية ، وأعلن الأخذ
بمذاهب أهل السنة ، وكان عادلا منتهى العدل كما يقول ابن خلدون ، ويقال إنه دعا لنفسه
بالخلافة ، ويقول ابن خلدون إنه دعا لبني العباس ، وأنه ضرب العملة باسمه . وظل يحكم
سجلماسة حكما عادلا رشيدا إلى أن اكسح جوهر الصقلي بجموعه الشيعية من كتامة
وصنهاجة المغرب الأقصى ، واستولى - فيما استولى - على سجلماسة ، وأخذ حاكمها السني
محمد بن الفتح أسيرا إلى رقادة بإفريقية التونسية ، وتوفي بها سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م . وثارت
الصفرية على والي جوهر الصقلي سريعا ، وبايعت أحد أبناء الشاكر لله ، وارتضى ذلك المزع
العبيدي ، غير أن أخاله ثار عليه وقتله سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م . وأخذ نجم قبيلة مكناة في
الأفول بينما أخذ نجم قبيلة زناتة في التآلق والسطوع . وكان أمويو الأندلس قد استطاعوا جذب
مفراوة الزناتية إليهم ، وبمساعدهتهم زحف حزرون بن فلفول من أمرائها إلى سجلماسة سنة
٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م وبرز له المعتز مع قومه الصفرين من مكناة ، وقتل وهزم قومه هزيمة
ساحقة لم تقم لهم بعدها في سجلماسة قائمة ، وأقام حزرون بها دعوة الأمويين الأندلسيين ،
وكانت أول دعوة أقيمت لهم في المغرب الأقصى .

(د) الأدارة^(١)

معروف أن الحسين بن علي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب ثار على العباسيين بمكة
أيام الخليفة العباسي المهدي في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م وثار معه أهله وفي مقدمتهم

١٨٨/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٢/٤ وما بعدها
والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي
ودولة الأدرسة ملوك تلمسان وقسن وقرطبة لإسماعيل
المريني (طبع بيروت) .

(١) انظر في دولة الأدارة كتاب المغرب للكرمي وصفة
المغرب للإدرسي وروض القرطاس في أخبار ملوك
المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع (طبع الرباط)
ص ١٩ وما بعدها والبيان المغرب لابن عشاري ٢٩٩/١
وما بعدها وأعلام الأعلام للسان الدين بن الخطيب

عمه : يحيى وإدريس ، وسرعان ما نازله جيش عباسى فى مكان على بعد ثلاثة أميال من مكة يقال له : « فح » ودارت الدوائر على الحسين ومَنْ معه فقتل فى المعركة مع جماعة من أهل بيته ، وفر عمه يحيى إلى الدبلم ، أما عمه إدريس ففر إلى مصر ، وكان على بريدها يومئذ شخص اسمه واضح ، وكان يتشيع ، فأتاه إلى مخبئه ، ووجد معه مولاة راشداً فنصحهما أن يحملهما على البريد إلى المغرب الأقصى بعيدا عن المهدي وعيونه ، وأخذوا بنصيحته ، ونزلا فى ربيع الأول سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨م فى مدينة ولى بجبل زهون على إسحق بن محمد بن عبد الحميد المعتزل شيخ قبيلة أوربة ، وعرفه أمره ، فأجاره ، فبايعه وبايعته معه قبيلته ، وجمع على الدعوة إليه أيضا قبائل زواغة ولواتة وغمارة ونغزة ومكاسة وكافة البربر بالمغرب فبايعوه . ولما تمت دعوته زحف إلى جموع البربر الذين كانوا يزالون على دين المجوسية وإخوانهم اليهوديين والمتنصرين فدقوا له وأسلموا على يديه . وفى سنة ١٧٣ هـ/٧٨٩م زحف إلى تلمسان ومن بها من قبائل مفراوة الزناتية وأميرها محمد بن خزر فأعلن إليه الطاعة وبايعه هو وقبيلته مفراوة فأثنته وأمن سائر زناتة وبنى مسجداً بتلمسان ونظم شعونها ورجع إلى عاصمته « ولى » ولم يلبث أن توفى سنة ١٧٥ هـ/٧٩١م ويقال إن الرشيد أرسل إليه شخصا أظهر له الولاء ، ففره منه ، ولتتهز فرصة فدىس إليه السم وكان فيه حقه .

وكانت زوج إدريس حاملا فاتفق أنصاره على انتظار وضعها ، وأنجبت ولدا سمته باسم أبيه إدريس فقام على تربيته خير قيام مولاة راشد ، وتوفى راشد سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢م فجعلوا مكانه فى الوصاية عليه ولأشرافه على تربيته يزيد بن إلياس ، حتى إذا بلغ الصبى الحادية عشرة بايعوه فى جامع ولى ، وشبّ ودان له المغرب الأقصى واستوزر مصعب بن عيسى الأردى وأخذ يستكثر فى بطائه من العرب حتى بلغوا نحو خمسمائة وبهم عظم سلطانه . وقتل إسحق بن محمد بن عبد الحميد كبير أوربة لما علم من اتصاله بخصومه الأغلبية حكام تونس وشرقى الجزائر . ورأى أن مدينة ولى تضيق بحاشيته وأنصاره ، فصمم على بناء مدينة تسعهم ، وكلف باختيار موضعها بضعة من المهندسين ، وأشاروا عليه بموضع على مقربة من عاصمته ، فأخذ توارى فى بناء مدينته : فاس سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧م وتصادف أن كان فقهاء قرطبة حينئذ ناثرين على الحكم الرضى لانهماكه فى ملذاته وفى اللهو والملاهى فاجتمع أهل العلم والورع من الفقهاء وحضروه سنة ١٩٠ هـ/٨٠٥م وقاتلهم فقتل عليهم وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس وإسكندرية . ولا ندرى هل لحقوا بفاس فى أول بناء إدريس الثانى لها أو فى أثناء بنائها ، إذ نراه يتمم شطرا منها سنة ١٩٢ هـ ويسمى المَدَوَّة الأندلسية ، إما لأن الأندلسيين ساعدوا فى بنائه وسكنوه أو لأنهم سكنوه فحسب . وفى العام التالى بنى شطرا ثانيا مقللا للخطر الأول وسُمى عدوة القرويين أى المغاربة ، وجعل فيه مسكنه وإدارة حكومته ، وسُمى الشطران جميعا باسم فاس وظل يفصل بينهما طريق طويلا . وغزا إدريس الثانى قبيلة مصمودة

ودلت لطاعته واستولى على أغمات سنة ١٩٧ هـ/ ٨١٢ م ثم غزا تلمسان وجدد مسجدتها ومنيره وأقام بها ثلاث سنوات يدير شئونها ، ومحا منها دعوة الصفرية ، واقتطع غرب الجزائر حتى نهر شلف عن دعوة الأغالة والباسين ، ولم يستطع الأغالة منازل الأدارسة بعد هذا التاريخ وتوفى سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م .

وخلف إدريس الثاني ابنه محمد بعهد منه ، فرأى تقسيم مملكة أبيه بينه وبين إخوته واختص نفسه بفاس وأعمالها ، وأعطى القاسم إقليم الريف والميط بما فيه من ستة وتطوان وطنجة ، وأعطى عمر بلاد صنهاجة وغمارة ، وداود هواراة وتازة ومكناس ، وعبد الله أغمات وبلاد المصامدة والسوس ، ويحيى أصيلا والعراتش وبلاد ورغة ، وحمزة وليلي وأعمالها ، وعيسى أزموور وتامسة ، وأبقى تلمسان لأولاد سليمان بن عبد الله أخى جده إدريس . وخرج عيسى على أخيه محمد وطلب من القاسم حربه فانتع وطلب ذلك من عمر فهزمه وأخذ ما فى يده وطلب إليه محمد حرب أخيهما القاسم لامتناعه عن حرب عيسى فحاربه وأخذ ما فى يده ، وبذلك اتسعت ولايته فشملت إقليم الريف والميط وتامسة وهو جد المحموديين الإدريسيين المملكين لقرطبة فى أوائل القرن الخامس بالأندلس ، وتوفى سنة ٢٢٠ هـ/ ٨٣٤ م ولم يلبث الأمير محمد أن توفى سنة ٢٢١ هـ/ ٨٣٥ م وخلفه ابنه على فى التاسعة من عمره ، فقامت على تربيته الحاشية وظل حتى سنة ٢٣٤ هـ/ ٨٤٨ م وكانت أيامه أيام رخاء . وعهد لأخيه يحيى فانتسح سلطانه وعظمت فاس فى العمران وبُنِي بها كثير من الفنادق والحمامات ورحل إليها الناس من البلاد ، وهاجرت إليها سيدة ثرية فاضلة من القيروان من قبيلة هواراة - هى أم البنين الفهرية - ومعها أموال كثيرة أفادت من ذريها ، واعتزمت إيفاقها فى وجوه الخير ، فاخترت سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م المسجد الجامع المشهور بعدوة القرويين وهو المسمى باسم جامع القرويين ، وتحول فيما بعد إلى اليوم جامعة كبرى فى فاس كجامعة الأزهر فى القاهرة ، ويذكر لأحمد بن سعيد اليفرنى أنه بنى مئذنته على رأس قرن من اختطاطه . وولى بعد يحيى ابنه يحيى المسمى باسمه فأساء السيرة وكثر عبثه ، فثار عليه العامة ، واضطر إلى الانسحاب إلى العدو الأندلسية ، وبعد لبنتين من نزوله بها وافاه أجله ، وبذلك انقطع الملك فى الدولة من ذرية محمد بن إدريس الثاني .

وثار الصفرية ببجبال مديونة ودخلت عدوة الأندلس بفاس وقاومتها عدوة القرويين بقيادة يحيى بن القاسم بن إدريس وهزمتها وأخرجتها منها ، وتطورت الظروف فقام بالأمر فى فاس يحيى بن إدريس ابن عمر ، فملك جميع أعمال الأدارسة فى المغرب ، وخطب له فى سائرها ، وفيه يقول ابن خلدون : « كان أعلى بنى إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه فى السلطان والدولة » . وكانت الدعوة العبيدية قد نجحت واستطاعت

تقويض الدولة الأغلبية ، واستولى على صولجان الحكم فى طرابلس وتونس والجزائر عبيد الله المهدي وطمح إلى ملك المغرب الأقصى ، فعقد لمصالة بن حبوس كبير مكانسة على رأس جيش ضخم لمنازلة حكمه سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ونازل مصالة يحيى بن إدريس ، وارتضى إعلانه الطاعة للمهدي وخلع نفسه وإفاد البيعة فأبقى له مصالحه فى فاس وعقد له عمله عليها وحدها دون بقية بلاد المغرب ، وعقد مصالة لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكانسة يومئذ على بقية المغرب الأقصى ، وعاد مصالة إلى المغرب سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م فأغراه ابن أبي العافية يحيى فاستنصر أمواله ، وأجلى الإدارة إلى الريف فنزلوا مدينة البصرة واختطوا بها حصن السر سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م . وبذلك انتهت دولة الإدارة فى فاس وانتهى معهم سلطان أوربة . وتجدد لهم ملك فى سبتة وأصيلا وإقليم أو منطقة المبط ، وكانوا يختارون شخصا يقدمونه عليهم مثل قنون بن محمد بن القاسم بن إدريس ، وتوفى سنة ٣٣٧ هـ/٩٤٨ م فاتفقوا على تقديم أبي العيش أحمد بن قنون وكان يخطب لعبد الرحمن الناصر الأموى ، وارتأى أن يخرج إلى الأندلس مجاهدا سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م واستخلف أخاه الحسن بن قنون واتصلت مشايخته للأمويين الأندلسيين إلى أن غزا المغرب بلقين ، فدخل فى دعوة العبيدين مما جعل المستنصر الأموى يمد جيشا لحربه ، ونزله فى عهد هشام المؤيد الأموى جيش كثيف من الأندلس اضطره إلى طلب الأمان سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م . وبذلك انتهت دولة الإدارة فى إقليم المبط كما انتهت فى فاس .

وأما سليمان أخو إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الإدارة فى المغرب الأقصى فإنه نزل تلمسان وتملكها من زنقة ودانت له وتركها له إدريس الثانى . وتملك أنحاء من المغرب الأوسط ، وورث ملكه ابنه عمه واتسمه أبناؤه ، وظلوا يتوارثون تلمسان وأرشكول وجراوة وتنس واستنصر بعضهم الولاء لبنى أمية ، وأخيرا ضاع ما يدهم ، جزء أخذه ابن أبي العافية وجزء استولى عليه أولياء الدعوة العبيدية .

وقيل أن ترك الدولة الإدريسية لابد أن تشير إلى أنها أول دولة أسست فى المغرب الأقصى ، وكانت دولة إسلامية عربية ، وقد أسهمت بقوة فى نشر الإسلام السنى فى المغرب الأقصى وتلمسان وتطهيرهما من الصفرية والرافضة وعينت بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره ورواية الحديث النبوى وتفقيه الناس أمور دينهم ، وأخذت تتكون فى مساجد المدن حلقات القراءة والمفسرين والمحدثين والفقهاء وعنى علماءها بتعليم المغاربة العربية وأصبح فى المغرب مؤيدون ومعلمون مختلفون . وكانت الدولة عربية وفتحت أبوابها لشخصيات عربية كثيرة جاءت من القيروان ومن المشرق ، حتى قالوا إنه كان فى بطاقة إدريس الثانى - كما أسلفنا - خمسمائة عربى . وأخذوا يتكاثرون مع الزمن ، ولما ثار كثيرون من الفقهاء وأهل العلم والورع بقرطبة

على الحكم الرضى - كما أسلفنا - سنة ١٩٠ للهجرة وقتلهم وانتصر عليهم ، هدم دورهم ومساجدهم ، فلحق كثيرون منهم بفاس ، وكل ذلك أسرع بعروة المغرب الأقصى .

(هـ) فاس^(١) وسجلماسة^(٢) بعد الأدارسة والمدرايين

انتهى حكم الأدارسة فى فاس سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م وتطورت بها ظروف مختلفة وجعلها العبيدون لموسى بن أبى العافية كبير مكانة ، فظل مواليا لهم حتى سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م إذ رأى أن يعلن ولاءه للخليفة الأموى بقرطبة عبد الرحمن الناصر . ودانت فاس بالطاعة للعبيدين سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٥ م وعادت إلى الناصر سنة ٣٤١ هـ/٩٥٣ م فولى عليها محمد بن الخير المبرأوى ، واستدار العام فرأى أن يرحل إلى الأندلس للجهاد واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن سعيد ، وهو الذى شاد مثناة جامع القرويين بفاس سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٥ م وانتحتها جوهر الصقل باسم المعز العبيدى سنة ٣٤٩ هـ/٩٦٠ م وظلت الدعوة العبيدية قائمة له فيها حتى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م إذ أرسل الحكم المستنصر الخليفة الأموى فى قرطبة قائده غالبا إلى المغرب فدخل مدينة فاس وأعاد فيها الخطبة للأمويين . وفى سنة ٣٦٩ هـ/٩٧٩ م عادت للعبيدين ، ولم تلبث أن عادت للأمويين سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م وولى عليها المنصور بن أبى عامر زيرى بن عطية الخزرى المبرأوى الزناتى وجعلها سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٨ م دار ملكه ، فعلا قدره وارتفع شأنه ، وملك مدينة تلمسان وسط سلطانه على المغرب من السوس الأقصى إلى الزاب فى الجزائر ، وأسكن قبيلته أمعاء فاس وبالقرب منها ورفع عن أحوازها بنى يفرن سنة ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م فثاروا عليه وهزمهم وأسكنهم مدينة سلا على المحيط ، وابتنى سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م مدينة وجدة . وفسدت العلاقات بينه وبين المنصور بن أبى عامر ، ونازله ودارت الدوائر على جيشه ، فأرسل إليه جيشا ثانيا بقيادة المظفر ، وتغلب المظفر عليه . وفى سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٢ م أصبح المظفر حاجبا للمؤيد هشام بعد أبيه المنصور بن أبى عامر فكتب للمعز بن زيرى بالولاية على فاس وسائر أعمال المغرب ، وظل المعز واليا للأمويين على فاس والمغرب حتى سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣٠ م . وكانت الخلافة الأموية قد سقطت فى قرطبة فاستقل المعز بن زيرى بالمغرب وفاس حتى وفاته سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م وعاشت فاس أيامه فى رخاء ، وكان ممدحا يقدر الشعر والشعراء فقصدوه من مملكته ومن الأندلس . وخلفه ابنه دوناس إلى وفاته سنة ٤٥٢ هـ/١٠٦٠ م وفى عهده ازدهرت الحياة فى فاس ونما بها العمران وأصبحت مدينة واحدة بعد أن كانت عدويتين متقابلتين وكثر فيها بناء المساجد والحمامات والفنادق .

وما بعدها .

(١) انظر فاس فى هذه الحقبة بكتاب البيان المغرب لابن

عنارى ٢٩٩/١ وما بعدها والأعلام لابن الخطيب

(٢) راجع فى هذه الحقبة لسجلماسة كتاب الأعلام

لابن الخطيب ١٥٠/٣ .

وما بعدها وروض القرطاس ص ٨٣

وخلفه ابنه فروح ، وفى أيامه ظهرت لتونة فى أطراف البلاد بقيادة عبد الله بن ياسين ، وخافها فترك مدينة فاس عاصمته لمعنصر بن حماد المرأوى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وانتحها يوسف بن تاشفين سلما ، وعاد معنصر فغلب عليها وخلفه ابنه تميم ، وزحف إليها يوسف بن تاشفين وانتحها نهائيا سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م .

وأما سجلماسة فإن جوهر الصقل حين انتحها ولّى عليها مبادر بن زبرى إلى أن توفى فى سنة ٣٥٧ هـ/٩٦٧ م فولاه ابنه يصيلتين الزناتى ، واستطاع الأمويون فى قرطبة أن يجلبوا إليهم قبيلة مغراوة وكبيرها حزون بن فلفول ، فزحف إليها باسمهم سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م واستولى عليها وأقام بها الدعوة لهم ، وعقد له المنصور بن نى عامر حاجب الخليفة الأموى المؤيد ومدبر دولته عليها وعلى جميع أعمالها هى ومدينة درعة ، وظلت فى أسرته المغراوية ، وتملكها ابنه مسعود سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م وغلب على جميع أعمالها هى ودرعة حتى توفى سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م وخلفه ابنه محمد لمدة قصيرة إذ توفى سنة ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م ووليها بعده ابنه مسعود . وكان أمر لتونة وشيخها الكبير عبد الله بن ياسين قد شاع فى البلاد ودانت له جميع الصحراء وبلاد السودان فكذب إليه فقهاء سجلماسة أن يزوها ليرفع عنها العسف والجور ويظهرها مما بها من النكرات ، ولأهم والتقى بمسعود وجموعه وهزم وقتل فى المركة سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م ودانت سجلماسة ودرعة للشيخ ابن ياسين بالولاء والطاعة ، فجعل عليها عاملا من لتونة واتصرف إلى الصحراء .

٤

المرابطون - الموحدون - بنو مرين

(أ) المرابطون^(١)

المرابطون صنهاجيون بدو كانوا يتنقلون وراء أنعامهم فى الرمال الصحراوية المتراصة بين جنوبى المغرب الأقصى وقبائل إفريقية المدارية السوداء حتى السنغال وغيرها من بلاد السودان ونفس كلمة السنغال خير شاهد على ذلك إذ هى تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين ، حين وصلوا إلى سواحلها فسموها Senhagal ثم أصبحت Senagal وظلوا دهورا متبذنين العمران يعيشون على الأنعام وألبتها ولحومها ، واتخذوا اللثام على وجوههم شعارا لهم بين

دول المغرب الأقصى للسلامى وتاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين يوسف إشباه ترجمة محمد عبد الله حنا . وقام دولة المرابطين للدكتور حسن محمود (طبع القاهرة) وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان .

(١) انظر فى دولة المرابطين روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ١١٩ وما بعدها ولبن عذارى فى الثالث (طبع باريس) والرابع طبع بيروت وأعمال الاعلام لابن الخطيب ٢٢٥/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٨١/٦ وما بعدها والاستقصا فى أخبار

الأُم ، وكرروا فى منطقتهم وتعددت قبائلهم ومنها كدالة ومسوفة ولطة وجزولة ولتونة وهى أهمها جميعا . وكان دينهم فى جاهليتهم المجوسية مثل سائر البربر ، وأخذوا يدخلون فى دين الله متأخرين فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ، وتحمسوا له ، وجاهدوا فى سبيله أُم السودان ودوؤخوهم وحملوهم على اعتناقه فدلّت به كثرتهم ، وأدّى الجزية منهم من لم يعتقه . وكان لهم - بسبب اتساع منطقتهم - ملك ضخم توارثه ملوكهم ، وكان ملكهم فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى يحيى بن إبراهيم الكدالى ، وكان على شئ من التقوى فتجهز لأداه فريضة الحج سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م وفى عودته منه لقى بالقيروان ثوبا عمران الفاسى شيخ المذهب المالكي ، فاستمع إلى دروسه ، ولزمه فترة فأعجب به الشيخ وسأله عن موطنه ، فقال له إن الجهل فاش فى الناس هناك وحيدا لو أرسلت معنا تلميذا لك يفقههم فى الدين ، فعرض الشيخ رغبته على تلاميذه فلم يقل أحد منهم الذهاب معه لتلك الغاية ، فكذب له رسالة إلى تلميذ له فى سجلماسة هو وجاج بن زولو اللمطى لعله يقبل تلك المهمة ، فانتدب له وجاج تلميذا تقيا نلها من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولى ، وما إن نزل فى قبائل صنهاجة الشبدية حتى أعجبوا به ، والتفوا حوله أول الأمر ، وعادوا فأتكروا عليه ما نهاهم عنه من بعض المحرمات ، وشعر باليأس فصمم على أن يتركهم وشأنهم ويقصر نفسه على النسك وعبادة ربه . وأشار عليه يحيى بن عمر أحد رؤساء لتونة أن يتنسك معه فى جزيرة قرب مصب نهر السنغال ، ونزلها معه وأقام فيها رباطا ، وتسامع بنسكه الناس فأخذ يفد عليه كثيرون ممن فى قلوبهم مثقال حبة من إيمان لينسكوا معه فى رباطه بتلك الجزيرة ، فلما بلغت عدّتهم ألفا قال لهم : « اخرجوا فأنتم المرابطون » أى المجاهدون فى سبيل الحق وحمل كافة الناس عليه ، ولذلك سما بهذا الاسم : المرابطون ، وغلب على تسميتهم بالملتزمين ، وبحق ظلت هذه الدولة - طوال عهدها - دولة رباط وجهاد فى سبيل الله .

وخرج عبد الله بن ياسين معهم ومع يحيى بن عمر اللمتونى ، وأخذ يُعيد العدة للجهاد فى سبيل الله ، وجاءته من صنهاجة البدوية قبائل كثيرة انضمت إلى دعوته ، وظل زعيمها الدينى بينما كان يحيى بن عمر زعيمها الحربى واتجه شمالا فاستولى - كما مر بنا - على درعة وسجلماسة وإقليمها سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م وأصلح من أحوال هذه المنطقة وغير ما بها من المنكرات وأسقط عن الناس الممارم والمكوس . وكان استيلاؤه على هذه المنطقة حطما للحصار الشمالى الذى كان مضروبا على قبائل صنهاجة البدوية أو الصحراوية ، وعاد إلى الصحراء وتوغل فى الجنوب فهاجم أهل السودان الغربى فى حوض السنغال واتصر عليهم ، وكان ذلك حطما للحصار الجنوبى الذى كان مضروبا على صنهاجة الصحراوية ، فوصلوا إلى شعوب إفريقيا السوداء وأخذوا ينشرون فيها الدين الحنيف . ولم يلبث يحيى بن عمر أن توفى فى نفس السنة ، فخلفه أخوه أبو بكر أحد كبار رجال العالم الإسلام المجاهدين فى سبيل الله ، وبدأ

فندب المرابطون للجهاد في بلاد المغرب الأقصى فزوا بلاد منطقة السوس سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م واستدار العام ففتح من بلداتها ماسة على المحيط وتارودنت على نهر السوس ومعا أبو بكر منها دعوة الروانض وصعد إلى الشمال فاستولى على أغمات ، وحَمَسْ أنصاره من المرابطون للجهاد برغواطة الفلسفة ، وكانت مواطنها في ساحل المحيط في سلا بإقليم فاس واتفق وآزموور في تامسنة وآسفي في إقليم دكالة ، وكانوا صفرية ، وكان كبيرهم طريف بن صبيح من قواد مسيرة الصفري ، ويقال إنه تنبأ ، وتوالى أبنائه يتنبؤون ويشرعون لقومهم الشرائع ، وقاومهم الأدارسة والبيديون والأمويون ، ولكن أحدا منهم لم يقض عليهم قضاء مبرما حتى نازهم أبو بكر بن عمر بجموعه من المرابطون في وقائع سحقهم فيها سحقاً ، واستشهد عبد الله بن ياسين في بعض تلك الوقائع سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م ومازال أبو بكر يواقهم حتى استأصل شأفتهم كما يقول ابن خلدون ومهاهم من الأرض محوا . وبلغه خلاف عفيف بين قبيلته ومسوفة في موطنهم بالصحرَاء ، فخشى مغبة ذلك وارتحل إليهم سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م ليصلح ذات بينهم ، واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومن ذلك الحين انقسمت حركة المرابطون العظيمة قسمين : قسم جنوبي يجاهد في إفريقية المدارية بقيادة أبي بكر بن عمر وخلفائه من بعده ، واستطاع هذا المجاهد العظيم الاستيلاء من بلاد السودان على ٩٠ مرحلة في رواية وعلى مسيرة ثلاثة أشهر في بلداتها وأراضيها برواية أخرى . ومازال يجاهدهم هذا البطل المقدم حتى استشهد في إحدى غزواته سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م بعد أن ضرب أروع الأمثلة في نشر الإسلام والجهاد في سبيله . وأما القسم الشمالي من حركة المرابطون فكان بقيادة يوسف بن تاشفين وقد شمل ما استولى عليه المرابطون - قبل يوسف - وما سيستولون عليه بقيادته من المغرب الأقصى وغير المغرب الأقصى من مثل تلمسان والأندلس .

وكان يوسف بن تاشفين بطلا شجاعاً حازماً مدبراً للملكة على خير وجه ، مجاهداً في سبيل الله طوال حكمه لبغاء الثواب من ربه ، وكان يحق من كبار الشخصيات الإسلامية المؤسسة للدول والمدن ، ولم يكده يستدير العام بعد توليه الحكم حتى رأى أن يتنى في السهل الواسع شمال أغمات وجنوبي تهرتسيف مدينة لتكون حاضرة لحكمه . وسرعان ما أخذ في بنائها سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وهي مدينة مراكش ، وقد شيدت وفق مخططات رسمتها طائفة من مهرة المهندسين وقامت على بنائها طائفة من العمال الحاذقين كما بنى بها المسجد الجامع وإدارة الحكم ، وسرعان ما تكاثرت بها الجوامع والمدارس والفنادق والحمامات ، وأصبحت إحدى مدن العالم الإسلامي الكبرى . وفي نفس السنة جند يوسف الأجناد حتى اكتمل له ما يزيد عن مئة ألف فارس من صنهاجة وغيرها من قبائل المغرب الأقصى ، وقصد مدينة فاس فحارب القبائل حولها واتصرع عليها وافتتحها الفتح الأول ، ومضى يهزم القبائل ويفتح البلاد ، وفي سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م استولى على بلاد غمارة في منطقة الريف إلى

طنجة ، وفتح مدينة فاس الفتح الثاى سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م وعاد إليها فى السنة التالية فانفتحها عنوة وافتح حصون نهر ملوية ، وأخذ كثير من البلدان يفتح له أبوابه دون حرب ، وفى سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٤ م فرّق عماله على بلاد المغرب وفى سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م استولى على طنجة ، وفى سنة ٤٧٢ أرسل قائله مزدلى إلى تلمسان فاستولى عليها ، وفى سنة ٤٧٣ هـ/١٠٨٠ م ضرب السكة أو العملة باسمه ، وفى السنة التالية فتح مدينة وجدة وتنس ووهران ومدينة الجزائر وجميع أعمال نهر شلف ، وبذلك ضم إلى المغرب الأقصى الشطر الغربى من الجزائر ، وفى سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م فتح مدينة سبتة . وبذلك وحد المغرب الأقصى جميعه جنوبا حتى الصحراء الكبرى وغربا حتى المحيط وشمالا حتى البحر المتوسط ، ولم يكفه الاستيلاء على حدوده الشرقية غربى نهر الملوية حتى مدينة وجدة ، فقد مدّه شرقا واستولى على شطر كبير من الجزائر كما أسلفنا . وكان واسع الأفق مؤمنا بأن العالم الإسلامى ينبغى أن يتوحد تحت راية واحدة هى راية الخليفة العيسى ببغداد ولذلك كتب إليه معلنا دخوله فى طاعته ، وكتب إليه الخليفة مرحبا ومباركا له فى مملكته ، واكفى يوسف بأن لقب نفسه بلقب أمير المسلمين . وما يدل على حسن إدارته وسياسته أنه كان يختار الولاة على ولايات مملكته الواسعة من خيرة رجال قبيلته الصنهاجية المعروفين بالأمانة والعدالة والزاهة ، وضمّ إلى كل وال فقيها أو أكثر ليكون مستشاره فى أحكامه بحيث تمتشى مع الشريعة الإسلامية ، ورفع عن كاهل الرعية المكوس والمغارم التى كان يتقاضاها منهم حكامهم السابقون . وكانت الأندلس - فى القرن الخامس الهجرى - قد أصبحت أندلسات وإمارات متعددة وأخذت تتنافس وتتحارب فى هذا العهد الذى سعى عهد أمراء الطوائف ، ونشط أعداؤهم النصارى الإسبان فى الشمال للانقضاض عليهم ، وأخذوا يؤدون إليهم - قهرا - إتاوات ومغارم شتى ، وخاصة لألفونس السادس ملك ليون وقتشالة ، واستطاع سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م أن يلتقم طليطلة أكبر إماراتهم دون حرب ، مع مساعدة أميرها القادر بن ذى النون على أخذ بلنسية . وشعر المعتمد أمير إشبيلية والتوكل أمير بطليوس بهذا الخطر الداهم وكذلك غيرها من الأمراء ، فاستصرخوا البطل المغوار يوسف بن تاشفين أن ينجدهم ضد ألفونس السادس قبل أن يتلهم كما ابتلع طليطلة ، وأرسلوا إليه - مستغيثين - نفرا من قضاة المدن الكبرى ، فأطلعوه على جلية الأمر ، فثارت حميته للإسلام والمسلمين فى الأندلس ، كما ثارت حمية قومه المرابطين المجاهدين الذين نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله ودينه الخفيف ، وأعد سريعا جيشا جرارا لمنازلة نصارى إسبانيا وأعد له أسطولا ضخما عبر الزقاق سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م وأخلى له المعتمد صاحب إشبيلية مدينة الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجيشه ، واتجه لحرب عدو الله فى طليطلة وانضم إليه المعتمد والتوكل أمير بطليوس وعبدالله بن بلقين أمير غرناطة بجيوشهم ، وعلم ألفونس بمقدمه وأنه منازله فاستغث بملوك النصارى فى إسبانيا وفرنسا

وإيطاليا وبالبانيا في روما وجاءته حشود من الفرسان ، والتقت الفتتان في موضع يُدعى الرّلاقة شمالي بطليوس ، ودارت معركة حامية الوطيس مُرّق فيها جيش ألفونس شر ممزّق ، ويقال إنه كان مائة وثمانين ألف فارس ومتى ألف راجل ، فنكّل جيش يوسف بن تاشفين بهذا الجيش وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفرّ ألفونس على وجهه إلى طليطلة في شُرْذمة قليلة من الفرسان متخفا بالجراح . وبلغت يوسف وفاة ابن له ، فاضطر إلى العودة إلى مراكش بعد هذا النصر المبين ، ولو أنّه تابع بعده زحفه إلى طليطلة لاستولى عليها . وفي سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م أخذ ألفونس يغير على إمارة المعتمد بن عباد عن طريق حصن لييط ، واستغاث بابن تاشفين ، فاجتاز الزقاق إليه وكعب إلى من سواه من أمراء الطوائف ليلتقوا للجهاد ضد ألفونس ، ولم يلبّ سوى أمير مرسية وأسرّها في نفسه ، وانصرف أمير المسلمين وعاد إلى عاصمته مراكش . ودبّ الخلاف والشقاق بين أمراء الطوائف ومدّوا أيديهم إلى ألفونس يدفعون له المغارم ويطلبون منه العون وخاصة عبد الله بن زيري أمير غرناطة فتمّير يوسف الزقاق إلى الأندلس للمرة الثالثة ، وفيها خلع عبد الله بن زيري وأسرته عن غرناطة وأرسل بهم إلى مراكش . وترك وراءه صهره سير بن أبي بكر ليخلع أمراء الطوائف جميعا ومن أبي قاتله أو أخذه أسيرا ، وقتاله المتوكل أمير بطليوس وقتله ، ونزله المعتمد أمير إشبيلية وأسرّه ونفاه مع أسرته إلى أغمات . واستولى المرابطون على المرية وفر ابن صمادح إلى إفريقية كما استولوا على دانية وشاطبة وبلنسية سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م وبذلك دانت لهم الأندلس ماعدا سرقسطة فإن ابن تاشفين - بنظره الثاقب - رأى أن تظل مع أمرائها من بني هود ، لتكون نفرا حربيا حاجزا بين نصارى الشمال والأندلس . وفي سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م وقيل بل في سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م عبر ابن تاشفين إلى الأندلس مرة رابعة لأخذ البيعة لابنه علي . وفي سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م توفي البطل العظيم يوسف بن تاشفين ووبيع لابنه علي بمراكش .

وكان علي مجاهدا كبيرا مثل أبيه وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م وجّه أخاه نعيما الوالي على غرناطة بجيش إلى إقليس شرقي طليطلة ، ولقبه ألفونس وهزمه نعيم هزيمة منكرة ، قُتل فيها ابنه الوحيد ولي عهده ، ومات بعد الموقعة بعشرين يوما متحسرا على هزيمته وفقد ابنه ، واستولى نعيم على حصن إقليس وشترية . وفي سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م عبر علي بن يوسف إلى الأندلس بجيش كثيف هاجم به طليطلة وفتح من أحوازها سبعة وعشرين حصنا وضع مجريط ووادى الحجارة . وفي السنة التالية فتح سير بن أبي بكر مدن شريش وبتليوس وبرتغال وبابرة وأشبونه وجميع بلاد الغرب . وفي سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م توفي سير بن أبي بكر بإشبيلية وخلفه عليها محمد بن فاطمة حتى سنة ٥١٠ هـ . وفي السنة التالية ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م توفي القائد مزدلي غازيا ببلاد النصارى . وفي سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م تملك المرابطون جزائر البليار : ميورقة وأختيها . وأخطأ علي بن يوسف فأخذ سرقسطة من حثاتها بني هود ، وسرعان

ما وقعت فريسة للنصارى سنة ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م . وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة عبر على بن يوسف إلى الأندلس ، ودوَّخ بلاد الغرب وفتح شتمرية . وفى سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول ملك أراجون للاستيلاء على مدينتهم ، فزحف إلى الجنوب ، وعلم المرابطون فردوه على أعقبه . وأجلُّوا عن غرناطة كل من كانوا سببا فى استدعائه من النصارى إلى مدينة سلا على المحيط فى المغرب وبالمثل إلى مكناسة . وفى سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٧ م هاجم تاشفين بن على النصارى وفتح ثلاثين حصنا فى الغرب . وفى سنة ٥٢٨ هـ/ ١١٣٤ م وجَّه على بن يوسف جيشا كثيفا بقيادة على بن غانية والى بلنسية ومرسية شرقى الأندلس إلى مدينة إفراغة شرقى سرقسطة ، فلقى جيشا لألفونس الأول ملك أراجون فنازله وهزمه هزيمة منكرة . وفى سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ م أخذ البيعة بمراكش لابنه تاشفين ، وتوفى على سنة ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢ م .

وخلف تاشفين ثبأه عليا ، ولم يلبث الموحدون أن نازلوه سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م ودارت عليه الدوائر وتوفى بمرضان من نفس السنة . وكانت دولة المرابطين دولة عظيمة عملت على نشر الإسلام فى السودان الغربى بالسنگال وغير السنگال ، وقضت على الصفرية والنحل الضالة نخلة البجيلة من السوس ونخلة برغواطة المارقة فى إقليم تامسنا وجعلت الإسلام فى المغرب الأقصى كله سنيا ، وروحدته بتجديده المعروف بها إلى اليوم ، وصانت الأندلس من الضياع ، فقد كانت سفينة توشك على الغرق ، فأثقلتها ورددتها إلى مواصلة الحياة الأدبية والفلسفية والعلمية لأربعة قرون تالية . وقد شملت دولتهم - على اتساع أرجائها - عدالة وأمن لم يحظ بهما قط فى أزمتهم ، إذ كانت تمتد من ممالك النصارى فى شمال إسبانيا إلى السنگال فى الجنوب ، ولا مكس ولا مفرم ولا معونة فى بادية أو حاضرة إلا ما كان من الزكاة والعشر مما فرضه الإسلام ، والأسعار فى غاية الرخص ، والناس فى دعة ورخاء ورفاهية إلى أن ثار على الدولة مهدى الموحدين واستولى خليفته عبد المؤمن على صولجان الحكم من المرابطين .

(ب) الموحدون^(١)

نشأ هذه الدولة بالمغرب الأقصى محمد بن تومرت فقيه من هرغة إحدى بطون مصمودة ، وهى إحدى القبائل الأربع الكبرى التى كانت تعيش فى مناطق هذا المغرب ، وهى غمارة

الوحيدة والحفصية للزركشى (طبع القاهرة)
والاستنفا فى أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى
وعصر المرابطين والموحدين ليوسف إسماعيل ترجمة عنان
وسام تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس .

(١) انظر فى الموحدين كتاب المن بالإمامة لابن صاحب
الصلابة (طبع دار الغرب الإسلامى) والمصعب
للمراكشى (طبع القاهرة) والجزء الثانى من البيان
المغرب (طبع باريس) وروض القرطاس لابن أبى زرع
وتاريخ ابن خلدون ٢٢٥/٦ وما بعدها وتاريخ الدولتين

وكانت تنتشر فى منطقة ، المحيط والريف ، وزناتة وكانت تنتشر فى كثير من المناطق وخاصة حول حوض نهر ملوية من منبعه إلى مصبه ، ومن فروعها مغراوة التى قضت على الأدارسة وبنى مدرار ، وصنهاجة فى مناطق مختلفة ، ومعها صنهاجة الماشون أصحاب دولة المرابطون ، ثم مصمودة وكانت تنزل فى السفح الجنوبى لـجبال الأطلس وسهوله ، وهى الجبال المسماة جبل درن ، وكانت تنتشر من أسفى فى منطقة دكالة إلى حاحه على ساحل المحيط ومراكش والسوس وجزولة . وكانت تطمح إلى الملك كما ملكت قبلها صنهاجة وبعض فروع زناتة مثل بنى مدرار فى سجلماسة . ومن فروع مصمودة هرغة وهتانة وتينمل ودكالة وهيلانة وغيرهم حتى ليصبحون معظم سكان المغرب الأقصى .

وولد لهذه القبيلة الكبرى محمد بن تومرت المرغى حول سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ونشأ كما ينشأ لداته فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء فى بلدته ثم فى مراكش حتى إذا بلغ نحو العشرين من عمره رحل إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، كما يقول ابن خلدون ، ومراً بالأندلس ودخل قرطبة وهى دار علم ، ورحل إلى الإسكندرية وحجاً ودخل العراق ولقى جملة من العلماء . وكانت عقيدة الإمامية الاثنى عشرية شائعة فى بغداد ، فدرسها وعرف أنها تقوم على الإمامية أو فكرة إمامة أحد أحفاد على عن طريق الوصية المتسلسلة إليه ، وأن المسلم لا يكون مسلماً حقاً إلا إذا فوض أمره للإمام وبذل نفسه فى سبيله ، فرأى أن يكون ذلك ركناً أساسياً فى دعوته ، فهو إمام ، وهو يتصف بالصفات القدسية التى يتصف بها الإمام عند فرقة الإمامية الشيعية . ولكن كيف تكون إمامته والإمامة خاصة بالبيت النبوى ؟ فأكد أنه علوى فاطمى وذكر له سلسلة نسب تصله بسليمان بن عبد الله أخى إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة ، وكان قد ترك لأخيه سليمان وذريته تلمسان .

ولم يأخذ محمد بن تومرت عن الإمامية عقيدة الإمام الفاطمى أو العلوى وحدها ، بل أخذ معها فرعها من المهديّة والعصمة ، أما المهديّة فيريدون بها الإمام الذى ينقذ العالم من الشرور والآثام ، فلعب نفسه بالمهديّ أى الإمام الذى اختاره الله لتخليص العالم مما فيه من الموفقات والمعاصي ، وأما العصمة فيراد بها أن الأئمة معصومون عن الخطأ وعن ارتكاب أى إثم أو اقتراف أى ذنب ؛ مع الإيمان بأن الله أضفى عليهم صفات روحية قدسية ، وهى صفات تجعل طاعتهم فريضة على كل مسلم وأن عقيدته لا تتكامل إلا إذا فوض أمره إلى الإمام وبذل نفسه فى سبيله . ولكل ذلك سمى نفسه - وسماه أتباعه - الإمام المهديّ المعصوم . كلمات ثلاث ولكنها كلمات فى غاية الخطورة ، فهو الشخص الذى اختاره الله لعباده ليكون حاكمهم دينا ودنيا : حاكم مهديّ ينقذ الناس من الظلم والمآثم ، وكلمته لا ترد فهو معصوم ولا يجرى على لسانه إلا الحق ، والحق وحده . وألف ابن تومرت فى هذه الصفات التى خلّمها على نفسه مستمداً لها من الإمامية الشيعية كتباً فى الإمامية افتتحه بقوله : « أعز ما يطلب » .

وبجانب هذه الأسس الثلاثة وهى أنه إمام مهدى معصوم يأخذ عن الفاطميين لعقيدته أساسا رابعا هو تنظيم دولته بحيث يكون على رءاستها إمام وتبعه طبقتان : طبقة الصحابة وهم عشرة مستشارون وطبقة الأنصار وهم خمسون وبجانب هاتين الطبقتين الطلبة وهم دعائهم وكانوا يتعلمون أسس العقيدة ونشرها فى القبائل . ودرس وهو فى بغداد - مذهبه المعتزلة والأشعرية ، وعرف الأصول الخمسة التى يدين بها المعتزلة ، وهى التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، وأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأعجبه المبدأ الأول وهو التوحيد ، وهو يعنى عند المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وكل آية فى القرآن الكريم يفهم منها مشابهة الله للمخلوقات مثل : (يد الله فوق أيديهم) تزوّل ، فاليد فى الآية معناها القدرة ، وبالمثل الآيات الأخرى المماثلة . والأشعرية يلتقون مع المعتزلة فى هذا المبدأ وهو تنزيه الله عن التشبيه وكل ما يتعلق بالجسمية والتجسيد ، ومع أن ابن خلدون يقول إنه أخذ بمذاهب الأشعرية فى كافة العقائد ، وألف فى العقائد على رأيهم رسالته المرشدة فى التوحيد ، مع ذلك نرى أنه ربما صرح باسم الأشعرية لأنه كان لهم شعبية بالمغرب كله لعصره وقبل عصره . ولما دعانا إلى الزعم بأن ابن تومرت أخذ فكرة أو مبدأ التوحيد وما يتصل به من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات عن المعتزلة أنه استخدمها بنفس المعنى للدلالة على أتباعه ، فهم موحدون أى يؤمنون بأن الله لا يشبه المخلوقات بوجه من الوجوه وينفون عنه التجسيد بكل صوره . وكان يتهم المرابطون وشيوخهم بالقول على الذات العلية بالتجسيم وأنهم لذلك كافرون مارقون عن الدين ويجب نقض طاعتهم وقتلهم ، ومعاذ الله أن يكون المرابطون كفارا أو مجسمة وقد أدوا للإسلام خدمات كبرى إذ قضوا فى منتصف القرن الخامس الهجرى على مجوس برغواطة فى إقليم تامسنا بالمغرب الأقصى واستنجد بهم أمراء الطوائف فى الأندلس ضد غارات الإسبان عليهم فغبروا إليهم وهزموا الإسبان هزيمة ساحقة فى موقعة الزلاقة وكان لهم جيش فى مورتانيا نشر الإسلام بقوة فى غرب إفريقيا ووسطها ، وبفضلهم تحولت غابة بلدا إسلاميا إلى اليوم ، وظلم ما قاله ابن تومرت عنهم من أنهم كفار مجسمة وكل ما هناك أن فقهاءهم كانوا سلفين يتركون التأويل للآيات التى قد يفيد ظاهرها التشبيه على الله مع تنزيهه ونفى التجسيد عنه ، وبذلك يتبين أن ابن تومرت لم يسم أتباعه باسم الموحدين عفا بلا قصد مما جعل مؤرخا يقول : « كان لقب الموحدين الذى أطلقه ابن تومرت على أتباعه غير ذى معنى لأن كل المسلمين موحدون ، ولم يكن المرابطون أقل توحيدا من الموحدين » . فهى كلمة - كما رأينا - تؤدى معنى واضحا عنده وعند أتباعه . وفى رأى أن الذى وصل ابن تومرت بمذهب المعتزلة هم الإمامية لأنهم كانوا موصولين بهم من قديم ، وأحكم هذا الاتصال فى القرن الخامس الهجرى الطبرسى التوفى سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م وقد فسح فيه - كما ذكرت فى الحديث عن التفسير

فى القسم الخاص بالعراق فى هذه السلسلة - للتأثر بالمعتزلة فى نفى التشبيه عن الذات العلية .
وبداً ثا من مبادئ المعتزلة الخمسة أخذ به ابن تومرت وجعله جزءاً لا يتجزأ من دعوته ،
وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو ما ينبغى على كل مسلم أن يصدر عنه بيده ،
فإن لم يستطع فبلسانه ، وإلا فبقليه ، وهو أضعف الإيمان ، وجعل ابن تومرت ذلك شعاراً
للدعوة . ويقول صاحب المعجب إنه أخذ عن المعتزلة القول بأن صفات الذات العلية من مثل
قدير سميع عليم هى عين الذات الإلهية ، وقال الأشعرية إنها زائدة على الذات .

ويعود ابن تومرت إلى المغرب وينزل طرابلس ويحاول أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ،
ويلقى مقاومة ، ويتركها إلى بجاية ، ويلقى نفس المقاومة ، ويزداد أتباعه ويلقى بعد المؤمنين
على الكرومى من قبيلة كرومية ، ويقال إنها زناينة ويقال بل مصمودية ، وصحبه إلى تلمسان ،
والتف حوله كثيرون . وسار موكبه إلى فاس والمغرب الأقصى ، ونراه يظن أن أدوات الموسيقى
منكر ، فيأمر أتباعه بتحطيمها . وينزل مكناسة ويلقى بها مقاومة فيتركها إلى مراكش ويلتقى
فى المسجد بأمر المسلمين على بن يوسف ويعظه . وأخذ ينكر على الفقهاء أخذهم بالظاهر فى
تفسير الآيات التى قد يفهم منها التجسيد قائلين إن علم ذلك عند الله مع تزبيته ونفى التشبيه
عنه ، وهو قول أهل السنة ورماهم بالكفر كما رماه بالجمود لتمسكهم بمذهب مالك وفروعه ،
وكأن ذلك كان تمهيداً لتأخذ هذه الدعوة بمذهب داود الظاهرى الذى يأخذ بالكتاب والسنة
فحسب ، وناظره الفقهاء وانتصر عليهم ، ولحق بأغمت ثم بقبيلة هتانة المصمودية وشيخها
أبى حفص ، ونزل على قبيلته هرغة سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م وبنى بها رباطاً للعبادة ، وانتالت
عليه القبائل وخاصة من مصمودة ، وانتقل إلى جبل تينملل جنوبى منطقة مراكش ، وأخذ
ينظم أتباعه فى طبقات ، فأول طبقة إيت عشرة أو أهل عشرة وهم صحابته كصحابة الرسول ،
وتليهم طبقة الأنصار إيت خمسين أو أهل خمسين . وكان يسمى حفظة المذهب وفقهاءه
الطلبة أى الدعاة ويسمى أهل دعوته الموحدين بالمعنى الذى أوضحناه . وأعد جيشاً عداة
٤٠,٠٠٠ مقاتل من الموحدين وجعل عليه عبد المؤمن بن على ، ولقيتهم جيوش المرابطين
فهزمهم ، وتبعوهم إلى بحيرة بمراكش ، ودفعوهم إليها وأتخنوا فيهم قتلاً وسبياً وسميت هذه
المعركة معركة البحيرة . ولم يلبث المهدي أن توفى بعدها بأربعة أشهر سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م ،
وكم عبد المؤمن وأصحابه موته ثلاث سنوات يمؤون بمرضه حتى استحكم أمرهم ، فأظهروا
للناس موته وعهده لعبد المؤمن بن على بخلافته .

وأجمع أصحاب ابن تومرت العشرة وأنصاره الخمسين والدعاة أو الطلبة وكافة الموحدين
على البيعة لعبد المؤمن بن على بمدينة تينملل سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٢٩ م باسم خليفة ابن تومرت ،
ولم يلبث أن أبعد فى الغزوات فى منطقة تادلة ، واستولى سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣١ م على درعة ،

وتسابق الناس في المغرب الأقصى إلى دعوته وانتفض البربر في سائر أنحاء المغرب على المرابطون .
 ويتحاشى عبد المؤمن مقلبتهم في مراكش بعد هزيمة البحيرة المشهورة المارة ، ويقوم منذ سنة
 ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م إلى سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م بحملة كبرى يخترق فيها بحر تازا إلى تلمسان
 ويستولى على شطر كبير من المغرب الأوسط . وكان تاشفين بن علي بن يوسف يحاذيه ولا ينازله ،
 وفي هذه الأثناء توفي أبوه علي بن يوسف وولى الخلافة تاشفين ، وهاجم عبد المؤمن سبتة
 وامتنعت عليه ، وكان القاضي عياض هو الذي دافع عنها بقوة ، ولذلك سقط عليه الموحدون ،
 وظل عبد المؤمن يتلعب تاشفين حتى حصره في مدينة وهران بالجزائر وبها توفي سنة
 ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م وبموته سقطت وهران ، وأخذت مدن المرابطون تسقط في حجر الموحدين
 مع ما أبدى المرابطون فيها من بسالة عظيمة ، وخاصة مدينتي فاس ومراكش . وقد ظل
 عبد المؤمن محاصرا لمراكش تسعة أشهر وهي تقاوم بزعامة أميرها إسحق بن علي بن يوسف
 وطلال عليها الحصار وأجهد أهلها الجوع فاستسلموا في شوال سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ولم
 يبق الموحدون على أحد من المرابطون وقتلوا إسحق بن علي بن يوسف ، واتمحي - كما يقول
 ابن خلدون - أثر المرابطون من البلاد واستولى عليها الموحدون كما استولوا على تلمسان وعلى
 شطر كبير من المغرب الأوسط . ولن يقف ملك عبد المؤمن في بلاد المغرب عند هذا الحد ،
 إذ كان قد حدث منذ أواسط القرن الخامس أن اكسحت أمواج الهلالية وبنى سليم طرابلس
 وإفريقية التونسية وشطرا كبيرا من المغرب ، وأعدت لظهور ما يشبه أمره الطوائف في إفريقية
 التونسية مثل بنى خراسان في تونس وبنى جبارة في سوسة وبنى جامع في قابس وبنى الرند
 في قفصة . وكان بنو حماد في بجاية ، وكان المعز بن باديس وبنه تميم انحازا إلى المهديّة على
 البحر المتوسط بين سوسة وصفاقس ، وحمل ملوك صقلية النورمانديون بأساطيلهم على سواحل
 طرابلس واستولوا عليها كما استولوا على جزيرة جربة المقلبة لقابس ، وسرعان ما استولوا في
 سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م على المهديّة وكثير من مدن إفريقية التونسية الشرقية مثل قابس وصفاقس
 والمنستير وسوسة ، وعلم عبد المؤمن ذلك كله فصمم على أن يجمع ديار المغرب كلها في
 قبضة واحدة ، حتى لا تسول للملوك صقلية نفوسهم الاستيلاء عليها ، فخرج من مراكش سنة
 ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م في جيش جرار استولى به على بجاية عاصمة بنى حماد وخلصهم عن إمارتها
 واستسلمت له إمارات الطوائف الصغرى في إفريقية التونسية ، واستولى من النورمان على كل
 ما كان بأيديهم من مدن الساحل في طرابلس وإفريقية التونسية ، وبذلك تحققت على يده وحدة
 المغرب السياسية من طرابلس إلى المحيط .

وبمجرد أن توفي تاشفين بن علي بن يوسف وانتقل صولجان الحكم في المغرب الأقصى
 إلى الموحدين اختلت أحوال الأندلس ، بل لعلها اختلت من قبل ذلك في عهد علي بن يوسف
 منذ شغل المرابطون عن الأندلس بحرب الموحدين ، فاستولى النصارى على كثير من الثغور

المجاورة لبلداتهم . ورأى بعض أعيان البلاد فى الأندلس إخراج بلداتهم من ولاية المرابطين وإعلان استقلالهم بها ، وبذلك بدا فى الأندلس ما يمكن أن نسميه عصر الطوائف الثماني ، وفى سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م استولى صاحب برشلونة : ريموند على طرطوشة وجميع قلاعها وعلى لاردة وإفراغة ، واتفق أهل بلنسية ومرسية وشرقى الأندلس على تولية عبد الله بن عياض وخلفه محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ، ودانت له جيان وولى عليها صهره إبراهيم بن همشك ، وظل ابن مردنيش يقارم الموحدين إلى أن توفى سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م ودخلت بلاده فى طاعة الموحدين وبالمثل جيان وابن همشك . وكان الموحدون يرسلون جنودهم منذ سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م إلى الأندلس واهتموا بالغرب فيها ، فدانت لهم إشبيلية وغرناطة . وكان ألفونس السابع قد استولى على المرية سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م فنازله عثمان بن عبد المؤمن وإلى إشبيلية ، وحاول ألفونس الدفاع بكل ما يستطيع ، ولم يفته دفاعه ولا جنوده فقد هزم هزيمة ساحقة توفى على أثرها ، وهو ثاني ملك نصراني يقضى عليه المسلمون بعد قضائهم على جده ألفونس السادس بعد هزيمته فى ألبليش وقتل ابنه فى معركةها الطاحنة . وعبر عبد المؤمن إلى الأندلس ، ونزل بجبل طارق وسماه جبل الفتح وبنى به مدينة ، ووفد عليه وجوه الأندلس من مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية للبيعة سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م وقدم له الشعراء مدائح رائعة وتوفى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م . وبحق استطاع إنشاء أكبر دولة عربية فى عصره إذ امتدت من المحيط الأطلسي إلى أنحاء طرابلس فى إفريقيا ومن ديار الصنارى فى الأندلس إلى درعة والسوس فى المغرب الأقصى .

وخلفه ابنه يوسف وكان مثقفا ثقافة واسعة ، ثقفا فى أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذها إشبيلية عاصمة له هناك ، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت ناثرا على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل مؤمنا بمذهب أهل الظاهر الذين يرجعون فى فقههم إلى الكتاب والسنة فحسب كما هو معروف عن داود الظاهري فى المشرق وابن حزم فى الأندلس . ومربنا أن من مبادئ التوحيد وسعوا به أنفسهم الموحدين أى الجماعة التى تنفى مشبهة الذات العلية للمخلوقين نفايا بآنا ، ومبدأ ثالث هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما مربنا ، مع الإيمان بأن ابن تومرت كان إماما مهديا معصوما . ومع ذلك كله يزعم بعض المؤرخين المعاصرين أن دعوة الموحدين لم تقم على أساس مذهب ديني أو سياسى واضح لأنه غلبت عنهم معرفة المبادئ التى قامت عليها هذه الدعوة .

وانتهت فى عهد يوسف فتنة ابن مردنيش وكذلك فتنة ابن همشك ودانت له الأندلس شرقا وغربا . وكان ألفونس إيريك Alfonso Enrique ويسميه مؤرخو العرب ابن الرين وهو صاحب قلعة شمال نهر تاجه بالقرب من المحيط ، استولى على أشبونة وشترين وقصر

لمى دلتس منذ سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م وعبر يوسف إلى الأندلس فى سنى ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م و ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م لمجاهدته ومجاهدة النصارى واستولى على بعض الحصون .

وتوفى يوسف سنة ٥٨٠ وخلفه ابنه يعقوب ، وفى عهده بلغت ثورة الموحدين على أصحاب المذاهب الأربعة فى المشرق وكتبهم ذروتها إذ كان قصده نحو مذهب مالك من المغرب وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث . وكان الأيوبيون قد أرسلوا قراوش لإحداث قلاقل فى طرابلس وتونس عليهما يتبعان مصر ويعينانها فى حروبها مع الصليبيين ، وفى الوقت نفسه نزل إفريقية التونسية بعض بنى غانية (أهمهم من غلة) ولاية الرباطين على جزائر البليار لمحاولة تأليب أهلها وثورتهم على الموحدين ، واستطاع يعقوب القضاء على هذه القلاقل والفتن بحملة كبيرة اتجه بها إلى تلك الديار سنة ٥٨٣ وأتم القضاء عليها نهائيا لولاة بعده . ووضع نصب عينه الاستعانة بالملالين وغيرهم من الأعراب فى إعداد جيش ضخم لمنازلة نصارى الإسبان من جهة ، ولينفذ فى جيشه من بسائتهم المشهورة وليبعد عيشتهم وغاراتهم عن المغرب من جهة ثانية . وتوفى ابن الرنق ملك البرتغال سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م وخلفه ابنه : سانشو فتمكن سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م بمساعدة صليبيين هولنديين وإنجليز من الاستيلاء على مدينة شلب ، فاستردها يعقوب سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م واستولى على عدد من الحصون ، وأخذ يعد لمركة كبرى ، واستنفر العرب الملالية والمغاربة وأهل الأندلس ، وسمع بذلك ألفونس الثامن صاحب قشتالة ، فاستعان بالبابا وملوك أوروبا وحشد جموعه النصرانية فى سهل حول حصن يسمى الأرك بين قرطبة وطليطلة ومزقهم جيش المسلمين كل ممزق ، ولأد ألفونس الثامن بالفرار نحو طليطلة مع عدد من فرسانه ، ولو أن يعقوب تبعه إلى طليطلة لاستولى عليها ، ولكنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين بندق موقعة الزلاقة ، إذ اكتفى بمقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات . وما يؤثر له أنه أصلح مسجد إشبيلية وبنى مئذنته المعروفة باسم الخيرالدا . وتوفى سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٨ م .

وتولى بعده ابنه عبد الله الناصر وشغله أمر بنى غانية ، واستولى على جزائر البليار سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وتتابعت هزائمهم فى طرابلس والمهدية وتونس وعند تبسة فى إقليم الزاب ، وانسحب من بقى منهم إلى الصحراء . وبينما كان الناصر مشغولا بالقضاء على بنى غانية كان ألفونس الثامن يعد لمركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعانه البابا وملوك النصارى وجاءه عباد الصليب سيولا وراء سيول ، والتقى النصارى بجيش الموحدين عند حصن العقاب إلى الجنوب الشرقى من حصن الأرك سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م ، ودارت الدوائر على الموحدين . وتوفى الناصر بعد الموقعة بشهور قليلة ، وكان ذلك إيذانا بانهيار الجبهة الإسلامية فى الأندلس . وخلف الناصر ابنه يوسف الذى تلقب بالمستنصر ، وثار عليه أهله وذوو رحمة فى الأندلس والمغرب

واضطربت فى الأسرة منافسات وحروب أهلية إلى أن قضى المرينيون على دولة الموحدين سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م . وفقدت فى أثناء ذلك مدن الأندلس حراسها وحمايتها، فبين سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦ م وسنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٩ م سقطت فى حجور نصارى الإسبان مدن الأندلس الكبرى : قرطبة وبلنسية ودانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس، وسقطت مرسية سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦ م .

(ج) بنو^(١) مرين

بنو مرين قبيلة بربرية زناتية كانت تستوطن المغرب الأوسط ودفعها العرب الهلاليون غربا فاستقرت فى حوض ملوية حتى منابعه وحوض نهر زيز شمال سجلماسة ، وكنوا موالين للموحدين وأسهمت منهم طائفة كبيرة بقيادة أميرها « محيو » فى موقعة الأرك المشهورة ، وقدمه المنصور الموحدى على جميع المتطوعين من زناتة للاشتراك فى المعركة ، وأصلبته فى الموقعة جراحة مات منها شهيدا . وخلفه على الإمارة فى قومه المرينيين ابنه عبد الحق ، وكان يطمح أن تصبح لقيته دولة مثل دولة لمتونة الصنهاجية أو دولة المرابطين ودولة هرغة المصمودية : دولة الموحدين . ودخل بجموعه لعهد المستنصر فى وادى تازا وشرقى وادى سبو ، وواقعه الموحدون سنة ٦١٣ هـ/١٢١٦ م وهزمهم ، وتوفى فخلفه ابنه عثمان وأخضع بنو رباح الهلالية وتوفى فخلفه أخوه محمد ونازله الموحدون فى مكانة فهزمهم ، وتوفى سنة ٦٤٣ هـ/١٢٤٩ م وتلاه أبو يحيى بن عبد الحق أخوه ، وهو المحقق لألمنى بنى مرين فى تأسيس دولة لهم بالمغرب الأقصى ، إذ ناصب الموحدين العدل ، واستولى منهم على مكانة ، وهى أول قاعدة ملكها بنو مرين ، وقصد إلى مدينة فاس فبايعه أهلها طواعية راضين ، وعادوا فنقصا يعينهم ، وتحدها يَحْمُرَاسَن أمير بنى عبد الواد ، والتقى ، وانتصر بنو مرين ، وعاد ابن عبد الحق سريعا إلى فاس ، فطلب أهلها منه الأمان وأعطوه اليهود فقبل منهم وصفيح عنهم ، ورحل إلى سلا ونازل جيشا للموحدين وهزمه واستولى عليها ، ونازل جيشا لبني عبد الواد فى طريقه إلى درعة وهزمه ، ودخل أهل درعة فى طاعته ، وعاد إلى عاصمته فاس ، وتوفى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وبعد - بحث - المؤسس لدولة المرينيين فى المغرب الأقصى .

وولى إمارة المرينيين بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق وكان مجاهدا كبيرا يرى فرضا عليه أن يجاهد نصارى الإسبان ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وبدأ جهاده لهم على رأس قوة مرينية

التلمساني (طبع الجزائر) وزهرة الآس فى بناء مدينة فاس لأبي الحسن الجزائى (طبع الجزائر) وروض القرطاس لابن تمي زرع والاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى للسلاوى .

(١) انظر فى دولة بنى مرين روضة السرين فى أخبار دولة بنى مرين لابن الأحمر (طبع الرباط) والذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية (نشر فى شب) والسادس من تاريخ ابن خلدون والمسدد الصحيح الحسن فى آثار وعلم مولانا تمي الحسن لابن مرزوق الخطيب

سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وفي سنة ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م افتتح مدينة مراكش عاصمة الموحدين ، وبذلك قضى نهائياً على دولتهم ، وسطت الدولة المرينية سلطاتها على المغرب الأقصى جميعه جنوبيه وشماليه حتى ستة وطنجة . وابتهج الفقهاء بالدولة الجديدة ، لأنها خلصتهم من إجبارهم على مدارسة المذهب الظاهري ورفضهم لمذهب مالك فقيه المدينة والحجاز الذي كان يعتنقه الفقهاء في المغرب منذ حياة صاحبه في القرن الثاني . وقد عادوا إليه وإلى مدارسة كتبه الموطأ ومدونة سحنون التي أملاها عليه عبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك وكتاب التهذيب للبراذعي الصقلي والوارد والزيادات لابن أبي زيد القيرواني وغير ذلك من كتب الفقه المالكي ومطولاته التي كان يجمع منها يعقوب الموحدي الأحمال ويعرقها يريد نحو مذهب مالك وإزالته من المغرب . وسرعان ما عاد إليه المغرب جميعه بعد انتهاء عصر الموحدين وابتداء عصر المرينيين ، وتنادى الفقهاء بأن عقيدة ابن تومرت إنما هي اشتقاق على الجماعة ، وبذلك كان فقهاء المذهب المالكي من العوامل في تثبيت حكم المرينيين وعلى رأسهم يعقوب بن عبد الحق . ومنذ عهده بل قبله تلحح الحروب بين بني مرين وبني عبد الواد وسظلل تلحح على مر السنين ، وكانت بين يعقوب ويغمراسن سلطان بني عبد الواد واقعة بأسلى قرب وجدة في الشمال سنة ٦٧٠ هـ/١٢٧٢ م انتصر فيها يعقوب وحاصر تلمسان ثلاثة أشهر ثم رفع الحصار وعاد إلى فاس ، وفي سنة ٦٧٢ هـ هاجم سجلماسة واستخدم في حصارها البارود لأول مرة في المغرب الأقصى وأذعنت له ، وفي سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٦ م بنى مدينة فاس الجديدة على مسافة ميل غربى المدينة القديمة إلى الجنوب قليلا ، ويمر بين سوريهما ذراع من النهر يتجه نحو الشمال وعليه تقع الطواحين ، والذراع الثاني للنهر يتفرع فرعين يمر أحدهما بين فاس القديمة وفاس الجديدة ويتابع الفرع الثاني سيره وسط المزارع ، وجعلها مقر الحكومة الجديدة ، وسماها يعقوب المدينة البيضاء ولكن الشعب سماها باسم فاس الجديدة ، وجعلها ثلاثة أقسام ، قسم فيه قصوره وقصور أسرته ومعه حدائقه وبنى فيه جامعا بديعا ، وقسم ثان به قصور قواده وشخصيات دولته ، وقسم ثالث خاص بسكنى الحرس مع جوامع وحمامات ، وبنى في عدوة القرويين بفاس مدرسة كبيرة ، وبنى مارستانا وزوايا ، وبنى بجوار القصر الملكي دارسك العملة واختط سوقا للمدينة ونظمه تنظيما حسنا وجعل لدكاكين الصاغة أمينا يدمغ كل ما يُصنع من فضة أو ذهب في فاس بمنقاش ، وكان أهل فاس عرفوا - منذ هذا التاريخ على الأقل - بنظام الدمغة . وتجهز يعقوب في سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٩ م لمبوره الثاني للزقاق على رأس جيش مريني لجهاد النصارى في إسبانيا وأبلى بلاء حسنا وعاد إلى عاصمته فاس . وفي سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨٢ م نازل يغمراسن في ملعب الخيل بأحواز تلمسان وهزمه وعاد إلى فاس . ولم يلبث أن أخذ يستعد لهجازه الثالث إلى الأندلس سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٣ م ليجاهد نصارى الإسبان واستولى على بعض حصونهم . وفي سنة ٦٨٥ هـ عبر الزقاق للجهاد مع صفوة مستبلة

من بنى مرين وأحرز نصرا مجيدا على نونيو جونزالث دى لارا nuno gonzalez de lara جنوبى قرطبة فى ربيع الثانى سنة ٦٨٥ هـ/سبتمبر سنة ١٢٨٦ م . وتوفى بأوته فى الجزيرة الخضراء . وكل ما استولى عليه من الحصون والبلاد كان يتركه لبنى الأحمر أصحاب غرناطة، فهو لم يجاهد لغنيمة إنما كان يجاهد لنصرة المسلمين ضد أعداء الإسلام نصارى الإسبان، وظل ذلك مبدأ ثابتا لحكام بنى مرين فى جهادهم لأولئك النصارى، فهم لا يفتنون بجهادهم غنما. إنما يخون الدفاع عن الإسلام ضد خصومه إرضاء لله ورسوله. وتلك منة يعقوب وخلفائه المرينيين .

وخلف يعقوب - بمهد منه - ابنه يوسف ، وسار سيرته فى الجهاد فغير الزقاق إلى الأندلس مرارا ، كما سار سيرته فى العدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه ، ونازل عثمان سلطان تلمسان مرارا ، وفى سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٩ م حاصرها وظل محاصرها ثمانى سنوات ، وفى سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠١ م أسس أمامها مدينة المنصورة لمعسكره ، وشاد بها قصره وبنى بجواره جامعا عظيما ومنارة على رأسها تفاحات من ذهب ، وبنى الناس حول قصره المنازل والقصور ، وغرسوا البساتين وأجروا المياه وأداروا على المدينة سورا ، وبيت بها حمامات وفنادق ومارستان ، حتى إذا عادت لبنى عبد الواد هدموها وخربوها وطمسوا معالمها ، وتوفى عثمان بن يغمراسن سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م حزنا وكمدا ، وتوفى ابنه أبو زيان مثله كمدا سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٨ م . ولم يلبث أن توفى يوسف بن يعقوب ، ففك المرينيون الحصار عن تلمسان ، ولابد أن نذكر أن المرينيين حين حاصروا تلمسان استولوا على كل ما كان يدها من مدن فى المغرب الأوسط بل ربما أضافوا إليها مدنا جديدة ، فقد استولوا على وجدة وهران ومستغانم وتنس ومليانة وشرشال والمدية وبجاية . وبعد يوسف رغب فى الاستيلاء على صولجان الحكم أخوه أبو يحيى وابنه أبو سالم وحفيده أبو ثلث عامر ، وأرسل عامر إلى بنى عبد الواد أن يؤيدوه نظير رد ممالكهم عليهم فى المغرب الأوسط فأبدوه ، وتم له الأمر ، وفى لهم بالعهد ، وخلفه عثمان بن يعقوب فأغار على تلمسان سنة ٧١٤ هـ/١٣١٥ م .

وتوفى عثمان سنة ٧٣١ هـ/١٣٣١ م وخلفه ابنه أبو الحسن على ، ويفكر فى الاستيلاء على تلمسان ويستولى على ندرومة ومحاصر وجدة سنة ٧٣٥ هـ/١٣٣٥ م ويستولى على وهران وتنس ومدينة الجزائر ومليانة سنة ٧٣٦ هـ/١٣٣٦ م ويحاصر تلمسان ، ويعد بناء المنصورة لسكناء وسكنى جيوشه . ويفتح تلمسان سنة ٧٣٧ هـ ويأخذ بنى عبد الواد وأهلها بالرفق ويأخذ فى الاستيلاء على مدن الجزائر ، ويدخل بجاية ويضع عن أهلها ريع المكرم وتذعن قسنطينة لطاعته ، ويقدم إلى تونس ومعه حشد من العلماء الأجلاء اجتمعوا له من المغرب الأقصى والمدن التى نزلها ، وظل بها من سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م إلى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م . وفى شهر محرم سنة ٧٤٩ هـ للهجرة هزم العرب أبا الحسن على القيروان هزيمة شديدة وربما كان من أسبيلها

فنه كان فى جيشه بنو عبد الواد ومغراوة وتوجين ، وجميعهم سلب منهم ديارهم ، فعملوا على هزيمته وانتصار العرب . وشاع فى المغرب الأقصى خبر بموته . فدعا ابنه أبو عنان لنفسه وباهمه الناس . وفى شهر شوال من سنة ٧٥٠ هـ أبحر فى أسطول ضخم إلى الجزائر ، وتعلم أسطوله بساحل زواوة فى الجزائر ولم ينج إلا نفر قليل منهم ، وغرق من كان معه من العلماء مفخرة المغرب الأقصى والجزائر . ولم يتنازل ابنه أبو عنان له عن الملك بعد أن تحقق من حياته خشية أن يجرمه من ولاية عهده ، وشغل الابن بليته حتى توفى سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥٢ م وتم له الأمر . وزحف إلى تلمسان سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م وكان يليها عثمان الثانى وأبو ثلث فاستولى عليها وقتل عثمان وفر أخوه أبو ثلث إلى شلف فأرسل إليه أحد قواده فاستولى على مسكره بكل ما كان فيه ، وفر أبو ثلث ثلثيا وقتل فى فراره ، واستولى أبو عنان على كثير من مدن الجزائر بما فيها بجاية وقسنطينة .

وتوفى أبو عنان سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م وهو آخر حكام بنى مرين العظام ، ويومع لابنه نفي بكر السعيد وكان طفلا فظل فى الحكم سنة ، وخلفه عمه إبراهيم لمدة ستين . وطبىح وقد اضطرت الأمور أن تعود تلمسان لأهلها بنى عبد الواد ، ويتولى أخوه لمدة سنة ، ويتولى بعده سلاطين ضعاف ، واختلت الأحوال وظلت الدولة ترداد اختلالا بتولى قناس غير أكفاء ، وازدادت الفتن الداخلية وظلت الحروب مشتتة بين بنى مرين وبنى عبد الواد وكثيرا ما تغلب الوزراء على الحكم فقدموا له الصبية والضعاف من ذرية عبد الحق ليخلو لهم الجو . وأخذ بعض الحكام فى سجلماسة ومراكش وأطراف الدولة بمحاولون الاستقلال عنها . وتفقد الدولة المربية المغرب الأوسط وتعود إلى حدودها الأولى ، فقيم كان كل هذا الصراع بين المرينيين والتلمستيين وحكامهم من بنى عبد الواد . ولو فكر هؤلاء الحكام المسلمون فى الأمر ومصلحة الأمة لأغمدوا السيف ولم يسلّوه على إخوانهم ، وإنما يسلّونه على عدوهم من نصارى الإسبان الذين ينازلون المسلمين فى الأندلس نزالا ضاريا . ومن الحق أن بنى مرين أدوا دورا عظيما فى الدفاع عن غرناطة . فقد ظلوا حتى أيامها الأخيرة يخوضون معها أو منفردين معارك طاحنة بذلوا فيها كل ما يستطيعون غير طامعين فى غنم أو أى كسب مادى . ولا نمضى طويلا فى القرن التاسع الهجرى حتى نشعر بضعف المرينيين فقد استولى البرتغاليون منهم على ستة سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م إذ تحولت الحرب المقدسة إلى أرض المغرب . واستولى البرتغاليون على الدار البيضاء أو أرفه سنة ٨٧٤ وعلى طنجة ومدينتي أصيلا والعرارش سنة ٨٧١ هـ / ١٤٧١ م . وخرجت عن طاعة الدولة مراكش ومنطقة الريف فى الشمال وسجلماسة ودرعة والسوس فى الجنوب ، ولابد أن نذكر فنه إذا كانت الدولة المربية ضعفت وتخاذلت إزله هذا الاحتلال البرتغالى الواسع لموانئ المغرب على الزقاق والمحيط ففنه كان هناك من الشباب العربى دائما من يستبسلون فى مقاومتهم وينزلون بهم خسائر فادحة فى الأرواح ، من مثل

نبي الحسن^(١) على المنذرى، وكان قد قام بأعمال بطولية فى حروب غرناطة مع النصارى ، وعز عليه أن لاتجد مدن سبتة والقصر الصغير وطنجة من يدافع عنها ضد أعدائهم ، فانسحب إلى تطوان جنوبى سبتة على البحر المتوسط . وأخذ فى تحصينها واجتمع له ثلاثمائة فارس ، وأخذ بهذه الكمية الصغيرة يمزو منطقة المدن الثلاث السابقة ويأسر كثيرين من نصارى البرتغاليين وينهك قواهم فى أشغال التحصينات . ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن تطوان إنه زارها ورأى بها ثلاثة آلاف من عبيد النصارى ويقول إنهم كانوا يلبسون جميعا ستره من الصوف وينامون ليلا مقيدين بالأصفاد فى سراديب تحت الأرض . ومثله شاب^(٢) إدريسى ذهب إلى غرناطة واتخرط لفترة من الزمن فى خدمة الغرناطيين حتى أصبح محاربا مجربا ، وعاد ليستقر فى جبل بنى حسن بالقرب من مدينة تطوان ، واجتمع إليه عدد من الفرسان ، وأخذ ينازل البرتغاليين فى المنطقة ويفتك بهم ، ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن جبل بنى حسن إن البرتغاليين يعرفونه جيدا ويعرفون بطولته ويسمونه باسمه على بن راش (راشد) وهو الشريف الإدريسى على بن موسى بن الرشيد . ولابد أنه كان لشبان مغاربة أعمال كثيرة كأعمال الإدريسى والمنذرى غير أن المؤرخين قلما يثبتونها . ومرُّ بنا الحديث عن بهلول وبطولاته العظيمة فى عصر الموحدين . وتبلغ الدولة المرينية غاية الضعف فتولى الأمر الوطاسيون وهم فرع من بنى مرين ولم يكن يدهم شيء من السلطان الحقيقى . وكان أولهم محمدا الشيخ منذ سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧٢ م حتى سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م وخلفه ابنه محمد البرتغالى حتى سنة ٩٣١ هـ / ١٥٢٤ م فأخوه يوحسون لمدة سنة فأحمد بن محمد البرتغالى حتى سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م . وكان الكلبوس البرتغالى يزداد فى عهدهم جثوما على ساحل المحيط ، وقد استولوا على ماسة فى منطقة السوس سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م وأختها أغادير فى منطقة السوس أيضا سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م وعلى آسفى فى منطقة دكالة سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م وعلى أزموور سنة ٩١٩ م وكانوا ينشئون فى كل مدينة حصونا للدفاع عنها ويقمون فى كل مدينة حاكما عسكريا ، وكانوا كثيرا ما يغيرون على البلاد وراء الساحل فى الداخل وينهبون خيراتها . ولابد أن نذكر أن الوطاسيين لم يقفوا مكتوفى الأيدي إزاء هذا السيل البرتغالى فقد أبلو فى جهادهم بقدر ما استطاعوا ولكن قدرتهم كانت محدودة ، إذ خرجت مراكش وأكثر أجزاء المغرب الأقصى عن نفوذهم ، وشغلتهم واستغدت كثيرا من طاقاتهم الفتن الداخلية الكبيرة ، حتى لم يعد لهم حول ولا قوة ، ولذلك كان طبيعيا أن تسقط فاس فى أيدي الأشراف السعديين سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٥٠ م وسلطانها - فى الواقع - انتهى قبل ذلك بسنوات طويلة .

(١) انظره فى كتاب وصف إفريقيا فى مدينة تطوان (٢) راجعه فى نفس المصدر فى بنى حسن ص ٣٢٣ .

السعديون - الطرق الصوفية - العلويون

(أ) السعديون^(١)

السعديون ثلثي دولة عربية علوية تقوم في المغرب الأقصى بعد دولة الأدارسة ، وكانوا يتسبون إلى محمد النفس الزكية سليل الحسن بن علي بن أبي طالب . وكان السبب في قيام هذه الدولة أن البرتغاليين أخذوا منذ أوائل القرن التاسع الهجري للقبائل الخمسة عشر الميلادي يكثر من حملاتهم على سواحل المغرب الأقصى في الشمال على الزقاق وفي الغرب على المحيط الأطلسي واستولوا على كثير من الموانئ المغربية خلال هذا القرن ، وتصادوا يستولون على مدن في القرن العاشر الهجري كما أسلفنا ، وكانوا كلما استولوا على ميناء ازداد غضب الشعب وازدادت حيته اضطرابا لمقاومة البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن الغالي . وآلم الشعب دائما أن لا يجد عند الوطاسيين قوة يستطيعون بها إقناذ البلاد ، وظل يبحث عن يقوده لحرب البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن ، وأخيرا عثروا على بغيتهم في شخص من أصل حسني شريف كان يقيم مع أسرته بالقرب من تارودنت على نهر السوس يسمى أبا عبد الله محمدا فأخذ الناس يبايعونه مستبشرين بنسبه الشريف . وحين تمت له البيعة تلقب بلقب القائم بأمر الله ، ونهض تورا لجهاد البرتغاليين ونودي به سلطانا في منطقة السوس سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م وأخذ في محاربة البرتغاليين ورافقه النصر عليهم مرارا وتوفي سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م وخلفه ابنه أحمد الأعرج ، وتبلغ سياسة أبيه في جهاد البرتغاليين واسترد منهم أغادير وماسة وسواحل السوس جميعها ، ودخل مراكش سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وبايعه المسيطرون عليها من قبيلة هنتاة المصمودية واتخذها عاصمة ولم تكد طلائع جيشه ترى في إسفي وآزمور بمنطقة دكالة حتى أخلاهما له البرتغاليون خوفا من القتل والسبي وفروا على وجوههم لا يلوون كما أخلاوا مدينة أصيلا لضغط أهل منطقة المحيط عليهم ، وتوفي سنة ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩ م وخلفه أخوه محمد المهدي وطرد البرتغاليين من إسفي وآزمور بعد عودتهم إليهما واستولى على مكناس ثم على فاس سنة ٩٥٢ هـ إذ حاصرها ودخلها واعتقل الوطاسيين وأرسل بهم إلى تروندت في السوس ، غير أن

(١) انظر في دولة السعديين كتاب الحرب في عهد الدولة السعدية لبيد الكريم كرم وكتاب تاريخ الدولة السعدية لمجهول تحقيق كولان طبع الرباط ومناهل الصفا في أخبار الملوك الشرقا للفتنالي (تحقيق عبد الله كون) والمغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات (طبع بيروت) وتاريخ الأسرة السعدية للأفريقي والمتقي المتصور على

مآثر الخليفة أبي العباس المصور لأحمد بن القاضي (تحقيق محمد زروق) طبع الرباط ، ولأبي القاضي أيضا جذوة الأتلس (طبع الرباط) وكتاب نشر الثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني (تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق) (طبع دار الغرب) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .

واحدًا منهم هو بوحسون كان قد لجأ إلى الترك في الجزائر واستعان بهم في الاستيلاء على مدينة فاس فأعوانوه واستولى عليها ونودي به سلطانًا ، فحاصره محمد المهدي واستولى منه على فاس وقتله . وأدَّى صنيع بوحسون بمحمد المهدي إلى تخلصه من الوطاسيين جميعًا في تروندت وبذلك أصبح المغرب الأقصى جميعه خالصا له . وكان فقيها وعلى معرفة بالأدب ، وكان واسع الأفق فأحسن تدبير الدولة ونظم شئونها ، وجعل لها موارد من الضرائب على الزراعة والصناعات تُعين حكامها السعديين على مقاومة البرتغاليين ، وهو بذلك يعد المؤسس الحقيقي لدولة السعديين . ويقول خصومهم إن هذا اللقب دليل على أنهم ليسوا شرفاء من البيت النبوي ، إنما هم من بنى سعد بن بكر القبيلة القيسية التي شرفت بحليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ ، والصحيح أنهم علويون من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، أما تلقيبهم بلقب السعديين فتعبير من المغاربة معاصريهم بأنهم سعدوا بهم ، كما يقول مؤرخهم الفشتال في كتابه مناهل الصفا ، وأى سعد كان ينتظره المغرب في القرن العاشر الهجري أكبر من سعده بهم في تطهيرهم لسواحه من البرتغاليين ما عداه طنجة في الشمال . وخلف محمدا المهدي ابنه عبد الله الملقب بالغالب بالله ، وظل يدافع البرتغاليين من جهة والترك في الجزائر من جهة ثانية ، وكانت أيامه أيام أمن ورخاء كثر فيها البنيان وال عمران وتوفى سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م . وتولى بعده ابنه محمد الملقب بالثوكل ، وكان لأبيه أحوال ترقيا في الجزائر لدى الترك العثمانيين مدة ، وهما عبد الملك وأحمد ، وصمما أن لا يتنازلا عن صولجان الحكم والملك لابن أخيهما ، وكان عبد الملك شخصية نبلية ، وكان يحسن الإيطالية والإسبانية ، وسافر إلى الآستانة ، وأخذ يلح في أن يرسل الترك معه جيشا للاستيلاء على فاس من يد ابن أخيه وعاد إلى الجزائر ، فأمدته واليهما بكيفية من الجيش التركي استعان بها على استرجاع فاس ، وبمجرد دخوله فيها فر ابن أخيه الثوكل وبايعه الناس وتلقب بالمتعصم سنة ٩٨٤ هـ / ١٥٧٧ م .

وكان عبد الملك المتعصم يحسن تدبير الملك ، فنظم أمور الدولة ولم يلبث أن نظم الجيش على طريقة الجيش التركي وما يتبع فيه من أساليب ، أما ابن أخيه محمد الذي لُقِبَ بالثوكل فإنه حاول عبثا أن يشاغب عمه في منطقة السوس ، ولما أعياه ذلك لجأ إلى طنجة ، ولقى بها ملك البرتغال سبستان ، فوضع يده في يده معاهدا له على حرب عمه عبد الملك ، وانتهاز الفرصة ملك البرتغال وجهز جيشا قاده بنفسه ، يقال إن عدده بلغ ثمانين ألفا ، وانضم إليه محمد الثوكل مع من أغواهم ، ونزل البرتغاليون في ميناء أصيلا ، ورأى عبد الملك أن يطاولهم حتى يتوغلوا في داخل البلاد ، وتغلغلوا إلى الجنوب حتى وصلوا إلى وادي المخازن بقرب مدينة القصر الكبير ، وتركهم حتى إذا عبروا جسر الوادي أمر بهدمه ، ثم لقيهم في جمادى الأولى سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م ودارت معركة حاسمة سحق فيها الجيش البرتغالي سحقا ذريعا وقتل ملكه سبستان ونصيره محمد الثوكل . وأثناء المعركة توفى عبد الملك المجتهد وفاة طبيعية

لأنه كان مريضاً وصمم على أن يحضر المعركة، وكان أخوه أحمد هو الذى يديرها، وكنتم خیر وفاة أخيه عن الناس حتى لايمكر عليهم فرحتهم بهذه المعركة الفاصلة : معركة وادی المخازن التى أعطت البرتغاليين درساً أن لايفكروا مرة ثانية فى إززال جيش لهم بالمغرب الأقصى، وأخذوا ينسحبون من المواقع التى استولوا عليها بشواطئ المحيط وأحياناً كانوا يتركونها لجارتهم إسبانيا .

وتولى بعده أخوه أحمد الذى اكسب لنفسه فخرَ النصر المجيد فى معركة وادی المخازن ، إذ كان هو الذى أدارها ، وباعيه الناس مبتهجين به وتلقب بالمنصور ، وكان حاكماً عظيماً كبير المهمة بصيراً بشئون السياسة ، ومن أعماله إنشاء ما أسماه الديوان وهو مجلس شورى ينعقد كل يوم أربعاء من الأسبوع - ويضم بعض رجال الدولة وبعض الشخصيات - للنظر فى الشئون السياسية والمصالح العامة ، وأعاد تنظيم الجيش تنظيمًا جديدًا جامعاً فيه بين النظام المغربى والنظام التركى ، وكانت بعض أقاليم الصحراء فى الجنوب قد خرجت عن طاعته ، وخاصة إقليمى توات وتيكرارين فأرسل إليهما جيشاً قوياً أعادهما إلى طاعته . وكانت مملكتيه تانخم فى الجنوب أقطار السودان فانتشر فيها الحديث عنه ، ودخل ملك بُرْنو فى طاعته مما جعله يطمح للاستيلاء على السودان الغربى جميعه فأرسل إليه جيشاً ضخماً فى نهاية القرن العاشر الهجرى واستطاع الاستيلاء عليه ، وبذلك امتد نفوذه جنوباً إلى أقاليم سودانية لم يصل إليها نفوذ المغرب فى أى عصر قبله . ووضع يده على منابع الثروة الضخمة فى هذه البلاد ، حتى كان الذهب يُجسّى إليه منها بالأحمال ولذلك لقب بالمنصور الذهبى ، ويقال إن عدد من كانوا يضرّبون السكة أو العملة الذهبية فى عهده بلغ ألفاً وأربعمائة . وهذا الغنى الطائل للدولة وتجارتها وأهلها هيّأ لها ازدهاراً فى الحضارة وما يتصل بها من الصناعات وضروب الحياة ، وكثر حينئذ إنشاء القصور ومن أهمها قصر المنصور الذى سماه باسم البديع ، وقد استغرق بناؤه ثمانى سنوات ، وتنفق عليه أموالاً طائلة . وتوفى سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م .

وبعد وفاة المنصور تنازع أولاده الثلاثة : زيدان وأبو فارس ومحمد الملقب بالمأمون ، ونودى بزيدان سلطاناً فى فاس وبنيى فارس سلطاناً فى مراكش ، وتغاربا وانتصر أبو فارس ، غير أن أهل فاس فضلوا الخضوع للمأمون ، فنودى به سلطاناً سنة ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤ م واغتيل أبو فارس ، وحدثت طامة كبرى بتنازل المأمون للإسبان عن مدينة العرائش على ساحل المحيط جنوبى منطقة المحيط سنة ١٠١٨ هـ / ١٦١٠ م وبذلك عادت الاستعمارة بالعدو الأجنبى ، ونشبت فتن واضطرابات ، ونودى بالابن الثالث للمنصور : زيدان سلطاناً ، وظلت الاضطرابات وتوفى سنة ١٠٣٨ هـ / ١٦٢٨ م وتنازع الملك أولاده الثلاثة عبد الملك والوليد ومحمد شيخ وتوفى الأخير سنة ١٠٦٥ هـ / ١٦٥٤ م . وبوفاته ينتهى حكم هذه الأسرة ، وهو فى الواقع قد انتهى منذ تسليم المأمون ميناء العرائش للإسبان ، إذ اتسع نفوذ الطرق الصوفية وأصبحت هى التى

تدبر الحكم في أكثر أجزائه المغرب الأقصى .

(ب) الطرق^(١) الصوفية

أخذت الطرق الصوفية تكثر في المغرب الأقصى منذ القرن الثامن الهجري ، مثله في ذلك مثل بقية البلاد المغربية ، وأخذت تكثر معها الزوايا ، وعادة يكون بها ضريح لمؤسسها الصوفي أو لصوفي كبير ومصلى ومساكن لبعض العلماء والطلاب الغرهاء ، وكان أهل اليسار يقفون على هذه الزوايا أوقافا كثيرة ، وتلى فيها الأوراد وتقام الأذكار ، وقد تنعقد فيها بعض الدروس ، فتكون دارا للتعليم والوعظ والنسك . ولما فسدت الحياة السياسية في أواخر عهد الدولة المرينية وضعف الحكام عن مواجهة أعداء الوطن البرتغاليين في القرن التاسع الهجري أخذ أهل المغرب الأقصى يلوذون ببعض أصحاب هذه الطرق آمين أن يجدوا عندهم الحماية للذود عن دار الإسلام وإيقاد الوطن من هذا البلاء المستطير ، والتف كثيرون منهم حول صوفي شاذلي صالح هو الشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب كتاب دلائل الخيرات المتوفى سنة ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م متوسمين فيه أن يستجيب لهم ، واستجاب ، وتقدم مع جموع كثيرة من مريديه الصوفية وغيرهم يتصدى للبرتغاليين وينازلهم منازل ضارية . وبذلك حول الصوفية من جماعة تعيش للنسك وحده إلى جماعة مجاهدة في سبيل الله تجاهد أعداء الدين والوطن من البرتغاليين الصارى ، وانتصر عليهم بمن آزره من الصوفية وغيرهم مرارا ، غير أن خائنا اغتاله ، ليفف جهاده . ولم تلبث الدولة السعدية أن قامت واستطاع حكامها البواسل أن يستردوا كل ما أخذته البرتغاليون واستولوا عليه من مولى المحيط الأطلسي ومنه كما أسلفنا وقد نازلهم في معركة وادی المخازن كما مر بنا ولم تلبث الحركة أن استحالت إلى ما يشبه مذبحة كبرى للبرتغاليين ، فردوا إلى صولهم ولم يعد يمر بخاطرهم أن يستولوا على أى ميناء مغربي على المحيط ، بعد أن كادوا يستولون على الساحل جميعه بمدنه وموانئه . وخاب الأمل في أبناء المنصور الثلاثة كما مر بنا فقد تنازعوا على العرش ، وتنازل أحدهم - وهو المأمون - لإسبانيا عن مدينة العرائش جنوبى منطقة المحيط ولم يلبث الإسبان أن أسسوا لهم في العام التالى بالقرب من مصب نهر سبو فى المحيط مدينة سميت المصورة واسمها الآن المهدية وتنازل لهم البرتغاليون عن سبتة وطنجة فى الشمال وكذلك عن الجديدة فى منطقة دكالة وأزمور . وشق ذلك على المغاربة . ولأدوا - من جديد - بالمصوفة يأملون أن يرفع أحدهم لواء الجهاد للعدو الإسباني فيضفوا تحت لوائه ، واتسعت الفتن واتسع اضطراب الأمور ، وطمح كثيرون - حتى بين المصوفة أصحاب الزوايا - أن يأخذوا بلادا أو أجزاء واسعة من الدولة التى توشك على

لأخبار دول المغرب الأقصى للسرخارى ونشر الثمانى
لأهل القرن الحادى عشر والثانى للقادرى تحقيق محمد
حجى وأحمد التوفيق (طبع دار الغرب) .

(١) انظر فى الطرق الصوفية ونشاطها السياسى ما كبه
الدكتور محمد حجى عن الزاوية الدلانية ودورها الدينى
والعلمى والسياسى (طبع الدار البيضاء) والاستنفا

الاحتضار . ونكفى بالحديث عن أحدهم وهو الشيخ محمد بن نبي بكر الدلائى مؤسس الزاوية الدلائية بتادلة سنة ٩٧٤ هـ/١٥٦٧ م وقد اتسعت حتى شملت مبلتي كثيرة ، وتكاثر بها العلماء المدرسون والطلاب ، وقد ثار الشيخ محمد الحاج على الدولة السعدية فى جبال الأطلس الوسطى سنة ١٠٤٢ هـ/١٦٣٣ م وتبعه كثيرون من البربر واستولوا على سلا سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وزحف إلى مكناس وفاس سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤١ م وتملكهما وأقام الدولة الدلائية ، وقاومه محمد بن الشريف رأس الدولة التالية ، وستم فيها الحديث عنه ، وعلى شاكلته صوفية من زوايا أخرى ثاروا على السعديين . وخير منهم جميعا وأعظم الشيخ الصوفى المجاهد البطل أبو عبد الله محمد العياشى الذى لجأ إليه أهل منطقة الهبط ، فتصدى للإسبان حتى خلص منهم مدينة العرائش ، كما خلص منهم مدينة أزموور فى جنوبى تامسنة وخلص منهم الجديدة سنة ١٠٤٩ هـ/١٦٣٩ م ، ومع هذه الأعمال المجيدة امتدت إليه يد آفة سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٢ م فقتل البطل المنعم النظيف . ومن أهم رجاله وأعوته الخضر غيلان الذى أرسله إلى منطقة الهبط لجهاد أعداء الله ، واستطاع الاستيلاء على مدينة القصر الكبير سنة ١٠٦٣ هـ/١٦٥٢ م .

(ج) العلويون^(١)

هذه ثالث دولة علوية فى المغرب الأقصى بعد دولتى الأدارسة والسعديين ، ومؤسوها مثل مؤسسى هاتين الدولتين من سلالة الحسن بن على بن نبي طالب ، وكنت أسرتهما تعيش من قديم فى منطقة سجلماة ، وكان أهل المنطقة يرجون بهم ويوسعون لهم فى العيش معهم لنسبهم الشريف . وعندما ثار أبو الحسن (بوحسون) السملالى فى مناطق الصحراء الجنوبية بالمغرب الأقصى واستولى على سجلماة ودرعة والسوس أذعن له بالطاعة فبرز أفراد الأسرة حينئذ الشريف ابن على ولم يلبث ابنه محمد أن رفض هذه الطاعة ، وحاربه السملالى فأسره وظل فى أسره حتى افتكه ابنه محمد المسمى باسمه . وعاد الأب فى سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ م إلى حرب السملالى واستطاع هزيمته فى سجلماة وتعبه فى درعة وإقليم السوس حتى قضى على شره وشغبه . ولم يلبث الأب محمد بن الشريف أن هاجم محمداً الحاج رئيس زاوية الدلاء ورجاله ، وكان مستوليا على فاس ومكناس وحوض نهر سبو ، واستطاع محمد الحاج هزيمته سنة ١٠٥٦ هـ/١٦٤٦ م وعقد بينهما صلح على أن تكون منطقة الصحراء (سجلماة ودرعة) إلى جبل بنى عياش لمحمد بن الشريف ، وما يقع إلى الشمال من ذلك إلى حوض نهر أم الربيع إلى الغرب يكون لزاوية الدلاء ورئيسها محمد الحاج الدلائى . وحاول محمد بن الشريف

العلوية بالمغرب لكرول وكولان (طبع باريس) ونشر
التانى لأمل القرن الحادى عشر والثانى ، والاغتصا
لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى .

(١) انظر فى العلويين أو الدولة العلوية الدرر الفاعرة
بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة لابن زهدان ونزعة
الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى للأفرغى وتاريخ الدولة

الاستيلاء على تلمسان ، وسرعان مارده الأتراك العثمانيون حكام الجزائر . وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ/ ١٦٥٩ م وخلفه ابنه محمد ، وحدث شقاق بينه وبين أخيه الرشيد ، وتحاربا وتوفى محمد فى أثناء الحرب ، فخلص الأمر للرشيد وتمت يبعته سنة ١٠٧٥ هـ/ ١٦٦٥ م وكان قد تولى لايه وأخيه على مكانس فاتخذها عاصمته واستولى على سجلماسة ، ولم يلبث أن استولى على فاس ومنطقتها فى سنة ١٠٧٦ هـ/ ١٦٦٦ م من يد محمد الحاج رئيس الزاوية الدلائية وحلفائه من أعراب الأنيج ، وفتح منطقتى المبط ونودى به سلطانا على المغرب جميعه فى السنة التالية . وصمم على هدم الزاوية الدلائية فى منطقة فازاز شرقى ممر تازا ودخلتها جنوده سنة ١٠٧٨ هـ/ ١٦٦٧ م وهدموها ولم يبقوا منها بقية ، واستسلم له محمد بن الحاج الدلائى فأرسل به مع أسرته إلى فاس حيث عاشوا فى رعايته ، وتلطف مع شيوخ الزاوية فأرسل بهم إلى معاهد فاس وغيرها ليزاولوا نشاطهم العلمى . واستولى سنة ١٠٧٩ هـ/ ١٦٦٨ م على مراکش من يد أعراب الشبانات ، ولم يلبث أن فتح مدينة تروذنت وبقية مدن السوس ، وأذعن بالطاعة له أعراب المغرب الأقصى جميعهم من الحلالية فى الشرق وقبائل حسان والمغقل فى منطقة درعة ، وأعلنت منطقة الريف فى الشمال طاعنتها له ، ماعدا مليلة وسبتة اللتين كانتا قد استولى عليهما الإسبان ، وماعدا طنجة التى انتقلت إلى الإنجليز وبذلك أعاد الرشيد إلى المغرب الأقصى وحدته ، وهو يعد المؤسس الحقيقى لتلك الدولة العلوية .

وتوفى الرشيد سنة ١٠٨٢ هـ/ ١٦٧٢ م وخلفه أخوه إسماعيل وهو من أعظم سلاطين العلويين وطال حكمه نحو سبعة وخمسين عاما حتى سنة ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٧ م وكانت سنوات رخاء وخير وبركة للمغرب الأقصى ، وقد مدَّ حدوده شرقى نهر الملوية حتى مدينة وجدة ، وثبتت تلك الحدود إلى اليوم ، كما مدَّ حدوده جنوبا متوغلا فى بلاد السودان الغربى . وكونَ للمغرب الأقصى جيشا ضخما من البربر والأعراب والسود وكان يأتمى بهم من فتوحه فى السودان الغربى وحوض النيجر ، واتخذ لهم معسكرا يدرّبون فيه تدريبا عسكريا متفنا وبلغوا فى حياته مائة وخمسين ألفا ، ووزعهم على القلاع بجميع أنحاء المغرب الأقصى للحراسة وأمن الطرق . وعاشت البلاد لعهدده فى رخاء وطمأنينة وأمان وسخت الأرض بالخيرات . وأخذ إسماعيل يستكمل عدته لمنازلة الأجانب المحتلين لشواطئ المغرب الأقصى فى الشمال والغرب ، وكانت كازنريا وارثة عرش البرتغال قدمت مدينة طنجة صداقا إلى زوجها شارل الثانى ملك إنجلترا سنة ١٠٧٢ هـ/ ١٦٦١ م فانتقلت طنجة من أيدي الإسبان إلى أيدي الإنجليز ، واستطاع طرد الإنجليز منها سنة ١٠٩٥ هـ/ ١٦٨٤ م كما استطاع طرد الإسبان من المعمورة (المهديّة) شمالى مدينة سلا ، حتى إذا كانت سنة ١١٠١ هـ/ ١٦٨٩ م طردهم من مدينة العرائش ، وكان قد خلعها منهم العياشى ، وعادوا فاستولوا عليها ، ودق الشعب فى المغرب الأقصى الطبول لبتهاجا بمودتها ، إذ كان قد أعلن من أجلها الحداد ، واتخذ لذلك شعارا أن يلبس

أخذة سوداء فلما استردّها إسماعيل نزعوا تلك الأحذية من أقدامهم وعادوا إلى لبس نعالم الصفراء المغربية . وفى سنة ١١٠٤ هـ/١٦٩٢ م طرد إسماعيل الإسبان من مدينتي أصيلا والعرانش ، وبذلك استرد للمغرب الأقصى ساحل المحيط جميعه وصدقت فراسة المغاربة للاتفاف حول أسرة علوية شريفة لإنفاذ المغرب الأقصى مما دهاه من كوارث مفعجة . وحاول السلطان إسماعيل فتح سبتة ومليلة وحاصر سبتة طويلا يريد أخذها من يد الإسبان ولكنهم ثبتوا فيها بعاونهم أسطولهم فى البحر وقربها من ديارهم .

وتوفى - كما أسلفنا - سنة ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م وتلاه عهد اضطرابات وفتن لتنازع لثباته على الحكم وتدخل الجيش وأخذ يختل الأمن وينتشر الفساد وتشيع الفوضى وتسوء حالة البلاد الاقتصادية واستمر ذلك نحو ثلاثين عاما إلى أن تفقد البلاد حفيد للسلطان إسماعيل ، هو محمد بن عبدالله الذى خلف ثباه سنة ١١٧١ هـ/١٧٥٧ م وكان قد أظهر فى عهد أبيه قدرة سياسية حين عينه حاكما لمنطقتي مراكش وآسفى فى دكالة ، ثم عينه قائدا فنظم الجيش وأقر الأمن فى السوس ، وتابع بعد استيلائه على صولجان الحكم نشر الأمن فى ربوع البلاد ، وتجول فيها متفقدًا لشئونها وحصن المدن الكبرى والثغور وشيد بهما الأبراج والحصون وزودهما بالمدافع والقوات العسكرية لحفظ الأمن والنظام فى أنحاء البلاد ، وعنى بالأسطول فأمدّه بكل ما يلزمه من عتاد حربى ، وأضاف إليه طائفة من السفن ، وأمر أن يواصل البحارة والجنود فيه تدريبات ومناورات منتظمة على المتوسط والزقاق والمحيط . وكان البرتغاليون قد نزلوا فى ميناء الجديدة (العمورة) شمالى سلا سنة ١١٨٢ هـ/١٧٦٩ م فطردهم منها ولبنى ميناء الصويرة فى منطقة حاحة غربى مراكش . ووثق علاقات دولته بالدولة العثمانية وتبادل معها الهدايا تأكيدا للمودة .

وتوفى سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م وعادت البلاد إلى الاضطراب والفوضى فى عهد ابنه اليزيد ولم يلبث أن توفى سنة ١٢٠٦ هـ/١٧٩٢ م وتولاه أخوه سليمان لنحو ثلاثين عاما ، ومضى فى أوائل عهده بخروب متصلة بينه وبين أخويه هشام ومسلمة ، وخرج منها بعد طول عناء ، ليظل بقية أيامه ينازل بربر الأطلس التلى أو الأطلس المتوسط ، وولى بعده ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام حتى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٥٩ م وشغل بثورات داخلية واحتل تلمسان حين احتلت فرنسا الجزائر ، وهزم فى موقعة إيسلى . وخلفه ابنه محمد حتى سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٤ م وقضى على ثورة الجبالى الزرهونى واحتلت إسبانيا تطوان ثم انسحبت منها بمقتضى معاهدة . وتلاه ابنه الحسن وهو من أهم سلاطين الدولة العلوية وقد نشر الأمن فى ربوع البلاد ، وأخذ يفتحها على الغرب فأرسل الجيوش إلى أوروبا وأخذ يرقى بالبلاد حضاريا وفكريا ، وعهده الزاهر يعد - فى رأينا - افتتاح العصر الحديث فى المغرب الأقصى .

افضل الثاني

المجتمع المغربي

١

عناصر السكان

البربر هم العنصر الأصيل الذي عاشت قبائله وبطونه وعشائره - منذ آماد سحيقة - في المغرب وسواحله وسهوله وجباله وهضابه وودياته من برقة إلى المحيط الأطلسي واختلف مؤرخو العرب ونسبة البربر في الأصل الذي اتحدوا منه اختلافات نشى استقصاها ابن خلدون في الجزء السادس^(١) من تاريخه ، فقيل إنهم ساميون من ولد عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام ، وقيل بل من ولد إبراهيم عليه السلام ، وقيل هم ساميون حقا ولكنهم عرب يمنيون من ولد النعمان بن حمير بن سبأ ، وقيل من لحم وجذام وقيل بل هم مضربون من ولد بر بن قيس بن عيلان ، وقيل إنهم حاميون من مصرايم بن حام ، وقيل : بل من مازيغ بن كنعان بن حام . وكما اختلف المؤرخون والنسابة في أصلهم اختلفوا في موطنهم الأصلي وهجرتهم منه ، هل هو الجزيرة العربية أو اليمن أو الشام أو فلسطين ، واختلفوا فيمن أخرجهم منه ، قبل أخرجهم داود - بوحى نزل عليه - إلى ديار المغرب ، وقيل خرجوا بعد قتل داود لجالوت فأرّين إلى إفريقيا ، وحاولوا النزول بمصر فمنعهم القبط فاتجهوا إلى برقة وما وراءها واتساحوا في المغرب إلى المحيط ، وقيل بل الذي أخرجهم من الشام إلى إفريقيا يوشع بن نون ، وقيل : بل إفريقش أحد ملوك التباغة اليمنيين ، وقيل إنه ارتحل معهم في هجرتهم إلى المغرب حيان يمينان : كتابة وصنهاجة . ويعلق ابن خلدون على كل هذه الأقوال وما يماثلها بقوله^(٢) : « إنها تكاد تكون من أحاديث الخرافة ، إذ مثل هذه الأمة (الضخمة) المشتعلة على أُمم وعوالم ملأت جابيا من الأرض لا تكون متقلة من جانب آخر وقطر محصور (مثل الشام) . والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأُمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام فما الذي يجوزنا إلى التعلق بهذه الترهات في شأن أوليتهم » . وابن خلدون حق في عدّ كل تلك الأقاويل من باب الخرافة سواء في ارتحال البربر من الشام أو غيرها إلى ديار المغرب أو في محاولة التعرف على الأصل الذي نشأت منه وتناسلت ذريتهم . والذي يؤكد النطق والواقع أن البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين إليه من آسيا ، وليسوا ساميين إنما هم إفريقيون حاميون مما جعل

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٨٩/٦ وما بعدها .

ابن خلدون يقول : « والحق الذى لا يبنى التحويل على غيره فى شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح - وأن اسم نبيهم مازيغ بن كنعان » . ويقول ابن خلدون إن إفريقس - فيما يقال - هو الذى سماهم بالبربر لما سمع رطقتهم واختلاط أصواتهم . وأولى من ذلك ما يقال من أن الكلمة ترجع إلى أصل لاتينى هو Barbarus وهو عند الرومان من لا يفهم كلامه ، وربما وجدوا الكلمة على لسان المغاربة أنفسهم فأخذوها عنهم ، إذ سماها بها أنفسهم وشعوبهم ، أما القول بأن العرب هم الذين سماها بها الشعوب المغربية لعدم فهمهم لغتهم وأن من ذلك قولهم بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة فبعد الاحتمال .

ويقول ابن خلدون إن شعوب البربر ترجع إلى مجموعتين ضخمتين هما شعوب البرانس وشعوب مادغيس الأبتى أو الأثر ، وتجمع شعوب البرانس عند النسلين عشرة شعوب أو قبائل كبرى هى مصمودة ، وصنهاجة ، وأوربة ، وعجيسة ، وكشامة ، ولزداجة ، وأوريفة ، ولطة ، وهسكورة ، وجزولة . والقبائل التى اشتهرت منها بسكنى المغرب الأقصى هى مصمودة وكانت تسكن أربع مناطق هى : حاحة - السوس - مراكش - جزولة ، ومن بطونها غمارة وكانت تسكن منطقتى الريف والمهبط وبرغواطة وكانت تسكن منطقتى تامسة ودكالة . وصنهاجة ، ويقال إنها ثلث البربر وموطنها المغرب الأقصى والصحراء ووراءه إلى السودان الغربى ، ومن بطونها لتونة ومنها عشيرة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، ومن بطونها أيضا بنو مزغنة منشئو مدينة الجزائر . وشعوب لطة وهسكورة وجزولة كانت مواطنها جميعا المغرب الأقصى ، وكان للشعوب الأخرى بعض بطون فى المغرب مثل هوارة من أوريفة . أما شعوب البتر فأربعة : نفوسة فى طرابلس ، وإداسة وتختلط بطونها بهوارة ، وضريمة ، ولوا . ومن البطون الكبرى لهذه الشعوب من سكان المغرب الأقصى ورفجومة بأوراس ومضفرة ويسكنون ما بين فاس وتلمسان ، ومكناسة على نهر ملوية من سجلماسة إلى مصبها ، ومغراوة فى فاس وسجلماسة وهى فرع من زنانة وكانت تسكن المغرب الأوسط وشطرا من المغرب الأقصى ومن بطونها بفرن وواسين ومنها بنومرين حكام المغرب الأقصى .

وظل البربر بعيدين عن الأمم القديمة لا يتصلون بهم أى اتصال حتى نزل بديارهم الفينيقيون فى القرن التاسع قبل الميلاد - وربما قبله أو بعده - وكانوا شعبا ملاحيا يحترف التجارة ، وأخذوا يبحثون فى سواحل البلاد المغربية عن مواضع صالحة لرسو سفنهم كى يتبادلوا السلع مع أهلها ونزلوا قرطاجة فى تونس ، وأخذوا يبحثون عن مواطن أخرى على طول الساحل فى الجزائر ثم فى المغرب الأقصى على البحر المتوسط والمحيط وتشاءوا عليها مدنا فينيقية هى مليلة على المتوسط وطنجة وأصيلا على المحيط ، ولابد أن أثروا بمحضارتهم الفينيقية فى تلك المدن وأنماثلها المختلفة فى أثناء القرون المتصلة التى خالطوا فيها السكان المغاربة ، ولابد أن عرف المغاربة كثيرا من طرقهم فى الزراعة والصناعة وخاصة فى التعدين ، كما عرفوا أبجديتهم ولغتهم

وربما أُنقِضَ منها كثير من : وتنشأ منذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد حتى أواسط القرن الثاني حروب بين قرطاجة عاصمة الفينيقيين وروما ويكسب النصر لروما ، وتؤول إليها ديار المغرب بما فيها من المدن الفينيقيّة ، وتصبح مليلة وطنجة وأصيلا تابعة لهم ، وينشئون على ساحل البحر المتوسط بقرب الرقاق مدينة سبتة وتوغلوا على المحيط ، وأنشأوا لهم موقعا أو مدينة هي سلا ، ومدينة ثانية أو موقعا هو أنفة (الدار البيضاء) ويتوغلون في الداخل وينشئون مدينة وليلي . وظلوا في المغرب نحو ستة قرون إلا قليلا ، وطبيعي أن يؤثروا فيه بحضارتهم الرومانية وخاصة في المدن التي كان لهم فيها جاليات ولما اعتنقوا الدين المسيحي حاولوا نشره في البلاد المغربية وخاصة الساحلية . غير أن من دخلوا فيه من البربر - وخاصة في المغرب الأقصى - كانوا قلة ، فقد ظلت جماهير المغرب وثنية . واكسح الوندال ما ملكه روما من البلدان المغربية ، وكانوا شعبا حربيا غير متحضر فلم يتركوا فيها أثرا ، وخلفهم البيزنطيون ، ولم يحاولوا نشر شيء من ثقافتهم ولا حضارتهم في البلاد المغربية .

والعرب هم العنصر الثاني في المغرب الأقصى بعد البربر ، وقد جاءوا إلى المغرب في خلافتي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان لا طلبا للاستيلاء على ما فيه من طيبات الأرض وثمارها وإنما طلبا لنشر دين الله حتى لا يعبد في الأرض إلا سواه وحتى تعم تعاليمه الداعية إلى العدل والمساواة بين الناس ، وأخذ ولاية القرن الأول الهجري أنفسهم بتطبيق هذه التعاليم ، مما جعل المغاربة يدخلون في الدين الخفيف أفواجا . حتى إذا تكاثرت المسلمون منهم في عهد واليهم حسان بن النعمان كوّن منهم كتيبة عداها اثنا عشر ألفا وروّلى على قبيلة جرّاة في الجزائر واليا منها . وهو رمز لما كان يأخذ به ولاية القرن الأول الهجري في المغرب من المساواة بين العرب والبربر في الجهاد والحكم . ويتسع ذلك في عهد خلفه موسى بن نصير ، إذ يوّلى على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد ، ويعهد إليه بفتح الأندلس ، فيغزوها على رأس حملة أكثر جنودها من البربر ، ويلحق به على رأس حملة ثانية فيكمل الفتح معه . ويتفاسم شرف هذا الفتح عربي هو موسى بن نصير وبربري هو طارق بن زياد ، وجيش مؤلف من العرب والبربر . وبذلك لم يعد في ديار المغرب أي فارق بين عربي وبربري ، غير أننا لا نكاد نمضي في القرن الثاني الهجري حتى تنكب البلاد العربية بخلفاء أمويين لا يحسنون تدبير الملك فيولون على ديار المغرب ولاية جبارين يظلمون أهلها في الخراج وغير الخراج وغير واعين لتعاليم الإسلام في المساواة والعدالة بين المسلمين ، ويلغ السفه والتمه بوالى طنجة أن يصرح بأنه عازم على تخميس أراضي البربر زاعما زعما مخطئا أنها غنائم حرب . وتنادى كثيرون من المغاربة كيف الخلاص من هذا الظلم الفادح ، وسرعان ما أخذ دعاة الخوارج من الصفرية والإباضية يوضحون لهم أن الخلاص الحقيقي إنما هو في اعتناق دعوتها التي تسوّى بين المسلمين في جميع الحقوق . واعتنق مذهب الصفرية في المغرب الأقصى كثيرون وكوّنوا جيشا استولى على

طنجة وقتل واليها ، ونازلته جيوش الدولة الأموية مرارا ، وكان النصر حليفه ، ومُرَّبًا - فى الفصل الماضى - أن قائدَين صفرين هاجما القيروان سنة ١٢٤ هـ/ ٧٤١ م وباءا بهزيمة ساحقة . وفى سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٥ م هاجمت ورفجومة القيروان واستباحتها وغلصها منها بُر الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية فى طرابلس . وتدور الأعوام وتنشأ الدولة الإدريسية ، وتأخذ فى القضاء على الصفرية فى شمالى المغرب الأقصى وينسحبون إلى سجلماسة ودولة بنى مدرار . وأخذ إدريس الثانى (١٧٥ - ٢١٣ هـ) يستكثر من العرب فى حاشيته حتى بلغوا خمسمائة . وهى أول دولة عربية إسلامية تنشأ فى المغرب الأقصى وقد عملت على تحفيظ القرآن الكريم ونشر حلقات القراءة والمحدثين والمفسرين والفقهاء فى جميع مذهبها والعناية بتعليم المغاربة العربية . وجاءها كثيرون من فقهاء تونس والمشرق ولاذ بها أربعمائة أسرة من أسر الأندلس الفقهية ، وجعلت عاصمتها عدوتين : عدوة للمغاربة سمها عدوة القرويين وعدوة للأندلسيين . ونمضى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى لبى هلال وبنى سليم إلى ديار المغرب ، ويقال إنهم كانوا نحو نصف مليون من الأعراب ، ويقال بل كانوا مليوناً أو يزيدون ، ولم يكونوا طلاب حكم وملك ، ولذلك لم يقيموا لهم دولة فى المغرب ، إنما كانوا طلاب مواطن يقيمون فيها ، واتساحوا كسيل عَرِم فى برقة وطرابلس وإفريقية التونسية والجزائر ، وكلَّموا وجدوا فى كل ذلك ما يغنيهم عن الانسحاب فى المغرب الأقصى واكتساحه . ولا يمضى على هذا الطوفان للهلاليين وبنى سليم نحو قرن حتى يستنجد أهل طرابلس وإفريقية التونسية بعبد المؤمن بن على سلطان الموحدىن لاستيلاء التورماتدين بأساطيلهم على سواحل طرابلس وجزيرة جربة وميناء المهديّة وغيرها من موانئ إفريقية التونسية ورأى واجبا عليه أن ينفذ تلك البلدان وخرج بجيش ضخم إليهم وأخذ يستولى به على مدن الجزائر . وعلم وهو ييجاية أن القبائل الحلالية ، وهى الأتبيج وزغبة ورياح وقرّة تتجمع مع صنهجة لحربه ، وأرسل إليها جيشا نازها ثلاثة أيام وتنتصر عليها فى اليوم الرابع وفر الأعراب تاركين وراءهم الأهل والمال ، فأمر بنقل النساء والأولاد إلى مراکش والعناية بهم . ولما أتم رحلته واسترد طرابلس والمهديّة وغيرها من موانئ إفريقية التونسية وعاد إلى عاصمته مراکش أمر أن يكب إلى سادة بنى هلال أن نساءهم وأولادهم فى الحفظ والصيانة ، فوفدوا عليه وأكرمهم وردّ عليهم نساءهم وأولادهم وأسبغ عليهم أموالا وافرة ، ونقل منهم إلى المغرب الأقصى ألفا من كل قبيلة بأسرهم ، ولما عزم على زيارة الأندلس سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م دعا عرب بجاية إلى العبور معه للأندلس للجهاد برسالة تلهب حملة ختمها بآيات من نظمه استلها بقوله :

أقيموا إلى العلياء هُوجَ الرُواحِلِ وقودوا إلى الميجاء جُرَّةَ الصَّوَاهِلِ

واستجاب له جمع ضخم كما يقول صاحب المعجب^(١) فأنزل طائفة بنو احمى قرطبة وطائفة بنو احمى إشبيلية ، وأقاموا هناك . وفى سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨٢ م وقد على الخليفة بعده ابنه يوسف حدثاً كبير من قبيلة رياح وضوا أنفسهم تحت تصرفه وعبر كثيرون منهم معه إلى الأندلس . ولما خرج ابنه يعقوب المنصور لاسترجاع قصبة وقلمس واستعادها خرجت عليه فى هذه الأثناء بقايا من قبائل رياح الملاليه وأخواتها من قبائل جشم والأنبج ، فردهم إلى طاعته ، ولاذوا بدعوته ، فأمر بنقلهم إلى المغرب الأقصى لكفّ عدوانهم عن المغرب الأوسط ، وصعدوا لأمره ، فأنزل بنى رياح فى مناطق المحيط وأزغار وفاس مما على سواحل طنجة إلى سلا ، وأنزل بنى جشم فى تاسنة وما ورلها من الأراضى ، وأنزل الأنبج فى منطقتى دكالة وتادلة . ويبدو أن بطون بعض هذه القبائل تحركت من منازلها بعد عصر الموحدين إلى منازل جديدة استقرت فيها إذ يذكر الحسن^(٢) الوزان فى القرن العاشر الهجرى أن بعض فروع رياح سكنوا منطقة دكالة وضواحي ميناها آسفى على المحيط وأن فروعا أخرى سكنت منطقة حاحة وسهولها ، كما يذكر أن فرع المنتفق من أنجب تحول شمالا وسكن أزغار ، وأن فرع صبيح منها تحرك جنوبا وسكن السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ويقول إن يعقوب ضح لعامة العرب نوميديا أى الصحراء فى جنوبى الجزائر متداخلة مع شطر من الصحراء فى المغرب الأقصى ، ولعل ذلك ما جعل بعض بطون القبائل العربية أو الأعرابية فى نوميديا ينزح إلى موريتانيا الشرقية ويتخلل إلى وادى ملوية شمالا ووادى أو نهر درعة جنوبا . ومن أهم هذه القبائل المعقل ، يقول ابن خلدون : « هذا القليل لهذا العهد (فى القرن الثامن الهجرى) من أوفر قبائل العرب ، ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى ويتجهون إلى البحر المحيط من الغرب » ، ويطونهم كثيرة ، وتستولى على ملوية كلها إلى سجلماسة ، وتصعد إلى ممر تازا وأنحاء تادلة وتلال مكناسة ، واستولت على السوس الأقصى وتجمعت فى الرمال إلى مواطن المثلثين^(٣) ، ونلتقى بسلام قرب وادى درعة ، وتشتغل بالتجارة^(٤) وتذهب مع سلمها فى قوافل إلى تمبكتو ، وأهلها أثرياء ولهم أملاك وأراض زراعية كثيرة فى درعة . وكل القبائل التى ذكرناها أخذت بطونها تمتزج بأهل المغرب الأقصى بحيث أصبح عربيا دينا ولغة .

والعصر الثالث فى المغرب الأقصى هو الأندلسيون الذين أخذوا فى الهجرة إليه منذ عهد الحكم الربهى فى أواخر القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث إذ أوقع بفقهاء قرطبة وقعة الرهض المشهورة وأمر بطردهم من الأندلس ، وكانوا مع من اشتركوا معهم فى الوقعة ألوفا ، وذهب

(٢) انظر كتابه وصف إفريقيا ص ٥٦ وما بعدها .

(٣) راجع ابن خلدون ٥٨/٦ .

(٤) وصف إفريقيا ص ٦٢ .

(١) انظر فى استيفار عبدالمؤمن للأعراب المعجب

ص ٢٩٤ وانظر فى استيفار يوسف ويعقوب لهم

ولم يكن يعقوب لقبائلهم للمغرب الأقصى ابن خلدون

٢٠/٦ ، ٢١ ، ٢٤ .

كثيرون منهم إلى الإسكندرية ثم تركوها إلى جزيرة كريت وانتزعوها من أيدي البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ظلت بها أكثر من قرن إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م وحشد كبير اتجه إلى فارس في المغرب الأقصى وكان إدريس الثاني بينها فجعلها عدوتين : عُدوة للمغاربة وعُدوة للأندلسيين ، ويقال إنه نزلها منهم أربعمئة أسرة سوى من نزلوا في بلاد المغرب الأقصى الأخرى . ونمضى إلى القرن السابع الهجري فسقط - كما مر بنا في غير هذا الموضع - قرطبة وبلنسية ودانية وإشبيلية في حجر الإسبان ، ثم تسقط مرسية ، وتهاجر منها جميعا إلى المغرب الأقصى أفواج من الأندلسيين باحثين لها عن موطن جديد في فارس وفي غير فارس ، ويرحب بهم المغاربة ويفسحون لهم في أسباب العيش . وأخذت هذه الهجرة الأندلسية تتسع بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م وخروج العرب من الجزيرة الأندلسية فإن كثيرين منهم نزلوا المغرب الأقصى واتخذوه وطنًا ثانياً لهم ، حتى إذا اتخذ فيليب الثالث ملك إسبانيا سنة ١٠١٨ هـ/١٦٠٩ م قرارا بطرد كل المسلمين من إسبانيا التجأت منهم أفواج كثيرة إلى المغرب الأقصى متخذة منه شاطئ نجاة ، ورحب بهم المغاربة كما رحبوا - من قديم - بمن نزل بينهم لعهد الحكم الرشيد ثم لعهد سقوط المدن الكبرى في القرن السابع الهجري ، ثم لعهد سقوط غرناطة . ودائما كان الحضريون من الأندلسيين فقهاء وعلماء وأصحاب صناعات ينزلون المدن ويستقرون فيها وكان الفلاحون والزراعيون منهم ينزلون سهول المغرب الأقصى ووديانه وتلاله ، وارتقوا فيه بطرق الري والزراعة والفرس التي ألفوها في الأندلس سواء في السهول والوديان أو في التلال أو في مرتفعات الجبال ، واختار كثيرون منهم - منذ سقوط غرناطة - منطقتي الريف والميط في الشمال . وتحول غير قليلين منهم إلى قراصنة يغيرون على سفن إسبانيا وشواطئها والسفن الأوربية انتقلا من إخراجهم كرها من وطنهم الأندلسي . وكانت هذه الأفواج الأندلسية أكثر حضارة وثقافة من المغاربة ، فأفادوا منهم حضاريا وثقافيا فوائد كثيرة بجانب الفوائد المادية والاقتصادية من الحرف والصناعات وأساليب الزراعة ، وبمرور الزمن اندمجوا في الشعب المغربي اندماجا تاما . والعنصر الرابع اليهود وكان أول نزول لهم في المغرب بالقرن الثالث ق .م على عهد الفينيقيين وكرر نزولهم فيه بعد تحطيم القيصر تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد ويبدو أنهم اختلطوا بالبربر إذ حاولوا نشر دينهم فيهم واعتنق بعض البربر ، ولابد أن دخل منهم كثيرون المغرب الأقصى في أثناء المد الفينيقي والروماني ، وظلوا بالمغرب بعد الفتح الإسلامي ناعمين بما يعطيه الإسلام لأهل الذمة : اليهود والنصارى من الحرية في إقامة شعائهم مع المعاملة الحسنة ، وربما نزح إليهم في المهود الإسلامية يهود من فلسطين ، حتى إذا سقطت غرناطة أخذ ينزح إلى المغرب عامة والمغرب الأقصى خاصة يهود كثيرون ممن كان يضطهدهم نصارى الإسبان كما اضطهدوا المسلمين ، وشملهم قرار فيليب الثالث المار ذكره بطردهم من إسبانيا مثل

المسلمين ، ولا حقوقهم بأنواع من التعذيب الشديد ، فالتجأ كثيرون منهم إلى المغرب الأقصى وانتشروا في مدنه وقراه من تخوم البحر المتوسط والمحيط إلى تخوم الصحراء . وفي كتاب وصف إفريقيا وحديث الحسن الوزان فيه عن المدن ما يصور مدى انتشارهم بعد سقوط غرناطة إذ يذكر أن في مدينة بادس على البحر المتوسط شارع طويل يسكنه اليهود يباع فيه الخمر ، ويقول الوزان إن لهم في منطقة حاحمة بمدينة تندست مائة بيت يهودي وبمدينة آبت دؤاد كثير من الصنائع اليهود يمارسون الحدادة وصنع الأحذية والصباغة والصياغة ، وفي درعة وسجلماسة كثير من صناعاتهم وتجارتهم . ويقول الوزان لهم في تازة خمسمائة بيت ويعنون بصناعة الخمر من كروم البساتين فيها والمزارع . ويبدو أنهم كانوا كثيرين في فاس منذ القرن الثامن الهجري ، إذ يذكر الحسن الوزان في حديثه عن فاس أنهم كانوا يسكنون في فاس القديمة ونقلهم السلطان المريني أبو سعيد عثمان الذي تولى الدولة بين سنتي ٨٠١هـ / ١٣٩٨م و ٨٢٥هـ / ١٤٢١م إلى مدينة فاس الجديدة التي بناها مؤسس دولة بني مرين سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٦م وهم يشغلون فيها - كما يقول - شوارعاً طويلاً جداً وعريضة للغاية حيث تقع دكاكينهم وكنائسهم أو معابدهم ، ويذكر أن عددهم تزايد زيادة كبيرة حتى لم يعد من الممكن معرفة عددهم ، كما يذكر أن معظم الصائغة منهم . وإذا كان الوزان يلاحظ ازديادهم المفرط في زمنه لأوائل القرن العاشر الهجري بعد سقوط غرناطة فلا بد أن أعدادهم في فاس والمغرب الأقصى تضاعفت بعد طرد فيليب الثالث لهم من إسبانيا في القرن الحادي عشر الهجري ونزاهم - منذ الدولة المرينية - يحاولون أن يكون لهم شيء من النفوذ عند بعض حكامها ، وبلغوا من ذلك أن اتخذ آخر سلاطينها عبد الحق وزيراً منهم يسمى هرون فارت عليه العامة ومعهم الفقهاء والخطباء ، وعادوا في الدولة السعدية يتصلون بحكامها ، ونجحوا في أن تتخذ منهم سفراء إلى أوروبا وبعض من يمثلونها في الصفقات التجارية الكبرى . ولا بد أن نذكر أن المغاربة لم يلتحموا بهذا العنصر أي التحام ، فقد كان عنصراً دخيلاً عليهم لغة وديناً ويقول الوزان في حديثه عنهم بفاس إنهم كانوا محترفين من كل الناس .

أما النصارى فلم يكونوا يوماً عنصراً من عناصر السكان في المغرب الأقصى إذ كانوا دائماً وافدين عليه ، وفدوا أيام الدولتين الرومانية والبيزنطية ، ويبدو أنه كانت لهم جاليات في مدينة سبتة وغيرها ، يدل على ذلك من بعض الوجوه قول الوزان في حديثه عن فاس : « نجد بعض أسماء الأعياد التي اعتاد النصارى الاحتفال بها والتي لا يزال الناس يعملون بها اليوم » (في زمنه) ولا يدرى أحدياً عن سبب التمسك بهذه الأعياد ، ففي كل مدينة مغربية يُحتفل ببعض الأعياد والمعادن التي خلفها النصارى منذ الزمن الذي كانوا يحكمون فيه إفريقيا ، يريد زمن الدولتين الرومانية والبيزنطية . ويدخل المغرب الأقصى في الإسلام ويجلو عنه نصارى الدولتين إلا قليلاً . ونمضي إلى عصر الموحدين فيذكر الحسن الوزان في حديثه عن مراكش أن

المصور الموحى بنى فى القصة قصرا للحرس من الرمة النصارى ، وكان عددهم عادة خمسمائة ، وكانوا يسرون أمام موكب الخليفة حين يتقل من مكان إلى مكان . وبعد خروج العرب من الأندلس نقل الإسبان والبرتغاليون الحرب الصليبية إلى سواحل البحر المتوسط والمحيط ، وكانوا يظلمون فيها - كما أسلفنا - سنوات تطول أو تقصر ، ثم يغادرونها قسرا أو جبرا ، وقد يستولون منهم على مئات يستخدمونهم عبيدا أو رقيقا ويكلفونهم بمختلف الأعمال من أبنية وتحصينات وغير تحصينات على نحو ما مرُّ بنا من صنع بطل تطوان فى ثلاثة آلاف أسير منهم كان ينهكهم فى أعمال التحصينات . وأخذ كثيرون من المسلمين المنفيين عن الأندلس بعد سقوط غرناطة وقرار فيليب الثالث المار يشتغلون بالقرصنة فى عرض البحر المتوسط وعلى سواحل إسبانيا انتقاما من ملوكها وكانوا يجلبون كثيرا من رقيق النصارى فى قرصتهم ويستحيون عبيدا ، وكان كثير منهم يسلم ، فينتهى رقه ويستحيل مسلما مواطنا .

٢

المعيشة

مر بنا فى الحديث عن جغرافية المغرب الأقصى أن أراضيه خصبة ، ومن قديم كان أهله يعيشون على الزراعة ورعى الأنعام ، وإذا أخذنا نسير فيه من الشمال إلى الغرب على المحيط وبدأنا بمنطقة المحيط وجدناها وافر الإنتاج من الحبوب ومختلف الثمار من الفواكه وخاصة البرتقال والكرز . وتليها منطقة أرغار ، وبها كثير من الحبوب والأفوات ، ويزرع بها القطن ، وبها كثير من الماشية والخيل والغزلان وأنواع ممتازة من الفواكه . وتجاورها منطقة فاس ، ويقول الحسن الوزان بحديثه عنها : فى القسم الجنوبى من المدينة كثير من الحدائق المليئة بأشجار مشرة متنوعة وممتازة مثل أشجار البرتقال والليمون والأنرج والزهور الجميلة من بينها الياسمين والورود والرتم الذى استورده الأندلسيون من أوروبا . وتحفل البساتين بقصور جميلة وبرك ماء وحنفيات ، وتحاط البرك بالياسمين وبالورود وبأشجار البرتقال ، وعندما يمر الإنسان فى فصل الربيع بجوار هذه الرياض يشم أعطر شذى ينبعث من كل جانب ، ولا يكاد يشبع نظر الإنسان من متعة جمالها وملاحتها ، وتنبه كل روضة من هذه الرياض جنة أرضية . وكان من عادة الوجهاء الإقامة فيها ابتداء من مطلع شهر نيسان (أبريل) حتى آخر أيلول (سبتمبر) . ويقول الوزان عن زروعها فى الشمال والشرق والجنوب : بها مزارع جميلة مليئة بالأشجار المثمرة من كل صنف ، وتخرق هذه المزارع بعض تفرعات النهر ، ولكثرة الأشجار يخجل للناظر إليها من بعد أنها غلة حقيقية ، وتنتج منها الثمار بوفرة ، وثمارها من نوع جيد ، ويقدر ما يباع فى اليوم بكل موسم خمسمائة حمل من الثمار فيما عدا العنب الذى لا يدخل فى هذا

الرقم . وإلى الغرب من فاس أرض واسعة عرضها خمسة عشر ميلا وطولها ثلاثون تكثر فيها العيون والجداول وهى خاصة بالجامع الكبير (جامع القرويين) ويزرع فيها الكتان والبطيخ والقرع والخيار والجزر واللث والقمييط وسوى ذلك من الخضر ، وتنتج هذه الأرض مقادير كبيرة ، وحتى لتقدر كمية إنتاجها بخمسة عشر ألف حمل فى الصيف ومثلها فى الشتاء . وتوجد فى حضيض الجبال أشجار الزيتون والفواكه والأعاب وهى شديدة الحلاوة . ومن مدن منطقة فاس مكناس ، ويقول عنها الوزان إنها تقع فى سهل بديع وعلى مسافة ثلاثة أميال منها مزارع أشجار عديدة ثمارها ممتازة ولاسيما السفرجل وثماره فحمة جدا وزكية الرائحة ، وكذلك ثمار الرمان التى تبدو عجبية فى حجمها ونوعها لأنها تخلو تماما من البذور ، والخوخ الأبيض والأخضر إنتاجهما غزير جدا ، ويُجنى العناب بمقادير وفيرة ، ويوجد الكثير من التين وعنب التكميات ، وتجنى مقادير كبيرة من المشمش والخوخ ومقادير لا تحصى من الزيتون ، والأراضى المحيطة بالمدينة خصبة جدا ، وتنتج كمية كبيرة من الكتان . وتنمو ببعض الأنحاء أشجار التوت ويتفع بها لتغذية دود القز . وأراضى منطقة تامسنة صالحة لزراعة كل أنواع الحبوب والبقول ، وبها كثير من البساتين . وتنتج الكثير من العنب والكرز والشمام ويزرع بها القطن بمقادير وفيرة ، وينمو بها نوع من البلوط ثماره حلوة . ومنطقة دكالة كمنطقة تامسنة خصبة ، وتنتج كميات وافرة من القمح والعسل والزيتون وبعض الفواكه مثل التين وبها كثير من الأبقار . وبجوارها منطقة حاحة ، وتنتج القمح والذرة البيضاء والشعير ، ويكثر فيها التين والدراق ، وإنتاج العسل بها وافر جدا ، وبها الكثير من الموز وقليل من الضأن والبقر والغنم . وتليها إلى الداخل منطقة مراکش وسط سهل خصب ، وكان فى المدينة (عاصمة المرابطين والموحدين) بستان جميل واسع جدا ملئ بكل أنواع الأشجار والزهور ، كما يقول الوزان ، وكان به حوض ماء مربع من المرمر فى وسطه عمود يحمل أشداً من رخام منحوتا تحتاً دقيقاً يتدفق من فمه ماء صاف غزير ، وفى كل زاوية من زوايا الحوض الأربع فهد من رخام أبيض منقوش يقع خضراء مستديرة . وبالقرب من البستان كانت توجد حديقة للحيوان تضم العديد من الحيوانات الوحشية كالزرافات والفيلة والأسود والتيوس الجبلية . وكان للأسود خاصة حديقة حيوان منفصلة عن بقية الحيوانات الأخرى . ومنطقة هذه المدينة تكتظ بالكثير من المياه والأنهار والعيون ، ولذلك تنتج القمح والحبوب بمقادير وافرة وتكثف بالبساتين وثمارها كالعنب والتين والتفاح والكمثرى ، وبها كثرة من الموز والأنعام ، ويزرع بها الكتان والقنب ، وينمو فى سفوح الجبال السفرجل وأشجار الزيتون والجزر ، وجنوبى حاحة على المحيط منطقة السوس ، ويكثر فى أنحائها إنتاج القمح والشعير وقصب السكر كما يكثر التخل والتمر والتين والعنب ، كما تكثر النيلة . والماشية - وخاصة فى بعض الأنحاء - وافرة جدا وبالتالي يكثر فيها الصوف . ونصعد إلى الشمال على البحر المتوسط فى أقصى الشرق إقليم غارت وتكثر فيه

الكروم والعسل والمز والأغنام ، ولذلك يكثر فيه الصوف ، كما تكثر فى بعض الأغنام - مثل لزغار على المحيط - أشجار التوت وما يتغذى عليها من دود القز . وبحوار منطقة غارت إلى الغرب منطقة الريف على البحر المتوسط وتكثر فيها الفواكه وخاصة البرتقال والعناب والسنجرجل والليمون ، كما يكثر العسل وأشجار الزيتون . وجنوبى غارت منطقة الحوز وتتج القمح والشعير والذرة وكميات وافرة من الكروم والدراق والتين والسنجرجل المعطر والليمون وأيضا من الكتان والقنب ، وتكثر أشجار التوت فى بعض المناطق ويتغذى عليها دود القز ، وبها كثير من الماشية وخاصة المز والخيول والبغال . وجنوبى الحوز منطقة تادلة وتكثر بها بساتين الكروم والتين وأشجار الجوز والزيتون الباسقة ، وتكثر فيها الأنعام والماشية والأغنام ولذلك إنتاج الصوف فيها وافر جدا وسفوح الجبال جيدة لرعى الماشية وإنتاج الشعير . وشرقى منطقة مراكش منطقة هسكورة وتكثر بها أشجار النخيل والزيتون والحوز والتيلة وبساتين الفاكهة الجيدة : مشمش وغير مشمش وخاصة الكروم وتتج عبا أحمر كبير الحجم كبيض الدجاج ، ويكثر فيها العسل ، ومن عسلها نوع أبيض كاللبن وهو ممتاز ونوع أصفر كالذهب ، كما يكثر فيها الزيت وطمعه طيب . ويكثر الغنم والمز ، ويقول الوزان : لبعض أغنيائهم مائة ألف رأس من الغنم والمز ، ويبيعون صوفها ويتركون للرعاة الحليب والجبن . وشرقى السوس منطقة جزولة وتتج كميات وافرة من الشعير وبها مراعى واسعة هيأت لوفرة من الماشية والأنعام والأغنام . وإلى الجنوب الشرقى منها منطقة درعة ، وشمالها على نهر زيز سجلماة ، والمنطقتان تهتمان بتربية المز والأغنام وتتجان كميات وافرة من الثمر لكثرة ما بهما من النخيل ، وللتمر فيهما أنواع كثيرة فاخرة ، وكانت تنمو بهما الكروم والدراق .

ومن وجوه العيش والكسب فى المغرب الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والأنهار ، ولا يكاد الوزان يترك مدينة كبرى أو صغرى على البحر المتوسط إلا يذكر أن بها صيادين أو أن أهلها جميعا صيادون ، من ذلك ما يذكره عن أهل ميناء بادس من أن صياديها يحرسون على أن يحصلوا على كميات كبيرة من السردين وأسماك أخرى ، وعادة يحتاجون لمساعدة بعض الأشخاص لهم فى سحب الشباك ، ويتركون لهم وللأشخاص الذين يوجدون هناك قسما طيا من السمك الذى يصيدونه . ويقول عن أهل مدينة صغيرة تسمى تاغنة إتهم صيادون وملاحون . ولا بد أن كان كثير من سكان الريف والمهبط يحترفون القرصنة زمن ازدهارها فى المغرب الأقصى بالقرون التاسع والعاشر والحادى عشر ، وكانت كثرة القرصنة من الأندلسيين الذين اضطهدهم ملوك الإسيان واضطروهم إلى الخروج من موطنهم فى الأندلس . وضعت القرصنة بعد ذلك وظل صيد السمك غالبا على منطقة الريف ، وكان يزاوله بعض السكان على المحيط ، كما كانوا يزاولونه فى بعض الأنهار والبحيرات ، وأهم نهر كانوا يزولون للصيد فيه نهر ألم الربيع عند مصبه قرب مدينة آرموز بمنطقة دكالة ، وكان يكثر فى مياهه نوع من السمك

يسمى - كما يقول الوزان - الألويز وكان موسم صيده يبدأ فى تشرين الأول (أكتوبر) وينتهى فى أواخر نيسان (أبريل) ويقول الوزان إنه كان يحوى من الدهن أكثر مما يحوى من اللحم . أما البحيرات فتمثل لها ببحيرة كانت بمنطقة دكالة أيضا فى حوض الجبل الأخضر ، وكانت تحوى كمية كبيرة من الأسماك مثل سمك الحنكليس ، وسمك الشبوط وأسماك أخرى ، وكلها ممتازة للغاية ، ويقول الوزان إن أحدا لم يكن يصيد بها وإن السلطان محمد بن محمد البرتغالى توقف بجوارها ثمانية أيام وأمر بالصيد فيها . وكما كانوا يجلبون صيد البحر كانوا يجلبون صيد البر بواسطة الأشراك ، وخاصة فى منطقة درعة حيث كانوا يصيدون الحيوانات الوحشية مثل النعام والوعول ويسمونهم اللمت والبر الوحشى ويسمونهم ودّان .

ومنذ القدم يعنى المغرب الأقصى بالصناعات اليدوية كالحدادة والنجارة واستخراج المعادن وتصنيعها وبخاصة الحديد ، وتنتشر مناجمه فى مناطق كثيرة ، وبخاصة فى منطقة غارت بالشمال ، فالوزان يقول إن مليلة كانت تنتج كمية كبيرة من الحديد ، وإن فى جميع الجبال المجاورة لجبل مدينة أمجاد مناجم حديد ، ويسكن المشتغلون بشئون هذه المناجم كثيرا من الدساكر والقرى فى المنطقة ، ويقول عن جبل بنى سعيد : تستخرج من الأرض كمية كبيرة من الحديد ، ولكل رئيس من رؤساء المشتغلين بالمنجم وشئونه بيته بجوار المنجم ومصنعه الذى يصفى فيه الحديد ، وينقل الحديد إلى فاس على شكل سبائك ، وما لا يمكن بيعه يستخدم لصناعة أدوات من نوع الفئوس والمناجل والبلطات التى يقطع بها الخشب . وفى منطقة الحوز بجبل بنى يستين عدة مناجم حديد على سفحه ، ويصنع الحديد ، وتعمل منه سبائك تُحْدَى بها الخيل ، ونفس السبائك تستعمل نقودا ، ويجنى هؤلاء الجلبون من هذا الحديد دخلا كبيرا لأنهم يبيعون منه كمية كبيرة . ولكثرة الحديد فى المنطقة استطاع سكان جبل بنى يازغة صنع ما يشبه « تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وستصفه فى موضع آخر . وفى منطقة جزولة عدة مناجم للحديد والنحاس ويصنعون من النحاس أوعية عديدة يحملونها إلى مختلف الأنحاء . ويكثر صناع آنية النحاس بأفان فى منطقة درعة لأنها من السلع التى يحملونها إلى السودان ، وفيها عمال مهرة جدا فى الصناعات كصنع الشمعدانات والصحاف والمخبر والأشياء الأخرى ، وجميعها تباع كما لو كانت من فضة . ونعود إلى منطقة الحوز ففى بلدة مزدغة تربة صلصالية يصنعون منها عددا لا يحصى من الأواني الخزفية ويبيعونها فى فاس . وبسهل سهب المرجة الذى يبلغ حوالى ثلاثين ميلا عرضا وأربعين ميلا طولاً بين جبال الأطلس المغطاة بغابات ضخمة ينتج الفحامون هناك مائة حمل من الفحم ، وتنتقى بمثل هذا الفحم فى مدينة العرائش . وفى قصر المراتيق بسجلماسة منجم للرصاص وآخر للإلثميد (الكحل) وتلقنا فى مدن كثيرة صناعة الشمع لكثرة إنتاج العسل فى غير بلدة ، ومعاصر الزيت لكثرة أشجار الزيتون فى معظم أنحاء البلاد ، وبالتلل دباغة الجلود ، وتوجد أشجار النيلة فى أماكن مختلفة

وخاصة السوس وهسكورة ، وكان يصنع الصابون فى بلدان متعددة وخاصة فى منطقة الريف ، وفى أماكن مختلفة وخاصة فى منطقة الحيط خشب البقس فى جبل بنى واغرافت وتضع منه الأمشاط فى فاس وسلا . وفى بعض المناطق تكثر أشجار التوت لتغذية دود القز ، كما فى مكناس وأزغار بمنطقة الحوز ، ويجمع منه الحرير . وفى منطقة الريف يشيع تليح السردين إعدادا لبيعه ، كما يشيع فيها وفى المغرب قطع الأشجار الضخمة وإعدادها للتصدير أعمدة والأواح ، وبجانب ذلك يشيع صنع القوارب والطرادات فى هذه المنطقة ومنطقتي الحيط وأزغار وكان لهما فى ميناء بادس دار صناعة . وفى كل مدينة نجد الإسكافين أو الحذائين والدباغين والسراجين .

وفى مدن كثيرة تسج الملابس ، ينسجها عادة النساء ، وحيث تكثر زراعة القطن تكثر الأقمشة القطنية كما فى أزغار وتامسة وسلا ، وحيث تكثر الأغنام والمز يكثر الصوف كما فى منطقة السوس ، وتشتهر بنسيج نوع ناعم من الصوف كالجوخ وبالأقمشة الصوفية . وأيضا حيث تكثر زراعة الكتان تكثر الأقمشة الكتانية كما فى السوس أيضا ، وبالمثل تجنى منطقة الحوز من الكتان كمية كبيرة ، ولذلك يحبك السكان - وخاصة فى جبل مغنة الأقمشة الكتانية ، ويحصلون من أغنامهم فى جبل بنى يازغة على صوف شديد النعومة تصنع منه نساوهم أقمشة كالحرير ، وبمدينتي تفرزة وأفرزة من منطقة تادلة أغنام مماثلة ، ونساوهم ماهرات - كما يقول الوزن - فى شغل الصوف ، ويصنَعُ منه برانس وخيمارات جميلة جدا ، وبذلك يربح من المال أكثر من رجلان إلى حد ما . وبالمثل بمنطقة هسكورة كمية كبيرة من الأغنام وتصنع من صوفها أقمشة جميلة جدا . ولكى تصور مدى نشاط صناعة النسيج فى المغرب الأقصى أسوق ما ذكره الحسن الوزان عنها فى فاس ، فقد ذكر أن بها مائة وعشرين مؤسسة للنساجين وهذه المؤسسات أو المصانع بُنية كبيرة كل منها مؤلف من عدة أدوار مع قاعات فسحة كقاعات القصور ، وتحوى كل قاعة عددا كبيرا من عمال نسج الكتان والقنب . وتلك هى الصناعة الرئيسية فى فاس ويقال إنها تكفل العمل لعشرين ألف عامل .. ومن جهة أخرى كان يوجد مائة وخمسون مصنعا لقصارى (مبيضى) الخيوط ، ويقوم معظمها قرب النهر ليل الخيوط ودقها . وتجهز هذه المصانع بالكثير من المراحل والخيولى المبنية لخلل الخيوط ولحاجات مهنية أخرى . والقنب هو الذى يتخذ منه الحبال . ولا بد أن كانت هناك مصانع أخرى لنسج الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية إلا إذا كانت تضمثتها المصانع السابقة .

ومنذ القرن الثالى الهجرى تبنى فى المغرب الأقصى المنشآت العمرانية التى لا تقتصر على بناء مفرد ، أو بُنية محدودة ، بل تجاوز ذلك إلى بناء مدن بمساجدها وقصورها وحماتها وفنادقها ومارستاتها وأسواقها ، فقد بنى إدريس الثالى مدينة فاس أو بعبارة أدق ابتداء بناءها

سنة ١٩٢ وجعلها عدوتين أو شطرين : شطرا على الحافة الشرقية للنهر وشطرا إلى الغرب منه ، ويفيض الحسن الوزان فى وصف جمال بيوتها وزينة حجارتها بالفسيفساء وطلاء سقفها بطلاء لازوردى وذهبى وما فى الطوابق من شرفات كثيرة الزخرف ، ويستترسل فى الحديث عن دهاليزها وما بها من أعمدة رخام ودعائم مقوسة وسقوف مزينة بنقوش متنوعة الألوان ، ويتحدث عن مساجدها التى تبلغ ٦٠٠ مسجد وجامعها الكبير المسمى جلمع القروين وكان يوجد فيه كل ليلة ستمائة مصباح ، وكانت تلقى فيه الدروس على الطلاب ، وبذلك تحول - مثل الأزهر - إلى جامعة ضخمة . ويسط القول فى المدارس والمعاهد والمؤسسات والحمامات والفنادق بفاس وسوقها الضخم وصناعه ودكاكينه ، ويطوف بنا فى أرجاء فاس القديمة وأختها الجديدة التى بناها بجوارها أول السلاطين المرينيين يعقوب بن عبد الحق ، وكيف استدار من حول المدينتين سور جعلهما مدينة واحدة . وقد بنى ابن هذا السلطان مدينة البصرة على مسافة ٨٠ ميلا من فاس إلى الشمال الغربى وعلى مسافة ١٥ ميلا جنوبى مدينة القصر الكبير فى منطقة أزغار وكان الأدارسة - فى أثناء حكمهم - يتخذونها مقرهم الصيفى . ونمضى إلى زمن المرابطين فيؤسس يوسف بن تاشفين أمير المسلمين مدينة مراكش الكبرى وهى مثل فاس تعد من المدن الرئيسية فى العالم ، شيدها يوسف وفق مخططات وضعها مهندسون مهرة ، وكان لها أربعة وعشرون بابا وجدار سور غاية فى الجمال والمناعة كما يقول الوزان . ويصف جامعها الكبير وتزين يعقوب المنصور الموحدى له بأعمدة جلبها من إسبانيا ، ويطل فى وصف منارته التى شيدها له يعقوب ، وقد باعت زوجته خليفتها الذهبية الخاصة والفضية وما تملك من أحجار كريمة وما قدمه لها يعقوب عند زواجه منها لصنع ثلاث تفاحات ذهبية توضع فوق قمة المنارة زينة لها ، ويطل الوزان فى وصف قصبة مراكش . ويذكر أن الخليفة يعقوب المنصور بنى فيها اثنا عشر قصرا متقنة البناء والزخرفة لحرسه وحاشيته ولحفظ السلاح ولأبنائه ولتعليمهم ، وكان بجانب هذه القصور - كما مر بنا - بستان وحديقة حيوان . وبنى يعقوب المنصور أيضا ثلاثة مدن ، هى القصر الكبير والقصر الصغير فى منطقة أزغار ومدينة الرباط العاصمة الحالية للمغرب الأقصى . وبناء هذه المدن وما دخل عليها من إضافات كان يستلزم آلاف من العمال والمهندسين والبنائين والحدادين والنجارين والزواقين المرينيين للمباني بالفسيفساء وبأعمدة الرخام والدعائم المقوسة والخشب المزخرف بالنقوش والأصباغ والألوان البديعة . وهذه الأعمال المعمارية الضخمة وما استلزمت من صناعات وصناع وما سبقها مما اقتبسته عن الحسن الوزان من الصناعات اليدوية التى كانت منبثة فى أرجاء المغرب الأقصى والصيد والإنتاج الزراعى المتنوع الوافر ، كل ذلك أعد لتجارة نشيطة واسعة منذ القدم ، فقد كان الفينيقيون يتبادلون سلعهم مع المغرب الأقصى فى المدن التى قُشأوها على سواحله الشمالية والغربية ، وخلفهم الرومان يصنعون نفس الصنيع ، وربما عبرت قوافل تجارتها إلى السودان .

واستمر المغرب الأقصى يتبادل سلعه مع شعوب البحر المتوسط في العصور الإسلامية ، وكانت سفن البنادقة والجنوئين ماتنى ذاهبة إلى موانئ البحر المتوسط آية منه محملة بحبوب المغرب الأقصى وبالجلود وبالشمع وبخيوط الصوف ، كما كانت تحمل كثيرا من الأخشاب المعدة للتصدير بين أعمدة وألواح . وكثيرا ما كانت سفن البنادقة والجنوئين تعبر الزقاق إلى موانئ المغرب الأقصى على المحيط لتبادل مع أهلها السلع ، وكان الجنوئين والبنادقة جميعا يأتون بأقمشة ومتوجات أوربية مختلفة ويأخذون بدلها عن طريق المقايضة سلع المغرب الأقصى من القمح والشمع والجلود والصوف وغير ذلك . ويقول الحسن الوزان عن مدينة سلا على المحيط « إن الكثير من التجار الجنوئين يفصدونها ويعقدون فيها صفقات مهمة وهؤلاء التجار مستودعاتهم في كل من فارس وسلا ، وكانوا يثقون مع هذه المستودعات بعض أصحابها أو بعض مندوبي شركاتها لجمع ما يريدون من المحاصيل ، ويذكر الوزان أن جنويا ثريا من تجار جنوة مكث مع أسرته في فارس ثلاثين سنة حتى توفي . ولابد أن كان للجنوئين والبنادقة مستودعات مماثلة في موانئ المحيط والبحر المتوسط ، وقد انضم إليهم بعد خروج العرب من الأندلس البرتغاليون والإنجليز والفلمنك وخاصة في الموانئ التي احتلها الأولون . وثلاث مناطق كانت تجر مع السودان ، هي السوس وكانت تحمل إلى أهله الأقمشة الصوفية والكتانية والسكر الذي كانت تنتجه ، ودرعة وكانت تحمل إليهم أواني النحاس من أفران والتمور وبعض الأقمشة ، وسجلماسة وكانت تحمل إليهم التمور والأقمشة المختلفة والزيت والمفاتيح والأفقال وتعود قوافلها محملة بالثبر والعاج وريش النعام والرقيق . وكان تلك التجارة مع السودان تعود على تجار هذه المناطق الثلاث ، بشاء طائل . وكان إنتاج المناطق يختلف من منطقة إلى أخرى ، فتمور سجلماسة مثلا تقايض بالقمح وأواني النحاس وفي منطقة جزولة تقايض أوعية النحاس بالأقمشة والتوابل والخيول ، وبالمثل جلود الثيران والشمع بجبل بنى زكار ، وكان لكل بلد سوق ، ونسوق أسماء الدكاكين في سوق فارس .. لتتعرف من خلالها على ألوان التجارات ، وهي تتوالى عند الوزان على هذا النمط : ثلاثون دكنا للمكبات ، مائة وخمسون لباعة الأحذية ثم باعة الأواني النحاسية ، خمسون دكنا لباعة الفواكه ، وبعدهم باعة الشمع وباعة الخيطان ، وعشرون دكنا لباعة الزهور ، وباعة الحليب ، وثلاثون دكنا لباعة القطن ، فدكاكين الأشياء المصنوعة من القنب : الحبال والخيوط وأرسان الخيل فصناع النطاقات الجلدية المطرزة بالحرير ، فصناع أغصدة السيوف والسكاكين فباعة الأواني الخزفية ذات الألوان الجميلة ولها مائة دكان فباعة الملح فباعة اللجومات والأعنة والسروج ولهم ثمانون دكنا فحظيرة يباع فيها الجزر واللفت فباعة الفول الأخضر ، فدكاكين لبيع اللحم المفروم ، فسوق المشلين للقميط وأنواع الخضر الأخرى وبه أربعون دكنا ، فباعة الزلاية ، فباعة اللحم المقل والسكك المقل ، فباعة الزيت والسمن والعسل والجبن والزيتون ، فالأطعمة المحفوظة ، فأربعون دكنا للجزارين وتُنْبَحُّ

الحبوات فى مسلخ خاص ويفحصها المختب ويصنع لسرها نشرة يُباع اللحم بموجبها . وبعد الجزارين سوق الأقمشة الصوفية الغليظة ولها مائة دكان ، فشاذو الأسلحة من سيوف وخناجر . فصيادو الأسماك من نهر فاس ونهر سبو القريب منها ، وهى ممتازة ، فصناع أقفاص الدجاج ولا تترك طليقة بل تحبس فى أقفاص حرصا على النظافة ، فباعة الصابون فباعة الدقيق فباعة القش فباعة خيوط الكتان ، ولصناعة الدلاء الجلدية أربعة عشر دكانا ، فصناع التروس والمجنّات ، فصناع سروج الخيل واللجامات ، فالحدادون الذين يعدون كسوة الخيل نصناع السروج . وبجانب هذه السوق سوق أخرى للتجار فى مدينة صغيرة بها اثنا عشر بابا وهى خمسة عشر حيا ، حيان للإسكافين أو الحدّاثين ، وحيان لتجار الأقمشة الحريرية وحيّ لباعة النطاقيات النسائية ، وحيان لباعة الأقمشة الصوفية ، وثلاثة أحياء للخياطين وحيان لباعة الأقمشة الكتانية والأقمشة النسائية ، وحيّ لما يوضع على حواشى البرانس وأزرارها المضفورة من زخرفة وزينة . وإلى الشمال سوق المطارين والصيدالة وبه نحو مائة وخمسين دكانا ، ودكاكين المطارين غاية فى الزينة ، ويقول الحسن الوزان : لا أعتقد أن فى العالم كله سوق عطارين تماثل هذه السوق . وإلى جانبها دكاكين باعة الإبر ولهم خمسون دكانا ثم دكاكين الطحّاتين والصيّتين فباعة الأقمشة القطنية ، فباعة الطيور الصالحة للأكل والعصافير المفردة فباعة القباقيب التى تلبس حين تكون الطرق مرحلة ، فصناع السهام ، فخمسون دكانا لباعة المكتس ، فباعة صوف الخراف ، فصناع القفاف وفيوذ الخيل ، فصناع النحاس ودكاكينهم ، فباعة المكايل وآلات الملحج والبرادة ، وباعة المحارث والدواليب وعرائش العريات ، فسوق الصابغين . وهذا كله لخصته من وصف الحسن الوزان لسوق فاس بكتابه وصف إفريقيا لأدل على ما كان بالغرب الأقصى من سلع لا تكاد تحصى وفرتها له أرضه الطيبة ، مما أتاح له فى التجارة من قديم نشاطا تجاريا واسعا داخليا وخارجيا .

٣

الرّاء - الرّفه - الموسيقى - الرّاء

(أ) الرّاء

كان المغرب الأقصى كثير الخيرات والطيبات من الرزق ، فكثرت فيه الأثرياء من الأفراد والأقاليم ، وأما الأفراد فنستطيع أن نمثل لهم بمثلين ذكرهما الحسن الوزان ، أولهما وجيه رآه فى مدينة تاكوليت بإقليم حاحة كانت منزله كمنزلة رئيس وزارة ، وكان يملك موارد ضخمة ، وكان ينفقها على الناس ليكسب ودهم ويظفل أثيرا لديهم ، وكان كريما ينفق الكثير - كما يقول الوزان - من الصدقات ، ويساعد أهل بلده بماله لقضاء حاجاتهم ، ولم يكن فى بلده إنسان

واحد لا يحبه ولا ينزله منزلة والده . والثاني فى مدينة تاغوداست بمنطقة هسكورة وكان بها عدد من الشخصيات النبيلة ، ربما كان قبلهم أميرها ، وهو - كما يقول الوزان - وجه أسمى سخي سخله كبيرا ، وكان لديه أكثر من مائة ألف رأس من الغنم والخر ، يستمد منها دخلا كبيرا من شعرها وصوفها ، ويترك للرعاة الحليب والجبن ، ويقدمون له قدرا من السن .

وبجوار ثراء الأفراد كانت هناك مدن وأقاليم أو مناطق ثرية ثراء طائلا ، أما المدن فنستطيع أن نميز بينها مدن الموتى ، إذ كان تجارها يثرون من تجارتهم وحتى المدن التي كانت تقترب منها أو تجاورها كان ينالها نصيب من هذا الثراء مثل مدينة تاكوليت المذكورة آنفا فقد كانت تجاور ميناء آفور بمصب نهر التانسفت بقرب المحيط فعاد ذلك على أهلها بثراء كبير . وقد لا تكون للبلدة ميناء ولكن أهلها يزاولون التجارة مثل هادكيس جنوبى تاكوليت بنحو ثمانية أميال ، فإن أهلها كانوا تجارا ولذلك كانوا على غير قليل من الثراء ، ويقول الوزان كان لديهم خيول حسان وكنوا يتفقهون كل التفق فى ملابسهم . وما بالك بكار التجار وأصحاب المصانع الضخمة فى فاس عروس المغرب الأقصى وعاصمة الإدارة والمربين ، وبدون ريب كان الأغنياء الموسرون فيها يعدون بالعشرات ، وذكر الوزان أنه كان بها مارستان جميل فى الداخل والخارج ، وكان بها بعض غرف مخصصة للمجائين المخبولين ، وكان بها مائة حمام جيدة البنيان ، وللنساء حماماتهن الخاصة ، أما الحمامات المشتركة فتخصص فيها ساعات للرجال وساعات للنساء ، وحينما يغسل خدام الحمام شخصا يستلقى على ظهره أو بطنه ويقومون بتدليكه بنوع من المراهم منشطة وأحيانا بأدوات مثل كيس صوفى يزرع الأدران . وكان بفاس مائتا فندق يقول الوزان إنها كانت فخمة للغاية ويتألف الفندق من ثلاثة طوابق ، وبعضها فسيح جدا إذ يحوى مائة وعشرين غرفة أو أكثر ، وتجهز جميعا ببرك ماء وكل ما يلزمها ، ويقول الوزان إنه لم ير فى إيطاليا بنية تماثلها إلا فى قصر الكردينال فى دُير الحضرة بروما ، ويقول إن أبواب الغرف كلها تطل على ممشى ، ويشيد بالقصور التي بناها يعقوب بن عبد الحق مؤسس الدولة المرينية ، وليست قصورا بل مدينة أضافها إلى فاس كما مرُّ بنا فى حديثنا عن المرينيين فى الفصل الماضى ، وقد اتفق سلطانها المرينى أبو غنَّان على إنشاء معهد - كما يذكر الوزان - أربعائة وثمانين ألف دينار ، مما يدل على ثراء واسع كانت تتمتع به الدولة المرينية .

ومثل فاس مدينة مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والدولة السعدية ، ويتحدث الوزان عن جامعها ، ومازنيه به المنصور الموحدى صاحب موقعة الأرك من أعمدة جلجها من إسبانيا ومن منارة كانت إحدى عجائب الدنيا وبنى بالقبة اثني عشر قصرا ، ويقول إن إمبراطورته من مائة فى السوس إلى طرابلس يحتاج اختراقها طولا إلى تسعين يوما وعرضا إلى خمسة عشر يوما ، ولم تكن الدولة فى عهد المنصور السعدى تقل إثراء عنها فى عهد المنصور الموحدى فقد توسع فى فتح بلاد السودان الغربى وكان الذهب يُجبى إليه منها بالأحمال ، مما جعل العمال

فى دارسكه يتزايدون ، حتى قيل إنه كان فيها ١٤٠٠ عامل بيد كل عامل مطرقة لضرب
البنائير الذهبية ، ولذلك لُقّب بالنصور الذهبى .

ويتوقف الوزان مرارا ليجدثنا عن ثراء المناطق فى المغرب الأقصى ، من ذلك ما يقوله عن
منطقة بولوان فى منطقة دكالة من أنه كان يسكنها عديد من النبلاء الكرام . وقد بنوا عمارة
فيها غرف عديدة على نفقتهم لتكون دار ضيافة فاخرة ، وأرضهم خصبة وتنتج مقادير وافرة
من القمح وعندهم ماشية لا عداد لها ، إذ لدى كل فرد منهم نحو مائة زوج من الأبقار ويحصد
الفرد العادى مائة حمل من القمح ومنهم من يحصد منه ثلاثة آلاف حمل . ومثل منطقة دكالة
فى ثرائها منطقة هسكورة بأغنامها وما يُصنع منها من الأقمشة الصوفية الجميلة ومن الجلود
المغرية وبها كثرة من محصول الزيت وتعنى بصناعة سروج الخيل . ويشمل الثراء كثيرا من
نواحي منطقة ناذلة ، وتشتهر مدينتا نفزة وأفزة بصنع البرانس وهى نوع من العباءات أو الثياب
تنسج قطعة واحدة مع قلنسوتها ويسلك فى العنق ويترك من أمام مفتوحا ، ولا يخط منه
إلا ما يقابل الصدر . ومنطقة فاس غنية جدا لوفرة حبوبها وثمارها وماشيتها . وبالمثل منطقة
مكناس لثمارها العجيبة من سفرجل زكى الرائحة ورمال يخلو من البذور وعباب بديع مع
وجود مختلف الثمار من الخوخ والمشمش والعنب والتين ، ومنطقة الهبط غنية لكثرة موانئها
التجارية ، ولكثرة ما تنتجه كورها من الحبوب والثمار . وتتميز ثلاث مناطق هى : السوس
وسجلماة ودرعة بتجارتهما الواسعة مع السودان الغربى ، وتجار السوس يحملون إليه ما ينتجون
من السكر والتمور وما يصنعون من الجوخ وأقمشة الكتان ، ويحمل تجار سجلماة تمورهم
والأقمشة القطنية والصوفية والمنتجات المغربية ، ويحمل إليهم تجار درعة تمورهم الفاخرة
والمنتجات المغربية وما يصنعون من أواني النحاس ، ويعودون جميعا محملين بالعاج والذهب
وريش النعام والرقيق ، ويدّر ذلك على تجار هذه المناطق ثراء واسعا .

(ب) الرّفة

هذا الثراء الطائل لبعض مدن المغرب الأقصى ومناطقها ودولها وبعض أفرادها من التجار
وغير التجار يجرّ بطبيعته إلى غير قليل من الرّفة . ومن يرجع إلى الحسن الوزان فى حديثه عن
ملابس سكان فاس ويريد أعيانها ونبلأها يجده يقول إتهم أناس محترمون يلبسون فى الشتاء
ثيابا من جوخ أوربية المنشأ ، ويتألف ما يلبسون من ستر (جاكيت) ضيقة ملتصقة بالجسم
لها نصف أكمام ، تمرّ من فوق القميص ، ويلبسون فوق تلك السترة ثوبا عريضا مخاطا من
الأمام (لعله المعروف عند المغاربة بالقشاية) ، وهى ثوب له أكمام يسلك فى العنق ويخط من
أمام ولا يترك منه إلا فتحة العنق) ويصنعون فوق هذا الثوب البرنس الذى وصفناه منذ قليل ،
وقلنا إنه ينسج قطعة واحدة مع قلنسوته ولا تغطى الأذنين ، ويلفون فوق تلك القلنسوة عمامة

من قماش تطَوَّى مرتين حول الرأس وتر من تحت اللحية ، ويلبسون سروالا من كتان ، ويضعون فى أقدامهم خُفًا عندما يمتطون جيادهم شتاء . ويقول الوزان إن عامة الشعب يلبسون ستره وُبرُتْسًا بدون الثوب (القشاية) الذى تكللنا عنه . وربما كان أدق من ذلك ما ذكره فى بلدان مغربية أخرى من أن أهلها يلبسون كساء من صوف غير مخيط يشتمل به الرجال والنساء على نحو ما نرى عند قدماء المصريين . يقول الوزان : « للنساء هندامٌ حسن جدا ، ويلبسن فى الشتاء ثيابا عريضة الأكمام مخيطة من الأمام كأثواب الرجال ، ويلبسن فى الصيف قميصا يطوِّفه بزنا ، وعندما يخرجن من بيوتهن يلبسن سراويل طويلة تغطى كل أرجلهن وخيمارا يغطى الرأس وسائر الجسم ، ويتغطى الوجه بقطعة قماش كثنى ، ويضعن فى أذنهن حلقات ذهبية كبيرة مرصعة بحجارة كريمة بديعة جدا ، ويضعن أساور ذهبية فى معاصمهن . أما النساء من غير الشريفات فيلبسن أساور من فضة ويضعن مثلها فى أرجلهن . ودائما يشير الوزان فى البلدان المختلفة بأن المرأة كانت تنزبن بحلى فضية ، وكأنها كانت هى الحلى الشعبية الشائعة ، ومرَّبنا فى الحديث عن سوق فاس ما كان به من دكاكين كثيرة لبيع الأقمشة الصوفية والكتانية والحريمية النسائية وما كان هناك من دكاكين لبيع النطاقيات النسائية وكل فنون الزخرف من الزينة للملابهن وكل أنواع العطارة والروائح الفاتحة .

ويتحدث الحسن الوزان عن الغذاء فيقول إن عامة الشعب تتناول اللحم مرتين فى الأسبوع أما الأعيان والأغنياء فيتناولونه مرتين فى اليوم حسب شهيتهم . ولهم ثلاث وجبات يومية : وجبة الصباح وتتكون من خبز وجِساء من دقيق القمح وبعض الفواكه ، ووجبة الظهيرة وتتألف من خبز وجبن وزيتون وسلطة ، ووجبة المساء وتتألف من بعض الأطعمة ومن اللحم المسلوق ، والكسكسى وهم يواظبون عليه فى العشاء ، وقد يأكلونه فى الغذاء ، وهو عجينة تحول إلى حبيبات ، وتطبخ بالبخار وعند نضجها تسقى بالسمن وبمواد مغلية مع اللحم .

وكان لابد للمرفهين فى المغرب الأقصى من لعب يقطعون بها أوقاتهم ، وقد اختاروا لعبتى الشطرنج والنرد يتسلون بهما ، ومعروف أن لعبة الشطرنج تمثل صورة الحرب ، فهى حرب بين جبهتين وفى كل جبهة ملك ووزير وبعض القواد وبيادق أو عسكر وطيلة للدفاع عنها ، وتحاول كل جبهة التغلب على مقابلتها ، ويكسب النصر لإحداهما كما فى الحرب تماما . أما النرد فخلل خطوطه الأربعة والمشرون على عدد ساعات اليوم ونصف الخطوط تدل على عدد شهور السنة ، وحجارتها السود والبيض هى الليالى والأيام ، وتدل قطعتا الزهر على حظوظ الناس فى دنياهم . وأتأسأ ملوك فاس وسلاطينها لأهلها مسرحا لصراع الأسود ، وكان يصيدهم للسُلطان قناصو جبل زرهون . وكان المسرح ساحة واسعة يصطف حولها أهل فاس للفرجة ، وكانت تُصَفِّ فى الساحة عدة صناديق كبيرة يتسع داخل كل منها لرجل يقف فيه ويتحرك بسهولة ، ولكل صندوق باب صغير ويجلس فيه رجل مسلح ، وعندئذ يطلق الأسد - كما يقول الوزان -

حرًا في الساحة ، ويقوم أحد الرجال بفتح صندوقه وينطلق إليه الأسد حين يراه ، حتى إذا دنا منه أغلق الباب ، وكل رجل يصنع نفس الصنيع مثله ، حتى يغضب الأسد بل حتى يعتلء غضبا ويشتد به غضبه وثورته ، وحينئذ يدخل ثور إلى الساحة ، وتنشب بينه وبين الأسد معركة دامية شديدة العنف ، والجمهور يهرج ويصفق ، وإذا قتل الثور الأسد انتهى المشهد المسرحي عند ذلك ، وإذا قتل الأسد الثور يخرج إليه الرجال المسلحون من صناديقهم لمبارزته ، وهم عادة اثنا عشر رجلا ، ومع كل رجل حربة تنتهى بنصل من حديد طوله ذراع ونصف ، وإذا بدا تغرقهم على الأسد واضحا نقص السلطان عددهم ، وإذا بدا أن الأسد يتفوق على الرجال عمد السلطان ومن معه إلى تسديد سهام إليه من أعلى شرفاتهم خشية أن يفتك بأحد المصارعين ، فيموت . وبذلك تنتهى اللعبة بين تصفيق الجماهير وما يتصل به من هرج ومرج ، ويمنح السلطان جائزة لكل مصارع : عشرة دناتير وكسوة جديدة .

(ج) الموسيقى^(١)

أول زمن للنهضة الموسيقية في المغرب الأقصى كان زمن الدولة السعدية ، إذ لا نلتقي بأخبار عن الموسيقى وأصحابها قبل هذا الزمن في القرن العاشر الهجري المقابل للسادس عشر الميلادي ، ومن المعروف أنه كان بالأندلس نهضة موسيقية مبكرة ، غير أنها ظلت بعيدة عن المغرب الأقصى وظل لا يعرف عنها شيئا إلا حين نزل بعض أهلها هناك واستمعوا إليها ، وكأنا ننتظر المغرب الأقصى حتى اكسحه الأندلسيون وهاجروا إليه هجرتهم الكبرى بعد سقوط غرناطة بأخرة من القرن التاسع الهجري واتسعت هذه الهجرة - كما مر بنا - في عهد فيليب الثالث لأوائل القرن الحادى عشر الهجرى ، على أن النهضة الموسيقية أخذت تزدهر منذ عهد السلطان عبد الله الوطاسى المرينى الملقب بالغالب (٩٦٤ - ٩٨١ هـ / ١٥٥٧ - ١٥٧٤ م) إذ نجد الموسيقيين المغاربة يحافظون على إيقاعات الموسيقى الأندلسية بكل نوبها أو قطعها الموسيقية الكبيرة العشر ، وهى رمل المائة - المائة - رصد الذيل - الأصبهان - الرصد - غرية الحسين - الحجاز الكبير - الحجاز الشرقى - عراق العجم - العشاق . ويتألف حينئذ اسم موسيقار كبير هو الحاج على البطلة من أهل فاس وحاشية السلطان عبد الله الوطاسى ، ويقال إنه أضاف إلى النوبات الكبيرة النوبة الحادية عشرة المسماة بالاستهلال ، وبذلك أصبحت إحدى عشرة ، وتبدأ النوبة بمقدمة موسيقية للجوقة يليها افتتاح على إحدى الآلات لرئيس الجوقة ثم توشية موسيقية للجوقة ، ثم تبدأ أغانى ميازين النوبة ، ولكل نوبة خمسة ميازين أو أقسام ، وهى

محمد بن الحسين الحالك (طبعة مصورة لورثة الحاج عبد السلام الرقراق . طبعة ١٩٨١ م) .

(١) انظر كتاب الموسيقى الأندلسية المغربية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل (نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وراجع كتاب الحالك

البسيط والقائم والباطحي والندام والدرج. وتتخلل هذه الميازين بعض الإنشادات بنسجها موسيقار منفرد، وخاصة في الموسيقى المصاحبة لقصائد المولد النبوي وهي فيها تكون من رقيق أشعار التصوفة مثل الششتري، وفي غيرها تشيد بإيقاعات الميزان المسماة بالطبوع وأحياناً تكون غزلاً. والغرض من هذه الإنشادات الترويح عن المستمعين. والطبوع مفرداً طبع وتقابل في الموسيقى الأندلسية المغربية كلمة مقام المعروفة في موسيقى المشرق العربي، ومنها مفرد وهو انشاق واحسين واحسار والزرزركند والأصهبان والمزوم والرملة والرصد والعجم والمجنّب، ومنها ممزوج، وهو عراف العرب وعراق العجم والحجاز المشرقي والصيكة أو سلم الرست. وحاول الموسيقيون المغاربة منذ عهد البوطاسيين المرينيين تكلمة النوب كما رأينا عند الموسيقار الحاج علي البطلة بإضافته نوبة الاستهلال المغربية الجديدة. ومنذ زمنه أضاف المغاربة إلى الميازين - وكانت أربعة - ميراثاً جديداً هو الدرج نشأ عن الفناء الشعبي المردد في حلقات الذكر بالزوايا. وأضافوا إلى ذلك بعض آلات الموسيقى، من ذلك الآلات النحاسية في بعض الجوق العسكرية بالموكب السلطاني. واستمرت الآلات الوترية وفي مقدمتها العود والقانون، والآلات النقرية وفي مقدمتها الدف والثرق وأضيفت إليهما الدربوكة المغربية، وآلات النفخ وفي مقدمتها الناي والمزامير. والفضل الأول في تسجيل هذه الموسيقى الأندلسية المغربية يرجع إلى محمد بن الحسين الحائك الذي أثاره الحمية لما يخشى على تلك الموسيقى من الضياع لألحانها وأغانيها فأنبرى سنة ١٢١٤ هـ/ ١٨٠٠ م لتأليف فيها «كناش الحائك» مسجلاً فيه نوبات تلك الموسيقى البالغة بنوبة الحاج علي البطلة إحدى عشرة نوبة والميازين الخمسة التي تتألف منها أجزاء النوبة، وطبوع هذه الميازين أو مقاماتها النغمية، ويذكر مع كل طبع أو مقام شواهد من عدة موشحات أندلسية ومغربية، وبذلك حافظت هذه الموسيقى على تلك الموشحات أو بعبارة أدق حافظ عليها الحائك، وبذلك كان عمله في كناشه مزدوجاً فقد رسم فيه النظام الدقيق للموسيقى الأندلسية المغربية وحماه من الضياع كما أثبت فيه طائفة كبيرة من نصوص غنائية للموشحات الأندلسية والمغربية.

(د) المرأة^(١)

كانت المرأة المغربية تحظى بشعور كريم بكرامتها، كما كانت تحظى بغير قليل من الحرية، وهي حرة قلماً حظيت بها أختها في المشرق، وكان لذلك أثره في الحياة السياسية والثقافية، ومن أوائل ما يلقانا من ذلك ما ذكرناه عن أم البنين الفهرية التونسية وتبرعها العظيم لبناء جامع

كتاب الذيل والكلمة لكناش الموصول والصلة لحمد بن عبد الملك المراكشي (طبع الرباط).

(١) انظر في المرأة المغربية مواضع مختلفة في الجزء الأول من كتاب الترويح المغربي في الأدب العربي للأستاذ عبد الله كتون، والقسم الثاني من السفر الثامن من

القرويين بفلس الذي سرعان ما تحول إلى جامعة كبرى بفلس إلى اليوم . وكانت زوجة يوسف بن
 تاشفين سيدة حسيبة وكانت تدبر معه دفة السياسة والحكم ، وكان رأبها دلتما صالبا واتنفع
 بها فى حياتها فى تثبيت حكمه ومملكه . وكانت لا تقل عنها حصافة وشعورا بلمعة زنب
 بنت إبراهيم بن تافلويت زوجة تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم غرناطة والأندلس ، وكانت
 تحير الشعراء ، ولابن خفاجة الشاعر الأندلسى فيها قصيدة طائعة ، ولها أعمال بر كيرة .
 وعلى شاكلتهما تميحة بنت سيد المرابطون يوسف بن تاشفين كانت من أهل الخير والصدقات .
 ومن فضلياتهن حواء بنت أخى يوسف بن تاشفين ، زوجة سير بن أمى بكر الذى ظل واليا
 على إشبيلية سبعا وعشرين سنة حتى سنة ٥٠٧ . وكانت تقيم فى قصرها ندوة أسبوعية تحاضر
 فيها شعراء إشبيلية وتنقد بعض أشعارهم ، وتسبغ عليهم جوائز وعطائيا كثيرة ، وللأعشى
 التطللى فى مدحها قصيدة بدعية مذكورة بترجمته فى كلبنا عن الأندلس . ومن السيدات
 الفضليات فى عهد الموحدىن زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن سلطان الموحدىن زوجة ابن
 عمها أمى زيد بن أمى حفص تلمذت فى علم الكلام لأبى عبد الله بن إبراهيم الأصول وكانت
 عالمة نابهة الشأن . ومنهن من سيدات الشعب غيرونة الأشعرية ولها فضل فى نشر المذهب
 الأشعرى بين نساء مراكش ، ومنهن فى علم الحديث مريم بنت أمى الحسن صاحب المدرسة
 بسببة ، ومن المتصوفات - وهن ككيات - منية بنت ميمون الدكالية ، ومن الأدبيات من بيت
 الحكام الموحدىن ربيعة ، ومن سيدات الشعب أمة العزيز بنت أمى محمد بن الحسن السببية
 وحفصة بنت القاضى أمى حفص بن عمر وأم النساء بنت التاجر الفاسى وكانت أدية شاعرة .
 ومن السيدات الفضليات النابغات زمن المرينيين فى العلوم الدينية الفقهية أم هانم بنت محمد
 العبدوسى والفقيهة أم البين جدة الشيخ زروق ورحمة بنت الجنان والدة الشيخ ابن غازى
 وغيرهن ككيات فى الفقه والحديث النبوى ، ومن الأدبيات أم الحسن بنت أحمد الطنجالى
 وصفية الزفية من بيت الزفرين وصبح زوجة أحمد بن شعيب الجزائى ، واشتهرت فى الطب
 عائشة بنت الجبار السببية . وبذلك لم يعد الطب خاصا بنساء بنى زهر كما كان الشأن فى
 عصر الموحدىن ، فقد انتقلت معرفته والحذق فيه إلى النساء المغربيات فى العصر المرينى . ويذكر
 الوزان الذى زار منطقة درعة فى عصر الوطاسيين المرينيين نحو سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ م أن
 نساءها يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدارس للفتيات والفتيان . وحرى بنا أن نذكر فى عهد
 الوطاسيين السيدة عائشة بنت على ابن راشد مخطط مدينة شفشاون لتحصين ناحيتها من نصارى
 سببة ، وقد تزوجت حاكم مدينة تطوان وتوفى فحكمت تطوان بعده وضبطها خير ضبط
 وتصدت لنصارى سببة بذكاء ودهاء وحسن سياسة وأعجب بشجاعته السلطان أحمد الوطاسى
 فاقرن بها سنة ٩٤٨ هـ/ ١٥٤١ م .

ونلتفى فى عصر السعديين بسيدات فضليات ككيات ، منهن سحلبة الرحامية السفيرة

إلى الأستاذة يشرى فتح تونس للدولة العثمانية طالبة جزاء حمل تلك البشارة مساعدة ابنها عبد الملك بككية عثمانية من الجزائر فى استعادة ملك والده وأجلبتها الدولة العثمانية ، واستولى على صولجان الملك . وأبدت أخته مريم بسالة عظيمة فى قيادتها بقصبة مراكش لثلاثة آلاف جندى من الرماة تحقق بهم النصر لأخيها عبد الملك . واشتهرت مسودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبى بأعمال خيرية كثيرة ، ومن منشآتها الخالدة بمراكش المسجد الجامع بباب دكالة ، واشتهرت بالعلم والتفوى عاشت بنت أحمد بن عمران والدة ابن عسكر الموزخ المعروف . ومن السيدات الفضليات فى عهد السعدين العريفة بنت خجور ولها فضل فى تعليم الأسرة السعدية الصورة الحضارية للملابس والطعام والتعامل مع النساء إذ كانوا قد جاءوا إلى فاس من البدو . ومن السيدات الفضليات فى عصر العلويين السيدة خنثة بنت بكار زوجة السلطان إسماعيل ، وكانت فقيهة عالمة وأديبة بارعة ، وكانت حبيفة تحسن لإدلاء الرأى وعرضه ، وكانت نعم الوزير لزوجها تشير عليه دائما بالرأى الصائب ، وحجت وأكثر فى حجها من الصدقات وأعمال البر والخير ، توفيت سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م . ومن السيدات الفقيهات العالمات زوجة المختار الكنتى المتوفاة سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨١٠ م وكانت تدرس للنساء مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه طلالكى بينما كان زوجها المختار بن أنى بكر الكنتى يدرسه للرجال ، وترجم لها فى كتاب واحد ليهما محمد ، وسمى كتابه : الطارفة والثالثة فى مناقب الشيخ الروالد والشيخة الوالدة . ويذكر الأستاذ عبد الله ككون أنه كان هناك دائما معلمات فى مجال التعليم الأولى يعلمن البنات والأولاد الصغار الكتابة والقراءة والقرآن الكريم ومبادئ العلوم الضرورية ، ولم يكن يخلو حى فى المدن من دار فقيهة تنهض بهذا التعليم مما يدل على الدور العظيم الذى كانت تقوم به المرأة المغربية فى تعليم النساء ونشر المعرفة .

٤

المالكية - الصفرية - المعتزلة - الظاهرية

(أ) المالكية

كان المغرب الأقصى يقتدى بإفريقية التونسية طوال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى ، إذ كانت تعبر الرائد للمغرب جميعه ، وكان علماءها فى القرن الهجرى الثانى يرحلون فى كل عام لأداء فريضة الحج ، وكانت المدينة حتى زمن مالك تمد دار الفقه ، وكان مالك نفسه إماما كبيرا من أئمة ، يلقى فيه دروسه ويؤلف فيه كتابه الموطأ ، فكان علماء إفريقية يقصدونه لأخذ الفقه عنه وأخذ كتابه الموطأ ، وخلفه تلاميذه المصريون - وفى مقدمتهم عبد الرحمن

ابن القاسم - فكان الطلاب يرحلون إليه ويتلمذون عليه كما رحلوا وتعلموا على أئمة الفقه المالكي بعده في مصر . فكان ذلك سبب ازدهار المذهب المالكي في إفريقية التونسية ، وكان كتاب الموطأ قد حُمل إليها فكان يدرس فيها ويدرس معه كتاب في المذهب لتلميذه عبد الرحمن بن القاسم الذي فرغ فيه فروعا كثيرة . سماه المدونة وحملها عنه سحنون إلى تلاميذه في موطنه ونسبت إليه باسم مدونة سحنون . وأخذ التلامذة من تونس إلى المحيط الأطلسي يقدمون إلى القيروان للتلمذة على سحنون وأضرابه من حملة الفقه المالكي بعد وفاته سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م . وكانوا يعودون إلى مواطنهم في المغرب الأقصى فيدرسون للطلاب المذهب المالكي ويشيعونه بين الناس في بلداتهم ، وأظن ظنا أن إدريس منشيء الدولة الإدريسية ومن خلفه من أبنائه وأحفاده كانوا يدفعون رعاياهم في المغرب الأقصى بفاس وغير فاس إلى التفقه بمذهب مالك دون غيره من المذاهب لموقفه المعروف مع محمد النفس الزكية حين أعلن بمكة الثورة على المنصور ، إذ أفضى الناس بالتحلل من بيعة الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله سليل الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م وفي السنة التالية بعد القضاء على ثورة النفس الزكية استدعى جعفر بن سليمان وإلى المدينة مالكا وجرده من ثيابه ، وضربه بالسياط عقابا على خيائه . وفر عقب إخفاق ثورة النفس الزكية عنه إدريس إلى المغرب الأقصى واستطاع تأسيس الدولة الإدريسية ، فكان طبيعيا أن يرعى مالكا الفقيه الكبير فواء لابن أبي ، وأن يدفع الناس والعلماء والطلاب إلى التفقه بمذهبه ، مما جعل المذهب المالكي يشيع هناك بقوة منذ القرن الثالث الهجري .

ونحن لا نصل إلى القرن الرابع الهجري حتى يصبح للمغرب الأقصى أعلامه في الفقه المالكي الذي يدرسه في المدن وفي القبائل المختلفة ، ومنهم أبو هرون البصري الذي أدخل كتاب ابن المواز الفقيه المالكي المصري إلى المغرب الأقصى لأول مرة وأيوب بن محمد فقيه المصامدة وأبي القاسم بن حمز فقيه اللثمين وعثمان بن مالك فقيه فاس ، وله تعليق على مدونة سحنون ، ودراس بن إسماعيل القاسي تلميذ أبي بكر بن اللباد شيخ فقهاء المالكية بالقيروان في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، وله رحلة إلى المشرق حمل فيها من الإسكندرية كتاب ابن المواز ، وعبد الرحيم الكاشي تلميذ فقيه القيروان في النصف الثاني من القرن الرابع : ابن أبي زيد وأخذ عنه كيايه : النوادر والمختصر . وينشط المغرب الأقصى في دارسة الفقه المالكي لعهد المرابطين ، وكانوا يعينون فقيها مالكا مع كل والٍ للملازمة الأحكام في عهده للشرع . وسنعود للحديث عن نشاط الفقه المالكي لهذا العهد في الفصل المقبل ، ويضعف هذا النشاط في عصر الموحدتين لعنايتهم بنشر المذهب الظاهري ، وسنخص هذه العناية بمحدث في غير هذا الموضوع ، ويعود إلى المذهب المالكي نشاطه وازدهاره في العصور التالية حتى العصر الحديث .

(ب) الصفوية^(١)

معروف أنه تولى المغرب من طرابلس إلى المحيط فى القرن الأول المجرى ولاية عظام طبقوا فيه تعاليم الإسلام الفاضية بالمساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب التى دخلت فى الإسلام ، وقد رأينا حسان بن النعمان (٧١ هـ / ٦٩٠ م - ٨٦ هـ / ٧٠٥ م) بعد انتصاره الحاسم على الكاهنة يُدخل من قومها فى جيشه كية من اثنى عشر ألف رجل تجاهد مع العرب فى سبيل الله ، وليس ذلك فحسب ، فبه ولّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه فى جبل أوراس وبذلك ملك قلوب المغاربة ودلوا له بالطاعة حتى المحيط ، وخلفه موسى بن نصير (٨٦ هـ / ٧٠٥ م - ٩٦ هـ / ٧١٤ م) فوضع التنظيم الإدارى للمغرب وجعله خمس ولايات وخامستها هى المغرب الأقصى ماعدا السوس وجعل عليها واليا يربرها هو طارق بن زياد وعاصمتها طنجة ، فلم بعد هناك فارق بين أن يكون الوالى لأى ولاية عريا أو بربريا مغريا ، وكلفه بأن يفتح إيريا ، فأعد جيشا أكثره من البربر نحو اثنى عشر ألف جندى ، وفتح الله له الجزء الجنوبى من إيريا وحلفه موسى بن نصير وأتاهم الفتح مما . ومعنى ذلك أنه تم فى عهد موسى بن نصير رفع جميع الفوارق بين العرب والبربر ، فقد أصبحوا جميعا متساوين فى حكم الولايات وقيادة الجيوش والجهاد فى سبيل الله ، وبذلك لم يصبح فتح الديار المغربية من برقة إلى المحيط فتحا حربيا لفتح المكاسب الدنيوية ، بل أصبح فتحا عقائديا لنشر الدين الخفيف وما ينبغى أن يستمره أتباعه عربا وغير عرب من الأخوة فى إعلاء كلمة الله .

وُسِّيت الأمة الإسلامية بعد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بخلفاء أمويين منذ السنة الأولى فى القرن الثانى المجرى ليسوا فى مستوى أمانة الحكم التى ينبغى أن يتحملوها ، فقد ولّى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، وسرعان ما ولّى على المغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج قتمصف مع البربر فى جمع الضرائب ناسيا أن البربر أصبحوا رفقاء سلاح مع العرب ، فقتلوه . وتوالى فى عهد أخيه هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ / ٧٢٣ - ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م) ولاية ليسوا فى مستوى المهمة ، كان آخر المتصفين منهم عبيد الله بن الحبحاب فأرق المغاربة هو وعمله بالضرائب وبلغ من سفه عامله على طنجة أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضى المغرب الأقصى أى أخذ خمسها للدولة . وبينما صرّ المغاربة يكاد ينفذ إذا بدعاة مذهبى الصفوية والإباضية يتشرون بينهم يدعونهم إلى الدخول فى عقيدتهم التى تناقض عقيدة حكام بنى أمية وترى فى استيلائهم على الخلافة عدوانا على الأمة ، إذ ينبغى أن يكون اختيار الخليفة متحررا من كل قيد فلا يقصر على قريش ، بل يتولاها أشد الناس خوفا من الله وأكثرهم طاعة له وأحرصهم على الاستمساك بالدين وطاعة الله واتباع أحكام الإسلام ، ولو كان

(١) تنظر فى منعب الصفوية الملل والجمل للشهرستانى.

بربريا بل لو كان عبدا حبشيا . وأخذوا يحضونهم على كفاح بنى أمية وعالمهم ووصفهم بالفسق والمعصية ، واستجاب جبل نفوسة فى طرابلس للإباضية ، بينما استجاب المغرب الأقصى للصفرية وكانوا أكثر تطرفا من الإباضية إذ كانوا يكفرون مرتكب الكبيرة ويوجبون قتله ، وعدّوا دار المسلمين دار حرب واستحلوا دماءهم وأموالهم وقتل نسائهم وذرائعهم . ومرّ بنا حديث عن ثورتهم فى شمالى المغرب الأقصى بقيادة ميسرة رئيس مضرة ثم خالد بن حميد الزناتى وانتصارهم على جيوش عبيد الله بن الحبحاب والوالى الأموى بعده كلثوم بن عياض القشيري ، ثم ما كان من انتصار والى الأموى حنظلة بن صفوان على جيشين صفرين ، وأخيرا انتصار أبى الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية على قبيلة ورعجومه الصفرية حين استولت على القيروان ونكلت بأهلها ، وفى أثناء ذلك ينسحب سمكو بن واسول إلى سجلماسة وينشئ بها دولة صفرية كما مر بنا . ويبدو أن بقية المغرب الأقصى أخذت تنفر من عقيدة الصفرية ، وساعدت دولة الأدارسة الناس هناك فى القضاء عليها بتلك الأنعام .

(ج) المعتزلة^(١)

كان واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال فى البصرة من أكبر الوعاظ فى عصره إن لم يكن أكبرهم ، وقد جعل للاعتزال أسسا خمسة ظلت قائمة فيه بعده ، وهى الوحداية صفة ثابتة لله ، بحيث لا يشبه المخلوقات بآى صورة فليس كمثله شيء ، وما جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى مما قد يفيد تشبيها يجب تأويله ، مثل (يد الله فوق أيديهم) فمعناها قدرة الله فوق قدرتهم ، ثم هو واحد فصفاة مثل السميع ، البصير هى نفس ذاته . وأساس ثان أو مبدأ ثان هو العدل على الله ، ولذلك ينبغى أن يكفل لعباده ما هو أصلح لهم تحقيقا لسعادتهم . وأساس ثالث هو إنفاذ وعده للمؤمنين بأن لهم الثواب والنعيم المقيم والوعيد للكفار الآئمين بالعقاب وعذاب النار ، وأساس رابع هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ لا يحل لمسلم أن يسكت على جرم أو إثم ، وواجب عليه أن يأمر بكل ما هو خير . وأساس خامس هو أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين منزلي الإيمان والكفر ، واختلفت فى ذلك الجماعة الإسلامية اختلافا كبيرا ، فكانت المرجحة تعدّه مؤمنا وأهل السنة يعدونه مؤمنا فاسقا والخوارج : الصفرية والأزارقة يعدونه كافرا إذ يرون العمل جزءا لا يتجزأ من الإيمان ، أما واصل فكان يجعله فى منزلة وسطى بين الإيمان والكفر . وكان ماينى يخطب فى شباب البصرة واعظا ومؤيدا آراءه بالحجج والأدلة العقلية ، وتغنّ به الشباب وأصبح له بينهم أتباع وأنصار كثيرون امتلأوا حماسة لدعوته الاعتزالية ، فرأى أن يتخذ منهم نفرا يتميز باللسن والفصاحة والخطابة والوعظ كما يتميز بالقدره الجدلية على الدعوة للمبادئ الاعتزالية ، وفرّقهم

وطبقات المعتزلة بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد ص ٦٧ ،
١١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ .

(١) انظر فى المعتزلة الملل والنحل للشهرستاني ص ٣١
وكتابتا العصر العباسي الأول ص ١٣٤ وفضل الاعتزال

على بلدان مختلفة من العالم الإسلامى ، وإلى ذلك يشير تلميذه صفوان الأنصارى فى مدحه له قائلا :

له خَلْفَ شَعْبِ الصِّينِ فى كُلِّ ثَغَرَةٍ إلى سوسها الأقصى وخلفَ البربرِ
رجالَ دَعَاةٍ لا يَفْلُ عَرِيْمَهُم تهكُّمُ جبارٍ ولا كيدُ ماكرِ
وأَوَسَادُ أرضِ اللَّهِ فى كُلِّ بِلَدَةٍ وموضعُ قَتَاها وعلمُ التشاجرِ

فهو قد أرسل دعائه الذين يفحسون خصومهم بالبراهين السديدة وَيَقُولُونَ عَلَيْهِمْ كُلَّمَا نَظَرُوهُمْ أَوْ جَادَلُوهُمْ ويقول إن منهم دعاة تغفلوا فى بلاد البربر إلى منطقة السوس . وفى كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة أن واصلا أُنْفَذَ إلى المغرب تلميذه عبد الله بن الحارث فتبعه الخلق ، وفيه أن المعتزلة حاربت مع إبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية حين ثار على أبى جعفر المنصور وأن بشيرا الرحال المعتزلى قتل معه فى موقعة باخمرا سنة ١٤٥ هـ وأن أبناءه لحقوا بالمغرب وغلبوا على مدن فيه أظهروا فيها دعوة الاعتزال . وفى الكتاب نفسه أن للمعتزلة فى بلد تدعى البيضاء مائة ألف يحملون السلاح يُعَرِّفُونَ بالواصلية ، وفيه أيضا أنهم كثيرون فى طنجة ، وأن رئيسهم هناك إسحق بن محمود بن عبد الحميد هو الذى أيد إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية حين ورد عليه وأنه أدخله فى الاعتزال وكان الدولة كتبت دولة معتزلة ، وأظن فى ذلك ضربا من المبالغة وكتوا كثيرين فى بلاد إدريس الثانى ، ولعله كان يعطف عليهم لنصرة أسلافهم لإبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية ، ونجد ابنه محمدا يبنى جنوبى مدينة القصر الكبير مدينة يسميها البصرة ، ولعله بناها لهم ذكرى لمدينة أستاذهم واصل بن عطاء ومُرُّ بنا فى الجزائر حديث مماثل عن المعتزلة ، ولم يفكروا هنا ولا هناك فى دولة أو ما يشبه الدولة .

(د) الظاهرية^(١)

الظاهرية أو أصحاب المذهب الظاهرى ينسبون إلى أبى سليمان داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠ للهجرة وكان فى أول أمره فقيها شافعيا يتعصب لمذهب الإمام الشافعى تعصبا شديدا ، ثم استقل عنه وأسس له مذهباً سمي مذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب أسسه إنكار القياس فى الفقه ومسائل التشريع ، لأن القياس عقلى والدين إلهى ولا يحتكم فى الإلهى أو ما هو إلهى إلى العقل أو ما هو عقلى ، ويكنى لبيان الأحكام التشريعية ما فى القرآن الكريم والحديث النبوى من عموم ، وتأسيسا على ذلك يبنى الوقوف عند ظاهر الكتاب

ص ٣٥٤ وما بعدها وروايات الأعيان لابن خلكان :
ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن .

(١) انظر النصوص الواردة فى المباحث للونشريسي (طبعة
حجربة بفاس) ٣٦١/٢ روروش الترطاس لابن
أبى زرع ١٩٥ والمحب للمراكشى (طبعة القاهرة)

والسنة وإغلاق الأبواب أمام القياس وجميع الآراء التي تُبنى عليه . وَكَيْبَ لهذا المذهب أن يتحسس له عقل قُدسِي هو عقل علي بن أحمد بن حزم التوفى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م وكان قد بدأ حياته الفقهية بدراسة مذهب مالك ثم تركه إلى مذهب الإمام الشافعي ثم أثر على مذهبيهما مذهب داود الظاهري ، ولابن حزم في الاحتجاج له ضد الأحناف والشافعية كتاب الإبطال للأصول الخمسة التي يأخذون بها ، وهي القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل ، فكل ذلك يجب إبطاله والاكتفاء بالكتاب والسنة .

وقد ازدهر هذا المذهب الظاهري في عصر دولة الموحدين ، إذ كانت تتخذها مذهبا فقهيا لما من دون المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة لمالك وأبي حنيفة والشافعي وأبو حنبل ، وحاول الأستاذ عبد الله كون في الجزء الأول من كتابه : « النبوغ المغربي في الأدب العربي » الاستدلال بأن خلفاءهم أو حكامهم كانوا يدعون إلى الاجتهاد كآته بذلك يريد نفى اعتناقهم لعقيدة الظاهرية ، ولا نستطيع أن نبتل شهادات القدماء الكثيرة بأن الموحدين كانوا ظاهرية ، من ذلك أن الونشريسي في كتابه المعيار نعت ابن تومرت بأنه ظاهري وأن ابن أبي زرع في روض القرطاس في سنة خمسين وخمسمائة يقول إن عبد المؤمن أمر بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث أي أنه أمر بتحريق كتب المذاهب الفقهية الأربعة والاكتفاء بكتب الحديث ومعها القرآن طبعاً وهي نفس نظرية المذهب الظاهري ، وفي المعجب يقول الحافظ أبو بكر بن الجذ : « لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب (يوسف) أول دخلة دخلت عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس (في الفقه المالكي) فقال لي : يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء التشعبة التي أحدثت في دين الله ، أرايت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأنها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فاضتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لي - وقطع كلامي : يا أبا بكر : ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه ، أو السيف . » ويذكر صاحب المعجب أن ابنه يعقوب المنصور أمر بحرق كتب المذاهب الأربعة لمالك وأبي حنيفة والشافعي وأبو حنبل بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن ففعل ذلك ، فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونواذر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبرازعي وواضحة ابن حبيب وماجتس هذه الكتب ونما نحوها . ولقد شاهدت - أنا يومئذ بمدينة فاس - يومئذ منها الأحمال فوضع وتطلق فيها النار » وبعلق صاحب المعجب على ذلك بقوله : « كان قصده في الجملة محو مذهب مالك من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث » ويقول ابن خلكان : « إنه أمر

يرفض فروع الفقه كما أمر الفقهاء بأن لا يقتوا إلا بالكتاب والسنة النبوية ولا يقلدوا أحدا من الأئمة المجتهدين القدماء بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم . ولعل فى ذلك كله ما يثبت ثبوتنا قاطعا أن دولة الموحدين كتبت تعمل على نشر المذهب الظاهرى وتأمر العلماء برفض ماعده من المذاهب ، وبحق يقول عبد الرحمن الفاسى فى كتابه بيوتات فاس : « إن ملوك الموحدين قد تخلوا بالمذهب المعروف لهم من إبتكار الرأى فى الفروع الفقهية والعمل شرعا على محض الظاهرية ، وجرؤا على ذلك سنين بطول إيااتهم (حكمهم) إلى أن انقرضوا ، أولم فى ذلك مهديهم (ابن تومرت) أول ملوكهم . وبمجرد أن انتهت دولة الموحدين عاد المذهب المالكى فى المغرب الأقصى إلى النشاط والازدهار حتى اليوم .

٥

الزهد - المتصوفة (أ) الزهاد

المسلمون من قديم - يستشعرون الزهد فى حطام الدنيا ومتاعها الفانى أملا فى السعادة بالدار الآخرة يوم القيامة ، يوم يحاسب كل امرئ على ما قدمت يده ، فإن كان عمله صالحا وازدرى الدنيا وأقبل فيها على الزهد والتقشف كان جزاؤه من ثواب الله موفورا وسعد فى آخرته السعادة الكبرى . وكان ذلك شعار الصحابة فى الفتح ، فهم لا يفتحون البلاد طلبا للمغانم وإنما لإعلاء دين الله ، ودائما نسمع بينهم عن كثير من الأنبياء ، فالآخرة هى التى تهيمهم ، ولم يكونوا زاهدين زهدا متطرفا ينسيهم الدنيا والعمل فيها ، بل كان غالبا زهدا معتدلا يحتد بالمصالح الدنيوية مع الاتجاه إلى الله ، مما جعلهم ينفقون أموالهم فى أعمال البر وعون الفقراء . ونجد هذا الزهد شائعا فى العالم الإسلامى . وقليلًا قليلا أخذ الناس يستشعرون الزهد الخالص ، ويعيشون له منقطعين لعبادة ربهم ، ويمكن أن نجد أمثلة منهم فى جبال المغرب الأقصى الكثيرة حيث يعيشون على ما بها من ماء وثمار . وكان بين فقهاء المدن وأهلها أيضا كثيرون من هؤلاء الصالحاء الزهاد ، ونضرب مثلا لهم القاضى ابن عسود^(١) الموارى وكان من قضاة العدل وأئمة الفضل زاهدا فى الدنيا مقبلا على الله تعالى على قدم التجريد ، ولما مات لم يترك غير سجادة مصلاه وقعب يتوضأ فيه ومصحفه الذى كان يتلو فيه كتاب الله . ونضرب مثلا ثانيا بالتاجر محمد بن إبراهيم المهدوى الفاسى الزاهد صاحب كتاب الهداية الذى أقام بجامع القرويين أربعين سنة لم تفته فيها صلاة جماعة ، وكان يملك أربعين ألف

حرزهم وعثمان السلاوى وبكر . ومن مراجع تراجمهم الثشوف وجذوة الاختلس وسلوة الأنفلس .

(١) انظر فيه وتبين به من الزهاد القرطاس لابن أبى زرع ص ١١٧ ، ١٢٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢-٢٧٣ وفى هاشم القرطاس مع ابن عسود وفى جبل وفى

دينار أنفقها كلها في سبيل الخير ، وأصلبت أهل مدينته : فأس مجاعة وكان عنده ألف ورسق (حمل بعير) من تمر فباعه كله للمحتاجين الضعاف بوئائق وأخرهم بالثمن إلى أجل ، فلما حل الأجل استدعاهم إلى منزله ، فرمى بالوئائق جميعا في الماء ، وقال لهم : أنتم منها الآن في حل ، فأتى ما بعت لكم ولا أعطيتكم إلا مال الله تعالى . ويتعش الزهد في عصر المرابطين ، ونشعر لؤزاء كثيرين من زهاد هذا العصر أنهم كانوا مقدمات لانتشار نزعة التصوف في المغرب الأقصى مثل أبي جبل التوفى سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م وكان كثير السباحة في الأرض . ويتكاثر الزهاد في عصر الموحدين مثل ابن حرزم التوفى سنة ٥٥٩ هـ وأبي عبد الله السلاجي الأصول التوفى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ومثل يسكر الفنجومي التوفى سنة ٥٩٨ هـ وكان ورعا فاضلا ومثل أبي عبد الله المعروف بلبن تخمست التوفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م وكان كثير الورع شديد الانقباض عن الناس . ويكثف كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى التوفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م بكثيرين من الزهاد ، ألفه سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م وهو يشتمل على مائتين وسبع وسبعين ترجمة أكثرهم من أهل مراکش ، غير أنه لم يترك بلدا في المغرب الأقصى إلا ذكر منها رجلا ، ويسميه في مقدمته صلحاء ، وهم في جمهورهم زهاد ونساک المغرب الأقصى حتى زمنه . وحرى بنا أن نذكر أن الشعراء أخذوا يفردون للزهد بابا في دواوينهم على نحو ما نجد عند أبي الريح الموحدي . وكما يفتنا كتاب التشوف على الزهاد في عصر الموحدين نجد عبد الحق بن إسماعيل يؤلف في العهد المريني بأخرة من القرن السابع كتابا عن صلحاء أو زهاد الريف ، وفي الجزء الثاني من كتاب الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاويت تحليل له ، وهو يرمز إلى اطراد الزهد في عصر المرينيين ، وظل مطردا في عصر السعديين ويذكر الأستاذ كون منهم الهبطي الطنجي عبد الله بن محمد التوفى سنة ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م وينقل عن الدوحة أنه كان آية من آيات الله تعالى في الزهد واتباع السنة والانزول عن الدنيا وتعليم العلم ، ومثله ابن خجرو التوفى سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م وظل للزهد رجاله المشهورون في عصر العلويين .

(ب) المصوفة

من قديم أخذ كثيرون من زهاد الأمة وأتقيائها بالغون في نسكهم فاضين على أنفسهم تلاوة القرآن وذكر الله وتسبيحه ، كما فرضوا على أنفسهم المبالغة في التوكل على الله والثقة به ، ثقة تملأ النفس طمأنينة . ومع مرور الزمن أخذ كثيرون من هؤلاء الوائقين المتوكلين يحملون أمور الدنيا ومعاشهم ، فهم لا يهتمون بكسب القوت ، لأن السعي له يفضي إلى فقدان التوكل والثقة في الله ، ومع الزمن أخذوا ينبذون طيبات الدنيا ومباهجها مرددين قول الرسول ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا (جاثمة) وتروح بطانا (متلفة) » . وأخذ هذا التعمق في التوكل والثقة بالله يتحول تدريجا إلى نزعة التصوف ،

ويقال إن مؤسسها هو الحارث بن أسد المحاسبي البغدادي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ/٨٥٧ م ويقال بل مؤسسها الذي أودع فيها فكرة الحب الإلهي ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م . ولم يلبث أن ظهر الخلاج في مطلع القرن الرابع الهجري وظهر معه التصوف الفلسفي وكل ما يتصل به من أفكار الحلول والاتحاد مع الله ، وتظل أفكاره تشيع بين المتصوفة وتكون سببا في القطيعة بين الفقهاء والمتصوفة إذ يرمونهم بالكفر إلى أن ظهر القشيري والغزالي في القرن الخامس الهجري ، وأصلحا ما بين الفتنين ، وانقسم التصوف منذ هذا التاريخ إلى تصوف فلسفي به إشاعات من أفكار الخلاج ، وتصوف سني أخذت تتكون فيه وتشيع طرق صوفية سنية مثل طريقة عبد القادر الجيلاني وأحمد الرفاعي . وأخذت الأندلس تتأثر بالتصوف على نحو ما هو معروف عن ابن مسرة ، وبعده عند ابن برجان وابن العريف ، ثم عند الشاذلي وابن عربي وابن سبعين والشتري على ما نحو ما أوضحنا ذلك في كتابنا عن الأندلس . أما المغرب الأقصى فإما شاع فيه التصوف السني وما يمثل من مثل طريقة أبي الحسن الشاذلي .

وأول ذكر لمتصوفة المغرب نجده عند بعض من ترجموا لنسائه ، وكان جمهورهم - في رأيي - ناسكا يقصرون حياتهم على النسك والعبادة ، ومنهم كما جاء في كتاب النبوغ المغربي ابن حرزم على بن إسماعيل المذكور بين الزهاد . وقد تعلم على يديه أبو مدين الصوفي المشهور وقرأ عليه كتاب الرعاية للمحاسبي . ونظن أنه كان عبدا ناسكا فحسب ، إذ يقول مترجمو أبي مدين أنه أخذ التصوف عن أبي عبد الله الدقاق الصوفي لا عنه . ومنهم أبو العباس السبتي المتوفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م ، وكان لا يترك لنفسه شيئا إلا قدر ما يقوته هو وأسرته في يومه والباقي يتصدق به ، وكان ناسكا وزده القرآن يتلوه آتاء الليل وأطراف النهار ، وكان باراً باليتامى والمساكين . وهى حياة زاهد فى رأى لا صوفى . ومثله عبد السلام بن مشيش الحسنى وكان تقيا صالحا عالما ، وسأله سائل عن أوراد يعمل بها ظانا أن له وردا مثل الصوفية ، فقال مستكبرا أرسول أنا ؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظا وللمعاصى رافضا واحفظ نفسك من ابتغاء الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإثارة الشهوات واقنع بما قسم الله لك ، وهى إجابة زاهد لا صوفى ، وإن كان قد درس على يده الشاذلي صاحب الطريقة الصوفية المشهورة . ومثله أبو الحسن المسفر معاصره وإن كان قد ذكر ابن عربي أنه لقيه فى كتابه « محاضرات الأبرار » لأن مجرد لقاء ابن عربي له لا يدل حتما على أنه صوفى ، إنما هو ناسك . وربما كان الصوفى الحقيقى فى عصر الموحدين يلتزم بين ميون أبو يعزى^(١) المتوفى سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م عن مائة وثلاثين سنة ، أمضى منها عشرين سنة سائحا فى الجبال بمنطقة مراکش ، ثم رحل إلى ساحل المحيط فأقام به ثمانى عشرة سنة لا يأكل إلا من نبات

(١) انظر فى أبى يعزى روض القرطاس ص ٢٦٧ وجذوة الاقباس لابن القاضى ص ٣٥٤ .

الأرض . ولما ترجع أنه كان صوفيا لأن مترجمي نبي مدين الصوفي المشهور يقولون إنه سلك الطريقة الصوفية على شيخ المشايخ نبي يزى إلى أن وصل وحقق وأدرك ، ومن الصوفيين المشهورين في عصر المرينيين الشيخ زروق^(١) التوفى سنة ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٤ م وله نحو عشرين مؤلفا في التصوف منها قواعد التصوف وعدة للريد وعلى شاكلته أحمد الصومعي في عصر السعديين وله في نبي يزى كتاب بعنوان : المعزا في مناقب الشيخ نبي يزى وعدة مؤلفات أخرى في التصوف .

ونحن لا نصل إلى القرن التاسع الهجري في التصوف حتى يصيبه في المغرب الأقصى ما أصابه في البلاد الإسلامية الأخرى من كثرة المدعين الجهلاء له ، وزعمهم أنه لا يحتاج إلى دراسة إذ تكفي فيه المعرفة الروحية الربية ، وتخلي كثيرون منهم عن فروض الإسلام ونوافله ، فحسبهم عبارات والشعائر التي يأخذونها عن شيوخهم ، وأباحوا لأنفسهم كل التبع مقمين لأنفسهم حفلات ذكر يتواجدون فيها وقد يشقون ثيابهم ويمزقونها بتأثير ما يسمعون من أغاني على الذكر تصور الوجد المتأخ . وكان الناس يكبرونهم إذ يزعمون لهم أن بينهم القطب الذي اختاره الله ، كما يزعمون أن بينهم أربعين واصلين مثله يسمونهم الأوتاد ، وإذا مات القطب حل أحد الأوتاد محله . وما زاد في خروج الصوفية عن الجادة وتجاوزهم لحدود الشرع انتشار مذهب الملامية^(٢) الإبرتي بينهم وهو مذهب كان معتنقه يصنعون كل ما يوجب اللوم لهم مما يمدحهم ومخجلا لأقصى درجة ، إذ يرون أن يشتهروا بين الناس أنهم لا يؤدون شعائر الدين وفروضه ، وإن أدوها فعلا ، كما يريدون أن يقتنعوهم بأنهم لا يتسكعون بنواحيه ، حتى يذمهم الناس أشنع ذم ، وحتى يحتقروهم إلى أقصى حد ، وهم بذلك ملامية أي أهل الملامة ، تأخذ بهم من كل وجه ، ولذلك حاربت الدولة العثمانية هذه الجماعة بالجزائر في عهد الدولة السعدية أشد حرب حتى كادوا يقضون عليها . وللنصور الذهبي رسالة إلى السلطان مرادخان العثماني يهتبه بالقضاء على تلك الفئة ، وحاربها هو في المغرب الأقصى ومن خلفوه من السعديين ولكن يظهر أنهم لم يستطيعوا القضاء عليها قضاء مريما .

على كل حال كان انتشار مذهب الملامية في المغرب الأقصى من أسباب انحراف التصوف والصوفية ، مما جعل كثيرين من العلماء يذمون ما آل إليه من تخطي الشريعة والخلق الحميد ، ويدعون إلى محاربة البدع التي شاعت فيه ، ويدعو إلى ذلك بعض الصوفية والنايك التمسكين بأوامر الدين ونواحيه مثل المبطي الطنجي المار ذكره فإن له ألفية بناها على النصح والإرشاد وحمل فيها حملة شديدة على متصوفة عصره وما يرتكبون من المنكرات .

المغرب الأقصى ٦٩٠/٣ وما بعدها وراجع تاريخ الأدب العربي في إيران بالجزء الخامس من هذه السلسلة ص ٥١٧ ..

(١) راجع في الشيخ زروق كتاب النور الغربي ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٢) انظر في الملامية كتاب الوافي بالأدب العربي في

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية

(أ) فأتى ناشرون للإسلام ومعلمون

مرُّبنا - فى الحديث عن الثقافة بالجزائر - أن فتوح العرب للمغرب حوَّكته بعد قرن واحد إلى شعب عربى ، وقد نزل الفينيقيون دياره وظلوا به نحو ستة قرون أو تزيد ، ولم يستطيعوا تحويله إلى لغتهم وحضارتهم ، وبالمثل ظل به الرومان ستة قرون أخرى - وخلفهم البيزنطيون نحو قرن - ولم يستطيعوا أن يحولوه إلى لغتهم ودينهم المسيحى وحضارتهم . وكُنْما كانت هناك معجزة هيأت للمغرب - مهما اختلفت أقطاره وتباينت - هذا التحول إلى العرب والعروبة ، وليست المعجزة إلا أن العرب الفاتحين لم يكونوا يفتنون النهب والسلب لخيرات الأرض المفتوحة ، إنما كانوا يفتنون نشر الدين الحنيف ، مما جعل جماهيرهم تستجيب إلى معلمين يحفظون المغاربة بعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض مبادئ العربية وبعض تعاليم الإسلام . ومن تمام هذه المعجزة أن المغاربة وجدوا هذا الدين السَّحى بين حلتى الفاتحين وبين الشعوب المفتوحة ، فلا سيد ولا مسود ولا استنزاف لخيرات البلاد ، والجميع عربا وبربرا متساوون فى الحقوق والواجبات فأخذوا يدخلون فيه أفواجا : فوجا ورله فوج .

وكان هذا الدين الحنيف يدعو بقوة إلى العلم والتعليم ، "ومعروف أن أول ما أنزل منه على الرسول ﷺ : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فالدعوة إلى العلم والتعليم تقترن بأول ما نزل من الذكر الحكيم . ويشيد القرآن بالعلم والعلماء مرارا فى مثل : ﴿وقل رب زدنى علما﴾ ومثل : ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ . ولنفك لا نعجب إذا رأينا الفاتحين فى الأقطار المغربية يتحولون إلى معلمين للشعوب البربرية ، يعلمونها مبادئ الإسلام والعربية ، ويتجرد منهم كثيرون للجلوس فى غرف ملحقة بالمساجد أو فى المساجد نفسها لتعليم القرآن وسموها الكتاتيب ، وكثرتا يلقون عليهم فيها بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار .

وأخذ كثيرون يتجردون لإلقاء المواعظ فى المساجد وتفسير بعض السور والآيات الكريمة وذكر بعض الأحاديث النبوية مع شيء من التعليق عليها وبعض الأحكام الفقهية . وبذلك نشأ

التعليم في الأقطار المغربية - مثل بقية الأقطار العربية - معتمدا على الكتابات لتعليم الناشئة وعلى المساجد ليتلقى فيه من يكبرونهم دروساً في التفسير والحديث والفقه والعربية ، وتمضى هاتان الصورتان من التعليم ، حتى إذا كنا في القرن الخامس أخذت تنضم إلى الكتابات والمساجد مؤسسة جديدة هي المدارس والمعاهد ، ويتنافس معلموها أو شيوخها وشيوخ المساجد ، مما أثرى الحركة العلمية ، حتى إذا كنا في القرن الثامن المجرى أخذت تظهر مؤسسة ينافس شيوخها شيوخ المدارس والمساجد ، وهي مؤسسة الزوايا ، وحرى أن نخص كل دار من هذه الدور العلمية بكلمة .

(ب) دور العلم : الكتابات - المساجد - المدارس - الزوايا - المكاتب

الكتابات

انتشرت الكتابات - منذ القرن الأول المجرى - في كل بلد وقرية كبيرة أو صغيرة في الوديان وعلى سفوح الجبال ، ويقول ابن خلدون بمقدمته في الفصل الخاص بتعليم الناشئة في الكتابات : « إن هذا التعليم شعار من شعائر الدين أخذ به المسلمون ودرجوا عليه في جميع أمصارهم ، لما يسقى فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده عن طريق آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات » . ثم يقول : « إن مذهب أهل المغرب (الأقصى) الاختصار على تعليم القرآن فقط وأخذ الناشئة في أثناء دراسته يرسم ألفاظه ، ويقول إتهم لا يخلطون ذلك بتعليم شيء من حديث أو فقه أو شعر حتى تجاوز الناشئة حد البلوغ إلى الشبية (الشباب) ، بخلاف أهل إفريقية التونسية فإنهم يخلطون في تعليمهم للناشئة القرآن بالحديث في الغالب ومدارسه قوائم العلوم وتلقين بعض مسائلها .

فالكتابات في المغرب الأقصى إذن لم تكن تعنى بشيء سوى تحفيظ القرآن وتعليم رسم الآيات وما يتصل بذلك من الخط ، ويقول الحسن الوزان في حديثه عن الكتابات بفاس إن بها مائتي كتاب ، ويشتمل كل كتاب على قاعة كبيرة مع درجات تستخدم كمقاعد للأطفال ، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة لا في كتاب معين ، وإنما يستعين بألواح خشب كبيرة تكتب عليها الناشئة ما تحفظه من الآيات . ويختم الناشئة القرآن في نحو سبع سنوات ، ويعلمه المعلم الخط ، وحينما يصل إلى إجابة جزء لا بأس به من القرآن يقدم أبوه هدية لمعلمه ، وحينما يختمه يصنع أبوه وليمة فاخرة لكل زملائه في الكتاب ، ويقدم لمعلمه كسوة جديدة . ويقول الوزان إن للناشئة - مثل طلاب المعاهد - يومين في الأسبوع للراحة لا يختلفون فيها إلى الكتابات .

ويذكر الأستاذ كتون - كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع - أن المرأة المغربية هي التي كانت تقوم في ميدان التعليم الأولى بتعليم الناشئة ذكورا وإناثا ، وأنه لم يكن يخلو حَتَّى من دار معلمة وتسمى فقيهة ، ويذكر الحسن الوزان عن مدينة في إقليم نوميديا أن النساء فيها هن اللاتي يعلمن الأولاد ذكورا وإناثا حتى سن الثالثة عشرة ، ويبدو أن ذلك كان سنة متبعة في المغرب الأقصى جميعه من قديم .

المساجد

كانت الناشئة حين تنجز حفظها للقرآن الكريم تنجه إلى حلقات الشيوخ في المساجد لتلتقى ما يُلقى بها من تفسير للذكر الحكيم ورواية للحديث النبوي وتعاليم للشرعية ودراسات للعلمية وتاريخ للرسول والأمة العربية . وكان القائمون على الدروس في هذه الموضوعات يختلفون ، فمنهم من يعطى مبادئ في هذه الدراسات ، ومنهم من يعطى دروسا متعمقة لمن تفقوا المبادئ واستوعبوا وخاصة في الجوامع الكبيرة بكل بلدة . وكانت هذه الجوامع تعد مراكز الإشعاع الفكرى في كل مكان ، ونلتقى بها في كل بلدان المغرب الأقصى الكبرى مثل سبتة وطنجة وأصيلا وتازة وسجلماسة . ويذكر الحسن الوزان أن في فاس ستمائة مسجد منها خمسون كبيرة جميلة البنيان مزودة بالأعمدة والفسيفساء والخشب المنقوش مع تليطها بالرخام أو ما يشبهه من المورقى .

وفصل الحسن الوزان الحديث عن جامع القرويين بفاس الذى بُنى في عهد الدولة الإدريسية سنة ٢٤٥ هـ / ٨٦٠ م ويُعدّ أقدم جامعة علمية في العالم العربى . وعلى نحو ما أحدث الأزهر في القاهرة من نهضة علمية في مختلف العصور كذلك أحدث جامع القرويين نهضة مماثلة لا في فاس وحدها بل في المغرب الأقصى جميعه . ويذكر الوزان أن محيط هذا الجامع يبلغ ميلا ونصفا وأن له واحدا وثلاثين بابا كبيرا عاليا ومنارته عالية جدا ويوقد فيه كل ليلة ستمائة سراج ، وعلى طول الجدران كراسى من مختلف الأنواع ، يلقى منها طائفة من الأساتذة على الشعب محاضرات روحية في أمور دينه وشريعته . وكانت تبدأ هذه المحاضرات بعد صلاة الصبح وتنتهى بعد شروق الشمس بساعة . وقد أُلّف الدكتور عبد الهادى التازى عن هذا الجامع موسوعة كبيرة تحدث فيها بالتفصيل عن جوانبه المعمارية والثقافية ومكانته في العلم والفكر المغربيين في مختلف الأزمنة . وعلى نحو ما ذكر الحسن الوزان من تفصيلات عن جامع القرويين دون تفصيلات مماثلة عن جامع على بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين بمراكش وقد هدمه عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين وشيّد مكانه جامعا آملا أن يشجع عليه اسمه محل اسم على بن يوسف ولكن الناس ظلوا يسمونه باسمه القديم ، وبنى عبد المؤمن جامعا بجوار قصبة مراكش ، وقد اعتنى به حفيده يعقوب وزينه بأعمدة جلبها من الأندلس ، وشيّد له منارة في متهى

الروعة كمثارة الخير الدا التي شيدها في جامع إشبيلية ، وترى زوجته بعد أن شيدها أن تبيع حليها الذهبية الخاصة وما تملك من أحجار كريمة وكل ما قدمه لها زوجها عند اقترانه بها ، وتأمر - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - أن يصنع بشئها جميعا ثلاث تفاحات ذهبية تملو قمة المنارة ليكتمل رونقها . وطبيعي أن تزدهر الدراسات الدينية واللغوية بهذين الجامعين في عصر الموحدين وبعدهم وأن ينافسوا جامع القرويين في الحركة العلمية ، وتنافسهم مهمما الجوامع الكبرى في سجلامة وتارودنت ومكناس وتازة وستة وطنجة وأصيلا وسلا . وكانت لهذه الجوامع أوقاف تدر عليها ما يفي بالنفقة على شيوخها وتلاميذها .

المدارس

معروف أن أول من أشاع نظام المدارس في المشرق نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ) إذ شيد طائفة منها في بلدان مختلفة بالعراق وإيران ، ووقف على كل مدرسة أوقافا كثيرة تفي بنفقات أساتذتها وطلابها ومكباتها وعيّن في كل مدرسة أساتذة في مختلف العلوم الدينية واللغوية والرياضية وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تسمى بالنظامية ، وأشهرها نظامية بغداد ، وقد زارها ابن بطوطة سنة ٧٢٧ ووصف ما بها من الحياة العلمية . وطارت شهرة هذه المدارس النظامية في العالم الإسلامي منذ تأسيسها ، ونرى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطون الحصيف (٤٥٣ - ٥٠٠ هـ) يؤسس بمدينة فاس مدرسة عُرفت - كما يقول الأستاذ كون في النبوغ المغربي - باسم مدرسة الصلبرين .

ونظن ظنا أنه لا بد أن شيد مدرسة ثابتة في عاصمته مراكش . فإذا تحولنا إلى عصر الموحدين وجدنا الأستاذ المنوني يذكر في كتابه : « حضارة الموحدين » : أن عبد المؤمن مؤسس الدولة أسس في مراكش مدارس ، منها مدرسة لإعداد الموظفين في الدولة ، ومدرسة خاصة بتعليم أمراء الموحدين ، وأسّس مدرسة بالرباط لتعليم فن الملاحة ، وعنى حفيده يعقوب الموحدي بتأسيس المدارس لا في المغرب الأقصى فحسب ، بل أيضا في إفريقيا التونسية والأندلس . ويتحدث الحسن الوزان عن مدرسة شيدت في عهد الموحدين - ولعلها شيدت في عهد يعقوب - بقصبة مراكش ويقول إنها أشبه بمؤسسة ، إذ يلحق بها مساكن للطلاب ، وفي رأي أنه كان بها مساكن أيضا للأساتذة . ويقول إنها تشتمل على ثلاثين غرفة وفي الطابق الأرضي قاعة كانت تلقى فيها الدروس في الماضي ، وكان التلميذ في هذه المدرسة يُعفى من المصاريف ، ويُعطى كسوة ، وكان الأساتذة يتقاضون راتبًا شهريًا فيها بين مائة ومائتي دينار حسب طبيعة الدروس التي يقومون بها . ويذكر أن مبنى المدرسة كان مزينا بالفسيفساء البديعة وزخارف متنوعة . ويقول الوزان إنه كان بها في الماضي عدد كبير من الطلاب ، وقلّوا الآن أي في القرن العاشر الهجري قلّة شديدة ، ويقول في القصبة قصر مزخرف كان مدرسة لأبناء الخليفة

ولبناء أسرته . وبأخرة من عهد هذه الدولة نجد المحدث الكبير أبا الحسن الشاذلي السبتي التوفى
فى سنة ٦٤٩ يشيد مدرسة بسبته ويقف عليها من خيار أملاكه وعقاراته ما ينفى بالإفاق
عليها ، ويلحق بها مكتبة نفيسة .

واتسع تشيد المدارس وتأسيسها فى عهد الدولة المرينية ، ويقول ابن مرزوق فى كتابه عن
السلطان أبى الحسن المرينى المسمى بالمسند الصحيح أن السلطان عثمان أبى سعيد والد أبى
الحسن أنشأ بفاس مدرستى العطارين والمدينة البيضاء الملحقة بفاس وأن أبى الحسن ابنه أنشأ
مدرسة الصهرج فى الشطر الأندلسى ومدرسة داخل جامع القرويين فى الشطر المقابل وتعرف
باسم مدرسة مصباح أول أساتذتها ، وأنشأ مدرسة ثالثة فى الوادى كما أنشأ فى كل بلد من
بلدان المغرب الأقصى وما تبعه من بلدان المغرب الأوسط (الجزائر) مدرسة : فى مكناس
وتازة وسبته وأتفة وأزمور وأسفى وأغمات ومراكش ووقف عليها أوقافا كثيرة وألحق بها
مكتبات نفيسة . ويقول الحسن الوزان بأخرة من عهد المرينيين إن فى فاس وحدها إحدى
عشرة مدرسة ، وقد تحوى المدرسة مائة غرفة أو أكثر ، ولجميع الأساتذة رواتب ممتازة ،
ويذكر أن بمكناس ثلاث مدارس وكذلك بتازة ، ويذكر طريقة التعليم فى تلك المدارس
لهده ، فيقول إن الأستاذ يكلف تلميذا فى بدء الدرس بقراءة النص ، ثم يأخذ فى تفسيره
وبيان دلالات كلمه مضيئا إليه بعض آرائه مع بيان ما يوجه إلى النص من اعتراضات ، ويتحاور
الطلاب ويتناقشون فى معنى النص ودلالاته ، ويشارك الأستاذ معهم فى المناقشة والحوار .
وواضح أنه لم يته العصر المرينى إلا وكان المغرب الأقصى فى أواخر هذا العصر قد اكتظ
بالمدارس وبما تخرج من شباب العلماء فى كل فن وعلم ، ولعل هذا ما جعل المؤرخين لا يبنون
بالحديث عما أنشأ السعديون والعلويون فيما بعد من مدارس إذ كانت سنة أوفريضة متبعة .

الزوايا

لم يكن المغرب الأقصى يعرف الزوايا المتعلقة بالمصوفة والنسك قبل القرن السابع الهجرى
إذ كان يطلق عليها اسم أربطة جمع رباط مثل رباط عبدالله بن ياسين الذى تنسك فيه مع
بعض رفاقه كما مر . فى حديثنا عن قيام دولة المرابطيين . وربما كانت أول زاوية عرفها المغرب
الأقصى زاوية أبى محمد صالح التى أقيمت فى منتصف القرن السابع الهجرى بمدينة آسفى على
المحيط : ويقال بل كانت تسمى رباطا وأن الزوايا إنما أخذت تعرف بالمغرب الأقصى فى القرن
الثامن الهجرى على نحو ما يذكر ذلك ابن مرزوق فى كتابه عن السلطان المرينى أبى الحسن
وتأسيسه الزوايا ، ومع ذلك لم يذكر له زاوية أنشأها ، وذكر زاوية أبى زكريا يحيى بن عمر
بـسلا .

وفى كتاب الشعر الدلائلى للسيد عبد الجواد السقاط زاوية أسست بدعوة فى القرن الثامن

المجربى باسم زاوية سيد الناس محمد رحمته . وأخذت الزوايا تتكاثر فى المغرب الأقصى منذ القرن العاشر المجربى حينما ضعفت الدولة المرينية وأخذ البرتغاليون والإسبان يستولون على أطراف المغرب الأقصى على المحيط والبحر المتوسط وكثمتا المغاربة يسوا من الدولة وحكامها ، فأخذوا يلتفون حول شيوخ المتصوفة أملىن أن يجدوا بينهم من يصلح أحوال البلاد ومن يحسن قيادتهم ضد أعدائهم الخاسين ، وأسهموا بقوة فى بناء الزوايا بكل بلدة ، وكانت الزاوية تضم الشيخ ومريديه ، وأخذت سريعا لا تقتصر على مكان للعبادة بل أصبحت أشبه بمسجد وتضم إليها مباني لسكنى شيخها أو شيوخها ومريديهم . وأيضا فتها لم تعد مكانا للنسك فحسب بل أصبحت مكانا للتعليم ومدرسة يخرج فيها كثيرون ، وكانت تلقى بها خطب حماسية لإلهاب حية الشباب فى مقاومة الأعداء المحتلين للديار والانقراض عليهم والعصف بهم حتى لا تبقى منهم باقية ، ومربنا مدى جهاد هذه الزوايا وأصحابها فى طرد المحتلين والتكليف بهم ، وطبيعى أن يُعَدَّ فى كل زاوية طعام لمن بها ولقصاصها . وعُدَّ الأستاذ عبد الجواد السقاط فى مقدماته للزاوية الدلائية أربعين زاوية منتشرة فى بلدان المغرب الأقصى وصحاريه ، وفى رأينا أنها تزيد عن ذلك كثيرا . وتحول بعضها إلى ما يشبه مؤسسة كبيرة ، بل مدينة تامة على نحو ما يلقانا فى الزاوية الدلائية وقد أفرد الأستاذ السقاط مجلدا كبيرا للحديث عن الحركة الشعرية بها وقدم لها بمقدمة عن تاريخها والجوانب الثقافية إذ كانت تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل وكثمتا جامعة صغرى مما يدل بوضوح على إسهام الزوايا بالمغرب الأقصى فى الحركة العلمية بجانب العناية بالأدب والشعر .

المكتبات

لا ريب فى أن المكتبات تعد أعظم المؤسسات العلمية ، إذ تحمل التراث العلمى والأدبى جميعه للأمة وتفتح أبوابها يوميا وتقدم كنوزها لطلاب العلم والأدب وشيوخها ، ولن أستطيع تصوير أهميتها فى سطور معدودة ومعروف أنه كان بكل جامع فى كل بلد مكتبة ، وقد أحصى الدكتور محمد حجي فى كتابه : الحركة الفكرية فى المغرب لعهد السعدين اثنتى عشرة مكتبة عامة بفاس منها اثنتان إحداهما مكتبة القرويين المليئة بالنفائس والكنوز من مثل تاريخ ابن خلدون بخطه ، وعُدَّ بمرآكش أربع مكتبات وزاوية الدلاء مكتبة وبالمثل فى بعض المدن الكبرى . وعُدَّ من المكتبات الخاصة خمس عشرة مكتبة ، منها مكتبة آل الفريدس بفاس استعان بها فقيه الجزائر الكبير أحمد بن يحيى الونشريسي التوفى سنة ٩١٤ فى تأليف موسوعة الفقهية الكبرى : « المعيار » المنشورة فى ستة مجلدات . وكان قد أورثهم جدّهم فى القرن الرابع المجربى بكار بن عيسى الفرديسى شرقا عظيما إذ كان أول من حل صحيح البخارى إلى المغرب الأقصى وعنه حمله كثيرون .

تأخذ الحركة العلمية بالنمو فى المغرب الأقصى منذ قامت الدولة الإدريسية ، فإنه نزل بفاس فى عهد إدريس الثانى كثيرون من أهل الأندلس الذين قادوا الثورة ضد الحكم الرضى ويقال إليهم كاترو نحو أربعمائة أسرة وكان بينهم كثيرون من الفقهاء ، إذ كانوا هم أصل تلك الثورة ، وشغلوا شطرا من فاس سمي بالعدوة الأندلسية ، وسرعان ما أخذ فقهاء الجامع يلقون فيه دروسهم منذ أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث للهجرة ، حتى إذا كنا فى منتصف هذا القرن وبنت السيدة الجليلة فاطمة أم البنين الفهرية جامع القرويين فى عدوة فاس المغربية المقابلة لأخذ شيوخ الجامعين يتنافسون فى تعليم الشباب الفاسى ، ويظل لهذا النشاط العلمى آثاره فى المغرب الأقصى بعد القضاء على الدولة الإدريسية بفاس فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ويعود هذا النشاط بقوة فى عهد المرابطين الذين قاموا بإنفاذ المغرب الأقصى مما كان فيه من فئات ضالة كبقايا الصفرية فى سجلماسة وبعض الأغناء والمعتزلة فى البصرة والشمال الغربى وكالبرغواطية فى تامسة وكالجلية الشيعية الروافض فى تروندت بالسوس وبذلك وحدوا المغرب الأقصى وأخذوا يردونه إلى أحضان السنة باعثن فيه حركة علمية ناشطة ، وما إن توافى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وحتى ينزل أمير المرابطين يوسف بن تاشفين على رأس جيش ديار الأندلس ويهزم ألفونس أمير قشتالة ونصارى الإسبان وأوربا معه هزيمة ساحقة فى الزلاقة ، ويضم الأندلس إلى دولته المغربية . ومن حينئذ تنمو الحركة العلمية فى المغرب الأقصى نموا واسعا ، إذ أخذت تلتحم تدريجا بالحركة العلمية الأندلسية ، فقد أخذ علماء الأندلس يقدون عليه ، كما أخذ طلابه وعلماءه يقدون على الأندلس ، وكان يوسف بن تاشفين بعيد النظر ، فعمل على جلب علماء الأندلس إلى عاصمته مراكش حتى ليقول صاحب المعجب : « انقطع إليه من جزيرة الأندلس من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه على (٥٠١ هـ / ١١٠٨ م - ٥٣٧ هـ / ١١٤٣ م) من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار » وفى موضع آخر يقول : « لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك » .

ومنذ هذا التاريخ يصبح المغرب الأقصى والأندلس دار علم وأدب واحدة ، وكثير من العلماء والأدباء فى القطرين قضوا شطرا من حياتهم فى وطنهم والشرط الآخر فى الوطن الثانى . وتنبه إلى ذلك مؤلفو كتب التراجم كما سنرى عما قليل . ويتحول الحكم إلى الموحدى ، ويقول صاحب المعجب عن عبد المؤمن المؤسس الحقيقى لدولتهم : « كان مؤثرا لأهل العلم محبا لهم محسنا إليهم يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم

الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم . واتخذ - حسب تعليمات أستاذه ابن تومرت - عشرة مع خمسين من الأسيخ بينهم رؤساء القبائل وطائفة كبيرة من الدعاة كانوا يسمون باسم الطلبة ، وكانوا يمدّون للدعوة إعداداً علمياً . ويقول صاحب المعجب عن ابن يوسف سلطان الموحدين إنه كان يحفظ أحد الصحيحين - الشك منه كما يقول - إما البخارى وإما مسلم .. مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة فى علم الأدب واتساع فى حفظ اللغة وتبحر فى علم النحو ، وتعلم الفلسفة وجمع كثيراً من أجزائها وكتبها واجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر الأموى ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجمع للملك قبله من ملك المغرب ، وكان ممن صحبه من العلماء الثقلين أبو بكر محمد بن طليل أحد فلاسفة المسلمين ، ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبّه عليهم ويحضه على إكرامهم ، وهو الذى نبهه على أبى الوليد بن رشد . وفى أيام ابنه يعقوب بلغت دعوة الموحدين ضد أصحاب المذاهب الأربعة الذروة إذ أمر بإحراق كتب الفروع عامة سواء للملكية أو الحنفية أو الشافعية أو الحنبلية ، وكان قصده محو مذهب مالك وحلّ الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده ، وأمر المحدثين بجمع أحاديث من كتب الصحاح الستة وسنن الزيار ولحنى شيعة والدارقطنى والبيهقى فى الصلاة وما يتعلق بها ، وكان يملأه بنفسه على الطلبة ويأخذهم بحفظه . ولابد أن نذكر ما أسلفناه من أنه تم فى عهد الموحدين الامتزاز العلمى والأدبى بين القطرین المغربى والأندلسى حتى لرى كتاب التراجع الأندلسيين حين يؤلفون كتاباً يمزجون فيه بين علماء القطرین إذ يجعلونه لهما جميعاً على نحو ما يلاحظ فى كتاب الصلاة لابن بشكوال التوفى سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م وكانت عناية المرينيين بالعلم وأهل الأدب لا تقل عن عناية الموحدين ومر بنا ما حكاه ابن مرزوق والوزان عن عنايتهم بتشييد المدارس وفرض الرواتب فيها للأساتذة والإنفاق على الطلاب وكسوتهم ، ويطلق الوزان الوصف لمعهد بناء السلطان المرينى أبو عنان (٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م - ٧٥٨ هـ / ١٣٥٨ م) ويذكر أن فيه ثلاثة أروقة مسقوفة تتحلّ بجمال لا يتصوره عقل ، والأعمدة منقطة بألوان متباينة والقناطر بين الأعمدة مكسوة بالفسيفساء والذهب الحاشى وباللازورد ، والسقف من خشب مجرّع ، ويختتم وصفه الطويل للمدرسة بأن نفقاتها ارتفعت إلى أربعمائة وثمانين ألف دينار .

ومنذ أوائل هذه الدولة يشعر المغاربة بتعمق أنهم والأندلسيين الذين هاجروا إليهم بعد سقوط مدنهم الكبرى فى حجر الإسبان إخوة تجمعهم لوائح كثيرة ، بل لقد كان هذا الشعور يجمعهم منذ عصر دولة المرابطين غير أنه لزداد عمقا بكثرة من هاجر إليهم من إخوانهم الأندلسيين فى القرن السابع الهجرى ، وهو ما جعل المغربى من أمثال محمد بن عبد الملك

المراكشي حين يؤلف كتابه الذيل والتكملة لكلي الموصول والصلة يجمعه قسمة بين الأندلسيين والمغاربة ، وللأندلسيين الشطر الأكبر . وأخذت تسع الهجرة من الأندلس ، حتى إذا كانت سنة ٨٩٧ هـ سقطت غرناطة بدأت هجرة أندلسية كبرى إلى مدن المغرب الأقصى . وتلتها الهجرة أيام فيليب الثالث حين أمر سنة ١٥١٨ هـ / ١٦٠٩ م بطرد الموريسكيين من جزيرة الأندلس . وكان لهذه الهجرات الأندلسية الجماعية في أواخر أيام المرينيين وزمن السعديين أثر بعيد في نمو الحركة العلمية بالمغرب الأقصى ، ولذلك نرى خطأ كبيرا في قياس المغرب الأقصى على بلدان الدولة العثمانية في المشرق العربي وجمود الحركة العلمية بتلك البلدان لأن فوارق كانت تفرق بين المغرب الأقصى وبينها ، أهمها ما ظل ينزله من جموع الأندلسيين بعد سقوط غرناطة على مدى سنوات طويلة متعاقبة . وينوه ابن القاضي في كتابه عن المنصور الذهبي السعدي (٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م - ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م) بشغفه الشديد بالعلوم على اختلافها ورعايته للعلماء والأدباء . وينوه الأستاذ عبد الله كنون في الجزء الأول من كتابه النبوغ المغربي بالخلفاء العلويين : الرشيد (١٠٧٥ هـ / ١٦٦٤ م - ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٢ م) وإسماعيل (١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) ومحمد بن عبد الله (١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م - ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م) ونهضتهم العلمية بالمغرب الأقصى . وفي كل ما قدمناه ما يدل - بوضوح - على أن الحركة العلمية المغربية كانت دائما بأعين الحكام المغاربة ، فهم يتعهدونها ويقدمون لها كل ما يستطيعون من عون مادي ومعنوي .

٢

علوم الأوائل

ليس بين أيدينا معلومات واضحة عن علوم الأوائل ونشاط علماء المغرب الأقصى فيها زمن المرابطين إلا ما ذكر من أن بعض الأطباء الأندلسيين نزلوا مراکش لرعاية يوسف بن تاشفين وابنه على رعاية طبية ، ومنهم أبو العلاء^(١) بن عبد الملك بن زهر ، وله في الطب تصنيفات متعددة وقد أمر السلطان علي بن يوسف حين توفي سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م بجمع كبة الطبية ونسخها في السنة التالية لوفاة ، ومن أهمها كتاب التذكرة ونشره جبريل كولان بالبرية والفرنسية في باريس سنة ١٩١١ للميلاد ، ونظن ظنا أن بعض المغاربة تتلمذ عليه حين نزوله في مراکش وربما تبعه إلى بلدته إشبيلية ليكمل تعلمه عليه .

ولا يلبث الموحدون أن يستولوا من المرابطين على صولجان الحكم وتزدهر علوم الأوائل

(١) نظر فيه كتابنا عن الأندلس ص ٧٩ .

فى عهدهم ، مما يدل على أن المغاربة كانوا قد أخذوا يدرسونها منذ عهد المرابطون ، وقاد حركة ازدهار هذه العلوم فى المغرب الأقصى يوسف^(١) بن عبد المؤمن الموحدى (٥٥٨هـ/١١٦٢م - ٥٨٠هـ/١١٨٥م) ، إذ تعلم الفلسفة منذ أن كان حاكماً لإشبيلية فى عهد أبيه عبد المؤمن ، واصطفى لنفسه حينذاك طييه الفيلسوف ثابا بكر بن طفيل واصطحبه معه إلى مراكش حين استولى على صولجان الحكم ، وكان لا يكاد يفارقه ، ورغبه فى جمع كتب الفلسفة فاجتمع له منها - كما يقول صاحب المعجب - ما يقرب مما جمعه الخليفة الأموى المستنصر (٣٥٠هـ/ ٩٦١م - ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) فى الأندلس ، وكانت مكتبته تعد أغنى مكتبة فى زمانه تحوى كتب الفلسفة . وكما كان ابن طفيل يجلب إليه الكتب الفلسفية وما يتصل بها من علوم الأوائل كان يجلب إليه العلماء من جميع الأنظار ويُنهيه عليهم - كما يقول صاحب المعجب - ويحضره على إكرامهم والتوجيه بهم ، وله فى الفلسفة والطب والفلك كتب مختلفة . وشكا إليه يوسف قلق عبارات أرسطو فى كُتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص وسأله أن يقوم بذلك فاعتذر بعلومه سنه ، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد- وكان قاضى إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن ينهض بهذا العمل ، فنهض به على خير صورة ممكنة ، إذ وضع شروحا مطولة ومتوسطة ومختصرة لكثير من مؤلفات أرسطو .

وكل هذه الشروح تُرجمت إلى اللاتينية وترجمت معها مؤلفاته الفلسفية مثل تهافت التهافت الذى ردّ فيه على تهافت الفلاسفة للنزول ، والكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال . وأخذت كُتبه تدرس فى الجامعات الأوروبية منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، ولولاها لما فهم الغرب فلسفة أرسطو بالإضافة إلى ما كان لمؤلفيه الآخرين من أثر عميق فى حركة التحرر الدينى الأوروبى . وهى يدّ لابن رشد لا على الفكر الأوروبى وحده بل على الفكر العالمى جميعه .

وكل آثار ابن رشد وابن طفيل وغيرهما من فلاسفة الأندلس مثل ابن باجة أستاذ ابن طفيل أحدثت فى المغرب الأقصى نهضة علمية فى مختلف علوم الأوائل وخاصة فى الرياضيات التى شغف بها المغاربة ، وفى مقدمتهم عبدالله بن محمد بن حجاج المشهور باسم ابن الياسمين^(٢) المتوفى سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٥م وله منظومة فى الجبر والمقابلة وأخرى فى أعمال الجذور ، وكان يعاصره على بن محمد بن فرّجون القيسى القرطبى نزيل فاس المتوفى مثله سنة ٦٠١هـ وله كتاب^(٣) لباب اللباب فى بيان مسائل الحساب . وتدل القصور المختلفة التى بناها المنصور

(١) انظر فى يوسف وأخباره مع ابن طفيل وابن رشد (٣) راجع الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى المعجب فى مواضع متفرقة (راجع ١-٢٧٥) .

(٢) انظر حضارة الموحدين للسنوى ص ٧٤ .

يعقوب الموحدي في قصة مراکش والمسجد الذي بدأه جده عبد المؤمن وأضاف إليه زينات وإضافات وعمد وغير عمد ومآذنه البديعة على أنه كان بمدينة مراکش حيث ذكّر كثير من المهندسين المواطنين والمجلولين من الأندلس المستوطنين فيها ، وما أحدثوه في المسجد الكبير مقصورة يجلس فيها الخليفة وحواشيه يوم الجمعة وكانت ميكانيكية مثبتة بمجالات في أسفلها ولها ست أذرع وتمتد بفواصل متحركة^(١) .

ومن كبار الرياضيين الفلكيين حيث ذكّر أبو علي الحسن المراكشي مؤلف كتاب المبادئ والغايات في علم اليقات ويذكر صاحب كشف الظنون أنه أعظم ما ألف في هذا الفن ، وينقل عنه الأستاذ عبد الله ككون أن أبا علي المراكشي رتب هذا الكتاب على أربعة فصول هي الحسابات في نحو ثمانين فصلا ، ووضع آلات الإسطرلاب ولها سبعة أقسام ، وللمعمل بها خمسة عشر فصلا ، والدربة عليها في أربعة أبواب أو فصول^(٢) .

ونمضي إلى عصر المرينيين ونلتقي في علم الفرائض أو الموارث - وكانوا يلحقونه بالرياضيات - بإبراهيم بن أبي بكر التلمساني نزيل سبتة الذي مر بنا في الجزائر وله في الفرائض أرجوزة سميت التلمسانية شرحت في سبتة وغير سبتة مرازا ، ولابن الشاط التوفى سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م « غيبة الفرائض » . ونلتقي بمفخرة المغرب في الرياضيات ابن البناء^(٣) في العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٦ م والمتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م وقبيل الغاية في مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغة وبرع إلى الغاية في العلوم الفلسفية ولاسيما في الرياضيات والفلك ، وله في الحساب والجبر التلخيص في أعمال الحساب وعليه يعتمد الطلاب في جامع أو جامعة القرويين بفاس إلى اليوم ، وشرحه بكتاب سماه رفع الحجاب . وطارت شهرته في حياته وقصده الطلاب من كل فج ، وتخرج رياضيون ماهرون على يديه مغاربة وجزائريون مثل الآبى محمد بن إبراهيم التلمساني ، المتوفى سنة ٧٥٧ هـ/١٣٥٦ م . ولابن البناء في الفلك كتاب اشتهر في عصره وبعد عصره سماه البسائر في تعديل السياره وله المدخل إلى علم النجوم . ويلمع اسم اللجائي الفاسي عبد^(٤) الرحمن بن أبي الربيع التوفى سنة ٧٧٣ هـ/١٣٧٢ م في الرياضيات والهيئة أو الفلك وقد ابتكر إسطرلابا يلصق في جدار ، والماء يدير شبكه على الصفيحة بحيث يعرف منه مدى ارتفاع الشمس وما مضى من النهار كما يعرف مدى ارتفاع أى كوكب ليلا .

جذوة الأقباس ونيل الانتهاج ودره الحجال وأزهار

الرياض . وانظر في مؤلفاته التبرغ المغربي ٢٣١/١ .

(٤) انظره في الدرر لابن القاضي ٨٢/٣ والجذوة

٤٠٢/٢ . وكون ٢٢٤/١ .

(١) انظر التوفى ص ٧٦ ، ٨٠ .

(٢) راجع الجزء الأول من التبرغ المغربي لكون ص

١٦٦ .

(٣) لابن البناء ترجمات كثيرة في الكتب السالفة مثل

وإلقانا بعده عبد^(١) الرحمن الجادري المتوفى سنة ٨٣٩ هـ/١٤٣٥ م مؤقت جامع الفوائد .
بنفس ، وله روضة الأزهار فى علم الليل والنهار ، وكتاب ثان جمع فيه بين العمل بآلة
الإسطرلاب وبالصفحة الشكازية وبربع الدائرة وطريقة العمل بالحساب والجداول . ومن
علماء الهندسة فى العصر المريني ابن ليون التجيبى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م وله كتاب
الإكسبر فى الأشكال الهندسية .

وكان الخليفة المنصور الذهبى السعدى مكباً على كتاب إقليدس يحل أشكاله ، ولأحمد بن
القاضى المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٦ م شرح باسم فتح الخير بحسن التدبير لفك رموز
الإكسبر لابن ليون السالف^(٢) . وللبعقل^(٣) لمى زيد عبد الرحمن الجزول المتوفى سنة
١٠٠٦ هـ/١٥٩٧ م شروح فلكية على السيارة فى تعديل السيارة لابن البناء وروضة الأزهار
للجادرى وهو الذى أحدث الساعة الرخامية بجامع تارودنت . ومحمد^(٤) بن قاسم بن القاضى
المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣٠ م كتاب البرق الوامض فى الحساب والفرائض . وأهم الرياضيين
فى عصر العلويين الرودنى محمد بن سليمان المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/١٦٨٣ م وله إسطرلاب
مبتكر مكون من كرتين ، وفى كتاب النبوغ المغربى وصف^(٥) مفصل له . ولعل فى كل
ما قدمت ما يدل على أن المغرب الأقصى ظل ناشطاً فى الدراسات الرياضية والفلكية والهندسية
طوال الحقب الماضية .

وطبعي أن ينشط المغرب الأقصى فى الطب والصيدلة لضرورتهما فى العناية بحياة الناس ،
ومرّب بنا أن أبا العلاء^(٦) بن زهر الطبيب كان طبياً ليوسف بن تاشفين وخليفته من بعده ابنه
على ، مما يؤكد نزوله فى مراكز لرعايتهما الصحية ، ونزولها بعده ابنه عبد الملك الذى كان
طبيباً للمرابطين ثم للموحدين إذ توفى سنة ٥٥٧ هـ/١١٦٢ م وهو أهم طبيب عربى كلينيكى
أو عملي بعد الرازى .

واتخذ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدى الفيلسوف ابن طفيل طبياً بينما اتخذ ابنه
يعقوب أبا بكر بن زهر طبيه الخاص ، وكانت أخته أم عمرو طبيبة ماهرة وكانت تعنى صحياً
بزوجة يعقوب ونساء الأسرة الموحدية ، وكان ابنه عبد الله طبيب الناصر بن يعقوب الموحدى .
وأخصى الأستاذ المنونى فى كتابه « حضارة الموحدين » نحو عشرين^(٧) طبياً وصيدلياً أقدموا

(١) انظر مظاهر الثقافة المغربية للدكتور ابن شقرون
ص ٢٢٠ .

(٢) راجع الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين
ص ١٥٧/١ .

(٣) نفس المصدر ١٥٨/١ وانظر النبوغ المغربى للأستاذ
عبد الله كعون ٢٦٤/١ .

(٤) النبوغ ٢٧٠/١ .

(٥) انظر وصف هذا الإسطرلاب عند الأستاذ كعون
٢٩٤/١ .

(٦) انظر فى أطباء أسرة بنى زهر كتابنا عن الأطلس
ص ٧٩ .

(٧) راجع حضارة الموحدين للأستاذ المنونى ص ٨٨
وما بعدها .

نزلوا مراکش لخدمة الخلفاء الموحدين . ويذكر بالمثل الأطباء المغاربة الذين أنقوا الطب والصيدة في عصر الموحدين ، ومنهم يحيى بن محمد السلوى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ/ ١١٦٧ م ، والشريف الإدريسي المتوفى حوالى سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م وله كتاب فى الصيدة أو مفردات الأدوية ، وأحمد بن عبد الملك الجذامى الناشء بسنة والمتوفى بمراكش سنة ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٣ م . وقد أفاض المراكشى فى كتابه المعجب فى وصف اليمارستان الذى شيده المنصور ، ويقول إنه أجرى عليه ثلاثين ديناراً كل يوم للإنتفاق ، وإته كان به قسم للصيدة وعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، ويذكر أن يعقوب كان يعود مرضى المارستان كل أسبوع بعد صلاة الجمعة . ويبدو أن أبا إسحق إبراهيم الدانى الجائى كان أول رئيس لليمارستان كما يفهم من ترجمة ابن لئى أصيصة له فى كتابه طبقات الأطباء وأن رياسته ظلت فى بيته فترة .

ويذكر الدكتور شقرون فى كتابه مظاهر الثقافة المغربية سنة^(١) من الأطباء المشهورين فى العصر المرينى ربما كان أهمهم أبو العباس أحمد بن شعيب الفاسى الذى اشتهر بتعمقه فى الفلسفة والرياضيات وعلوم الأوائل ، وكان طبيباً فى البلاط المرينى زمن السلطان لئى سعيد عثمان وابنه لئى الحسن وقد اصطحبه معه حين غزا تونس ، وبها توفى بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م وكان طبيباً بارعاً كما كان شاعراً بارعاً . ومن أكبر الدلالة على كثرة الأطباء فى العصر المرينى أن نجد مؤلفاً مجهولاً لكتاب « بلغة الأمانة ومقصد الليب فيمن كان بسنة فى الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب » الذى نشره الأستاذ محمد بن تاويت فى العدد التاسع من مجلة تطوان يذكر سبعة من الأطباء بمدينة سبتة ، بينهم طبيبة بارعة هى عائشة^(٢) بنت الجبار ، ويقول :

« قد كان بسنة فى هذه الطبقة جماعة من الأطباء والشجارين - يريد الصيادلة العشليين - سوى من ذكرناه لم يبلغوا فى العلم والمكنة مبلغ هؤلاء (السبعة) تركت ذكرهم » ، وإذا كان هذا العدد من الأطباء ياحدى مدن المغرب الأقصى فما بالنا بمن كان بفاس من الأطباء والصيادلة ، ولابد أن كانوا كثيرين ، إذ يذكر الحسن الوزان أنه كان بفاس فى الداخل أو فى داخلها مارستات بديمة وعدة مارستات أخرى خارج أبوابها ، وعلى الأقل كان يحتاج كل مارستان إلى صيدلى وطبيب إن لم يكن يحتاج إلى عدد من الأطباء والصيادلة .

ويعرض الدكتور محمد حمى مؤلفات^(٣) الأطباء والصيادلة ، ويبدأ بالوزير القسلى المتوفى سنة ١٠١٩ هـ/ ١٦١٠ م وما يذكر له حديقة الأزهار فى شرح ماهية العشب والعقار وهو

(١) مظاهر الثقافة المغربية : دراسة فى الأدب المغربى (٣) الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ١٦٠/١

وما بعدها .

فى العصر المرينى ص ٢٢٧ .

(٢) النبوغ المغربى ٢٢٥/١ .

معجم صيدل نباتي ، ويذكر للطبيب عبد الغني بن مسعود الزموري كتابا في الطب بعنوان : القول المفيد في علاج الحصى بقول سديد ، وكتابا في الصيدلة بعنوان خواص النباتات ، شرح فيه الأدوية باللسان اليوناني والسرياني والفارسي والعجمي ، كما يذكر للطبيب أبي الغول الفشتالي أرجوزة طبية في ألف بيت وأربعمائة وعشرة ، ويذكر أيضا للطبيب علي بن إبراهيم أرجوزة في علاج العيون وأدائها وأخرى في الأعشاب وخواصها في شفاء الأمراض .

وينبع في عصر العلويين غير صيدل وطبيب ، منهم عبد^(١) القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨ م وله في الصيدلة مؤلفات متعددة سوى منظومة سميت بالشفرونية في ٧٠٠ بيت في الأغذية والأدوية ، ومنهم عبد^(٢) الوهاب أدراق المتوفى سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م وهو من أسرة فاسية اشغلت بالطب ، وإليه انتهت رئاسة الطب في زمنه ، وله مؤلفات ومنظومات طبية مختلفة ، ومنهم عبد^(٣) الله بن عزوز المراكشي المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م وله في الصيدلة كتاب بلسم كشف الرموز في الأعشاب الطبية وكتاب في الطب باسم ذهاب الكسوف . ولعل في كل ما ذكرت ما بصور - بوضوح - عناية المغاربة ببحور الطب والصيدلة طوال العصور السالفة .

ويلحق بعلوم الأوائل علم المنطق الذي يعرف به الصحيح من الفاسد في التعاريف والبراهين والأقضية ، وهو يشترك في العلوم كلها ، فليس هناك علم لا يأخذ منه بحظ . والمنطق علم يوناني الأصل وضعه أرسطو ورتب فصوله وقضاياها ترتيبا محكما ، ونقله العرب منذ القرن الثاني الهجري وتداوله علماءهم وأقطارهم ، وأصبح يدرس في جوامعها الكبيرة أو جامعاتها ، حتى إذا نشأت المدارس في القرن الخامس الهجري أخذت تدارسه ويضع فيه أفضل الدين الخونجي المتوفى سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥١ م كتابا موجزا باسم الجمل وتطير شهرته في العالم العربي بجميع أقطاره شرقا وغربا ويأخذ علماء المغرب - كعلماء المشرق - في مدارسته وشرحه لطلابهم . ومن عرفوا بدراسة المنطق بأخرة من عصر الموحدين ، وربما لحق عصر المرينيين ، عبد^(٤) الله بن محمد الأغماتي من أهل أغمات من المغرب الأقصى من علماء القرن السابع الهجري ، وينتسب الغبريني بأنه المنطقي النحوي ويقول عنه : كان أعلم الناس بكتاب سيبويه ومقاصده ، وله تحصيل لعلم المنطق .

ونلتقى في أوائل عهد المرينيين بمحمد^(٥) بن علي بن يحيى المدعو بالشريف قاضي الجماعة

(٤) انظر الأغماتي في عنوان الدراية للغبريني ص ٢٢٣ .

(٥) الإعلام بمن حل بمراكش وأغامت من الإعلام ٢٨١/٤ وانظروا في بنية الوعاة للسيوطي .

(١) البوغ المغربي ٢٩٩/١ والحياة الأدبية بالمغرب في عهد الدولة العلوية للدكتور الأخضر ص ٢٠٧ .

(٢) البوغ المغربي ٣٠٠/١ والأخضر ص ٢٣٩ .

(٣) الأخضر ص ٣٦٦ .

بها المتوفى بمرآكش سنة ٦٨٢ واشتهر بأنه كانت له مشاركة فى علوم الأصول والكلام والمنطق والحساب ، وتردد هذه الشهرة فى ترجمة كثيرين بالعصر المرنى . ويذكر الدكتور محمد^(١) حجبى فى العصر السعدى لعبد العزيز المكناسى المتوفى حوالى سنة ٩٨٠ هـ/١٥٧٢ م أرجوزة فى المنطق فى مائة وستة عشر بيتا وأرجوزة أخرى لعبد الرحمن البعقل المار ذكره ، ولعلهما أرادا مضاهاة عبد الرحمن الأخرى الجزائرى المتوفى سنة ٩٥٣ هـ/١٥٤٦ م فى أرجوزته المنطقية المسماة باسم السلم وقد نالت شهرة واسعة فى العالم العربى ووضعت لها شروح كثيرة ، ويذكر الدكتور حجبى محمد بن عبد الله الهبطى مباحث الكلية والجزئية .

ويعرض الأستاذ عبد الله كتون طائفة^(٢) كبيرة من المنظومات والشروح والحواشى والدراسات المنطقية فى عصر العلويين ، نذكر منها أرجوزتى القادرية لعبد السلام القادرى المتوفى سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٩ م والخريدة لحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م . وشرح سلم الأخرى الجزائرى اليمس المتوفى سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩١ م وشرح السلم أيضا بنفى . ومن الحواشى حاشية على شرح سعيد قدورة الجزائرى لسلم الأخرى لابن منصور الشفشاوى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م وحاشية أخرى له على شرح البنفى للسلم . وكل ما تقدم دليل على أن المغرب الأقصى ظل يعنى بعلوم الأوائل من طب وغير طب على مر السنين .

٣

علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة

أخذ المغرب الأقصى يُعنى بعلوم اللغة والنحو منذ القرن الخامس الهجرى ، بل ربما بدأت العناية بهما منذ قيام الدولة الإدريسية ويُنشأ بفاس والمغرب الأقصى عامة حركة علمية قوامها العلوم الدينية وما يتبعها من علوم اللغة والنحو ومدارس ما ألف فيهما مما هيأ لنشوء طائفة مبكرة من الكتاب والشعراء . ولاشك أن لمعلمى الكتابات ومقرئى القرآن فضلا كبيرا فى هذا الجانب إذ كانوا يأخذون الناشئة بتعلم العربية ومعرفة بعض ألفاظ القرآنية ودلالاتها اللغوية وكذلك ألفاظ بعض ما يلقون عليهم من الأشعار . ولا نغفل إذا قلنا إن قراء الذكر الحكيم كانوا دائما لغوين ونحاة ونرمز إلى ذلك فى عصر المرابطون بمروان بن عبد الملك بن سَـجـون المتوفى بطنجة سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م فقد ذكر عنه ابن عبد الملك المراكشى أنه تصدر قديما لإقراء القرآن ، وكان مقرئا مجودا ذا حظ من الشعر يذهب فيه إلى التفعير^(٣) وكان لغويا يستظهر الغريب فى أشعاره إلى حد التعمق اللغوى البعيد .

(٣) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى

٣٧٢/٢/٨ .

(١) راجع حجبى ١٥٩/١ .

(٢) النبوغ العربى ٣١٤/١ .

ونمضى فى عصر الموحدين وملتقى بمحمد^(١) بن أحمد بن هشام المشهور باسم ابن هشام اللخمي مستوطن سبتة المتوفى سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م وكتبه فى لحن العوام الذى سماه « المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان » كتاب نفيس ، حققه الدكتور خورسيه بيرث لاثار تحقيقا علميا قيما وطبعه معهد التعاون مع العالم العربى بالمجلس الأعلى للأبحاث العلمية فى مدريد . ومن قوله فى مقدمته : « أول ما يجب على طالب اللغة تصحيح الألفاظ العربية المستعملة التى حرثتها العامة عن موضعها وتكلمت بها على غير ما تكلمت بها العرب فى ناديتها ومجتمعها » وبدأ الكتاب بمراجعة الزيدى الأندلسى فى كتابه لحن عامة زمانه وتخطته لما فى ألفاظ للعرب فيها لغتان وبين ما وقع فيه من السهو والغلط ، وذكر بعده أوهام ابن مكى الصقلى فى كتاب تثقيف اللسان . ثم عقد بابا لما جاء فيه عند العرب لغتان أو أكثر ، واستعملت منهما العامة لغة ضعيفة ، وربما عدلت إلى اللحن . وأتبعه بباب لما تلحن فيه العامة ولا دليل عليه من لسان العرب وباب لما جاء لشيئين أو لأشياء فقصروه على واحد وباب لما تشلت به العامة محرفا فى صيغته عن صيغته الأصلية عند الشعراء . والكتاب فى نحو ٤٣٠ صفحة رجع فيها مؤلفه إلى أبيات شعرية وأراجيز شغلت قوافيها فى فهارسه خمس عشرة صفحة من ابرء القيس إلى الشريف الرضى فى آخر القرن الرابع الهجرى . ولا يشك قارؤه فى أن المؤلف رجع فى هذه الدراسة إلى أمهات الكتب اللغوية ، وقد وضع لها المحقق فهرسا تضمن نحو خمسين كتابا كما وضع فهرسا لمن ذكر فى الكتاب من اللغويين حتى ليلغون فيه نحو تسعين . ولابن هشام اللخمي بجانب هذا العمل اللغوى القيم كتاب ما وقع فى أبيات كتاب سبويه وشرحها للأعلم من الوهم والخلل ، وله شرح فصيح ثمل وهو كتاب لغوى ملئ بالألفاظ الغريبة ، وله أيضا شرح منصورة ابن دريد ، وهما من مراجعه فى كتابه عن لحن العامة . ويلقنا بعده من اللغويين فى عصر الموحدين أبو ذر مصعب^(٢) بن محمد بن مسعود الخشنى الجبائى الأصل المستوطن لفاس وكان عالما لا يارى فى اللغة ونحوها أدبيا وكفاه شرفا لشرحه لغريب السيرة النبوية العطرة ، وعليه اعتمد كل من نشرها فى العصر الحديث . ومن لغويى هذا العصر محمد^(٣) بن عيسى بن أصبح المشهور باسم لمى عبد الله بن المناصف المتوفى بمراكش خطيبا بجوامع بنى عبد المؤمن لسنة ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م وكان فقيها نظارا جانحا إلى الاجتهاد مائلا إلى القول بمذهب الشافعى مناظرا عليه ، وكان حافظا للغات مليقا من الأدب شاعرا مجيدا مرجزا مطبوعا ، وله أرجوزتان لغويتان : « المذهبة فى نظم الصفات من الحلى والشيآت » وهى أرجوزة ألفية نظمها بمراكش ، وتلاها بأجوزة ثنية سماها المعقبة لكتاب المذهبة فى الأنعام والطبائى وحرر الوحش والنعام وما يتعلق

(١) نظر فى ابن هشام اللخمي الفحكمة ٣٧٠ وبنية

٦٣٦ .

(٢) انظر فى ابن المناصف ابن عبد الملك المراكشى

الرواة ٤٨/١ .

٣٤٥/٢/٨ .

(٣) انظر ترجمته فى الفحكمة : ٧٠٠ وجذوة الإقبلى

بها . ومن لغوي عصر الموحدين يوسف^(١) بن موسى المواري التوفي بمراكش سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥٢ م وفيه يقول ابن عبد الملك إنه كان ماهرا في علوم اللسان أدبا ولغة ونحوا وبذكر له أبياتا في ترتيب حروف معجم العين للخليل وأبياتا أخرى في ترتيب حروف الصحاح للجوهري .

ونضى إلى العصر المريني وتلقى بالشاعر مالك^(٢) بن المرحل التوفي سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ونظمه لغريب القرآن الكريم ولفصيح ثعلب ، ولا نلبث أن تلقى بلقي القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسن التوفي سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م وله شرح على مقصورة حازم القرطاجني سمله : « رفع الحجب المستورة عن عسلن المقصورة » وهو منشور ، وتلقى بلقي زيد المكودي القلسي التوفي سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٤ م وله البسط والتعريف في علم التصريف ونظم العرب من الألفاظ وشرح كتاب المقصور والممدود لابن مالك . وأخذت منذ العصر المريني تؤلف كتب مختلفة في غريب الحديث مثل « تحفة الناظر في غريب الحديث » للرعيي القلسي ، ومثل شرح غريب الموطأ لمالك وصحيح البخاري وكتاب الشهاب لابن منصور المغراوي السجلماي . وتكاثر الشروح والحواشي في العصر السعدي للقصاص النبوية مثل البردة والمهزبة للبوصيري ومقصورة المكودي في المديح النبوية وبعض كتب اللغة مثل الصحاح للجوهري وبعض القصاص المشهورة مثل لامية العرب ولامية المعجم وبعض الدواوين وخاصة ديوان المتنبي ، وشرحت لامية الأفعال لابن مالك والشافعية لابن الحاجب . وتظل هذه الاتجاهات في التأليف اللغوي طوال عصر العلويين ، ويؤلف ابن زاكور^(٣) التوفي سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م شرحا على حاشية أبي تمام باسم عنوان النفاسة في شرح الحماصة وشرحا على قلائد العقيان للفتح بن خاقان باسم مقياس الفوائد في شرح ما خفى من القلائد ، وشرحا على لامية العرب باسم تفريج الكرب بشرح لامية العرب ، ويؤلف محمد بن الطيب الشرقي التوفي سنة ١١٧٠ هـ/١٧٥٦ م شرحا على كتاب الزهر للسيوطي باسم المسفر عن خبايا الزهر ، وحاشية على القاموس المحيط للفيروزبادي باسم إضاءة الراموس حاشية على القاموس وشرح على لامية الأفعال وضوء القابوس في زوائد الصحاح على القاموس وحاشية على درة الفرائص للحريري وبعده الأستاذ عبد الله كتون شرحا وحواشي أخرى في اللغة لكثيرين^(٤) .

وكان النشاط في النحو لا يقل عن النشاط في اللغة إن لم يزد عليه زيادة كبيرة ، وأول نحوي كبير تلقى به في عصر المرابطين الحسن^(٥) بن علي بن طريف التوفي سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م

بالجزء الأول ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ .

(٣) انظر النبوغ المغربي ١/٣٢٣ .

(٤) راجع النبوغ المغربي ١/٣١٥ .

(٥) النبوغ المغربي ١/١٠٠ .

(١) راجع في يوسف ابن عبد الملك المراكشي

٤٣٧/٢/٨ .

(٢) انظر في أعمال مالك والشريف الحسن والمكودي

والرعيي والمغراوي النبوغ المغربي في مواضع متفرقة

ظلّ يدرس النحو طوال عمره بسبته ، وهو أستاذ القاضى عياض وغيره من علمائها فى عصر المرابطين ، وملتقى بعده يعلى^(١) بن محمد الجذامى المالقى الذى سكن سبته واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٥ م وكان يقرئ بها الذكر الحكيم لطلابه ويدرس لهم قواعد العربية ، ومثله أحمد^(٢) بن الخطيئة الفاسى المتوفى زمن الموحدين سنة ٥٦٠ هـ/١١٦٥ م إذ كان مقرئاً للذكر الحكيم كما كان نحوياً . ولا نبالغ إذا قلنا إن جميع المقرئين يعدون نخبة ، إذ كانوا يحفظون الصيان ويقفونهم على حدود العربية كى ينطقوا بأى الذكر الحكيم نطقاً سليماً .

ولا يلبث أن يظهر فى المغرب الأقصى نحوى مهم هو عيسى^(٣) الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧ هـ/١٢١٠ م وهو خريج ابن برى العالم النحوى اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م فقد حج ومراً بالقاهرة وأعجب فيها بمحاضرات ابن برى فى النحو وكان يدرس للطلاب كتاب الجمل للزجاجى ويناقش مسائل النحو فيه وقضاياها وانتظم الجزولى بين طلابه ، وسأله عن مسائل نحوية فأجابه عليها ، وأثبت كل ما دار فى محاضراته وكل ما أدلى به ابن برى من أفكار أو بعبارة أدق أثبت ما أدلى به فى « مقدمة » عاد بها إلى بلده وأخذ يدرسها للطلاب فى المغرب والأندلس ، ويعرف به ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة بقوله : جالب الكرامة المشهورة فى العربية عن أبى محمد بن برى نحوى الديار المصرية قدم عليه ولازمه ، ومن كلام ابن برى المذكور على الجمل « للزجاجى » كتب ذلك التأليف المنسوب عند كثير من الناس إلى جالبه أبى موسى الجزولى باسم « الجزولية » ، ويقول القفطى إنه كان إذا سئل هل هى من تأليفك أجاب : لا ، لأنها فى واقع الأمر من تأليف ابن برى الذى كان يلقيه على طلابه فى محاضراته ودروسه ، ويقول القفطى أيضاً : فيها كلام غامض وعقود لطيفة وإشارات إلى أصول صناعة النحو غريبة . وفى هذا كله ما يدل على أن المقدمة إنما هى محاضرات لابن برى ، وعلى عادة التلامذة حين يكتبون ما يسمعون من أساتذتهم فى المحاضرة ويتركون بعض قطع منها وبعض عبارات حدث ذلك نفسه فى المقدمة التى حملها الجزولى عن أستاذه ابن برى ، ولو كان مؤلفاً لما لخلت بما فى بعض عباراتها من غموض وما فيها من رموز وإشارات . على أن فى ذلك ما يدل بوضوح على أن عيسى الجزولى كان تلميذاً باراً لأستاذه ابن برى ، فرأى أن يحتفظ فى المقدمة بنصوص كلامه ولا يضيف إليها شيئاً ، فبدت فيها بوضوح هذه العيوب التى ذكرها القفطى . ومهما يكن فإنها هدية من مصر عن طريق ابن برى للمغرب الأقصى وقد عنى بها وشرحها كثيرون فى المغرب والأندلس وفى مقدمتهم الشلوينى الأندلسى . وينزل المغرب الأقصى ابن خروف إمام النحو الأندلسى المشهور ، ويترك

(١) نظر ابن عبد الملك المراكشى ٢٨١/٥ .

(٢) راجعه فى إنباء الرواة فى طبقات النحاة ٣٩/١ .

(٣) انظر الجزولى فى إنباء الرواة ٣٧٨/٢ وكتبنا

المدرس النحوية ص ٣٠٠ والذيل والتكملة لابن

عبد الملك ٥١٧/٢٨ .

فيه تلامذة حملوا عنه كتاب سيبويه وشرحه له ، منهم ابن ربحون عبد الرحمن بن محمد المصمودى ، وكان من علية شيوخ سبعة ، توفى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م ومنهم محمد بن يحيى المبدرى الفاسى المتوفى شهيدا بجبل الفتح سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٤ م .

ونلتقى فى أوائل عصر المرينيين بمحمد^(١) بن الحسن الفهرى المعروف بابن المحلى وكلمة المحلى فى المغرب الأقصى تعنى - كما يقول ابن عبد الملك المراكشى - أن لباه كان قولا يبنى فى المحافل والأسواق . وكان محمد من تلاميذ ابن خروف وله تقييدات على كتاب سيبويه توفى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦١ م . وما تلبث فاس أن تخرج إماما نحويا مهما هو ابن آجروم^(٢) محمد بن محمد بن داود الصنهاجى المتوفى بفاس سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م وآجروم كلمة بربرية معناها الفقير الصوفى . وليس بين أيدينا شئ واضح عن نشأته وشيوخه ، ويقال إنه لقي لبأ حيان النحوى الأندلسى بمصر وأخذ عنه فى طريقه إلى الحج . وقد طارت شهرته فى العالم العربى بمتن أو مختصر فى تعليم النحو للناشئة ، ويقال إنه وضعه لابنه أبى عبد الله ، وظلت طويلا الجوامع الكبرى والمدارس تفتح تعليم النحو بهذا المختصر الذى يجمع المعالم الأساسية للنحو فيما لا يزيد عن خمس وعشرين صفحة بقطع الكف وكان الأزهر - إلى عهد قريب - يجعله أول ما يدرس لطلابه فى علم النحو لإمامه بقواعد النحو فى ترتيب بديع ، ويقول السيوطى فى ترجمته له بكتابه بغية الوعاة : إنه كان على مذهب الكوفيين فى النحو لأنه عبّر عن الجر قسم الرفع والنصب بالخفض ، كما عبّر الكوفيون وقال مثلهم فعل الأمر مجزوم لا مبنى كما يقول البصريون ، وذكر بين الأسماء الجازمة « كيفما » وهى لا تجزم فى رأى البصريين . وأول من رأى السيوطى أن يقال إنه بغدادى مثل الزجاجى ولبى على الفارسى يختار من آراء المدرستين البصرية والكوفية ما يراه الأدق والأوفق ، فقد قال مع البصريين إن المنصوب بعد كان خبر لا حال كما يقول الكوفيون ، وقال فى التوليع البدل لا الترجمة ولا التبيين كما يقول الكوفيون ، وقال المنادى فى مثل بازيد مبنى على الضم لا معرب بغير تنوين كما يقول الكوفيون . ومن طريف تيسيراته للنحو أنه قال إن المضارع بعد كى ولامها ولام الجحود وحتى والفاء والواو منصوب بهذه الأدوات لا بأن مضرة بعدها ، وبذلك أخذت فى وجوه تيسير النحو التى قدمتها إلى مجمع اللغة العربية وأقرها . ولم يهتم بمتن الأجرومية العالم العربى وحده فقد اهتم بها العالم الغربى أيضا ، فطبعتها المستشرقون مرارا وترجموها إلى لغاتهم : اللاتينية والإنجليزية والفرنسية وكانت أول طبعتها عندهم فى روما سنة ١٥٩٢ للميلاد . ولابن العدى معاصر ابن آجروم فى قواعد العربية كتاب الكليات النحوية ، وكان لابن^(٣) هاتىء اللخمى السبتي معاصرها المتوفى سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م من أئمة العربية ، وكان يدرس النحو للطلاب ، ومن

(١) الذيل والفكلة ٥٢٠/٢/٨ .

(٢) انظره فى النبوغ المربى ٢٢٠/١ .

مؤلفاته النحوية شرح كتاب التسهيل لابن مالك . ولأبي القاسم الشريف الحسنى السبى المار ذكره بين اللغويين شرح أيضا على التسهيل ، وكان يدرس لطلابه ألفية ابن مالك .

ومن كبار النحاة فى عصر السعديين أحمد^(١) بن قاسم القدومى المتوفى سنة ٩٩٢ هـ/ ١٥٨٤ م أستاذ الخليفة المنصور الذهبى السعدي ووصف بأنه نحوى زمانه غير مدافع وقال ابن القاضى إليه انتهت رئاسة النحو فى عصره ، وله حاشية على شرح الألفية للمرادى فى أربعة أجزاء . ومن أهم النحاة بعده قاسم^(٢) بن محمد بن القاضى المكتاسى المتوفى سنة ١٠٢٢ هـ/ ١٦١٣ م وله شرح على ألفية ابن مالك انتفع به طلبته وشرح آخر على الأجرومية انتفعوا أيضا به ، وله نيات فى الأفعال التى على حرف واحد يعلمها طلابه ، منها قوله فى الفعلين : قى وعى^(٣) :

إني أقول لمن تزجى وقايتُه قى المستجير قياهُ قوه قَيَّ قينا
وإن هُم لم يَغُوا قولى أقول لهم ع القول وَيَك عياه عوه عَيَّ عينا

ويكثر النحاة فى العصر العلوى ، ومنهم ابن الطيب الشرقى المار ذكره فى اللغويين ، وله شرح^(٤) الكافية لابن الحاجب ، وشرح لامية الأفعال لابن مالك وحاشية على التسهيل لابن مالك ، وحاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وحاشية على المعنى لابن هشام ، وشرح الاقتراح فى أصول النحو للسيوطى ، وعنى بشرح كثير من الشواهد مثل شواهد الكشف للزمخشري وشواهد البيضاوى المفسر وشواهد التوضيح لابن هشام وشواهد التلخيص للزوينى ، ويفيض الأستاذ عبدالله كتون فى ذكر كتب النحو المؤلفة والشروح والخواشى ومؤلفيها فى العصر يجتنب ما ذكره من أعمال ابن الطيب الشرقى ، مما يدل على اتصال النشاط فى الدراسات النحوية بالمغرب الأقصى طوال الأزمنة الماضية .

وكان الدارسون للنحو فى كل تلك الأزمنة يعرضون - أو يعرض كثير منهم - على طلابهم عروض الشعر العربى كى يحسنوا النطق به إذا أتشدوه ، ولكى يعرفوا بدقة موازينه وقواعدها إذا أرادوا صنع شيء منه أو نظمه ، وأول ما نلتقى به من كتب هذا العلم كتاب فى عصر الموحدين لأبى ذر مصعب الخشنى الذى مر ذكره فى أول الحديث عن اللغويين . ونلتقى فى أوائل العصر المرينى بمالك بن المرحل الذى مر ذكره فى الحديث عن اللغويين ، وله أرجوزة

الخليفة المنصور لابن القاضى (طبع الرباط) ص ٧٩٠ .

(٣) المتن ص ٧٩١ .

(٤) راجع التبوغ المغربى فى مؤلفات ابن الطيب الشرقى

وغيرها من مؤلفات العصر .

(١) انظر فى القدومى درة المجال ١/ ١٥٦ روضة

الأس للمغربى ص ٣٤ .

(٢) راجع فى قاسم بن محمد روضة الأس ص ٢٢٥

والصفحة للمغربى ص ٩٥ وملتقى المنصور على مآثر

فى علم العروض ورسائل^(١) فى وزن الرباعيات وهما تعرضان وزن للرباعيات أو الدوييت كما سماها الإيرانيون ومعنى دو عندهم اثنان ، والوزن الأول فعلن متفاعلن فعولن فعلن والوزن الثانى فعلن فعلن مستفعلن مستفعلن . وكان ضياء الدين الخزرجى قد ألف متنا أو منظومة فى هذا العلم فشرحها أبو القاسم الشريف المار بين اللغويين وسعى شرحه باسم رياضة الأئمة فى شرح قصيدة الخزرجى ، وهو أول من شرحها شرحا وافيا . ولابن رشيد محمد بن عمر القهري السبتي الرحالة المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م كتاب فى القوافى سماه : وصل القوادم بالخوافى فى ذكر أسماء القوافى ، وكتاب ثان سماه باسم كتاب فى العروض . ويذكر الدكتور حجي للمصر السمدى كتابين^(٢) فى علم العروض : كتابا لابن غازى باسم « إمداد بحر القصيد يبحر أهل التوليد » ويقصد بأهل التوليد المولدين من الشعراء ، وبيحريهما أو يوزنيهما بحر أو وزن المتدارك ، وهو وزن محدث فى العصر العباسى ، وبحر أو وزن الدوييت أو بعبارة أخرى الرباعية ووزنها أيضا محدث . وقد ذكرت فى العصر العباسى الأول أنها بدأت مع بشار ولها كثرت عند أبي نواس وأبي العتاهية وضربت لها بعض الأمثلة ومنذ القرن الخامس الهجرى يتخذ لها وزن كما أسلفنا وبين ذلك غاية التبيين مالك بن المرحل فى الرسالتين اللتين ذكرناهما آنفا . والكتاب الثانى الذى ذكره الدكتور حجي كتاب كافية النهوض فى صناعة العروض لعبد العزيز الرُّسْموكى . ونلتقى فى العصر العلوى بمحمد بن زاكور المذكور بين اللغويين ، وله شرح على منظومة الخزرجية باسم : « النفحات الأرجية والنسمات البنفسجية بنشر ما راق من مقاصد الخزرجية » كما نلتقى بمحمد بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م وله مقصورة فى العروض والقوافى .

وظل المغرب الأقصى يتدارس ما أنتجه المشرق فى علوم البلاغة والبديع من أعمال قيمة عند أمثال ابن المعتز وقدامة وابن وهب والحاتمى والآمدى والعسكرى والباقلانى وابن سنان الخفاجى وعبد القاهر الجرجانى والزمخشري والسكاكى وابن أئمة الإصيص ، مضيفين إلى ذلك مدركة بعض أعمال مغربية وخاصة كتاب العملة لابن رشيقي ، وقد يتناولون أعمالا سابقة بالشرح على نحو ما صنع ابن رشيد بشرحه لكتاب فى التجنيس أو الجنس . ولم يلبث المغرب الأقصى أن أهدى إلى علوم البلاغة والبديع علمين فذنين ، هما ابن البناء أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٦ م العالم الرياضى البارع الذى لا تزال كعبه أو بعضها تدرس إلى اليوم فى المغرب الأقصى المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م ، وأبو محمد القاسم بن محمد الأنصارى السجلماسى ، ولا نعرف شيئا

(١) انظر تعريفا بالرسالتين فى الجزء الخاص بالعراق فى المجلد الخامس من تاريخ الأدب العربى ص ٣٢٨ وهما منشورتان فى العدد الرابع من المجلد الثالث من

مجلة المورد بغداد .
(٢) انظر الحركة الفكرية ١٥١/١ .

عن تاريخ مولده ووفاته سوى أنه أملى كتابه في البديع أو أنهى تأليفه سنة ٧٠٤ هـ/١٣٠٥م مما يؤكد أنه كان معاصراً لابن البناء .

ومر ذكر ابن البناء في حديثنا عن علوم الأوائل ، وقلنا هناك إنه بلغ الغاية في مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وفي العلوم الفلسفية ولاسيما في الرياضيات والفلك . وعلى نحو ضبطه لقولتين الرياضة ضبط قواعد النحو في كتاب سماه الكليات النحوية ، وأكبر الظن أنه وزع قواعد النحو فيه على كليات عامة تستقصى كل كلية مجموعة من قواعده . وبالمثل صنع بالبديع في كتابه : « الروض^(١) المربع في صناعة البديع » والمربع أى الخصب وكلمة البديع عنده تعنى بالضبط ما عناه بها ابن المعتز في كتابه « البديع » إذ ساق فيه الصور اليبيلة من تشبيه وغير تشبيه والألوان البديعية من طباق وغير طباق والأصباغ البلاغية في علم المعاني ، إذ ذكر بين محسنات الكلام الالتفات ورد الأعجاز على الصدور وتجاهل العارف وتأكيده المدح بما يشبه الذم والعكس والخروج من معنى إلى معنى ويشمل الاستطراد . وبذلك تضمن كتاب ابن المعتز علوم البلاغة جميعاً وكان الزمخشري أول من ميز بين علمي البيان والمعاني كما جاء في مقدمة تفسيره : « الكشاف » وجعل علم البديع ذليلاً لهما كما يقول السيد الجرجاني في شرحه لكتاب المفتاح للسكاكي . وبهذا التصور كتب السكاكي وتوالت بعده الكتب البلاغية تجمع بين هذه العلوم الثلاثة : البيان والمعاني والبديع ، غير أن بعض علماء البلاغة رأى أن يعود إلى التعبير بكلمة البديع عن كل هذه العلوم على نحو ما يلاحظ عند ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٧م في كتابه « بديع القرآن » . فكلمة البديع عنده - كما عند ابن البناء - تعنى علوم البلاغة من بيان ومعان وبديع ، وقد بلغ تعداد محاسنها وقواعدها عند ابن أبي الإصبع في كتابه : « بديع القرآن » مائة قاعدة وثلاثاً ، وبلغت في كتاب ثان له باسم : « تحرير التجبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن » مائة وخمسة وعشرين قاعدة . وكثما رأى ابن البناء بعقله المنطقي أن ييسر تصورهما على الدارسين بوضع كل مجموعة من القواعد الجزئية الكثيرة عند البلاغيين في قاعدة كلية تجمعها أو قل تجمع ما رآه حريماً ببيانه وتوضيحه ، وهو يقدم لكتابه بتوطئة - أو كما نقول الآن بتمهيد - يتحدث فيها عن تأليفه للكتاب وغرضه منه قائلاً : « غرضي أن أقرر في هذا الكتاب من أصول صناعة البديع ومن أساليبها البلاغية ووجوه التفريع [فيها] تعريفاً غير مخجل ، وتأليفاً غير محل ، يصغر جرمه ويكثر علمه .. وصنفته في زيادة المنه ، وفهم الكتاب والسنة » ويريد بزيادة المنه زيادة القدرة على فهم البلاغة القرآنية والنبوية وتلى ذلك ثلاثة أبواب : الباب الأول مقدمات في الدلالة والكلام والبديع وهو في ثلاثة فصول أولها يتناول الدلالة وارتباطها باللفظ والمعنى في أقسامها ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ رضوان بنشقرون في الدار البيضاء بالمغرب الأقصى .

والفصل الثانى فى أقسام الكلام من حيث الصياغة إلى منظوم ومثور ومن حيث المخاطبات إلى برهان وجدل وخطبة وشعر ومغالطة ، ومن حيث الواقع إلى حقيقة ومجاز ، ومن حيث مواجهة المعنى للغرض إلى القواعد الكلية الأربع التى سيعرض لها فى الباب الثانى ، ومن حيث دلالة على المعنى إلى القواعد الكلية الثلاث التى يذكرها فى الباب الثانى . والفصل الثالث فى صناعة البديع ، وفيه يذكر أن البلاغة قد تكون فى الإيجاز أو فى المساواة أو فى التطويل ، أما الفصاحة فصفة للفظ وسهولة مخارجه وعذوبته فى السمع ، والصناعة المتكئة بذلك هى صناعة البديع التى تعرض القوانين الكلية وما يندرج تحتها من الجزئيات . ويحاول أن يصل بين البديع وبين البلاغة والبيان . وفى الباب الثانى يتحدث عن أقسام اللفظ من جهة مواجهة المعنى ، ويجعله فى أربعة فصول أو أربع كليات عامة الفصل الأول أو الكلية الأولى فى الخروج من شىء إلى شىء وتشمل ما يسمى بالتخلص من موضوع إلى موضوع كما تشمل الإدماج وهو أن يدمج المتكلم غرضاً فى غرض والتفريع والاستطراد والخروج من إثبات شىء إلى نفيه أو العكس والاعتراض والانتفات . والفصل الثانى أو الكلية الثانية تشبه شىء بشىء ، وتشمل صور التشبيه التشابه فى النسب ويدخل فيها مراعاة النظر والمقابلة والطباق . والفصل الثالث أو الكلية الثالثة تبديل شىء بشىء وتشمل الاستعارة والتشثيل وتبادل الكلى مع الجزئى والعكس وتبادل الحقيقة مع المجاز والواجب مع الممكن وإبدال المدح بصورة الذم والعكس والخير مع الطلب والعكس وما كان مع ما يكون والعكس . ويفصح لمسألة لغوية هى وصف المؤثر بصيغة المذكر والعكس مثل امرأة صور ورجل علامة . والفصل الرابع أو الكلية الرابعة تفصيل شىء بشىء ويدخل فيه التقسيم والتشكيك والتضمين أو الإيحاء ثم الاتساع بدلالة البيت دلالات مختلفة ، والتوضيح ، وهو مصطلح غير واضح فى التعبير عن مراده ، وهو عند الرماني حسن البيان . والباب الثالث أقسام اللفظ من جهة الدلالة على المعنى وهو فى ثلاثة فصول ، الفصل الأول أو الكلية الأولى عن الإيجاز وأدخل فيه الحذف اللغوى كحذف العائد والمضاف والصفة والموصوف . والفصل الثانى أو الكلية الثانية عن الإكثار ومنه الاستظهار وهو استغناء القول عن تكملته ومجيء الصفات أو النعوت للتخصيص بعد التكرار وللتعين بعد المعارف ، ومنه التذييل والتعيم أو التكميل والتسوير وهو التعميم بعد التخصيص أو العكس ، ومنه الترادف . والفصل الثالث أو الكلية الثالثة التكرير ومنه قبيح ومفيد ، ويكون للتقرير أو للتأكيد أو للمقايضة أو للتصدير أو للترديد ، ومنه المشترك اللغوى والبيانى ، ومنه التجنيس وفرعه نحو اثنى عشر فرعاً . وإنما أطلت فى عرض هذا الكتاب لأدل بوضوح على أن ابن البناء استطاع أن يخضع البديع أو البلاغة للمنطق ، وإن يجعل لها سبع كليات تضمنت أبواب علم البديع أو علوم البلاغة كما كان يتصورها عصره منذ ابن فني الإصبع مع إضافة بعض مسائل لغوية وأظهر فى ذلك ذكاء وبراعة فائقين وقد حقق الكتاب تحقيقاً سديداً وقدم له بدراسة

قيمة الأستاذ رضوان بشقرون رادًا كثيرًا من مسأله إلى كتب المشاركة البلاغية والعمدة لابن رشق .

وعلى ضوء هذا الكتاب وإحضار علم البديع فيه للمنطق مع إدخال بعض المسائل الأخيرة على المصطلحات البديعية ألف مطبوع لابن البناء هو أبو محمد القاسم الجلمسى كتبه : « للترغ البديع فى تجنيس أساليب البديع »^(١) وكلمة البديع عنده - كما عند ابن البناء وابن أبى الإصبع وابن المعتز - تشمل كل صور البيان وألوان البديع وعينات المعانى ووجوهها البلاغية المختلفة ، وواضح من اسم الكتاب أنه أراد أن يجارى ابن البناء فى وضع جنس كل لكل مجموعة من قواعد البديع الجزئية الكثيرة ، ورأى أن يخالفه فى الأجناس التى جعلها كليات وعنوانًا للفصول السبعة فى البابين الثانى والثالث فى كتبه ، وهى عنده عشرة هى : الإيجاز - التخييل - الإشارة - المبالغة - الرصف - المظاهرة - التوضيح - الاتساع - الانتشاء - التكرير . وهو يلتقى مع ابن البناء فى الإيجاز ويدخل فيه الحذف اللغوى مثله ، غير أن ابن البناء يستبسط منه أربع صيغ بلاغية بينما يستبسط الجلمسى أكثر من عشر صيغ بلاغية ، وتقسم فى أثناء ذلك الصيغ تقسيمات كثيرة ، إذ ينقسم الجنس إلى فروع والفروع ينقسم إلى فروع فرعية أو غصون ، والغصون تنقسم إلى غصينات دون أن تميز هذه الأقسام الثلاثة والتنوع بأسماء تمييزها ، فمثلا عنده المفاضلة ويعنى بها النقص عن المضمون فى الكلام : نوع من الإيجاز ، وهى نوعان وكثيرها جنس متوسط ، والنوع الأول من نوعها الاختزال ، والاختزال بدوره نوعان: اصطلام أى قطع وتر ، وحذف وهو بدوره نوعان : إطلاق وإتهاك ، والانتهاك أنواع . وهى صموية واضحة فى الكتاب ، غير أن فيه ذكاء بارعا وقدرة منطقية إلى أقصى حد ممكن . وترك جنس الإيجاز إلى جنس التخييل وما يتصل به من التشبيه والاستعارة والمجاز وهو يقلل عنده الفصل الأول من الباب الثانى عند ابن البناء الخاص بكلية التشبيه ، والتميز بالتخييل أدق غير أنه لم يضع فيه الكناية ، إذ عقد لها الجنس الثالث فى كتبه ، ولكن لا باسمها وإنما باسم الإشارة ، والبلاغيون قبله يدخلون فى أنواعها كل ما سماه من أنواعها وفروعها ما عدا حذف الحروف من الكلمة المذكور فى آخر جنسها أو حذف بعض الجمل ويسمونه باسم الاكتفاء . والجنس الرابع عنده المبالغة ، وأحسن حين جعل لها جنسا خاصا وقديداها بالصيغ اللغوية المستعملة فى المبالغة مثل حَسَن - طَوَال - رَحْمَن - شَرُّر غير أنه استكثر من أنواعها حتى بلغت نحو المائة واستغرقت اللغة - فيما بعد صفحات كثيرة كما فى ٣٠٦ إلى ٣٠٨ وأيضًا فقه أدخل فيها كثيرا من صيغ المجاز المرسل كسمية السب باسم المسبب وعكسه وتسمية الشيء بأولاه وبعقباه . والجنس الخامس الرصف ويعنى به نسق الكلام وترتيبه ، ويدخل فيه التسهيم ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ حلال الغازى فى مكتبة المعارف بالرباط .

وهو أن يشهد أول الكلام بآخره كما يدخل فيه التفسير والمقابلة والالتفات أو مراجعة المعنى الماضى . والجنس السادس المظاهرة ويدخل فيها المطابقة وهى الجنس باللفظ المماثل ، والكافأة وهى الطباق وتشمل المقابلة ، كما تدخل المقابضة فى مثل قوله عز وجل : ﴿تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل﴾ ويسميه ابن أبى الإصبع فى كتابه بديع القرآن : « العكس والتبديل » وتدخل المزاوجة وهى بنفس الاسم عند ابن أبى الإصبع (ص ٢٨ من بديع القرآن) كما يدخل التصدير وهو رد الأعجاز على الصدور عند ابن أبى الإصبع فى كتابه تحرير التحرير ص ١١٦ ، ويقول إن المتأخرين سموه التصدير ، ويدخل التردد وهو بنفس الاسم عند ابن أبى الإصبع (ص ٩٦ من بديع القرآن) . والجنس السابع التوضيح ، وكان ينبغى أن يسميه حسن التوضيح لأن التوضيح من حيث هو لا يعد بديعا ، ولذلك سماه الرملى حسن البيان وفى رأى أن السجلماسى تابع فى ذلك ابن البناء غير أنه تحدث عنه كنوع فى الفصل الرابع أوالكلية الرابعة الخاصةبتفصيل شيء بشيء وجعل منه التفسير كما صنع السجلماسى ، وكان حريا به أن يجعله فرعاً لأحد الأجناس كجنس الرصف . والجنس الثامن الاتساع وهو أن يحتل القول أو البيت معنيين أو أكثر ، وذكره ابن أبى الإصبع (ص ١٧٣ من بديع القرآن) كما ذكره ابن البناء فى الفصل الرابع أو الكلية الرابعة من الباب الثانى فى كتابه ، ولم ينسج السجلماسى بالحديث فيه ، وكان حريا أن لا يعقد له جنسا مستقلا . والجنس التاسع الانشاء ، وهو بتوابعه الأصلية والفرعية يقابل الفصل الأول أو الكلية الأولى من الباب الثانى عند ابن البناء وهى الخروج من شيء إلى شيء . وربما كانت تسمية الكلية على هذا النحو أدق من تسمية الجنس عند السجلماسى .

والجنس العاشر التكرير وهو نفس الكلية الأخيرة عند ابن البناء ، والتجنيس مفرع عنده إلى نفس فروعه عند ابن البناء ، وهما يلتقيان فيها مع ابن أبى الإصبع (ص ٢٧ من بديع القرآن و ص ١٠٢ من تحرير التحرير) . ومواضع الالتقاء بين ابن أبى الإصبع والسجلماسى كثيرة ، وبينها يحتاج إلى مقابلات وتفصيلات لاتسعها هذه الدراسة . وإنما ذهب إلى أن ابن البناء هو الذى ألف كتابه أولا ثم ألف السجلماسى كتابه لأنه أخذ منه فكرة الجنس الكلى للقواعد البديعية ، وفكرة إدخال مسائل لغوية كثيرة فى دراسة البديع ، مع الاشتراك فى أسماء بعض الأجناس والكليات والمصطلحات وفى كثير من التعريفات والأمثلة والشواهد ، وكان ابن البناء هو الذى بدأ فكرة الكليات التى صدر عنها فى كتابه الكليات النحوية وفى هذا الكتاب الخاص بالبديع . والسجلماسى هو الذى انتهى بها إلى الغاية - على هدى علم المنطق - إذ استحالت فكرة الكلية عنده إلى فكرة الجنس وتوابعه ، ومضى فى الكتاب يطبق المنطق بقضايا ومقولاته وأقيسته ولا يخفى ذلك بل يصرح به مرارا ، حتى لينقل كلامه بنصه مرارا (انظر الفهرس) وما لاريب فيه أن السجلماسى حاول جاهدا أن يمتنع البديع ، وتم له ذلك ، غير أنه توسع

فى التفريعات على نحو ما يتضح فى تفرعاته على الإيجاز والبلاغة والمظاهرة والتكرير ، ولعل ذلك كان أهم سبب فى أن الكتاب لم يكتب له ولا لمنهجه الذبوع والانتشار فى حلقات دراسة البلاغة والبديع فى البيئات العربية حتى فى بيئة المغرب الأقصى نفسها مع أن فيه أمثلة وشواهد بديعية رائعة تشهد للسجلسماسى بحسن ذوقه ورهافة حسه البديعى أو البلاغى . وقد بذل الأستاذ غلال الغازى جهدا واضحا فى تحقيقه لهذا الكتاب ودرسته وما صنع له من فهارس مختلفة .

ونعجب أن ينصرف المغرب الأقصى - بعد السجلسماسى - عن الإكباب على كتابه بالدرس والشرح وأن يعنى - مثل مصر والشام - بدراسة كتاب التلخيص للقزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ/١٣٨٩ م ولعل الياصلاتى فى العصر السعدى حاشية على شرح السعد لتلخيص القزوينى وهو تلخيص لعلوم البلاغة الثلاثة : البيان والمعانى والبديع ، ولحمدون بن الحاج فى العصر العلوى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م حاشية على الشرح المختصر لسعد الدين التفتازانى لتلخيص القزوينى . ومن يرجع إلى الفصل الذى عقده حاجى خليفة فى كتابه : « كشف الظنون » لتلخيص القزوينى يشعر أنه أصبح المسيطر على كل الأبحاث البلاغية فى العالم العربى ، وقد أقبل عليه الشراح بشرحونه يشرحه المغربى والمصرى والعراقى وغيرهم وقد يضعون على الشروح شروحا ، ويسمونها حواشى ، بحيث أصبح هو وتلك الشروح والحواشى المادة الأساسية لتعليم البلاغة بفروعها المختلفة من بيان ومعانى وبديع فى جميع الأقطار والبلدان العربية .

٤

علوم^(١) القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

يعنى المغرب الأقصى - من قديم - بقراءات القرآن الكريم ، ومن أهم قرائه - قبل عصر المرابطين - أبو عمران موسى بن عيسى الفاسى ، أخذ القراءات عن أئمتها فى القيروان ومصر ومكة وبغداد ، وأقرأ الناس بالقيروان مدة . وكان يعاصره سليمان بن أحمد الطنجى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م رحل إلى مصر وبرع فى القراءات كما يقول ابن الجزرى . ونزل ستة

النبوغ المغربى لمد الله كون وحضارة الموحدين لمد النبوى ومظاهر الثقافة المغربية فى الأدب المغربى بالعصر المرينى لمد بن شقرون والحركة الفكرية بالمغرب لمد حجي والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة المغربية للأخضر .

(١) انظر فى تراجم القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمكلمين طبعات القراء لابن الجزرى والذيل والكلمة لابن عبد الملك المراكشى والديباج لابن فرحون والتفتى للتصوير على مآثر الخليفة المصور السعدى وما وضع عتقه فى هوائيه من مصادر لبعض الأعلام وكتاب

قبل عصر المرابطين على بن عبد الغنى الحصرى المتوفى بطنجة سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٥ م وله قصيدة رائية مشهورة فى قراءة نافع . وملتقى فى عصر المرابطين بالمقرئين : مروان بن سنجون المتوفى سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م وكلى الصلاة والخطبة بسبته وتصدّر قديما لإقرله القرآن وكان - كما يقول ابن الجزرى - مقرئا مجودًا لغويا ، وعلى بن محمد الجذامى نزىل سبته المتوفى سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٦ م وأبو بكر محمد الفلّلى نزىل فاس المتوفى بها سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م وكان إماما فى صناعة الإقرء ، وله كتاب فى القراءات سماه : الإيماء . ومن القراء فى عصر الموحدين على بن محمد بن هذيل المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م وإليه انتهت رئاسة الإقرء فى شرقى الأندلس ، وعلى بن أحمد الكلتى المستوطن لفاس المتوفى بها سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م التزم الإمامة بمسجده فى فاس والإقرء فيه ستا وستين سنة ، وابن خير محمد المتوفى سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩ م وهو من أئمة المقرئين والمحدثين ، ولد ونشأ بفاس واستوطن إشبيلية ، وله فهرسة مشهورة ومنشورة بشيوخه وما اطلع عليه من كتب ، وكانت له أسايد فى القراءات متواترها وشاذها فى مجلد خاص . ومن القراء فى هذا العصر عبد الرحمن الجذامى المتوفى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م تصدّر للإقرء بسبته فى مسجد زقاق الخشلىين نحو من ستين سنة ، وابن الصقر محمد بن أحمد الأنصارى المراكشى المتوفى سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٣ م وكان مقرئا مجودًا محدثا تنسج السماع ، ويحى بن محمد الموزنى المتوفى سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥ م تصدّر للإقرء بسبته وله أرجوزة فى غريب القرآن ، وعلى بن محمد بن يوسف الفهمى المتوفى سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م سكن سلا ثم مراكش وكان قائما على القراءات آية من آيات الله - كما يقول المراكشى - فى حسن الصوت ضريرا وسمعه المنصور يعقوب صاحب موقفة الأرك فأخذ بلبه طيب نعمته ، فقربه واستخلصه لتعليم أبنائه وبناته ، وأبو عبد الله محمد بن الحسن الفاسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقول ابن الجزرى إن له شرحا على الشاطبية . ومن القراء فى عصر المرينيين ابن رشيد صاحب الرحلة المشهورة المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م بمراكش وكان يروى قصيدة حرز الأمانى المعروفة باسم الشاطبية . وابن آجروم معاصره المار ذكره بين النحاة وله شرح على الشاطبية ، وابن برى التازى على بن محمد المتوفى بفاس سنة ٧٣٠ هـ/١٣٣٠ م وله منظومة فى قراءة نافع أحد القراء السبعة سماها الدرر اللوامع . وابن هلىء محمد بن على اللخمى السبتي المتوفى شهيدا ببجل الفتح سنة ٧٣٤ هـ/١٣٣٤ م وكان أستاذًا فى القراءات والنحو ، وأبو القاسم بن عمران الحضرمى السبتي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م وله كتاب الكافى فى القراءات ، ومحمد بن محمد بن إبراهيم الخراز المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٦ م صاحب كتاب مورد الظمان فى حكم رسم أحرف القرآن أتى فيه بزوائد على سابقه ، وله شرح على قصيدة الحصرى فى القراءات . ومن القراء فى عصر السعديين محمد بن أبى جمعة الهبطى الصماتى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م مؤلف

كتاب وقف القرآن ذكر فيه الكلمات القرآنية التي يوقف عليها من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ، ولا يزال العمل جاريا في المغرب الأقصى إلى الآن في كتابة المصاحف على ما وضعه ودونته في هذا الكتاب . ولأحمد بن شعيب المتوفى سنة ١٠١٥ هـ/ ١٦٠٧ م إتقان الصنعة في قراءة السبعة ، ولعبد الواحد بن عاشر أستاذ القراءات المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣١ م شرح على مورد الظلمات في حكم رسم أحرف القرآن للخراز . ومن القراء في عصر العلويين عبد الرحمن بن القاضي المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ/ ١٦٧٢ م وله منظومة في القراءات السبع ، ومنظومة ثانية في رسم المكي في القرآن ، وكتاب في قراءة ابن كثير عالم أم القرى (مكة) وكتاب بيان الخلاف والشهير والاستحسان وما أغفله مورد الظلمات لابن الخراز . وعبد الرحمن المنجرة الصغير المتوفى سنة ١١٧٩ هـ/ ١٧٦٦ م وله حاشية على شرح التونسي المسمى الطراز في شرح ضبط الخراز في رسم أحرف القرآن ، وله أيضا حاشية على شرح عبد الواحد بن عاشر المسمى فتح المنان على مورد الظلمات للخراز ، ولمحمد بن عبد السلام الفاسي حاشية على شرح الجعبري على الشاطبية المسماة حرز الأماني ، وله كتاب في تجويد القرآن ، وكتاب ثان في طبقات المقرئين وكتاب ثالث في مخارج الحروف .

وظل المغرب الأقصى يعتمد في تفسير القرآن الكريم على ما ألفه المشرق فيه من كتب حتى إذا كنا في عصر المرابطين أخذ يظهر فيه بعض المفسرين مثل أبي بكر السبتي محمد بن يعلى الماعزى خال القاضي عياض ، وله تفسير لم يتم . وينشط غير عالم مغربي لتفسير الذكر الحكيم في عصر الموحدين مثل عبد الجليل القصري من أهل مدينة القصر الكبير المتوفى بسنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١ م وله تفسير للقرآن كان يقع - فيما يقال - في ستين مجلدا ، ولبن مصالة الفازاوي المكناسي المستوطن بأخرة « فاس » المتوفى بعد سنة ٦١١ هـ/ ١٢١٤ م وكان طوال حياته معنيا بتفسير القرآن ، وأبى الحسن بن الحصار على بن محمد الأنصاري الفاسي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م سكن سنة ومراكش وغيرها وله النسخ والنسوخ في القرآن ثلاث نسخ : الأكبر والأوسط والأصغر ومقالة في إعجاز القرآن وتشد له ابن عبد الملك المراكشي فريدة رائدة في اثنين وعشرين بيتا نظمها في المدني والمكي من سور القرآن ، ومحمد بن يوسف المزدغى المتوفى سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٨ م أقرأ ببسطة وفاس وولى الخطبة والصلاة بجامع القرويين فيها إلى وفاته ، وله تفسير حفيظ مفيد انتهى فيه إلى سورة الفتح . ومن المفسرين في عصر الدولة المرينية أحمد بن فرتون السلمي الفاسي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م وهو تلميذ لابن مصالة المار ذكره وله كتاب الاستدراك والإتمام بما في كتاب السهيلي : التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن العزيز من الأسماء والأعلام ، ومحمد بن علي بن العابد الأنصاري الفاسي نزيل غرناطة وبها كتب لابن الأحرر ، وله اختصار الكشف للزمخشري مع تجريده من آرائه الاعتزالية توفي سنة ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٤ م ولابن البناء المار ذكره

فى الرياضين والبلاغيين الباء فى البسمة ، وتفسير الاسم فيها ، وتفسير سورة الكوثر ، وتفسير سورة العصر ومتشابه اللفظ فى القرآن ، وتسمية الحروف وخاصة وجودها فى أوائل السور ، وحاشية على الكشاف للزمخشري . وولتفى فى القرن التاسع الهجرى بئى القاسم السلوى وله تفسير للقرآن الكريم .

ومن المفسرين فى العصر السعدى ابن الحاج الشطيبى المتوفى سنة ٩٦٠ هـ/١٥٥٣ م وله الباب فى مشكلات الكتاب ، وللمنصور الذهبى المتوفى سنة ١٠١٤ هـ/١٦٠٦ م حاشية على الكشاف للزمخشري وبالمثل لمحمد بن عبد الله الرجراجى قاضى تادلة تلحيد ئبى العباس المنجور ، ومن مفسرى العصر عبد الله بن طاهر الشريف المتوفى سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وله الدر الأزهر فى مناسبات الآيات والسور ، وعبد الرحمن العارف المتوفى سنة ١٠٤٦ هـ/١٦٣٧ م وله حاشية على تفسير الجلالين ، وعلى بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى ، وله تفسير للقرآن الكريم ، وتوفى سنة ١٠٥٤ هـ/١٦٤٥ م .

ومن المفسرين فى عصر العلويين إدريس العراقي المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وله حاشية على تفسير الثعلبى ، وابن عجيبة المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨٠٩ م وله البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد ، وكان يعاصره الطيب ابن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ/١٨١٢ م وله تفسير سورة الفاتحة ، وتفسير جزء من سورة البقرة ، وتفسير من سورة النساء إلى سورة غافر . وكان يعاصرها حمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م وله تفسير بعض سور القرآن الكريم وحاشية على تفسير ئبى السعود وحاشية أخرى على تفسير البيضاوى ، ولعبد الرحمن الحائلك المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ/١٨٢١ م حاشية على تفسير الجلالين .

وينشط المغرب الأقصى فى رواية الحديث النبوى ويشتهر فيها بالقرن الرابع الهجرى أبو محمد الأصلى عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ هـ/١٠٠١ م وهو منسوب إلى مدينة أصيلا على المحيط الأطلسى وبها نشأ وارتحل فى طلب الحديث إلى الأندلس . ثم رحل إلى المشرق فلقى شيوخ القيروان ومصر وحج فلقى بمكة سنة ٣٥٣ هـ بآبا زيد المروزى وحمل عنه البخارى ، وكان يعد من كبار رواته ، ولقى بها الأبهري رئيس المالكية ، وروى كل منهما عن صاحبه كما لقى الدارقطنى المحدث الكبير ، وروى كل منهما أيضا عن صاحبه ، وسمع منه البخارى ، ثم سمعه من ئبى أحمد الجرجاني ، وعاد يحمل نسخة وثيقة صحيحة من البخارى أدق صحة ، ونزل الأندلس وأثم العلماء والطلاب من كل بلد ، يحملون عنه صحيح البخارى ، ويدل بوضوح على مدى صحتها أن اليوناني الدمشقي فى القرن السابع الهجرى حين أخرج نسخة من صحيح البخارى صحيحة كل الصحة جلب أصل الأصل ، وكان أحد أربعة أصول

اعتمد عليها في المقابلة واتخذ حرف (ص) رمزاً له طوال مقبالاته على نحو ما يتضح في طبعة مصر لصحيح البخارى منذ القرن الماضى .

ونلتقى بعده بىكار بن برهون بن عيسى الفرديس السجلماسى ، وكان قد حجج ولقى بمكة بأبذر المروى وسمع منه صحيح البخارى ، وعاد إلى المغرب يحمل رواية البخارى عنه . ورواية نبي ذر كانت أحد الأصول الأربعة التي اعتمدها البيهقي في مقبالاته لإخراج نسخه من صحيح البخارى على أدق صورة علمية ممكنة ، وتسامع العلماء والطلاب في المغرب الأقصى بروايته ، فرحل إليه كثيرون من المغاربة والأندلسيين يأخذونها عنه وبذلك حظيت المغرب من قديم بروايين أصيلتين من روايات صحيح البخارى ، وكان ابن الفرديس لا يزال على قيد الحياة سنة ٤٨٦ هـ مما يجعله أول محدث كبير يلقانا في عصر المرابطون . ومن تلامذته يوسف بن عيسى بن الملقوم المتوفى سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م وقد أجاز له سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م وحضر ابن الملقوم مع يوسف بن تاشفين موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م . وكان ابنه عيسى محدثاً على مثاله ، وسمع منه ومن شيوخ عصره ورحل إلى سجلماسة . وسمع ابن الفرديس وأخذ عنه . وتنهى سبته في عصر المرابطون القاضى عياض إلى علوم الحديث ورواياته وقد توفى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م وبذلك يكون قد لحق عصر الموحدين إذ عاش في عصرهم بقية قليلة نحو خمس سنوات ، ومولده بسبته سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م وله في الحديث النبوى كتب مختلفة ، منها كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ﷺ ، وشرق هذا الكتاب وغرب ، وكُتبت له شروح كثيرة ، ومنها إكمال المعلم بصحيح مسلم ، والمعلم لشيخه المازرى الصقل المتوفى بالمهدية سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م وقد أضاف إلى شرحه لمسلم زيادات وإضافات ، ومنها مشارق الأنوار في تفسير غريب الحديث بكتبه الصحاح الثلاثة : الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم ، ويشمل ضبط ألفاظها وتفسيرها مع التنبيه على مواضع الأوهام والتصحيحات .

ومضت رواية الحديث النبوى والتأليف فيه يزدهران في عصر الموحدين ، إذ كان خلفاؤهم يعنون به بل كان منهم من يكثر من مدارسته ، حتى نُسب إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أنه كان يحفظ أحد الصحيحين : صحيح البخارى أو صحيح مسلم كما يقول صاحب المعجب ، وكان ابنه يعقوب على غراره ، ونال عنده طلبة الحديث ما لم ينالوه في أيام أبيه وجده كما يقول صاحب المعجب . ويقول ابن نبي زرع في كتابه روض القرطاس عن ابنه المأمون إدريس (٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م - ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) إنه كان إماماً في الحديث ولم يزل أيام خلافته يقرأ كتاب الموطأ وكتاب صحيح البخارى وسنن أبي داود . ومن كبار المحدثين في عصرهم أبو عبد الله بن الغزالي السبتي محمد بن الحسن ، وكان راوية للحديث واستقضى ببلده سبته ، توفى سنة ٥٩١ هـ / ١١٠٤ م ومنهم على بن عتيق المتوفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م وكان محدثاً

راوية مكررا عنى بالحديث طويلا ، ومنهم محمد بن قاسم بن عبد الكريم التميمي القاسي
 المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م رحل في طلب الحديث النبوي إلى بلاد إفريقية التونسية والبلاد
 المصرية ودمشق وكان محدثا حافظا ذاكرة للحديث ورجاله وطبقاتهم وتواريخهم ، ومن مصنفاته
 « اللعة في ذكر أزواج النبي ﷺ وأولاده السبعة » ومنها الأغذية مما جاء في الحديث ، ومنها
 تحفة الطالب ومنية الراغب في الأحاديث النبوية العلية السنية ، ومنهم أبو عبد الله بن الصيقل
 محمد بن عبد الله الحسيني القاضي المتوفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م كان راوية للحديث حافظا
 لشئونه بصيرا بعلومه عارفا برجالهم وطبقاتهم وتواريخهم ، عنى بذلك أتم عناية ودرس الحديث
 ببلده فاس واستدرك على عبد الحق في كتابه الأحكام الكبرى أحاديث كثيرة ، ومنهم أبو الحسن
 ابن القطان على بن محمد بن عبد الملك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م كان مستبحراني علوم
 الحديث بصيرا بطرقه عارفا برجالهم مميزا صحيحه من سقيم ، وله في الحديث مصنفات نافعة ،
 منها نفع الغلل في الكلام على أحاديث السنن لأبي داود في ثلاثة أسفار ضخمة ، ومنها كتاب
 في الرد على ابن حزم في كتابه المحلى مما يتعلق به من علم الحديث ، ومنها كتاب حافل جمع
 فيه الحديث الصحيح محذوف السند ، كمل منه كتاب الطهارة والصلاة والجنائز والزكاة في
 نحو عشرة مجلدات ، وله أحاديث في فضل التلاوة والذكر ، ومقالة في نعت المحدثين الحديث
 بأنه حسن . ومن محدثي عصر الموحدين عمرو بن دحية الكلبي السبتي المتوفى بالقاهرة سنة
 ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م تجول كثيرا في بلاد الأندلس والشمال الإفريقي والمشرق واستقر أخيرا
 في القاهرة وأُسند إليه السلطان الكامل رياسة دار الحديث وكانت له عنده حظوة عظيمة ،
 ومن مصنفاته الآيات البيئات في ذكر ما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات ، والمستوفى
 في أسماء المصطفى ، ومنهم أبو عبد الله بن المواق المراكشي قديما القاسي حديثا المتوفى سنة
 ٦٤٢ هـ/١٢٤٤ م وله شرح الموطأ وشرح مقدمة صحيح مسلم وتعقيب على كتاب شيخه
 أبي الحسن بن القطان في نقده لكتاب الأحكام الكبرى لعبد الحق أظهر فيه دقة معرفته بصناعة
 الحديث وعلمه مع براعة تعقيباته . ومنهم أبو الحسن الشاذلي على بن محمد المتوفى سنة
 ٦٤٩ هـ/١٢٥٢ م وكان محدثا راوية مكررا ثقة عاكفا على العلم جماعة لفائس الكتب اتقى
 منها جملة وافرة وقفها على مدرسة شيدها بسبته ، ووقف عليها من أملاكه ما يفى بنفقاتها
 ونفقات المدرسين فيها والطلاب ، وهي منبة عظيمة له . ومنهم أبو الحسن بن قطرالقاضي
 الموحدين في بلدان أندلسية ومغربية كثيرة المتوفى سنة ٦٥١ هـ/١٢٥٤ م وكان محدثا راوية
 ثقة فيما يحدث به صحيح السماع .

ومن أهم المحدثين في عصر المرينيين أبو عبد الله الأزدي محمد بن عبد الله السبتي المتوفى
 سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م روى عن علماء بلدته ، ورحل إلى الأندلس وأخذ عن شيوخها ثم
 رحل إلى المشرق فأخذ عن جماعة وافرة من شيوخ مصر والإسكندرية ودمشق وحران والموصل

وبغداد ورواسط ، وعاد إلى بلدته سنة فروع عنه كثيرون من أهلها ونزلانها ، وكان رواية مكررة ثقة ، وكثير من مروياته عن أستاذه ابن الغازي السبتي المار ذكره . ومنهم ابن رشيد المار ذكره بين القراء ، وله السُّنَنُ الأَيُّنُ في السند المُتَّعِنُ والمحاكمة بين مسلم والبخارى ، ومنهم ابن الشاط قاسم بن عبد الله السبتي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م أقرأ - عمره - بمدينة سبته ، وله حاشية على صحيح مسلم . وشرَحَ كتاب الشفا للقاضي عياض غير محدث ، ومنهم في القرن التاسع الهجري الزموري وابن السكالك المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م . ولابن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ/١٤٩٧ م اختصار فتح الباري على صحيح البخارى لابن حجر . ومن المحدثين الكبار في العصر السعدي سُقَيْنُ العاصمي السفيلي عبد الرحمن بن علي القصري المتوفى سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م رحل إلى المشرق في طلب الحديث سنة ٩٠٩ هـ/١٥٠٣ م وأخذ عن تلامذة ابن حجر : زكريا الأنصاري وغيره من الشيوخ المصريين ، وتجول في السودان الغربي ورجع إلى فارس سنة ٩٢٤ هـ/١٥١٨ م وأخذ في إلقاء الحديث على الطلاب حتى وفاته . ومن أهم تلاميذه أحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ/١٥٨٧ م ويذكر في فهرست شيوخه أنه قرأ عليه أو سمع منه كتب الصحاح الستة سوى مصنفات في الحديث أخرى مما حمله عن المشاركة والمعارفة ، مما يدل على اتساعه في الرواية . ومن محدثي العصر محمد بن قاسم القصار المتوفى سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٤ م ، وكان إماما في رواية الحديث وكان يقرئ تلاميذه صحيحى البخارى ومسلم والشفا لعياض ، ومنهم عبد الرحمن العارف المار ذكره بين المفسرين وله حاشية على صحيح البخارى .

ومن المحدثين المهمين في عصر العلويين محمد بن سليمان الروداني المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/١٦٨٣ م وله الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ ، ويقصد بالكتب الخمسة صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبي داود وجامع الترمذى وسنن النسائي ، وله كتاب ثان جمع فيه بين أربعة عشر كتابا من كتب الحديث سماه جمع الفوائد لجامع الأصول ومجمع الزوائد ضم فيه إلى الأصول الستة السابقة مسند الدارمي ومسند ابن حنبل ومسند أبي يعلى الموصلي ومسند البزار ومعاجم الطبراني الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير . ومن محدثي العصر إدريس بن محمد الحسيني الفاسي المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وله شرح شمائل الترمذى ، وشرح الأحاديث المائة الأولى من الجامع الصغير للسيوطي وتخريج أحاديث الشهاب القضاعي والدرر اللوامع في الكلام على أحاديث جمع الجوامع . ومنهم التاودي بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ/١٧٩٥ م وله زاد المجد السارى لمطالع البخارى ، وشرح الأربعين النووية .

ونشط المغرب الأقصى - منذ القرن الرابع الهجري - في الفقه نشاطا عظيما ، ودائما إذا أطلقنا الفقه في أى بلد مغربي ولم نخصه فيه بمراد به الفقه المالكي ، إذ عملت أسباب

مختلفة في أن يصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهي المنتشر بالمغرب في كل البيئات وكل الأوساط وكل البلدان ، وقد يلقانا من حين إلى آخر فقيه شافعي ، إذ كان شباب العلماء يرحلون إلى مصر ، وكان المذهب المالكي والشافعي يتنافسان فيها ، وربما اختلف بعض هؤلاء الشباب إلى حلقات الشافعية وأعجبهم مذهب الشافعي ، وقليل جدا من كانوا يعتنقون هذا المذهب على مر الحقب . وأهم فقيه مالكي نلتقي به في المغرب الأقصى بالقرن الرابع الهجري دراس بن إسماعيل الفاسي المتوفى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٢ م ، ويقال إن الفقيهين القيروانيين المشهورين نأبا الحسن القفسي وابن أبي زيد تنلمذا له ، كما يقال إنه هو الذي أدخل مذهب مالك إلى المغرب الأقصى وأنهم كانوا قبل ذلك على مذهب أبي حنيفة الذي كان يدعو إلى اعتناقه الأغلبية في القيروان . وبعد دراس يلقانا تلميذه عبد الرحيم بن أحمد الكاشي المعروف باسم ابن المعجوز السبتي المتوفى سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م لازم ابن أبي زيد القيرواني مدة وسمع منه كفايته : النوادر والمختصر ، وملتقى بلقي عمران الفاسي المار ذكره بين القراء ، وإليه انتهت رئاسة الفقهاء في القيروان ، وكان يعاصره عبد الله بن غالب المتوفى سنة ٤٣٤ هـ/١٠٤٢ م صاحب ابن أبي زيد بالقيروان وتفق عليه ، وكان يعاصرها عثمان بن مالك الفاسي المتوفى سنة ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م زعيم فقهاء المغرب الأقصى في وقته ، وله تعليقات على مدونة سحنون .

وبدخل عصر المرابطين ومن فقهاء مروان بن سمجون المار ذكره بين القراء ، وكان فقيها محدثا متفيا . ويلقانا بعده علي بن القاسم رأس أسرة بني القاسم بن عشرة بسلا المتوفى سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م وكان فقيها حافظا ومحدثا ووجه أهل بلده استقضى بها وأورث عقبه سوّدا وشرفا . وكان يعاصره أبو عبد الله التميمي الفاسي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ/١١١١ م وهو شيخ القاضي عياض الذي افتتح به فهرسته . ومن فقهاء عصر المرابطين عبد الرحمن بن محمد بن المعجوز المتوفى سنة ٥١٠ هـ/١١١٦ م كان يدرس لطلابه المدونة واستقضى للمرابطيين في عدة بلدان بالأندلس والمغرب . ومنهم عبد الله بن علي بن سمجون المتوفى سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م وكان فقيها حافظا للفروع عارفا بإقراؤها وتدريسها والفقه فيها ، ولاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قضاء الجزيرة ونقل منها إلى غرناطة سنة ٥٠٨ هـ وظل بها إلى وفاته . ومنهم موسى بن عبد الرحمن الصنهاجي المتوفى بمراكش وهو قاضيتها سنة ٥٣٥ هـ/١١٤٠ م وكان عالما بالأحكام مقدما في معرفتها حافظا للرأى ورعا .

ومع أن دولة الموحدين كانت تعتنق في الفقه المذهب الظاهري وتدعو إليه ، كما مرّ بنا في الفصل الماضي . فقد ظل المذهب المالكي حيا طوال العصر ، غير أن كتب التراجم لا توضح مدى حياته ولا مدى حياة المذهب الظاهري ، إذ تترجم لفقهاء العصر ترجمات عامة ، ولا نعرف أيهم كان ظاهريا وأيهم كان مالكيا . وأومن بأن الكثرة من القضاة كانت ظاهرية

فضلا عن كان منهم يتولى منصب قاضى القضاة ، إذ الناس على دين ملوكهم ، ولعل خير مثال لقاضى القضاة الظاهرى يوضح ما نزع أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء قاضى القضاة أو رئيسهم فى عهد المنصور يعقوب ، فإنه فجر - على هدى المذهب الظاهرى فى الفقه - أكبر ثورة على سبويه ونحاة المشرق بكتابه : « الرد على النحاة » إذ صوّب فيها سهامه على نظرية العامل التى تعد الأساس الذى أقام عليه النحاة بناء النحو مقدّرين أن العامل هو الذى يصنع الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر وهو الذى يترتب عليه ما لا يكاد يُخصّص من تقديرات وتعليلات وأقيسة مع ما يضاف إلى ذلك من تمرينات افتراضية . وابن مضاء فى هذه الثورة على النحو وقواعده متأثر فى ذلك كله - كما قلت فى تحقيق الكتاب - بالفقه الظاهرى وما ينكره على المذاهب الفقهية المشهورة من الاعتماد على الأقيسة والتعليلات مما أدى فى التشريع - كما أدى فى النحو - إلى ركام هائل من الافتراضات .

ولما سفت ذلك لأدل على أن دولة الموحدين كانت جادة فى اعتناق المذهب الظاهرى وكان قضاة القضاة جادين معها فى هذا الاعتناق حتى أن قاضيا منهم يريد أن يطبقه على علم النحو وقواعده . وبالمثل كان كثير من القضاة أنفسهم يعتقدون هذا المذهب ، غير أن كتب التراجم - كما قلت - لا توضح ذلك ، ولما أعرض طائفة من فقهاء العصر ، حاولوا أن آتين الظاهرين بينهم ، وأول من نفق عنده ابن الرامة المتوفى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م وهو من قلعة بنى حماد استوطن مدينة فاس ، واشتهر فضله فاستخلصه على بن يوسف بن تاشفين نفسه ، واستخدمه قاضيا لنفسه وطالت حياته حتى لحق عصر الموحدين ، وكان شافعى المذهب فلم يكن ظاهريا ولا مالكيا . ونلتقى بعبد الرحيم بن عمر الحضرمى الفاسى المتوفى سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م وكان فقيها مالكيا كما ينص على ذلك ابن عبد الملك المراكشى ، وكان من أهل التقوى وألف كتابا فى المذهب المالكى .

ويلقانا بعده عمر بن عبد الله بن صمع القرشى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م ، روى عن كثيرين من بينهم ابن مضاء قاضى القضاة الظاهرى ، ويقول ابن عبد الملك إنه صنف فى شواذ المذهب المالكى مصنفا ، ولا ندري هل كان مالكيا أو كان ظاهريا يتنقذ مذهب مالك . وكان يعاصره على بن خيار الفاسى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨ م وكان فقيها محدثا مشاورا (أى مما يرجع إليه القضاة فى الفتوى) ويقول ابن عبد الملك إنه كان رافضا التقليد ميالا إلى النظر والاجتهاد مفتتا أى أنه كان متصفا بنفس الصفات التى يدعو إليها المذهب الظاهرى وأصباره مما يؤكد أنه كان ظاهريا .

ونلتقى بعده بلقي عبد الله بن الصيقل المار ذكره بين المحدثين وقد تقلد منصب قاضى القضاة بعد ابن مضاء إلى أن توفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وخلفه فى منصبه الفقيه ابن دافال موسى بن

عيسى بن عمران حتى وفاته سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م وتقلد المنصب بعده الفقيه علي بن محمد بن أبي عشرة ، ونفس منصبهم يؤذن بأنهم كانوا جميعا ظاهرية . ويختم فقهاء الظاهرية في عهد الموحدين بأبي الحسن بن القطان المار ذكره بين المحدثين ، ولا نستدل على ذلك فقط بما ذكره ابن عبد الملك المراكشي في ترجمته من أنه كان معظما عند الخاصة والعامة من آل دولة بني عبد المؤمن وأنه حظي كثيرا عند المنصور فإنه الناصر فالمنصور بن الناصر فبعد الواحد أنسى المنصور فالمنصور بن الناصر ، بل نستدل بما هو أهم . فإن من ترجموا له ذكروا أنه رأس طلبة العلم بمراكش ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة وما ذلك ، إلا لأنه سخر نفسه للدعوة بل ليصبح شيخ طلبتها ، وكانوا يطلقون اسم الطلبة على دعائهم . وكان لا يزال يقرأ لهم كتب ابن تومرت ويشرح لهم ما فيها من مبادئ الدعوة . وأيضاً لما يؤكد ظاهرته وانتصاره للمذهب الظاهري ما ذكر من أن أبا علي بن الطوير المراكشي عمر بن محمد الصنهاجي معاصره الفقيه المالكي ألف كتاباً في إثبات القياس الذي ينكره الظاهرية على المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة : مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي ولبن حنبل ، فردّ عليه باسم الظاهرية منكر القياس بكتاب سماه المنزاع في القياس المناضلة من سلك غير المذهب (الطريق الواضح السديد) في إثبات القياس .

وانتهى عصر الموحدين وبدأ عصر المرينيين وفيه توقّف في القضاء العمل بالمذهب الظاهري وعاد للمذهب المالكي سلطانه كاملاً في القضاء والفقه ، ومن فقهاه حينئذ محمد بن إبراهيم الفسلي التاجر بمدينة آسفي المتوفى سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥ م كان بعد القراخ من مجلس تدريسه الموطأ والسير والنحو يقيم في حانوته لإدارته وكسب عيشه . ومنهم أبو الحسن الصغير الزرويلي علي بن عبد الحق المتوفى سنة ٧١٩ هـ/١٣٢٠ م القاضي بتازة ثم بفاس وله تقييد على المدونة . ومنهم تلميذه الشطلي محمد بن علي بن سليمان المتوفى غريفاً في أسطول أبي الحسن المريني سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م وكانت له حظوة عنده وكان يقرأ عليه . ومنهم تلميذه القباب أحمد بن قاسم المتوفى سنة ٧٧٩ هـ/١٣٧٨ م قال فيه ابن الخطيب في الإحاطة : « صدر من صدور عدول الحضرة الفاسية ، فقيه نبيل مدرك جيد النظر شديد الفهم ، وله شرح مسائل الفقيه ابن جماعة المصري في البيوع ويقول ابن فرحون في الديباج إنه شرح مفيد ، وله أيضاً شرح قواعد الإسلام للقاضي عياض ، وفتاوى مجموعة نقل عنها الونشريسي في كتابه الميعار . ومنهم محمد بن الفتح المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م وهو الذي أدخل مختصر خليل بن إسحق إلى المغرب الأقصى . ومنهم محمد بن أحمد بن غازي المتوفى سنة ٩١٧ هـ/١٥١١ م وله شفاء الغليل في حل مقفل خليل ، بين فيه - كما يقول الأستاذ كنون - هفوات بهرام ، والمواضع المشككة في مختصر خليل ، وله أيضاً تكميل التقييد أكمل به تقييد أبي الحسن الصغير علي المدونة .

ومن أهم الفقهاء فى عصر السعدين اليسئى الفاسى محمد بن أأءء التوفى سنة ٩٥٩ هـ/١٥٥١ م وهو منسوب إلى قبيلة بربرية تسمى يسئى بالباء أو بالناء وكان فقه فاس ومقئها ، ومنهم مبارك بن على الجزولى التوفى سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م ويقول أأءء بن القاضى إن قراءته لمأئصر خليل فى الفقه المالكى بصورة أأرير المسائل فقط كعادة أهل مصر والمشرق . ومنهم المنجور أأءء بن على المار ذكره بين المأءئىن وهو أستاذ المنصور الذهبى وأأازة إأازة عامة فى فهرسه ، وله فى الفقه شرح المنهج المأئب للزقاق . ومنهم عبد الواحد الحمىدى التوفى سنة ١٠٠٣ هـ/١٥٩٤ م وكان عالما بالفقه مسأئصرا لمسائل خليل دءوبا على الإقرار والتأدرىس ، ومنهم بمأى بن محمد السراج الفاسى التوفى سنة ١٠٠٨ هـ/١٥٩٩ م وكان بأدرىس لطلابه مأئصر خليل بن إسأق المالكى المصرى وشبا من أأفة ابن مالك والمأنى .

ومن الفقهاء المأهمىن فى عصر العلوىن عبد القادر الفاسى التوفى سنة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠ م وله كتاب باسم المسائل الفقهفة عرض فى العبادات الاءفة ، وأأوبة فقهفة عن طائفة من النوازل . ومنهم المسناوى الاءائى محمد بن أأءء التوفى سنة ١١٣٦ هـ/١٧٢٤ م وله رسالة نصرة القأض فى الرد على من أنكر مشروعيته فى صلاأى النفل والفرض ، وصرف الهمة إلى أأقق معنى الائمة . ومنهم أبو على أأسن بن ربال التوفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨ م وله أاشفة كببرة على مأئصر خليل وأاشفة أخرى على شرح أأرشفى علىه ، وله أيضا أاشفة على شرح مآارة لأأفة ابن عاصم ، ومنهم الأواى بن سودة المأكور بين المأءئىن وله أاشفة على شرح الزرقائى المصرى لموطأ مالك ، وإأعاف الناظر والسامع بأشرح مسائل أأامع لأخلل وشرح أأفة ابن عاصم وشرح الأربعفن النووفة ، وشرح الزقاقفة لأبى أأسن على بن قاسم الزقاق الفاسى التوفى سنة ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م .

ولابد أن نشفر - وقد أنهنا الكلام عن الحركة الفقهفة - إلى ظاهرة مهمة كان لها أأأفر فى ازدهار الفقه وفتاويه ، ونأصد ظاهرة المأامة والمأامفن بأأب القضاء ، وهى أى اسأبعت فى المغرب كما فى الأندلس ظاهرة الأوفق فكان هناك موأقون وكانت هناك كب للتوفق يؤلفها الفقهاء الأبراء بالقضاء والتأوى وهى أوضأ كففة كتابة العقود فى المأمالات وأفرها كالأزارعات واستأأارات العقار . وكرفر أأسن الوزان فى كتابه وصف إفرقفا الأأئى عنهم فى عهده لأوائل القرن العاشر المأجرى^(١) .

وأن أن أأأئ عن أصحاب علم الكلام أو علم العقفةة كما يسمة المأاربة ، وقد مر بنا فى الفصل الماضى أأئ عن المأزلة : الفرفة الكلامفة المشهورة فى القرن الأائى المأجرى وأن

(١) وصف إفرقفا ص ٣٤٠ .

داعيا لواصل بن عطاء رأس الاعتزال أو دعاة هاجروا إلى المغرب الأقصى واستطاعوا أن يدخلوا في عقيدة الاعتزال جموعا كبيرة منه ببلدة عُرفت بهم تسمى البيضاء وأنهم أيضا استطاعوا - فيما يقال - إدخال إدريس مؤسس الدولة الإدريسية في عقيدتهم ، وأن محمد بن إدريس الثعلبي بنى لهم بلدة بالقرب من مدينة أصيلا سماها البصرة إحياء لذكرى وأصل البصري مؤسس الاعتزال في البصرة بالمراق .

ويبدو أن الاعتزال في المغرب الأقصى أخذ - فيما بعد - يتلاشى وتلاشت مدينتهم « البصرة » معهم فلم يعد لها أثر . والمهم أن المغرب الأقصى عرف عقيدة الاعتزال الكلامية مبكرا ، ومعروف أنها تقوم على خمسة مبادئ هي - كما مر بنا في الفصل الماضي - وحدانية الله بحيث لا يشبه المخلوقات ، وأيضاً وحدانيته في صفاته بحيث تُعَدُّ نفس ذاته ، والعدل على الله فهو لا يظلم بحال ، وإنفاذه وعده في النعيم ووعدته في الجحيم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الإيمان والكفر .

ودارت معارك عنيفة بين أهل السنة والمعتزلة القائلين بأن الإنسان حر مختار في إرادته وأعماله وأن ما جاء في القرآن الكريم من آيات تفيد التجسيد على الذات العلية تؤوّل فمثل ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ تعني أن قدرته فوق ما لهم من قدرة ، وأهل السنة القائلين بأن إرادة الإنسان وأعماله بقضاء الله وقدره يقولون إن مثل قوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ تؤمن بها حسب الظاهر ولا نعرف كيفية هذه اليد ، حتى إذا ظهر أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م نفذ إلى تأسيس مذهب كلامي جديد متوسطا فيه بين المعتزلة وأهل السنة إذ ذهب في مسألة أفعال الإنسان إلى أنها خلقها وصنعا وللإنسان كسبا وإرادة ، ووافق المعتزلة في تأويل الآيات التي تفيد التجسيد على الذات العلية . ومر بنا أن المعتزلة كانوا يرون أن صفات الله مثل السميع البصير هي عين ذاته بينما كان أهل السنة يرون أنها زائدة على الذات قائمة بها وأخذ الأشعري فيها برأى أهل السنة . وحاول التوفيق بين الطرفين المتعارضين في مسائل أخرى (انظرها في كتاب العصر العباسي الثاني ص ١٧٧) . وعمّ مذهب في العراق والشام ومصر ، وحمله إلى إفريقية التونسية أبو الحسن القابسي وأبو عمران الفاسي ، وأصبح هذا المذهب : مذهب الأشاعرة المذهب الكلامي السائد في البلدان المغربية .

ونجد في عصر المرابطين علماء يعرضون هذا العلم : علم الكلام أو العقيدة على طلابهم مثل أبي القاسم المعافري السبتي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م ومثل أبي بكر السبتي المار ذكره بين المنسرين . وتدخل في عصر الموحدين ومر بنا أن ابن تومرت مؤسس دعوتهم زار العراق وجلب منه إلى عقيدته مبادئ من الشيعة والمعتزلة ، فمن الشيعة أخذ ثلاثة مبادئ : مبدأ الإمام ومبدأ ظهور المهدي الذي يصلح العالم في آخر الزمان ويسمى الإمام المهدي ومبدأ

العصمة من الوقوع في الآثام وقد أطلقها جميعا على نفسه ، فتلقب بلقب الإمام المهدي المصوم ، وكان يرفع لذلك نسبه إلى الرسول ﷺ كما في المعجب للمراكشي . وأخذ من المعتزلة مبدأ توحيد الله أو وحدانيته بحيث لا يشبه المخلوقات ولا يجوز عليه التجسيد بأي صورة من الصور وما جاء في القرآن من آيات يفهم من ظاهرها التجسيد تؤول على نحو ما صنع ذلك المعتزلة . وشركت الأشعرية المعتزلة في اعتناق مبدأ عدم التشبيه على الله ، وكانت المعتزلة تمد هذه الوحدانية إلى الصفات - كما مر بنا - فهي عين ذاته لا قائمة بها كما يقول أهل السنة والأشعرى فمثلا الله عليهم جميع بصير أي أن ذلك عين ذاته . وأخذ ابن تومرت بذلك كله ، أي أنه أخذ مبدأ الوحدانية عن المعتزلة بخلافه ، كما أخذ عنهم فكرة أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الإيمان والكفر ، وأيضا فإنه أقام دعوته - كما يقول صاحب المعجب - على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو أحد مبادئ المعتزلة المذكورة آنفا . وله في الدعوة إلى غلته مصنفات هي : أعز ما يطلب ، الإمامة ، العقيدة المرشدة . ومن أكبر الدعاة لعقيدة ابن تومرت البيهقي وله مصنف فيه ومصنف ثان في دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن بنهما على الدعوة للموحدين ، ومن كبار دعائهم عبد الله بن حماد بن زغبوش المكاسي وله مصنف في إثبات الهداية الموحدية بالاستقراء من الكتاب العزيز . ومن أهم دعائهم أبو الحسن بن الإشيلي على بن محمد بن خليل اللخمي نزهل مراكش ، وكان متحققا بعلم الكلام كما يقول ابن عبد الملك المراكشي ، ويقول إنه صنف كتابا سماه « المراج » قدم به على الخليفة عبد المؤمن الموحدي سنة ٥٤١ هـ للهجرة ، فحظي عنده ورقاه إلى رتب عليّة نال بسببها دنيا عريضة^(١) ، ولعل الكتاب كان في الدعاية لعقيدة الموحدين ، إذ نراهم يستندون إليه القيام على إرشاد دعائهم المستعين بالطلبة ، وكان يقرأ لهم كتب ابن تومرت صاحب الدعوة ، ويقول ابن صاحب الصلاة في كتابه المن بالإمامة أنه سمع عليه مع هؤلاء الطلبة كتب ابن تومرت : عقيدة التوحيد ، وهي المسماة العقيدة المرشدة ، وكتاب العقيدة المباركة المسماة بالطهارة ، وكتاب أعز ما يطلب بقرأة أبي عبد الله بن عميرة . ويقول ابن صاحب الصلاة إن القاري كان إذا قرأ فصلا مما ذكرته هذه الكتب من عقيدة الموحدين شرح أبو الحسن بن الإشيلي غامضها وفتح ألقاها على الطلبة حتى يذلّلها ويبينها أتم بيان^(٢) .

ومن خلفوا أبا الحسن بن الإشيلي وقاموا على بث تعاليم دعوة الموحدين في طلبتهم أو بعبارة أدق في دعائهم أبو الحسن^(٣) بن القطان المار ذكره بين المحدثين وقد ذكرنا هناك أن من ترجموا له قالوا إنه : « رأس طلبة العلم بمراكش » ويعني هذا أنه كان يقوم على إرشادهم - فكان

وما بعدها .

(١) الذيل والنكسة ٣٠٤/١/٥

(٢) نظر ترجمته في الذيل والنكسة ١٦٥/١/٨ .

(٣) المن بالإمامة تحقيق د . عبد الهادي التازي ص ١٦٠

يشرح لهم كتب ابن تومرت ويفسرها لهم ، كما كان يشرح لهم مذهب الظاهرية ، ويحتج كما أسلفنا لما يذهبون إليه من إبطال القياس فى الأحكام الفقهية والاعتصار على الكتاب والسنة . ومن علماء الكلام فى عصر الموحدين عثمان السلاجى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م وله فى عقيدة الأشعرية منظومة سماها البرهانية فى العقيدة الأشعرية ، ومنهم محمد بن عبد الكريم الفندلاوى الفاسى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م وكان ماهرا فى علم الكلام ، ومثله معاصره على بن عتيق الأنصارى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠١ م ومنهم أبو الحجاج نموى الفاسى المتوفى سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م روى عن السلاجى البرهانية . وكان ميرزا فى علم الكلام ، ومنهم أبو الحسن بن الحصار المار ذكره بين المفسرين وله فى علم الكلام مصنف مفيد ومقالة فى الإيمان والإسلام وعقيدة سماها تلقين الوليد وخاتمة السعيد ، ومنهم يوسف بن محمد المكلاتى الفاسى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م وكان ميرزا فى علم الكلام .

ومن أصحاب علم الكلام فى عصر المرينيين أبو الحسن الطنجى البغرني المتوفى سنة ٧٣٤ هـ/ ١٣٣٤ م وله شرح على البرهانية للسلاجى سماه : المباحث العقلية فى شرح معاني العقيدة البرهانية . ومنهم أحمد زروق المتوفى سنة ٨٩٩ هـ/ ١٤٩٤ م وله شرح العقيدة القدسية . ومن المتكلمين فى العصر السعدى البشيرى محمد بن عبد الرحمن الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله رسالة فى خلف الوعيد . ولأحمد المنجور المار ذكره بين المحدثين شرحان على العقيدة الصغرى والكبرى للسوسى وله شرح مقاصد ابن زكرى فى التوحيد . وللحفصى المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٧ م شرح العقيدتين الكبرى والصغرى فى التوحيد للسوسى ، وتكاثرت شروحهما فى العصر كثرة مفرطة . ومن أصحاب علم الكلام فى عصر العلويين عبد القادر الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله كتاب العقيدة . ومنهم أبو على الحسن اليوسى المار ذكره بين علماء المنطق ، وله شرح على السنوسية الصغرى وحاشية على شرح السنوسى للعقيدة الكبرى ولمحمد المهدي الفاسى المتوفى سنة ١١٠٩ هـ/ ١٦٩٨ م النبذة اليسيرة واللمعة الخطيرة فى مسألة خلق أفعال العباد الشهيرة ومرأى بن توفيق الأشعرى فيها بين المعتزلة وأهل السنة . ولعمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٤ م حاشية على شرح السنوسى لعقيدته الكبرى .

٥

التاريخ

نشط المغرب الأقصى فى كتابة التاريخ منذ عصر المرابطين ، ومن أهم من كتب عن دولتهم يحيى بن الصيرفى المؤرخ الفرائطى ، فقد ألف عنهم كتابا باسم دولة لمتونة ، وهو -

وإن كان غرناطيا - نزل مراكش طويلا ، إذ يذكر في ترجمته أنه كان من موظفي أمرائها ، وتوفي سنة ٥٥٧ عن تسعين سنة . ومنذ عصر الدولة اللتونية أو دولة المرابطين يصبح تاريخ الأندلس جزءا متصفا لتاريخ المغرب الأقصى . وكان يعاصر ابن الصيرفي القاضي عياض السبتي المار ذكره بين المحدثين وله ترجمة للرسول ﷺ باسم كتاب الشفا كما مر بنا ، وكتاب في أعلام مذهب مالك باسم المدارك وكتاب في شيوخه باسم الغنية .

وتكاثرت في عصر الموحدين كتب السيرة النبوية العطرة وكتب تاريخ دولة الموحدين وكتب التراجم والفهرسة ، أما السيرة فيكتب فيها محمد بن قاسم بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م كتاب لللمعة في ذكر أزواج النبي ﷺ وأبنائه السبعة . ولأبي العباس العزفي المتوفى سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، ولابن دحية المار ذكره بين المحدثين كتاب التنوير في مولد السراج المنير ، وكتاب سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب وكتاب المستوفى من أسماء المصطفى ، والابتهاج في المعراج ، وله التحقيق في مناقب أبي بكر الصديق ، وله في التاريخ العام التبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، وتاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم ، وأعلام النصر المين في المفاضلة بين أهل صفين .

ونلتقى في تاريخ دولة الموحدين بثلاثة من مؤرخي الدولة الرسميين بجانب اثنين من المؤرخين غير الرسميين ، وأول المؤرخين الرسميين البيهقي وله كتاب عن ابن تومرت ودعوته وكتاب ثان عن دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن المؤسس الحقيقي للدولة . ويكتب مؤرخ رسمي ثان من حواشي الدولة ورجالها المقربين هو عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى أواخر القرن السادس الهجري كتابا عن دولة الموحدين حتى عصره باسم : « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين » مشيرا بذلك إلى الآية القرآنية : ﴿ ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ ويدل عنوان الكتاب أنه شديد التعصب لتلك الدولة كما هو واضح في قسمه الثاني الذي بقي لعصرنا من تاريخه والذي تحتفظ به مكتبة البودليانا في أوكسفورد ، ويشمل تاريخ دولة الموحدين من سنة ٥٥٤ هـ/١١٦٠ م إلى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢ م وحقق هذا القسم الدكتور عبد الهادي التازي مع مقدمة قيمة ونشره في دار الغرب الإسلامي . وهو تفصيل لأحداث السنوات الأربع الأخيرة من حياة عبد المؤمن المؤسس الحقيقي للدولة وعشر سنوات لأحداث السنوات العشر الأولى من حياة ابنه يوسف . ونلتقى بمؤرخ غير رسمي هو عبد الواحد المراكشي الذي كان حيا في العقد الثالث من القرن السابع الهجري ، وله كتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » من لدن فتح الأندلس حتى

سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م وهو يعرض فيه تاريخ الأندلس ودولة المرابطين ، ويفصل القول فى دولة الموحدين بقلم مؤرخ حبيب محابد دون المبالغة التى نلمسها عند البيهقي وابن صاحب الصلاة .

وما نلبث أن نلتقى بالمؤرخ الرسمى الثالث لدولة الموحدين وهو أبو محمد حسن بن أبى الحسن على بن القطان المتوفى حوالى منتصف القرن السابع الهجرى وكان من رجال الدولة ، ومر بنا ذكر أبيه أبى الحسن بين المحدثين وبين دعاة الموحدين إذ كان من كبار دعائهم . وأكبر الظن أن ابنه كان مثله من دعائهم كما سيتضح عما قليل فقد صنف كتابا باسم نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، وسقط الكتاب من يد الزمن إلا قطعة من سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م إلى سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م وحققها تحقيقا سديدا مع مقدمة قيمة الدكتور محمود مكى وقد كان متحاملا على دولة المرابطين تحاملا شديدا حتى جعل حكامها مجسمن للذات العلية وكفارا مع ما لهم من خدمات عظيمة للإسلام وانتصارات كبرى على النصارى فى الأندلس ، ولكنه التمسبب البغيض . وعرض فى كتابه ترجمة ضافية لابن تومرت أشاد فيها به وبدعوته ، حتى ليرفع نسبه إلى رسول الله ﷺ وبطيل الحديث عن أنه معصوم وعن كرامات عبد المؤمن ، ويذكر أن ابن تومرت فرض على أصحابه أن يقرأوا بعد صلاة الصبح كل يوم حزبا من القرآن الكريم ، وحزبا له ضمنه حديثا عن القدر والإيمان وأنه الإمام المهدي الواجب اتباعه وكفر من لم يطعه ولم يصل عليه هكذا يقول أبو محمد بن القطان .

والترجمة دعاية سافرة لابن تومرت ودعوته ، ولا بد أن بقية الكتاب المفقودة كانت على هذه الشاكلة من المبالغة المفرطة فى الدعاية للموحدين . ونضم إلى هذه الكتب التاريخية كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشى ، وهو تاريخ للمغرب والأندلس منذ الفتح إلى آخر أيام الموحدين . وهو أهم مصدر تاريخي لهما ، ونشرت منه أولا أجزاء متفرقة ، وأمكن أخيرا نشر أربعة أجزاء منه فى بيروت . ونشر القسم الخاص منه بالمرابطين والموحدين فى طبعة جديدة بدار الغرب الإسلامى فى بيروت وهو أوسع وأدق مصدر للدولتين . ونضم أيضا إلى الكتب السالفة كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول طبع الدار البيضاء وهو عن دولتى المرابطين والموحدين . ومن كتب التراجم فى هذا العصر كتاب المستفاد فى مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد لمحمد بن قاسم بن عبد الكريم وله أيضا بستان العابدين وريحان العارفين فى ذكر أهل الصفوة والانقطاع إلى الله بالخلوة . ومنها التشرف إلى رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى التادلى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م ولابن الواق المار ذكره بين المحدثين شيوخ الدارقطنى ، ولأحمد بن يوسف ابن فرتون الفاسى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م ذيل كتاب الصلة لابن بشكوال وهو مصدر أساسى لابن الزبير فى كتابه

صلة الصلة ، وتكثر الكتب المسماة بالفهارس والبرامج عن الشيوخ لمؤلفيها وما حلوا عنهم من الكتب .

ونمضى إلى عصر المرينين وملتقى بلوى عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسى الأنصارى المراكشى التوفى سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م وموسوعته : الذيل والتكملة لكللى الموصول والصلة ، وهى موسوعة كبرى طبع منها بعض أجزاءها بتحقيق د . إحسان عباس والجزء الثامن فى مجلدين بتحقيق د . محمد بنشرية ، وهو من أهم مراجعى فى الحركة الثقافية حتى نهاية القرن السابع الهجرى . وما نلبث أن نلتقى بآبن لوى زرع الفاسى التوفى سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧ م وقبل بل توفى سنة ٧٤١ هـ وهو صاحب كتاب « روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » وهو أجمع تاريخ للمغرب من قيام الدولة الإدريسية إلى سنة ٧٢٦ من سنوات عهد السلطان المرينى أبى سعيد عثمان بن يعقوب ، وكان يعاصره ابن هتية اللخمى السبتي المار ذكره بين النحاة صاحب كتاب الفرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة ، وكان فى عصرها أبو الحسن الجزنائى صاحب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . وملتقى فى القرن التاسع الهجرى بالحضرمى وكتاب الكوكب الوقاد فيمن حل بسنة من العلماء والصلحاء والعباد ، وله بلوغ الأمانة ومقصد اللبيب فيمن كان بسنة من مدرس وأستاذ وطبيب فرغ منه سنة ٨٢٤ هـ/١٤٢١ م وبلغنا محمد بن غازى المكناسى المار ذكره بين الفقهاء وله الروض المتون فى أخبار مكناسة الزيتون ، ولمجهول كتاب الذخيرة السنية فى أخبار الدولة المرينية والموجود منه ينتهى عند سنة ٦٧٩ للهجرة .

ونلتقى فى عصر السعديين بآبن عسكر المتوفى سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٩ م وله كتاب دوحة الناشر فى علماء القرن العاشر وهو منشور بتحقيق الدكتور محمد حجي . وبلغنا أحمد بن القاضى التوفى سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٧ م وله ترجمة للخليفة المنصور الذهبي باسم المتقى المنصور على مآثر الخليفة المنصور ، وله درة المجال فى أسماء الرجال ، وجذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس ، وغنية الرائض فى طبقات أهل الحساب والقراض . كما يلقانا عبد العزيز الفتشالى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م وله كتابه مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا بتحقيق الأستاذ عبد الله كنون . وينبغى أن نضم إليهم أحمد بلبا التبوكتي السوداني نزىل مراكش التوفى سنة ١٠٣٢ هـ/١٦٢٣ م وفيها ألف نيل الابتهاج وهو تذيل لكتاب الدياج لابن فرحون وألف أيضا كتاب كفاية المحتاج اختصارا لكتابه السابق . ويختم مؤرخو العصر بأحمد المقرئ التوفى سنة ١٠٤١ هـ/١٦٣٢ م وله أزهار الرياض فى أخبار عياض ، والموسوعة الأندلسية : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها

لسان الدين بن الخطيب « ألفه بالقاهرة ، وله أيضا روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيه من أعلام الحضرتين مراكش وفاس . ودائما تؤلف فى المغرب الأقصى كتب برامج وفهارس كثيرة .

ومن أهم المؤرخين فى عصر العلويين أبو عبد الله محمد الإفرائى المراكشى المتوفى بعد سنة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م وله « نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى » فى تاريخ الدولة السعدية وصدر الدولة العلوية ، وأيضاً « صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادى عشر » ومثله فى الأهمية لمن الطب القادرى المتوفى سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م وله نشر الثانى فى أخبار أهل القرن الحادى عشر والثانى ، وتذيل على كفاية المحتاج لأحمد بابا .

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

عرب المغرب الأقصى - كثرة الشعراء

(أ) عرب المغرب الأقصى

مر بنا . فى الفصل الثانى - أنه كانت تعيش فى بلاد المغرب - من قديم - سكان من قبائل البربر الكثيرة ، وأنه نزلها قبل الفتح العربى الإسلامى عناصر جنسية مختلفة ، منها الآسيوى مثل الفينيقيين والقرطاجيين واليهود ، ومنها الأوربى مثل الإغريق والرومان والفندال . وفى الفتح نزلها عرب من آسيا قحطانيون يماثيون وعدنانيون مضريون ، ونزلها معهم من كان فى جيوشهم من إيران والعراق والشام ومصر ، ممن تم تعريبهم وحسن إسلامهم . ولم يفتنحو جميعا المغرب ابتغاء الاستيلاء على طبيئاته وخيراتة ، وإنما قكمروه ابتغاء نشر الدين الحنيف ، فهم فائقون ومجاهدون فى سبيل الله وسبيل دينه القويم يريدون أن ينشروه فى أطباق الأرض . وسرعان ما أخذ المغاربة يدخلون فيه أفواجا ، لما رأوا فى تعاليمه من تسوية مطلقة بين أتباعه ، بحيث يصبح لمن يعتنقه من البربر وغيرهم جميع ما للعربى الفاتح من الحقوق فى شئون المال وغير شئون المال ، وبحيث يعم العدل المطلق الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه . وقد حُكموا قبل العرب بالفينيقيين والرومان والإغريق ، وجميعهم كانوا يرهقونهم بضرائب فادحة ، وكانوا يسومونهم صورا مقينة من الظلم التمس والقهر البشع ، وما إن فتح العرب البلاد المغربية حتى ارتفع عنها القهر والظلم والضرائب الباهظة وحل مكان ذلك كله العدل التام الذى يكفل للناس حقوقهم دون أى ظلم أو حيف ويسوى بينهم فى مواجهة الحياة بقسطاس سليم . وليس ذلك كل ما راعهم فى الدين الحنيف فقد راعتهم فيه أيضا بساطته الروحية بالقياس إلى المسيحية التى ظل الرومان والإغريق يحاولون نشرها فى ديارهم ، إذ ليس فيه فكرة التثليث المعقدة فى المسيحية ، إنما هو إله واحد يدبر الكون ، ولا معبود سواه من أوثان وأحجار وكواكب مما كانت تعبده جماهير البربر قبل الفتح العربى . لذلك لا تعجب إذا رأينا البربر فى القرن الهجرى الأول يقبلون جماعات ووحدا على اعتناق الإسلام ، بفضل حملته من الفاتحين الذين تحولت كثرتهم إلى ما يشبه معلمين يعلمون إخوانهم من البربر تعاليم دينهم الحنيف .

وصَدَرَ ولاية القرن الأول الهجرى عن تلك التعاليم فى معاملتهم لهم معاملة تقوم على الإخاء والعدل والمساواة ، فقد مر بنا أن حسان بن النعمان (٧١ - ٨٦ هـ) اتخذ من قبيلة جراوة الزناتية كية عددها اثنا عشر ألفاً ألحقها بجيشه ، وبذلك أصبح البربر المسلمون رفقاء سلاح للعرب ، يقتسمون معهم بالسوية غنائم الحرب ، وليس ذلك فحسب فإنه ولَّى على تلك القبيلة ابناً للكاظمة التى هزمها فى معركة ضارية ، وبذلك أصبح البربر يقودون الكتائب فى الجيش العربى ويتولون بعض الولايات مثل إخوانهم من العرب تماماً ، وكان من تدبيره السياسى الحكيم أن وزع على صغار الفلاحين من البربر مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية التى كانت تمتلكها الحكومة البيزنطية ، مما جذب إليه وإلى الإسلام قلوب البربر ، ووضع الخراج على الأرض بعدالة تامة وبدون أدنى ظلم أو عسف . ودعّم العرية إذ دوّن الدواوين وجعلها اللغة الرسمية ، فأضاف حاجة البربر إليها فى تخاطبهم مع الحكومة العرية وولاتها الكثيرين إلى حاجتهم إليها فى أداء شأئ الإسلام وتلاوة كتابه التى تعد جزءاً لا يتجزء من اعتناق البربرى للدين الحنيف . وخلف حسناً موسى بن نصير على ولاية المغرب (٨٦ - ٩٦ هـ) فأحكم مثله المساواة التامة بين العرب والبربر فى جميع الحقوق وجميع الشئون الخاصة بالحكومة ، وقد فتح منطقة زغوان وصار على رأس جيش عربى بربرى حتى المغرب الأقصى يرتب شئون الولايات التى قسم إليها المغرب ، وقد جعل منها للمغرب الأقصى ولايتين : ولاية السوس أو سجلماسة فى الجنوب وولاية طنجة فى الشمال ، وجعل على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد الوردفجوى ، وأبقى معه - فى قول بعض المؤرخين - تسعة وعشرين ألف جندى : سبعة عشر ألفاً من العرب واثنى عشر ألفاً من البربر ، وأمر العرب أن يعلموا إخوانهم البربر ما يتيسر من القرآن الكريم وتعاليم الإسلام . وفى سنة ٩٢ هـ/٧١١ م كتب موسى إلى طارق أن يغزو الأندلس - أو بعبارة أدق - إيبيريا ، فجهز جيشاً عدده اثنا عشر ألفاً اجتاز الزقاق إلى إيبيريا ، ونزل فى مكان سُمى باسمه جبل طارق ، وفتح طارق فى برهة قصيرة شطراً كبيراً من إيبيريا ، واستمد موسى ، فجهه موسى بجيش ، وأتما معا فتح إيبيريا .

وأتما سقنا ذلك كله لندل على أن البربر أصبحوا سريعاً منذ القرن الأول الهجرى الأمة عربية تدين بالإسلام وتنطق جماهير كبيرة منها العرية ، وما نكاد نتقدم فى العقد الثانى للهجرة حتى يتولى على المغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ م فينقض سياسة ولاية المغرب قبله ويأخذ فى فرض الضرائب الباهظة على البربر ، فما يستدير عام ولايته الأول حتى يقتلوه ، وما هى إلا سنوات حتى تولى على المغرب فى سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م عبيد الله بن الحبحاب ، فأوحى إلى عماله فى جميع أنحاء المغرب أن يفرّقوا بين البربر والعرب فى الخراج وجميع الشئون المالية ، واستشعر البربر فى ذلك غشاً لا يطاق ، وكان قد نزل بديارهم كثيرون من الخوارج وخاصة من فرقى الصفرية والإباضية ، وكثر الأولون فى المغرب

الأقصى والثغور في جبل نفوسة بليبيا وأعجب البربر بمادتهما وما تقرّر من التسوية المطلقة بين العرب والموالي بربراً وغير بربر في شئون المال والضرائب وشئون الحكم حتى في تولي الخلافة ، فينبغي أن يتولاها أكفأ المسلمين عربياً أو بربرياً أو عبداً حبشياً . واعتنق المذهب الصفري كثيرون من أهل المغرب الأقصى ، وتولّى زعامتهم مسيرة ثم خالد بن حيد الزناتي ، وواقعوا جيوش الدولة وانتصروا عليها مراراً ، وتسحب منهم سحكون واسول فكان دولة صفرية في سجلماة ظلت حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، أما صفرية الشمال في طنجة وإقليمها فقد ظلت تنازل الولاة في عهد بني العباس حتى قضى عليهم يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) . ويطيب لبعض المستشرقين أن يجعلوا من اعتناق البربر لمبادئ الخوارج في النصف الأول من القرن الثاني الهجري دليلاً على أن المغاربة أو البربر حاولوا أن يرفضوا الإسلام حينئذ والعروبة معه ، وهو رأى مخطئ أشد الخطأ ، لأن البربر لم يفكروا يوماً في رفض دينهم الحنيف الذي اعتنقوه ولا في رفض العربية التي تغلغت في أعماقهم وعبروا بها عن مشاعرهم وعواطفهم وأهوائهم ، إنما كل ما هناك أنهم ثاروا على الظلم والعسف في جمع الضرائب المجحفة التي ينكرها الإسلام كما ينكر التفرقة بين العربي المسلم والبربري المسلم في الحقوق للمالية وغير المالية ، ثورتهم إنما كانت مطالبة شرعية بتطبيق مبادئ دينهم وما انتهاه من العدل المطلق بين أتباعه عرباً وبربراً وغير بربر . ومن أكبر الدلالة على مدى ما حدث بين البربر من شعور عميق بالعرب أن نجد قبائلهم جميعاً تحاول كل منهم - منذ القرن الثاني الهجري - أن تلقى لها نصيباً يصلها بالعرب ، ومر بنا في الفصل الثاني أن قبائلهم كانت ترجع إلى جذمين أو أصلين كبيرين هما البرانس والبتر ، وكلت البرانس تحاول الانتماء إلى العرب القحطليين ، بينما كانت القبائل البتر تحاول الانتماء إلى القبائل العدنانية .

وما نتقدم في المغرب الأقصى إلى سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ م حتى نجد إدريس بن عبد الله الحسنى يصل بفراره من وجه العباسيين إلى مدينة وُلّى وينزل على إسحق بن محمد زعيم قبيلة أوربة ويعرفه بنفسه فيكرمه إكراماً لا مزيد عليه ويطلعه على سره وقته يريد أن يؤسس للعلوين بالمغرب الأقصى دولة ، فجمع له عشائر قبيلته وبايعته ، وصمعت به قبائل زواغة ومكاسة وغمارة وعشائر من زنّانة فوفدت عليه وبايعته ولم يلبث أن جهز جيشاً نازل به تادلة جنوبى ولى وتأسست على المحيط ، وكان بعض أهلها لا يزال وثنياً أو يؤمن باليهودية أو المسيحية ، ففتح حصونهم وأسلموا جميعاً . وبذلك تأسست دولة الأدارسة في ولى وسرعان ما أسس إدريس الثاني خليفة أبيه إدريس مدينة فاس في سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م .

وكانت تلك الدولة الإدريسية أول دولة إسلامية عربية تأسست في المغرب الأقصى ، ومضى إدريس الثاني وأبناؤه وأحفاده إلى نهاية دولتهم سنة ٣٠٤ هـ/٩١٦ م ينشرون الإسلام السنّى في تلك الديار ويطهرونها من الصفرية والرافضة ، وفتح إدريس الثاني أبواب دولته لوفود شخصيات

عربية من القيروان والمشرق ، ووفد عليه مئات أسكنهم فى أحد شطرى مدينة فاس وسمى لذلك باسم العدة القروية ، ولما أخفقت ثورة الفقهاء فى قرطبة على الحكم الرضى وطردهم منها ولّى مئات منهم وجوهم نحو مدينة فاس فأسكنهم إدريس الثانى الشطر المقابل لعدة القرويين، وسمى لذلك العدة الأندلسية . وأخذ الأدارة منذ أيامهم الأولى يعنون بفتح الكتابات فى المدن وتحفيظ الناشئة القرآن الكريم ، وأخذت تنشأ فى المساجد سريعا حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومن يعلمون الناس العربية والطق السديد بها ، وبذلك كله رسخ الإسلام ورسخت العروبة فى المغرب الأقصى إلى الأبد . وأخذت الدراسات الدينية واللغوية تنشط فيه لمعهد الأدارة وبعد عهدهم ، ولايلث كثيرون من طلاب العلم فيه يريدون أن يتزودوا بأكبر حظ فيفدوا على القيروان ومصر وبلاد المشرق للاستماع إلى كبار العلماء فيها مالكية وغير مالكية ويعودوا بما حملوه من العلم إلى بلداتهم يعلمونه فيها ، وما يكاد يتتصف القرن الرابع حتى يصبح للمغرب الأقصى علماء وفقهاء وعُدثوه الذين تعنى كتب التراجم بإعطاء معلومات عن حياتهم مثل دراس بن إسماعيل الفاسى ومعاصره لى جيدة وغيرها كثيرون .

وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى حول منتصف القرن الخامس الهجرى وتنزل قبائلها وعشائرها فى برقة وتونس والجزائر شرقا وغربا وقلما تسقط عشائر منها إلى المغرب الأقصى ، وكان مستمرا فى نشاطه العلمى والأدبى بفضل جامع القرويين أو جامعه الكبرى التى أنشئت سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م وكانت سيدة فاضلة من مهاجرة القيروان تسمى أم البنين الفهرية بنت هذا الجامع فاستحال - من حينئذ - سريعا إلى جامعة ، وهى تعد أقدم جامعة إسلامية عربية فى العالم العربى ، ومضى العلماء فيها يعنون بالعلوم الدينية واللغوية ونشروها تلاميذهم فى أرجاء المغرب الأقصى . ونمضى مع التاريخ حتى القرن الخامس الهجرى ، فدخل الفقيه الجليل عبد الله بن ياسين بلاد صنهاجة فى جنوبى المغرب الأقصى ليعلمهم القرآن الكريم وكان حصيفا سيوسا بعيد النظر فعمل على تثبيت دعائم الإسلام فى السوس ودرعة وسجلماة وما وراء تلك البلدان فى الصحراء المترامية ، وكون من صنهاجة جيشا لردع ما انتشر فى بعض بلدان المغرب الأقصى من الزيف والفساد ، وبدأ بمدينة تارودنت ومن بها من روافض سموها باسم البجلية نسبة إلى عبد الله البجل الرافضى الذى نزلها فى القرن الرابع الهجرى وأنشأ فيها نخلته المارقة ، فحاربهم عبد الله بن ياسين واتنصر عليهم وردهم إلى الإسلام السنى ، ومضى إلى تامسة ونازل فيها يرغواطة التى كانت قد اعتنقت نخلة زائفة ضالة ، وأنزل الله عليه النصر المبين ، غير أنه استشهد فى المعركة لسنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م وله فضل تطهير البلاد من الفرق والنحل الضالة وفضل تأسيس دولة المرابطين . وكان على أمرها - حين وفاته - أبو بكر بن عمر اللتوني ، فأسلمها إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين ، فاستولى على مدينة فاس وبنى مراکش سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وجعلها عاصمة للدولة ، أما أبو بكر بن عمر فمضى

إلى الجنوب فى الصحراء يجاهد فى سبيل الله ونشر دينه حتى بلغ السودان ونهر النيجر ، وتوفى سنة ٤٨٠ ، وصار كل ما فتحه يدين بالولاء ليوסף فظلم أمره وشأنه . ومن سياسته الرشيدة أنه كتب إلى الخليفة العباسى ببغداد يبايعه ويطلب منه تقليدا بولايته على ما بيده من البلدان وخاطبه الخليفة بلقب أمير المسلمين ، وثبت له هذا اللقب من حينئذ ، وبذلك أدخل المغرب الأقصى فى إطار الجامعة الإسلامية العربية ، واستصرخه أمره الأندلس ضد نصارى الإسبان الشماليين ، فغير الزقاق بجنوده ، وسحق أعداء الإسلام فى وقعة الزلاقة المشهورة فى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م . وأخذ الأندلسيون من حينئذ يندمجون فى سكان المغرب الأقصى بالزيارة والمصاهرة وخدمة دولة المرابطين والعمل فيها كتابا وقضاة وموظفين وعلماء يقدون على جامعة القرويين ومساجد مراكش وستة وطنجة وأصيلا وغيرهما من بلدان المغرب مما كان له أثر بعيد فى استكمال تعربها .

وتحول مقاليد الحكم فى المغرب الأقصى إلى دولة الموحدين ، ومر بنا فى الفصل الثانى - أن القبائل الهلالية بالجزائر : الأتبيج وزغبة ورياحا وقره وضعت يدها فى يد صنهاجة لحرب عبد المؤمن فأرسل إليها جيشا هزمها وولت على وجوهها لا تلوى على شيء تاركة وراءها نساءها وأولادها ، فأمر بمحلبهم إلى مراكش وأجرى عليهم نفقات واسعة ، وكتب إلى أمراء تلك القبائل المنهزمة بأن أبناءهم فى الحفظ والصون . وبذل لهم الأمان والكرامة ووفدوا عليه ، فرد عليهم نساءهم وأولادهم وأجزل لهم فى العطاء ، واحتفى بهم ، فملك قلوبهم ، ويقال إنه أحلفهم على السمع والطاعة له وعونه على الجهاد فى الأندلس مع القبائل المغربية ، وفى عودته من فتح المهدية سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م نقل من تلك القبائل الهلالية ألفا من كل قبيلة وأسكنهم البلاد المغربية متويا بنظره الصائب أن يعدمهم عن الجزائر حتى تتخلص من غيبتهم فيها وأن يشغلهم بالجهاد فى الأندلس . وأتاح ذلك للمغرب الأقصى جمهورا كبيرا منهم امتزج بسكانه وأنسى كثيرين منهم الرطانة البربرية وأبدلهم منها الفصاحة العربية . وفى سنة ٥٥٨ عزم عبد المؤمن على الجواز إلى الأندلس فأرسل إلى الأعراب فى بجاية وإقليمها يستصرخهم إلى الجهاد فى سبيل الله بالأندلس فاستجاب له منهم - كما يقول صاحب المعجب - جمع ضخم ، فأنزل بعضهم نواحي قرطبة وبعضهم نواحي إشبيلية ، وأقاموا هنالك . ودعا ابنه يوسف الخليفة بعده قبيلة رياح بالجزائر لنفس الغاية ، فوفد عليه منهم حشد ضخم وضعوا أنفسهم - كما مر بنا - تحت تصرفه ، وعبر كثير منهم معه الزقاق للجهاد فى الأندلس . وخرجت بقايا رياح وجشم والأتبيج فى الجزائر على ابنه يعقوب وردها إلى طاعته ، ونقلها إلى المغرب الأقصى فأنزل قبيلة رياح منطقتى الجبط وأزغار ، وأنزل قبيلة جشم منطقة تامسنة وقبيلة الأتبيج منطقتى دكالة وتادلة . وأخذ كثير من عشائر هذه القبائل ينساج داخل البلاد وعلى المحيط وفى السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ومنح يعقوب نوميديا أى الصحراء جنوبى

الجزائر والمغرب الأقصى لعامة العرب ، وتغلغلوا إلى وادى ملوية ودرعة ، وتغلغلت قبيلة المعقل فى زمن ابن خلدون بقفار المغرب حتى المحيط . ومعنى ذلك كله أن بربر المغرب الأقصى اختلطوا اختلاطا واسعا بأعراب الجزائر عن طريق التعايش والمصاهرة والسكنى واتصل ذلك قرونا بحيث استحال سكان المغرب الأقصى شعبا عريا لغة ودينا وتناولا للحياة إلا فى بعض الجهات النائية فى شواحق الجبال بأوراس والصحراء . وبكل ما قدمت يتضح أن لدولة الموحدين فضلا عظيما فى تعرب المغرب الأقصى بما نقلت إلى أقاليمه من جموع العرب النازلين فى الجزائر وأكبر الظن أنها لم تكن غايتها نقلهم إعدادا لجهاد الإسيان النصارى فحسب ، بل كانت غايتها أيضا تعرب المغرب الأقصى نهائيا بما أنزلت فيه من جموعهم الماثلة . أما ما يقال من أن ابن تومرت كان يؤلف كبة بالبرية والبربرية وأنه كان يحاضر الجماهير باللغتين وأن الدولة - فى بدء عهدها - بدلت الخطباء والأئمة فى جميع البلاد ، وأنها اشترطت أن لا يؤم الناس ولا يخطبهم إلا من يحفظ عقيدة التوحيد لابن تومرت باللسان البربرى . فلم يكن ذلك منها سياسة رجعية كما يقول بعض المعاصرين إنما كان ذلك منها حرصا - والبربرية لا تزال منتشرة فى المغرب الأقصى - على إيصال عقيدة الدولة إلى العامة المغربية ، وكان لا يزال فيها جماهير بربرية لا تحسن العربية .

(ب) كرة الشعراء

تبدأ الحركة الأدبية فى المغرب الأقصى مع نشأة الدولة الإدريسية أواخر القرن الثانى المجرى إذ كان بين أمراءها شعراء متعددون يتقدمهم إدريس الثانى (١٨٦ - ٢١٣ هـ) وتلاه من أبنائه وأحفاده وأسرته غير شاعر ، وأخذ الشعر يجرى على ألسنة بعض الشعراء المغاربة يمدحون به الأدارسة على نحو ما نجد عند إبراهيم بن أيوب التكورى ، وكانوا يهجون به خصومهم من البرغواطيين وغيرهم . ويظل الشعر يسيل على ألسنة بعض الشعراء فى القرنين الثالث والرابع المجرين ، حتى إذا كان القرن الخامس المجرى طارت شهرة بعض الشعراء إلى البلدان العربية وخاصة الأندلس ، إذ نجد ابن بسام يترجم فى الذخيرة لابن القابلة السبتي ويحى بن الزيتونى الفاسى وللغففى أبى بكر المرادى ويذكر أنهم وفدوا على الأندلس مادحين لأمرء الطوائف ، وأن آخرهم أنتجع أمراء المرابطين بالمغرب الأقصى فى أوائل دولتهم ، وولاه محمد بن يحيى بن عمر اللمتونى قضاء معسكره المجاهد فى بلاد السودان ، ويقول : « أخرجت مما وجدت من شعره ونثره ما يستخف رواسى الجبال ، ويستوفى ضروب السحر الحلال » . وينزل طنجة فى الربع الأخير من القرن الخامس المجرى الشاعر القيروانى على بن عبد الغنى الحصرى المبدع فى شعره ، وتكوّنت حوله سريعا ندوة أدبية . ونمضى إلى عصر المرابطين ، فيشتهر لعهدهم ابن زبناح والقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ويترجم عماد الدين الأصفهائى

فى كتابه الخريدة لنفر من شعراء المغرب الأقصى لعهد المرابطين ، هم اليمان بن فاطمة وعبد الله بن حماد المراكشى وعبد المؤمن بن يحيى السجلماسى وعمد المكناسى المعروف بلقب ينطلق وحماد بن الرنا الفاسى وعلى بن يقظان السبى القاتل :

أحسنُ إلى مصرَ حينَ مَئِمَّرَ بها مستهَامَ القلبِ محرقَ الكُبدِ

وهو حب قديم بين مصر وشعراء المغرب الأقصى .

ويأخذ الشعراء هناك فى التكاثر منذ عصر الموحدين وكانت الدولة حفية بهم وبالحركين العلمية والأدبية ، وكان عبد المؤمن المؤسس للدولة وحفيده يعقوب شاعرين ، وكان ينظم الشعر غير أمير موحدى ، ومن شعراء تلك الدولة عثمان بن عبد الله السلالجى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ومحمد بن حبوس المتوفى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م وأبو الربيع الموحدى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ولبن الياسمين المتوفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م وأبو حفص عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ولبن تولى القرشى التيملى المتوفى بمصر سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م وفى نفس السنة محمد بن على السلالقى ، وأبو العباس الجراوى المتوفى سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وعبد الواحد المراكشى المتوفى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ولبن دحية المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م ولبن الخبازة ميمون الخطلى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م ولبن العابد الفاسى المتوفى حوالى سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٣ م ولبن عبدون المكناسى المتوفى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ولبن المحلى الترفى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م والخليفة المرتضى الموحدى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م .

ورَعَت الدولة المرينية الحركين الأدبية والعلمية وكثر الشعراء فى عهدها وفى مقدمتهم شعراء البيت المرينى من أمثال عبد الواحد بن يعقوب وعمر بن عثمان والسلطتين أبى الحسن وأبى عنان وأخيه عبد العزيز ، وملتقى بعشرات من الشعراء من أمثال محمد بن عمر الدراج المتوفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م وعبد العزيز المزورزى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م ومالك بن المرحّل المتوفى سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م ولبن عبد الملك المراكشى صاحب كتاب الذيل والتكملة المتوفى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م وأبى العباس العزفى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م ومحمد بن عمر بن رشيد المتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢٢ م والرحالة القاسم بن يوسف السبى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م ولبن شبرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م ولبن شبيب الطبيب الأديب المتوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م مثل عبد المهيمن الحضرمى ، ومحمد بن عبد الرحمن للكردى المتوفى سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م ومعاصره منديل بن آجرؤم وأبو القاسم الشريف المتوفى سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م وأبو عبد الله الزناتى المتوفى سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧٢ م ومحمد بن مصادف المتوفى سنة ٧٩٢ هـ وفى نفس السنة أحمد بن عبد المنان ، وعبد الرحمن

المكودى المتوفى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م ومحمد بن جابر المكتاسى المتوفى سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م وأحمد الحباك المتوفى سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م والبهلول الوطاسى وإبراهيم بن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م ومحمد بن أحمد بن غازى المتوفى سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م ولبن بجيش المتوفى سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م وفى نفس السنة الغزفى الفاسى وأحمد الدقون المتوفى سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م وعلى بن موسى بن هرون المتوفى سنة ٩٥١ هـ / ١٥٤٤ م وعبد الواحد الوائشيسى المتوفى سنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م ومحمد بن عبد الرحمن الكراسى المتوفى سنة ٩٦٤ هـ / ١٥٥٧ م وغير هؤلاء كثير .

وخلفت الدولة السعدية الدولة المرينية ومضت ترعى العلماء والأدباء ، وبلغ السلطان المنصور الذهبى الغاية فى ذلك ، إذ فتح السودان وجاءته منه كنوز الذهب فألقى بكثير منها فى حجور الفقهاء والشعراء الذين كان يجمعهم إلى مجالسه ، وكانت مجالس علمية أدبية يتناظر فيها العلماء فى الفقه وفى الحديث والتفسير ومختلف فروع العلم إذ كان - كما يقول ابن القاضى فى كتابه درة الحجال - له قدم راسخة فى كل فن من معرفة الشعر والخبر والمنطق والمعاتى والبيان والأصولين والفقه واللغة والتفسير والحديث وعلومه والحساب والميعة والمهندسة والنحو وغير ذلك وكان شاعرا كما كان عالما وعمَّ بنوالة الشعراء والعلماء ، فازدهرت لعهدده الحياتان العلمية والأدبية ازدهارا لعل المغرب الأقصى لم يعرفه من قبله . وملتقى فى عصره وعصر الدولة السعدية عامة بكثير من الشعراء مثل القصرى الفاسى المتوفى سنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٩ م ومعاصره سعيد الحامدى المتوفى بعده بقليل وأحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٦ م ومحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ م ومعاصره داود الدغوغى ، والزمرورى المتوفى سنة ١٠٠١ هـ / ١٥٩٢ م ومحمد بن عبد الواحد الحسنى وأخيه أحمد التوفيين سنة ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م وعلى بن منصور الشيطمى المتوفى سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م والزهرهونى المتوفى سنة ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م ومحمد بن على الفشتالى المتوفى سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م وأحمد بن القاضى صاحب درة الحجال المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م وعبد العزيز الفشتالى وعلى بن أحمد الشامى التوفيين سنة ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م ومحمد الوجدى الغماد المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م ولبن عاشر المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م ولبنى عبد الله المكلاى المتوفى بعد سنة ١٠٤٩ هـ / ١٦٣٩ م ومحمد المساوى الدلائى المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م والطيب بن المساوى المتوفى سنة ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٦ م . ومن ذكر أيضا فى عصر الدولة السعدية عبد الواحد الحميدى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وعبد الواحد السجلماسى مفتى الحضرة أيام المنصور سنة ٩٣٣ هـ / ١٥٢٧ م ومحمد بن عمر الشاوى سنة ٩٤٣ هـ / ١٥٣٧ م وإدريس بن راشد الحسنى سنة ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م ومحمد بن يعقوب الآيسى سنة ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩ م

ولمى على المسفىرى سنة ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م وبسوق المقرى أسماء طائفة كبيرة من الشعراء فى كتبه : روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيه من أعلام الحضرتين مراکش وفاس ، ومنهم من تقدم ذكره آنفا مثل عبد العزيز الفشتالى والحوزالى وابن القاضى ، ومن لم يتقدم ذكره أحمد بن الغرديس التغلبى وأحمد بن محمد الآيسى ومحمد بن عبد العزيز الفشتالى وأحمد المرید المراكشى وأبو القاسم الوزير الفستلى وعلى بن عمران السلاسى ومحمد بن رضوان التجارى وعبد العزيز الجيار والحسن بن يوسف الزياتى .

وترعى الدولة العلوية بدورها الحركتين العلمية والأدبية ، ومن الشعراء لعهدا محمد بن محمد بن لمى بكر الدلائى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م وأحمد الدغوى معاصره ، وعبد الرحمن بن القاضى المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م وأبو سالم العياشى المتوفى سنة ١٠٩٠ هـ / ١٠٧٩ م والرودى المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م وعبد الرحمن الفاسى المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م والحسن اليوسى الصوفى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩٢ م ومحمد البوعناني المتوفى بعد سنة ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م وأحمد بن الحاج المتوفى سنة ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م وعبد السلام القادري النسبة المتوفى سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م ومحمد بن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م وأحمد بن عبد القادر التاتسوى المتوفى سنة ١١٢٧ هـ / ١٧١٥ م ومحمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ هـ / ١٧٢١ م والحسن بن رجال المعدائى المتوفى سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م وعبد القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ وعبد الحاج الدلائى المتوفى سنة ١١٤١ هـ / ١٧٢٩ م ومحمد بن زكري المتوفى سنة ١١٤٤ هـ / ١٧٣١ م وعلى مصباح الزرويلى المتوفى سنة ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م وعبد الوهاب أدراق المتوفى سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م وعبد المجيد الزبادى المتوفى سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٥٠ م ومحمد بن الطيب الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦ م وأحمد الملالي السجلماسى المتوفى سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م وأبو مدين الفاسى المتوفى سنة ١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م وابن الزنان المتوفى سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م ومحمد بن الطيب القادري المتوفى بنفس السنة وأبو حفص عمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م والهامى بن الطيب أنصار وأحمد بن المهدي الغزال التوفيان سنة ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م والتاودى بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م ومحمد بن عثمان المكناسى المتوفى سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م ومحمد الطيب بن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ومحمد الرهونى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م ومحمد بن الحاج التوفى سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م ومحمد بن عبد السلام ابن ناصر المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٤ م والعربى المسارى المتوفى سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٥ م وابن عمرو الرباطى المتوفى سنة ١٢٤٣ هـ / ١٨٢٧ م .

شعراء الموشحات والأزجال

(أ) شعراء الموشحات

أخذت تنشأ - منذ عصر دولة المرابطين - علاقات أدبية بين الأندلس وبين المغرب الأقصى وقدم من الأندلس إلى دياره بعض شعراء الأندلس بحثا عن رعاة لشعرهم ، وكان بينهم غير وشاح ، وأول وشاح أم تلك الديار على بن عبد الغنى الحصرى القيروانى الكفيف المهاجر إلى الأندلس منذ سنة ٤٥٠ للهجرة فقد عبر الزقاق ثلثة إلى طنجة سنة ٤٨٣ وأمضى بها الشطر الأخير من حياته وكان وشاحا وشاعرا بارعا فالتف حوله كثيرون من شباب طنجة ينشدهم أشعاره وموشحاته وقد أشد الصفدى إحداها فى كتابه : « توشيع التوشيع » . وأوغل بعده ابن اللبنة الوشاح المشهور المتوفى سنة ٥٠٧ للهجرة فى ديار المغرب حتى بجاية فى الجزائر ونزل على أميرها باديس الحمادى (٤٩٨ هـ) ومدحه بموشحة بديعة أنشدها صاحب فوات الوفيات فى ترجمته . وأهم منه ابن بنى الوشاح الأندلسى نزىل سلا - بجوار الرباط على المحيط - على بنى عشرة قضاتها ، وكانوا بحورا فياضة فى الجود فغمروه بعباياهم وخاصة يحيى بن على بن القاسم وأخويه أحمد ويوسف ، وله فيهم موشحات كثيرة ، إذ أقام لديهم مددا متطاولة . وظل وراء هؤلاء الوشاحين الراحلين أو المهاجرين وشاحون كثيرون فى الأندلس يهدون موشحاتهم إلى حكامها من الأمراء المرابطين مثل ابن باجة المتفلسف وموشحاته البديعة فى لى بكر بن تيفلويت المرابطى والى سرقسطة .

وعلى هذا النحو أخذت تتوثق الصلة بين الوشاحين الأندلسيين والشباب المغربى ، فإذا من هؤلاء الشباب من يعكف على موشحات الحصرى وابن بنى وابن باجة وأضرابهم حتى تمثل عذوبة النغم فيها وحسن اختيار الألفاظ وأخذ ينشئ على غرارها موشحات مغربية تفيض نعومة وسلاسة وحلاوة جرس ، ولم يتحقق ذلك ثورا فى عصر المرابطين القصير ، إنما حدث منذ أول عصر الموحدين التالى لعصرهم على لسان ابن غزلة ، وسفرد له ترجمة ، وتلاه غير وشاح مثل لى حفص عمر السلى المتوفى سنة ٦٠٢ غير أنه لم تؤثر له موشحة . وجاء بعده فى العصر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامى وجميع موشحاته نبوية فى مديح الرسول ﷺ ، وسنخصه بترجمة - وملتقى أواخر عصر المرينيين زمن الوطاسيين بوشاح بارع هو ابن سعيد عثمان المكناسى ، وله موشحة نبوية بديعة أنشدها ابن القاضى فى كتابه عن الخليفة المنصور والمقرى فى الجزء الثانى من أزهار الرياض ، يستهلها بقوله^(١) :

(١) تظر الملتقى المنصور على مآثر الخليفة المنصور ص ٨٢١ وأزهار الرياض ٢/ ٢٢٩ .

يا غَرْيَبَ الحَيِّ مِنْ حَتَّى الحَيِّ أَنْتُمْ عَيْدِي وَأَنْتُمْ غُرِّي

وهو استهلال رائع لما سيتلوه من المدح النبوي وقد عارض بها موشحتين قفلهما سبني
لابن سهل وابن الخطيب ، وهما بالترتيب : هل درى ظلى الحمى - وجادك الفيث . وفى
نهاية الموشحة يقول :

هَيْتُ فِي أَطْلَالِ كَيْلِي وَأَنَا	ليس فى الأطلال لى من أَرْبِ
ما مرادى رامةً والمنحنى	لا ولا كَيْلِي وسُعْدَى مَطْلَبِي
إنما سؤل وقصدى والمنى	سَيِّدُ العُجْمِ وتاجُ القَرْبِ
أحمدُ المختار طه من سَمَا	الشريفُ بنُ الشريفِ الكيسِ
خاتمُ الرُّسلِ الكريمِ المتَمَي	طاهرُ الأُصلِ زكى النفسِ

فهو إن هام صباية بأطلال لى ليس له من مأرب فيها ولا فى تغنية برامة والمنحنى حيث
اللقاء المأمول ولا مطلبه لى ولا سعدى ولا غيرهما بمن يذكرهن إنما سؤل وقصده وكل مناه
رسول الله سيد العجم وتاج العرب . والموشح بالغ الروعة ، ويذكر له الأستاذ ابن تاروت
موشحا على غاراه نختمه بهذا الانتهال لربه :

طامعٌ فى رحمة الله وما	خاب عَيْدٌ طامعٌ لم يَنَاسِ
يا إلى جُذِّ علينا كرمًا	يا كريمًا قبل أخذ الأنفسِ

وما من مسلم إلا ويطمع فى رحمة الله الغفور الرحيم .

ويكثر الوشاحون فى عصر السعدين ، وفى مقدمتهم الخليفة المصور الذهبى ، وكان
واسع الثقافة عالما مؤلفا ، كما كان أديبا شاعرا ، وازدهر العلم والأدب فى المغرب الأقصى
بأيامه ، واستحالت مجالسه إلى مناظرات علمية متعمقة ومساجلات شعرية مع وفرة جوائزه
وعطاياه ، وبنوه المؤرخون غربا وشرقا به ، وعليه قصر ابن القاضى كتبه : المتقى المصور
على مآثر الخليفة المصور تحدث فيه عن نسه وحبه وشيوخه وخلاته وسياته وشماله
الحميدة وتعظيمه الميلاد النبوى وغزواته وعلو همته ، ويلم من حين إلى حين ببعض أشعاره ،
ويذكر أن له موشحات كثيرة ، وينشد له موشحة ، يقول المصور الذهبى فى غصنها الأخير^(١) :

قلتُ له وقد نهَّد	وجَدُّ فى حَرْبِي ^(٢)
وغلَّبَ الظُّمَى الأسدُ	ففاز بالقلبِ
الشمسُ برَّجُها الأسدُ	فانسَحَ إلى قلبى

وهو يستغل ما يقوله الفلكيون من أن برج الشمس الأسد ، فيقول لصاحبه وقد اكتمل

(٢) نهدت الجارية : اكتمل شبلها .

(١) المتقى ص ٦٦٢ .

لها شبابه وجدت في حربه غلب الظبي الأسد ، إذ الظبي شمس سنا جمالا ، ولابد أن نخل
الشمس في برجها برج الأسد ، وواضح أنه يكتنئ عنها بالظبي وعنه بالأسد نظرفا . وكان
أحمد بن القاضى وشاحا ، فتشده المقرى في ترجمته بكتابه : « روضة الآس العاطرة الأنفاس »
موشحا نبويا ، استهله بقوله (١) :

لاحتراز البان وقتَ السَّحَرِ هامت الأرواح
وقيان الطير فوق الشجر تجلب الأفرارح
يا شفيقَ الروح هاتِ القَدَحَا من دنان الحان
قهوةً تُكَبِّ قَلْبِي الفَرَحَا تطربُ النشوان
كل من دارت عليه شطحا مِن يَدَيَّ وَشَنانٍ (٢)

رواضح أنه استهل المدحة النبوية بالحديث عن الطبيعة الفاتنة وقت السحر وقد هامت بها
الأرواح ، والطير فوق الشجر تصدح بأغان تجلب الأفرارح . وبلتفت إلى ساقى الخمر الصوفية
فى السحر يطلب إليه أن يناوله قدحا دهاقا منها يشبع فى قلبه الفرح والبهجة ، وكل من دارت
عليه كأنما يغيب عن نفسه فيشطع شطحات متوالية . ويتجه فى النصن الأخير من الموشح
للرسول منشدا :

يا رسول الله غَوَتْ ومذَّ يا منيع الجار
أنت - والله - الكريمُ المعتمدُ لنزع الدار
كُنْ شفيعى يا نبيا لا يُرَدَّ بِنُكْ المخار

وهو يسأل الرسول استغاثة ومددا لا ينقطع ، إذ هو النيث المردار ، ويضرع أن يكون
شفيعه ، ويشير إلى أن شفاعته فى أمته يوم الحشر لا ترد . ونمضى إلى عصر العلوين فلتقى
بوشاح بارع هو ابن زاكور وسنفرد له ترجمة ، ويلقانا بعده محمد بن الطيب العلمى تلميذه ،
وموشحاته تموج بالعدوية ، غير أنه اتجه بها نحو الخمر والمجون . وحرى بنا أن نتوقف قليلا
للحديث عن ابن غرلة وابن الصباغ وابن زاكور .

ابن (٣) غرلة

لسنا نعرف شيئا عن نشأته ، إنما نقاجأ به فى عصر عبد المؤمن (٥٢٤هـ / ١١٣٠م -
٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م) ، وأغلب الظن أنه عاش شطرا من حياته فى عصر المرابطون ، وهو أول
مغربى تمثل الموشحات والأزجال ، ويقول صفى الدين الحلى فى كتابه : « المعامل الحالى » إنه

الحل تحقيق د . حسن نصار ، نشر حجة الكتاب (راجع

الفهرس) . ونظير موشحه فى النبوغ للمغربى ٣٢٠/٣

(١) روضة الآس ص ٢٦٣ .

(٢) زستان : فائر الطرف .

(٣) انظر فى ابن غرلة كتاب المعامل الحالى لصفى الدين

كان ينظم الموشح والرجل والمزمن فى القنن أى أنه كان يلحن أحيانا فى الموشح ويعرب فى الرجل ، والمزمن من الزمنة وهو المستلحق بالقوم ، فالموشح والرجل المزمان كل منهما مستلحق بأصله . ويقول صفى الدين إنه كان يلحن أحيانا فى الموشح ويعرب فى الرجل قصدا منه واستهتارا ، ويقول : إذ القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السك . وكان ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئا من موشحاته فى كتابه : « دار الطراز » . ويقول صفى الدين مسترسلا : ومن موشحاته المزمنة الموشحة الطنقة الموسومة باسم « العروس » وفيها يصور عشقه لرميلة أخت عبد المؤمن الموحدى خليفة الموحدى ، وقد قتل بسببها لما وقع فى نفسه من مظلما وما يليه من اجتماعه بها . ويقال إنه كان حسن الصورة جليل القدر ذا عشيرة ، وكلت هى أيضا جليلة القدر جميلة الخلق فصيحة تنظم الأزجال الرائقة الفاتحة ، ويشد صفى الدين مطلع الموشحة وما يليه على هذه الشاكلة :

من يصيد صيدا / فليكن كما صيدى ،
صيدى التزاة

واقتضت وخشيئة
فى ردا سوسية
نهى شيه حورية

من مراتع الأسد
كيف لأصول
ظية تجول
صاغها الجليل

إذ تيسر فى الرد
والردا مع النهدي
رب ذات ليلة
والرقيب فى غفلة
رمت منها قبله

تشتى رويدا
تعتن الغلالة

زرزنها وقد نامت
والنجوم قد مالت
عند ضمها قالت

لا تكن متعدى
وتفرط العقيد

فر فر وإهدا
تكسر النبلا (١)

وواضح فى الموشح العذوبة والسلاسة وصفاء الألفاظ وحسن اختيارها .

وواضح أيضا ما فى القفل الأخير من لحن فى شطره الثامى والرابع : « لا تكن متعدى - وتفرط العقيد » والأصل : « لا تكن متعديا - وتفرط العقيد » بفتح الدال ، وهو لذلك موشح مزمن ملحق بالموشحات المعربة . ويقال إن ابن غرله حين قدم ليقبل نظر فى الناس من حوله وارتجل فقرة أشدها من نفس وزن هذا الموشح يستجد بعشيرته لتأخذ بثأره قائلا :

(١) النبلا : الأساور بالترمية المدرجة .

بَدَتْ مِنْهُ قُتُورُ
سُلٌّ مِنْهُ بَنَارُ
فَهَلْ يُؤْخَذُ النَّارُ

خَذَهَا الْأَسِيلُ
طَرَفُهَا الْكَحِيلُ
هَا أَنَا الْقَتِيلُ

قَدْ أُسِرْتُ عَيْدًا وَلَمْ أَكُنْ بِالْعَبْدِ
مُتُّ لَا عَمَالَهُ فَاطْلُبُوا دُمِي بِعَدَى

وفى كتاب العذارى المائتات فى الأزجال والموشحات لفليب الخازن موشح لابن نباتة ص ٧ وقيل إنه لابن غرلة وموشح ثان لابن غرلة ص ٢٣ وقيل إنه لصدر الدين بن الوكيل وموشح ثالث لأحمد بن حسن الموصلى ص ٦١ وقيل إنه لابن غرلة . والإجماع متفق على أن له موشح العروس السالف ، وهو يصور مهارته فى اصطفاة اللفظ العذب والملاءمة بينه وبين غيره فى حسن الجرس وحلاوة النغم .

ابن الصباغ ^(١)

يقول المقرئ فى الجزء الثانى من أزهار الرياض : « هو الشيخ الإمام الصالح الزكى الصوفى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامى » ويذكر المقرئ أنه قرأ له موشحات فى كتاب ألفه بعض الأئمة ورفعه للسلطان المرتضى الموحدى (٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م - ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) وأكثر المؤلف فيه من موشحاته وأشعاره ففتح المقرئ منها غرراً من الموشحات وهى اثنا عشرة موشحة وقصيدتين ومخمساً وجميعها فى المدح النبوى وآخر ما أورد له قوله :

تَرَكْتُ امْتِدَاحَ الْعَالَمِينَ وَلَذْتُ مِنْ مَدَائِحِ خَيْرِ الْخَلْقِ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
سَاجِعُهَا كَهْفَى وَجْهِنِى وَمَلَجِى لَعَلَّى بِالْأَمْدَاحِ أُسْتَوْجَبَ الْبَيْتُ

وموشحاته وقصائده فى الذروة من المدح النبوى ، وهو يث فيها هياما ملناعا لأنه لا يستطيع للثول فى حضرة الرسول ﷺ وزيارة قبره الشريف واكحال عينيه بنوره . ويشكو شكوى مرة من البعد عن محبوبه ويأمل دائماً أملاً حاراً فى القرب منه ولفاته كما يأمل فى شفاعته من عذاب النار التى لا تطاق . ودائماً يتبنى وقفة فى ذلك الحمى وتلك الربوع ، ودائماً يتجدد شوقه ويتجدد صلبته ويتجدد هيامه ، ويرسل أناته وزفراته ولوعاته ودموعه النهمرة ، يقول فى مطلع أول موشحاته :

أَلَفَ الْمُضْنَى الشُّجُونَا وَارْتَضَى الْأَحْزَانُ دِينَا
فَوْقَ صَنْعِ الْوَجْتَيْنِ أَرْسَلَ الدُّمْعُ الْمُشُونَا

(١) انظر فى ابن الصباغ وموشحاته أزهار الرياض ٢٣٠/٢ وما بعدها .

يَنْقَطِعُ الْأَيْسَامُ حَزَنًا وَبُكَاءٌ وَعَوِيلاً
 فَارْحَمُوا صَبًّا مُعْنًى قَلْبَهُ يُذَكِّي غَلِيلاً
 مُلْهَبَ الْأَخْشَاءِ مُضْنًى بِالنَّوَى أَضْحَى عَلِيلاً
 ذَابَ شَوْقًا وَحِينًا وَسَقَامًا وَفِينًا
 وَشَوْنُ الْمُقَلَّتَيْنِ تَسْكُبُ الدَّمْعُ الْمَيْنَا^(١)

ومنذ ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد اعتاد بعض الشعراء الذين نظموا في الخمر والمجون أن ينظموا بعض زهديات مكفرة عن أشعارهم الماجنة ، وصنع ذلك بعض الوشاحين ، ونرى ابن الصباغ ومعاصره ابن عربي يختمان بعض موشحاتهما الدينية بخرجات لموشحات ماجنة نظمها بعض الوشاحين ، ونفس هذه الموشحة الأولى لابن الصباغ ختمها بقوله :

وَبَلَيْنَا وَبَلَيْنَا وَاشْ يَقُولُ النَّاسُ فِينَا
 قُمْ بِنَا يَا نَوْرَ عَيْنِي نَجْعَلُ الشُّكَّ يَقِينَا

وهذه الخرجة لموشح ابن الصباغ هي نفس خرجة ابن بقي للموشحة الثامنة في جيش التوشيح وهي موشحة ماجنة وفيها يقول ابن بقي في أول أغصانها :

قُمْ بِنَا نَجْلُو الْكُوسَا نَحْتُ أَظْلَالَ السَّحَابِ
 تَعَاطَاهَا عُرُوسًا حَلَبَهَا دُرُّ الْحَبَابِ
 فَهَرَّةٌ تَعْطِي النَّفُوسَا عَزَّ أَيْسَامُ الشَّبَابِ

وكان ابن الصباغ يريد أن يكفر لابن بقي عن موشحته باستعارته لخرجتها ، ولعله يريد أيضا أن يلفت عنها الشباب وقد دارت في أفواههم إلى موشحة نبوية لعلها تدور مثلها على شفاههم . وموشحته الثانية في التشويق إلى مكة وطيبة على ساكنها الصلاة والسلام . ختمها بخرجة استعارها من موشحة لابن خزر البجائي منشدا كما يقول عند المقام النبوي :

تَفَرُّ الرُّسُلُ الْمَوَافِقُ حَيْثُكَ مِنْهُ بِلَيْسَامُ

وكان نزول ابن اللبابة الوشاح الأندلسي بيجابة لم يذهب هذرا ، فقد نشأ بها - فيما بعد - ابن خزر على غرارهِ . وكما أن ابن خزر نشأ على غرار ابن اللبابة فإن ابن الصباغ نشأ - في رأينا - على غرار ابن بقي الذي أقام طويلا في سلا والمغرب الأقصى ، وسنراه ينظم موشحات مكفرة عن بعض موشحات أخرى . ولم يوضح المقرئ هل ابن الصباغ مغربي أو أندلسي ويؤكد أنه مغربي أن كتب التراجم والموشحات الأندلسية لم تذكره ، ونفس تكفيره عن موشحة لابن خزر البجائي يدل أو يؤكد أنه مغربي ، وموشحاته إنما عُرفت في مراکش بتقدمها للمرتضى الموحدي . وتدل خاتمة موشحته الثالثة قُتْهَا مكفرة عن موشحة لابن بقي في التغنى

(١) شون المين : مجارى الدمع . المين : السائل الغزير .

بمدح بنى عشرة فضائها وخاصة يوسف بن القاسم بن عشرة . والموشحة الخامسة مكفرة أيضا لموشحة لابن بقی جعل خرجتها خاتمة لموشحة له على هذا النمط :

لِيتَى رَثْلُهُ عَلَى شَطْطِ الْبَحْرِ يَا ابْنَى أَوْ أَطْوَمُ^(١)
وَتَرَى عَيْنِي مَذْ تَقْلَعُ سَحَر لِبِلَادِ السُّرُومِ

والخرجة ذكر أولها في نهاية موشحة ابن الصباغ ، وكأن كاتب النسخة لم يعن باستكمالها وهي كاملة في موشحة دينية مكفرة عند ابن عري^(٢) - وبالمثل الموشحة السادسة خاتمتها مشتركة عند ابن الصباغ وابن عري^(٣) وتجرى على هذه الصورة :

جَنَّانُ يَا جَنَّانُ إَجْنِبْ بَيْنَ الْبُشْتَانِ الْيَاسَمِينِ
وَحُلَّ الرِّيحَانِ بِحَرْمَةِ الرَّحْمَنِ لِلْعَاشِقِينَ

وقال الذكور سيد غازي إنها خرجة لابن بقی في إحدى موشحاته^(٤) . واجتماع ابن الصباغ وابن عري في اقتباس هاتين الخرجتين من ابن بقی قد يدل على أن أحدهما حاكى صاحبه . وخاتمة الموشح التاسع عند ابن الصباغ فاتحة لموشحة ابن باجة في مدح أبي بكر بن تيفلويت حاكم سرقسطة المريبطي :

جَرَّرِ الذَّبِيلَ أَيُّمَا جَرُّ وَصِلِ الشُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ

والشطر الثاني في الأصل : « وصل السكر منك بالسكر » وعدله ابن الصباغ ليتلاءم مع موشحه النبوي . واستعار ابن الصباغ خاتمة الموشحة الثانية عشرة الأخيرة من مطلع زجل للزجال المشهور البع مع شيء من التعديل على هذه الشاكلة :

يَا فُلَانُ إِنْ زُرْتَ حَيِّي إِنْتَبِلْ أَذْنُو بِالرُّسَيْلَا
لِشِّ أَنْخِذْ عُنُقَ الْخُشَيْفِ وَسَرِّقْ قَمَّ الْحُجَيْلَا

وأصل المطلع عند البع :

يَا لَيْتَى إِنْ رِبْتَ حَيِّي أَنْتَبِلْ أَذْنُو بِالرُّسَيْلَا
لِشِّ أَنْخِذْ عُنُقَ الْغَزَّيْلِ وَسَرِّقْ قَمَّ الْحُجَيْلَا

والرُّسَيْلَا هي الرُّسَيْلَةُ تصغير رسالة أي تودة وتمهل ، يريد أن يمر . حبيبه في ترفق معاتبها له ، والخشف ولد الطيبة والحجلة طائر في حجم الحمام : المودعات حب وهيام

(١) أطوم : سلخانة .

(٢) راجع ديوان ابن عري ص ٨٦ .

(٣) انظر ديوان ابن عري ص ١٢١ وكتاب في أصول

(٤) انظر في أصول التوشيح ص ١١٠ .

نوحيد نذكتور سيد غازي ص ١٠٨ .

بالرسول صلى الله عليه وسلم وصيلة استحالت عند ابن الصباغ ترتيل بديعة ، إذ استقر حب الرسول في قلبه واستأثر بكل ما فيه من شعور وعاطفة وهوى .

ابن^(١) زاكور

هو أبو عبد الله محمد بن زاكور الفاسي ، ولد حوالي منتصف القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م وأكب على الأدب والعلوم العربية منذ نعومة أظفاره ، وتفتحت شاعريته ومواهبه الأدبية مبكرة ، ولم يلبث أن أصبح إمام الشعراء والكتاب فى عصره ، ولم يقف بشعره عند القصيد فقد نظم كثيرا من الموشحات ، ولذلك سمي ديوانه : « الروض الأريض فى بديع التوشيح ومتقى التريض » ، وله أعمال أدبية متعددة منها شرح على ديوان الحماسة سماه عنوان النفاة ، وشرح على قلائد المعيان للفتح بن خاقان باسم شرح ما خفى من القلائد وشرح على لامية العرب . ومن موشحاته موشع غزلى مطلعه :

مَنْ عِلْمُ الْغَزَلِ أَنْ الْفَتَاكَ بِاللَّيْلِ الْجَرَى
وَسُلْطَةُ الْعَيْنِ أَنْ عَلَى قُلُوبِ الْبَشَرِ

يا ضِرَّةَ الشَّمْسِ اللَّهُ فِي الصَّبِّ الْكَيْبِ
يا مَنِيَّةَ النَّفْسِ هَجْرُكَ لِلنَّفْسِ مَذِيبِ
حَدَّثْنِي حَدْسِي تَسْلُو لِّلْبِّ سَلِيبِ^(٢)

عارض بهذا الموشع الغزلى موشحا لابن سهل ، وقد جعل مطلعه : « ليل الهوى يقظان » خرجة لموشحه ، وهو فى الموشع جميعه كما فى هذا المطلع يختار اللفظ السهل الذى يعجب و يروق دون تكلف أو تصنع . ويقول منزلا فى مطلع موشحة أخرى :

أَدْرُ الْكَاسَاتِ مِنْ خَمَرِ اللَّعْسِ يَا لَهَا مِنْ رَاحِ تَحْكِي الْجُنَّارِ^(٣)
وَاسْتَفْنِيَا خَمْرَةَ تَجْلِسُو النَّفْسِ عَلْنِي أُرْنَاحِ مِنْ حَرِّ الْأَوَارِ^(٤)
بَلْبَى ظَنَّنِي رَمَانِي بِسَهَامٍ رِيَشَهَا الْأَهْدَابِ تَبْرَى الْأَفْسَدِ^(٥)
مُرَّقُ الْقَلْبِ الْكَلِيمِ الْمُسْتَهَامِ إِذْ رَنَا وَتَسَابِ سَيْفُ جَرْدِهِ^(٦)
عَنْبَرِي الْخَالِ مَكْنَى الْخِيَامِ يَذْهَلُ الْأَبَابِ دُرُّ نَضْدِهِ

- (٣) اللس : سرة جميلة فى باطن الشفة . الجنار : زهر الرمان .
(٤) أوار الحب والنار : شدتهما .
(٥) تبرى : تحت .
(٦) الكلم : الجرج .

- (١) راجع فى ترجمة ابن زاكور النبوغ المغربى فى الأدب العربى ٣٢٥/١ وقد نشر الأستاذ عبد الله كحون متخبا من ديوانه ونظر فيه وفى موشحاته الوائى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاروت ٧٧٩/٣ وكتون فى النبوغ المغربى ٣٢٥/٣ وما بعدها .
(٢) حدسى : ظنى وفرنسى .

هَمْتُ وَجداً من سناه المقتبسِ من سنا الإصباح
لاح حين انصرُّ نَفْرُ كالقَبَسِ أَزْهَرُ وضاح

أَو بَدْرُ أَقْصَارِ
أَذْكَى زَنْدِ نَارِ^(١)

والكلمات لسمة حلوة تلذ الألسنة حين تنطق بها والآذان حين تصيخ إليها لرشاقتها من جهة ولما تشتمل عليه من تصاوير ممتعة من جهة ثالثة . وله في مطلع موشحة بصف فيها الربيع :

قد اكسى المريان	من مائس الأغصان	بالسُنْدُسِ
وطررُ البستان	بالوَرْدِ والريحان	والنَرْجِسِ
هَبَّتْ به الأزهار	بنسمة الأسفار	من الوَسَنِ
وهاجت الأطيّار	برائق الأشعار	أُم الحُسْنِ
تسبح الجِيارُ	الواحد القهار	مولى المِثْنِ

والشطور قصيرة وقصرها يزيد سلامة ألفاظها ونعمتها جمالا وحسنا ، ودائما تلقانا في موشحاته هذه اللغة العذبة المصفاة المتقاة ، إذ كان يعرف كيف ينتخب ألفاظه وكيف يلائم بينها في الجرس الموسيقى لملاءمات ممتعة .

(ب) شعراء الأزجال

الأزجال جمع زجل وهو في اللغة التطريب وسمى به الأندلسيون الفن الشعري العامي المقليل للموشحة ، وقد نشأ بعدها في الأندلس بنحو قرنين ، حتى إذا كان عصر المرابطين كان الزجل قد استوى على سوقه وأصبح له زجالوه المشهورون كما للموشحات وشاحوها المشهورون ، ويبدو أنه دخل المغرب الأقصى مع الموشحات ، إذ يذكر صفى الدين الخلى عن أول وشاح مغربى مشهور ، وهو ابن غُرْلَه ، أنه كان ينظم الموشح والزجل كما مر بنا ، ويقول عن رُمَيْلة محبوبته أخت عبد المؤمن إنها كانت تنظم الزجل ، ويذكر لها مطلقا فى زجل نظمته فى ابن غرلة قائلة :

مَشَى السَّهْرُ حَيْرَانٌ حَتَّى رَأَى إِنْسَانٌ عَيْنِي وَقَفَّ

ويتحدث ابن خلدون^(٢) فى مقدمته عن الزجل فى الأندلس وأعلامه ، ويستطرد إلى الحديث عنه فى المغرب الأقصى فيقول إن أهله استحدثوا فنا منه كالوشح نظموا فيه بليتهم الحضرية (بريد العامية) وسموه عروض البلد ويذكر أن أول من أشاعه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بغاس يعرف بلبن عمير ، وسنفر له ترجمة ، ويقول ابن خلدون إن المغاربة ولعوا به وجعلوه أنوعا ، منها المزدوج والملمبة والنزل ، ويذكر من كبار زجاليهم ابن شجاع التازى

(١) أزهر : مضى . وضاح : مشرق . أذكى : أوفد . الزند : الحجر أو العود الذى يقدح به النار . ص ١٣٥٧ .
(٢) مقدمة ابن خلدون (طبع دار المعارف)

وستترجم له ، ويذكر منهم أيضا الكفيف الزرهوني المكناسى ويقول إنه أبدع فى مذاهب هذا الفن ، ويذكر له زجلا فى رحلة السلطان أبى الحسن المرنى بجيشه إلى فتح إفريقية يريد أن يضم المغرب بعضه إلى بعض فى وحدة مغربية ، وفتحها ونزل تونس ولم يلبث أعراب بنى سليم واخوتهم من بنى هلال أن نصبوا لجيشه شركا فى القيروان ودارت عليه الدوائر وعمى أمره على شعبه ، واترى الكفيف الزرهوني يعيب عليه فى زجله غزوته إلى إفريقية التونسية وما كان من هزيمة الجيش فى القيروان ، ويعزى الشعب عنها بما وقع لغيرهم من الشعوب ، وفيه يقول^(١) :

عَكَرُ فاس المنيرة الفراءُ	وَبِن سَارَتْ بُو عَزَامُ السُّلْطَانُ
أَحْجَاجًا تَخْلَلُوا الصَّحْرَا	وَدُّوا سَرَحَ الْبِلَادِ مَعَ السُّكَّانِ ^(٢)
عن جيش الغرب حيث نَسَّالَكُمْ	الْمُتْلُوفَ فِي إِفْرِيقِيَا السُّودَا
لو كان ما بين تونس الغربا	وبلاد الغرب سدَّ الإسكندرُ
لا بد للطير كان يَبْجَى بِنَا	أَوْ يَأْتِي الرِّيحَ عَنْهُمْ بِفَرْدٍ خَيْرُ
ما اغْوَضَهَا مِنْ أُمُورٍ وَمَا شَرًّا	لَوْ تَقَرَّأَ كُلُّ يَوْمٍ عَلَي الْوَيْدَانِ ^(٣)
لَجَرَتْ بِالْدَّمِ وَلَتَصْدَعُ حَجَرًا	وَهَوَتْ الْأَجْرَافُ وَجَفَّتِ الْغُدْرَانُ

وهو يكي عكر فاس الفراء وتقرير السلطان ويسأل الحجاج الذين جابوا الصحارى عن الجيش التالف فى إفريقية التونسية السوداء ويقول لو كان بين تونس وبلاد المغرب الأقصى سدَّ الإسكندر أو سد يأجوج ومأجوج لحمل الطير الخبر عن هذا الجيش المرنى الذى تبهم أمره ، وما أصعبها وشرها من أمور لو تقرأ على الآذان لجرت العيون بالدم وتشققت الأحجار وهوت أجراف المضارب والجيال وجفت الغدران فيالهول المصاب وبألفداحة الفاجعة المؤلة . ولم يرزق المغرب الأقصى فى هذا العصر الوسيط الذى نمنى بدرسه بزجال كبير بعد الكفيف الزرهوني ، وحرى بنا أن نترجم لابن عمير وابن شجاع التازى .

ابن^(٤) عمير

ليس بين أيدينا عن حياة ابن عمير إلا ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته إذ قال : إنه رجل من أهل الأندلس نزل بفاس واستحدث لهم فنا من الشعر فى أعاريض مزدوجة كالوشح نظمو فيه بلنهم الحضرية واستحسنه أهل فاس وولموا به ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب الذى ليس من شأنهم وكثر شيوخه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ، ونظموا بجانب المزدوج أنواعا

(١) المقدمة ص ١٣٦٠ ونظر النبوغ الغربى ٣/ ٣٣٧ .

(٢) (٤) انظر فى ابن عمير المعامل الحال (راجع الفهرس)

(٢) ودُّوا : أرسلوا . السرح : الزروع ودولها .

ومقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٧ وما بعدها .

(٣) الويدان : يريد الآذان .

أخرى ، وكلها صور من الأرجال وأشكال . ونجد المصادر التاريخية والأدبية لا تعنى بلبن عمير إلا ما كان من صفى الدين الحلى فقد ذكره مرارا فى كتبه العاطل الحالى ، وذكر مطالع خمسة أرجال له وجزءا من زجل لبس مطالعا ونعتقد أنه كان أمانة ديوان ابن عمير الزجلى وأخذ منه الأمثلة التى ضمنها كتابه ، ومن مطالعه التى ذكرها فى ص ٣٢ :

أُتَكَرْتُ شَيْبَى مَنْ بُلِيَتْ بِهَا كُلُّ مَنْ عَاشَ شَيْبَى
إِذَا هِيَ مَلَا حَاجَةَ الْبُسْتَانِ بِالْأَسْوَارِ الْمَجِيبِ

ولاحظ صفى الدين أنه خفف الوار فى كلمة « التوار » فلم ينطقها مشددة كما فى أصلها ، بل نطقها مفتوحة مخففة . ومن مطالع أرجالها التى أُنشدها له فى ص ٥٦ قوله :

يَا حَبِيبَ قَلْبِي تَعَطَّفْ بَعْضَ هَذَا الْمَجَرِ يَكْفَى
دَمَوْخَ عَيْنِي مَا تَرَفَّأَ وَلَهَيْبَ قَلْبِي مَا يَطْفَأُ

ولاحظ صفى الدين أن كلمة يَكْفَى عرْفَةٌ عن « يكفى » بقلب الباء ألفا لتماثل الألف فى كلمة « يطفأ » . وأنشد ابن خلدون له زجلا طويلا لعله مما سماه عروض البلد يقول فى مطلعته :

لَيْكُنْ بَشَاطِي النَّهْرُ نَوْحَ الْحَمَامِ	عَلَى الْغُصْنِ فِي الْبُسْتَانِ قَرِيبَ الصَّبَاحِ
وَكَفَّ السَّحَرُ تَحَوَّرَ بِدَادِ الظَّلَامِ	وَمَاءَ النَّدى يَجْرَى بِشَرْقِ الْأَقْصَاحِ
بَاكَرْتُ الرِّيَاضَ وَالطَّلَّ فِيهِ افْتِرَاقُ	سَرَّ الْجَوَاهِرِ فِي نُحُورِ الْجَوَارِ
وَذَنَعَ النَّوَاعِزُ يَنْهَرُقُ انْهَرَاقُ	بِحَاكِي تَعْلِينَ حَلَقَتْ بِالْأَثْمَارِ
لَوَّارًا بِالْغُصُونِ خَلَّخَالَ عَلَى كُلِّ سَاقِ	وَدَارَ الْجَمِيعِ بِالرُّوضِ دَوَّرَ السَّوَارِ
وَأَيْدَى النَّدى تَخْرُقُ جُيُوبَ الْكِامِ	وَتَحْمِلُ نَسِيمَ الْمَسْكِ عَنْهَا رِيَّاحُ
وَعَاجُ الضُّيَا يُطْلَى بِمَسْكِ الْغَمَامِ	وَجَرُّ النِّسِيمِ ذَيْلُهَا عَلَيْهَا وَفَاحُ

والزجل مكشط بصور فريدة من ابتكار ابن عمير ، فمداد الظلام الأسود يمحوه كف السحر الأبيض ، ويشبه الشعراء الأتحموان بالثر فيضيف ابن عمير أن ماء الندى يجرى فيه ، ويقول باكرت الرياض والطل يسقط والجواهر كثتها مسرورة بمكثتها من نحور الجوارى الفاتنات ، والسواقي تذرف الدمع مدرارا وكثما يحاكى الماء فى قنواته أفعاى تريد أن تحلق بالثمار وقد استوت الغصون خلاخيل على سيقان الأشجار ، ودار كل ذلك فى الروض دور السوار ، وينفذ إلى تصوير مبتكر فأبدى الندى فى الصباح الباكر كثما تخرق كأم الزهر بل جيوبه ، وتعمل عنها الرياح نسيم المسك العاطر ، وأخذ الضياء يعمه الغمام ، أو كما يقول ، يطل بمسك الغمام ، وجرَّ النسيم ذيل رده عليه وفاح وسطعت رائحته سطوعا شديدا . وتمتلى بقية الزجل بمثل هذه الصور البديعة فى حوار رائع بين ابن عمير والحمام . ونحن

كما يقول ابن خلدون استحسن أهل فلس أنجال ابن عمير وشغفوا بها وفتروا فتنة شديدة ومضوا ينظمون على نهجه وطريقته .

ابن^(١) شجاع التازي

لم يذكر عنه ابن خلدون شيئا إلا أنه من فحول الزجاجيين بالمغرب الأقصى وقال إنه من أهل تازا ثم أشهد له زجلين ، والزجل الأول أشبه بنقد اجتماعي ، وفيه يقول :

المال زينة الدنيا وعز النفس	ينهى وجوها ليست هي باهيا
فها كل من هو كبير الفلاس	ولوه الكلام والرثة العاليا
يكبروا من كثر ماله ولو كان صغير	ويصغروا عزيز القوم إذا يفتيز
حتى يلتقي من هو في قومة كبير	بمن لا أصل عندو ولا لو خطر
أوى صارت الأذنب أمام الرؤوس	وصار يستمد السواد من الساقيا
ضغف الناس عمل ذا أو فساد الزمان	ما يذريو على من يكثروا ذا العتاب
أوى صار فلان اليوم يصبح بوفلان	ولو ربك وكيف حتى يرد الجواب

ور واضح أنه يقول إن المولزين الاجتماعية اختلت ، فأصبح المال هو كل شيء : زينة الدنيا وعز النفوس حتى ليضفى البهلاء على الوجوه غير البهية ، وها أنت ترى الناس يقدمون الثرى في الكلام ويولونه الرتبة العليا ويكبرونه ولو كان صغيرا ويصغرون عزيز القوم إذا افتقر ، حتى اختلطت المقاييس وأصبح كبير القوم يقرن بمن لا أصل له ولا خطر من الأثرياء ، وبذلك تقدمت الأذنب الرؤوس وترى هل هذا من ضعف الناس أمام الثراء أم من فساد الزمان ، لقد أصبح من لم يكن له لقبيا يمنح الألقاب ويقال له أبو فلان إجلالا وتوقيرا ، وقد امتلأ غرورا حتى إنه لا يرد الجواب . والرجل الثاني الذي ذكره ابن خلدون موضوعه الغزل ، ويستله على هذه الصورة :

تعب من تبع قلبو يلاح ذا الزمان	اهمل يا فلان لا يلعب الحسن بيلك
ما منهم مليح عاهد إلا وخان	قليل من عليه تحيس ويحيس عليك
يتهبوا على العشاق ويتعنوا	يتعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان واصلوا من حينهم يقطعوا	وان عاهدوا بختوا على كل حال
ومهدت لسو من وسط قلبي مكان	وقلت لقلبي اكرم لمن حل فيك
وهون عليك ما يعتربك من هوان	فلا بد من هول الموى يعتربك

وما يبعثا والتبوع للفرى ص ٣٣٥ وما يبعثا .

(١) انظر في ابن شجاع مقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٨

وهو يدعو في أول زجله إلى البعد عن الحسان الملاح لأنهن يَخُنُّن من يعاهدنه ولا يحسن
أنفسهن على من يصفيهن الرود ، ودائما يَنْهَن على عشاقهن ويتمنن ويجدن متاعا في تقطيع
قلوبهم ، وإن واصلوا لم يلبس أن يهجرن ، ولا عهد لمن ولا أمان . ومع كل هذه النصائح
يقول إن واحدة منهن صبت وملأت قلبه حبا وهياما وأوصى بها قلبه حتى لو أذاقته هوانا بعد
هوان !

٣

شعراء المدح

المدح من أقدم موضوعات الشعر العربي ، وهو يحمل أمجاد الأمة على مر التاريخ ، ونراه
دائما على ألسنة الشعراء في كل قطر وعصر ينتنون بالأمجاد التي يحققها الخلفاء والحكام ،
ونراه في المغرب الأقصى منذ نشأت دولة الأدارسة ، وفيهم يقول - كما عند أبي عبيد البركي -
إبراهيم بن أيوب من نكور في الشمال الشرقي للمغرب الأقصى على المتوسط ، ولعلها في
إدريس الثاني :

أيا أُملى الذى لُبى وسولى ودُنِيَّائى التى أرجو ودينى
أَحْرَمُ من يمينك رِئْ نَفْسِ ورزقُ الخلق من تلك اليمين
وَيُحْجَبُ عن جَبِينِكَ طَرْفُ لَحْظِ ونسورُ الأرض من ذاك الجبين
وقد جَبْتُ المَهَامَةَ من نكور إليك بكل ناجية أُمون^(١)

وإبن أيوب لا يمدح فحسب ، بل يبالغ في مديحه ، إذ يجعل نور الأرض - في المشارق
والمغارب - يستمد من جبين ممدوحه الإدريسي . ونمضى بعد الأدارسة في عصر أمره الطوائف
ولا نجد إلا شظايا متائرة من بعض المدائح ، ونجد ابن القابلة السبتي يمدح قائدا ولعله من
قواد المرابطين في أول دولتهم ، ولم يبق من مدحته إلا ما أقشده ابن بسام في الذخيرة من قوله
في بعض قصائده ووصفه لقتله^(٢) :

تركهم نهبَ الفلاة ووخشيها شعورهم شتت ولؤجهم غبر
تظل سياج الطير عاكفة بهم على جثث قد سل قفصها الذعر
وقد عومتهم من قبور حواصلها فإنا من رأى ميتا يطير به قبر

وهو يقول إن أرواحهم لم تسلها السيوف ، وإنما سلها الذعر من المملوح وجيشه
قبل السيوف ويقول إن الطير عاكفة على أجسادهم تأكلهم أكلا لئلا ، وكثما لم يعد التراب

(١) المهام : القنار والفلوات . ناجية : ناقة سريعة . (٢) الذخيرة ٣٨١/١/٤ .

أمون : لا تنزع ولا تنفر .

قبورهم ، بل أصبحت قبورهم حواصل الطير. ويقول الحصرى نزيل سبتة يصف بأس المرابطين وشجاعتهم :

بنو الحرب غَدَّتْهم لَبَانٌ تُدْبِيها وما استعذبوا منهمن إلا العَلاقِمَا^(١)
يُحْثُونَ لِلْهِجَاءِ جُرْأًا سَلَاهِيَا وَيَضُونُ فِي الْبِدَاءِ بُرْأًا صَلَادِمَا^(٢)
إِذَا طَعَنُوا بِالسَّهْمِ مَرَّةً خِلَّتْهم ضِرَاعُهم تُغْرِي بِالْقُلُوبِ أَرَامِمَا^(٣)
وَإِنْ كَرَّ مِنْهم ذُو لِسَامٍ مَصْمَمٌ غَدَا لَقَمَ الْهِجَاءِ بِالسَّيْفِ لَانِمَا^(٤)

والحصرى يقول عن المرابطين إنهم بنو الحرب رضعوا لبان ثديها ، مستعدين منها العَلاقِم وأشدّها مرارة كناية عن حسن بلائهم في الحروب الضارية ، ولهم ليحْثُونَ لها خيلا جرّدا مقدّمة ويَضُونُ في البوادي لِمَا متينة صلبة ، ولِئِكَ لَتَرَى الرِّمَاحَ في أيديهم يدسونها - كلّها أفاع - في قلوب أعدائهم ، ولِئِكَ لَتَرَى المَلْثَمَ منهم إذا صمم وكرّ كلّما يريد أن يقتل الحرب بسيفه ، الذي يستأثر منه بكل مشاعره . وأشدّ المقرى في الجزء الرابع من أزهار الرياض للفاضل عياض السبتي مقطوعة بديعة بهنى بها - كما نظن - على بن يوسف بن تاشفين بزفاف ول عهده تاشفين على عروسه منشدا :

لِيَهْنِ الْعَلَا أَنْ زُفَّتِ الشَّمْسُ لِلْبَدْرِ وَحَلَّى جِيدَ الْمَلِكِ بِالْأَنْجَمِ الزُّهْرِ
وَقُرَّتْ عَيُونُ الْمَجْدِ آيَةً قِرَّةً يَوْمَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الدَّهْرِ
لَدُنْ سَاعَةٍ أَنْضَتْ إِلَى كُلِّ بَغِيَّةٍ كَمَا اعْتَلَقَ الْغَوَاصُ بِالْدَّرَةِ الْيَكْرِ
قَرَأَ كَلَامَ السَّعْدَيْنِ فِيهِ تَلَاقِيَا كَمَا يَلْتَقِي فِي الْقَفْصَةِ الشُّغْرُ بِالشُّغْرِ
لِتَجْرَ الْمَنَى فِي حَلْبَتَيْهِ مُبْدَةً فَحَقَّ لَهَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنْ تَجْرَى^(٥)
بِسَعَادِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ تَطَلَّعَتْ أَسَارِيرُهُ تَنْدَى بِمَسَائِيَةِ الْبِشْرِ^(٦)
تَمْنَاهُ نَجْلُ الْمَلِكِ حَظًّا مُمْتَا بَعِزٌّ إِلَى عِزٍّ وَقَدِيرٌ إِلَى قَدَرٍ

وهو يقول : لتهنأ العَلاقِم فقد زُفَّتِ الشمس الساطعة إلى البدر المنير ، وزُيِّنَ جِيدَ الملك بالأنجم المتلألئة ، وأصبح المجد قرير العين يوم زفاف تسمى على الدهر ، حين أُنِيت لولى العهد كل أمنية ، وظفر بها ظفر الغواص بالدرّة اليّيمة ، وإته لقران تلاقى فيه سعدان كما يتلاقى في العين الجفنان ، وتَجْرَ الْمَنَى في حلبيته وترح ما شاء لها المرح ، فذلك سعد أمير المسلمين ، وتلك أساريه يترقق فيها رونق البشر ، وهو كل ما كان يتمناه نجله حظا سعيدا هاتنا بمنز

(٤) ذو لثام : كان المرابطون يضعون لثاما على وجوههم ، ولذلك سماوا الملتئمين . لثاما : مقلّا .
(٥) مُبْدَةً من أغد السر إذا أسرع فيه .
(٦) أساريه الوجه : محاسنه . مائة : رونق .

(١) العَلاقِم : جمع علقم : شديد المرارة .
(٢) جرّدا : قوية . سَلَاهِيَا : طويلة . يَضُونُ : يهزلون . بُرْأًا : بلا ناضجة متينة . صِلَادِمَا : صلبة .
(٣) السهمية جمع سهمى : الرمح . ضِرَاعُهم : أمد .
أَرَامِمَا : جمع أرقم : أعني الحيات والأفاعى .

إلى عز وتجلة إلى تجلة . وترمز هذه المقطوعة إلى ما أصاب الشعر المغربي من نهضة منذ عصر المرابطين ، واستترجم لابن زنباع أحد شعرائه . ونمضى إلى عصر الموحدين وتلقى بابلن حبوس شاعر عبد المؤمن والجزاوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب التصور وحفيده الناصر ، وسنفرد لكل منهما ترجمة . كان عبد المؤمن قد استوزر أباً جعفر بن عطية واستكبه ، ثم جرت له محنة معه فرج به فى عيابه السجون وقته ، وأرسل إليه ، وهو سجين يستعطفه ، أنياتا شرعية افتتحها بقوله^(١) :

عظفنا علينا أمير المؤمنين فقد	بان العزاء لفرط البث والخزن
قد صادفتنا سهام كلها غرض	ورحمة منكم أوفى من الجن ^(٢)
من جاء عندكم يستنى على ثقة	بنصره لم يخف بطشاً من الزمن
أنتم بذلتهم حياة الخلق كلهم	من دون من عليهم لا ولا تمن
ونحن من بعض من أحييت مكارمكم	كلنا الحياتين من نفس ومن بدن
وصيبة كفراخ الورق من صيفر	لم يألوا التوح فى فرع ولا فن ^(٣)
قد أوجدتهم أبساد منك سابقة	والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

وهى أنيات تلين القلوب القاسية وتملؤها رحمة وبراً وإشفاقاً ، ولكن قلب عبد المؤمن لم يلن له ولا أخذته فيه رافة ولا رحمة ، وظل غاضباً عليه حتى أذاقه حقه . وكان ابنه يوسف محبوباً من شعبه وكان عالماً واسع المعرفة وقرب المتفلسفة والشعراء منه ، ولأبى حفص عمر السلمى مدحة طويلة فيه أشدها القى فى أزهار الرياض استهلها بقوله^(٤) :

الله حبك والسبع الحواميم	تغزو بها سبعة وهى الأقاليم
سبع المثاني التى لله قمت بها	عليك من سيرها نصر وتقديم
وأنت بالسور السبع الطوال على	كل السورى حاكم بالله محكوم

ولعل يوسف كان أمضى من حكمه سبع سنوات ، فخال الله يرعاه والسور الحواميم السبع كأنما يغزو بها العالم وأناليمه السبعة كما كان يظن الجغرافيون حينئذ ، والسبع المثاني وهى سورة الفاتحة التى لا يزال يقوم بها مصليا لربه وداعيا تحفظه وتكفل له النصر والتأييد . وتؤكد السور السبع الطوال : البقرة ، وتالياتها حتى التوبة أنك محكوم وحاكم بكتاب الله وما جاء فيه من الإخاء بين المسلمين والمساواة والعدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه . ومضى عمر السلمى فى قصيدته يسترسل فى بيان تعمق يوسف فى العلم وتدقق الخير على رعيته من يده ، ويقول مبالغا إن الشرق والغرب والبحر والبر من سهل وجبل يدين له ، ويشيد بعلمه وكرمه

(١) النبوغ المغربى ١٦٦/٢ .

(٢) الورق : الحمام . فن : غصن .

(٣) الجن جمع جنة : الوقاية .

(٤) أزهار الرياض ٣٦٢/٢ .

واقدمه فى الحرب وشده على العصاة ، ويختم القصيدة بمبالغات طالبا إلى سامعه أن ينجوا على الركب إعظاما ليوسف . وبحق يمجّد انتصار يعقوب بن يوسف فى موقعة الأرك التى سحق فيها نصارى الإسبان ومزق جموعهم تمزيقا ، وكان حربا بلبن سعيد أن ينشد القصيدة كاملة فى كتابه النصوص الياقة ، وما أنشده قوله ليعقوب^(١) :

أطاعتك الذّوابل والشّفارُ وليّ أَمَرَكَ الفلكُ المدارُ^(٢)
يشرى مثل ما لتهجت رياضُ وسخّذ مثلما وضع النهاسُ
ورفع مثلما انفتحت كيمامُ وشقّت عن صدور مَهَا حِدارُ^(٣)
وأنال كما مدّت ظلالُ وأنفال كما مدّت بحارُ
وأعلام بنصرك خافقات لها فى كل جوّ منطارُ
لجنىة أرض أُنْدلس بدورُ من السراء ليس لها سِرارُ^(٤)

وهو نصر عظيم فى الأرك طوّق يعقوب بجمد وفخر لا يماثلهما فخر ومجد . وكانت دولة الموحدين دولة ظاهرة كما مر بنا فى الفصل الثانى ، وكانوا يدعون إلى المذهب الظاهرى وإلى نذب كعب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ويسمونها كعب الفروع . ولا نصل إلى عصر يعقوب حتى تبلغ هذه الثورة على كعب المذاهب الأربعة الكبرى غايتها فيأمر بإحراقها بعد أن يجرد ما فيها من آى القرآن والأحاديث النبوية وأن يُخجل الناس على الظاهر من الذكر الحكيم والحديث الشريف ، وينوه بذلك غير شاعر فى مدحجه ، من ذلك قول قاضى قضاته لى عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان كما جاء فى النصوص الياقة لابن سعيد^(٥) :

نُصِرْتُمْ لأن الحق آن ظهوره وناصره فى الله ما كان يُخْذَلُ
قطعت فروعاً قد أضرت بأصلها ألا هكذا من كان بالمدل يُشْخَلُ

والأصل الذى يقصده هو القرآن والحديث النبوى الذى يأخذ بهما الظاهرية . ويقول ابن سعيد فى النصوص الياقة إن لابن الياسمين قصيدة منصورية يذكر فيها قَطْع المنصور الاشتغال بكعب الفروع أى كعب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى والانتصار على ما ثبت من الأحاديث النبوية ، وينشد منها قوله^(٦) :

أُيْلَتَا قد وردتُم بنا سوارِدَ كنا عليها نحومُ
نبذتم مقالة هذا وذا فزال المراء وقلّ الخصومُ

(٤) السرار : آخر ليلة فى الشهر يريد أنها بدور منيرة من المسرة والرخاء لا يبقها أى ظلام .

(٥) النصوص الياقة ص ٣٠ .

(٦) النصوص الياقة ص ٤٧ .

(١) النصوص الياقة فى مجلس شراء المائة السبعة ص ٩٦ .

(٢) الذّوابل والشّفار : الرياح والسيف .

(٣) الحِدار : ما تلبه المرأة على صدرها .

وَأَنْتُمْ قَوْلَ مَنْ لَفْظُهُ هُوَ الشَّرْعُ وَالْحَقُّ مِنْهُ يَقُومُ
فَلَا زِلْمَ لَكُمْ أَلْهَى وَأَحْيَاءُ دَارِسِ دَرَسِ الْعُلُومِ

وهو يشير إلى ما كان قد أمر به يعقوب الفقهاء في أيامه من جمع الأحاديث الصحيحة من مصنفات عشرة ، هي كتب الصحاح ماعدا ابن ماجة والموطأ وسنن البزار ومسند ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي ، فجمعوها له فكان يعملها بنفسه على الطلبة ويجعل لمن حفظها مكافأة سنية .

ونمضى إلى عصر المرتين وأول شاعر كبير نلتقي به في عهدهم مالك بن المرحل ، وهو شاعر أُمم سلاطينها في أوائل عهدها يعقوب بن عبد الحق (٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م - ٦٨٥ هـ / ١٢٨٧ م) وله بهته بافتاحه مدينة مراكش^(١) سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م :

فَتَحَّ تَبَسَّتِ الْأَكْوَانُ عَنْهُ فَمَا رَأَيْتُ أَمْلَحَ مِنْهُ تَبَسُّمًا وَقَمًّا
فَتَحَّ كَمَا فَتَحَ الْبُسْتَانُ زَهْرَتَهُ وَرَجَّعَ الطَّيْرُ فِي أَفْسَانِهِ نَغْمًا
فَتَحَّ كَمَا أَتَشَقُّ صَبْحَ فِي قَمِيصٍ دُجِيٍّ وَطَرَفَ الْبَرَقُ فِي أُرْدَانِهِ عِلْمًا
أَضْحَتْ لَهُ جَنَّةُ الرُّضْوَانِ قَدْ فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا وَفَوَّادُ الدُّنْيَا قَدْ نَعِمًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا مَا وَعَدَتْ بِهِ يَا خَيْرَ مَنْ وَلَّى الدُّنْيَا وَمَنْ حَكَمًا
لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدًا كَانَ وَعَدُهُ فَاشْكُرْ بِمُضَاعَفِ لَكَ الْخَطُّ الَّذِي قُبِمًا
سَحَابًا مَنْ بِجَمِيعِ الْفَضْلِ أَنْفَرَهُ وَمَنْ حَبَاهُ السُّجَايَا الْغُرَّ وَالشُّبُمًا

وهو يمجّد فتح يعقوب المرتني لمراكش مدينة المغرب الأقصى الكبرى أعظم تمجيد ، فقد لبست لفتحه الأكوان ، كما يفتح البستان الموقن عن زهراته ، والطير تصدح مبتهجة على أغصانه وكأنما فتحت له أبواب الفردوس ، ونعم فوّاد الدُّنْيَا بهذا النعيم العظيم . والشاعر يحمّد الله أن تحقق ليعقوب كل مأموله من ربه ، بما لا يسمعه معه إلا مضاعفة الشكر ، والله جلّ في علاه جدير بكل حمد إذ أنفذه بكل فضل وجاه بكل سجية وشيمة شريفة . ويعقوب من سلاطين المسلمين الذين يستحقون هذا الثناء لا بفتح مراكش ، ولكن لأنه رصد نفسه وجيشه المغربي لجهاد نصارى الإِسبَان ، وقد جاز لهم بجيشه الزقاق أربع مرات : سنة أربع وستين وسبع وسبعين واحدي وثمانين وأربع وثمانين قبل وفاته بعام واحد ، وفي كل مرة كان يحققهم سحفا ، وبذلك أعز الإسلام والمسلمين في غرناطة والمُدْوَةُ الأندلسية ، وكان كل ما يمنحه يقدمه لسلاطينها من بني الأحمر بنفس راضية . وكان يسمى بالسلطان المجاهد والملك العابد لربه . وللقاضى تقي عبد الله القشتالي يستنصر^(٢) لها عنان (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ) :

(٢) التبرغ للمرتني ٢٢٠/٣

(١) قطر التبرغ للمرتني ٢١٢/٣ .

أَيَا إِمَامًا نَدَى كَفَيْهِ قَدْ وَكَّفَا
وَكَيْفَ أَصْرُفُ وَجْهَ الْقَصْدِ عَنْ مَلِكٍ
مَا إِنْ شَكُوتُ بِمَا أُضْنَى تَطْلُبُهُ
وَلَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مَتَهَى أُمْلَى
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ تَجْدِيدُ عَارِفَةٍ
وَلَيْسَ مِمَّنْ يَمُرُّ أَنْ لَا يُتَبَّحَ يَدًا
حَسْبَى اعْتَصَامِي بِحِلْمِي مِنْكُمْ وَكَفَى
مَا صَدُّ عَنِّي سَنًا بِشِيرٍ وَلَا صَرَفًا
إِلَّا وَجَدْتُ بِهِ لِي مِنْ ضَنَائِي شِفَا
إِلَّا قَضَى وَطَرًا مِنْهُ وَمَا وَقَفَا^(١)
مَهْمَا انْقَضَتْ هَذِهِ لِهَذِهِ انْتِفَا^(٢)
حَتَّى يَفْصَلَ لِي بِشَكْرٍ مَا سَلَفَا

وهو يقول لأبي عنان إن ندى كفيك قد سال وفاض على جميع الناس ، وحسبى أننى
أعصم منك بمهد ومودة باقية ، ولن أنصرف عن قصدك وكيف أنصرف وأنت دائما تلقانى
يشر وترحاب وما شكوت ضنا إلا شفىتنى منه ، ولا أملت فيك أملا إلا حققت لى شطرا
منه ، وفى كل يوم يتجدد منك عارفة وإحسان وما ينقضى إحسان حتى تستأنف إحسانا آخر ،
وإنك لتقدم أفضالك غير متظر على فضل شكرا . وسنفرد لأحمد بن عبد المنان شاعر أبى عنان
ترجمة . ولحمد بن أحمد الشبوكى يمدح أبى فارس الربيعى قائلا^(٣) :

هُوَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ أُمِّ سَاحَتِهِ
وَمَنْ تَخَلَّفَ جَهْلًا عَنْ إِجَابَتِهِ
قُلْ لِلَّذِي عَنْهُ أَقْصَتْ جَرَائِمُهُ
زُرْ حَضْرَةَ الْمَلِكِ الْمَيْمُونِ طَالَعُهُ
فَطَبَعَهُ الصَّفْحُ وَالْمَعْرُوفُ شَيْئُهُ
جَادَتْ عَلَيْهَا بِجَدْوَاهَا ثَمَالُهُ^(٤)
سَارَتْ إِلَيْهِ عَلَى عِلْمٍ صَوَالُهُ^(٥)
وَعَقَلَهُ عَنِ الْقَلْبِ مَعَالُهُ^(٦)
نَحَطَى بِمَا أُنْتُ فِي ذُنُوبِكَ أَمَلُهُ
وَالْحِلْمُ وَالصُّونُ وَالْتَقْوَى شِمَالُهُ

فهو الإمام الذى يغمر من يقصده بغطاياه ، والجاهل هو الذى يتخلف عن إجابته فتغزوه
خيوله وجيوشه ، وما أحرى من أبعدته عنه جرائمه وحبيسته عن العلياء من الصلة به معاقلة أن
تبسم له الدنيا وتتحقق له آماله إذ طبعه الصفع والغفران وشيمته زرعُ المعروف والحلم والصيانة
والتقوى ومخافة الله .

وإذا انتقلنا إلى عصر السعديين التقينا بمعركة كبرى بينهم وبين البرتغاليين فى وادى
المخازن بقرب مدينة القصر الكبير سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٨ م وكان يقود جيش البرتغاليين
ملكهم سباستيان وكان السلطان عبد الملك السعدى مريضا وحضر المعركة أخوه أحمد ،
ومن قاتل كان الجيش البرتغالى ثمانين ألفا ومن قاتل كان مائة ألف ، أسير أكثرهم ، وقتل
ملكهم فى المعركة وتوفى السلطان عبد الملك وتولى أخوه أحمد الملقب بالمنصور الذهبى.

(٤) أم : قصد . جدواها : عطايها .

(٥) صواله : غيلة .

(٦) عقله : حبه .

(١) وطرا : مأثرا .

(٢) عارفة : مكرومة . انتف : استأنف .

(٣) البوغ الغربى ٢٢١/٣ .

وللشعراء في هذه المعركة والإشادة ببطولة المنصور فيها قصائد كثيرة ، منها قصيدة داود بن عبد المنعم الدغوغى ، وفيها يقول^(١) :

جَنَا النَّصْرُ مَا بَيْنَ الظُّبَا وَالْكَثَائِرِ عَلَى سَابِقَاتِ الْمَذَكِيَّاتِ الصُّوْافِرِ^(٢)
وماذا يفيد الجيش إن كان رُئُهُ كَيْسُطَيَّانَ عِنْدَ وَادِي الْمَخَازِنِ
يُسْرَبُ نَحْوُ الْمَغْرِبَيْنِ جَسَدُهُ كَمَثَلِ الدُّبَا عَنِ مَآخِرَاتِ السَّفَائِنِ^(٣)
وَحَيْمٌ فِي تِلْكَ الْجِهَاتِ وَغَيْتُهُ لِمُرَاكَشِ الْحِمَارِ لَا لِتَطْوَانِ
وَشَبْتُ لَطْفِي الْحِجَاءِ لَيْسَ وَقُودُهَا سِوَى نَفْسِ الشَّجْعَانِ وَسَطِ الْمِيَادِنِ
وَذَلِكَ يَوْمٌ مِثْلُ بَذْرِ وَصْنُوهِ حَنْنٍ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ الْمِاسِنِ
لَقَدْ ذَاقَ فِيهِ الْبُرْدُقِيزُ مِنَ الرُّدَى جَزَاءَ مَنَاحِسٍ غَرَايَا مَلَاعِنِ^(٤)

وهو يقول إن ثمار النصر دائما تجلبها السيوف وكنائن السهام على سابقات الخيل الفتية الفارحة ، ولكن ماذا يفيد الجيش إن كان قائده مثل سبستان عند وادي المخازن ، وقد ظل يدفع بجنود مثل الدبا أو الجراد من السفن مآخرات المحيط ، وحيمٌ في تلك الجهات وعينه على المدينة الكبرى مراکش لا على تطوان أو غيرها . وشبت المعركة وقودها البرتغاليون وإته ليوم نصر عظيم للمسلمين كيوم بدر وصنوه يوم حنين ، وذاق البرتغاليون فيه من الموت أصنافا عقابا وتنكيلا لمناحيس مستخزين . ومعركة ثانية كبرى خاضتها جيوش المنصور الذهبي لكن لا في الشمال ، وإنما في الجنوب ببلاد السودان ، فقد أمر سنة تسعمائة وثمان وتسعين بتجهيز جيش لغزو بلاد السودان ، ففتحها واستولى على إقليم توات في الجنوب الشرقي للمغرب وإقليم تيجواراين شمال إقليم توات ، وغير ذلك من البلاد ، وتوغل في السودان وألقى في حجره يذهب كثير أثرت به الدولة ، وفي هذا الفتح يقول الشبظمي^(٥) أحد قواد المنصور :

سَهْمٌ مِنَ الْغَرْبِ قَدْ أَصْنَى الْأَسَاوِدَ إِذْ صَمُّوا وَهَمَّ حَيْثُ نَحْرُ الْبَيْلِ مَرُودُ^(٦)
وَحِينَ صَمُّوا عَنِ الْإِنْسَادِ أَسْمَعَهُمْ صَوَاعِنًا يَبْدَاهَا الْمَوْتُ مَعْقُودُ
نَرَاهُ يَنْفُثُ مِنْ أَفْوَاهِهَا بَرْدًا يَنْفُضُ حَيْثُ فُؤَادُ الْقِرْنِ مَرْصُودُ^(٧)
مَدَانِعٌ أَبْطَلَتْ لِلْسُودِ حِكْمَتَهَا فَلَمْ يُفِدْ مَعَهَا نَفْثٌ وَتَعْقِيدُ^(٨)
وَمَا اسْتَفَامُوا إِلَى أَنْ جَرَّدَتْ لَهْمُ بَيْضٌ وَأَشْرَعَتْ السُّرُرُ الْأُمَالِيدُ^(٩)

(٥) الوافي بالأدب العربي لابن تاروت الطنجي ٦٧٨/٣ .

(٦) أصمى : أصاب إصابة قاتلة . صموا : لم يسمروا .

(٧) بردا : يريد الشاعر بارودا .

(٨) النفث والتعقيد يراد بهما تعاويد السحر .

(٩) بيض : سيوف . سرر أماليد : رماح لينة فاتكة .

(١) البوغ المغربي ٤٣/٣ .

(٢) جنا : شرة . انظرا : السيوف . الكنائن جمع

كنانة : وعاء سهام . المذكيات : الخيل الفارحة .

الصوافن جمع صافن : يريد النافعية للحرب .

(٣) الدبا : الجراد . مآخرات السفينة : شفت الماء .

(٤) البردقيز : البرتغاليون .

والشيطى يتصور كأن سها انصب من المغرب فقضى على السوثنين إذ أصلهم - وهم حاشدون على نهر النيل - ما يشبه الصمم ، فلم يسموا إذار المداغ المدوى وما تفت من أنفائها من قذائف قاتلة ، مداغ أبطلت للسود حكمتهم فلم ينفعهم نفت ولا تمويزات ، وسرعان ما قومتهم السيوف والرماح واستلموا خاتمين . وشعره المنصور كيرون وسترجم لشاعريه الموزالى وأحد بن القاضى .

واستول المنصور على مدينة أصيلا من أيدي البرتغاليين ، وهناه بذلك الشعراء ، ويتوفى ويتنازع أولاده بعده على الحكم ، ويتنازل أحدهم - وهو المأمون - عن مدينة العرائش ، للإسبان وأسسوا لهم بالقرب منها مدينة المهديّة . واستولوا على سبتة وطنجة من أيدي البرتغاليين كما استولوا على الجديدة وأزمور ، وتعلق أمل الناس بالمتصوفة فى مقاومة البرتغاليين والإسبان ، واتعمشت الزاوية الدالية فى تادلة إلى أن دثرها السلطان العلوى الرشيد سنة ١٠٧٩ هـ/١٦٦٩ م ونقل شيوخها وفى مقدمتهم شاعرها الكبير اليوسى إلى فاس . وأهم من هذه الزاوية وشيوخها فى مقاومة الإسبان الشيخ الصوفى أبو عبد الله محمد العياشى الذى تصدى - ومعه جماعات الفدائيين المجاهدين - للإسبان ، فخلص منهم مدن العرائش وأزمور والجديدة وتوفى سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٢ م واستولى الخضر غيلان أحد رجاله - فيما بعد - على مدينة القصر الكبير . وفى العياشى يقول أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاى مصورا بحبة الشعب له لجهاد أعدائه وأعداء الدين الحنيف^(١) :

حديثُ العلا عنكم يسيرُ به الركبُ وينقله فى صُخفه الشرقُ والقربُ
وحُكْمُكُمْ فَرْضٌ على كُلِّ مسلمٍ تُنالُ به الرِّقَى من الله والقربُ
وَتُت رِفْعٌ من أصولٍ رَفيعةٍ نجومُ الدِّياجى فى الأنامِ لها سِرْبُ^(٢)
سَمِىَ رسولُ اللهِ ناصِرُ دينِهِ تجلّى بكم عن أَفقه الشكِّ والرَّيبُ

وكما تضى الشعراء طويلا فى العهد السعدى بتناصرات المنصور الذهلى كذلك تغنوا فى العصر العلوى بتناصرات السلطان إسماعيل العلوى (١٠٨٤هـ/١٦٧٢م - ١١٣٩ هـ/١٧٢٧م) فقد استرد المهديّة من الإسبان سنة ١٠٩١هـ/١٦٨١م وطنجة من الإنجليز سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٤م والعرائش من الإسبان سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م وأصيلا سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م . وكان لاسترداد العرائش فرحة كبيرة فى قلوب الشعب إذ كانوا من شدة الحزن والأسى لاستيلاء الإسبان عليها أن لبسوا الأحذية السود ، ولم يخلعوا من أرجلهم إلى أن استردها السلطان إسماعيل فلبسوا الأحذية الصفر . وأتخذت مدينة العرائش وما تم من استعادتها على يد السلطان إسماعيل محورا

(٢) سرب : جماعة .

(١) الواسى لامين تاروت ٧٢٩/٣ .

تدور من حوله مدائح وتهنئاته ، من ذلك تهنئة لمفتى فارس عبد الواحد البوعناني ومنحه بكلمة . واستأثره عبد السلام جوسر إسماعيل حتى يسترد سبة من يد الإسبان كما استرد المراثي ، يقول^(١) :

رفعت منازل سبة أقولها تشكو إليكم بالذي قد هالها
فلقد قضيت للمراثي حاجة مع طنجة فاقضوا لذي آمالها
إن لم تكونوا أخذين بثارها من ذا يفك من الوثاق جبالها
فاهبت لها أهل الشجاعة عاجلا حتى تراهم نازلين جبالها

وليوسف بن محمد الشوذري أرجوزة صور فيها معركة المراثي مشيدا فيها ببطولات المجاهدين ، ومن قوله في وصف الخطة الحربية^(٢) :

قد حل نصف الجسر أرض الساحل مقابل المرسي لمنع الداحل
ونصفه حل على سور البلاد طوقها بأنسرها طوق البلاد
لما رأى الكفار ما أذهلهم وشدة الأمر العظيم هالمهم
وكان بالمرسي مراكب لهم موثوقة دارت بها حبالهم
ارتقبوا الليل وقد جن الظلام واختلسوا في زورق مثل السهام

وهو يقول إنهم فروا ليلة خلسة في زوارق حملتهم في الظلام الدامس المعتم إلى سفنهم ، فطاروا بها إلى المحيط فارين من وجه الموت المرعب المخيف . وحرى بنا أن نترجم لمن وعدنا بالترجمة لهم .

ابن زنياع^(٣)

من أهل طنجة كما يقول الفلقشندي ، اختلف إلى الكتاب حتى حفظ القرآن ، ثم شغف بحلقات العلماء حتى أتمن العلوم الدينية والعربية وعلومها اليلقية واللغوية ، وترجم له الفتح بن خاتقان في القلائد ، ومن قوله في التعريف به : « حوى العلوم وحازها ، وتحقق حقائق العرب ومجازها ، وروى قصائدها وأرجازها » وأضاف أنه عالم بالطب « موفق العلاج ، واضح المنهاج » . وقد يفهم من ذلك أنه توسع في الإطلاع على علوم الأوائل واختار منها الطب فتمعقه كما تعمق الفقه والدراسات الدينية مما جعل دولة المرابطين تختاره قاضيا بطنجة كما اختارت

تأريث ٣١/١ وما بعدها والبرغ المغربي للأستاذ عبد الله
مكون ١٠١/١ والتعريف بالناضي عياض لابن محمد ،
تحقيق د . بشرقية (طبع الرباط) .

(١) الوافي ٨٤١/٣ .

(٢) الوافي ٨٤٥/٣ .

(٣) انظر في ترجمة ابن زنياع وشعره القلائد (طبع تونس) ص ٢٥٩ وصح الأعشى والوافي للأستاذ ابن

صديقه عياضا قاضيا فى سبته . وحكى ابن الفاضى عياض فى كتابه الذى قصره على التعريف بآيه أن لنا الحسن بن زبناح كان بينه وبين آيه فى الشبية إخاء كبير ، وفى الكبير وقع بينهما تقاطع إذ بلغ عياضا عنه كلام ساءه ، فعابيه واعترف ابن زبناح بالفضل له . وفى ذلك ما يدل - من بعض الوجوه - على حسن خلقه . وربما نقله المربطون قاضيا فى بعض المدن الأندلسية مما جعله يقترب من المارك التى سجل فيها قوادهم انتصارات ضخمة على نصارى الإيبان ، ومن قوادهم العظام : سير بن أبى بكر وابن عائشة أخو أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وأخوه تميم ومحمد بن الحاج وابن فاطمة أبو محمد عبد الله ومزدل ، ولكل منهم جهاد وفتوحات عظيمة ، ويقول ابن زبناح مجدا بطلا من هؤلاء الأبطال للدولة المربطون منوها بفتح تم على يده :

لذا تُصان السيوفُ فى الخيلِ	وفى خسر الخطُ بالنَّصا الذُّبُلِ ^(١)
وتُكْرَمُ الخيلُ فى مرباضها	يرُ الفَتاة العُروب بالرجل ^(٢)
ويُنفَقُ النَّبْعُ كالحواجب أو	أُخْنِي وتُنهى السهامُ كالقفل ^(٣)
ويؤثر الشُّرةُ الكميُّ إذا	خُيِّرَ بين الدروع والحلِّ ^(٤)
فَنَحَّ به أثارتُ البلاد كما	أُشرفتُ المُقرباتُ بالنَّهْلِ ^(٥)
هَدَّتْ له السُّرورُ هَذِهِ مَلَأَتْ	قلوبَ أبطالهم من الوَجَلِ ^(٦)
فما أطاقوا الوسجَ فى نفقِ	وما أطاقوا الصمود فى جبل ^(٧)
كانهم والرماحُ تغفرهم	جَزَى فصالٍ سلكن فى الوَحَلِ ^(٨)

وهو يقول لئلا هذا النصر تصان السيوف فى أغمدها ، ويفخر الخط برمache الفتاة ، وتكرم الخيل فى مرباطها ، بر الفتاة الكريمة بالرجل المحتاج لمعرفتها وبرها ، وتُنفَقُ أعواد شجر النبع اللينة حتى تصبح قسيًا كأقواس الحواجب ، وترفق السهام وتسدد إلى صدور الأعداء كما تسدد سهام الأعين الفتاة إلى القلوب ، ولئلا هذا النصر يؤثر الشجاع حمة الحرب وهولها إذا خيَّر بين الدرع والحلة الفاخرة ، فإن الدرع فى نظره أكثر نفاسة ، وإيه لفتح ميين أدركت إذا خيَّر بين الدرع والحلة الفاخرة ، فإن الدرع فى نظره أكثر نفاسة ، وإيه لفتح ميين أدركت

- | | |
|---|---|
| (١) الخلل جمع خلعة : غمد السيوف . الخط : أرض | (٤) الشرة : شدة الحرب وشدة القتال . الكمي : الشجاع . |
| كانت تنسب إليها الرماح الخطية . القنا : الرماح . | (٥) أثارت البلاد : أدركت لها آثارها . المقربات : الخيل العطشى طوال ليلة . النهل : الشرب الأول . |
| (٢) مرباضها : أماكن مقامها . العروب : الجميلة الأصلية . | (٦) الوجل : الفزع . |
| (٣) النبع : شجر تنطف غصون منه لينة كالحواجب . | (٧) الولوج : الدخول . |
| نمى : ترقق منها السهام وتسدد . | (٨) فصال جمع فصل : ولد الناقة أو البقرة . |

به للبلاد ثأرها من أعدائها ، وإنها تستشرف به فتوحا متوالية كما تستشرف الخيل الكريمة التي ظلت تمدو ليلة طويلة ظامئة إلى الماء أنهما ستنهل منه إذ تراه فجأة أمامها ، ولقد سُحِق الروم سحقا ملأ قلوب أبطالهم بالوجل والفرع فما استطاعوا الدخول في نفق ولا الصعود في جبل حتى لكأنهم فصال أو أولاد نوق يسيرون في وحل ، ولا يستطيعون السير ، بل يتعثرون ويقعون بالعشرات في شباك الأسر . وبطولة ثانية صورها لمحنة أخرى من معارك المربطين ، وفيها يقول :

سَلِ الحَرْبَ عَنْهُمْ وَالسُّيُوفُ جَدَاوِلُ	تَدْفُقُ والأَرْماحُ رُقَطُ تَنْضِيضُ ^(١)
وبالأَرْضِ - من وقع الجياد - تَمُدُّ	ولكنه - فيما تروم - تَنْبُضُ
وبالأُنْفِ لِلنَّفْعِ المَثَارِ سَحَابٌ	مَوَاضِيضُ لكنْ بالصَّوَاعِقِ تَمْضُضُ ^(٢)
وقد سَهَكْتَ تحت الحديد من الصَّدَا	جِسْمٌ بما عُلْتُ من المسك تَرْحُضُ ^(٣)
وأشْرِفْتَ البَيْضُ الرِّفَاقُ على الطَّلِي	لَتَكْرَعُ فيها والرَّءُوسُ تَخْفُضُ ^(٤)
فلست ترى إلا دماءَ مَرَاةٍ	تَخَاضُ إلى أَكْبَادِ قَوْمٍ تَخْضُضُ ^(٥)

وابن زباج يقول سل الحرب عن شجاعة المربطين وبأسهم ، والسيوف في أيديهم كأنها جداول تدفق بالدماء ، والرماح تلوكها وتستحيل رقطا ملطخة بها ، والأرض تحت حوافر خيلهم كأنها تمتد ، وهي في الواقع تُطَوِّى طيا ، وبالأفق للغبار المثار سحاب حوامل صواعق مهلكة من الأسلحة والعتاد الحربي وقد تغيرت أجسام الأبطال تحت الحديد من الصدا بما تُغسل به من المسك مرارا ، وفي أيديهم السيوف وقد سلت على أعناق الأعداء كأنما تريد أن تروى منها بينما تهوى الرؤوس إلى الحضيض ، فلست ترى إلا أنهارا من الدماء تُفْتَحَمُ إلى أكباد الأعداء .

وكان حريا بالفتح بن خاقان صاحب فلائد العقيان أن يضيف في ترجمة ابن زباج إلى هاتين البطولتين للمربطين ما وصفه من بطولات أخرى لهم في الأندلس ، وعلى الأقل كان ينبغي أن يورد قصيدتي البطولتين اللتين ذكرهما كاملين وأن يذكر القائدين اللذين يمدحهما ابن زباج بقصيدتيه وموقعيهما الحربيين ، وستلتقي بلبن زباج في عرضنا لأشعار الغزل والطبيعة لتضح شخصيته الشعرية .

-
- (١) رقط : جمع أرقط : ما كان بلونه يتبع مثل السر .
 تنضيض : تلوك .
 (٢) النفع : غبار الحرب . مواضيض : حوامل .
 تَمْضُضُ : تمحل .
 (٣) سهك الشيء : تغيرت رائحته . علت : الشرب .
 (٤) البيض الرفاق : السيوف . الطل : الأعناق .
 كرع : شرب .
 (٥) مراقة : سائلة . تخاض : تنعم . تخضض : خوض في أكبادهم

هو أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حُبُوس ، ولد بفاس سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م وبها نشأه ومراه في الكتابيب وحلقات العلماء ومجالس الأدباء ، حتى أصبح مفتنا في الكلام واللغة والبيان ، وتفتحت شاعريته مبكرة في صباه ، ورحل إلى تلمسان وظل بها فترة ، وعاد إلى مراكش في عهد المرابطين وأصبح في طليعة شراعتهم ، وندت منه ترُهاث جعلته يرحم مراكش إلى الأندلس ويظل بها إلى أن علا نجم عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين واستول على مراكش سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م فعاد إليها واستوطنها ، ولزم الدروس التي كان يلقيها عبد المؤمن على طلابه وأتباعه ، وألقى بين يديه قصيدة تشدها صاحب نظم الجمان لعلها أول مدائح له ، وفيها يقول :

بخليفة المهدي سُدنا اغتدى	نَهجُ العلوم معبداً ومذلاً
وافيتُ حضرته المقدس ترُها	فاذا الذي نُصرتُ لن يُخَيلاً
وسمعتُ كل مذهب الحق التي	ما إن تَرى عن مُقتضاها مَعْدلاً
وبصُرْتُ بالطوسي يَفهقُ حوله	ولبي المعالي مُجَبلاً ومفصلاً
فالحق بحضرته السنية واستمع	للقول واحذر - وبك - أن تنقولا
فيها كمال الدين والدنيا معاً	ومعاده الأرواح في أن تكملوا

وهو يقول إن نهج العلوم أصبح ممهداً ومذلاً بفضل عبد المؤمن خليفة المهدي ، ويصف حضرته بأن ترابها مقدس ، وأن ما رآه بها من علم عبد المؤمن أوسع من أن يحيط به خيال ، ويقول إنه سمع منه كل مذاهب الحق من دعوة الموحدين التي لا يجوز العدول عن مذاهبها ومبادئها ، وكأنما بصر بالغازي الطوسي وبيانه الغزير الرائع ولبي المعالي الجويني إمام الحرمين وفكره الثاقب ، فالحق به وبحضرته ودعوته التي تحقق لك كمال الدين والدنيا معاً .

وبذلك لم يكن مادحاً لعبد المؤمن فحسب ، بل كان أيضاً داعية لمبادئ الموحدين ودعوتهم ، فهو شاعر ، وهو داعيته ، وكان عبد المؤمن يشغف بشعره ، فلزمه في حركاته وسكناته ، وإن سار كان في ركابه ، على نحو ما نراه معه في فحه لبجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وله في حصار عبد المؤمن لما جيمية يقول في مطلعها مخاطباً حاكمها الحسادى يحيى بن العزيز :

كوديرا (رقم ١٠٥٥ . والمطرب لابن دحية ص ١٩٩
والن بالأملة لابن صاحب الصلاة (طبع بيروت)
ص ٧١ والوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى
للأستاذ ابن تاروت ٩١/١ - ١١٥ والبرغ العربي
للأستاذ كتون ١٧٦/١ ، ٢٣/٣ ، ١٩٦ .

(١) انظر في ترجمة ابن حُبُوس وأشعاره الفيل والفكيلة
لابن عبد الملك المراكشي ٢٩٣/١/٨ ، وزاد المسافر
لصنوبر ونظم الجمان لابن القطن تحقيق د . محسود
سكي (طبع بيروت) ص ١٧٤ والمحب للمراكشي
(طبع القاهرة) ص ٢٨٢ والفكيلة لابن الأبار (طبعة

شُدَّتْ إِلَيْكَ عَلَى الرِّيحِ سُرُجٌ أَمِنَ الْفِرْلُ بِأَهْلِكُمْ يَا جُوجُ

ثم اتجه بالخطاب إلى عبد المؤمن فقال :

عَصَفْتُ بِدَعْوَتِكَ الرِّيحَ الْمَوْجُ وَسَطًا بِأَمْرِكَ ذَلِيلٌ وَوَشِيجٌ^(١)
وَتَقَدَّسَتْكَ إِلَى الْعَدُوِّ مَهَابَةٌ يَشْفَى بِهَا فِي سُدِّهِ مَاجُوجُ

وهو يشير بياجوج وماجوج إلى ما جاء في سورة الكهف عن يأجوج ومأجوج وقهما مفسدون في الأرض وأن قومهم لجنو إلى ذى القرنين ليرفع عنهم فسادهم ، يقول جلُّ شأته : ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجُ وَمَا جُوجُ مَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ وكان إفسادا كبيرا خلُّ بجاية جعل أهلها يستغيثون بعبد المؤمن ليرفع عنهم هذا الإفساد الذميم ، ويسمى الشاعر بحمى بن العزيز تارة باسم يأجوج وتارة باسم مأجوج . ويفتح عبد المؤمن بجاية ، ويعود إلى عاصمته مراكش ، ويستقبل في شهر شوال سنة ٥٥٢ مصحف عثمان الذى أمر بنقله من قرطبة إلى مراكش ، ويمتدحه لمن حبوس بهذه المناسبة منشدا من قصيدة :

سِشْكِرَ الْمَصْحَفُ إِكْبَالَكُمْ	عليه إذ أوجده الفَقْدُ
مصحف ذى النورين عثمان ما	كان لكم عن صونه بُدُّ
ما اختار شيئا موتًا غيره	حين أتى - واقترب - الوَعْدُ
أوسعتم الدنيا أطراحًا وما	كان لكم إلا به وَجْدُ
يخنو عليه العطف منكم ولا	يُبَيِّهه الإشفاق والوَدُ
ألبنموه جِلَّةٌ لم يكن	يسمح للكفُّ بها السَزْدُ

وهو يبالغ إذ يقول إن المصحف سيشكر له عنايته به ونقله إلى مراكش لصونه خشية فقده ، وهو مصحف عثمان الذى استشهد وهو بين يديه يتلو فيه ، وقد اتخذته مؤسسه فى اللحظات الأخيرة من حياته وإيكم لتشفقون به أكبر الشغف . ودفعته مبالغاته فى مدح عبد المؤمن إلى أن يقول إنه يخنو على المصحف بمطفيه ، ودائما يودّه ويشفق عليه . وله فى المصحف أخرى زاد فيها من مثل هذه المبالغات وأفرط ، وأشار لمن حبوس فى البيت الأخير إلى تجديد عبد المؤمن لدخلى المصحف وتغليتها بالجواهر النفيسة بحيث لم تعد الكف الواحدة تستطيع حمله . وكان النورمان قد استولوا على المهديّة وطرابلس واستنكف

(١) ذلل : سيف . وشيج : رع .

أهلها بعد المؤمن فلَبَّاهم بجيش جرار قَلَّم به أظفار أمراء الجزائر وإفريقية التونسية الخارجين عليه وفتح المهديّة سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م وطرد النورمان منها ومن سواحل إفريقية التونسية وطرابلس . ويهنته ابن حبوس بفتح المهديّة مقارنا في مطلعها بين المهدي العبيدي الذي بناها واختار لها لوقت بنائها برج الأسد وبين عبد المؤمن الذي خلصها من النورمان :

بطالع الأسدِ اختطَّ البناءَ بها لكنك الأسدُ الدَّامِي الأظافيرِ

ويقول ابن عبد الملك في الذيل والتكملة : « بعد انصراف عبد المؤمن من فتح المهديّة سنة ٥٥٤ هـ/ ١١٥٩ م فارقه ابن حبوس وعاد إلى مسقط رأسه فاس فاستوطنها » ويدور أنه كان يرحل إليه من فاس مادحا بمثل قوله في إحدى مدائحه :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ أَضَاءَ الـ زَمَانُ بَنُورِ عَدْلِكَ وَاسْتَنَارَا
لَكُمْ شَرْقًا الْبِلَادَ وَمَغْرِبَهَا وَأَمْرَكُمْ مَعَ الْفَلَكَ اسْتَدَارَا
وَمَنْ قَدْ فُرِّعَكُمْ مِنْ عَدُوٍّ فَتَحَوْكُمْ إِذَا يَغْنَى الْفَرَارَا
وَأَسْرَ خَوْفُكُمْ أَعْلَامَ رَضْوَى لَمَّا سَكَنْتُمْ وَلَا وَجَدْتُمْ قَرَارَا

والمبالغة واضحة في الأبيات ، فالملك يجرى طوع أمره ، ومن فرّ عنكم لابد أن يفر إليكم إذ تملكون عليه جميع مسالكة ، وحتى لو خوّف عبد المؤمن جبال رضوى الراسخة في المدينة من قديم ما استقرت ولا وجدت لها قرارا . وصاحب المعجب حق حين يرى عنده هذه المبالغات المفرطة فيشبهه بلبن هاتئ في مدح المزع الفاطمي وما يضمنه من تهويلات وقمقمات . ونراه يرافق عبد المؤمن في أواخر سنة ٥٥٥ حين عبر الزقاق من سبتة إلى مرقا جبل طارق ، واحتفل الناس بقدوم عبد المؤمن احتفالا عظيما ، ولما أذن للشعراء بالإشادة بين يديه أنشده شعراء كثيرون أندلسيون ومغاربة وفي مقدمتهم ابن حبوس : ومن قوله في قصيدته :

بلغ الزمانُ بهديكم ما أُمَلّا وتعلّمتُ أَيامُهُ أَنْ تَعْدِلَا
وبحبه أَنْ كَانَ شَيْئًا قَبْلًا وَجَدَ الْهَدَايَةَ صُورَةً فَتَشَكَّلَا
وَلَأَنْتُمْ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُغْتَرَى فِيهِ وَلَيْسَ بِجَائِزٍ أَنْ يُجْهَلَا
وَلَأَنْتُمْ سِرُّ الْإِلَهِ وَأَمْرُكُمْ مَلَأَ الْعَوَالِمَ مَجْمَلًا وَمُفَصَّلَا
عُرِلَتْ وَلَاةُ الْحَيِّ عَنْ إِدْرَاكِهِ فَهُوَ الْمَتَرُ حَسْبُهُ أَنْ يَعْقِلَا

ولو قلنا لم نعرف ناظم هذا الشعر ومدحوه وسمعناه لظننا أنه ابن هاتئ بمدح المزع الفاطمي لهدايته للزمان وتشكيله له مع العدالة ، وإنه للحق الذي لا شك فيه بل سر الإله ، وأمره يملأ العالم وإنه ليعز على الحس أن يدرك كنهه إنما يدركه العقل . وأنشد له ابن عبد الملك قصيدة في دعوة الموحدين والزهد والتمسك به ، وفيها هاجم الفلسفة والمتفلسفة ، وله أشعار بديعة في الوصايا والأمثال وذم الزمان والاعتبار ، وعاش حتى سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م .

هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى ، من قبيلة جراوة بتادلة ، سكن مدينة فاس ، وبها منشؤه ومرياه ، ويقول ابن خلكان : كان نهاية فى حفظ الأشعار القديمة والمحدثه ، وجمع كتابا يشتمل على فنون الشعر سماه صفوة الأدب وديوان العرب ، وهو عند أهل المغرب كحماسة لى تمام عند أهل المشرق ، وكان شاعرا نبلها مدح بشعره عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب وابنه الناصر ، توفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م . وقد اتصل بعبد المؤمن منذ سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٩ م إذ نراه يكتب على لسانه قصيدة بحث فيها الأعراب الحلالية لليلية دعوة عبد المؤمن لجهاد نصارى الأندلس استهلها بقوله :

أحاطتُ بنهايات العُلا والمفاخرِ على قدم الدنيا هلالُ بن عامرٍ

وشارك الأعراب فى حروب الأندلس وجاءت عبد المؤمن البشرى بتحرير بطليوس واستردادها من ابن الرنك وهناه الجراوى بقصيدة طويلة مطلعها :

نصرٌ بكل سعادةٍ مقرونُ نالت به الدنيا المنا والدينُ

ويفتح عبد المؤمن المهديّة مستردا لها من أيدي النورمان بعد أن ظلوا فيها وفى ساحلها اثنى عشر عاما طويلا ، ويهته الجراوى بتائية يقول فيها :

أهنا إمامُ الهدى فالمدلُ منبسطُ والذين منتظمٌ والكفرُ أشاتُ

ويتنصر جيش عبد المؤمن ومن معه من كتاب الأعراب فى السنة التالية على نصارى الإسبان فى موقعة فحصى بلقون ، ويهته الجراوى برائية وفيها يقول :

أعليتُ دينَ الواحدِ القهارِ بالمشْرِفةِ والقنا الخطارِ^(٢)

لوراء موسى ما فعلتُ وطارق زَرَبًا بما لهما من الأنارِ^(٣)

أتممتُ ما قد أُمِّلوه فقاتهم من نصر دينِ الواحدِ القهارِ

ببرابٍ خيلٍ فوقهن أعاربُ من كل مقتحمٍ على الأخطارِ

وهو يبالغ بمبالغة مفرطة حين يعلى عبد المؤمن على موسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحى الأندلس العظمين ، وإنما سقنا الأبيات لنثبت معها البيت الرابع الشاهد على اشتراك الحلالية فى حرب الأندلس المظفرة أيام عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويصبح الجراوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن الخطي لديه ، وكان لا يبرح مجلسه ،

(١) انظر فى الجراوى وترجمته وشعره البيان المغرب لابن عذارى وابن خلكان ١٢/٧ ، ١٣٦ وزاد المسافر والفصول الهامة والمن بالامامة لابن صاحب الصلاة ، وراجع الرافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ ابن تاويت ١١٦/١ ومبعضها والنور الغربى ١٧٩/١ ،

٢٢/٣ ، ١٩٨ وما بعدها ، ٢٥٣ .

(٢) القنا الخطار : الرماح شديدة الطعن . المشرفة : السيف .

(٣) راه : رأى .

ونراه في ركبته حين جاز إلى الأندلس سنة ٥٦٣ هـ/ ١١٦٩ م وكان قد جمع جموعه يريد منازل محمد بن سعد بن مردنيش ، ونزله أخوه عثمان صاحب غرناطة وتوفى ، فبايع لُجْأؤه يوسف وانتهت ثورته . ونرى الجراوى يمدحه في هذه الأثناء بقصيدتين يقول في إحداها مشيراً إلى المتمردين عليه :

تَسَالُ المَارِقِينَ بِكُلِّ أَرْضٍ وَلَا طَارَتْ - وَلَا نَقَلَتْ - خَطَاها
ويقول في الثانية :

لو كانت الجوزاء من أعدائِهِ لَمْ تَنْجُ مِنْ غَارَاتِهِ الجوزاءُ
وكانت آخر معارك جيش الموحدين في الأندلس لمهد يوسف معركة البيوج فرناندو بن ألفونس سنة ٥٦٩ وفيها كان النصر لحليف الموحدين ووقف الجراوى بين يدي يوسف بنشده مدحة طنانة ، وفيها يقول :

عَنْ أَمْرِكُمْ بِتَصَرُّفِ الثِّفْلَانِ وَبِتَصَرُّفِكُمْ بِتَعَايِبِ الْمُلُوكِ^(١)
وَبِمَا يَسُوءُ عَدُوَّكُمْ وَيَسُرُّكُمْ تَحْرُكُ الْأَفْلَاكَ فِي الدُّوَرَانِ
جَاهَدْتُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَنَهَضْتُمْ بِحِمَايَةِ الْإِيمَانِ
وَتَرَكْتُمْ أَرْضَ الْعِدَى وَقُلُوبَهُمْ فِي غَايَةِ الرَّجْفَانِ وَالْخَفْقَانِ
وَزَغَاهُمْ الدِّينَ الْحَنِيفِيَّ الَّذِي كَتَبَ الظُّهُورَ لَهُ عَلَى الْأَدِيمَانِ

والبيان الأولان من نوع مقالة ابن هاتيم في المعز الفاطمي ومدح ابن حوس في عيد المؤمن مما مرّ بنا وأشرنا إليه . وهو يصفى على يعقوب - كما أضفى على أبيه يوسف وجده عبد المؤمن - غير قليل من القدسية وقد مدحه مراراً حين انتصر أسطوله على ابن غلّة في بجاية ، وحين واقعه جيشه وهزمه ، وحين فتح قصعة جنوبي إفريقية التونسية ، وحين قضى على بعض الثوار . وفي سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م استرد يعقوب مدينة شلب بغربي الأندلس ، وعاد يعقوب إلى عاصمته مراكش ، وهناك الشراء بهذا النصر المين ، وقشده الجراوى قصيدة يقول فيها :

إِبَابُ الْإِمَامِ حَيَّةُ الْأُمَمِ نَوَالِي السُّرُورِ بِهِ وَتَنْظَمُ
وَجَادَ بِهِ الْأَرْضَ صَوْبَ الْحَيَا وَجَلَّى الظُّلَامَ بِهِ بَلَرُ نَيْمِ^(٢)
فَشَكَرَا لِخَيْلٍ وَفَلَكَ ذَنْتُ بَمُنْتَصِلِ الظُّلَمِ مَاحِي الظُّلَمِ
إِذَا حُلِّ فِي بَلَدٍ أَمْرَعَتْ فطاب جَنَاهَا وَفَاحَ الْمَشْمُ^(٣)
وَقَامَ بِأَنْطَارِهَا عَدْلُهُ وَصَوَّبَ نَدَاهُ مَقَامَ الدَّيْمِ^(٤)
سَلَّ الدُّعْرَ عَنْ بَطْشِهِ بِالْعِدَا نَجِبَ مِنْ وَرَلِهِ الدُّرُوبِ الْعِجَمِ

(١) الثفلان : الإنس والجن . الملوك : الملوك . الشدا : الشدا .
(٢) صوب الحيا : تتكلم الفيت . بمرتم : البحر في
أكمله .
(٣) أمّعت : أنصبت . جناها : لمرها . المشم : الشدا .
(٤) نداه : كرمه . الدم جمع دبة : المطر يطول في
سكون .

(١) الثفلان : الإنس والجن . الملوك : الملوك . الشدا : الشدا .
(٢) صوب الحيا : تتكلم الفيت . بمرتم : البحر في
أكمله .

وابواب يعقوب - فى رأى الجراوى - ليس حياة لشبهه فقط ، بل هو حياة الأمم جميعا ، إذ يجمود الأرض غيث منهم ، وبضياء الظلام بدر فى اكتماله ، فشكرا للسفن التى عبرت بها المجاز وللخيل التى حملت لا متناهل الظلم وناشر العدل فحسب ، بل أيضا من يمحو الظلام بنوره ، وإن البلاد لتخصب وتطرب ويضوح شذاها حين يحل فيها ، ويتشر العدل الذى لا تطلب حياة الناس بدونه ويمم الكرم الفياض . وسل الدهر عن قهره للأعداء تجيبك من وراء الدروب جموع إسبانيا مترجمة عما يذيقها من البطش الشديد . ولم يلبث نصارى الإيبان أن توجعوا توجعا أليما سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م فإن ألفونس الثامن ملك قشتالة علم أن يعقوب يعد لمركة كبرى لاستنفر فيها المغاربة وأعراب الملالية وأهل الأندلس فلتصرخ البها وملوك أوربا وحشد جموعه عند حصن يسمى الأرك بين قرطبة وطليلة . وسحق جيش يعقوب تلك الجموع سحقا ذريما ، وفر ألفونس على وجهه لا يلقى حتى طليلة ، وكان نصرا عظيما أعاد للذاكرة موقعة الزلاقة وطلها يوسف بن تاشفين وتغنى لشراء بها ويطلها يعقوب طويلا ، وللجراوى فيها قصيدتان يقول فى أولاهما :

هو الفتح أعيا وصفه النظم والنثرا	وعمت جميع المسلمين به البشرى
وتجبد فى الدنيا وغار حديثه	فراقت به حسنا وطلبت به نشر ^(١)
تميز بالأخجال والغرر التى	أقل منها تيمر الشمس والبدرا ^(٢)
لقد أورد الأذفونش شبحه الردى	وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى ^(٣)
حكى فعل يليس بأصلحه الألى	تبرا منهم حين أوردهم بئرا
فدارت رضى الهيجا عليهم فأصبحوا	هشما طحبا فى مهب الصبا يذرى ^(٤)
يطير بأشلاء لمس كل قشعر	فما شئت من نسر غدا بطنه قبر ^(٥)
يؤمن الإمام الصالح المصلح الرضا	نضا سيفه الإسلام فاستأصل الكفرا ^(٦)

والجراوى يقول إنه فتح أعظم من أن يحيط بوصفه شعر ونثر وقد عمت به البشرى والفرحة جميع المسلمين وملأت نباشيره الدنيا بهضابها وسهرها فازدقت به حسنا وطلبت نشرًا وعطرا ، وإنه لفتح عجلى أغر يهر ضوءه الشمس والقمر ، فقد أورد ألفونس ملك قشتالة وطليلة أنصاره مورد الردى والملاك ، ودفعهم دفعا إلى البطشة الكبرى ، فذاقوا ما ذاقه قرش يوم بدر ، إذ دارت رضى الحرب على جثثهم وأصبحوا أشلاء وطحينا تذروه الرياح ، وشبعت منهم الضباع والسباع ، وغدت بطون النور لأشلائهم قبورا طائرة . وكل ذلك يمين طالع

(١) أتجد وغار : ملأ المرتفعات والسهول . نشرًا :
 راحة عطية .
 (٢) الأخجال : ياض فى السيفان . الغرر : ياض فى
 (٣) شمس : نسر سن .
 (٤) الهيجا : الحرب . يذرى : يطير فى الهواء .
 (٥) نضا : سل .
 (٦) نضا : سل .

الإمام يعقوب الصالح المصلح الرضا الرضى الذى سلَّ الإسلام سيفه فاستأصل به الكفر من جذوره وكاد لا يبقى منه بقية .

وتوفى البطل المغوار يعقوب سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م وبخلفه ابنه الناصر لدين الله ، وتؤخذ له البيعة فيهنه الجراوى بقصيدة طويلة ، يقول فيها :

هَيَّيْعةً أَحْبَاباً لِلْإِلَهِ بِهَا الْوَرَى وَحَمًا بِهَا دِينَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى

وهو دائماً يردُّد فيه وفى آياته أن الله اختارهم ليتكامل للدنيا وجودها وللناس حياتهم بما يشعرون فيها من العدل والكرم القياض ، ودائماً يردُّد أنهم حماة الدين الخفيف وأن الدهر يصدع لمشيئتهم . ويستولى الناصر على مبرقة من يد ابن غانية فيهنه بقصيدة مطلعها :

لَكَ النَّصْرُ حَرْبٌ وَالْمَقَادِيرُ أَعْوَانُ فَحَسْبُ أَعَادِكَ تَقْيَادٌ وَإِذْعَانُ

كما يهنه بقصيدة أخرى حين استولى على منورقة ، وظل يمدحه إلى وفاته سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م .

ابن عبد^(١) المنان

هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان الأنصارى الخزرجى ، من أهل مكنا ، تفتحت مواهبه الأدبية مبكرة ، فجرى الشعر على لسانه ، واستخلصه لنفسه السلطان أبو عنان المرىنى (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م - ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م) فاتخذة كاتبه فى الدواوين كما اتخذه شاعره ، وله فيه مدائح بديعة ، وكتب بعده للسلطين : أبى بكر السعيد لمدة عام فعمه أبى سالم إبراهيم بن أبى الحسن فأخيه تاشفين سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م فأبى زيان سنة ٧٦٣ فعمه عبد العزيز سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م ولبنه أبى زيان سنة ٧٧٤ فأبى العباس أحمد المستنصر سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م وظل يعمل مع السلطين حتى وفاته سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م . ونوه به وشعره ونثره كل من ترجموا له ، من ذلك ما نقله الأستاذ ابن تاروت من وصف تلميذه ابن جابر الغسنى له بقوله : « رافع راية الأدب والشعر فى عصره ، القدوة الأحفل ، المتفنن الأكمل ، كاتب الخلافة العلية ، المخصوص لديها بالمرابا السنية » . ويبدو أن أهم مدائحه إنما كانت فى السلطان أبى عنان ، ونزله حين قضى على أحد الثوار وثورته قضاء مبرما ، يقول من قصيدة طويلة يهنه فيها بالنصر وعيد الأضحى معا :

القاضى ١٢٤/١ وأبضا درة المجال ٥٣/١ والنبرغ
المبرى ٢٣٨/١ ١١٤/٣ ، ١١٥ ، ٢١٦ ، والوفى
بالأدب المرى فى المغرب الأقصى ٤٩٣/٢ .

(١) انظر فى ابن عبد المنان وترجمته وشعره كتاب نثر
فرائد الجمان لابن الأحمر (طبع دمشق) ص ٣٤٨
وجذوة الاقتباس فىمن خلَّ من الأعلام مدينة قاس لابن

مليكُ ملوكِ الأرضِ أوحدها الذى
 غمامُ الندى المطالِ والجرُّ أغبرُ
 إذا ما تراءى البدرُ يوماً ووجههُ
 لعمري لقد زينتِ الخلافةُ فاغدتُ
 . وراقتُ بك الدنيا جمالاً وبهجةً
 وهشتُ عيدَ النحرِ والفتحِ إبه
 بقيتُ لدينِ اللهِ رِذْءاً وعصمةً
 بو عَلتِ العلياءُ وانفخرَ الفخرُ
 وليثُ الفِذاً والبيضُ قاتيةً حُمرُ
 نَحَرَتِ الأبصارُ أيهما البدرُ
 يقصُرُ عن أوصافها النظمُ والثر
 فإظلامها صَبَحَ وإصباحها بَشَرُ
 لك العيدُ منه والعدا لهم النحرُ
 فما غيرُ عَلِيٍّ الزمانُ له دُخْرُ

وهو يجعل أبا عنان ملك الملوك الذى سمى به العلياء وانفخر الفخر ، إبه غمام الكرم المنهمر فى الأيام المجدبة ، والليث المفدى والسيوف ملطخة بالدم القلبي . وحين يطلع على الناس هو والبدر تغار الأبصار أيهما البدر الساطع ، وقد زان الخلافة حتى أصبح كل مدح شعرا ونثرا يقصر عن وصفه لما . وحسنت بك الدنيا وزدات حتى غدا ظلامها صباحا وصباحها طيبا ذكيا ، وإن الله ليزف لك الفتح والنصر المين بينما يقدم لأعدائك النحر والذبح ، ويدعو له أن يظل معيناً وعصمة للدين الخفيف ، ويظل الزمان له ذخرا مطيعا . وفى إحدى مدائحه يصف الساعة التى نصبها أبو عنان على واجهة مدرسته بناس . وأهم منها قصيدته التى مدحه بها ووصف فيها صراع الأسد مع نور أمامه ، وكان يُعَفِّدُ لذلك حفل كبير ، وفيه ينازل الأسد ثورا حتى إذا خيف على الثور منه أن يصرعه تصدى له مختال فى أكرة مستديرة من خشب معدة لذلك يحركها شخص فى وسطها ، وفى يمناه حديدة يطن بها الأسد حين يهجم عليه طعنات متوالية ، ويتعلق بها الأسد يريد أن يظفر بهذا المختال، فتدور به مع الأكرة وتجهز عليه . والفصيدة طويلة ويصف فيها ابن عبد المنان صيد الأسد فى الفلاة وإحضاره للمنازلة الثور ، وهو يكثر فيها من الألفاظ الغريبة على عادة شعراء المقصورات منذ منشئها ابن دريد ، وخاصة فى وصفه للثور والأسد والمختال وأكرته وما نشب حينئذ من عراك عنيف ، ونذكر بعض ألياته فى المنازلة بين الثور والأسد إذ يقول :

وسدربُ الروقَيْنِ أحضرُ فاتحُ
 ما زال يدعو للزال أسامةُ
 ولقد أراه مكانَ مَصْرَعِهِ وقد
 وعَدَا له والظنُّ يقضى أن يُسْرَى
 جالتُ عليه صَدْمَةُ من حارثِ
 راقِ السواظِ نَضْرَةً لما بَدَا^(١)
 ولقد أشار بظُلْفِيهِ لما دَعَا^(٢)
 أَوْمَى بِساحِ القَصْرِ يَنْكُتُ فى الثرى^(٣)
 وقد اعتلأه فكان عكسا ما قضى
 تنسك صدمة حارثِ يومِ الوغى^(٤)

(١) يَنْكُتُ : ينقض الثرى بمحافره .

(٢) حارث : من أسماء الأسد - الوغى : الحرب .

(١) الروقَيْنِ : القرنين .

(٢) أسامة : من أسماء الأسد وألقابه .

أعجب بها من صدمة قد عُفرت^(١) ليد الهزيم وأوهنت منه القوى^(٢)

وهو يشيد بقرنى الثور المدبرين على الطعن وشدته ، ويقول إنه راق النواظر بلونه الأصفر الفاقع وما إن رأى الأسد حتى أخذ ينكت الأرض بظلفه استعدادا للزوال . وبخال الشاعر كأنما يشير بذلك إلى المكان الذى سُبْرَعُ فيه الأسد فى ساحة المعركة أمام قصر أمى عنان ، ويصدم الأسد الثور صدمة شديدة تنسبك صدمة البطل حارث يوم الحرب الصارية ، وما أعجبا من صدمة ، فقد عفرت لشدتها ليد الأسد وأوهنت قواه لصلابة الثور ومتانة بنيته . ويعرض علينا نزال المقاتل فى أكرته للأسد ، قائلا :

وَضَارِمٌ رَحْبُ اللَّيْلِ تَقْلُهُ	صُهْبٌ مَتِينٌ خَلَقَهَا غَيْلُ الشَّوَى ^(٣)
يَفْتَرُ عَنْ نَابٍ كَأَطْرَافِ الْقَنَا	بَيْضًا وَيَنْضُو مِخْلًا حَادُ الشَّبَا ^(٤)
وَمُخَاتَلٍ فِي جَوْفٍ دَائِرَةٍ طَوْتُ	أَخْلَاعَهَا مِنْهُ عَلَى شَهْمٍ قَتَى
يَحْكِي بِهَا رَأَى بَيْضَةٍ سَبَبَ	لَمْ تَفْرَجْ عَنْهُ فَتَقْذَهَا كَوَى ^(٥)
يَمْشِي الْهَوْنِي وَسَطَهَا قَتْلُهُ	غَدَا وَمَا إِنْ تَشْكِي أَلَمَ الْوَجَى ^(٦)
حَسِبَ الْفَضْفَضُ مَرْتَفَاعَهَا كَمَةِ	فَدَنَّا يَطِيلُ بِهَا الطَّوْفُ وَتَدَسَّى ^(٧)
أَمْسَى صَرِيحًا وَالدَّمَاءُ سِلَافَةً	أَتَرَاهُ سَكْرًا مَالٍ مِنْ تِلْكَ الطَّلَا ^(٨)

وهو يصور الأسد بأنه واسع الصدر تحمله قوائم صهباء مفتولة الأطراف متينة ، ويفترق منه عن ناب كأطراف القنا فى شدة الطعن ويسلّ مِخْلًا حادُ الشبلة كأطراف السيوف وأسفلها الفاتك . وينازله فى شجاع داخل أكرة يحكى بها ولد نعام فى بيضة بفلاة لم تفرج عنه ، فتقذف بها كوى وثقوبا - ويظل يمشى بها فى نزوة - وهى تحمله فى قوة لا تشكى عرجا ولا ألما ، وكأنما يحسبها الأسد كعبة يريد أن يطوف بها ويسعى ، ويعلق بخديده فناها . وما تزال تمرق جسده حتى تصرعه ، ويغرق فى دمايته . ونقد القصيدة الأستاذ محمد بن تاويت ، وأعلى عليها مدائح أخرى لابن عبد المنان ، وربما كان موضوع القصيدة ، وهو وصف المصارعة بين الثور والأسد ، هو الذى أدّى إلى وجوه النقد التى لاحظها الأستاذ ابن تاويت . على أنه يذكر لابن عبد المنان أنه الشاعر المغمى الوحيد الذى وصف لنا هذه المنازلة بين الثور والأسد ، والثى تعد هى وأخواتها فى غرناطة أما لمصارعة الثيران المعروفة لهذا العصر فى إسبانيا . ولابن عبد المنان وراء مدائحه الرائعة غزليات ومولديات بديعة .

(٤) الرأى : ولد النعام . السبب : الفلاة .

(٥) تقله : تحمله . الوجى : العرج .

(٦) الفضفص : من أسماء الأسد .

(٧) الطلا : الخمر .

(١) الهزيم : أيضا من أسماء الأسد .

(٢) ضارم : من أسماء الأسد - رحب اللان : واسع

الصدر . غيل الشوى : مفتول الأطراف .

(٣) ينضو : يسلّ . الشبا : الطرف .

هو محمد بن علي الهزالي شارح ديوان المتنبي الملقب بالنابغة ، ترجم المقرئ في كتابه « روضة الآسر » لأبيه علي وقال إنه من كتاب الإنشاء بالحضرة الفاسية وبنت بيت صلاح ودين ، وتقدّم نبذة من أشعاره ، وكنيته ورثت عنه محمد الشعر ، وقد أكتب في شبهه على كتب الفقه والشعر ، ولم يلبث أن أصبح من قضاة الدولة السعدية كما أصبح شاعر خليفتهما المنصور ، ومن تعريف درة الحجال به : « الأديب الناظم النثر نابغة زمته ، أخذ عن أبي العباس المنجور ، وله معرفة بالبيان والنحو وله نظم رائق ، وهو قاضي سكاكنة » وذكره عبد العزيز القشتالي في كتابه المناهل مرارا ، ويقول عنه : « صاحبنا الفقيه القاضي شاعر الدولة مفتي الحضرة » ويقول عنه محمد بن عيسى الصنهاجي في مقامته التي عرف فيها بأدباء عصره : « آخر علقمة وليد ، وذو المقول المحي المبد ، جزائه في وصف الهامه والقفار وذكر الرُخ والتّغار ، وعلى ذلك فرعه في المدح مقوم الأنابيب ، لا يقصر فيه عن ابن الحسين (المتنبي) وحيب (أبي تمام) » . وابن عيسى يرفعه إلى مرتبة عليّة في الشعر ، فهو آخر علقمة الشاعر الجاهل الفحل وليد أحد شعراء الملققات ، وشعره يرفع ويضع أو كما يقول يحيى ويبيد ، وأساليبه فيه جزلة رصينة ويتعلق بوصف الفياض والقفار ، ورعه لذلك في الشعر رخ متين لا يقصر فيه عن شاعري العصر العباسي الكبيرين المتنبي وحيب . وجمهور شعره في مدح المنصور ، ويستعمله بوصف بطولته في واقعة وادي المخازن المشهورة ضد البرتغاليين التي مرت بنا وكانوا نحو مائة ألف - فيما يقال - فسحقهم جيشه المغربي بين قبيل وأسير بحيث كاد أن لا ينجو منهم أحد ، ويصور المنصور في المعركة وهو يصول ويجول مجنّداً للبرتغاليين ومنظما لكاتب جيشه قائلاً :

وقد سَفَرَتْ بين الكُماة المداعس^(٢)
كما رُئِسَ المرجانُ في السلك رابِس^(٣)
بها الشُّركُ حتى آخَرَ الدهر ناعس^(٤)
عيدُ الصَّفا ما ناسَ في الأرض ناس^(٥)
يرثُهم صُلْبُهم والكُنايسُ
تُخرسُ في الأديار تلك النوايس^(٦)

لعمرك لا أنساه يوماً شَهِدته
يرئِسُ للإقدام كلَّ كَية
وحسبك في وادي المخازن وقعة
بها عرفتُ بُناءَ عَصْرِ بَنِيهم
فدانتوا له حتى توفَّعَ بطشه
فلا زالت التُّلُوتُ تُفَرِّغُ باسمه

(٢) الكُماة : الشجعان . المداعس جمع مدعس . الرخ : الغليظ الحاد

(٣) يرئس : ينظم ويرتب .

(٤) بُناء عيس : يريد البرتغاليين . عيد الصفا : مسترثون أولاً . ناس : متحرك .

(٥) التُّلُوت : يريد عقدة التُّلُوت عند النصارى .

(١) انظر في ترجمة الهزالي وأشعاره كتاب الدرة لابن القاضي ٢٣٣/٢ وكتابه المتنبي ص ٦٧٢ وما بعدها والمناهل للفتال نشر كون في صفحات مختلفة (انظر الفهرس) والنويع المغربي لكون ٢٦٣/١ ٢١٢/٣ والرواني لابن تاروت ٦٥٥/٣ ، ٦٧٢/٣ والحركة الفكرية في عهد السعديين لحجي ٤٠٨/٢ .

واللهو زالى فى هذه الموقعة التى أذاعت وأشاعت بطولة المنصور فى حرب البرتغاليين غير قصيدة يمجّد فيها تلك البطولة من مثل قوله فى قصيدة عينية :

لَمْ يَأَلُ بِسَيِّئَانِ فِي اسْتِصْرَاحِهِ صَهَبَ الْأَعَاجِمَ مِنْ بِلَادِ شُشْعٍ^(١)
فَنَجَّسُوا الْبَحْرَ الْمَحِيطَ وَمَا دَرَوْا بِمَحِيطِ بَحْرٍ مِنْ عَوَالٍ شُرْعٍ^(٢)
وَكُتَّابِ حَقِّقَتِهِ مَنُصُّورِيَّةٍ تَفَادَ بِالْأَسَدِ الْغَضَابِ الْجَوْعِ^(٣)
صَبَّتْ عَلَى الْكُفَّارِ - صَبًّا - عَارِضًا هَطِيلًا وَلَكِنْ بِالْمُومِ الْتَفَتِ^(٤)
فَرَكَنَ عِبَادَ الْمَسِيحِ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ بِالسَّيْلِ مَقْلَعِ
لَا زَلَّتْ فِي أَلْسِنِ الْخِلَافَةِ نَبْرًا نَخْتَالُ بَيْنَ كَوَاكِبٍ لَكَ خُضْعُ

واللهو زالى يذكر أن ملك البرتغال « بستيان » ما زال يستصرخ الأعاجم من البلاد الأوربية الشاسعة ، ولئوّه متجشمين المحيط الأطلسى إلى وادى المخازن ، وما دروا أنهم سقطوا فى محيط من رماح شرعٍ مدّدة ، تحفه كتاب المنصور يقودها أسد غضاب جوع تريد أن تفضمهم قضمًا ، صبت عليهم سحبًا هطلا من الرماح والسيوف ، شربوا منه سماء ناعما قاتلا ، وإن ساحة الحرب لتتلى بقتلى عباد المسيح ، وكأنهم أعجاز نخل رمت بها سيول غزيرة ، ويدعو للخليفة أن لا يزال بدرًا ساطعا تحفّ به الكواكب من قواده وكأته . وبعد هذه الموقعة بانتهى عشرة سنة عام ٦٩٨ هـ جهز المنصور السعدى جيشا ضخما - كما مرّ بنا - لغزو السودان ، واستولى على إقليم توات وأقاليم أخرى وجاءته سيول من الذهب كان لها أثر بعيد فى امتعاش البلاد اقتصاديا لعهد ، وبهتّى اللهو زالى المنصور بهذا الفتح العظيم منشدا فى وصف كتابه :

غَدَتْ تَحْمِلُ الْمَوْتَ الزَّوَامُ بِحَوْطِهَا وَبِكُنْفِهَا يُنْسِنُ بِشَيْعِهِ نَصْرُ^(١)
فَحَلَّتْ بِأَرْضِ السُّودِ لَمْ يَنْ عَزَمَهَا مَهَالِكُ صَدٍّ عَنْ مَسَالِكِهَا الذَّعْرُ^(٢)
لَقَدْ ذَكَرَ الْحِشَانُ مِنْ وَقْعِهَا بِهِمْ وَقِيعَةُ يَوْمِ الْفِيلِ لَوْ يَنْفَعُ الذِّكْرُ^(٣)
هِنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ قَضَى عَلَى كُلِّ مَنْ نَاوَاكَ أَسْبَافُكَ الْبُتْرُ^(٤)
وَقَدْ لِفَتْحِهَا يُنْتَحَتُ لَيْلُهَا إِلَى كُلِّ قَطْرِ مَكَ ذُو لَجِبٍ مَجْرُ^(٥)

وهو يصور الكتاب تحمّل إلى السودان الموت الزوام السريع يحوطها اليمن ويشيعها النصر ، وقد مضت فى هذه البلاد السودانية ومسالكتها الوعرة المخيفة لا يصد عزمها أى مهالك أو معوقات ، وهى وقائع لا شك أن السودانيين - أو الأحباش كما يقول - يذكرون وقعة الفيلة حين وجهها أبرهة إلى مكة والكعبة ، فأرسل الله عليهم طيرا ترميهم بحجارة من سجيل فقتل حين وجهها أبرهة إلى مكة والكعبة ، فأرسل الله عليهم طيرا ترميهم بحجارة من سجيل فقتل

(١) بستيان : سليمان : ملك البرتغاليين .
(٢) عوال : رماح . شرع : مدّدة .
(٣) عارضا : سحبًا . الموم التفت : المهلكة .
(٤) الموت الزوام : العاجل السريع .
(٥) البتر : الحادة الناطقة .
(٦) ذو لجب مجر : جيش كثيف ذو ضجيج .

عليهم قضاء مرما ، وبالمثل قضى جيش المنصور على كل ما التقى به من جيوش السودانيين . ويهتئ المنصور بانتصار كُماته وفرسته ، ويدعو له أن تدرم مثل هذه الفتوح العظيمة بما يوجه إليها من جيوشه الباسلة . وما يترك الهوزالى حادثة فى عهد المنصور إلا وينشده فيها قصيدة غراء ، كما لا ينزل به مرض ويشفى منه إلا ويسارع بهتته ، وهو بحق يعد شاعر المنصور السعدى فى عصره إلى وفاته سنة ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٤ م .

أحمد^(١) بن القاضى

هو أحمد بن محمد بن أبى العافية المشهور بلبن القاضى ، من بيت علم وأدب ، ولد سنة ٩٦٠ للهجرة ، وحفظ القرآن الكريم مثل لداته ، وأكب على حلقات العلماء ببلدته فاس ينهل من حلقاتهم العلوم المختلفة من فقه ونحو ولغة وعروض وأدب وتاريخ وحساب وهندسة ومنطق وبلاغة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ولقاء مشيخة العلوم والتلقى عن أئمتها ، ونزل مصر وأقام بها فترة يأخذ عن علمائها ويحمل إجازاتهم ، وعاد إلى المغرب ورجع إلى مستقره بفاس ، ثم وفد على مراكش ، وأثنى عليه للمنصور الذهبى عبد العزيز الفشتالى وغيره من حاشيته فألحقه بحضرته . وفى سنة ٩٩٤ عاودته فكرة الرحلة إلى المشرق لينشر به مآثر المنصور ومفاخره وفروحه ، واستأذنه فى ذلك فأذن له ، ورأى أن يسلك طريق البحر المتوسط من تطوان ، ولم يلبث أن اعترضه هو ومن معه قراصنة الإسيبان فأسروهم ، ونقلوه إلى مالطة وظل بها أسيرا نحو عام فى بلاء عظيم من الجوع والبرد والتكليف بما لا يطاق . وعلم بأسره المنصور . فكتب إلى حاكم تطوان كى يعمل على فدايه ، واقتداه بمال كثير ، وعاد إلى حضرة المنصور وهو يحمل له هذا الجميل العظيم ، وأداه نبله إلى أن يكتب عنه كلبه : « المتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور » وهو سيرة له رائعة ، نشرت فى مجلدين بتحقيق الأستاذ محمد زروق ولم يكف بذلك ، فقد ألف لخزنته كتاب درة الحجال فى أسماء الرجال ذيل به على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان حتى زمه ، وأيضا كتاب جذوة الاتبلى فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس . وقد استقصى الأستاذ زروق مؤلفاته فى مختلف العلوم والفنون وبدأها بمجموعة كتب التاريخ والتراجم وتلاها بمجموعة ثمانية فى مؤلفاته فى الفقه ومجموعة ثالثة فى مؤلفاته فى الحساب والهندسة ومجموعة رابعة بمؤلفاته فى المنطق . وجعله بصره بالفقه يتولى القضاء ملازما حضرة المنصور طوال حكمه حتى سنة ١٠١٢ للهجرة ، وتفرغ بعد ذلك للتدريس حتى وفاته سنة ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦ م وكما كان

وراجع المصادر الكثيرة التى ذكرها الأستاذ زروق فى درسته له التى عدم به تحقيقه للمتقى ونظر الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٧٠٦/٣ .

(١) انظر فى ترجمة ابن القاضى وأئتماره روضة الآس للمقرى ص ٢٣٩ ونشر الثاقب ٢١٣/١ وصفوة من انشر ص ٧٧ ومناهل الصفا للفشتالى بتحقيق كتون

عالمًا بفنون كثيرة كان شاعرا ، وخصَّ المنصور الذهبي بكثير من شعره منذ أن كان في الأسر ،
إذ أرسل إليه قصيدة حينئذ ، يستعطفه بها لتخليصه من أسرهِ ، وفيها يقول :

بمَنْ الذي أولاك ملكا فَجَنِّى من المَلِكِ يا قَصْدَ الأسير المَكِيلِ
وَكُنْ يا إمامَ العدلِ فى عَوْنِ خاتَمِ نَسِيرِ كَسِيرِ ذى جِناحٍ مَذَلِّلِ

ومنذ عاد ابن القاضي إلى حضرة المنصور الذهبي ، وهو يلزمه ويقدم له مداحه فى كل
نصر لجيوشه وكل مناسبة . وكانت وقعة وادى المخازن لا تيرح ذاكرة البرتغاليين وكانوا
لا يزالون يحتلون مدينة أصيلا على المحيط ، وأحسوا أن المنصور يريد الاستيلاء عليها ، فخشوا
أن يواقعوه فيحدث لهم ما حدث فى وادى المخازن من تمزيقهم كل ممزق ، قرأوا أن ينسحبوا
منها ويتركوها للمنصور . وبهتته ابن القاضي بهذا الفتح الذى أتاه دون أى حرب ودون أن
يُكَلَّ سيف وتراق الدماء ، يقول :

يا أيها المنصورُ بُشِّرْ بالعلا اللَّهُ بَلِّغْ فى العِدا المَأْمُولَا
أُتْصَاكُمُ سيفا لُحْفِ عِدَائِهِ وبكمْ غدا سِيفُ الرُّدَى مَفْلُولَا
وهزمتُمُ الشُّركَ المبينَ بعزمكم من غيرِ ما سِيفُ يُورِى مَسْلُولَا
وأذنتُمُ كَيْدَ الخِيثِ مَهَابَةٍ وَفَتَحْتُمُ آرَامَهُ أَصِيلَا
وَعَدْتُمُ الناقوسَ صِفْرا بَلَقَمَا يُتْلَى بها قِرْآنُا تَرْتِيلَا
بُشِّرْ لواءَ الفتحِ مَقْمُودَ لَكُمْ واشكُرْ إلهكْ بَكْرَةً وَأَصِيلَا

وهو يشير المنصور بمعال لا تنتهى ، فإله حافظه ويلبغه فى عِداه كل ما يأمل من نصر
وفتح ، وقد منحكم سيفا لُحْفِ الأعداء ، وفَلَّ لكم سيف الردى والملاك فهزمتُمُ الشُّركَ
بعزمكم دون سيف سلتموه ، وذاب كيد الخيـث الصليبي مهابةً ، ففتحتُمُ عقر داره : أصيلا
وأصبحتُ خلاء من ناقوس الصَّارِى ترتِّلُ فيها آى القرآن ترتيلا . ويفتح المنصور فتحه العظيم
فى السودان سنة ٩٩٨ للهجرة ، وبهتته بهذا الفتح فى قصيدة طويلة ، وفيها يشد :

بشراك بِالْفَتْحِ المِينِ المِتَاحِ قَطَفْتُهُ بَيْنَ القَنَاسِ وَالصَّفَاحِ
وَلِيَهْنِكَ النُّصْرُ الذِّى حُرْنَةُ دونِ المُلُوكِ فى مَنَاقِى الكِفَاحِ
وَأَسْعَدَ قَدِّ دَمْتِ مُلُوكِ الوَرَى لَمَّا رَأَتْ فى الانْقِيَادِ النِجَاحِ
وَالطَّاهِرُ المنصورُ من هاشمِ واسِطَةُ العَقْدِ وَبَحْرُ السَّاحِ
رُجَّتْ بِلَادُ السُّودِ من جُنْدِهِ وَانْتَبَحَتْ بالسِيفِ أَيْ افْتِتاحِ
فَنَحَّ مِينَ هُو تَارِيخُهُ يَنمو على الأَرْضِ مَدِيدَةُ الجَنَاحِ
لَا زَالَتِ الأَنْطَاسُ تَقُو لَكُمْ من سَعْدِكُمْ طُيُولُ المَدَا تُشْبَاحِ

وهو يهنيء المنصور بالنصر الذى قطنه بأسلحته من الرماح والسيوف وحازه من دون الملوك فى منازل الكفاح ، وإته لحرى أن يسعد فقد دلت له الملوك وألفت له عن يد صاغرة ، وإته للطاهر المنصور من ذرية هاشم وبينه النبوى ، وإته لجوهرة العقد الفريدة وبحر السباح وغيته المدرار ، وإته لفتح سبيل ينمو ويمد جناحه فيشمل كل ما حول المغرب الأقصى من الديار ، ويدعو له أن تظل الأفطار تفتح أبوابها لجيوشه طوال الدهر لسعده العظيم الذى لا يحد . وقد أشار فى الآيات إلى أن المنصور من بيت بنى هاشم بيت النبوة ، وهو يردد ذلك فى مدائح مرارا وتكرارا بمثل قوله :

الملكُ أصبحَ ثلثَ الآسِرِ بلبنِ النَّبِيِّ الطاهرِ الأنفَسِ
يروى أحاديثَ العلا عن مُرْسَلٍ طهرتْ خلأته من الأَدْنَسِ

وكانت الأسرة السعدية تنسب إلى الرسول الطاهر ، فمضى يديء فى هذا النسب الشريف ويبعد منها ومشيدا بصور مختلفة .

الدغوغى^(١)

هو أبو العباس أحمد الدغوغى ، من شعراء الزاوية الدلائية فى القرن الحادى عشر الهجرى ، ومُرُّ بنا فى الفصل الأول أنه أسس هذه الزاوية فى بادية تادلة أبو بكر الدلائى سنة ٩٧٤ هـ / ١٥٦٧ م وأن عمدا ابنه نهض بها إذا استكثر فيها من عمارة الدور والداكين وسائر المرافق ووقف على شيوخها وطلابها ما يكفيهم من مئونة . وأنها كثيرون من علماء المغرب يدرسون فيها ويتخلق من حولهم الطلاب ، وسرعان ما أصبحت مركزا كبيرا من مراكز الثقافة والأدب ، ولولا تعرضها لمسائل السياسة لظل لها فى الأدب وشئون الثقافة دور مهم ، إذ قضى عليها المولى رشيد وهدم عمارتها سنة ١٠٧٩ للهجرة ونقل شيوخها وعلماءها إلى فاس . والمهم أن محمد بن أبى بكر الدلائى مؤسسها الحقيقى كان يحفُّ به كثيرون من الشعراء فى مقدمتهم أحمد الدغوغى الذى قصر عليه جمهور أشعاره ، حتى ليصبح شاعره الرسمى الذى ينطق باسمه فى موافقه العلمية وجهاده نصرة للدين الحنيف ، ويصوره زعيما دينيا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، وكان لوعظه أصداء بعيدة فى القبايل المتبدية إذ تستجيب له مدعته مستشعرة له الولاء ، ولدعاته الذين ينهونهم عن اقتراف الآثام والثوبة منها والعمل بالصالح . وللدغوغى يمدحه :

الزاوية الدلائية كتاب الدكتور حجي عنها (طبع الرباط) .

(١) انظر فى الدغوغى وترجمته وأشعاره كتاب الشعر الدلائى لمبد الحواد السفاط طبع الرباط ، وراجع فى

يا أَلِمْ الحِلماءَ أَحْزَمَهُمْ إِذَا ما الرأى رُدُّ إلى مشورة حازم
صَلَّ وأَعْلَظَنَّ في الله واسْطُ مجاهدا بحسام عزمك ذى الذؤاب الحاسم
واقطعَ جِبَالَ خِبَالِ كُلِّ معارض ومعاذٍ للحق غير موائم
فالام تبحر في الضلال قِبَالُ من عَزَبَ مغربنا سُدَى وأَعْجَم
والى سِبادتك السِنَّةُ يَتَهَى نصحُ الوَرى ولأنت أعلم عالم
والدينُ أنت إمامه ورئيسه والدهر عَيْدُك وهو أطسوعُ خدام

والدغوى يصور محمد بن أبى بكر حليما فهو لا يأخذ أتباعه والقبائل من حوله بالشدّة ، ويقول له لك أن تصول وتجول وتغلظ في الدعوة لله وتقهّر خصومها بحسام عزمك الحاد وتلفّض على كل معارض لك ومعاذ للحق لا يذعن له . ويحمل على القبائل الخارجة عن ولائه التي لا تبحر مهالك الضلال ، الأعجمية منها والمهملة التي لا يصلها دعائه ، وينزه ببيادته السنية وعلمه وإمامته وطاعة الدهر له كيفما أمره . وثار في الصحراء أبو الحسن السملالى وعاث فيها فسادا ، ففرغ إليه كبراؤها وسادتها يستجدون به لإحباط ثورته ، ففكر في جمع جيش لحربه ثم عدل عن ذلك إلى طريق الوعظ والإرشاد حتى لا تراق دماء المسلمين ، واستجاب لدعائه السملالى وحُفَّت الدماء ، فأنشده الدغوى قصيدة منها بصنيحه ، وفيها يقول :

كَمْ وَلَدَةٍ لَوْلَاكُمْ في بلدةٍ وَغُودِرَتِ المواطنُ عَائِيَةً
ولكم بكم عمرت مواطنُ طالما أَقَوْتُ وتألّفتها الذئابُ العاويّةُ
هذا لسان الحق يشدّ إمّا شمسُ الهدى للمهتدين دِلاليه
بكريةُ الأبراج مشرقُ سعدها بمحمدى الرشد غربا باقية
ولعلمه ولحلمه ولحكمه حِكْمُ تفوق الحصر لا متناهية

وهو يصف محمد بن أبى بكر الدلائى بأنّه دائما يحمى الصغار الأبرياء من حرب آبائهم ولولاه لتيّموا وأصبحت المواطن خالية من آبائهم ، وكَم به عمرت بلاد ومواطن كانت تُقْفَر في عهد غيره وتسكنها الذئاب العاوية ، وإن لسان الحق لينشد إن شمس الهدى للناس جميعا دلالية المواطن بكريّة الأبراج ، مشرقها دائما في المغرب أو الغرب بمحمد بن أبى بكر ، وينوه بعلمه وحلمه وعدالة حكمه . خلال وشمال تفوق الحصر لا متناهية . ودائما ينوه بكرمه وجوده وأنّه غيث مدرار بمثل قوله :

يا مَنْ إِذَا تَرَبَّثَ يَمِينى كان لى نَشَرَتْ ثَناه غَيْثُ فُلستُ أُعْصِلُ^(١)
ما المَالُ من أَمَلٍ إِلَيْكَ أُمّالِي حَسْبى رضاك فهل إِلَيْهِ وصول
فرضاكَ كل غَيْمَةٍ في ضَمِينِهِ حتى الثراء به رضاك كَفِيلُ

(١) أعول : أنظر .

ولقد أفادني الفصاحة جودكم وقفا امرؤ حصر اللسان كليل
فعمزت عن نطقي بحسن كمالكم وكذا سوى فما عساه يقول

والقطعة تصوره مريدا وتلميذا لشيخه محمد بن أبي بكر ، وفيه ليشعر في عمق حين يعول
ويفتقر أن ثناءه على شيخه غنى ما بعده غنى ولا ثراء ، ويعلم أنه يمدحه لا لمطايه ، وقفا
طلبا لرضاه ، فرضاه كل ما يريد من غنمه ، وفيه ليحمل إليه ثراء ما بعده ثراء ، كما يعلم أن
جود ابن أبي بكر هو الذي حل عقدة لسته وكان غنيا كليلًا فأصبح فصيحًا ، ومع ذلك فإنه
يعجز عن بيان كمال أستاذه ، بل إنه كمال لا يستطيع هو ولا غيره تصوره . وكان ابن أبي بكر
يختم صحيح البخاري مرة كل عام ، ويختلف بهذه المناسبة ، وينشد الشعراء مدائح مختلفة ،
وينشد الدغوي في أحد احتفالاته :

نال البخاريُّ منه سبحا وغوصا مرانة
فناث في السبح عنه وقام غوصا مقانة
أكرم بسوق بديع للمكرمات أقامه
فيه النشاء عليه وقفا إذا النير سانة
فجوهر الفضل فرد تلى المال اتسامه

وهو يقول إن صحيح البخاري حظي منه بسبح في أحاديثه وغوص ما يماثلهما سبح
وغوص ، ويقول إنه أقام للمكرمات سوقا عظيمة ، جعلت الناء وقفا عليه دون غيره ممن قد
يتخيه ، إذ جوهر الفضل فرد ، وتلى المال أن يكون قسمة بينه وبين سواه . وعلى هذا النحو
كان الدغوي شاعر محمد بن أبي بكر وداعيته ولسقه الناطق عن ميوله وأهوائه .

البوعناني^(١)

هو عبد الواحد بن محمد البوعناني مفتي فاس في عهد المولى إسماعيل العلوي
(١٠٨٤ هـ / ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) وهو يعد أهم حكام الدولة العلوية ، وفي
عهده نهض المغرب الأقصى نهضة ثقافية وأدبية ، واستعادت البلاد ذكرى واقعة وادي
المخازن ضد البرتغاليين في أوائل العهد السعدي إذ آذن المحتلين الأوروبيين للبلدان المغربية
بحرب تسحق ضلوعهم سحقا . وأخذت تلك البلاد تسقط في حجره وحجر المغاربة واحدة
تلو أخرى ، وكان أول ما حازه منها - كما تقدم - المهدية سنة ١٠٩١ هـ / ١٦٨١ م وتلتها
طنجة سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م ثم حاز العرائش سنة ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م واستدار العام
فحاز أصيلا ، وكان حربيا أن يواكب هذه الفتوح قصائد حماسية وملحمية كثيرة . وربما

(١) انظر في البوعناني وصيدته كتاب الوافي بالأدب
المعرب في المغرب الأقصى ٨٣٩/٣ . والبوغ المغربي

كان خير ما نظم فيها مدحة للبوعلاني بشيد فيها بفتح المولى إسماعيل لمدينة العرائش ، وهو يفتحها بقوله :

ألا بُشِّرْ بهذا الفَتْحُ نُوْرُ قد انتظمت بعزمكمُ الأمورُ
وطيرُ الشَّدْ نادى حيث غنى قد اشرحتْ بفتحكمُ الصدورُ
وقد وافاكمُ الخيراتُ طرًا وطابَ العيشُ واتصل السرورُ
وجاهدتُمُ وفاتتكمُ فاتم لديسن الله أقمارٌ تُنيرُ
وأطلعت صوارمكم نجومًا لدى هيجاءَ صاحبها كُفُورُ
وَأنتَ البدرُ بِيومِ السَّلْمِ حُنا وفي يومِ الوَغَى الأسدُ المَهِصُورُ^(١)

والشاعر فرح بهذا الفتح المبين ، حتى ليراه نورا يغمر سناه البلاد والعباد ، وكل شيء من حوله فرح ، فالطير تنغى ، وقد اشرحت الصدور بما وضع عنها إسماعيل من أُنُقَال كانت تعاني منها عناء شديدا ، وأى أُنُقَال أشد من احتلال الوطن واعتصار طيبات الرزق فيه ، وقد رُدَّتْ إلى أهلها وطاب العيش واتصل السرور يفتح العرائش وفتح طنجة والمهدية قبلها ، وقد جاهدتم أصحاب الصليب ، وانتصرتهم لدين الله الحنيف ، وكنتكم أقمار تشع من حولها أضواء منيرة ، وكأنا سيفكم نجوم تحف بكم ، ولئلك للبدر المنير فى السلم حسنا وفى الحرب الأسد المصور ، وبمضى منشدا :

وفى ثغر العرائش قد تبدى لقدركمُ على الشُّغرى الظهورُ
فَهَرَّتْهُمُ بِأبطالِ عظام على الهيجاء كلُّهُمُ جَسُورُ
وكم رَأْسٍ من الكفار أَمسى فطِيعَ الرُّأْسِ مجرورا بِخُورِ^(٢)
وكم أَسْرَى وكم قَتَلَى بِأَرْضِ وكم جَرَحَى دِمَاؤُهُمُ نَفُورِ^(٣)
تمرُّ بها الطيورُ فَتَنقِها وبات الذئب وهو لها شُكُورُ
وأضحى الناسُ كُلُّهُمُ نَشَاوَى على طربٍ وما شَرِبتْ خُمُورُ

وهو يقول للمولى إسماعيل لقد بدا واتضح لقدركم فى ثغر العرائش النصر المبين ، فقد فهزتم العدو بالمغارة الأبطال ممن تدربوا على الحروب ، فكلهم جسر على القتال لا يتخاذل أبدا ، وكم رئيس من الكفار أَمسى مقطوع الرأس أو مجرورا يتخط فى دمه صائحا ، وإن الأسرى والقتلى لأكثر من أن تُحصى سوى الجرحى ودماتهم المتدفقة ، ولكنتك أمتت للطير مأدبة تتخير منها غذاءها ، وقد تجمعت عليها الذئاب ، وهى تعوى كأنها تشكرك ، وأضحى الناس

(٣) نفور : تندف .

(١) المصور : المفترس .

(٢) رأس : يرعد رئيسا . يخور : يصيح .

نشأوى من الفرحه بهذا النصر لا من خمر ذاقوها ، ولكن من نصر تفوق نشوته نشوة الخمر
فرحا وسرورا . ويقول :

فَبُشِّرَاكُم بِهَذَا الْفَتْحِ نَوْرٌ وَبُشِّرَاكُم بِمَا مِنْ الْغُفُورِ
بِهِ زَادَتْ مَآثِرُكُمْ عَلَواً وَقَدْ عَظُمَتْ بِهِ لَكُمْ الْأَجُورُ
أَلَا يَا أَهْلَ سَبْتَةٍ قَدْ آتَاكُمْ بِسِيفِ اللَّهِ سُلْطَانٌ وَقَوْرُ
إِذَا مَا جَاءَ سَبْتَةٌ فِي عَشَى تُزْفُ لَهُ إِذَا كَانَ الْبَكُورُ
وَوَهْرَانٌ تَسَادَى كُلُّ يَوْمٍ مَتَى يَأْتِي الْإِمَامُ مَتَى يَزُورُ
فِيهِزَمْكُمْ وَيَقْتُلْكُمْ وَيَسْبِي وَسِيفُ الْحَقِّ فِي يَدِهِ يَنْوِرُ^(١)

وهو يشير المولى إسماعيل بأن هذا الفتح نور من عليكم به الله الغفور فزاد مآثركم وأمجادكم
سما ، وعظم لكم به الأجر والثواب ، وكانت سبتة لما تفتح ، فشر بها تهب في وجه الإسبان
مهدة لهم بالمولى إسماعيل وما يحمل من سيف الله الذى لا يفلأبدا ، وكأما حين يأتيها مساء
تزف إليه بكورا منكلا بالمحتلين لها من الإسبان وبالمثل وهران وكانوا قد استولوا عليها ، تناديه
صباح مساء كى يهزمهم ويقتلهم بسيف الله الذى لا يزال يضيء فى يده ، ويختم قصيدته
بقوله :

أَيَا مَوْلَايَ قُمْ وَنَهَضْ وَشَرِّ لَأَنْدَلُسٍ فَتَتْ لَهَا الْأَمِيرُ
وَجَاهِذْهُمْ وَحَارِزْهُمْ وَفَرِّقْ جَمُوعَهُمْ فَرَيْكُمُ النَّصِيرُ
وَلَا يَمْنَعُ بِفَضْلِ اللَّهِ مِنْهَا كَأَنَّ قِيلَ بَرٌّ أَوْ بِحُورُ
بِقُرْطَبَةٍ تَسَالُ الْمَجْدَ طُرًّا وَيَأْتِي الْمَرْزُ وَالْمَلِكُ الْكَبِيرُ

وتصور هذه الأبيات مدى طموح البوعتاتى حين رأى نزوح المولى إسماعيل تنوال فيخته
لا على أخذ سبتة وهران فحسب ، بل أيضا على استرداد الأندلس حيث ينال العز والمجد طرا
بعودة قرطبة إلى حوى العرب والعروبة .

٤

شعراء الفخر والمجاء

(أ) الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربى القديمة منذ الجاهلية ، وقد ظل حيا فيه على توالى العصور ،
والشاعر يفخر فيه بشماله الرفيعة الفردية من المروءة والكرم والوفاء وما يماثل ذلك وبعضيته
القلبية والقومية وبشجاعته وبسالته الحربية . ونراه على ألسنة شعراء المغرب الأقصى منذ ابن زنباع

(١) بنور : بضىء ونير .

فى عصر الرباطين ، وهو يفتخر فى بعض غزله لصاحبه بأنه يمتنى من حمير ولهم سيأخذون منها بثأره ويصور لها بأنهم فى الحرب . ويأخذ الفخر عند شاعر الموحددين : ابن جُبوس شكل نصائح يوصى بها الشراء بل معاصريه جميعا أن يتمثلوها ليصونوا بها مروءتهم ، ويتخذوها شعارات ترسم لهم مثالية خلقية كريمة من مثل قوله^(١) :

ردِ الطَّرْقَ حتى توافى النُعمرا فربُّ عسيرٍ أتّاح اليسيرا^(٢)
وأرسلْ قُلُوصَكَ طورا شمالا وطرورا جنوبا وطرورا دُبوراً^(٣)
وطيرٌ حيثُ أنتُ قوئى الجنا حرٌ لا عذرَ عندك أن لا تطيرا
ولا تَفْعَسَنَّ وأنتَ السَّليد ثم حيثُ تضاهى المهبطُ الكسيرا
وذو العجزِ يَرْضَعُ ثدياً حَذُوراً وذو العزمِ يَرْضَعُ ثدياً دُرُوراً^(٤)

وأول شعار رسمه للشخص كى يحصل على ما يريد مهما يكن عسيرا صعبا أن يتحمل شرب الماء العكر حتى يصل إلى ما يريد من الماء العذب الصافى وشعار ثان أن يرسل ناقته شمالا وجنوبا وفى كل اتجاه حتى يتحقق له أمله ، فلا بد له من العناء ولا بد له من الضرب على أبواب الآمال حتى تفتح على مصاريحها ، ولا بد له من الطيران بعيدا فى آفاق الدنيا حتى يقع على ما يتمناه ، وعيب أن تكون أجنحته قوية ولا يطير شأن المهبط الكسير ، فالآمال إنما تؤخذ مغالبة وعزما مضطرا ، وكأنا العاجز فى الدنيا يرضع ثديا شجيحا ، بينما القادر المملوء إرادة وعزيمة يرضع ثديا دارأ له بكل ما يريده من دنياه . ويقول القاضى أبو حفص عمر بن عمر السُّلمى المتوفى سنة ٦٠٤ للهجرة^(٥) :

نهائى جلىمى فلا أظلمُ وعزٌ مكاتى فلا أظلمُ
ولابدُّ من حاسدٍ قلبه بنور مآثرنا مُظلمُ
رحمتُ حسودى على قته يقاسى العذاب وما يؤخَمُ
هجلنا ائراءا ولنا كما يقول ولكن كما يعلمُ

والقطعة ردُّ بها على بعض من آذاه بهجائه ، وكان كبير النفس ، فردَّ عليه بما يتفق مع شخصيته وسجو نفسه ، فقال إن مروءته وحلمه يمنعه من أن يظلم أحدا وإن ما له من سمو المكاتبة يمنع أن يتعرض شخص له بظلم أو هجاء ، ولا يسلم مثله من حاسد يحسده على مآثره وسكاره ، ولأنه ليرحم حاسديه لما يقاسون من عذاب الحسد وما يصيبهم به من الكمد ، ويقول إن حاسده يهجهو ائراءا . وضمن ذلك سخرية لاذعة إذ قال إنه ليس كما يقول حاسده

(١) حذورا : شجيحا .

(١) النبوغ المفرى ٧١٧/٣ والوفاء ١١١/١ .

(٥) النبوغ المفرى ٧١٨/٣ .

(٢) الطرْق : الماء العكر . النُعمرا : الماء الصافى .

(٣) الدبور : ربح تهب من الغرب . القلوص : الناقة .

ولكنه كما يعلم من منزله الرفيعة . ويقول أبو العباس أحمد بن علي الملقب رئيس ديوان الإنشاء في عهد السلطان أبي يعقوب المربني^(١) :

والفضل ما اشتملت عليه ثيابي	اليزر ما ضربت عليه قبلي
والمسك ما أهداه نفسك كسلي ^(٢)	والزهر ما أهداه غصن يراعي
والمعزم يلى أن يضام جنتي	والمجد يمنع أن يراحم موردى
بجميل شكرى أو جزيل ثوابي	وإذا حدث صنعة جازيتها
مجرى طعامي من دمي وشربي	وإذا عقدت مودة أجريتها
نأرا فأوشك أن تسال طلابي	وإذا طلبت من القراقد والسها

وهو فخر يصور نفسا نبيلة إلى أقصى حد ، نفسا تستشعر العز كلما ضرب الشاعر عليه قبله فأصبح ملازما له لا ينادره ، ومثله الفضل الجاثم في ثيابه ، أما الزهر وشذاه فما تكبه يراعيه أو قلعه من الشعر ، وأما المسك وعطره فما يكبه من رسائله البليغة ، وإن المجد ليقف حائلا لمن يريد أن يراحمه في مورده العذب ، ويأبى العزم أن يصاب جنبه بأى ضميم وإذا قدم له شخص صنعة أو جميلا جازاه بشكره أو بثوبه الجزيل ، وإذا عقد مودة لشخص جرت في دمه مجرى طعامة وشربه . وهي صورة بدیعة . وإذا طلب من الكواكب ثأرا نال مطلبه سريعا . ويقول أبو علي اليوسى الدلائى المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة^(٣) :

إننا أناس لست تبصرنا	تحنن الطعم التي تزرى ^(٤)
يقرى الفتى ويجوع وهو يرى	متجسلا بالصبر والبشر
والحررة الشماء رثما	جاعت ولم ترضع على أجر ^(٥)
والحرر ليس حياته بسوى	عز الجنب ورفعة القدر
لا بالطعام ولا الشراب ولا	استلقاته بأرائك ونثر ^(٦)

فهو من قوم لا يتحننون المطاعم التي تزرى بمن يطعمها، وإن الفتى منهم ليعرى ويجوع ومع عزبه وجوعه يقرى مزادنا بالصبر متحليا بالبشر ، ومثله الحررة ترى شماء متسامة وتجوع ولا تأكل بنديها فذلك موت زوام ، والحر مثلها يستشعر العزة ورفعة القدر فهما متاعه من دنياه لا الطعام ولا الشراب ولا المقاعد الوثيرة . ولعمري^(٧) الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٥ م :

(١) البوغ المربى ٤٢/٣ .
(٢) نفس : مداد .
(٣) البوغ ١١٧/٣ .
(٤) الطعم جمع طعمة : ما يطعم .
(٥) الشماء : الترفعة النسائية .
(٦) أرائك وثر : مقاعد مرتقة .
(٧) البوغ المربى ٤٩/٣ والحياة الأدبية فى المغرب للدكتور محمد الأخضر ص ٣١١ .

قل لمن يَفْخَرُ على النّاسِ سرّ بلباءِ سرّاةِ
ليس من شقّى فَخَارَ بعظامِ ناخراتِ
ما فَخَارَ المرءُ إلا بعلومِ زاحراتِ
وسجايَا ومزايَا وهباتِ وافراتِ

وهو يقول إن الفخر الحقيقي لا يكون بالانتساب إلى الآباء والأجداد الرؤساء والعظام البالية في القبر ، وإنما يكون بما وعى المرء وتعمقه من العلوم وبخصاله الحميدة وما منحه الله من الهبات الوفرة ، ويقول ابن زكري الوائلي حاثنا على اقتحام الصعاب في طلب المجد^(١) :

المجدُ حيث مدارُ السبعة الشُّهُبِ هيهات يدركه مَنْ لم يكن بليّ
وهمةُ المرء لا تعدو بصيرته بقدر نظره يسمو إلى الطلبِ
كلُّ له أربٌ لكنْ أخو نصيرٍ في الهمِّ ليس له في الجِدِّ من أربٍ
إن كان لا بدّ للإنسان من أملٍ فلْيأمل المجدَ فوق السبعة الشُّهُبِ

وهو يقول إن المجد ليس شيئاً هيناً ، بل هو شيء في منتهى الصعوبة ، وعلى طالبه أن يعرف أنه لا بد له من الطيران فيه والصعود حتى يبلغ الكواكب السّيارة السبعة ، ويقول الشاعر إنه لا يدركها من لا يشعر بشمم ولها لا حد لها . ويذكر أن كل شخص يحصل في دنياه على ما يطلبه بقدر همة ، ويقول إن مَنْ همة قصيرة لا ينال مأزباً كبيراً ، وإذا كان كل إنسان له أمل لا يزال يتنمّاه ، فلتَسْمُ نفسه ويأمل المجد لا في الأرض ولكن فوق السبعة الشهب . وحرى بنا أن نتوقف قليلاً عند الشاذلي الدلائني وقصيدة بديعة له في الفخر .

الشاذلي^(٢)

هو محمد بن أحمد بن الشاذلي المتوفى سنة ١١٣٧ هـ / ١٧٢٥ م . لم يولد لأبيه في عهد الزاوية الدلائية ، وإنما ولد له بعد خروج أهله وألبائه منها . حفظ القرآن الكريم ، وأكب بعد حفظه له على علوم اللغة من نحو وصرف وعلوم البلاغة المختلفة ، ومضى يتزود بالأدب ، ولم تلبث شاعريته أن استيقظت فيه ، فأخذ ينظم الشعر في أغراضه المختلفة ، واشتهرت له قصيدة في الفخر يستهلها بحوار بينه وبين سيدة يمضي على هذه الشاكلة :

ما إن يَمِيكَ فَقَدْ الحُلَى والحُلَى إن أمت باليَمَمِ الشَّمَاءُ كَت مَلَى
وربُّ جَاهِلِيَّةٍ هَبَّتْ نَمَاتِنِي أن كُنْتُ - عن غَمَرِ عَيْشٍ - مَوْتَرُ الوَثَلِ^(٣)
قَالَتْ رَأَيْتُكَ ذَا قَوْلٍ مَحْبُورَةٍ أزهى من الرُّوضِ غِبُّ الواكفِ المَطْلِ^(٤)

القليل.

(١) الوائلي ٨٥٦/٣ .

(٤) محمّدة : منقّحة . غب الواكف المطل : عقب السحاب المطر .

(٢) انظر في الشاذلي كتاب الشعر الدلائني (راجع

الفهرس) والبرغ المغربي ٤٧/٣ .

(٣) غمر العيش : رافقه وواسمه . الوثل : الماء الضحل

وفى الملوك له كُفءٌ فأمهم ولست أضنى وإن لجئت لتعدل بي وإن من كرمي بخلى بشعري عن وهو يقول إن الشخص لا يميح فقد الحلى والحلل أو بعبارة أخرى فقد الثراء إذا كان ملياً بالهمم السامية الرفيعة ، ويقول : رب جاهلة عاتبتني لانصرافى عن رافه العيش واكتفائى بالوشل القليل منه ، بينما أملك بيتاً بليفاً أزهى من أزهار الروض عقب السحاب الماطل ، وتقول فى الملوك من يستحقه ، فاقصدهم حتى يثروك ويصبح لك خيل وخدم كثيرون . ويقول إنه لا يصنى لمثل هذه العاتية مهما لجت وألحت إذ تريد أن تعدل به عن منهج الاحتفاظ بعمروته ، وإن خلاله الكريمة لترفعه عن مدح الملوك والكرماء وعن هجاء البخلاء الأشقاء ، وما يلبث أن يعلن لمآذنه قوله :

ولن ترينى مذيلاً - ما حيث - له فى غير ذكر الوغى والأعين النجل^(١)
 نلحى لىمى وأبماتى ويثف لى مجد أناف - ولم يفتح - على زحل^(٢)
 نفس الكريم تعاف الورذ يصحبه ذل على ظمأ فى الجوف مشتعل
 لو كنت سائل غير الله لم أسل غير المذاكى وغير البيض والأسل^(٣)

وهو يقول لصاحبه إنه لن يتذلل شعره إلا فى الحماة والحرب الضارية وإلا فى النزول بالحصان ذوات الأعين النجل الفاتنة ، وإن آلمتى ولمايتى يلبان أن أمنهن شعري وأمينه فى مدح أو هجاء ، وبالمثل مجدى الذى بلغ عنان السماء ، وظل فى ارتفاعه حتى أشرف على الكوكب البعيد : زحل . ويقول إن نفس الكريم تعاف أن يرد على ماء فيه ذل أو ما يشبهه ، مهما كان ظامئاً ومهما كان الظمأ يشتعل فى جوفه . وما يلبث أن يقول إنه لو سأل غير الله لم يسأله نوالاً ولا عطاء ، وإنما يسأله خيلاً وسلاحاً وسيوفاً . ويمضى فى قصيدته منشداً :

لا ترَضَ بالعيش فى ظلِّ الهوان وخَضَ لئيل عرُ غِمار الموت والتكل^(٤)
 فليس يُذرك بالجين البقاء ولا الإقدام يُفضى بما لم يُفَضَّ فى الأزل

وهو يوصى كل من حوله أن لا يرضوا بميش فى ظل هوان وذل ، وأن يخوضوا فى سبيل العز غمار الموت وفقد الأهل ، فالبقاء لا يدرك بالجين ، ونفس الإقدام لا يغير قضاء كُتب فى الأزل وقُدِّر على الإنسان . ويستمر قائلاً :

(١) أمهم : قصدتهم . خول : خدم وعيد .
 (٢) مذيلاً : مذنباً ومهيناً . النجل : الرعدة الجميلة .
 (٣) أناف : أشرف .
 (٤) للمذاكى : الخيل . البيض والأسل : السيوف والرماح .
 (٥) التكل : فقد الأمل والأحبة .

حَلَّتْ شَطْرِيْ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ عَدَمٍ وَمِنْ يَسَارٍ وَمِنْ صَابٍ وَمِنْ عَطَلٍ
فَعَلَا بَطَرْتُ لِإِثْرَاءٍ وَلَا حَسِيٍّ بِدَتْ بِهِ خَلَّةٌ تَتَابُ مِنْ خَلٍّ^(١)
وَكُنْتُ إِمَّا - بَدَا لِي مِنْ حِلْيٍ عَطَلٌ أَلْفَيْتُ مِنْ خَلِي فَضْلِي غَيْرَ ذِي عَطَلٍ
وَرَشَى الْمُهْنَدُ يَدُو فُرُوقَ صَفْحَتِهِ يَغْنِيهِ عَنْ شَيْءٍ الْأَغْمَادِ وَالْحَلَلِ
وهو يقول إنه طالما جُربَ صُرُوفُ الدَّهْرِ وأحداثه من فقر وغنى ومن مرٍّ وحلو فلم يلحقه
بطر ولا استخفاف لإثراء ولا بدا خلل في حبه وشرفه ، وكان إذا أصابه عطل من خَلٍّ
الغنى شعر أن خَلِيَّ فضلته يزينه . ويضرب مثلا لذلك السيف فإن الوشى الذى يزينه يبدو على
صفحته مما يلمع عليها ويبرق لا على غمده وما يزدان به من بعض النقوش . والقصيدة بديعة
فى كل ما يتصل بها من الألفاظ والصور والمعانى .

(ب) الهجاء

الهجاء من موضوعات الشعر العربى ، الموعظة فى القدم ، وكان أصله لعنات يستنزهها الجاهل
من آلهته على من يعاديهم من الأفراد أو من يعاديهم مع قبيلته من القبائل والعشائر . وتطور من
اللعنات إلى الذم بالصفات المذمومة من مثل البخل والجبن والندى ، واستحال عند جرير والفرزدق
إلى مناظرات واسعة فى أمجاد قيس وتميم وسادتهما ، مما أوضحناه فى كتابنا : « التطور
والتجديد فى الشعر الأموى » . ومنذ العصر العباسى الأول أخذ الشعراء يفتنون فى وصف
المهجو بالدناءة والفساد ، مع ما قد يذكره عنه الشاعر من فساد الأخلاق والمروق من الدين .
وظل كثيرون من الشعراء - على مر العصور - يكثر من بحث يمكن تلقيبهم بجماعة
المجائنين ، وقد يفرضونه على حياتهم ويعيشون له ، وهو ما نفتقده عند شعراء المغرب الأقصى ،
إذ كان الشاعر المغربى يلم به فى لحظة من لحظات غضبه ثم يتصرف عنه إما رعيًا للذمام
والمواطنة وإما تساميا بنفسه عنه . ويلتقنا منه فى أول الأمر أهاج لبعض من كانوا يتنبشون
ويشيرون مع بعض أتباعهم حروبا تدور فيها عليهم الدوائر ، من ذلك قول سعيد بن هشام
المصمودى فى هزيمة برغواطة مع متنبها لى عفير^(٢) :

قضى قبل التفرق فآخبرينا بقول صادق لا تكذبا
بأمر بربرٍ خسرنا وصلنا وخابوا لا سقوا ماءً مينا^(٣)
يقولون النبىُّ أبو عفيرٍ فأخزى الله أم الكاذبين
ألم تسمع ولم تر يوم «هبت» على آثار خيلهم رينا^(٤)

(١) بطرت من البطر ، وهو الاستخفاف بالشئ .

(٢) النبوغ المغربى ٢٥١/٣ .

(٣) ماء مينا: من مياه الجنة أوليل الشاعر يريد كل

مياه عذبة .

(٤) هبت : مكان الحركة .

رَيْنَ الْبَاكِياتِ بِهِمْ نُكَالِي وَعَاوِيَةً وَمُسْقَطَةً جَنِينًا^(١)

وهو يعيرهم يوم « بهت » الذي هزموا فيه مع نبهم أُمى غنير ، ويقول لأهل برغواطة إنهم خسروا وخلبوا وضلوا ضلالا مبينا إذ تبعوا متبعا كذابا من أعداء الله ورسوله ودينه الخفيف ، فأخزاهم الله ، وحرّمهم مياه الجنة الممين الصافى العذب . ولقد كتب الله عليهم هزيمة ساحقة لهم ولنبيهم يوم بهت ، وفرت خيلهم لا بفراستهم إذ قتلوا شرفا وإثما بنسائهم يحولن ويكيبن ويندين من فقنّتهم من الأزواج والأبناء ، وبلغ من حزنهن أن الحوامل منهم لكثرة عويلهن كن يسقطن أجتهن فرعا ورعا . وكثيرا ما كان يعدل الهاجى عن هجاء شخص بعينه إلى هجاء قومه أو هجاء بلدته من مثل هجاء الجراوى - وقيل إنها لغيره - بنى غفجوم قومه متوسلا بذلك إلى هجاء أهل فاس وخاصة عشيرة بنى ملجوم إذ يقول^(٢) :

يا بن السبيل إذا مررت بتادولا	لا تنزلن على بنى غفجوم
أرض أغار بها العدو فلن نرى	إلا مجاوية الصدى لليوم
قوم طورا ذكر الساحة بينهم	لكنهم نشروا لواء اللوم
لاحظ فى أموالهم ونوالهم	للسائل العافى ولا المحروم ^(٣)
لا يملكون إذا استبح حريمهم	إلا الصراخ بدعوة المظلوم
يا ليتنى من غيرهم ولو اتنى	من أهل فاس من بنى الملجوم

وهو يقول للضيف الطارق المار بمدينة تادلة لا تفكر فى النزول على بنى غفجوم لبخلهم وشحهم ، وإنها لأرض كريهة خربها الأعداء حتى لا تجد فيها إلا صياح اليوم وأصداءه ، ولقد طووا راية السحابة والخلق الكريم بينهم ونشروا لواء اللوم والدناءة غير مستجيبين لطالب معروف ولا لفقير محروم . وهم فى غاية الجبن ، حتى إنهم لو استبح حريمهم ما ثاروا ولا فزعوا إلى حمل السلاح ، بل فزعوا إلى الصراخ يدعون فعل النساء والمظلومين . ويقول ليته لم يكن منهم لما يعملون من هذه المساوئ الذميمة حتى لو كان من أهل فاس وبنى الملجوم اللؤماء ، وهى سخريه لأذعة . وكاد المهاجئون لا يتركون بلدة دون هجاء ، فهم يهجون مراکش ويهجون مدينة القصر الكبير وغيرها من مدن المغرب الأقصى الجميلة . ولهم فى المهاج طرائف ، فمن ذلك هجاء ابن حبوس شاعر الموحدين لفنه الشرى قائلا^(٤) :

يا غراب الشعر لا طير	ت وثبت الوقوعا
فإذا استيقظ شهيم	فصرى زدت هجوعا
هبك لا تقصر عزا	لم تقصت الخضوعا

(٣) السائل العافى : طالب للعرف .

(٤) الوفى ١١/١ .

(١) نكال جمع ناكل : فائدة الزوج أو الولد .

(٢) البوغ للنرى ٢٥٣/٣ .

رمت أن ترقى سرهما فزديت صرهما^(١)
 ربما اصطاد بُغث شيئا واصطدت جوعا^(٢)
 ولقد غال حبيبا منك ما غال صرهما

وهو يختار للشعر من الطير الغراب الذى كان يتشاءم به العرب ، وكثره مصدر شؤم كبير ، ولذلك يمتنى له أن تقصر به أجنحته ، فيقع ويطلق المجوع حتى لو استقبله سيد شهم ويعجب أنه لا يقتصر عزا فلماذا يقتصر الخضوع ، مهما أمل معه الرقى السريع إذ سرعان ما يهوى صرهما . وقد يصيد شوهر ، بينما لا يصيد الشاعر الكبير سوى الجوع والحرمان ، بل لقد يتناله المدح كما اغتال ثأ تمام الملقب بحبيب ومسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواتي الشاعرين المبدعين اللذين أضاعا شعرهما فى الثناء على ممدوحيهما . وكان ابن حيوس ظريفا فلم يتعرض لشخص بعينه ، وإنما تعرض بعامة للحاسدين والمهاجرين والعبيثين الذين يكثرون بين الناس منشد^(٣) :

أعِدْ لنايحك عصا وأقضم ما ضيقك حصا^(٤)
 وغمض عينك النجلا ء حتى تنفت الحوصا^(٥)
 وهز لمشر شيئا وهز لآخرين عصا
 لقد رخص الإخاء وأد حن الأغلاق ما رخصا
 وقد ذهب الوفاء فلا يقول منالط نقصا

وهو ينصح الشخص أن يعد عصا لكثرة النايحين حوله الذين يتكرون فضله ، ويقول أطمع من بمضغون لحكم هاجين وذامين حصا ، وغمض عينك البصيرة عن أخلاق الناس الذميمة حتى تنعت بالحوص وضيق العين وتلك لاثكاد تبصر شيئا . والناس صنفان : صنف يلقى بالسيف وصنف يلقى بالعصا . ولقد رخص الإخاء حتى لبذل ولم يعد موجودا وذهب معه الوفاء كاملا دون أوبة . ولما لك بن المرحل المرنى المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة قصيدة تصور زواجه بمدينة سبتة من امرأة وصفت له بالجمال والحسن البارع ووجدتها قبيحة بالغة القبح ، ويطلق فى وصف ما قبل له من جمالها الساحر ، وبالمثل فى وصف قبحها وأنها قرعاء حولاء فطساء صماء بكماء عرجاء ، ويقول إنه ولئى هاربا منها حين لاح الصباح ، وهى قصة أراد بها إلى المزول والمجاعة .

(٤) أقضم : أطمع . ما ضيقك : الذين بمضغونك

فالمين .

(٥) الحوص : الأحوص وهو ضيق مؤخر العين .

(١) زدبت : سقطت .

(٢) البعث : طير صغير .

(٣) البورغ للمرنى ٢٠٢/٣ .

الشعراء والشعر التعليمي

الشعر التعليمي من الموضوعات الشعرية التي ابتكرها الشعراء في العصر العباسي الأول بتأثير اتساع الثقافة ورتقى الفكر العربي ، إذ أخذ بعض الشعراء ينظم في التاريخ وبعض العلوم ، وفي مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذي ترجم عن الفارسية قصص كليلة ودمنة ، وقد اقترح له هو ومعاصره نمطا مستحدثا من الشعر هو نمط الشعر المزدوج الذي ينظم مع وزن الرجز ، وتتحدا القافية به في شطري كل بيت . وأخذ هذا النمط من الشعر التعليمي يشيع في البلدان العربية منذ القرن السادس ، فنظم به كثير من المتون العلمية ، وألفت لها شروح كثيرة . ولم تبق بلدة عربية إلا وشارك علماءها في نظم هذه المتون وفي وضع شروحها ، وأكثروا من نظم مسائل الفقه والنحو والتصريف . وكان للمغرب الأقصى في ذلك مشاركة خصبة ، ومن كبار الناطقين به لهذا الشعر التعليمي محمد بن أحمد بن غازي من العصر المريني ، وله فيه منظومات تعليمية في التاريخ ومختلف العلوم ، ومنها منظومته المنية في علم الحساب . وكثر هذا الشعر في العصر السعدي ، ونجد المقرئ في كتابه روضة الآس ينشد للشعراء من معاصريه أشعارا تعليمية متنوعة في مسائل العلوم . ولشعراء المغرب الأقصى - في مختلف العصور - شعر كثير في الوصايا والحكم ، ولعمر الفاسي المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة قصيدة في الأمثال والحكم نظمها على مثال لامية المعجم ، غير أنه وقف بها عند نحو ستين بيتا ويهمنها في العرض الأدبي لهذا الشعر أن تقف عند منظوماته التاريخية والعامة في الأدب ، ونختار لذلك شاعرين هما عبد العزيز المرزوقي وابن الونان .

عبد^(١) العزيز المرزوقي

مكناسي الأصل وأكب^٢ منذ نعومة أظفاره على التنقف بالعلوم اللغوية والشعر العربي حتى فتحت موهبة الشعر فيه ، وقدم إلى المنصور يعقوب المريني فأعجب به وأصبح شاعره ، وهو لا يكفى بمدحه العام له ، بل ينظم فيه وفي أسرته ملاحم تاريخية بارعة ، من ذلك ملحمة الكبرى : « نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك » وهي منظومة تاريخية يمرض فيها التاريخ من أعنت الأزمنة ، حتى زمن يعقوب المريني ، وفي فاتحتها يقول :

الحمد لله منيئ الدين بالملك المنصور من مَرين

ولا يلبث أن يقول :

المغربي ٢٣٦/١ ، ٢٩/٣ .

(١) انظر في ترجمة المرزوقي وشعره التاريخي لإحسانة لابن الخطيب ٢٠/٤ والوافي ٣٦٥/٢ والنويع

سَيِّئَتِهَا مِنْ حَسَنَاتِ نَظَمِ السُّلُوكِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ
وَأَذْكُرُ الْأَمْرَ عَلَى التَّرْتِيبِ مُخْتَصِرًا بِأَحْسَنِ التَّقْرِيبِ
مِنْ عَهْدِ آدَمَ إِلَى زَمَانِنَا أَخْتَمُهَا بِالْفُرْغِ مِنْ أَمَلَانَا

وهو بعضى فى سرد التاريخ منذ أقدم العصور ، حتى إذا وصل إلى دولة بنى مرين ومليكنها يعقوب المنصور أخذ يفصل الحديث فى تاريخه وأحداثه ومجاليه ، وكثما هو الغاية المبتغاة من تأليف منظومته ، وفيه يقول :

قَدْ أَلَيْسَ الْوَقَارُ وَالسَّكِينَةُ وَحَلَّ فِي مَكْنَتِهِ مَكِينُهُ
حَتَّى إِذَا مَا حَانَ وَقْتُ الظَّهِيرِ قَامَ إِلَى بَيْتِ النَّدَى وَالْفَخْرِ
يَقْبَى إِلَى وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ بِأَتَى بِقَصْدٍ نَفْسِهِ وَالْأَمْرِ
فَيَنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِنْ ظُلْمِهِ وَلَمْ يَزَلْ إِلَى صَلَاةِ الْعَتَمَةِ^(١)
وَأَمَّنَ الْغَرْبَ مِنَ الْفَسَادِ وَنَشَرَ الْعَدْلَ عَلَى الْعِبَادِ
وَعَضَمَتْ مَرِينُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَأَذَعُوا لِنَهْيِهِ وَأَمْرِهِ
وَرَفَعَ الظُّلْمَ عَنِ الرَّعِيَّةِ وَقَمَعَ الطُّغْيَانَ فِي الرِّيَّةِ

وهو يصور يعقوب المنصور المرينى بحفاً به الوقار والجلال والسكينة ، وبحلّ فى مرتبة رفيعة ، حتى إذا حانت صلاة الظهر أسرع إلى مسجده يؤديها ، وبأتى بعد صلاة العصر لإبرام أوامره ونواهيهِ وإصاف المظلومين ، ويظل حتى صلاة المغرب ، وقد نشر الأمن فى البلاد وأخلّاه من الفساد ، ونشر العدل فى الناس ، وخضعت له قبائل مرين وأذعنت له ، ورفع عن الرعية كل ظلم عاثت منه وقمع الطغاة الذين ظلموها ظلماً فادحاً .

وينظم الملزوزى قصيدة تاريخية ثلثة فى المنصور يعقوب وجهاده لإسبان فى ديارهم نصرة لبنى الأحمر أمراء غرناطة ، وقد بدأ هذا الجهاد سنة ٦٦٤ للهجرة إذ عبر الزقاق على رأس قوة مرينية كما مر بنا فى الفصل الأول ونكل بإسبان ، وعاد إلى هذا الجهاد مراراً سنة ٦٧٧ وسنة ٦٨١ واستولى على بعض حصونهم سنة ٦٨٥ وكان كل ما يحوزه من حصونهم وبلداتهم ، يقدمه إلى بنى الأحمر فى غرناطة متنازلاً عنه لهم . فهو لا يجاهد نصارى إسبان بقصد تكوين دولة عربية جديدة فى الأندلس ، وإنما يجاهدهم لتتصارا لدينه ، إذ رأى بنى الأحمر يتخاذلون عن جهادهم وخشى عليهم عواقب هذا التخاذل ، فامتعض للإسلام وأخذ ينازل إسبان بجيوشه المرينية ، وينزل بهم ضربات متوالية . والملزوزى يبدأ قصيدته بحمد الله جلّ فى علاه وتمجيده ، ويستغرق ذلك أربعة عشر بيتاً يختمها بنعمته الكبرى على المسلمين بإرساله فيهم الرسول ﷺ وما خصّه به من الإسراء والمراج ، ولم يتحريضه لأتباعه على جهاد الكفار ،

(١) العتمة : الظلام .

وينوه بخلفائه الراشدين وبقية العشرة المبشرين بالجنة ومن اتفقوا سيرتهم حين كان الإسلام شامخا ويقول إنه تسمع بعدهم مشيرا إلى إخراج الإسبان للمسلمين من الأندلس ، حتى صار بالمغرب الأقصى غريبا ، إذ استكان سكانه - كما يقول - إلى القعود عن الجهاد ، إلى أن استولى على صولجان الحكم يعقوب المصور المريني ، فإذا هو بنازل الإسبان بقواته المرينية وقواده من لبنائه ولبنائه زوالا ضاربا طوال عشرين سنة والنصر يواكبه . وهذه القصيدة التاريخية الثانية للملوزي تنفي بهذه الانتصارات ليعقوب على الإسبان ، وتفصل أحداثها وما غنم يعقوب من الحصون الإسبانية هو ولبنائه وقواده وما أقرلوه بهم من هزائم ساحقة في نحو مائة بيت ، يستلها الملوزي بقوله في يعقوب ونزله التكرار للأعداء :

ولم يُعَلِّمْ جِهَادًا لِلْأَعْدَى	يَهْدِي الْأَرْضَ يُحَسِّبُ احْتِسَابًا
إِلَى أَنْ فَتَحَ الرَّحْمَنُ فِيهِ	لِيعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ بَابًا
لِوَلَانَا أَمِيرَ الْعَدَلِ مَلِكًا	بِهِ تَسَلَّيْتُ يَدَ الْكُفْرِ اتِّسَابًا
وَلَمْ نَرِ قَبْلَهُ فِي الْعَصْرِ مُلْكًا	أَرْفَأَ فِي الْعِدَا الْعَجَبَ الْعُجَابًا
دَعَا اللَّهُ دَعْوَةً مَطْمَئِنًّا	لِوَلَاهِ دَعَاءًا مُسْتَجَابًا
فَلْيَبِئِ اللَّهَ دَعْوَتَهُ وَسَيُّ	لَهُ الْحَسَنَى وَجَبَّهَ الصَّعَابَ ^(١)
فَجَازَ الْبَحْرَ مَجْتَهِدًا مَرَارًا	يَقُودُ إِلَى الْعِدَا الْخَيْلَ الْمِرَابَا ^(٢)

وكثي بالملوزي حين نفى أن يكون قد سبق يعقوب جهاد من المغرب الأقصى لنصارى الإسبان إنما يريد أنه لم يحدث جهاد لهم في عهد الدولة المرينية قبله ، إذ نحن نعرف جهاد الموحدين لهم قبل تلك الدولة وما أقرلوا بهم في الأرك وغير الأرك من هزائم ساحقة . ويقول إن الله فتح له في الجهاد بابا بل أبوابا ، وبشيد بمدله وعظه لجيوش الإسبان محقا ، وكثما دعا الله أن ينصره واستجاب دعاءه ، فسر له الحسنى من الفتح حين جاز الزقاق مرارا للجهاد ، يقود إلى الأعداء الخيل العربية الأصلية فآلبسهم هو وبنوه وقواده ذلا ملبعه ذل . ويترسل في ذكر الوقائع وقواده وكيف أوسعوا بعض بلاد الإسبان حرقا وتمتهلها ، ويتحدث عما ساقوه من الغنائم والأسلاب مع الإشادة بيعقوب وبلاته البلاء المستطاب ، ويختم قصيدته مخاطبا بنى مرين بقوله :

هَيْبَا يَا مَرِينُ لَقَدْ عَلِمْتَ	عَلَى الْأَمْلَاقِ بَأْسًا وَاتِّجَابًا ^(٣)
وَفَاعِزْتُمْ بِمَوْلَانَا الْبَرَايَا	فَأَعْطَوْكُمُ يِقَادَا وَاتِّغَابَا
نَهْمُ الْقَنْسِ وَلَمِنْ الْفَوْنِسِ يَخِي	رِضَاكُمْ لَا يَخَافُ بِهِ الْعِتَابَا ^(٤)

(٣) اتَّجَابًا : نجابة واسطفاء .
(٤) يَمِدُ الْفَوْنِسُ الْعَاشِرَ وَابْنَهُ شَاوَرُ .

(١) سَيُّ : سِرٌّ
(٢) الْعَرَابُ : الكريمة الأصلية .

فحزبُ مرينَ حزبُ الله يحمى حمى الإسلام لا يخشى عقبا
إذا سَلَوُ السيفُ ترى الأعادى وقد حَلُّوا الرُّبى مَدَّتْ رقباسا

وهو يعنىء مرين بهذا المجد الحربى الذى سمى به على الأملاك شجاعة وانتجابا ، وقد فاخترموهم بسلطانكم يعقوب فاستسلموا لكم مغلولين على أمرهم ، وهذا ألفونس العاشر ولينه يمدان يديهما للصلح . وإن حزبكم لحزب الله الذى يحمى ديار الإسلام ، وبمجرد أن يتنازل أعداء الدين يلتسمون الرى هلعا ، ويستسلمون بين قتيل وأسير . وفى شعر المززى - كما رأينا - غير قليل من النصاعة والسلاسة ، وقد لى نداء ربه سنة ٦٩٧ للهجرة .

ابن^(١) الونان

هو أبو العباس أحمد بن محمد الونان الحميرى القاسى من نابهى شعراء العصر العلوى ، تألق اسمه فى عصر السلطان محمد بن عبد الله (١١٧١ - ١٢٠٤ هـ) وهو من صفوة السلاطين العلويين نهض بالمغرب الأقصى وطرد البرتغاليين من الجديدة سنة ١١٨٢ هـ/١٧٦٩ م وعنى بالحياة الثقافية والأدبية . ولابن الونان فيه مدائح متعددة ، وكان أبوه مقربا إلى السلطان ، وكان ظريفا فسماه أبا الشمقمق . وأول منظومات ابن الونان فيه أرجوزة سماها الشمقمقية ، ويقال إنه حاول أن يصل إلى السلطان لينشدها ، ولم يتح له ذلك ، فترصد موكبهُ يوما وصعد على ربوة ، ونادى بأعلى صوته عليه :

يا سَيِّدِ سَيْطَ النِّبى أبُو الشمقمق أبى

فطلبه السلطان ، وصحبه معه إلى القصر وأصبح من حاشيته . والشمقمقية أرجوزة فى ٢٧٥ بيتا ، للسلطان محمد منها ٢٧ بيتا ، وبقيتها موسوعة أدبية ، استهلها بالرحلة فى مجاهل الصحراء واصفا رَكْبَ التوق الذى كان فيه ، وظل فى أكثر من أربعين بيتا يحاور حادبها طالبا إليه أن لا يكلفها فى السير بما لا تطيق جامعا لها فى وصفها كثيرا من أولبد اللغة . ويصف صاحبة له فى ٢٥ بيتا ويورد فى وصفها المادى طائفة من الألفاظ الغريبة ويقول إن لم يظفر بها فيشتر على قومها غارة بفرسان من خير يعرب . ويسترسل فى فخره ببلّاه وقبيلته اليمنية فى نحو خمسة وثلاثين بيتا ، وبفضى إلى طائفة كبيرة من الأمثال والحكم فى نحو تسعين بيتا ، وهى لب الأرجوزة ، ولذلك جعلناها من الشعر التعليمى ، ويمدح الشعر وشاعرية لى الشمقمق ، وكأنا الأرجوزة كانت متتية فى هذا الجزء منها ، ورأى أن يضيف إليها مديحا للسلطان محمد بن عبد الله .

ولا تلاحظ كثرة الألفاظ الغريبة فى الأرجوزة فحسب ، فإنها تحمل كثيرا من أمثال العرب

وما ذكره من مراجع ، مع شرح الشمقمقية لكون ،
ونظروا فى البرغ للفرى ١٧٨/٣ .

(١) . انظر فى ترجمة ابن الونان وشعره الوافى ٨٦٢/٣
والحياة الأدبية فى المغرب عند الدكتور الأخضر ص ٢٩٨

القدماء ومن شخصياتهم وشعرائهم وأدبائهم منذ الجاهلية حتى العصر العباسي يكمل بهم المعاني في ألياته . وهو ما جعل أدباء المغرب يهتمون بكتابة شروح لها متعددة ومن أهمها شرح السلوى وشرح عبد الله كنون ، ونقتبس منها ألياتا سهلة لدل بها على غصب شاعريته فمن ذلك قوله فيمن سماها كُنِي :

تَسَى بِغَيْرِ أَشْبِ وَمَرْشِفٍ	قَدْ ارْتَوَى مِنْ قَرْقَفٍ مَعْقٍ ^(١)
وَزَادَ مَسْكَ الْخَالِ وَرَدَّ خَدَّهَا	حُسْنَا وَقَدْ عَمَّ بِطَلِبٍ عَقِي
وَقَبِلَتْ أَقْدَامَهَا ذَوَائِبُ	سَوْدُ كَقَلْبِ الْمَاشِقِ الْمُحْرِقِ
كَمْ أَوْدَعَتْ فِي مَقْلَى مِنْ سَهَرٍ	وَأَضْرَمَتْ فِي مَهْجَى مِنْ حَرْقٍ
وَلَا يَزَالُ فِي رِيَاضِ حُسْنِهَا	يَسْرَحُ فِكْرِي وَيَجُولُ رَمْفِي

فهى تخب من يراها بفمها الجميل وريقها الذى كُتبه من خمر معتقة ، وقد زاد مسك الخال ورد خدورها حسنا بشذاه العبق ، وقبِلت ضفائرها أقدامها وهى شديدة السواد كقلب عاشقها المحرق ، وقد أودعت مقلته سهرا متصلا ، وأضرمت فى مهجته حرقا متقددا ، وإن فكره ليسرح دائما فى رياض حسننها ويجول معه ما بقى من شعوره بالحياة . والقطعة تموج بالصور والأخيلة . ومن قوله فى الأرجوزة مفاخرها :

سَلِّ ابْنَ خَلْدُونِ عَلَيْنَا فَلَنَا	يَمْنٍ مَآثِرٍ لَمْ تُنْحَقِ
بِهِمْ فَخَرْتُ ثُمَّ زِدْتُ مَقْخَرَا	بَأَدْبَى الْغَضِّ وَحُسْنِ مَنْطَقَى -
وَزَانَ عِلْمِي أَدْبَى فَلَنْ تَرَى	مَنْ شِغْرُهُ كَشَمْرِي الْمُنْمَقِ
فَإِنْ مَدَحْتُ فَمَدِّحِي يُشْتَفَى	بِهِ كَمَثَلِ الْقَسَلِ الْمُرَوَّقِ
وَأِنْ هَجَوْتُ فَهَجَائِي كَالشَّجَا	يَقْفُ فِي الْحَلْقِ وَمِثْلِ الشَّرْقِ ^(٢)

وهو يقول سل ابن خلدون عنا ويريد سل تاريخه وما اشتعل عليه من أسماء آبائه ومآثرهم وأمجادهم ، ويذكر أنه يفخر بهم ويزداد فخرا بأدبه وحسن بيانه ومنطقه ، وقد زان علمه أدبه ، ولن ترى لأحد شعرا كشمري المنمق ، فإن مدحت فمدحى مثل العسل المصفى ، وإن هجوت فهجائى غصص تعرض فى الحلق ويشرق أو يهض بها المهجورون . وتوفى ابن اللوات سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . وحسبنا من الشمقمقية هذه الأشعار الواضحة البينة ، أما ما وراءها من أشعار أخرى فيكثظ بالألفاظ الحوشية ، وبالأسماء والأمثال من جاهلية وإسلامية مما يكدر القارىء ويحوجه فيها إلى كثير من الشرح والبيان .

(١) ثمر : قم . أشب : رقيق . مرشف : الغم وما به (٢) الشجا : ما يهرض فى الحلق . الشرق : الفضة . من ريق : قرقف : خمر .

الفصل الخامس طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

الغزل من أهم موضوعات الشعر العربي ، وقد نظمته شعراؤهم في جميع عصورهم وأقاليمهم مصورين فيه عاطفة الحب الإنساني وما تثير فيهم من المشاعر والخواطر . والشاعر تارة سعيد بحبه في وصاله ووداعه ، وتارة شقي محروم يتضرع ويستعطف ويتمنى ولو نظرة من بعيد . وقلما لا يتخنى شاعر عربي بالحب ، فالشعراء جميعا يتخنون به حتى الفقهاء ومثلهم العلماء من كل صنف . ولكل وطن عربي مجلداته في هذه العاطفة الخالدة وللمغرب الأقصى بدوره مجلداته ، إذ نجده على ألسنة كثيرين من الشعراء والأدباء والعلماء معبرين فيه عن لحظاته الحنية من لقاءات صواحبهم ولحظاته المرة من هجرهم وتصرفهم عنهم دون وداع أو ما يشبه الوداع . وأول ما نلتقي به منهم في عصر المرابطين بالمائة الخامسة للهجرة ابن القابلة السبتي إذ يقول^(١) :

وجهه غزالٍ راقٍ حُسنًا أديمةً يَرَى الصَّبُّ فيه وجهه حين يَتيه
تعرَّض لي عند اللقاء به رشا تكاد الحميا من عيائه تَقَطُر
ولم يتعرَّض كي أراه وإنما أراد يُريني أن وجهي أصفر

وهو يقول : بلغ وجه صاحبه من الجمال وشفافيته أن يظن مبصره أنه يرى فيه وجهه ، وهي غزال أو رشا يكاد عيائها يقطر خمرًا يتشى به مبصر وجهها كما يتشى بشرب الخمر . ويتلطف فيقول إنها لم تعرض له ليرى ما في وجهها من بدائع الحسن ، وإنما ليشعر بما حدث له في قلبه من شدة الخفقان وفي وجهه من شدة الاصفرار حياء منها ولتبهارها . ويقول ابن زنباع شاعر هذا العصر^(٢) :

لَئَلَّا في قلبي كريقك في فمي غَيْرِي يَقُولُ الحُبُّ مرُّ المَطْعَمِ
فَأَوِّزُ عَلَى بِمَقْلَتِكَ كَوَسْمِهِ حَتَّى يَدْبُ خُمَارُهُ فِي أعْظَمِي^(٣)

(٣) الخمار : الانشواء بالخمر .

(١) الذخيرة لابن بسام ٢٨١/١/٤ .

(٢) فلاح العتيق ص ٢٦٤ .

إن التلدد في هوالك تلدد
 يا أيها القمر الذي إنسانه
 لم يُبدِ حبك غير أن جواحي
 لا ذنب لي عَلمَ الذي أسرته
 تلافني قبل التلاف فبني
 لو كان أختل من زعاف الأرقم^(١)
 يرمى قلباً لليسون بأسهم
 فاضت به فيض الإناء المفعر
 نظرا ولم أرمز ولم أتكلم
 من حيمر وسأخذونك في دمي

وهو يخاطب صاحبه فيقول لها : غيرى يقول الحب مر ، أما أنا فأقول حبك في قلبي
 حلو كريقك في فمي ، ويتمنى عليها أن تدبر ككوسه بعينها الفاتنتين ، حتى يتشى بخماره
 المتع . ويقول لها إن التلدد أو العذاب في حبها له في نفسه لذة لا تماثلها لذة ، حتى لو كان
 قاتلا مثل سم الأفعوان . ولها لقمر يرمى إنسان عينها بأسهم تصيب أفدة الرجال ، ويقول
 لها إنني لم أفش حبك غير أن جواحي اكتظت به حتى فاضت به فيض الإناء المملوء إلى حوافيه ،
 ولا ذنب لي كما تعلمين فبني أسررت إليك نظرا لم يره أحد ، ولم أقبض به أحدا . ويتوسل
 إليها أن تلافاه فتصله وتلقاه قبل هلاكه . ويقول إنه من حيمر ، وإن لم تستجب له وتركه
 يهلك فسيدركون فيها نار الأسد الضرغام . ويقول القاضي عياض^(٢) :

يا راحلين وبالفؤاد نعملوا
 أما الفؤاد فمعدكم قباؤه
 أترى لكم علمَ بمترج الكرى
 أودى بزمزم صبره ولماه
 ما ضركم ، وأضنكم بتحبة
 إن البخيل بلحظة أو لفظة
 أترى لكم قبل المسات قفول
 ولواعج تتلبه وغليل^(٣)
 عن جفن صب ليئه موصول
 طرف أحم ومسم مصقول^(٤)
 يحى بها عند الوداع قتل
 أو عطفة أو وقفة لبخيل

والقاضي عياض يقول إنهم رحلوا بصاحبه ورحل فؤاده معها ، ويتمنى لو عادوا به بماته
 ويقول إن عندهم أقباء فؤاده وما يضطرب فيه من آلام الحب وحرقه ، ويسألهم ألم علم بالثوم
 الذى نزع عن جفون محب ، ليله موصول بالسهر والسهاد ، ولقد ذهب بصيره ولماه عين
 ذات سواد جميل وهم يترسم عليه ابتسام لطيف ، ويقول : ما ضرهم لو نكروهم ما طلب
 وما أبخلهم بتحبة ترد الحياة إلى قتل ، ويقول إن من لا تنيل صاحبها لحظة لقاء أو لفظة وداع
 أو عطفة أو وقفة لشديدة البخل على من يكون لها حيا يستأثر بأفدتهم وقلوبهم . ويتكاثر
 الغزل في عصر الموحدين ويرز فيه أبو يشتهر شاعران هما أبو الربيع سليمان الموحدي وأبو حفص

(١) التلدد هنا : الساء . زعاف الأرقم : سم السمك .

(٢) نظر التصريف بالقاضي عياض لأبيه محمد ، تحقيق

د . بنشرفة .

(٣) لواعج : آلام .

(٤) أحم : أسود .

عمر بن عمر السلمي ، وسنخص كلا منهما بترجمة . ومن شعراء العصر ابن عبدون الكناسي المتوفى سنة ٦٥٨ للهجرة ، ومن غزلياته قوله^(١) :

يا جبرني ومن استجرت بهم	من جَسور عَزهم على ذلي
عَوَضْتُمُونِي بالسوداد قَلِي	وَأَهْدَيْتُمُ الْإِنْصَافَ بِالْمُطَلِّ ^(٢)
ما هكذا فعلُ الكرام بمن	منهم تعود أجمل الفيل
عَلَقْتُ حَبْلَ مَحَبَّتِي بِكُمْ	بِحَبَابِكُمْ لا تَقْطَعُوا حَتْلِي
ما كان لَقْدَى ظِلُّ عَيْشَتَا	إِذْ كَانَ مِثْطَا بِكُمْ شَحْلِي
عودوا إلى عادات وَصْلِكُمْ	لا تَحْرَمُونِي لَذَّةَ الْوَصْلِ
وَإِذَا أُتِيتُمْ غَيْرَ جَسورِكُمْ	فَالْجَسورُ مِنْكُمْ غَايَةُ الْعَدْلِ
إِنْ شِئْتُمْ تَلِيْ فَهَذَا	لا تَعْذِرُوا مِنْ طَالِبٍ دَخَلِي ^(٣)

وهو يقول إنه يستجير من جور صاحبه وشعورها بالعزة على ذلّه وهوانه فقد أبدلته بالمودة بغضا وبإتصاف اللقاء ونعيمه مطلا ، وليس ذلك بفعل الكرام ومن عودته أجمل الفعل ويذكر أنه علّق محبته بها أو بهم - كما يقول - فلا تقطعوا حبلي ، وما كان أجمل عيشتنا حين كنا نتنظم معكم في جماعة واحدة . ويضرب إليها - أو إليهم - أن لا يحرموه لذة الوصل ، وحاشاكم أن تعقبوا الإحصاب والود بالجذب والبغض . وحتى إذا أبوا غير ظلمه فإنه يعمده غاية العدل ، وإن أرادوا قتله فليقتلوه غير حذرين فليس وراءه من يطلب ثأره . ونلتقي في أوائل العصر المربني بالشاعر الفذ مالك بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة ، ومرّ بنا أن الأستاذ هلال ناجي نشر له في المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد رسالتين في عروض الدوبيت أو الرباعيات ، عني في أولاهما بوزنه على فَعْلُن متفاعِلن فعولن فعْلُن ، وفي ثانيتهما بوزنه الثاني فعْلُن فعْلُن مستفعِلن مستفعِلن ، وتشد له الأستاذ عبد الله كتون في عروض الوزن الأول للدوبيت مجزوءاً غزلية يقول فيها^(٤) :

يا عاذلتني إليك عني	لا تقربُ ساحتي العواذِلُ
مهلا قدمي له حلال	ما أقبلُ فيه قولَ قاتِلُ
قد نَمَّ به شَذَا الْغَوَالِ	إِذْ هَبْ وَنَمْتُ الْغَلَالِ ^(٥)
وَالسَّحَرُ رَسولُ مُقَلَّتِي	ما أقربُ عهدَه بِيَابِلِ
والرَّوْضُ يُعْمِرُ وَجَنَّتِي	وَرَدًّا كَهَوَايَ غَيْرَ حَائِلِ
يَسِيكُ بَرْقَةُ الْحَوَاشِي	عَشَقَا وَلَطَافَةِ الشَّمَائِلِ

(١) الروابي ٣٣٢/١ والنبوغ المغربي ٦٨/٣ .

(٢) قل : بغضا .

(٣) دخل : ثار .

(٤) النبوغ المغربي ٦٩/٣

(٥) النورال جميع غالية : الطيب . الغلال : الثياب .

وهو يقول لعاذلته لبتدى عني، فساحتى لاتقربها العواذل، وإن دمي لصاحتي حلال ولا أقبل فيه قول قاتل. وإن روائح الغوالي أو الطيب لترافقها وتتم عنها ثلبها ، وإن عينيها لترسلان سحرا كآته مجلوب توا من بلبل بلدة الساحرين هاروت وماروت ، وكأني بالروض يمر وجتيها وردا بديما لا ينبل أبدا كحبها ، ولها تسيك بلطفها ورقتها ولطف شماتها ، مما بهجملك تعشقها عشقا متصلا . ويقول عبد المهيمن الحضرمي الوزير المريني المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة^(١) :

كانوا نعيمَ فؤادي والحياةَ له	فالآن كلُّ وجودٍ بعدهم عَدَمٌ
باتوا فسادَ نهاري كله ظُلُمًا	وكان قُرْبُهُمْ تُنْحَى به الظُّلُمُ
والعَيْنُ مِنِّي لَا تَرَقَا مدامُها	كأَنتَها سَحَبٌ تَهْمِي وتَسْجُمُ
تبكي عهدَ وصالٍ منهم سلفتُ	كأَنتَها هُنَّ في إِبْسَانِها حُلُمُ
لئن ضحكْتُ سرورًا بالوصالِ لقد	بكيت حزنًا عليهم والدموعُ دَمُ
هم علَّموني البُكا ما كنت أعرفه	يا ليتهم علَّموني كيف أبْسُمُ

وهو يفدى بنفسه عهدا جميلا استطاب له العيش فيه وجيرة كان يَأْسُ بوصولهم ، وكانوا نعيم فؤاده وحياته ، ورحلوا فأصبح كل وجود بعدهم كآته عدم ، وأصبح النهار كله ظلمات بعضها فوق بعض وكان يمحي بقربهم كل ظلمة وكل ظلام ، ولها ليكيهم ولا تجف دموعه كأنتها سحب تهمي مدرارا ، وعينه تبكي عهدا يدور في إبسانها وكأنتها كان حلما ، ولئن ضحك سرورا بهم قديما لقد أصبح يكيهم بدموع قاتية كأنتها دماء مسفوحة ، ويقول إِيهم علموه البكا ولم يكن يعرفه ، ويتمنى لو كانوا علموه كيف يتسم إذا نزلت به الحن والخطوب . ونمضى إلى العصر السعدي وتلتقى في كتاب روضة الآس للمقرئ بمحمد الوجدى العماد المتوفى سنة ١٠٢٢ للهجرة ، وله من قصيدة غزلية^(٢) :

إن الرشاقة واللطافة والصبا	حاة والحلاوة والملاحة والخور
صيفتُ لمن أهوى وأبْسُ سُدْسًا	منها ودياجبا عليه قد ظهر
وإذا نظرتُ لوجهه ولعينه	قلت الجمال من الخدود قد اتفجر
عيني وأذُنِي في النعيم بنظرة	ولفظَةٍ منه وقلبي في سَقَر
هل عطفةٌ أو زورةٌ أو وقفةٌ	أو لفظة تقضى بإدراك الوطر

وهو يجمع لصاحبه فنون الحسن من الرشاقة واللطافة والصباحة والحلاوة والملاحة وحرور العين الفاتنة ، وكأنتها صيف لها من كل ذلك سندسا ودياجبا لبسته ، ولأنك لتخال كأنتها الجمال اجتمع بكل خُته في وجهها ، ولها ليخال كأنتها عيه حين تنظر إليها وأذنه حين تصغي لها ، كأنتها هما في نعيم الفردوس ، ينما قلبه في جحيم من الحب ولوعاته ، ويتمنى عطفة منها إليه

(٢) روضة الآس ص ٧٤ .

(١) التبرغ ٧٢/٣ والوحي ٣٣٢/١ .

أزوررة أو وقفة ، أو حتى لفظة يدرك بها مناه . ويقول أبو سالم العياشى التوفى سنة ١٠٥١ للهجرة فى وداعه الرائع^(١) لزوجته :

ولم تَسْهَأْ يَقْظَانَةُ الْهَمِّ فِي الْحَسَا مَبْلِلَةُ الْأَشْجَانِ وَشَفَاةُ الطَّرْفِ
تَقُولُ وَقَدْ خَلَّ الرَّحِيلُ أَهْكَذَا تَحْمَلُنِي ثِقْلُ الْفِرَاقِ عَلَى ضَعْفِي
أَتْرَكَ أَفْرَاعًا كَرُغَبِ الْقَطَا وَمَا رَحِمْتَ بَنِيكَ إِذْ سَلَوْتَ عَنِ الْإِلْفِ^(٢)
فَقُلْتُ لَهَا كَفَى الْمَلَامُ فَأَعْرَضْتُ كَخِشْفِ الثَّقَا تَنْفَرُضُ الدَّمْعُ بِالْكَفِ^(٣)
فَوَدَّعْتُهَا وَالْقَلْبُ مُنْطَبِقٌ عَلَى أَسَاهُ وَدَمْعِي لَا يَمِلُ مِنَ الْوُكُوفِ^(٤)
عَلَيْكَ سَلَامٌ لَا زِيَارَةَ بَيْنَنَا مَعَ الْبَعْدِ إِلَّا أَنْ أَزُورَ مَعَ الطَّيْفِ

وهو يقول إنه ودعها صباحا وأشجتها تملأ صدرها ، ولا تزال سنة من النوم عالققة بطرفها ، وتقول له وقد أُرِفَ الرحيل : أتركني أتعلم أُنْقَالَ الْفِرَاقِ عَلَى ضَعْفِي . أترك أُنْثَاءَ صَفَارَا كَأَوْلَادِ الْقَطَا لم يطل ريشهم ، فهلا رحمتهم حين سلوتنى ولم ترحل ؟ فقلت لها كفى عن الملام ، وظللت تذرف الدمع . وودعها وقلبه يكظ بالأسى والحزن ، ودمعه يتقاطر ولا يكف ، وسلم عليها ، وهو يقول فى نفسه لَنَ أَزُورُكَ مَعَ الْبَعْدِ إِلَّا أَنْ أَزُورَكَ فِي الْحَلَمِ مَعَ الطَّيْفِ . ويتكاثر الغزل فى المصر العلوى ، ومن مختاره قول أبى عبد الله الشرقى التوفى سنة ١١٧٠ للهجرة^(٥) :

مَنْ لِي بِهَا تَخَالٌ فِي حَلِيهَا كَرُوضَةٍ تَخَالُ فِي زَهْرِهَا
فِيْشْرُهَا أَرْحَبُ مِنْ بِيْشْرِهَا وَنَشْرُهَا أَطْيَبُ مِنْ نَشْرِهَا^(٦)
وَخَدُّهَا أَهْيَجُ مِنْ وَرْدِهَا وَنُورُهَا أَطْفُفُ مِنْ نُورِهَا^(٧)
وَقَدُّهَا أَرْغَعُ مِنْ غُصْنِهَا وَوَجْهَهَا أَضْيَضُ مِنْ فَجْرِهَا
الْعَيْشُ وَالْجَنَّةُ فِي وَصْلِهَا وَالْمَوْتُ وَالنَّيْرَانُ فِي هَجْرِهَا

وهو محب لصاحبه أشد الحب ، ونترأى له فى حليها تخال كروضة فى زهرها ، ويستمر فى المقارنة ، فيشربها وتهلّل وجهها أرحب من بشر الروضة وتهللها ، وعطرها أطيب من عطرها وخدها يفوق وردها فيما يبعث فى نفس الناظر إليها من البهجة والسرور . ونورها يفوق زهر الروض لطفًا وحسنًا ، وقدها غيل ممشوق أرفع من غصن الروضة ، ووجهها يفوق فى يياضه يياض فجرها ، وما وصلها إلا الحياة والفردوس وما هجرها إلا الموت والجحيم .

(٥) النبوغ المرقى ٩٢/٣ .

(٦) نشرها : شذاعها وعطرها .

(٧) النور يفتح النون : القزير .

(١) النبوغ المرقى ٨٧/٣ .

(٢) زغب القنطار : أولاده الصغار قبل أن يطول ريشهم .

(٣) خشف الثقا : طلبة الرمل .

(٤) الكف : تقاطر الدمع .

وحري بنا أن نتوقف قليلا بإزاء شاعرين غزلين كبيرين من شعراء عصر الموحدين ، هما أبو الريح الموحدي وعمر السلمي .
أبو الريح^(١) الموحدي

هو أبو الريح سليمان بن عبدالله بن عبدالمؤمن، فهو من أسرة الموحدين الحاكمة، وقد عني أبوه بترتيبه، فنشأ أدبيا شاعرا ، ولا يُعرف تاريخ ميلاده ، والمظنون أنه ولد حوالى منتصف القرن السادس ، وعاش حتى أوائل القرن السابع إذ توفي سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٨م ونرى العلاقة سيئة بينه وبين ابن عمه الخليفة يعقوب فى أوائل توليه الحكم (٥٨١ - ٥٩٥ هـ) ومازال يستعطفه حتى عفا عنه وأصبح من كبار رجال دولته ، وأخذ يعقوب يكلفه بكثير من الأعمال المدنية والحربية فأذاها على خير وجه ، وجعلته هذه الصلة بابن عمه والدولة يعيش فى رفاهة من العيش ، مما جعله يكثر من الخمرىات كما جعله يعيش لمواظفة الشخصية وخاصة فى الحب والغزل ، وهما يستغرقان الشطر الأكبر من ديوانه من مثل قوله :

حَسْبُ الهوى من قتل الحب مَصْرَعُهُ وَحَسْبُهُ مِنْهُ مَا تَحْوِيهِ أَضْلَعُهُ
قالوا تَمَزُّ وقد بتوا فقلت لهم كيف العزاء وأدنى الين أوجمه
لا عَذْبُ الله قلبا بالفراق ولا سقاء من صلب ما بُتُّ أَجْرَعُهُ
لا تمدلوني فما أضنى لعدلكم صمْتُ عن العذل أذنى ليس تسمعه

وهو يقول يكفى المحب مصرعه وما تحويه منه أضله، وهو يحاول كتمان أساه وضناه، وعشا يستطيع ذلك ويقول الناس له تَمَزُّ عن صاحبك حين رحلت ، وبجيبهم كيف أتمزى ومواجه الين أخذة يتلاشى، ويدعو الله أن لا يعذب بالين والفراق قلبا ولا يسقيه ما يتجرعه من المر والمذاب، ويقول لعداله لا تمدلوني فلست أضنى إلى عدلكم إذ أصاب أذنى صمم فلا تسمعه.
ويقول:

كيف التصبُّرُ والأشواقُ تزدادُ والدارُ تنأى وما للوصل ميعادُ
وكلما قربتُ منى دياركم بنأى المزار كأنَّ القرب إبعاد
والقلب فى حرقٍ والجفن فى أرقٍ وللابلابِلِ إصدارُ وإيراد^(٢)
بئى وإن فاتنى عيدُ برئكم حسى بلفيلك أعراسُ وأعياد

إنه لا يستطيع صبرا عن رؤية صاحبه ، فالأشواق تزداد ، ودلهم تبعد ، وليس للوصل ميعاد . ويقول إن ديارهم كلما قربت منه نأت الزيارة ، وكأنَّ القرب تحول نوعا من الإبعاد ، وقلبه فى حرق من الحب ، وجفنه فى أرقٍ والبلابل لَو الشجون تغلقه ، ويقول إنه إن فاتته العيد فى ديارهم ، فلقاؤها أعراس وأعياد تنتظره . ويقول :

(١) انظر فى ترجمة أبى الريح الموحدي وإشارته الولى
ص ١٨٤ - ٢٢٧ دراسة للدكتور على العمري ،
وديوته منشور .
(٢) اللابل: الشجون. إصدار وإيراد : رواج ورجوع .

الشوقُ يزداد إذ تدنو بك الدارُ
ما باختيارى نأتى الدارُ يا أملى
ما سرتُ ميلا ولا جاوزتُ مرحلةَ
ولا نظرتُ إلى شيءٍ فأعجبني
الله يعلم أن القلب عندكم
ما ضر طيقكم لو زارنى بدلا
الذنب للنوم لا اللطيف يا سكى
فهل على الشوق أعوانٌ وأنصارُ
وليس غير ذنوبى منك أختار
إلا وفى النفس من تذكارك نازُ
مذ فارقت وجهك المحبوب أنصارُ
وإن تناءت به عن إلفه الدارُ
منكم وطيف حبيب النفس زوارُ
وكيف يطرئى والنوم فسرارُ

وشوقه يزداد كلما دنت منه دارها وكثما له أنصار وأعوان يساعدونه ، ويقول إنه ليس باختياره بعد دارها عنه ، إذ يختار دائما دنوها وقربها ، ويقول إنه لم يسر ميلا ولا مرحلة إلا وتشتمل ذكراها فى نفسه ، ولم يشغل نظره بشيء بعد رؤية وجهها المحبوب ، ولكنما رحل عنه قلبه معها ، ويعجب أن طيفها لا يزوره بينما طيف الأحبة دائما زوار للمحبين ، ويعتذر عنه ، فالذنب للنوم لا اللطيف ، لأنه لا ينام إذ يبيت دائما مسهدا لا يفكر فى شيء سواها . ويقول:

يا مزعم البين فى ترحالك الأجلُ
إبى لأعظم أن تمضى وتركنى
فلا تروغ فؤادا أنت ساكنه
لم يدر قومك ما ذا فى ترحلهم
سروا - بزعمهم - ليلا وما علموا
وأنت لاو بحب البين مشتغلُ
والدمع يهوى ونار الوجد تشتعل
بالين منك فأتى والة خيلُ
من الذنوب ولو يدرون ما رحلوا
بأنهم فى فؤادى حشا نزلوا

وهو يخاطب صاحبة المصمة على الرحيل ، ففى رحيلها موته إذ سترحل بحبيرة قلبه ، وهو يعظم أن ترحل وتركه لعذابه ، والدمع بهطل ونار الحب والوجد تشتعل ، ويقول لها لا تروعى فؤادى بالين فأتنى فى غاية الحزن وأكاد أجن ، ولم يدر قومك ما فى ترحلهم من الذنوب والآثام بسببى ولو عرفوا ذلك ما رحلوا ، وقد ساروا ليلا وما علموا أنهم دائما فى فؤادى أذكرهم وأذكرك ذكرى متصلة . ويقول :

أقول لركب أذلجوا بسخيرة
وأملأ عيني من محاسن وجهها
فإن هى جادت بالوصال وقعمت
وقفت بها أشكو وأكسب غيرة
فأوتى برخص من بنان مخضب
وقالت أيكى البين من قد أواده
قفوا ساعة حتى أزور ركبها
وأشكو إليها أن أطالت عتابها
ولا فحسى أن رأيت قبيلها
على غير تين ما عرفت فسكبتها
وحطت على البدر النير نقابها
ويشكو النوى من قد أثار غربها

وهو يضرع إلى ركب صاحبه الذى سار بها سحرا أن يتوقف ساعة ليزور ركبها ويملا عينه من علسن وجهها ، ويشكو إليها طول غناها ، فإن هى نعمت بالوصال فيها وإلا فحسبه أن رأى قبلها وخيامها ، ويقول إنه وقف بها يشكو ويسكب عبراته التى لا يسكبها فى غير بين ، وكثما عطفت عليه فأومت بينان غصن مخضب وقد وضعت نفلها على وجهها المثير كالبلر فى اكماله ، وعاتبته قائلة أبكى من اللين وقت الذى أردته وتشكو النوى والفراق وقت الذى أثرت غربه . وواضح أنه يتميز بموسيقى غنية وقلما يغنى فى شعره أو فى حبه ، لأنه أمير مترف ، وشعره لذلك ليس فيه تعمق فى وصف دقائق الحب ومعانيه .

عمر^(١) السلمي

هو أبو حفص عمر بن عمر السلمي ، ولد بأغامت سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م ، وعنى به أبوه ، وصحبه معه وهو قاض بناس فأكب بها على حلقات الفقهاء والأدباء ، وأعدّه إكبها على الفقه والحديث النبوى ليتولى منصب القضاة فى تلمسان وفاس وإشبيلية . وكان مع إحسنه للفقه والفتاوى الدينية شاعرا مجيدا ، وله مدائح فى يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب ، واشتهر فى البيتين : المغربية والأندلسية بشعره فى الغزل ، وأخذ عليه بعض المترمين ولم يصنع لهم ، ويقول ترجموه إنه كان يعنى بمسكنه وملبسه وزينته عناية الشعراء الفنانين من أمثاله ، ومن غزلياته قوله :

أعَيْذُكَ يا سُلَيْمِي من سُلَيْمٍ	قَتَلْتُ فَنَاهُمُ وَهُوَ الزَّعِيمُ
تَقِيلُ الحُبُّ لا يُودَى وعَلِيه	ه لا يُغْدَى ولا فِيهِ الخَصُومُ ^(٢)
وما لِي طالِبٌ يَتْرَا تَقِي	إِذَا قَتَلَ الْغُصَامُ فلا غَرِيمُ
فَوَادَى سار غُولِكُ عن ضُلُوعٍ	بِهَا يا رِيْمُ حُبُّكَ لا يَرِيْمُ ^(٣)
وَدَاذُكَ صَحٌّ فى قَلْبِ سَفِيْمٍ	كَطَرَفِكَ صَحٌّ ناظِرُهُ السَّقِيْمُ
إِذَا أَعْرَضْتَ تَسُوذُ الأُمَاتِي	وإن أَقْبَلْتُ تَبِيضُ المَمُومِ
وما حَبِيٌّ لَهَا إِلا عَذَابُ	عَلِيه مِن نَضَارَتِهَا نَمِيْمٍ

وقد اختار لصاحبه اسم سلمي ليحتسب بينها وبين اسم قبيلته سليم وفى ذلك تكلف واضح ، ويلقب نفسه بالزعيم فخرا لا يستحب فى الغزل ، ويقول لها إن تقيل الحب لا يؤخذ بثأره ولا يغدَى ، وإنه ليس له طالب بثأره إذا قتله الغرام ، وحجها مستتر بين ضلوعه لا يبرحها .

المغربى ٦٢/٣ وما بعدها .

(٢) لا يودى : لا يؤخذ بثأره .

(٣) لا يريم : لا يبرح .

(١) نظر فى ترجمة السلمي وأشعاره أزهار الرياض

٣٦١/٢ وما بعدها والذيل والتكملة لابن عبد الملك فى

٢٢٢/١/٨ والنصون البانعة لابن سجد والوافى بالأدب

المغربى فى المغرب الأقصى ١٦٨/١ وما بعدها والبرق

ولما سماها في البيت الرابع ريمًا ليجلس بين اسمها والفعل في آخر البيت ، ويقول إن قلبه سقيم مثل طرفها ، ويعني في البيت السادس بالطباق بين اسوداد الأملئ وليضاض الموم ، ويقول إن عذله في حها عليه أثارة من نضارتها . وفي رأيي أن السلمي لم يكن على طبيعته حين نظم هذه المقطوعة ، ولذلك تكلف فيها ألوانًا من التكلف . ويقول :

أَعَارَ عَلَى الصَّبِّ مَنْ ثَبَّةٌ هُوَ الْحَبُّ مَنْ يُطْفِئُهُ الْمُهَبَّةُ
نَأَى الْقَلْبُ عَنِّي وَشَوْقِي مَعِي فَلِلَّهِ أَمْرٌ مَا أَعْجِبُهُ
يَحْنُ فَوَادِي إِلَى قَاتِلِي كَذَاكَ الْمَوَى عِنْدَ مَنْ جَرُّهُ
يَجُودُ لَمْسُخُهُ بِالرَّضَا وَيَطْلُبُ رَاحَةً مَنْ أَتَعَبُهُ
إِذَا شَفَّ قَلْبِي غَرَامُ الْمَوَى دَعَا بِالنِّعَمِ لِمَنْ عَذَّبَنِي

وهو يقول إن شخصا نزل بالحب إليه ، وكأنه لا يعرف أن من يريد أن يطفىء الحب بالتأنيب أو باللوم يُشعله ، ويجب أن قلبه رحل مع صاحبه ولا يزال ما كان يختلج فيه من أشواقه معه ، وإن فواده يحنُّ دائما إلى رؤيته صاحبه قاتله شأن المحبين جميعا . ويجود المحبوب بالرضا لمن أسخه ، ويطلب الراحة لمن أتعبه ، ويقول إن الغرام كلما أضنى قلبه وشفه دعا بالنعيم لمن عذبه . وهي رقة واضحة في الغزل . ومن قوله في جمال الأعرييات بالقياس إلى الحضريات مستلهما المتنبي وإعجله المعروف بالبدويات :

مَهَا الْقَفَرُ لَا ذُنْيَةُ الْمَرَمْرِ وَفِي الْعَرْبِ لَا فِي بَنَى الْأَصْفَرِ (١)
بِنَفْسِي يَحَافِيزُ تِلْكَ الْخِيَامِ وَمَسَرَّحُهَا فِي النَّفَا الْأَغْفَرِ (٢)
مَلَاعِبُ يَحْتَبِرُ إِلَيْهَا الْحَكِيمِ وَيُتَلَبُّ فِيهَا فَوَادُ الْجَرَى
وَفِيهَا الظُّبَاءُ بَنَاتُ الْأَسْوَدِ غِيَارِي مَنَى بَغَفَتِ تَرَارِ (٣)
فَخَيْسُ الْهَزْبِ كِنَاسُ الْفَزَالِ بِهِ الشَّيْلِ نَاشٍ مَعَ الْجَوْدِ (٤)
يُخَالِسُهَا نَظِيرًا تَحْتَهُ غَرَامٌ بِهِ الْحَى لَمْ يَشْغُرْ
وَبِالْحَظِّ يُفَدِّحُ زَنْدُ الْمَوَى فَطَرَفٌ غَيْرُ فَوَادٍ بَرَى

وهو يفضل جميلة القفر البدوية على دمية المرمر الحضرية ، ويكنى أن يسميها دمية فليس فيها حيوية البدوية ولا نضرتها ، ويقول إنه يفدى بنفسه وروحه ظباء تلك الخيام وملاعبها في الرمل المخير . ويقول إنها ملاعب تجذب الرجل الحكيم وتسلب فؤاد الجريء الشجاع ، فيها الظباء كرىمات الرجال الأسود اللائي إذا صحن ظننت أنهن يزأرن ، وكأنا بيت هذا

(٣) بنت : صاحت .

(١) بنو الأصفر : الروم وأتاهم من الإلبان .

(٤) خمس المزير : أجمة الأسد . الكلبس : بيت

(٢) اليافير جمع يافور : الظبي وولد البقرة الوحشية .

الغزال . الجوذ : ولد البقرة الوحشية .

النفا : الرمل . الأصفر : المشوب بالعفر والتراب .

الغزال أجمعة أسود ، به الشبل ناشئ مع بنت عمه التي تشبه ابنة البقرة الوحشية ، وكل منهما يخلس النظر إلى الآخر تعبيرا عن غرام مكث لا يشمر به الحى ، وبالحظ وحده يضطرم الهوى ، وطرف يبرى به وفؤاد لا يزال طاهرا بريئا . وهى لوحة بديعة لفتيات البادية . ومن قوله متزلا :

هذا فؤادى أقصدته الأسهم من ذا يرى تلك الجفون ويسلم^(١)

يا غرة حكم الجمال لها على شمس الضحى وأصاب فيما يحكم

يضحى الخلق إذا رآها عاشقا والعقل توقظه اللحاظ النور

وكان قانتها ونفمة لفظها غصن عليه بلبل يترنم

فقد أصابت فؤاده الأسهم المصوبة من عيني صاحبه ، ويقول إن أحدا لا يسلم من تلك السهام إذا نظر إلى جفونها الجميلة ، ويقول إنها غرة شديدة البياض حتى ليحكم الجمال لها على شمس الضحى ، وهو مصيب فى حكمه ، وإن الخلق الذى لم يتعود الحب حين يراها يصبح عاشقا للحاظها الفاترة الجميلة ، ويشطح به الخيال ، فيقول إنه يخيل إليك وقد رأيت قانتها المشوقة تصدح بالفناء أنك ترى غصنا يتغنى فوقه بلبل جميل - ويقول :

هم نظروا لواحظها فهموا وتشرب عقل شاربها المدام

يخاف الناس مقلفتها سواها أيقز قلب حامله الحسام

سما طرئى إليها وهو باك وتغت الشمس ينسكب الغمام

وأذكر قدما فتوح وجدا على الأغصان تنتدب الحمام

وأعقب يئنها فى الصدر غما إذا غربت ذكاء أنى الظلام

وهى قطعة بديعة بتصاويرها الرائعة ، فحين نظروا إلى لواحظها سكرُوا وهاموا كشارب للخم لم تبق له من عقله شيئا ، والناس لفتنة عينها يخافون من النظر إليها وطبعى أن لا تخاف لأن الحسام لا يخيف حامله . وقد نظر إليها طرفه باكيا ، وكأنها الشمس ينسكب تحتها الغمام ، ويقول إنه يذكر قدما المشوق فينوح كما ينوح الحمام على الأغصان ، وإن بينها وبعدها تنشأ فى صدره غما كما ينشأ الظلام حين تغرب الشمس . وهى مقابلات فى غاية الطرافة وتدل على شاعرية خصة . وقيل وفاته سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م نظم أشعارا زاهدة كثيرة .

شراء الوصف

الوصف قديم فى الشعر العربى يصف فيه الشراء الطبيعة برياضها وأزهارها وحيواتها وصحرائها وزروعها حتى إذا تعضروا وصفوا القصور وأدوات الحضارة وملاهيهم المختلفة ،

(١) أقصدته : أصاحته .

ولم تقع أعينهم على شيء من أرض أو سماء إلا سجلوه ووصفوه ، يصفون الأنهار والبحار
والسفن كما يصفون النجوم والشمس والقمر والسحب والأمطار والطيور . وكما وصفوا السهول
والوديان وصفوا الجبال والكبان والأشجار والفلوات . ونجد الوصف على كل لسان منذ عصر
المربطين ، من مثل قول القاضى ابن زبائج فى وصف الربيع (١) :

أُبدت لنا الأيام زهرة طيها وتسرلت بنضيرها وقشورها
واهتزت عطف الأرض بعد غشوعها وبدت بها السماء بعد شحورها
وتطلعت فى عفوان شلبها من بعد ما بلغت عتق مشيها
وقفت عليها السحب وقفة راحم فبكت لها بعيونها وقلوبها
فمجت للأزهار كيف تضاحكت يكاتها وتباشرت بقطوبها
وتسرلت حللا تجر ذيلها من لثمتها فيها وشق جيورها (٢)

وهو يقول إن الأيام أبدت لنا أروع طيب لديها : طيب الربيع ، وليست أروع حللها
وأجدها ، واهتزت جوانب الأرض خصبا بعد جفئها ، وترلوت السماء فية بعد شحورها ،
وتطلعت لمفاتها فى عفوان شلبها بعد أن كانت شلت وبلغت من شيخوخة الجذب عتقا ،
فقد وقفت عليها السحب راحة لها عاطفة وبكت لها بكاء حارا ، ويقول إنه عجب للأزهار
تضحك وتتهج لبكاتها وعبوسها ، وسرعان ما لبست حللا سلفة بما حدث لها من ضرب
الأمطار لها وشق مداخلها . ولما جاء الموحدون بالقاضى عياض مغلولاً من سبتة إلى مراكش
ومر بواد يقال له « داي » سمع قمرية تسجع ، فقال (٣) :

أقمرية الأدواح بالله طربي أخا شجن بالنوح أو بناء (٤)
فقد أرقنتى من هديلك رنة تهيج من برحى ومن برحالى (٥)
لعلك مثلى يا حمام فأنى غريب بداي قد بليت بداء
فكم من فلاة بين داي وسبتة وغرق بعيد الخافقين قولوا (٦)
يدكرنى سح المياه بأرضها دموعا أريقن يوم بنت ورائى
ويعجنى فى سهلها وحزونها خملل أشجار ترف رؤوا (٧)
لعل الذى كان التفرق حكمه سيجمع منا الشمل بعد نساء

وهو يقول لقمرية الأشجار طربي أخاهم وشجن بالنوح أو بالبناء فقد أسهرنى من غنائك
رنة هيجت من شدايدى ، لعلك مثلى غرية تنوحين على قرينك وأولادك ، وكم من فلاة بين

(١) فلاتد العتيان ص ٢٥٩ .

(٥) برحى وبرحالى : شدايدى .

(٦) غرق : مفارقة . قولاء : مقفر .

(٧) ترف : ناضرة . روله : منظرا جميل .

(٢) لدم : ضرب .

(٣) المتقى لأحد بن القاضى ٥٤٧/١ .

(٤) الأدواح جمع دوحه : الشجرة العظيمة .

دای رسته و کم من مغازة متباعدة الجانبين مقفرة ، وإن سح المياه بأرضها ليزكرني دموع زوجتي وأولادي وراثي يوم رحلت ، ولبي لتعجبنى خمائل دای الناضرة ذات المنظر الجميل ، ولعل الله الذي حكم بالفرق بيني وبين أهل يجمع الشمل بعد فراق وبعدي بعيد . ويقول أبو الريح الموحدى فى وصف الريح^(١) :

حَيُّ الرِّيحِ بِمَا وَشَتْ أَزَاهِرُهُ وَنَظَّمَتْ مِنْ أَكَالِيلِهِ عَلَى الشَّجَرِ
وَدَبَّجَتْ فَوْقَ مَنَ الرُّوضِ مِنْ حُلَلِهِ وَنَسَفَتْ بِالْوَلَوَانِ مِنَ الزُّمَرِ
مِنْ نَرَجِسٍ سَاحِرِ الْأَلْحَاطِ ذَى غُنَجٍ وَمِنْ أَقَاحِ ذَى الثَّنَرِ ذَى أَشَرِ^(٢)
بِمَا تَضَوُّعِ رَوْضِ الزَّهْرِ غِبُّ حَيَّا تَأْكُدُ الشُّكْرَ لِلنَّعْمَى عَلَى الْبَشْرِ
لَا يَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّ الرُّوضَ فَاحَ لَهُمْ طَوَعَا وَلَكِنَّهُ يَنْشَى عَلَى الْمَطَرِ

وهو يطلب من كل قارئ له أن يحى الريح بما وشت ونقشت أزهاره وبما نسقت من تيجان الزهر على الشجر وبما زينت الروض من حلل نغمته بألوان من الزهر : من نرجس مدل سحر الألفاظ ومن أقاح ذى حروز نقى الثنر ، وقد وجب الشكر على الناس لهذه النعمة العظيمة مما ينشر روض الزهر عقب الحيا أو المطر من عطر زكى ، ولا يظن الناس أن الروض فاح به لهم ، وإنما فاح به ثناء وشكراً للمطر . ويقول أبو القاسم الشريف السبى المشهور بالفرزاطى للترغى سنة ٧٦٠ فى ناعورة^(٣) (ساقية) :

وَذَاتِ سِيرٍ إِذَا حُشَّتْ رَكَائِبُهَا حَتَّى فَرَاثَكَ فِي مَرَايٍ وَمُسْتَعْمِرٍ
كَثَمَهَا فَلَكْ دَارَتْ كَوَاكِبُهُ عَلَى الرِّيَاضِ بِنُوءٍ غَيْرِ مُنْقَشِعِرٍ
تَمَاطِلُ السُّحْبُ صَوْنًا بَلْ تَخَالِفُهَا إِذَا اسْتَهَلَّ حَيَّا الْهَنَاتُ الْهَمِيعِ^(٤)
هَذَى مِنَ الْمَاءِ تَعْلُو كُلَّ مُنْخَفِضٍ وَتَلْكَ تَنْزِلُ مِنْهُ كُلُّ مُرْتَفِعٍ

يقول إنها إذا أسرع دواليها سمعت صوتا فيه حنان فراثك فى منظرها وصوتها ، وكثمتها فلك دارت كواكبها أو دواليها على الرياض بمطر مستمر لا ينقشع . ويقول إنها تماثل السحب فيما تسقط من مطرها ، ويعود ، فيقول بل تخالفها إذا ائتمرت أمطارها ، فالناعورة تسقى كل منخفض بينما السحب تسقى المرتفعات من الجبال واللال . ويقول فى وصف سفينة تخر به البحر :

وَعَرِيَّةُ الْإِنْشَاءِ سِيرْنَا فَوْقَهَا وَالْبَحْرُ يَمَكُنُ تَارَةً وَيَمُوجُ
عُجْنَا نَوْمٌ بِهَا مَعَاضِدٌ طَالَمَا كَرَمَتْ فَعَاجُ الْأَنْسُ حَيْثُ تَعُوجُ
وَأَسْتَدُّ مِنْ شَمْسِ الْأَصِيلِ أَمَانَتَا نَوْرٌ لَهُ مَرَايٍ هُنَاكَ بِهِجٍ

(٣) انظر فى هذه الآيات وتاليها الوافى ٤٣٥/٢ .

(٤) الهنات المسح : السحابة المطلة .

(١) الوافى ٢٠٥/١ .

(٢) أنش : حروز . والشراء يشبهون الثنر بالأقاح .

فَكَانَ مَاءَ الْبَحْرِ ذَاتَبُ نَضَّةٍ قَدْ سَالَ فِيهِ مِنَ النَّضَارِ خَلِيجٌ

وهو يقول إنها سفينة بديعة الصنع سرنا عليها والبحر تارة يسكن وتارة يهوج ، وعرجنا نَوْمُ أَمَاكِنَ طَلِيَّةٍ وَعَرَجٌ مَعَهَا الْأَنْسُ ، وامتد أماننا من شمس الأصيل نور بهيج ، وكان ماء البحر فضة ذاتية امتدت فوقه شمس الأصيل فاستحال خليجا من النضار أوالذهب . ويقول عبدالمهيمن الحضرمي المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة في وصف السَّحَرِ وتبناق أضواء الفجر^(١) :

تَرَاهِي سَحَرًا وَالنَّسِيمُ عَلِيٌّ وَلِلْفَجْرِ نَهْرٌ خَاضَهُ اللَّيْلُ فَاعْتَلَتْ
وَلِلْفَجْرِ نَهْرٌ خَاضَهُ اللَّيْلُ فَاعْتَلَتْ وَخَرَّقَ سِتْرَ الْغَيْمِ مِنْهُ نُصُولُ
فَمَزَّقَ سَاجِي اللَّيْلِ مِنْهُ شَرَارَةٌ وَفَاضَتْ عَيْوَنٌ لِلْغَمَامِ هَمُولُ^(٢)
تَبَسُّمٌ ثَغَرُ الرُّوْضِ عَنْهُ لِبْسَامَةٌ يُدَارُ عَلَيْهَا مِنْ صَبَاهِ شَمُولُ^(٣)
وَمَالَتْ غُصُونُ الْبَانِ نَشْوَى كَأَنَّهَا لَمِنْ خَفِيفٍ دُونَهَا وَهْدِيلُ^(٤)
وَعُتَّتْ عَلَى تِلْكَ الْغُصُونِ حَمَائِمٌ يَطِيحُ خَفِيفٌ دُونَهَا وَثَقِيلُ^(٥)
إِذَا سَجَعَتْ فِي لَحْنِهَا ثَمَّ قَرَّرَتْ

وهو يقول إن السحر تراهي ومعه نسيم رقيق وأصاب طرف النجم ببعض الكلال ، وكأنا الفجر نهر خاضه الليل فاعتلى أطراف حصان الظلماء يياض في قواتمه ، ومزقت منه شرارة سكون الليل وخرَّقَ ستار الغيم منه ما يشبه نصول الرماح ، وتبسم ثغر الروض ، وفاض الغمام بسيل من المطر ، وتشتت غصون البان وكأنا يدار عليها ككوس من ربح الصبا الجميلة ، وأخذ الحمام يبنى على الغصون ، وَيُسَمِّعُ خَفِيفَهُ وهو يسقط على الأغصان وترتيمه ، ويقول إن الحمام إذا ترنمت ورددت صوتها فاق لجمالها الخفيف والثقل بما يبلحنه المغنون . وينشد أحمد بن يحيى الشُّفَّاءَوِي المتوفى أيام النصور السعدي سنة ١٠٠١ للهجرة في روض^(٦) :

لَمَّا تَرَى الطَّيْرَ بِالْأَذْوَاحِ سَاجِغَةً أَدَمْتَ أَمَامَهَا أَوْتَارَ عِيدَانِ
تَحْكِي مَزَامِيرَ مَنْ لَانَ الْحَدِيدُ لَهُ تَشْدُو بِالْأَجْزَالِ فِي رَصْدٍ وَزِيدَانِ^(٧)
تَفِي عَنِ الصَّبِّ مَا بِالْقَلْبِ مِنْ كَرْبٍ بَلْ تَتْرَكَ الصَّبَّ فِي زِيَةِ الْهَوَى عَلَيَّ
وَالْبَانُ يَرْقُصُ مِنْ تَرْجِيمِهَا طَرِبًا وَالزَّهْرُ يَفْتَرُّ عَنْ أَفْئَارِ مَرْجَانِ
وَالْمَاءُ مُنْسَكَبٌ وَالظِّلُّ مُنْسَحَبٌ وَلِلنَّسِيمِ هَمُوبٌ يُنَمِّشُ الْفَتَى

وهو يقول إن الطير يترنم في الأشجار وقد أدمت أمامها الحمراء ما تقف عليه متغنية من

(٥) هديل : صوت الحمام .

(١) الواضي ٤٤٦/٢ .

(٦) شوى : أطراف ويريد التوائم .

(٢) حجل : يياض .

(٧) النبوغ المخفى ١٣٧/٣ .

(٣) همول : دافقة .

(٨) الرصد والزيدان : من ألحان الغناء .

(٤) شمول : خمر .

أوتار العيدان تحكي بفتاتها مزامير داود الذى ألان له الله الحديد ، وتشدو بأنغام الرصد والزبدان ، وتنحى عن الحب ما يقبله من كُرب الحب بل تجعله كأنه أسير لحيه يردد صلبته فيه ، والبان يرقص من ترديد صوتها وترنمها طربا ، والزهو بضحك عن ثغور لؤلؤية ، والأمطار تنسكب والظل ينسحب ، ويهب نسيم منعش . ونمضى إلى بواكير العصر العلوى ، ويقول أبو على اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة فيما بين الزهر والمطر من علاقة قديمة^(١) :

إن بين الغمام والزهر القَدْ حُضْ لِرَحْمَا قَدِيمَةً وَإِخَاءَ
بان إلفٌ عن ألفه فتواری فى الثرى ذا وذاك حلُ السماء
فإذا ما الغمامُ زارتْ جَنَابًا آذنتُ فيه بالحبيب اللقاء
ذكرتُ عهده القديمَ فحُنتُ عند لقاياه فاستهلَّتْ بُكَاءَ
فترى الزهرَ بارزا من خبايا هُ يحبُّ الوفودَ والأصدقاء
راقصًا والصبا تهنيه والورُ قُ غواني القيان تشدو غناء

وهو يقول إن بين الغمام والزهر مودة قديمة وإخاء ، وقد بان كل عن صاحبه فالزهر توارى فى الثرى والغيم تعالى فى السماء ، فإذا ما الغمام زار ناحية آذنت حبيبها فيه باللقاء ويذكر الغمام عهده القديم فيكى بمطر منهمر ، وترى الزهر بارزا من كل مكان يحبى وفود أصدقائه من الأمطار ، وكأنه يرقص وريح الصبا تهنيه ، والحمام قيان الرياض يشدو غناء . ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ للهجرة يصف روضا^(٢) :

مُدُّ للتلوان أشراكَ النظر فى ابتهاج الروض من وَجْدِ المطرِ
وتلقُ الأنسَ عن آسِ الرُبى وارو طىَّ النور عن نشرِ السَّحرِ
وارتشفَ نَفَرَ أقاحِ باسمَا واضطبح بالطلُّ من كأسِ الزهرِ
والشَّيمُ وجةً المنى منبشرا حيث رامَ الفصنُ ثقبيلَ النهرِ
وجلا السورد حدودًا أثريت خمرة العقبانِ من فرطِ الخفرِ
وحبا الخيرى أنفاسَ الصبا نفحاتٍ فُثرتْ مِثَّتِ الفِكَرِ
وتبرى السَّرسِ يُهدى ذهابا فى صحافِ مَرَعَاتٍ من دررِ
نظمتُ فى جبهه أندادُه عقدَ دُرٍّ كلما ماسَ تَتَرِ

وهو معجب بروض بديع ، ويقول : مُدُّ فيه جِبالَاتِ النظر لملك تجلب لنفسك شيئا من ابتهاج الروض بما سقط عليه من المطر ، وتلقُ الأنس فيه عن آس الرى البديع ، وتمتع بروائح النور أو الزهر التى نشرها فى السحر ، وارتشف السرور من ثغر الأفاح الباسم .

(١) البوغ المغربى ١٤١/٣ .

(٢) البوغ المغربى ١٣٩/٣ .

ولكن صيحوك بالطل تنعم برؤيته في كوس الزهر ، ولتلم وتقبل وجه الأملئ مستبشرا ،
حيث كل شيء من حولك ينعم بالتقبل كما تقبل الأغصان النهر ، وأبدى الورد خدودا
مشربة بحمرة الذهب من فرط الحياء والخضر ، وآثر زهر الخيرى أنفاس الصبا بنفحات
نحيى ميت الفكر ، وأخذ زهر النسر ينهدى ذهابا فى صحلف ملينة بالدور ، ونظمت
الأنداء فى جيد الروض عقد لآلء كلما تحرك تتر . وحرى بنا أن نتحدث عن وصاف
كبير فى العهد السعدى .

عبد^(١) العزيز الفتشالى

هو أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفتشالى ، آباؤه من قبيلة فشتالة فى الشمال الغربى
لفلس ، ولذلك نسب إليها ، وقد ولد سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م وتوفى سنة
١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م ، وتلمذ لأئمة عصره من الفقهاء والنحاة واللغويين ، وأقبل على حفظ
الشعر والنثر حتى نضجت ملكة الأديبة ، مما جعله يلتحق بدواوين الدولة السعدية ،
وأعجب به المنصور الذهي ، فجعله على رأس دواوينه ، وأخلص له أشد الإخلاص ، فعاش
يقدم له مدائح ، ويؤرخ لدولته المنصورية السعدية ، ووصفه المقرئ فى كتبه : روضة
الأس بقوله : « وزير القلم الأعلى ، الولد من البلاغة والبراعة النهل الأحلى ، نشأة الدولة
المنصورية (دولة المنصور الذهي) وكاتم أسرارها ، وممثل القوافى من قبتها ومستمد
أحرارها ، المقدم فى الفضائل والمحسن » . ويقول أحمد بن القاضى عنه فى كتبه نوة
الحجال : « فقيه أديب ، ناثر ناظم ، على الحمة ، متين الحرمة ، فصيح القلم ، زكى
الشيم ، ركن البلاغة والبراعة ، وفارس الدواوين والبراعة » . وكما كان رئيسا لدواوين
المنصور كان شاعره الرسمى ، وكما كان شاعرا كاتبا أو أديبا كان عالما مؤرخا لدولة المنصور
وترجم لمعاصريه فى كتبه « مناهل الصفا » وهو أحد المصادر التى ترجع إليها فى العصر .
وله ميلاديات نبوية كثيرة سوى الغزليات والمراثى ، وله أمداح سياسية كثيرة للمنصور ،
وبجانب ذلك له أشعار فى وصف قصر المنصور المسمى بالبديع ومبانيه وقبه وما ازدان به
من التماثيل والنقوش ، مما يدل - بوضوح - على مدى الحضارة الثرثرة التى اتصف بها
عصر المنصور الذهي . وفى الإشادة بقصر البديع يقول عنه فى كتبه : « المناهل » : إنه
من الآثار التى لم يخلق مثلها فى البلاد .. وإته المثل المضروب فى الأرض عظيمة وضخامة ،
وجلالة وفخامة ، وتفتنا وتأنقا ، وفى وصف مبانيه يقول :

والنوح الغربى ١/٤١٢ ، ٣/١٢٨ وما بعدها والوفى
٣/٦٨١ وما بعدها . وراجع ديوانه مع دراسة له بتحقيق
السيدة نخاعة الربنى .

(١) انظر فى ترجمة الفتشال وأشعاره روضة الأس ص
١١٢ ودرة الحجال ٢/١٣٠ والمتن (انظر الفهرس)
ونشر المتن ١/٢٤١ وخلاصة الأثر للمص ٢/٤٢٥

سَلَبَتْ تَمَائِلُهَا الْحِجَا لِمَا اغْدَت
وَلَقَدْ تَشَامَخَ فِي الْمَلُوفِ سِمَاكُهَا
وَسَمَا إِلَى الشَّهْبِ الزُّوْلَمِ فَاغْدَى أَلْ
أَضْنَى الْغَزَالَةَ حُنْتَهُ حَسَدًا لَذَا
وَانْقَضَتْ الزُّهْرُ الْمُسِيرَةُ إِذْ رَأَتْ
تَزْهَوُ بِحَسَنِ طَرِزِهَا تَذْهِبًا^(٥)
فَجَرَى عَلَى الْفَلَكَ الْمُسِيرَ جَنِيًّا^(٦)
إِكْلِيلُ مِنْهَا تَاجُهَا الْمَنْصُوبِ^(٧)
لَهْدَى عَلَيْهَا لِلْأَمِيلِ شَحْوِهَا^(٨)
زَهَرَ الرِّبَاضُ بِهِ بِنُورٍ عَجِيًّا^(٩)

وهو يقول إن تمائلا (تمائلا والصور المنقوشة في القصر) سلبت العقول بما تزهو به من طرزها المذهبة ، وقد تماهى في الارتفاع سماكها حتى غدا القصر كأنه مجنوب تابع للفلك العلوى ، وظل في ارتفاعه حتى استقر بين النجوم ، وأصبح كأنه المجموعة النجمية المسماة بالإكليل ، بل غدا كأنه تاجها المنسوب . وناهيك بحسنه ، فقد أضنى الشمس وبدا شحوها واضحا في وقت الأصيل ، أما النجوم النيرة فانقضت إذ شاهدت أنوار زهر ربابه نضيه ضياء عجيبا . وله مما كُتب على بهو في القصر بحرر أسود في مرمر لبيض :

لِلَّهِ يَهْوُ عَزٌّ مِنْهُ نَظِيرُ
رُصِفَتْ نَقُوشُ بِنَاهِ رَصَفَ فَلَائِدِ
فَكَتَمَهَا وَالتَّيْرُ سَالَ خِيَالُهَا
شَاؤُ الْقُصُورِ قُصُورُهَا عَنْ وَصْفِهِ
فَإِذَا أَجَلَّتْ اللَّحْظُ فِي جَنَابَتِهِ
صَفَّتْ بِضْفَتِهَا تَمَائِلُ نَضْفَةٍ
مَا بَيْنَ آسَادٍ يَهْجُ زَيْرُهَا
لَمَّا زَهَا كَالرُّوْضِ وَهُوَ نَضِيرُ
قَدْ نَضَفَتْهَا فِي النُّحُورِ الْحُورِ^(١)
وَشَى وَفَضَّةُ تَزْهَى كَافُورِ^(٢)
سُبَانَ فِيهِ خُورَنَقٌ وَسَدِيمُ
يَرْتَدُّ وَهُوَ بِحَسَنِ مَحْشُورِ^(٣)
مَلَكَ النُّفُوسَ بِحَسَنِ تَصَوِيرِ^(٤)
وَأَسَاوِدُ تُسَلِّي لَهْنَ صَغِيرُ

وهو يقول ما أروعه بهوا يعز نظيره لما يجرى فيه من نظرة وجمال ، وقد صُفِّتْ نقوش بنائه تصفيف فلائد سُوِّتْها على النحور فاتنة أو فائتات ، وكأن هذه النقوش والتبر يسيل خلالها وشى بديع ونقوش على فضة شديدة البياض كزهر الكافور . إن البديع ليسوع على كل القصور حتى على قصرى الخورنق والسدير اللذين كانا بقرب الحيرة في الجاهلية ، وحين تجيل البصر في جواربه يرتد حسيلا كليلة لروعة ما تشاهد ، وقد صفت بضفة هذه النقوش صور فضية تخلب الأبواب بجمال تصويرها سوى ما تراه هناك من آساد يخيل إليك أنها حية تزار وجماعات

- (١) تمائلا : تمائلا المنقوشة في القصر . الحجا : (٥) بنور : بضيء .
العقل . (٦) نضفتها : نضفتها .
(٧) التبر : الذهب . (٢) جنيا : عاذا له .
(٣) الشهب : النجوم . المنسوب : المنفرد .
(٤) الغزاة : الشمس . (٨) محشور : كليل ضعيف .
(٩) تماثل : تماثل ونقوش .

من الطير كأنها تصفر صفيرا متصلا . ويتسع في وصف قبة القصر ، وما تشرف عليه من
النهر والأزهار ، ويستهل وصفه بقوله على لسانها :

سموتُ فخرُ البدرِ دونيَ وأعطَا وأصبح قرص الشمس في أذني قرطا
وصُغتُ من الإكليل تاجا لفرقي ونيطت بي الجوزة في عنق سبطا^(١)
ولاحت بأطواق الثريا كأنها يثيرُ جُمان قد تبحه لقطا
وعديتُ عن زهر النجوم لأنى جعلتُ على كيوان رَحلى منقطا^(٢)
وأجريتُ من فيض الساحة والندى خليجا على نهر المجرة قد غطى

والقبة تقول إني سموت وتعاليت في السماء ، فسقط البدر دوني وأصبح قرص الشمس
في أذني قرطا ، وجعلتُ من نجوم الإكليل تاجا لفرق رأسي ، وتعلقت نجوم الجوزة في
جيدى عقدا ثمينا ، ولاحت في الأعلى الثريا ونجومها وكثها ثقات فضة تعقبته لقطا ،
وتجاوزتُ النجوم إلى كيوان (زحل) ووضعت عليه رَحلى ، وأجريت من الساحة والندى
خليجا غطى على نهر المجرة في السماء وفاقه . ويستمر في وصف النهر الذي تشرف عليه
القبة :

تَتَضَنُّضُ ما بين الفُروس كُتفه وقد رقرقتُ حصابوه حبة رطبا^(٣)
حواليه من دَوَّح الرياض خرائدٌ وغيدٌ تجرُّ من خمائلها مِرطبا^(٤)
إذا أرسلتُ لُذُنُ الفروع وَضعتُ جَنَى الزهر للاح في ذوابها وَخَطبا^(٥)
يرتجها مِرُّ السيم إذا سَرى كما مال نشوانٌ تشربُ إسْفَطبا^(٦)
يشقُ رياضًا جاذها الجودُ والندى سولةً لديها الفيثُ نُسكبُ أم كبطا
وسالتُ بِسَلَسال اللجين جياضه بحارا غدا عرضُ البسط لها شطبا^(٧)
تطلُعُ منها وَسطٌ وَسطاه دميةً هي الشمس لا تخشى كسوفًا ولا غمطبا^(٨)
حكَّتْ وحبابُ الماء في جنباتها سَا البدر حلٌّ من نجوم السما وَسطبا

وهو يقول إن النهر تجرى مياهه بين الفروس كُتفه وقد تيدت حصابوه حبة رطباء ،
وحواليه شجر بض ناعم كالخرائد والغيد الحسانوات اللاتي يتأنفن في ثيلهن ، ويخيل إليك
إذا فتحت الزهر في أعالي فروعها اللدنة كُتفه وخط شيب يجمع فيه السواد والياض ، ويميلها
السيم مترعة إذا مر بها كما مال مخمور شرب غمرة الإسفط المعتقة ، وله ليشق رياضا يهطل

(٥) ذوابها : نواصبها . وعطبا : شيا .

(٦) الإسْفَط : حصر محففة .

(٧) اللجين : الفضة . البسط : المبط من الأرض .

(٨) الغمط : الانقصاص .

(١) نيطت : علت . سطا : عطا .

(٢) كيوان : كوكب زحل .

(٣) تَضَنُّض : سال رقرقت : لمعت . رطباء : بلونها تظ .

(٤) خمائلها : حللها . مرط : ذيل طويل للثوب .

عليها جود المنصور الذهبي وعطاياه . ولذلك سواء لديها أسرع الغيث الحقيقي في اتسكابه أو لبطاً ، وتلك حياضه تسيل بأسراب الفضة بحارا تسقى الزروع ، وتزين تلك الحياض دمية جميلة كأنها الشمس لا تخشى كسوفاً ولا غمطاً (انتقاماً) ، ويقول إن هذه الدمية وما يتأثر حولها من حجاب الماء كالبدن ومن حوله النجوم وسط السماء . ويعود إلى وصف القبة منشداً :

إذا غارتْها الشمسُ ألقى شعاعها	على جسمها الفضى نهرها بها لُطاً ^(١)
توسمتُ فيها من صفاء أديهما	نقوشاً كأن المسك ينقُطها نَقْطاً
إذا اتسقت يعضُ القبابُ قلادةً	فأبى لها في الحسن دُرُثها الوُسْطى
تكفى يعضُ الدُمى فكأنها	غذارى نَضَتْ عنها القلائدَ والرِبْطاً ^(٢)
قدودٌ ولكن زادها الحسنُ غُرْبها	وأجملُ في تنعيمها النحتَ والخرطاً
نمتُ صعداً تيجانها فتكسرتُ	قواريرُ أفلاكِ السماء بها ضَغْطاً
فبالكُ شأواً بالعبادة أهلاً	بأكافه رَحْلُ العلا والمهدى حُطاً ^(٣)

وهو يقول إذا انعكست على القبة أشعة الشمس خلت كأن نهرًا من الضياء والنور التصق بها مقابلاً للنهر الذي يجري بجوارها ، وحُيِلَ إلى من صفاء يابضها وما عليه من النقوش كأنها نقطها المسك ، ويقول إذا تحولت القباب البيضاء في أعالي القصور العظيمة قلادة كانت دُرُثها الوسطى وقتها الثريدة التي لا تماثلها قبة . ويقول على لسانها إن الدمى البيضاء أحاطت بي عازية ، وكأنها عذارى خلعت عنها القلائد والثياب وكل زينة ، قدود ممشوقة وقد زادها العرى حسناً ، والنحت والخرط نعومة ورشاقة ، وتعالَت تيجانها صاعدة في السماء حتى حطمت قوارير أفلاكها من النجوم والكواكب ، وما أعظمها قبة شامخة أهلة بالعبادة وقد هبط في أكافها وجوانبها رَحْلُ العلا والمهدى ، ويمضى منشداً :

وكعبةٌ مجدي شادها العزُ فانبثرتُ	تطوف بمفناها أمانى الزرى شوطاً
ومسرح غزلان الصريم كئاسها	حنايا قباب لا الكيب ولا السُقْطاً ^(٤)
فلكنْ به ما طاب لا الأثل والخمطاً	ووسُذْن فيه الوشَى لا السدَر والأزطى
سُراه من المسك الفتيق ملبثُ	إذا ما زجته السحب عاد بها خِلْطاً
وإن باكرته نسمةً حرّاً سَرَى	إلى كل أنفٍ عَرَفُ غُبره قِنْطاً
أفترتْ له الزهراء والخلد وانثنتُ	أولوين كسرى الفرس تنبُطه عَبْطاً

وهو يقول يالك قبة كأنها كعبة ورفعها العز في عنان السماء وإن أمانى الناس لتطوف بها

(٤) الصريم : الفطع . كسلبها : ينها . السُقْط : منقطع الرمل .

(١) لُطُ بها : اتسقت .

(٢) الرِبْط : ملامة .

(٣) الشأوا : الهمة العظيمة ويهد بناء القبة الشامخة .

شوطا وأشواطا رجاء أن تحقق على يد النصور ، ويقول يا لها مسرحا أو كناسا أو بيوتا للفرلان من الدمى والتماثيل القائمة فيها . وفيها لفلوك ما طاب لها لا ما تلوكه غزلان البوادي من شجر الأثل والخطم ، وفيها لتوسد الوشى المنق لا شجر البوادي من السدر والأرطى ، وأما الثرى فبقه من فئات المسك وإن المطر ليخط به حين يسقط فيصبح غيلطا أو أخلاطا من الطيب ، وحين تباكره نسمة سحرا تضوع رائحته ، ويأخذ كل قف منها قسطا أو حظا بمتما ، ويقول إن قصر الخلد يبتدأ وقصور الزهراء بقربة لتعترف بعظمة هذا القصر وأن أولوين كسرى لتخطه . ولعل في كل ما قدمت ما يصور شاعرية الفشتالى وأنه كان يعنى بالجزالة والرصافة فى أسلوبه كما كان يعنى بالصور البيانية .

٣

شعراء الرثاء

الرثاء قديم فى الشعر العربى ، ونجده - منذ الجاهلية - يتخذ صورا ثلاثة هى الندب لبكاء ذوى القربى من الآباء والأبناء والإخوة ، والتأئين لذكر فضائل الميت تصورا لخسارة المجتمع فيه ، والعزاء بذكر الموت وأنه سنة من سنن الحياة ، لا مفر لإنسان منه ، ونجد هذه الصور الثلاثة فى شعر المغرب الأقصى بمختلف عصوره . ومن أوائل ما يلقانا من صور الندب بكاء أمى الربيع الموحدى لأخيه ، وفى بعضه يقول^(١) :

أتانى نعى ضاق صدرى بحمله وصدري - كما قد تعلمان - رحيبُ
فمر بقلب لم تدمل قروحهُ كما مر بالجمر الدفين هوبُ
فحتى متى تبرى الرزايا سهامها وتقصدنى عمدا بها فصيبُ
وحتى متى ألقى رزايا ممضةً يكاد لإحداها الحديد يذوبُ
ولكن قضاء الله حتم فليس لى سواه على حل الخطوب حبيبُ
يقولون لى صبرا ونار تلهفى لها بين أحناء الضلوع وجيبُ

وهو يقول لصاحبه إن نعى أخيه أنه ضاق به صدره الرحيب ، وقد أثار الجمر الدفين من أحزته وكأنه ربح عاصفة ، وأصاب قروحه التى لم تبرا ، فعادت تأله ، ويقول إلى متى تقصدنى الرزايا بسهامها فتصيبنى فى الصميم ، وحتى متى توجعنى ، ولو أن إحداها نزلت بحديد صلب لأذيته غير أنه قضاء الله المحتم وينبى للإنسان أن يتقبله راحيا بما قضى به ربه حسيه ، ويقولون لى صبرا ونار تلهفى على أحنى تضطرم وتلدغ فى أحناء ضلوعى . وهزى ميمون الخططلى (ابن خبازة) المتوفى سنة ٦٣٧ للهجرة ابن الجدة عظيم إشبيلية فى ابنه ، ويستهل عزاءه بقوله^(٢) :

(٢) النبوغ للمرى ٢٧٣/٣ .

(١) الروائى ١٩١/١ .

أَرْجَمُ الصَّقَى يَوْمَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ أَمْ دَكَّةُ الطُّورِ يَوْمَ الصَّقَى فِي الطُّورِ
أَمْ هَذِهِ الْأَرْضُ إِظْهَارًا لِمَا زَجَرَتْ بِهِ الْخَلِيقَةُ مِنْ لِقَاعِ عَذْرِ
أَمْ الْكَوَاكِبُ فِي آفَاقِهَا قَشَرَتْ وَبَاتَ الشَّمْسُ فِي طُلُوعِهَا وَتَكْوِينِ
مَا لِلنَّهَارِ تَعْرِى مِنْ ثِيَابِ سَنَا وَشَلَّةِ اللَّيْلِ فِي أَنْوَابِ ذَنْجُورِ
أَصْبَحَ لَسَمْعٍ مِنْ ثُبَاتِهَا نَبَأٌ يَطْلُو مِنَ الْأَنْسِ فِيهَا كُلُّ مَنْشُورِ
وَأَنَّى مَعَ الْعِيدِ لَاعَادَتِ مُضَاجَعَتِهِ فَشَابَ سَلَالَهُ الْأَصْفَى بِتَكْدِيرِ^(١)
نَسْرَةٍ عِنْدَمَا رَأَتْ بِذَوَحِهَا أَهْوَتْ إِلَى التُّرْبِ مِنْ بَيْنِ النَّوَاوِرِ
جَارَ الذَّبُولِ عَلَيْهَا عِنْدَ مَا مَلَأَتْ مَعَاطِسَ الدَّفْنِ مِنْ طَيْبٍ وَتَطْطِيرِ

وهو يتصور كأن موت هذا الشاب رجعة الصق يوم ينفخ في الصور ، فيصق من في السموات والأرض ويهتفون من مراقدهم ليوم القيامة ، أو كأنه دكة الطور حين طلب موسى من ربه رؤيته ، أو كأنها الأرض هُذَّت وتناثرت الكواكب وكُوِّرَت الشمس ، كما جاء في الذكر الحكيم عن يوم القيامة . وهى مبالغات يتحملها الشعر وحتى النهار تَعْرِى من ثياب ضيائه وغطاءه الليل بظلامه . ويقول لمخاطبه : أرهف سمعك لنبا طوى كل أنس وكل سرور ، نباً وانى فى أواخر رمضان مع العيد ، فكثُر كل صاف فيه ، وما النبا ؟ زهرة حينما زهت وتفتحت على شجرتها وراقت الأعين والأنفس سقطت إلى التراب من بين أنحوايتها من الزهرات والنواوير ، وجارَ الذبول عليها فهوت عندما ملأت أنوف الدهر من أريج طيبتها وعطره . ويفضى إلى عزاء ابن الجند بأن كل ما على وجه الأرض فاني ، فينبغى أن يسلم الأمر لربه ، إذ كل شيء يفنى بتلدير محكم ، وما الكون إلا صحيفة كبرى والناس فيها أحرفه بين محو وميتور ، فلا تخدعك الليالي ، ويورد عليه أسماء بعض الملوك والأنبياء ، ممن طواهم الدهر وبادوا ، ويقول له فى خاتمة قصيدته : سلّم للقضاء تسليم مأجور مثاب على تسليمه . ولابن رشيد التنوفى حول سنة ٧٢٠ للهجرة قصيدة بكى فيها ابنه محمدا بكاء مؤثرا يقول فيه^(٢) :

شَابَ تَوَى شَلَبَتْ عَلَيْهِ الْمَفَارِقُ وَغُصِّنَ ذَوَى تَأَقَّتْ إِلَيْهِ الْهَدَائِقُ^(٣)
عَلَى حِينِ رَاقِ النَّاطِرِينَ بُسُوفُهُ رَمَتْهُ سَهَامٌ لِلْعَمُونَ رَوَاشِقُ^(٤)
مَحَمَّدُ إِنَّ الصِّرَافِيَّكَ مُصَارِمُ مَحَمَّدُ إِنَّ الْوَجْدَ فَيْكَ مَصَادِقُ^(٥)

(١) مضاجعته : ألّه .

(٢) الوانى ٣٩١/٢ .

(٣) توى : هلك .

(٤) بسوفه : ارتفاع شأنه .

(٥) مصارم : مقاطع .

ونالقه مالى بعد عيشك لذة ولا راقنى مرأى لعينى رائق
فإن ألفت فالشخص للعين مائل وإن أستمع فالصوت للأذن طارق
وإن تفرع الأبواب راحة فارغ يطير عندها قلب لذكرك خائف
فيا واحدا قد كان للعين نورها وكل ضياء بعد بُعدك غاسق^(١)

وهو يكي ابنه ، يقول شباب هلك شاب عليه الرءوس وغصن ذبل كانت الحدائق النضرة تنشق إليه ، وكان الناظرون قد راقهم شبلة وذكاه ، وكأنا رمت سهام للعين سريعة أنيل ممن ترميه ويقول له إننى لا أستطيع فيك صبرا ، وإن الحزن فيك لا يفارقى ، ولم أعد أجد فى عيش بعدك لذة ولا عاد يروقنى شيء يعجب العين . ولأنك لئلا كل ما حولي ، فإن ألفت أشعر كأن شخصك مائل أمامى ، وإن أستمع أشعر كأننى أستمع صوتك ، وإن يفرع الأبواب أحد أشعر كأنك أنت الذى يقرعها فيخفق قلبى ويطير ، كأنه يريد أن يلقاك . ويقول إنه كان نور عينه ، فأصبح كل شيء بعده مظلم لا يراه . ويقول أبو بكر بن شبرين السبتي التوفى سنة ٧٤٧ للهجرة يؤمن العالم الجليل مواطنه ابن هاتىء وقد استشهد فى حصار جبل طارق سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م^(٢) :

قد كان ما قال البريد	فاصبر فحزنك لا يفيد
أودى لبن هاتىء الرضا	فاعتادنى للثكل عيد
بحر العلوم وصدرها	وعميدها إذ لا عميد
قد كان زينا للوجود	فيه قد جمع الوجود
العلم والتحقيق وال	توثيق والحسب التليد
أودى شهيدا باذلا	مجهوده نعم الشهيد
فلن يلبى فإن ذك	رك فى الدنيا غص جديد
ونمهدتك من المهيد	من رحمة أبدا وجود

وهو يخاطب نفسه قائلا : قد كان حقا ما قال البريد من استشهاد ابن هاتىء ، فلتصبر ، فالحزن لا يفيد فقد استشهد ابن هاتىء الذى كان تمثالا للرضا والتفاعة ، فنزل بي من فقدته ما يعتادنى من فقد الإخوان والأحباب من حزن ، ولقد كان للعلوم بحرا لا يسير غوره وإماما أو عميدا لا يماثله عميد ، بل لقد كان زينا للوجود جميعه ، وكأنا جمع فيه الوجود ما شئت من علم وتحقيق وكتابة للوثائق الشرعية مع الحسب القديم الأصيل ، وقد توفى شهيدا باذلا

(٢) النبوغ المغربي ٢٧٧/٣ والوفاى ٤٥٨/٢ .

(١) غسق : مظلم .

رُوحه في جهاد أعداء الدين ، نعمت الوفاة ونعمت الشهادة ، ولئن بلى جسده فإن ذكره
ستظل تجدد خالده . ويدعوه له ربّه أن يتمّده برحمته وكرمه ، إنه نعم الرحيم الكريم . وفي
النبوغ المغربي للشيخ القصار في رثاء أبويه مرثية ، يقول فيها^(١) :

زُرْ والدَيْكَ وَقِفْ عَلَى قَبْرَيْهِمَا	فَكَأَنِّي بِكَ قَدْ نُقِلْتُ إِلَيْهِمَا
كُنَّا إِذَا مَا أَبْصَرْنَا بِكَ عِلَّةً	جَزَعًا لِمَا تَشْكُو وَشَقًّا عَلَيْهِمَا
كُنَّا إِذَا سَمِعْنَا قُبْنَكَ أَسْبَلًا	دُغْمِيهِمَا أَسْفًا عَلَى خُدَيْهِمَا
وَتَمَنَّا لَوْ صَادَقَا لَكَ رَاحَةً	بِجَمِيعِ مَا يَحْوِيهِ مُلْكُ يَدَيْهِمَا
بُشْرَاكَ إِنْ قَدَّمْتَ فَمَلَا صَالِحًا	وَقَضَيْتَ بَعْضَ الْحَقِّ مِنْ حَقِّيهِمَا
وَقَرَأْتَ مِنْ آيِ الْكِتَابِ بِقَدَرِ مَا	تُسْطِيطُهُ وَبَعَثْتَ ذَاكَ إِلَيْهِمَا

وهي مرثية للأبوين فريدة في العرية ووصية لكل لمن توفي أبواه أن يزور قبريهما فإِنَّهُ
موشك على اللحاق بهما ، ويقول لكل لمن إنهما كنّا عطفين عليك عطفًا لا حدَّ له ، فكُنَّا
إذا رَأَوْكَ مريضًا تَشْكُو جَزَعًا لَشُكُوكِ جَزَعًا مَا مِثْلَهُ جَزَعٌ ، وإذا سَمِعْنَا قُبْنَكَ مِنْ عِلَّةِ ذُرْفَا
دموعهما على خُدَيْهِمَا مدرارًا ، وتَمَنَّا لَوْ أَتَيْتَ لَكَ رَاحَتَكَ بِجَمِيعِ مَا يَمْلِكُونَ فِي دِيَارِهِمْ .
وَبُشْرَاكَ بِمَا سَيَأْتِيكَ مِنْ جَزَاءِ رِبْكَ إِنْ عَمِلْتَ فَمَلَا صَالِحًا وَقَضَيْتَ بَعْضَ مَا لَوْلَاكَ مِنْ
حَقُوقٍ ، وَأَوَّلُ حَقٍّ لَهَا أَنْ تَقْرَأَ مَا تَسْتَطِيعُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَهْدِيهِ إِلَى رَوْحِهِمَا ،
لِيَتَقَبَّلَهُمَا اللَّهُ قَبُولًا حَسَنًا . ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٩ م في المصير
العلوي يرمي سيدة فاضلة من أهله^(٢) :

سَقَى الرَّحْمَنُ قَبْرًا صَمًّا شَخْصًا	تَسْرَبِلَ بِالْمَكَارِمِ وَارْتَدَّاهَا
وَنَضَّرَ مَضْجَعًا لِفَتَاةٍ صِدْقٍ	حَوَى غُرْرَ الْفَضَائِلِ إِذْ حَوَاهَا
لَقَدْ كَانَتْ تَحْضُرُ عَلَى الْمَعَالِ	وَتَنْدَبُ لِلْمَكَارِمِ مَنْ نَبَاهَا
وَأَلْبَسَهَا الثَّوْبَ حُلَى كَسُوفٍ	فَهَلَّا فَضَّلَهَا الْوَفَايَ حَتَاهَا
فَكَمْ أَحْبَبْتُ مَوَاجِبَهَا كَيْفًا	أَحْلَتْهُ التَّوَابُّ فِي جِوَاهَا
وَكَمْ رُبْتُ بِقَمِيحِهَا يَتِيمًا	قَلَّتْهُ أُمُّهُ حَتَّى سَلَاهَا
لَنْ مَاتَ فَمَا مَاتَ حَلَاهَا	وَأِنْ لَوَدَّتْ فَمَا أَوْدَى عَلاَهَا

وابن زاكور يدعو الرحمن لقبر هذه السيدة بل الفتاة الكريمة التي ليست حلال للمكارم أن
ينزل عليه غيث الرحمة ، وينضّر مضجعها ويملأه رونقًا ، إذ هي فتاة صدق وفضائل عظيمة ،
ولقد كانت تحض كل من حولها على المعالي والأعمال السلية ، وقد طوى الموت شمسها

(١) النبوغ المغربي ٢٨٠/٣ .

(٢) النبوغ المغربي ٢٩٩/٣ .

الساطة ، ولم يحمها فضلها ولا كرمها مما نزل بها من كسوف ، ولئن ماتت فكم أحييت مواهبها وعظماها نبيًا وأقذته مما يخرمه من كآبة وهم ، وكم خنت على يهم ورعته حين نبذته أمه ، وحقا إن ماتت فما مات ما كان يزنها من أفضال وسمو لا نظير له . وفى زيارة مقبرة يقول الطبيب بن مسعود المرنى المتوفى سنة ١١٤٥ هـ / ١٧٣٣ م^(١) :

أُتِيتُ الْقُبُورَ أَذْأَى بِهَا قِسَاوَةً قَلْبِي الَّتِي أَجِدُّ
وَقَمْتُ نَسَائِلَ عَنْ أَهْلِهَا وَهِيَاتَ لَا خَيْرَ يَوْجِدُ
رَأَيْتُ مَصَارِعَهُمْ عِزَّةً تُذِيبُ حُشَاةَ مَنْ يَشْهَدُ
أَقَامُوا قَلِيلًا وَقَدْ رَحَلُوا وَغَلَبُوا بِالْقَوْدِ مَا وَعَدُوا
دَعَاهُمْ عَلَى الرُّغْمِ دَاعِيَ الرَّدَى فَلَبَّيْهِ حِينَ انْقَضَى الْأَمَدُ
وَقَدْ هَدَمَ الْمَوْتُ لَذَاتَهُمْ وَغَيَّرَ عَيْشَهُمْ الْأَرْغَدُ
وَحَلَّوْا بَطُونَ الثَّرَى تَحْتَهُمْ تَرَابٌ وَفَوْقَهُمْ جَلَمَدُ

وهو يقول إنه أتى القبور يداوى بها قساوة قلبه ، وأخذ يسأل عن أهلها ، ولا نبأ ولا خير عنهم ، ويقول إن مصارعهم عبرة لمن يفكر فيهم حتى لذوب روحه أسى ، فقد أقاموا فى دنياهم ورحلوا عنها وغلبوا دون وعد بالرجوع أو الإياب ، وقد دعاهم داعى الملاك فلبَّوه حين انقضى الأجل ، وقد أتى الموت على لذاتهم ، وبُذِلَ عيشهم الرغد الفنى وحلوا بطون الثرى ، تحتم تراب وفوقهم صخور ، فحرى بالإنسان أن يتعبر ويتعظ . ولعل مصباح الزرولى المتوفى سنة ١١٥٠ للهجرة فى تأييد الفقيه جسوس الشهيد^(٢) .

حَلُّ بِالْدِينِ يَا لِقَوْمِي بَلَاءٌ أَحْجَمْتُ دُونَ وَصْفِهِ الشَّرَّاءُ
قُلُّ الْيَوْمِ أَعْلَمُ الْأَرْضَ ظَلَمًا فِيهِ لِلْإِسْلَامِ حَقُّ الْمَزَاءِ
قَتَلُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ كَانَ أَمَّا ذَا أَعَزَّتْهُ السُّنَّةُ السَّمْعَاءُ
قَتَلُوهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ كَانَ لِلشَّرِّ عَ حُسَامًا تَهْلِيهِ الْأَمْرَاءُ
قَتَلُوهُ أَنْ كَانَ لِلْحَقِّ قَوًّا لَا وَمَا إِنَّ تَضَلُّهُ الْأَهْوَاءُ
يَا لَهَا مِنْ مَصِيبَةٍ سَارَ فِي الْأَرْ ضِ وَفَوْقَ السَّمَاءِ بِهَا الْأَنْبَاءُ
عَمَّتِ الْمُسْلِمِينَ رُزْءًا فَاضْحَتِ كُلِّ عَيْنٍ مِنْهُمْ غَرَاهَا الْبُكَاءُ

والزرولى يجعل موت الفقيه جسوس بلاء حل بالدين الحنيف ، فقد قتل ظلما أفقته الأرض وأعلمها ، وإن الإسلام ليعزى فيه . ويقول إتهم قتلوه ، إذ رأوه يحمى الشرع والسنة النبوية ، وكان يقول الحق ولا يخشى فيه أحدا . ويقول ما أعظمها مصيبة سارت بها الأنبياء وطارت

(٢) النبوغ المرنى ٢٨٤/٣ .

(١) النبوغ المرنى ٢٩٨/٣ .

كل مطار في الأرض وفي السماء ، ويقول إنها فاجعة عمت المسلمين وملأت عيونهم بالدموع مدرارا . وتوقف قليلا لتحديث عن شاعري الرثاء : ابن شعيب الجزنائي وأبي على اليوسى .

ابن^(١) شعيب الجزنائي

هو أحمد بن محمد بن شعيب الجزنائي ، منشؤه ومرياه في مدينة تازا ، ووجد على مدينة فاس فُحرف فضله ، والتحق بدواوين أبي سعيد المربني ثم ابنه أبي الحسن ، وكان بين العلماء الذين رافقوه في فتحه لئوس ، وبها توفي سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بعلوم الأوائل ، وحذق الطب والفلك والكيمياء والصيدلة ، وفيه يقول ابن مرزوق : « أبو العباس أحمد بن شعيب الفقيه المشارك التحاليمي الفاضل الطيب الأديب النبأى النخبة ، أحد فضلاء وقته ونبلاء زمانه ، طبقة عالية في قرض الشعر وإمام في التعاليم (علوم الأوائل) وواحد في المعرفة بالأشجار والنبات » . وفي الإحاطة أنه كان يحفظ عشرين ألف بيت للمحدثين وإته تسرى جارية رومية اسمها صبح من أجمل الجولرى حسنا فأدبها حتى أحسنت العربية ونظمت الشعر وكان شديد الحب لها وتوفيت وكان بعد وفاتها لا يرى إلا في تأوه دائم ، وله أشعار بديعة في رثائها ، ومن قوله فيها :

أُعلِمتُ ما صنع الفراق	قُ غداةَ جَدُّ بها الرِّفاق
ووقفتُ منهم حيث للـ	خطرات والدمع اتساق
سبقتُ مطاياهم فما	أبطأ بنفسك في السباق
أولى بجنمك أن يـ	قُ ودمع عينك أن يُراق
أما الفؤادُ فعندهم	دَعَه ودَغَوَى الاشتياق
وهاً لسالفة الشبا	بِ مضتُ بأيامي الرِّفاق
لُبقتُ حرارةً لوعـ	بين الترائب والتُّراق

وهو يقول لمخاطبه أعلمت ما صنع فراق « صبح » بي غداة أسرع بي الرفاق ، لقد وقتت منهم أفكر في صاحبتى وأطيل النظر وعيناي تترققان بالدموع ، وعرفت أنها تركتني إلى غير أبواب فأولى بجسمي أن يفتنى صلبة بها وأول لعيني أن تسيل دموعها سيلاً لا ينقطع ، أما الفؤاد فعندهم ، ودعه ، وما أشد حسرتي على أيام الشباب السالفة التي ذهبت بما كنت فيه من متاع ولم تبق لي إلا حرارة لوعة في صدري بين الترائب والتراقي لا تبرحنى ، ويكى صبحا في مرثية أخرى قائلا :

٣٧٥ والرواقي ٤٢٤/٢ والبرق الغري ٢٣٧/١ ،
٧٤/٣ ، ٢٧٧/٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن شعيب الإحاطة للسان الدين
بن الخطيب ٢٧٢/١ ونيل الأبحاج للتبكي ص ٦٨
واللسند في ترجمة أبي الحسن المربني لابن مرزوق ص

يا صاحب القبر الذى أعلانه درست ولكن حبه لم يذرس
ما اليأس منك على التصبر حامل أبأنتى فكنتى لم أبأس
لما ذهب بكل حسن أصبحت نفسى تعالى شجوا كل الأنفس
يا صبح أبأى ليال كلها لا تجلى عن صبحك المتفسر

وهو يخاطب صاحبه قائلا إن ما حول قبرك من معالم درست وأنت ولم يدرس حبك ولم يمتح فى قلبى ، وإن اليأس منك ومن لقاتك لا يحملنى على التصبر ، وقد أبأنتى من لقاتك وكنتى لم أبأس ، ولما ذهب بكل حسن وجمال أصبحت كئفى أهل أحزان كل المحبين الذين غادرتهم كل محبتاتهم الحسانات ، ويقول لما إن أبأى كلها بعدك أصبحت كئفا ليل متصل لا يتفسر ولا يشرق فيه صباح . ويخاطب قبرها منشدا :

يا قبر صبح حل فى لك لمهجتى أسنى الأملى
وغدوت بعد عينها أشهى البقاع إلى العيان
أعشى النية إليها تنصى مكثك عن مكثى
كم بين مقبور بفأ سَ وقبر بالقيروان

وهو يذكر لقبر صبح إنه حل فى أجمل الأملى - كانت - لمهجته وروحه ، ولقد أصبحت بعد عينها أشهى البقاع إلى العيان والمشاهدة ، ولقى لأعشى الموت أن ياعد بين مكثك ومكثى ، ويقول إنها توفيت بفأس وكان فى القيروان مع أبى الحسن المربى فى رحلته ، ومن رثائه لصاحبه قوله :

يا غائبا فى الضمير ما برحا دنى محل الهوى إذا نرحا
لم تضمر الصبر عنك جارحة ولا فؤادى لسوة جنحا
مستغبر الزن فبك أدمه يظل يتكبك كلما سفا
ولا أرى البرق عاد متسما بعدك بل زند شوقه قدحا
وما تننى الحمام من طرب بل يعلن النوح كلما صدحا

وهو يقول لصاحبه إذا غبت ونزحت لا تزالين دنية منى ولا يزال محل هواك قريبا من نفسى ، ومعاذ الله أن تضمر الصبر عنك جارحة أو أن يهجن فؤادى إلى سلوان أو عزاء . وإيه ليطلب إلى الزن أن تسبل حتى تفيض أدمه ويظل ييكبك غيبها ، وإيه ليرى البرق فيه كئفه زند شوقه يقدح نارا وشرارا ، ويقول إن الحمام لا يتننى من طرب أو فرح وإنما ينوح كلما صدح نوحا متصلا . وظل ماتم صاحبه صبح قائما وهو ينوح فيه ويندبها حتى أنفلسه الأخيرة .

أبو علي^(١) اليوسى : الحسن بن مسعود

أهم شعراء الزاوية الدلائية ، ولد سنة ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣١ م ، ونشأ نشأة متواضعة ، وشغف بالعلوم الإسلامية واللغوية ، ورحل فى طلبها وتعددت رحلاته إلى مراكش وسوس ودرعة وسجلماسة . وفى نحو العشرين من عمره استقر فى الزاوية الدلائية واختلف إلى حلقات علمائها يتزود منهم ، حتى إذا شهدوا له بنوؤه وتفوقه تصدر للتدريس ، وظل ناعما فيها بالتدريس إلى سنة ١٠٧٨ هـ/ ١٦٦٨ م ، وهى السنة التى استولى فيها السلطان الرشيد العلوى على الزاوية الدلائية بعد هزيمة أهلها أمامه ، وقد أخذ كل ما كان فيها من مال وسلاح وكل ما فى الخزائن من الكتب ، وأمر شيوخها: اليوسى وغيره بالرحيل إلى فاس ، وهدهما ولم يبق منها بقية . وأخذ اليوسى يحاول استعادة مكانته العلمية فى فاس ، وأخذ يناله غير قليل من الشهرة ، وأقبل على دروسه الطلاب وشاعت مؤلفاته . ونزل مراكش بأخرة من حياته وتصدر فيها للتدريس ، وحظى برضا حكام الدولة العلوية وخاصة السلطان إسماعيل . وأدى فريضة الحج وعاد منه ليسلم روحه إلى بارتنة سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩١ م . وكان شاعرا بارعا ، وله ديوان شعر مطبوع يشهد له - كما يقول الأستاذ ابن تاويت - بمكانة ممتازة فى قرض الشعر الجزل وفى أسلوبه الأخاذ بسحر بيته الباهر بطول نفسه . ومن أهم قصائده رائية طويلة رثى بها الزاوية الدلائية ، وهو يستهلها بقوله :

كُلِّفْتُ جَفَنَ العَيْنِ أَنْ يَتَرَ الدَّرَا	فِيَلْنِي وَهَيَاضُ العَيْقِقِ بِهَا جَمْرًا ^(٢)
وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَكُمَّ الْوَجْدَ سَاعَةً	فَيُنْشِىَ وَإِنْ اللُّومُ آوَنَةً أُغْرَى
وَكُنْتُ عَمْرُونُ الحَادِثَاتِ غَوَافِلَا	زَمَانًا وَخَطْبُ الدَّهْرِ كَانَ بِنَا غُرًّا ^(٣)
عَدَّتْ غَدْرَةٌ أَيْدَى الحَوَادِثِ فَاخْتَلَتْ	خَلَاهَا فَعَادَتْ بَعْدَ نَضْرَتِهَا غُرًّا ^(٤)
وَلِكَيْلَنْ مَتُوسَى الدِّيارِ وَأَهْلُهَا	بُوحَشٍ وَحَوْنٍ الْأَهْمِلَ بِهَا قَفْرًا ^(٥)
فَلَا جَفَنَ إِلَّا وَهُوَ مُنْفَضٍ عَلَى الْقَدَى	وَلَا عَيْنَ إِلَّا مِنْ نَجِيعِ الشُّجَا حَمْرًا ^(٦)

وهو يقول إنه كلف عينيه أن تشر لآلئ الدموع على الزاوية الدلائية فلبتا إلا أن تشر دموعا كالعتيق الأحمر بل لكأن العتيق استعاض بها جمرا مشتعلا ، ويسألها أن يكما الوجد والحزن لحظة أو لحظات فيفشيان همه وغمه ، وكأن اللوم يبرى على الإنشاء أكثر فأكثر . وكأن الأحداث كانت غافلة عنها ، وكأن خطب الدهر كان غافلا بدوره ، وإذا أيدى الحادثات تأتى

(١) انظر فى ترجمة اليوسى وشعره : عبقريّة اليوسى للدكتور عيسى الجبرارى والزاوية الدلائية للدكتور محمد حجي ص ٩٧ وكتاب الشعر الدلائي لعبد الجواد الشفاط (انظر الفهرس) والنبوغ المغربى ٢٨٥/٣ والوانى ٧٤٠/٣ .
(٢) العتيق : حجر كريم أحر .

(٣) غُرًّا : غافلا
(٤) اختلت : قطعت . الخلا : النبات الرطب .
(٥) الأهمِل : الأقول بالسكان .
(٦) النجيع : الدم . الشجا : الهم والحزن .

عليها وعلى ما حولها من الكلأ والنبات فإذا هي أرض جردة بل لقد أصبحت قفرا ، ولهدلت بأهلها الناعمين وحوشا ، ولا جفن إلا وهو ملء بالقذى ولا عين إلا وهي من الحزن حمراء كالدم . ويكى ما كان فيها من رياض وغير رياض منشدا :

رياض إذا لمصرتها ونشقتها
فمن لى بواديها إذا فاح رندة
ومن لى بروضات يفوق ضياؤها
وهل نفحة تكفي المسك فاتحا
وهل وقفة بين الطلول التي قضت
هنالك إخوان الفؤاد وفية
وتناى عجالا عنهم مثلما نأى
بها هامت الأرواح من قبل خلقنا
فلا تذكرن نجدا ولا تذكرن شجرا^(١)
ومن لى بمرعاه إذا أطلع المشر^(٢)
على الشمس حسنا كلما ابتهجت زهرا
وهل شربة تكفي الشهة مشمرا^(٣)
صروف الليالى فى معالمها نذرا
هم للحشا خمرا فما يطلب الخمر
لبو صبية عنهم إذا بهم القبرا
ومن بعد ما كا واذ نلخ الحشرا

وهي رياض إذا لمصرتها ونمت بشذاها الذكى لم تعد تذكر ديار نجد الحبية ولا ديار الشجر بجوار حضرموت ، ومن لى بواديها إذا سطعت رائحة شجر الرند فيه ، ومن لى بمراعيها حين تنبت نباتها الأخضر الجميل ، ومن لى بروضات بهيجة الزهر بها وإن ضيائها ليفوق ضياء الشمس بهاء وحسنا ، وهل نفحة منها كالمسك فاتحا وهل شربة فيها كالشهد أستطيع أن أتم بها ؟ . لقد أصبحت طلولا ، ويتمنى وقفة بطولها حيث كان إخوان ، حديثهم كأنه الخمر فى لذتها ونشوتها ، ولقد بعنا عنهم سريما كأب فارق صبيته عجلا قاصدا قبره ، ويقول إن أرواحهم بها هامت قبل خلقهم وبعده ، وسيظلون يهيمون بها إلى يوم الحشر . ويفضى إلى حشود من الحكم يدوها بأن الدهر لا يبقى على أحد ، وكمن عظيم كان يعتلى حصنا شامخا هوى به وكمن ملك أصله بالأرزاء وقهره وأذله . وقديما دارت صروفه على دارا ملك الفرس وأذل بنى ساسان بعد عز لا يماثله عز ، وجر ذيله على الفساسة وملوك الحيرة وخلفاء بنى أمية وبنى العباس والمعتصم بن عباد المنفى إلى أعماق براكش ، فهل يثك أحد فى صولات الدهر ؟ . إنه دائما يصلح حتى على المحين إذ يحيل الوصل بينهما هجرا . ويقول :

فلا تركن للدهر إن نيمه
ملول فما باقى على عهد خلّة
ولا تأمن لبناءه إن غيبوا
متى ما ارتجوا رغبة منك تقرّوا
ظلال سحب يمسح السهل والوفا
ولا مستديم فيك يمرا ولا غمرا
إليك فمن يشبه أباه فقد برأ
إليك وأهدوا خالص الود والبسرا^(٤)

(١) شمس : مرعا ساقنا .

(٢) لغاه : أنية .

(٣) الشمر : إقليم على المحيط بجنب عمان .

(٤) المشر : نبات الأعضر .

وَأَخْفُوا ذَمِيمًا كَانَ فَيْكُ وَأَظْهَرُوا
وَأَنْ لَمْ يَرْجُوا مِنْكَ خَيْرًا رَأَيْتَهُمْ
إِذَا مَا رَأَوْا ذَا الْوَفْرِ لِأَذْوَا بِذَيْلِهِ
وَأَنْ يَحْضُرُوا بِالْمَلِيقِ اهْتَرَأُوا بِهِ

وهو ينصح من يقرؤه أن لا يعول على الدهر ويركن إليه . فإن نعيمه كظلم سحاب لا يلبث أن يزول ويحصى ، وهو ملول الطبع لا يبقى على شئمة ، ولا يستديم فيك ما يمنحك من سر ، وحتى العسر أيضا لا يدومه ، فكم من معسر فتح عليه أبواب اليسر . ويقول إن أبناءه من الناس لا يؤمنون حتى لو غلبوا إليك وأظهروا المودة ، فهم جميعا غادرون ، ويذكر أنهم إذا رجوا منك جميلا تقربوا إليك وتظاهروا لك بالود والبر الصافى ، ونفوا عيوبك وأظهروا محامدك وقالوا إن محاسنك لا تجحد ، وإن لم يرجوا منك صنع جميل رأيت منهم جفاء وإعراضا عريضا ، أما الغنى ذو الوفرة فيهم يلوذون به حتى لو لم يصيبوا منه قطرة من خير ، وأما الملق الفقير فيهم يهزءون به ويعرضون عنه مفاضين . ويستمر ناصحا قائلا :

وَأَنْ الْغَنَى بِالنَّفْسِ لَا الْبَسْرَ مَجْدُهُ
وَأَنْ الْغَنَى مَا أَوْرَثَ الْمَرْءَ فِي الْوَرَى
وَأَنْ تَعُوِذَ النُّعْمَى فَجُدْ بِبِشَاشَةٍ
وَمَنْ لِلْهَوَى أَلْقَى الْقِيَادَ فَقَدْ هَوَى
وَمَنْ يَصْطَلِحْ عُرْفًا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ
وَمَنْ لَا يُجَنَّبُ قَوْلَهُ دَنَسَ الْخَنَا
وَمَنْ يَذْخِرْ تَقْوَى إِلَالِهِ وَذَكَرَهُ
وَمَنْ يَفْنَى بِالْمَوْلَى فَلَنْ يَفْنَى الْغَنَى

وهو يقول إن مجد الشخص بنفسه لا بلبسه وزيه ، ويضرب مثلا بأن الدر أو اللؤلؤ لا تشبه كدورة أصدافه ويذكر أن الغنى الحقيقي للمرء هو الذى يكسبه المحامد فى الدنيا والعلياء فى الآخرة ، وينصح قارئه إن لم يجد ما يذل لضيوفه من الثرى ، فخير منه أن يلقى ضيوفه بالبشر والبشاشة والترحيب وحسن اللقاء ، كما ينصحه أن لا يلقى قياده للحب ويخضع له فيته بهوى به مهما بلغ من المجد والسؤدد ، ويقول إن من يقدم صنيعا أو جميلا إلى غير أهله فلن يقدموا له جزاء ولا شكورا ، ويذكر أن من لا يخلو كلامه من الألفاظ السيئة الذميمة لا يمتنع

الغاية .

(٤) المجر : الكلام الذىه النعيم .

(٥) اللجين : النضة . النضر : يبرد اللحم .

(١) لا ترمى : لا تجحد .

(٢) النظر الشز : النظر بمنزعة العين كتابة عن الازدراء

والغضب .

(٣) النسر : كوكب . وطىء النسر : كتابة عن بلوغ

ولا يضيق صدره بما يسمع من الألفاظ القبيحة . وأعظم ما يدخره الإنسان لنفسه تقوى الله ، إذ يحمد الناس تقواه ويؤجر عليها خير أجر ، ويقول إن الغنى الحقيقي هو الغنى بحمد الله لا الغنى بالفضة والذهب . وإنما سقا بعض نيات من هذه القصيدة ، وهي تشهد لصاحبها ببراعة فائقة في الشعر ونظمه .

٤

شعراء الزهد والتصوف

(أ) شعراء الزهد

الزهد أساس كبير في الدين الخفيف ، وزاهد الأمة الأول الرسول ﷺ ، إذ عاش عيشة تقشف وزهد في متاع الحياة الدنيا ، وتبعه في هذه الميثة كثيرون من الصحابة ، وهم مع ذلك يكسبون ما يعولهم هم وأسرتهم ، حتى لا يكونوا عالة وعيالا على المجتمع . وأخذ كثيرون من التابعين يوثرون هذا الزهد وما يتبعه من التقشف . وكان - ولا يزال - مما أضرمت جذوته وغطت الوعظ الكثرين الذين لم يخل منهم بلد إسلامي ، فهم يندرون ويخوفون من عذاب الجحيم ، ويشرون الأنقياء والصالحين بأن لهم عند ربهم الفردوس جزاء لرفضهم المتاع الدنيوي وإقبالهم على العبادة والنسك لابتغاء لما عند الله من الثواب والرضوان الأكبر .

والغرب الأقصى مثله مثل البلاد الإسلامية كثر فيه الزهاد والعباد ، وكان مما عمل على كثرة الزهاد فيه والنسك الجبال الكثيرة التي كانت تتيح لهم العزلة عن الناس للعبادة كما تتيح لهم كثيرا من الثمار التي يقتاتون بها ، ويحدثنا الحسن الوزان عن كثيرين منهم ، رآهم منهمكين في العبادة لربهم على رؤوس الجبال كالجبل^(١) الأخضر قرب آزمور ، ورأى في قلعة أغمات ناسكا ومعه مائة من تلاميذه ، ويقول إنه نزل بضيافته ثمانية أيام . وأيضاً مما ساعد على كثرة الزهاد هناك كثرة الملاهي للعبادة ، تبنيتها لهم الدول المختلفة ، مع كثرة ما كانت تبنى لهم من الزوايا ، ومع كثرة ما كانت تبنى من مؤسسات المدارس مُلحقة بها مبانى للشيخ والطلاب وتكفيهم متونهم ، فكان كثيرون منهم يتحولون زهاد ونسكا .

وذكرنا في حديثنا عن الزهد في فصل المجتمع المغربي أسماء طائفة من الزهاد الأولين قبل عصر المرابطين ، وفيه وبعده . وبهنا الآن أن نعرض لشعرائهم ، وربما كان أهمهم في عصر المرابطين السلالاتي عبد الله بن عثمان التوفى - كما في روض القرطاس - سنة ٥٦٤ للهجرة وهو إمام أهل المغرب في علوم الاعتقاد ، وتشد له صاحب الوافي هذه الأبيات^(٢) :

(٢) الوافي ١ / ٣١٥ .

(١) وصف إفريقيا للوزان ص ١٦٩ .

إذا العلمُ لا تَغشَى غرائبه قلى
ولا نأى ممن جاوز الدُّرْبَ ناهضاً
ولا كان حظيُّ منه إلا حكايةً
ولا تَرْضَى بالخطِّ الخسيرِ سفاقةً
تجافوا عن الدار التي أصبحوا بها
وإن كان لا ينجيك إلا ركوبها
ولا شاقى منه إلى المنهل العذب
إليه ، ولا أَرْضى مقامى من رعى
على الناس أتلوها فحسى إذن حسى
فمثلك مَنْ قد حلَّ فى المنزل الرُحْب
على غُرْبَةٍ واستوطنوا حضرة القرب
فماذا التجانى عن مجاورة الرُبِّ

وهو يقول إن العلم الذى يلوكه لطلابهِ من الفقه وغير الفقه لا يتغلغل فى قلبه ولا يدفعه إلى منهل النسك العذب ، ويقول إبنى بعيد عن درب النساك وإته لا يرضى مقامه من ربه وما العلم الذى يلقيه الشيوخ على الطلاب إلا روايات عن الأسلاف ، فلا ترض بهذا العلم وحده واطلب العلم - أو بعبارة أدق - النسك الذى يجمه العباد النساك الذين انصرفوا عن الدار الأولى : الدنيا إلى حضرة القرب من الرب . ولعل فى هذه الآيات ما يدل على أن حركة الزهد فى المغرب الأقصى كتبت إرهاباً لما سيُشيع فيه من الحركة الصوفية . ومن كان يتزعج إلى الزهد فى عصر المرابطون القاضى عياض ، وله يقول مبتهلاً إلى ربه^(١) :

إليك بَسَوْتُ بذنى
واسئَلُ عَلَى بلطفٍ
فقد ركبْتُ ذنوباً
وجئتُ أطلبُ توباً
فاقتبلْ بفضلِكَ توبى
واعفُ عني
فاغفرْ خطاياى رُبى
تَجَبَّرْ بِوِ صَدْعٍ قلى
سَوَدْتُ مِنْهُمْ كُتُبى
إذ ضاقَ بالذنبِ رَحْبى
واغفرْ بِرُحْمِكَ ذنبى
فَلَتَّ بِأَرْبِ حَسى

وهو يعترف لربه بأنه يرجع إليه مذنباً آملاً فى أن يغفر له خطاياهُ ، إنه غفار الذنوب ، ويدعو أن يمنَّ عليه بلطفه المهود حتى يجبر به ما حدث فى قلبه من صدع ، فقد ارتكب ذنوباً كثيرة ، سَوَدَّتْ كُتُبُهُ التى سيقاها يوم القيامة . ويقول إنه جاء ضارعاً إلى ربه يطلب منه أن يقبل توبته ، ويغفر ذنبه برحمته ، فهو أرحم الراحمين . ويسأله العافية والعفو عنه ، فإنه ربه قبلل التوب وغافر الذنب . ونمضى إلى عصر الموحدين ، ونقرأ عند القاضى عمر الفاسى للار ذكره فى الغزلين^(٢) :

أُبها المشتَر بالزمنِ
حُبُّكَ الدنيا وزينتها
ظَلَمْتُ والحالة شاهدةٌ
ففى هوالهِ خالِعَ الرُسْنِ
قَتَنَ عَمَّتْكَ بالفتنِ
عاكفا منها على وَفَرِ

(١) التبريد بالقاضى عياض ص ٩٧ .

(٢) الرواى ١ / ١٧٩ .

فاهجرزنها إن زيتها زينة شئت ولم تزني
خدعنا إنها قبحت باطنا في ظاهر حسن
ولتقدم ما تُسرُّ به قبل طول البث والحزن
فكأن أحرأك مبرحت وكأن دنياك لم تكن

وهو يخاطب الذي غره الزمن وغرته الأيام ، فأكب - غير مُزعج ولا مزدجر - على اللهو والمجون خالغ الرسن ، والكلمة كتابة عن إكبله عليهما ، ويقول له إن حبك الدنيا ومتاعها وزيتها وكل ما يعجبك فيها فتنة أصابتك بما لا يحصى من فتن الدنيا ، ويذكر له أنه ظل عاكفا على الدنيا عكوف عبد الوثن عليه ، وينصحه أن يهجرها وأن لا تنفزه زيتها ، فهي زينة قبيحة تشين صاحبها ، وقد خدعنا ظاهرها البراق ، وهي في غاية القبح ، وإن واجبك أن تقدم إلى ربك ما تُسرُّ به في المستقبل لا ما يحزنك ويملؤك ما في آخرتك ، فخلاص شئت قبل مبارحتك دنياك إلى الدار الآخرة . ويقول أبو الريح الموحدي المترجم له بين الغزلين يخاطب نفسه^(١) :

يا نفسُ حسبك ما فرطتِ فازدجري عن الذنوب فإن القبرَ مثواكِ
خافى الإله لما قدمتِ من زللي واعصى هواكِ فإن الله يراكِ
إن الهوى قلما تجدري هواته وهو الذي عن سبيل الرشد أفضاكِ
لشدُّ ما تعلمين الفرق بينهما ما كان أحرأك بالأجدي وأولاكِ
إلى مَ تلهين عن قولي مغالطة وتوقنين بقسي غير أفساكِ^(٢)
أصغى إلى فما في الأرض من أحدي ألقى إليه صريح النصح إلّاكِ
تسوى إلى الله إن الله يقبلها واستغنى بجهلك في تحسين عُقبكِ

وهو يقول لنفسه : يكفيك ما فرطت من الذنوب ، وينبغي أن تغلبي عنها فإن مثواك الأخير القبر ، وخافى ربك لما قدمت من عثرات ، واعصى هواك فإن الله يراقبك ويعلم ما ارتكبت من الخطيئات ، وإياك وطاعة هواك لما يقدم لك من متاع ، فإنه هو الذي أضلك ويُبعدك عن طريق الرشاد ، وما أعظم الفرق بين الضلال والهدى ، وما أحرأك أن تمشكى بالهدى ، وحتى متى لا تسمعين لنصحي وأنتى لا أكفبك ، إنه جدير بك أن تصغى إلى وإلى نصحي ، فإني أقرب شيء إلى وليس في الأرض من أسدى إليه النصح سواك ، خوى إلى الله توبة حقة حتى يقبلها منك ، واعمل بجهلك على أن تحسن عُقبك وترضى ربك . ومن كبار الزهاد عمر بن محمد القيسي المراكشي الفاسي الأصل المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة وكان أديبا

(٢) هناك : كذّاب .

(١) الوائى ١ / ٢٤٩ .

بارع الكلية طيب النفس نفاعا بجاهه وذات يده ، وكان شاعرا مجيدا ، وجمع دفنرا فيما نظم
فى التهجد وقيام الليل أجاد فيه الاختيار ، ومن نظمه فيه قوله^(١) :

ذهب الظلام وأنت جذع راقد وأنى الصباح وأنت صخر جامد
وخلت على الإظلام منك مناسك وخلت على الإصباح منك مساجد
وأولوا التهجد ليلهم ما منهم لله إلا راكم أو ساجد
وهجمت - يا مغرور - ليلك كله وعليك من عين الإله شواهد
فانظر لنفسك قبل حين مماتها إن الممات على البريئة وافر
وتذكر السر البعد وطوله من غير زاد والمجال فدائد^(٢)
واذكر نشورك بعد موتك فجاة وصحائف الأعمال منك تشاهد^(٣)

وهو يهيب بالغانفل عن نسك التهجد أن يقوم شطرا من الليل مصليا لربه مسبحا له ذاكرة ،
ويقول له إنك تنام طوال الليل كجذع راقد ممدود حتى الصباح ، وكثك صخر جامد لا حس
ولا حركة ، وتلك المناسك : مناسك التهجد خالية منك مساء ، وتلك المساجد خالية منك
صباحا ، وأصحاب التهجد يخون ليلهم بالركوع والسجود لربهم بينما أنت هاجع فى فراشك
أبها المغرور المذموم ، وإنه لحرق بك أن تنظر لنفسك وتمسدها بالتقوى قبل مماتك ، إذ كل
من عليها فاني ، وتذكر سفرك البعد إلى يوم القيامة ورحلتك فيه دون زاد ، فى مجال مقفر :
واذكر بعثك بعد موتك وعرض صحائف أعمالك على ربك العلى القدير . وكان يعاصره وتوفى
بعده بعام واحد عام ٦٢٧ للهجرة ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلى صاحب أول كتاب
تحدث عن زهاد المغرب الأقصى ومتصوفه وهو كتاب « التشوف لمعرفة أهل التصوف » وقد
اتسع فى تصوره لأهل التصوف ، إذ جعل كتابه - كما يقول فى مقدمته « يشتمل على أضراب
من أفاضل العلماء والفقهاء والعباد والزهاد والورعين وغير ذلك من ضروب أهل الفضل »
مما جعل تراجم الكتاب تسع لتشمل الزهاد والمتصوفة وأهل الصلاح من العلماء والفقهاء ،
وبذلك نفهم كثرة التراجم فيه ، إذ بلغوا كما يقول مائتين وسبعة وسبعين شخصا ، ويقول إنه
سيخصه بمرائش وأعمالها ، غير أنه حين مضى فيه رأى أن يضم فيه كثيرين من بلدان المغرب
المختلفة . والكتاب مهم لأنه يعطى صورة واضحة عن أوائل زهاد المغرب ومتصوفه حتى
نهاية القرن السادس الهجرى مثل من سبناهم فى حديثنا عن الزهد فى المجتمع المغربى ، مثل
أبى الحسن بن حزمه وأبى يعزى بن نور بن ميمون ، ويذكر بعض أشعارهم كهذه الأبيات
التي ذكرها لابن تاحمست المتوفى سنة ٦٠٨ للهجرة .

(١) الذيل والحكمة لابن عبد الملك المراكشى (٢) فدايد جمع فدد : الغلاة .

(٣) نشورك : بعثك .

ولما ركب البحر نحوك قاصدا
دعوتك بالإخلاص والموج طامع
أيا منفذ الفرقى ويا ملهم التقى
لوجهك ذل البر والبحر خاضع
ولم أر غير الله مالا ولا أهلا
بصدق وداد لم يكن قبل متلا
ويا صمدا يقى إذا أذهب الكلا
ورحق لهذا الخلق أن يالف الذلا

وهو يتهل لربه ذاكرًا أنه حين ركب البحر أسلم نفسه له ولم يعد يذكر أهلا ولا مالا
سواه ، وحين هاج البحر وهاجت أمواجه دعا ربه مخلصا صادق الوداد أن ينجيه ضارعا إليه
قائلا : يا منفذ الفرقى ليس سواك ينجى يا ملهم التقى تقواهم ، ويا مقصودا يقى بعد أن
يفنى كل من على الأرض ، لوجهك يا ذا الجلال ذلت الأرض وخضع البحر ، وحق للناس
أن يتذللوا لك تذلا ما بعده تذلل فئت المنجى والمنقذ ومنغث المستغنين .

ونلتقى فى أواخر القرن السابع بعد الحق بن إسماعيل وكتبه عن صلحاء منطقة الريف
المحاذية للبحر المتوسط شمال المغرب الأقصى ، وكان كتبه عنهم يكمل كتاب التشوف لمعرفة
أهل التصوف الذى عنى - فى الأعم الأغلب - بمنطقة مراكش كما أسلفنا ، وقد جعله فى
ثلاثة أقسام قسم عن المقامات الصوفية ، وقسم عن الخضر عليه السلام ، وقسم عرف فيه
بصلحاء الريف ، وهم عنده ستة وأربعون ترجم لهم ، وأتبع كل شيخ بآيات يصف فيها زهده
أو تصوفه ، ومن قوله فى ترجمة سعيد المسطاسى يصف زهده وأمثاله^(١) :

زهدا يريدون النجاة وأصبحوا وطعامهم فى الأرض نبت يابس
مالوا عن الشهوات فى الدنيا فما لهم سوى التوفيق شىء حليس
فجأنهم من كل شهو سالم ولستهم عن كل عيب نابس

فهم قد زهدوا فى الدنيا ومتاعها يريدون النجاة فى الآخرة من عذاب النار ، وطعامهم
مما تنبت الأرض من النباتات ، لا يفكرون فى لحوم ولا فى طعام مطبوخ ، فحسبهم ما يجدونه
على وجه الأرض من النبات ، وقد رفضوا الشهوات جميعا فى دنياهم ، ولا شىء يحبسهم
سوى عبادة ربهم ، وأذهقتهم بريرة من كل سهو ولستهم لا ينس بعب . وبجانب هذه المقطوعة
من نظم عبد الحق بن إسماعيل مقطوعات تبدو فيها الروح الصوفية تنعود إليها فى حديثنا عن
التصوف ويلقنا أبو العباس الشريف السبتي المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة وقوله فى ثقته بربه^(٢) :

وثقت بالله رضى وحسبى الله حسنى
والله كافٍ وواقٍ دانع كل خطب
ولست أخشى إذا ما وثقت بالله رضى
بلغت فيها مرادى مهنا مع صحنى

(٢) الروانى ٤٨٤/٢ .

(١) الروانى ٥٠٦/٢ .

وهو يقول إنه وثق بالله ربه ، وحسه هذه الثقة فليس فوقها ولا بعدها ثقة والله كافيني وحاميي وواقيني ودافع عني كل خطب وكل بلاء أتعرض له ، ولذا لا أخشى أحدا ولا أخشى شيئا ، فقد وثقت بالله ثقة لا حد لها ، ثقة بلغت فيها كل مرادى وكل ما أؤمله في حياتي ، مما يحق لي أن أعتاب بها مع صحبي الذين يتقون في ربهم . وتلفتي بلأى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن بجيش المتوفى سنة ٩٢٠ للهجرة ، وله في معارضة قصيدة ابن النحوى المذكور فى تونس^(١) :

اشتدّى أزمه تنفّجى قد أبدل ضيقك بالفرج
مهما اشتدت بك نازلة فاصبر فقصى التنفّج يجى
مولاك ارغب فإجابته للمضطرين على درج
وألمح عليه بمألية فهو الجواد فكلّ وهج
أخلص فيما تدعوه وتلّ يسرّ عسرى وأزل حرجى
لا حيلة لي لا قسوة لي إلا بك بما عصى المهج

وهو مؤمل فى رأيه ولا يأس أبدا ، ولذلك يقول أيتها الأزمة المارة بى اشتدّى ومهما اشتدّت فلا بد من الفرج وانعسارك عني ، ويتجه إلى قارته ، فمهما اشتد بك خطب أو حادثة فادحة فلتصبر فقصى الفرج يأتيك سريعا . واقصد مولاك بالسؤال أن يلفظ بك فإجابته للمضطرين قرية المثال ، ولتدعه وتلح عليه فى الدعاء ، إذ هو الكريم الذى لا حد لكرمه ، فسأله وكرر السؤال ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وأخلص فى دعائك والزلفى إليه ، وقل رب يسرّ عسرى وأزل ما أنا فيه من حرج وضيق واكشف غمى ، إنه لا حيلة لي ولا قدرة إلا بك يا محيى المهج والأرواح ومغيث المضطرين المكروبين . ويقول أحمد دادوش مناجيا ربه^(٢) :

نسرّ العيب تغفر الذنب تعطى تمنع العبد ، كلّ حكمك عدل
تجبر الكسر تبدل العسر يسرا تكشف الضرّ كلّ ذلك بذل
لم تزل محسنا غنيا كريما أنت هو الخالق المعزّ المدلّ
فقراء وأغبياء على الباء ب وقوف لهم خضوع وذلّ

وهو يذكر الله صفاته الربانية ، فهو يسرّ العيب ويغفر الذنب ويعطى من غير حساب ويمنع لا رادّ له ، وكلّ أماله عدل مطلق ، إنه يجبر الكسر الذى لا يمكن جبره ، ويدلّ العسر يسرا ويكشف الضر ، وكلّ ذلك كرم ليس وراءه كرم ، وسبحانك ما أعظم شأنك لم

(٢) الوافى ٨٣٥/٣ .

(١) الوافى ٦٠٥/٢ .

تزل محسنا لعبادك غنيا جوادا ، فأنت الخالق المزمز المذل ، وقد عم امتناك وعمت عطائك كل الخلق ، وها هم فقراء وأغنياء يقفون بيلك خاضعين . ولأحد بن عبد العزيز الماللى فى المصر العلوى الترفى سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م هذا الدعاء^(١) :

لك الحمد كل الحمد يا راحم الضعف
لك الحمد ثم الشكر دون نهاية
إليك مددنا الكف كما تبذلنا
نفاع ودافع وإحم يارب وأكفنا
وأبق علينا السر فى كل حالة
وأعظم وأعز - يا عزيز - جنابنا
وزدنا من الخيرات فوق مرامنا .
بفضلك - يا مولى - تعالى عن الكيف

وهو يضرع إلى ربه قائلا لك الحمد يا راحم الضعفاء وبها دائم الإحسان وما يطوى فيه من الرفق واللفظ ، لك الحمد والشكر الذى لا نهاية له على نعم أسبغتها على ، وهى تجل عن أن تعد أو توصف ، وإليك مددنا الكف داعين كى تعطينا ما نأمل يا مالك الإعطاء والمنع فامتحنا العافية وادفع عنا كل بلاء واحمنا منه يارب واحفظنا من كل ما نخشى وأدم علينا السر فى الدنيا والآخرة ، وأعظم وأعز حملا وحطنا برعايتك من الخذلان والضييم والخسف وزدنا من طيبات الرزق فوق ما نريد بفضلك يا مولانا يا من تعاليت عن كل كيف وكل شبه بالمخلوقات . وأشعار الزهاد فى المغرب الأقصى طوال عصوره لا تكاد تحصى .

(ب) شعراء التصوف

التصوف - فى حقيقته - مبالغة فى الزهد والنسك وعبادة الله ، ولذلك يعد كل ما ذكرناه من شعر الزهد مقدمة للتصوف ، فالتصوف من بالغ فى زهده وأخذ بركنين أساسيين من أركان التصوف وهما التوكل على الله والثقة فيه توكلنا وثقة لا حد لهما حتى ليهمل أمر معاشه وكسب قوته . ومن قديم أو بعبارة أدق منذ القرن الرابع أخذت تشيع فيه طريقتان : طريقة فلسفية يتعمق الصوفى بها فى الحب الإلهى حتى ليفنى فيه شاعرا بضرب من الاتحاد مع سيد المخلوقات على نحو ما هو معروف عن الحلاج فى القرن الرابع الهجرى ثم من تابعه أمثال ابن عربى . ومن حين إلى حين يلتقنا بعض هؤلاء الصوفية المتفلسفين على نحو ما أوضحنا ذلك فى الجزء الخاص بالأندلس ، وكان كثيرون من أصحاب هذا المنزع الأندلسيين ينزلون فى المغرب ، وهو ما هيا لظهور أمثال نبي مدين . غير أن هؤلاء فى رأى كانوا شذوذا على الطريقة السنية

(١) النبوغ المغربى ٣/٣٠٨ .

التي اعتنقها صوفية المغرب الأقصى ، إذ شاعت فيه منذ القرن السابع الهجري الطريقة السنية الصوفية المعروفة لأبي الحسن الشاذلي . ونحن نجد مقدمات هذا التصوف السني القائم على محبة الله دون فناء فيها مع التوكل والثقة فيه المفرطين على ألسنة كثيرين من الشعراء . ولعل ذلك ما جعل ابن الزيات يتوسع في كتابه « التثوف لمعرفة أهل التصوف » فيسلك فيه صلحاء المغرب وزهاده من العلماء والفقهاء الورعين ناظما لهم بين من سماهم أهل التصوف . وكانت كثرة الوعظ في المساجد لأيام الجمع وغير أيام الجمع من أهم العوامل - كما أسلفنا - في ازدهار الزهد ونزعة التصوف السني في المغرب ، ولذلك كثر في كتب التراجم نعت كثيرين بأنهم صوفية ونضرب مثلا للوعاظ بابن الحجام محمد بن أحمد اللخمي المكناسي وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشي : « كان فاضلا صالحا زاهدا ذا حظ من الأدب وقرض الشعر مال إلى طريقة الوعظ والتذكير فرأس فيه أهل عصره بحسن الصوت وغزارة الحفظ وإتقان الإيراد والصدق والإخلاص في وصاياه وتذكيره ، فنفع الله به خلقا كثيرا في بلاد شتى .. وله كتاب حفيظ في الوعظ سماه حجة الحافظين ومحجة الواعظين في مجلدين ضخمين ، وله يصف نفسه ومحبه لربه التي تعد أس التصوف وجوهه^(١) :

غريب الوصف ذو علم غريب	عليل القلب من حب الحبيب
إذا ما الليل أظلم قام يكي	ويشكو ما يكين من الوجيب
يقطع ليله فكرا وذكرًا	وينطق فيه بالمعجب العجيب
به من حب سيده غرام	يجل عن التطبب والطبيب
ومن يك هكذا عبدا محبا	يطيب ترابه من غير طيب ^(٢)

وهو يقول إن وصفه وعلمه في حبه لربه غريب ، ويشكو في حبه من علة قلبه كما يشكو المحبون ، ويقول إنه يظل طوال الليل قائما يكي ويشكو من شدة حبه ولحيه ، وأنه لا يزال طوال ليله يفكر ويذكر ربه ، ويقول إن غرامه بربه لا ينفع فيه تطيب ولا طيب ، كما يقول إن من يحب ربه هذا الحب المفرط يطيب مكانه في حياته وفي قبره من غير طيب . ووعظ بإشيلية في الأندلس ، ويذكر بعض مستمعيه هناك أنه كان من استحكام تأثيره في الناس وتفعل القلوب لتذكيره بمقام نكل العبارة عن وصفه ، ويقول : شاهدته في إشيلية ، وقد ندب الناس إلى ابتكالك أسارى لدى النصارى ، فسارع الناس إلى بذل ما حضروهم ، وخلع كثيرون بعض ما كان عليهم من الثياب ، فمهدي بها قد تراكت أمام منبره حتى كادت تحجبه عن الأبصار ، سوى ما وعد به من الحاضرين ، وتجمع من أئمان تلك الثياب مال جسيم .

ولو قال ، « تطب أثوابه » أو ما هو على وزنه لتفادى هذا الخطأ .

(١) النيل والفكسة ٢٦٧/١/٨ وما بعدها .

(٢) لاحظ ابن عبد الملك أن فعل المشرط في البيت

« بك » مجزوما وجوبه « يطيب » مرفوعا

ويعقوب المنصور الموحدى المتوفى سنة ٥٩٥ للهجرة هو الذى جلبه إلى أهل حاضرتہ مراکش ليستمعوا إلى وعظه ، وظل هو وخلفاؤه يوالونه بعطاياهم الجزيلة ، ولم يكن يدخر منها شيئا إذ كان ينفقها على الفقراء والمحتاجين وفى تجهيز الفقيرات إلى أزواجهن حتى وفاته بمراكش سنة ٦١٤ للهجرة . وإنما استطردت فى الحديث عنه لأوضح سيرة واعظ زاهد بل صوفى مبكر من صوفية المغرب الأقصى ومدى إخلاصه فى وعظه وزهده وتصوفه . وكان الوعاظ من حوله كثيرين فى كل بلد مغربى . وتلقى فى أواخر عصر الموحدين بصوفى كبير هو ابن المحلى وسنخضه بترجمة مفردة . ومرت بنا فى الزهد حديث عن عبد الحق بن إسماعيل فى العصر المربى وكتبه - المار ذكره - عن صلحاء الريف الشمالى وترجمته فيه لسنة وأربعين من صلحاتهم ويصفهم بأنهم أولياء وكله يمدحهم جميعا من المتصوفة ، وعادة يتبع الترجمة بآيات من إنشائه وقد استشهدنا فى الزهد بمثال منها ، وكثرتها تعمها الروح الصوفية على نحو ما يبدو من المقطوعات التى اقتبسها منه الأستاذ محمد بن تاوريت فى كتابه الوافى^(١) ، من ذلك قوله من قصيدة فى ترجمة أبى القاسم بن الصيان الفاسى :

الأنس بالله العظيم وذكره مما يزيد أولى التقى إيمانا
من كان نور الحق أيده غدا ولهان من شغب به هيما
سر الحقيقة لا يفوز بنيله غير امرئ مستزل كمتا
لا يحرز الفضل المين سوى الذى ملك العلوم مطهرا جمتا

وهو يقول إن الأس بالله والخلاوة به وتسيبته وذكره مما يزيد التيقن إيمانا برهم ، ويصف الصوفى الذى يزيد نور الحق جل جلاله فثمة يصبح به شغوفا ولهان هائما ، غير أن ذلك إنما يفوز به وبسر الحقيقة فيه من يكتمه مخافة أن يعلن حبه لربه للناس ، وما شأنهم ؟ فيضيق منه ما حباه به . ويقول إنه لا يحرز هذا الفضل الصوفى إلا العالم الطاهر التقي الورع . وينعت المتصوفة ويعرف بهم فى قوله بترجمة محمد اليستنى البيطوى :

علم اليقين أنالهم ما أملاوا فذروا به عين اليقين وحقه
سلبوا فغلبوا عن وجود نفوسهم فوجودهم محو يلازم محقه
لم يعرفوا هجرا ولا وصلا ولا معنى بين قربه أو سخره
وكنما أسرارهم بقلوبهم در مصون لا يفارق حقه

ويقول إن الصوفية هم الصفوة التى منحها الله علم اليقين ، فعرفته حق المعرفة ، وبذكر أنهم سلبوا الشعور بالحواس من حواسهم ، فغلبوا حتى عن الشعور بوجودهم ، وكنما

وجودهم لمحمى لسمحاء تاما ، فلم يمدوا يشعرون بشيء سوى ربهم الذى استغرقهم وفنوا
فى جلاله ، وهم بذلك محبون حباً من نوع خاص حبا إلهيا ، لا هجر فيه ولا وصل ولا شيء
سوى النعيم بالفناء فى الذات العلية ، وهم لا يذيعون أسرار هذا الفناء ولا ذلك الحب إذ
يكتمونها فى حفاق صدورهم وقلوبهم . ويصفهم مرة أخرى فى ترجمة لإبراهيم بن صالح من
وجوه الزمعة منشدا :

أهل الحقيقة إن نظرت وجدتهم متربلين بكل فضل باهر
قهروا نفوسهم ففازوا بالمتى من جود رب ذى جلال قاهر
وتجوهروا بلطائف فكلفت تيجانهم بزرجد وجواهر

فهم أهل الحقيقة الربانية إن تأملتهم وعرضتهم حق المعرفة وجدتهم مزدتين بمحلل من كل
فضل باهر ، وقد استطاعوا أن يقهروا نفوسهم ويردعوها عن كل متاع دنيوى ففازوا بأمتيهم
من عطايا رب جواد ذى جلال وإكرام لا حد له ، وكثما بث فيهم ما جعلهم يستحيلون
جواهر متألفة ، بل كثما نظم على تيجانهم الصوفية الإلهية روائع الزبرجد والدرر النفيسة .
وينعت أحدهم بحسن توكله على ربه ، وهو مبدأ أساسى فى التصوف قائلا :

حسن التوكل فى القفار أماله حالاً بها قد سره ما ناله
جعل الآلة له سيلا فى الفلا سببا فحقق فى الخلاص مثاله

فهو قد أحسن التوكل على ربه ، فرزقه فى القفر بما سد رمقه وسره فى حياته الإلهية ،
وحقق له الخلاص من الدنيا وترهاتها . ويدور الزمن دورات وتلتقى بلبن جليز محمد بن يحيى
المتوفى سنة ٨٢٧ للهجرة وكان له نزوع نحو الزهد والتصوف ، ومن قوله (١) :

نظرت إلى الوجود بعين قلبى فلم أر فيه غير الله وحده
فثق بالله وأرج الله واعمل للقاء الله تأمن كل شدة

وقد يظن من البيت الأول أنه ممن يؤمنون بالحلول وأن الذات الإلهية تحمل فى كل مظاهر
الوجود ، لذلك لا يرى فيه سواه ، ويطلب إلى مخاطبه أن يكون دائما وثاقا فى الله لا يروج
ولا يأمل فى أحد سواه ، ويعمل لآخرته حتى يأمن عذابه ويدخل جناته ، وله فى التوكل على
الله حق التوكل :

على قدر نيّة أهل التوكل لى يعطيهم الله منه المعونة
فإن صحح العبد إيقانه كفاه المهيمن هم المشوكة

وهو يقول : بمقدار توكل العبد على ربه يمنحه العون والرعاية ، وإن صحح بيقينه وأخلص

(١) انظر فى هذه المقطوعة وتلبيتها كتاب المتوفى لابن القاضى ٤٠٥/١ .

فى توكله عليه كفاه هم العيش ، إذ هو المهيمن على كل عيش وكل شيء . ويقول عمر الفاسى للتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة^(١) .

الْجَأُ إِلَى اللَّهِ فِى أَمْرِ تَحَاوُلُهُ وَلَبَرًا إِلَى اللَّهِ مِنْ حَوَالٍ وَمِنْ حَيْلٍ
وَكُلُّ إِلَى اللَّهِ كُلُّ الْأَمْرِ وَاعْنَبَ بِهِ عَنْ سِوَاهُ فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ وَلَى

وهو يدعو قارئه إلى اللجوء لله فى كل أمر يحاوله ويرأى إليه من كل قوة وكل حيلة ، ويتكل عليه اتكالا صادقا مخلصا فى كل أمر ، وليكف به عن سواه ، فإنه خير المعين على تحقيق الآمال ، وهو فى ذلك يصدر عن مبدأ التوكل الصوفى . ونرى عمدا بن عبد السلام بن ناصر الرحالة يصدر عن مبدأ الثقة فى الله الصوفى بمقطوعة فى أحد عشر بيتا ختمها جميعا بلفظ الجلالة ، وفيها يقول^(٢) :

لَهُ فِى الْخَلْقِ مَا اخْتَارَتْ مَشِئَتُهُ مَا الْخَيْرُ إِلَّا الَّذِى يَخْصَاهُ اللَّهُ
إِذَا قَضَى اللَّهُ فَاسْتَسْلِمَ لِقُدْرَتِهِ مَا لَامِرٌ بِوَحِيلَةٍ فِيمَا قَضَى اللَّهُ
تَجْرِى الْأُمُورُ بِأَسْبَابٍ لَهَا عِلَلٌ تَجْرِى الْأُمُورُ عَلَى مَا قَدَّرَ اللَّهُ
إِذَا بَلَّغْتَ يَتَقَ بِاللَّهِ وَارْضَ بِهِ إِنْ الَّذِى يَكْشِفُ الْبَلَاءَ هُوَ اللَّهُ
إِنْ الْأُمُورُ إِذَا ضَاقَتْ لَهَا فَرْجٌ كَمْ مِنْ أَمْرِ شَدِيدٍ فَرَجَ اللَّهُ
اللَّهُ لى عُذَّةٍ فِى كُلِّ نَائِبَةٍ أَقُولُ فِى كُلِّ حَالٍ خَسْبَى اللَّهُ

فهو يسلم أمره لربه مؤمنا بأن الخير ما اختارته المشيئة الإلهية له ، ويقول إنه ينبغي الاستسلام لقضاء الله ، فليس لشخص حيلة فيما قضى الله وقدره على عبده ، ويذكر أن الأمور تجري بأسباب ولها علل قد تغيب معرضها عن الإنسان فيما قدر له ، وينصح المرء إذا نزل به بلاء أن يتق فى الله ويرضى به ، فإنه هو الذى يكشف غمة البلوى عنه ، ولا يئس أبدا فإن الأمور مهما ضاقت ومهما اشتدت لا بد أن يزعجها من لدن الله فرج ، ويقول إنه يتخذ الله عدة له فى كل نائبة وكل كارثة معلنا دائما فى صدق وإخلاص أن الله حسيبه . ونقف قليلا لتحدث عن صوفى مبكر فى عصر الموحدين هو ابن المحلى .

ابن^(٣) المحلى

هو محمد بن حسن بن عمر الفهرى ، من أهل سبته ، كان نبوه قوالاً يفتنى فى المحافل والأسواق - والمتلبس بذلك يعرف فى المغرب بالمحلى - وقد ولد له عمدا سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م ونشأ نشأة أدبية وعلمية ممتازة أصبح بها من كبار أساتذة سبته ، وكان أدبيا بليغا ناظما وناثرا ، فقيها عاقدا للشروط نحويا ماهرا برع فى الأدب ودرسه للطلاب عمره مع الفقه ومسائل

(٣) راجع فى ترجمة ابن المحلى وشرحه الصوفى كتاب

صلة الصلة لابن الزبير ، كتاب اللذيل والتكملة

٢٨٩/١/٨ والوفى ٣٤٩/١ .

(١) الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية

للككتور محمد الأخضر ص ٣١٠ .

(٢) نظرد . محمد الأخضر ص ٣٧١ .

الشریعة ، وكان حسن القيام على تفسیر القرآن مذكرا ، وعقد له حلقات مدة فانتفع به خلق كثير ، وكان واعظا ولوعظه تأثير كبير فى سامعيه . وظل يهذب الناس طويلا بمسجد مقبرة زقلو فى سنة ، وولى القضاء بها سنة ١٢٥٤هـ/١٢٥٧م وظل يلبه محمود السيرة مشهورا بالعدل إلى نهاية عمره سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٣ م . وكان شاعرا ، وتمعت الثرعة الصوفية ، وله فيها غير قصيدة ، من ذلك قوله فى إحدى قصائده :

[هل يرحب] العشق قلباً أنت مطلبه أو يذهب الشوق روحاً أنت مذهبه
وكيف يرجو وصلاً من تبعده أو كيف يخشى البعد من تقربه
يا مَنْ أُنْجِبه والأشواق توهمنى نيل الوصال كأنَّ الشوق يوجه
كم طيبة لك بالألطاف توجدها عند الالتقا وضائى فيك أطيبه
ومنة الجود تُدنيه فتُؤنسه وخشية الرد تُقصيه فتُخجبه
نأى أنت وحسى أن تكون منى يا ولعبا رغبائى قبل أرغبه
كُنْ كيف شئت فما لى عنك منصرف فالمد ليس سوى مولاه مطلبه

وهو يقول إن حبه للذات العلية لن يرحب فؤاده لأنه مطلب قلبه وأمنته . ولن يذهب الشوق روحاً ، الله مذهبه وعقيدته . فحبه لربه لن يفارقه أبداً ، ويوجه إليه مخاطباً كيف يرجو للوصل من تبعده ، بل كيف يخشى البعد من تقربه . ويقول إنه ينجيه ، وتوهمه أشواقه أنه سينيله الوصال كأن مجرد الشوق يوجهه ، ويعترف بأنه يثر عليه كثيرا من الأشياء الطيبة ، ويقول إن أطيّب ما تفضل به ربه عليه فأنزه فيه ، فهو يفتنى بحبه فى الذات الإلهية ، ودائما تقرّبه من ربه منحة الجود ، فيشعر بأنس لا حد له ، وفى الوقت نفسه يخشى الرد وأن يقصيه فيحجبه عنه ، ويقول إن ربه مناه وحسبه أن يكون أمنته أو مطلبه . ويذكر أن الله دائما يحقق له رغباته حتى قبل أن يفكر فيها ، ويقول سواء قبله أو رفضه فليس له منصرف عنه ، إذ هو عبده الذى يطلب القرب من مولاه دائما أبداً . ويقول فى قصيدة أخرى :

فؤادى منقادٌ إليكم مذللٌ ومالى - إذا لجّ العذول - جِماحٌ
وهل من سبيلٍ أن أطيّر إليكم وقد حصّ بى ريشٌ وقصّ جناح^(١)
وأوحشتمُ فالكلُّ فى الأذن نائحٌ لدى وأفاق الوجود فساح
عُزِيتُ عن الشكوى إليكم مهابةً وألسنُ حالى بالفسرام فصاح
وبما عجباً قسى أسيرٌ وقنسى فاشدكم أن لا يُباح سراح
إذا هنرُ أربابِ السماع تواجدٌ فحظيَ منه زفرةٌ وصياح
وها أنا عند الباب مُنوا أو اطرودا فما لى عنه - كيف كان - براحٌ

(١) حصّ : خلق وتنف .

وهو يقول إن فؤاده منقاد إلى ربه مذلّل لحيه ، وليس له - إذا لجّ العذول اللائم - جماح عنه ولا انفكاك منه ، بل إنه ليمنى أن يطير طيرنا إلى الذات العلية غير أن ريشه حصّ وجناحه قصّ ، يمكن بذلك عن قته مقصر في نسكه ، ويقول إنه طال نأى الله عنه وينوح ويسمع نواح الكون وصياحه من كل جانب مشاركة له في وجده وما يجد في غلمه بهر . ويذكر قته خرس عن الشكوى لمحبه مهله وحياء ، وهو يذوب حبا وغرما ، ويصحب قته أسير ، ويتأشد ربه أن لا يسهّره ولا يرد إليه حرته ، بل يظل في أسره . ويذكر قته حين يهز أرباب السماع للشعر الصوفي تواجد ، فإنه يظل من بينهم يرسل الزفرات والصيحات هاتما بحب ربه ، ويقول إننى سأظل واقفا بعتبة الباب سواء من الله عليه بالقبول أو حرمة وطرده ، ولن يرحها أبدا ، ومن قوله في إحدى قصائده :

غرامى دَعَتى والعذولُ نهلتى	فوجدتُ وعذلتُ كيف يجتمعان
أما علما نمتى على الشنط والنوى	مقيمتُ ولتى والموى أخوان
يقولان لى : من ذا دعاك لما نرى ؟	فقلت دعلتى حبه فدعلتى
أغلل نفسى بالسلو تعللا	وتلك أمان ما بهن أمانى
إذا خفق البرق اليملى بأنفكم	أقبل ذاك الخفق بالخفقان
رعى الله جيران العذيب وأهله	وإن أترعننى من هوى وهوان
لئن حجبوا عن ناظرى فكأنهم	لقبى براهيم فيه رأى عيان

وهو يقول إن غرامه بحب الذات العلية يدعوه للاستفراق فيه ، بينما يلومنى عذول ، والعذول والوجد أو الهيام لا يجتمعان ، ويقول إنه ملازم للحب فى النأى والبعد ، وإنه والموى أخوان فكيف يظن أحد أنهما سيفترقان ، ويقول له صاحبه : ما الذى دعاك لما نرى ؟ فأجلبهم دعلتى حبه ودعلتى أو أتركتنى ، ويذكر قته يعطل نفسه أحيانا بالسلو ، ولكن أتى له . ويتحدث كشاعر عنرى فيقول إنى إذا خفق البرق اليملى بأنفكم خفق قلبى معه ، ويدعو لجيران العذيب فى نجد وأهله أن يرعاهم الله وإن ملأوه من شراب الموى والموان ما ملأوه ، ويقول لهم إن غلبوا عن ناظرى فإن قلبى براهيم متجسدين فيه رأى عيان . ويستمر منشدا :

أورى بسلّم والعذيب وحاجر	وتلك مغان ما لمن معلى
وأذكر سكان العذيب تسترا	وما ذكر سكان العذيب بشلى
ولكن بقلبى من هو الحب كله	ومن ذكره فى خاطرى ولسلى
حبيب إذا لاحظت لم أر غيره	على قته إذ لا أراه يرمى
وبين فضله وجدى به وتولمى	ومن جوده ما أشتكى وأعلى
وطرأت على حى له وكفما	يرمى لمعنى الحب حين يرمى

وهو يقول إن مثله مثل شعراء الصوفية يذكر أماكن المحبوبات التي يذكرها أصحاب الغزل العذرى ، وهى فى واقع الأمر منازل وأماكن ليس لها معنى عند الصوفية إلا معنى التواجد والشوق للمحبوب ، ويقول إنه إنما يذكر سكان العذيب تسرا وتواجدا وليس ذكرهم من شأنه ، وإنما هو إعلان لحبه وهيامه بهه ، وإنه ليحل هواه فى قلبه حتى ليصبح هو الحب كله ، وإنه ليذكره دائما فى خاطره وعلى لسانه ، وإنه لحبيب لا أرى غيره فى الوجود إذا نظرت من حولى ، ومع أنى لا أراه يراقى ، ومن فضله على هيامى به وتوكلى ، ومن كرمه ما أشكى منه فى حبه وأعانى . ويشعر فى هيامه كأنما يطير إلى ربه طيارنا ، وكأنه يراه أو خلقه ربه لحبه ، وهو حب صوفى سنى وليس فيه أى أثر للزعة الفلسفية عند المتصوفة .

٥

شعراء الملائح النبوية

يشغف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بسيرة رسول الله ﷺ ، ومنذ أرسل وبعث وهو مهوى أفئدتهم ، يمدحونه ويتخون بمحبته ومناقبه ومعجزاته ، ويتوسلون به إلى ربهم ويتشفعون مؤمنين بأنه المثل الكامل فى الورع والنسك والعمل بتعاليم رسالته . وإذا كان قد تغنى بمدحهم أفراد فى حياته ، فإن الأقاليم الإسلامية تغنت به وبسيرته وبشمالته فى كل بلد وكل عصر . والمغرب الأقصى مثله مثل الأقاليم العربية جميعا أكثر من التغنى بمدحهم ورسالته منذ عصر المرابطين الذى أخذ فيه الشعر المغربى يزدهر ويتكاثر ويشترك فيه كثيرون ، على نحو ما يلقانا فى أرجوزة تشتمل على نحو سبعة آلاف بيت لمحمد بن عيسى بن المناصف القرطبى الأصل المتوفى بمراكش سنة ٦٢٠ . ومن أوائل من نجله شغفا بالسيرة النبوية الكريمة وبفضائل رسول الله القاضى عياض وكتابه «الشفاء» فى السيرة النبوية العطرة مشهور . وله فى زيارة الرسول ﷺ :^(١)

قف بالركاب فهذا الربع والدار	لاحت علينا من الأحباب أنوار
بشراك قد لاحت قبيلهم	فنزول فقد نلت ما تهوى وتختار
هذا النبى الحجازى الذى شهدت	له بتقديمه رسل وأنبار
هذا الشفيح الذى ترجى شفاعته	للمذنبين إذا ما اسودت النار
بادر وسلم على أنوار روضته	قبل الممات ولا تشغلك أعداء
يا خيرة الرسل يا أعلى الورى شرقا	قد أفتتني آتاكم وأوزار
فكن شفيعى لما قدمت من زلل	ومن خطايا فإن الرب غفار

وهو يستوقف الركب أو القافلة فقد وصلوا إلى دار المصطفى ﷺ ولاحت أنوار من قبله

(١) الرانى ٥٦/١ .

عليهم ، ويقول لنفسه بشارك فقد لاحت قباب الضريح النبوى ومسجده ، وينبئ أن نزل من فوق بعيرى ، فقد نلت ما أهوى وأوتر ، فهذا النبى المجازى الذى نهفو إليه القلوب والذى بشرت به الرسل وأخبار الكعب السماوية ، وهو الشفيخ للمؤمنين من أمته حين تأجج نار الجحيم وتقول هل من مزيد . ويقول لكل مسلم : بادر وسلم على أنوار روضته التى قال فيها النبى ﷺ : ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، وينبئ أن يزورها ويكمل بقوارها قبل مماته ، ولا تشغله عن الزيارة القدسية أعذار . ويتجه بالخطاب إلى الرسول : يا خيرة الرسل وصفوتهم وأسمى الورى شرفاً أثقلتني آثام وأوزار كثيرة ، فكن شفيعي لما قدمت من عثرات وخطيئات عند ربى ، وإله للغفار العظيم . ومن توسلات القاضى عياض الطريفة قوله متوسلاً بالرسول الكريم^(١) :

إليك مددت الكف أستمطر الفضلا	وأنتكشف البلوى وأستعطف الطولا
دعوتك مضطراً فعبّلت إجابتي	بتفريع كَرْب طالما واصل الموّلا
وأنت ملاذى يا مرادى وسيدى	فساغ مسيئاً قد جئني الجِدُّ والهزلا
نداء من الأعماق يا فائق النوى	ويا سامع النجوى ويا مَنْ هو الأعلى
يتيم من الطاعات عفوك يرنجى	قَبِّ الفقر والإفلاس والفقد والذلّ
بجاء رسول الله فارحمت نضرعى	ونفس مومى كلها الفرغ والأصلا
لجأت إلى باب الكريم لغافتي	فليس لنا مَغْنٍ سواه ولا مَوْلى
وصلّ على قطب الوجود عمّدي	صلاة نعم الرُّسل والصَّحْب والأهلا

وهو يتوسل ضارعا إلى الرسول الكريم قائلا : إليك مددت كفى أستمطر وأستنزل الفضل طالبا كشف ما نزل بي من البلوى مستعطفًا التفضل الكريم ، ويقول قد دعوتك مضطرا فأجبت دعائى عاجلا بتفريع كرب طالما شقيت به وبلغ بي هولا ما مثله هول ، وأنت يا سيدى رسول الله ملاذى وملجئ ومقصدى ، فسامعنى : سامع مسيئاً طالما تجئنى فى جده وهزله . ويستغيث بربه قائلا : إله نداء من أعماق الأعماق فى نفسى يا فائق الحب عن النبات والنوى عن النخيل وسامع النجوى الخفية يا ربي الأعلى إبنى يتيم من الطاعات ، والذنوب تنقل ظهري ، فارحم نضرعى تجاه رسول الله ، وفرّجْ مومى جميعا الفرغ منها والأصل وقد لجأت إلى بابك أيتها الكريم لغافتي وإليك وحدك المغنى وليس لنا مولى سواك . رُبِّ صلّ على قطب الوجود ومداره وسيداه صلاة نعم الرسل وصحبه وآله .

ونمضى إلى عصر الموحدين وتلقى بيمون بن علي الصنهاجى الفاسى المشهور باسم
 ميمون بن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر الشهير بلبن خبازة ، للملازمة إياه وله مدحة نبوية
 طويلة . وسترجم له عما قليل . وتدخل فى عصر المرينيين ويلقنا فى أوائله مالك بن المرحل
 ومدائحه النبوية ومنصحه بترجمة ، وتلقى بلوى العباس العزفى المتوفى سنة ٦٣٣ من أهل
 سبتة الذى أنشأ فى بلدته - وباتالى فى المغرب الأنصى - الاحتفال بالمولد النبوى وكان قد
 سبقه إلى ذلك أبو سعيد كوكبورى صاحب مدينة إربل . وأكبر الظن أن الذى أملهما ذلك
 احتفال المسيحيين بميلاد عيسى فى الحروب الصليبية بالشرق واحتفال المسيحيين به فى
 الأندلس . واستر أبو العباس العزفى أن ينشد الشعراء فيه مدائحهم النبوية وتسمى الميلاديات ،
 وكان لمالك بن المرحل غير ميلادية أنشدها فى احتفال بلوى العباس العزفى . وتعنى الدولة
 المرينية - طوال القرن الثامن - بهذا الاحتفال ، إذ يقول الحسن الوزان فى كتابه : وصف
 إفريقيا : « كان من عادة الحاكم فى أزهى أيام الدولة المرينية أن يحتفل بالمولد النبوى فيدعو إلى
 قصره العلماء وأهل الأدب فى مدينته : فاس ، وكان الشعراء المجلون يلقون فى هذه المناسبة
 قصائدهم بحضور الحاكم ، وكان المنشدون يقفون فوق مصطبة عالية . وفى نهاية الحفل استنادا
 إلى حكم أشخاص من ذوى الخبرة كان الملك المرينى يمنح لأكثر الشعراء نبوغا وتفوقا مائة
 دينار وحصانا وجارية وكسوة ، ويعطى كل شاعر من الشعراء الآخرين خمسين دينارا فينصرف
 الجميع وقد حصل كل منهم على جائزته أو مكافأته » . ويقول الوزان تمة لذلك إنه كان ينادى
 فى أيامه أوائل القرن العاشر الهجرى على الشاعر الذى ترى لجنة التحكيم أنه الأفضل شعرا
 بأنه أمير الشعراء لذلك العام^(١) . ولا ريب فى أن هذا الصنيع كان يحدث تنافسا حميدا بين
 شعراء فاس عاصمة المرينيين . ويشير الأستاذ ابن تاروت إلى مدحة نبوية للرحالة العبدورى فى
 أواخر القرن السابع الهجرى وميلادية لمحمد بن يحيى العزفى أنشدها فى احتفال لأبى سالم
 المرينى ، ويذكر لعبد الرحمن المكودى المتوفى سنة ٨٠٧ للهجرة مقصورة ويأخذ فى تحليلها .
 وفن المقصورات قديم بداه ابن دريد بمقصورة فى مديح أمير سامتى ملأها باللفظ الغريب
 واختار لها وزن الرجز . ونظم حازم القرطاجنى مقصورة فى مديح لى زكريا الحفصى .. غير
 أن المكودى أول مغربى نظم مقصورة من الرجز فى مديح للمصطفى وضمنها طائفة من الألفاظ
 الغريبة ، ووصف فى مطالعها الرحلة إلى الحجاز وألم بذكريات شبيهة فى موطنه وضمنها كثيرا
 من الحكم ومن الحديث عن غزوات الرسول وعن مصير بعض الدول الإسلامية والدول التى
 أдал الله منها للإسلام مثل دولتى الأكاسرة والقيصرية وعرج على بعض الدول العربية البائدة
 القديمة ، ومن قوله فى مديح الرسول ﷺ :

(١) وصف إفريقيا (طبع السعودية) ص ٢٦٣ .

وليس دُخْرِي غير مدح أحمد
وأصبح الدين القويم قِيَمًا
وكم له من آية يَبِّغُ
ومعجزاتٍ مثل إشراق الضحى
سَيِّدِ أهل الأرض طُرًّا والسُّمَّا
سما على الأديان طُرًّا وعلا

ويطلب على المفصورة السرد مما يفقدها فى كثير من جوانبها الجمال الشعرى . وكما مدح
الرسول فى العصر المربى بالمدائح الشعرية مدح بالموشحات ، ومن أطرفها موشحة ابن سبيد
المكناسى المذكورة فى الحديث عن الموشحات ص ٣٨٣ .

وتعنى الدولة السعدية باحتفالات المولد النبوى وخاصة حاكمها المنصور الذهبى ، وتكثر
فيها المدائح النبوية المسماة بالملاديات ، وعادة يستطرد الشاعر فيها إلى مدح الحاكم ، ويقول
المقرى فى كتابه : « روضة الآس » : « ما قيل فى الموالد النبوية التى احتفل لها هذا الخليفة
المنصور لا يمكن حصره » ثم يذكر أنه كانت تصنع شموع أعظم من الأسطوانات يطاف بها
فى فارس ، حتى إذا وصلوا إلى قصر الخليفة أدخلوها فى ساحة كبيرة متخذين لها آلات عظيمة
من النحاس المحكم الصنعة فتوضع فوقها وترى صاعدة فى السماء كالنارة ، وبحشر الناس إلى
ذلك ، ويُذغى النشيدون للأشعار وتشر عليهم الفضة ، ويأمر لكل شخص منهم بكسوة وجوائز
قد تبلغ الآلاف^(١) . ويضيف عبد العزيز الفتشالى فى كتابه مآهل الصفا إضافات كثيرة فى
هذا الاحتفال الذى كان أشبه بعيد ضخم يمتد طوال الليل ، وكان المنصور يبدأ الاحتفال
الرسمى به بعد صلاة الفجر وقد اصطفت جذوع الشموع أمام قبة قصره منافسة للتخيل والمآذن
فى الضخامة مختلفة الألوان من بيض لؤلؤية وحمى أرجوانية وخضر سندسية ، ويفص السراقد
المنصوب للناس بالشرفاء والقضاة والفقهاء والكتاب والشعراء والقراء وبعد فراغ الواعظ من
فضائل الرسول ﷺ وسرد معجزاته يقدم أهل الذكر والإنشاد ، ثم تتعالى الأصوات بمدائح
الرسول المسماة بالمولديات أو الميلاديات نسبة إلى مولده أو ميلاده الشريف ، ثم يتعمهم أهل
الذكر بالرقين من كلام الشيخ الصوفى الأندلسى أبى الحسن الششتى ، ثم يُنشد الشعر .
والمنبع فى الإنشاد أن يقف بإزاء الشاعر مسمع بنيه الشاعر عنه فى إنشاد قصيدته ، ويعود
الشاعر إلى مكانه . ويذكر الفتشالى الوليمة المهيأة للعيد ، ويقول بعد أيامها توزع صلوات
الشعراء وعليها توقيعات الخليفة المنصور . ويسوق عبد العزيز الفتشالى بعض ما كان ينشد فى
هذا العيد لعهد هذا الخليفة^(٢) . ويكتاب روضة الآس للمقرى نحو عشرين ميلادية لشعراء
مختلفين نُشدت فى هذا العيد أيام المنصور منها خمس لعبد العزيز الفتشالى شاعره وكتابه ،

ص ٢٢١ وما بعدها .

(١) روضة الآس ص ١٣ .

(٢) انظر مآهل الصفا تحقيق الأستاذ ككون

وأهم ميلادياته نونية ، يستهلها باستيقاف ركب متجه إلى الأرض الطيبة : لَرُضَ الْحِجَازِ ،
ويتبنى زورة للرسول الكريم تشفى جفونه الفريجة بنظرة يضرها النور النبوى ويحى روع
مكة والمدينة القدسية التى تلت بها الملائكة أفئتين ذكر وقرآن ، ثم يقول^(١) :

مَحْمَدُ خَيْرُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرَاهَا وَسَيِّدُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجَانِ
وَمَنْ بَشَّرْتُ بِهِ قَبْلَ كَوْنِهِ نَوَامِيسُ كَهَانٍ وَأَخْبَارُ رَهْبَانِ
وَلَنْ كُتِبَ لِلَّهِ أَكْثَرُ آيَةٍ بِهَا اتَّضَحَ الْيَقِينُ وَابْتَسَى الشَّقِيُّ^(٢)
نَبِيُّ الْهَدَى مَنْ أَطْلَعَ الْحَقُّ أَفْجَمًا عَا نَوْرَهَا لَسَدَافُ إِفْكٍ وَبَهْتَانِ^(٣)
لَمَزْتِهِ ذُلُّ الْأَكَاكِرَةِ الْأَلْسَى هُمْ سَلَبُوا نَيْجَتَهُمْ آلَ سَاسَانِ
وَأَحْرَزَ لِلدِّينِ الْخَفِيَّ بِالْظُّبَا تَرَثَ لِلْمُلُوكِ الصِّدِّ مِنْ عَهْدِ يُونَانَ^(٤)

وهو يقول محمد خير العالمين وسيد أهل الأرض من الإنس والجن ، إله صفوة خلق الله
ومن بشرت بآية مبعوث شرائع الكهان وأخبار الرهبان ، فقد كان العالم ينتظره ليفقه مما يحته
من هوان وظلم وضلال . فأرسله الله رحمة وهداية للعالمين ، وللإنس والجن يحمل فى يده
وصدوره معجزته الكبرى : القرآن الكريم الذى لا تماثله معجزة سابقة ولا لاحقة ، وبها اتضح
الكذابين المقترون والهاقدون الشاكون . نبي الهدى الهادى الذى أطلع الله به نور الحق ليمحو
به كل كذب وبهتان . ولمزته ذل الأكاسرة الساستيون والقوا عن يد وهم صاغرون ، وتملك
الدين الحنيف بالظبا والسيوف ترث سادة الملوك الفياصرة من عهد يونان والزمن القديم .
وللتاساوتوى المتوفى سنة ١١٢٧ للهجرة مدحة نبوية فى أربعمئة بيت ، يجعل مقدماتها للمدح
موطنه وتاريخ الإسلام وبعض دوله ، ويخص المدح النبوى بثلاثمئة بيت من ذلك قوله^(٥) :

أَيُّخَاطِبِ الْعَيْدِ الَّذِي لَعِبْتُ بِهِ شَهَوَاتِهِ صَنَرَ الصَّدُورِ الْأَوْحِدِ
نَكُنْ تَحَقُّقُ بِالْأَدْلَكَةِ عِنْدَنَا لَا شَخْصَ أَحْلَمَ فِي الْوَرَى مِنْ أَحِدِ
قُتِ الْمَوْتَلُ فِي الشَّدَائِدِ كُلِّهَا قُتِ الْجَوَادُ الْغِيثُ لِلْمُسْتَرْفِدِ
قُتِ الَّذِي مِنْ أَمِّ يَتَكَ رَاغِبًا وَلَوْ لَقَضَى أَمْرًا عَظِيمًا يَسْعَدِ
قُتِ الَّذِي سَعِدَتْ بِكَ الْأَشْيَاءُ قَا طَبَّةً وَمَنْ يَقْصِدُ سَعِيدًا يَسْقِدِ

وهو يعجب - لكثرة ذنوبه - من جراته على مخاطبة أعظم مخلوق بشرى ، ويعود إلى
نفسه فيقول إنه تحقق لديه بالأدلة أن رسول الله أحلم من على وجه الأرض ، ولذلك قصده
وهو يعلم أنه حليم كريم أملا فى ذرة من حلمه وكرمه ، ويتجه له بالخطاب قائلا : يَكْ

(١) إفك : كذب .

(٢) الصيد : ذرى السلطان .

(٣) الوافى ٧٧٢/٣ .

(٤) شعر عبد العزيز القشتال تحقيق نجاة الربيعى

ص ٤٢٠ وما بعدها .

(٥) المان : الكاذب . الشقيه : اللبض .

المؤمل المرجو في الشدائد والكوارث كلها ، وفيك النيث المدرار الذي يجزل العطاء لمسترفده ومطالب البرمه . ويقول له إن من قصد يتك تنيله ما طلب مهما كان جسيما ، وأنت مصدر السمادة البشرية فليس غريبا أن من يقصداك يسعد في الدنيا والآخرة . وتتكاثر المدائح النبوية والتوسلات بالرسول ﷺ في العصر العلوي . ومن أجمل التوسلات توصل أنفسه الأستاذ ابن تالوت للشاعر محمد البوعصلى ، وفيه يقول^(١) :

سُحِّي بدمع كالعقيق محاجري	شوقا لطيفة والعقيق وحاجري ^(٢)
تلك المصاهد حين أظهر دينه	ربُّ البرية بالرسول الطاهر
سرُّ الوجود عمدٌ خيرُ الوري	والمستقى من كل أصل طاهر
من قد تجلّت طيبة الزهرا به	وزهت ففقت كل روض زاهر
وسمت على الفردوس حقًا واكتست	حلل السنا من شأه المتواتر
وتواضعت لمالم المهادى بها ال	أنفاق كالفلك المحيط الدائر

وهو يقول لصينه اخرفا دما أحر كالعقيق شوقا لطيفة ومنازها مثل العقيق وحاجر التي كانت قائمة حين بعث الله برسله الكبرى ، وإنه لسر الوجود خير الوري المختار من كل أصل شريف طاهر ، وقد تجلّت به طيبة : المدينة وسقت جميع المدن ، وزهت حتى فقت كل روض ناضر ، وحق لها ، بل لقد سمت على الفردوس ، واكتست حلل الشرف بفضائله المتواترة ، وتواضعت لها الآفاق كالفلك المحيط بقطب الدائرة . وحرى بنا أن نتوقف قليلا لترجم لميمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

ميمون^(٣) بن خبازة

هو ميمون بن علي الصنهاجي الفاسي الساكن بأخرة في مراكش ، ويسمى ابن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر المشهور بلبن خبازة للملازمة إياه . من شعره عصر الموحدين ، ويقول ابن عبد الملك المراكشي في كتابه « الذيل والتكملة » : كان أديبا شاعرا مقلدا من أكبر أعاجيب الدهر في سرعة البديهة ، ناظما أو ناثرا ، مع الإجادة التي لا يجارى فيها والتفنن في أساليب الكلام معربه وهزله .. ذا مشاركة حسنة في علم الكلام وأصول الفقه ، وتنسك وتصفو وقتا ، ووعظ .. وعارض ابن الجوزي في بعض فصوله فأجاد . وعبر إلى الأندلس وظل في رعاية وإلى إشبيلية أُمي العلاء بن المنصور زمتا ، وله فيه مدائح كثيرة وله في غيره مدائح مختلفة

والتكملة ٣٨٨/٢/٨ وما بعدها وتوهار الرياض ٣٧٨/٢
ونحفة القادم ١٥٤ ودرة المجال رقم ٣٧٢ والنبوغ
للمغربي ١٨٠/١ ، ٢٠٢/٣ ، والوفاء ٣٢٢/١ .

(١) الوافي ٨٢٣/٣ .

(٢) طيبة : المدينة . العقيق : موضع في المدينة .
والحاجر : منزل في طريق مكة .

(٣) انظر في ترجمة ابن خبازة وشعره كتاب الذيل

وكان يأتي في مدائحهما لم يسمع قبله ولا يطمع في لحاقه ، سرعة ارتجال وحسن اقتنان ورعاة إنشاء ، وتول حبة السوق في مراکش لعهد الخليفة المأمون الموحدي ووقف معه في ثورته على دعوة ابن تومرت كما أسلفنا وله بهجو ابن تومرت :

وجد النبوة حلة مطوية لا يستطيع الخلق نسج مثالا
فأسر حسوا في ارتقاء ينفي بحاله نسجا على ينوالها

وأسر حسوا في ارتقاء مثل يضرب للشخص يظهر أنه يشرب الرغوة ، وهو ينال من اللبن . وتوفي ابن خبازة في أوائل سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م ، وله مدحة نيوقرامة دوت شهرتها في عصره وبعد عصره ، يقول في مطلعها :

حقيق علينا أن نجيب المعالي	لنفنى في مدح الحبيب المعالي
ونجمع أشات الأعارضي حبة	ونعشد في ذات الإله القوافي ^(١)
ونقتاد للأشعار كل كية	لنصر الهدى والدين تزدى الأعادي ^(٢)
لنطلع من أمداح أحد أجمنا	تلوح فجلو من سناء الدياجيا
سهوت بمدح الخلق دهرا فهذه	سجودى لجبرى كل ما قلت ساهيا
رسول بره الله من صفو نوره	وألبيه برذا من النور ضافيا ^(٣)
وما زال ذلك النور من عهد آدم	ينير به الله العصور الخوالي

وهو يقول إنه ينبغي أن أستجيب للمعالي فأفنى في مدح الرسول الكريم سيد الوجود المعالي وأجمع أشات الأشعار احتسابا لله وأحشد القوافي إخلاصا له ، وأتاد كتاب الشعر لنصرة الدين وتدمير أعاديته ، ولنبدي من أمداحه نجوما تجلو من نوره الدياجي المظلمة . ويمتدح عن تمضية عمره في مدح الحكام والأمراء ساهيا عن مدح الرسول الكريم ، وهو يقدم تلك المدحة بأخرة من حياته جبرا لما سها عنه قديما . ويقول إنه رسول عظيم خلقه الله من صفو نوره وألبيه من النور حلة ساهية ، وظل هذا النور المهدى الباهر ينير العصور الخوالي . وتطل من الآيات التالية فكرة الحقيقة المحمدية التي تنفى بها الحلاج والتصوفة بعده ، وهي حقيقة تؤذن بأن الرسول أقدم في خلقه المعنوي أو الروحي من خلق الأنبياء . ويقول ميمون في قصيدته : بفضلته تاب الله على آدم وأقعد نوحا وخلصه من الموج العاتي وحمى إبراهيم الخليل من النار حين ألقاه أعداؤه فيها ، ومن أجله اتقى إسماعيل الذبيح . وحين وضع أمه له حفت به الأملاك وأعول إليس اللعين وتنبئت به الأحبار والكهان وتداعى إيوان كسرى . ثم يعضى في الحديث عن سيرته منذ كان في المهد ، وحلته السيدة حليلة لترضعه ويذكر

(١) حبة : احتسابا لله .

(٢) ضافيا : غلرا .

(٣) تزدى : نهلك .

ما رُوي من شق جبريل وميكائيل لصدره وإيداعهما فيه النور الهادي ، ويتحدث عن رحلته إلى الشام ولفاته بجيرا الراهب ونسطور راهب بَصْرَى الذى بشره بعثته ، وما كان من تحته فى جلاء واختيار الله له كى يبلغ رسالته ، وبذكر أسراءه ومعرجه إلى السموات ومناجاته لربه . ويأخذ فى سرد معجزاته منذ بدء هجرته ونسج العنكبوت لبيوته على غار حرله حتى لا تنظن قريش أن به الرسول وصاحبه الصديق ، ويستطرد إلى بعض ما تذكره كتب السيرة النبوية من الآيات والمعجزات ، ويعرض فى نهاية مدحته معجزة الرسول الكبرى : القرآن الكريم ، منشدا :

وَأَيَّاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الْعَدُوِّ كَثْرَةً
فَمَا تَبْلُغُ الْأَقْوَالُ مِنْهَا تَنَاهَا
وَأَعْظَمُهَا الْوَحْيُ الَّذِي خَصَّهُ بِهِ
فَبَلَغَ عَنْهُ آمَرًا فِيهِ نَاهَا
تَحْدَى بِهِ أَهْلَ الْبَيَانِ بِأَسْرِهِمْ
فَكَلَّمَهُمْ أَلْفَاهُ بِالْعَجَزِ وَتِيَا
وَجَاءَ بِهِ وَحْيًا صَرِيحًا يَزِيدُهُ
مَرُورُ اللَّيَالِي جِدَّةً وَتَعَالِيَا
تَضْمَنُ أَحْكَامَ الْوُجُودِ بِأَسْرَهَا
وَحُكْمَ الْقَضَاءِ مَثْبُتًا فِي نَافِيَا
وَأَخْبَرَ عَمَّا كَانَ أَوْهُوَ كَانَتْ
يُورَى مَاضِيًا أَوْ مَا يُورَى بَعْدَ آتِيَا
وَمَا كَبِيتَ يَمْنَاهُ قَطُّ صَحِيفَةً
وَلَا رَىءَ يَوْمًا لِلصَّحَافِ تَالِيَا^(١)
عَلَيْهِ سَلَامُ اللَّهِ لَا زَالَ رَاتِحًا
عَلَيْهِ مَدَى الْأَيَّامِ حَقًّا وَغَادِيَا

وهو يقول إن معجزات الرسول ﷺ أكثر من أن تُعدَّ وتحصى ، وإن الأقوال مهما تكاثرت لا تستطيع أن تحيط بها ، وأعظمها القرآن المعجزة الكبرى التى ليس لها مثال سابق ولا مثال لاحق وإنه ليحمل أوامر الله ونواهيه وقد تحدى الرسول به أهل البيان من العرب فكلهم أعلن عجزه عن الإتيان بما يمثله ، بلاغة تأخذ بالألباب . وقد تضمن أحكام الوجود جميعها ، وشمل حكم القضاء نفيا وإثباتا ، وأخبر الله فيه عن الأحداث الماضية والمستقبلية . وكل هذا البيان المعجز حمله الرسول ، وهو لم يخطِّ صحيفة يمينه ، ولا شوهده يوما تاليا للصحف أو الصحائف ، إنه النبى الأمى العظيم ، سلام الله عليه سلاما دائما من أمته وعبديه .

مالك^(٢) بن المرحّل

سَنِيَّ النُّشَاةِ والمربى ولد سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م وتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ، وقال ابن عبد الملك المراكشى فى الجزء الأول من الذيل والتكملة إنه مالقى ، ولعله يريد أنه ولد

والجنوة لابن القاضى ٣٢٧/١ ونفع الطب (انظر الفهرس) والتبوغ المربى لكون ٢٢٥/١ والجزء الثالث فى مواضع مخلقة والرواى ٣٣٨/١ وما بعدها .

(١) روى : رُوي .
(٢) انظر فى مالك بن المرحل وحياته وأعماله الجزء الأول من الذيل والتكملة لابن عبد الملك للمراكشى والصلة لابن الزبير والإحاطة لابن الخطيب ٣٠٣/٣

بمالقة . وكان مثقفا ثقافة واسعة بمختلف العلوم مما جعله ينظم غزوات السيرة النبوية وفضيح ثعلب ، وله نظم في الغرائض والقراءات وغير ذلك ، ومدح أمراء الأندلس والمغرب الأقصى واشتغل في بلدته سبعة مدة بالتوثيق وولى القضاء لبني مرين مرات في غرناطة وغيرها ، ومُدَّ له في حياته إذ توفي سنة ٦٩٩ للهجرة ، ويقول ابن عبد الملك : « إته كان مكثرا من النظم مجيدا سريع البديهة مستغرق الفكرة في قرضه ، لا يفتر عنه حينما من ليل أو نهار ، شاهدت ذلك معه ، ويقول إته لا يقدر على صرفه عن خاطره وإخلاء باله من الخوض فيه ، واشتهر نظمه وذاع شعره ، فكلفت به ألسنة الخاصة والعامة وصار رأس مال المسمعين (المنشدين) والمغنين وهيجيرا (ملازم) الصادرين والواردين ووسيلة المكدين (السائلين) وطرلز أوراد المؤمنين » . وذكر له ابن عبد الملك في الجزء الأول من كتابه « الذيل والتكملة » قصيدتين في مثال الثعلب النبوى . وله في مدح الرسول ﷺ غير قصيدة ، وتتخذ تمامًا ثلاثة : النمط المعروف في القصائد العربية ، ونمط يسمى العشرى لأن وحداته تتألف من عشرة أبيات ، ونمط ثالث يسمى العشريني لأن وحداته تتألف من عشرين بيتا ، والأبيات في النمطين الآخرين تنتهى بقافية واحدة وتبتدئ بحرف القافية . ومن أهم مدائحه النبوية : « الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى » وقد رتبها على حروف المعجم ، ولكل حرف عشرون بيتا ، وهى بذلك مكونة من عشرينيات ، ويقول في العشرينية الممزجة الأولى :

إلى المصطفى أهديتُ غُرَّ ثنائى	فيا طيبَ إهدائى وحسنَ إهدائى ^(١)
أضفتُ إلى ميلاده غزواته	وما عَنُّ لى من أبىة وأبائى ^(٢)
أردتُ رضا ربى بها فهو أرتجى	وربى كريم لا يُضيع رجائى
إمامَ هدى صلى النبىون خلفه	وصلى عليه أهل كل سماء
أضاءت به الدنيا فمن وجهه سرى	إلى الشمس والأقمار كل ضياء
أتانا بقرآن كريم مفصل	جلا صدأ الأذهان أى جلاء
أترجون فى يوم القيامة غيره	إذا قبل هل للناس من شفاء
إليه يشير ابن الرسول إذا رأى	ضجيج السورى فى حيرة وعناء ^(٣)

وهو يقول أهديت إلى النبى الذى اصطفاه الله أجمل ثناء فباطليه وبأ طيب هداى وطرقتى ، وقد أضفت إلى ميلاده غزواته وما عرض لى وألمته من معجزاته ، وأردت بذلك رضا ربى راجيا أن يتقبل منى هذه المدحة لرسوله ، وهو كريم لا يخيب رجاء راج من عباده . ويقول ابن الرسول إمام هداية كبرى للبشرية وقد صلى الأنبياء خلفه ليلة الإسراء ،

(٣) البتول : السيدة مريم أم عيسى الرسول .

(١) هدائى : هدائى وطرقتى .

(٢) أبائى : جمع آية أى معجزة .

والملائكة فى كل سماء يرددون الصلاة عليه مشيراً إلى الآية الكريمة : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ويقول إن الدنيا أضاءت بنوره ، ومنه نور الشمس والقمر وكل نور ، والبيت يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية المعروفة ، وهى أن كل نور فى الكون يستمد من نوره ، وكل وجود يستمد من وجوده ، إذ هو سابق فى خلقه المعنوى أو الروحى لكل وجود وكل نور . ويذكر معجزته الكبرى التى جاء بها معجزة القرآن الكريم وما يحمل من أروع صور البيان والبلاغة التى تجلو - بحق - صدأ الأذهان ، ويذكر يوم القيامة وموقف الناس فيه وقد طال بهم انتظار الحساب ، وكلما سألوا رسولا أن يشفع لهم عند الله فى بدء الحساب اعتذر ، واعتذر معهم المسيح ابن مريم البتول مع إشارته لهم أن يسألوا الرسول الشفاعة عند ربهم ، ويتقبل الله شفاعته . ويقول فى عشرية هزبية :

أما إلى قبر النبىِّ مبلغٌ ثناءً فقد أفنى الزمان ذمائي^(١)
أمنىُّ كانت لي زيارة قبره وأرضيَّ روضٌ يانعٌ وسمائي
إمامٌ جميع المسلمين عمداً وأكرمُ مبعوثٍ من الكرماء
أمانُ الوزى مما يخافون حبه فيا حبُّ شغيع أدمعى بدمائي
أما الأسى عبنى وسعُر أضلئى فخذ يدي يا راحمَ الرُحماء^(٢)

وهو يقول : أما من مبلغ ثنائى إلى الرسول ، وقد فنى عمرى حتى الذماء الأخير ، وقد كان من أمانى فى شبلجى أن تكمل عيناى بزيارة القبر الذكى ، إنه إمام المسلمين وهادىهم إلى رضوان الله وجناته ، وأكرم رسول بعثه الله للخلق رحمة بهم ، وإن حبه لأمان للمسلمين من كل ما يخافون ، فيا أيها الحب المقدس امزج أدمعى بدمائى شوقاً إليه وشغفاً به ، فقد ملأ الحزن عيني بالدموع واتقدت نيران الحب النبوى فى أضلئى ، فخذ يدي وأعنى يا أرحم الرُحماء . ومالك - مثل ابن خبازة - فى الذروة من شعراء عصره .

أضلى : أوقدنا ناراً .

(١) الذماء : قوة القلب وبقية الروح .

(٢) أما الأسى عبنى : ملأها دموعاً كالليل . سر

الفصل السادس

النثر وكتابه

٩

الخطب والمواظ

طبيعى أن تكثر الخطب والمواظ في المغرب الأقصى كثرتها في بلدان العالم الإسلامى جميعا ، إذ كانت تكرر في كل مسجد أسبوعيا في صلاة الجمعة وبالمثل في صلاة العيدين ، وربما كانت كثرة تكرارها هي السبب في أنه لم يتجرد أحد من القدماء لتدوينها تدوينا عاما ، ومع ذلك فقد أثرت بعض خطب قائلها بعض الحكام أو بعض كبار الوعاظ . ومن أوائل ما نلتقى به منها خطبة إدريس الثاني في دولة الأدارسة سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م حين فرغ من بناء مدينة فاس وحضر صلاة الجمعة فقد صعد المنبر وخطب الناس الخطبة الأولى قائلا^(١) :

« اللهم إني أعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهة ولا مفاخرة ولا سُمعة ولا مكبرة ، وإنما أردت أن تُعبد فيها ، ويُتلى كتابك ، وتقام حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا . اللهم وفق سكنتها وقطعتها للخير وأعنيهم عليه ، واكفهم مشقة أعدائهم ، وأدرهم الرزق ، وأعنيهم سيف الفتنة والشقاق ، إني على كل شيء قدير » .

وهذه الخطبة المأثورة عن إدريس الثاني إنما هي قطعة من خطبته ، وفيها يعلن أنه لم يبن فاسا مباهة ولا ابتغاءا لشهرة ، إنما بناها ابتغاء لوجه الله وثوابه حتى يعبد فيها ويتلى كتبه وتقام حدوده وسنة رسوله الكريم ، وتحققت سريعا نيته ، فقد أقامها مدينتين متقابلتين : مدينة القرويين من أهل المغرب ومدينة الأندلسيين الذين لجئوا إليه زمن الحكم الرضوي في الأندلس وثورة الفقهاء عليه ونفيه لطائفة كبيرة منهم ، فنزلت كثرتهم المدينة الغريبة ولم يلبث أن شُيد في مدينة القرويين الجامع المشهور باسمها : جامع القرويين وأصبح أقدم جامع في إفريقيا للدراسات الدينية إذ بُني الجامع الأزهر بعده بنحو مائة عام . وازدهرت في جامع فاس هذه الدراسات حتى العصر الحديث . ودعا إدريس لسكان فاس دعوات كريمة . أن يوفق الله أهلها للخير ويمدحهم بعونه ويكفيهم مشقة أعدائهم ، ويوفر الرزق لهم ويقهر الفتنة والشقاق .

(١) البوغ الغري ٣٣/٢ .

وكان حكمه حكما عادلا رشيدا . وهدم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ما كان بين مدينتي فاس من أسوار وجعلهما مدينة واحدة ، وأقام على النهر الفاصل بينهما جسورا يمكن الانتقال من إحداها إلى الأخرى بسهولة .

ومرُّ بنا في نشأة دولة المرابطين أن أصلهم من قبيلة صنهاجة التي كانت تشغل الصحراء جنوبى المغرب وبعض بقاع إفريقيا المدارية السوداء حتى السنغال ، وكانوا يعيشون معيشة بدوية واتخذوا الثام على وجوههم شعارا لهم ، ولذلك يسمون المثلثين ، ولم يكونوا يعرفون تعاليم الإسلام معرفة قديمة ، فجلب لهم رئيسهم يحيى بن إبراهيم الكدالى - كما مرُّ بنا - الشيخ عبد الله بن ياسين ليقتفهم بدقة على تعاليم الإسلام وسرعان ما أصبح زعيمهم الدينى بجانب يحيى الكدالى الزعيم الحربى ، ودفعهم الشيخ ابن ياسين جنوبا لنشر الإسلام وشمالا لجمع كلمة المسلمين فى تلك الأراضى البائسة . واستولت صنهاجة برعاعته الدينية على إقليمى سجلماسة والسوس ، ودفعها شمالا على المحيط لقتال برغواطة وكانت قد ظلت - منذ الأيام الأولى لدولة الأدارسة - خارجة على الإسلام ، وتبأ فيها متنبشون وآمنوا بهم ، واتجهت إليهم جيوش صنهاجة .. وتوفى يحيى الكدالى فخلفه فى القيادة الحربية لصنهاجة أخوه أبو بكر واستطاع استئصال شأفة الرغواطيين سنة ٥٥٣ غير أن عبد الله بن ياسين طعن طعنة قاتلة فى إحدى المعارك سنة ٥٥١ فخطب فى صنهاجة وهو مشرف على الموت ، ومما قال فى خطبته ، وكان قد سماهم المرابطين أى للجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه^(١) :

« يا معشر المرابطين ! إنكم فى بلاد أعدائكم ، ولبنى ميت فى يومى هذا لا محالة ، فإياكم أن تجنبا أو تفشلوا فتذهب ربحكم ، وكونوا ألفة وأعولنا على الحق وإخواننا فى ذات الله تعالى . وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة فإن الله يؤتئ ملكه من يشاء ويستخلف فى أرضه من أحب من عباده . ولقد ذهب عنكم فانظروا من تقدّمونه منكم يقوم بأمركم : يفود جيوشكم ويفزو عدوكم ويقسم بينكم فيفكم ، ويأخذ زكّاتكم وأعشاركم » .

وهو يناديهم باسم المرابطين حثا على جهاد برغواطة المارقة ، ويقول لهم إنكم تواجهون أعداءكم فاحذروا أن تجنبا فى حربهم ، فيقضوا عليكم القضاء المرم ، وينصحهم أن يتعاونوا على نصرة الحق وأن يكونوا إخوانا فى ذات الله ينشرون دينه الحنيف ، كما ينصحهم أن يتعدوا عن هذا المرض الخبيث : مرض التحاسد على طلب الرياسة ، فإنه لم يهلك الدول العرية مرض مثله ، ويقول إن الله يؤتئ ملكه من يشاء فلا داعى للتحاسد والتباغض . ويقول : لقد انتهيت وذهبت عنكم فاختاروا لكم زعيما عادلا ذا بأس وقوة يفود جيوشكم ويفزو عدوكم ويقسم

(١) البرغ الحزبى ٣٤/٢ .

نسمة عادلة ما تغنمون من عدوكم وتؤدون إليه زكاتكم . وهكذا ظل الشيخ عبد الله بن ياسين ينصح للمرابطين حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

ومر بنا أن محمد بن تومرت المصمودي مؤسس دعوة الموحدين قد اقترض لنفسه من دعوة الشيعة الإمامية التي تعرف على مبادئها أثناء مقامه بالمراق ثلاثة مبادئ هي أنه إمام ومهدي ومعصوم ، واقترض من مبادئ المعتزلة التي تعرف عليها هناك مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومبدأ التوحيد ، وهو عند المعتزلة يعني نفى التشبيه بالمخلوقات عن الذات العلية نفياً باتاً معارضين بذلك أهل السنة الذين يرون عدم تأويل الآيات القرآنية التي يفهم منها التشبيه مع الإيمان بترك ذلك لله جل شأته . ومن خطبة لابن تومرت قوله^(١) :

« إن الله - سبحانه وله الحمد - منَّ عليكم أيها الطائفة بتأييده ، وخصكم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده ، وقبض لكم من ألفاكم ضلالاً لا تهتدون ، وعقياً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفاً ولا تنكرون منكراً ، قد فشت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل ، وترهات ، أنزه لسانى عن النطق بها ، وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهذاكم الله بعد الضلالة ، وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزكم بعد الذلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم . ذلك بما كسبه أيديكم وأضرته قلوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد » .

وابن تومرت فى هذه القطعة من خطبته يشير إلى مبدئين تعتقهما جماعته هما المبدآن الاعتزاليان اللذان أشرنا إليهما : مبدأ التوحيد ، ويقول إن الله خصهم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده ، ويقصد - كما قلنا آنفاً - أنه منزّه عن التشبيه بالمخلوقات ، ويقول إن الله خصهم بذلك من بين أهل العصر ويريد المرابطين وفقهاءهم من أهل السنة الذين لا يتأولون آيات التشبيه المذكور فى القرآن الكريم من مثل (يد الله فوق أيديهم) ويقولون علم ذلك عند الله بينما يتأول المعتزلة اليد بمعنى القدرة . والمبدأ الاعتزالي الثانى الذى أشار إليه ابن تومرت هو ما يزعمه دائماً من أن خصوم جماعته من المرابطين لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، أما أتباعه الموحدون فهم - فى رأيه دائماً - يأثرون بالمعروف وينكرون المنكر ، ولا يلبث أن يسميهم - لعدم أخذهم بهذين المبدئين - مارقين عن الدين خارجين عليه ، ينفى حربهم وحق سلطانهم ، ويبعد أصحابه بأنهم سيزيلون هذا السلطان ويرثون أرضهم وديارهم .

وكان الموحدون يدعون للأخذ فى الفقه بمذهب داود الظاهرى القائل بإلغاء الإجماع

(١) النبوغ الغربى ٣٦/٢ .

والقياس أو الاجتهاد العقل في الأحكام الفقهية والاكتفاء بالكتاب أى القرآن والسنة أى الحديث النبوى . وأخذ بهذا المذهب فى كبة ابن حزم الفقيه الأندلسى وأخذ به الموحدون كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وانتصر للموحدين كثيرون من الشراء والكتاب والفقهاء والخطباء . وللقاضى فى حفص عمر السلمى خطبة يتصر فيها للمذهب الظاهرى ضد المذاهب الأخرى ، وفيها يقول^(١) :

« إياكم والقدماء وما أحدثوا فإتبعهم عن عقولهم حدثوا ، أتوا من الاختراء بكل أعجوبة ، وقلوبهم عن الأسرار معجوبة . الأنبياء ونورهم - لا الأغبياء وغرورهم - عنهم يتلقى ، وبهم يُذكر السؤل : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) للدين عند الله الإسلام ، والعلم كتاب الله وسنة محمد ﷺ ، ما ضَرَّ مَنْ وقف عندهما ما جهل بهما . »

وظن بعض من قرأ فى هذه الخطبة كلمة القدماء أنه يريد الفلاسفة وهو إنما يريد الأسلاف من الفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، فهو يدعو دعوة الموحدين من إهمال فقههم وتاويلهم جميعا ، والرجوع إلى الكتاب والسنة كما يقول الموحدون وأهل الظاهر فى عصره ، وهو لا يخفى ذلك بل يعلنه إعلانا ، إذ يقول « العلم كتاب الله وسنة محمد ﷺ » ويقول فى موعظة له^(٢) : « لا علم إلا علم الكتاب والسنة ، ما أنضل المطايا والمنة . »

ونلتقى بالنصوري المرنى يعقوب بن عبد الحق ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م - ٦٨٥ هـ / ١٢٨٧ م وكان بطلا مغوارا وكأما نذر نفسه لحرب نصارى الإسبان مساعدة للمسلمين وبنى الأحمر فى إقليم غرناطة . وكان لا يزال بعد العدة من الخيل والصلاح ويعبر الزقاق مع جنوده الأشداء لغزو حصون النصارى بإسبانيا ومدنهم ، وكان ما يأخذه منهم يعطيه لبنى الأحمر ، أمراء غرناطة فهو لا يحاربهم طلبا لمغنم ، وإنما لما عند الله من ثواب المجاهدين فى سبيل دينه ونصرته . وأول سنة عبر فيها الزقاق بجنوده سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م وعاد إلى عبوره بجيش كيف سنة ٦٧٧ وأبلى فى الحرب حينئذ بلاء عظيما ، وبالمثل فى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م واستولى على بعض حصونهم وتركها لبنى الأحمر ، وفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م عبر الزقاق لجهاد النصارى وهزم نونيو جونزالث دى لارا جنوبى قرطبة هزيمة ساحقة . وفى أوبته أدركته المنية بالجزيرة الخضراء ، وله من خطبة بحث فيها جيشه على الجهاد^(٣) :

« يا معشرَ المسلمين وعصابةَ المجاهدين : إن هذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم ، ألا إن الجنة قد فُتحت لكم أبوابها ، فخذوا فى طلبها ، فإن الله (اشترى من المؤمنين أنفسهم

(٣) النبوغ المرقى ٣٨/٢ .

(١) النبوغ المرقى ٣٧/٢ .

(٢) أزهار الرياض للمرقى ٣٥٩/٢ .

وأموالهم بأن لهم الجنة) فشتموا عن ساعد الجِدِّ ، معاشر المسلمين ، فى جهاد المشركين .
فمن مات منكم مات شهيدا ، ومن عاش عاش غنما مأجورا حيدا ﴿أَصْبِرُوا﴾ وصلبروا وصلبوا وراقوا الله لعلكم تفلحون﴾ .

وهى كلمة فصلت من قلب مجاهد صادق أبلَى فى سبيل دينه ونصرته بلاء عظيم ، ويشتر جيشه بأن الجنة قد فتحت أبوابها لاستقبال الشهداء المبرورين ، كما وعد الله عباده المجاهدين المؤمنين ، ويدعوهم إلى الجهاد بكل ما يملكون من قوة ، فإن من قُتل منهم شهيدا فاز برضوان ربه ، ومن عاش غنم من العدو غنما كبيرا ، وأثابه الله ثوابا عظيما . ويذكرهم بأية كريمة تدعو إلى الصبر فى الحرب والمربطة للعدو حتى النصر العظيم .

ومما أثار من خطب يوم الجمعة ومواعظها لأبى عبد الله محمد الرهونى الفقيه المالكى الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ/ ١٨١٥ م وكان قد اشتغل بالخطابة الدينية والموعظة ، وله مجموعة فى خطب الجمعة ، ومن خطبة له فى التذكير والترغيب^(١) :

« أيها الناس : حَصِّصْ^(٢) لكم الحق فنصروا ، وتبين لكم الرشد من النِّى فالزموا الطاعة وتذكروا ، وحِجِّلْمْ على سلوك الطريق المستقيم فاستقدموا ولا تتأخروا ، وحُدِّزْمْ من العدول عنه فخافوا الله واحذروا ، وأُسَبِّتْ عليكم النعم ظاهرة وباطنة فاعرفوا حقها واشكروا ، واعلموا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ، وإياكم والتقصير فى العمل فلن تَسْعَدُوا مع التقصير أو تَعُذُّرُوا ، وكونوا من قوم أشرقت لهم أنوار الهداية فابصروا ، وتليت عليهم آيات الله فتنبأوا ، ولا تكونوا ممن استبدتكم الدنيا فشربوا من كوس حبها حتى سَكِرُوا ، وقطعوا أعمارهم فى اتباع شهواتها فخابوا وخسروا ، وأنهجوا سبيل الذين استعدوا لمواطن القيامة كأنهم شاهدوا أهوالها وحضروا ، ورأوا عذاب النار فكفوا أنفسهم عن سوء ولزجروا ، وسمعوا ما أعد الله لأولياته فى الجنة فاجتهدوا بالطاعة وبادروا » .

وواضح أن الرهونى يحسن رَصَفَ السجع فى خطبه ، ويحاول أن يستم جرسها بما التزم فى نهاية عباراتها من حرف الراء المضمومة ، فهو يريد أن يخلب الأسماع بحسن بيانه وإحكام التقابل فى نهايات الأسجاع ، وليس ذلك فحسب ، فهو يعنى بلفظه فيختار لها ألفاظا رصينة جيزة تحسن وقعها فى آذان المستمعين . وهو بجانب عنايته باختيار ألفاظه وانتخبها يوفر فيها ألوانا من الطباق المستحسن مثل : « بين لكم الرشد من النِّى » وقوله : « فاستقدموا ولا تتأخروا » وقوله : « وأسببت عليكم النعم ظاهرة وباطنة » . ولا ريب فى أن الرهونى كان خطيبا فذا

(٢) حصى الحق : ظهر .

(١) التبرغ الغربى ٤١/٢ .

وكان يوتر بخطابه ووعظه في سامعيه تأثيرا بعيدا ، وهو خطيب مغربي من خطباء كبريين
كان لهم نفس هذه المروعة في الخطابة والوعظ .

٢

الرسائل الديوانية

أخذت الرسائل الديوانية تزدهر في المغرب الأقصى منذ عهد يوسف بن تاشفين أمير دولة
المرابطين واستدعائه لبا بكر بن القصيرة رئيس ديوان المتمدن بن عباد وتكليفه برياسة ديوانه في
مراكش عاصمته ، وكان آية في البيان والبلاغة ، فأرسى في الديوان المراكشي تقاليد الكتابة
الديوانية الأندلسية ، وظل رئيسا لهذا الديوان حتى وفاة يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ للهجرة ،
وظلت له رياسته في عهد ابنه على حتى وفاته سنة ٥٠٨ للهجرة . واحتفظت الذخيرة لابن
بسام برسالتين^(١) له كتبهما على لسان يوسف بن تاشفين ، أولاها موجهة إلى صاحب قلعة
بنى حماد في الجزائر ، والثانية موجهة إلى ابن حمد بن محمد بن علي حين ولي القضاء بقرطبة
سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م ، وله يقول فيها :

« استشهد الله يَهْدِيكَ ، واستعن بالله يُعِينِكَ في صَدْرِكَ وِرْدُكَ^(٢) وتول القضاء الذي ولّاه
الله بجدٍّ وحَزَمٍ ، وجَلَدٍ وعزم ، وأُضْمِرَ القضايا على ما أمضاها الله تعالى في كتبه وسنة نبيه ،
ولا تَبَالٍ بَرغم راعم ، ولا تشفق من ملامة لائم ، وآسِر^(٣) بين الناس في وجهك وعدلك
ومجلسك ، حتى لا يطمع قوًى في حَتْفِكَ ، ولا يئأس ضعيف من عدلك . ولا يكنْ عندك
أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه ، واتصَحْ
لله تعالى ولسوله عليه السلام ولنا ولجماعة المسلمين . وقد عهدنا إلى جماعة المرابطین أن
يُسَلِّمُوا لك في كل حق تُمَضِّيه ، ولا يعترضوا عليك في قضاء تُقَضِّيه . ونحن أولا وكلهم
آخرا مذ صرت قاضيا سلمون منك غير مترضين عليك في حق . والعمال والرعية كافة سواء
في الحق » .

وواضح أن ابن القصيرة يتأثر في رسالته إلى القاضي ابن حمد بن برسالته أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب إلى أبي موسى الأشعري حين يدعوه إلى المساواة بين الناس في وجهه وعدله ومجلسه
حتى لا يطمع قوًى في حيفه ولا يئأس ضعيف من عدله ، وحين يقول له : « لا يكنْ عندك
أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه » . ومن
الطريف في الرسالة أن يوسف بن تاشفين يجعل القاضي فوقه وفوق الجنود والولاة المرابطین

(٣) آسِر : سَوَّ .

(١) الذخيرة ، القسم الثاني ص ٢٥٧ وما بعدها .

(٢) صدرك : ما تصدر عنه . وردك : ما ترد إليه .

وفوق الرعية ، فليس لأحد من كل هؤلاء الحق في أى اعتراض على القاضى فى حكم من الأحكام ، فنجد صار ابن حمدى قاضى الجماعة فى قرطبة أصبحوا جميعا خاضعين له . وهو جائب مشرق فى القضاء الإسلامى ، نجده فى كل بلد وكل دولة ، إذ كانت مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من النفوذ والسلطان . وغنى الذكور محمود مكى فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بتحقيق مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطى فى عهد على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة فى المجموعة إلى الرسالة الثالثة عشرة . والرسالة السابعة فى المجموعة أشبه بمنشور وجهه على بن يوسف إلى أهل الأندلس بطاعة الوالى وأن لا يخالفوا عليه أو يعصوه فى أمر ، إذ يقول فيها^(١) :

« إن الوالى النائبُ عنا فى تدبيركم وإقامة أموركم ، وسياسة صغيركم وكبيركم ، وقد فوضنا إليه ذلك وأفردناه بالنظر فى دقته وجلته ، وقَّله^(٢) وكثره ، وما فعل من ذلك كله فنحن فعلناه ، وما قال فيه فكُنَّا نحن قلناه ، ولا نوقف ما أمضاه ، ولا نَمْضى ما وقَّعه وأباه ، ولا نرى فى أحد منكم إلا ما يراه ، ولا نتولاهُ كلنا ما كان إلا أن يتولاهُ ، ولا نَرْضَى من أحواله ما لا يرضاه : بلساننا يتكلم ، وعصاً فى جَنَاننا يترجم ، وعلى ما يوافقنا يُسبِّدُ ويُلْجِمُ^(٣) .

وهذا التفويض للوالى فى الأحكام من حسن السياسة ، فالحاكم الكبير - مثل على بن يوسف - يتضامن مع ولاته فى كل ما يفعلونه ويقولونه ، حتى تتظم أمور الرعية ، ولا يتخذ الشذاذ الفرصة للخلاف مع الوالى مما قد يؤدى إلى الثورة . غير أنه كان ينبغي أن ينصح الولاة - مع ذلك - بالعدل مع الرعية ونصفه المظلوم والضعيف ، وأن يفتحوا أبوابهم للرعية حتى يسموا شكوى كل مظلوم أو مظلَّم . ويقول عبد الواحد المراكشى فى حديثه عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إنه اجتمع له ولابنه على من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار^(٤) ، وفى حديثه عن أمير المسلمين على بن يوسف يقول : « لم يزل من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصَرَفَ عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك كلُّى القاسم بن الجند المعروف بالأحَدب أحد رجال البلاغة وأبى بكر محمد بن محمد المعروف بابن النبطونة وأبى عبد الله بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان وأبى محمد عبد المجيد بن عيادون فى جماعة يكثر ذكرهم ، وكان من أئمتهم عنده وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال ، وحق له ذلك إذ هو أحد من انتهى إليه علم

(١) المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (٣) يُسبِّدُ ويُلْجِمُ : يسج .

(٤) للمحب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٢٧ .

بمدريد .

(٢) الدق والقتل : القليل . الجل : الكثير .

الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى^(١) ، وله ديوان رسائل يدور بأيدى أدياء أهل الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه ونصّبوه إماما يقتفونه . وبمعهد المخطوطات بالقاهرة التابع للجامعة العربية نسخة من هذا الديوان ، وله أربع رسائل ديوانية فى مقال د . محمود مكى فى المجلدين السابع والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بعنوان : « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » ونذكر قطعة من إحدى هذه الرسائل كتبها سنة ٥٠٧ للهجرة على لسان علي بن يوسف بن تاشفين ، وهى موجهة إلى أهل الأندلس لحثهم على جهاد النصارى الإسبان وتعريفهم بأنهم عزم على خوض معركة حامية الوطيس معهم ، وفى أولها يقول :

« كتابنا - أعزكم الله بتقواه ، وكفكم بظل ذراه ، ووفر حظوظكم من حُسنه - من حضرة مراکش - حرسها الله - يوم الاثنين من منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة بين يدي حركتنا بمنّ الله فانحلتها وعقبها . وقد قرعنا الظنائب^(٢) ، وأشرعنا الأنابيب^(٣) ، وضمرنا اليعاسب^(٤) ، واستغفرنا البعيد والقریب ، مستشعرين إخلاص نية ، وصدق حمية ، فى نصر دين الإسلام ، ومنع جانب أن يُضام ، أو يناله من عدوه اهتمام^(٥) . ونحن - وإن كنا قد بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد ، واستهضنا من الأجناد ، ما يُجرى على الحصر والتعداد ، فإننا نعتقد اعتقاد يقين بقول ربّ العالمين ، فى كتابه المبين : ﴿ قُلْ مَا يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ : إن استنفار الدعاء ، واستفتاح أبواب السماء ، بخالص الشاء ، من أنفع الأشياء ، وأنجح الدعاء ، فيما أعضل^(٦) من الأدواء .

ولعل فيما سبق من قيام كبار الكتاب فى الأندلس على الكتابة فى ديوان المرابطين بمراكش عشرات السنين ما يدل على أنهم وضعوا تقاليد الكتابة فى هذا الديوان وأرسوها فيه وظلت راسخة بعد عهدهم فى عهد الموحدين ومن جاء بعدهم ، ويتوقف القلقشندى فى كتابه : « صبح الأعشى » لذكر التقاليد المتبعة فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ، ولا ريب فى أنها موروثه عن العهد السابق لم عهد المرابطين ، ويقول القلقشندى إنها كانت تتخذ أحد أسلوبي^(٧) : إما أن تفتح بلفظ من فلان إلى فلان ، وكان الرسم فيها أن يقال : « من أمير المؤمنين فلان » ويُدعى له بما يليق به ، ثم يؤتى بالسلام ، ثم يؤتى بالعبدية والتحميد والصلاة على النبي ﷺ والرضية عن الصلابة ثم عن إمامهم المهديّ ، ثم يؤتى على المقصود ، ويختتم

(٥) اهتمام : ظلم .

(١) المصنف ص ٢٣٧ .

(٦) أعضل : أجهز . الأدواء : الأمراض .

(٢) قرع الظنائب كتابة عن الإسراع إلى الحرب .

(٧) صبح الأعشى ٤٤٣/١ .

(٣) أشرعنا الأنابيب : سلطنا الرماح .

(٤) ضمرنا اليعاسب : فلنا الخيل للحرب .

بالسلام . والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه . ويمثل القلقشندي لهذا الأسلوب برسالة عن عبد المؤمن بقلم أبي جعفر بن عطية إلى محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش ، وسنعود إليها عما قليل . والأسلوب الثاني في المكتبة لعهد الموحدين - كما يقول القلقشندي - أن تفتح المكتبة بلفظ أما بعد ، والأمر فيه على نحو ما تقدم في الأسلوب قبله بعد البعدي . ويمثل لهذا الأسلوب الثاني برسالة عن المستنصر بالله (٦٠٩ - ٦٢٠هـ) إلى بعض نوابه ، ومثلها رسالة عن يوسف ابن عبد المؤمن بقلم أبي الحسن بن عياض ، وسنعرض لها عما قليل .

ويذكر عبد الواحد المراكشي في كتابه : « المعجب » كتاب الإنشاء لعبد المؤمن المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين ، وهم : أبو جعفر أحمد بن عطية ، وسنخصه بترجمة ، وكتب له بعده - كما يقول - أبو القاسم عبد الرحمن القالي من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكتب له معه أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة^(١) . وكتاب الإنشاء في عهد ابنه يوسف - كما يقول المراكشي - هم أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه وأبو القاسم المعروف بالقالي كاتب أبيه أيضا وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بلبن محشرة ، من أهل مدينة بجاية كان يخدم أبا القاسم القالي إلى أن مات فكسب مكانه^(٢) . وواضح أن ابن محشرة والقالي من بجاية ، ولذلك ترجمنا لهما في الجزء الخاص بالجزائر . وكتاب ابنه يعقوب - كما يقول المراكشي - أبو الفضل جعفر بن محشرة ، وكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من أهل برشقة من أعمال مدينة المرية ، ولم يزل كاتباً له ولابنه محمد (الناصر) ولابن ابنه يوسف^(٣) (المستنصر) إلى أن توفي سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢٠ م . وهؤلاء هم كتاب الدولة المهمون حتى العقد الثالث من القرن السابع قبل نشوب الخلاف والفتن والحروب بين أبناء أسرة عبد المؤمن وقبل خروج الأندلس من طاعتهم .

ونشر المستشرق بروفنصال مجموع رسائل موحدة من إنشاء كتاب الدولة المؤنية ، وهو مملوء بالتصحيح ويحتاج إلى تحقيق ويشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، منها ست عشرة لأبي جعفر أحمد بن عطية على لسان عبد المؤمن ، وسنفرده لترجمة ، ومنها ثلاث لأخيه أبي عقيل عن عبد المؤمن ، ولم يذكره المراكشي بين كتبه ، وثلاث أخرى لأبي الحسن بن عياش أولاهما عن عبد المؤمن والاثنتان الأخريتان عن ابنه يوسف ، ورسالة لأبي الحكم بن المرعي عن عبد المؤمن ولم يذكره المراكشي أيضا بين كتاب عبد المؤمن ، وثمان رسائل لابن محشرة عن يوسف بن عبد المؤمن ولبنه يعقوب ، وثلاث رسائل لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن

(٣) المعجب ص ٣٣٨ .

(١) المعجب للمراكشي ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) المعجب للمراكشي ص ٣١٦ وما بعدها .

عياش من أهل بُرْشانة كما أسلفنا : رسالة عن يعقوب واثنتان عن ابنه الناصر ، ويقول ابن الأبار في ترجمته له بكتابة التكملة إن السلطان (يعقوب) بالغرب استكبه في سنة ٥٨٦ فنال دنيا عريضة^(١) إذ كان صاحب القلم الأعلى - كما يقول ابن الخطيب في الإحاطة - على عهد المنصور ولبنه الناصر ونضيف أيضا على عهد المستنصر حتى سنة ٦١٨ كما مرُّ بنا ، ويقول ابن الخطيب إنه كان لا يكلم أحدا من الناس إلا بكلام مرعب . ويقول المراكشي في المعجب : جرى الكتاب بعده على أسلوبه ، وسلوكوا مسلكه لما رأوا من استحسان خلفاء الموحدين لطريقته^(٢) : وفي رأينا أنهم اتبعوا طريقته في الكتابة هو وكبار الكتاب الأندلسيين المذكورين منذ عصر المرابطون كما قلنا آنفا . وذكرنا أن لنا الحسن بن عياش له في مجموع الرسائل الموحدية ثلاث إحداها على لسان عبد المؤمن وهي تتبع الأسلوب الثاني للذي ذكره القلقشندي مبتدئة بالعبدية على هذا النحو^(٣) :

« أما بعد حمد الله الذي عمَّ بنوالة ، وخصَّ أهل ولايته بقبوله وإقباله ، والصلاة على محمد عبده ورسوله ، وعلى صحبه الأكرمين وآله ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بإتمام أمر الله وإكماله ، المؤيد بالآيات العصمية ، والبيّنات الحكمية ، في كافة أقواله وأعماله ، فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم أعمالا زاكية نامية ، وآمالا في بلوغ مرضاته مساعفة مؤاتية - من حضرة مراكش - حرسها الله - وكوافل العصمة لهذا الأمر العزيز تضرب بقدها الأعلى^(٤) ، وتوجب على [أهل]^(٥) الاتصال حظوة الامتثال^(٦) لأهل كلمة الله العليا ، وتجمع لهم [وعدا^(٧)] حتما مقضيا ، ووعدا [حتما^(٨)] مأثما بين خير الآخرة وخير الدنيا . ويثبوت هذه القاعدة تستوثق^(٩) أحوال هذا الأمر الكريم على مقتضى الأقدار المساعدة ، وتستنُّ اطرادا واتساقا على طريقة واحدة » .

وفي جميع الرسائل في هذه للجموعة الموحدية نجد الصلاة على ابن تومرت والإشادة به وثقه الإمام المهدي المعصوم مستعيرة هذه الألقاب كما مرُّ بنا من الشيعة الإمامية ، ويضيف أبو الحسن عبد الملك (بن عياش) أنه قام بإتمام أمر الله وإكماله) يشير بذلك إلى المبدئين التضمنين لدعوته : مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومبدأ التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقات . ويجعل أبو الحسن كوافل العصمة شاملة لمهد عبد المؤمن ، ويسميه مع شيوخ الموحدين أهل كلمة الله العليا ، وكلمته - في رأيه - إنما هي دعوة الموحدين بمبادئها التي ذكرناها . والرسالة

-
- (١) التكملة لابن الأبار (طبع مدريد) رقم ٩٥٢ .
 (٢) المعجب ص ٣٣٩ .
 (٣) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٩٣ .
 (٤) القندح الأعلى : الحظ الأوفر ، وأسله نعم قنداح .
 (٥) زيادة للسباق .
 (٦) في الأصل : الاحصاء .
 (٧) زيادة بدلالة السباق .
 (٨) في الأصل : تستوثق .
 (٩) اليسر .

موجهة من عبد المؤمن إلى طلبة (دعاة) بعض مدن الأندلس يخبرهم بوصول رسالتهم في غزواتهم للروم ويحرضهم على حربهم واستصل شأنتهم وجذورهم . ولأبي الحسن عبد الملك بن عياش رسالة^(١) عن يوسف بن عبد المؤمن إلى محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش الناظر في شرقى الأندلس يدعوه سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٤ م إلى الدخول في طاعة الموحدين ، وهي في فاتحتها تتبع الأسلوب الأول الذي ذكره القلقشندي ، وتستهل بهذه الصورة :

« من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيده الله بنصره ، وأمدّه بمعونه - إلى أمير شرق الأندلس أبي عبد الله محمد بن سعد - أمدّه الله بتوفيقه ، وأعزّه بطاعته وتقواه - سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلّي على سيدنا محمد نبيّه ورسوله ، والحمد لله الذي أقام لأمره الذي هو سفينة النجاة ، وعصمة الأغيا والممات ، دعاة يأخذون بالحجز عن النار ، ويقبضون لمن ضلّ السبيل ، وعدم الدليل ، من معالم الهداية إلى صراطه الواضح ، ومنهجه اللائح ، أهدى علم وأرفع منار ، ويتقدمون في إيلاغ حجته ، وإيضاح حجته^(٢) ، ببوالغ الإنذار والإعذار ، ويصرّفون بما أودعوا من سرّه المكنون ، ليثّ في الظهور والبطون ، والسهول والحزون ، وجوه العناية الآخذة بمجامع الأقطار ، الموجهة بالإعراض عن الأعراض إلى ما يقضى بهذه الخليفة ، من ركوب هذه الطريقة ، إلى سعادة هذه الدار ، وسعادة تلك الدار (الآخرة) وصلى الله على محمد عبده ورسوله مشكاة الأضواء والأنوار ، ولباب الاجتباء والاختيار ، المحيّر^(٣) بمعدن بيته الأشرف ، ونسبه الأشهر الأعرف ، سرّ هذا النبا السيار وارث ذلك المقام الذي هبّت تباشيره بأسماع ذوى الإصاحبة^(٤) لمواقع الاستبشار ، ورضى الله عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله على أوفى الاعتقاد بتأييد الله وأتم الاستظهار ، الماضي قدّمًا في التصميم وإنفاذ العزم^(٥) على أمر طلق ولبعد مضمار ، الممان فيما دعا إليه ، وثبّ عليه ، بالعصمة التي لا تضره معها إباءة^(٦) ولا كفر كفار . وعن خليفته وصاحبه الإمام أمير المؤمنين ، ممثلي أمره العزيز على ما له^(٧) من المراسم المحفوظة والآثار ، ومقيمه على حدوده المكلّوة للمحفوظة دون ونية ولا إقصار ، والناصر له بكل معنى تتوجّه إليه داعية الاستبصار . »

وهو يحمد الله في فاتحة الرسالة لإسناده الأمر إلى يوسف بن عبد المؤمن وشيوخ الموحدين ، ويسمّيهم دعاة ، ويقول إنهم يحجزون بدعوتهم الناس عن النار ويقبضون لهم أهدى علم وأرفع

(١) تنظر مجموع رسائل مرصدة ص ١٤١ وما بعدها . (٥) في الأصل : العزم .

(٢) في الأصل : نجته .

(٣) في الأصل : المخبر .

(٤) في الأصل : الإصاحبة .

(٥) في الأصل : الإصاحبة .

منار حتى لا يضلوا الطريق السوي المستقيم عن الهداية الراشدة الصحيحة ، وسرها المكنون ، لنشرها في السهول والجزون وكل مكان حتى يمسد الناس في الدنيا والآخرة ، ويشيد بالرسول الكريم ثم يدعو لآلئ تومرت الله ليرضى عنه ، ويسميه الإمام المعصوم المهدي المعلوم . والرسائل الموحدة جميعا تذكره في فاتحتها وتضفي عليه هذه الصفات التي أنصافها على نفسه مقترضا لها من بيعة الشيعة الإمامية ، ويقول إنه قام بدعوته ونشرها في الناس بتأييد الله ، وإن عبد المؤمن خليفته سار على هده وما وضع للدعوة من المبادئ والمراسم المحفوظة . ونراه يقول في وصف لئ تومرت في الرسالة : « إن رسول الله ﷺ بَشَّرَ بعلامات المهدي وأخبر عن أماراته الشاهدة له الدالة عليه من الاسم والنسب والزمان والمكان والفعل » وكان لئ تومرت لفَقْ له نسباً - كما يقول المؤرخون - يصله بالرسول ﷺ ويقول أيضا عنه : « القائم في آخر الزمان بعد شمول الضلالة وتلد (تلث) الحيرة وتموج الفتنة وارتفاع العلم وفشو الظلم . فظهر لما خصه الله به من الهداية ، وعلمه من الحكمة ، وأحلّه مقام العصمة ونوّه^(١) من معقل الإمامة ، وغرق له من العادات ، وأجرى على يديه من الآيات ، ما صدّق ما نطقت به الآثار ، وتضمنته الأخبار ، واحتوت عليه الصحف وتداولته النقلة ، مما أعطى القلوب العارفة الطمأنينة » . ويشيد بدعوته وثمها ستظل قائمة إلى قيام الساعة ، كما يشيد بيوسف خليفة لئ عبد المؤمن الناصر لدعوة لئ تومرت والحامل العباد على طريقته التصور المظفر دائما .

وتظل الرسائل الموحدة تبيء وتعيد في فواتحها بالإشادة بلئ تومرت وأنه الإمام المهدي المعصوم إلى أن تولّى المأمون إدريس الخلافة سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ، فأعلن إلغاء هذه الألقاب لآلئ تومرت وأزال اسمه من السكة وخطبة الجمعة ، وأذاع في الدولة رسالة بذلك من إتشاته ، يقول فيها^(٢) :

« من عبد الله إدريس أمير المؤمنين لئ أمير المؤمنين لئ أمير المؤمنين إلى الطلبة (دعاة الموحدين) والأعيان والكافة ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم^(٣) الله شكر نعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوسام^(٤) ، ولنا كبتنا إليكم - كتب الله لكم عملا منقادا ، وسعدا وقادا - وللحق لسان ساطع وحكم قاطع ، وقضاء لا يُردّ ، وباب لا يُسدّ ، وظلال على الأفاق ، تمحو النفاق ، والذي نوصيكم به تقوى الله والاستماعة به ، والتوكّل عليه ، وتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدي إلا عيسى بن مريم (يقصد أنه تكلم في المهدي) الناطق بالصدق ، وتلك بدعة قد أزلناها .. كما أزلنا لفظ العصمة عن لا تثبت له عصمة ، وأسقطنا عنه وصفه ورسمه .. وإذا كنت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحة ،

(٣) أوزعهم : ألههم .

(٤) الوسام : الحسن .

(١) في الأصل : نواه .

(٢) البرغ للنرى ١١١/٢ .

فما الظن بمن لا يدري بأى يد يأخذ كتابه ، أف لهم قد ضلوا وأضلوا ، وسقطوا فى ذلك وزلوا ، اللهم اشهد أننا تبرأنا منهم تبرؤ أهل الجنة من أهل النار .

غير أن عهد المأمون سرعان ما تقضى وعاد الخلفاء وشيوخ الموحدين إلى أن ابن تومرت هو الإمام المهدي المصوم ، وظلت دعوته حية إلى أن قضت عليها الدولة المرينية . ويقول القلقشندي بعد عرضه لأسلوبى الرسائل المستخدمين أيام الموحدين : « ثم طرأ بعد ذلك الإكتار من الألقاب لخلفائهم فى المكاتبات الصادرة عنهم والمبالغة فى مدحهم وإطرائهم^(١) » وفات القلقشندي أن يذكر أيضا الإكتار من ألقاب المرسل إليه إذا كان حاكما كبيرا ، ويوضح ذلك فى عصر الدولة المرينية رسالة للسلطان نوى الحسن المرينى كتبها إلى السلطان المصرى الناصر محمد بن قلاوون خادم الحرمين حينذاك فى شأن ركب الحجاج المغاربة ومصحف خطه يده ووقفه على الحرم النبوى الشريف ، والرسالة تستهل على هذه الصورة^(٢) :

« من عبد الله على أمير المسلمين ناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، مالك العُدوتين (المغرب والأندلس) ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، و سلطان العُدوتين نوى سعيد بن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين و سلطان العُدوتين نوى يوسف بمقرب بن عبد الحق ، منح الله التأيد مقامه ، وفسح - لفتح معاتل الكفر ، وكسر جحافل الصغر - أيامه . إلى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل الفاضل الكامل الكافل الملك الناصر المجاهد المرباط المؤيد المنصور الأسعد الأصعد الأرقى الأوفى الأ مجد الأنجد الأفخم الأضخم الأوحد ناصر الدين عاضد كلمة المسلمين ، محى العدل فى العالمين ، فاتح الأمصار ، حائر ملك الأقطار ، مفيد الأوطار ، مبيد الكفار ، هازم جيوش الأرمن والفرنج والكرج والتتار .

ويستمر طويلا فى إضفاء مثل هذه الألقاب عليه مع ما يطوى فيها من مبالغات ، ويذكر أن أباه قلاوون العظيم ويكيل له هو الآخر الألقاب . ويدعوله ويسلم عليه قائلا : « أبقى الله ملكه موصول الصولة والافتدار ، محمى الحوزة حاميا للديار ، حميد المآثر الماثورة والآثار ، عزيز الأولياء فى كل موطن والأنصار ، سلام كريم ، زك عيم ، تُشرق إشراق النهار صفحاته ، وتنبق عن شذا الروض المطار نفحاته ، يخص إسخاءكم العلى ، ورحمة الله وبركاته . » وتمضى الرسالة بعد ذلك مسجوعة من أولها إلى نهايتها ، والسجع فى الرسائل بالمغرب قديم منذ عصر الموحدين .

ويظل فن الرسائل مزدهرا فى عصر السعديين ، ويجمع الأستاذ عبد الله كون طائفة كبيرة

(٢) الشيوخ للمضى ١١٥/٢ .

(١) صبح الأعشى ٤٤٦/٦ .

منها وينشرها باسم رسائل سعدية ، ومنها رسالة بقلم عبد العزيز الفتشالى صاحب القلم الأعلى ورئيس ديوان الإنشاء فى عهد المنصور الذهبى وهى موجهة على لسانه إلى « سكية » أمير كاغو عاصمة السودان الغربى الذى تولى الحكم هناك سنة ٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م قبل غزو المنصور لبلاد واستيلائه عليها وخلعه سنة ٩٩٩ للهجرة ، وفيها يقول^(١) :

« إلى كبير كاغو وأميرها ، ومالك زمام أمورها وتديرها ، والمرجوع إليه - عند خاصتها وجمهورها ، الأمير الأجل ، الأئيل^(٢) الأحفل - الأمر - سكية - وصل الله كرامته ، وجعل التقى سنته وعلامته ، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، أما بعد حمد الله مسهل المرام ، وميسر أسباب الكمال والتمام ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيح الأنام ، المبعوث بالحنيفية السمحاء إلى الخاص والعام ، والرضا عن آله الأئمة الأعلام ، وخلفاء الإسلام ، وعن أصحابه الذئبين عن كلمته باللسان والحسام ، ومواصلة الدعاء لهذا الجنب الكريم (جناب المنصور الذهبى) بالمر السامى المقام ، والنصر المنشور الرايات والأعلام ، فإننا كتبناه إليكم من حضرة فارس المحروسة بالله ، وعناية الله وارفة الظلال ، ونواسم النصر والإقبال دائمة المبوب باليكر والأصال ، والله المنة » .

ويذكر الفتشالى بعد ذلك الغرض من رسالته ، وهو أن معدن الملح فى بتغازى (بين تمبوكتو ودرعة فى جنوبى المغرب الأقصى من إيالة المنصور الذهبى وفى حكم إمامته وأنه يختص بيت مال المسلمين ، ولذلك رأى المنصور أن يضع عليه خراجا ينفع المسلمين ويضر أعداء الله الكافرين ، ويذكر له أنه جعل الخراج مثقالا على كل جمل من سائر الإبل التى تحمل هذا المعدن ، ويقول له إن ما سنحصل عليه من الأموال سيصرف فى سبيل الغزو والجهاد وفى أرزاق العساكر الأجناد ، التى جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد ، واعتدناها لحياطة البلاد والعباد . ثم يقول محبا له فى الرضا عن دفع بتغازى لهذا الخراج : إن هؤلاء الجنود الذين سيأخذون أرزاقهم أو بعبارة أخرى روايتهم من هذا الخراج هم « جنود الله التى لولها - وما حجزت بينكم وبين طواغيت الشرك سيوفها القاصمة ، وضربت فى وجه الكفر دونكم بأسوارها العاصمة ، وخضدت من شوكة الشرك باستصاال حماته وقصاره ، ومنزلته على الدوام فى غفر داره - لفاض عليكم طوفاته السائل ، وسال على أرضكم منه شؤبوب^(٣) هاطل ، وكبحت عنكم عنان الكفر حتى نتم فى كفائتها آمين ، وفى جياطها وادعين ومطمئين » . ويطلب إلى سكية الإسعاد والإسعاد وأن لا يسمى فيما يطل هذه الفريضة من الخراج التى تعود بالنفع على الإسلام وتؤيد حزب الله فى مواصلته لقتال عبدة الأصنام .

(١) راجع الرسالة فى كتاب رسائل سعدية لكون (٢) الأئيل : الأصل .

(٣) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

والرسالة مسجوعة فى لغة رصينة امتاز بها الفشتالى - فى شعره كما مرُّ بنا - وفى رسائله ونثره .

وتظل فى العصر العلوى الرسالة الديوانية محبّرة يسجع فيها الكتاب ويتأنقون صورا مختلفة من التألق . ويشير من كتبوا عن التاريخ الأدمى لأيام العلويين إلى رسائل دينية كتبها السلاطين العلويون ، وقلما استشهدوا بشيء منها ، وينوهون برسالة كتبها محمد بن إدريس العماروى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٧ م بلسان السلطان العلوى عبد الرحمن بن هشام إلى ابنه الأمير محمد بشأن الحملة التأديبية الموجهة إلى قبيلة زمور وفيها يقول^(١) :

« كنا أردنا الإبقاء على قبيلة زمور رحمة وإشفاقا ، وحَمَلْهُمْ على الاستقامة بالإرهاب بالشدة فى بعض الأمور هداية وإرفاقا ، فلم يرد الله بهم خيرا لفساد نيتهم ، وخبث طَوَيْتِهِمْ ، وانكالمهم على حَوَلِهِمْ وقوتهم ، وما رأوا منا ليئا وسداذا ، إلا ازدادوا شدة فسادا ، ولا أظهرنا لهم عظة وإرشادا ، إلا أظهروا تطاولا وعنادا ، وما أخّرنا الفقة المنصورة عن الركوب إليهم لبقاء وإلغا ، إلا ظنوا ذلك عجزا وضعفا ، قد طَمَسَ الإعجاب منهم بصرا وسما ، ولم يروا أن الله قد أهلك قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا » .

٣

الرسائل الشخصية

طبيعى أن تكثر الرسائل الشخصية فى المغرب الأقصى منذ القرن السادس الهجرى لاكتظاظه بالكتب منذ ذلك الحين ، ومن طريف ما نلتقى به فى القرن السادس رسالة للقاضى أُمى موسى بن عمران المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م كتب بها إلى ابن له بفاس فى طلب العلم ، وهى تمضى على هذه الصورة^(٢) :

« إلى ولدى .. هداية الله وصاته ، وجملته بالعلم والتقوى وزاته . كتبه إليكم عن اشتياق كثير ، وبمشيئة الله - تعالى - تيسر الأمور ، ويتكاتف السرور ، وإذا وجدتمكم - على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء ، ولزام آداب العقلاء - جازيتكم بما يُرضيكم ، وبما يزيد على أقصى تمنيتكم ، وقد أجمعت الأئمة على أن الراحة لا تُنال بالراحة ، وأن العلم ، لا يُنال براحة الجسم ، فادرسْ تَرَوُسْ ، واحفظ تُحْفَظْ ، واقرأ تَرْقُ . وسهما ركبتَ إلى الدعة كنت فى

(١) الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية (٢) الصوغ للمغربى ١٦٥/٢ .

للكوكور الأخضر ص ٤١٢ .

أهل الضَّعة . وما رأيت الناس مجتمعين على حَمْدِهِ فاجتلبه ، وما رأيتهم مجتمعين على ذَمِّهِ فاجتنبته ، والأعدل الأقسط ، أن تسلك السبيل الأوسط :

وما المسرء إلا حيث يجعل نفسه فقى صالح الأعمال نفسك فاجعل ،

والرسالة من والد فقيه قاض يأمل لابنه مستقبلا علميا يرفعه بين العلماء ، وهو يدعو له أن يتجمل بالعلم والقوى ويزدان بهما ، فهما الزينة الحقيقية للإنسان ، ويقول له إنه سيكون له مكافأة ترضيه ، إذا وجده على ما يمتناه له من حسن الحفظ والأداء اللغوي للكلام ، ويذكر له أن ما يمتناه الشاب في المستقبل من الراحة والطمأنينة لا ينال براحة الجسم والكسل ، ويقول له : ادرس وتعمق في الدرس حتى يأتي يوم تروى فيه أقرئك واحفظ التون والعلوم تحفظ ، وأكب على القراءة يرق فكرك وترقى بين الناس ، أما إذا ركنت إلى الكسل والدعة كنت من أهل الضعة والانعطاط والخسة . وإذا رأيت الناس يجمعون على مدح شيء وحده فاجتلبه واكسبه ، وإذا رأيتهم يجمعون على ذم شيء فاجتنبه وابتعد عنه . ويقول له إنه ينبغي لك دائما أن تتخذ لنفسك في الحياة السبيل الأوسط ، حتى لا يتلومك أحد على الإفراط والمبالغة في شيء ولا على التفريط والتقصير في شيء ، فخير الأمور الوسط . ويذكر له أن كل شخص يضع نفسه في المنزلة التي يختارها لنفسه ، وينبغي أن تضع نفسك دائما في خدمة الأعمال الطيبة الصالحة . ويرسل أبو القاسم الحسن الشریف في العهد المريني قصيدة مع رسالة في شبهه إلى ابن هاني السبني الذي مر بنا أنه توفي شهيدا في جبل طارق سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م ويرد عليه ابن هاني برسالة طويلة جاء فيها^(١) :

« هذا - بُني - واصل الله لي ولك علو المقدار ، وأجرى - وفق أو - فوق إرادتك وإرادتي لك جاريات الأقدار ، ما صنع به الذهن الكليل ، واللسان القليل ، في مراجعة قصيدتك الغرل ، الجالية السراء ، الآخذة بمجامع القلوب ، الموفية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهيبة^(٢) والأسلوب ، المتحلية بالخلى السنية ، المريقة المنتسب في العلاء الحسنية .. وإليك واحد حلبة البيان ، والسابق في ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القيد ، وأقر لك مع التأخر السابق الأقدم ، فوَحَقَ فصاحة ألفاظ أجدها حين أوردتها ، وأسلتها حين أرسلتها ، وزنتها حين وزنتها ، وبراعة معاني سلكها حين ملكها ، وأصلتها^(٣) حين فصلتها ، ونظام جمك بهجسد البيان قلبا ولمعصمه قلبا^(٤) ، وهضرت حدائقه غلبا^(٥) ، واركتبت رويته صبا .. بُني ! كيف رأيت للبيان هذا الطور ، والخروج فيه من نوع إلى نوع ، أين صفوان بن إدریس ، ومحل

(١) التبرغ المريني ١٥١/٢ .

(٢) الموهج : الطريق اللين .

(٣) أصلت : تهرز .

(٤) القلب : السوار يكون نظما واحدا .

(٥) مصر : جذب ولما . غلبا : كثرة الأشجار .

دعواه بين رحلة وتعميس^(١) ، كم بين نغاء بقر الفلاة وزئير ليث الفريس^(٢) ، كما أتى أعلم قطعا وأقطع علما ، وأحكم قضاء وأفضى حكما ، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائعة ، وفريدتك الحالية الفائقة ، المعارضة بها قصيدته ، المتسخة بها فريدته لذهب عرضا وطولا ، ثم اعتقدك اليد الطولى ، وأقر فارتفع النزاع ، وذهبت له تلك الغامات والأطماع ، ونسى كلمته اللؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأدبية ، واستغفر ربه من الألفية .

ويدو أن ثبا القاسم الحسنى الشريف نظم قصيدته معارضة لقصيدة بديعة لصفوان بن إدريس الذى شهد له أقرته ومعاصروه الأندلسيون بالبراعة الشعرية الفائقة ، وسوا قصيدته القصيدة اللؤلؤية ، ولعله أرسل بها مع قصيدته المعارضة إلى ابن هانيء السبتي ليشهد له بتفوقه . وهو يستهل رسالته لأبى القاسم بأن قصيدته تأخذ بمجامع القلوب ، ويشيد بيلاعته وأنه واحد حلبة البيان ، والسابق يوم الرهان ، إذ هو الأرسخ قدما بما يجعل صفوان بن إدريس السابق الأقدم يشهد له بروعة بلاغته . وينوه ابن هانيء بفصاحة ألفاظه وبراعة معانيه ، ويقول أين بيان صفوان بن إدريس من يئلك ، ويألف فى ذلك قائلا إن يئانه كثفاء أو صياح بقر الفلاة بينما يئالك كزئير الأسد وهو ينهش فريسته . وزعم له أن صفوان لو استمع إلى قصيدته البارعة وفريدته التى عارضه بها لنسخت قصيدته كما تنسخ الريح آثار الديار ولأقر لك بالبراعة الشعرية وأن قصيدتك تفوق قصيدته اللؤلؤية ، واستغفر ربه من دعواه .

وكان ابن الخطيب أديب غرناطة المشهور فى القرن الثامن الهجرى يكتب أدباء المغرب الأقصى المشهورين ويساجلهم بالشعر نارة ، وبالرسائل نارة أخرى ، ومن أرسل إليهم إحدى رسائله ليساجله أبو جعفر الجنان المكناسى محاولا أن يحرك فريخته الأدبية ، فرد عليه برسالة استهلها بثلاثة أبيات مشيدا فيها ببيئته ، وفيها يقول منوها برسالة إليه^(٣) :

« جلوت على من بنات فكرك عقائل نواهد ، وأقمت بها على معارفك الجمّة دلائل وشواهد ، واقتصت بشوارد بديهتك من المعالي أولبد شوارد ، وفجرت من بلاغتك وبراعتك حياضا عذبة الموارد ، ثم كلفتني من إجره ظالمى فى ميدان ضليعها^(٤) ، مقابلة الشمس التيرة بالسراج عند طلوعها ، فأخذت^(٥) إخلاد مهيض الجناح ، وفررت فرار الأعزل عن شاكى^(٦) السلاح ، وعلمت أنى إن أخذت نفسى بالمقلبة ، وأدليت ذلّو قريحتي للمساجلة ، كنت كمن كلّف الأيام رجوع أمها ، أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها .. ثم إن أمرك - يا سيدى -

(١) تعميس : إقاعة .

(٢) الفريس : الضلع : القوى الجين .

(٣) أخله : سكن وفكر .

(٤) شاكى السلاح : كمل السلاح .

(١) تعميس : إقاعة .

(٢) الفريس : ما يفتس من الحيوانات .

(٣) النبوغ الفريى ١٥٥/٢ .

لا يُجَلَّ وثيقٌ مَبْرَمه ، ولا يَحُلُّ نَسْخُ حُكْمه ، فامتثلت امتثال من لم يجد في نفسه حرجا من قضائك ، ورجوت حُسْنَ تجاوزك وإغضائك ، أُنْفِكَ الله قطبا لفلك المكارم والمآثر ، وقَصَا لخاتم المحامد والمفاخر .

وهو يشيد ببيان ابن الخطيب في رسالته ، ومعلوم أنه أحد بلغاء الأندلس بل العرب قاطبة ، وأبو جعفر يحكم اختيار ألفاظه وسجmate ، ويضيف إلى ذلك تشبيهات واستعارات بارعة ، من ذلك تشبيهه في جذبه له لمساجلته بمن يحاول أن يجرى فرسا ظالما أعرج مع فرس ضليع قوى متين أو بمن يحاول مقابلة الشمس المتيرة عند طلوعها بسراج لا يكاد ضوءه في نورها يبين ، وسكن محمداً كأنه مهبط الجناح ، بل لقد جمع نفسه وقرر الفرار من المساجلة فرار الأعزل من حامل السلاح وشاهره ، ويخال نفسه إن أدلى دلو قريحته عازما على المساجلة كان كمن يكلف الأيام أن ترد أمساها عليه ، بل كمن يطلب من شخص لمس السماء يديه . ثم يعود إلى نفسه فيرى أن ليس من حقه أن ينقض أمرا لابن الخطيب أو ينسخ حكما له ، فامتثل راجيا منه تجاوزه وإغضاه عن ضعفه في البيان ، ويدعو الله أن يبقى ابن الخطيب قطبا للمحامد والمآثر وقَصَا نفيسا لخاتم المكارم والمفاخر . وكان ابن الخطيب في عصره يُعَدُّ زعيم الأدب والأدباء ، وأهدى إليه أبو القاسم الشريف الحسنى ديوانا له سماه جهد المقل ، ومعه الرسالة التالية^(١) :

« الحمد لله الكبير المتعال المسئول أن يعصنا من خطئ القول وزلل الأعمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأسال . هذه أوراق ضمنتها جملة من بنات فكري ، وقطعا مما يجيش به بعض الأحيان صدرى ، ولو حزمت لأضربت عن كتبها كل الإضراب ، ولزمت في دفتها وإخفائها دين الأعراب ، ولكنى آثرت على المحو الإثبات ، وتمثلت بقولهم : « إن أحسن ما أوتيته العرب الأبيات . وإذا هي عُرضت على ذلك المجد ، وسألتها كيف نجت من الواد ، فقد آويتها من حرمكم إلى ظل ظليل ، وأحللتها من فنائكم إلى معرُس وقيل^(٢) ، وأهديتها علما بأن كرمكم بالإغضاء عن عيوبها كفيل ، فاغتنم قليل الهدية منى إن جهد المقل غير قليل ، فحبسها شرقا أن توثت في جنبك كنفا ودارا ، وكفها فخرًا ومجدا أن عقدت بينها وبين فكرك عقدا وجوارا » .

وهو يقول إن أوراق الديوان تضمنت طائفة من بنات فكره ، ولو أخذ نفسه بالحزم لا متع عن كتابتها كل الامتناع ، بل لمحاها محو ، غير أنه عاد فآثر على المحو الإثبات وتمثل بقولهم إن أحسن ما أوتيته العرب أبيات يقدمها الشاعر بين يديه . ثم يذكر أنها إن عُرضت

عليه ، وسألنا كيف نجت من الواد عرف أنها آوت من حرمة إلى ظل ظليل ، وحلت من فناء داره وساحتها إلى خير معرّس ومقيل ، ويقول إن كرمه سيجعله يفضى عن عيوبها ، وحسبها شرفاً أنها نزلت من جنبه داراً ، وكفاها مجد وفخراً أن اتمقد بينها وبين فكرك جوار حميد وعقد وثيق . ولابن شيرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م رسالة فكهة كتب بها إلى أبي الحكم بن مسعود الشاهد بالمواريث ، ويفتحها بقوله^(١) :

« أطال الله بقاء أحمى وسيدى لأهل الفرائض يحسن الاحتيال فى مداراتهم ، وللمتقنين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط فى أمواتهم ، ودامت أقلامه مُشرعة^(٢) لصرم^(٣) الأجل النّسأ^(٤) ، مَعْدَة لتحليل هذا الصنف المنشأ ، من الصلصال والحما ، فمن مَبْتُ يُغْسل وآخر يُقْبَر ، ومن أَجل يُطَوَّى وكَفَرٍ يُنْشَر .. وكلما خربت ساحة ، نشأت فى الحائث راحة ، وكلما قامت فى شَيْب^(٥) مناحة ، اتسعت للرزق مساحة » .

وتمضى الرسالة فى مثل هذه الفكاهة وشاهد المواريث يسأل عن العقار والأمولاك ، ويقول عن التوفى إنه ذكر فى الأسماء الخمسة مع ذو قليل ذو مال ، وأزجل أعوانه تدب إلى الأسفاط ديب الصغر إلى الحجل^(٦) ، وحضر الموروث والمكسوب ، ووژن بالأرطال ، وكيل بالأقداح ، والشاهد يصيح فتعلو صيحته ، والمشرّف يشرف فتسقط سبّحته ، وتقسم التركة ويحضر الورثة . وكل ذلك فى أسلوب فكّه بديع .

وتظل الرسائل الشخصية فى المهددين السعدى والعلوى تكذب بهذا الأسلوب المسجع البديع ، والكتاب يتبارون فى انتخاب ألفاظهم وصياغاتهم انتخاباً يروق ويروع .

٤

المقامات والرحلات

(أ) المقامات

المقامات جمع مقامة ، وهى من أهم فنون النثر العربى ، ابتكرها بديع الزمان الهمذاني فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، عارضا أفاصيص على لسان أديب سيار ممن كانوا يسمون فى

(٤) النأ : المزجل .

(٥) شيب : طريق .

(٦) الحجل : جمع حجلة : طائر فى حجم الحمام .

(١) التبوغ المغربى ١٧٧/٢ .

(٢) مشرعة : مصونة .

(٣) صرم : قطع .

عصره بالساسانيين الذين كانوا يحترفون الكُذبة أو الشحاذة الأدبية في الحصول على أموال الناس بفصاحتهم وجيلهم في أسلوب قصصى يشيع فيه الحوار ، واتخذ يديم الزمان لمقاماته أديا متسولا كبيرا ، هو أبو الفتح الإسكندري وراوية يروى أقاصيصه وحله يسمى عيسى بن هشام ، وشاعت مقاماته في العالم العربي . وأوفى بهذا الفن على الغاية الحريرى التى تداولت مقاماته المغرب والبلدان العربية . وكان كثير من العلماء والأدباء يعقدون لإملائها وشرحها للطلاب مجالس متعاقبة ، وحاولت كل بلدة أن تُدلى بدلوها فى هذا الفن ، غير أن كثيرين من البلدان العربية رأوا أن يعدلوا بها عن صورتها الأصلية إلى موضوعات أدبية فيها قصص وحوار . وأول ما بلغنا من ذلك فى المغرب الأقصى مقامة لعبد المهيمن الحضرمى الوزير وصاحب القلم الأعلى فى عهد أبى سعيد المرينى ثم فى عهد ابنه أبى الحسن التوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م ، وقد سماها « مقامة الافتخار بين العشر الجوار » وهن بيضاء وسمراء ، وطويلة وقصيرة ، وسجينة ونخيفة ، وعربية بدوية وحضرية ، وعجوز وصيبة . وكل واحدة منهن تناظر نقيضتها فى حسنها . وقد لقين - كما يقول فى مفتاح مقامته بوادى الجوهر فى إحدى المدن ، وأجرى على ألسنتهن هذه المناظرة الطريفة . وكانت أول جارية تكلمت وطلبت المناظرة جارية يفوق ضياء وجهها ضياء الشمس فقد وقفت بين الصفوف وتقدمت وقالت^(١) :

« الحمد لله الذى جعل البياض طراز كل جمال ، وشرف أهله بالحياء والكمال ، وأعطاهم عزة لا تبعد ، وصير السمر لهم عبود ، ألا وإن على قلبى جمرة ، من معاتبتك يا ذات السمر ، أعندك يا سمر ما أعندى ، وليس قدك كقدى ، ولا خدك كخدى ، جبينى ذو ابتهاج ، وذوائى^(٢) كقطع الزجاج^(٣) ، ورشح عرقى كمسك أذفر ، يرشح من تحت البرد والمغفر ، وثغرى أقحوان^(٤) ، ودياج وجهى أرجوان^(٥) ، وإن أسبلت^(٦) شعرى المصفور ، فظلام ليل على بياض كافور ، ثم أنشدت :

قُلْ للذى أزرى بأهل البياض ما أنت إلا باطلُ الإعتراضِ
فورْدُ خدْى بُدا زاهرُ فى كل فصلٍ فوق خدْى رياضِ
يا حاسدى مُت كمدًا إمسا تُجنى المني من الخدود الفضاخ^(٧)

وتقدمت السمراء ، وحطت اللثام ، عن وجهه شهي الاتهام^(٨) ، وأبلغت فى السلام ، وأفصححت فى الكلام ، وقالت :

(٥) أرجوان : شجر له زهر شديد الحمرة .

(٦) أسبلت : أسلكت .

(٧) الفضاخ : الناضرة .

(٨) لاثام : يمد الثقل .

(١) التبرخ للمغربي ١٩٥/٢ والواقي ٤٤٩/٢ .

(٢) ذوائى : ضفارى .

(٣) الزجاج : حمار أسود يصنع منه اللباد .

(٤) يشبه السمراء الثغر بالأقحوان ، وكأن تلك الزهرة تشبهه .

الحمد لله الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم وجعله أفضل الحيوان ، وفرق بين الصور والألوان ، وزين الأبيض بشر كالنفس^(١) ، وبأسوداد الحاجين وسواد الحدق . وأجل ما يقف له العاشقون إجلالا ، ويرتلون فيه الأشعار ارتجالا : مسكة الخال ، وعقرب الدلال . ثم التفت إلى البيضاء وقالت : يا أشبه شئ بجين الروم .. ما زال طعامك قليل الملح ، وجفنتك كثير الرشح ، ولبنك أذى ، وعسل ثما غذا ، ولونى لون الخمر ، وطعمى طعم الثمر ، ثم أشتدت :

الحمد لله ليس الثبر كالورق قد أحسن الله فى خلقى وفى خلقى^(٢)
فالجسم منى نضار صيغ منظره بمسكة ففدا طيبا لتثيق
يا من يعيرنا باللون إن لكم جهلا يفسود إلى الطينان والحمو
كم أسمر قلبه كافورة وله من السعادة نجم لاح فى الأفق

فلما فرغت من كلامها ، وما أبدعته من حسن نظامها تبرعت بنقلها ، وسلمت على الصنفين ، وثبتت أسرار الكفئين .

وواضح أن عبد المهيمن الحضرمى أجرى على لسان الجارية البيضاء النعوت التى تزينها فى الخلق والأخلاق مثل الحياء والكمال ، وتوسع فى وصف جمالها بذكر جمال القد والخد والجين والضمائر المغرقة فى السواد ، وذكر أن ثغرها أقحوان ووجهها أرجوان ، وأشاد بوردها وقه يحيل حدودها رياضاً ناضرة . ويُظن كثرتها ضيق طرق الكلام على صاحبها السمرله . غير أن عبد المهيمن ما يلبث أن يفتح لها الأبواب على مصاريعها ، لتجد مجموعة من الأدلة البينة والبراهين الواضحة على روعة السواد وجماله بشهادة قولهم : شعر كسقى الليل وأعجلهم بسواد الحاجين وحديق العينين ، وبديل إشادة الشعرله بالخال المشبه للمسك ، والشعر المتدل إلى الخدود كثة العقرب ، وتقول صاحبها إن اللبن الأبيض المشبه لك كثير ، أما العسل الأسمر المشبه لى فكثير الغذاء ، وتفخر عليها بأن لونها لون الخمر التى طالما تغنى بها الشعراء ، ثم أشتدت شعرا يرفع الثبر أو الذهب الذى يشبه لونها على الورق أو الفضة البيضاء التى تشبه لون صاحبها ، فجسمها هى نضار ، وصيغ - كالسك - سوادا وعطرا ، وتقول لها ما أكثر السمر الذين تشبه قلوبهم ما يتخذ من شجر الكافور من مادة بيضاء بلورية ، بينما نجمه نجم سعيد كل السعادة . وتليهما جارتان طويلة كاملة وقصيرة ، وما تقوله الطويلة للقصيرة : « يا زريمة بأجوج وأجوج ، إن الحل على القصار كالدر فى نحور القروذ ، وتقول لها القصيرة : « يا شقيقة الزرافة ، يا ناقة العشير (الزوج) وقصبة النشير (حبل الغسيل) .

وعلى ذلك مشهد السينة والنحيفة أو بعبارة أدق مناظرتهما ، وتقول السينة لصاحبتها إليك منقوضة اللحم إذ حُرِّم عليك كما حُرِّم على بنى إسرائيل الشحم ، وتقول لها النحيفة إن قلبها بالملف هائم ، كما تفعل البهائم . ونقرأ مناظرة العرية البدوية والجارية الحضرية وما تقول الجارية العرية : نحن ربات القلوب ، ومنتهى غاية كل مطلوب ، جمالنا بُدع جمال ، ولساننا أنصح لسان . وما تقوله الحضرية : إن رُغيان الجمال لا يفتخرون بحسن ولا جمال .

إلا إنما الحسنُ حسنُ الحَضَرِ عَليْنَا ومنا وفينا ظَهَرُ

وتناظرت العجوز والصبية ، وكانت العجوز مخضوبة البنان ، وليس لها أسنان ، وبدأت كلامها بقولها : الحمد لله راحم الشيب ، وستر العيب ، وما قالته الصبية للعجوز : « أما رأيت شعري الفاحم ، وثعري الباسم ، وغصني الناعم » . وقالت لها العجوز : « بورك فيك من صبية ، وفي أظفالك الزكية » . واستدار الجوارى حول العجوز ، فقالت لمن : « سأقول بينكن مقالة إحصاف ، يقتضيها الحق وجميل الأوصاف » وقالت لكل منهن كلمة أرضتها ، وبذلك ارتفع بينهن العتاب واللوم . وإذا كان عبد المهيمن الحضرمي لم يحاول أن يحاكي بديع الزمان ولا الحريري في مقاماتهما فإن مقامته تُمَدُّ طرفة أدبية بديعة .

ولتلقى في العصر السعدي بمحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩١ م ، وله مقامة نقدية عرض فيها طائفة من أدباء زمنه ، وعادة يسأل أين الأديب فلان ؟ ويجب بسطور مسجوعة منوها بأدبه ، وقد يكون السؤال عن مفتٍ أو فقيه ويجب ، ونذكر لذلك مثلاً إذ يقول^(١) :

« قلت : وأين الكاتب الأديب أبو العباس الفرديس ، فقال : الدر النفيس .. ووارث المجد الذى له التهويم^(٢) والتمريس ، فعلٌ سؤدده غير مَقْبِس ، فهو والسيادة سليمان وبلقيس ، وإته اليوم بفاس دار قراره ، ومشرق أنواره ، ومنبت رَنده وغراره^(٣) ، فلا نسل عن النبيه والنباهة . والفضل هناك الحب الوضاح ، والمجد الصُّراح ، والأدب المزرى بالراح ، ممزوجا بالماء القراح ، ينظم وينثر ، وعلى كل ما يشاء خاطر عنده يعثر » .

وعلى هذا النمط نعوت دائما مسجوعة تضاف للشخص تنويها به وثناء عليه ، وهى بذلك لا تعد مقامة إنما هى مقال عن بعض أدباء عصره وعلمائه . وأسلوب عبد المهيمن الحضرمي السابق فى مقامته القائم على المناظرة والمفاخرة شاع بين الكتاب المصريين فى زمن المماليك وشاع معه المفاخرة والمناظرة بين الأزهار فى ضروب من السفطة والمغالطة وقلب المحسن

التمريس : الإقامة .

(١) انظر فى هذه المقامة كتاب الوافى بالأدب العربى

(٢) الرند والمرل : من أزهار البوادی .

فى الغرب الأقصى ٦٩٩/٣ .

(٣) التهويم : الدوم الخفيف ولعله يريد الارتحال .

مساوئ، لغرض الإنعام والغلبة . ويمكن أن نعد من هذا النوع مقامة محمد بن أحمد المِكَلاتى التى كتبها فى أواخر العصر السعدى تحية لمحمد بن أبى بكر صاحب الزاوية الدلائية ، وسماها : « المقامة »^(١) الزهرية فى مدح المكارم البكرية ، ويجعلها على لسان شخص يسمى « بَسَام » يقول إبتهم نزلوا روضا بهيا وأمطرتهم السماء مطرا باتوا فيه ، واستيقظ فى السحر بين الضياء والنش ، وخال كأن وجوه الروض تسيل دما ، وتوههم من بقايا الشفق أسفر عنه ضوء الصباح ، وناداه أنا أخو الرياض الشقيق كم كسوته جمالا . يقصد أن ما يراه ويظنه دما إنما هو زهر شقائق النعمان . ويأخذ فى الاتخار بحسنه ، ويجاذبه الفخر زهر النمام فعود البان الذى طالما وصف الشعراء بقده قدود عيوباتهم الحسان ، والرجس يقول لنفس البان مفاخرها ورواصفا نفسه :

« أما راقت الياقوت الأصفر ، وسط الدر الأبيض ، على الزمرد الأخضر .. شموا النرجس ، ولو يوما فى السنة ، فثنا غذاء الروح ، لمن يندو عنى ويروح ، لطيف المزاج ، أصلح للعلاج ، وأزيل من الدماغ مضرة دخان السراج ، وأخيف على العشاق ، يوم التلاق ، وينشد قول بعض الشعراء :

وإذا قضيت لنا بعين مراقب يارب فلتك من عيون النرجس .
يعترض زهر البنفسج نائرا مفاخرها ، وقائلا له : لا يسلم لك فخر إلا على الورد فما لأمرك عليه من رد ، وينشد قول ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد :
خجلت حدود الورد من تفضيله خجلاً توردها عليه شاهد
للنرجس الفضل الميّن وإن أبى وحاد عن الحقيقة جاحد
وما يلبث أن يدخل الورد فى المعركة للرد على ابن الرومى ومن فضلوا عليه النرجس ، يقول المِكَلاتى :

وتدخل البنفسج « فأقبل الورد فى جنوده ، ناشرا لراياته ونوده ، محمرا الوجنات ، منكرا على البنفسج ما جاء به من الترهات :

ولقد رأيت الورد يلطم خده ويقول وهو على البنفسج يحنق
لا تقر به وإن تضوّع نشره من ينكم فهو العدو الأزرق^(٢)

وكيف يفخر النرجس من بين الرياحين ، على نخبة الملوك والسلطين :
إن كنت تنكر ما ذكرنا بعدما وضحت عليه دلائل وشاهد
فانظر إلى المصفر لونا منهما وافهم فما يصفّر إلا الحاسد

(٢) تضوّع نشره : فاحت رائحته .

(١) انظر فى هذه المقامة البرغ المرقى ٢٠٨/٢ .

ألم تسمع ما قيل ، مما سيلقى عليك القول الثقيل :

من فضلُ الترجسِ فهو الذى يرضى بحكم الورد إذ يترأسُ
أما ترى السورد غدا قاعدًا وقام فى خدمته الترجسُ

أنا مشرفُ الربيع . ومظهر ما له من البديع ، أتعشُ الأرواح ، وأنا عروس الأفراس ، نوافع ذكية^(١) ، وروائح شذية^(٢) ، أبديتُ ألوانا لأهل الأدب ، يقضون لها بالعجب ، فنى الأبيض والأسود الحالك ، ومنى وراء ذلك : أصفر فاقع ، وما نصفه قاني^(٣) ونصفه ناصع ، وبالمند منى شجر يُخرج وردا عليه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فأنا للرياحين ملك ملوكها ، ووسط عقودها وسلوكها :

فمن ذا يضاهينى بوصف فضيلة وفضل على كل الرياحين ظاهراً
زمتنى على الأزمان بى مشرف وفخرى لمن يبنى التفاخر قاهر

وفخر الورد بديع ، وقد أُنشد فيه المكلاتى مأثر من الأشعار التى تنى على الورد وتفضله على الترجس بل على جميع الأزهار . ونثر الفخر بل نثر المقامة جميعها بديع إذ كان يعرف المكلاتى كيف ينتخب ألفاظه وكيف يقابل بين سجعاته بألفاظ مألوفة ليس فيها غريب ولا شاذ نادر . وكانت تستمع إلى هذا الحوار حمامة مطوقة ، فأقبلت على الأزهار مفخرة بدورها ، تقول :

« فناحت بشجنها ، وتكلمت على فتنها ، وقالت : كلُّ يحاول جهده ، ويقول بما عنده ، إلى لا لكم الفخار ، وأنتم لنا أعشاش وأوكار ، وفروعكم لخطباتنا منبر ، ولقيناتنا ستائر ، أليس رءوسكم لأقدامنا خاضعة ، ولنا كلما نزلنا ساجدة وراكعة ، وإنما على ما زعمتم بنا من الجوى^(٤) وتباريجهم ، آخذون فى ذكر الله وتسيحه ، شغلنا بذلك فى الأسحار ، والمعنى والإبكار ... ونشأت غمامة تصانح أهدابها الأرض ، وتسد الآفاق على الطول والعرض ، يحدوها الرعد ، ويستجز منها الوعد (وينشد) :

وكان صوت الرعد خلف سحابة
أخفى مسالكها الظلام فأوقدت
جادت على الثلعات فاكست الرئي
حاج إذا وثت الركائب صاحا
من برقها كى تهتدى مصباحا
خللا أقسام لها الربيع وشاحا^(٥)

فشرت بالأرض جواهر تغار منها البحور ، وتزدان بها من أجياد الأزهار اللبأت والنحور ،

(١) الجوى : الوجد .

(١) ذكية : ساطعة .

(٢) شذبة : عطرة نسبة إلى الشذى .

(٢) شذبة : عطرة نسبة إلى الشذى .

(٣) قاني : شريط عريض مرصع بالجوهر .

(٣) قاني : شديد الاحمرار .

واختفت بعدما تجلّت ، وألقت على البطاح ما فيها وتخلّت ، ثم قالت : يا ذوات الأطواق ، البائحات بالأنشواق ، المفتخرات على الأدواح ، بالندو والرواح ، بكاؤكن كذب ، ونوحكن لعب .. ما الفضل إلا لمن أحيا الأرض بعد أن كاد زرعها بهيج فز اهترت وريت وأنتت من كل زوج بهيج (فقلاندها مدبجة ، ورروس أشجارها متوجة ، ولولاي لم يكن لكن مرعى ، ولا مسرح فى الأرض ولا مسعى .. وطلعت الغزالة ، وهى فى مشيها مختالة . وقالت : أعمال كسراب ، وعارض منجاب ، إذا طلعت عليه الشمس ذاب ، ألم تعلموا أنى يوح^(١) ، أغدو فى مصالح العالم وأروح ، ولولاي ما جرت الأنهار ، ولا تفتقت الأزهار . ويقول الراوى : إن جامع هذه الفضائل وإمامها عالم المسلمين .. محمد بن أبى بكر صاحب الدلاء الكريم الجواد ، ويقول بعد التنويه بفضائله إنه وقع التسليم بمناقبه ومناقب أبيه البكرية ، فطاف بالروض طواف الوداع عازما على أن يخدم جنبه بهذه الفكاهة .

وإنما أكرت الاقتباس من هذه المقامة لأدل بوضوح على روعة ما جلبه فيها المكلاى من أشعار وإبداعه فى نثرها المسجوع سحبا يحفظ بالعذوبة مع مائه فيه من ألفاظ قرآنية بديعة من مثل آية آل عمران : ﴿واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار﴾ وآية سورة الانشقاق فى وصف الأرض : ﴿والأقنت ما فيها وتخلت﴾ وآية سورة الحج : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهترت وريت وأنتت من كل زوج بهيج﴾ .

ونمضى إلى عصر الدولة العلوية وعهد سلطاتها إسماعيل وما كان فيه من نهضة أدبية واشتهر بين الأدباء حينئذ محمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ للهجرة وسفرد له ترجمة بين كبار الكتاب ، وكان يعاصره محمد المسناوى الدلائى المتوفى بعده بعامين سنة ١١٣٦ هـ/ ١٧٢٤ م وله مقامة سماها المقامة الفكرية يكي فيها زاوية الدلاء حين هاجمها وغرّبها السلطان إسماعيل العلوى ، وهو يطيل الحديث عن متنزهاتها ورياضها وأنهاهاها التى كانت تملأ بطاحها وتلالها ، ويشمر بخزن عميق حين يراها تحولت أطلالا عافية ، يقول^(٢) :

« منازلها خاوية ، والذئباب فى أرجائها عاوية ، وليس بها إلا الغريان واليوم ، والحمام تنوح فى أطلالها ونحوم ، فخرجت منها ودوعى نهر غزير ، بقلب كبير . »

ونلتقى أخيرا بمحمد بن إدريس وزير السلطان عبد الرحمن العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧ م وله مقامة يصف فيها حملة لتأديب إحدى القبائل ، ويصور مسيرتها بين الزروع والرياض ، وينسب الحديث فيها إلى نصر بن كرامة ، وفيها يقول^(٣) :

(١) يوح : اسم للشمس .

(٢) للدكتور محمد الأخضر ص ١٩٩ .

(٣) انظر المقامة فى النبرخ المغربى ٢٤٣/٢ .

« مطارف السندس بالآفاق قد نَشِرتْ ، وجيوش النُّور (الزهر) حُشِدَت ألوانها وحُشِرَت :

والأرض تُجَلِّى عروساً فى ملابسها وثُت حُلَاها يَدُ الأنواء بالزَّهر^(١)
والنسيم قد عَطَّر بنشره الأندية ، وغازل الأغصان فنازعها المطارف والأردية ، وجَرَّ ذيل
دلاله فى الآكام والأودية :

والريح تَلِطُمُ فيه أُرْدافَ الرُّبى مرحاً وتلُمُ أوجَةَ الأزهارِ
ومنايرُ الأغصان قد قامت بها خطباءُ مَفصَّحَةٌ من الأطيارِ

.. والناظر الأديب التأمل ، ينشد قول المجنس المثل .

إن هذا الربيع شىء عَجِيبٌ تضحك الأرض من بكاء السماء
ذهبَ حيثما ذهبنا ودرٌ حيث دُرْنَا وَفَصَّةٌ فى الفضاءِ

والجيش المنصور بحر متلاطم الأمواج ، يسير فيملاً الفضاء وَيُفِصُّ الفِجَاج ، ويقم فيكون
هالةً على بدر سعودٍ وشرف ، وسُورَ حفظٍ لا يُعْرِفُ له طرف ، قد رُصَّتْ صفوفه ، وتعددت
ألوفه ، وتنوع أجناسه وصفوفه .

والألفاظ والأسجاع والأبيات مختارة ، بحيث تغمرها السلاسة ورونق العذوبة ، مع حسن
البيان ، مما يكسب العبارات بهاء . وبدون ريب تدل مقامات ابن إدريس والمكلائي والحضرمي -
كما دلت الرسائل والخطب السابقة - على نهضة الشعر فى المغرب الأقصى .

(ب) الرحلات

أعدت فريضة الحج وزيارة القبر النبوى - من قديم - لمسيرة القوافل سنوياً من المغرب
الأقصى إلى مكة والمدينة ، مما جعل كثيرين هناك يشغفون بتلك الرحلة والكتابة عنها ، وأيضاً
فإن مراكز الثقافة تعددت ، فكان كثير من شباب المغاربة يودون لو تزودوا من هذه المراكز
بما يأملون فيها من لقاء شيوخها بتنوع ثقافتهم ، وكثرتوا يشعرون أن من واجهم التحدث
عن هذه المراكز ومن التقوا بهم من شيوخها واستمعوا إليه وإلى ما دار أحياناً فى بعض المجالس
من حوار علمى أو أسئلة علمية . وبهذين الدافعين أخذ كثير يرحلون فى هذه القوافل عبر
البلاد المغربية ومصر والشام من أهل المغرب الأقصى ، وعنى بعضهم بوصف رحلته ووصف
البلدان التى نزحوا وحلقات الشيوخ الذين استمع إليهم .

(١) الأنواء : الأمطار .

من أقدم الرحلات المغربية وأهمها رحلة ابن رشيد محمد بن عمر الفهرى ، وحدثنا عنها وعن مؤلفها الأستاذ محمد بن تاويت فى الجزء التلى من كبله « الوافى » ونقل عن ابن خلدون أنه كبير مشيخة المغرب وسيد أهله كما نقل عن أبى البركات البلفيى أنه من أهل المعرفة يعلم القراءات السبع وصناعة العربية وعلم البيان والآداب والعروض والقوافى مشاركا فى غير ذلك من الفنون أدبياً خطيباً بليغاً ، ينظم الشعر على تكلفه ويجوّد الشر ، ولد سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م وتوفى حوالى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م بدأ رحلته فى الخامسة والعشرين من عمره ، سنة ٦٨٣ وسجل فيها كل ما شاهده من البلدان والشيوخ ومجالسهم وأخذ عنهم ، وسماها : « ملء الغية (الحقيقة) فيما جُمع بطول الغيبة ، فى الوجهة الوجهية إلى الحرمين : مكة والمدينة » . وتعد مرجعا مهما لعلماء مصر والبلدان المغربية فى أواخر القرن السابع الهجرى ، إذ امتدت رحلته أربع سنوات ، وهى فى خمس مجلدات ولا تزال مخطوطة وربما كان طولها هو الذى منع حتى الآن من طبعها ، وأسلوبه فيها - كما يقول الأستاذ ابن تاويت - مرسل إلا فى وصفه لبعض الشخصيات العلمية أو لبقعة طيبة فإنه يصوغها سجما خلاصا كقوله عن حازم القرطاجنى :

« حبر البلغاء ، وبحر الأدباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لا نعلم أحدا ممن لقيناهم جمع ، من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقل البيان ما أحكم من منقول ومبتدع ، وأما البلاغة فهو بحرها المذهب ، والمنفرد بعمل رابتهما أميراً فى الشرق والغرب ، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها ، فهو حماد^(٢) راويتها وحمال أوقارها^(٣) .

ويخص مصر بالجزء الثالث من رحلته ، ونسوق منه وصفه لمجلس لعالم مصر فى العربية لزمه : بهاء الدين بن النحاس الحلبى الأصل تلميذ ابن مالك وأستاذ أبى حيان ، يقول :

إنه « حضر درسا له ، فسأله ابن النحاس بعد تدخله فى مسألة نحوية : من أين قدومك ، قال ابن رشيد : قلت : من المغرب . قال : من الإسكندرية ؟ قلت : من أبعد ؟ قال : من تونس ؟ قلت : من أبعد ، قال : إذن من جوا (من داخل) المغرب ؟ قلت : نعم ، فقال من أى بلاده ؟ قلت : من « سبّة » فكان أول ما فأتعنى به أن قال : أيعيش سيدنا أبو الحسين بن أبى الربيع قلت : نعم ، فقال : ذاك شيخنا ، إفادة بوصول كتبه اليتيم إلى ، يريد شرحه

النوى . انظر أزهار الرباض ٣٤٧/٢ .

(٢) حماد هو حماد رابوة الكوفة المشهور .

(٣) أوقار جمع وقر : حل .

(١) انظرها فى الوافى ٣٨٥/٢ وما بعدها . وتوسع المقرئ فى الحديث عنه وعن رحلته وشماله وشيوخه غربا وشرقا وتآلفه ويقول إنه كان ظاهريا ثم يعلق على ذلك بأن المعروف أنه كان مالكا ويذكر عنايته بالحديث

لكتاب الإيضاح للفارسي .. ثم قال لى : أقرأت عليه ، قلت نعم قرأت : الجُمل (للرجاجى)
 والإيضاح والكتاب (لسيويه) فلما ذكرت الكتاب قال : فاعبر (أى الحلقة يريد انتقاله إلى
 جواره) وتلكأت فى هذا العبور واستحييتُ منه ، ولكنه أصرَّ على أن أعبُر إليه ، وعبرت ،
 فأقصدنى إلى جانيه ، فجلست مُغضياً (منكماً) حياءً منه ، فقال : اجلس متسماً ، فجلست
 وتماذى فى الإقراء ، فاخترت الكلام - أثناء إقباله على من بين يديه من التلاميذ للإلقاء
 عليهم - مع الذى كان عن يمينى اختلاسا ، وسأته من الشيخ ؟ فقال : بهاء الدين بن النحاس ،
 والتفت الشيخ إذ رَقى وثبت بين يديه ، فقال : لم ؟ أرجع إلى موضعتك ، فقلت : يا مولانا
 لم يعرف الملوك مَنْ أنت ؟ ولو علم ما جلس هذا المجلس (أى بجوارك) وما تكلم ، فغزم
 على فى القود إلى مجلسى ، فعدت ، وأشار بالاطمئنان فاطمأنت .

ولوصف لمن رشيد لهذا المجلس دلالات ، فقد كان شلما فى نحو الخامسة والعشرين من
 عمره ، ولبن النحاس شيخ كبير ، بل غلَم النحلة فى عصره ، وحين عرف فيه بعض الفضل
 العلمى فى العلم الذى يلقبه : علم العربية ، طلب إليه أن يبرر الحلقة ويجلس بجواره رغم
 صغر سنه . وكان علماء القاهرة والإسكندرية دائما يكرمون من يفد على مجالسهم من المغرب
 الأقصى شلما أو شيوخا ، وكانوا يتلمذون لهم ، ويطلبون منهم إجازات فى قراءة بعض
 مؤلفاتهم . ومن يرجع إلى ما كان يقرأ هناك من هذه المؤلفات سيجد كثرة غامرة من كتابات
 العلماء المصريين ومؤلفاتهم تقرأ هناك وقد تشرح مرارا ، ومن يتردد اسمه هناك فى الفقه المالكي
 والأصول ابن الحاجب وابن دقيق العيد والشيخ خليل والقرافى وغيرهم من جلة العلماء المصريين
 فى كل علم وفن . وبالمثل كانت مصر تتداول بعض المتون والمؤلفات المغربية . وهذا بهاء
 الدين بن النحاس يقرأ لمعاصره ابن أبى الربيع عبيد الله بن أحمد العالم النحوى الكبير الذى
 هاجر من إشبيلية حين استولى عليها الإسبان سنة ٦٤٦ للهجرة إلى سبنة وأقرأ بها العربية طوال
 حياته إلى أن توفى سنة ٦٨٨ للهجرة . ونرى لمن النحاس وقد قرأ له شرحه على كتاب الإيضاح
 لأبى على الفارسي يتلطف فى السؤال عنه فيقول : « أبيعش سيدنا » ثم يعود فيقول لابن
 رشيد : ذلك شيخنا ، وقد جملة شيخه ، لا لأنه تلمذ عليه مثل لمن رشيد ، ولكن لأنه قرأ
 له شرحه للإيضاح ، وفى ذلك ما يدل على مقدار إجلال أسلافنا من العلماء لمن يقرءون لهم
 بعض مؤلفاتهم فينتزهنهم بأنهم شيوخهم ، وإن لم يلقوهم ، ولا حضروا لهم درسا فى
 مجالسهم العلمية . ويذكر الأستاذ ابن تاويت لابن رشيد نادرة حدثت له فى مدينة رابغ
 بالحجاز ، يقول :

« غربة عنت لنا فى رابغ ، بل أغنت فى معنى قوله تعالى وأنت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا
 ليبلونكم الله بشئء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغييب ﴾ وذلك أنه

صحبني في الطريق من المدينة ، على ساكنها الصلاة والسلام ، إلى البيت الحرام ، أحد الشيوخ من شرفاء المدينة ، فلما وافينا ريف ، رأيت عجا من تخلل الوحوش والغزال والأرنب ، بين الجمال والرحال ، بحيث ينالها الناس بأيديهم ، والناس ينادون : حرام ، حرام ، والجوارح قد سلسست .. فقال لي ذلك الشيخ تأمل تر عجباً ! هكذا جرت عادتنا في هذا الطريق ، إذا مررنا به ونحن محرمون نجد به من الوحش ما ترى ، فإذا عُذْنَا عُلَيْنَ لم نجد شيئاً . فلما عدنا كان كما قال ، فبان لي من معنى الآية ما لم يكن عدى بالمشاهدة .

ويثر لمن رشيد في رحلته ، بعض أبيات له ، تدل على أنه كان ينظم الشعر ، وهو شعر متوسط ، أما نثره سواء سجع أو استرسل طليفاً من السجع نثر جيد . والرحلة تكتظ بمعارف كثيرة عن الحركة العلمية في البلدان العربية وشيوخها لزمنه .

(ب) رحلة^(١) العبدري

هو أبو عبد الله بن محمد العبدري ، أصله من منطقة حاحة إحدى مناطق إقليم مراكش ، وهي منطقة وعرة تمتلئ - كما يقول الحسن الوزان - بالجبال العالية الصخرية والغلابات والأودية المائية الصغيرة . ويبدو أنه نشأ في حاحة وأكمل تعلمه على شيوخ مراكش ، وكان أديبا يحسن نظم الشعر وصوغ النثر ، ولم يلتزم السجع دائماً في رحلته ، وقد بدأها - كما يظن - في العقد الثالث من حياته سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٩٠ م وقد استغرقت منه عامين طويلين ، وبدأها من حاحة موليا وجهه نحو شمالي الجزائر حتى مدينة مليانة ، ومر منها بالمدن في الشمال حتى تونس ، ومنها إلى طرابلس فالقنطرة المصرية بادئا منه بالإسكندرية وأعجبه فأقام بها فترة ، ثم تركها إلى القاهرة وحمل عليها ، كما حمل على طرابلس من قبل ، واتجه منها إلى العقبة فإقليم الحجاز حيث أدى فريضة الحج ، وزار قبر الرسول العطر ، وعلا من طريق فلسطين إلى مصر فالبلدان الإفريقية حتى بلدته ، ونراه أحيانا في وصفه للبلدان يبالغ في الثناء تارة ، وتارة ثنية يبالغ في الذم والقذح ، وقد أضفى ثناءه على مدينة مليانة في الجزائر ، وفيها يقول :

« مدينة مجموعة مختصرة ، وليست بذلك عن أمهات المدن مقصورة ، أشرفت من كتب على وادي (نهر) شلف ، واستشرفت نسيم طرفها من شرف ، في روضة جمة الأزهار والطُرف . فرعت (امتدت) في سفح جبل حمى حياها أن يرام ، وشُرعت في أصل نهر يشفى المقيم من الهمام ، شاق منظرا ، وراق مخبرا ، وشفى الظمأ موردا ومصدرا ، يشتهي الناظر إليه وهو ريان الشروع ، ويقول : لورُشْ به - لأفاق - المصروع ، وكأن حصاهه

(١) انظر في رحلة العبدري كتاب الوافي ٣٩٣/٢ وقد

نشر الرحلة وحققها الأستاذ محمد الفاسي وهي مطبوعة

جُمان والماء من فوقه دموع » . ومليئة من المدن التى بناها الرومان قديما ، وهى على قمة جبل ، وبينها وبين شرشال على البحر المتوسط أربعون ميلا ، والجبل المشيدة عليه ملء بالينابيع ومغطى بأشجار الجوز » . ويقول الحسن الوزان إن بيوتها متقنة وبداخلها فستقيات جميلة ، وسكانها فى زمنه من الصناع والحائك والخراطين ، وتشتهر بصنع أوان لطيفة من الخشب ، وكثيرون من أهلها يزرعون الأرض . وإذا كنت القاهرة لم تعجب العبدى فإن الإسكندرية أعجبت فيها يقول :

« مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الإشراف اللامع والطلاقة ، وطلاوة النظر وحلاوة المذاقة ، كلٌ عنها ظُفر الزمان ونابه ، وقُلٌ منها جيش الحِلْثان وأحزبه ، فلم تبد عليها للزمان ضراعة ، ولا وكست لها فى معاملاته سلمة ولا بضاعة ، ولا وقت له موقف ذل يوما ولا ساعة ، بل ثبت لحربه ثبوت البطل ، وصابرت كيده حتى اضمحَلُ سحره وبطل ، فلم تصغ أذنا إلى ما يوعده به من الخنا والخطل ، فهى واقفة وقوف الأطواد سامة بطرف غير كليل وجيد غير متآد^(١) ، آخذة من الكفر وأحله بالمخنق^(٢) ، حتى أبدلتهم من الصافى المروق الكدر المرتق^(٣) ، فسامروا الأسف مسامرة الندى للمخلق^(٤) ، ودجا عليهم ليل هم ادلم بعد نهار سرور تألق ، واضطرم عليهم الأسى واحتدم ، فحالفوا الندم .. مدينة فسيحة الميدان ، صحيحة الأركان ، مليحة البنيان ، تُسفر عن مُحجًا جميل المنظر ، وترنو بطرف ساج^(٥) أحور ، تبسم عن ثغر كالأقحوان إذا نور ، كلفه لم ينب عنها شخص الإسكندر^(٦) ، بما ساس فيها من عجائب مباتيها ودُبر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسناتها غيرها وحجب ، ووفى فيها الإلتفات حقه كما وجب ، وقد أغنى عن تسطير وصفها ما سطره الأعلام ، وصرت^(٧) به على المهرق الأفلام » .

وكان العبدى يتخفف أحيانا من السجع ويرسل الكلام إرسالاً ، ويمثل الأستاذ ابن تاروت لذلك بقوله فى عمود السوارى بالإسكندرية :

« هو حجر واحد مستدير عال جدا ، على قدر الصومعة (المأذنة) المرتفعة ، وهو يبدو من بعيد بارزا فى غلبة الخيل مرتفعا عنها ، وقد أقيم على حجارة منحوتة مرتفعة ، على قدر الدكاكين العظام ، علوها أزيد من قامتين ، ولا يعلم كيف أقيم عليها ، ولا كيف ثبت هنالك مع الرياح والمواصف ، وهو مما لا يمكن تحريكه البتة ، فضلا عن إقامته هنالك » .

(١) غير متآد : مستقيم .

(٢) المخنق : موضع الخيل فى المنق للخنق .

(٣) المرتق : المزودل الكبر .

(٤) المخلق : المخلوق .

(٥) ساج : ساكن .

(٦) الإسكندر هو الإسكند المقدونى مؤسس الإسكندرية .

(٧) صُرْتُ : صوت . المهرق : الصحيفة يكتب فيها .

(١) غير متآد : مستقيم .

(٢) المخنق : موضع الخيل فى المنق للخنق .

(٣) المرتق : المزودل الكبر .

(٤) المخلق : المخلوق .

(٥) ساج : ساكن .

(٦) الإسكندر هو الإسكند المقدونى مؤسس الإسكندرية .

(٧) صُرْتُ : صوت . المهرق : الصحيفة يكتب فيها .

ولعله لم يظلم بلدا كما ظلم طرابلس ، فقد ذمها ذما بالغ فيه : ذم موقعها وبيئتها وذم أهلها ، وربما كان ذمه لطرابلس وغيرها مثل القاهرة يرجع إلى أنه لم يكن يخالط ذوى المروءة فيهما ومن يحمله على المدح لا على القدح ، أو كان يتعرف على أشخاص مذمومين فذم - دون ريث وتأن - البلد التى تآوى أمثالهم ، وقد نالت تونس منه الحظ الأوفر فى الشتاء ، ومن قوله على لسانها :

أما الغداة الحسناء فاق جمالها فقالت يميناً لا خطبتُ على زوج
إذا الغقيات ارتدّدتْ وصفَ بعولته فما بى ولا فخر - إلى الزوج - من خوج
وفى لمكدودى الحجيح استراحة فهم يردونى الدهر فوجاً على فوج
ولتى - إلى البيت العيسق - كلّم به يرتقى من فى الحضيض إلى الأوج

رحلة^(١) العياشى

هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى المولود سنة ١٠٣٧/١٦٢٨ م ، كان أبوه من شيوخ الزاوية الناصرية ، وعنى به حفظه القرآن الكريم وثقفه بما يعرف من العلوم الدينية واللغوية ، وأُرسل به إلى مدينة فاس ليتزود من حلقات علمائها ، وأخذ يبرع فى بعض العلوم ، وألف فى كثير من المسائل النحوية والفقهية وفى الحديث النبوى وفى التصوف ، وكان شاعراً وله مدائح نبوية كثيرة ، توفى سنة ١٠٩٠ هـ/١٦٧٩ م واشتهر برحلته إلى أداء فريضة الحج ، وهى رحلة موسوعية يعطينا فيها معلومات كثيرة عن البلدان التى نزل فيها والمحركات العلمية بها ، ومن قوله فى حديثه عن إقامته بالمدينة المنورة :

« كانت مدة إقامتنا بالمدينة سبعة أشهر ونصف لأننا دخلناها - كما تقدم - فى الليلة الثانية من محرم ، وكان خروجنا منها إلى مكة فى السابع عشر من شعبان ، وكنا نسكن أولاً فى محل نزولنا بجوار مشهد سيدنا إسماعيل ، كما تقدم ، وكان أفسح الأمكنة وأوسعها ولبعدها عن زحام الناس ، به أخيلة للوضوء ، وثران - كما تقدم - وكان يقيم المشهد أحد أصحابنا المغاربة المجاورين ، وهو الذى أنزلنا به ، وكان يتولى إصابحه وكسه وإغلاق أبوابه ، ويقبض ما يؤتى به من الصدقة إليه ، ولأه ذلك مفتى المالكية بالمدينة صاحبنا الخطيب أحمد وأخوه الخطيب عبد الرحمن لأن ولاية المشهد لهما . فإذا اجتمع من الصدقات ما له بال دفع لهما حصة منه ، واتنفع بالباقى ، كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة وبغيرها . »

وهكذا يجرى الأسلوب مرسلًا حراً طليقاً فى أكثر جوانب الرحلة ، وكأما أخذ العياشى

(١) انظر فى رحلة العياشى الوائى ٧٦٣/٣ والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٩٠ .
وطبعت الرحلة قديماً بفلس ، وعنى بطبعها وتحقيقها الدكتور محمد حجي وألحق بها فهرس مهمة .

فى القرن الحادى عشر يردّ على ما كتبه البدرى عن طربلس فى القرن السابع وضمه لها وقدره فيها فقد زارها فى رحلته سنة ١٠٥٩ هـ/ ١٦٥٠ م ويصفها قائلا :

« كان دخولنا لمدينة طربلس قرب الظهر يوم الأربعاء سابع عشر رجب الفرد ، وهى مدينة مساحتها صغيرة ، وخيراتها كثيرة . ونكايتها للعدو شهيرة ، ومآثرها جليلة ، ومعايها قليلة ، ثيقة البناء ، فسيحة البناء ، عالية الأسوار ، متناسبة الأديار ، ولسعة طرقها ، سهل طرقها ، إلى ما جُمع لأهلها من زكاة الأوصاف ، وجميل للإتصاف ، وسماحة على المتعاد زائدة ، وعلى المتعافين بتأواع الميرة عاتلة ، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لفوا إلا سلاما ، ولو لم يستحق ملاما ، سيما مع الحجاج الواردين ، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العاهدين ، ففهم يبالغون فى إكرامهم ، ولا يألون جهدا فى إفضالهم عليهم . وهذه المدينة ببلان : باب إلى البر ، وباب إلى البحر ، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها ، والحصن الذى فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية البر بينه وبين البحر . ولأمير هذه المدينة نكاية فى العدو - دمرهم الله - وله مراكب قلّ نظيرها معدة للجهاد فى البحر ، قلما تسافر وترجع بغير غنيمة . وقلما أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة ، لا من سفن الجهاد ، فجزاهم الله خيرا ، وأعظمهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين . »

رحلة^(١) ابن ناصر

هو أحمد بن محمد بن ناصر رئيس الطريقة الناصرية بتمكروت (قرية بوادى درعة جنوبى مراكش) وقد ولد بها لأبيه شيخ الطريقة سنة ١٠٥٧ هـ/ ١٦٤٧ م وعنى بتربيته وتثقيفه ، واختلف إلى حلقات العلماء بفاس ، وحج مرارا وكثرت آخر حجة له سنة ١١٢١ هـ/ ١٧٠٩ م وبعد هذه الحجة كتب رحلته ، وفيها سجل كثيرا عن الحركات العلمية فى البلدان العربية ، ولذلك ، تعد مصدرا مهما للتعرف على النشاط العلمى بها وشيوخها حينذاك . ومن قوله فى وصف موجة للحرارة عاناها مع رفاقه فى أحد شباب الحجاز :

« نزلنا غربي الأكرة بين العشاءين ، وفى هذه المسافة لما توجهنا عام تسعة (١١٠٩ هـ) هبت على الناس ريح السموم ، من نضيج البخوم ، واشتد الحر وتوالى الكرب على الناس ، وضاعت الحيل والإيناس ، واشتد العطش على الرجال والجمال ، يشرب كل ، ولا يُغنى شربه ، بل يتزايد بتناول الماء كربه ، لا يبين المفتح والماء عن فيه إلا وتزايدت حرارة العطش له . فبركت الإبل وفرت لظلال الأشجار ، وتدسل رأسها فى أدنى ظل يبدو لها وإذا بركت لا تكاد

وما بعدها .

(١) انظر فى رحلة ابن ناصر والنس للقبس منها كتاب

الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ١٧٢

تقوم ولو قُطعت إربا إربا . واشتدت الحال وبلغت القلوب الحناجر ، وكلحت الوجوه ، واغبرت الغرر وتغيرت ، واسودَّ لَيضها وتكرت ، فترى الرجل لا بأس به (سليما) فإذا به يُخشى عليه الفتوت ، فإذا أوتى بالماء سبقه إليه الموت . وهلك من الناس كثيرون ومن الإبل أكثر ، وترك الناس بضائعهم وأحلامهم مشحونة بأزوادهم وما به قوامهم ، خافت في الفلوات ، وذهبوا بأنفسهم في طلب النجاة . يومٌ يذكر بالموقف والعرض ، (في يوم القيامة ، وضاعت الدنيا على سعتها في الطول والعرض ، يود الإنسان لو يجد السيل إلى باطن الأرض ، للناس فيه حيارى ، وتراهم سكارى وما هم بسكارى . مات من المغاربة زهاء الستين بالمعش من نساء وصبيان ورجال وولدان » .

وهذا اليوم الشديد الحرارة لم يحدث له في حجته الأخيرة إنما حدث له في حجته الثالثة سنة ١١٠٩ ورحلته بذلك تضمن أهم المشاهد التي رآها أو صادفها في رحلاته المختلفة إلى الحج . والرحلة بأسلوب مرسل غير أنه يسجّع فيها أحيانا على نحو سجعه في مشهد هذا اليوم الحار وهي طرفة من طرف الرحلات المغربية . وتوفى سنة ١١٢٩هـ/١٧١٧م .

رحلة^(١) الوزير الفسائي

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الملقب بالوزير الفسائي وزير السلطان إسماعيل العلوي المتوفى سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٨ م وقد أرسله السلطان في سفارة إلى ملك إسبانيا للتفاوض في اقتداء الأسرى المسلمين ومحاولة استرجاع الكعب العريية الباقية عندهم في المساجد الأندلسية القديمة ، ولما عاد إلى وطنه في المغرب الأقصى كتب رحلة وصف فيها إسبانيا سماها : « رحلة الوزير في انتهاك الأسير » وكان دقيق الملاحظة ، فحملت رحلته ملاحظات مهمة عن إسبانيا في الفترة التي زارها فيها ، وهي مكتوبة بأسلوب مرسل طليق لا أثر للصنعة فيه ، ومن قوله في استقبال الملك الإسباني له :

« حين قربنا من باب القصر لقينا وكيل المورودوم .. فسلم ورحب ودخل بنا الدار .. فجمعنا نمرَ بجماعات من الأعيان والأكابر ، فيسلمون ويقف كلٌّ عند حده ، إلى أن دخلنا قبة كبيرة يليها كاتب الديوان الكبير ، وهو رجل كبير السن بلغ منه الكبر إلى أن انحنى فلقينا أحسن الملاقاة .. ودخل بناقبة أخرى لها باب ، وفي هذه القبة وجلنا الطاغية واقفا على قدميه ، وقد جعل في عنقه سلسلة من ذهب ، وتلك هي عوائد ملوك المعجم ، إذ هي عندهم بمثابة

(١) انظر في هذه الرحلة الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ص ١٥٦ وما بعدها . وهي مطبوعة بطنجة .

التاج ، وعن يمينه طيلة من ذهب مرصعه أعدّها - وصنعها - أيام مقامنا بعد وصولنا ، ليحمل عليها البراءة السلطانية إجلالا وتعظيما لمرسلها أعزه الله تعالى .

رحلة^(١) محمد بن عثمان المكناسي

ولد محمد بن عثمان بمكناس في أواسط القرن الثاني عشر الهجري وتوفي سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م وكان أدبيا ، فعينه السلطان محمد بن عبد الله العلوي كاتبا في دواوينه ، ثم اختاره حاكما لسطوان ، ثم عينه وزيرا ، وله رحلات متعددة ، طبعت جامعة الرباط منها رحلته إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا بدعوة من حكومة الجزائر سنة ١١٩٣ هـ / ١٧٧٩ م لافتكاك الأسرى الجزائريين ورد حريتهم إليهم ، وقد سماها : « الإكسير في فكك الأسير » ونشرتها أخيرا جامعة محمد الخامس بالرباط ، وكان أدبيا شاعرا وكاتبا ومن قوله في وصف مَدرّيد :

« هذه المدينة كبيرة غاية في الكبر وضخامة البناء حاضرة الحواضر ببلاد إسبانيا ، بنيت على روبة يبلها وادي (نهر) متناسر زادها حسنا وبهاء ، وبهجة وثناء ، وقد غرسوا على جانب الوادي الذي من ناحية المدينة أشجارا كثيرة مثل النشم وما أشبهه في غاية العلو بصفوف معتدلة يتفيتون ظلها عشيّة وقت خروجهم ، يترددون على حاشية الوادي المذكور على أكداشهم (دوابهم) ومن لم يكن عنده كدش يخرج على رجله . ولما دخلنا المدينة المذكورة وجدنا بها من الخلّاتق أضعاف من تلقّا بخارجها ، فسرنا في سكك متسعة ودبار مرتفعة ، فجلُّ ديارها لها ست طبقات وخمس طبقات ، لكل دار شراحيب مفتحة للأزقة ، مغلقة بالزاج عليها شيليك الحديد ، وأسواقها عامرة ، مشحونة بأهل الحرف والصنائع ، والتجارة والبضائع ، وجلُّ باعتهما من النساء » . وحسبنا ما تقدم عن الرحلات الحجازية والأوربية .

٥

كبار الكتاب

(أ) القاضي عياض^(٢)

هو أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبئي علامة عصره ، استقرّ أجداده قديما في مدينة بسطة من أعمال غرناطة ، وانتقلوا إلى فاس أيام الأدارسة ، وبارحوها إلى مدينة سبتة بعد دخول بني عبيد الفاطميين المغرب في القرن الرابع الهجري ، وكان أول من نزلها من أجداد

(طبع الرباط) ركتاب نُزهار الرياض في أخبار عياض للمفري (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، والبروغ المغربي ١١/٢ وفي مواضع متعددة والوافي ٥٢/١ .

(١) انظر الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) انظر في سيرة عياض وأعماله كتاب ابنه محمد : التعريف بالقاضي عياض تحقيق الدكتور محمد بن شرفية

القاضي عياض جده عمرون ، وكان موسرا ، فاشترى بها أرضا وهي المعروفة باسم المنارة وبنى بها مسجدا وديارا وقفها على المسجد ، ووقف بقيتها مقبرة للدفن ، ووُلد له ابنه عياض ، وولد لعياض ابنه موسى وولد لموسى ابنه عياض سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ونشأ طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه - كما يقول ابنه - معظما عند شيوخه لما لاحظوا من ذكائه وراكبته على الدرس إلى أن برع في زمانه ، وتفوق على أقرانه ، وكان من حفاظ القرآن الكريم ، لا يترك تلاوته والقيام على معانيه وإعرابه وشواهد وأحكامه كما يقول ابنه ، وكان - كما يقول - من أئمة زمانه في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه حاذقا بتخرجه ، كما كان فقيها حافظا لمسائل مدونة سحنون ومختصر ابن أبي زيد القيرواني ، وكان غويا رئيسا من الأدب شاعرا مجيدا من أكعب أهل زمانه خطيبا مفوها ، مقداما على الأمراء في استقضاء حوائج الرعية عندهم ، عبقيا في قلوب العامة والخاصة . ويضيف ابنه أنه أخذ عن أشياخ بلده ، ثم رحل إلى قرطبة بالأندلس سنة ٥٠٧ للهجرة ، وأخذ عن شيوخها ، وخرج إلى مرسية في أوائل سنة ٥٠٨ . ولزم الحافظ الحسين بن محمد الصدفى فترة ، وأجازته جماعة كثيرة من أعلام^(١) الأندلس وتونس ومصر والحجاز . وولى القضاء في بلدته سنة ٥١٥ للهجرة ونُقل إلى غرناطة قاضيا بها سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م وصُرف عنها سنة ٥٣٢ وعاد إلى قضاء سبتة سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م . وفي بدء دولة الموحدين غزا عبد المؤمن سبتة فردَّ جيشه أهل سبتة ومعهم القاضي عياض ، ولما قُتل تاشفين وقضى الموحدون على دولة المرابطين وفتحوا مدينتي فاس وتلمسان بايع أهل سبتة عبد المؤمن ، ولقيه القاضي عياض في مدينة سلا وهو يستعد لفتح مراكش فأجزل صلته ، ولما انتفضت الأندلس على عبد المؤمن بسبب ثورة محمد ابن هود ثارت سبتة - برأى القاضي عياض كما قيل - وحاربها عبد المؤمن وعادت إلى الطاعة ، واستدعى عبد المؤمن القاضي عياضا ، فآخذ من سبتة إلى مراكش مغلولا سنة ٥٤٢ للهجرة حتى إذا اجتمع بعبد المؤمن في مراكش واستعطفه ببعض منظومه ومنشوره عفا عنه على بُرِّ وجهه وأكمله ، وأمره بلزوم مجلسه ، كما يقول ابنه ، ومنزله عنده تزداد كل يوم سحوا ورفعة إلى أن توفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م . وكتب ابنه محمد فضلا عن مؤلفاته وأهمها : كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ودوت شهرة هذا الكتاب في العالم الإسلامي إلى اليوم ، وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك في خمسة أسفار ، وكتاب إكمال المعلم على صحيح مسلم ، وهو زيادة في الشرح على شرح المعلم بفوائد مسلم للإمام المالكى الصقلى محمد المازرى دفين النستير بتونس إلى غير ذلك من كتب نفيسة من أهمها كتاب له في النقد والبلاغة سماه « بنية الرائد » كتب عنه الأستاذ محمد بن تاويت فضلا في ترجمته

متعددة .

(١) راجع في هؤلاء الشيوخ كتاب ابنه السابق ص ١١٩ وما بعدها والجزء الثاني من أنهار الرياض في مواضع

بالجزء الأول من كتابه الوافي بالأدب في المغرب الأقصى وهو يعرض فيه بعض صور النقد والمحسنات البديعية من مثل الجناس والطباق والترصيع . وكان له كتاب خطب ومواعظ دينية ، وهو مفقود ، وفي أزهار الرياض عن ابن خاتمة أن هذا الكتاب يشتمل على خمسين خطبة من خطب الجمعة ، وروى له ابنه في التمرين به خطبتين ، يقول في إحداها حاضا على التقوى :

« أيها السامع قد أبقيتك صَرَفٌ ^(١) القدر من سِنَةٍ ^(٢) الهوى وسكراته ، ووعظك كتاب الله بزواجه وعظاته ، فتأمل حدوده وتدير محكم آياته ﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا﴾ ^(٣) أين الذين عَتَوْا على الله وتعظموا ، واستطالوا ^(٤) على عباده وتحكموا ، وظنوا أن لن يُقَدَّرَ عليهم حتى اصطَلِمُوا ^(٥) ، ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾ غرهم الأمل وكواذب الظنون ، وذهلوا عن طوارق البَير ^(٦) ورَبِّ المَنُون ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون - حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا﴾ فهذبوا - رحمكم الله - سرائركم بتقوى الله وأخلصوا واشكروا نعمته ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ واحذروا نعمته ولا تنصوا واعتبروا بوعيده ﴿قُلْ كُلُّ مَرْبُوعٍ﴾ فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصُّراطِ السَّوِيِّ ومن اهتدى ﴿وأنهضوا لطاعته هذه المهم العاجزة ، واركضوا في ميدان التقوى تموزوا فصب خصله ^(٧) الفائرة ، وادخروا ما يخلصكم يوم المحاسبة والمناجزة ، وانتظروا قوله : ﴿ويوم نُسَيِّرُ الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا﴾ ذلك يوم تدخل فيه الأبواب وترجفُ القلوب رجفا ، وتبدل الأرض وتسنفُ الجبال ينفا ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلا ولا حرقا وخشیر المجرمون يومئذ زرقا ﴿وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا﴾ فرادى ﴿كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا﴾ إن أحسن الهدى هدى محمد نبينا وأصحابه ، وأفضل الذكر ذكر الله وتلاوة كتابه ، جعلنا الله وإياكم ممن اهتدى بهديه ، وتأذّب بآدابه ومن الذين قالوا : ﴿سَمِعْنَا قرآنا عجا يهdy إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾ اللهم اتقنا بالكتاب والحكمة ، وارحنا بالمهذبة والحصّة وأوزعنا ^(٨) شكر ما أوليت من نعمة ﴿ربنا آتانا من لئلك رحمةً وهيئة لنا من أمرنا رشدا﴾ .

والعظة رائعة بما فيها من دعوة للتقوى وتحذير من وعيد الله ونقمته ، ومن غرور بالأماني

(١) صرفد : أهدأت .

(٢) سنة : غفلة .

(٣) ملتحدا : ملجأ .

(٤) استطالوا : تطاولوا واعتدوا .

(٥) اصطلموا : اشتعلوا .

(٦) البير : الغير .

(٧) خصله : فضله .

(٨) أوزعنا : ألهبنا .

والظنون الكاذبة والذهول عن يوم القيامة مع ما فى ذلك من كفران بنعمة الله ونعمه لا تحصى .
وتخلل المظة أو الخطبة الآيات القرآنية مؤكدة معنى عظته . ولغة المظة لغة جزلة مصقولة
تشيع فيها مع الآيات ألفاظ قرآنية كثيرة . وبأسى من يقرأ هذه الخطبة وأختها الموجودتين فى
كتاب التعريف بالقاضى عياض لضياح كتاب خطبه . والخطبة مسجوعة وكان يؤثر السجع
فى خطبه وأيضاً فى رسالته على نحو ما نرى فيما أثبتته وسجله منها ابنه محمد ، من ذلك رسالة
يعاتب فيها صديقين له :

« ليت شعرى أَلْعَبْتُ أم أَعَيْبُ ، وأَعَرَفُ بالذنب أم أُنْذِرُ ، لا جرم لو علمت لنفسى
جُرْماً لَجَعَلْتُ عليها بَرْدَ الشراب حراماً ، ولَسَلَبْتُها لذيق النام غراماً^(١) ، حتى يَفْقَهُ إليها
من وجدَّ عليها^(٢) ، ويرضى عنها التظلم منها ، بعلائكها ما هذا الجفاء ؟ وأين ما تدعياته
من الوفاء ؟ أحين جدت بنا الحال وشدت للنوى الرُحال ، ودعا بنا داعى الزُماع ،
ومَجَلَّتْ^(٣) عين ويدّ للوداع ، اتخذتمنى ظهرياً ، وصرت عندكم نسيّاً نسيّاً ، لا أعلم
لكما علما ، ولا ألقاكم إلا حُلْماً ، كأن شملنا لم يزل مُصَدَّعاً ، وكُنّا لطول افتراق لم
نَبْتَ ليلةً معا ، ماذا يُرِيب الغريب فى إغياب^(٤) الأحباب أمجالسة السلطان أو مؤامسة
الأوطان ، لئى المجد من ذلك وليت ، ولنا ما يَتُّ بالعلية بيت ، أم صدودٌ وملالٌ ينافيه
ذلك الجلال ، أم قلة احتمال ، لما تشاهدته من غلظ تلك الخلال ، وقتما ! من الذى
يُغْطِى الكمال ؟ أم تَمَّ ذَنْبٌ يوجب الصدود ، ويُودى بوذِّ الودود ، أسمعا ، لأرجع إلى
الكتاب ، عن العتاب ، وأبادر بنفسى عِوضَ الكتاب ، فأغزير ولا أعذل^(٥) . وأنصف من
نفسى وأعدل والسلام . »

ونسيج الرسالة نسيج جيد من الألفاظ والأسجاع مع ما يزينها من الجناسات والاستعارات
والكنايات ، مما يدل - بوضوح - على أن القاضى عياضاً كان يحبر أعماله الأدبية من رسائل
وغير رسائل . والرسالة تحمل بجانب ذلك حساً مرهفاً ، لا بما يورد فيها من سجع قصير
يطير عن الأنواء بخفة ، بل بما بصور من حسه الدقيق ، بمثل تعفيه على ما يظن صاحبه به
من غلظ الخلال بقوله وقتما ، ويستمر هذا الحس الدقيق فى بناء الكلم ببقية الرسالة ، وبدون
ريب كان القاضى عياض أديباً كبيراً . ومن طريف ما نقرأه فى مقدمة كتاب الشفاء تكميده
لربه وتمجيده لرسوله إذ يقول :

« الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى ، المختص بالملك الأعز الأسمى^(٦) ، الذى ليس دونه منتهى

(١) غراماً : عذاباً وفى الأصل : حرماً .

(٢) وجدَّ عليها : غضب منها .

(٣) مَجَلَّتْ : انجذبت .

(٤) إغياب : الأحمى : الأنس .

(١) غراماً : عذاباً وفى الأصل : حرماً .

(٢) وجدَّ عليها : غضب منها .

(٣) الزُماع : للمضى فى الأمر . سجلت : كتلت كتابة .

عن الشبخونة وفى الأصل : عجلت .

ولا وراءه مَرْتَمَى ، الظاهر لا تَخِيلًا ولا وهما ، الباطن تَقْدُسًا لا عُدْمًا وَسِعَ كل شيء رحمةً وعلمًا وأَسْبَغَ على أوليائه نعمًا عَظِيمًا^(١) ، وبعث فيهم رسولًا من أنفسهم أَتَمَّسَهُمْ عربًا وَعُجَمًا ، وَأَزْكَاهُمْ عِتْدًا وَمَنَى ، وأَرْجَحَهُمْ عَقْلًا وَحِلْمًا ، وَأَوْفَرَهُمْ عِلْمًا وَفَهْمًا ، وَأَقْوَاهُمْ بَقِيَّةً وَعِزْمًا ، وَأَشَدَّهُمْ بِهِمْ رَافَةً وَرُحْمَةً ، زَكَّاهُ رُوحًا وَجَسَمًا ، وَحَاشَاهُ عِيَا وَرُصْمًا ، وَأَنَاهُ حِكْمَةً وَحُكْمًا ، وَضَحَّ بِهِ أَغْنِيَا عَمِيًا وَقَلْبُونًا غُلْفًا^(٢) وَأَذَلَّنَا صُتًا ، فَأَمَّنَ بِهِ وَعَزَّرَهُ وَنَصَرَهُ مِنْ جَعَلِ اللَّهُ لَهُ فِي مَغْنَمِ السَّعَادَةِ فِسْمًا ، وَكَذَّبَ بِهِ وَصَدَفَ^(٣) عَنْ آيَاتِهِ مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاءَ حُتْمًا ، ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ صَلَاةَ تَنْمُو وَتَنْمَى ، وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

والتحميد والتمجيد في لغة عذبة سلسة ، سوله في الألفاظ أو في الأسجاع القصار مع ما يزينها من الألفاظ والآيات القرآنية ، وقد افتتح بهما كما أسلفنا كتابه الشفاء بتعريف حقوق للمصطفى ﷺ .

(ب) أبو جعفر^(٤) أحمد بن عطية

أول كتاب المغرب الأقصى النابهن في ديوان علي بن يوسف بن ناشفين وابنه ناشفين ، ويقال إنه ولد سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م وكُتِبَ في هذا الديوان قبل العشرين من عمره ، وفيه تعرف على تقاليد الكتابة الديوانية التي أرساها في الديوان المغربي كتاب الأندلس أبو بكر بن القصيرة وابن أبي الخصال وعبد المجيد بن عبدون وأضرلهم ، ولما قضى الموحدون على دولة المرابطون فرَّ وغير هيته ، وكان محسنًا لرمي السهام ، فانتظم في الجيش الموحدى الذى خرج إلى مدينة سوس في الجنوب لقتال ثائر هناك ، وانتصر الجيش الموحدى وقُتِلَ الثائر وانهزم أنصاره ، فطلب القائد أبو حفص عمر إيتي كاتبًا يحسن عرض المعركة ليخبر بها رئيس الدولة عبد المؤمن ومن معه من الموحدين ، فذُلَّ على أبي جعفر ، وكُتِبَ له رسالة طويلة أعجبت عبد المؤمن ، فاستدعاه ، واستكبه وزاده الوزارة إلى الكليّة ، لما رأى عنده من شجاعة قلبه وحصانة رأيه ، كما يقول المراكشي . ولم يزل وزيره إلى أن أغضبه فقتله ، وفي كتاب المعجب أن سبب قتله أنه كان قد تزوج بنت أبي بكر بن يوسف بن ناشفين ، وكان أخوها يحيى فارسًا وليلى بلاء شديدًا في مقاومة الموحدين ، وانقاد لهم حين تمَّ نصرهم واتسوى تحت لوائهم ،

والإحاطة لابن الخطيب ١٣٢/١ - ١٣٩ والنيوخ
المغرى ١٦٦/٢ والروانى ٢٥١/١ - وانظر في رسالته
مجموع رسائل موحدة من إنشاء كتاب الدولة المؤمنة
(طبع الرباط) .

(١) نعمًا عما ينعمها كثرة .
(٢) غلنا : جمع أغلف : كأن على القلب غلافًا .
(٣) صدف : أعرض .
(٤) انظر في ترجمة أبي جعفر أحمد بن عطية كتاب
المعجب لعبد الواحد المراكشي ص ٢٦٦ - ٢٦٩

فجعل عبد المؤمن قائدا على من دخل في عقيدة الموحدين من لثونة قومه ، ولم يزل مكرما عند عبد المؤمن إلى أن بلغته عنه أفعال وأقوال أحقته عليه . وتحدث عبد المؤمن بذلك في مجلسه فخشي لئلا جعفر أحد بن عطية على صهره يحى من فلك عبد المؤمن به ، فقال لزوجته قولى لأخيك يتحفظ ، وإذا دعوانه غدا فليظهر المرض ، وإذا استطاع الفرار واللاحاق بجزيرة ميورقة فليفعل (وكان صاحبها أارجا على الموحدين) . وتمارض يحى وزاره بعض أصحابه فأسر إليه ما بلغه عن صهره أي جعفر ، فنقل الرجل ذلك إلى شخص من أبناء عبد المؤمن ، فأمر بالقبض على أي جعفر وأخيه أي عقيل الكاتب ولم يلبث أن أمر بقتلهما سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م ، واعتقل يحى وظل في سجنه إلى أن مات ، ولم تأخذ عبد المؤمن في أي جعفر وصاحبيه رافة ولا شفقة ولا رحمة .

ولئلا جعفر أحمد بن عطية يُعدّ في الذروة من كتاب عبد المؤمن ، ويشهد لذلك أن « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » يشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، له فيها سبع عشرة رسالة ، ولو أنه ظل حتى نهاية عبد المؤمن لتكاثرت رسائله في تلك المجموعة ، ومن رسائله خمس موجهة إلى طلبة سبتة من دعاة الموحدين بها ، وهو دائما يبلغ أهلها في تلك الرسائل انتصارات عبد المؤمن تلويحا لها بعد أن قامت بثورتها سنة ٥٤٣ هـ أن تلتزم بطاعة عبد المؤمن وعقيدة الموحدين وإلا أنزل بها عقابا أليما . وتبدأ هذه المجموعة للرسائل برسالة بقلم أي جعفر بن عطية موجهة على لسان عبد المؤمن إلى طلبة سبتة كي يبلغوها أهلها ، وفاتحتها على هذه الصورة :

« من أمير المؤمنين - أيده الله بنصره وأمدّه بمعونه - إلى الطلبة (الدعاة) الذين بسبتة وجميع من فيها من الموحدين خاصة وعامة - وفقهم الله وسدّدهم - سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله مولى الرغائب ، ومُسْتَى^(١) الآمال والمطالب ، وقابل توبة التائب ، نحمده بما يتعين من حمده الواجب ، ونصلّى على محمد نبيّه العاقب^(٢) ، وعلى آله وصحبه وأولى المفakhir السنية والمنائب . ونصل [بذلك] الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، المحرز شرف المبادئ والعواقب ، المجلى بنوره الناقب حُجُبِ الظلام الواقب^(٣) .. وقد وصلنا بحمد الله إلى مراكش على أتم أحوال الظفر واليمن ، وعُدنا إليها تحت ظل السلامة التامة والأمن ، بعد كمال الغزوة المباركة وتماها ، وإطفاء نار الفتنة ببرّد الهدنة وسلامها ، وإصاق تُرُوف الكفرة المرتدين برغامها وقطع دابر القوم المجرمين .. وإن النعمة - وفقكم الله - بهذه الفتح العظيمة العامة شاملة على من أخذ بهذا الأمر العزيز (يريد دعوة الموحدين) ودان ، وتزى بحمله الهبة

(٣) الواقب : الشامل .

(١) مسنى : ميسر .

(٢) العاقب : خاتم الرسل .

فازدان ، فهى الفتوح التى ظهر بها من آيات المهديّ - رضى الله عنه - العجب العجيب ، وفاض فيها من بركاته الفيض للناس ، ودرّت بها الأرزاق وانتشر الأمن وكرم المآب ، وكان أمرها مخصوصا بالمرتدين . الخاسرين ، فحقّقهم وطبّسها الشديد الغلاب ، وليس لله على ذلك إلا الحمد والشكر والثناء . ويقول عبد المؤمن فى الرسالة لأهل سبته : حافظوا على القرآن والتوحيد .

وواضح أن عبد المؤمن ينعت الخارجين عليه بأنهم كفرة مرتدون ، إذ ارتدوا عن دعوة الموحدين ، وكُنّا أصبحنا هى الإسلام ، فمن ارتد عنها ارتد عن الدين الخفيف . والرسالة فى أوائلها تدعو بالرضا عن الإمام المعصوم المهديّ ابن تومرت الذى أُنْجِرَ بدعوته الناس من الظلمات . وما تلبث الرسالة أن تذكر أن هذا الفتح وغيره من الفتوح إنما هو من بركاته .

وفى الرسالة الرابعة المكسوة بقلم ابن عطية والموجهة إلى يحيى بن غائبه صاحب جزر منورقة الرافض لدعوة الموحدين قطعة يَصُورُ عبد المؤمن له فيها ابن تومرت داعية الموحدين بهذه الصورة التالية :

« هذا الأمر (يريد دعوة الموحدين) - وفقكم الله - هو أمر المهديّ - رضى الله عنه - حقٌّ فتأمل ، ومع معالجه الجلاء فلا تظنّ ولا تخيل . والمهديّ - رضى الله عنه - قد بشر به النبى - صلى الله عليه وسلم - فى غير ما حديث ، وظهرت علاماته وآياته فى قديم من أمره وحديث ، ودلّ على اسمه وزمته وفعله ومكانته بأدلة رفعت الإشكال والتعسف ، فأتى - رضى الله عنه - كما نعت النبى عليه السلام - ووصف ، وقال - صلى الله عليه وسلم - فيه وفى طائفته العزيزة ما قد ظهر ظهور الإشاعة والإذاعة ، وقضى بوجوب الائتمار والائتمام والطاعة ، وأخبر فى جملة ما أخبر به عنهم أنهم يقاتلون على الحق إلى قيام الساعة .. وقد تبين الصبح لذى عينين ، وجَدَّع الحق أنف الكذب والمين ، وتجلت^(١) الهداية ضد الضلال والرين^(٢) » .

وعبد المؤمن فى هذه الرسالة ينعت ابن تومرت بما كان ينعت به عنده وعند دعاة الموحدين من تبشير النبى به ووصفه ، وما أوجب للمهديّ من اتباع دعوته ، ومن لم يتبعها حُكِمَ عليه بالكفر والارتداد عن الدين الخفيف ، ويقول إهّم مأمورون بالقتال عليها إلى قيام الساعة . ورسائل ابن عطية فى « مجموع رسائل موحدية » مكتوبة بلغة مروّقة صافية مع السهولة والسلاسة وقصر الأسجاع فى جوانب كثيرة من الرسائل ، مع تضمينها صورا من الاستعارات ومن المحسنات البلاغية . واحتفظ له ابن القطان فى كتبه نظم الجمان برسالة كتبها على لسان عبد المؤمن من تيمّنت حين زار قبر المهديّ فيها لشهر ربيع الأول سنة ٦٤٥ . وهى أشبه

(٢) الرين : النفس .

(١) فى الأصل : جلت .

بدستور لحكم أمراء الولايات المختلفة وأنه ينبغي أن يقوم على العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد أرسلت نسخ منها إلى جميع الولاة . وحين زجُّ به عبد المؤمن في السجن أرسل إليه يستعطفه برسالة مشهورة استهلها بآيات يسترحمه فيها وتلتها الرسالة على هذه الصورة^(١) :

« تالله لو أحاطت بي كل خطيئة ، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة ، حتى سخرت بمن في الوجود ، وأتفت لآدم من السجود ، وقلت إن الله لم يوح ، في الفلك إلى نوح ، وأمرت لاحتطاب نار الخليل حبلا ، وبرئت لقدار ثمود نبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على الطين ، وقبضت قبضة من أثر الرسول فبذتها ، واقرت على العذراء البتول ففدتها ، وكبت صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظهرت الأحزاب بالقصوى من العذوة ، وأبغضت كل قرشي ، وأحببت لأجل وخشي كل حبشي ، وقلت إن يعة السقيفة لا توجب إمامة خليفة ، وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبه ، واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة ، وقلت تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر ، وسفكوا الدماء على الترهيد الأغفر ، وغادرت الوجه من الهامة خضيا ، وناولت من قرع سن الحسين قضيا ، ثم كنت بخفرة المصوم لاثنا ، وبقبر المهدي - رضى الله عنه عائذا ، لقد آن لمقاتلي أن تسمع ، وأن تنفكر لي هذه الخطيئات أجمع ، مع أنني مقترف ، وبالذنب معترف :

وعفوا أمير المؤمنين فمن لنا برؤ قلوب هذا الخفناق

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته .

وهو يقول لعبد المؤمن لو أنني سخرت بكل من في الوجود من خلق الله ، واستكفبت لإبليس من سجوده لآدم وتكررت أن الله أوحى إلى نوح في فلكه ما أوحى ، وأمرت للمحططين لنار إبراهيم الخليل ، وبريت لقدار ثمود عاتر الناقة نبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين التي أنبتها الله لظله ، وأوقدت مع هامان لفرعون على الطين لبنى له صرحا حتى يرى ربه كما زعم ، ولو أنني السامري الذي قبض على شيء من دين موسى ثم كفر به ونبذه ودفع بنى إسرائيل لعبادة العجل في غيبة موسى ، وكذبت على السيدة مريم العذراء البتول ففدتها ، وكبت صحيفة المقاطعة بين قريش وبين الرسول وصحبه قبل هجرته ، وظهرت الأحزاب وعادتهم في حصار المدينة ، وأبغضت كل قرشي وأحببت لأجل وخشي

المزبى للأستاذ كون ١٦٦/٢ وراجع ترجمة ابن عطية في الإحاطة .

(١) انظر في هذه الرسالة كتاب روض القرطاس لابن أبي زرع (طبع الرباط) ص ١٩٦ وكتاب البرغ

الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب في غزوة أحد كل حبشي ، وقلت إن يمة السقيفة لا توجب إمامة أبي بكر وخلافته ، ولو أتى شحذت شفرة خنجر غلام الغيرة بن شعبة طاعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أو لو أنه تعلق بشعبة في حصار عثمان من شعب الدار وقلت تقاتلوا على درهم والدينار وسفكوا الدماء وتركت الوجه الكريم لعل بن أبي طالب خضيا بالدماء ، وناولت يزيد بن معاوية قضيا ليرفع السن - كما قيل - في ثغر الحسين . لو أنه صنع شيئا من ذلك ثم لاذ بخفرة ابن تومرت وقبره لقد أن تسمع لقولي وتغفر لي خطيئتي وتغفو عني . ولم يكن له قلب عبد المؤمن بل ازداد قسوة وأمر بقتله . ولا يقلل من روعة هذه الرسالة أنه استوحاها من الرسالة الجدية لابن زيدون ، والحق أنه كان كاتباً بارعاً وأن رسائله تعد في الذروة من الشر المغربي في مختلف عصوره .

(ج) ابن^(١) بطوطة

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المشهور باسم ابن بطوطة ، وُلد في طنجة سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م لأسرة كانت تشغل بالفقه والدراسات الدينية وكانت في بسطة وسعة من العيش ، واهتم أبوه - وكان فقيهاً - بتربيته فحفظ القرآن ، ودفعه للدراسة الفقه المالكي واستوعب ما عند شيوخه في نحو العشرين من عمره ، وطمحت نفسه لقضاء فريضة الحج ، فخرج من بلده في الثانية والعشرين من سنه مع رفقة ، واتجه معها شرقاً إلى الجزائر ونزلاً سَنِيَا الشمالية ، وتغلل بين رفاق حتى تونس وفيها رأى الالتحاق بقافلة من قوافل الحجاج ، وغرر فيه فقهه فأقاموه قاضياً بينهم ، ونزلت القافلة الإسكندرية فطاف بمشاهدها وزار علماءها وعبّادها وتعرّف على ناسك زاهد يسمى « الشيخ خليفة » وقال له : إني أراك تحب السياحة والجولان في البلاد فأجابه : نعم . فقال له : « لا بد لك - إن شاء الله - من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكريا بالسند وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فبلغهم مني السلام » فعجب ابن بطوطة من قوله وكأنا تنبأ له أنه سيصبح رحالة كبيراً يطوف بلدان العالم الإسلامي حتى أقصاها وأنه سيمد رحلاته إلى الهند والصين . وترك الإسكندرية ميمماً وجهه نحو القاهرة ولم يذهب إليها مباشرة إذ طاف قبلها ببعض البلاد في الوجه البحري مثل دمنهور وقوة بالقرب من رشيد وديياط والمحلة الكبرى . وفي قوة تعرف على شيخ صالح يسمى أبا عبد الله المرشدي ، وأكرمه وبات على سطح زاويته ، فرأى في منامه حلماً عجيباً : أنه على جناح طائر عظيم ، يطير به في سَمَت القبة يتيامن ثم

(١) ابن بطوطة ورحلته النبوغ المرعى ٢٢٢/١
وإبن بطوطة ورحلاته : تحقيق ودراسة وتحليل للدكتور
حسين موسى (طبع دار المعارف بالقاهرة) .

(١) انظر في ابن بطوطة ورحلته النبوغ المرعى ٢٢٢/١
ورحلة ابن بطوطة للدكتور شاكِر خضابك (طبع بغداد)

يشرق ثم يذهب فى ناحية الجنوب ثم يمد فى طيراته إلى ناحية الشرق وينزل فى أرض مظلمة خضراء ويتركه بها . ويقص حمله على الشيخ ويطلب إليه تأويله ، فقال له : سوف تجح وتزور النبى ﷺ وتجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتظل بها مدة طويلة .

وكان هذا التفسير لحلم ابن بطوطة وما حمله له الشيخ خليفة من السلام إلى إخوة له فى الهند والسند والصين إرهابا ليصبح رجالة بل ليصبح أعظم رجالة عرفه العرب فى تاريخهم الوسيط . ونزل القاهرة والفسطاط ، ثم أخذ طريقه إلى الحج عن طريق الصعيد وعيذاب على البحر الأحمر وفيها رأى الطريق البحرى إلى جدة معطلا لخروج قبائل البجة على سلطان مصر محمد الناصر بن قلاوون ، فعاد إلى الفسطاط ، واتجه إلى صحراء سيناء وتجول فى بلاد الشام من بيت المقدس ومعان إلى حلب ، وخرج من الشام مع ركب من الحجاج إلى المدينة المنورة فمكة ، واتجه بعد أداء فريضة الحج إلى العراق وغربى إيران ونزل فى النجف وواسط والبصرة وشيراز فى إيران وبغداد وبلدان الموصل . وحج حجة الثانية وأقام بمكة سنة ، ورأى أن يزور اليمن وطاف ببعض بلداتها وعبر البحر إلى أفريقيا الشرقية وزار الصومال وزيلع ومقدشو ، وعاد إلى الجزيرة العربية مارا بشواطئها الجنوبية وطفار وعمان ودخل الخليج العربى وبعض بلدانه . وحج حجة الثالثة واتجه بعدها إلى مصر ، ولم يلبث أن رحل إلى آسيا الصغرى حيث بلدان السلاجقة وأمراء الدولة العثمانية الأوائل ، وأبحر إلى شبه جزيرة القرم وكنت تابعة لسلطان مغول القفجاق محمد أوزبك وتجول فى بلاده وفى بلاد القوقاز والبلغار ، ورغب فى أن يدخل بلاد الظلمة (روسيا) وعدل عن ذلك . وأنس به السلطان محمد أوزبك وبعده من أعظم ملوك الدنيا ، وأرسله فى ركب مع زوجته بنت ملك الروم لزيارة أبيها فى القسطنطينية فتعرف على بلدان الدولة البيزنطية . ورحل إلى خوارزم ، ويدخل سمرقند ، ويتجول فى بلدان خراسان مثل بلخ وبخارى وبلاد أفغانستان مثل هراة ، ويدخل إلى الهند فى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م ويكرمه سلطان السند أو النجاف محمد شاه ويوليه قضاء دهل ويقيم بها ثمانى سنوات . وأرسله السلطان فى وفد بهدية إلى ملك الصين ، وأبحر إلى قاليقوت إحدى ثغور الهند فى الغرب ، وهبت عاصفة أغرقت المركب وأسرته والهدية ، ولم يرجع إلى السلطان ، ورحل إلى جزائر ذية المهل (المالديف) جنوبى الهند ، وتولى القضاء بها عاما وبعض عام ، وتركها إلى الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال ، ويركب البحر وينزل سومطرة وجاوة ، ثم يتجه إلى الصين ويتجول فى بلداتها ، ويعود إلى سومطرة ويمر بإيران والعراق والشام ومصر ، ويحمر من عيذاب لقضاء العمرة . ويصمم على العودة إلى موطنه ، ويصل إلى تونس ويركب منها البحر إلى الجزائر ويمر ببردانية وتلمسان ، ويصل إلى فاس سنة ٧٥٠هـ ويرحب به سلطاتها أبو عنان ويلحقه بحاشيته . ولا يلبث أن يزور الأندلس ويتجول فى بلدان إمارة بنى

الأحمر بفزانة ، ويعود منها عازما على زيارة السودان الغربى ، ويدخل الصحراء إليه سنة ٧٥٣ ويتجول فى بلدان مالى ويصل إلى تمبكتو على النيجر ، ويعود فى أواخر سنة ٧٥٤ إلى المغرب . وكان السلطان أبو عنان معجبا أشد الإعجاب بما يقصه عن رحلاته فأمر كاتبه ابن جَزَى أن يساعده فى كتابة رحلته التى سماها : « تحفة النظّار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . ونجد ابن جَزَى يقول فى آخرها : « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبى عبد الله محمد بن بطوطة » وكان فراغه من هذا التلخيص فى شهر صفر سنة ٧٥٧ هـ/ فبراير ١٣٥٦ م . ويبدو أن ابن بطوطة كان قد قيد رحلته فى أسفار كثيرة وأن ابن جَزَى لخصها مما جعل بعض الباحثين يظن أنها من تحريره . ولبن جَزَى نفسه يعترف بأن كل ماله إنما هو تلخيص واختصار لجوالب من تفاصيلها الكثيرة ، ولذلك نذهب إلى أنها مكتوبة فى جملتها بأسلوب ابن بطوطة نفسه ، ونعدهُ لذلك من كبار كتاب المغرب الأقصى . وهو لا يدخل بلدة إلا وصف سورها إن كان لها سور مثل الإسكندرية ودورها ومطاعم أهلها وملابسهم وأسواقها ومدارسها وعلماءها ونسآكها وحكامها وعادات سكانها وتجاراتها وزروعها وعملتها وكل ما يتصل بها ، وكيف لاین جزى بوصف ذلك وهو لم يشاهد شيئا منه . وكانت فيه نزعة دينية قوية فأطال الحديث عن الزوايا والنسآك والأولياء وأصحاب الكرامات ، ونقطف بعض ما جاء فى رحلته الضخمة ، فمن ذلك قوله عن مصر :

« أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة (ذات المزارع والرياض الجميلة) المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رَحْل الضميف والقادر ، بها ما شئت من عالم وجاهل ، وجادٌ وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضع نبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، وتزوج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة أماكنها ومكائنها ، وشبابها يجذّ على طول العهد ، وكوكب تعدلها لا يرح عن منزل السعد » . والسجع قليل فى الرحلة ، إذ لا يعدو المقدمة وكلمات قليلة تقال فى وصف بعض البلدان ، والأسلوب العام أسلوب مرسل طليق اختاره ليكون دقيقا وواضحا فى وصف مشاهداته .

ويقول عن أهل مصر إنهم « ذوو طرب وسرور وهو » أما المدارس فلا يحيط أحد بها لكثرتها ، ويشيد بمارستان قلاوون وأن الواصف يعجز عن بيان عمارته إذ أعيد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ، ويقول إن مجابه (ما يجبى إليه وينفق عليه) ألف دينار كل يوم . ويقول إن الزوايا الخاصة بالزهاد والتصوفة تكثر فى مصر كثرة مفرطة . وينزل آسيا الصغرى ويتجول فى بلدتها ويصف مشاهدتها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ويتحدث عن حكمائها من السلاجقة والشمشيين ، ويعجب فيها بنظام للفتوة يقوم به فتيان على حسن الضيافة وإيواء

الغريب . ووجدهم فى كل بلدة يتخذون لهم رئيسا كما يتخذون مقرًا يتعاونون فيه على البر بالضيف وإكرامه ، وكان هذا النظام للفتوة هناك يسمى « الأُخِيَّة » ويصفه قائلًا :

ذكرُ الأُخِيَّةُ الفتيان : واحد الأُخِيَّةُ أنحى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه ، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالًا بالزوار من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحاجات والأخذ على أيدي الظلمة . والأُخِيَّةُ عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزب والتجردن ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هى الفتوة . ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسُّرُج وما يحتاج إليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معاشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترتون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية ، فإن ورد فى ذلك اليوم مسافرٌ على البلد أنزلوه عندهم . وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم ، فأكلوا وغنوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالفدور (صباحا) وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم ، ويسمُون الفتيان ، ويسمى مقدمهم - كما ذكرنا - الأُخِي . ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم ، ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان (فى غربى إيران) إلا أن هؤلاء أحب فى الوارد والصادر ، وأعظم إكراما وشفقة . وفى اليوم الثانى من يوم وصولنا .. أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموى (رفيق لابن بطوطة) وتكلم معه باللسان التركى ، ولم أكن يومئذ أفهمه (إذ تعلمه فيما بعد) وكان عليه أبواب خَلْقَةٍ ، وعلى رأسه قلنسوة بُد (صوف) فقال لى الشيخ أعلم ما يقول الرجل فقلت : لا أعلم ما قال ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك فمجيئ مني فقلت له : نعم . فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفا ولا نريد أن نكلفه ، فضحك الشيخ ، وقال لى هذا أحد شيوخ الفتيان الأُخِيَّةُ ، وهو من الخرازين (إسكافى) وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار ينفقونه بالليل . فلما صليت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالسُّبُط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثُرَيَّات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من البياسيس ، والبيسوس شبه المنارة من النحاس ، وله أرجل ثلاث ، وفى وسطه أبوابٌ للفتيلة ، ويُملأ من الشمع المذاب ، وإلى جانبه آتية نحاس ملأى بالشمع وفيها مقراضٌ لإصلاح القنيل ، وأحدهم موكلٌ بها ، ويسمى عندهم الجراغجى . وقد اصطفى فى المجلس جماعة من الشبان ، لياهم الأُخِيَّةُ وفى أرجلهم الأخفاف (جمع خف) وكل واحد منهم متحزم ، وعلى وسطه سكين فى طول ذراعين ، وعلى رءوسهم قلائس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى

طول ذراع وعرض إصبعين ، فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخلى (ضرب من الحرير) وسواه حسنة المنظر ، وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا فى الفناء والرقص فرأنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحتهم وكرم أنفسهم ، وتصرفنا عنهم آخر الليل .

وبهذا الأسلوب المرسل فى حبكة السرد ودقة الوصف تتميز كتابة ابن بطوطة فى رحلته ، ويقول إنه كان بعد ضيافته فى هذه الزاوية كلما نزل من بلاد الأناضول سأل عن الأخية ، وأحيانا كانوا لا يتظرون حتى يسأل عنهم ، بل يسرعون إليه ، وتتعارك جماعاتهم عليه . ويذكر صناعاتهم وحاكم كل بلدة ومن حوله من الفقهاء والعلماء وما منحه من الهدايا والصلوات ، ودائما - كما دته فى كل بلدة نزلها - يذكر حكايات النساك ومن فيها من أصحاب الكرامات المسمون بالأولياء . ويتنقل إلى شبه جزيرة القرم وبلدان مغول القفجاق وسلطانها : عمد أوزبك وذليله لزيارته فى عاصمته « السرا » شمالى بحر خوارزم وكان معسكرا بهيشه قريبا منها ، وركب إليه مع حاكم شبه جزيرة القرم عربة تجرها الجياد ، وعلى العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهى خفيفة الحمل وتكسى باللد (الصوف) أو الملف (الجوخ) ، وفيها طيقتان مشبكة ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ، ويأكل ، ويقرا ، ويكتب وهو فى حال سيره .

ووصل إلى معسكر السلطان وقال إنه يشبه مدينة عظيمة تسير بأهلها ، ففيه المساجد والأسواق والمطابخ ، وكل ذلك تحمله وتجره العربات . ودخل على السلطان محمد أوزبك فأكرمه . ويعدده من أعظم ملوك الدنيا ، ويصف مجلسه الذى كان يتخذة فى كل يوم جمعة بعد الصلاة يقول : « إنه يجلس فى قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفى وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة وورءوسها مرصعة بالجواهر ، ويقعد السلطان على السرير ، وعلى يمينه زوجتان وكذلك على يساره ، وكلما جاءت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير ، وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب » . ويفيض فى الحديث عن كل زوجة وجواربها ، وبما ليكها وما أهديته . ويعرف السلطان رغبته فى زيارة بلدان البلغار فيرسل معه من يهديه الطريق ، وحاول أن يدخل فى إقليمي ويسوا وپورا (روسيا) فى شمال البلغار حتى المحيط المتجمد الشمالى ويسمياها أرض الظلمة . ويعدل عن ذلك لعظم المونة . ومن طريف ما قاله عنها مما سمعه من الناس : أن السفر إليها لا يكون إلا فى عجالات صغار تجرها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة نبها الجليد فلا يثبت فيها قدم الآدمى ولا حافر الدابة ، والكلاب

لها الأظفار فتثبت أقدامها فى الجليد . . ويصف العجلات التى تجرها الكلاب ومسيرتها .
فحتى ما يسمعه عن بعض الأقاليم يعرف كيف يقصُّه بدقائه . وتزور إحدى زوجات محمد
أوزبك أباه ملك القسطنطينية فيرسله فى رفقتها يتجول فى بلدان تلك الدولة ، ويعود إلى
حاضرة السلطان ، ويؤنه بقيقه يسمى نعمان الدين الخوارزمى كان السلطان يزوره كل يوم
جمعة فلا يقوم إليه ويقعد السلطان بين يديه ويتواضع إليه والشيخ يترقُّ عليه حتى إذا حضره
المساكين والفقراء تواضع لهم وكلهم بألف كلام .

ويطوف ابن بطوطة ببلدان سلاطين المغول فى التركستان ويعر ببلدان خراسان وأفغانستان
إلى الهند ، وعينه الواسعة ترصد وتسجل كل ما بها من أثمار وغروس وأشجار وجوب
وفواكه . ويعرض سكانها بعاداتهم وحكامها وضيافتهم له . ويعجب لحرق الهندوس لموتاهم
بالنار وتخريق النساء مع أزواجهن حين يموتون وتقرّبهم إلى إلههم بالقرى فى نهر الكنج المقدس ،
ولا يكفى برواية ذلك بل يعرض فى تفصيل مشاهد من ذلك عرضا بديعا . ويختفى به الأمراء
والقضاة والفقهاء فى بلاد الهند حتى يصل إلى دهل (دلهى) ويصف سورها ومزاراتها وجامعها
ويذكر أن به ثلاث عشرة قبة وأربعة من الصحن ، وفى صحته الشمالى صومعة (مئذنة)
لا نظير لها فى بلاد الإسلام ورأسها من الرخام الخالص وتفتحاتها (رءوس أعمدتها) من
الذهب الخالص وسلمها واسع بحيث تصعد فيه الفيلة . ويتحدث عن علماء دهل ونسألكها
وتاريخها منذ فتحها المسلمون وسلاطينها حتى سلطانها الأخير لأيامه محمد شاه ، كما يتحدث
عن هذا السلطان وقصره ومجلسه وكثرة ما بخزائنه من الحلى والذهب ، ويقول إن سريره أو
عرشه من الذهب الخالص وأن قوائمه مرصعة بالجواهر ، وأن طوله ثلاثة وعشرون شبرا ،
وعرضه نصف ذلك ، ويطلق وصفه . ويخلع عليه الخلع السنيّة وينعم عليه بوظيفة القضاء
فى عاصمته ، ويظل يتولاها ثمانى سنوات كما مرُّ بنا . ويتحدث عن انتشار السحر فى الهند
ويذكر ما رآه من عجائب فيها . وينزل جزائر ذية المهل (المالديف) ويفصل القول عن سكانها
وملابسهم وعاداتهم فى الزواج وغير الزواج . ويتجه إلى الصين وينزل سومطرة أو بلاد الجاوة
ويصف بعض أشجارها مثل اللبان والكافور والعود الهندى والقرنفل ، وفيها جميعا يقول :

« شجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك وأغصانها كأغصان
الخرشف (الخرشوف) وأوراقها صغار رقاق ، واللبان صمغية تكون فى أغصانها . وأما شجرة
الكافور فهى قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ، ويكون الكافور فى
داخل الأنابيب . وأما العود الهندى فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق ، وأوراقه
كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له . وأما أشجار القرنفل فهى ضخمة ، والمجلوب منها إلى
بلادنا هو العيدان ، والذى يسميه أهل بلادنا نَوْر القرنفل فهو الذى يسقط من زهره وهو شبه
يزهر النارج ، وثمر القرنفل هو المعروف فى بلادنا بجوز الطيب ، رأيت ذلك كله وشاهدته . »

وينزل الصين ويقول : فى كل مدينة منها حى للمسلمين ينفردون فيه بسكانهم ومساجدهم ، ويقول إن لكل شخص من أهل الصين عكازاً يعتمد عليه فى المشى ، ويذكر أن الحريز عندهم كثير جداً وأنهم لا يتباهون بالدينار والدرهم إنما يجمعهم وشراؤهم بورق كل قطعة منه بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان (وهم بذلك أول من تعامل بأوراق نقدية) وينوّه ببراعتهم فى التصوير ويطلب الحديث فى ذلك ، وقال إنهم يتخذون بيوتاً لذوى العاهات . ويقص ما شاهده من عجائب هناك . ويعود من الصين إلى موطنه بعد أن أدّى فريضة الحج ، ويرحل رحلته الثانية إلى الأندلس ثم رحلته الثالثة إلى السودان الغربى على المحيط الأطلسى .

والرحلة تصور العالم الإسلامى فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى أروع تصوير لا بقلم كاتب كبير فحسب بل بريشة فنان بارع وقد اهتم بها المستشرقون فنشروها مع ترجمتها للغاتهم كما نشروا منها قطعاً أو أقساماً مع ترجمتها والتعليق عليها .

(د) محمد^(١) بن على الفشتالى

من قبيلة فشتالة التى كانت تنزل فى الشمال الغربى لمدينة فاس ، وهى قبيلة صنهاجية وقد ولد بها سنة ٩٥٦ هـ/ ١٥٤٩ م وتركها مبكراً للتردد من حلقات العلماء فى فاس ، وفتحت موهبته الأدبية سريعاً ، فكان شاعراً كاتباً وعمل فى دواوين الدولة السعدية ، وعرف المنصور الذهبى فضله ، فما زال يرقى به حتى أسند إليه رئاسة القلم بديوانه ، واستعان فيها ببلديّه ومواطنه عبد العزيز الفشتالى ، وهو ينسب عليه كثيراً فى كتابه : « مناهل الصفا » وكان المنصور الذهبى يأنس إليه ، ففسح له فى مجالسه الأدبية والعلمية وشارك فيما كان بها من مساجلات ، وكان ما يزال ينظم فيه مدائح بديعة فى مقدمتها مولدياته التى كان يلقيها فى احتفال المنصور بالمولد النبوى الشريف ، وفيه يقول أحمد بن القاضى فى كتابه : « درة الحجال » : « وزير القلم الأعلى الأديب البليغ الشهير الذكر بالمغرب ، وهو علم فى الفضيلة والسرادة^(٢) ومكارم الأخلاق وكرم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، عالى الهمة ، كاتب بليغ أديب شاعر ، حسن الخط ، فصيح اللسان ، مؤثر لأهل العلم والأدب » . ويذكره فى كتابه المتقى مراراً بمثل قوله : « وزير القلم الأعلى ، وحائز القدر^(٣) ، الملل ، الكاتب الأعظم ، والخصم المتقن ، الناظم النائر ، وحائز قصبات السبق فى الدفاتر » . وكلفه المنصور الذهبى بسفارة إلى الخليفة عثمانى مراد بن السلطان سليم فأداها على خير وجه ، وتعرف فى أثناء ذلك على الخفاجى

(١) انظر فى ترجمة محمد بن على الفشتال كتاب « درة الحجال » ١٩٠/٢ والمتقى ٣٢٩/١ وريامة الألبا للخفاجى ص ١٤٨ - ١٦١ والنويع المغزى ٢٧٥/١ لكونه ركبته رسائل سعدية وقرائى ٦٩٢/٣ .

(٢) السراوة : الشرف .
(٣) القدر للمل : أكثر أقداح القمار نصيباً وبكى به
المكائنة الرقيقة .

صاحب كتاب الرحانة والتعقدت بينهما صداقة مما جعل الخفاجي - وقد أعجب به - يترجم له في كتابه ، وفيه يقول : « وزير مولاي أحمد (المنصور) أديب فاس ، وريحانة فضلانها الأكياس^(١) » ، تقدم فيها متقلدا قلادة إيشائها ، فاتقا برساتله على ساتر أديانها .. وله ماء شعر تشربه أفواه الأسماك ، ورياض منشور تغرد حمام قوافيه بمطرب الأسجاع . ويحفظ كتاب « رسائل سعدية » بكثير من رسائله إلى البلدان المغربية وباشوات الدولة العثمانية ووزرائها والجيش الجزائري . ويقول الأستاذ كنون في تقديمه لتلك الرسائل إن محمد بن علي الفشتال منها ١٨ فصلا ومكتوبا ، من ذلك رسالة إلى أهل فاس أهل الحضرة السعدية يخبرهم فيها بفتح السودان سنة ٦٩٨ للهجرة قائلا^(٢) :

« أما بعد حمد الله الواسع الجود والعطاء ، المصروف الأقدار على حكم السرعة من إرادته والإبطاء ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي سن تجهيز البعث لتدوين الأقطار ، بتوالي نكاتف القبائل والقطار^(٣) » ، والرضا عن آله وصحبه الذين اغفوا من ذلك أوضح سبيل ، واغتموا نشر نسيمه الليل ، والدعاء لهذا الأمر الكريم (الفتح) بما يزيد عزاء وظهورا ، ويجعله في عين الوجود نورا ، فلما كينه إليكم من حضرته العلية ، ومجمع المفاخر القرية والنصيحة : حراء مرأكش ، حرسها الله . هذا ولما نهى إليكم - عرفكم الله عوارف آله الجسم ، وأطلع عليكم أوجه البشائر واضحة القسام - بأنه لما نصب عزما الميمن في سالف التاريخ ، وتاقت جيمنا العلية لتدوين بلاد السودان بأنتم وجوه التدوين ، وجئنا من عساكرنا الكثيفة ، ذات الأنفس الأبية المنيفة^(٤) ، جملة يتكفل معها الإسماع ، بكمال المراد ، ونبذة نشرت عليها من ألوتينا الظافرة كل فحاء^(٥) فاهرة ، أطارها اليمن كل مطار ، ولجج بها الإقبال لجج القفار ، تخوض آل^(٦) تراكم أمواجه ، وفتح بلبا طالما طلسم رتاجه^(٧) ، فاتحهم العساكر أحياء وجللا^(٨) وارtedy من المهابة وبعد الصيت برودا وحللا ، حتى أدخل رنقة^(٩) طاعة هذه الإيالة^(١٠) من الشعوب الصحراوية ، والقبائل الوبرية من أعاريب الكراع^(١١) ، التي لم ترتض بولايته ولا طاعته ، جموعا كثيرة ينتهي التعداد بهم على حكم ما أدوه من الزكاة الشرعية لسة وأربعين ألف خيمة . وهذه الجملة بالنسبة إلى ما وراءها من القبائل العربية الوحشية بعض من كل ، وجزء من جل . وانتهى القوس والإبعاد ، بما وجئناه من الأجناد ،

(١) الأكياس ، جمع كيس : الحضيف .

(٢) رسائل سعدية ص ١٩٢ .

(٣) القطار : فوازل الإبل على نسق منتظم .

(٤) المنيفة : الحساسة .

(٥) فحاء : عقاب .

(٦) آل : سرها .

(٧) الرتاج : الباب العظيم .

(٨) الحلال جمع حلة : مجتمع البيوت والناس .

(٩) رنقة : حبل .

(١٠) الإيالة : إقليم من أرض الدولة .

(١١) الكراع : عدة الجيش من الخيل والسلاح .

بعد مَفَرَّةٍ من ثمانين مرحلةً فى المفاوز الصعبة المجاز إلى بلاد السودان ، والأعناء التى جَنَّا^(١) طاعتها لهذه الإيالة - إن شاء الله - دان ، فتهاضت أجناسهم للدفاع ، بحكم التأليف والاجتماع ، بما يتيف^(٢) على أربعين ألف مقاتل ما بين حشود الأعراب وأغلاط الأتباع ، وجيوش السودان ، فانفخ هِرْهُم لَبْصُول ، وانتفض بَوْمُهُم يشير للعقبان بالنزول ، فما كان إلا اجتماع الفريقين ، وتدافع الجانبين . والغرض أن أنصار هذه المثابة وحُماتها قد مَسَّهُم النَّصَبُ بأوجه التأثير ، وأَفْنَى جَلَّ خيلهم مواصلة المسير ، حتى إنهم لم يتوفَّرْ من أعدادهم حين الالتحام ، مع الأشقياء أبناء حام ، سوى سيمائة رام ، وقُرْبَ عشرين فارسا ، وكان كلهم بالمكافحة والمنازلة ممارسا ، فهَبَ عليهم من رياح النصر كل صَبَا ، واتخذوا الشهامة والجلاد سبيلا ومذهباً ، فخفقت الألوية العلوية بالنصر والظفر ، وأَبَتْ^(٣) - بحمد الله - سِيلَك انتظامهم واتشر ، وأتى الحَيْنُ والأسْرُ على جموعهم فى الحَيْنِ ﴿ قَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وإنما ذكرنا هذه الرسالة يتامها لندل على أسلوب محمد بن على الفشتال المسجع ، وإنه كان يمتلك ناصية اللغة بما يؤلف من الألفاظ المصقولة الرصينة ، كما كان يعنى أحيانا بالجناس والاستعارات الملائمة كاستمارة العقبان لجنود جيشه ، وغير عن سلوكهم الصحراء الجنوبية بأنهم « فتحوا بلبا طالما طَلَسْم رتاجه ، فانتحم العسكر أحياء وجِللا ، وارتنى من المهابة ويُند الصَّيْتُ برودا وحُلَلًا » . ويقول عن أهل السودان الغربى فى محاولتهم منازلة جند المنصور : « انتفخ هِرْهُم وانتفض بَوْمُهُم يشير للعقبان (جنود المنصور) بالنزول » . ولعل فى هذه الاستعارات وما يماثلها فى الرسالة ما يدل على أن الفشتال كان يمتلك ذهنا خصبا . ومن رسائله رسالة بلسان المنصور يعزى فيها رئيس وزراء الدولة العثمانية سنان باشا فى وفاة السلطان مراد خان ، وهى تستهل على هذه الصورة :

« الوزارة العظمى التى تُجَال بأنظارها المسددة قِداح التدبير الجلائل ، والمنزلة التى لها وفور الاختصاص من أثره^(١) الإيالة العثمانية بأوضح الدلائل ، والمكانة التى صَغَصَنْتْ عروش عظماء المشركين وطاطات رءوس رؤساء الكفار ، والقطب الذى عليه فى دولة بنى عثمان أعظم المدار ، الوزير الأجل ، الأعظم ، الأفخم ، الكبير ، الخطير ، الأشمخ ، الأرسخ ، الأطول ، الأكمل ، المعتبر ، المشتهر ، الحظي ، السرى^(٢) ، الأقرب ، الأنجب ، الأثير ، الشهير ، الأخص ، الأخلص ، الأسعد ، الأصعد ، الأرقى ، الأتقى ، الأطهر ، الأطهر ، الخليل ، الحفيل^(٣) ، سنان باشا أبهى الله حوزته^(٤) محروسة ، وربوعه بالسررات مأنوسة ... هذا

(١) السرى : الشريف .

(٢) الخليل : الفاضل . الحفيل : الخفى به .

(٣) حوزته : دياره .

(١) جنا : ثمر .

(٢) بنيف : يزيد .

(٣) أبَتْ : قَطَّعَ .

(٤) أثره : خلاصه .

وقد طُنَّ بهذه الأقطار ، نبأً فظيع التذكار ، فُتت الأكباد ، وأذكى^(١) - على الثنائى - لواعج
 القواد . خطبٌ جلل ، ورزٌّ قلٌّ^(٢) الصَّاح والأسل ، ذلكم ما نزل به القضا ، وانتهى
 فيه الأمد وانقضى ، وهو انتقال السلطان الجليل الضخم ذى البسطة فى السلطان ، والملك
 الموطن بتمهيد الأركان : الخاقان^(٣) الأعظم ، والشاهق الأعصم ، السلطان مراد بن السلاطين
 الكبار .. وليس بمستكر كونه - رحمه الله - لأهل التوحيد يدا ، ولهم المسلمين مددا ..
 وإنا لله وإنا إليه راجعون من مواراة الحفر منه بدرا طالما ، وإغماؤها سيفا كان فى حماية الدين
 قاطعا ... واللجأ فيه إلى الصبر الجميل ، والضراعة إلى الله فى الجزاء الجزيل ، علما أن لابقاء
 لمخلوق مع تهى رواحل الليالى والأيام .

وهذه الرسالة بدورها تصور مهارة محمد بن على الفشتالى فى صوغ السجع ، وقد نعت
 سنان باشا فى أوائلها بنعوت متوالية جعلها جميعها مسجوعة ، فكل نعت يقرن بأخيه ، فى
 سجعات متعاقبة تكثر فيها الجناسات كما تكثر الاستعارات . ومضى فى الرسالة بعدما اقتبسناه
 منها يهنئ سنان باشا بتولى السلطان محمد بن السلطان مراد كرسى السلطنة العظمى بعد أبيه ،
 فقد آسى^(٤) الدهر به . وبين رسائله رسالة على لسان المنصور إلى بدر الدين القرافى شيخ
 المالكية فى مصر ، وكان كثيرون من طلاب الفقه المالكى وشيوخه فى المغرب يزورون القاهرة
 للاستماع إلى محاضراته ويحملون عنه مؤلفاته ، ومن قول الفشتالى فى نعونه التى جعلها مقدمة
 لرسالته إليه « العمدة الراسخة البناء فليس إلا فى باب نعم اشتغاله ، والفذ الذى ما جرى التنازع
 فى الفهوم الدقيقة من أعراف النقدة الشوامخ ، إلا جاءت آيات غَوْصه وتحصيله لشبه الجموع
 نواسخ » وقد تصنع لإدخال بعض مصطلحات نحوية فى هذه السجعات هى : باب نعم
 والاشتغال والتنازع والنواسخ . وتلتقى فى الرسالة بطرائف استعاراته ، ويذكر عن
 المنصور إقامته للرسوم الشرعية ، والشعائر المرعية ، وجميل الالتفات للمنقفة فى الدين ولحملة
 الرواية فى حفظ سنة سيد المرسلين . وحقا نهض المنصور بالمغرب الأقصى نهضة علمية
 وأدبية كبرى ، مما جعل حلقات العلماء تزخر بالدروس والطلاب . وتنتهى الرسالة بقول
 المنصور :

« وهؤلاء خدام جنابنا العلّى واردون على تلکم الديار برسم جلب ما لعلکم تستفرغون فيه
 الوُسْع من الکب لخزائنا العلمية الخافلة .. وأما التشوق لموضوعکم (لشرحکم) على مختصر
 خليل فشىء لا يكيف ، ومعهود لا يحتاج أن يعرف ، وبودنا أن يكون من خزائنا الخافلة
 بحيث المراجعة والمعاهدة ، والحضور والمشاهدة . »

(٣) الخاقان : لقب سلاطين الترك .

(١) أذكى : أوفد .

(٤) آسى : عزى وولى .

(٢) ظبا الصفاح والأسل : حد الرماح والسيوف .

والمصور فى هذه الخاتمة لرسالته يقول للقرافى شيخ المالكية فى مصر أنه مرسل له ببعثة علمية ليتقن لها كتباً نفيسة ، مما ينبغى أن لا تخلو منها مكيبات فاس ، ويسأله أن يرسل إليه بمؤلفه أو بشرحه على مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى ، وكانت له شهرة مدوية فى البلاد المغربية . ولعل فى كل ما سبق ما يدل - بوضوح - على أن محمد بن على الفشتالى كان كاتباً بارعاً ، وكانت وفاته سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٣ م .

(هـ) محمد^(١) بن الطيب العلمى

من الكتاب الشعراء فى أوائل عصر الدولة العلوية ، لا يعرف تاريخ مولده ، ولكن يعرف تاريخ وفاته إذ توجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، وفى الطريق صعدت روحه إلى بارئها فى القاهرة سنة ١١٣٤ هـ / ١٧٢١ م وهو تلميذ الشاعر ابن زاكور وحامل لواء الأدب المغربى بعده لا فى فاس مسقط رأسه وحدها بل فى المغرب الأقصى جميعه . ومثل لداته التحق بكتائب فاس لحفظ القرآن الكريم ، ثم أكب على حلقات العلماء فى جامع القرويين ، وفتحت موهبه الأديبه مبكراً ، فنظم الشعر ، وأنشأ قصائد مدح للسلطان إسماعيل ، وطارت شهرته لا لما كان ينظم من أشعار فحسب ، فقد كان يجيد نظم المسحطات والموشحات كما كان يجيد التأليف الأدبى على نحو ما يتضح فى كتابه « الأنيس المطرب فىمن لقيه مؤلفه من أدهاء المغرب » وقد عرض فيه اثنى عشر أديبا من معاصريه ، لعل أشهرهم أستاذه ابن زاكور ، وفيه يقول :

« وحيد البلاغة ، وفريد الصياغة ، الذى أرسخ فى أرض الفصاحة أقدامه ، وأكر وثوبه على حل المشكلات وإقدامه ، فتصرف فى الإنشاء ، وعطف إنشاءه على الأخبار وأخباره على الإنشاء ، وقرع^(٢) الرجال ، فى ميادين الارتجال » . وله بجانب هذا الكتاب الطريف رسائل شخصية يزينها بسجعاته وما يختار لها من أشعار وبجناساته واستعاراته إذ كان أديب عصره غير منازع ولا مزاحم ، وإحدى هذه الرسائل موجهة إلى صديقه محمد بن العربى الشرقى ، وفيها يقول :

« بعد ما تستحقه تلك السيادة ، الممنوحة بالحسنى وزيادة ، من السلام الذى طلبت نفحاته ، وطالت غدواته وروحاته .. فإنه لما طال أمد الفراغ ، وبلغت الروح الترافى وظن أنه الحين وقيل : من راق ، فكرت فىمن يفك من يد الأشواق أسرى ، ويجير بين الأصحاء كسرى فقلت :

وبالبدر لم يطلع وبالبئيل لم يسر

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح

والذكور الأخضر ١٧٧ .

(٢) قرع الرجال : فاز عليهم .

(١) انظر فى ترجمة الطيب العلمى ورسالته ومفاته

التبوع المغربى ٣٢٤/١ ر ٢٢١/٢ والوائى ٧٨٩/٣

فما عثرت بعد معاناة التَّيْنِ ، ومعاناة الدهر المفرَّق بين المحبَّين ، إلا على بعض درر من كلامك ، استخرجت من بحور مددك بمداد أقلامك ، كنت أدخرتها عن القوم ، لمثل هذا اليوم :

تفقدتها بعد السرور بكونها وفي الليلة الظلماء يُفتقدُ البدر
فما زالت تذكّرني أيام الوصال ، وتقطع من غرائب الين وتخرسه إن صاح أوصال :
ذكرت بها بعد التفرُّق ما مضى زمان النقا والشيء بالشيء يُذكرُ
إلى أن استولت على يد الضَّياع ، وأعقب لي ذلك الأمن بالارتياح ، فأصبحت من فراقك
ملئنا بلوعتين ، واحترقت بجمرتين ، والتدغت من جُحر مرتين :
وكنت كذى رجلين رجلٍ مريضٍ ورجلٍ رماها الدهرُ يوما فسلَّتْ
غير أن الآمال كلت تشوّفى^(١) ، واليالي لكلك تشوّفى ، فكنت أصدّق فيك الأوهام ،
وأعدّ حديثها من الإلهام :

صدقتُ وهمى فى الحديث ولم أقل خيرٌ رواه الوهمُ وهو ضعيفُ
وهو فى مطلع رسالته يقتبس من سورة يونس : (الحسنَى وزيادة) كما يقتبس من سورة
القيامة : ﴿ إذا بلغت التراقي وفيل : من راق ﴾ ، ويتأثر بالحديث النبوى : « لا يلدغ المؤمن
من جحر مرتين » ويتمثل بآيات تنضح فيها رهاقة ذوقه وبصره بالشعر العربى ودقة اختياره ،
ولغة الرسالة وأساليبها تكثظ بالسلاسة والعذوبة ، مع ما يشيع فيها من الجناسات والطباقات
والاستعارات . وكل ذلك يرفع من ثره وبلاغته فيه . ومن آثاره الثرية مقامة بديعة سماها
« مقامة الحجام » رواها عن بعض الظرفاء ولما أوجزها فى السطور التالية :

استهلّها بأنّه جلس يوما مع جماعة من الأحباب .. يتذكرون ما مرّ فى أيام الشباب ،
وكان بينهم شاب حسن الصورة إلا أنّ شعر شاربه طال ، واسترسل غاية الاسترسال ، فسألوه
عن سبب طول شاربه ، فقال لهم : أنا أخبركم بخبر عجيب ، فقد صلّيت يوما صلاة الاستخارة ،
فوجدتني مثالا إلى التجارة ، فقصدت مدينة سنجار ، وضحت بها حائونا بسوق التجار ، لبيع
القماش ، والاستعانة به على المعاش ، وزيّت الدكان ، وكسوته الستائر على أربعة أركان .
فحاول يوما دخول الحمام ، فوجد فى طريقه جماعة من النسوة بينهن فتاة جميلة ، فبعثتها
حتى دخلت دارا أتيقة ، ورأى أمام الدار خياطا يخطط الثياب فى دكان . ويذكر الشاب أنّه
احتال على عقد صلة بينه وبين الخياط ، ونجح فى عقدها ، فتابّه أن يُباها خطيب البلد ، وهو
كثير المال وليس له من أولاد سواها وخطبها كثيرون ، وردّهم ولم يسمح لها بالزواج ، وتلطف

(١) تشوّفى : تجملى أطلع وأطمح .

له الشاب حتى تمس به ، فذله على عجز مشهورة فى تزويج الفتيات ، ولقته العجوز ، فوعدها بمال وتحف كثيرة إن هى نجحت فى وساطتها . وغلبت عنه فترة وعادت إليه بعد شهر ، فأبأته منها ، فقال لها إني لا أريد منها سوى قُبْلَتَيْن ، وأعطاهما من الذهب ما أرضاها ، فعادت إلى الوساطة عند أم الفتاة ، وأقنتها بقاء الشاب المقيم لابنتها ، واتفقا على أن يزورها فى صلاة إحدى الجمع وأبوها مشغول عنها فى المسجد . وفى يوم الجمعة المضروب دخل عند حجّام ليستم حسن مظهره ، فوجد الحجّام شارب طويلا فقص أطرافه ، وبدلا من أن يعطى الشاب الحجّام درهما أعطاه لارتبائه دينارا ، فطار صوبه ، وخرج وراءه ، ولازمه ولاصقه طامعا فى دنائره حتى إذا دخل دار الفتاة ولول الحجّام وصاح ولم يزل يصرخ ويستغيث ، ويقول ألا منجد ألا منجد ألا منجد ! ومغث والعجوز راجفة والبنت واجفة^(١) ومثلها الأم ، واجتمع الناس والحجّام يصيح : يا سيده ، يا مولاه ، وخرج الناس من صلاة الجمعة وتجمع الناس عند الدار ، ووصل الخبر إلى خطيب البلد فحضر ، وسأل الحجّام ما الخبر ؟ فقال له إن سيدى دخل إلى هذه الدار ومعه كيس فيه ألف دينار فطمعوا فيه فأدخلوه وقتلوه . ووجد الشاب فى الدار بثرا فرمى نفسه فيها ليختبئ عن عيون الناس ، ودخل الخطيب الدار ومعه الحجّام يبحثان عن الشاب ، وعرف الحجّام مخبأه فى البئر ، فسأل الخطيب أبو الفتاة الشاب عن سبب دخوله الدار ، فأجابه بموّهة عليه : دخلت لكى أسرق ، فحُمِل إلى الوالى على أقبح حال وأسوأ شأن ، وأمر بسجنه ، وبقي فى الحبس سنة . وكان المساجين يعرضون كل عام على السلطان فى شهر رمضان لينظر فى أمرهم ، وعرض عليه الشاب فسأله عن الأمر الذى حُبِس من أجله ، فقال له ، إنها قضية أذكرها بين يديك لتحكم فيها ، وذكر له حكايته على وجهها الصحيح ، فأمر برد ماله كما أمر الخطيب أن يزوجه من ابنته ، ودفع له الصداق . وسلم الحجّام للشاب فصلبه على باب داره . ثم قال : وأنا من هذا الحين لا أقص شارى أبدا .

وقارن الأستاذ محمد بن تاويت بين عناصر هذه المقامة لابن الطيب العلمى وبعض عناصر المقامة السنجارية للحريرى ، ولاحظ كثيرا من التشابه بين عناصر المقامتين حتى فى بعض العبارات والصيغ ، ونجد ابن الطيب العلمى يذكر عن بطلها أنه قصد مدينة سنجار بقصد التجارة ، وهى المدينة التى عقد عليها الحريرى مقامته السنجارية . ومقامة العلمى لا تدور على الشحاذة الأديبة مثل مقامة الحريرى . وقد أخلاها - كما ذكر الأستاذ ابن تاويت - من الألفاظ الغريبة الكثيرة التى استظهرها الحريرى فى مقامته ، وأجرى فيها روح الفكاهة مع السلاسة والمذوبة على نحو ما يبدو فى القطعة التالية المقتطفة من أوائلها :

(١) واجفة : مضطربة .

« اتفق لى فى بعض الأيام ضرورةً إلى دخول الحمام ، فوجدت فى طريقى جماعة من النسوان ، يبنهن فتاة كُتُها قُضِبَ البان ، فلمحت من تحت الإزار معصمها وقد سطع صفاؤه ، وأُبصرت من تحت الثقاب جسمها وقد لمع ضياؤه ، فوقفت وقد جرى من الجفون الدم ، وعجزت عن نقل القدم ، ثم تبعتها من بعيد ، ولاحظتها إلى أين تريد ، فدخلت دارا يدل إتقان قلبها ، على سعادة أربلها ، ونظرت فإذا بالقرب من ذلك المكان ، خياطٌ يخطط فى دكان ، وعنده من الصناعات والأعوان ، ذوو أذقان ومُردان^(١) ، صِنوان^(٢) وغير صنوان ، فقلت فى نفسى : من هذا الخياطُ أَسْتَفْهِم ، عما على أبهم . فرجعت إلى دكائى ، ثلثيا عتائى ، وأحضرت عِدَّةً من التفاصيل ، وجئت بها إلى حاتوت الخياط بقصد التفصيل ، فجالسته وحاورته وآمسته ، وفصلت ذلك القماش ، وعجلت له من الأجرة ما يحصل به الانتعاش ، ففرح بحضورى ، واعتنى بأمورى ، ووجدت عنده معرفة بالأدب ، وشكا إلى من ضيق الحال والسُفْه^(٣) ، وتُشدنى نفسه من شره المستعذب :

تأ الخياطُ لى رزقٍ ولكن أرى حالى من الإغلاس عِزّه
ذراعى فيه من فقري يقصُّ ورزقى خارج من عَيْنِ لَمَرّه

فاستحسن نظمها ، وحملت همَّه وسألته عن صناعات دكانه ، وديار جيرانه ، فمزال يشير إلى كل دار ويشرح حالها ، ويبرهن تفصيلها وإجمالها ، حتى أفضى الحديث إلى الدار التى أختارها ، وقصدي أن تتضح لى أخبارها ، فقال : هى دار خطيب البلد ، وهو رجل كثير المال قليل الولد ، مشهور بالتؤدة الزائدة ، ولا له من الأولاد إلا ابنة واحدة ، وهى روحه التى بين جنبه ، والسواد الذى فيه نور عينيه ، وقد منعها الأزواج ولم يسمح لها بالزواج .
والمقامة تجرى بهذه الروح الفكهة التى ترسم الانسامة على الشفاه ، وهى سجع خالص ، سجع قصير يحدث ضرورا من التلازم الصوتى بين العبارات ومحسن جرسها ووقعها فى الأسماع ، حتى لتساب انسباب الجدول الرقراق المتدفق بالماء القذّب القراح .

(٣) السب : الجوع .

(١) مردان : جمع مُرد : شاب .

(٢) صنوان : شقيقان أو متماثلان .

القسم الثالث

موريتانيا

الفصل الأول الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

تقع موريتانيا فى الشمال الغربى من إفريقيا جنوبى المغرب الأقصى والجزائر ، وفى أقصى شمالها الشرقى الصحراء الغربية ، وبجاذبيها فى الغرب المحيط الأطلسى ، ويشغل الشرق منها دولة مالى ، وتجاذبيها فى الجنوب دولة السنغال واسمها تحريف لكلمة صنهاجة التى نزلت بها قبائلها البربرية وامتدت إلى نهر النيجر وشواطئه وإلى إقليم مالى .

وهى تشغل الجزء الغربى من الصحراء الكبرى التى تمتد حزاماً بين بلاد السودان والبلاد المغربية ، وتتأثر على رقعتها مناطق جبلية أشبه بهضاب متسعة ، وتلتقى فيها من حين إلى حين بآبار وواحات صغيرة ، وقد نُقِضَ مائة كيلومتر دون أن نعر على بئر أو ماء ، مما يجعل القوافل المارة بها فى حاجة إلى دليل يقودها لاسيما على الطرق التجارية الذاهبة إلى السودان والآية منه ، وسطحها رمال سائلة وكبان متقلبة ، تنقلها الرياح والعواصف الشديدة من مكان إلى مكان ، وطُمرت - على مر العصور - كثير من القرى والبلدان ، والجو - وخاصة فى الصيف - شديد الحرارة ، ويعتدل فى المناطق الجبلية وعلى ساحل المحيط ، وتهب بها صيفا ريج السيروكو الحارّة والحملة بالرمال ، والأمطار بها قليلة قلة شديدة حتى لتتعدى فى بعض الأنحاء . وقد تصبح الصحراء جافة جداً وقاحلة جداً كالمناطق الجنوبية الشرقية بين آبار أروان وآبار أزواد ، وهما فى رمال كالحة لا نبات فيها ولا زرع ولا ضرع ، وهما محطتان على الطريق التجارى إلى تمبوكتو وبلاد السودان . وحينما توجد آبار تنشأ قرى وبلدان يكثر فيها النخيل والكلاّ ، ويزرع نخت النخيل فى الخريف الشمير والدخن والذرة وأحياناً القمح والبطيخ . وتنمو بموريتانيا أشجار صحراوية مثل السّدر والطلح .

وفى أقصى الشمال الغربى لموريتانيا مدينة الساقية الحمراء التى أُسِّسَتْ سنة ١٨٨٤ للميلاد ،

وكتاب الوسيط فى تراجم أدياب شفيط للأستاذ أحمد بن
الأمين الشفيطى

(١) انظر فى جغرافية موريتانيا كتاب وصف إفريقيا
للحسن الوزان فى مواضع متعددة ورحلة ابن بطوطة
فى أواخرها حيث وصف رحلة له إلى السودان الغربى

وفى الوسط إلى الغرب إقليم آدرار ، وهو جبال شامخة متصلة أشبه بهضبة كبيرة يسير الراكب فيها ستة أيام طولا وخمسة أيام عرضا ومن أهم مدن هذا الإقليم شنقيط وكانت العاصمة الثقافية لموريتانيا حتى نهاية القرن الماضى ، ويقال إنها شُيّدت بوحدة آبير فى القرن السادس الهجرى/الثنى عشر الميلادى ، وغلبت عليها الرمال فبنيت فى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى . وكانت موريتانيا - من حيثذ - تسمى بلاد شنقيط ، ويسمى شعبها الشناقطة ، وسميت فى القرن الحاضر باسم « موريتانيا » وهو الاسم القديم الذى كان يطلقه الرومان عليها وعلى المغرب الأقصى . وتقع غربى شنقيط مدينة آطار التى بناها السماسدة فى القرن الماضى . وإلى الجنوب من شنقيط حصن أزمكى ومدينة أودغشت اللذان اتخذهما المرابطون فى القرن الخامس الهجرى قاعدة لجيوشهما الناشئة للإسلام فى السنغال وغينيا ومالى . وفى الجنوب الشرقى من إقليم آدرار إقليم تكتت وهو مثله هضبة مرتفعة أو بعبارة أدق جبال متصلة عليها مدن وقرى أهمها مدينة تيججكة التى بنيت منذ ثلاثة قرون وهى كثيرة النخل والزروع ، ومن مدن الإقليم مدينة تيشيت فى منطقة رملية وعلى مقربة منها - كما يقول الحسن الوزان - رقعة صالحة للزراعة فيها نخيل كثير ورقعة أخرى تزرع شعيرا وذخنا . والماشية نادرة والغنم الصحراوى كثير . وبمستغل أهلها بالتجارة وحمل عروضها أو بضائعها بين السودان والمغرب الأقصى ، وهى - إلى ذلك - كانت محطة مهمة للقوافل التجارية . وإلى الشمال الشرقى من شنقيط مدينة وادان وهى مبنية على مرتفعات صخرية وتشرف على وادين بهما نخل كثير ، وأهلها أصحاب سبخة إجّل فى الشرق المشهورة بمناجم الملح ومنها يُحمّل إلى شنقيط وبلاد السودان . وحلّت محل مدينة تغازى التى كان يحمل الملح من مناجمها زمن ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى ، ونزل بها فى رحلته إلى السودان وفيها يقول : « من عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقوفها من جلود الجمال ، ولا شجر بها ، إنما هى رمل فيه معدن الملح يخفر عليه فى الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة ككُفها قد نُحِت ووضعت تحت الأرض يحمل البعير منها لوحين ، ويأع الحمل منه فى ولاته بعشرة مثاقيل ذهباً وفى مالى بتلاتين مثقالا ، ويُقطع قطعا يُباع بها كما يُباع بالذهب والفضة ، وقرية تغازى يتعامل فيها بالقناطر المقنطرة من التبر ، ويقول الحسن الوزان إنه ليس لعمالها من أقوات إلا ما يُجلب لهم من تمبكو فى السودان أو الدرعة فى المغرب الأقصى الواقعتين على مسافة عشرين يوما من تغازى ، وماء آبارها مالخ . وفى الجنوب الغربى من موريتانيا مدينة بوتليميت ، وهى عاصمتها الثقافية الآن لوجود معهد إسلامى بها وتشتهر الأنحاء فى الجنوب الغربى بما فيها من مناجم الحديد وهى

تدرّ على البلاد خيرا كثيرا . ومن أهم مدن الجنوب الشرقى مدينة ولأته ، وكانت محطة مهمة للقوافل التجارية ، وكان بها حدائق نخيل وتبت بقمعتها الدخن وحبا مدورا أبيض اللون كما يقول الحسن الوزان ، وتسمى المنطقة - كما يقول - من ندرة اللحم ، وكان أهلها يقومون على إرشاد القوافل العبرة للصحراء وحمايتها حتى السودان وحتى المغرب الأقصى مما كان يدرّ عليهم خيرا كثيرا .

٢

التاريخ^(١)

كانت قبائل صنهاجة الصحراوية تنزل من قديم في الشطر الغربى من الصحراء الكبرى جنوبى الجزائر والمغرب الأقصى فاصلة بينهما وبين القبائل السودانية المدارية ، وكانت بعض هذه القبائل تنحدر حتى ضفاف نهر السنغال ، ونفس كلمة السنغال إنما هي تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين حين نزلوا بسواحلها ، فسموها Senegal ثم أصبحت Senegal . ويقول ابن فؤاد إن صنهاجة الصحراوية تنقسم إلى سبعين قبيلة ، منها لمتونة وكدالة ومسوفة ولطة وبنو وارث ومنذلة ، وفى كل قبيلة بطون وعشائر أكثر من أن تحصى . وكثير منهم لا يعرفون حرثا ولا زراعا ولا ثمارا ، وإنما أموالهم الأنعام ، وعيشهم اللحم واللبن ، وهم على مذهب أهل السنة والجماعة ، ويجاهدون فى السودان .

وظلت تلك القبائل تعيش فى الحزام الصحراوى الفاصل بين البلاد المغربية والسودان على تمامها وألبقتها ولحموها وصوفها وأوبارها متخذة منها الخيام ، وكانوا يضعون اللثام على رؤوسهم ووجوههم شعارا لهم ، ولذلك سماوا اللثمين . وأخذت أخواله الإسلام تنفذ إليهم منذ عهد عقبة بن نافع الفهري وولايته على الديار المغربية (٥٠ - ٥٥ هـ) إذ أسلم على يديه منهم بنو وارث ، ومضوا يجاهدون السودانيين الغربيين واتسع اعتناق تلك القبائل للإسلام فى عهد موسى بن نصير (٨٦-٩٦ هـ) ولما استولى عبد الرحمن بن حبيب على مقاليد الحكم فى البلاد المغربية (١٢٧-١٣٧ هـ) غنى بالطريق التجارى المار بقبائل صنهاجة

إفريقيا ، فى مواضع مختلفة ورحلة ابن بطوطة فى حديثه عن ولأته وكتاب مناهل الصفا للشتال ص ٥٨ وما بعدها . وكتاب الوسيط لابن الأمين الشنفيلى ، وإمبراطورية غانة الإسلامية وإمبراطورية مالى الإسلامية للدكتور لمعلم طرخان .

(١) انظر فى تاريخ موريتانيا المغرب فى ذكر بلاد إفريقيا والمغرب للكبرى وحديثه عن جارتها غانة وكتاب روض القرطاس لابن فؤاد (طبع الرباط) ص ١٢٠ وتاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ١٨٢/٦ وحديث ابن حوقل عن السودان الغربى فى كتابه : صورة الأرض . وراجع كتاب الحسن الوزان : وصف

غربي الصحراء الكبرى ، إذ حفر عليه من سجلامة في جنوبي المغرب الأقصى إلى بلاد السودان الغربي آباراً للفواجل التجارية تنزل عندها وتأخذ كفافيتها من الماء في مسيرتها الصحراوية .

وأخذ الإسلام يتسرب سريماً إلى بلاد السودان الغربي عن طريق القبائل الصنهاجية في موريتانيا والتجار المسلمين ، ويقول أبو عبد الله البكري في كتابه المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب إن بني أمية أرسلوا جيشاً لفتح بلاد السودان ، واستقرت ذرية منه في بلاد غانة ، وكانت حينئذ تقع في شرقي السنغال الحديثة وجنوبي مالي الحديثة أيضاً ، وإذا صح ذلك فإن هذا الجيش حمل قديماً إلى ديار السودان الغربي الدين الحنيف وبقي هناك من يدعو إليه ، ويتصل بذلك ما جاء في صبح الأعشى من أن أهل غانة أسلموا في أول الفتح . ونجد القبائل الصنهاجية - وخاصة لتونة - تتجمع في مدينة أودغست جنوبي منطقة آدرار وتحدث فيها ما يشبه إمارة - ويسمونها بعض جغرافيين العرب مملكة - ويذكر ابن أبي زرع من أمرائها أو شيوخها أو ملوكها - كما يقول - تيلوتان وكانت ولايته مسيرة ثلاثة أشهر في مثلها كلها عامرة ، وكان يركب في مائة ألف بعير ، وهو عدد ضخم من الإبل ، وكان في زمن عبد الرحمن الداخل سلطان الأندلس (١٣٨ - ١٧٠ هـ) وطال عمره إلى أن توفي سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٦ م وكانت أيام حكمه خمسا وستين سنة ، ودان له - كما يقول ابن أبي زرع - تزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان . ولم يكونوا ملوكاً بالمعنى الحقيقي لكلمة ملوك ، إذ لم تكن لهم حكومات ولا دساتير دول ، إنما كانوا زعماء لأقوامهم ، وربما كانوا شيوخ - أو سادة - قبائل ، وأكبر الظن أن في هذا العدد من الزعماء مبالغة . وخلفه حفيده الأثير بن فطر ، فقام بأمر صنهاجة الصحراوية أو الموريتانية خمسا وستين سنة إلى أن توفي سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م وولى بعده ابنه تميم إلى أن توفي سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م . واضطربت شئون صنهاجة الموريتانية بعده فترة ثم اجتمعت على يروتان بن ونسو بن نزار اللنتوني الأودغستي فملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وابنه المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٥ هـ) وكان يركب - مثل تيلوتان في مائة ألف بعير ، وكان حكمه مسيرة شهرين في مثلها ودان له عشرون ملكاً من ملوك السودان - مثل تيلوتان - يؤدون له الجزية ، وملك من بعده بنوه ثم افرقت كلمة الصنهاجيين ، وعظم أمر مملكة غانة واستولت على أودغست ، وكانت تسمى بلاد السودان بالملح الوارد إليها من تغازي ومن أجله استولت عليها غانة .

وتتجمع صنهاجة تحت لواء الشيخ أو الأمير أبي عبد الله محمد بن تيفات المعروف باسم تاوشا اللنتوني وكان من أهل الدين والفضل والصلاح والجهاد والنج ، وظل أميراً على صنهاجة الموريتانية مدة ثلاث سنوات إلى أن استشهد في إحدى غزواته . وولى أمر صنهاجة

الموريتانية بعد تاروشا اللمتوني صهره يحيى بن إبراهيم الكدالي ، وخرج فى سنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية فى رؤساء من قومه ، وفى عودته اجتمع فى القيروان بأبى عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى بها المتوفى سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨ م وعرفه بما فى صنهاجة الصحراء الموريتانية من الجهل بشئون الدين الخفيف وتعاليمه ، وسأله أن يوجه معه أحد تلاميذه ليصبرهم بأمر دينهم ، وعرض الشيخ رغبته على تلاميذه ، فلم يستجب منهم أحد ، فكتب له رسالة إلى فقيه من تلاميذه بمدينة سجلماسة جنوبى المغرب الأقصى هو محمد وجاج أو وقاق بن زلو اللمطى . وطلب إليه فى رسالته أن يعرض الأمر على طلابه ، لعل واحدا منهم يقبل المسيرة مع يحيى الكدالي ، وقبلها فقيه تقي ورع من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولى .

ورجع يحيى الكدالي إلى قومه الصنهاجيين بعبد الله بن ياسين فأخذ يحفظهم القرآن الكريم ويفقههم على تعاليم الدين الخفيف ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فالتفتوا حوله ، وبعد فترة ازوروا عنه ، وتوفى حاميهم يحيى الكدالي فأجمعوا على الانصراف عنه لما يأخذهم به من مشاق التكاليف الدينية . وأخذ يفكر فى تركهم والعودة إلى موطنه ، غير أن زعيما من لمتونة الصنهاجية الموريتانية هو يحيى بن عمر أشار عليه أن يعتزل معه للمعاهدة والنسك فى جزيرة على مقربة من مصب نهر السنغال ، ونزلاها معا ، ونزلا معها سبعة من قبيلة كدالة الصنهاجية ، وبنى بها عبد الله بن ياسين رباطا للنسك ، وأخذ يلتحق به عشرات من أشرف صنهاجة ، كان يفقههم فى الدين ، حتى إذا بلغوا ألفا قال لهم : إن ألفا لن يُقبلوا من قلة ، وقد تعين علينا - أيها المرابطون - القيام بالحق والدعاء إليه ، وحمل الكافة عليه ، وبذلك سماهم : المرابطين ، وغلب هذا الاسم على صنهاجة الصحراوية الموريتانية بجانب الاسم القديم : اللمتين ، وخرجوا معه ، وجعل أمرهم فى الحرب إلى الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ، وقُتل هو ويحيى من استعصى على الحق من قبائل صنهاجة الموريتانية ، ومضيا فى سنة ٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م يدعون إلى الإسلام فى سودانيي التكرور وحوض السنغال الأدنى وما وراءه من بلاد السودان الغربى فى غانة وغير غانة . وفى سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م كاتبها فقهاء سجلماسة ودرعة جنوبى المغرب الأقصى وصلحاهما كى ينقذا البلاد مما فيها من المنكرات ومن ظلم الولاة والحكام ، فاتجها بجيش جرار إليهم ، وتم لهما النصر ، وأزالا ما بالبلدين من المنكرات وأسقطا ما كان بهما من المغارم والمكوس ، وجعلا عليهما عاملا أو واليا من لمتونة ، وعادا إلى صحراء موريتانيا وإلى جهاد الوثنيين فى بلاد السودان ، وتوفى الأمير يحيى بن عمر فى شهر المحرم سنة ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م وقدم الفقيه عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر اللمتوني مكانه وقلده أمر الحرب .

وكان أبو بكر بن عمر بطلا مغوارا ، وكان صالحا متينا الدين متورعا ، وسرعان ما تقدم بجيشه من آردار وحضنى لزمكى وأودغست فى شهر ربيع الثانى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة إلى بلاد السوس جنوبى المغرب الأقصى ، وأخذ يستولى على بلداتها وقضى فيها على قوم من الروافضى يقال لهم البجليّة نسبة إلى عبد الله البجل الرافضى ، وكان قدم إلى السوس حين قدم عبيد الله المهدي الشيعى الإسماعلى إلى إفريقيا ، وأشاع به مذهبه الرافضى ، وأخذت أجيال متعاقبة تتوارثه هناك إلى أن قاتلهم أبو بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين وقتل منهم خلق كبير ، ورجع من بقى منهم إلى السنة ورأى الجماعة . وتلك أول حسانات أبى بكر بن عمر والشيخ عبد الله بن ياسين فى المغرب الأقصى ، وأخذوا يتغلغلان فيه شمالا واستولوا على أغصان وإقليم حاحة سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م كما استولوا على تادلة وإقليم دكالة ، وعرفا أن بساحلها على المحيط وساحل إقليم تامسة قبائل برغواطة التى خرج بها عن جادة الدين الحنيف متنبون ابتدعوا لهم شريعة ضالة كافرة - وتعاقبوا فيهم من قديم ، فقصدا إليها فى مدينة آسفى على المحيط بإقليم دكالة وفى مدن سلا ولزمور وآتفة (الدار البيضاء) فى ساحل إقليم تامسة ، وأخذوا ينازلانها منازل ضارية ، وفى بعض المنازل والوقائع استشهد الشيخ العظيم عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وبُنى مسجد على قبره . ومضى أبو بكر بن عمر يجاهد برغواطة ، حتى استأصل شأنتها ومحا دعوتها من المغرب الأقصى إلى غير رجعة . وتلك حسنة كبرى ثالثة لأبى بكر بن عمر وصنهاجة موريتانيا . وبلغه سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م أن خلافا شديدا نشب فى صحراء موريتانيا بين قبيلتى لتونة ومسوفة ، وخشى افتراق الكلمة ، فخرج إليهما واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومنذ ذلك الحين انقسمت دولة المرابطين قسمين : قسما شماليا وقسما جنوبيا ، وقاد القسم الشمالى يوسف بن تاشفين ، وسرعان ما أسس فى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م عاصمة دولته : مراکش ، وفى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م استولى على مدينة تلمسان الجزائرية من أبى بنى يعلى الخزريين ، وتوغّل شرقها حتى مدينة الجزائر . واستصرخه بعض أمراء الطوائف فى الأندلس ، كى ينقذهم من براثن الإسيان الشماليين ، فجاز إليهم زقاق جبل طارق بجموع صنهاجة الصحراء الموريتانية ، وانتصر على الإسيان فى موقعة الزلاقة انتصارا حاسما سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٥ م ورأى من الضرورى القضاء على أمراء الطوائف حتى تعود إلى الأندلس وحدتها إزاء الأعداء المترصين . وهذا الانتصار العظيم يعد حسنة كبرى ثالثة تضاف إلى صنهاجة الصحراء الموريتانية .

والقسم الجنوبى لدولة المرابطين ظل يقوده البطل المجاهد العظيم أبو بكر بن عمر الذى استطاع نشر الإسلام فى جميع أرجاء إفريقيا الإدارية حتى أبواب إفريقيا الاستوائية وساجها الضخم من الغابات الكثيفة ، وقد بدأ بالكروور ومنطقة نهر السنغال الأدنى ، وانضموا إلى

جيشه فى حاس بالغ لنشر الإسلام فى ربوع السودان ، واستطاع الاستيلاء على غقة ونشر الإسلام فى أنعامها ، ويقال إن أميرها السنكى أعلن إسلامه وأسلم معه كثيرون . وبالمثل نشر الإسلام فى أرجاء مالى وأرجاء صنى فى حوض النيجر الأوسط ، وحقق كل تلك البلدان كان قد دخلها الإسلام على أيدي التجار والقبائل الصنهاجية قبل نبي بكر بن عمر ، ولكن كانت كثرة أهلها ما عدا التكرور وثنية ، أما أبو بكر بن عمر فقه أحاطا بلادا وشعوبا إسلامية إلى اليوم وإلى أهد الأبدن . وكل ذلك بفضل هذا البطل الصحراوى الموريتانى المخلص لديه الذى كان يحكم كل هذه الأقطار من منطقة الأدرار فى موريتانيا متخذاً آزكى وأودغست قاعدتين كبيرتين لحملاته الحربية جنوبا وشرقا . وكل ذلك بحسب له ولصنهاجة موريتانيا كما بحسب لها ما أدته من خدمات جللى فى الأندلس وحماتها للإسلام هناك ضد أعدائه من نصارى الإاسبان . وطبيعى أن تسيطر صنهاجة موريتانيا فى أثناء ذلك على طرق التجارة الرئيسية بين المغرب الأقصى وإفريقيا المدارية . واستشهد البطل العظيم أبو بكر بن عمر سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م برمية سهم مسموم فى عودة له إلى الأدرار من غزوة مظفرة بعد أن أدى للإسلام خدمات جللى وسع بها داره الإفريقية وعاله الضخم .

وأبو بكر - دون ريب - هو صاحب الفضل فى أن جعل كل الشعوب الإفريقية التى استولى عليها شعوبا إسلامية ، ودخلت إليها مع الإسلام اللغة العربية ، وظلت لغة العبادة والثقافة والتجارة إلى اليوم ، ولم يستطع الاستعمار إزاحتها عن مكائنها . وعادت هذه الشعوب إلى الاستقلال عن دولة المرابطون وصنهاجة موريتانيا بعد وفاة نبي بكر سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، وازدهرت من بينها مملكة غانة وظلت صاحبة السيادة والنفوذ فى كل البلاد والأراضى الواقعة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى وتبعها الشطر الجنوبى من موريتانيا ومدينة أودغست ونيمة وولانه ، وانتسب حكامها - كما يقول الإدريسى - إلى الحسن بن على بن نبي طالب . وكانت قبيلة الصوصو تنزل جنوبها وتخضع لها وتدفع إليها الجزية إذ كانت وثنية ، ومازالت تقوى حتى استطاعت القضاء على غانة والاستيلاء على عاصمتها كومبى صالح شمالى ياماكو عاصمة مالى الحديثة سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م وفر من العاصمة فريق من المسلمين مع الشيخ إسماعيل إلى مدينة ولانه فى الجنوب الشرقى لموريتانيا وأصبحت من أهم المراكز التجارية فى إفريقية الغربية . وبعد نحو ثلاثين عاما استطاع مارى جاطة بطل دولة مالى القومى وأهم حكامها أن يغزو بلاد الصوصو ويفضى عليهم . وامتدت دولته حتى شملت حوض نهر السنغال ونهر غينيا ومعظم حوض النيجر الأوسط والأعلى ، وفى أوائل عهد أحد أحفاده وهو منسا سليمان (٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م - ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م) قام ابن بطوطة برحلته إلى السودان ، وكانت أول مدينة نزل بها فى موريتانيا مدينة تغازى ، ومر بنا حديثه عن مناجم الملح بها ، وعجب

من انخفاض ثمنه فى موطنه وارتفاعه فى بلاد السودان ، وكأنه لم يكن يعرف شدة حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية فى ديارهم إذ يحفظ الماء فى الجسم فلا يتبخّر سريعا ، وقال إن من يحفرون عليه عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية . ونزل مدينة ولانة ، ويذكر أن أكثر أهلها من قبيلة مسوفة ، وأنها كانت تتبع حينئذ سلطان مالى ، وأغلب الظن أن تبعيتها لمالى منذ عهد مارى جاطة (٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م - ٦٥٢ هـ / ١٢٥٥ م) الذى وسّع حدود دولته - كما أسلفنا - إلى أقصى حد جنوبا وشرقا وغربا وكانت « ولانته » تابعة لغانة ومثلها مدينتا نيمة وأودغست ، فطبعى أن تدين جميعا له وللمالى بعده وحكامها التالين . ويذكر ابن بطوطة عن ولانته أنها شديدة الحر وبها يسير نخيلات يزرعون فى ظللالها البطيخ ، ولحم الضأن بها كثير وثياب أهلها ثياب مصرية حسان ، ويقول إنهم مسلمون يحافظون على الصلوات ومثلهم نساؤهم ولهن جمال فائق ، ويذكر أنه أقام بها نحو خمسين يوما وأن أهلها أكرموا وفى مقدمتهم قاضيا وأخ له مدرس . ولا نعود نسمع عن ولانته فى عهد دولة مالى ، وكانت قد أخذت فى الضعف بينما أخذت صنغى فى حوض النيجر الأوسط شرقى السنغال وغمبيا تقوى ، ولم تلبث أن استقلت عن مالى ، ثم أخذت تزداد قوة تدريجا فى القرن التاسع الهجرى ، وبلغت غاية قوتها فى عهد أسرة إسكيا واستولى « سُنْ عَلَى » ملكها على تمبكتو وأشعل فيها النيران سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م مما جعل فقهاءها وفى مقدمتهم عمر بن محمد أقيمت يفرّون منها إلى ولانته واستولت هذه الأسرة على كثير من بلدان مالى ومدّت سلطاتها ونفوذها إلى ولانته وإقليمها فى موريتانيا ، وكان حكامها بعد سن على متمسكين بالإسلام ، مما زاد فى تعلق الناس بهم ، وخاصة بمحمد بن نبي بكر (٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ م - ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م) الذى اتخذ مدينة تمبكتو على النيجر عاصمة له ، واستكثر من بناء المساجد والزوايا ، واستقدم لها الفقهاء والعلماء لتعليم الناس القرآن والفقه وأمور دينهم ، وزار الحسن الوزان ولانته فى عهده وقال إنها تابعة لملك تمبكتو وتدفع له ضريبة محددة ، ومر بنا حديثه عنها فى جغرافية موريتانيا ، وقال إن كل تنظيم مدنى مجهول فى هذه المنطقة ، فلا قضاة ولا حكومة منظمة ، إذ كانت قبيلة مسوفة فيها لا تزال تعيش معيشة قبيلة .

ويبدو أن دولة صنغى لم تكف بولاء ولانته وأنها حاولت الاستيلاء على تنازى وما بها من مناجم الملح ، بل يقال إنها استولت عليها فعلا مما أغضب أحمد المنصور الذهبى سلطان الدولة السعدية فى المغرب الأقصى (٩٨٦ - ١٠١٢ هـ) فصمم على منازلها ، وأرسل إليها حملة سنة ٩٩٧ هـ / ١٥٧٩ م فى عهد حاكمها إسكيا داود وتغلغلت الحملة فى بلاد السودان واضطر إسكيا داود أن يقبل التنازل عما بيده من بلاد موريتانيا والقبائل الصنهاجية ، وعادت الحملة بفنائم كثيرة وسع بالحملة صاحب برنو شرقى صنغى وكأنما خشى على بلاده من الجيش السعدى ، فأرسل فى أواخر سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٨٢ م بيعته للمنصور الذهبى مع هدية كبيرة

من خيان العيد والإماء ، وصمم المنصور على غزو صنى واحتلال بلادها لما فيها من كنوز الذهب ومعادنه ، وأعد لذلك جيشا جرارا بقيادة جؤنر الأندلسى ، والتقى الجيش بعد رحلة شاقة مضنية فى فيافى الصحراء وقارها بجيش إسكيا إسحق بن داود واستطاع هزيمته فى موقعة فوندى شمالى جاز ، ودخل المدينة فوجد أهلها غادروها واتجه جؤنر إلى توميكو العاصمة ، وأحس بخيبة أمل شديدة حين قيل له إن مناجم الذهب التى يقصدها لا تزال مبهمة جدا بُعد للغرب الأقصى عن تميكو . وأرسل بذلك إلى المنصور فغضب وعزله عن قيادة الجيش وأرسل مكانه محمود زرجون ، ويقال إنهم استولوا من قصور إسكيا إسحق بن داود على ما لا يحصى من الخلى والذهب وعاد الجيش عملا بغير قليل منها ، مما أتاح للمنصور أن يبنى قصره « البديع » ويثر منه الكثير على الناس ، ولذلك سمي المنصور الذهبى .

وأهم ما عاد على موريتانيا من انتصار هذا الجيش المغربى الضخم أنه رفع يد دولة صنى عن البلدان الموريتانية التى دانت لها ، وأكثر من ذلك أهمية أن المنصور رأى أن يرسل إلى بلاد موريتانيا والسودان رجلا كثيرين وخيلا من عرب المعقل وجشم أهل الشوكة والنجدة لحراسة ما استولى عليه جيشه من تلك الديار . ولما من عرب المعقل قبيلة حسان وغيرها ، ونزلت عشائر منها فى شقيط ، وإليها ينسب إدوعيش سكان تككت وأبناء أحمد من دمان والترارزة فى الجنوب الغربى من موريتانيا ، وينسب إليها أيضا البرليش سكان تيشيت وحكامها والأوداية ونزلوا بين وادان وولانه وكان قبائل حسان تغفلت فى كل بلدان موريتانيا ومناطقها ، وكان ذلك كسبا كبيرا لموريتانيا لأنهم عرب ، وأخذت تعرب من حيثذ أى من أول القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى .

ومع أنهم استفروا فى مدن موريتانيا مع إخوانهم من القبائل الصنهاجية ، ولم يعدوا يسكنون فى خيام ، إنما يسكنون فى أكواخ ، ظلوا يعنون بتربية الإبل والخيل ، وظلوا يقودون حروبا مستمرة ، ويتسع أحمد بن الأمين الشنقيطى فى عرضها بكنبه الوسيط وتراجم أدباء شقيط ، ونراه يقول عن حروب قبائل حسان إن الحرب أصل معهود بينهم فترى قبائلهم أو أقسامهم الكبيرة يحارب بعضها بعضا كما وقع بين إدوعيش سكان تككت والترارزة سكان الجنوب الغربى إلى حدود السنغال ، وكما وقع بين إدوعيش وأبناء أحمد من دمان جيرانهم وكما وقع بين أحباء من عثمان سكان أدرار وإدوعيش ، وكما وقع بين الترارزة وأبناء عمومتهم البراكنة ، ويعرض لحروب الترارزة ، فيقول فى فاتحة عرضه : ما وقع بين الترارزة مع غيرهم لا يذكر ، بالنسبة لما وقع بين بعضهم وبعض ، وما يزال ابن الأمين الشنقيطى يعرض علينا حروب الموريتانيين وكيف أنها كانت تبدأ ضعيفة ، ثم تقوى وتستحكم بمرور الزمن . ولم تنج منها بلدة موريتانية ، ولا أفلت منها راغب فيها أو كاره ، وقد غلبت على حياتهم منذ القرن

الحادى عشر الهجرى ، بل فى رأينا منذ القرن العاشر ونزول قبائل حسان بينهم . ولعل ذلك ما حال فى موريتانيا بينها وبين قيام دولة فيها ، إذ لم نعمها وحدة بين قبائلها وسكان ملتها قبل القرن العشرين ، وكان لمدينة شنقيط فيها زعامة ولكنها لم تكن زعامة سلسة إما كلفت زعامة ثقافية . وظلت البلاد - منذ المنصور الذهبى - تستشر شيئا من الولاء لدولة السعدين فى المغرب الأقصى ثم لدولة العلويين . ومازالت حياتها على النحو الذى قدمناه إلى أن داهمتها القوات الفرنسية سنة ١٩٠٣ للميلاد ووضعتها تحت الحماية ، وفى سنة ١٩٢٠ جعلتها مستعمرة فرنسية ، ومازال شعبها يجاهد الفرنسيين حتى أُرَاحهم عن دياره سنة ١٩٨٠ وأعلن قيام جمهورية موريتانية إسلامية فى البلاد .

الفصل الثمانى

المجتمع والثقافة

٩

المجتمع^(١)

(أ) صنهاجة وقبائل المعقل العربية

كان المجتمع فى موريتانيا يتألف من قبائل صنهاجة وعبيدهم من السودان ، وكان هؤلاء العبيد يقومون لهم بكثير من الأعمال فى الزراعة وحفر الآبار وسقى المزروعات وكذلك فى المراعى ورعى الأنعام ، ويقول ابن بطوطة فى رحلته إلى السودان ونزوله بتغازى بلدة مناجم الملح إن عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية هم الذين يقومون باستخراجه من الأرض وإعداده لحمله إلى بلاد السودان . ونزل موريتانيا فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى كثيرون من قبائل المعقل الذين كانوا ينزلون بالقرب من مدينتى سجلماسة والدرعة فى المغرب الأقصى وخاصة قبائل حسان ، دفعهم المنصور الذهبى إلى الجنوب ليحموا فترحه فى بلاد السودان واستقر كثيرون منهم فى موريتانيا مفضلين لها على بلاد السودان ، لأنها بسطحها الرملى الصحراوى تشبه البوادرى التى كانوا يستوطنونها جنوبى المغرب الأقصى . وأخذ كثيرون منهم يؤثرون أرض المراعى يرعون فيها أبقاعهم متنقلين فيها ورله الكلاً ، كما فى أرض تيرس الواسعة الواقعة غربى منطقة آدرار والمنتدة جنوباً وغرباً حتى المحيط الأطلسى ، وهى منطقة شديدة الخصوبة ، وهى قليلة المطر ، غير أنه قد يكثر فيها أحياناً بل ربما توالى ذلك فى سنوات متعاقبة ، ويسمون هذه سنوات الخصب ، وتسمى فيها أبقاعهم وللمهم ، حتى ليرفحون عن ضرورهم ما يشدون بها من نسيج الخيال ، خوفاً عليها من أن تفسدها كثرة اللبن ولذلك يتركون الفصائل ترضع أبقاعها متى شاءت ودائماً يتفقد الرعاة الضروع حلبها ، وكثيراً ما يلقون باللبن على الأرض لعدم الحاجة إليه . ويكثر الفصيل سريعاً حتى ليصبح صالحاً للركوب فى سنة ولادته ، ويسبب هذا الخصب وغزارة المراعى فيه ربما ولدت الناقة لستين وغوها ، مما جعل الإبل فيها كثيرة ، حتى ليقولون إنها تنبت الإبل ، كما ينبت المطر النبات . وطبيعى

(١) انظر فى المجتمع الوريثى كتاب وصف إفريقيا
للحسن الوزان فى مواضع مختلفة وكذلك كتاب
الوسط فى تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين
الشنقيطى .

أن تكثر المراعى فى صحراء موريتانيا ، وكما نلقاها فى تبرس نلقاها فى منطقة تشيت وفى الصحارى الممتدة بين وادان شرقى شنقيط وبين ولاته فى الجنوب الشرقى وأيضاً فى منطقة الحوض غربها .

(ب) الزروع والمراعى

وأقام كثيرون من قبائل المغل وخاصة قبائل حسان والبريش وأودية فى مدن موريتانيا ، وكانت قديماً تشتمل على مسجد أو مساجد تتألف من أكواخ تبنى حول تبار فى وديان أشبه بواحات صغيرة . وأهم ما يزرعون فيها النخل ليفتاتوا من تمره ، وعادة يزرعون تحته الشعير وقد يزرعون الدخن والقمح ، ويقول الحسن الوزان عن تشيت إنه يوجد قربها رقعة صغيرة صالحة للزراعة ، زرعها أهلها بالنخيل ، ورقعة أخرى يزرعونها شعيراً ودخناً يقيمون بها أودهم ، ويقول عن وادان إنه لا يبت فيها سوى النخيل ، ويأول أهلها الصيد للحيوانات الوحشية مثل الوعل والغنم ، وبها بعض الماعز ، ويقول عن ولاته إن أرضها تنبت الدخن والذرة . ويقول أحمد بن الأيمن عن شنقيط إن بها نخلاً كثيراً ، ويعمى جبالها مزارع يزرع فيها القمح والشعير والدخن واللويبا ، وأهل منطقة أدرار عامة يزرعون القمح والشعير تحت النخل ، ويزرعون فى الأودية والرمال نوعاً يسمى قندى وهو بطيخ أبيض اللون وأخضر من أجود البطيخ ، ويصنعون من بذر الأبيض دقيقاً يخلطونه بدقيق الدخن ويجعلون منه شبه العصيدة ، ويقول الشنقيطى عن مدينة تيججكة إنها على ضفة واد كبير النخل وفى شمالها مزارع للفندى والدخن ، ويقول عن تكنت إنها كثيرة الأشجار الصحراوية ويعدد أشجارها . وتلك هى صورة الزروع فى موريتانيا ، وليس منها شئ يصدر إنما هى لمعيشة أهلها وما يسد حاجتهم من الطعام . وأهل المدن والزروع بذلك أحسن حالاً من أهل المراعى والأنعام ، إذ ليس من عادتهم أكل الخبز أو هم غالباً لا يعرفونه ، إنما يعرفون حليب نوقهم ، ويقول الشنقيطى ربما يبلغ أحد الرعاة ستين عاماً ولم يعرف الخبز ولا العصيدة فضلاً عن أكلهما ، إنما يشرب اللبن أو يأكل التمر أو بعض لحوم الأنعام التى يرعاها .

(ج) التجارة

من قديم أهم من الزروع والمراعى عند أهل موريتانيا التجارة مع أهل السودان . وأهم ما يتجرون به معهم الملح الذى كانوا يستخرجونه من مناجم تغازى حتى القرن العاشر الهجرى ، وأخذوا - فيما بعد - يستخرجونه من آجل شرقى وادان ، ويكاد كل أهل موريتانيا يتجرون فيه لكثرة المالك منه ، ويتجر فيه أهل شنقيط ووادان وتيججكة وولاته والحوض وتكنت ، ويكاد يباع فى أعماق السودان بوزنه ذهباً . ومر بنا قول ابن بطوطة فى زمة إن الحمل منه أى حل البعير وهو - كما قال - لوحان بعشرة مثاقيل من الذهب فى تغازى ، ووجده فى مالى

بياع بثلاثين مثقالا وقال إنه قد يباع فى مالى بأربعين مثقالا ، ومالى قرية من تغازى فما بالناس بما يباع به فى أراضي السودان البعيدة . وقال الشنقيطى إن كل ما عند أهل السودان من الخيل والثياب والزروع والعبيد كانوا يبيعونه - أو يبادلونه - بالملح . ومما يأتى به بائع الملح من هناك القماش المعروف بالأكحال وأردية يسمونها « ديماس وديسة » ويتأتى والفول المعروف عند المصريين بفول السودان وعند أهل الشام بالفستق وعند أهل الحجاز باللوز الهندى . وهذه هى التجارة العامة فى موريتانيا وتليها التجارة فى الصمغ ، ويحبته أهل القبلة من الأنعام التى يكثر فيها القتاد أو الشوك وكذلك أهل الحوض . ولم يكن أهل موريتانيا يعرفون النقود فكتبتوا يتبادلون فى الكثير الأكثر القماش الذى يحتاجونه للملابسهم بالغنم ، وكان الثلاثون ذراعا من القماش تسمى باسم البيصة ، وهى الوحدة التى يرجعون إليها فى ثمن الأنعام والعبيد فيقولون مثلا هل تبيع هذا العبد أو ذلك البعير أو هذا الثور بعشر بيصات أو يقولون مثلا بكم أشتري بالبيصة من الغنم فيقال ثلاث أو أربع ونحو ذلك . وإذا كان البيع أو التبادل بين الأنعام بعضها وبعض فيقولون مثلا ثمن هذا البعير أربعة عجول من البقر أو ثمانية من الغنم .

وليس فى موريتانيا سوى صناعات أولية بسيطة ، وكان فيها حدادون بسطاء يصنعون النفوس والخناجر وآلات الحرثة ، وكان بها دباغون يدبغون الفراء وجلود الأنعام ، وبعض النساء كن يخطن ما يصنع من الجلود ، وكان بينهم من يصنع أوتى الخشب ، وكل تلك صناعات بدوية أولية .

(٥) حياة بدوية

لم يكن فى موريتانيا حكومات منظمة ، فقد كتبتوا لا يزالون يعيشون معيشة بدوية فى المدن التى أقاموها وسكنوها . ومثل قبائل البدو كان هناك سادة وشيوخ لمشائيرهم يطيعونهم ، وكانت القبيلة أو البلدة تتخذ لها قاضيا ترجع إليه فى قضاياها ، وكتبتوا لا يرجعون إليه إلا فى المسائل الكبرى أو القضايا الكبرى كما إذا حدث قتل فكتبتوا يلجئون إليه للقصاص ، وحتى فى هذه القضية الكبرى كان سادة القبائل أو كما يسميهم الشنقيطى أمراء القبائل لا ينفذون الحكم ، أو يطيلون التنفيذ ليأخذوا الرشوة ، ويقول : « ربما أوعز الأمير إلى القاضى ليحكم بما يهوى » . وفى أحوال كثيرة لم يكن هناك قاض فكان المتنازعان يحتكمان إلى شخص ليستمع حججهما ، وقد يطلب من المدعى الشهود ، وتشتترط العدالة فى الشاهد ، وإذا حكم رضى المدعى لحكمه إلا إذا أفتاه أحد العلماء بالخطأ فى الحكم ، وربما ظلت القضية سنوات حتى يفتى رأى العلماء فيها .

وكان الزواج عندهم - ولا يزال - على مذهب الإمام مالك لأنهم مالكية مثل بقية بلدان المغرب ، ومنهم من يأخذ الصداق كاملا ومنهم من يكفى بنصفه ، ومنهم من لا يأخذ البتة ،

والجهاز بحسب العرف . وعلى وليّ الزوجة أن يقيم قبل بناء الزوج بها وليمة ، وتَحْمَلُ منها موائد إلى أقارب الزوج ، وتبث الزوجة بتلك الموائد في كل عيد ، وتبث نساؤهم بموائد مماثلة إلى الزوجة ، لتسود المودة والمحبة بينهم جميعا .

٢

الثقافة^(١)

(أ) نشاط ديني تعليمي كبير

من المعروف أن الإسلام لم يدخل شعبا ولا بلداً إلا دفعهما دفعا إلى العلم والتعلم ، وقد كانت أول آيات نزلت منه على الرسول ﷺ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وآيات قرآنية أخرى كثيرة تحض على العلم كما تحض عليه أحاديث نبوية متعددة .

.. ومعنى ذلك أن الإسلام والعلم متلازمان ، وأن العلم لا ينفك عنه أبدا ، وكان المسلمون الأولون بمجرد أن يفتحوا بلدا يقيمون فيه مسجدا ، ويقيمون بجانب المسجد كتبا لتحفيظ القرآن الكريم للناشئة ، حتى إذا حفظ الناشئ القرآن ورتلّه أو جودّه تحوّل إلى حلقة أحد العلماء في المساجد يأخذ عنه الفقه والحديث والعلوم الإسلامية . كما يأخذ عنه العربية وقواعدها وأدبها من شعر ونثر . وكما يحدث ذلك في المدن يحدث في أحياء البدو وبصور مختلفة ، هيأت دائما كما هيأت صور التعليم في المدن لظهور فقهاء يفقهون الدين الإسلامي وتعاليمه وما فرض من الصلاة والصيام والزكاة والحج وظهور نخاة ولغوين يحسنون العربية وقواعدها وتعليمها للناشئة .

وكل ذلك حدث في موريتانيا مع انتشار الإسلام في بلداتها وبين قبائلها البدوية منذ القرنين الثالث والرابع حين أصبحت هناك قبائل تعمل على نشر الدين الخفيف ، واتسع ذلك في القرن الخامس الهجري حين نزل الشيخ عبد الله بن ياسين في قبائل لتونة وأخواتها الصحراويات بموريتانيا : مسوفة وكدالة وجزولة ولطة ، وسمى أتباعه هناك المرابطين أي المجاهدين الذين رصدوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ودينه ، ومضى مع يحيى بن عمر اللتوني ثم مع أخيه أبي بكر يدعو أهل السودان الغربي - كما مرّ بنا - إلى الإسلام ،

الثقافة العربية الإسلامية في كتاب الشعر والشعراء في موريتانيا للدكتور محمد المختار ولد إياه وكذلك كتاب دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي في موريتانيا .

(١) انظر في ثقافة موريتانيا وصف إفريقيا للحسن الوزان في مواضع مختلفة من كتابه ، وراجع كتاب الوسيط في تراجم أبناء شنقيط سواء في التراجم أو في حديثه عن التعليم والعلماء والطلبة ، وبالمثل راجع فصل مظاهر

وتوفى - كما أسلفنا - فى جهاد برغواطة الضالة فى المغرب الأقصى وقضى عليها قضاء مبرما
نور بكر ، وعاد بشطر كبير من جيشه إلى قواعده بمنطقة أدرار فى موريتانيا وأخذ يمد حملاته
إلى أنحاء السودان الغربى ، ودان له ودخل كثيرون من أهله فى الإسلام وتحوّلت كثرة من
جيشه ، يملكون أهل السودان الغربى شئون دينهم ، ويحفظونهم القرآن الكريم .

وذلك كان فضلا عظيما لصنهاجة موريتانيا ، وعاد كثيرون منهم إلى موريتانيا سوى من
كانوا لا يزالون بها ، وفى كل بلدة وفى كل حى من أحياء القبائل البدوية كانت الناشئة تدرّى -
دور النحل - بآى القرآن الكريم ، وكانوا - بعد ترتيله أو تجويده - يلتحقون ببعض العلماء ،
ولكن ليس فى أبدينا شيء سجلوه عن التعليم فى ديارهم ، إنما تلتفت - منذ القرن السادس
المجرى - أخبار العلماء وأسمائهم التفاضل ، كأن يقال إن غزو قبائل الصوصو لعاصمة غانة :
كومبى صالح سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م جعل الشيخ إسماعيل وبعض علمائها يفرّون منها مع
فريق من المسلمين إلى ولاته ، مما أحالها مركزا تجاريا مهما وأحدث بها حركة علمية نشيطة ،
ولا نعود نسمع عن ولاته أخبارا ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م زارها ابن بطوطة
ونوه بإكرام أهلها وقاضيه له ، ونمضى إلى سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م فيفوزسن على ملك صنى
تبعكو ويشمل فيها التيران ويقتل خلقا كثيرا ، ويرحل منها فقهاؤها إلى مدينة ولاته وفى
مقدمتهم عمر بن محمد آيت وأولاده وكلهم أصبحوا فقهاء ، ولقى بها فقيها ومحدثا الإمام
الزمورى ، وأجازه كتاب الشفاء للقاضى عياض السبى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ،
وسمعه منه معه وأجازه صهره الفقيه المختار النحوى المتوفى سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م . ويذكر
الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف برجال السلف فقيها من فقهاها هو عبد الله بن عمر المسوفى
المولود سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م والمتوفى سنة ٩٢٩ هـ / ١٥٢٢ م ويقول إنه كان غابة فى الزهد
والورع . وكان يعاصره فى مدينة وادان الفقيه محمد بن أحمد بن أبى بكر الوادى وله شرح
على مختصر خليل فى مجلدين سماه « موهوب الجليل بشرح خليل » وكان حيا سنة
٩٣٣ هـ / ١٥٢٦ م . ويذكرون عن مؤسس مدينة تشيت فى القرن السادس المجرى الشريف
عبد المؤمن أنه كان تلميذا للقاضى عياض ولا بد أنه أسس فيها حركة علمية على عادة الفقهاء ،
غير أنه ليس بين أبدينا شيء عنها وكذلك عن مثيلاتها فى شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا
فى القرن العاشر المجرى وما قبله من القرون .

(ب) التعليم والطلاب والشيخ

الأخبار عن الحركة العلمية فى موريتانيا إنما تأخذ فى النمو منذ القرن العاشر المجرى حين
تم تربيتها بفضل قبائل المقل العربية : حسان وغيرها ، ويسوق الشنقيطى فى كتابه تراجم
أدباء شنقيط وكذلك الدكتور محمد المختار ولد إياه فى كتاباته أخبارا مختلفة عن تلك الحركة ،

فمن ذلك أنهم كانوا يختبرون الصبي إذا بلغ خمس سنوات من عمره في حفظ الأعداد الأولى من واحد إلى عشرة فإذا تعلمها وذكرها سريعا أخذوا في تعليمه الحروف الأبجدية ثم يعلمونه الحركات : الضمة أو الرفع والفتحة أو النصب والكسرة أو الجر ، ثم يحفظونه القرآن الكريم ، ويذكر الشنقيطي أن كثرة معلمى الصبية في هذه الدورة كن من النساء ، مما يدل على أن النساء في موريتانيا كن يتعلمن حتى يصبحن صالحات لتعليم الصبية . ويقول الحسن الوزان في حديثه عن مدينة تشيت إن « النساء هن اللاتي يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدرسة للفتيات والفتيان » وبعد حفظ الصبي القرآن وتعليمه الكتابة يبدأ في الالتحاق بشيخ ليتعلم على يديه بعض العلوم . والبيئات تختلف في نوع العلوم التي يبدأ الصبي بتعلمها في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، بعد حفظ القرآن فأهل منطقتي آدرار وتكانت ومن حذا حذوها يبدأون بتعليم الفقه على مذهب الإمام مالك في متن مختصر لعبد الرحمن الأخضرى الجزائرى ومنظومة لابن عاشر فى الفقه ثم ينقلونه إلى دراسة رسالة ابن أمي زيد رئيس المالكية فى القيروان والبلاد المغربية ، ثم يدرس مختصر خليل بن إسحق المالكي المصري وبعض شروحه . وبلدان أخرى يبدأ فيها الناشء بدراسة بعض دواوين العرب والعقائد الأشعرية وتآليف السنوسى الجزائرى فى علم التوحيد ثم يقرءونه الفقه والنحو . وبلدان تبدأ بتعليم علوم البلاغة والمنطق .

ولم تكن هناك حكومة أو جهات تنفق على الطلبة والعلماء ، وكان الطلبة يؤمنون - فى أحيان كثيرة - علماء بمعينين عن أوطانهم ، فكيف يتعيش الطالب الموريتانى إذن ، يقول الشنقيطي إن أكثر الطلاب يأخذ الواحد منهم بقرة حلوا أو بقرتين وربما ثلاثا ، وإذا كان الشيخ صاحب ليل أخذ الطالب ناقة أو ناقتين وربما ثلاثا ، ويتجمع الطلاب ساعة الحلب ويتناول كل منهم ما يكفيه من اللبن . ويتناولون رعى بقرهم ونوقهم ، ويأخذ راعيها معه كتبه أو لوحه ، ويقرأ فى الكتاب أو يحفظ ما فى اللوح ، وبالمثل يتناولون سقى نوقهم أو بقرهم . ومع هذه المشقة كان طلاب موريتانيا يقبلون على دروس العلماء الكبار . وكان العلماء - مثل الطلاب - لا يتفق عليهم أحد ما يستعينون به فى حياتهم ومعيشتهم ، ولم يكن أحد من الطلاب يعطيهم شيئا نظير تعلمه ، بل على العكس كانوا يعطون المحتاجين من الطلاب بعض ما ينفقونه . ولم يكن فى موريتانيا مدارس بالمعنى المعروف إنما كان فيها محاضر متشرة فى مدنها ومراعيها من ضفاف نهر السنغال إلى الساقية الحمراء غربا وفى الحوض جنوبا وفى الصحارى الشرقية حيث ترى شيخا بدويا كسائر البدو متقشفا فى ملبسه بالمراعى وبالمثل فى المدن ، وترى أمام يته أو خيمته طائفة من الشبان كثيرة أو قليلة تسكن تحت الشجر أو تحت عريش من الخشب ، ومنذ الضحى يلتفون حول الشيخ ، وقد يدعوه إلى يته أو يلتقى بهم فى مسجد ، وقد يلقى الدرس جالسا أو قائما ، وقد يلقى خارج يته والمسجد ماشيا ، وقد

يقرأ الطلاب نصا بعينه مع شيخهم . وقد يُقرئهم ويطلعهم أشتاتا ، وهو الغالب ، فالطلاب يختار مادة قرأته حسب حاجته من فقه أو نحو أو بلاغة ، وترى الشيخ مثلا يدرس عشرة من الطلاب ألفية ابن مالك وطلاب يقرأ من أولها وثان من وسطها وثالث من أواخرها ويشرح لكل طالب ما يقرؤه ، وهكذا في الفقه وغيره من العلوم . ومثلا ثانيا إذا يستمع الطلاب إلى شيخ يشرح نصا في مختصر خليل في الفقه ، إذا هو ينتقل إلى باب من ألفية ابن مالك ، ثم إلى درس في علم التوحيد أو في علم المنطق أو في العروض ، وقد ينتقل من ذلك إلى شرح بعض أشعار الجاهليين أو الإسلاميين . وتعجب إذ ترى هذا الشيخ العالم يسوق في الصباح بقرة إلى موضع للرعى ، والقدوم على عاتقه يقطع به أعوادا من الشجر لينى بها بئرا ، وينهب إليه ليرى المكلفين بالعمل فيه ، ويعود - بعد ذلك - ليدرس لتلاميذه طوال النهار ، حتى إذا انتهت من صلاة العشاء ونام الناس أخذ يعنى بتصنيف كتاب له أو بالقرأة في بعض الأمهات والأصول من الكتب .

(ج) أمهات الكتب والمون والشروح المتداولة

على سنة البلاد العربية جميعا حازت موريتانيا لنفسها كثيرا من أمهات الكتب ومتونها المشهورة وشروحها ، واعتمدوا في كثير منها على أعمال الأندلسيين والمغاربة وبالمثل أعمال المصريين إذ كان بعض شيوخها يتلقى العلم عن أساتذته في البلاد المغربية والمصرية ، وطبيعى أن يكثر الواردون منهم على علماء فاس وغيرها من البلاد المغربية . وكان متشرا في مكبات البلدان والقبائل في القراءات كتاب التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني وقصيدة « حرز الأملنى في القراءات » للشاطى الضيرير القاسم بن فيره وهى ألف ومائة وسبعة وثلاثون بيتا ، ويقول ابن خلدون : « استوعب الشاطى ما دونه الداني في القراءات بقصيدته ، وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين ، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس » .

وكانوا يعتمدون في التفسير كما يقول الدكتور محمد المختار - على كتاب التفسير الكبير لابن عطية الأندلسى قاضى المربة ، وهو من أهم الكتب في التفسير وسماه الوجيز في التفسير تواضعا وهو في مجلدات ضخمة ، ويقول ابن خلدون إنه لخص فيه التفسير المأثورة كلها وتجرى الأقرب منها إلى الصحة . وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس . واعتمدوا أيضا على تفسير القرطبى المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » وهو في عشرين مجلدا سار فيه على نهج ابن عطية السنى .

وكانوا يتداولون في الحديث النبوى كتب الصحاح الستة للبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وأبى داود والنسائى ، ويقول الدكتور محمد المختار إن أهم محدث كانوا يعنون بكتبه

أبو الوليد الباجي الأندلسي ، وخاصة كتابه المتقى فى شرح الموطأ وتخريجه لما فيه من الأحاديث ، ويذكر أن الموريتيين عوا عناية خاصة بكتبه وشعره وأدبه .

وكانوا يكفون فى الفقه المالكي على منظومة ابن عاشر ورسالة ابن أبى زيد القيرواني ومختصر خليل بن إسحق وشروحه ، وعوا بدراسة كتابات أبى عمرو يوسف بن عبد البر الذى تميز به المالكية وكتاباته فى الفقه المالكي وفى مقدمتها التمهيد والاستذكار وكتاباته التاريخية وفى مقدمتها الاستيعاب فى تراجم الصحابة ، وبالمثل عوا فى الفقه المالكي بكتابات ابن رشد الفقيه الكبير جد ابن رشد الفيلسوف وكتاباته الفقهية من مثل البيان والتحصيل ومقدماته على المدونة .

ومن كتب النحو التى كانوا يتداولونها متن الآجرومية لابن آجروم الصنهاجى ، وكان الأزهري فى مصر إلى عهد قريب يبدأ به دراسة النحو لطلابه ، وعوا بألفية ابن مالك وشروحه وكتبه لامية الأفعال ، وعوا بألفية السيوطى المسماة الفريدة وكتب نحوية مختلفة سيأتى ذكرها فى الترجمة لعلماء العربية .

وعوا فى علم الكلام والتوحيد بالمقائد الأشعرية وكتابات السنوسى والجزائرية وإضاءة الدجنة للمقرئ ، وكانوا يقرءون متن السلم للأخضرى فى المنطق . ودرسوا شرح الأعلام الشتمري للشراء السة : امرئ القيس والبلغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقة . وعرفوا أهم الكتب الأدبية ، وفى مقدمتها الأغنى لأبى الفرج الأصبهاني والأمالي لأبى على الغالى والكامل للمبرد وزهر الآداب للحصرى وبهجة المجالس لابن عبد البر وخزانة الأدب للبغدادى كما عرفوا دواوين كثيرين من الشعراء على مر العصور .

وهذا الحشد من المؤلفات التى كانت متداولة فى موريتانيا ، والتى عنى بإحصائها الدكتور محمد المختار فى مقدمات كتابه : « الشعر والشعراء فى موريتانيا » يدل بوضوح على أن موريتانيا - وإن لم تقم على شئونها قبل العصر الحديث دولة تنظم ثقافتها وحياتها العلمية - فإنها استطاعت بفضل عنايتها بالعلوم الإسلامية أن تصبح ذات ثقافة علمية قيمة وأن يصبح لها علماء فى مختلف فروع العلوم الإسلامية والعربية .

(د) أعلام العلماء فى موريتانيا

نتوقف قليلا لنعرض أعلام موريتانيا من العلماء ممن ترجم لهم الدكتور محمد المختار ترجمات مفصلة فى كتابه : « دراسات فى تاريخ التشريع الإسلامى فى موريتانيا » وسنعرضهم عرضاً تاريخياً موزعين على العلوم الإسلامية والعربية ونضم إليهم طائفة من العلماء المترجم لهم عند الشنقيطى فى القرن الثالث عشر الهجرى قبل العصر الحديث . ومن الصعب الدقة فى هذا

التوزيع لأن العلماء كانوا غالباً موسوعيين ، ولذلك كثيراً ما يقال عن العالم إنه فقيه محدث متكلم نحوي ، وتمازى أى مجموعة من العلماء تضعه فيها ، أو يقال مثلاً إنه جامع لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولفه ، ومع ذلك سنحاول هذا التوزيع لنل على أن النشاط كان متسعاً فى مختلف العلوم .

(هـ) القراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء

أول من يلقانا من علمائهم قراء الناشئة ويعدون بالعشرات إن لم يكن بالمئات من مثل محمد بن أبى بكر من ولاته المتوفى فى القرن الثانى عشر الهجرى وكان ملازماً لإقراء الناشئة ، صوفى النزعة . ومن أئمة القراءات عبد الله بن أبى بكر التواجيوى رحل إلى أحمد الحبيب اللطلى السجلماسى وقرأ عليه السبع وكان يدرس لطلابه الشاطبية ويفسرهما لهم توفى سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٢ م ومن تلاميذه عمر بن أحمد الإيدىلى كان قارئاً بالسبع ، توفى سنة ١١٥٢ هـ/١٧٣٩ م وظلت إمامة القراءات فى بيت التواجيويين واشتهر بالإمامة فيها الشيخ أحمد بن محمد التواجيوى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م وكثرت أكثر عبادته إقراء القرآن ، وقد أخذ القراءات السبع عن محمد بن عبد الله التواجيوى .

ويذكر كثيراً عن هذا العالم أو ذاك أنه كان يفسر القرآن الكريم بجانب ما كان يلقى على طلابه من دروس فى الفقه أو فى النحو أو فى علم الكلام أو فيها جميعاً ، وكثيراً ما يذكر مع المحدثين أنهم كانوا يعنون بتفسير الذكر الحكيم ، واشتهر منذ النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى محمد بن سعيد اليدالى الديلمى بتفسير قيم لكتاب الله العزيز فى مجلدين سماه « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » . ويلقانا بعده المختار الكنتى وتفسيره للبسلة ولسورة الفاتحة .

ونلتقى بكثير من أئمة الحديث مثل محمد بن الحاج عثمان الجمالى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر وهو تلميذ نور الدين الأجهورى شيخ المالكية فى مصر ، ومن أئمة المحدثين عمر بن محمد بن عبد الله المحجوبى المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ/١٦٥٠ م وله فى صحيح البخارى سند يصله بمؤلفه وله مصنفات كثيرة منها مقدمة فى الفقه فأرجوزة فى علم الكلام ، ومنهم سيد عثمان بن عمر المتوفى سنة ١١٢٨ هـ/١٧١٦ م بولاته ، وكان يقرئ صحيح البخارى ومسلم وموطأ مالك وفيها جميعاً وفى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض أجميز بروايتها جميعاً من جلة العلماء فى مصر والمدينة المنورة وموريتانيا . ومنهم عمر بن باب وكان يقرأ صحيح البخارى فى المسجد وسذكره بين النخلة . ومنهم محدث مدينة أروان أحمد بن البشير حامل روايات صحيح البخارى ومسلم والشفا ، وكان يضيف إلى الحديث

التفسير وقرآءة نافع برواية قالون ، توفي سنة ١١٨٤ هـ/ ١٧٧١ م . ومنهم أحمد بن خليفة محدث شفيط المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٥ م وكان يقرئ صحيح البخارى وكتاب الشفاء للقاضى عياض .

وللفقه أعلام كثيرون من الفقهاء كانوا مبنين فى كل بلد وكل حى من أحياء القبائل نذكر منهم الفقيه محمد الملقب بالتيكى المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ/ ١٦٤١ م وكان قاضى مدينة ولاته وعالمها ، ومنهم أحمد بن القاسم الحاجى فقيه وادان وله شرح على مختصر خليل بن إسحق ، توفي سنة ١٠٨٦ هـ/ ١٦٧٦ م وحمل عنه تلميذه أحمد أبو الأرتاد مختصر خليل وشرحه إلى تشيت . ومنهم سيد أحمد الولى بن نبي بكر المحجوبى قاضى ولاته وإمامها ومدرسها وكان ماهرا فى التفسير والنحو ويحفظ مقامات الحريرى ، توفي سنة ١٠٩٥ هـ/ ١٦٨٤ م . ومنهم الفقيه محمد بن نبي بكر التلاوى وكان عالما بالفقه والنحو مطلعا على دقائقهما بصيرا بالفنوى فى التوازل مطلعا على كتب الفقه المالكي المتصلة ، وله رسالة فى علم الكلام باسم عقيدة التوحيد ، توفي سنة ١٠٩٨ هـ/ ١٦٨٧ م . ومنهم الفقيه محمد المختار ابن الأعشى وهو إمام كبير وتلاميذه كثيرون اثبتوا فى أنحاء موريتانيا توفي سنة ١١٠٧ هـ/ ١٦٩٦ م . ومنهم الحسن بن أغيد فقيه تشيت ، درس وأفاد وأحيا بفتاويه سبيل الرشاد ، وكان يقال من فاته الحسن البصرى بمواعظه فعليه بالحسن اليوسى (المترجم له فى المغرب الأقصى) ومن فاته اليوسى فعليه بالحسن بن أغيد ، وكان إماما فى الفقه والحديث مستحضرا لهما مشاركا فيهما ، وكان قيما على مختصر خليل حسن الإثراء له ، وله منظومة فى مصطلح الحديث سماها روضة الأزهار وجعل عليها شرحا باسم قرة الأبصار ، وله منظومة أخرى فى التوحيد سوى فتاوى مفيدة ، توفي سنة ١١٢٣ هـ/ ١٧١١ م . ومنهم محمد بن نبي بكر المحجوبى الولاتى فقيه ابن فقيه ابن فقيه ثلاثة فى نسق وكان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة وله منظومة فى علم أصول الدين ، ولعلها فى التوحيد ، توفي سنة ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٤ م . ومنهم أحمد ابن إبد عبد الله بن على المحجوبى ، وإليه انتهت رئاسة الفتوى والقضاء فى مدينة ولاته ، وله منظومة فى علم الكلام وأخرى فى الفرائض (المواريث) حجج فى ركب من أهله ، ولقى كبار العلماء وأخذ عنهم ، توفي سنة ١١٤٠ هـ/ ١٧٢٧ م . ومنهم سيد أحمد الشواف قاضى وادان كان فقيها محدثا وشيخا صالحا وله فتاوى فقهية ، وهو من تلاميذ الحسن بن أغيد فقيه تشيت ، توفي سنة ١١٤٠ هـ/ ١٧٢٧ م مثل سابقه . ومنهم الشيخ أحمد بن محمد الجمالى ، له فتاوى فقهية وهو أيضا تلميذ الحسن بن أغيد ، توفي سنة ١١٥١ هـ/ ١٧٣٨ م . ومنهم الشريف أحمد بن فاضل ، وهو من تلامذة الحسن بن أغيد ، وكان إماما عالما ، وكان المفزع إليه وإلى أخيه فى الفتيا ، وله ولأخيه فتاوى مجموعة ، توفي سنة ١١٥٣ هـ/ ١٧٤٠ م . ومنهم محمد بن الحسن بن أغيد كان يتفنن الفقه والحديث والنحو فيقرئ طلابه رسالة ابن نبي زيد

الفقهية ومختصر خليل ويحدث بصحيح البخارى ويدرس ألفية ابن مالك وكانت له حلقة كبيرة يومها الطلاب فى نشيت ، وكان يدرس للرجال نهاراً وللنساء ليلاً ، توفى سنة ١١٥٩ هـ/ ١٧٤٦ م . ومنهم الشريف حَمَى الله ابن الشريف أحمد الحسنى ، وكانت له فتاوى فقهية متداولة فى موريتانيا ، وله شرح منظومة الأرجلى فى التوحيد ونظم صغرى السنوسى فيه ، توفى سنة ١١٦٩ هـ/ ١٧٥٥ م . ومنهم إند عبد الله بن أحمد المحجوبى قاضى ولاته ، برع فى الفنون كلاما وفقها وأصولا ونحوا ومنطقا ، له فتاوى فقهية وشرح على لامية الرقاق فى مجلد ضخيم ، توفى سنة ١١٧٢ هـ/ ١٧٥٩ م . ومنهم سنير قاضى أروان وكان بحرا فى الرواية والدراية توفى سنة ١١٨٠ هـ/ ١٧٦٧ م . ومنهم عمر الخطاط ، كان من الفقهاء البارعين ، وكان يقرئ الطلاب مختصر خليل قراءة تحقيق ، وكثر تلاميذه وطلابه حتى ربما بلغوا فى حلقة المائة ، توفى سنة ١١٩٦ هـ/ ١٧٨٢ م . ومنهم عبد الله بن عبد الرحمن التشمشاوى الديلمى له شرح فى جزء على مختصر خليل فى الفقه المالكى سماه : « شفاء الغليل وراحة الغليل على مختصر الشيخ خليل » ، توفى سنة ١٢١٢ هـ/ ١٧٩٨ م . ومنهم عبد الله بن أحمد الفلاوى البكرى ، فقيه أهل الحوض ، وله منظومات علمية كثيرة ، توفى فى صدر القرن الثالث عشر الهجرى . ومنهم عبد الله بن إبراهيم بن الإمام العلوى فقيه تيججكة ، كان عالما فقيها محدثا أصوليا يأتيا مفتيا ومدرسا ، وله منظومات فى علم الحديث وفى علم البيان وأعجب به محمد بن عبد الله سلطان المغرب الأقصى فأهداه خزافة كتب كبيرة نفيسة جدا ، وحج واجتمع بعلماء القاهرة وسمع به محمد على والى مصر فأكرمه ، توفى سنة ١٢٣٣ هـ/ ١٨١٧ م . ويشكائر الفقهاء فى القرن الثالث عشر الهجرى ومنهم باب بن أحمد ييب ، وله شرح على كتاب التحفة لابن عاصم ، وكان ابن فرحون انتهى فى ترجماته لفقهاء المالكية بكتابه الدياتج عند القرن السابع فأكمل ترجمة نظراتهم من الفقهاء حتى القرن الثانى عشر الهجرى/الثامن عشر الميلادى ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ/ ١٨٥٩ م . وكان ابنه التجلى فقيها مثله درس عليه فى أول أمره وعلى والدته الصالحة العالمة خديجة بنت المختار بن عثمان ، وكان من أعاجيب الدهر فى الذكاء ، وكان عالما بفن السُر والفقه والأصول والبيان والنحو والتصريف واللغة والمنطق ، وله نظم فى أزواج الرسول ﷺ وأولاده وله عليه شرح نفيس مجلد ، ونظم ورقات فى المالئ إمام الحرمين فى علم الأصول ، توفى قبل ثيه بنحو عشرة أعوام . ومنهم الشيخ سيدى الأكرى الكبير ، وكان عالما بالفقه والنحو ودقائقهما وله شرح على مختصر خليل باسم مرآة النظر فى وجوه خبايا المختصر ، وشرح ثان على باب الفرائض منه ، توفى سنة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧ م . ومنهم محمد بن محمد سالم المجلسى ، وله فى شرح مختصر خليل شرح باسم : لوامع الدرر فى هنك أستاذ المختصر ، توفى سنة ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٥ م .

(و) أعلام النحاة والمحكمين

نستطيع أن نقول إن كل هؤلاء الفقهاء كانوا يتقنون العربية وقواعدها النحوية إتقاناً حسناً ، ومن اشتهروا بعلم العربية وتعليمها المختار النحوى الذى رحل فراراً من سُنْ على حين استولى على تنبكتو مع صهره الفقيه المتقدم ذكره عمر بن محمد أقيت ونزل معه ومع أبنائه الفقهاء مدينة ولاته وظل بها يدرس النحو لطلابه إلى أن توفى سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م . وتزدهر الدراسات النحوية منذ القرن الحادى عشر الهجرى/السابع عشر الميلادى وتلتقى فى صدره بمحمد بلابن محمد الأمين ، وله عدة مصنفات ، أهمها شرحه لألفية السيوطى فى النحو وسماه المنح الحميدة فى شرح الفريدة ، توفى سنة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م . ومن تلتقى به بعده من النحاة فى آخر القرن وصدر القرن التالى أبو بكر الطفيل بن أحمد وكان نحويها منطقياً ونظم كتاب قطر الندى فى النحو لابن هشام فى أربعمائة بيت ، توفى سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م وكان يعاصره محمد بن موسى بن إيجل علامه تشيت وكان فقيها نحويها لغويها أصولياً يلبيا عروضياً منطقياً ، وله فى النحو أوراقه المشهورة التى انتفع بها طلبة موريتانيا سماها : « كشف النقاب فى قواعد الإعراب » وشرحها ، وله فى علم المنطق كتاب : « رتنى الحجر العلقى فى أصول وفصول المنطق » توفى سنة ١١١٧ هـ / ١٧٠٥ م . ومن نخاة القرن الثانى عشر منير بن حبيب الله ، له شرح مفيد على الخلاصة رتب فيه توضيح ابن هشام ، وكان يقرئ الألفية لابن مالك ، توفى سنة ١١٦٢ هـ / ١٧٤٩ م . ومنهم أحمد بن أحمد بن الإمام كان فقيها نحويها لغويها محققا ، وكان يقرأ لطلابه ألفية ابن مالك قراءة تحقيق وتدقيق ، توفى سنة ١١٧٨ هـ / ١٧٦٥ م . ومنهم الشريف المختار بن أحمد بن الإمام أحمد الإدريسى كان هو وأخواه من العلماء النجباء ، وكان يقرئ تلاميذه ألفية ابن مالك مستفيضاً فى الشرح والتحقيق ، توفى سنة ١١٨٠ هـ / ١٧٦٧ م ، ومنهم الإمام عمر م الولاتى ، كان نحويها لغويها أديبا أخذ الناس عنه العربية وكان يقرئ طلابه الآجرومية وألفية ابن مالك ولايته فى التصريف قراءة بحث وتحقيق ، كل مرة يزيد البحث فيها عن المرة السالفة ، توفى سنة ١٢٠١ هـ / ١٧٨٧ م . ومنهم عبد الله بن الطالب أحمد الشنقيطى ، كان عارفا بأصول الدين قارئاً فاثقاً فى العربية وعلوم البلاغة لا يبارى - كما يقولون - ولا يجارى ، له مؤلفات مختلفة فى النحو للقراءات السبع والفقه والحديث ، وله شرح على الكافية لابن الحاجب ومقدمة فى النحو للمبتدئين ، وشرح على الألفية ، وله شرح كبير وصغير لقصيدة باتت سعاد وشرح للامية العرب ، وشرح على نظم التلخيص للزوينى وشروح أخرى كثيرة ، توفى سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م . ومنهم محمد بن أحمد بن الطالب الأمين كان نحويها لغويها عروضياً متكلماً ، وكان يقرئ طلابه فى النحو الآجرومية وألفية ابن مالك ولاية الأفعال ، وكان يقرئهم فى العروض متن الخرجية ، توفى سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠١ م . ومنهم المختار بن بون العالم النحوى الكبير ، وكان العلماء

قبله لا يكادون يتجاوزون ما فى الألفية وشروحها فنظم لهم وألف كتابا مفيدة ذكر فيها لكل مسألة الشواهد من كلام العرب ، فذلّل لهم بذلك النحو وقواعده ، واستقدمته قبائل الزوايا لتعليم أبنائهم العربية ، وله مقدمة فى النحو ألفها للمبتدئين ، توفى حوالى سنة ١٢٢٠ هـ/ ١٨٠٦ م . وتعاينت له مدرسة حتى نهاية هذا العصر قبل العصر الحديث وما فرض على موريتانيا من الحماية الفرنسية ، إذ تلمذ له بُلّا البوحسنى الشقراوى ، وكان عالما مشهورا ونحويا كبيرا ، وهو أحد من تخرجوا على يديه ، ومن أهم تلاميذ بُلّا عبد الودود بن عبد آل ، وهو - كما يقول الشنقيطى - نحوى شهير ، انفرد به من غير نكير ، أوضح للناس أسرارها ، وأعلى مناره ، وبلغ فيه مبلغا لم يبلغه غيره ، وتخرج على يديه الحسن بن زين ، ويقول الشنقيطى له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك ، وتخرج على يديه سيويه البلاد ، يحظية بن عبد الودود ، توفى قريبا من سنة ١٣٢٠ هـ/ ١٩٠٣ م .

ومن العلوم التى اهتم بها العلماء فى موريتانيا علم الكلام أو التوحيد ويتردد فى نعت كثير من فقهاءهم ونحاتهم أنهم كانوا متكلمين ، ومن ألف فى علم الكلام مبكرا محمد بن أحمد الحسبى المعلى ، وله فيه شرح الصغرى للسوسى ، توفى سنة ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٩ م . وكان عمر الولاتى الملقب بالخطاط أشعريّ العقيدة ، وكان مداوما على علم الكلام قراءة ونقلًا وتعلما ، وكان يقول : لو علمت عقيدة من علم الكلام لا أعرفها وفى مصر من يعرفها لرحلت إليه حتى أتعلّمها ، وكان يقرئ فيه كتب السنوسى ودليل القائد والجزائرية وإضاءة الدجنة للمقرى ، توفى سنة ١١٠٧ هـ/ ١٦٩٥ م . ومنهم الطالب الأمين بن الحبيب الخرشى كان غاية فى علم التوحيد ، يقرئ عقيدة السنوسى المعروفة بأمر البراهين وعقيدته الصغرى وإضاءة الدجنة ومنظومة الجزائرى ودليل القائد قراءة تحقيق توفى سنة ١١٦٦ هـ/ ١٧٥٣ م . ومن المتكلمين محمد بن يدفور قاضى تشيت ، وكان يقرئ طلابه عقائد السنوسى الخمس ودليل القائد وإضاءة الدجنة وجوهرة التوحيد ، كما كان يقرئهم قراءة نافع وألفية ابن مالك وقطر الندى لابن هشام ، وتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٥ م . ومنهم الشيخ محمد بن عمر الخطاط الولاتى وطنا المالكى مذهباً الأشعريّ اعتقادا الشاذلى طريقة ، أخذ العقيدة الأشعرية عن أبيه عمر والفقهاء والفرائض عن عبد الله بن أبى بكر الولاتى والمنطق والعروض عن محمد بن موسى بن إيجل الولاتى والحساب والفلك عن التقداسى ، وله مقدمة فى التوحيد سماها جوهرية الإرشاد ، توفى سنة ١١٩١ هـ/ ١٧٧٨ م .

ومرّ ذكر المختار بن بون بين النحاة ، وله كتاب وسيلة السعادة فى علم التوحيد اختصر فيه تصنيف السنوسى الخمسة فى العقيدة مع بعض زبادات ، ويمكن أن يتخذ رمزا لكثير من علماء موريتانيا الموسوعيين ، فهو ينظم تلخيص القزوينى فى علوم البلاغة ، ومختصر

السنوسى فى المنطق وجمع الجوامع فى الأصول للسيكى . وكثيرون كانوا يعنون بعلم المنطق إذ يُعرَف به الصحيح من غير الصحيح فى التعريفات والأدلة والأقيسة ، وهو علم يونانى وضعه أرسطو ، ومنذ القرن الثانى الهجرى تدارسه البيئات العلمية العربية ، فطبيعى أن يعنى به علماء موريتانيا . وبالمثل عنوا بعلوم البلاغة ، ونضرب مثلاً ثانياً لهؤلاء العلماء الموسوعيين هو عبد الله بن محمد الشنقيطى ، فقد كان يقرئ تأليف السنوسى وإضاءة الدجنة فى علم الكلام ، وتفسير القرآن ، وصحيح البخارى ، وجمع الجوامع فى الأصول للسيكى والسلم فى المنطق للأخضرى ومختصر السنوسى فى المنطق وتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للسكاكى ، وله أجوبة فقهية ومشاركة فى النحو والعروض وحظ من علمى الحساب والهندسة . ونظّم كتاب التلخيص فى البيان والمعاني للقرظى فى نحو خمسمائة بيت وسماه نزهة المعانى فى ظهور البيان والمعاني ، وله تأليف فى المنطق ، توفى سنة ١١٤٣ هـ/ ١٧٣١ م .

وعنوا بالتاريخ ولأحمد البدوى اليعقوبى منظومة جيدة فى غزوات الرسول ﷺ ، ومنظومة أخرى فى أنساب العرب ، ويكثر عندهم مثل هذه المنظومات .

ولعل فى كل ما أسلفت ما يصور بوضوح نشاط الحركة العلمية فى موريتانيا على الرغم من أنه لم تكن هناك حكومة ترعى العلم وطلابه وعلماءه ، إذ تجردت له فى كل بلدة وكل قبيلة صفوة من العلماء الأبرار درسته لشباب موريتانيا على مر الحقب والأزمنة .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب موريتانيا

أخذت العربية تنزو موريتانيا مبكرة على ألسنة بنى وارث الصنهاجين منذ أسلموا على يد عقبة بن نافع (٥٠ هـ / ٦٧١ م - ٥٥ هـ / ٦٧٥ م) وأخذ الإسلام يتشر بين الصنهاجين فى صحراء موريتانيا لعمد موسى بن نصير (٨٦ هـ / ٧٠٥ م - ٩٦ هـ / ٧١٥ م) وأخذ يتسع انتشاره بين القبائل الصنهاجية الصحراوية فى القرون المجرية الثانى والثالث والرابع . وكان يعتمد حيثذ على الصلوات الخمس وما يتلى فيها من القرآن ، وما يتلوه الشيوخ فى المساجد من القرآن الكريم والحديث النبوى .

وكانت القبائل الصنهاجية تعتنق الإسلام فى تلك القرون أو تأخذ فى اعتناقه ، غير أنها لم تتداول العربية فى لنتها اليومية ، إنما كانت تتداول لنتها البربرية ، حتى إذا كانت حركة عبدالله بن ياسين المارة منذ سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م أخذت القبائل الصنهاجية تعرف شريعة الإسلام معرفة صحيحة ، وأخذت تتحول إلى قبائل مجاهدة أو مربطة تنشر تعاليمه فى السودان الغربى المدارى ، وتحمل الجماعات المنحرفة الضالة فى المغرب الأقصى من مثل البجلىة والبرغواطية على اتباع نهجه القويم ، حيثذ أصبحت القبائل الصنهاجية فى موريتانيا تمثل شعا مسلما من شعوب العالم الإسلامى ، شعا تُبنى فى جميع أركانه المساجد ، ويقوم فيها أئمة وعاظ وشيوخ يقفون الناس على شئون دينهم ويحفظونهم بعض سور القرآن الكريم ، إن لم يكن القرآن جميعه ، كما يحفظونهم بعض الأحاديث النبوية .

وفى رأى أن قلة من الصنهاجين الموريتانيين حفت بهؤلاء الشيوخ وعرفت العربية ، ولكن الكثرة الصنهاجية ظلت تتداول اللغة البربرية ، ويخفف من حدثها تلاوة القرآن فى المساجد ونزول بعض الشيوخ فى البلدان الموريتانية مثل نزول الشيخ إسماعيل - كما مر بنا - فى ولاته سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م وقيام القضاة فيها على تنفيذ أحكام الشريعة مثل قاضى ولاته الذى أكرم ابن بطوطة حين نزل ببلده سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م ونوه بأخ له مدرس ، ويغزوسن على تمبكو ويشمل بها النيران سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م فيفر فقهاؤها إلى ولاته وفى مقدمتهم الشيخ

عمر بن محمد أقبت مما أتاح لها أن تكون مركزاً لحركة علمية فى القرن العاشر الهجرى كما أتاح لأهلها فرصة واسعة للتعرب .

وبعد أكثر من قرن يرسل المنصور الذهلى السعدى حاكم المغرب الأقصى جيشاً ضخماً للاستيلاء على بلدان السودان الغربى كما أسلفنا ويفتحها ويجند عرب المعقل فى جنوبى المغرب الأقصى والجزائر لحراسة فوحه ، وتنزل حسان موريتانيا وتستقر فيها قبائلها فى أدرار وتيرس والجنوب الغربى من موريتانيا ، وتنزل قبيلة البرليش الحسانية فى مدينة تيشيت وقبيلة الأوداية الحسانية فى الصحارى الواقعة بين وادان وولاته . وهكذا تنتشر قبائل حسان العربية فى جميع موريتانيا ، ويتم بذلك تعريبها كما تعرب المغرب فى منتصف القرن الخامس بالقبائل العربية من بنى سليم وهلال التى احتلت دياره وأرجاءه ، غير أن لسانهم الفصحى كانت قد عمت فيه عامية حسانية عربية خالفت من بعض الوجوه لسان أجدادهم فى بعض الأوضاع والتعاريف لاختلاطهم قروناً متوالية بالبربر . وقد نشرت هذه القبائل لغتها الحسانية العامية فى موريتانيا ، وهى عامية عربية . ومن الطريف أنها تحفظ بالثنى ينما يسقط من عاميات أخرى كالعامية المصرية ، ولم تأخذ موريتانيا عنها هذه العامية العربية وحدها بل حملت عنها أيضاً ما كانت تنظمه فى مواضعها من الملاحم والأناشيد والقصائد التى تشتمل على أغراض الشعر العربى من المدح والغزل والفخر والحماة والهجاء والثناء . وعلى هذا النحو تعربت موريتانيا تعرباً حسانياً ، فالألفاظ هى ألفاظ العربية والأوزان هى الأوزان العربية . ومعنى ذلك أن القبائل الحسانية الموريتانية كانت لا تزال تحفظ بميراثها من الألفاظ وأوزان الأشعار وأغراضها ، مما يدل دلالة قاطعة على أنها كانت لا تزال تحفظ بسليقتها العربية التى توارثتها منذ مئات السنين ، وهى سليقة تشهد بأن هذه القبائل لا تزال قبائل شعر وقصيد كما كان آباؤهم الأولون . ومعروف أن الأمم إزاء الشعر تختلف ، فهناك أمم شاعرة ، ومنها الأمة العربية ، فهى أمة شعر وشعراء ، مهما اختلف عليها من الأعصار ومن الخطوب والأحداث ، ومهما ظلت على فصاحتها أو تطور بها الزمن ، واستخدمت لغة عامية مشتقة من فصاحتها ومتصلة بها اتصال الفرع بأصله ، وحقا دخلت فيها بموريتانيا بعض ألفاظ بربرية وخاصة مما يتصل بتربية الخيل والإبل والبقر والزراعة والرعى ، غير أن ذلك لم يخرجها عن صورتها العربية .

وبذلك توارث سكان موريتانيا السليقة الشعرية العربية ، وعمل الإسلام فى أن تستم العامية الموريتانية على ألسنة كثيرين الفصحى إذ دارت على ألسنتهم فى حفظ القرآن الكريم وتعلمه وفيما أكبوا عليه من العلوم الإسلامية ، وقد مضوا يتعلمون العربية ويتعمقون فى دراسة أشعارها الجاهلية على مر العصور . وكانت المرأة - كما مر بنا - هى التى تقوم على تعليم الناشئة حتى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة سواء الذكور أو الإناث ، تعلمهم الكتابة والذكر الحكيم ،

مما جعل التعلم فى موريتانيا منذ القرن الحادى عشر الهجرى - وربما قبله - عاما فى البلدان والقبائل جميعها بحيث يقول الشنقيطى : « لا يوجد من بين قبائل الزوايا ذكر أو أنثى إلا يقرأ أو يكتب ، وإن وُجد فى قبيلة غير ذلك فقله نادر بحيث لا يوجد فى الملة أكثر من واحد على تقدير وجوده » . وكان الأمية تلاشت نهائيا فى قبائل الزوايا ، وهى إن لم تنحسر فى القبائل الموريتانية الأخرى نهائيا فقلها - هى والبلدان الموريتانية - كانت تسارع إلى التعلم ، بدل على ذلك فى مدينة ولاته مثلا أنها كانت مركزا كبيرا من مراكز الثقافة العربية وأن علماءها كانوا كثيرين كرة مفرطة ، وأخذت شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا تزاحمها فى هذا المركز أو فى هذه المكثفة .

ولعل فيما ذكرنا ما يدل بوضوح على أن التعرب فى موريتانيا كان آنذا فى النمو السريع منذ القرن الحادى عشر الهجرى ، بفضل من نزل فيها من قبائل حسان وما بثوا فيها من الاستعداد للتعرب ، وبفضل إكباب أهلها على التعلم ، بحيث أصبح فيها كثرة من العلماء فى كل علم وكرة مماثلة من شعراء القصصى ، بل حتى يخيّل إليك كأن الموريتانيين جميعا كانوا شعراء .

٢

شعراء المدح

أكثر من يوجه إليهم المدح فى موريتانيا السادة والشيخوخ ، إذ يشكر الشاعر من يقدم إليه معروفا أو صنيعا مثيبا عليه ومادحا ، ويمدح التلاميذ شيوخهم مصورين ما يتحلون به من علم وخلق رفين ، كما يمدح الشيخوخ زملاءهم منوهين بتعمقهم فى العلوم وخاصة العلوم الإسلامية ، وبأخلاقيتهم المثالية الرفيعة ، وكثيرا ما ينوه الشاعر بشعر زميله وتفوقه فيه ، وقد يمدحون قبيلة ذاكرين فضائلها ، وقد يمدحون أحد سلاطين الدولة العلوية فى المغرب الأقصى . ونعرض أطرافا من مدائحهم ، فمن ذلك مدح المأمون اليعقوبى المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٣ م للمجيدى بن حبيب الله وكان من أعلام العلماء فى موريتانيا كما كان شاعرا ، واتصل بالسلطان المغربى محمد بن عبد الله (١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م - ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م) ونال حظوة عنده ، وحين رحل إلى الحج أكرمه حاكم مصر ، وفى السلطان محمد يقول مشيراً إلى منزلته منه : وكان يباحته فى كثير من الأفكار العلمية ويحمد له آراءه ، كما أشار إلى حملة طائفة من معاصريه للموريتانيين عليه لإنكاره علم النطق الأرسطاليسى والنهى عن دراسته^(١) :

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا للدكتور محمد المختار ص ٢٣٣ .

بَلَاهُ أَسِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ
وَقَدْ كَانَ لِلْإِسْلَامِ بِالنُّصْحِ رَاعِيَا
وَلَكِنْ يَبَادِي الرَّأْيَ أَوْ بِإِشَاعَةٍ
وَمَا كَانَ فِي كُلِّ الْعَقَائِدِ لَوْ ذَرَوَا
قَمَّوْا فَتَنْظُرُوا فِي نَكْرِهِ أَعْقَابَهُ
أَبَانَ السُّيُوطِيُّ نَهْجَهُمْ فِيهِ جَمَلَةٌ

وعاشره بالبحث حيناً من الدهر
وناهيك من ذى فطنة عالم خبير
ترأسه عن قوس طوائف ذا التصير
بخالف أسلاف الأئمة في خبر^(١)
من الدين أم من منطلق سبق للسير^(٢)
وللقرطبي من قبله الأخذ بالخير

والحقوقي بنوه بتكريم السلطان محمد بن عبد الله العلوي له ومعرفته بعلمه وفضله ، ويقول
إنه عالم ذكى متعمق فى العلم ناصح للمسلمين ، ومن العجب أن ترميه جماعة - عن قوس
واحدة - بأنه منحرف ، مع أنه متمسك كل التمسك بعقائد الدين لا يخالف أئمة
السلفين فى قليل بل فى أقل القليل ، وكل ما فى الأمر أنه ينهى عن دراسة المنطق اليونانى ،
وهى وجهة نظر يتفق معه فيها السيوطى المصرى والقرطبى الأندلسى . ويقول الشويرى أحد
شعراء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى فى مدح حُرَّم بن عبد الجليل العلوي
واسمه محمد^(٣) :

أَعْمَدٌ أَمْ لَيْثٌ غَابَ مَقْبَلُ
قَاضِي قَضَاةٍ قَدْ نَمَتَ مَشَايِخُ
سَهْلُ الْجَنَابِ يَلِينُ مَا لَا يَتَنَبَّهُ
بِأَنَّ سَمَا فَوْقَ الْكَوَاكِبِ مَجْدُهُ
إِنْ الْكَمَالُ إِذَا يَفُوزُ بِهِ اِمْرُؤُ
وَجِبِّهْ أَمْ عَارِضٌ مَتَهَلَّلُ^(٤)
يَسْمُو بِوَحْسَبٍ وَمَجْدٌ عَذْمَلُ^(٥)
وَإِذَا يُسَامُ الْخَسَفُ لَيْثٌ مُثْبِلُ^(٦)
النُّجْمِ وَإِنْ وَالْمُسَاكُ الْأَغْرَلُ
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَتَتْ الْأَكْمَلُ

ويشيد بحرم قاضى القضاة ، ويجمله لىث غاب شجاعة وضرارة ، كما يجمل جيبه
سحباً متهللاً كناية عن كرمه المردار ، ويشيد بلبائه وحسبه ومجده القديم ، ويقول إنه سهل
الجناب سخي ، ولين مع من يلاينه ، أما إذا سامه شخص خسفاً أو ظلماً فإنه يصيح لينا
هصوراً . ويذكر له أن مجده علا فوق الكواكب ، وأن النجم والمساك الجنوى
لا يبلحقان شأوه ، وأنه إذا كان هناك شخص يفوز بعت الكمال فتت الأكمل الذى لا يبارى
ولا يجارى . ويقول محمد مولود المباركى من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى فى مدح
محمد بن كمال^(٧) :

- (١) الفتر : ما بين الإبهام والسبابة فى القياس .
(٢) السير : الاختيار .
(٣) الشعر والشعراء فى مورتانيا ص ٢٣٩ .
(٤) عارض : صاحب محضر .
(٥) حمل : قديم .
(٦) سامه خسفاً : أذله أو ظلمه . لىث مثبلاً له أشبال
وأولاد .
(٧) الشعر والشعراء فى مورتانيا ص ٢٧٢ .

يَلْقَى الْعَفَاةَ بِوَاضِحٍ مُتَلَجٍّ مَبْسُورٍ يَنْشِيرُ اسْتِهْلَالَاً^(١)
وَاللَّهُ إِذْ قَسَمَ الْمَكَارِمَ فِي الزَّوَى أَوْفَى لَهُ مِنْ حَظِّهِ الْمَكْيَالِ
لَوْ وَاجِهَ الْبَدْرُ النَّيِّرُ بَوَجْهِهِ لَعَدَا بِهِ الْبَدْرُ النَّيِّرُ هَلَالاً
أَوْ قَابِلَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ بِالضُّحَى صَحَّوْا لِأَلْبَسَ وَجْهَهَا أَجْلَالاً^(٢)
وَلَوْ أَنَّهُ وَلَزَنَتْهُ بِلَدَيْتِهِ وَزَنُوا الْيَعُوسَ وَوَارَنَ الْأَجْبَالُ^(٣)
فَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي أَعْطَاهُ مَا يَسْتَوْجِبُ الْإِكْرَامَ وَالْإِفْضَالَ

وعحمد مولود يمجّد في محمد بن كمال كرمه الفياض الذي يجعله يلقى السائلين بوجه مشرق سمح مبسّم مبشّر . ويقول إن الله إذ قسم المكارم في الناس وفى له حظه منها . ويعمد إلى المبالغة في مديحه ، فلو أنه واجه البدر النير بوجهه لتصاغر أمامه وغدا هلالاً ، ولو أنه قابل الشمس المضيئة ضحى والسماء مصحبة لباءت منه بكسوف ما مثله كسوف ، ولو أنك قارنته بآثره لعدوا كأنهم بعوض أمام جبل أو جبال ضخمة ، فبارك الله الذي تفضل عليه بكل هذه العطايا والنح الجزيلة . ويقول على بن الأَ من شراء القرن الثالث عشر الهجري في مديح بنى شعبان^(٤) :

اليَوْمَ أَصْبَحَ قَدْ تَفَرَّدَ بِالْعُلَا وَالْمَجْدِ سَادَتُنَا بَنُو شُعْبَانَ
الْنازِلُونَ مِنَ الثُّغُورِ مَخُوفَهَا وَالْقَاتِلُونَ هَلُمُّ لِلضُّيْفَانِ
وَإِذَا الْأُمُورُ تَعَاظَمَتْ وَتَشَابَهَتْ فَصَلُّوا الْخُطَابَ بِحِكْمَةٍ وَبَيَانِ
كَمْ فِيهِمْ مِنْ نَاشِئٍ ذِي بَهْجَةٍ يَدْرِي دَقِيقَ الْفَهْمِ بَيْنَ مَعْنَى
حَفِظَ الْمَسَائِلَ وَالْعُقَاثِدَ فَرَعَهَا وَالْأَصْلَ بَعْدَ فَصَاحَةِ الْأَلْحَانِ
وَحَوَى حَدِيثَ الْمُصْطَفَى بِنُصُوصِهِ وَشَرُوحَهُ وَمَعْنَى الْقُرْآنِ
فَوَمَّ إِذَا مَا أُتُوا جَادُوا كَمَا جَادَتْ سَوَاكِبُ صَيْبِ التَّهْنَانِ^(٥)

وهو يقول إن بنى شعبان تفردوا بالعلو والمجد والنزال الضارى في الثغور المخوفة ، وهم ذوو الوجوه المستبشرة في لقاء الضيفان ، وإذا الأمور ادلهمت وأشككت نطقوا بفصل الخطاب في حصافة وحكمة وبيان رائع ، وما أروع ناشئهم ، فكم من ناشئ دقيق الفهم منهم ، حفظ مسائل الفقه والعقيدة فروعها وأصولها وحفظ حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم بنصوصه وشروحه كما حفظ معنى القرآن الكريم ، فما أعظمهم من قوم كرام وأى كرم إهم إذا ما أجذبوا سنة استحالوا في الجود غيثاً مدراراً ، كما تجود مواكب السحب التراكمة

(١) العفاة : السائلون - متلج : مشرق .

(٢) أجبال : جمع جبل : غطاء .

(٣) الأجيال : جمع جبل .

(٤) الشعر والشراء في موريتها ص ٢٧٥ .

(٥) أُنْتُوا : أجلبو . الصيب : السحاب المطر .

التنهان : السائل بزرارة .

المتدفقة . ويمدح الشاعر محمد بن محمد الملوى السلطان الملوى عبد الرحمن ابن هشام (١٨٢٤ - ١٨٥٩ م) قائلا^(١) :

خليفة مصباح الهدى وحفيده	وعفى لعافى ربحه المتفاد ^(٢)
غبور على يضاه شته السنى	ليحت لها - لولاه - كل محارم
أنام عيون الناس تحت عدالة	وقت رجل سارى الليل لدغ الأرقام ^(٣)
فأصبح ثغر الأرض سوقاً وأصبحت	ماسدا مرعى المخاض السواهم
حماها - حماه الله - أن تسيحها	من اعدائها دهم الدواهى الدواهم

وهو يقول إن سلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن خليفة مصباح الهدى جده العظيم أعاد الحياة لدارس ريع الهدى القديم ، وإنه غبور على السنة التى لولاه لأیحت لها كل المحارم . وقد شملت عدائه كل الرعية وعمها أمن واسع وقى الناس لدغ الأفاعى الشريرة ، حتى لأصبح ثغر الأرض الحبرى سوقاً آمنة ، وأصبحت المأسد المخيفة بأسدها مرعى آمناً للتوق الحوامل ، وحى الأرض جميعها - حماه الله - من سود الدواهى الفاشمة . وملتقى بأخرة فى العصر بمحمد بن حنبل البوحسنى المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م وقد أكثر من مدح الشيخ سيدياً ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه^(٤) :

شيخ سنأه وصيته ونداه مـ	جلء الأيدى والأبصار والآذان
شيخ تجرد للجميل فدأبه	نفع الأنام وطاعة الرحمن
ولعم مرتاد الأرامل أنتم	والشعث والأيتام والضيفان
ولأنت أكرم ما حوت أقطارها	بل ما عليه تعاقب الملوان
آلى الزمان أليئة مبرورة	أن لا يكون من الورى لك نثى

وابن حنبل يقول عن الشيخ سيدياً إن نداء أوجوده ملء الأيدى وسناه أو ضوءه ملء الأبصار وصيته ملء الآذان ، وإنه تجرد لصنع الجميل فعداته نفع الناس بكرمه الفياض وعبادة الرحمن ونسكه ، والأرامل ترتاد منزله وتلمسه ، وكذلك أبناء السبيل الشعث المغزون والأيتام والضيوف الكثيرون . ويقول له إنك أكرم من احتوته أقطار الأرض وتعاقب عليه الليل والنهار . وأقسم الزمان قسماً مبروراً صادقاً أن ليس لك فى الناس ثان يبلغ مبلغك . وتتوقف قليلاً للحديث عن ثلاثة من شعراء المديح .

(٣) الأرقام : الأفاعى .

(١) الوسيط فى تراجم أدياء شفيط ص ٥٣ .

(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٦٨ .

(٢) عافى : دارس .

هو عبد الله بن محمد بن القاضي العلوي عبد الله المعروف باسم ابن رازكة ، وهي أمه ، كان جده قاضي البراكة الحسين ، ولد لأبيه في أرض القبله جنوبي موريتانيا ، وبها نشأه ، وطمحت نفسه إلى التزود من العلوم ورحل في تلقها إلى شيوخها الأوائل حتى أتقن العربية والبيان والمنطق والمهندسة كما أتقن الفقه والعلوم الإسلامية مما أتاح له أن يصبح قاضيا بموريتانيا ، وكان كثير الأسفار من القبله موطنه إلى مكانة في المغرب الأقصى عاصمة السلطان العلوي النابيه إسماعيل (١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين ابنه محمد وكان عالما وشاعرا وولاه أبوه السوس ، وأعجب بلبن رازكة ووسع له في مجالسه كلما وفد عليه ، وأغدق عليه كثيرا من عطايه ، إذ أهداه مكتبة نفيسة من كتب العلوم الإسلامية ومن دواوين الشعر العربي ، ولا ريب في أنه كان لها أعمق الأثر في ثقافة قبيلة ابن رازكة وثقافة موريتانيا عامة ، وتشد الشنيطي قصيدتين لابن رازكة في مدح الأمير محمد بن إسماعيل وفي أولاهما يقول :

فني يستقلُّ أبحرُ جودُ بناته	على حالة استنكارٍ حاتم الرُّثَا
وآياتُ علمٍ أعمدُ الجهلِ نورها	وغاياتُ جدِّ ليس تطلُّها مَرَحَا
ورأى يُرَبِّه اليومَ ما في حشا غدي	ويكشفُ عنه من دُجَى ليلهِ جُنَحَا ^(٢)
وحزَمُ يهزُ الراياتِ ثباته	وعزَمُ يحاكى الزندَ ماضيه قَدَحَا ^(٣)
ولم تَدْعُ الأعداءُ مَحْضَ مودتي	إليه ولكنَّ إمَّا كرهوا القَرَحَا ^(٤)
مواصلةً جبلَ الجهادِ جِياذَه	ووقفَ على غزو العدا عَذْوَهَا ضَبَحَا ^(٥)
فلا زلتُ للإسلام عيدا منغصا	تنغصُ حُسنَاهُ السُّعَاتينِ والقيصحا

وهو يصف الأمير محمد بن إسماعيل بالكرم الفياض حتى يرى البحر جود بناته قليلا بالنسبة إلى أعطياته على حين كان حاتم المشهور بجوده يستنكر الرشح ، مع دلائل علم راسخ أطفأ نوره الجهل في المغرب الأقصى إلى غير رجعة ، ومع غايات جد جادة إلى أقصى حد ، ومع رأى يصِّره بما يأتي به الغد ، ويكشف له ما قد يكون حوله من ظلمات ، ومع حزم ثابت ثبوت الرايات وعزم يحاكى سببه الماضي الزند بشواره المميت ، مما جعل الأعداء تدعن له وتذل خشية ما ينزل بها من القرح والجراح ، وإن جياذه لتواصل الجهاد والعُدو في غزو الأعداء عدوا شديدا . ويدعو أن يظل محمد بن إسماعيل عيدا بهيجا للإسلام ومنغصا لأعياد

(٣) الماضي : السيف القاطع . قدح الزند : ضرب

حجره بهضهما بعض لاستخراج النار منه .

(٤) القرح : الجرح والمزمنة .

(٥) ضبحا : عدوا شديدا .

(١) انظر في ترجمة ابن رازكة الوسيط للشنيطي ص

١ - ٢٤ ، وص ٣٩٧ والشعر والشمراء في موريتانيا

ص ٤٧ ، ٢٢٩ .

(٢) جنح المدجى هنا : جانبه .

النصارى مثل عيد الشعابين الذى يسبق عيد الفصح بأسبوع . ويمدحه ابن رازكه فى القصيدة الثانية بمثل قوله :

هو الوارثُ الفضلُ النبِيُّ خالصًا	من العلم والعليا ومن طيبٍ مَخْدٍ ^(١)
نمالُ اليتامى والأيتامى مُوَكَّلٌ	بتفريج غَمِّه الشَّجْبِ المتكسِّدِ ^(٢)
أغرُّ الحَيَّا طاهرُ البشرِ طاهرًا	سُجَا يا كريمُ اليومِ والأنسِ والغدِ
حميدُ المساعى سار فى الرُّتبِ العُلا	من المجد سِرِّ السابقِ المتفردِ
حَوَى شَرَفُ العلمِ الرفيعِ عِماذُه	إلى شَرَفِ البيتِ الكريمِ المصْدِرِ ^(٣)

ويقول لـ محمد بن إسماعيل فى وصف تلك القصيدة :

عَرُوبٌ عروسُ الزرى أندلسيةٌ من الأدبِ الغَضِّ الذى روضه ندى

وهو يمدحه بأنه علوى ورث الفضل النبوى من العلم والعلياء وشرف الأصل والنسب ، ويقول إنه غوث اليتامى والأيتامى من النساء غير المتزوجات ، مفرج غَمِّ الحزين المملوء نكدا وهما ، أغرُّ الحيا أى سمح الوجه مستبشر دائما طاهر الأخلاق والطباع كريم كرما متصلا فى أمسه ويومه وغده ، كل مساعيه تجلب له الحمد والثناء ، وإته ليسير فى منازل المجد سير السابق المتفرد ، وقد غلّى بشرف العلم الرفيع مع شرف بيت النبوة الكريم وإته ليقصده الناس لتحقيق حوائجهم وأمنيتهم . ويذكر ابن رازكه فى أواخر قصيدته أنها عروس عربية جميلة من الشعر الناضر ، ويقول إنها أندلسية كشعر الأندلسيين المشهور بالروعة . ونشر عند شعراء مورتانيا بهذه الصلة الوثيقة التى تربطهم بالأندلسيين لقربهم من الأندلس فردوس العرب المفقود الذى ألبى فيه أجدادهم من الصنهاجيين بلاء عظيما أيام المرابطين . ونكتفى بما أسلفنا من مديح بديع لابن رازكه ، فقد اتضح لنا صوته وجمال شعره وما يتصف به من جزالة ونصاعة ، وسنعود إليه فى حديثنا عن الرثاء . توفى سنة ١١٤٤ هـ/ ١٧٣٢ م .

محمد^(٤) اليدالي الديمانى

من قبيلة ديمان إمام فى علوم الشريعة إذ له فيها تفسير قيم للقرآن الكريم سماه - كما أسلفنا - « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » وهو فى مجلدين وله مصنفات أخرى فى سيرة الرسول ﷺ وآداب السلوك وتاريخ الزوايا المشغوف أهلها بالعلم وتعمير الأرض ، وله كتاب فى مناقب ولبيهم : ناصر الدين صاحب الفتوحات فى السنغال . وهو إلى ذلك كان شاعرا فذا من شعراء مورتانيا ، وكان صديقا للقاضى ابن رازكه ، وفيه يقول :

(١) محمد : أصل .
(٢) شمال : غوث . الأيتامى هنا : النساء غير المتزوجات .
(٣) المصد : المقصود لقضاء الحوائج .
(٤) انظر فى ترجمة اليدالي وشعره كتاب الوسيط ص ٢٢٣ والشعر والشعراء فى مورتانيا ص ٤٩ ، ٢٣١ .

لِسُدَّةِ الْجَهْلِ جَالٍ ^(١)	فَاضَى الْقَضَا سِرَاجٌ
لِ الرِّبْخِ وَالْإِعْتِرَالِ	وَسَيْفٌ حَقٌّ عَلَى أَهْلِ
لَيْبَى حُلَى وَجِلَالٍ ^(٢)	بِهِ الْعِلْمُومُ تَحُلَّتْ
لَيَخْطِرُ لِأَنْسِرٍ يَمَالِ	قَدْ نَازَ مِنْهَا بِمَا لَمْ
لِ الْعُقَاثِدِ عَالِي	مَقَامِهِ فِي الْأَعَارِدِ
وَكُلُّ سَحَرٍ حَلَالٍ	وَفِي الْبَلَاغَةِ نَظْمًا
وَفِي عِلْمِ الْأَوَالِي	وَفِي الْعِلْمِ جَمِيعًا

واليدالي يمدح ابن رازكه بأنه سراج منير جلا ظلمة الجهل ويهددها وأنه سيف حق في قضائه وأحكامه على أهل الربخ والضلال وفي آرائه السنية ضد الاعتزال والمعتزلة ، وقد ازدادت به العلوم ولبست أحلى حُلِيِّهَا وأبهى حُلُلِهَا إذ ظفر منها بما لم يخطر بذهن إنسان ، ومقامه في أعراب موريتانيا وفي العقائد عال رفيع ، وبالمثل في الشعر الساحر الخلاب وفي العلوم جميعا وعلوم الأوائل من هندسة وغير هندسة . وأجابه ابن رازكه بقصيدة بارعة نوه فيها بحله للنوامض المشكلة في الفقه وغير الفقه وأنه سيف أشعري ماض في ردوده على المعتزلة ، وكانت جماهير العلماء في موريتانيا والمغرب جميعه تعتق العقيدة الأشعرية . وكان اليدالي ينشد :

لَيْسَ مِنْ أَخْطَأِ الصَّوَابِ بِمُخْطِئٍ إِنْ يَوْبُ لَا وَلَا عَلَيْهِ مَلَامَةٌ
إِنَّمَا الْمَخْطِئُ الْمَسِيءُ الَّذِي إِنْ وَصَحَّ الْحَقُّ لَجَّ يَخْمِي كَلَامُهُ

وهو يقول إن المخطيء هو من يتماذى في خطئه ، أما من يرجع عنه فلا لوم عليه ولا تثريب ، إذ الرجوع إلى الحق فضيلة . ولليدالي في مديح أحمد بن هبة البركني الحسني قوله من قصيدة طويلة :

وَرَثْتُ الْعِلَّا وَالْعَزَّ وَالْمَجْدَ أَحَدٌ	وَبَذَلَ النَّدَى عَنْ هَيْبَةٍ مَفْخَرَةِ الْعَصْرِ ^(٣)
وَلَيْتَ أَسْمَاءُ عَلَوْا وَرَفَعَتْ	بِمَنْطَقَةِ الْجَوْزَا وَمَنْطَقَةِ الْبَدْرِ
وَأَيَّامُكُمْ خَضَرَ جَنِينًا ثَمَارَهَا	بَأَيْدِي الْمَنَى مَا بَيْنَ أَوْرَاقِهَا الْخُضْرِ
وَقَالَ إِلَهَ الْفَرَسِ يَا أَحَدُ الرُّدَى	وَجَنَّتْ أَنْوَاعُ الْمَكَارِهِ وَالضَّرَى
وَأَوَّلَاكَ رَبُّ النَّاسِ فِي تَفْئِكَ الْمَنَى	وَالْأَوَّلَادِ وَالْمَسَالِ وَالْعُمَرَى

وهو يقول لأحمد بن هبة إن العلاء والعز والمجد ورثتها جميعا عن أبيك مفخرة العصر ، ولئك أسمى المشيرة البركنية رفعة وعلوا في منطقة برج الجوزاء الصاعد في السماء ومنطقة البدر النير ، وأيامكم خضر سعيدة جنينا ثمارها بأيدى المنى من بين أعوادها وأوراقها

(٣) الندى : الكرم والجود .

(١) سدفة : ظلمة .

(٢) حلال هنا : جمع حلة : ثوب ضاف .

الخضر ، ويدعوه أن يقيه إله الكون الهلاك وينحى عنه أنواع المكاره والضرر ، ويعطيه ما يحميه
فى نفسه وآله وأولاده وماله وعمره. توفى سنة ١١٦٦ هـ/ ١٧٥٣ م وسنود إليه فى حديثنا
عن الفخر والرئاء .

حُرْمُ^(١) بن عبد الجليل العلوى

ويقال له أيضا حرمة الله وحرمة الرحمن ، ولد لأبيه فى أرض القبله ، وبها نشأته ، وشغف
بالمطوع اللغوية والإسلامية وطلبها عند شيوخ مديتى شفيط وآطار . وهو من تلاميذ المخار
ابن بون فى العرية ، وكان يتقن مختلف العلوم ، وبه اتفتح خلق كثير فى النحو والفقه ، وكان
شاعرا يوتر فى شعره الانسياب مع الطبع والسهولة فى اللفظ ، على نحو ما نرى فى قوله بمدح
بُلاُ الشقراوى الحسنى مشيدا بعلومه وشعره :

إِنْ بُلَاُ مَشَايِخَ حِينَ تَفَرُّو	شَارِدَاتٌ تَفَوَتْ لَزَكَى الْعُقُولِ
مَنْ فَوَيْ شَى تَفْنَى الْمُلَى	مَنْ عَوَيْصِ الْمُنْقُولِ وَالْمُعْقُولِ
يُسَيِّفُ السَّالِّينَ عَنْهُ بِمَا فِيهِ	لَهُ لَذَى غَلِيٍّ شَفَاءُ الْغَلِيلِ
إِنْ يَسِرْ لَاتَصَلِبَ مَجِيدُ رَعِيلٍ	كَانَ بُلَاُ دَلِيلُ ذَلِكَ الرَّعِيلِ ^(٢)
شِعْرُهُ مَطْرَبٌ حِمَاهُ تَسْرَى	فِي عِظَامِ الْجَلِيسِ مِثْلُ الشُّمُولِ ^(٣)
يَنْفُثُ الدَّرَّ وَالْيَوَاقِيتَ إِلَّا	أَنْ لِلدَّرِّ قَسْوَةً فِي الْخَلِيلِ ^(٤)

وحرم يقول إن بُلاُ ليس شيئا واحدا بل هو عصة من المشايخ وفضله يدو حين تلم
شاردات من العلوم لا تستطيع أزكى العقول أن تفقه عويص المنقول والمقول فيها ، فسرعان
ما يشفى ظمأ السالكين بحله لعريصها وتذليله ، وما من سلقين يسرون فى ليل مدلم إلى
مجد إلا كان دليل هؤلاء السابقين ، وناهيك بشعره فهو شعر مطرب تسرى شدة تلاحيته
فى عظام السامع سريان الخمر فى الجسد ، ولله ليلفظ الدرر واليواقيت الممتعة لقارته دون
أى عناء . ويقول فى مدح شعر الشويمى الحسنى :

مَعْنَاهُ رَاقٍ رَاقٍ حُسْنًا لَفْظُهُ	لِلَّهِ فَكَّرَ جَالٌ فِيهِ وَيَقُولُ ^(٥)
يُبدى وَيُلْحِمُ فى البلاغة حَاتِكًا	خَلَّلًا يَبِّهَ بِهَا الْقَرِيبُ وَيَرْقُلُ ^(٦)

- (١) انظر فى ترجمة حرم وشعره كتاب الوسيط ص ٢٤
والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٥٨ - ٢٣٦ - ٢٣٧ .
(٢) الرعيل : السلفون فى الجماعة .
(٣) حياه : شدته وسوره . الشمول : الخمر .
(٤) الخليل : المنق .

- (٥) مقول : لسان .
(٦) يبدى من السدا وهو الخيوط طولا ، ويلحم :
من اللحمة وهى الخيوط عرضا . يبدى ويلحم أى
يسج . يرقل : يجر ثوبه متبخرا .

أَغْنَاهُ عَنْ تَعَبِ التَّحْلُمِ طَبَقُهُ إِنَّ التَّوَهُصَ لَهُ يَهْوُنُ وَيَسْهَلُ
 إِنَّ الْبَلَاغَةَ فِي الْبَلِيغِ غَرِيزَةٌ لَا بِالْعِلَاجِ يَنَالُهَا التَّطَفُّلُ
 هَلْ مِثْلُ أَخْلَاقِ الْكَرِيمِ تَخْلُقُ لَا ، لَا ، وَلَا كَحَلِّ الْجَفُونِ تَكْحُلُ^(١)

وهو يقول إن معنى شعر الشوهر راقية وألفاظه راقية ، ويشيد بفكره ولسانه ، ويقول
 إنه ينسج ويحرك في شعره البليغ حللا يتبه بها الشعر عجا ويجرُّها متبخرا ، وهو شاعر
 الطبع لا يتكلف في شعره ، وعومعه يسهل عليه دون أى عنه . ويذكر أن بلاغة البليغ
 سليفة فيه وفطرة لا يوجدتها التحلم ولا التكلف ، وفرق بعيد بين شعر الطبع وشعر التكلف
 والتصنع كالفرق بين الأخلاق الطبيعية والتخلق وكحل الجفون الطبيعي والتكحل ، وكنته
 يمر عن منهجه في الشعر . توفي سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٨م وسنعود إليه في شعر الفخر
 والحماسة .

٣

شعراء الفخر والمجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر فن شعري قديم تنحى به الشاعر الجاهلي مصورا في مثاليته الخلفية من الشجاعة
 والكرم والنجدة والروعة وما إلى ذلك من الصفات النبيلة ، كما تنحى بمكارم قبيلته ومحامدها
 وبأسها في الحرب . وظل الشاعر العربي - بعد العصر الجاهلي - يفخر بأخلاقه وشيمه الرفيعة
 من الوفاء والحلم والصبر في الشدائد والكرم ، ونما الشعر الحماسي في الحروب الكثيرة التي
 اشتعلت بين العرب وأعدائهم على مر العصور . ونجده في مورتانيا على ألسنة كثيرين ، فمن
 ذلك قول محمد اليدالي مفاخرا بقومه بني ديمان الحسنيين^(٢) :

وَنَحْنُ دِيْمَانُ أَقْطَابُ الرِّحَى وَنُوْ
 نَحْنُ اكْسِينَا الْمَعَالِي وَالْمَلَا حَلَلَا
 وَنَحْنُ كُنَّا عَلَى وَجْهِ الْعَلَا غُرَرَا
 وَكَانَ مَنَزَلُنَا فَوْقَ السَّمَاءِ كَمَا
 حَزَنَّا الْمَكَارِمَ وَالْمَجْدَ الْمُؤْتَلَّ وَالـ

دِيْمَانُ خَيْرُ بَنِي حَسَّانَ أَذِيْنَا^(٣)
 حَمْرَا وَدُرَّا وَيَا قَوْسَنَا وَمَرْجَلَنَا
 وَفَوْقَ هَامِ الثُّدَى وَالْعِزُّ تِجَلَانَا^(٤)
 كُنَّا عَلَى وَجْهَاتِ الدَّهْرِ خَيْلَانَا^(٥)
 حَلِيَاءُ مِنْ سَالَفِ الدُّهْرِ إِلَى الْآنَا^(٦)

(١) غررا جمع غرة: سادة مشهورين . الندى : الجود .

(٢) السماك : برج أو نجم - خيلان جمع خال :

الحسنة على الوجنة .

(٦) المؤتَل : الأصل .

(١) تخلق الشخص : ظهوره بخلق لا ينطوى عليه .

الكحل : سواد الجفون خلقته .

(٢) الشعر والشعراء في مورتانيا من ٣٤١ .

(٣) أقطاب المرسى : السيادة .

فَلَا تُدْ الْمَجْدُ فِي أَعْنَاقِنَا نَظِمْتَ عَقْدًا وَكُنَّا لَعَيْنَ الدَّهْرِ إِنْسَانًا^(١)
لَا يُلْغُفُ مَدَامَا مَنَ يَفَاخِرُنَا فَضْلًا وَعِلْمًا وَإِيمَانًا وَاحْسَانًا

يقول إنا قبيلة دهمان أنقلب السيادة وخير قبائل بني حسان تقوى وصلاحا ، وقد اكسبنا حلل المعالي والعلا وحليهما من در وباقوت ومرجان ، وارتسمنا على وجه الملا غررا يضاء مشرقة وفوق رؤوس الجود تيجانا ، وكان منزلنا فوق نجم السماء في أعلى عليين ، وارتسمنا على وجنات الدهر خيلانا وحسنات ، وحزنا المكارم والمجد الأصيل والعلواء إلى اليوم . وقد نظمت في أعناقنا قلائد المجد ، وكنا - ومازلنا - إنسان عين الدهر وجوهرته الباصرة ، ولا أحد ممن يفاخروننا يبلغ مدانا تقوى وعِلْمًا وفضلا وإحسانا . وكرر هذا الفخر في قصيدة همزية . ولتلقى بعده بالختار بن بون وسنخصه بترجمة ، ويقول حرم بن عبد الجليل الذي سبقت ترجمته مفاخرًا بقومه أهل شفيط وقد انتصروا في حرب على أهل وادان^(٢)

سَمَّا لِلْمَعَالَى مَن تَقَدَّمَ مِنْهُمْ وَيَسْتَوُ عَلَى آثَارِهِ مَن تَأَخَّرَا
مَآثِرُهُمْ خَلَّى الزَّمَانُ لَوْ أَنَّهُ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسَانِ كَانَ مَصُورَا
وَكَمْ مِنْ قَتَى مِنْهُمْ يَرُوقُكَ عِلْمُهُ وَيَهْزَمُ مِنْ أَتْجَادِ وَادَانَ عَسْكَرَا
وَيَجْمَلُ فِي إِحْدَى يَدَيْهِ مَهْنَدًا طَرِيرًا وَفِي الْأُخْرَى كِتَابًا مَطْرُرًا^(٣)
يَحِبُّ الرَّدَى يَوْمَ الْوَعَى وَكَأَنَّهُ إِذَا مَاتَ فِيهِ لَا يَزَالُ مَعْمُرَا

وهو يقول إن جميع الرجال في قومه شبنا وشيا يسمون للمعالي وقد كثرت مآثرهم ، وإن الزمان ليتحلّى بها ، ولو كان إنسانا لاتضحّت مصورة على صدره ، وإن فتيانهم لعلماء يروك في السلم علم كل قتي منهم ، بينما هو في الحرب بطل يهزم عسكرا من أبناء وادان . وتراه يحمل في إحدى يديه سيفًا ماضيًا وفي اليد الأخرى كتابًا بهيًّا . وإنه ليضحى بنفسه في سبيل قبيلته ، حتى لكأنه يريد الموت في الوغى من أجلها ، ومثله لا يموت بل يظل خالدًا في ذاكرة قومه . ويقول الأحوال البوحسنى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م في الحروب التي وقعت بين قبيلته وبين العلويين إثر انتصار لهم في بعض المواقع^(٤) :

هَمْ جَلَبُوا الْحَرْبَ الْعَوَانَ فَلَمْ نَزَلْ نَبِيدُ وَنَقْصَى مِنْهُمْ كُلُّ جَانِبٍ^(٥)
لَدَى مَشْهَدِ دَارَتْ رَحَاهُ فَجَرَعَتْ صَنَادِيدُهُمْ خَفًّا مَرِيرَ الْمَشَارِبِ^(٦)
وَوَلُّوا سَرَاعًا مَدِيرِينَ كَثَمَهُمْ بُغَتْ تَهَاوَى مِنْ صَقُورٍ دَوَارِبِ^(٧)
وَقَهَرًا طَرْدَانَهُمْ وَخَضْنَا حِمَاهُمْ وَهَجْنَا هُمُومَ الْمُغُولَاتِ التَّوَارِبِ

(٥) الحرب العوان : المتجددة مرة بعد مرة .

(١) إنسان العين : جوهرتها الباصرة .

(٦) دارت رعى الحرب : نشبت وحيت . صناديدهم

(٢) الوسيط ص ٢٩ .

جمع صنديد : شجاع مفرط في الشجاعة .

(٣) طريرا : ماضيًا . مطررا : عليه بهاء ورويق .

(٧) بثلث : طائر صغير . تهاوى : طار مسرعا .

(٤) الوسيط ص ٣١٠ .

أَلَا إِنَّا نَحْمِي الحِمَى ونَحْمِيهِ
وَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْظُرْ عَوَاقِبَ مَعْشَرٍ
وَنَزَادُ صَبْرًا تَحْتَ كُلِّ النَّوَائِبِ
جَنَى خَرْنَا بِزَجَرَةٍ شَوْمِ المَوَاقِبِ

و يقول إن العلويين هم الذين جلبوا هذه الحرب التي لا تزال تتجدد حربا بعد حرب ، ولا تزال تقتل فيهم ونقصى بعض كتابهم فى مواقع حامية الوطيس جرعت شجعنتهم موتا مريرا ، فولوا مدبرين كأنهم بفاث طار مسرعا بعضه إثر بعض خوفا من صقور مدبرة ، وقد هزمتهم قهرا وتغلطنا فى حمامهم وهجنا نساءهم وأعلن ينديهم . وإنا لنحى حملا ونقيه ، وتزيدنا الحروب صبرا وشجاعة ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْظُرْ عَوَاقِبَ مِنْ نَحَابِهِمْ ومدى ما جتته الحرب عليهم ، وإذن يزدجر لما يرى بعينه من شَوْمِ المَوَاقِبِ . ويقول محمد بن الطلبة البعقوبى المتوفى سنة ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٦ م مفائرا بنى عامر^(١) :

وبنو عامر هم القوم كلُّ الـ
وبهاليل كالمصليح زهر
دينهم حفظ دينهم وعلاهم
لا هم يفرحون للخير إن مـ
صحب الله جمعهم وحباهم
وسقى الله حيث أسسوا وساروا
قوم والرأس والذرى والرواي
من كهول جحاجع وشباب^(٢)
وعلوم الكتاب والآداب
س ولا يجرعون عند المصاب
بالرضا عنهم وحسن المساب
من حيا المزن مدججات الذهب^(٣)

وبنو عامر - فى رأى محمد بن الطلبة - هم القوم ولا قوم سواهم وهم الرأس والقمم والكتبان العالية ، وهم سادة مشرقون كالمصليح من كهول كرام وشباب ، دينهم حفظ عقيدتهم وعلاهم وعلوم القرآن الكريم والآداب ، لا يفرحون حين يصيبهم الخير ولا يجرعون حين تنزل بهم مصيبة ، ويدعوا لله لم أن يرضى عنهم فى اجتماعهم وتفرقهم وعند ما بهم وعودتهم ويسقى منازلهم وسيرتهم من غيث السحب المتراكمة العظيمة . ويقول باب بن ييب التوفى سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠ م مفائرا^(٤) .

أولى بصيرك لاجعُ الأشواقِ
يا مَنْ يسألنى ويطلب عثرى
وإذا المسائل أحجمت وتمنعت
إن الأحبة آذنوا بفراق^(٥)
يى - لعمرك - سابق الساب^(٦)
ولبت مشاكلك على الحذاق^(٧)

(١) الشعر والشعراء فى مورخاتها ص ٣٤٦ .

(٢) بهاليل : سادة كرام ، وظلها جحاجع .

(٣) حيا المزن : مطر السحاب . الذهب جمع

ذهبة : السحابة .

(٤) الوسيط ص ٣٦ .

(٥) أولى : ذهب . لاجع : ولدت . آذنوا : أطلوا .

(٦) عثرى : عطشى .

(٧) أحجمت : نكمت وتمنعت .

أَعْمَلْتُ سَيْفَ الْفِكْرِ نَحْوَ عَوِيصِهَا فَخَنْتُ عَلَى خَوَاضِعِ الْأَعْنَاقِ^(١)
فَتَبَوَّحَ لِي بِسَرَّاسِرٍ مَكْتُومَةٍ حَتَّى عَنِ الْأَسْطَارِ وَالْأَوْرَاقِ

وهو يقول إن وائد الأشواق في صدره ذهب بصره ، فإن الأحبة على وشك الفراق .
ويأخذ في الفخر بنفسه ، فيقول لمن يسبقه وينافسه ويطلب عشرته وخطأه إنه سابق السابق ،
وإن المسائل إذا استصعبت وتمنعت مشاكلها على الحذاق فلم يستطيعوا لها حلا أعمل سيف
فكره في عويصها فجاءته خاضعة تبوح له بأسرارها المكومة عن ظاهر المكتوب في السطور
والأوراق . وتوقف للحديث عن شاعرين من شعراء الفخر .

المختار^(٢) بن بون

ولد ونشأ في منطقة تجككت الموريتانية ، وتلمذ للمختار بن حبيب وأخذ كل ما عنده ،
وكان يتعثر في أول أمره ، ثم فتح الله عليه واشتهر بعلمه وخاصة في العربية وجاءه الطلاب
من كل فج ، وسمعت به قبيلة إديقب اليعقوبية ، وهي من أهم قبائل الزوايا في مدارس العلوم ،
فطلبت إليه أن ينزل بها ليأخذ عنه طلابها علم النحو وعلم الكلام أو التوحيد ، وكان لا يجازي
فيهما ، وأقام عندهم مدة ، ثم حدثت بينه وبينهم منازعات في بعض العلوم كان يقودها تلميذه
محمد المجدي ومولود بن أحمد وعادوا إلى استمراحه ، مستشهدين بقوله تعالى على لسان
إخوة يوسف : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آتَيْنَاكَ الْفَيْضَ كَثِيرًا وَجَعَلْنَا لَكَ خِزْيًا عَلَى يَدَيْكَ ﴾ فآجلبهم بما أجاب به يوسف
إخوته ، إذ قال ﴿ لَا تَرْيِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . وعاد إلى موطنه
ولتال عليه الطلاب ، وكان رفيقا بهم بحود لهم بما يملك ، وكثروا فرحل بهم إلى بئر في
أرض تجككت ، فشرعوا ينون الأعصاص لسكنائهم ، وكان لا يشتغل نهارا ولا ليلا
إلا بتعليمهم . وله في النحو منظومة تسمى الاحمرار جمع فيها بين ما ذكره ابن مالك في
الألفية وكتابه التسهيل وطبعت في مصر ، وله في النحو أيضا مقدمة ألفها - كما مر بنا -
للمبتدئين ، وتكونت له في النحو مدرسة أهم تلاميذه فيها بلأ الشقراوى جعلناها خاتمة حديثنا
عن علماء العربية بموريتانيا . وله من قصيدة يحتب فيها على قبيلة إديقب اليعقوبية وتلميذه
محمد المجدي ويغافر بما أسدى إليه وإلى أبنائها من علم العربية قائلا :

فلا تنكروني آل يعقوبَ واذكروا لياليَ أجلو ما على الناسِ أظلموا
وحين أحلى منكم كل عاطلي يذرى وأسقى باردى كل أقيما^(٣)

ص ٢٤٢ .

(٣) الأهم : المطشان عطشا شديدا .

(١) حنت : مالت وعطفت .

(٢) انظر في ترجمة المختار بن بون وشعره كتاب

الوسيط ص ٢٧٧ والشعر والشعراء في موريتانيا

وهو يقول لهم لا تنكروني بعد ما قدمت لكم من جميل واذكروا خَلَى لطلابكم المشكلات التي استصعبت ولبهت ، واذكروا ما زينت به من درر العلم أبناءكم وكيف أسقيتهم منه ما أطفئوا به ظلمتهم إلى المعارف ، ويقول مفاخرًا بقبيلته وقومه :

وغير ركبٍ من الأشواف متظمٌ أجلُ ذا الخلقِ قدرا دون أذننا
تتلو كتابَ إلهِ العرشِ كلُّ مَسَا وكلُّ يومٍ ومن تلقَى توقنا
ومن تكنُ همةُ الأقدارِ نُصرته لم تقدرِ الناسُ أن توهي له شأنا
وهمةُ دونها هَامُ السماءِ ومن هيمةُ دونها هَامُ السما ذاك^(١)
وهيئةٌ مُلِقتْ منها القلوبُ فلو نظرتُ شِزْرًا إلى أقصى الورى خَلَا^(٢)
ولا يُنهَيْني عن حاجةٍ جَزَعٌ ولا أَلِينُ وإن ذو لَوْثٍ لانا^(٣)

وهو يفخر بقومه أو قبيلته فخرا مبالغاً فيه إذ يجعل أعظم الناس قدرا دون أدنى شخص فيهم منزلة ومكانة ، ويقول إنهم مكبون على كتاب الله يتلون مساء وكل يوم ، وينوه بشجاعتهم وأن القبائل تحذرهم وتتوقاهم ، ويذكر أن الأقدار دائما تنصرهم على أعدائهم ، ومن تنصره لا يستطيع أحد ولا قبيل أن يضعفاه شأنا وهم مهليون هبة ملكت منها القلوب مخافة ، حتى إنه لو نظر إلى عدو مضطرب هلك خوفا وفرعا ، ولا يعتريه إزلة حاجة يبردها جزع ، ولله صلب لا يلين ، إنما يلين الضميف الواهن . توفي سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٦ م وقبل بل قبل ذلك بسنوات .

محمد^(٤) بن سبدي الأتتري

كان أبوه سبدي جوادا جودا عظيما إذ كان غنيا مدارا ، وكان عالما تلمذ لحرم بن عبد الجليل وبذ أقاربه ، وشغف بالتصوف فنشد رحاله إلى الشيخ المخار الكنتي الصوفي ولازمه ستة أشهر ، توفي عقبها ، فلازم ابنه محمدا حتى برع في التصوف ومعرفة طريقه . ويقول الشنقيطي عن محمد بن سبدي إنه نشأ في نعمة عظيمة ورعاية من والده جسيمة ، ويقول إنه العلامة الأريب اللغوي الأديب ، ويتوسع في ترجمته إلى أكثر من عشرين صفحة ، ينشد فيها طرائف شعره ، وما أشده قصيدة له يسخر فيها من برذون موضوعات الشعر القديمة وخاصة الوقوف بالأطلال والبكاء بالديار ونعت المرأة والخمر ويعيب عليهم كثرة السرقات الشعرية . ومن قصائده قصيدة يدعو فيها للجهاد ضد أعداء الإسلام المخيرين على السواحل الإفريقية

(٤) انظر في ترجمة محمد بن سبدي الوسيط للشنقيطي

(١) داف : عز .

ص ٢٤٣ الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٥٧ ، ١٨٩ .

(٢) شزرا هنا : مضطرب . هلك .

(٣) بنهني : يكفى - لوة : ضعف وحق .

المغربية ، وكلته كان يُعَدُّ شباب قومه لمنازلة فرنسا قبل فرضها الحماية على موريتانيا سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٣ م وفيها يفخر بشجاعة قومه وحمايتهم للإسلام قائلا :

وختيان يرون الضيم صلبا وطعم الموت غرطوما غفارا^(١)
أحبوا الملة البيضاء فكانوا عليها من مرادها غيارا
بأيديهم مذبذبة طوال ترى الأقران أعمارا قصارا^(٢)
جموع تهزم الأعداء قهرا فتركهم جديسا أو زارا^(٣)
بنصر الله وثقة بقينا فلا تخشى من الخلق الجذارا
لها إعلاء كلمته مرأى فلا غنما تروم ولا اخفارا

وهو يقول إن شباب قومه ختيان أشداء يرون الذل مرا لا يطاق شرابه ، أما الموت في ميدان الحروب فيروونه لهذا لذة الخمر أو أعظم لذة . وقد أحبوا الدين الخفيف حتى إنهم ليغارون عليه بغيرة العاشق على معشوقته ، وإنهم لشجعان بوسائل بأيديهم سيوف ماضية ، ترى الأقران أن أعمارهم قصار بما تقطع من رقابهم ، وإنهم لجموع تعودوا النصر على أعدائهم حتى ليبدوهم عن آخرهم فيصبحوا في عداد الأمم البائدة مثل جديس وريار ، ودائما يتفنون في نصر الله لا يخشون أحدا ، وقصدتهم إعلاء كلمة الله ودينه القويم دائما ، ولا غنما يريدون ولا افتخارا . ويعرض في قصيدة طويلة مذكرته لزملاء أبدل يقفون على مذاهب الفقهاء المختلفة ومذهبي الأشعرى وإمام الحرمين الجويني ومنازع الفرق الصوفية وأقوال الخليل وسيبويه والكوفيين وغيرهم في النحو ، ويتدارسون شعره الجاهلية الستة المشهورين : امرأ القيس وزهيرا والنبغة وعلقمة وطرفة وعنترة ، والمرقسين الأكبر والأصغر والأعشىين : أعشى قيس وأعشى باهلة والأعميين : بشارا وثبا العلاء ، وثبا نولس والمتنبى . وهي وثيقة مهمة بما كان يتدارسه الشباب الموريتاني من العلوم والشعر والشعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، ثم يقول مفاخرًا بشماله :

ومن يك راعيا في القرب مني يجلني دون ماء المقلتين
ومن يوتر قلاي فلن شئ يواصل ينه أبدا وينى
ألاحظ من خلط كل زعنو كما أغضى له عن كل شئ
ولا أضفى إلى القول حتى يرى قى أمم المسمين^(٤)
وما جهل الجهول بمستغزى ومالى بالدنيئة من يكتن

(١) الضيم : الحزن . الصلب : المر . الخرطوم :

(٢) الغفار : الخمر .

(٣) جديس وريار : قبيلتان من العرب البائدة .

(٤) العوراء : الكلمة السبعة . المسمين متى معج :

(٥) مغربية : من ذرب السيف والرمح : صار ماضيا .

وهو بفجر بآن من يوده يجده أقرب إليه من ماء عينه ، ومن يؤثر بغضه يقطع كل صلة
تصله به ، ولا أرى من صديقى إلا ما يزينه وأتقاضى عن كل ما يشينه ، ولا أصنى إلى كلمة
سيئة تقال عن أحد ، وأرى - حين تقال - كفى أصرم لا أسمع شيئا ، ولا تستغزنى حماقة
الأحمق ولا أعترف عملا سيئا ولا خيسا ذميا . وكان الشعر يتدفق على لسانه ، توفي سنة
١٢٨٦ هـ / ١٨٧٠ م .

(ب) شعراء المهجاء

المهجاء فن قديم منذ الجاهلية كانوا يصيرون على خصومهم وخصوم قبائلهم ، ولم يكد
يسلم منه شريف فى الجاهلية ، لكثرة ما كان بين القبائل من حروب ومنافسات . وبمقدار
شرف القبيلة وأسجادهآ ومآثر ساداتها وفرسلتها ومناقبهم يكون هجاؤها وما ينزل بها من
سهامه ، واتصل هذا المهجاء فى الإسلام وطوال العصور ، والمظنون أنه كان كثيرا فى مورتيا
بسبب كثرة الحروب بين عشائرها وقبائلها واستخدامه سلاحا يفض من شأن القبيلة المعادية
وساداتها وشيوخها . ويقول الدكتور محمد المختار إنه تجنب أن يكثر منه فى كتبه الشعر
والشعراء فى مورتيا خوفا من إثارة الحفيظة فى المجتمع المورتيا المعاصر ولم يصرح بذلك
الشنقيطى فى كتبه الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ، غير أنه - فيما يبدو - كان يرى رأى
الدكتور محمد المختار ، ولذلك لم يأت منه إلا بأمثلة قليلة ، حتى عند شاعر هجاء كبير من
شعراء الجيل الأول فى صدر القرن الثانى عشر الهجرى هو المصطفى بن أبى محمد المشهور
بلقب بوفمين^(١) المجلسى ، يقول : « كان هجاء ما نجا منه أحد » ثم يذكر أنه هجا إيدا
بلحسن بقصيدة طنانة مطلعها :

أحسب أن لا يزرأ الأسدُ الورْدُ ذئابٌ عَوَتْ لِمَا تَغافلُ الأسدُ^(٢)

ومنها :

وعقلُ الذى منهم يُشَدُّ عمامةٌ كعقلِ الذى منهم يُشَدُّ له المَهْدُ^(٣)

ولا يضيف إليه أبياتا أخرى من القصيدة ، ويذكر الشنقيطى أنه نزل يوما عند قبيلة إيتاب
فى موضع يقال له إيتجول فلم يكرموا ولا اكرثوا به فقال يهجوهم :

دهرُ الداهيرِ لا أقمتُ فيه لدى إيتابَ يوما ولا يقربَ إيتجولِ^(٤)
يومُ الإقامةِ فيهم خلته ظمأً يومُ القيامةِ إذ يحكيه فى الطولِ
حتى تذكرتُ أن الناسَ قاطبةً إذن تُسألُ وأتى غيرُ مسئولِ

(٣) الذى يشد عمامة : الشيخ .

(١) انظر ترجمته عند الشنقيطى ص ٣٤٨ .

(٤) دهر الداهير : أول الدهر فى الزمن الماضى .

(٢) الورود : الأشقر .

وهو يقول إنه لن يقيم مدى الدهر عند قبيلة إيتاب ومنازلها في إيجول ، وقد أقام لديهم يوما خاله لطلوله - وقد ظمى فيه ظمعا شديدا - يوم القيامة ، وظن أن الناس ذهبت تسأل وبقي وحده . وقال في إذوداي إحدى عشائر بني ديمان - وقد نزل عندها - يهجوها :

يا رَبُّ لَيْلٍ بِهِمْ لَيْلٌ دَاجٍ قَدْ بَتُّ فِي ضَيْعَةٍ لَدَى إِذْوَاجٍ^(١)
حَتَّى إِذَا مَا دَنَا الْإِصْبَاحُ نُبْهَنِي وَغَدَّ عَلَى لَقْمَةٍ فِي قَفَرٍ مَجَاجٍ

وقلب الياء من قبيلة إذوداج جيما عاكاة لبعض لغات العرب في هذا القلب ، وهو يقول إنه بات في ليل بهم مظلم أشد الظلام بضیعة عند إذوداي ، حتى إذا اقرب الصباح نبهه وغد لهم على لقمة غير سائلة في قمر إباء يمج ما فيه وبلفظه لسوته .

ويسوق الشنقيطي للمأمون البعقوبي المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٣ م مقطوعة من هجائه للمختار بن بون حين وقع الشقاق بين المختار وعصبة البعقوبيين وصاروا جميعا يدا واحدة عليه كما مر في ترجمته ، وله يقول موهنا علمه بمنطق أرسطو وبأحاديث الرسول^(٢) :

أَكْرَمْتُ حَزْرَكَ لَوْ دَرَيْتَ مَقْصِلَهُ فَادِرِ الْمَفَاصِلِ قَبْلَ الْحَزْرِ وَاسْتَفِيقُوا^(٣)
مَا الدِّينُ إِلَّا الَّذِي تَسْتَعِي لَتَوَهُنُهُ آيُ النَّبِيِّ وَأَثَارُ الْمُهْدَى الْعَبْقِي^(٤)
لَا كُلَّ خَيْطٍ عَنِ الْيُونَانِ مَبْتَدِعُ قَدْ سَنَّ بَيْنَ أَصُولِ الدِّينِ مُخْتَلِقُ
تَحْصِي قَوَاعِدَ رَسْطَالِيسَ تَحْسِبُهَا دِينًا لَكَ الْوَيْلُ تَبْهَنُكَ فَاسْتَفِيقُ
إِنْ كُنْتَ تَوَرَّدَ نَسْخًا أَوْ مَعَارِضَةً لِذِي الْأَحَادِيثِ فَادْكُرْ مَا تَرَى وَسُقِ
وَأِنْ تَكُنْ قَاصِرًا عَنْ كَوْنِهَا ثَبَتَتْ فِيمَا حَوَى شَرْحَهُ الْحَفَظُ فِي الْوَرَقِ
فَاعْرِفْ مَقَامَكَ فِي ذَرَكِ الْعُلُومِ وَلَا تَعْرِضْ لِمَنْ خَاضَ فِيهَا شَاسِعَ الشُّقَى^(٥)

وهو يصفه بأنه أكثر الحز ولا يصيب الفصل ، وينصحه أن يعرف المفاصل حتى يحسن الحز ، ويقول له ما الدين إلا الذي تسعى في توهينه من معجزات الرسول وآثار هذاه العطر لا هذا المنطق المبتدع عن اليونان والذي تزجون به في أصول الدين ودراساته ، لذلك تدافعون عن قواعد أرسططاليس المنطقية وتتخذونها ديناً لكم وشعاراً . ثم يقول إن كانت الأحاديث التي تذكرها وتدرسها للطلاب مكتوبة أو مروية فاذا ذكر ذلك وسق أسئلتها ، وإن كنت تمجز عن إثبات سندها في كتب الأحاديث وشروحها فاعرف مقامك في معرفة العلوم ولا تعرض لمن تعمقها ووقف على نواحيها وجوانبها المختلفة . والمأمون تجاوز حده في هذا الهجاء فلم يكن المختار بن بون ضعيف الأحاديث ولا كان واهن الدين ، وإعجابه بمنطق أرسطو لا يشينه ، فقد كانت دراسته عامة في جميع البيئات الإسلامية . ويصفه الشنقيطي في ترجمته بأنه « تاج

(١) المق : العطر .

(١) بهم : مظلم . ليل : شديد الظلمة . داج : مغمم .

(٢) الشنقيطي ص ٢١٧ .

(٢) الشنقيطي ص ٢١٧ .

(٣) الشنقيطي ص ٢١٧ .

(٣) للفصل : ملحق كل عظيم في الجسد .

العلماء.. ولا يوجد عالم بعده إلا وله عليه الفضل الجزيل بما استفاد من مصنفاته ، وتلقى من مسندهاته .



شعراء الرثاء

لرثاء عند العرب - منذ الجاهلية - ثلاث صور : صورة الندب وبكاء الميت والنواح عليه من ذوى القربى ، وصورة التلحين ورسم فضائل الميت ليان خسارة القبيلة أو المجتمع فيه ، وصورة العزاء ويبان أن الموت كأس يتجرعه البشر جميعا ، فالكل ميت ولا بقاء لأحد ، وكثيرا ما تخلط هذه الصور فى الرثية الواحدة. وفى كل عصر وفى كل قطر تلقنا عشرات المراثي بل أحيانا مئاتها ، وهى كثيرة فى موريتانيا ، وقد عرض منها المرحوم الشنقيطى والدكتور محمد المختار عشرات ، ونعرض بعض أمثلة منها ، من ذلك قول ابن رازكه يرنى أعمر آكجيل البروزى^(١) :

هو الموت غَضَبٌ لا تخون مضاربه	وَحَوْضُ زُعَافٍ كُلُّ من عاش شاربُه ^(٢)
وما الناس إلا واردوه فلبين	إليه ومسبوقُ تَخْبٍ نَجَاتُه ^(٣)
يحبُّ الفنى إدراك ما هو راغب	ويدركه - لا بد - ما هو رايه
وكم لابس ثوب الحياة فجاءه	على فجأة عادٍ من الموت سالبه
وما صان خيرا علمه وكتابه	ولا ملكا أعلامه وكتابه

وهو يبدأ مرثيته بالعزاء ، فالموت سيف وصلت على رقبة كل إنسان ، لا تخونه مضاربه ، وحوض سم قاتل ، كل من عاش على ظهر الدنيا لابد شاربه ، والناس جميعا واردوه ، سلبن إليه ومسبوق تعدو به ركبته . ويتعلق الإنسان فى دنياه بما يرغب فى تحقيقه ويدركه الموت الذى يرهبه ، وكم من لابس ثوب الحياة يفجؤه عادٍ من الموت يسلبه عنه ويخلمه . ولا يصون العالم الجليل منه علمه وكتبه ، ولا يصون الملك رايته وكتابه . ويرنى القاضى أحمد بن يوسف البوحسنى ويقول فيه مؤنثا^(٤) :

فتنا ومفتينا المصيب وشيخنا	ونيرلنا فيما بهم يُؤنث ^(٥)
بصيرٌ بكل المشكلات كلنا	يكاشف عن أسرارها ثم يكشف
تملك أطراف القضاء وفقهه	وما هو إلا مالك أو مطرف ^(٦)

(٥) نرلى : مصباح . يهدف : يظلم .
(٦) مالك : الإمام مالك بن أنس . مطرف : قاضى صنعاء المشهور .

(١) الوسط للشنقيطى ص ١٥ .
(٢) غضب : سيف قاطع . زعاف : سم قاتل .
(٣) تخب : تعدو . نجاته : ركبته .
(٤) الوسط ص ١٨ .

وهو يصفه بأنه المفتي المصيب والمصباح الذى يضيء ظلمات المشكلات العلمية ، وكثما يُكشَفُ له أسرارها ويكشفها للناس ، وقد امتلك ثاوى القضاء وفقهه فى أحكامه حتى لكأنه مالك مفتى المدينة أو مطرف قاضى صنعاء . ويقول محمد البدالى الذى مرت ترجمته مؤنثا المختار بن الفاضل^(١) :

لُفَى عَلَى لَوْدَعِيٍّ ذِي نَدَى وَتَقَى وَهِيَةً تَمَلُّ الْأَفْكَارَ وَالْحَدَقَا^(٢)
وَذِي مَعَارِفَ رَبَّنِيَّةٍ وَهَدَى وَهِيَةً عَلَتْ الْعُيُوقَ وَالْأَفْكََا^(٣)
عَلِمَ الْحَقِيقَةَ وَالشَّرِيعَةَ اجْتَمَا لَهُ فَأَضْحَى يُرَى مَنْ بِهِ التَّحَقَّا
وَبَحْرُ جَوْدٍ وَعِلْمٍ زَاخِرٍ وَإِذَا مَا مُتَّفَوْهُ أَتَوْهُ فَاضٍ وَتَدَقَّقَا^(٤)
شِعَارَهُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَذَهَبَتْهُ رِضَا إِلَالَهُ ، خَدِيمُ الضَّيْفِ إِنْ طَرَقَا^(٥)

والبدالى يتحسر على موت ابن الفاضل ويقول إنه حاد الذكاء كريم صالح ، تملأ هيته العيون والأذهان ، متصوف له معارف إلهية وهدى وعزيمة تملو الأفق والنجوم ، وقد اجتمع فيه علم الشريعة والحقيقة الصوفية ، وبهما كان يرى تلاميذه ، وهو بحر زاخر للمعلم والجاد . وإذا ما أتاه سائلوه فاض عليهم بحر جوده وعلمه وتدفق من كل جانب ، شعاره الإحسان والتقوى ودأبه رضا الإله ، وإن ألم به ضيف كان خادمه : فرط جود وكرم . ويقول حرم بن عبد الجليل فى رثاء مولود بن أجفج العقوى^(٦) :

أَتَمَنُونَ مَوْلُودًا وَمَا أَتَقَضُّ كَوَكْبٌ وَلَا فَارِقَ النَّسْرِ الْفَزَالَةَ وَالْبَدْرَا^(٧)
وَلَا زَلْزَلَتْ زِلْزَالَهَا الْأَرْضُ يَوْمَهُ وَمَا أَبْدَتْ الْأَشْرَاطُ آيَاتَهَا الْكِبْرَى^(٨)
وَمَا شَغَلَ النَّاسَ الْبُكَاءُ عَنْ أُمُورِهِمْ كَأَنَّ صُرُوفَ الدَّهْرِ مَا أَحْدَثَتْ أَمْرًا^(٩)
لَقَدْ غَيَّبَتْ مَنْ غَابَ عِنْدَ مَغْيِبِهِ فَوَاضِلٌ شَيْئًا لَا نَطْلِقُ لَهَا حَصْرًا
وَطُوبَى لِقَبْرِ أَوْدَعِيٍّ عِظَامَتَهُ فَيَا لَيْتَ تَنَى كَانَ صَدْرِي لَهُ قَبْرًا

وحرم يندب صديقه مولودًا ويتفجع عليه ويبلغ من حزنه أنه يعجب كيف لم ينقض كوكب ولا فارق النور الشمس والقمر ولا زلزلت الأرض ولا أبدت الساعة أشراطها وعلاماتها الكبرى جزعا على موت مولود ، كما يعجب أن الناس لم يشغلهم البكاء على الميت العظيم عن شئونهم ، كأن صرور الدهر ونوابه ما أحدث شيئا ، مع أنها غيبت من لا يستطيع أحد

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٩٦ .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٩٤ .

(٢) الفزالة : الشمس .

(٢) لودعى : عالم ذكى . ندَى : كرم .

(٣) الأشراط : علامات الساعة .

(٣) الميوق : نجم .

(٤) صرور الدهر : خطوطه ونوابه .

(٤) محتفوه : سائلوه وطالبو جوده .

(٥) دهبته : دأبه وعادته .

إحصاء فواضله ، وطوى لغيره أودعوه عظامه ، ويتمنى أن لو كان صدره له قبراً ، وهو يترى رابع . ويقول محمد العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨ م - وكان شيخ طريقة وعالماً فى الفقه والعربية والبلاغة - راثياً الشيخ محمدا الحافظ العلوى قاتلاً^(١) :

سهرتْ جفونكُ والمصاب مسهدُ	يرثى لليلتك السليمُ الأرمَدُ ^(٢)
ورثتْ لك الخساء ، بعدُ متممُ	ورثى ليدٍ يوم فارقَ أرمدا
لمصيبة صدمتْ فؤادى صدمةُ	كادتْ بناتُ الجوف منها تصعدُ
وجرى الدموعُ على الخدود كأنها	نظمَ جرى من سيلكه متبددُ
وتصدعتْ كيدى لها وكثما	بجوانحي منها حريقُ موقدُ
وإذا بكيتْ شجى عليه فإنه	تبكى وتنبه جموعُ حُفدُ ^(٣)
ويكى عليه ليله ونهاره	والصومُ يكى والتجهدُ يزعدُ
وبكتْ بقاعُ كان يبعدُ رأسه	فيها فيركع ما يشاء ويسجدُ

وهو يقول إنه لم يغمض له جفن حين سمع المصاب ، وكثما كل ندب وكل تفجع فى ميت كان فيه ، حتى لكفته لدغ تمرات، وكان تفجع الخساء على أخيها صخر ، وندب متمم لأخيه مالك بن نورة ، وبكاء ليد لأخيه أريد، كل ذلك كان رثاءً حاراً للمصيبة التى نزلت به وصدمته صدمة كادت أعاوزه منها تصعد، وجرت دموعه على خدوده كأنها سلك ، تبددت حياته ، وتشققت كيدى ، وكثما فى جوانحه حريق موقد . ويقول إن الجموع من حوله تبكىه ، ويكى عليه ليله ونهاره ، وصومه نهاراً وتهجده ليلاً ، ويستمر يذكر أن كل شئ ييكىه ، تبكىه صلاته ووضوؤه ومسجده والكتب والأقلام والدواة والمصحف وبقاع الحرمين الطاهرة ويعددها مكاناً مكاناً ، ثم يقول - كما فى البيت الأخير - إنه عَبد ربه فيها وركع وسجد له طويلاً . والمربة بدبعة . ولحمدي بن محمدى العلوى يرثى الشيخ مولود فال منشداً^(٤) :

ما لراجى الخلود نيلُ الخلودِ	إن وردَ المنونَ حَمُ السورودِ
أُتَظَبِّ الحياة والشيخُ أُمسى	غَيَّبَتْهُ مَغِيَّاتُ اللُحُودِ
إن مالى من اصطبارِ تولى	إذ تَوَلَّى إِبْسَانُ عَمِدِ الوجودِ
طودُ علمٍ يَنْحُوهُ كلُّ مُريدِ	من جِماه يَفِرُّ كلُّ مُريدِ ^(٥)
وإذا سُدَّ بلبُ علمٍ عويصِ	كان مفتاحُ بلبه المسدودِ
عِلْمُ الأَصْلِ والفروعُ إلى أنْ	ليس فى العلمِ يَتَنَفَّى من مزيدِ

(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١١ .

(٥) مرید : شيطان .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠١ .

(٢) السليم : الملدوخ . الأرمَد : من أصاب عنه الرمَد .

(٣) حَفْد : حاشدة .

وهو يقول إن الخلود لا يتاله أحد ، إذ كلُّ وارء على حوض الموت مسلم روجه إلى ربه ، ويقول إن الحياة أصبحت لا تطيب وقد مات الشيخ وغِيَتْه اللحود ، وقد تولَّى عنى صبرى إذ فارقتى إنسان عين الوجود ، وهى مبالغة واضحة . ويذكر أنه طود علم كان يؤمه مرهون كثيرين ، ومن حماه وتقاه يفر الشيطان المرء ، وإذا سُدَّ باب علم عوبص معقد كان مفتاح بابه المسدود فما يلبث أن يفتح على مصارعه . وقد علم الأصول والفروع علما لا يلحقه فيه لاحق . وله مرثية أخرى فى محمد الدينج التندغى . ويقول الشيخ سيدنا الكبير المتوفى سنة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٨ م فى رثاء الشيخ الصوفى المختار الكتى وزوجه الصالحة^(١) :

جادتْ سحابُ رَأْفَةِ الرحمن بهواصل التكرم والرضوان^(٢)
وبوصفٍ محض الودِّ والزلفى على جدَّين حلَّ حشاهما الشيخان^(٣)
لاحا وأخلاق الجهالة فحمة وملابس البدع الجداد ماثن^(٤)
والدين منهدم القواعد مركس بأخاوص الطغيان والعصيان^(٥)
فعدا منار الدين بعد تهدم ثبت الأساس مشيد الأركان

وهو يدعو للشيخ وزوجه بأن تهضى عليهما سحاب رَأْفَةِ الرحمن بمنهر التكرم والرضوان وبمحض الود والزلفى على قبريهما ، ويقول إتهما ظهرا ودجى الجهالة فحمة ، وملابس البدع المحدثه لا تمضى ، والدين منهدم القواعد وعاليه مركس بباطن أقدام الطغيان والعصيان ، فأصبح بفضلهما منار الدين راسخ الأساس رفيع الأركان . ويقول محمد بن حنبل الحسنى فى رثاء الشيخ سيدنا الكبير^(٦) المذكور آنفا :

أرى الملة البيضاء جلَّ مُصلُّها ففاضت مآقيها وطالَ اتحابها^(٧)
وقاست بفقد الشيخ وَجْدَ مصلِّه بوأحدها لما تولَّى شلُّها
وأظلم وَجْهَ الأرضِ حتى كُتِّما تردَّت مدادا غوطها وجِدُّها^(٨)
وزلزل أقطار البلاد فأصبحت شواقهها مهترَّة وهضابها
وزعزع أطام المدى وحسونه وقوض فسطاط العلا وقيلُّها^(٩)

وهو يقول إن وفاة الشيخ سيدنا مصاب كبير لشريعة الدين الخنيف ، وكُتِّما قلست حزن سيدة فقدت واحدها أو ولدها الواحد ويقول إن وجه الأرض أظلم وارتدت رياضها

(١) الشعر والشراء فى مورجاتها ص ٣١٦ .

القدم .

(٢) الشعر والشراء فى مورجاتها ص ٣٢٣ .

(٣) هواصل : سائل .

(٤) الملة البيضاء : الدين الخنيف وشرحه .

(٥) جدَّين : فبرين .

(٦) غوطها : رياضها . حدلها : كتبتها .

(٧) ماثن : تكرر ويتردد .

(٨) الفسطاط : الخيمة الكبيرة .

(٩) مركس : مضروب . أخاوص جمع أنصص : باطن

وكبائها مدادا أسود شديدا ، وزلزلت أنحاء البلاد واهتزت جبالها وهضبتها وزعزعت منازل الهدى وحصونه وهُدِّمت خيام العلا وقبائها . وهى مبالغات شديدة فى الرثاء تعبيرا عن مدى الحزن الذى أصاب الشاعر والناس بوفاة هذا الشيخ الصوفى . وتتوقف قليلا لِرثاء أحد شعراء الرثاء .

باب^(١) بن أحمد ييب العلوى

كان أبوه عالما فاضلا ناسكا مشارا إليه - كما يقول الشنقيطى - فى بلده وجبله ، ملحوظا بعين التعظيم فى معشره وقبيله . ويقول عن باب إبه العالم الأوحى الذى أغار ذكره وتُجد . ومراً بنا أنه أكمل كتاب الدياج فى تراجم فقهاء المالكية من القرن الثامن الهجرى حتى القرن الثانى عشر . ولما كُفَّ عمه - وكان قاضيا - ثأله عنه فى قرلة الحديث للطلاب والناس حتى وفاته ، واشتد الخلاف بينه وبين ابن خاله حرَّم الذى مرت ترجمته فى مسألة من مسائل الوقف ، وانضم إلى كل منهما طائفة من العلماء والشعراء ، وكان فقيها محدثا ناسكا . ويقول الشنقيطى عنه : قلما مات أحد ممن يشار إليه فى قبيلته إلا رثاه ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠ م . ومن قوله فى رثاء عبد الله بن حرمة بن الصبار العلوى :

كان عبد الإله برأ تقياً	نزة النفس طاهر الأنساب
صحب الصالحين وهو صغير	لم ينل منه عنوان الشباب
كان برأ بأمة وأبيه	ورفيقا بجاره ذى الجَناب ^(٢)
وهو فى لزبة الزمان ربيع	ذو جفان كُتْهُنْ جولى ^(٣)
كل يوم تراه يدرس علماً	وهو بالليل قائم المحراب

يقول باب إن عبد الله كان صالحا تقيا نزيها عن الصفات طاهر الأنساب ، صحب الصالحين ناشئا فى شبابه ، وكان باراً بأمة وأبيه ورفيقا بجاره البعيد فضلا عن القريب . وفى أيام الشدة والجذب يصبح ربيعا للناس وتكثف مائدته لهم بقصاع كالخياض مترعة بالطعام ، وفى كل يوم يدرس للطلاب والناس علما وفى الليل يخلص لربه مصليا فى المحراب . ويقول فى رثاء محمد بن أحمد الحسنى :

(١) انظر فى ترجمة باب وشعره الوسيط ص ٣٤ والشعر والشعره فى سورحتها ص ٣٠٦ وما بعدها .
 (٢) ذى الجنب : يرد الحميد .
 (٣) لزبة : شدة . الجفان جمع جفنة : القصة .
 الجولى جمع جليلة : الموضع .

فعلُ الجليلِ جميلٌ فأرضَ ما فعلاً
وإذْكَرُ مصيبةَ خيرِ الخلقِ نَسَلُ بها
به نيتُهم - إذْ أُوذِيَ - بنو حِمْيَرٍ
لو ساعدتني القوافي ما تركتُ لمن
رَمَى بِقَلْبِكَ شَجَوًا أَوْ رَمَى جَذَلًا^(١)
إِذَا عَلَيْكَ مُصَابٌ مُعْضَلٌ نَزَلًا^(٢)
يَتَمُّ لِمَنْ يَوْمِينَ وَالْعَافُونَ وَالنُّزَلَا^(٣)
يَرْتَمِي مَقَالًا وَلَا يَشْفِي لِي الْغُلَا^(٤)

وباب يدعو للرضا بقضاء الله وكل ما ينزله بالإنسان من حزن أو فرح ، ويقول إن مصيبة الأمة في خير الخلق رسولها الكريم يحمل كل فرد فيها يتعزى بها عن كل ما ينزل به من مصاب فادح أو كما يقول شديد عسر . وقد أصاب باليتم من يعلمهم من بنى حسن والسائلين والضيفان . ولو ساعدته القوافي ما ترك لراث أو نادب مقالا ، ومهما قال فلن يستطيع شفاء ما يمكنه من حرارة الحزن عليه . ويقول في رثاء زوجته مريم بنت محمد مولود :

هَمُّ تَأْوِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا هَجَمَا
أَضْحَى الْفَرَادُ بِه مِنْ لَوْعَةٍ خَيْلًا
يَكِي عَلَى مَرْيَمَ يَوْمًا وَخَقَّ لَهُ
يَا لَيْلَةَ بَيْتَهَا جَنْبَ الْمَلِيحَةِ لَمْ
حَتَّى دَعَاها إِلَى الْمَسْوِلِ الْمَهِيْمِ مَا
يَا رَبُّ مَرْيَمُ قَدْ وَافَقْتُ وَافِدَةً
قَدْ بَاتَ مِنْهُ بِرَاعِي النَجْمِ مَكْنِيًا^(٥)
وَالْعَيْنُ تَسْكُبُ مِنْ تَلْرَافِهَا دُعَا
أَنْ لَا يَزَالَ عَلَيْهَا بِأَكْبَا وَجَمَا
أَهْنَا وَقَدْ نَامَ عَنِ الْقَبْرِ مُضْطَجِعَا
يَدْعُو الْمَلُوكَ وَيَدْعُو الْأَعْصَمَ الصَّدْعَا^(٦)
فَاجْعَلْ لَهَا جَنْسَةَ الْفَرْدُوسِ مُرْتَبَا

ومريم زوجة باب هصر الموت غصن شبلها في سن الواحدة والعشرين وقد تركت ولديها فاطمة وأحمد وقلبه مشغوف بهما ، وهو يقول إن هُما ظل يعاوده بعد هجوعه قليلا ، وظل سهران يراعى النجوم في غروبها وكأنما أصلبه لشدة لوعته خبل ، وعينه تذرف الدمع مدلرًا ، ويكي على مريم بكاء حارًا ويتوجع وما كان عليه أشد من ليلتها الأخيرة وهو بجوار محبوبته يتجرع الحزن وقد نام الناس جميعا ، ودعاها إلى رها الموت الذي يدعو الملوك والوعول والوحوش الفتيّة ، ويدعو لزوجه ربه أن يدخلها فراديس الجنان . ويستمر في القصيد ويدعو الله أن يلطف بولديها وأن تصل عليها الملائكة وحاملو العرش والأنبياء والمسلمون في صلاة الجمعة وحجاج بيت الله الحرام ، ويسترجع مستسلما للقضاء . والمرثية مؤثرة بالغة التأثير .

والحزن .

(١) شجوا : حزنا . جذلا : مسرة .

(٥) مكنا : مائلا إلى الغروب .

(٢) معضل : شديد أو لا يمكن البرء منه .

(٦) الأعصم الصدع : الوعل الفتيّ القوي .

(٣) العافون : السائلون .

(٤) الغل جمع غلة : حرارة العطش وتستعمل لئلا يوجد

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

فلما يخلو شعر شاعر موريثي من أبيات ومقطوعات - وأحيانا قصائد - تصف تعلقه بفتاة في شبابه ، غير أن شاعرا لم يعش لوصف الحب وتبارحه ، مثل شعراء الغزل العذري في عصر بني أمية من أمثال قيس بن ذريح وجميل أو مثل شعراء الغزل الصريح أمثال عمر بن أبي ربيعة والقرجي ، إنما هي خواطر تلم بالشاعر الموريثي إزاء عاطفة الحب الخالدة في الحياة الإنسانية . ودأب الشعراء على محاكاة أسلافهم من شعراء العرب في التقديم لقصائدهم الطويلة بذكر الأطلال ووصف الأطلال وما يتخلل ذلك من النسيب . ولن نقف في عرضنا للغزل الموريثي عند هذا الجانب لأنه - في واقعه - محاولة لمحاكاة القدماء وقلما حمل تصوير المودة الحقيقية إنما نعرض طائفة بديعة من أشعار الغزل التي انتخبها الدكتور محمد المختار ولد إياه في كتابه الشعر والشعراء في موريتانيا ، ومن أشد له مقطوعات وقصائد طريفة في الغزل محمد بن محمدى وله من قصيدة بارعة^(١) :

فيمن أهيمُ بها يوما لما لاموا	فيمن أهيمُ بها لاموا ولو هاموا
ماسفُت من ذوى الأخلام أخلام	هام الفؤادُ يَمَنُ لولا ملاحظها
بادٍ ومن سَقَم الأَجفان أسقام ^(٢)	تلك التي مِن لَمَّاها مَسَى لَمَ
شوقى وما صدق العُشاقُ إن ناموا	نام الأخلاءُ عن ليلي وأرقنى
تديه فى سِنَةِ الوُسانِ أخلام	مَنْ لى بوصلٍ وإن كان الوصالُ بما
أن تمنح الوصلَ للمشتاقِ أيام	إن تمنح الوصلَ أيامَ لنا فمسى

وهو يقول إن من حولي يلومونى فى هيمى بصاحتى ولو رأوا جمالها الفاتن يوما لهاموا بها مثلى وكفوا من لومهم ، وقد هام الفؤادُ بها لحسنها ولولاه ما سَفُت عقول العقلاء الذين شغفوا بها حبا . وتلك هى التى مَسَى من جمال شفتيها وفتتها ما يشبه الجنون وأصابنى من سقم أجفاتها ما لا يحمد من الأسقام . ويعجب أن نام الأخلاء وهو مؤزق مسهد لأنه عاشق ،

أو شدة .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٩٦ .

(٢) لاما : سمة شفتيها . لم : طرف من الجنون

والعاشق لا يصدق فى عشقه إن نام . ويتمنى وصل صاحبه ، ويقول ما أشبهه بالأحلام يراها
الوسنان فى نعاسه ، ويقول إن كانت أيام لنا لم تسمح بالوصال فمضى أيام أخرى تسمح
باللقاء . وكان يعاصره محمد بن طلبة وسفرد له ترجمة . ويقول المختار^(١) بن محمد الحسنى
من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى :

شأنُ الهجين أن يكوا وأن ينفقوا بين المنازل فليكوا بينها ويقفوا
ما فى البكاء بها عارٌ ولا سرفٌ بل البكاء على غير الموى سرفٌ
إن لم تكن عبراتُ العينِ واكفةً فيها فقى أى دارٍ بعدها تكفٌ^(٢)
والعينُ ما برحتُ من فيضِ غيبتها يسأفها يخفى طورا وينكشف
تُصمى القلوبُ بسَهْمٍ لحظها عَرَضًا إن القلوبَ لسَهْمٍ لحظها هَدَفٌ^(٣)

وهو يقول لصحه إن عادة الهجين إذا أُلوا بديار محباتهم أن يستوقفوا الركب ويكوا
نفقوا وليكوا فى منازل صاحبتى ، وإن لم تسيلْ عبراتى ، فقى أى دارٍ غير دارها تسيل وإن
عبراتى لتهمى حتى ليخفى إسان عيني وراءها تارة ، وتارة ينكشف ، ولها لتصيب القلوب
بسهم لحظها دون قصد حتى لكان القلوب دائما لها هدف . ويقول محمد^(٤) بن حبل الحسنى
المرضى سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م :

اسكُى الدمعَ والعجْرىَ النومَ عيني صرمتَ حبلَ الوصلِ أم حكيمٌ^(٥)
تلك من جرعتِ فؤادى كوسا من هواها تُبتي كالسيم^(٦)
لا تظنُ الظنونُ أنْ مقامى بالتيبيح لأطلاب العلوم
بل لغزيرةُ نهبُ غشيا بشذاها فاشتفى بالشميم
وأرى عينَ من رآها فاطفى لَهَبَ الوجد من خشائِ الكليم

وهو يطلب من عينه أن تسكب الدمع مدرارا وتهجر النوم هجرنا ، فقد قطعت أم
حكيم ما كان بينها وبينه من وصل ، ويقول إنها جرعت كوسا من حبها جعلته بيت
طوال الليل كالملدوغ . ويذكر أنه يبنى أن لا يظن أحد أن مقامه فى جوارها بالنبوع من
أجل طلب العلوم ، وكان شغوفًا بها ، إنما هو من أجل استرواح الريح الغرية التى تعمل
عطر أم حكيم فيشتفى بها أو ليرى عين من رآها فيطفىء نار الوجد المشتعلة فى حنايا
أحشائه . وتوقف قليلا لإزاء بعض شعراء الغزل .

(٤) الشعر والشعراء فى مورختها ص ١٠٥ .
(٥) صرمت : قطعت .
(٦) السليم : الملدوغ .

(١) الشعر والشعراء فى مورختها ص ١٠٣ .
(٢) واكفة من وكفت تكف : تسيل .
(٣) تصمى : تصيب .

هو عبد الله الأحول الحسنى ، كان حسن الأخلاق عالماً باللغة ، ولما وقعت الحرب بين قومه وبين العلويين انحاز فيها إلى قومه وسلّ معهم سيفه ، ونظم فيها أشعاراً كثيرة ضد العلويين ، وما زال حاملاً سلاحه حتى قتل فى إحدى معاركها سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م وتُشد له الشنيطى والدكتور محمد المختار قصائد ومقطوعات غزلية مختلفة منها قوله :

شدوا المهازى بأكوار وأخداج	وأدلجوا تحت ليل أليل داج ^(١)
فأصبحت دورهم قفراً مطلة	تبكى دواى هدبل شجوها شاج ^(٢)
تلوح آثار من بقوا بمعهدها	مثل البرود وشتها كف نجاج
فما علمت ولم أشعر بينهم	إلا يخون من الغرسان شجاج ^(٣)
ثيا ليس نأت عنا بناعمة	غيدلة رثمة المجتلين مضاج ^(٤)

والأحول يقول إن أهل صاحبه شدوا لإبل للرحيل ومعهن النساء فى الرحال والموداج ، وساروا فى ليل شديد الظلام وأصبحت دورهم خالية يبكى فيها المدبل وحملاته بكاء بهير الوجد والشجن ، وآثارهم فى الديار وكثتها ثياب زينها نجاج بما فيها من رسوم وخطوط . وما أعلمنى بينهم وبعدم إلا نيب غرب شديد السواد . ويقول هلاكاً لإبل بمدت عنا بحسائه مختلفة الخلخالين ذات دلال يزيدنا حسناً ، ويقول :

أست معاهد سغدى بالوى درسا	من صوب وذق النوادى بكرة وسنا ^(١)
كم حاورتنى بها حوراء أمة	غرلة من حاورته منطقاً نسا ^(٢)
ألمو بسغدى وسغدى لا يخبيها	نم المريدن تخبياً من الجلّسا ^(٣)
بيضاء من مد فيها العين فاقبست	تحت الدجى من سناها أتكسر القنسا
بل لوراهما أهالى يوسف قطعت	منهم قلوب رجال لا أكف نسا

وهو يقول إن ديار سغدى صاحبه أصبحت عافية من طول ما اتسكب عليها من أمطار السحب صباحاً ومساءً ، ويذكر صاحبه اللطيفة الحسنة وأتته بها وأحاديثها حين كانت

(١) انظر فى ترجمة الأحول وشعره الشنيطى ص ٣٠٤

والدكتور محمد المختار ص ٨٤ وفى مواضع مختلفة .

(٢) المهازى : الإبل . الأكوار : الرحال . الأخداج :

الموداج . أدلجوا : صاروا ليلاً . أليل : شدة السواد .

(٣) هدبل : ذكر الحمام . شجوها : حزنها . شاج :

كثير الحزن .

(٤) بينهم : يطمعهم . جون : نود . شجاج : بكى

من النيب والصباح .

(٥) العيس : الإبل . غيداء : حساء . رثمة المجتلين :

مختلفة الخلخالين . منجاج : ذات دلال .

(٦) درسا : عافية . ودق : مطر . النوادى : السحب .

(٧) حوراء : ذات حور فى عينيها وجمال . غراء :

بيضاء .

(٨) يخبيها : يخذلها . المريدن : للمعين .

تلهو معه غير آبهة بكلام المعجيين الثمانيين ، ويقول إن من يرنو إليها طويلا يشعر كأنما قيس من جمالها المضيء ما يفوق قيس النار حسنا وجمالا بل لو رآها رجال النسوة اللاتي قطعن أيديهن حين أبصروا جمال يوسف لقطعوا قلوبهم انتائا بها . ويقول :

غُرَاءُ لَا يَرْقُبُ الرَّاءُونَ وَجَنَّتْهَا إِلَّا تَنَى النُّورُ مِنْهُمْ جِدَّةَ النَّظَرِ
لَمْ تَذَرِ هَلْ هِيَ مِنْ شَذَرِ مَرْكَبَةٍ أَمْ مِنْ صَرِيفٍ لَجَجْنِ أَمْ سَنَا قَمَرٍ^(١)
كُلُّ تَلَابَسٍ إِلَّا أَنْ يَمَيِّزَهَا مِنْ ذَا وَمِنْ ذَيْنِ وَسَمِ الدَّلِّ وَالْخَفَرِ

فهى بيضاء لا يرمى المصرون وجنتها النيرة إلا صرف نورها حدة النظر إليها لشدة سطوعه كسطوع ضوء الشمس . ويقول إن مبصرها لا يدرى هل هى مركبة من قطع ذهب أم من قطع فضة أم من ضوء قمر ، وكأنما كل ذلك يلتبس بها إلا ما تتميز به من الدلال والحياة اللذين يزيدانها حسنا وبهاء .

محمد^(٢) بن الطلبة اليعقوبى

عشيرة اليعقوبيين أو قبيلتهم فى شنيق وراعى نيرس وريفها من سلالة عون بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وامتاز اليعقوبيون بالتمق فى العلوم الفقهية واللغوية ، وكانت لهم مدرسة تعنى بتدريس هذه العلوم ، فتوارثوا التدريس فيها كما توارثوا القضاء ، وكان أبو الشاعر وجده مدرسين ، فهو من بيت علم ، وعنى أبوه بتربيته ، وكان يذرس للطلاب حينئذ الملققات السبع ودواوين الشعراء الستة : امرئ القيس وزهير والنبغة وطرفة وعنترة وعلقمة ، وديوان ذى الرمة . وأضاف إلى ذلك الطلاب النبهون من أمثال محمد بن الطلبة ديوان الشماخ والأعشى وغيرهما من القدماء . وتمثل ابن الطلبة الشعر الجاهلى والإسلامى تمثلا لانكاد نجد له نظيرا بين شعراء البلاد المغربية على الأقل إن لم يكن بين شعراء العربية عامة ، وتقرؤه وكأنك تقرأ لشعراء الجاهلية المفرطين فى استخدام الألفاظ الغريبة من مثل الحارث بن حنظلة والشماخ وأضرلهم من الجاهليين . وهباً لذلك عند محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موريتانيا أن بيتها كانت تشبه البيعة الجاهلية بصحاريها وبقبائلها الرُّحُل وراء المراعى ومساقط الفيث ، ويللمها وقعامها الراعية وتبارها الأجنة وفى كل بقعة فى المراعى نجد أطلالا وآثارا لمن أقاموا بها فترة ثم زابلوها . وكما يحكى الشاعر الجاهلى من قطع المنافوز على ناقه كذلك يحكى الشاعر الموريتانى مستمدا من واقع حياته الذى لا يختلف عن واقع حياة الجاهليين ، وكاد محمد بن الطلبة لا يترك موضعا

(١) شلر: قطع الذهب . صريف لجين : قطع فضة .
رقد تشد فى كاهه معارضته جميعا وكثيرا من شعره ،
سنا : ضوء .
راجع الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) انظر فى ترجمة محمد بن الطلبة الشنقلى ص ٩٤

فى تيرس ومراعيها ورينها إلا تغنى به . وتغنى طويلا بمسيرة الظعن ، وبين الطاعنات عجوبته ، كما تغنى طويلا بحبوبات الصحراء من إبل وخيل وبقر وظباء ونعام وأتن وحشية مع حمارها ، فالحياة الصحراوية الجاهلية بحذافيرها يتمثلها محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موزنتيا ، وكثما أراد أن يثبت مدى صحراويته فى شعره فاختر قصيدتين للشماخ ولحميد بن ثور الصحليين تكيطان بالغريب ويوصف الحياة الصحراوية وحيواناتها وظننها وعارضهما معارضة رائمة . وبالمثل عارض قصيدة للأعشى ، ولن نسوق أمثلة لغزله من هذه القصائد لكثرة الغريب فيها ، إنما نسوق له أمثلة من غزلياته الأخرى منحني ما ينظمه ممتلئاً بالألفاظ الصحراوية الآبدة ، فمن ذلك قوله مخاطباً عجوبته التى يسميها أم المؤمنين :

كيف التجلد لا تجلدُ بعدما شطتُ بأُم المؤمنين نَواها^(١)
عوجى قليلا ريشما أشكو الذى قد شف نفسى منكُم وِـسراها^(٢)
ما كان ضُرْكُ لو رَدَدْتَ نَحْيَهُ فيها لنفسى - لو رددت - شفاها
واها لما ألبذى لنا يومَ النوى منها السوداعُ وقُلْ مَنا واهَا^(٣)
بليت شعرى والفراقُ موكلٌ بالعاشقين متى يَكُونُ لقاهَا

وهو يقول كيف التجلد للأسى والصبر بعدما أوعلت بها النوى وبعد الدار ، ويتمنى لو كانت وقفت له قليلا ليشكو لها شغوف نفسه وضنا جسمه بمحبها ، ويقول إنه حبها ولم تحبه ولو حبه لشتت نفسه مما يضطرم فيها من الألم ، ويتفجع لوداعها يوم الفراق ويتمنح متمنيا لقاءها بعد هذا الفراق . ويقول :

لا القلبُ عن ذكر أم المؤمنين سلا ولا أرى عادلاتي تترك العذلا^(٤)
بل لا أرى لوم من يلحو ومن عذلا إلا يزيدُ على الهَمِّ والخِـلا
ولا أرتى أرى رَسَما ولا طَللا إلا وساءلتُ عنها الرسمَ والطللا
هى التى أنا لا أبهى بها بدلا وتبلى الوصلَ منها تبلى الأملا

فهو لن يسلو صاحبه مهما لامت اللاتيمات ، بل إن لوم من يلومه إنما يزيد هـما وجنونا بمحبها ، ويقول إنه لا يرى رسما ولا طلالا إلا سأل هـ عنها كَثَمًا تملأُ عليه جميع البقاع ، ويؤكد أنه لا يبنى بها بدلا لها إذ نيل وصلها نيل أمله فى دنياه . ويقول فيها :

(١) التجلد : الاحتمال فى صبر . النوى : الفراق .
(٢) عوجى : ترقى وميل . برها : نَحَلها .
(٣) واهَا : كلمة تقال فى التفجع وفى العجب .
(٤) العذل : اللوم ، ومنه العاذلات .

إِنَّ قَلْبِي مَتَّيْمٌ بِالْحَسَنِ
 كُلُّ يَضَاءٍ خَذَلَهُ السَّاقِ رُودٌ
 جَعَلَتْ فَرْقَ نَخْرِهَا لِلشَّذَرِ وَالسُّدْرُ وَنَاطَتْ قَلَانِدُ الْمَرْجَانِ^(١)
 غَيْرَ نَمَى مَا إِنَّ وَجَدْتُ كَأَمِّ الْمُؤْمِنِينَ الْعَرُوبَ فِي النَّوَانِ^(٢)
 وَلَهَا مَنْطَقٌ لَوْ أَصْنَى لَهُ الرُّهْبَانُ أَصْنَى مُشَايِخِ الرُّهْبَانِ^(٣)

وهو يقول إن قلبه مشغوف بالحسان ذوات الحسب والنسب من قبيلة حسان الشنقيطية ،
 فكل فناء يضاء منها ممتلئة الساق شابة فاتنة تمايل تمايل غصن البان على شجرته ، وفوق نحرها
 شذور الذهب واللؤلؤ وقلائده ، وفاتتتهن أم المؤمنين الجميلة ذات المنطق الجميل الذى لو
 أرهف الرهبان السمع إليه لأصباحهم ومالوا إليها إعجابا . ولابن الطلبة وراء ذلك غزليات كثيرة .
 وقد توفى سنة ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٦ م .

يقوى^(٥) الفاضل

ذكر الدكتور محمد المختار فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا طائفة من الشعراء الغزلين
 فى القرن الثالث عشر المجرى وما لهم من قصائد ومقطوعات غزلية مثل المجدد المجلسي
 والمأمون اليعقوبى ومحمد بن السالم والمختار بن محمد الحسنى والهادى العلوى ومحمد بن بلكر ،
 وقال من أفضلهم وأجودهم شعرا يقوى الفاضل الذى ذكر عنه أنه توفى سنة ١٣٠٣ هـ /
 ١٨٨٦ م وقال إنه شاعر رقيق مطبوع ، وتشد له قصيدتين غزليتين ، وفى أولاهما يتنزل فى
 صاحبه سليبي مشدا :

زَعَمَ الْجَاهِلُونَ أَنَّ عَهْدًا
 أَوْ مَنَحْتُ الْوَدَادَ غَيْرَ سَلِيمٍ
 مَا تَمَيَّرْتُ لَا وَلَكِنْ عَدَلْتِ
 وَمَهَارٍ تَهَابُ - إِنْ نَظَرْتَهَا -
 قَدْ تَجَسَّمْتُ هَوْلَهَا أَتَخَطَّى
 كُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا نَسَاها
 لَا وَمَنْ زَيْنُ السَّمَاءِ وَنَبَاهَا
 عَنْ لِقَائِهَا أَجَلُ مَا عَدَلْتِ^(١)
 غَنِيَّ مَجْتَازَهَا الْجَلِيدِ سُرَاهَا^(٢)
 لَسَلِيمِي حَتَّى دَخَلْتُ حِمَاهَا

موريتانيا ص ٩٩ وما بعدها ونظر فى وقته وتاريخها
 ص ٧٤ .
 (١) عدلى : شغلنى .
 (٢) مهو : جمع مهوى يبرد مفاوز يسقط فيها
 الإنسان ويهلك الجليد القوي : التحمل للشفقة
 بصير . السرى : السير لئلا .

(١) خذلة الساق : مبتلة . رود : شابة جميلة .
 (٢) الشفر : قطع الغصن . الدر : اللؤلؤ . ناطت :
 علت . المرجان : حجارة كريمة يضاء وحراء .
 (٣) عروب : لطيفة .
 (٤) أصنى: جعل مشايخ الرهبان تصلى وتكلم للموى
 (٥) نظر فى غزل يقوى الفاضل الشعر والشعراء فى

وهو يذكر أن من لا يعلمون مدى حبه لما ظنوا أنه نسي ما كان بينه وبينها من عهد أو أنه منح حبه لأخرى ويقسم بمن زين السماء بنجومها وكواكبها أنه ما نكث عهدها لها ولا تغير . إنما شغله عنها أخطر مما شغلها وما يقوم دون لقاءها من مغازات مهلكة ، بهاب الجليد الجريء الصلبر السرى والسر فيها ليلا ، وقد تحمل هولا متخطيا من مغارة إلى أخرى حتى دخل ديارها وجماها ، يقول :

وتَمَيَّزَتْهَا فَدَلُّ عَلَيْهَا فِي الدُّجَى طَيْبُ نَشْرِهَا وَبَرَاهَا^(١)
فَعَلَّتْني مَهَابَةٌ وَوَجُومٌ مِنْ لِقَائِهَا وَمَا عَلَانِي غَلَاها
وَأَشَارَتْ بَأَنِّ فِي الْبَيْتِ نَاسًا يَنْشُرُونَ الْحَدِيثَ عَمَّنْ أَتَاهَا
قُلْتُ لَأَلْهَمًا وَصَلْتُ قَالَتْ تَنَحَّ قَبْلَ دَهِيَاءَ مُعْضِلِ أَلْفَاهَا^(٢)
وَصَفَا بَيْنَنَا الْحَدِيثُ وَقَالَتْ لَا تُعَذِّبْ نَيْلَهَا وَأَلْقَتْ عَصَاهَا^(٣)
نَمْ بَيْنَنَا بَقِيَّةَ اللَّيْلِ نَلْهَوُ بِأَحَادِيثَ لَا يُعَلِّ جَنَاهَا^(٤)

وهو يقول إنه بحث عن سلمي ودله في الليل طيب عطرها وأصوات أساورها وخليلها ، ويذكر أنهم حينما تلاقيا علتها مهابة ووجوم وأشارت إليه أن في البيت ناسا يذيعون الخبر عن أتائها وتخشاهم ، فقال لها لقد تحملت مشاق حتى وصلت إليك فقالت له : الزم ناحية لا تظهرك قبل أن ألقى داعية لا أستطيع النجاة منها ، ونازعها الحديث وصفا بينهما وقالت له لا تكرر مثلها ، وباتا بقية الليل بنعمان بأحاديث شتى . والقصيدة سلسة مثل هذا الحوار بينه وبين سلمي . ويقول في قصيدته الثانية :

مَغَانِي سَقَاتِي الدَّهْرِ فِيهَا عَلَى الظُّمَأِ كُوسَ الْمَنَى مِنْ كُلِّ أَحْوَرٍ أَهْيَا^(٥)
لَعَمْرِي لَنْ أُمَسَّ عَفَاءً لَفِي الْحَشَا لَهَا مَنَزَلٌ لَمْ يَغْفُ قَطُّ وَمَا عَفَا
وَنَاهِدِي تَجَلَّوْا أَغْرُ كُنَّا يَتَرَيَايَهَا صَبُّ الْمُهَيْمِنِ قَرْقَفَا^(٦)
عَلَى وَجْتِهَا قَدْ جَرَى مَتَحِيرَا وَلَيْتَهَا مَاءُ الْمَلَاةِ وَالصَّفَا^(٧)

يقول إنها مغان أو منازل طالما سقاها الدهر فيها - وهو ظلمي - ككوس المنى من كل يضاء ضامرة الخصر فاتنة ، ويقسم إنها إن كانت قد عفت وأصبحت أطلالا فإن منزل صاحبه ودارها في حشاه لا يهفو أبدا . ويصف صاحبه بقها شلبة تفتقر عن ثمر مشرق وكُنَّا امتزج رضاب ريقها بخمر مسكرة ، ويقول إن رونق الملاحة والصفاء يجري مترقفا على وجنتيها ولُبَّتْها الجميلة .

-
- (١) نشرها : عطرها . البرى : الخلائيل والأساور .
(٢) دهياء : دليمة . معضل : شديدة .
(٣) ألقت عصاها : أطلقت واستسلمت .
(٤) الجنى : الثمر الحلو .
(٥) أهيف : ضلر . ذكر الصفة لضرورة الشعر .
(٦) ناهية : شابة . أغر : أبيض يبرد تيرا أبيض .
(٧) ليتها : موضع القلادة من الصدر .

شعراء التصوف

عرفت موريتانيا التصوف كما عرفته الأقاليم الإسلامية جميعا ، وكان يشيع فيه مذهبان : مذهب فلسفى يؤمن أصحابه بالاعتقاد مع الله والفناء فيه وأيضا بحلوله فيهم ، ومذهب سنى يقف عند أداء الفرائض الدينية والتوافل والإخلاص العميق لله وعجته عجة صادقة . وطبعى أن لا يمتلئ الموريتانيون بالمذهب الأول ، لأنهم لا يتفلسفون بل يعيشون معيشة أقرب إلى الفطرة ، فلم يعتنق المذهب الصوفى الفلسفى عندهم أحد ، ونفس معتنقه فى الأقاليم الإسلامية الأخرى كانوا دائما أفرادا ولم يصبح موجة عامة فى أى بيئة عربية ، إنما الذى أصبح له ذلك المذهب الصوفى السنى ، وأخذت تظهر فيه طرق منذ القرن السادس الهجرى ومن أهمها الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٦ م وشاعت فى المغرب ، ونجد شعراء موريتانيا يذكرونها ويشيدون بشيخها أحيانا . وأهم منها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى نبي الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وقد انتشر شيوخها فى البلاد المغربية ، وكانت أكثر شيوعا فى موريتانيا من الطريقة القادرية ، وأوسع منهما جميعا الطريقة التجانية المنسوبة إلى أحمد التيجانى المتوفى بفلس سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م إذ يبدو أنها انتشرت فى موريتانيا انتشارا واسعا لكثرة من نجدهم من الشعراء يشيدون بها ويمؤسها ويدافعون عنها دفاعا حاراً ، من ذلك قول محمد بن عبد الله العلوى منها بطريقته وولايته^(١) :

طالع جواهره واصحب رسائله وما يث من الأنوار والحكم
تجد ولايته لاحت معالمها كما ترى فى الدجى نار على علم

وهو يشيد برسائل له فى النزعة الصوفية ولعله يريد بجواهره ورده الذى يُقرأ فى الصباح ، وينوه بولايته التى شاعت له فى الآفاق كما تشيع أضواء نار على قمة جبل عال . ويقول عبدالله بن أحمد دام ، وهو من أتباع طريقته مثل سالفه المعاصر له مدافعا عنه ضد خصوم طريقته^(٢) :

من كان فى مذهب التجالو مُتَمَرِّبًا فلتنى لكمال الشيخ معتقد
من ينظر الكُعب التى أفاد بها ينظر كلام حق كله رشد
أما الذين تعاطوا ورده فلقد أعيا على العد حصرا منهم القد

(٢) الشنطى ص ٢٨٩ .

(١) الشنطى ص ٣٣ .

فهو من المعتقدين في إمامة أحمد التيجاني الصوفية وقطبيته ويقول إن من ينظر في رسائله ومؤلفاته يعرف روعة كلامه وصدقته وتصوفه الحق ، ويذكر أن من اعتنقوا طريقته ويقروا بورده يفوتهم العبد والإحصاء . ويقول محمد بن عبد الجليل العلوي^(١) :

إنا حماة طريق أحمد شيخنا ونجيب عنه المنكرين ومن جفا
ونريد للمادى عليه صوارما وأسود غاب في الكريهة زحفا^(٢)

وهو يذكر عن نفسه وشيخه التيجاني أنهم حماة طريقته يذودون عنها بالحجج الدامغة وبالسيوف القاطعة تحملها أسود غاب ضاربة . ونقف قليلا بإزاء شيخين موريتانيين من شيوخ التصوف .

المختار^(٣) الكنتي

من ذرية عقبة بن نافع والى المغرب ومؤسس مدينة القيروان ، يقول الشنقيطي عنه : « كان من أفراد عصره علما وصلاحا ، ولم نر أحدا يطن في ولايته سوى المختار بن بون كان يشدد التكبر عليه إما بلغه من أن الشيخ الكنتي يسلمه . ورجع عن ذلك وصارت بينهما مكاتبات وملاحظات ، ويقول الشنقيطي : « على أنه لا يوجد ولي إلا وتنكر عليه أشياء من العلماء » ومن نظر في كُتبه سواء كانت في الحقائق الصوفية أو غيرها يبين له فضله ، وفيه يقول محمد بن الأمين :

وأخرجه ذر العرش للناس نائبا عن المصطفى والأمر فاش وذائع
ويوضع من ندى المعارف من أنى مریدا ولم ترضع كذاك المراضع

وهو يقول إن الله أخرجه نائبا عن الرسول في هداية الناس ، وهي مبالغة واضحة . ويذكر أنه يغذى مريديه الكثيرين الذين يأخذون العهد عليه من المعارف الربانية غذاء لا يماثله أى غذاء لشيخ من شيوخ الطرق الصوفية . وقد توفي سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١٢ م . وله يدعو إلى العمل الصالح استمدادا للآخرة :

أيقظ جفونك إن القلب وسنان وجِدْ شوقا إلى أخراك مبتدرا
وأعمل لدار بها اللذات قاطبة ظل وماء وأزهار مفتحة
فيعان مسك بها الأنهار جارية وصم العزم إن العزم كسلان^(٤)
إن اللبيب إلى أحسراه حنان^(٥) رَوْح رراح وراحات وريحان
عن الكمائم أشكال وألوان خمر وماء وماذى وألبان^(٦)

(٤) وسنان : نام .

(٥) حنان : مشاقق .

(٦) ماذى : صل صفى .

(١) الشعر والشراء في موريتانيا ص ٢٧٨ .

(٢) صوارم سيوف قاطمة .

(٣) انظر ترجمة المختار الكنتي وشعره في الشنقيطي

ص ٣٦١ والشعر والشراء في موريتانيا ص ٣٩٠ .

وهو يدعو التائبين عن العمل للآخرة أن يفتحوا عيونهم ويعزموا عزيمة صادقا على العمل لها والجد فيه فالعاقل من بادر إلى ذلك اشتياقا للآخرة ، وعمل لدار الخلد المشتملة على جميع اللذات من راحة وخمر ومسررات وريحان عطر ، وظل وماء جار وأزهار عيقة أشكال وألوان وقيعان مسك تجرى من تحتها الأنهار وخمر غير مسكرة وعسل مصفى وألبان ، ويسترسل فى وصف من بالجنة من الحور العين منشدا :

يَبْضُ نَوَاعِمُ بُكَارٍ مَنَعَةٍ تَحَارُ فِيهِنَّ أَلْبَابٌ وَأَذْهَانُ
تَمْرٌ قُلْنَ مِنْ سُندُسِ الْفِرْدَوْسِ فِي حُلُلٍ مِنْ فَوْقِهَا حُلُلٌ مِنْ تَحْتِهَا بَانُ^(١)
نَشْأَنُ وَنَطْ مَقَاصِيرِ مَزْخَرَفَةٍ لَمْ يَطْمِئِنَّا بِهَا إِسْ وَلَا جَانُ^(٢)
رَيْقٌ لَذِيذٌ وَأَنْفَاسٌ مَعْطَرَةٌ وَمَنْطِقٌ سَاحِرٌ الْأَنْفَاسُ قُتَانُ
مَهْوَرَهْنُ صَلَاحٌ دَائِمٌ وَتَقَى زَهْدٌ وَصَبْرٌ وَإِخْلَاصٌ وَإِيمَانُ

وهو يستمد فى وصفه للحور العين من سورة الرحمن فى القرآن الكريم ، يقول إِبْنُ يَبْضٍ نَاعِمَاتٌ بُكَارٍ مَرْفَافَاتٍ تَحَارُ فِى جَمَالِهِنَّ الْعُقُولُ وَالْأَلْبَابُ يَتَخَيَّرْنَ فِى حُلُلِ الْفِرْدَوْسِ السَّنْدِيَّةِ ، وَقَدْ نَشَأْنَ فِى غُرَفٍ مَزْخَرَفَةٍ ، لَمْ يَلَامَسْنَ إِسْ وَلَا جَانُ ، رَيْقِهِنَّ لَذِيذٌ وَنَفْثِهِنَّ شَذَى وَعَطَرُ ، وَيَتَحَدَّثْنَ حَدِيثًا سَاحِرًا قُتَانًا ، وَمَهْوَرَهْنُ صَلَاحٌ وَتَقَى وَزَهْدٌ وَتَقَشُّفٌ وَإِخْلَاصٌ لَهُ وَدِينُهُ الْخَفِيفُ وَإِيمَانُهُ صَادِقٌ .

الشيخ سيدياً^(٣)

هو الشيخ سيدياً (بتشديد الياء ومدّها) بن المختار بن الهيب التندغى الألبيرى ، يقول الشنقيطى : « هو العَلَمُ الذى رُفِعَ عَلَى أَهْلِ قَطْرِهِ ، وَاسْتَظَلَّ بِهِ أَهْلُ دَهْرِهِ .. اِشْتَقَلَّ فِى شَبْلِهِ بِالْعُلُومِ وَبَرَعَ فِيهَا بِمَلَازِمَتِهِ لِأَسَاتِذَةِ حُرْمِ بْنِ عَبْدِ الْجَلِيلِ الْعُلُوى . وَلَمَّا تَضَلَّعَ مِنْ عِلْمِهِ شَدُّ الرِّحَالِ إِلَى الشَّيْخِ الْمُخْتَارِ الْكُتْبَى بَارِزِوَادٍ .. وَلاَزَمَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ مَاتَ الشَّيْخُ الْمُخْتَارُ فَبَقِيَ عِنْدَ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ خَلِيفَتُهُ فِى الطَّرِيقِ الصُّوفِىِّ ، وَلاَزَمَهُ عِشْرِينَ سَنَةً حَتَّى بَرَعَ فِى مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ ، وَرَجَعَ إِلَى قَبِيلَتِهِ أَوْلَادُ كَيْسَرٍ فَتَلَقَّوْهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وَاعْتَرَفُوا بِفَضْلِهِ . وَلَمْ تَزَلْ فُضَائِلُهُ تَنُمُو حَتَّى أَذْغَعَتْ لَهُ قِبَائِلَ الرُّوَايَا وَحِصَانٌ وَصَارَ مِثْلُ الْمَلِكِ بَيْنَهُمْ فَلَا يَرُدُّ أَمْرُهُ ، وَكَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ كَرَمًا وَحِلْمًا وَعِلْمًا ، وَلَمْ تَزَلِ الدُّنْيَا تَنَالُ عَلَيْهِ . وَجَعَلَتِ الْعَرَبُ مَنَزَلَهُ فِى أَرْضِ شَنْقِيطِ حَرَمًا أَمْنَا ،

(١) يرفلن : يتخترن . بان : شجر يشبه به الحسان فى جمال القوام .
(٢) يطمئنا : نطمئنها .
(٣) انظر فى الشيخ سيدياً الشنقيطى ص ٢٤٠ والشعراء فى موريتها ص ٣٩١ وما بعدها وفى مواضع منفردة .

ولم يكن يمضى عليه يوم إلا وعنده آلاف من الناس يطعمهم ويكسوهم ويقضى جميع حوائجهم
ومأربهم .. وكان تلاميذه ومريدوه يحاولون أن يقلل من هذا الكرم القياض فلا يستمع إليهم
إلى أن توفي سنة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٨ م . وكان شاعرا بارعا ، وله من قصيدة :

رَضْتُ إِلَى مَوْلَايَ جُلَّ شَكْوَى	وَلَمَكْتُ نَشْلَ عَصِهِ مِنْ بَلَى
بَلَيْتُ وَهْلَ يَتْلَى مَرِيدَ بَثْلٍ مَا	بَلَيْتُ بِهِ مِنْ حَبْسِ نَفْسٍ غَوِيَّةٍ
حَجَابَ عَمَلَهَا عَنْ شُهُودِ صِفَاتِهَا	بِهِ حُجِبَتْ عَنْ مَشْهُدِ الْأَحْدِيَّةِ
لِذَلِكَ أَفْنَتْ جِدَّهَا وَاجْتِهَادَهَا	وَمَرَّغَتْهَا فِي الْفَقَائَاتِ الدُّنْيَةِ
صَحْنٌ مِنْ سَحَابِ الْوَلَدَاتِ سَمَاوَهَا	بَصْفُو رِيَّاحِ الْمَاجَسَاتِ الرُّودِيَّةِ
مَدَدْتُ إِلَيْكَ الْكَفَّ يَا خَيْرَ وَاهِبٍ	فَلَا تَحْرِمْ الْخَيْرَ الْمُقَاسَرَ يَدُنِي ^(١)

وهو يقول إنه رفع شكواه إلى ربه ضارعا إليه أن ينقذه من بلته ، وهل يتلى مريد عب
ر به بمثل ماثل به من نفس خبيثة ممعنة في التوابع إيمانا حجبها عن مشهد الصوفى لأحدثه
والتحاده بره ، ويقول إنها جعلت كل همها واجتهادها في المتاع الفنى ، مما جعل الولادات
الربانية تنحسر عن سماتها بهبوب رياح الخواطر الرديئة . ويضرب إلى ربه مادداً كفيه أن لا يحرم
يده من خيره الذى يفيضه على عباده ، ويريد الخير الصوفى من النسك له والاعتماد به والفناء
فيه . وله دعاء طويل يستهل به قوله :

يَا وَاسِعَ الرَّحْمَاتِ يَا قَاحُ	يَا مَنْ دُعَاهُ لِبَلِيهِ مَفْتَاحُ
يَا بُرُّ يَا رِزَاقُ رِزْقِكَ شَامِلُ	تُغْذِي بِهِ الْأَرْوَاحَ وَالْأَشْيَاحُ
يَا فَارِجَ الْهَمِّ الْمُرْبُ وَكَاشِفَا	كَرْبِ الْعَبِيدِ إِذَا دَعَوْكَ وَابْحَا ^(٢)
فَرْجِ كَرْوَبَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعِهِمْ	وَأَغِثْ بِمَا لَمْ بِهِ إِصْلَاحُ
فَتَتِ الْمَغِيثُ وَفَتَتِ ذُو الرُّحْمَى الَّتِي	بَنَزَلَهَا شِدْدَةُ السُّورَى تَزَاحُ ^(٣)
تِلْكَ الْأَرْضَى وَهَذِهِ وَنَجَادُهَا	جُرْزُ بِهَا تَخَافُ الْأَرْوَاحُ ^(٤)

وهو يدعو ربه قائلا : اشملى برحمتك الواسعة واتح لى باب الرزق الملقى ، يا من يستجيب
للداعين ، يا محسن ، يا رزاق رزقا شاملا للناس وغير الناس ، يا فارج الهم المقيم وكاشفا غم
العبيد فرج كروب المسلمين وأغثهم بما يصلحهم ، فتت المغيث الرحيم الذى برحمته تزول
كل الشدائد . ويصور الشدائد فى شفيط ومراعى تيرس وريغها ، فالأراضى منخفضةا
ومرتفعاتها أعلجت ، ولم يعد بها إلا رياح تهب يمينا وشمالا ويقول إن البهائم لا تجد ما ترعاه

(٤) جزز : مجلبة . تتخاف : تضطرب . الأرواح :
الرياح .

(١) يدنى : تصغير يد .

(٢) المر ب : المقيم .

(٣) شدد جمع شدة .

وأصبحت عجافا مهزولات ، ويضرع إلى ربه طويلاً أن يرسل على البلاد سحياً تندفق بالمطار ،
فينبت الزرع ويمتلئ الضرع ، وتنشأ الرياض وتجدو الأشجار ويروى الظمان ويشبع الجائع
ويعم رخاءه لا يشوبه بؤس ولا شقاء .

٣

شعراء المدائح النبوية

بدأت هذه المدائح في حياة الرسول ﷺ على لسان حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة
وكعب بن زهير وأضرابهم ، وأخذت تتكاثر في العصر العباسي على لسان أهل السنة مصورين
في الرسول المثل الأعلى للمسلم في تقواه ونسكه ودعوته لرسائله وجهاده العظيم في نشرها ،
وبالمثل على ألسنة الشيعة مرددين أن نوره المهدى سرى في أمتهم . وأخذ المتصوفة - منذ
الحلاج - يشيرون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ مبدأ الوجود الروحي للحياة البشرية ،
بل مبدأ النور والوجود في الكون . ويشيد المادحون له دائماً بمعجزاته المبثوثة في كتب السيرة
النبوية ومعجزته الكبرى الخالدة : القرآن الكريم . وعادة ينهون مدائحهم بالتماس الشفاعة
منه يوم القيامة وأن يغفر الله لهم ذنوبهم . ومنذ نشط الشعر في موريتانيا نرى شعراءها - مثل
شعراء الأقطار الإسلامية - يتغنون بمدح الرسول ﷺ مصورين سيرته ومعددين مناقبه ومعجزاته
الباهرة وجهاده الرائع في نشر رسالته وجهاد أصحابه ، مع التوسل إليه في غفران ذنوبهم
والشفاعة يوم القَرَض . وتكثر هذه المدائح في الشعر الموريتاني ، ونختار بعض أمثلة مع الترجمة
لبعض من برعوا في نظمها ، فمن ذلك قول محمد بن عبد الرحمن الحسني - من شعراء القرن
الثاني عشر الهجري - في مدح الرسول ﷺ (١) :

فإن لم تكن لي خيمةٌ حول رَمِيهِ	فهذا هواهُ في فَوَادِي خِيَمِ ^(٢)
ويا لَيْتَ خَدْيَ كَانَ مَوْطِيءَ نَعْلِهِ	وصدري ضَرْبِحاً جامعاً منه أَعْظَمُ
وما مثله البحرُ الخِصْمُ تَكَرُّمًا	ولا كَتَابُهُ البُرُوقُ تَبَسُّمًا ^(٣)
ولو قَسَمْتُ ضَوْءًا وجوداً وجِزَاةً	بشمسٍ وضُرْغَامٍ ووَلَلٍ متى هَمَّتْ ^(٤)
لكنتُ كمن قد شُبَّ الشمسُ بالسُّهَا	وبالطُّلِّ وكَأَنَّا وبِالْمِرِّ ضَيْغَمًا ^(٥)

وهو يقول إن لم تكن لي خيمة أعيش فيها حول قبره فإن هواه خيم في فَوَادِي واستقر
به ، ويحسنى لو عاش في زمنه وكان خديه موطيء نعله وصدره قبراً لأعظمه العطرة ، ويقول

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ١٤٣ .
(٢) رسمه : قبره .
(٣) الخِصْم : الواسع الزاغر .
(٤) ضُرْغَام : أُنْد . ول : مطر غزير . همي : سال .
(٥) السُّهَا : كوكب صغير . طل : مطر قليل .
وكاف : مطر منهزم . ضَيْغَم : أُنْد .

إن البحر الواسع الزاخر لا يماثله كرمًا ولا البروق المضيفة تماثل ثنابها تبسما وإشراقا . ولو قاسه أحد بالشمس لكان كمن يقيس الشمس بنجم السُّهّا الضئيل ، ولو قاسه بالزُّهْل والمطر الغزير لكان كمن يقيس الطُّلّ بالغيث المنهمر ، ولو قاسه أيضا بأسد لكان كمن يقيس الهر بأسد شديد الضراوة . ولغالى بن المختارقال البوصادى - من شعره النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى - مدحتان رائعتان فى الرسول يقول فى إحداهما^(١) :

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْزَيْنِ سَيِّدُ مَنْ يَمْشَى عَلَى الْأَرْضِ مِنْ حَافٍ وَمُتَمِّلٍ^(٢)
عَمَدُ سَيِّدِ الْأَنْطَارِ سَيِّدُ مَنْ حَازَ الْعُلَا مِنْ ذَوَى الْأَمْصَارِ وَالنَّقْلِ^(٣)
مَنْ لِلْعَصَا شَفِيعٌ لِلْمُضَامِ جَمِىٍّ لِلْمُسْتَيْنِ رَيْعٌ كَالْحَيَا الْمَطْلِلِ^(٤)
لِلْمُهَنْدِسِينَ سَنًا لِلْمُرْمِلِينَ غِنَى عِلَاوُهُ فَسَوْقُ كُلِّ الْمُرْسِلِينَ عَرٍ^(٥)
يَدَّرُ حُلَاةً بِهِ الْآفَاقُ حَالِيَةً لِلْمَشْتَكِينَ مَنَى لِلْمُرْسِلِينَ وَلَى^(٦)

وغالى يقول محمد سيد الدنيا والآخرة وسيد كل من يمشى على الأرض حافيا ومتعلا وسيد الأنطار وسيد كل من حاز شرفا من البدو والحضر ، شفيح العصاة حمى لهم ، وللمجتلين ربيع كالغيث المنهمر ، وهو نور مشرق للمهندسين ، وغنى للفقراء المُعْزِزِينَ ، ومنى للمشتكين السائلين وسيد الأنبياء والمرسلين ، إنه يدَّرُ ازدادت بأضوائه الآفاق ، وقد علا علاؤه وشرفه فوق كل المرسلين . وللأحول الحسنى مدائح متعددة للرسول ﷺ ، ومن قوله فى إحداها^(٧) :

قُدُوةُ الْأَنْبِيَاءِ قُطْبُ رَحَى الْكَوْزِ وَبَشِيرُ الْوَرَى مُنْقَلَبُ الْإِبْهَادِ
وَسِرَاجُ الْوَرَى الْمُنِيرُ الْمُحْيَا وَبَشِيرُ الْوَرَى النَّذِيرُ الْعِبَادِ
وَكِتَابٌ عَلَيْهِ نُزِّلَ الدِّينُ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْعِبَادِ
بَشَّرَتْ آيَةُ وَقَدَّرَتْ النَّاسُ مِنْ بَوَعْدِ الثَّوَابِ وَالْإِبْهَادِ
وَفَنُونَ مِنَ الْبَلَاغَةِ نَفْثَى بِلْغَاءِ الْجَوَابِ فِى كُلِّ نَادِ

وهو يقول إن الرسول القدوة المثل للأنبياء ومحور حركة الكون وإنسانُ عَيْنِ الْإِبْهَادِ والخلق . وواضح أن هذا البيت الأول يستمد من فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود وروحه ، ويقول إنه سراج البشرية ذو الوجه المنير ، وقد أرسله الله بشيرا ونذيرا للناس ، وأُنْزِلَ عليه القرآن شفاء ورحمة لهم يشرهم بثوبه وينذرهم بإبعاده أو عقابه ، وقد حوى من فنون البلاغة ما أعجز البلغاء فى كل ناد وجماعة عن معارضته والإتيان بمثله . ويقول محمدى العلوى مولدية نبوية بديعة ، منها قوله^(٨) :

-
- (١) الشعر والشعراء فى موريتها ص ١٥٠ وما بعدها .
(٢) الكوزين : الدنيا والآخرة .
(٣) ذور النقل : البدو الرحل .
(٤) المستين : للمجدين . الحيا : الغيث .
(٥) سنا : ضوء . للمرسلين : للفقراء .
(٦) حالية : مزدقة . ول : سيد .
(٧) الشعر والشعراء فى موريتها ص ١٦٥ .
(٨) الشعر والشعراء فى موريتها ص ١٧١ .

شهر النبی اُحمَد

شهر العلا والسودد

أهلا بشهر المولد

شهر ربيع الأول

وقائد وحاد

لمهج الرشاد

أهلا بشهر الهادي

إلى الطريق الأمتل

وطيب ذلك السحر

فيه ويوم الأغر

أهلا بليل اثني عشر

ونور أفقه الجلى

والمدة بديعة ، وهو يرحب بشهر المولد للنبي : شهر العلا والفخر والمجد ، شهر الحبيب المصطفى شهر مولده : ربيع الأول ، شهر الهادي إلى الرشاد والقائد والهادي إلى الطريق المستقيم . ويرحب بليلة ميلاد الرسول ليلة اليوم الأغر الشريف الثاني عشر ، وما نشر سحرها من طيب عطر ونور منتشر في أفقه بل في كل الآفاق . ويقول محمد بن الشيخ سيد الأبيري خليفة أبيه في الطريقة الصوفية والمترجم له بين شعراء الفخر مدحة مولدية بارعة ، منها قوله^(١) :

أهلا بميلاد مولود به كملت	بشرى البشائر للبادي وللقرى
أكرم بها ليلة غراء ضاحية	فيها يتيمة سيمط اللؤلؤ الأدي ^(٢)
أكرم بها ليلة غراء مظهرة	سر الوجود الذي فيه الوجود طوي
لولا ما أنزل الذكر الحكيم ولا	الدين القويم ولا ما في الصالح رؤي
ولا أقيمت من الإسلام قاعدة	ولا بدا فضل سني على حنوي
ولا لبان ياتي معانيه	ولا نخو نخوي ولا لغوي
لولا لم يغلب الروم الغلاب ولا	ملوك ساسان تيمى ولا غدوي

وهو يهلل لميلاد الرسول الذي به تمت بشرى البشائر لكل بدوي وحضري ، ويقول ما أكرمها من ليلة شريفة مضية يتيمة عقد اللؤلؤ الفريد المتنى إلى لوى بن غالب جد الرسول ، وما أشرفها من ليلة أظهرت سر الوجود ومبدأه الذي استمد منه الكون وجوده ، إنه العلة الأولى والسر الأول في خلق الوجود ونشوء الكون ، وللرسول بذلك وجودان : وجود معنوي هو لب الوجود الكوني ووجود حسي مادي حين ولد ثم بعث للناس هاديا وسراجا منيرا . ويقول : لولا ما أنزل القرآن الكريم ولا الدين الحنيف أو شريعته القويمة ولا رويت أحاديثه في كتب الصحاح الستة : صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، ولولا ما أقيمت قاعدة للإسلام ولا عرف الناس فضل السني على

(١) غالب جده صلى الله عليه وسلم .

(٢) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ١٨٩ .

(٣) ضاحية : مضيق . اللأوي : نسبة إلى لوى بن

الحشوى من أهل التجسيم والعقيدة الزائفة . ولولا بلاغة كلمه التى اهدى بها البلغاء ما كان بليغ ، ولولا العلوم الكثيرة التى نشأت حوله ما كان نحوى ولا لغوى ، ولولا رسالته العظمى ما غلب الروم الأقوياء وملوك الفرس الساسانيين أبو بكر الصديق التيمى وعمر بن الخطاب العدوى . ويقول الشيخ محمد الشمشوى المتوفى سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٦ م صادرا عن فكرة الحقيقة المحمدية^(١) :

ألا قد أقرَّ الكونُ أنَّ عمداً لكلِّ فروع الفضل أصلٌ مقدَّم
فمنه استفاد الحسنُ كلُّ يتيمةٍ من السُّرِّ بِكُتَّاهَا غَوَالٌ مَنْعَمٌ
ومنهُ استفاد الضوءُ وجهُ غزاةٍ جَنَى الضوءِ منها زَيْزِقَانٌ وَمِرْزَمٌ^(٢)
ومنهُ استفاد الأقحوانُ نضارةً وَحُسْنَ جَمَالٍ التَّسْرُ إِذْ يَتَسَّمُ

وهو يقول إن الكون أقرَّ بأن الرسول ﷺ أصل كل ما فى الكون من فروع الفضل والجمال . فمنه استفادت الحسن كل درة يتيمة فى عقد على لثة سيدة جميلة منعمة ، ومنه استفادت الشمس ضوءها ، ومنه أخذ البدر ضوءه وكذلك نجوم المطر . ومن الرسول استفاد الأقحوان نضارته واستفاد كل ثمر لسيدة من جماله حين يتسَّم . ونكتفى بما قدمنا من أمثلة المدح النبوى الموريتانى ، ونقف قليلا عند نفر من مجيديه .

مولود^(٣) بن أحمد الجواد العقوبى

يقول الشنيطى فيه « هو العلامة النحرير ، واللغوى الشهير ، أحد أعلام تلك البلاد ، وإليه المرجع وعلى أقواله الاعتماد .. من أكابر تلاميذ العلامة المختار بن بون » الترجم له بين شعره الفخر ، ويقول الشنيطى أيضا : « كان مداحا لرسول الله ﷺ ، ومن ذلك قصيدته المعروفة بالمرجانية ، وفيها يقول :

لُزْكِي صِلَاةً وَتَسْلِيمَ عَلَى قَمَرٍ
يَارَبُّ صَلِّ عَلَيْهِ دَائِمًا أَبَدًا
دِينٌ حَنِيفٌ مَحَا المَاحَى بِهِ وَعَفَا
تَمَّتِ الَّذِي لُزِّلَ اللهُ الْجِنَانُ لِمَنْ
لَوْ كَانَ ذَا الْكَوْنُ إِسْنَانًا لَكُنْتُ لَهُ
تَمَّتِ السَّرَاجُ الْمُسِيرُ الَّذِي تَسَارَ بِهِ
بَدْرٌ بِهِ قَدْ تَنَارَ اللَّهُ أَكْوَنَةً
مَا حُلُّ أَعْرَاضُ هَذَا الْكَوْنِ أَعْيَنَةً^(٤)
أَثَارٌ مَنْ كَانَ فِي خُسْرِ وَأَدْبَابِهِ
وَأَلَى وَبُرُزْ لِلْعَادِيهِ نِيرَانَهُ^(٥)
طَرَفًا وَلَوْ كَانَ طَرَفًا كُنْتُ إِسْنَانَهُ^(٦)
نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ أَكْوَنَةً

(١) لأعيان : المحسوسات . أعراض جمع عرض : ما قام بغيره من الصفات كالطول والياض .
(٢) لُزِّلَ : قُرِبَ وقدم .
(٣) الطرف : العين . إسنانه : سوادها المبصر .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٩٦ .
(٢) الفزالة : الشمسى . الزيزقان : البدر . للرزم : نجم من نجوم المطر .
(٣) انظر فى ترجمة مولود وأشعاره الشنيطى ص ١٩٠ وما بعدها .

أَو هو يصلى ويسلم على الرسول بدر الوجود الذى أثار الله به أرجاء كونه ، ويدعو الله أن يصلى عليه ما دام الكون قائما وما دامت الأعراض تتعلق بوجوداته . وينزه بالإسلام وأنه دين حنيف بما به الماحى (من أسلمه الرسول) آثار الخسران والذلت والباطلة ، وقد قرب الله لمن والاه الجنان وأذاق أعدائه العاصين نيرانه ، ولو كان الكون إنسانا لكان عينه البصرة ، أو لو كان عينا لكان إنسانها الذى ترى به الدنيا . ويلخص فى البيت الأخير فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود ونوره وكل نور فى السموات والأرض مستمد من سراجة ، فهو منبع كل نور . ويقول :

ما سُدُّ بابُ كريمٍ دون قارعِهِ	فاقرَعْ نجدَ بابِ مولى الأنعمِ فَنُفِرْجَا
وارغبْ إلى ربِّكَ الأعلى ليجعلنا	مُنَّ على النهجِ نَهْجِ المصطفى دَرَجَا ^(١)
نهجِ الذى أنزل الله الكتاب هُدًى	لنا عليه ولم يجعل له عِوَجَا ^(٢)
منه استفادَ النُّبِيُّونَ النبوةَ إذ	بما له ما لهم منها قد اختلجَا ^(٣)
ألا طَرِبْتُ أَلَا بَئِى طَرِبْتُ إلى	مَنْ حُبُّهُ مع لَحْمِي والدمُ امتَرَجَا
مَنْ لِلنَّبِيِّينَ مَنِى لِلرُّسُلِ أَيْسَ لِمِ	مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ معراجُ كما عرجَا ^(٤)

وهو يقول اقرع باب الرب الكريم المنعم تجده قد انفتح ، وادعه أن يجعلنا من سار على نهج المصطفى وكتبه الذى أنزله الله عليه ولم يجعل له عوجا ولا التواء ، ويقول متمثلا فكرة الحقيقة المحمدية إنه مبدأ الأنبياء ، منه استفادوا نبوتهم التى خالجتهم فى نفوسهم . ويذكر أن حب الرسول امتزج بلحمه ودمه ، ويقول إنه ليس للأنبياء والرسل معارجه الذى خصه الله به . ويشير إلى ما جاء فى سورة النجم : ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ .

محمد^(٥) بن محمد العلوى

يقول الشنقيطى عنه : « برع فى عفوانه فى العلوم وصرف همه إلى نظم الشعر ، وبلغ صيته فى قطره مبلنا لم يبلغه أحد ممن عاصره » . ولما بلغ نحو الثلاثين من عمره عزم على الحج ، ومر بمراكش ومدح سلطتها عبد الرحمن العلوى (١٨٣٤ - ١٨٥٩ م) واحتفى به ، ثم توجه إلى الحرمين الشريفين فبدأ بالزيارة ثم قضى حجه ، وفى طريقه من مكة إلى جدة توفى ، يقول الشنقيطى : كان حيا بعد سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م ويقول الدكتور محمد المختار

(٥) انظر فى ترجمة محمد بن محمد العلوى الشنقيطى ص ٤٧ والشعر والشعراء فى مورجياتنا ص ٥١ وفى مواضع متعددة .

(١) درج : شئ وسار .
(٢) عوجا : التواء وانحرافا واختلافا .
(٣) اختلج فى النفس : اضطربت به ، ومنه الخوالج .
(٤) قاب : قوس . عرج : صعد .

إنه توفي سنة ١٢٧٢ هـ/ ١٨٥٦ م ويذكر الشنيطي أن ديوانه مجلد ضخم ، وكان مدأحا بارعا للرسول ﷺ ، وفي إحدى مدائحه يقول :

وَجْهَتْ وَجْهِي إِلَى خَيْرِ الزَّرَى وَأَرَى
وَجْهَتْ وَجْهِي إِلَى مَعْنَى الْفَقِيرِ أَلَا
وَجْهَتْ وَجْهِي لَذَى الْخُلُقِ الْعَظِيمِ وَذَى-
وَجْهَتْ وَجْهِي لِمَحْمُودِ الْمَقَامِ وَمَدَى
مِنْ آيَةِ وَكْفَى الْقَرَّانَ مُعْجَزَةً
يَكْفِيكَ أَنْ إِلَهَ الْقَرَشْرِ صَوْرُهُ
لنَفْسِي الْفُورَ بِالْمَطْلُوبِ وَالظُّفْرَا
إِنِّي لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَفْقَرِ الْفُقَرَا
مَجْدِ الصِّمْرِ عَدِيمِ الشَّكْلِ وَالنُّظْرَا
صَوْدِ الْأَنَامِ إِذَا الْخَطْبُ الْجَلِيلُ عَرَا
مَا كَانَ مِنْ خَارِقٍ فِي بَدْنِهِ ظَهَرَا
كَأَيْشَاءَ وَمِنْهُ صَوْرُ الصُّورَا

ويدو أنه نظم القصيدة حين عزم على الحج والزيارة أو لعله كتبها في طريقه إلى الزيارة ، وهو يقول : وجهت وجهي إلى خير البشرية ، وفي ذلك فوزي وظفري بكل ما أطلب إذ وجهت وجهي إلى معنى الفقير روحيا ، ولقي لمن أفقر الفقراء إلى معرفه . إنه صاحب الخلق الرفيع والمجد الموثل عديم النظر ، صاحب المقام المحمود والمقصود في نوازل الخطوب ، ومن معجزاته الباهرة القرآن ، المعجزة الخارقة . وصور الشاعر في البيت الأخير صورة وجوده المادى الحقيقي التي صوره الله فيها صورة رقيقة ، وصورة وجوده المعنوى الذي صور الله منه صور الموجودات ، وهو وجود يسبق خلق الكون وموجوداته . ويقولوه في مدحة مولدية :

إِنْسَانُ عَيْنِ الْكَوْنِ غُرَّةُ وَجْهِهِ
بَابُ إِلَهِهِ وَمُصْطَفَاهُ لِسَرِّهِ
مِنْ خَصَّةٍ يَحُلِّي الْكَمَالَ إِلَهُهُ
يَا مَوْلَدَ الْهَادِي لَشَهْرِكَ نَفْحَةً
أَكْرَمَ بِمَوْلِدِ ذِي الْخِتَامِ يَوْمَهُ
حَاوَى التَّفَرُّدَ بِالْمَقَامِ الْأَرْفَعِ
وَسَرَّاجُ حُجَّتِهِ الَّذِي لَمْ يُفْشَعْ^(١)
وَالْكَوْنُ وَاقِعُ أَمْرِهِ لَمْ يَوْقِعْ
أَرْجَ الزَّمَانِ بِنَشْرِهَا الْمَتَضَوِّعِ^(٢)
وَبَشْهَرِهِ وَبِعَامِهِ وَالْمَوْضِعِ

وهو يقول إن محمدا ﷺ إنسان عين الكون وغرّة جبينه المشرقة صاحب المقام الأرفع الفريد عند ربه ، باب رضاه وغفرته ومصطفاه لسره ورسالة وسراج شريعته الذي لم تنحسر أضواؤه أبداً ، وقد خصه بالكمال الأسى قبل حدوث الكون وخلق . والشاعر بذلك يشير إلى حقيقته المحمدية الأزلية التي خلقت قبل خلق الكون ووجوده . ويقول إن لشهر مولده نفحة روحية ، تمطر الزمان بشذاها الفاتح ، فما أكرم مولد خاتم الرسل ، وما أعظم شهره وعامه وموضع مولده .

المتضوع : الشديد الراحة .

(١) يفتح هنا : تنحسر أضواؤه .

(٢) أرج الزمان : تمطر . نشرها : شذاها الطيب .

يقول الشنقيطي في ترجمته : « كان محمد هذا من العلماء الأعلام ، واشتهر في اللغة . وكان نحويا وله اليد الطولى في البيان . وكان حريصا على طلب العلم ، يقال إنه مكث سبع سنوات متقطعا لطلب اللغة » ، وتشد الشنقيطي له قصيدة في مدح الشيخ سيديا حض فيها على طلب العلم ومدارسته حضا شديدا ، وله قصيدة يزرى فيها بأهل الجهل ومقصورة مدح بها الشيخ سيديا عارض بها مقصورة أبي صفوان الأسدي وما تصور من حيوات الصحراء وطيرها وما تحمل من أفاظ بدوية أبدية مما يدل على ثقافته الأدبية واللغوية الواسعة ، وتشد له المذكور محمد المختار نبوية طويلة في نحو مائة وثلاثين بيتا ، وهي نبوية رائعة ، توفي سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م ومن قوله فيها مستمدا من فكرة الحقيقة المحمدية الأزلية :

طَه الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ مُحَمَّدٌ تَاجُ الْخَلَائِقِ سَيِّدُ الْأَبْرَارِ
أَصْلُ الْوُجُودِ وَخَلْقُهُ وَغَدَاةُ وَمُقْبِضُ بَحْرِ الْجُودِ وَالْأَنْوَارِ
نُورُ السَّرَاجِ وَكُلُّ نَجْمٍ طَالِعٍ مِنْ نُورِهِ وَالشَّمْسُ وَالْأَقْمَارِ
وَالْحَوَارِ وَالْوَلَدَانِ فِي غُرَفَاتِهَا وَالِدَرُّ وَالْيَاقُوتُ وَالْأَزْهَارِ
وَالْقَرْشِيرُ وَالْكُرْسِيُّ وَالْأَلْوَابُ وَالْأَبْصَارِ قَلَامُ الْأَفْهَامِ وَالْأَبْصَارِ
وَالْمَسْكُ فِي فَارَاتِهِ وَالنَّدَى فِي أَحْقَاقِهِ وَالرُّوحُ ذِي الْأَنْوَارِ^(٢)

وهو يقول إن طه هو محمد الصراط المستقيم الذي لا ينحرف أبدا تاج الخلائق سيد النساك . وبأخذ ابن حنبل في ذكر حقيقته الأزلية ، فهو أصل الوجود وزينه وغدته ، ومقبض غيث كرمه وأضواء أنواره إنه أصل كل نور في السراج وفي النجوم والكواكب والشمس والأقمار ، وأصل كل جمال في حور الجنان وغلماها وفي اللؤلؤ والياقوت والأزهار ، وأصل كل وجود في العالم العلوي من عرش وكرسي وألواح وأقلام وفي العالم السفلي من أفهام وأبصار وهو طيب المسك في أوعيته وطيب الندى في حقايقه وشذا الأزهار في روضها الموق . ويستمر ابن حنبل في نفس الفكرة قائلا :

وَبِهِ نَجَا فِي الْفَلَكَ نُوحٌ وَأَهْلُهُ وَنَجَا الْخَلِيلُ مِنَ التَّهَابِ النَّارِ
وَأَقَامَ آدَمُ فِي الْجَنَّةِ وَزَوْجُهُ وَبَيْنَهُ قَبْلُ الْإِلَهِ مُتَبَهُ
وَبَنُوهَا فِي الْبَدْوِ وَالْأَمْصَارِ مِنْ بَعْدِ مَكْرُ الْخَادِعِ الْفَرَارِ^(٣)

(٢) غارات المسك : أوعيته .

(٣) الخادع الفرار : إيلس .

(١) انظر في ترجمة ابن حنبل الحسن وأسماء الشنقيطي ص ٣١١ والشعر والشعراء في موريتانيا ص ١٧٨ وفي مواضع مختلفة .

ونجا الذئبحُ بذنبه من بعد ما
وبه سَرَى موسى الكليمُ بقومه

وتفتحى عليه بهصارمُ بشارٍ
وبه انفلاقُ الخضرِ الزخار^(١)

وهو يردُّ الخلاص من كل ما نزل بالرسول إليه وكذلك كلُّ ما جرى على أيديهم من معجزات فهو سرُّ الوجود وكل ما فيه وكل ما حدث للأنبياء والرسل مستمد منه ، فيه نجا نوح ومن آمن به في الفلك من الفرق ، ونجا إبراهيم الخليل من النار واستحالت بردا عليه وسلاما ، وبه كُرم آدم وزوجه بمقامهما في الجنة وأغواه إبليس فقبل الله يمينه توبته وأكرم ذريته في البدو والحضر ، ونجا إسماعيل من ذبح فيه إبراهيم ، ويمينه سار موسى الكليم بقومه ليلا ، وانفلق له ولهم البحر الواسع الزاخر فكان كل فرق كالجلل العظيم وغرق فرعون ومن معه . وعلى هذا النحو يطيل ابن حنبل في بيان الحقيقة المحمدية الأزلية ، فهو أصل كل موجود في الكون وأصل كل نعمة أسبغت على الرسل يمينه وفضله . ويتحدث عن القرن معجزة الرسول الكبرى قائلا :

وَأَتَى بِكُلِّ مَهْمٍ مَا إِنَّ تَقَى
لَسُنُّ الْمَنَاطِقِ مِنْهُ بِالْمُشَارِ^(٢)

آيَاتِ عِيسَى وَالْكَليمِ بِجَنبِهِ
كَالطَّلُ جَنْبَ مُزْمَرٍ هَارِ^(٣)

سُورَ كَأَشْيَاءِ الرِّيَاضِ تَضَوَّتْ
بَشْدَا الْعَمِيرِ وَجَوْنَةِ الْعَطَارِ^(٤)

وَتَنَاسَقَتْ أَلْفَاظُهَا وَتَنَاسَبَتْ
آيَاتُهَا كِتَابَ الْقَصَارِ^(٥)

وَطَوَّلَتْهَا كَقَصَارِهَا وَقَصَّارُهَا
كَالدَّرِّ يَمُزُّ فِي نَحْوِ جَوَارِ

فالرسول ﷺ قد جاء بمعجز من القرن الكريم ، لا يستطيع البلغاء الفصحاء الإتيان بسورة من مثله ، ومعجزات عيسى من إبرله الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ومعجزات موسى كليم الله من انفلاق البحر كل هذه المعجزات لموسى وعيسى بجانب معجزة القرآن الخارقة التي ليس لها سابقة ولا لاحقة كالمنظر القليل بجانب السحاب المرعد الذي تنهمر أمطاره ، سور كريمة مثل الرياض تفوح بشذى الطيب ووعائه لدى العطار ، وألفاظها متناسقة تناسق اللآلئ في القلادة البديعة ، وطولها مثل قصارها تشبه الدرر في نحر الجوارى اللوات .

٤

الشعراء والشعر التعليمي

عرضنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن رقى الحياة العقلية حينذاك أدَّى إلى استحداث فن الشعر التعليمي ، وكان من السابقين إليه ثمان بن عبد الحميد بترجمة كتاب كليله ودنة عن الفارسية إلى العربية في نحو ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المنظوم من وزن الرجز وفيه

(١) الخضر الزخار : البحر الواسع الطاغى موجه .

(٢) مهمين : قاهر معجز . لسن المناطق : ألسنة البلغاء .

(٣) الطل : المنظر القليل . مزمر : سحاب ملء .

(٤) تَضَوَّتْ : مزارر كثير المطر .

(٥) القصار : القلادة .

تختلف القافية من بيت إلى بيت ، مع اتحاد الشطرين المتقابلين فيها بكل بيت ، ونظم مزدوجات أخرى فى التاريخ والفقه . ومن حيث شاع هذا الفن الجديد فى العراق وإيران والبيئات الإسلامية المختلفة ، وتكاثرت منظوماته فى الأندلس والمغرب ، وتأخذ فى الظهور بموروثاتها فى القرن الثانى عشر الهجرى وسرعان ما تتكاثر كثرة مفرطة فى القرن الثالث عشر ، ومن أمثلتها فى أواخر القرن الثانى عشر نظم المجتدى لما ورد عن العرب من كلمات على وزن فاعول ولا مهلسين مثل طاووس وناقوس^(١) . وثلثى بالمختار بن بون المتوفى حول سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٦ م وله فى النحو نظم سماه الاحرار ذكر فيه من تسهيل لابن مالك ما لم يذكره فى الألفية ، ومزجه بها مزجا جيدا يدل على مهارة تامة^(٢) . وكان يعاصره عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٤ م وقد نظم كتاب جمع الجوامع فى أصول المذهب المالكى للسبكي وسمى نظمه مراقى السعود ، وألف شرحا لهذا النظم باسم نشر البنود يقول الشنقيطى : « لم يأت الزمان بمثله ، ولا جاد فيما مضى بشكله » وألف فى علم البيان نظمه « نور الأفاق » ووضع له شرحا سماه « فيض الفتاح » جمع من فنون البلاغة الثلاثة : المعنى والبيان والبديع الدرّ الثمين ، ألقى فيه الفث وأخذ السمين ، وله فى مصطلح الحديث نظم سماه « طلعة الأنوار » وضع عليه شرحا^(٣) ولابنه محمد منظومة فى الأفعال جمع فيها ما فى التسهيل لابن مالك وما فى لاميته وما فى شرح بحرق اليماني للامية ، وشرح المنظومة ، وهو عمل لغوى بارع ، ويقول الشنقيطى معبرا عن إعجابه بهذا العمل : ناهيك به^(٤) . ولعبد الله بن أحمد الغلاوى معاصر ابن الحاج وأحد أفراد زمنه فى العلم وأعلم من بأرض الحوض منظومات^(٥) متعددة ، منها منظومته لرسالة ابن تيمى زيد القيروانى فى الفقه المالكى ، أنشد الشنقيطى من فاتحتها قوله :

ولم أكن جَدِّلَ هذا الفنُ وما على كَوْنِ لَأْنِي^(٦)
شَفَّلْتُ بالنُّحو والبيانِ و (إن هذان لساخران)

ويذكر الشنقيطى أنه نظم متنا فى الفقه لعبد الرحمن الأخصرى الجزائرى صاحب متن السلم المشهور فى المنطق ، وبدأ نظمه بقوله :

عبدُ الإله الشنقِطىُ يشترى بعقده المنظوم زَيَّرَ الأَخْضَرى

وقال إنه نظم أيضا متن الخرجية فى العروض ، واستهلَّ نظمه لهذا المتن بقوله :

الحمد لله على تخريجى مسائل العلوم بالتدريج

(٥) انظر ترجمة الغلاوى عند الشنقيطى ص ٩١

وما بعدها.

(٦) جذيل : خبير .

(١) الشنقيطى ص ٢١٥ .

(٢) الشنقيطى ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٣) الشنقيطى ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤) الشنقيطى ص ٨٣ .

ويبدو أن منظوماته العلمية كانت سائفة جيدة ، ويقول الشنيطى إنه همّ بنظم مختصر خليل فى الفقه ثم صرفه عن ذلك صارف^(١) .

وللتجلى بن باب المتوفى حول سنة ١٢٦٠ هـ منظومة فى أزواج النسي بسم الله الرحمن الرحيم وأولادهن منه وما لكريماته الطاهرات من بنين وبنات ، وله على هذه المنظومة كما يقول الشنيطى شرح نفيس . وله أرجوزة نظم فيها وروقات الجوينى إمام الحرمين فى علم الأصول^(٢) . واشتهر أحمد البدوى المجلسى بمنظومتين^(٣) : منظومة فى أَسَابِ العرب سماها عمود النسب استهلها بقوله :

هَذَا مَنْ رَفَعَ صَيْتَ الْعَرَبِ وَخَصَّصَهُمُ بَيْنَ الْأَنْبَاءِ بِالنِّسْبِ

والمنظومة الثانية فى غزوات الرسول ﷺ ، ويوهو الشنيطى بجودة نظمها وأنها تدل على تبحره فى السيرة النبوية ، اتضحها بقوله :

هَذَا مَنْ أَرْسَلَ خَيْرَ مُرْسَلٍ لَخَيْرِ أُمَمٍ بِخَيْرِ الْمَلَلِ

وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى بُسْبِ صَفْوَةِ الْأَنْبَاءِ

وتُشَدُّ لَهُ الشَّنِيطَى قَطْعَتَيْنِ فِى غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ وَغَزْوَةِ حَنْينَ . ومن أكثروا من الشعر التعليمى فى النحو عبد^(٤) للودود بن عبد آل من نحاة النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى وشعرائه ، وله مقطوعة فى مد المقصور استهلها بقوله :

وَمَدُّ مَقْصُورٍ خِلَافَهُ اشْتَهَرَ وَفَصَّلُ الْفَرَاءِ تَفْصِيلًا يَهْرَ

ومضى فى المقطوعة يذكر تفصيله لأحكام مد المقصور ، ويقول الشنيطى : « له قصيدة غزلية فى المصادر الغريبة ، وما ترك مسألة عويصة فى النحو إلا نظمها أسلس نظم وأتقنه ، وعلى شاكلته المختار بن أَلْمَا ، يقول الشنيطى : توفى بعد سنة ١٣١٠ هـ/١٨٩٣ م وله أنظام كثيرة فى النحو^(٥) ، ومثلها الحسن بن زين تلميذ عبد الودود المتوفى قريبا من ١٣٢٠ هـ/١٩٠٣ م يقول الشنيطى : له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك مزجه بها ولولا أنه كبه بالحمرة لا لبس بنظم ابن مالك ، وله أنظام كثيرة مفيدة ، ويشد بعض نظمه فى مسائل نحوية^(٦) .

(٤) انظر ترجمته فى الشنيطى ص ٣٧٤ .

(٥) الشنيطى ص ٢٣٩ .

(٦) الشنيطى ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(١) الشنيطى ص ٩٢ .

(٢) الشنيطى ص ٧٠ .

(٣) انظر ترجمته فى الشنيطى ص ٣٥٠ .

القسم الرابع

السودان

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

٩

الجغرافية^(١)

السودان جنوبي مصر فى القارة الإفريقية ، ويمتد على جانبي نهر النيل من وادى حلفا عند خط عرض ٢٢° شمالا إلى خط عرض ٤٠°-٣° إلى الجنوب ، وهى مسافة تقدر بحوالى ألفى ميل طولا وتبلغ المسافة من الشرق إلى الغرب نحو ألف ميل عرضا . وتبلغ مساحة السودان حوالى مليون ميل مربع ، وهو ثلاثة أقسام : السودان الشمالى الواقع بين وادى حلفا والخرطوم ، والسودان الأوسط الواقع بين الخرطوم وحوض نهر السوبات وبحر الغزال ، والسودان الجنوبى الواقع بين هذين الحوضين والحوض الجنوبى لنهر النيل . وليس هناك حدود طبيعية بين السودان والكنغو ولا بينه وبين الحبشة ، واتفق على خطوط فاصلة بينه وبين القطرين جميعا .

والصحراء تطل على جانبى النيل فى السودان الشمالى وتتخللها تلال صخرية كثيرة ، أما فى السودان الأوسط جنوبى الخرطوم فتقل التلال ، ويصبح السطح أشبه بسهول ، ويمتد السهل شرقا حتى مرتفعات الحبشة وجنوبا شمالا السودان الجنوبى حتى هضبة البحيرات الاستوائية . ويرفد النيل من الحبشة نهران : نهر النيل الأزرق ويصب فيه مياهه بالقرب من الخرطوم ، ونهر عطبرة ويصب فيه شمالى مدينة الدامر حاملا ذخيرة كبيرة من الطمى . وأخصب أجزاء السودان أوسطه أو بعبارة أخرى السودان الأوسط ، ففى شرقه حتى تلال الحبشة سهل طسمى خصب يحتضنه النيل الأزرق من جهة والنيل الأبيض من جهة ثنية ، ويسمى أرض الجزيرة ، وتبلغ مساحته نحو مليون فدان وتوجد فيه الحبوب والقطن . وغربى السودان الأوسط سهول رملية تمتد حتى مرتفعات كردفان بل حتى جبل مرة فى دارفور وما ورله وأيضاً حتى جبال النوبة وخط تقسيم المياه بين حوض النيل وحوض بحيرة تشاد . وهذا الغرب كله مراعى واسعة يتجول فيه أهله صيفا وراء قطعانهم من الأنعام : الإبل والأغنام ويزرعون فى بعض البقاع الذرة والدخن ، ويعنى سكان جبال النوبة بالزراعة وخاصة زراعة القطن .

وفى الشرق الاقليم بين حوضى النيل الأزرق وعطبرة يسمى سهل البطانة وتكثر فيه التلال

للدكتور إبراهيم رزقة ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى جغرافية السودان كتاب السودان وادى النيل للدكتور محمد عوض محمد والجغرافية البشرية

كلما اتجهنا شرقا حتى مدينة كسلا ، وعندها يظهر خط الجبال الذى يفصل بين نهاية سهل البطانة وبداية جبال إريتريا . وفى هذا السهل مراعى واسعة ومناطق زراعية على شواطئ النيل ونهر عطبرة ويزرعون الحبوب والقطن .

وعلى شواطئ النيل فى السودان الشمالى تزرع الذرة ، وشرقى السودان الشمالى سهول تمتد شرقا حتى البحر الأحمر وشمالا حتى الصحراء الشرقية فى مصر ، وتسكنه قبائل مختلفة أهمها البجة وتكثر فيه المراعى ويعيش سكانه على الرحلة وراء أبقاعهم من مرعى إلى مرعى . ويختلف فيه زمن نزول المطر فى الصيف يسقط فى الداخل ، ويزداد من الشمال إلى الجنوب ، وفى الشتاء يسقط على الساحل والتلال الشرقية . وأهل البجة الشماليون يسمون البشاريين ، وأكثر عملهم فى مناجم الذهب ، وأهل المشائر القريبة من ميناء بورسودان على البحر الأحمر يعمل كثيرون منهم فيها ، والمشائر النازلة بين كسلا وسنكات فى الطريق إلى بورسودان يعملون فى دلتا خور القفاش حيث يزرعون القطن والذرة ، ولبناء عمومتهم التازلون على حدود إريتريا يزرعون القطن فى دلتا خور بركة عند طولكرم .

والسودان الجنوبى الممتد جنوبى نهر السوياط وبحر الزغال تغطيه الحشائش والأدغال شمالا ، وينحدر إلى الجنوب إلى مستنقعات تُغطّيها الغابات والبردى وحشائش مختلفة . وتؤثر هذه النباتات تأثيرا كبيرا على مياه النيل المنحدرة من بحيرة البرت إلى بحر الزغال إذ تفقد نحو نصفها بسبب سدود النباتات التى تعترض مسيرتها ، كما تعترض مسيرة بحر العرب المنحدرة مياهه شرقا إلى بحر الزغال . وتجربى فى هذه المنطقة روافد عديدة للنيل وترتفع بها بعض أجزاء يبنى عليها سكنتها قراهم ويرعون أبقاعهم ، ويزرعون بعض بقاعهم ، مع ملاحظة أن المستنقعات تكثر كثرة مفرطة فى أقصى الجنوب . ويجلب الزراعة أحيانا والمراعى يصيدون من المياه الأسماك ومن الغابات المجاورة بعض الحيوانات وخاصة فى الأنحاء الغربية .

والمناخ فى السودان الشمالى شديد الحرارة صيفا . وهى شدة تظل من شهر أبريل إلى شهر أكتوبر ، وتبلغ فى أكثر الأحيان ٤٠° م ويزيد الجو الحار قسوة وشدة ما تحمله رياح السودان المحلية المسماة بالهبوب من الرمال . والسودان الأوسط والجنوبى شديدا الحرارة أيضا إلا أن حرارتهما لا تبلغ فى الشدة مبلغ حرارة الإقليم الشمالى صيفا ، وأحرّ شهور السودان الجنوبى شهور يناير وفبراير ، ثم يأخذ مطر الصيف فى النزول فيقلل درجة الحرارة تدريجا . ودرجة الحرارة فى دارفور أقل منها فى كردفان والخرطوم لأنها أكثر منهما ارتفاعا فوق مستوى سطح البحر . والمطر فى السودان الجنوبى غزير ، ويبدأ فصله هناك من شهر مارس ، ويأخذ فى الازدياد بالأشهر التالية ويبلغ الذروة فى شهرى يولية وأغسطس ، ثم يأخذ فى التناقص حتى شهر نوفمبر ، وأشهر ديسمبر ويناير وفبراير هناك أشهر الجفاف .

التاريخ

(أ) السودان في العصور القديمة

يرتبط السودان في تاريخه السحيق بمصر منذ عهد الأسرات الأولى لحضارة قدماء المصريين بعامل حفاظ تلك الأسرات على الأمن في جنوبى مصر وعلى طريق التجارة . وفى أخبار الأسرة الرابعة أن سفروقام بحملة فى الجنوب ، لعلها كانت حملة تأديبية ، وتتجدد الصلات فى عهد الدولة الوسطى بفرض السيطرة على أرض النوبة فى الجنوب وأخذت هذه الصلات تتسع فى عهد الدولة الحديثة إذ مدت سيطرتها إلى الشلال الرابع . وسبغت الأراضى الممتدة إلى ذلك الشلال - منذ ذلك الحين - باسم أراضى النوبة وكانت قسمين شماليا وجنوبيا ومُصَرَّت تماما فى عهد تلك الدولة ، وسكن النوبة الجنوبية كوشيون طُبعوا بطولبع الحضارة المصرية كما تدل آثارهم المكتشفة فى أراضيهم ، وكان الحاكم هناك بعد نائباً للملك مصر . ويدور الزمن دورات ويدخل الليبيون مصر ويطرودون منها ، ويتسمى حكامهم باسم الملوك . وتلى ذلك حقبة غامضة لا نكاد نعرف عنها شيئا ، وتكونت حيثث ثلاث دول نوبية : الأولى فى الشمال وعاصمتها نوس وتسمى نوباديا بعد الشلال الأول والثانية فى الوسط بإقليم دنقلة وتسمى مقرة . والثالثة جنوبى الخرطوم مباشرة وعاصمتها سوبا وتسمى علوة .

ولما اضطهدت روما المسيحية للسيحيين فى مصر فرُّ كثيرون من معتقى المسيحية إلى نوباديا دولة النوبة الشمالية ، وهناك أخذوا يدعون لدينهم المسيحى واعتنقه بعض النوبيين ، ولما أصبحت المسيحية فى روما دين الدولة الرسمى فى عهد قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد نشطت فى نوباديا البعثات التبشيرية ، ومن اشتهروا بهذا النشاط التبشيرى تيودور أسقف أسوان وفيلة ونزل نوباديا واختلط بالزرعاء النوبيين فيها واعتنق كثير منهم الدين المسيحى كما اعتنقه كثير من أهل نوباديا .

واتسعت حركة التبشير للدين المسيحى فى عهد الإمبراطور جوستيان (٥١٧ - ٥٦٥ م) وكانت الكنيسة المصرية تنادى بالطبيعة الواحدة للمسيح ضد القائلين من كنيسة روما والقسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين . وحاول جوستيان أن يرسل بعثة إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته ، ووصلت إلى جزيرة فيلة مع أسقفها تيودور ، فجهازها ورافقها إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته وسارعت الكنيسة القبطية بإرسال بعثة للدعوة إلى عقيدتها برئاسة جوليان ، ووصلت

والحدث لعموم شفر والسودان فى دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى تاريخ السودان بالعصور القديمة كتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شيكا (نشر وتوزيع دار الثقافة بصروت) وانظر تاريخ السودان القديم

البعثة إلى جزيرة فيلة وجهازها ورافقها إلى نوباديا ونجحت البعثة في مهمتها وأخفقت بعثة الإمبراطور جوستيان ، وتوفي جوليان فعين مكانه أسقفا لبلاد النوبة لونجنيوس سنة ٥٦٩ للميلاد ، والتفوا حوله ، ودعاه ملك علوة في الجنوب ، فذهب إليها وأصبحت مسيحية يعقوبية تدين بعقيدة مصر في طبيعة المسيح الواحدة . وأخذت دولة مقرة تدخل بدورها في المسيحية ، ويقال إنها اعتنقت أولا فكرة الطبعين في المسيح ثم تركتها إلى فكرة الطبيعة الواحدة مثل نوباديا وعلوة ، ونظن أنها تأخرت في التنصر بعد نوباديا وعلوة وأنها أخذت بعد ذلك في التنصر تدريجا على مذهبها يعقوبى ، وأنها لم تبدأ تنصرها على مبدأ الطبعين كما يقال . ويبدو أن مملكة نوباديا ذابت في مملكة المقرة ولم يعد هناك سوى مملكتين : مملكة مقرة ومملكة علوة ، وذلك إما قبل الإسلام أو بعده بقليل .

(ب) السودان^(١) في العصور الإسلامية

ذكرنا في حديثنا عن فتح العرب لدول المغرب الأقصى أنهم لم يكونوا غزاة فاتحين طلبا لغنائم مادية إنما كانوا دعاة للإسلام مجاهدين ، ونرى عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى الخليفة عثمان على مصر بعد أن يتم له فتح ليبيا وتونس يوجه حملة إلى أرض النوبة سنة ٣١ هـ/٦٥١ م تنزل حتى دنقلة عاصمة دولة المقرة واضطرت القاطنين عليها إلى عقد معاهدة جاء فيها أن على أهل مقرة حفظ المسجد الذى بناه المسلمون بدنقلة وخدمته وإسراجه وأن لا يتعرضوا لمسلم يصل فيه ، ويؤدوا لمصر سنويا ثلاثمائة وستين من شباب رقيقهم ذكرنا وإثنا ، وتعهدت مصر بإمدادهم سنويا بكميات من الحبوب والملابس . وظلت علاقات الدول الإسلامية في مصر بمملكة مقرة النوبة قائمة على أساس هذه المعاهدة نحو ستة قرون .

وكانت قبائل البجة السودانية تنزل في الصعيد بالصحراء شرقى أسوان إلى ذهلك (مصوع) وقامت بغارات على أسوان في عهد المأمون العباسى فأرسل إليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم سنة ٢١٧ هـ/٨٤١ م وهزمهم وأملى عليهم معاهدة قبلوها ، فيها أن يؤدى ملك البجة أو أميرهم خراجا سنويا : مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وأن يحترم البجة الإسلام ولا يقتلوا مسلما . وأهم من ذلك « أن عليهم أن لا يهدموا شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر بلادهم طولا وعرضا ، مما يدل على أنه كان قد نزل بديارهم عرب مسلمون بنوا هذه المساجد ، وكانت قد نزلت بينهم - قبل هذا التاريخ فيما يبدو - قبائل أو ببارة أدق جماعات

عبد المجيد عابدين (طبع جامعة الخرطوم) والإسلام والنوبة للدكتور مصطفى محمد مسعد وكتاب الرمية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى هذا الموضوع خطط المقرئى فى مواضع متعددة وكذلك مروج الذهب للمسعودى وتاريخ ابن خلدون والسودان عبر القرون للدكتور مكى شيبة ص ٢٥ وما سيجئنا وكتاب دراسات سودانية للدكتور

من قبيلتي بِلَى وَجُهَيْنَةَ للرعى وللتجارة ولاستخراج الذهب فى منطقة العلاقى ، وعبرت البحر الأحمر جماعات من هوازن ونزلت فى إقليم البجة ثم رحلت إلى منطقة كسلا داخل السودان . ونجد البجة فى عهد المتوكل تعود إلى العصيان وتحاول الاستيلاء على مناجم الذهب فى العلاقى من أبدى العرب ، ويرسل إليهم المتوكل جيشا سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م بقيادة محمد بن عبد الله القسى ويتغلب عليهم ، ويطلب ملكهم الصلح على أن لا يتعرض للعرب العاملين فى معدن الذهب ويدفع الخراج المفروض سنويا . ويوزر بغداد وتبهره حضارتها .

وعندما استولى أحمد بن طولون على زمام الحكم بمصر سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م أرسل إلى بلاد البجة والنوبة حملة بقيادة نى عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمري واشترك فيها كثير من قبيلتي ربيعة وجهينة ، ونزل كثير من جنوده فى النوبة وأرض البجة . ويذكر المسعودى الذى زار مصر سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م أن ربيعة اختلطت بالبجة فى أرض المناجم وأصبحوا أسرة أو قبيلة واحدة . ويذكر المقرئى أن ابن طولون جند من التوبين أربعين ألفا ألحقهم بجيشه ، ولابد أنهم جميعا أسلموا أو لعل كثيرين منهم كانوا مسلمين قبل استخدامه لهم . وبدون ريب هبّا نزول القبائل العربية الكثيرة فى البجة والنوبة لاعتناق كثيرين منهما الإسلام ، ومع ذلك ظلت الكثرة فى النوبة مسيحية . ويوزر بلاد النوبة فى أوائل عهد الفاطميين ابن سليم الأسواقى ، ويروى المقرئى عنه أن المسلمين هناك معززون وفى حالة استقرار وأن كثيرين من التوبين اعتنقوا الإسلام مع تمسكهم بلغاتهم وجهلهم للعربية . ويذكر ابن سليم أن المسلمين تغفلوا فى الأراضى السودانية حتى علوة جنوبى الخرطوم ، واستطاعوا فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى أن يبنوا لهم مسجدا فى سوبا عاصمة علوة . وكانت أم الخليفة المستنصر الفاطمى فى القرن الحادى عشر الهجرى سودانية وبلغ المجندون من النوبة فى الجيش الفاطمى - بتشجيع منها - خمسين ألفا . وأصبح للعرب من بنى ربيعة - فى العهد الفاطمى - مساكن على وادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب على البحر الأحمر وما به من مناجم الذهب ، وفى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م أعلن شيخهم دخوله فى طاعة الفاطميين فلقبه الخليفة الفاطمى المستنصر بلقب كثر الدولة وعُرف قومه بالكوز ، ولما استولى الأيوبيون على صولجان الحكم فى مصر من أبدى الفاطميين انسحب عرب الكوز من حدود أسوان إلى بلاد النوبة . وكان ثمر عيذاب قد ازدهر منذ العصر الفاطمى بسبب احتلال حملة الصليب لفلسطين وقيام مملكة بيت المقدس وتحول الطريق الرئيسى لحجاج مصر والبلاد المغربية إليه .

وفى سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧٢ م أغار التوبيون على ميناء عيذاب ونهبوا متاجره وقتلوا القاضى والوالى عليه من قبل مصر لعهد الظاهر بيبرس ، وأغاروا على أسوان ونهبوا أسواقها ، وأرسل بيبرس فى السنة التالية حملة إلى النوبة يقودها والى قوص ، ووصل إلى دنقلة وملك النوبة داود يفر أمامه . وجاء إلى القاهرة ابن أخته شكندة متظلما منه ، واتهنز الفرصة بيبرس ، فجهز له

جيشاً مع بعض قواده ، ومضى الجيش حتى دنقلة ، ولقى داود وجماعته وهرب ، وتوج شكندة (إسكندر) ملكاً على مقرة بنفوذ وقوة الجيش المصرى المملوكى مع إعلان أنه نائب للسلطان وعليه أن يرسل إليه نصف ما يجمعه من الضرائب والجزية على الشباب من غير المسلمين وكانت فى واقعها ضريبة دفاع ، وبذلك عُدَّ أهل مقرة المسيحيين أهل ذمة . وتوفى شكندة سنة ٦٧٥ هـ/ ١٢٧٧ م وتولى بعده أمير من البيت المالك دون رجوع إلى السلطان قلاوون الذى خلف الظاهر بيبرس فأرسل إلى بلاد النوبة حملة قضت على الملك الجديد ، ونصبت سمamon ملكاً على مقرة ونائباً لقلاوون بنفس شروط شكندة السالفة غير أن سمamon لم يلبث أن أظهر عدم إخلاصه وولائه لقلاوون ، فأرسل إليه حملة تأديبية بقيادة أيدير والى قوص ، وهُزم سمamon وفر إلى الجنوب وأقيم مكانه ابن أخته ورأى قلاوون أن يبقى معه المملوك أيدير .

وبعد عودة الجيش المصرى المملوكى اضطر سمamon الملك الجديد نائب قلاوون وأيدير إلى العودة إلى القاهرة فجهز قلاوون حملة كبيرة لمنازلة سمamon سنة ٦٨٧ هـ/ ١٢٨٩ م ووصل الجيش دنقلة ففرَّ سمamon أمامه متوغلاً فى الجنوب ، وكان الملك الجديد توفى فى الطريق ، فنصَّب ابن أخته بدنقلة ملكاً على مقرة ، وبقيت هناك فرقة من الجيش المصرى مع أمير مملوكى . وعاد سمamon ثانياً إلى دنقلة ، وقبض على الأمير المملوكى وأرسله ورجاله إلى القاهرة وقتل الملك الجديد ، وأرسل إلى قلاوون متعهداً له بأداء كل الالتزامات ، وقبِلَ قلاوون منه ذلك وتوفى وخلفه ابنه خليل فامتنع سمamon عن أداء الجزية والضرائب ، وجهاز له السلطان خليل حملة فرَّ أمامها من دنقلة ، ونصَّب مكانه ملك جديد ، وكان الأمير عبد الله برشمبو لجأ إلى القاهرة واعتنق الإسلام ودخل فى ولاء محمد الناصر بن قلاوون ، وكان من الأسرة النوبة المالكة فرأى الناصر تعيينه نائباً له فى دنقلة وملكاً مسلماً عليها لأول مرة سنة ٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م وأرسل معه حملة لتنفيذ ذلك ، وبذلك استولى على صولجان الحكم فى مقرة المسيحية أول ملك مسلم . ولم يلبث أن نازعه الملك شيخ ربيعة الملقب بكنز الدولة ، واستطاع القضاء عليه ، ونصَّب شيخ ربيعة نفسه ملكاً على مقرة ، ودخلت معه إلى أرض النوبة قبائل عربية كثيرة عملت على نشر الإسلام فيها بحيث يأخذ المسيحيون هناك فى التضاؤل ، ولا يبقى منهم فى نهاية القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى إلا عدد قليل جداً . وتلك حسنة واضحة لاحتحام القبائل العربية لأرض النوبة ، وهذه الحسنة رافقها توزيع أراضى النوبة بين القبائل العربية وقيام إمارات كثيرة صغرى فيها مما قضى نهائياً على مملكة المقرة .

وكانت الحدود الشمالية لمملكة علوة الواقعة جنوبى مملكة مقرة تسمى الأبواب وكان يقوم عليها حاكم يسمى ملك الأبواب ، وخلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد كان يرسل لسلطين المماليك بولائه ، وحين كان يهوى ملك مقرة هؤلاء السلاطين ويُقرُّ إلى الأبواب كان كثيراً ما يقبض عليه ويرسل به إليهم . ومنذ قامت فى دنقلة دولة إسلامية سنة ٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م

أخذت تضعف صلات مملكة علوة بالكنيسة البعقوية فى الإسكندرية ، إذ قُطع الاتصال بينهما فلم يعد بأنبيهم من الإسكندرية أساقفة ، وأهملت الطقوس الدينية وهُجرت الكنائس . ورافق ذلك انتشار القبائل العربية من مقرة إلى أراضى علوة وسهولها وتغلهم عدديا على سكنتها وامتزاجهم بهم ، كل ذلك أسرع بأهل علوة إلى اعتناق الإسلام : المسيحى منهم ومن كان لا يزال على دينه الوثنى .

ولم أتحدث عن الإسلام فى غربى السودان حتى الآن ، ومرُّنا فى حديثنا عن موريتانيا مدى نشر دولة المرابطين بقيادة أبي بكر للإسلام فى إفريقيا المدارية وتغلله به إلى حوض النيجر وبلاد البرنو والكاتم ، وكان ملوك الكاتم من الطوارق الملثمين المسلمين وكنوا تجارا من قديم واستطاعوا أن يسيطروا سلطان دولتهم الإسلامية من بحيرة تشاد إلى غربى السودان وأرض النوبة ، وكان لتجارهم عمل عظيم فى نشر الدعوة الإسلامية غربى السودان ، وأهم من ذلك الكتلة الضخمة من قبيلة زوارة البربرية المسلمة التى كانت تنزل فى إقليم فزان ، إذ هاجرت إلى إقليمى واداي ودارفور غربى الخرطوم وهاجرت معها كتلة من عرب الشوا أو الشاوية أى رعاة الشاة ومنهم فى غربى السودان السلامات وخزام والجمادنة والمحاميد والدكاكير ، وهاجر بعدهم من فزان أولاد سليمان حين استولى الأتراك العثمانيون على ليبيا وكوّن هؤلاء العرب ومن صحبهم من البربر مملكة إسلامية مبكرة فى إقليمى دارفور وواداي بين سنتي ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م و ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م ومن سلاطين تلك المملكة سليمان وقد شملت سلطته الكاتم بجانب واداي وشطرا كبيرا من دارفور ، وورث عنه هذه السلطنة ابنه دونامة (٦٠٧ هـ/١٢١٠ م - ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م) . وهذا بالإضافة إلى ما كان يمر بالسودان الغربى من حجاج إفريقيا المدارية . وكل ذلك عجل بانتشار الإسلام فيه .

وواضح من كل ما سبق أن الإسلام انتشر فى السودان تدريجا ، ويبدو أن انتشاره فى غربى السودان كان أسرع من انتشاره فى شرقه وفى حوض نهر النيل السودانى نفسه ، ولم ينتشر - كما رأينا - بالسيف ، إنما انتشر بالموعظة والكلمة الطيبة .

٣

(ج) دولة الفونج^(١)

هى أول دولة إسلامية ذات نظم سياسية وإدارة تظهر فى السودان الأوسط قاعدتها

القديم والمحدث لنوم شفر وكتاب قبائل من السودان الأوسط والسودان الغربى للدكتور عبد المجيد عابدين : فصل سقوط الممالك النوبية وقيام الفونج .

(١) انظر فى دولة الفونج مخطوطة كتب الشونة فى تاريخ السلطنة النارية والإدارة المصرية وكتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة وانظر تاريخ السودان

سنار على النيل الأزرق ، واختلفت الآراء فى أصل الفونج ، فقول إنهم من إقليم البرنو دخلوا السودان من غربيه فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وقيل هم من الشلوك القاطنين فى جزر النيل الأبيض ، وقيل هم من أعالي النيل الأزرق من إقليم فازوغى ، وكانوا هم يسيرون أنفسهم إلى العرب ، ويقولون إنهم من نسل بعض بنى أمية الذين فروا من الشام أثناء مذابح العباسيين لأبناء أسرتهم فى أول استيلائهم على الحكم ، وكانهم تغفلوا فى الفرار حتى وصلوا إلى منطقة سنار على النيل الأزرق . وكانت العربية لغة دولتهم الرسمية ، وكانوا يكتبون بها وثائقهم وبذلك كانوا دولة عربية إسلامية ، وأول قيام تلك الدولة يؤرخ له بسنة ٩١٠ هـ/ ١٥٠٤ م وكان يرأسها ملك يسمى « عمارة دونقس » وكانت مملكة علوة فى سوا قد تضععت ، فتحالف عمارة دونقس مع عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من جهة وشيخ قبائل البدلأب ، وكان يسود المنطقة من التفاه النيلين الأبيض والأزرق مع الامتداد شمالا ، والتقى الحليفان مع قوات مملكة علوة وانتصرا عليها انتصارا حاسما ، وفرت فلولها إلى كردفان والصحارى وذلوا فى سكان البلاد من المسلمين . وتنتهت بذلك مملكة علوة واتخذ دونقس مدينة سنار عاصمة له ، وأصبح عبد الله جماع نائبا له فى الجزء الشمالى من الدولة . وحين استولى العثمانيون على مصر مدّوا حدودهم المصرية إلى مدينتى سواكن ومصوع على البحر الأحمر سنة ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠ م وأقاموا فيها حاميتين . واستطاع عمارة دونقس أن يفتح العثمانيين بأته ملك مسلم وسكان بلاده عرب مسلمون ولا مبرر لأن يخشاهم العثمانيون .

ويخلف عمارة دونقس فى دولة الفونج ثلاثة ملوك لا يذكر لأحدهم عمل مهم ويخلفهم الملك دكين ودنايل سنة ٩٧٦ هـ/ ١٥٦٩ م وفيه يقول كاتب الشونة : « هو من أواخر ملوك الفونج ، رتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لها قوانين مضبوطة لا يتعداها أحد ، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيسا (حاكما) معلوما وقنن لمن عادته الجلوس بحضرته رتبا : الأعلى فالأعلى فى جلوسهم أمامه ، ومازال يُعنى بتمهيد دولته إلى أن توفاه الله تعالى سنة ٩٨٥ هـ . ويتعاقب بعده ملوك لا أهمية لهم ويخلفهم عدلان وداى سنة ١٠١٩ هـ/ ١٦١١ م ويذكر كاتب الشونة أنه حدث فى عهده نهضة تعليمية وكان للشيخ عجيب رئيس عرب القواسمة والبدلأب دور مهم فى تلك النهضة . ويبدو أنه ثار على عدلان وداى ، ونشبت معركة بين جيشه وجيش الفونج مات فيها وانتهز جيشه وفرت أسرته من عاصمته « قرى » إلى دنقله ، وتوسط الشيخ الصالح إدريس ود الأرباب عند عدلان وداى فأقام المجيل أكبر أبناء الشيخ عجيب مكان أبيه شيخا أو أميرا على « قرى » وعادت إليها أسرته .

وفى نفس السنة صمم الفونج على خلع ملكهم عدلان وولوا مكانه الملك بادى سيد القوم

وخلفه الملك رباط وفى عهده حدثت حرب مع الحبشة سنة ١٠٢٧ هـ/ ١٧١٨ م اكثت فيها الحبشة بما استولت عليه من بعض الغنائم ، وولى بعده ابنه بادى أبو دقن سنة ١٠٥٤ هـ/ ١٧٤٥ م ويقول عنه كاتب الشونة : « هو من ذوى الشجاعة والكرم والمهم العالية ، وقد غزا النيل الأبيض وقتك بسكاته المعروفين بالشوك وغزا جبال تقلى غربى النيل الأبيض بنحو مرحلتين ، وصالح ملكها على جزية سنوية جعلته تبلىا لملكة الفونج . وبنى بعاصمته سنار جامعا وقصرا لدواوين الحكومة ، وكان مكرما لأهل العلم ، وكان يرسل بهدايا إلى علماء الأزهر ونظمت فيه عدة مدائح وخاصة من الشيخ عمر المغربى الأزهري وفيه يقول من قصيدة طويلة :

هو الملك المنصورُ بادى الذى له مدائحُ قد جُلَّتْ عن القَدِّ والحَصْرِ

ودام حكمه نحو خمس وثلاثين سنة ، وخلفه ابن أخيه أونسه ود ناصر ، وفى عهده حدثت مجاعة ، وتم لقبائل الشايقية التى كانت تنزل فى شمال السودان بمنطقة حلغا استقلالها عن العبدلأب وبالتالى عن سنار ، وكانوا أهل بسالة وشجاعة ، وكثت تقدمهم فى الحرب امرأة فاقت فى الفروسية وفنون الحرب نظراءها من الرجال وكانت تسمى عديلة ، وهى التى حرضت ابنها عثمان على خلع طاعة ودعجيب أمير العبدلأب ، ونشبت بينهما الحرب وانتصر عثمان ومنح ودعجيب الشايقية استقلالها . ونشطت فرنسا فى إرسال بعثات تبشيرية إلى الحبشة تريد أن تخرجها من مذهبها اليعقوبى القبطى فى المسيحية إلى مذهبها الكاثوليكي وباءت جميعا بالإخفاق الذريع لا فى الحبشة وحدها بل أيضا بين مسيحيي سنار . وتتطور الظروف فى دولة الفونج ، ويستولى على صولجان الملك فيها بادى أبو شلوخ سنة ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٤ م وتعود الحبشة إلى الشغب على حدود مملكة سنار ، وفى سنة ١١٥٧ هـ/ ١٧٤٤ م سار ياسوس إمبراطور الحبشة على رأس جيش منجها نحو مملكة سنار ، وأمر بحرق القرى السودانية وقتل الناس وأخذ إيلهم وأتعامهم ، وعسكر قسم كبير من الجيش الحبشى أمام سنار ولقيه جيشها وهزمه ، وكان الإمبراطور معسكرا مع بقية الجيش بعيدا فلما بلغته الهزيمة أثر السلامة وعاد بجيشه إلى بلاده . ويقول كاتب الشونة فى حديثه عن هذه الحرب ونهايتها : « فرح الملك بادى وأهل سنار ووفوا بنذورهم وعملوا الموالد وذبحوا الذبائح وأقاموا ولائم ونشروا الحرير وزينوا المسجد والسوق سبعة أيام وسمع سلطان الروم (الخليفة العثمانى) بذلك ففرح بنصرة الإسلام والدين » . ولم يحاول الأحباش بعد ذلك غزو السودان ودولة الفونج . وأخذت سياسة الملك بادى تسوء سوءا شديدا وغير كثيرا من القوتين واستعان بأهل التوبة مفضلا لهم فى الوظائف العليا على الفونج ، وغضب الشعب غضبا شديدا ، غير أنه انتظر نتيجة حملة كردفان سنة ١١٦٠ هـ/ ١٧٤٧ م ونجحت الحملة وضمت كردفان إلى دولة الفونج ، وقرر الشعب وقادة الجيش خلع بادى وتولية ابنه ناصر ملكا بعده .

وأصبح ملوك الفوننج - منذ هذا التاريخ - ألعوبة فى أيدى الزورلة من الحمج ، وكانوا جماعة أو قبيلة واضحا فى سنار : وكان منهم الوزير الأول لبادى أبى شلوخ ثم لابنه ناصر وهو الشيخ محمد أبو لكيلك ، أما جماعته وهم الحمج فيقال إنهم من الجميلين الذين كانوا ينزلون شمالا قبائل العبدلاب ، ويقال بل هم من أهل النوبة الذين أسكنهم الملك لبادى أبو دقن فى قرى حول سنار وجعل منهم جنده وحرسه الخاص . والأصل الذى اتخذه منه الشيخ محمد أبو لكيلك يرجع إلى جعل ، تزوج من نساء الأبواب . وقد مكته مجموعة أنحواله الأبواب من الاحتفاظ بإدارة الحكم وتبديره . وعزل الملك ناصر وتولى أخوه إسماعيل ، وتوفى الشيخ محمد أبو لكيلك وتولى المشيخة لبادى ود رجب ، وبدأ التنافس سريعا فى جماعة الحمج ، إذ أخذ غير واحد يستعين بمجموعته أو عشيرته ليستولى على الحكم ، وكثرت الانقسامات والحروب الأهلية فى الدولة إلى أن دخلت جيوش محمد على السودان سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م بقيادة ابنه إسماعيل كامل .



محمد على والسودان - عهد إسماعيل

(أ) محمد على^(١) والسودان

تَرجع بعض المغريات التى جعلت محمد على يفكر فى فتح السودان إلى ما سمعه عن شبيهه من الإخلاص والطاعة وشدة البأس ، فتمنى لو أتاحت لجيشه كتيبه أو كتائب سودانية بدلا ممن فيه من الترك والأرمنوط والألبان . ومن أهم المغريات أن الممالك الذين اضطهدهم فى مصر وأوقع بهم فى مذبح القلعة المشهورة فرُّ كثيرون منهم إلى السودان وخشى أن يكونوا دولة هناك تحمل السلاح ضده ، فرأى أن يتعقبهم ويقضى عليهم قبل استفحال أمرهم . فأصدر قرارا إلى محمد بك لاطوغلى بتجهيز الحملة ، فجمع جيشا من المغاربة والأتراك والأرمنوط والألبان وعربان البوادي ، ورُحل الجيش إلى حلفا وعين محمد على ابنه الثالث إسماعيل كامل قائدا له وعين معه مساعدين من كبار القواد . وسار الجيش فى أرض النوبة ، وطلب إلى قبائل الشايكية تسليم خيولهم وأسلحتهم فأبوا وقالوا إنهم يدفعون ضريبة أو إتاوة فقط ولكن لا يدفعون خيولهم وأسلحتهم التى نشأوا يحملونها . وصمم إسماعيل كامل على حربهم ، وعلى الرغم من بسالته لم يستطيعوا الصمود لرصاص المدافع ، فاستسلمت طائفة منهم وطائفة ولَّت وجوهها

الرائسى ، وتاريخ السودان القديم والحديث لتوم شقر ،
ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) نظر مخطوطة كتب الشونة : تاريخ السلطنة
السنية والإدارة المصرية ، والسودان عبر القرون
للدكتور مكى شيكة ، وعصر محمد على لعبد الرحمن

إلى مدينة شدى وفيها سلموا له ، وطمعهم وأخذ فى استمالتهم حتى ارتضوا أن ينضموا إلى جيشه . وكان المالك قد تسحبوا إلى شدى وأثر عدد منهم التسليم لإسماعيل كامل ، وفرت طائفة منهم إلى كردفان ومنها اتجهوا إلى ليبيا ، ولم يسمع عنهم بعد ذلك خبر . وطائفة اتجهت شرقا نحو الحجاز ، وانقطعت أخبارها . وسلم له الشايبة وحكام دنقلة وبربر وشدى والجليين . وواصل إسماعيل كامل زحفه حتى نزل فى مقرم درمان الحالية ، وفيها وفد عليه أمير البدلاب وسلم له فى أوائل رمضان سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م وهرب منه بعض الناس ولقبه آخرون أعطاهم الأمان لأنفسهم وكساهم ، وزحف إلى الجنوب ، وكان يهدى كل من لقيه من الحكام كسوة وسيفا ، ولقبه ملك الفونج فأمنه وكساه ودخل مدينة سنار فى الثمانى عشر من رمضان . وبدون ريب كانت دولة سنار دولة عظيمة أدت للإسلام والعروة خدمات جليلة لمدة ثلاثة قرون ورثاها بعض الشعراء .

وكان إسماعيل كامل قائد الجيش وهو فى دنقله قد أعد حملة بقيادة محمد بك الدفردار لفتح كردفان ولم يقبل حاكمها التسليم ، والتقى بجيش الدفردار عند مدينة الأبيض ولم تصنع شيئا السيوف والحرب إزاء الأسلحة النارية ، واستسلمت إمارة كردفان . واستقر إسماعيل كامل فى سنار ، وأخذ يرسل بالسرايا وتأتيه بالغنائم والأسرى . وزار إبراهيم باشا أخاه إسماعيل كامل فى سنار ليعد العدة معه لإرسال السودانيين إلى أبيه ، وعاد سريعا . وفرض إسماعيل كامل ضرائب فادحة على السودانيين فنضبوا غضبا شديدا فاضطر إلى تخفيضها . وأحسن بوخامة مناخ سنار فنزل واد مدنى وبنى بها ثكنات للجيش ومكاتب للحكومة ، وصمم إسماعيل - بعد غيابه عن القاهرة مدة ستين - أن يعود إليها ، ومر فى عودته بنصر ملك شدى والجليين ، وطلب منه أن يقدم إليه من الأنعام والنقد ما يبلغ نحو عشرين ألف جنيه ، وهو مبلغ تقصر عنه موارده أو هو مبلغ باهظ ، فلما راجعه قسا عليه ، فصمم نصر على الانتقام وأمر بوضع قصب جاف حول خيمته وأشعله وإسماعيل كامل نائم ، فمات بالاختناق سنة ١٢٣٩ هـ/١٨٢٣ م . وأعقب ذلك حملات انتقامية للدفردار قتل فيها آلاف غير من أميروا . وعين محمد على لإدارة السودان عثمان بك ونزل فى مكان الخرطوم الآن واتبع سياسة التكميل بالسودانيين وماذنبهم ؟ ولكنه كان قصير النظر مثل الدفردار ، وتوفى سريعا . وعين محمد على خورشيد أغا حاكما لإقليم سنار ، وكان عليه أن يرجع الثقة للحكومة وأن يعيد إلى السودان من فر إلى الحبشة ملتجئا ونجح فى تحقيق الغايتين ، واتبع فى سنار سياسة عمرانية رشيدة ، ورأى أن تبنى الزراعة فى السودان على الرى المستديم مثل مصر وطلب عمالا منها يجيدون صناعة السواقي وطلب عمالا آخرين لحفر الترع ، واستحضر من مصر أغراس بعض الأشجار المثمرة وشجع زراعة النيلة وقصب السكر ، وطلب كباشا من مصر لتحسين سلالة الضأن فى السودان . ورعى خورشيد إلى رتبة الميرمران ومنح لقب باشا . وبعد اثنى عشر عاما من حكمه

عاد إلى مصر وحزن السودانيون لعودته إذ عرفوا فيه الحاكم العادل الذى أنساهم سنين الدخردار الدموية ويقول كاتب الشونة عن عودته : « تجهز بكامل ما لديه ونزل بالمرآكب فصبب ذلك على الأهالى جميعا وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع » . وخلفه أحمد باشا أبو ودان وكان عهده استمرارا لعهد خورشيد وفيه يقول كاتب الشونة : « ضبط الحكومة أشد ضبط من غير إهمال ولا تفريط ، وأبطل ما كان من تمدى المساكر على الفلاحين فى تسخيرهم فى الأشغال وتسخير بهائمهم .. وبذلك ارتاحت الأهالى وزادت العمارة وكثر الخير وخصبت الأراضى ورخصت الأسعار حتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وصارت أيامه أحسن من أيام سلفه ، وإن كانت أيام سلفه أيضا حسنة فى نفسها » . وتوفى أحمد باشا أبو ودان ، فرأى محمد على تقسيم السودان إلى مديريات وترجع كل مديرية رأساً إلى مصر ، ويتعاون المديرون فى المصالح المشتركة ، وطلب إلى الحكومة العثمانية أن تضم مينائى مصوع وسواكن إلى السودان وأجابه إلى طلبه . ومنذ ولاية ابنه إسماعيل كامل كانت ترسل له جماعات ممن يؤسرون من السودانيين فى الجبال لضمها إلى الجيش . وتبين خطأ هذه السياسة إذ كان كثيرون منهم يموتون فى الطريق أو فى معسكرات مصر . وانتظمت الإدارة منذ ولاية خورشيد بما أخذ به هو ومن جاء بعده من سياسة عمرانية قومية وتحسين الرى والزراعة وزيادة الإنتاج الحيوانى وجلب العمال المهرة من مصر لصناعة السواقي وحفر الترغ .

وخلف عباس الأول بن طوسون جده محمد على سنة ١٨٤٨ وفى عهده أنشئت القنصليات فى الخرطوم ، ومع أنه أغلق فى مصر بعض المدارس أمر بفتح مدرسة كبيرة فى السودان وعين رفاعة الطهطاوى ناظراً لها . غير أن سعيداً حين خلفه أغلق هذه المدرسة ، وفى عهده لبطلت تجارة الرقيق السودنى نهائياً وزار السودان وأمر بإصلاح الأداة الحكومية فى جمع الضرائب وخففها ، ورأى أن تبقى كائب الجند فى السودان وأن لا تسلط على الناس وأن يقف جمعها للضرائب ، وأمر بتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السودانيين على إنشاء الحدائق فى منازلهم .

(ب) عهد إسماعيل^(١) (١٨٦٣ - ١٨٧٩ م)

كان أول ما عمله إسماعيل تعيين موسى باشا حمدى حكامداراً للسودان وبذلك أعاد للحكم هناك نظام المركزية أيام خورشيد ، وأشرك العنصر السودنى فى الحكم فعين الشيخ أحمد أبو سن كبير قبيلة الشكرية مديراً للخرطوم وسار وظل فى وظيفته إلى أن توفى بعد عشر سنوات وأظهر قدرة ممتازة برهنت على كفاءة السودنيين الإدارىة ، وطلبه إسماعيل بمعاملة السكان بالعدل والعمل على ازدياد العمران فى السودان وتوسيع نطاق تجارتها ، وأنشئت فى السودان

(١) تاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير .

(١) تنظر فى السودان لعهد إسماعيل كتاب السودان عبر القرون لمكى شبكة وعصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعى

زمن حكمدارية موسى حمدى خمس مدارس فى عواصم المديرات : بربر والخرطوم والأبيض وكسلا ودنقلة . وقد أمدت هذه المدارس النظامية الإدارة السودانية بمآجتها من الكتاب والمآسين وعمال التفراف وأحدثت نهضة فى الثقافة والأدب بعد أن كان العلم مقصورا على خلاوى القرآن ومآلس العلوم الشرعية . وأمر إسماعيل بالإفناق على المسآد وكتآب القرآن وفرض رواتب شهريه لها . وعين إسماعيل آعفر مظهر حكمدارا للسودان وكان على معرفة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية فكان آجتمع عنده العلماء والأدباء للحوار والمناقشة وشاع فى أيامه الشغف بالعلم والأدب ، وأخذ بعض الشعراء ينظمون قصائد كانت تنشر فى الوقائع المصرية ، وأمر إسماعيل بالتوسع فى نطاق السودان : فى دارفور وبحر الزفزال وخط الاستواء . وتطورت الظروف فى بحر الزفزال وعُين الزبير السودانى مدبرا له ، وساءت العلاقات بينه وبين الزريقات فآاربهم وانتصر عليهم سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٤ م وفر مشآيخهم إلى سلطان دارفور فنآزله الزبير وقتل فى إحدى المآرك ، ودخل الزبير عاصمته : الفآشر سنة ١٢٩٢ هـ/١٨٧٦ م وضمت دارفور إلى السودان ، وكان ذلك من الزبير عملا آجلبا .

أما خط الاستواء فقد ارتبط مصيره بآنجليزين أحدهما مكشف مهم هو صموئيل بيكر مكشف بحيرة ألبرت الاستوائية ، والآنى ضابط إنجليزى هو غوردون ، وكان صموئيل بيكر زار مصر فى أوآئل سنة ١٢٨٠ هـ/١٨٦٩ م بسمية ول عهد الملكة الإنجليزية ، فآرف عليه إسماعيل واختاره للقيام بحملة على خط الاستواء وضمه لمصر ، وارتضى ذلك صموئيل بآكر وحرر معه عقد لمدة أربع سنوات براتب سنوى يبلغ نحو عشرة آلاف آنيه . وهى إحدى غلطآت إسماعيل الكبرى أن يعهد إلى إنجليزى بفتح منطقة خط الاستواء ظآنا أنه سيآدم مضر ، وأسر صموئيل بيكر فى نفسه أن يآدم بلاده بجمل منطقة خط الاستواء مستعمرة بريطانية لو استطاع ، ووضع نصب عينية تأليب السودآين على مصر والمصريين ، وقُفقت الحملة ثلثمائة ألف من الجنهآت ، ولم تتم عملية الفتح والضم كما كان مآنوننا ، وكل ما آجته مصر من الحملة طوال أربع سنوات تأسيس ثلاث معطآت هناك فى غندوكرو وفآتيكو وفويرا ورفع أعلام مصرية عليها . وانتهى عقد بيكر وعاد إلى بلاده ، وبدلا من أن يعهد إسماعيل إلى مصرى أو سودانى بآتمام الفتح قدم إليه وزيره نوبار ضابطا إنجليزيا تعرف عليه فى السفارة الإنجليزية بالآستانة هو غوردون الذى آخدم دولته فى حروب القرم وفى الصين ، فآرضاه إسماعيل لينعم ما بدأه صموئيل بيكر فى منطقة خط الاستواء ، فآجح هناك فى تأسيس مجموعة من المخطآت العسكرية ، وكان سياسيا مآكرا فآذب قلوب الناس إليه ، وآضطر للدخول فى مآواشات مع أوغندة والبلدان المآورة ، وأحس بالإرهاق فعاد إلى مصر مصمما على عدم العودة إلى السودان ، غير أن إسماعيل آتمه بآآال مهمته ، فوعده بآرجوعه بعد زيارته لبلاده . وكانت مصر استولت على سواكن ومصوع ودخلت كل المنطقة الشرقية فى السودان ،

وفى سنة ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٥ م وصل المصريون إلى حدود الحبشة فنشبت حرب بينهم وبين الحبشة وتوفى ملكها يوحنا بعد قليل واستولى المصريون على مرتفعات إرتريا فى سنى ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٥ م و ١٢٩٢ هـ/ ١٨٧٦ م وبذلك اتسعت إمبراطورية إسماعيل من البحر المتوسط إلى منطقة البحيرات فى أعالي النيل : ألبرت وفيكتوريا ومن سواحل البحر الأحمر وسواكن ومصوع وزيلع إلى دارفور شرقى بحيرة تشاد ، وبسطة حمايتها على خليج عدن وبوغاز باب المندب وعلى أوغندة ووصلت حدودها إلى المحيط الهندى ورأس جرفوس عليه . واعترفت إنجلترا بسلطان مصر على الصومال . ويعود غوردون ويلقى إسماعيل سنة ١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٧ م بحضور وزيره شريف باشا ويحبىه إسماعيل إلى ما طلبة من تعيينه حكامداراً عاماً على السودان وأعطاه سلطات لم تعط لحكامدار قبله وينزل السودان ويبدأ بتفقد الشرق ، وفى مصوع جاءه خبر بالتمرد والعصيان فى إقليم دارفور وظل يعالج الأمور هناك فترة طويلة ، وشك فى إخلاص السودانين وفكر فى الاستعانة بإنجليز وأرويين وهى فكرة خاطئة . وجاءه خبر تنازل إسماعيل صديقه عن الحكم وإن ابنه « توفيق » خلفه ، فصمم على اعتزال العمل فى السودان ، إذ لن يظل منتمياً بما أتاح له إسماعيل من سلطات واسعة . ومن المؤكد أن الحكم المصرى للسودان الشقيق أتاح له تقدماً فى العمران وزيادة فى الإنتاج واستغلال الثروة الزراعية والحياوية وازدهاراً فى التجارة مع تأسيس المدارس للتعليم المدنى ونشر المعارف العلمية الحديثة .

٥

حركة المهدي - خليفته عبد الله التعايشي

(أ) حركة (١) المهدي

المهدي هو محمد بن عبد الله ولد سنة ١٢٦٠ هـ/ ١٨٤٤ م لأب كان يعمل نجاراً فى بناء السفن بمنطقة دنقلة ، وهاجر فى النيل جنوباً ونزل فى مدينة شندى وتركها إلى قرية شمالى أم درمان ، وتوفى . واحترف إخوة محمد مهنة أبيهم ، أما هو فكان يميل بفطرته نحو الدين ودخل خلوة حفظ فيها القرآن الكريم ، وبعد حفظه له التحق بشيخ أو بشيوخ يتعلم على أيديهم الفقه والتوحيد والنحو ويتلقن التصوف . وكان إخوته بعد وفاة والدهم نزلوا الخرطوم ونزلها معهم ، ولزم شيخاً صوفياً من أتباع الطريقة السملية وعنه تلقن تلك الطريقة ، وأخذ يميل إلى النسك والعزلة ، واعتزل سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٧٠ م فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض

عهد الاحتلال لمد الرحمن الرافى ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر فى تلك الحركة كتابى السودان عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شيكة وتاريخ السودان القديم والحديث لنعم شفيق ومصر والسودان فى أوقات

واقصر في كهف بها على شاطئ النهر للنسك والعبادة ، واختلف مع شيخه الصوفي الشيخ محمد شريف إذ وجده يحتفل في ختان أحد أبنائه بصور من اللوح لم يَشْفِهَا تصوفه ، ومث عن شيخ آخر من أصحاب طريقتة السمانية جدد عليه العهد . وكانت أسرته تذكر أنها من سلالة الرسول ﷺ فأخذ يكاتب مشايخ الطرق وبعض العلماء سرا بأنه المهدي المتظر الذي بشر به الرسول ، وأعلن لهم أن الله خصه بذلك لنصرة الإسلام وأن النصر سيلازمه ، وأخذ مريده من السودانيين يتكاثرون ويلتفون حوله ، ولما اتسعت دعوته أرسلت إليه الحكومة قوة إلى جزيرة أبا فاستطاع بمن معه من الدراويش أن يقهرها ورأى المهدي أن يخرج من تلك الجزيرة لأنها مكشوفة ولا تساعد على التحصن ضد القوة الكبيرة التي سترسلها الحكومة واتجه إلى منطقة نقل في كردفان ونزل في جبل قدير واستقر به ، ووجهه إليه مدير فاشودة قوة لقتاله وقضى عليها ، وعقب هذه الهزيمة لقوات الحكومة طلب رءوف باشا حاكم السودان إمدادات عسكرية من مصر وكان العرابيون يسيطرون على الوزارة ، فرأوا إرسال عبد القادر باشا حلبي ، وقبل وصوله تألف جيش بقيادة يوسف باشا الشلالى لمنازلة المهدي سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م في مستقره بجبل قدير ، وهزم هذا الجيش مثل الحملتين السابقتين له ، وأكسبه هذا النصر أنصارا كثيرين ، وثار كثيرون معه في الجزيرة ولكن الحكومة أخذت ثوراتهم وأعاد إلى الجزيرة عبد القادر باشا حلبي المدعو . وفي سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م هاجم مدينة الأبيض واستولى عليها واتخذها مقرا له ، وجاءه مريدون كثيرون من أنحاء السودان يريدون رؤية « ولي الله ».

وكان الإنجليز قد احتلوا مصر فأرسلت حكومة الاحتلال عشرة آلاف جندي بقيادة هكس باشا الإنجليزي وهاجمت المهدي في الأبيض وأُعيدت لمادة تامة ، وغنم الأنصار أتباع المهدي غنائم كثيرة ، وأخذت الوفود تغد من جميع أنحاء السودان لمبايعة المهدي وأخذ النساء في الأفراح وفي أعمالهن من احتطاب وغيره يتضين بالمهدي وسنابقه ، واضطربت الحكومتان المصرية والإنجليزية ورأى الإنجليز جلاء المصريين عن الخرطوم . وفي ديسمبر سنة ١٨٨٣ للميلاد استسلم للمهدي الضابط المساوي سلاتين باشا حاكم دارفور باسم الحكومة المصرية بعد أن ظل ينازل أتباعه سنة كاملة دون جدوى . وعادت إنجلترا للضغط على مصر بالجلاء عن السودان وأصر شريف باشا على الاحتفاظ بالسودان ، واستقال في أوائل يناير سنة ١٨٨٤ وخلفه نوبار باشا ، ورأت الحكومة في إنجلترا أن غوردون هو الذي يمكنه إقناع الموقف وإجلاء الجنود المصريين عن السودان ، فقبل المهمة ظاناً أنه يتمتع بشخصية شعبية في السودان ونسى أنه أغضب كثيرين منهم لمكافحته تجارة الرقيق ، ولم يكن يتصور مدى الحماسة الدينية التي أشعلها المهدي في نفوس السودانيين ، ووصل الخرطوم في فبراير سنة ١٨٨٤ وأرسل نوا إلى المهدي خطبا يمينه فيه ملكا على كردفان وأعلن فيه أنه يبيع تجارة الرقيق ، وأنجاه

المهدى طالبا منه الاستسلام والدخول فى الإسلام بينما كان هو يفكر فى منح السودان استقلالاً ذاتياً تحت نفوذ الحكم الإنجليزى ، وبدأ أنه من غير الممكن الاتفاق بين الرجلين ، ونشبت مناوشات فى الشرق عطلت الطريق إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر وأُرسلت إنجليترا حملة بقيادة جراهام لم يكسب لها النجاح ، وسقطت مدينة بربر فى أيدي الأنصار أو المهديين ، وأُرسلت إنجليترا حملة بقيادة ولسلى وتجمعت قوة مصرية إنجليزية فى أسوان وحلفا وأخذت طريقها فى النيل وهزمت بعض قوات المهدي فى المراكز الأمامية ، وأخذ المهدي يهدد جيشه للاستيلاء على الخرطوم ، وشاعره الشيخ محمد عمر البنا ينشده قصيدته :

الحربُ صبرٌ واللقاءُ ثباتُ والموتُ فى شأنِ الإلهِ حياةُ

وتجمع أتباعه جنوبى طاية أم درمان فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٨٤ للميلاد ولم يسرع المهدي فى فتح الخرطوم ورأى حصارها حتى تستسلم حقناً للدماء . وبلغ المهدي أن الحملة المصرية الإنجليزية وصلت التمة فأمر بالهجوم على الخرطوم فى السادس والعشرين من يناير قبل وصولها ، ودخلها الأنصار من ثغرة فى طرف الاستحكامات على النيل الأبيض وفتحوا بالحامية ، وقتل غوردون فى قصره . ودان للمهدى السودان بجميع أرجائه ، وانتقل بمعسكره إلى أم درمان وأذعنت له دنقلة وأخذت الحاميات المصرية تستسلم وأعلن الإنجليز إخلاء السودان من جنودهم . وما وافى اليوم الرابع من رمضان سنة ١٣٠٢ هـ/ الخامس عشر من يونية سنة ١٨٨٥ م حتى أصبلت المهدي حمى التيفوس ولم تمهله إذ توفى بعد أسبوع . وأثرت له تعاليم من شأنها أن تجعل لدعوته أساساً واضحة ستحدث عنها فى الفصل المقبل وأثرت عنه بعض مواظ مثل قوله : « إذا دخلتم فى الصلاة فادخلوها بالحضور والخشوع والخضوع والتذلل والانبهاال والانكسار وتسكاب الدموع إن استطعتم مع توجه القلب إلى الله وقول لا عيش إلا فى دارك ولا نعيم إلا فى لقاءك » .

(ب) عبد الله التعايشى^(١) خليفة المهدي

استخلف المهدي - وهو يختصر - عبد الله التعايشى يده المنى فى دعوته ، ونقل عاصمته إلى أم درمان : قلعة الخرطوم على الضفة اليسرى ، وكان قد هاجر إلى المهدي مبكراً وهو لا يزال فى جزيرة أبا وياييه ، وأخذ المهدي يعتمد عليه فى الإدارة والتنفيذ ، فطبعى أن يعهد إليه بخلافته ، وكان عماده على أهل الغرب وخاصة على قبيلته البقارة الذين نقلهم إلى أم درمان ، ومنهم ومن الجعليين نظم قوته العسكرية . وجعل فى أول الأمر شئون الحكم والإدارة فى أيدي أسرة المهدي وسُموا الأشراف ، وندب التعايشى ستة عشر قاضياً للحكم بين الناس

وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقر ومصر
والسودان فى أوتال عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافى .

(١) انظر فى التعايشى وخلافته للمهدى كتاب السودان
عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شيكة

بموجب الكاب والسنة ، وقسم السودان إلى عملات أو أقاليم ، وجعل على كل عمالة أو إقليم حاكماً ، يسيطر على الجيش والإدارة ومع كل حاكم عدد من الموظفين يساعدونه فى أعماله الإدارية ، واستحالت العاصمة أم درمان من معسكر إلى مدينة كبيرة .

وكانت مصر قد استردت حاميتها من ميناء مصوع فاتحها الإيطاليون واحتلوا أيضا إريتريا سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م وأسرع التعايشى وعين على مدينة القلابات عاملا نواش الأحباش وقتل فى إحدى المعارك ، وبوسل إليها قائده لما عنجة على رأس جيش كبير يتألف من نحو ستين ألف جندي لقتال الحبشة ، ولقيه جيش حبشى بقيادة الرأس عدار ومضى الأحباش بهزيمة قاصمة ، وتقدم المهديون إلى قندر (غوندار) عاصمة الحبشة حينذاك وأحرقوها . ومنذ سنة ١٣٠٣ هـ/١٨٨٦ م أصبح بحر الغزال دون حاكم يشرف على شئونه ، وبالمثل حديرية خط الاستواء وكانت سقطت فى أيدي أتباع المهدي سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٨ م وضمتها الإنجليز إلى مستعمرتهم أوغنده . وصمم يوحنا إمبرطور الحبشة سنة ١٨٨٩ للميلاد على أن يفصل عن جيشه عار هزيمة سنة ١٨٨٦ فحشد جيشه جميعه وتقدم به إلى القلابات لحرب المهديين أو الأنصار ، والتفوا به ودارت الدوائر على جيشه وجرح فى المعركة جرحا مميتا واتسحب جيشه ووراءه الأنصار يقتلون ويأسرون ويستولون على غنائم لا تحصى من العبيد والجوارى والأسلحة والخيول وتاج الإمبراطور نفسه ، وهو نصر رفع الروح الحربية والمعنوية فى الأنصار إلى الذروة . وصمم التعايشى على غزو مصر وإنقاذها من الاحتلال الإنجليزى وأعد لذلك فى نفس السنة جيشا بقيادة عبد الرحمن النجوى ، وهو من الجميلين ، وسار إلى الشمال متجها إلى أسوان ومصر ولكن حامية وادى حلفا أزلت بجيشه خسائر فادحة ، وزادتها فداحة وجسامة معركة توشكى بعدها بحث قضى على الجيش السودانى قضاء نهائيا . وفى السنة نفسها انتشرت فى السودان مجاعة كبيرة ، وكان التعايشى يحاطا بالأعداء من كل جانب فلم يستطع تموين البلاد من الخارج . وفى سنة ١٣٠٧ هـ/١٨٩٠ م أخضع التعايشى قبائل الشوك أشجع القبائل السودانية الزنجية فى الجنوب ودخلت عاصمتها فاشودة فى طاعته ، وكان ذلك تعويضا له عن خسائره فى الشمال وفى المجاعة . واستطاعت قوة مصرية فى سنة ١٣٠٨ هـ/١٨٩١ م أن تهزم عثمان دقة قائد التعايشى بالقرب من مدينة طوكر جنوبى سواكن واستردتها . وفى سنة ١٣١١ هـ/١٨٩٤ م استولى الإيطاليون على مدينة كسلا السودانية بالقرب من حدود إريتريا . ونشبت حرب بين إيطاليا مالكة مصوع وكسلا وبين الحبشة فى عهد إمبراطورها الجديد منليك سنة ١٨٩٥ للميلاد وأُزيل الأحباش بالإيطاليين هزيمة ساحقة فى غرة مارس سنة ١٨٩٦ عند مدينة عدوة ، وبذلك قضى على ما كان يتهدد أتباع التعايشى من خطر الطليان . غير أن خطرا أعظم أخذ يبدو فى الأفق ، فقد روى إنشاء خط حديدي من وادى حلفا إلى مدينة أبى حمد بين الشلالين الرابع والخامس يمكن استغلاله فى نقل الجيوش سنة

١٣١٣ هـ/ ١٨٩٦ م وصدرت الأوامر إلى سردار الجيش المصرى أو بعبارة أخرى قائده العام كشنر لإعداد جيش لفتح السودان ، ومرت الجيش بوادى حلفا ، واسترجع مديرية دنقلة . واستراح الجيش ثم وصل إلى نوى حرد فى أغسطس سنة ١٨٩٧ للميلاد ، وفى هذه السنة استولى الجيش المصرى على كسلا ورفع هناك العلم المصرى ، وتقدم كشنر بالجيش واتصر فى معركة عند عطبرة فى أبريل سنة ١٨٩٨ للميلاد ، ومضى فى زحفه حتى أم درمان ونشبت معركة حامية الوطيس فى شهر سبتمبر دارت فيها الدوائر على الأنصار . واتجه التعايشى إلى الغرب يريد أن يحتسى به ، وظل أشهراً بعدة للقاء كشنر ثلثة ورفع كشنر العلمين المصرى والإنجليزى على سراى الحكم فى الخرطوم ودارت موقعة بين التعايشى وبين بعض متعقبه من جند كشنر فى نوفمبر سنة ١٨٩٨ وتوفى . وموته دانت البلاد للجيش الفاتح .

٦

الحكم^(١) الثانى المصرى الإنجليزى فى السودان

رأينا كشنر بمجرد دخوله الخرطوم يرفع على سراى الحكم العلمين المصرى والإنجليزى ، وكان كرومر المندوب السامى البريطانى قد استطاع أن يقنع نوبار باشا فى يناير سنة ١٨٩٩ للميلاد بتوقيع على وثيقة الحكم الثانى المصرى الإنجليزى للسودان ، وعينت الوثيقة خط العرض ٢٢' شمالا حداً فاصلاً بين مصر والسودان ، وأن يرفع العلمان المصرى والإنجليزى على جميع دور الحكومة وأن تكون الإدارتان العسكرية والمدنية بيد موظف ترشحه الحكومة البريطانية ويعينه خديوى مصر ، ويلقب بحاكم عموم السودان ولنشوراته حكم القنون ولا يسمح لتمثيل قصى فى السودان إلا بموافقة الحكومة البريطانية ، ولا تمتد سلطة المحاكم المختلطة إلى أى جزء فى السودان . وواضح أن المحاكم العام يكون إنجليزيا وترشحه الحكومة الإنجليزية ، ومنح سلطات كبيرة تجعله حاكماً مستقلاً . ورأى كرومر أن تكون مناصب المدبرين والمفتشين لإنجليز ، أما المصريون فلهم إدارة المراكز والأموريات . وربما كتلت الحسنة الوحيدة فى هذه الاتفاقية أن السودان أعفى من الامتيازات الأجنبية . وعين كشنر أول حاكم عام للسودان وقد جمع من السودانيين تبرعات لإنشاء مدرسة ثقوية تسمى كلية ذكرى غوردون ، وبلغت التبرعات مائة ألف جنيه . وانتحت المدرسة سنة ١٩٠٣ وتمشت فيها أقسام متخصصة : قسم للشريعة الإسلامية لتخريج القضاة ، وقسم للمهندسين وقسم للمعلمين ، وظلت مصر تؤمن السودان مالياً حتى سنة ١٩٥٤ ووضعت نظم للشؤون المالية والشؤون الإدارية والتعليم

والسودان أوائل عهد الاحتلال للفرنسى ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر السودان عبر القرون للذكور مكي شيكة وتاريخ السودان القديم المحدث لغوم شفيق ورجيع فى استعادة السودان واتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ كتاب مصر

والقضاء والمصالح الحكومية . وترك كشنر السودان فى ديسمبر سنة ١٨٩٩ وخلفه وينجت
حاكما عاما للسودان حتى سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م ، وقُشىء - حسب الاتفاقية الثانية -
مجلس سنة ١٩١٠ باسم مجلس الحاكَم العام . وعُنى الحكم التتقى بالمواصلات والبرق
(التلغراف) ومُدَّت سكة حديد من وادى حلفا إلى الخرطوم وأضيف خط إلى سنار والأبيض
وخط من عطبرة إلى سواكن على البحر الأحمر وقُشىء خط ملاحة نهزى من الخرطوم إلى
بحر الغزال ، ووضعت مشروعات رى كثيرة بعد الدرامة ، منها مشروع الجزيرة المشهور
وجُرِّت زراعة القطن ونجحت نجاحا كبيرا ، وأُسست مدارس أولية فى المدن الكبرى ،
وقُشِئت ورش صناعية ، وكان يقوم بالتعليم فى هذه المدارس معلمون مصريون أكفاء ، وقُشِئت
مدارس لتخريج المعلمين .

وقامت بعض ثورات محلية فى الحرب العظمى وسرعان ما كانت تخدم ، وبالمثل ما حدث
من بعض الثورات فى جبال النوبة . وتضطرب العلاقة بين على دينار سلطان دارفور والحكومة
ويحمل السلاح ضد الحكومة ويتوفى برصاصة طائشة سنة ١٩١٦ وتضم دارفور إلى السودان
نهائيا وبصبح تاريخها جزءا من تاريخ السودان . ومع الثورة المصرية سنة ١٩١٩ نشط الوعى
القومى فى السودان للمطالبة بحقوقه ثم كان مقتل السير لى ستاك حاكم السودان وسر دار الجيش
المصرى سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م وخرج الجيش المصرى - بضغط الإنجليز - من السودان
فاندلعت هناك ثورة وطنية ضخمة تمد - بحق - بدء العصر الحديث فى السودان الشقيق .

الفضل الثاني

المجمع السوداني - الثقافة

١

المجمع^(١) السوداني

رأينا في الفصل الماضي كيف أن الإسلام أخذ ينتشر في السودان وشرقيه تدريجا بفضل القبائل العربية الكثيرة التي نزلت في حوض النيل جنوبى حلفا وفي شرقيه بقبائل البجة واستغرق ذلك قرونا دخل فيها أهل النوبة في الدين الحنيف وقامت في دنقلة سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م أول دولة إسلامية وأخذت صلة مملكة علوة جنوبى دنقلة بالكيسة اليعقوبية في الإسكندرية تتضاءل وأخذ أهلها يعتنقون الإسلام ، وكان انتشاره في غربى السودان أسرع بفضل كثرة من نزل من قبيلة زوارة البربرية وعرب الشاوية رعاة الشاة وأيضا بفضل تجار البرنو والكنام ، وتكونت سريعا في دارفور ووادى مملكة إسلامية أواخر القرن الخامس الهجرى .

وأخذ الإسلام ينتشر تدريجا في مملكة علوة وفي جبال النوبة وعلى شاطئ النيل الأبيض وفي جنوبى السوايط وبحر الغزال ، ولا نصل إلى القرن العاشر الهجرى ، حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا وإن ظلت به بعض الجيوب المسيحية والوثنية ، وتأسس سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م دولة الفونج الإسلامية في مدينة سنار على النيل الأزرق وتنتشر سلطاتها على النيل الأبيض وعلى الجزيرة بينه وبين النيل الأزرق وعلى مملكة تغلى في جبال النوبة .

(أ) نزعة صوفية عامة

عملت دولة الفونج على نهضة دينية واسعة ، وفسحت للتصوف وطرقه في الانتشار بأعنائها وكان أول من حاول نشره في ديارها الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى وكان قد تعرف عليه بعض حجاج السودان في أثناء حجه ، وأقنعه بالذهاب معه إلى سنار ونشر طريقته الصوفية بها ، وكان من أتباع الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلانى الحسينى نسبيا المتوفى ببغداد

محمد فوزى مصطفى عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم
والحديث لنعم شفيح والتربية في السودان لعبد العزيز
عبد المجيد والسودان عبر القرون للدكتور مكى شيكة
ومشورات المهدى .

(١) انظر في المجمع السودانى كتاب الطبقات لود
ضيف الله وتاريخ الثقافة العربية في السودان للدكتور
عبد المجيد عابدين وكتاب الثقافة العربية وأثرها في
تمسك الوحدة القومية في السودان المعاصر للدكتور

سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م وله كتابان مطبوعان هما سر الأسرار والفتية لطالبي الحق ، وطريقته إحدى طريقتين صوفيتين سنتين والثانية الطريقة الرفاعية للشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م أشاعتها بغداد في العالم العربي ، ويقول ابن تفرى بردى عن الجيلاني إنه « أحد المشايخ الذين طُنَّ ذكرهم في الشرق والغرب » .

ونزل الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي مدينة سنار حوالى سنة ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م وأخذ يدعو للطريقة الجيلانية ، وحظيت دعوته بنجاح كبير فى دولة الفونج وبخاصة فى أرض الجزيرة التى أقام بها سبع سنوات ، وجاءه السودانيون من كل مكان لينظمهم فى سلك الطريقة القادرية ، وأخذ المعهد على كثيرين من أهمهم محمد الأمين بن عبد الصادق جد الصادق جده فى إقليم سوكنى بين واد مدنى والقضارف والشيخ عجيب المتجلك جده البدلأب وعبد الله دفع الله العركى جده العركين وبان النقا الضرير جده اليعقوباب ويقال إن الشيخ البهاري قلَّده شعار الرئاسة بعده فى دولة الفونج . وهؤلاء الأربعة سيطروا على السلطة الروحية وورثوها أبناءهم ، وارثهم الشيخ البهاري إلى تولى وأدخل فى الطريقة عبد الله الحمال جده الشيخ حمد ولد الترملى مع جماعته . وتفرعت عن هذه الطريقة فى أواخر دولة الفونج الطريقة السماتية على يد الشيخ أحمد الطيب ود البشير المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٣ م . وكل هؤلاء وذرياتهم ظلوا قاطنين على الطريقة القادرية ناشرين لها ومسيطرين على السلطة الروحية فى السودان إلى اليوم .

وبجانب الطريقة القادرية الصوفية عرف السودان فى دولة الفونج الطريقة الشاذلية الصوفية ويبدو أن معرفته بهذه الطريقة تسبق زمنيا قيام دولة الفونج . فقد نزل أحد أتباعها المغاربة - وهو حمد أبو دنانة زوج بنت الشيخ محمد بن سليمان الجزولى مؤلف دلائل الخيرات وداعية الطريقة الشاذلية فى المغرب منذ سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م . ومعروف أن لها الحسن الشاذلى مؤسس هذه الطريقة نزل مصر ودعا إلى طريقته وتبعه خلق كثير ، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وظلت طريقته إحدى الطرق الصوفية السنية الأساسية فى مصر . ومن أهم دعائها فى السودان أيام الفونج الشيخ خوجلى عبد الرحمن المحسى المتوفى سنة ١١١٥ هـ / ١٧٤٣ م واشتهر بعده بالدعوة لها الشيخ حمد المجذوب المتوفى سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م وكان قد زار مصر والحجاز وأسس للشاذلية فرعا فى مدينة الدامر شمال الخرطوم وسميت طريقته باسم طريقة المجاذيب ، ومعروف أن الطريقة الشاذلية تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجلب التسك والعبادة وصدق القلب والشعور الباطنى الصوفى ، وهاجم الشاذلى بشدة حياة الخنقاهات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرُّحَل . وبجانب هاتين الطريقتين كان بعض السودانيون يأخذون طريقتهما الصوفية عن حجلزين فى أثناء حجهم أو عن مصريين فى أثناء دراستهم بالأزهر وأحيانا عن بعض أهل تمبكتو كما حدث للشيخ خوجلى عبد الرحمن الشاذلى المذكور

أنفاً ، وقد جمع بين التصوف وعلم الكلام والفقه ، أما التصوف فأخذه عن الشيخ أحمد التمبكتاوى نسبة إلى تمبكتو على النجر الأوسط ، وأخذ علم الكلام عن الشيخ أرباب الخشن ، والفقه على الشيخ الزين بن صغيرون . وكان يلبث الثياب الفاخرة ، وعلى رأسه الطربوش الأحمر ، ويصمم بالشيشان الفاخرة ، ويتخير بالموعد المندى ويتطرّف ، ويجعل الزباد الحبشى فى لحيته ويثابه ، ويقول إنه يقتدى فى ذلك بشيخ طريفته أئى الحسن الشاذلى إظهاراً لنعمة الله ، فقيل له إن القادرية : إنما يلبسون الجيب والمرقمات فقال : ثيلى تقول للخلق : أنا غيبة عنكم ، ويذهبهم تقول لهم أنا مفتقرة إليكم .

وعمت فى زمن دولة الفونج (٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م - ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م) النزعة الصوفية كل أنحاء السودان ، وبحق ما لاحظته الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه : « التربية فى السودان » من أن هذه النزعة كانت تعم حينئذ الحياة الدينية فى العالم الإسلامى وثباتها سيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامتزجت بالدراسات الإسلامية ، وصار من العلماء من يعتقد أن علم الظاهر لا بد له من علم الباطن بل إن منهم من اعتبر أن علم الباطن هو العلم الحقيقى ، وما يدل على ذلك بوضوح ما ذكره ود ضيف الله عن الشيخ عبد الله المركبى فقه بعد أن تفقه على الشيخ عبد الرحمن بن جابر ذهب إلى غلبة الملاية وشرع فى التدريس وذاع صيته ، وقدم فى أيامه الشيخ تاج الدين البهارى فحاول أن يدخله فى طريفته القادرية الصوفية ، فامتنع ، وحين رأى ما لأتباع الشيخ من مكاتبة تحركت فى نفسه الرغبة فى أن ينضم إلى الطريقة القادرية ، وكان الشيخ البهارى رحل إلى مكة فاسافر إليه وأخذ عنه الطريق . ومن ذلك أن نجد الشيخ المسلمى الصغير بعد أن قرأ مختصر خليل فى الفقه المالكى وتفقه فى الدين رأى أن معرفته لا تتكامل إلا إذا دخل فى طريقة صوفية فذهب إلى الشيخ دفع الله المركبى وقال له : « علمى ما نفعنى ، أتيتكم راغباً مددكم ، فسلكه فى الطريق وأدخله خلوة سبعة أيام ، وخرج منها « صوفياً » كاملاً . وذاكر ود ضيف الله أيضاً عن الشيخ أئى القاسم الوديدلى أنه تفقه على الشيخ صغيرون ، وسلك طريق الصوفية على الشيخ إدريس . ومن ذلك ما يقوله ود ضيف الله عن الشيخ محمد البنوفرى من أنه رحل إلى مصر ليقرأ على علمائها مختصر خليل ، وبعد عودته إلى السودان صحب فى التصوف الشيخ إدريس ود الأرباب . ويكثر ود ضيف الله فى طبقاته من قوله عن هذا الصوفى أو ذلك إنه جمع بين الفقه والتصوف .

وما رفع من شأن الطرق الصوفية وأصحابها فى نظر أهل السودان وجعلهم يتفنون حولهم التفاناً لم ينله أحد من الفقهاء وعلماء الشريعة الإسلامية فهم رأوهم لا يعملون حساباً لذوى السلطان ، إذ كانوا لا يأخذون رواتب منهم ، كما رأوهم يتفانون فى خدمة أتباعهم وخاصة فى أيام الضيق والعسر الشديد . ويعرض علينا ود ضيف الله فى كتابه الطبقات صوراً متعددة

توضح مدى ما كان ينهض به الشيخ الصوفى لأتباعه حين تحدث مجاعة كمجاعة نجيع أم لحم سنة ١٠٩٥ هـ/ ١٦٨٤ م فإن شيوخ الصوفية فتحوا حيثذ لأتباعهم خلواتهم وقدموا لهم فيها الطعام ، وكان بعضهم يظل يقدم هذا الطعام حتى فى سنوات الخصب مثل الشيخ ود حسونه ، ويقول عنه ود ضيف الله ، إنه كان يعنى بالفقره (أتباع المتصوفة) فى الخلوات فيذبح لكل خلوة من خلواته شاتين فى كل يوم ، وكان عدد خلواته إحدى عشرة وقيل بل ثلاث عشرة .

ورأى أهل السودان أن هؤلاء الشيخ لا يهابون ذوى السلطان ، وإذا كان لأحد منهم شيا عند حاكم طلب إلى شيخه الصوفى أن يقضيه له ويلى طلبه وسرعان ما يقضيه له الحاكم ، ومن ذلك أن الشيخ حمد المجذوب صاحب الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر اشتهر بأنه كثير الشفاعة لأتباعه عند الملوك والسلاطين وكانوا لا يردون له شفاعة . وكان كثير من الحكام يهابون هؤلاء الشيوخ هية شديدة ، وبلغ الشيخ خوجل من الهية فى نفوسهم مبلغا كبيرا ، حتى قيل إن أكبر العلماء والسلاطين إذا جلسوا بحضرته كانوا كالأطفال من هيته ، لذلك كانوا لا يعصون له ولأمثاله طلبا . ويذكر ود ضيف الله عن الشيخ إدريس أنه دخل سنار مقر الملك للشفاعة فى مصالح أتباعه إحدى وسبعين مرة . ويقول ود ضيف الله عن الشيخ بدر بن سليمان الموضى إن قبائل العرب فى مدينة بربر وغيرها كانت لا ترد له شفاعة وكان له كرم وضيافة للوافدين .

وهذا وجه مهم من وجوه تعلق أهل السودان بالمتصوفة ، إذ كانوا يدافعون عن حقوقهم ويردون الظلم عنهم ويشفعون لهم ويغيثونهم كلما ألت بهم كارثة ويفتحون خلواتهم لإيواء الضعفاء منهم وإطعامهم . لذلك تعلق أهل السودان بهم وأخذوا يدخلون أنواجا فى دعوة كل شيخ وطريقته واتهاج ما تأمر به فى العبادة والتقوى . وكان يئلب أن يختار الشيخ قرية يجعلها مركزا لدعوته ويبنى فيها مسجدا وخلواته ، وما يلبث أن يئلب به كثير من الأتباع ، ويأتيه الناس من القرى المجاورة ، كما حدث فى قرية المليفون جنوبى الخرطوم فقد أسس بها الشيخ إدريس ود الأرباب مركز دعوته الصوفية ، وتوافد عليه الناس من كل فجئ سودانى ، وأصبحت بعد قليل بلدة كبيرة متسعة الرقعة أهلة بالسكان ممن جاءوا يأخذون عنه الطريقة القادرية . ومن ذلك ما حدث لقرية الدامر حين اتخذها الشيخ حمد المجذوب مركزا لدعوته الشاذلية ، فقد وفد إليه الناس من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان ، ليأخذوا عنه تعاليم طريقته . وكثيرا ما يتوقف ود ضيف الله فى كتابه الطبقات ليقول لنا إن هذا الشيخ أو ذاك شئت إليه الرجال وضربت إليه آباط الإبل . ويذكرون عن حلقة الشيخ أرباب الخشن أنها كانت تشمل على ألف طالب من الفونج إلى البرنو غربا . وأسهم بعض المشايخ فى توسيع دائرة جماعاتهم الصوفية مثل الشيخ عبد الله الحلنقى إذ يذكر ود ضيف الله عنه أنه كان يتنقل بين « أبو حراز »

وإقليم النكا في شرقى السودان ، وحظى عند العرب والفونج . وكان الشيخ ابو سرور الفضلى يتخذ مركز دعوته فى الحفافية شمالى الخرطوم مدرسا العقائد فى خلواته ، ثم ينتقل إلى دارفور فى أقصى الغرب ويدرس فيها لطلابه أو مرديه ثم لا يلبث أن يهاجر إلى دار صليح .

ويذكرون عن الشيخ العبيد أنه كان يتخذ قريتين مركزاً لدعوته ، وفيهما بنى مسجدين وخلواتهما هما : النخيرة وأم ضبان ، وكان يقيم فى الأولى فصلى الخريف والشتاء ثم ينتقل إلى أم ضبان وظل على هذه الحال إحدى وعشرين سنة . وكان للشيخ عبد الرحمن بن جابر ثلاثة مساجد : مسجد فى دار الشايبة ومسجد فى كورتى ومسجد فى الدفار ، وكان يقرئ فى كل مسجد أربعة شهور . وقد يرحل الشيخ بأهله وبعض مرديه من موطنه إلى موطن آخر لبث دعوته الصوفية فيه ، كما صنع الشيخ محمد بن دفع الله فى رحيله بأهله من أبيض دوى شمالى الخرطوم إلى غلبة رفاعة فى وسط إقليم الجزيرة ، وأقام بين عرب رفاعة سبع عشرة سنة .

(ب) المرأة ومكاتها فى التصوف

لم نعرض - حتى الآن - للمرأة السودانية وصلتها بالتصوف ، وكان لها غير قليل من المكافة الروحية والاجتماعية فى عهد الفونج ، ويذكر ود ضيف الله أن فاطمة بنت سالم كانت واسعة الثراء وكان عبيدها تجار الهند والريف . وكان النساء فى غربى السودان يشاركن الرجال فى جميع أحوالهم ماعدا الحروب ، وبالمثل فى قبيلة الرباطاب إذ كانت المرأة فيها تنوب عن الرجل فى الثرية ، وكان لها نفوذ واضح فى حفلات تنصيب الملوك بغربى السودان . ويدل بصفة عامة على ما كان للمرأة من سيادة فى الأسرة استمرار انتظام الانتساب إليها فابنها يتسب إلى خاله يقول المفريزى عن البجة شرقى السودان إنهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ، وكان يفضل فى النوبة ابن الأخت على الابن فى وراثة الملك ، وتأثر بهم فى ذلك عرب جهينة حين اختلطوا بهم ، وكان ذلك شائعاً فى بعض جهات دارفور وكردفان ، وهو بقية فى السودان من طور سيادة المرأة فى الأسرة إذ كان الرجل فى بدء الحياة الإنسية معرضاً للخطر لقيامه بصيد الحيوانات الوحشية وبالحرث وكانت هى المسئولة عن الأولاد ، وقد لبطل الإسلام نظام الأمومة ودعا إلى الأخذ بنظام الأبوة فى الانتساب والميراث قائلاً : ﴿ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾ .

ولعل فى ذلك كله ما يدل على ما كانت تحظى به المرأة فى عهد الفونج من مكانة اجتماعية ، ولذلك كان طبيعياً أن تحضر دروس العلماء وحلقات الشيوخ ، ويدل على عنايتها بذلك عناية كبيرة ما ذكره ود ضيف الله عن حلقة الشيخ حمد ود أمرهم من أن النساء اللاتى كن يحضرنها وأخذ عليهن العهد وأصبحن من أتباعه كن أكثر من الرجال أضعافاً مضاعفة ، وأكثرهن من

فرارة ، وهى قبائل كثيرة كانت تنتمى إلى جبهة . ويكفى هذا الخبر للدلالة على أن المرأة السودانية شاركت بقوة فى انتشار التصوف فى البلاد ، وكانت تخضع حلقات الذكر الصوفى ، وكثيرا ما كانت تقوم امرأة - كما يقول ود ضيف الله - فتشد والرجال يذكرون الله على إنشادها وصوتها ، والنساء من خلفها وقوف يستمن إليها وينظرن إلى أزواجهن وأقاربهن ، وقد ينشد رجل والنساء يستمن إليه مثل الرجال .

(ج) التصوف والتربية الخلقية والدينية

كان لكل طريقة صوفية « ورد » يقرؤه أتباعها صباحا ولها مجالس ذكر يجتمع له أتباعها على الأقل ليلة كل أسبوع . ويذكر الرجال الله فى صفين متقابلين ومنشد أو منشدة بنشدان أشعارا تزيد الذكر حاسة . وكان الشيخ يأخذ على من يريدون الانتماء إلى طريقته عهدا على أن يقوموا بأداء فرائض الإسلام ونوافله وعبادة الله والتمسك بتعاليم كتابه وسنة رسوله ومراقبته فى السر والعلن ومجاهدة النفس ودفعها إلى الفضيلة والعمل على كل خير . وبذلك كان التصوف نوعا من التربية الخلقية المثلّى فضلا عن التربية الدينية . وكان بعض الشيوخ حين يأخذ العهد على التابع أو المريد الجديد يفصل له المنهج الذى ينبنى أن يتقيد به ولا يعدل عن أى واجب فيه ، ويعرض ود ضيف الله تفصيلا لمنهج العهد الذى كان يلزم به حمد ود أمرهم أتباعه ومرمده يقول :

« كان يأمر كل من أتاه وتاب على يديه أن يصحح توبته بشروطها ، وهى الندم على ما فات من تضييع فرائض الله من مثل الصلاة والصيام والزكاة وغيرها مع الإخلاص لله تعالى فيما يفعل وترك الرياء والزنا والكبر والحسد والغيبة والنميمة والمُعْجَب ، ولا يسمى بقدميه فيما لا يحل له ، ولا يسمع بسمعه ما لا يحل له ، وينهاه عن مخالطة الخلق المختصين وأكل طعامهم وأكل طعام المستغرقين للذم . ويقول إن ذلك هو السنة التى سنّها رسول الله ﷺ . وكان يأمر كل من تاب على يديه أن لا يزوج ابنته - أو من تعهد له بزواجها - من فاسق أو آثم كالحلاف بالطلاق والمختصب وأكل الربا وغير ذلك . ونهى عن مخالطة الرجال مع النساء ، وأمر بغض البصر .. وكان إذا جاءه أحد لتلاوة القرآن يقول له لا تجوز لك قراءته وأنت جاهل بالفرائض وما فرضه الله عليك من أحكام الوضوء والصلاة . وكان يأمر كل من تاب على يديه وعنده مال منسوب أن يتصدق به ، ويأمره بالصيام حتى يذهب اللحم الذى رُمى بالحرام ، ويأمر تارك الصلاة والصيام بقضاء جميع ما فاتهما . ويأمر تلبه بمواصلة ذرى الأرحام وأن لا يتكلف للأضياف بل يقدم لهم ما فضل من نفقته ونفقة عياله . وعلى مريده أن يصلى الأوقات الخمسة معه ويشترط ذلك على خدمه وعبيده ونسائه . وكان جبرته شكر الله وعبد الكافى والفقير محمد ولد كوريب من شدة متابعتهم له إن قال لهم : اتقلوا الجبل فليتهم ينقلونه » .

وإنما ذكرنا هذا العهد كاملاً لندل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية دينية وخلقية قوية . وحقا لم تكن كل الجهود تشدد هذا التشدد ولكنها على كل حال كانت تلزم مرهيبها بسلوك ديني قويم فضلا عن الأوراد والأذكار كما كانت تلزمهم بسلوك خلقي واجتماعي شديد في العلاقات والمعاملات . وتسربت على ألسنة بعض شيوخ التصوف بعض ما كان يردده متصوفة بعض البلدان الإسلامية من مثل القطب والأوتاد والنجباء والنبقاء ، وأيضا عن الولاية وكرامات الأولياء من التصوفة ، ويحكى ود ضيف الله عن الشيخ إدريس ود الأرباب أنه قال : « درجات الأولياء ثلاثة : كبرى ووسطى وصغرى ، فالصغرى أن يطيروا في الهواء ويمشوا على وجه الماء وينطقوا بالمغنيات ، والوسطى أن يعطيه الله الدرجة الكونية إذا قال للشئ كن فيكون والكبرى درجة القطعية » . وهي شعوعة ، وقد تكون قولاً نسب إلى الشيخ ولم يقله . ويردد ود ضيف الله في حديثه عن الصوفية ذكر الملائية ، وهي فرقة صوفية خراسانية كانت تستر - في زعمها - بفعل أشياء تنقض من تصوفها وتجعل الناس يتلومونها وينكرون عليها ادعاء التصوف » . وهي فرقة ضالة ، ومن رحمة الله بأهل السودان أنه لم يظهر بينهم من احتق مبادئ هذه الفرقة بسوى محمد المصمى الذى زاد في زواجه بالنساء على المقدار الشرعى المسموح به وهو أربع وليس ذلك فحسب فإنه جمع بين الأختين ، وهو لا يعد بذلك من الملائية إنما يعد خارجا على الإسلام وأحكامه وأوامره ونواهيه . وربما كان ما ذكر عن إسماعيل صاحب الريلة من أنه كان من الملائية صحيحا . على كل حال لم تشع مبادئ هذه الفرقة في التصوف السودانى وظل تصوفا سنيا منحرفا عن شعوذات المتصوفين المتأخرين ، وظل يغذى أهل السودان بتربية دينية وخلقية واجتماعية قوية .

(د) طرق صوفية جديدة

تأخذ دولة الفونج فى الضعف منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادى ويرى محمد على خديو مصر الاستيلاء على السودان ويرسل إليه حملة سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م ويستولى عليه كما مر بنا فى الفصل الماضى ، ويحول الجند قرية الخرطوم إلى مدينة كبيرة وتصبح عاصمة السودان فى العهد العلوى وعرف محمد على مدى ما للطرق الصوفية من سيطرة على الشعب السودانى وحياته ، فشجع الطرق الصوفية بمصر على نزول بعض دعائها فى السودان ، من ذلك تشجيعه أصحاب الطريقة السعدية ، وهى من فروع الطريقة الرفاعية البغدادية الناشئة فى القرن السادس الهجرى كما مر بنا ، وشجع أصحاب الطريقة الرحمانية أو البدوية المنسوبة إلى أحمد البدوى وأصحاب الطريقة البرهانية المنسوبة إلى إبراهيم الدسوقي . واشتهرت بمكة حيث نشأ طريقة أحمد بن إدريس الفاسى المتوفى سنة ١٨٣٥ وأرسل إلى السودان قبل وفاته أحد أتباعه المسمى محمد عثمان الأميرغنى ، وأخذ ينشر طريقة شيخه فى السودان الشمالى من وادى حلفا

إلى دنقلة ، وتم له ذلك فرأى أن يذهب إلى كردفان ونجحت دعوته هناك . وشاعت في السودان الطريقة السامية . ويبدو أن دعاة صوفيين مختلفين نزلوا في السودان أثناء القرن التاسع عشر للدعوة إلى طرقهم ، كما يقال إن الطريقة التيجانية دخلت مدينة بربر في السودان على يد داعيتها محمد المختار .

ومن المؤكد أن هذه الطرق الصوفية وما تكون حول كل طريقة وشيخها من جماعات اتسعت لكثير من القبائل عملت على إضفاء المصيبات القبلية وأحلت محلها روابط الطرق الروحية الصوفية التي ربطت بقوة بين أفراد الشعب السوداني من عرب وغير عرب ، ونشرت الإسلام فيما بقي من جيوب وثنية بالسودان في جبال النوبة ، وبدون ريب سادت روح الإخاء والمودة بين أبناء الطريقة الصوفية . وكانت هناك قرى تنسب إلى شيخ واحد كقرية المليفون التي كانت تنسب إلى إدريس ود الأرياب ، وقد نزحوا وسكنها لعهد سودانيون لا يحصون من الشرق والغرب ووادي النيل بل نجد مدينة تدين بطريقة الشاذلية الصوفية هي مدينة الدامر التي دعا فيها الشيخ حمد المجذوب إليها وجاءه مريدوه من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان وأصبح سكان المدينة يتألفون من هؤلاء المريدين . ومعنى ذلك أن قيام الطرق الصوفية في زمن دولة الفونج وانتشارها في السودان من حينئذ عمل على إضفاء ما كان به من عصبية قبلية ، وسادته روح صوفية عامة جمعت بين كل أفراد الطريقة الصوفية على البر والتعاون والرحمة والمودة . غير أنه مع مر الزمن أخذت هذه الطرق تنافس وأخذت كل طريقة تزعم أنها خير من أختها وأنها هي وحدها التي تسير على الصراط المستقيم ، وانتهى ذلك بالطرق الصوفية إلى أن تصبح من عوامل الفرقة والتشتت بعد أن كانت -طويلا - من عوامل الألفة والوحدة .

(هـ) دعوة المهدي ومبادئها الستة

لا نصل إلى سنة ١٨٧٠ للميلاد حتى يظهر المهدي محمد بن عبد الله في جزيرة بُا في النيل الأبيض كما مر بنا في الفصل الماضي وأخذ يكتب مشايخ الطرق وبعض العلماء بأنه المهدي المنتظر والثف الناس حوله واتسعت دعوته ، فأرسلت إليه الحكومة قوة قهرها ، وترك جزيرة بُا ونزل في جبل قدير بمنطقة تغل ، ووجه إليه مدير فاشودة قوة قفصى عليها كما قضى على جيش بقيادة يوسف الشلال ، وأتاحت له هذه الانتصارات أنصارا كثيرين ، ولم يلبث أن استولى على مدينة الأبيض سنة ١٣٠٠ هـ/١٨٨٣ م وتعاظم شأنه وكر أنصاره وجاءوه من كل أنحاء السودان ، وأرسلت حكومة الاحتلال الإنجليزي لمصر قوة بقيادة أحد قوادها فأيدت لقيادة تامة ، واستسلم له سلاطين حاكم دارفور في نفس السنة ، وحاصر الخرطوم ودخلتها جنوده في أواخر يناير سنة ١٨٨٥ للميلاد واتخذ قرية أم درمان عاصمة ، ودان له السودان

جميعه ، وهاجر الناس إلى أم درمان من كل الأنحاء لمبايعته وإعلان اعتناق دعوته ، ولم يلبث أن توفي في شهر يونية سنة ١٨٨٥ .

ونستطيع أن نشين مبادئ دعوته من خلال منشوراته ، ومن أهم المبادئ التي دعا إليها أتباعه ومريديه الزهد في متاع الدنيا وكان ينصّ على ذلك في بيعة كل صباح له ، إذ يقول في بيعته : « بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضا بما عند الله » ويشرح هذا المبدأ مبينا أن عدم الأخذ به عند الملوك والأغنياء يشغلهم عن الدين والاعتداء بما جاء به الرسل ، يقول : « وأما الملوك والكبراء وأبناءؤهم فصار شغلهم - عن الإنابة إلى الله والتلقى عن الرسل والمرشدين - بالجاه والمال والعز والثناء وحسن الصيت فلم يتركهم ذلك لأن يتتروا بنور الحق لأن القلب صار ممتلا بهذه الفانيات فلا عمل فيه لقبول الباقيات ، وصار حرمانهم من الخير فيما يظنون أنه متعة لهم ، وإذا أراد الله بعبده خيرا فرغه من ذلك الخميس » .

والمبدأ الثاني في دعوة المهدي العمل بالدين والشرعة المحمدية والخضوع لأوامر الله ونواهيه وأداء فروض الدين ونوافله والإخلاص في عبادته يقول في منشوراته : « لا نعمة إلا نعمة الدين ، ولا كرم إلا كرم التقوى ، ولا حسب إلا لامثال لأمر الله والتواضع حتى يكون الشخص بالنسبة إلى آحاد عباد الله كواحد منهم كما كانت حالة الصحابة .. فإن المؤمنين كالإدين تفصل إحداهما الأخرى » . وهذا المبدأ أهم مبادئ دعوته لأنه كان يريد إقامة مجتمع إسلامي كبير ، ويصرّح بذلك لأتباعه ، بل دائما يكرره كقوله لهم : « إني قد وليت عليكم بولاية الله ورسوله لإقامة الدين ، وجئتكم داعيا إلى الله ومبلغا عنه ما حملته إليكم : اتبعوا آثار من سلف من المهتدين السابقين على نهج سيدنا محمد ﷺ .. وإما قصدنا منكم المعاونة في تقويم الدين ، وإتي - في ذلك - كواحد منكم » . والمهدي - بذلك - كان يريد أن ينشئ مجتمعاً إسلامياً جديداً على أساس قويم من الدين ، وكان ثورته كانت ثورة إصلاح ديني لبناء دولة إسلامية كبرى تعود بالعالم الإسلامي إلى حياته الأولى : حياة التقوى والعبادة الصحيحة والأخوة في الدين التي هي - في رأى المهدي - أقوى من الأخوة في الأبوين . ولم يقم المهدي في دعوته أى اعتبار لشئ سوى الدين الخفيف ، فلا اعتبار لزرعة قومية ولا لزرعة عصرية ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أنه أرسل إلى الضباط الإنجليز وجنودهم منشورا يقول فيه : « إنكم إذا تدبرتم بعقولكم وتفكرتم في قدرة خالفكم .. علمتم أن مخالفته شنيعة ، ولا ينبغي لكم إلا امتثال أمره واجتباب نهيه والهروب منه إليه .. فهيا إلى ذلك فإن أسلمتم فلکم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وتكونوا من ضمن أنصارنا » . فالمدار في دولة المهدي إنما هو على التمسك بالدين ، ولا فرق بين عربي وغير عربي ولا بين سوداني وأوروبي . وما يدل على أن الأساس الديني في الدعوة كان كل شئ ما يقوله نعم شقير في الجزء الثالث من كتابه :

« تاريخ السودان القديم والحديث » . من أن المهدي جعل أتباعه مراتب بحسب تاريخ دخولهم في دعوته الدينية واعتناقهم لها ، فالمرتبة الأولى لأنصاره الذين التفوا حوله قبل إعلانه المهديّة ، وهم بُكّاره ، والمرتبة الثانية لأنصاره الذين آزرّوه في جزيرة بُنا في النيل الأبيض ، والمرتبة الثالثة لأنصاره الذين هاجروا إليه وهو في جبل قدير يتغل ، والمرتبة الرابعة لأنصاره الذين هاجروا إليه في الأبيض ، ثم باقى الأنصار وهم أيضا طبقات بحسب أسبقيتهم في اعتناق دعوته .

والمبدأ الثالث في دعوة المهدي هو الأخذ بالبساطة في الحياة ومطاعمها ومشاربها ونبذ ما أدخله التيار التركي والأوربي في الحياة المادية الحضارية لأهل السودان في العادات والمآكل والمشرب والملبس والأفراح والمآتم . وهذا المبدأ يتفق في وضوح مع مبدأ الزهد والتشّيف إزاء المتاع الدنيوي ، وقد أراد به أن يحمى البلاد من ترف الحضارات الأجنبية .

والمبدأ الرابع في دعوة المهدي نبذ أتباعه لجميع الطرق الصوفية المنتشرة في السودان ، وبذلك حلّ كل الطرق الصوفية بيلاده ولم يعد لها شيوخ ولا أتباع يتمون إليها ، ولا عاد بينها تنافس مقبوت ، كل يزعم أن طريقته هي طريقة الهدى السديدة وأن الطريقة أو الطرق الأخرى ضالة انحرفت عن طريق الرشاد القويم ، وبذلك لم تعد في السودان طريقة ولا دعوة دينية إلا دعوة المهدي وما وضعه لها من مبادئ .

ومبدأ خامس في دعوة المهدي هو نبذ كعب النحل الدينية وكعب فقهاء المذاهب الأربعة المشهورين لأبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وما بها من كثرة المسائل الفرعية ، مما لا يفيد فوائد مباشرة في فهم أركان العقيدة الإسلامية ، وقد استحال هذه الكعب على مر الزمن إلى مجلدات تلو مجلدات وشروح تلو شروح يفرق المسلم في لججها وخضمتها الزاخر ، ولا يكاد يبين نور الدين ، إذ حجّوا عنه الكتاب والسنة ، وزجّوا به في هذا المحيط الواسع من كعب تعد بالآلاف تتناول مسائل متفرعة لا حدّ لها ولا حصر ، ويقول من الواجب إهمالها ووضع مذهب اجتهدى جديد في الفقه والعقيدة . ويشعر من يطلع على هذا المبدأ في دعوة المهدي أنّه ربما كان متأثرا فيه بدعوة المهدي ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين في المغرب والأندلس إلى نبذ كعب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى لما بها من كثرة الفروع والعلل ، ولم يلبث خليفته يوسف بن عبد المؤمن ولينه يعقوب أن أحرقا أحمالا من هذه الكعب .

ومبدأ سادس هو دعوة المهدي إلى الهجرة إلى المواضع التي اتخذها مراكز لدعوته اقتداء بهجرة الرسول ﷺ وأصحابه ، وسُمّي أتباعه بالأنصار اقتداء بتسمية الرسول لأهل المدينة بالأنصار ، وحرّم الطرق الصوفية كما أسلفنا وحرّم على أنصاره أن يسموا أنفسهم الدراويش .

وبذكر الدكتور عبد المجيد عابدين طائفة كبيرة من السنن التي سنّها المهدي في المجتمع السوداني ، فمن ذلك إبطال الرتب والألقاب الرسمية وغير الرسمية ، وأقام الحدود الشرعية على شارب الخمر والزاني والسارق ، وأبطل السحر وكتابة الأحجية والصراخ على الميت ، وخفض قيمة المهر إلى عشرة ريالات واثنتين للبكر وخمسة رهالات واثنتين للثيب ، وجعل وليمة العرس طبقاً من اللبن وآخر من البلح ، ومنع زيارة قبور الأولياء ، ووجه الناس إلى العناية بكتاب الله والسنة النبوية .

ودان له السودان جميعه في يناير سنة ١٨٨٥ وأعلن الإنجليز إخلاءه ، وقُدِّرَ له أن يتوفى سريعا في سن الحادية والأربعين بشهر يونية سنة ١٨٨٥ للميلاد فلم يرافقه انتصاره الكبير ولا دعوته طويلا ، ولم يكن لخليفته التعايشي علمه فأخذت الدعوة المهدية تضعف وقاد كشنر حملة مصرية في أغسطس سنة ١٨٩٧ لفتح السودان واستطاعت فتحه والقضاء على التعايشي سنة ١٨٩٨ وقام في السودان حكم ثنائي مصري إنجليزي ، وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها قبل زمن المهدي بل ربما ازداد بعضها قوة ، وتحول أنصار المهدي إلى طائفة دينية كبيرة تواجه الطرق الصوفية .

٢

الثقافة^(١)

(أ) كتاب - زوايا - مساجد

عرفت السودان مبكرة الكتاب كما عرفته الأقاليم الإسلامية المختلفة في كل قرية ومدينة وتجمع بدوى للمسلمين وقبائلهم التي نزلت السودان على مر العصور ، فكانت الكتاب تبنى ملحقة بالمساجد أو منفصلة أو يتخذ مسلم داره لتحفيظ القرآن الكريم الذي يمد حفظه أو على الأقل حفظ آيات كثيرة منه فريضة على كل مسلم ، ويعطد ذلك طوال الحقب الإسلامية . وعادة كان ذلك يستغرق من الصبي سبع سنوات أو تقل أو تزيد حسب قدرته على حفظ القرآن جميعه ، وكان يكتب كل يوم ما يمليه عليه الشيخ أو ما يكتبه من مصحف ، وبين يديه محبرة وعود رفيع مدبب يكتب به واجبه اليومي ، حتى إذا حفظه سمعه منه الشيخ ، وقد يسمع منه جزءاً مما حفظ من القرآن لثبته في ذهنه .

عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحديث لنور شفيق
والسودان عبر القرون لمكي شيكبة ومناهج الألياب
المصرية لرفاعة الطهطاوي .

(١) انظر في الثقافة بالسودان طبقات رد ضيف الله
وكتاب الثرية في السودان لميد العزيز عبد المجيد
وتاريخ الثقافة العربية في السودان لميد المجيد عابدين
والثقافة العربية في السودان المعاصر لمحمد فوزي مصطفى

وبجانب الكتاب كانت هناك خلوات صغرى أشبه بالكتائب ، وقد تكون ملحقة بالمسجد وقد تكون منفردة ، وهى أيضا لحفظ القرآن الكريم ، وقد يتخذها بعض المتصوفة للعبادة والنسك ، والأكثر أن تكون كُتُبا ، وكانت الناشئة فى دارفور تذهب إلى الكتائب والخلوات فى الثلث الأخير من الليل ومعها حطب توقده ، وتأخذ فى قراءة القرآن وكتابه وحفظه على ضوء ناره ، كما يقول عمر التونسى فى الحديث عن دارفور برحلته إلى السودان ، لأن الناشئة هناك كتبت تُشغَلُ نهارا برعى الغنم والبقر .

وبعد حفظ الصبى للقرآن الكريم ينتقل إلى حلقات الدراسة بالمسجد أو بالزاوية ، وكانت الزاوية تعنى بجانب العلوم الدينية ، بدراسات التصوف وكتب الصوفية . أما المسجد فقلما يعنى بهذه الدراسات إنما يصب عنايته على علوم الشريعة وعلوم العربية وعلم الكلام والمنطق ، وعرفت السودان المسجد مبكرة ، إذ ينصّ عبدالله بن سعد بن أبى سرح فى معاهدته لأهل النوبة فى عهد الخليفة عثمان على وجود مسجد بديارهم وما يجب عليهم من رعايته وخدمته وإضاءته . وفى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى بنى العرب القاطنون على النيل الأزرق مسجدا فى سوبا عاصمة علوة : المملكة المسيحية . ولابد أن مساجد كثيرة بُنيت مع انتشار الإسلام فى السودان وتغلغل القبائل العربية هناك . وكانت فى دارفور مساجد كثيرة ، إذ كان فى كل بلدة مسجد وقد يكون بها جامع ، وكانت الناشئة تتعلم فيه الكتابة وتتلو القرآن وتحفظه ، ولكل مسجد وجامع عالم يشرف على حفظ القرآن . ولصق المسجد والجامع خلوات للطلاب يحفظون فيها القرآن ويتعلمون أحيانا العلوم الشرعية ولكل مسجد وجامع مال من السلطان ينفق عليه وعلى طلابه وعلى معلميه ومدرسيه . والمسجد من قديم بجانب استخدامه لأداء الفرائض والوفاء كان يستخدم لنشر العلوم الدينية وعلوم العربية ، وكان الشيخ يجلس على رأس حلقة ، ويجلس التلاميذ من حوله فيما يشبه نصف دائرة . وليس هناك طريقة واحدة فى التعليم يلتزم بها الشيوخ فقد يملون من الذاكرة والطلاب يقيدون ما يملونه ، وقد يقرأ الشيخ - أو أحد طلابه - فقرة فى كتاب ثم يتناولها بالشرح والتوضيح ، وقد يلقى على طلابه محاضرة مكتوبة .

(ب) حركة علمية نشيطة فى عهد الفونج

تظهر فى السودان حركة علمية نشيطة طوال عهد دولة الفونج ، وقد أُرُخ لها ود ضيف الله المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨١٠ م فى كتبه الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ، وفيه ترجم لأكثر من مائتين وخمسين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وذكرناه مرارا وتكرارا فى حديثنا عن المجتمع السودانى وما ساد فيه من نزعة صوفية ، وبالمثل يملنا بمعلومات كثيرة عن الدراسات الدينية وما نزل

ديار السودان من علماء العالم الإسلامى ومن السوڤانيين الذين درسوا فى الأزهر بالقاهرة وفى مكة والمدينة .

وكانت الطريقة المتبعة لتخريج الطالب إذنً شيخه له برواية ما سمعه منه ، وقد يكتب إجازة له فى نهاية المصنف الذى أذن له بروايته ، وقد يفردھا ، وكانت هذه الإجازة تقوم مقام الشهادة النهائية التى يظفر بها الطالب فى عصرنا . ويسوق ود ضيف الله صورة إجازة منحها الشيخ على الأجهورى شيخ الإسلام بالقاهرة للشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم السوڤانى كتبها بخطه ، ويقول فيها بعد حمد الله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم : « قرأ على الشاب الفاضل والنحرير الكامل الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الكلبى نسبا البربرى بلدا عقيدتى التى ألفتها فى أصول الدين والتصوف وشرّحها قراءة جيدة نافعة إن شاء الله ، وحضر قراءتى فى مختصر العلامة الشيخ خليل فى فقه المالكية فى نحو نصف الكتاب المذكور قراءة بحث وتغقيق دلت على نباهته وفقهه بالكتاب المذكور . وقد استخرت الله وأجزته بما ذكر وبجميع ما يجوز لى روايته بشرطه سائلا منه أن لا ينسأنى من الدعاء بسعادة الدارين .. وكب فى آخر ذى الحجة ختام سنة ثلاثين بعد الألف » . وعلى ذلك إمضاء الشيخ على بن محمد المدعو بزى بن عبد الرحمن الأجهورى المالكى .

وكان ملوك الفونج ونوابهم فى الولايات كالشيخ عجيب فى البدلأب وولاة علوة يندقون على العلماء . ووثق الملوك العلاقة بينهم وبين علماء الأزهر بما كانوا يرسلون إليهم من هدايا ، واشتهر الملك بادى الأول (١٠١٩ هـ / ١٦١١ م - ١٠٢٤ هـ / ١٦١٦) بكثرة ما كان يرسله إليهم من هدايا مع سفيره أحمد علوان ، وأهدوه بدورهم قصائد مدح متعددة ، أنشد منها نعم شقير فى الجزء الثانى من كتابه « تاريخ السودان القديم والحديث » قصيدة للشيخ عمر المغربى . وكان الشيخ عجيب شديد العناية بالعلماء فى إمارته ، وتشجىما لطلاب مشيخته وطلاب دولة الفونج والسوڤانيين عامة حبب إليهم أن يرحلوا فى طلب العلم إلى الأزهر ، وبنى لهم فيه رواق بجانب رواق الشام ورواق المغاربة ، وبنى لهم رواقا آخر فى المدينة لينزلوا فيه ويأخذوا العلم عن الشيوخ هناك .

(ج) سوڤانيون أزهريون وعلماء مصريون

تخرج فى الأزهر لمعهد دولة الفونج سوڤانيون كثيرون ، ومن أعلامهم الشيخ محمود العركى فى سنار العاصمة ، وكان قد رحل إلى مصر واختلف إلى شيوخ الأزهر وخاصة الشيخ شمس الدين اللقائى إمام المالكية المتوفى بالقاهرة سنة ٩٣٥ وعمل بعد عودته على نشر المذهب المالكى فى دولة الفونج ، ويقول ود ضيف الله إنه اول من نشر علوم الدين فى أنحاء النيل الأبيض إذ لم يجد فيها مدرسة علم ولا قرآن . وكان الرجل يطلق زوجته ويتزوجها غيره فى

نفس اليوم بدون المدّة الشرعية ، فأبطل تلك العادة المحرمة ، وحمل الناس على حكم الشريعة وأن تنتظر المطلقة قبل زواجها الثاني حتى توفّي عذتها . وأنشأ الخلاوى لتحفيظ القرآن الكريم وتدرّس علوم الدين ، وبذلك أشبهت الخلوة عنده مدرسة ، وكان له ما بين الخرطوم وأليس الكوة خمس عشرة خلوة أو مدرسة .

ومن تخرج فى الأزهر أولاد جابر الأريّة : إبراهيم وعبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم ، درسوا على الشيخ المالكي البنوفرى تلميذ عبد الرحمن الأجهورى ، وهو بدوره تلميذ شمس الدين اللقى ، وكانوا أيضا من أسباب انتشار المذهب المالكي فى السودان ، وخاصة إبراهيم الذى نزل جزيرة ترنج ودرّس فيها مختصر خليل ورسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقه المالكي ، ويقول ود ضيف الله إيه أول من درّس مختصر خليل ببلاد الفونج وشدّت إليه الرحال ، ومن تلاميذه أربعون صاروا أعلاما ، منهم الشيخ الزين ولد صغيرون . وصار كثير من تلامذته شيوخا للإسلام فى بلدان مختلفة ، ويقول ود ضيف الله : فقهاء البلاد كلها إلى دار صليح تلامذته وتلامذة تلامذته ، ومن تلامذته المشهورين الشيخ أرباب الخشن ، وكان الطلبة فى حلقتة يلغون - كما يقول ود ضيف الله - ألف طالب ونيفا من دار مملكة الفونج إلى دار مملكة برنو على نهر التيجر . ومن تلمذ للبنوفرى فى الأزهر أستاذ إبراهيم بن جابر المار ذكره الشيخ عبد الرحمن حموتو الخطيب ورفيقه الشيخ محمد سرحان ، ويذكر ود ضيف الله أنه كان يقول : محمد يصلح للتدرّس لكونه يسأل عن تحقيق نصوص المتن ، وعبد الرحمن يصلح للتتوى لكونه يسأل عن معانى الشراح ويراجع آراءهم وفتاواهم . ومن تلقى العلم فى الأزهر من أعلام السودانيين الشيخ حمد المجذوب وكان فقيها صوفيا ، ومر بنا أنه نشر الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر ، وظلت أسرته تقوم بعده على الطريقة الشاذلية ودراسة العلوم الدينية .

ومن العلماء السودانيين الذين تخرّجوا فى الأزهر الشيخ عمار بن عبد الحفيظ ، عنى بأن ينهل من حلقات شيوخ العرية الأزهرين ، وعاد إلى السودان وأخذ يدرس لطلابه - كما يقول ود ضيف الله - علوم النحو واللغة والمنطق ، وتلمذ عليه سودانيون كثيرون كان لهم دور عظيم فى نشر علوم العرية والبلاغة فى أنحاء السودان ، منهم الشيخ عبدالله بن صابون الذى اشتهر ببراعته - كما يقول ود ضيف الله - فى النحو والصرف والماتى والبيان والبديع وعلم العروض ، وكان شاعرا ماهرا ، ومثله زميله الشيخ على ولد شاقمى ، وكان مثله شاعرا مجيدا .

وكثيرون من علماء مصر البررة رحلوا إلى السودان لتعليم السودانيين شريعة الإسلام ومن نذب نفسه لهذه المهمة - كما يقول ود ضيف الله - محمد بن على بن قدم الكيمائى تلميذ الخطيب الشرينى إمام الشافعية بمصر المتوفى سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠ م استوطن مدينة بربر إلى

أن توفي بها ، وقد درس عليه شيخ كثيرون أخذوا عنه علم الفرائض والفقه الشافعي من مثل الشيخ عبد الله المركي والقاضي دشين الشافعي وإبراهيم بن عبودي الذي اشتهر ببراعته في تدريسه لعلم الفرائض أو الموارث وفيه ألف حاشيته المعروفة باسم الفرضية . ولم يكب لفقه المذهب الشافعي أن يعم في السودان ، إنما الذي عم فيه فقه المذهب المالكي للفقهاء المالكية الذين ذكرناهم ممن تلقوا المذهب عن أئمتهم في مصر ، ولأن نزلاء السودان من الحجاز والكام والبرنو وغيرهما ومن الليبيين والتونسين والمغاربة في حجهم وتجارتهم كانوا مالكية . فالمذهب المالكي هو الذي شاع وانتشر فقهاؤه بالسودان لحصر دولة الفونج .

ومن كبار فقهاء المالكية المصريين الأزهرين الذين رحلوا إلى السودان في عصر الفونج الشيخ محمد الفتاوى تلميذ الزرقاني الإمام المالكي الكبير استوطن مدينة بربرين ديار الشايقية في الشمال ثم جزيرة سنار في الجنوب لأوائل النصف الثاني من القرن العاشر الهجري ، وبنى فيها مسجده ودرس فيه رسالة ابن أبي زيد الفقيه القيرواني والمقائد (في التوحيد) وعلم النحو وسائر العلوم ، وولى القضاء فنهض به في عفة ونزاهة ، ومن أحفاده الشيخ محمد إكداوي نزيل مدينة شندی جنوبى مدينتي بربر وعطيره ، وفيها درس في الفقه المالكي رسالة ابن أبي زيد القيرواني مثل جده ، ودرس النحو وعلم الكلام وعلم الأصول والمنطق ، وكان يجتمع في حلقة طلاب كثيرين . ومن فقهاء مصر المالكية هناك الشيخ حامد الدين وكان يشغل بتدريس رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي ، كما كان يشغل بتدريس المقائد وعلم التوحيد ، وهو أول من أحضر شرح الزرقاني على مختصر خليل وبائل شرح الشبرخيتي المالكي على متن العشماوية .

ومن كبار العلماء المصريين الذين نزلوا السودان واستوطنوا مدينة بربر فيه الشيخ محمد المصرى الذى عنى بدراسة علم التوحيد أو علم الكلام حتى وفاته سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م وكان محمد بن يوسف السنوسى الجزائرى التوفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠ م ألف في علم التوحيد أو الكلام ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها والعقيدة الوسطى وشرحها والعقيدة الصغرى وشرحها ، وسيطرت هذه الأعمال في مباحث علم التوحيد أو الكلام على الباحثين منذ وضعها لا في الجزائر وحدها بل في بلاد المغرب ومصر والعالم الإسلامى . وكان الشيخ محمد المصرى يدرس علم التوحيد للشباب السوداني من خلال هذه الأعمال ويفيض في شرحها ، ويقول ود ضيف الله إن له كتباً شتأها أن تكب بماء الذهب ، منها شرح للعقيدة الوسطى للسنوسى ، وشرح للعقيدة الصغرى ، وكان السنوسى قد اختصر الصغرى وسماها أم البراهين فشرحها . وكان الشاعر أحمد بن عبد الله الجزائرى في عصر السنوسى ألف في العقيدة قصيدة فشرحها وشاعت باسم الجزائرية ، ونجد محمداً المصرى يشرحها أيضاً - كما يقول ود ضيف الله -

ويشرح الأجرومية فى النحو . وتلميذه الشيخ مكى النحوى الرباطى شرحان على السنوسية :
كبير وصغير .

وما حدث بين الطلاب السودانيين وانتظامهم فى الأزهر للتعليم وانتداب بعض خريجي الأزهر من المصريين أنفسهم لنشر الثقافة الدينية فى ربوع السودان حدث ما يحاثل أو يقرب منه بين السودان والحجاز ، فقد كان للسودانيين رواق فى المدينة تنفق الدولة على من ينزل فيه للأخذ عن الشيوخ هناك ، ومن نزل من السودان الشيخ محمد بن عدلان الذى تتلمذ للشيخ عبدالله المغربى هناك ، وعاد إلى أرض الجزيرة فى السودان ، ودرس للناس علم الكلام من خلال كتب السنوسى التى ذكرناها آنفا ، ويقول ود ضيف الله إن مدار علم الكلام فى دار الجزيرة أو إقليمها على طلبته وتلامذة طلبته . ويذكر ود ضيف الله عن شيخ سودانى يسمى عمار بن شافى أنه قرأ فى مكة علوم العربية . ويلم ود ضيف الله بأسماء علماء اليمن الذين نزلوا فى السودان واستوطنوه مثل الفقيهين حمد ولد زروق والشيخ جبارة . ويذكر ود ضيف الله طائفة من علماء المغرب الذين نزلوا فى السودان غير أنه لا يتوقف إزلاءهم طويلا لتعرف ما الذى كتبت يدروسونه للطلاب فيما عدا التلمستى ، إذ يقول إنه درس لطلابه علم الكلام وعلوم القرآن وتجويده وترتيبه . ونظن ظنا أن التلمستى كان أحد من أشاعوا قراءة ورش المصرى فى دارفور وكردفان ، إذ كانت مصر قد هجرتها من قديم وتمسكت بها البلاد المغربية والأندلس ، وشاعت فيما بعد بالسودان الغربى وبنو والكتم ، فشيوعها فى السودان إنما هو عن طريق من نزلها من المغاربة أمثال التلمستى .

وحرى بنا أن نذكر مؤرخين سودانيين مهمين هما ود ضيف الله أو محمد بن ضيف الله الجمل المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨١٠ م صاحب كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان وهو كتاب نفيس ترجم فيه - كما ذكرنا - لنحو مائتين وخمسين صوفيا وعاملا وشاعرا فى عصر دولة الفونج بسنار ، ولأهميته طبع أكثر من مرة ، وعليه اعتمدت فى دراسة الحياة الصوفية والعلمية أيام الفونج وبالمثل الحياة الاجتماعية وخاصة عن المرأة . وعلى هذا المؤرخ وكتبه فى الأهمية كتاب الشيخ أحمد كاتب الشونة - والمراد بالشونة مخزن الغلال - وهو فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ويدور وأنه كان موظفا فى تلك الإدارة ، فأرّخ لدولة الفونج فى سنار ولإدارة المصرية فى الخرطوم والسودان .

ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن دولة الفونج أحدثت فى السودان نهضة علمية حقيقية كان عمادها القرآن الكريم وترتيبه وقرآته وتفسيره والحديث النبوى والفقه وما يتصل به من علم الأصول والعربية بعلومها المختلفة . غير أن الدولة ضحفت فى عهدها الأخير بما أتاح لحمد على ضم السودان إلى مصر ، واستحالت الخرطوم إلى مدينة كبيرة ، وأصبحت عاصمة

للبلاد ، وعرف أن السوڤاتين شعب متدين ويعتق مناهج كثر من الطرق الصوفية ، فشجع أصحاب الطرق الصوفية بالقاهرة على النزول به ، وأرسل مع الجيش الذى وجه به إلى السودان ثلاثة من صفوة العلماء ، وهم القاضى محمد الأسوطى الحنفى والشيخ أحمد البقل الشافعى والشيخ أحمد السلاوى المالكى « ليكون - كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد - لكل مذهب من المذاهب الفقهية الشائعة شيخ يشرف على شؤنه ، وحتى لا يُجبر معتق مذهب (فقهى) على أن يلجأ فى الفتاوى والأحكام إلى شيخ من غير مذهبه » . وشجع محمد على علماء الأزهر على الهجرة إلى السودان خدمة للشريعة الإسلامية هناك ، وفتح أبواب الأزهر على مصاريعها للطلاب السوڤاتين ورُتبت لرواق السنارين جارية أو بعبارة أخرى خبز لهم ، وأُتشيء رواق لأهل دنقلة ورواق لأهل دارفور ورواق لأهل صليح . وفى أواخر عهد محمد على سنة ١٨٤٧ للميلاد أُتشيء الجامع العتيق بالخرطوم ، وأريد به أن يكون مثل الأزهر جامعا لأداء فرائض الصلاة ومعهدا دينيا كبيرا يدرس فيه جُلَّة من العلماء ، وبمن ألقى دروسه ومحاضراته الدينية فيه الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتى الديار السوڤاتية والشيخ الأمين الضرير والشيخ شاكِر المفتى والشيخ مصطفى السلاوى والسيد حسين المجدى والشريف المحرقى الشاذلى . ولابد أن نشير إلى أن مصر جعلت المذهب الحنفى المذهب الرسمى للدولة وعلى رأس المحاكم الشرعية قاضيا حنفيا ، وعادة يكون مصرياً وظل ذلك فى عهد الفترة المهدوية وبعدها إلى سنة ١٩٤٧ للميلاد.

(د) التعليم المدينى الحديث وتوقفه

أخذت تنشأ فى عهد محمد على بالسودان مدن جديدة مثل الخرطوم وبعض مستشفيات ومنشآت عصرية ، وهاجر بعض الطلاب السوڤاتيين إلى القاهرة ليتحق بالمدارس والمعاهد الجديدة . ويذكر رفاعة الطهطاوى فى كتابه مناهج الألباب المصرية أن محمد على اختار طائفة من ناشتهم أدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادئ العلوم ، ثم نقلهم إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن ، وكان قصده من ذلك أن يتذوقوا طعم المعارف التمدنية ، حتى إذا عادوا إلى السودان نشروها فى بلادهم . ويذكر الدكتور عبد العزيز عبد المجيد أن بعثة من الطلاب السوڤاتيين تتألف من مائة طالب سافروا إلى مصر والتحقوا بمدرسة المبتدیان .

وإذا صحَّ ذلك تكون مصر قد أخذت بيد السودان لتنهض فيه سريعا نهضة علمية مثل نهضتها ، ومع ذلك لا يذكر محمد على أنه أقام مدرسة نظامية فى السودان . وأول مدرسة تنشأ فيه أقامها خليفته عباس إذ تنشأ فيه مدرسة ابتدائية فى الخرطوم وجعل ناظرها رفاعة رافع الطهطاوى ، ونزاه فى كتابه مناهج الألباب المصرية يشيد بالسوڤاتيين وملكاتهم الخصبة وحسن استعدادهم للتمدن والعلم والتعلم ، يقول :

« إن للسوڤاتيين قلبية للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم ، فإن أكثرهم قبائل عربية ، يدل على

ذلك اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية عن رغبة واجتهاد ، ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكبير والجسم الغفير ، فيعيته أهل بلده على ذلك بتوزيع الطلبة على البيوت بحسب الاستطاعة ، فكل واحد من الأهالى يخصه واحد أو اثنان ويقومون بشؤونهم مدة التعلم والتعليم . . ويدور أن هذه العادة كانت قديمة منذ عهد دولة الفونج .

وروى سعيد قصير النظر بعد عباس فأغلق المدرسة ، وتولى بعده إسماعيل سنة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٣ م فعين موسى باشا حدى حكمدارا للسودان وأمره بإنشاء خمس مدارس فى عواصم المديرية : الخرطوم وبربر والأبيض وكسلا ودنقلة ، وفتحت كل مدرسة أبوابها لاستقبال مائة تلميذ كى يحصلوا - كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد - العلوم والفنون النافعة ، وأُتشتت مدرسة سادسة فى سواكن . وأخذت - بعد ذلك - بعض الإرساليات التبشيرية تنشئ مدارس لما فى الخرطوم . وكان لهذه المدارس جميعا أثر واسع فى نشر الثقافة الحديثة بالسودان ، إذ كانت تؤثر بالحضارة الغربية والأفكار الأوربية .

وليس كل ما بين هذا التعليم الحديث فى السودان وبين التعليم القديم فى الخلوات والازوايا والمساجد من فروق تأثيره بما فى الغرب من حضارة وأفكار فإنه قام على مناهج محددة فى كل سنة لكل علم ، وعلى مقررات واضحة فى كل مادة مع العناية بتعلم لغة أجنبية ، بخلاف التعليم القديم ، فليس فيه مناهج محددة وليس فيه انتقال من صف إلى صف ، مما يقتضى تدرج التعليم ، بحيث يكون لكل علم فى كل سنة مادة علمية تتلاءم مع سن الناشئ من الوجهة التربوية السديدة .

وعين إسماعيل جعفر مظهر بعد موسى حدى حكمدارا سنة ١٨٧٣ ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية ، فبث فى مسائلها جميعا نشاطا واسعا ، إذ فتح مجالسه للعلماء والأدباء يتحاورون معه ويتحاور بعضهم مع بعض فى المسائل العلمية والأدبية ، وأحدث ذلك فى الخرطوم والسودان حركة علمية وأدبية خصبة وأخذ بعض الشعراء ينشرون قصائدهم فى الوقائع المصرية وكانت حينئذ جريدة مصر الكبرى . وبينما الحركة الثقافية الحديثة تنشط هذا النشاط وبينما المدارس الحديثة تخرج للإدارة السودانية كل ما تحتاج إليه من الكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف والموتىء إذا المهدي يقوم بثورته التى مرت بنا فيخلق كل المدارس ، وينهى عن التعلق بأى صورة من صور الحضارة المادية الأوربية والتركية فى المآكل والملبس والأفراح والأحزان ، فتصايره ينبئ أن يرفضوا كل ما دخل على حياتهم من حضارة الغرب والترك ويعودوا إلى حياة القطرة الأولى الإسلامية الخالصة . وبذلك ظلت السودان فى أيامه منذ سنة

١٨٨١ وأيام خليفته التعايشى منذ سنة ١٨٨٥ حتى نهاية أيامه سنة ١٨٩٨ بعيدة عن كل تعليم حديث أو ثقافة حديثة تشوبها الحضارة الأوربية والتركية .

وبانتهاء العهد المهدي وقيام الحكم الثنائي المصرى الإنجليزى فى السودان عادت الطرق الصوفية إلى نشاطها محاولة بكل ما تستطيع أن تسترد مكائنها التى كانت قد فقدتها . وأصبحت من حيثذ جماعة الأنصار المعتنقين للدعوة المهدية طائفة دينية تقف فى مواجهة الطوائف الصوفية . وعاد مع الطوائف الصوفية تعليم الخلوة والمسجد والزاوية والتحق بعض السودانيين بالتعليم الدينى فى الأزهر .

(هـ) إنشاء معهد دينى وعودة التعليم المدني الحديث

أنشئ فى جامع أم درمان سنة ١٩٠١ معهد دينى لتدريس العلوم الدينية وعلوم العربية ، وفى سنة ١٩١٢ بنى له مبنى مستقل بجوار مسجد جديد بأم درمان ، ووضعت له نظم ومناهج كنظم ومناهج الأزهر ، وجعل التعليم فيه على ثلاث مراحل وكل مرحلة أربع سنوات ومع كل مرحلة شهادة ، وهى مرحلة أول ومعها الشهادة الأولية ، ومرحلة وسطى أو ثانوية ومعها الشهادة الأهلية ، ومرحلة عليا ومعها الشهادة العالمية ، مثل الأزهر تماما ، وتفرعت من هذا المعهد معاهد أخرى فى المدن الرئيسية .

وكان لهذا المعهد أثر بعيد فى السودان إذ أخذ يزداد عدد خريجيه من حملة شهادة العالمية ، وعين كثيرون منهم مدرسين فى وزارة أو مصلحة المعارف وسدوا حاجة المدارس الأهلية إلى معلمين للنشطة يدرسون لهم الدين والعربية ، كما سدوا حاجة المديرية من المعلمين فى معاهدها الإقليمية . ولم يكن فى السودان من المدارس النظامية سنة ١٨٩٩ سوى مدرستين حكوميتين وبعض المدارس القروية ، فعمل الحكم الثنائي المصرى الإنجليزى الجديد على إنشاء مدارس أولية ووسطى فنية ، وتأخر إنشاء مدارس للبنات ، وفى سنة ١٩١١ انتصح الشيخ بلكر البدرى المربى السودقى الفاضل مدرسة للبنات فى منطقة رفاعة بالجزيرة ، وأدخل فيها كريمةته واقتدت به بعض الأسر ، فأدخلت معهن كريمتهن ، وأخذت مدارس البنات تزداد ، حتى بلغت فى آخر هذا العصر سنة ١٩٢٣ خمسا . ومنذ أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر أخذت الإرساليات التبشيرية تنشط فى فتح المدارس .

وكان أهم حدث فى التعليم المدني إنشاء كلية غوردون ، وكان كشنر أول حاكم عام للسودان جمع من السودانيين تبرعات لإنشاء كلية لذكرى غوردون وبلغت - كما أسلفنا - نحو مائة ألف جنيه ، ووضع الحجر الأساسى لها سنة ١٨٩٩ ورؤى - فى أول الأمر - أن لا يتعدى التدريس فيها المرحلة الابتدائية ، وانضحت فى أكتوبر سنة ١٩٠٣ وتقدم لها مائة

وخمسون تلميذا بينهم من المصريين والشاميين ٥٨ والباقيون سودانيون ، وفى سنة ١٩٠٥ أنشئ بها قسم ثانوى ، مدته أربع سنوات ، مع دراسات خاصة لتخريج المدرسين والترجمين والمهندسين والقضاة الشرعيين .

وأخذت تنشأ فى الخرطوم والسودان مدارس حكومية وغير حكومية تعنى بالتعليم الحديث وتزويد الطلاب السودانيين بتعلم اللغة الإنجليزية ، وبذكر الدكتور عبد المجيد عليدين عن محمد أحمد محجوب أحد الخريجين الأوائل من كلية غوردون قوله : « لم يكن بد من انتشار آداب اللغة الإنجليزية بين جمهرة المتعلمين من شباب السودان ، وساعد على ذلك نشاط المطبعة الإنجليزية وكثرة إنتاجها فى شتى الفنون والعلوم وفى كثير من أغراض الحياة العامة » .

ولابد أن نلاحظ أنه بجانب عمل المدارس وكلية غوردون فى نشر الثقافة الحديثة أخذ المعهد الدينى فى أم درمان يتسع بالثقافة الدينية الإسلامية ، وتخرج فيه كثيرون عنوا بالأدب العربى وإتمام دراسته فى السودان . ونشط الفكر السودانى بعامة وأخذت ترتسم أمامه مثل العليا فى الحياة والاجتماع ، وتأسس بأخرة من هذا العصر سنة ١٩١٨ بأم درمان ناد للخريجين يمثل الطبقة المثقفة فى السودان ، وأخذ الخطباء يحتلون منابرهم معبرين عن وعى جديد بشئون الأمة السودانية ومصالحها وشئون السياسة والفكر والثقافة ، وأخذ غير واحد ينادى بالإصلاح الاجتماعى والسياسى ، مما أعدّ لثورة سنة ١٩٢٤ وهى - فى رأينا - تعد بدء العصر الحديث فى السودان .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

٩

تعرب^(١) السودان

عرف السودان الجنس العربى قبل الإسلام بعدة قرون عن طريق التبادل التجارى بين الجزيرة العربية والشاطئ الإفريقى ، وَيُظَنُّ أَنَّ بعض ملوك حمير استولى على أجزاء من هذا الشاطئ أو من أرض الحبشة ، وتؤكد هجرة المسلمين فى بدء الدعوة الإسلامية من مكة إلى الحبشة أَنَّ أهل الحجاز كانوا يعرفون الشاطئ المقابل وسكته من الحبشة والسودان . ولكن ليس هذا هو التعرب الذى نريده ، فنحن لا نريد معرفتهم بالجنس العربى ومتى بدأت ، إنما نريد تكلمهم بالعربية ومتى أصبحوا يُعَدُّون شعبا عربيا ، ولم يحدث ذلك إلا بعد إسلامهم وبعد هجرة قبائل عربية كثيرة إليهم .

وكان أول احتكاك بين العرب المسلمين وأهل السودان فى عهد الخليفة عثمان إذ أرسل إليه واليه على مصر : عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٣١ هـ / ٦٥١ م حملة تغفلت فى مملكة مقرة الشمالية إلى عاصمتها دنقلة وكانت دولة مسيحية أدخلتها مصر قديما فى الدين المسيحى مثل مملكة علوة جنوبيها والحبشة . وانتصر الجيش المصرى انتصارا حاسما وعقدت بين مصر ومقرة معاهدة كان من بنودها صيانة المسجد الذى بناه المسلمون بدنقلة وخيَّمته وإضاءة السراج فيه ليلا . ونسمع عن عشائر من قبيلة بلى وجهينة نزلت فى قبائل البجة شرقى السودان ، وبالمثل عبرت عشائر من هوازن البحر الأحمر إليها . ويحدث أَنَّ تَغْيِيرَ قبائل البجة على أسوان فى عهد المأمون فیرسل إليها حملة تقهرها وتعقد معها معاهدة تنصُّ على أَنَّ لا تهدم البجة شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر ديارها طولا وعرضا . وبذلك فُتِحَت الأبواب على مصارعها لنزول القبائل العربية بين أهل البجة ، ونزحت إليها عشائر كثيرة من قبيلة ربيعة

العربية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن الأمين ومرض بالتفصيل دخول العرب فى السودان على مر التاريخ والطرق التى سلكوها إليه وما شاع فى السودان من العادات العربية وأمثال العرب ولغتهم .

(١) تنظر فى تعرب السودان ما كتبه فى الفصل الأول عن السودان فى المصور الإسلامية ودولة الفونج ، وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٩ - ٢٦ وتاريخ السودان القديم والحديث لعوم شفيق ودائرة المعارف الإسلامية وكتاب

عملت فى مناجم الذهب بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب ، واستطاعوا أن يدخلوا فى الإسلام من البجة عشائر معروفة باسم الحدارب ، ويقول المسعودى هم وحدهم الفئة المسلمة فى البجة لزمته سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م وبذل على كثرتهم أن أحد زعماء ربيعة هناك بشر بن إسحق كان يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألفا من مقاتلة البجة وكلهم من الحدارب . وكانت لغة أهل البجة حامية وتسمى التبداية ، وكنوا يتشرون من عيذاب إلى كسلا ، وأخذ الإسلام - ومعه العربية - يتشرون مع مر الزمن ، ودخلت لنتهم من العربية ألفاظ كثيرة ، ولا يزال بعض البجاوين وخاصة فى الغرب يحتفظون بالتداية مع نكلهم بالعربية ، يقول نعم شفير عن قاطنى « سواكن » من البجة إنهم يتكلمون البجاوية فى منازلهم ومجالسهم الخاصة، ولكنهم فى المجالس العامة يتكلمون العربية.

وظلت مملكة مقرة النوبة المسيحية تقاوم الإسلام والعروبة قرونا ، وتغير على ميناء عيذاب المصرى وأسوان فى عهد الظاهر بيبرس ، فيرسل إليها حملة تأديية ، وتتغلغل فى ديارها حتى دنقلة ، ويفرض عليها ولاءها لمصر وأن يكون ملكها نائبا فى النوبة عن بيبرس ، ويولى عليها نائبا له ملكا مسيحيا من أهلها وتظل تحاول الاستقلال عن مصر فى عهد قلاوون وتتطور الظروف فى عهد ابنه الناصر ويولى عليها سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م ملكا مسلما من نفس الأسرة المالكة . وسرعان ما استولت على مملكة مقرة النوبة قبيلة ربيعة ونشرت بها الإسلام وبذلك تمسحت مملكة النوبة المسيحية نهائيا ، وظلت مملكة علوة المسيحية جنوبيها تحاول مقاومة النفوذ الإسلامى إلى أن قضت عليها نهائيا دولة الفرنج الإسلامية . ومعروف أن اللغة النوبة إحدى اللغات الحامية فى السودان . ولا يزال أهل بعض مناطقها يستخدمونها فى حياتهم اليومية ، ودخلها كثير من الألفاظ العربية حتى تبلغ كما يقول الدكتور عبد المجيد عبدلدين ثلاثين فى المائة من مجموع ألفاظها وكنوا يستعملون معها العربية .

وعوامل متعددة جعلت غربى السودان يعتنق الإسلام ، منها نزول تجار مملكة البرنو والكنتم الإسلامية فى أسواق دارفور وكردفان ، ومنها مرور حجاجهم بتلك المنطقة ورؤيتهم لهم وهم يفرشون سجاجيدهم ويصلون داعين الله أدعيات مختلفة ، ومنها هجرة كتلة ضخمة من قبيلة زوارة المفرية المسلمة ومن عرب الشاوية (رعاة الشاة) إلى إقليمى دارفور ووادى فى القرن الخامس الهجرى ، وقد كونوا مملكة إسلامية كبيرة ، كان من ملوكها الملك سليمان وشملت مملكته الكنم ووادى وشطرا كبيرا من دارفور . وكانت تسود فى الغرب لغات حامية وبربرية على ألسنة المهاجرين إلى الغرب من زوارة وعربية على ألسنة الشاوية ونوبية على ألسنة التجوور المهاجرين من دنقلة إلى دارفور . واختلف أهل الغرب ، منهم من يتكلم العربية إلى جانب لغته الأصلية : البربرية أو النوبية أو الحامية بجانب العربية ، ومنهم من يتكلم العربية وحدها مثل سكان قبيلة القمر إلا ما كان من جماعة نوى جوجة .

وواضح أننا لا نصل إلى القرن العاشر الهجرى إلا وقد أخذت أجزاء من السودان تتعرب نهائيا مثل حدارب البجة ، وأجزاء أخرى أخذت تضيف العربية إلى لغتها الأصلية كما فى البجة والنوبة وبعض جواتب الغرب فى دارفور ، ما عدا سكان قبيلة القمر فبقهم تكلموا العربية ونسوا لغتهم الأصلية . وتأسس دولة الفونج فى سنار سنة ٩١٠ هـ/ ١٥٠٤ م وتعلن أنها دولة إسلامية فى نظمها السياسية والإدارة وأن العربية لغتها الرسمية وكتب بها وثائقها ، وشجعت العلماء على تدريس الفقه والعلوم الإسلامية والعربية وأخذت تحدث نهضة علمية فى بلادها التى امتدت شمالا حتى الشلال الثالث وشرقا حتى حدود الحبشة والبحر الأحمر وغربا حتى بعض مناطق كردفان وجنوبا حتى منطقة نهر السوبات وبحر الغزال ، فكل هذه المناطق عمت فيها دولة عربية إسلامية - هى دولة الفونج - لمدة ثلاثة قرون ، بحيث نستطيع أن نقول إن السودان تعرب فى عهد هذه الدولة . ومر بنا ما كان بها من طرق وتجمعات صوفية وما كان بها من نهضة ثقافية ، وتأسست فى جبال النوبا غربى السودان الأوسط مملكة تغلى سنة ٩٧٧ هـ/ ١٥٧٠ م وظلت إلى أواخر القرن التاسع عشر وقد عملت بقوة على إتاحة الفرصة للعناصر العربية بالتوغل فى الشمال الشرقى من تلك الجبال ، ووضعت نصب عينها نشر الإسلام والعربية وشجعت القبائل العربية فى حوض النيل وشرقى السودان على الهجرة إليها . وتأسست فى دارفور سلطنة أسستها قبائل التنجور القادمة من بلاد النوبة وقبائل الكنجارة القادمة من إقليم بحيرة تشاد ، ويبدو أنهم كتلوا من عرب الهلالية الذين اكسحوا تونس فى القرن الخامس الهجرى إذ كتلوا يتسبون إلى لى زيد الهلالي . وقامت هذه السلطنة سنة ١٠٤٦ هـ/ ١٦٣٧ م وظلت حتى سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٥ م وتبعثها وادى وبرنو فى عهد ملكها الأول سليمان سلونج ، وعملت هذه المملكة طوال عهدها على نشر الإسلام والعربية ، ومثلها كردفان . وكان بدوى أبو صفية يأتي ببعض أهل جبال النوبا إلى مدينة الأبيض ، فيحفظهم القرآن الكريم والضرورى من الفقه وعلم التوحيد ، ويميدهم إلى بلادهم لنشر الإسلام .

ويمكن القول أننا لا نصل إلى أواخر عهد دولة الفونج فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى إلا وقد تعرب السودان ، ما عدا بعض الجبال الشاهقة المنعزلة التى لم يتح للقبائل العربية الاختلاط بسكانها مثل جبل مرة فى أقصى الغرب وما عدا سكان قبيلة الأمرل من قبائل البجة بجوار الحبشة لوعورة المسالك إليها مما جعلها متأخر فى التعرب بالقياس إلى أخواتها من قبائل البجة . ووصل التعرب إلى يفة الغلوات فى الجنوب عن طريق بعض القبائل العربية مثل البقارة فى كردفان وبنى سليم عند كاككا على النيل الأبيض ، ولهم فضل تعرب الشلك ومثل اختلاط عرب الزريقات بقبائل الدينكا فى بحر العرب . وأكثر أجزاء هذا التعرب كثت تستخدم لغاتها المحلية بجانب العربية ، وأخذ هذا التعرب يستقر ويتسع مع مر الزمن طوال القرن التاسع عشر .

شعراء المدح

من يقرأ كتاب الطبقات لودضيف الله يعرف أن الشعراء كانوا يكثر من مدح ملوك الفونج منذ قامت دولتهم في سنار ، غير أن مدائحهم لم تكن من الجودة بحيث نستطيع عرض نماذج كثيرة منها ، ونجد الشيخ الصوفى فرح ودتكوك التوفى سنة ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م بعد قيام دولتهم بنحو قرن بنى على الشعراء فى عهده وقوفهم المتكرر على أبواب ملوك الفونج أو سلاطينهم يستمنحونهم الهبات والمطايا قائلا^(١) :

يا واقفاً عند أبواب السلاطين ارفق بنفسك من هم وتخزين
إن كنت تطلب عزاً لافاء له فلا تقف عند أبواب السلاطين
خلّ الملوك بدياهم وما جمعوا وقم بدينك من فرض وسنون
استغن بالله عن دنيا الملوك كما انت ستغنى الملوك بدياهم عن الدين

والشيخ فرح ود تكوك ينهى الشعراء عن الوقوف بأبواب السلاطين لانتظارا لأعطياتهم ويقول لهم : وفقاً بأنفسكم وما تعملونها من هم الانتظار لتلك الأعطيات ، ومن يطلب العز الخالد لا يقف بتلك الأبواب إنما يقف بباب ربه ، تاركاً للملوك دنياهم وما جمعوا مع أدله فروض دينه ونوافله ، مستغنياً بالله وما يزرقه عن دنيا الملوك كما استغنوا هم بدياهم ومتاعها عن الدين . وقد أخذ شعر المدح يكثر فى السودان منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان لثورة المهدي الحظ الأوفر فيه ، فقد حقق للسودان استقلالاً وانتصارات متعددة وكثما أعاد إليها الروح التى كانت فقدتها وجعلها تشرع بشخصيتها فى عمق ، مما جعل كثيرين من الشعراء يتبنون بمدحهم وانتصارات جيوشه بآئين فى ذلك غير قليل من الحماسة الملتهبة مشيرين إلى دعوته الدينية وقه يأخذ فيها بهدى القرن والسنة النبوية من مثل قول عبد الفتى السلاوى قاضى دنقلة^(٢) :

ما هذبته غير الكتاب وسنة والشاركون لذلك هم كفرة
أجلى الصدا ولزاح أنواع الردى وسمت به فوق السما علياء
أست به آثار طه ونورها يعلو ولا يعلو عليه ساء
فالمجد فيه موثّل والفضل من ه موثّل والناس فيه سوء

عبد الرحيم (طبع الخرطوم) ص ٨٣ ونظر شعراء
الروحية للدكتور صلاح الدين الملك (طبع دار جامعة
الخرطوم ، ص ٣٣٢ .

(١) انظر طبقات ودضيف الله (طبع صديق) ص
١٥ وشعراء السودان جمع سعد مبخال (طبع
القلعة) ص ٢٦٠ .
(٢) نظمت الراعى فى الأدب والتاريخ والاجتماع أحمد

وهو يقول إن دعوته قائمة على الأخذ بالكتاب والسنة النبوية ، ومن يرفض دعوته يكون كافرا ويصفه بأنه نَحْيُ الصِّدْأ والكُدرة عن وجه الحياة في السودان ونَحْيُ أنواع الهلاك والوبار ، ويقول إن עליاءه علت به فوق السموات السبع ، وأمست آثار طه تتعالى ولا يعلو عليها سناء ولا نور ، ويذكر أن مجده أصيل والفضل منه مؤمل يشترك فيه السودانيون جميعا ، وترجم عما قليل لشاعرين من شعراء المهدي هما : حسين زهراء ومحمد عمر البنا . وكان قائد جيش الأنصار عثمان دقة في شرقي البلاد بمدينة هندوب قرب مدينة سواكن ومعه فرق كبيرة من الجيش فبلغ التعايشي خليفة المهدي أن جيشا إنجليزيا يتقدم نحو سواكن ليفاجئ عثمان دقة في هندوب ، فكتب إلى عثمان دقة بأمره بالانسحاب من المدينة لاستدراج العدو إلى شعاب الجبال ، ومباغتته هناك ، ونكل عثمان دقة بالجيش الإنجليزي في هشيم ، وفي ذلك يقول محمد الطاهر المجذوب كاتبه في قصيدة حماسية^(١) :

هندوب تصرف صَبْرنا	كيف ارتكَبْنَا للمصاعِبِ
وهَشِيمُ تشهدُ عِزْمنا	كيف اذْرَعْنَا للمصائبِ
يا طالما صدنا بها	صَيِّدُ الغُضَنْفَرِ للثعالبِ ^(٢)
نَحْيُ لَدِينِ الله بل	في شَأْنِهِ نَلْقَى المعاطِبِ ^(٣)
متوسلين إليه بالـ	مهدئٍ ووجهة كلِّ راغب
وخليفة المهدي عَبدُ	الله مفتاح المطالب

وهو يقول إن « هندوب » تعرف صبرنا في الحرب وكيف نعد العدة لها ، وتلك « هشيم » تشهد عزمنا المصمم وكيف أخذنا أهبتنا للحرب ، وكانت حربا ضارية صاد جيشنا فيها الأعداء صيد الأسد للثعالب . وإِنَّا لَنَحْيُ للدفاع عن دين الله معرضين أنفسنا للموت من دونه ، متوسلين لإلهنا بإمامنا المهدي وخليفته عبد الله التعايشي مفتاح كل مطلب للشعب السوداني . ويمدح المفضي عبد الرحمن الزبير باشا حاكم بحر الغزال للخيدي إسماعيل ، وكان قد نزل القاهرة بعد ثورة المهدي ، وكان من أنصارها وأرادت حكومة مصر محاكمته فتوسط له الزبير باشا ففُتِيَ عنه ، فامتدحه بقصيدة يقول فيها^(٤) :

هو فخر سنَّارُ الذي عظمتْ بهِ	وجَدَّاهُ عَمُّ بها جميع السَّاحِ ^(٥)
وتواضعتْ عظامُها لعِلاءه إذ	علموا بما أوتى من الفِتاح
من فطنةٍ وزَاهيةٍ وشهاميةٍ	وشجاعيةٍ في التَّسَارَةِ المِلْحاح

(١) نثبات البراع ص ٩٧ . وشعراء الوطنية في السودان ص ٣٣٨ .
(٥) جلده : عطاؤه .

(١) نثبات البراع ص ٩٣ ونظر شعراء الوطنية في السودان ص ٩٠ .
(٢) الغضنفر : الأسد .
(٣) المعاطب : المهالك .

يَحْصِرُ عَلَى مَسْكِنِهِمْ تَعَطُّفٍ وَيَسُدُّ ثَلَمَهُمْ يَخْفِضُ جَنَاحِ
فَالَّذِي يَفِيهِ وَيَجْعَلُ سَفِيهِ لَا يَطْرِبُونَ بِغَيْرِ هَذَا الرِّيحِ^(١)
فِي كُلِّ مَا يَهْوَى قَرِينِ نَجَاحِ

والمضوى يقول إن الزبير فخر « سار » الذي أتاح لها عظمة ومجدا ، والذي عمَّ جوده بها جميع الساحات ، ويذكر أن عظماءها تواضعوا له لما أسبغ الله عليه من نعم : فطنة ونزاهة ومروءة . وإته ليسد ثلمهم وكل ما ينزل بهم من خطوب مع تواضع شديد ، ولذلك يولعون بذكره ولا يطرِبون إلا لترداد اسمه وكأنه خمر مسكرة لهم . ويدعوا له بطول العمر وأن يوفى في كل ما يسعى إليه مقترنا بالجراح المنشود . ويمدح عبد الرحمن شوقي السيد على الميرغنى ، وكان فيما يبدو رئيس الطائفة الميرغنية الصوفية - قائلا^(٢) :

بكم - آل طَـةَ ما حيَّيْتُمْ - مَدْبِجِي وَفِيكَ مَدْبِجِي دُونَ غَيْرِكَ يَا عَلِيَّ
وَمَنْ ذَا يَرَى فِي الْعَمْرِ وَجْهَكَ مَرَّةً تَقَرُّ بِهِ عَيْنَاهُ يَوْمًا وَتَمْتَلِي
فَيْسَلُو هَوَى آلِ النَّبِيِّ ، وَحُبَّهُمْ جَرَى فِيهِ مَجْرَى الرُّوحِ فِي كُلِّ مَفْصَلِ
وَأَنَّكَ لِلْإِسْلَامِ رُكْنٌ وَمَوْزِلٌ لِحَفَظِهِ يَا خَيْرَ رُكْنٍ وَمَوْزِلِ
وَرَّثْتَ كَرِيمَ الْمَجْدِ عَنْ أَكْرَمِ الْوَرَى وَنُورَ الْمُهْدَى عَنْ وَجْهِهِ الْمُتَهَلِّلِ

وهو يقول إني متيمٌ صلبه بحب آل طه ، حبا يتممقني طوال حياتي ، وإني لأقصر عليك - لهذا النسب الكريم - مدبجي ، وإن من يرى وجهك في حياته مرة تَقَرُّ به عيناه وتمتلي فرحا ولا يستطيع سلوا عن حب آل النبي ، وكيف يسلوهم وجههم يسرى فيه مسرى الروح في أعطاف الجسد ومفاصله ، وأنت لركن للإسلام وحصن لتصونه ، يا خير ركن له وحصن ، وقد ورثت عظيم المجد عن أعظم الورى محمد ، وورثت نور الهدى عن وجهه المتهلل المضيء . وتتوقف قليلا لترجم لشاعري المهدي : حسين زهراء ومحمد عمر البنا .

الشيخ حسين^(٣) زهراء

وُلد الشيخ حسين إبراهيم زهراء حوالي سنة ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٣ م بقرية وادي شعير في المسلمية جنوبي الخرطوم بنحو ١٥٠ كيلومترا لأبوين عباسيين ، وتوفي سنة ١٣١٣ هـ/ ١٨٩٥ م . عُنى أبوه بتعليمه لما لاحظ من فطنته وذكاؤه ، وبعد حفظه للقرآن الكريم أخذ ينهل من حلقات علماء الدين . وفي نحو العشرين من عمره رحل إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، وظل فيه سبع سنوات مكبا على حلقات شيوخه ، حتى إذا اكتمل زاده العلمي عاد

(٣) انظر في ترجمة الشيخ حسين زهراء نشأت البراع

ص ٨٩ وشعراء السودان ص ٦ وشعراء الوطنية ص ٦٥

ر ٣٢٢ وما بعدها .

(١) الراح : الخمر .

(٢) شعراء السودان لسمد مختاريل (طبع القاهرة) .

ص ٢٠٢ .

إلى موطنه ، والتف حوله كثير من الطلاب السودانيين يفيدون من علمه . ولما قام المهدي بثورته ظل فترة يتنظر مصيرها ، حتى إذا انتصر المهدي على حملة هكس باشا الإنجليزى فى الأبيض وأبادها وفد عليه ، فقلبله بغير قليل من الخفاوة إلا أنه لم يسارع إلى تعيينه فى وظيفة من وظائف دولته الكبرى ، فنظم قصيدة هزبية طويلة بها تلميحات إلى ما ينبغى على المهدي من عناية بالعلماء من أمثاله وإستاد الوظائف المهمة إليهم . ويدو أن المهدي لم يعجبه منه هذا التلميح ، وقدم إليه مدائح أخرى ، وظل غاضبا بصره عنه . حتى إذا تولى بعده رئاسة الدعوة المهدية خليفته عبد الله التعايشى استقدمه وعهد إليه بتدريس مادتي الحديث النبوى وعلم الفرائض (المواريث) . وعلت وظيفة قاضى القضاة فعينه فيها ولقبه بلقب قاضى الإسلام ، وكان يحق الحق لا يبالى بأحد ، ففرضت عليه قضية ومعها فتوى تهم الخليفة التعايشى ، فحكم فيها بالحق الذى يقتضيه الشرع . وعزله التعايشى فنظم فيه قصيدة هجاء فسجنه ، ويقال إنه منع عنه الأكل والشرب فتوفى صبرا . وكان شاعرا بارعا ، وقصيدته الهزبية فى مدح المهدي طويلة ، ومن تلويحاتها فيها له بما ينبغى فى دولته من تقديم العلماء قوله فى تضاعفها :

برج الخفا ما الحق فيه خفاء	وتوالى الآيات والأنبياء
بالآية الكبرى التى بظهورها	كمل الرضا وانجلت الأسواء ^(١)
مهدى رب العرش متنظر الزرى	والى الولى والأكرمون وراء
علماء أمه أحمد ناشدتك	ردوا جوبلى بكم علماء
أرضى وترضون الضلال بعيد ما	ظهر الهدى وانجلب عنه قذاء
ويخب ظنى فيكم وعشيرتى	أنتم ويقمع جتمعنا الغرباء ^(٢)
جهل الولا أمان دين محمد	وأهله ماتوا وهم أحياء

وهو يهزل لظهور الحق وتوالى العلامات والأنبياء بظهور الآية الكبرى المتجسدة فى المهدي والتى كمل للشعب السودانى بها الرضا وتزاحت الأسوله والشرور ، فقد أظهر رب العرش المهدي متنظر الأمة السودانية . ولا يلبث فى الشطر الثانى أن يقول إنه يقدم من بادروا إلى بيعته ، بينما يؤخر الفضلاء ويحدهم وراءهم ، ويناشد علماء الأمة أرضون هذا الضلال ، بعدما اتضح الهدى وانحسرت الأفتاء عنه ، ويخب ظنى فيكم ويقهرنا الغرباء ، ويتسدى الولا فى جهلهم . ويتساءل ثابة أمانت شريعة محمد وأهلها من العلماء وهم أحياء . والقصيدة تحمل حلة عتيقة على المهدي وأوليائه وأتصاره الذين يفرهم قري ربيعة . ويمدحه بقصيدة عينية يقول فيها :

(٢) ينسخ : يفر .

(١) أسواء جمع سوء

عمادُ المهدي أسُ الجَدَا معدُّ العِدَا بدأ وإليه الناسُ في الأرض نُجْعُ^(١)
مَلَاكُ أَسَاطِينُ الخِلافةِ كَفَرُوا إل مُعَدُّ لَهَا الحصَنُ الحصينُ المُنْعُ
إِمَامُ المَهْدِيِّ الهَادِي لِكُلِّ ومُرشدُ بهامته التَّاجُ النَفِيسُ المُرْصَعُ
بِهِ أَخْبِرْتِ مِنْ قَبْلُ وَفَتْ ظَهْرُهُ صَحَاحُ رَوَاهَا هَبْرَزِي وَمَوْضِعُ^(٢)

وهو يقول إن المهدي العماد الذي يقوم عليه المهدي وأُس العطاء وميت الأعداء ، ظهر والناس يطلبونه هو وعطاياه ، إنه ملاك ، ونعم الكفاء المدد لأعمدة الخلافة والحصن الحصين ، إمام المهدي الهادي المرشد لكل الناس ، وإن رأسه ليزدان بتاج المهدي النفيس المرصع . ويبالغ حسين زهراء بمبالغة مفرطة إذ يقول إن أحاديث صحاحا بشرت به قبل ظهوره ، رواها محدث مقدم مسرع في خطاه . ويمدحه بقصيدة دالية ، وفيها ينشد :

الأمرُ جِدُّ والخطوبُ جَدَادُ وجنودُ مهديِّ الوَرَى أمجادُ
حربٌ بمحارِبِ المهدي من بَاسِهِ بِشْتَاتِهَا تَنْزِلُزُ الأَطْوَادُ^(٣)
لِمَ لَا وَأَمْلَاكُ السَّمَاوَاتِ المُلَا فِي جَيْشِ مهديِّ الوَرَى أجنَادُ
لِلْحَقِّ جَاءَ وَلِلْمَنَآكِرِ قَاتِلُ وَعَلَى الفِعالِ مِنَ المَقَالِ مَزَادُ

والقصيدة حماسية ، وبدأها حسين الزهراء بأن الأمر جد والخطوب متجددة وجند المهدي أمجاد أبطال ، وإن حربا يقودها المهدي من محراب المهدي لتتزلزل لها الجبال ، إذ ليس جندها من أسود السودان الأشداء فحسب ، فإن الملائكة من السموات الرفيعة تشترك معهم في الحرب تؤيدهم وتنصرهم ، ولا عجب فقد جاء المهدي لإقرار الحق وإزالة كل منكر ، وإن فعاله لأعظم من أن يحيط بها مقال .

الشيخ محمد^(٤) عمر البنا

ولد الشيخ محمد عمر البنا في رفاعة بإقليم الجزيرة سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨ م وتوفي سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨ م وحاول الاشتغال بالتجارة في مطالع شبابه وعسرت تجارته ، فتركها إلى حلقات الشيوخ ينهل منها ، وفي الثالثة والعشرين من عمره رحل إلى القاهرة واختلف إلى دروس شيوخه مدة غير قليلة ، وعاد إلى موطنه . ولما قام المهدي بدعوته هاجر إليه وبايعه وأخلص في بيته ، وامتدحه وأصبح شاعره وشاعر دعوته ، ولزمه ولزم خليفته عبد الله

الشعر الحديث في السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٣٠ وما بعدها وفي مواضع مختلفة (نشر معهد الدراسات العربية العالية بالجلمعة العربية) وشعراء الوطنية في السودان طبع دار جامعة الخرطوم ص ٨٨ و ٣١٧ وما بعدها .

- (١) نجيع جمع ناجع : طالب الكَلَا .
- (٢) هَبْرَزِي: شجاع متقدم موضع : مسرع في خطاه .
- (٣) الأَطْوَاد : الجبال .
- (٤) انظر في ترجمة الشيخ محمد عمر البنا وشعره فئات العراق ص ١٠٠ وشعراء السودان ص ٢٧٣ وكتاب

التعاضى ، وقره منه ، وجعله بمنزلة مستشار له ، ولما انتهى عهد التعاضى والدعوة المهدية عينته الحكومة الثانية قاضيا ثم منشا للمحاكم الشرعية إلى أن لثى نداء ربه . وكان شاعرا مجيدا ، بل كان أبرع شعراء السودان فى زمنه ، ويتميز بأسلوب جزل رصين ، وشعره فى المهدى والدعوة المهدية يحفظ بحماسة قوية على نحو ما نرى فى تائيته التى طارت شهرتها ، وهو يستهلها بقوله :

الحربُ صَبْرٌ واللقاءُ ثباتُ والموتُ فى شأنِ الإلهِ حياةُ
والجينُ عارٌ والشجاعةُ هبةُ للمرءِ ما اقترنتُ بها الزماتُ
والصبرُ عند البأسِ مكرمةٌ ومقد دأبُ الرجالِ تهلبُهُ الوقعاتُ
والفخرُ كلُّ الفخرِ بغيرِ النفسِ للـ به العلى وأجرُها الجناتُ
إن الجهادَ فضيلةٌ مرضيةٌ شهدتُ بِمُحكَمِ أجرِها الآياتُ
قد حاز هذا الانخارَ جميعَه صَحَبُ الإمامِ السادةِ القاداتُ

وهو يقول لأنصار المهدى عمسالم : الحرب صبر واللقاء ثبات واستماتة ، وإنها لحرب عظيمة فى نصرة دين الله ، والجين والعمود عنها عار لا يماثله عار ، وما أعظم الشجاعة المقترنة بالزئمة وما أعظم الصبر حتى الموت ، بل إن الموت ليهاب شجعان الرجال ، وإن بيع النفس لله العلى فخر لا يماثله فخر لعظم الأجر من الجنات ونعيمها الخالد ، إنها ليست حربا بل جهادا فى سبيل الله ودينه الخيف الذى نزل القرآن الكريم بمحكم أجره وثوبه من مثل قوله : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ ويقول إن هذا الفخر جميعه حازه صحب المهدى وقواده . ويشيد بجهادهم فى نشر الدعوة المهدية منشدا :

قومٌ إذا حَمَى الوطيسُ رأيَهم شُمُ الجبالِ ، وللضعيفِ حماةُ
ولباسُهم سَرْدُ الحديدِ وبأسُهم شهدتُ به يومَ اللقا الغاراتُ
وخلوقُهم صِدأُ الدروعِ ، لحزمهم قتلُ الأعادى عندهم عاداتُ
فى السلمِ تلقاهم ركوغا سَجْدًا أثرُ السجودِ عليهمُ وسماتُ
وتخالُهم يومَ الجِلاَدِ ضراغما لئدُ وأسلُ رماحهم غاباتُ
ركبوا الجيادَ وغادروا شيلو العِدا رزقَ السورِ ولحمهم أقواتُ
والأرضُ سالتُ بالدماءِ وما بها غيرَ الجماجمِ والشعورِ نباتُ

فهم قوم بواصل إذا دارت رحا الحرب رأيهم جيالا شاهقة لا يبالها أحد ، وهم مع ذلك حماة لكل ضعيف يأخذون بيده ، لباسهم دروع متينة النسيج ، والغارات تشهد بشجاعتهم الخارقة ، وليس لهم طيب إلا صدأ الدروع ، مع اكتمال حزم فى قتل الأعادى والتكيد بهم .

أما فى السلم فدائما راكمون ساجدون لله وعلى وجوههم أثر السجود وعلاماته . ويوم النزال تظنهم أسدا وقد بدت رماحهم الطويلة فوقهم وكثأتها غلبة ضخمة . ويقول إنهم يادرون إلى الحرب فيركبون خيولهم ، وما هى إلا ساعات يغادرون بعدها ساحة الحرب وقد خلفوا للنسور طعامها من لحوم أعدائهم ، وتسيل الأرض بدمائهم وكثأتها أثبتت جماجم ورءوسا لكثرة القتل . ويشيد البنا عقب ذلك بانتصاراتهم وإعلائهم لكلمة الله وإرضائهم لرسوله وقمعهم لأعدائهم ، ويحث المهدي على غزو الخرطوم وإخراج الغواة المفسدين منها ضاربا له المثل بجهد الرسول والصحابة ضد العتاة الظالمين ، ويهنيء الشهداء من جيشه ، فالجور العين تنتظر لقاءهم فرحا بهم ، والجنات تزينت لقدومهم . والقصيدة شعلة من الحماسة المتهتة . وللبنا قصيدة يمتدح بها عثمان دقة قائد جيش المهديين فى شرقى السودان ، وفيها يصور بسالة جنوده منشدا :

بعثت لهم همم الجهاد ملابس النصر العزيز يمدّه التصويبُ
وأمدّهم جيش الملائك ناشرا رايات نصر للبلاد تجوبُ
فسيوفهم مسلولة ورماحهم مسنونة وعدوهم مرعوبُ
وعدوهم ذومًا يَخصُّ بريقه والرعبُ منهم للقلوب يذيبُ
إن نوزلوا كانوا الليث معاركًا أو غولبا فعدوهم مغلوبُ
أو حوربوا فالرعبُ من أعوقهم ذومًا وعقل عدائهم مسلوبُ

وهو يقول : كلّمناهم الجهاد القساء أرسلت إليهم ملابس النصر ترافقها إصابة الأهداف ، بل لقد زوّدهم جيش الملائكة برايات نصر نشرها فى البلاد ، وسيوفهم مسلولة من أعمادها ورماحهم مسنونة قاطعة ، وأعدائهم غاصون بريقهم من شدة رعبهم ، بل ليكاد الرعب يذيب قلوبهم . وإن نوزلوا فى معركة كانوا أسودا وإن غولبوا غلبوا وقهروا الأعداء قهرا ، أو حوربوا كان الرعب من أقصاهم دائما ، ودائما كان عقل أعدائهم مسلوبا من هول حربهم ونزالهم الضارى .

٣

شعراء القفر والحماسة

مرت بنا أشعار حماسية زمن الدعوة المهدية لمحمد الطاهر المجذوب ومحمد عمر البنا ، وملتقى بالشاعر يحيى السلاوى السودانى يرحل إلى مصر للمشاركة فى الثورة العربية ، وسنفرّد له ترجمة عما قليل ، نعرض فيها له قصيدة حماسية . وتلقائنا عند عثمان هاشم حماسية هدية فى حرب مصطفى كمال لليونان وإخراجهم على وجوههم مدحورين من الأناضول ، وسنخصه

زَمَانٌ تَوَلَّى كَانَ فِيهِ جَدُّونَا
 إِذَا لَبَسُوا فَالْخَلْدُ فِي بَسْمَاتِهِمْ
 وَإِنْ عَصَرُوا عَوْدَ الزَّمَانِ أَطَاعَهُمْ
 وَإِنْ ضَرَبُوا دُكُومَ الْفِلَاحِ بِعِزِّهِمْ
 شَمْسُ سَمَاءِ الْمَجْدِ أَهَانَ أَنْشُرُوا
 لَقَدْ نَصَرُوا الدِّينَ الْخَنِيفَ وَسَدَّدُوا
 وَسَاسُوا فَمَا جَارُوا وَلَا تَبَعُوا هَوَى
 إِلَى أَنْ دَعَا دَاعِيَ الرَّدَى تَتَلَبَّاهَا
 لَبَّيْنَا بِقُدُونِ الْخَمِيسِ الرَّقْمَرَا^(١)
 وَإِنْ عَبَسُوا فَالْكُونُ صَارَ جَهَنَّمَا
 وَلَئِنْ لَمْ عَاصِيهِ حَتَّى تَقْرُبَا
 وَأَوْتَسُوا إِلَى بَنِيهَا ضَهْدَمَا
 بِدَوْرِ الدَّيَاجِي حَيْثُ كَانُوا وَأَنْجَمَا
 إِلَى الْكَفْرِ سَهْمَا فِي الْفَوَادِ مَصْمَمَا
 وَلَا حَمَلُوا النَّفْسَ الضَّعِيفَةَ مَقْرَمَا
 نَجُومَا هَوَتْ فَالْكُونُ أَصْبَحَ مَظْلَمَا

وهو يصور المجد التاريخي العظيم لأمتنا العربية في الأزمنة الغابرة ، ذاكراً أن زمناً مضى كان جدودنا فيه أسدا ضاربة ، إذا رضوا ولبسوا فكأنما فتحت أبواب الجنان ، وإذا عبسوا ونازلوا قوما فقد أصبح الكون نارا حامية ، وإن عَصَرُوا عود الزمان انصهر لهم ، وإن عصا قوموه حتى ينصهر ، وإن ضربوا دُكُومَ الفلاح بعزهم الجبار ، بل لو أشاروا إلى بنيتها لخر منقضاً . هم شمس سماء المجد في كل مكان يحلون فيه وبدور الدياجي في كل بقعة ينزلونها ونجوم ساطعة ، وطالما نصروا الدين الخنيف وسددوا إلى صدور الكفر وأقصدته سهاماً مصمية . وساسوا الأمم والشعوب سياسة عادلة لا تميل مع الهوى ، مليئة بالرحمة للضعفاء فلا تحملهم مغرماً ، ودار بهم الزمان دورات إلى أن دعاهم داعي الموت فتابعوا نجوما نهات وأصبح الكون مظلماً . وينشد الشيخ محمد سعيد العباسي حماسية في الحرب الطرابلسية الإيطالية سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ، وقد انتصر الطرابلسيون في بعض المواقع ، وفيها يقول^(٢) :

يُروم بنو روما طرُلُلسًا وقد
 أثاروا وَغَى دَارَتِ رَحَاهَا عَلَيْهِمْ
 أَعْدَوْا لَهَا مِنْ عُدَّةِ الْحَرْبِ كُلِّ مَا
 وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ سَوْفَ يَنْجَحُ سَتِّيهِمْ
 لَبَّيْدُوا فَكَانُوا عِبْرَةً لِلنَّاسِ بَعْدَهُمْ
 غَزَوْهَا بِجَيْشٍ ضَاقَ بِهِ الْفَقْرُ^(٣)
 وَرَامُوا بِهَا فَخْرًا فَفَاتَهُمُ الْفَقْرُ
 يَضِيقُ بِهِ التَّحْدَادُ وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ
 وَلَكِنَّهُ زَعَمَ الْأَضَالِيلُ وَالْمَذَرُ
 وَحَلَّقَ فِي آثَارِ مَوَاتِهِمُ النَّسْرُ

وهو يقول إن أبناء روما قصدوا طرللس بجيش كئيف ضاق به الفقر وسُخًا ، ودارت رحا حرب ضارية أراد بها الطليان فخرا ففاتتهم ، مع ما أعدوا للحرب من عدة وأسلحة لا يحيط بها المد والإحصاء ولا البر والبحر ، وزعموا أن نصرهم قريب وهو زعم أضاليل وهذيان فقد

(١) الخميس الحرم : الجيش الكئيف الكبير . ص ٢٣٩ ونظر ديوانه .

(٢) شعراء السودان ص ٢٨٨ وكتاب محمد سعيد

العباسي للدكتور أحمد عبد الله ساسي (طبع الخرطوم)

(٣) فرما : رسا .

أُيِّدُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، وَأَصْبَحُوا عِبْرَةً وَمَوْعِظَةً لِّكُلِّ مَعْتَدٍ أَتَيْتُمْ ، وَحَلَقْتَ فَوْقَ جَسَدِهِمُ النَّسْرَ
وَلَقِضْتُ عَلَيْهَا انْقِضَاضًا . وَيَقُولُ مَفَاخِرًا بِشَيْمِهِ الرَّفِيعَةِ وَأَجْدَادِهِ (١) :

أَلْقَى بَصِيرَى حُسَامِ الْحَادِثَاتِ وَلى عَزَمَ أَصْدُ بِهِ مَا قَدْ يَلَاغِبُنِي
وَلَا أَتَوَّقُ لِحَالِ لَا تَلَاثُمَهَا حَالِي وَلَا مَنَزَلُ اللَّذَاتِ يُلْهِيَنِي
وَلَسْتُ أَرْضَى مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ عَظُمَتْ إِلَّا الَّذِي بِجَمِيلِ الذِّكْرِ يَرْضِيَنِي
وَكَيْفَ أَقْبِلُ أَسْبَابَ الْهَوَانِ وَلى آبَاءُ صِدْقٍ مِنَ الْفُرِّ الْمَيَامِينِ (٢)
النَّازِلِينَ عَلَى حُكْمِ الْعَلَا أَبَدًا مَنْ زَيْنُوا الْكُونَ مِنْهُمْ أَى تَزِينِ
مِنْ كُلِّ أَرْوَغٍ فِي أَكْسَادِهِ يَبْدُ كَاللَّيْثِ ، وَاللَّيْثُ لَا يُغْضَى عَلَى هَوْنٍ (٣)

والعباسي يقول إنه يتدرع أو يتسلح بصبر أمام جسام الحوادث فلا تنال منه ، ويصد بعزمه
القوى ما يلقاه من خطوب ، ولا يتشوق لحال لا تتفق وحاله ، ومنزل اللذات لا يلهيه ، بل
يكف نفسه عنه ، ولا يرضيه من دنياه إلا الذكر الجميل والعمل الحميد ولا يقبل هوانا وكيف
يقبل هوانا أو ضيما ، وآباءه آباء صدق من المشهورين ميموني النقية الذين لا ينزلون أبدا
إلا على حكم العلا وقد ازدان بهم الكون زينة رفيعة ، من كل شجاع على كاهله لبد كئنه
ليث حقيقي ، والليث لا يغمض عنه ولا يستطيع الصبر على هوان وضيء . وحرى بنا أن
نترجم الآن ليحيى السلاوى السودانى وعثمان هاشم .

الشيخ يحيى (٤) السلاوى السودانى

ولد الشيخ يحيى السلاوى السودانى بالخرطوم حوالى سنة ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦ م وهو
ابن عبد الغنى السلاوى قاضى دنقلة الذى مر فى شعراء المديح أنه كان من شعراء المهدي
وذكرنا له أبياتا من قصيدة فى مديحه هناك ، وكان ابنه يحيى شاعرا مثله ، ونراه حين
نشبت ثورة عربى بمصر سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م يطلب من مدير دنقلة ترحيله إلى
مصر ، ويرفض طلبه ، فيرق إلى محمد رءوف باشا حاكم السودان البيتين التالين :

مولائى عَزَّ تَرَحَّلْى وَغَدَوْتُ مَقْصُوصَ الْجَنَاحِ
فَأَرْشُ جَنَاحِى مِثْلَمَا عَوَّدْتَنِيهِ وَلَا جُنَاحَ

فأُبرق رءوف باشا إلى مدير دنقلة بترجيله على نفقة الحكومة إلى مصر ، وبمجرد أن نزلها
اندمج فى الثورة ، وعرف أحمد عربى أنه شاعر فطلب إليه أن ينظم قصيدة لطبعها ونشرها

(٣) أكساده جمع كسد : مجمع الكفوين .

(١) شعراء السودان ص ٢٩٣ ونفحات البراق ص ١٣٩

(٤) انظر فى ترجمة يحيى السلاوى وقصيدته نفحات

وكتاب محمد سعيد العباسي ص ١٢٩ وما بعدها وانظر

البراق ص ٨٣ وشعراء الوطنية فى السودان ص ٢٨ ،

ديوانه .

٢٩٩ .

(٢) الفر : المشاهير . الميامين : المباركين .

فى أرجاء مصر . ويقول محمد عبد الرحيم فى ترجمته له بكتابه نفثات البراع إته نظم - تلبية
لعرلى - قصيدة يائية من تسعة وتسعين بيتا عثرا على طائفة من أبياتها ، وبلغ من اهتمام عرلى
والشعب المصرى بها أن طُبعت بماء الذهب وبيعت فى شوارع القاهرة ، وكان ثمن النسخة
منها جنيها ذبها ، وبلغ ما عثر عليه محمد عبد الرحيم منها خمسة وأربعين بيتا وهى أشبه
بمنشور ثورى وهو يستهلها بقوله :

شَهِلَ الْبِدَا بَتَشَتِ الْأَحْزَابُ	وَاللَّهُ نَاصِرُنَا بِسَيْفِ عَرْلَى
وَالْقَطْرُ فِيهِ مِنَ الرِّجَالِ كِفَاءٌ	لِلْحَادِثَاتِ فَهَمْ أَوْلَسُو الْأَلْيَابِ
وَحِمَّةُ الْإِسْلَامِ تَقْضَى بِالْوَفَا	حَتْمًا عَلَى كُلِّ امْرِئٍ أَوَّابٍ ^(١)
وَعِبَّةُ الْوَطَنِ الْعَزِيزِ تَحْتُمُ	وَالْفَلَجُ إِذْنُ بَاتِبَاعِ صَوَابِ
وَالْمُشْرِكُونَ خَوَاسِرٌ فِي سَبْعِهِم	هَزَمُوا وَقَدْ نَكَصُوا عَلَى الْأَعْقَابِ ^(٢)

والشيخ يحى يقول إن الإنجليز شغلوا بتشتت جندهم ، وسماههم الأحزاب أسوة بفزوة
كفار فريش والعرب المسماة غزوة الأحزاب ، ويقول إن الله ناصرنا بسيف الحق : سيف
أحمد عرلى ، والقطر ملء رجال أكفاء لهؤلاء الأعداء ، وهم مملوءون حية للإسلام ، تأمر
كل مسلم أبواب متبيل لربه بالوفاء لدينه الحنيف والدفاع عنه بالروح ، وأيضا مملوءون محبة
للوطن تحتمهم على الدفاع عنه وهو دفاع سينتهى إلى النصر المين ، وقد نصرنا فعلا فى
بعض المواقع ، وهو إذن وبشرى بالنصر التام وإن الإنجليز لخاسرون فى حربهم إذ هزموا
ورجعوا ناكسين على أعقابهم . ويمضى قائلا :

هَيَّا بَنَا يَا أَهْلَ مِصْرَ إِلَى الرُّضَا	وَالْفَوْزِ فِي الْعُقْبَى بِغَيْرِ حِسَابِ
أَنْتُمْ أَوَّلُو الْمَهْمِ الَّتِي بِسَاهِمَا	كَمْ مِنْ عَدُوٍّ أَبْ شَرُّ إِيَابِ
لَا تَشْغَلُنْكُمْ الْحَيَاةُ فَإِنَّمَا	ذَلْ لِمَنْ يَرْضَى بِهَتْكَ جَنَابِ
وَلَقَدْ نَرَى إِخْوَانَنَا فِي حَالِهِ	تَحْتَاجُ لِلْأَعْوَانِ وَالْأَصْحَابِ

وهو يهيب بأهل مصر أن يؤيدوا عرلى ويشاركوا فى حرب الإنجليز طلبا للفوز فى
الآخرة ويقول إنكم أولو المهمة المصممة ، وما أكثر ما نكلتم بأعداء بلدكم حتى آتوا شر
مآب ، ولا تشغلنكم الحياة عن واجبكم فى الدفاع المستميت عن بلدكم ، وإته لذل لأى
أمة ما مثله ذل أن ترضى بهتك العدو لأى ناحية من نواحيها ، وإن إخواننا من الجنود
وقادتهم لفى حاجة إلى العون المادى والحربى ، ويذكر بعض الشخصيات التى ناصرته
عرلى وأمدته بعون قيم .

(٢) نكصوا على الأعقاب : رجعوا عما كانوا يحزمونه .

(١) أبواب هنا : متبيل إلى ربه .

والقصيدة وثيقة مهمة في موقف الشعب من ثورة عرلي وتأييده له في حربه ضد الإنجليز
الفاشمين . ويقول محمد عبد الرحيم : لما دخل اللورد ولسلي بجيشه الإنجليزي إلى القاهرة
وأخذت الحكومة تقبض على دعاة الثورة لجأ الشاعر يحيى إلى السيد محمد سر الختم الميرغى ،
فساعدته على السفر إلى الآستانة ، وهناك عُيِّن مفتشاً للغة العربية في وزارة المعارف التركية .

عثمان^(١) هاشم

ولد في مدينة بربر أواخر سنة ١٨٩٨ للميلاد ، وهو من الأسرة الهاشمية السودانية التي
شاركت بقوة في العلوم الإسلامية ، وهي تنسب إلى العباس بن عبد المطلب ، ومن أعلامها
أبو القاسم هاشم شيخ علماء السودان ومؤسس المعهد العلمي الديني بأبجدرمان سنة ١٩١٢
والطبيب أحمد هاشم مفتي السودان . بدأ حياته الدراسية بالاختلاف إلى كتاب لحفظ القرآن
الكريم ، وتركه قبل أن يتمه للالتحاق بمدرسة مدينة بربر الابتدائية ، ومنها تحول إلى القسم
الابتدائي في كلية غوردون وتخرج فيه وعمل في الحكومة السودانية موطفا منذ سنة ١٩١٥ .
وشغف بالشعر العربي مبكراً فأكتب على دواوينه واستيقظت فيه الموهبة الشعرية سريعاً ، ونظم
في موضوعات مختلفة جمع منها سعد ميخائيل باقة بديعة حين ألف كتابه شعراء السودان
سنة ١٩٢٣ منها قصيدة حماسية في بطل الأناضول مصطفى كمال أتاتورك ، وكان الحلفاء بعد
الحرب العظمى الأولى في هذا القرن أغروا اليونان باحتلال أزمير وشرط كبير من الأناضول ،
واستحال الشعب التركي إلى عصابات مسلحة تقاوم هذا الاحتلال واتضمت إليها قوات
نظامية ، وقاد المقاومة سنة ١٩٢١ مصطفى كمال ، وأخذ الترك يسحقون اليونان سحقاً ، حتى
اضطر من بقي منهم إلى خروجهم من الأناضول جميعه في سبتمبر سنة ١٩٢٢ وعادت
تركيا - بفضل مصطفى كمال - إلى الظهور ببطولتها الحرة القديمة ، وحياه عثمان هاشم
بقصيدة رائعة ، يقول له في مطلعها :

ضربت سيف الحق فاندك باطل	وجئت بما لم تستطع الأوائل
ودافعت عن دين النبي محمد	ولم تكن منك العزم تلك القنابل
غضبت لدين الله لما رأيته	تمدد له من كل حذب غوائل ^(١)
فلما توسطت الأناضول صيحت في	بنيه ألا هبوا دفاعاً وناضلوا
فلتيك من أبناء عثمان عصبة	لها في صميم الترك مجد وناقل
وهاجوا غرضها كالأسود وأقسموا	بأن يصدقوا بالتفصيل ما أتت قاتل

وهو يقول لمصطفى كمال : ضربت جند اليونان سيف الحق فاندك حصن باطلهم واحتلهم
الأثيم ، ودافعت عن دين سيد الخلق محمد ، لا تننيك قتال الأعداء ، إذ غضبت للدين الخفيف

(١) انظر في ترجمة عثمان هاشم وشعره شعراء السودان ص ٢١٤ .

^١ غضبة ضاربة ، فقد رأيت دواهي كثيرة تحيط به من كل حَدَبٍ وطريق . ولما توسطت الأناضول صرخت في أهله : هَبُوا وناضلوا عن حاكم ، ولَبَّك من لباء الترك عصابة ذات مجد وعطاء عظيم ، وهاجت هياج الأسود تدافع عن عرينها . ويخاطب مصطفى كمال مصورا بلقاء الترك في الحرب إلى أن أحرزوا النصر النهائي العظيم قائلا :

أَحْلَطَ بِكَ الْأَعْدَاءُ حَتَّى كَانَتْهُمْ	خِصْمٌ عَظِيمٌ لَمْ يَبْنَ مِنْهُ سَاحِلُ
وَكَمْ سَفَكُوا مِنْكُمْ دِمَاءَ بَرِيَّةٍ	وَكَمْ سَفَحَتْ لِلدَّمَغِ مِنْكُمْ أُرَامِلُ
وَمَا هَذَا مِنْكَ حَزْمًا عَزَمْتَهُ	وَكَيْفَ تَهْدُ الرَّاكِبَاتِ الْمَعَالِ
فَسَقِيَا لِأَقْوَامٍ سَقَوْا بِدِمَائِهِمْ	تَرَى وَطَنِي مُدَّتْ إِلَيْهِ الْحَبَائِلُ ^(١)
وَذَاوَدُوا عَنِ الدِّينِ الْخَنِيْفِ بِغِيْرَةٍ	كَأَنَّ صُدُورَ الْقَوْمِ مِنْهَا مَرَاكِلُ ^(٢)
هَيْبًا لَكَ النَّصْرُ الْمُبِينُ وَلِيَتْنِي	بِحَيْشِكَ جَنْدِي تَطْوَعُ بِاسِلِ

ويقول عثمان هاشم إن جنود اليونان كانوا كثيرين حتى كأنهم بحر زاخر لا تين له سواحل ، وكَمْ أَرَأَقُوا مِنْ دِمَاءِ التُّرْكِ الطَّاهِرَةِ ، وكَمْ بَكَتْ مِنْهُمْ أُرَامِلُ فَقَدْنِ أَزْوَاجَهُنَّ ، وما هَذَا ذَلِكَ مِنْكَ شَيْئًا مِنْ حَزْمِكَ وَعَزَمِكَ ، وحقا لا تهْدُ الْمَعَالِ الرَّاكِبَاتِ الشَّامِخَةِ . ويدعو الله لهم بالسَّقْيَا والرَّعَايَةَ جِزَاءَ لِدِمَائِهِمُ الَّتِي سَقَوْا بِهَا تَرَى وَطَنَهُمُ الْمَقْدُودَ ، وقد مُدَّتْ إِلَيْهِمْ مَصَائِدُ الْمَكْرِ وَالْقُدْرِ ، ودافعوا عن الدِّينِ الْخَنِيْفِ بِغِيْرَةٍ وَحِمِيَةٍ ، حتى كَأَنَّ صُدُورَهُمْ مَوَاقِدَ مُشْتَعِلَةٍ مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ . ويمضى عثمان هاشم في قصيدته ويختتمها بتهنئة حارة لمصطفى كمال بنصره المين ، ويتمنى لو كان جنديا باسلا في جيشه ، ونال حظا من شرف هذا النصر العظيم . ويقول مفاخرها بقومه :

يَبَى لِمَنْ مَعَشِرٍ طَلَبْتُ أَصُولَهُمْ	فَطَلَبْتُ فَرْعَهُمْ وَالنَّسْلُ وَالنَّسَبُ
إِنْ نَلَبْتُكَ الدَّهْرُ فَاسْتَجِدْتَهُمْ نَجِدُوا	أَوْ مَسَّكَ الضَّرُّ فَاسْتَنْهَضْتَهُمْ وَثَبُوا
عَرَّ جَحَاجِحُهُ شُمَّ غَطَارِفُهُ	صَيْدَ جِهَانَةَ بِلِ سَادَةِ نَجَبٍ ^(٤)

يشير إلى أنه من معشر شريف - إذ هو سليل العباس بن عبد المطلب - معشر ظلت أصولهم نزلت فروعهم وطالب نسلهم وذريتهم ، وطالب النسب والانتساب إليهم ، إن أصلبك الدهر بنائبة أو كارثة واستجدتهم نجدوك بكل ما يستطيعون ، وإن مسك ضر واستنهضتهم

(١) غر : مشهورون . جحاجة جمع ججاج : السيد السح الكرم . شم جمع أشم : الترفع . غطافة جمع غطريف : السيد . صيد جمع أسيد : الزهر بنفسه . جهانة جمع جهيد : المجرب . نجب جمع نجيب : فاضل .

(١) الحذب : ما ارتفع وغلظ من الأرض . غرائل جمع غائلة : الدلعة .
(٢) الحبال جمع حبال : المصيدة .
(٣) مراحل جمع مرجل : القدر . يريد أنها نزل غلبان القدر .

للدفاع عنك وثبوا إليك سراعاً ، وهم مشهورون سمحاء كرام مترفعون سادة مزهونون بأمجادهم أصحاب فراسة ، بل هم سادة فضلاء . وللشاعر مقطوعة ثانية في الفخر يقول فيها عن قومه :
 قَوْمٌ لَقَدْ طَلَبْتُ سَرَائِرَهُمْ فَلَمْ تَرَ غَيْرَ بَذْلِ نَدَى وَبَسْطِ كَفُوفِ
 هُمْ أَفْضَلُ الْعَرَبِ الْكَرَامِ عَشِيرَةٌ وَأَعَزُّ أُنْسَابًا وَشُمُّ أَنْصُوفِ^(١)
 وَهُمْ الشُّمُوسُ إِذَا الْحَوَادِثُ أَظْلَمَتْ وَهُمْ الْبُدُورُ بِنُورِهَا الْمَعْرُوفِ
 وهو يقول إن قومه قد طلبت سرائرهم ودخائلهم ، وهم غيوث مدرارة في الجود والكرم .
 وهم أفضل العرب عشيرة ، إذ هم من عشيرة الرسول ﷺ ، لذلك كانوا أعز أنساباً وشُمُّ^٢
 أنوف مترفعين ، وإذا أظلمت الدنيا كانوا شمسوها المنيرة وبدورها المضيئة .

٤

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

بأخذ رثاء الأفراد في الشعر العربي أشكالاً ثلاثة هي النذب والتأين والعزاء ، والنذب عادة للأقارب وخاصة الأبناء ويمتلىء بالتفجع عليهم والتحسر والحزن المضى ، والتأين لشخصيات القبيلة والأمة لبيان فضائلهم وأعمالهم وخسارة المجتمع فيهم ، والعزاء لبيان أن الموت من سنن الحياة وأنه لا يبقى على أحد سيد ومسدود . وقد يجمع الشاعر بين هذه الأشكال الثلاثة أو يفرد مرثيته لشكل أو شكلين ، ولكل أمة عربية مرثيتها ، وخاصة لرجالها المهمين ، وقد مرت بنا دعوة المهدي ، وهو أهم الشخصيات السودانية في القرن الماضي ، وقد حقق للسودان استقلاله في سنوات معدودات ، ولبي سريراً نداء ربه وهو في الحادية والأربعين من عمره ، وبكته السودان وبكاه شعراؤها وفي مقدمتهم الشيخ إبراهيم شريف الدولاوي الكردفاني ، ويستهل مرثيته بقوله^(١) :

كيف التأم فؤادى المفطور	ورقوء دَمْعٌ عَجَاجِرِي الْمَفْجُورِ ^(٣)
أَمْ كَيْفَ يَنْفَكُ الضَّنَا عَنْ مَهْجَةِ	أَحْشَاؤِهَا تَصَلَّى عَلَى التَّنُورِ ^(٤)
أَسَفٌ عَلَى الْمَهْدَى مِنْ مَهْدِ الصَّبَا	قَدْ كَانَ مَعْصُومًا عَنِ الْمَحْظُورِ
فَتَحَّ الْفَتْوحُ وَدُمَّرَ الْكُفَّارُ فِي	كُلِّ الْبَلَادِ بِجَيْشِ الْمَنْصُورِ
هُوَ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ : بِحَرِّ شَرِيعَةٍ	طَامٍ وَبِحَرِّ حَقِيقَةِ مَنْجُورِ ^(٥)

وهو يقول إن فؤاده انفطر واشتق حزناً لموت المهدي ولن يرقأ أو يجف دمه المتفجر ،

(٣) المفطور : المنشق . ورقوء : انتطاع .

(٤) التنور : الوقد .

(٥) مسجور : مملوء .

(١) شَمُّ أنوف : متعالمون مترفعون .

(٢) انظر القصيدة في شعراء السودان ص ٢٧ وشعراء

الوطنية ص ٣٣٦ .

ولن ينفك الضنا عن مهجته ، وكأنا تصلى أحشاؤها وتتحرق على تنور مشتمل ، وبأسف على المهدي ويقول إنه كان معصوما عن المخطور المحرم منذ صغره ، ودمر جيشه الجيوش التي لقينته . وينته بأنه كان مجمعا لبحر الشريعة الطامى الزاخر وبحر الحقيقة الإلهية المملوء نسكا . وبمضى الشاعر فى مرثيته منشدا :

قد كان قَوَّامَ الدُّجَى متَبَلًّا متواصلَ الإحسان غيرَ فَخُورٍ
 طَلَّقَ الحَيَا خاشعا متواضعا كهفَ الفقير وجلبَرَ المكسور
 لا يَتَنَبَّاهَا ولا مَالاً ولا عَزَّ المُلُوكِ ولا ارتفاعَ الدُّورِ
 تَبَكَّى المساجِدُ والمُحَارِبُ فَقَدَهُ ومواطنُ الأذكار والتذكير
 يا طيبَ أرضٍ ضَمَّ جِسْمَكَ تُرْبَهَا تَزْرِي بِعَرْفِ المِسْكِ والكافورِ

وهو يصف المهدي بأنه كان قوام الليل مصليا متبلا لربه ، مواصل الإحسان للفقراء والمساكين دون أى فخر أو من ، طلق الحيا بشوشا خاشعا متواضعا ، كهفا للفقير وملجأ وجلبرا للمكسور ، لا يفكر فى جاه ولا فى مال ولا فى عز الملوك وحياتهم المترفة ولا فى القصور المشيدة ، وبكى المساجد والمحارب وبقاى أذكاره وتذكيره ، وما أطيب الأرض التي ضمت جسده ، إن شذاها يزرى بشذا الطيب من المسك والكافور . ويكى المهدي الشيخ محمد الطاهر المجذوب بمرثية يفتتحها بقوله^(١) :

دَعَانَا دَوَاهُ يَضْرُسُ القَلْبَ نَابِهَا ويوقد فى الأحشاء نارا منابها^(٢)
 غَدَاةُ نَعَى النَّاعُونَ مَهْدِينَا الذى به مِلَّةُ الإِسْلَامِ جَلُّ مُصَابِهَا
 إِمَامُ المَهْدَى المَهْدَى أَفْضَلُ مَنْ دَعَا إلى الله مفتاحُ النجاة ونابها
 أَلَا قَدْ أَصِينَا إِذْ عَدَمْنَا حَيِينَا وضاعت بنا الأرضُ الوَسيعُ رحابها
 لَيْلَتُهُ لهُ الدِّينُ الحَنِيفُ وَمِلَّةُ أَبَانَ هُدَاهَا حينَ تَمَّ خَرَابُهَا

والشيخ المجذوب يقول إنه نزلت بهم دواه بعض نابها القلب ويوقد منابها فى الأحشاء نارا غداة نعى الناعون المهدي الذى جلُّ مصاب الدين الحنيف فيه ، إنه إمام الهدى ومفتاح النجاة من النار ونابها ، ولقد أصينا فى حيينا وضاعت بنا الأرض الفسيحة الواسعة الرحاب ، ألا فليكنه الإسلام وملة أوضح هداها بعد أن خربت خرابا لا آخر له . ويكرر رثاء الشعراء لآبائهم فى السودان ، من ذلك قول القاضى أحمد المرضي المولود سنة ١٨٨٤ للميلاد فى رثاء أبيه^(٣) :

(١) نغاث الرابع ص ٩٤ وشعراء السودان ص ٣١١ (٢) يضرس : يضر .
 (٣) نغاث الرابع ص ١٥٠ .

لقد آن أنْ نُكَيِّ وَأَغْرَى الْبَوَاكِيَا وَنُظِمَ مِنْ حَبِّ الدَّمُوعِ الْمَرَاتِيَا
وَأَصْبَحَ غَيْرَاتِي دَمًا لَيْسَ نَاضِبًا يَخُذُ خُدُودِي مُتْرَعًا وَالْأَمَاتِيَا^(١)
نُمِي مَا نُمِي حَرُّ كَرِيمٍ وَذُو وَفَا وَمَا كَانَ ذَا وَجْهِيْنَ وَغَلًا مُدَاْجِيَا^(٢)
أُمِينٌ عَلَى سِرِّ الْأَخْلَاءِ حَافِظٌ وَكَانَ لِإِخْوَانِ الصَّفَاءِ مَوَاسِيَا
تَبَوَّاهُ مَهْدَ الْعِزِّ مِنْ نَشْأَةِ الصَّبَا وَشَبَّ عَلَى هَامِ الْمَكَارِمِ سَامِيَا

والمرضى يقول إنه حان أن يكي ويغري الباكيات بالبكاء وينظم من درر الدموع المراتيا ويصبح غيراتي دما ليس ناضبا ، بل يشق الخدود وأما العيون شقوقا ملأى به . وينوه بآية فهو حر كريم وفى ، وما كان يوما ذا وجهين نذلا منافقا ، بل كان دائما أمينا على سر إخواته : إخوان الصفاء مواسيا لهم ، نزل مهد العز وأقام به منذ صباه ، وشب على رءوس المكارم ساميا سما متصلا . ويكى الشاعر الشيخ عبد الله البنا أياه الشيخ محمد بن عمر البنا مفتش الحاكم الشرعية الذى ترجمنا له بين شعراء المديح بمرثية مؤثرة ، وفيها يقول^(٣) :

عَيْنُ الْكَمَالِ لَهْلَوْلُ يَوْمِكَ تَذْرِفُ وَالْمَجْدُ يَرْعُدُ وَالشَّرِيعَةُ تَرْجَفُ
رَفَاعُ أُلُوبَةِ الْعَلَاءِ أَرَى الْمَلَا مَهْجُورَةً طَرَقَاتُهَا تَلْهَفُ
كَشَافُ غَمَاءِ الْمَظَالِمِ بِالْهَدَى حَارَ الْهَدَى لَمَّا قَوَى مَنْ يُنْصِفُ
يَا قَوْمُ حَامِي السَّرْحِ أَقْصَدَهُ الرُّدَى بَكَوْا لَهُ بِدَمِ الْقُلُوبِ وَنَزَفُوا
حَجَبُوا السَّنَاءَ عَنِ النَّوَاطِرِ حِينَمَا هَالَكُوا عَلَيْكَ مِنَ التَّرَابِ وَأُسْرَفُوا

وهو يقول لأبيه إن عين الكمال تذرف الدمع مدرارا لهول يوم موتك ، والمجد يرعد رهبة والشرعية ترجف فرعا لموتك ، ويخاطبه : يا رافع ألوبه العلاء والشرف أرى العلاء هجرت طرقاتها وتلفت متلهفة لو تراك . وبيا كاشف غمة المظالم فى القضاء بنور هداك حار الهدى لما مات من ينصف المظلومين . وملتفت الشاعر إلى قومه فيقول لهم إن الموت طعن حامى الحمى طعنة نافذة فبكوا له بدم القلوب حتى تنزفوه وتقنوه ، ولقد حجبا ضياءك عن العيون حين هالوا عليك التراب وأكثروا منه . وكان يعاصر هذا الشاعر محمد سعيد العباسى ، وتشد له صاحب كتاب الشعراء فى السودان طائفة غير قليلة من المراتيا .

(٣) ديوان البنا ١/١٦٥ .

(١) ناضبا : نائضا . يخذ : يشق .

(٢) وغلا : نذلا . مداجيا : منافقا .

ولد بالكوكة على النيل الأبيض جنوبي الخرطوم لأبيه محمد شريف شيخ الطريقة السماتية سنة ١٢٩٨ هـ/ ١٨٨١ م وعُني بتربيته منذ نعومة أظفاره ، فأقرأه القرآن الكريم على مشايخ مهين ، وحفظه ، فألحقه بأربعة شيوخ من علماء السودان لتعليمه العربية والعروض ، هم الشيوخ : عيسى الدولاي وإبراهيم الركابي ومحمد بدوي وأحمد العاقب الرطلي ، ولما أصبح كاشف حاكماً للسودان أشار على أبيه أن يلحقه بالمدرسة الحرية المصرية ، وسافر إليها سنة ١٨٩٩ للميلاد وظل بها ستين في تلك المدرسة ، وتوثقت العلاقة بينه وبين أستاذ اللغة العربية الشيخ عثمان زنتي ، وتفتحت موهبته الشعرية حينئذ وأخذ ينظم بعض أشعار كان يعجب بها أستاذه ويشجعه ، وأحسَّ بحنين شديد لبلاده وبواديته التي كان يرثاها في غربي السودان ، وقطع دراسته وعاد إلى موطنه بجوب بواديته منمتعا بمنظرها ويصفها في شعره مراراً وصف المفتون بها ، وبحق لاحظ الدكتور عبد المجيد عابدين في كتابه تاريخ الثقافة العربية في السودان - وكذلك الدكتور محمد إبراهيم الشوش في كتابه الشعر الحديث في السودان - تأثيرها العميق في شعره . وقد ظل وفياً لمصر باراً وعجا ، وشعره يكتظ بها وبالمواطف الوطنية والقومية والجوانب الاجتماعية . وجميع هذه الموضوعات عند العباسي اتسعت بعد ثورة سنة ١٩٢٤ التي نجعلها فاتحة العصر الحديث في السودان ونهاية للعصر الذي نؤرخ فيه للشعر السوداني ، وقد انتقلت إلى الشاعر رياسة الطريقة السماتية الصوفية منذ وفاة أبيه سنة ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٨ م وهو جائب صوفي جدير بتبعه ودرسته عنده . وبعد أهم شعراء هذا العصر الذي نؤرخ له من حيث دقة الخيال وجمال الصياغة . ومن قوله في رثاء أبيه :

إن الليال ذوات الغدْرِ راعيةً	ختالةً ونفوسُ الناس مرَّعاها ^(٢)
وكان عهدى بها تسطر على مهلٍ	واليوم صالت يمينها ويُسراها
بالسيدِّ السَّنْدِ بن السيد السَّنْدِ الـ	رأقى سماءَ فخيَّارٍ عزَّ مرَّقاها
يمحُضُ الرشد للغاوى ويوضح من	مناهج الحقِّ للقَصَاد أهداها
أزالَ عن مشكلات العلم منطِقَه	براقعَ الوهم عن زاهي مُحَيَّاها
وإن تكلم في علم السلوك له	فيه عبارات ذوقٍ ما أُحْيَلها

وهو يقول إن الليال الغدرة الخادعة دائماً ترعى نفوس الناس نفساً بعد نفس ، ويذكر

ص ٤٤ وما بعدها والفصل الثالث في كتاب الشعر الحديث في السودان : الحلقة الأولى : للدكتور محمد إبراهيم الشوش . وللعباسي ديوان ضخم باسم ديوان العباسي مطبوع بمصر .
(٢) ختالة : غدارة .

(١) أنظر الشيخ محمد سعيد العباسي وترجمته وشعره في شعراء السودان ص ٢٨٥ ونفثات البراق ص ١٣٥ وتاريخ الثقافة العربية في السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٢٠٩ وكتاب محمد سعيد العباسي للدكتور أحمد عبد الله ساسي (طبع دار الإرشاد بالخرطوم) وكتاب الشعر والشعراء في السودان لأحمد أبو سمدة

أن عهده بها تبطش على مهل ، وبرأها اليوم تصول بيسراها ويمناها على أبيه الذى كان سنداً
يعتمد عليه ، والذى صعد إلى سماء فخر يصعب الصعود إليها ، ويقول إنه كان يسدى النصيح
للضال عن الهدى ويوضح طريق الحق لقصاده الكثيرين الذين يغفون منه الرشاد ، وكان يرفع
حجب الوهم عن مشكلات العلم ووجه الصواب الزاهى . أما فى التصوف والتقى فكثرت له
عبارات محكمة حلوة . ويكفى طائفة من آباءه منشداً :

أولئك آباء الذين يطولهم طالَتْ بدى وسموتْ مَنْ ساملتى^(١)
أولئك هم بصر الكمال وسمتْهُمْ وهم لأهل الفضل كالعنوان
بمعارفٍ وعوارفٍ قدسية كالشمس لا تخفى على إنسان
هم صيروا نهج الهداية واضحاً للطلالين فصيهم والدنى
نظروا إلى الدنيا بعين بصيرة فتحولوا عن ذا الوجود الفانى

والعباسى يذكر أن هؤلاء الآباء الذين رثاهم بفضلهم علا شتته وسما على من ساماه وفاخره ،
ويقول إنهم بصر الكمال وسممهم ، وهم كالعنوان لأهل الفضل بمعارفهم العلمية وعوارفهم
القدسية وهم كالشمس لا يخفى فضلهم على أحد ، وقد صيروا طريق الهداية واضحاً للناس
البعيد منهم والقريب وقد نظروا إلى دنياههم بعين بصيرة فازدروها وتحولوا عن دار الفانية إلى
دار الخلود . ويقول فى رثاء أستاذه الشيخ محمد البدوى مؤثراً :

كشف النقاب عن العلوم فزفها خَوِّدَا تفوق على الحسان الخُرُود^(٢)
مَنْ للعلوم جميعها ولفقه ما لك والحديث صحيحه والمُسْنَدُ
وبينها وبيدعها وأصولها فى منطقٍ وعويصها المتعقد
إبى أغزى كل أمة أحمد بمصيبة الخير الإمام محمد
وعليكم يا دُنيا السلام فقد خَوَّتْ شمسُ الكمال وغاب بَدْرُ السُّود^(٣)

وهو يوضح مدى الخسارة العلمية فى أستاذه فقد رفع الحجاب عن العلوم وزفها إلى تلاميذه
كفتاة جميلة تفوق فى جمالها الحسان المتألمات الفاتنات ، ويقول مَنْ يحل عمله للغة والحديث
النبوى ولعلوم البيان والبدع والأصول وتذليل العويص والمشكل فيها . ويعزى الأمة الإسلامية
فى مصيبتها به ، ويقول : على الدنيا السلام فقد هوت شمس الكمال وغاب بدر المجد والشرف .

(ب) رثاء المدن

عرف الشعر العربى رثاء المدن منذ رعى عبد الله بن طاهر قائد المأمون بغداد بالمجانيق

(١) طول: نضل : طالت : علت وارتفعت . سلمه : فاعره .
(٢) الخرد : الفتاة الجميلة . الخرد جمع خريدة :
(٣) غوى : هوى وسقط .
المولودة والمرأة الفاتنة .

واشتعلت بها النيران والحرائق فقد رثاها غير شاعر ، ورثى ابن الرومي البصرة حين نكل بها الزنج ، وأكثر الأندلسيون من رثاء مدنها حين سقوطها في حجور الإسبان ، ورثى ابن رشيق وابن شرف القيروان حين أغارت عليها قبائل الأعراب من بني هلال وسليم في أواسط القرن الخامس الهجري وخربتها . ولم يحدث شيء من ذلك لمدينة في السودان ، إنما حدثت أحيانا أمطار وسيول هدمت مباني بعض المدن وأصبحت كثرة أهلها في العراء سوى من مات منهم وجرحه السيول . ومدينتان حدثت لهما هذه النكبة المروعة هما عطبرة وأم درمان . وكانت نكبة عطبرة سنة ١٩٢١ للميلاد أشد هولا ، فقد انتقضت بها كثرة من المنازل ، وعمّ البؤس كثيرا من الأسر ، ومن رثاها مستصرخا للناس أن يمدوا أهلها بالعون والمساعدات عبد الله كردى ، وفيها يقول^(١) :

يا آلَ عَطْبِرَةَ نَعْمُدْ حَيْكُم	وَبَلِّ بِسَارِبَةِ الدَّمُوعِ حَقُولُ ^(٢)
جَرَفَ الْمَنَازِلَ ثُمَّ طَوَّحَ بَعْضُهَا	فَإِذَا بِهَا فَوْقَ الْفَضَاءِ طُلُولُ
لَهْفَى عَلَى دَوْرِ هَوَى بَنِيهَا	بِالْأَسْرِ فِيهِ لَسَاكِنِهِ حُلُولُ
لَهْفَى عَلَى تِلْكَ الْعُرُوشِ فِيهَا	طَاحَتْ وَأَقْوَى رَتْمُهَا الْمَاهُولُ ^(٣)
لَهْفَى عَلَى مَالٍ غَرِيبٍ رُبُّهُ	مَتَجَلَّدٌ وَفِرَاقُهُ مَبْشُورُ ^(٤)
يَا مَعْشَرَ الْكِرْمَاءِ هَلْ مِنْ رَحْمَةٍ	إِنَّ الضَّعِيفَ لَفَضْلُكُمْ مَوْكُولُ
إِنْ تَنْفَقُوا فَالْفَضْلَ لَا يُنْسَى لَكُمْ	أَبْدًا وَبِمَحْمَدٍ عَلَيْهِ الْجَيْلُ
وَاللَّهِ يَجْزِيكُمْ وَمَنْ يُجْزَى غَدًا	عَنْ صَالِحٍ نَفْسِيهِ مَقْبُولُ

وهو يقول لأهل عطبرة إن منازلكم تمهدا ونزل بها خطب عظيم إذ ظلت ساريات الليل وسحبه تصب عليها سيول المطر التي جرفتها ، وطوّحت بها في الفضاء من حولها ، وأصبحت تلك المنازل طولولا خربة ، بعد أن كانت عامرة بأهلها . واحتراته على تلك الدور التي خر بنيناها وتلك العروش التي تداعت وأفقرت من سكانها ، والأموال التي غرقت في السيول أمام أعين أصحابها ، وهم متجلدون ذاهلون . ويسترحم الكرام لهؤلاء الضعفاء البؤساء ، ويقول لهم إن كل ماتوا سونهم به وتنفقونه لن ينسى لكم أبدا ، وسيظل هذا الجيل يحفظه لكم ويحمدكم عليه ، والله يجزيكم خير الجزاء لهذا العمل البار الذي لا شك في أنه عمل صالح ، وسيقبله الله منكم . وتنزل بأم درمان سيول كاسحة ويرثيها مدثر اليوشى ، ومن قوله^(٥) :

(٣) طاحت : نزلت : أقوى : أضر .

(٤) مَبْشُورُ : مفعول .

(٥) شمراء السودان ص ٣٣٨ .

(١) شمراء السودان ص ١٨١ .

(٢) ريل : مطر . سارية السحابة ليلا . حطول : شديد

الاضطراب .

هَمَرَ الرُكَامُ فَسَامَ أَزْهَارَ الرِّبَى خَسَفًا وَعَثَ بِرَوْضَةِ وَوَهَادٍ^(١)
 تُذَرَى الدَّمَاءُ عَلَى الْخُدُودِ أَرَامِلٌ يَنْدَبْنَ خَشْبَةً ضَيْعَةَ الْأَوْلَادِ^(٢)
 عَبَسَ الزَّمَانُ بِوَجْهِهِمْ فَأَذَاقَهُمْ مَا لَمْ يُذْقه مَكْبَلُ الْأَصْفَادِ^(٣)
 مَنْ ذَا يُسْرِى هُمُومَهُمْ وَيَرْجِئُهُمْ مِنْ نَقْمَةٍ طَرَقَتْهُمْ وَعَوَادِ^(٤)
 فَالغَيْثُ قَدْ أَخْطَأَ وَمَا يَدْرِى أَيْبَا لِأَرْضِ السَّوْيَةِ سَالِ أُمِّ بِالْوَادِ
 لَكِنَّهُ حُمُ الْقَضَاءِ لَتَعْلَمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ مَعُونَةٌ وَأَيْادِ^(٥)

ومدثر يذكر أن ركام المطر انهمر لهما شديدا فنزل بأزهار الربى خسفا وهوتا وعث
 فسادا بالرياض والوهاد ، وسالت دموع الأرمال دماء على خدودها يندبن ويكيين خوفا من
 ضيعة الأولاد . ويقول إن الزمان عبس وتجهم فى وجوههم فأذاقهم من ضنك العيش ما لم
 يذقه المكيّل بالأغلال ، ويهتف الشاعر فى الناس : من ذا يزيل همومهم ويرجئهم من عذاب
 هذه الكارثة التى نزلت بهم ومن عوادى الدهر ونوابه ، ويذكر أن الغيث أخطأ ، وسقط
 دون أن يدري أيسقط على أم درمان أو على واد من الوديان ، ويهتف فى قومه : لقد حُمُ
 القضاء وقُدِّر ، لتعلموا أن الحياة معونة ومن سابعة ، فواجب عليكم أن تسعفوا أهل أم
 درمان أشقاءكم ، وتعينوهم بالمتن والنعمة الوفرة .

الأصفاة : الأغلال والقيود .

(٤) يسرى : يزيل . عوادى : نواب الزمن وكوارثه .

(٥) حم : قضى وقدر .

(١) ركام المطر : ما تراكم منه . ساهه خسفا : نُزل به هوتا .

(٢) تذرى : تُسبل .

(٣) عبس : تجهم . مكبل : من كبله أى قيد .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل العفيف

مر بنا فى الجزء الخاص بالمصر الإسلامى أن الغزل حيثذ كان نوعين : نوعا ماديا صريحا ونوعا عذريا عفيفا ، وشاع النوع الأول فى المدن التى تحضرت على لسان عمر بن أبى ربيعة وأضرابه ، بينما شاع النوع الثانى فى بوادى نجد والحجاز وعلى لسان فقهاء المدينة من أمثال عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى . ولم يعرف السودان النوع الأول الصريح الذى يصور جمال المرأة المادى وحب الشاعر الحضرى وأحاسيسه وصدوره فيه أحيانا عن الغريزة النوعية ، إنما عرف الغزل العذرى النقى الطاهر على لسان بعض شيوخه وألسنة شبابه ، لأن حياتهم كانت تقوم دائما على الخلق الكريم ومثالية الإسلام السامية . ونسوق بعض أمثلة توضح ذلك ، مع ملاحظة أن كثيرا من هذا الغزل كان ينظم فى فواتح قصائد المديح وغيره أسوة بالشعراء القدماء ، على نحو ما نجد عند الشيخ عمر الأزهري المتوفى سنة ١٩١٥ للميلاد فى انتحاه لنبوياته كقوله فى مطلع إحدىها^(١) :

بادِ هواهُ وزائِداً خففاهُ صَبٌّ تفرَّقْ بالنَّوى أخدأته^(٢)
قد خائنه حسنُ التصبُّر بعدما باتوا وروفتُ باليكا أجفأته
عجبا لربِّع باللَّوى لعبتُ بهِ أيدي النَّوى ففترقتُ سكَّاته
باطضاعتنا يطوى الفلا رفقا فبِئْسَ الركب ضلَّ من السرى وخدأته^(٣)

وقفو المظى ولو كلمحة ناظر فمضى المعنى تنطفى نيرانه
وارحم مجباً صدره ضاقت بهِ أسرارُهُ وتزايدتْ أشجاره

وهو يذكر أن علامات الهوى من الشحوب والضنا واضحة عليه وخفقان قلبه مفرط ، إنه محب ، شئتَ النوى والبعاد أصدقائه ، ولم يعد يستطيع صبرا بعد تأييم وفراقهم وقد تهمرت الدموع من أجفاته ، ويعجب لعبت أيدي الفراق بسكان ربع اللوى : ربع الحبيبة ، ويهتف بالراحل مع ركه يطوى الفيافي أن يرفق به فإن الركب ضل فى الليل بسيره السريع ،

(٣) الوحدان : ضرب من سير الابل السريع

(١) شعراء السودان ص ٢٥٢ .

(٢) أخدأته جمع خدن : الصديق .

ويقول له قف المظى ولو لحة ليملى بجمال صاحبه ، عسى نيران الحب المشتعلة فى فؤاده تنسى ، ويسأله الرحمة بمحب ازدحت فى صدره أسرار الهوى وشجون . وللشيخ محمد عم البنا فى صدر مدحة قوله متفzلا^(١) :

أبدًا يورثنى غيرُ شذاك ويزيدنى قلقًا دوامُ جَفَاكِ
ويردنى من حالة العقلإ إلى حال الخبال تذلى وإياكِ
ويزيدنا طربًا وحسنَ مسرة برقَ تائق من ضياء سَنَاكِ
يا ربَّه الحُسن الذى قنَ الوَرى أكذا يكون جزؤه مَن يَهْوَكِ
عذيتى بالصدِّ والمجران ما ذنبى سوى أنى أرومُ لِقَاكِ

والشيخ محمد عمر البنا يقول إنه دائما مؤرق ، يؤرقه طيب عطر صاحبه وانتشاره ، ويزيده قلقًا وحيرة دوام جفائها ، ويكاد يختل عقله من كثرة تذللها وشدة إياها ، وإنه ليسره ويطره شعاع برق يتألق من ضياء نورها ، ويضرع لها قاتلا : ياربُّه الحسن الذى فتنت به الناس أهلكذا تجزين من بحبك ، لقد عذبتى بالصد والمجران ولا ذنب لى سوى أنى أريد لقاءك لأروى الظمأ الحار إلى هذا اللقاء . ويلقنا معاصره الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم وسفرد له ترجمة ، ويقول الشيخ مجذوب جلال الدين المدرس بالقسم الثانوى بكلية غردون متفzلا^(٢) :

ملكُ التَّهى والملُكُ بعضُ صفاته ريمٌ أغنُ بَيْته بين لِداته^(٣)
رَشًا شذا فَرعا لأنى رُغته إذ جتته وفَرغتُ من لِفاته^(٤)
نشوانٌ من خمر الدلال حسبه هاروتُ كل السحر فى لحظاته
وسنانٌ كاملٌ بقطعة لكنه كسرَ الجفونَ لكسر قلب دعاته
كسلانٌ أنشطُ من رأيتُ إذا أحـ حرٌ بهائم متعشِّق لصفاته
ضمتُ جوانحه اللطيفة صخرة هى قلبه هيهات لِنُ صفاته^(٥)
يا تُرجيًا يَمغى لسروض حدوده كَفَكِفَ لنجنى السوردة من ثمراته

والشيخ مجذوب يقول عن صاحبه إنها ظلى فى صوته غنة بته دلالا وجمالا بين لداته ، إنها ظلى لايزال صغيرا ، ترنم بصوته فرعا لأنه خاف حين رأتى ، ودُعرت من كثرة لفاته ، وحسبه متشيا من خمر الدلال كأنه هاروت وكل السحر فى لحظاته . ويُرَى كأنه وسنان لفتور عينية وهو كامل البقطة ، وكأنما كسر جفونه - كما يقول - لكسر قلوب محبيه ، وبظن أن به كسلا وهو أنشط ما يكون إذار أى صبا عاشقا له ، وقد ضم بين جوانحه قلبا كأنه

(١) رشا : ظلى صغير . شدا : ترنم .

(٢) الصفاة : حجر لئس عريض .

(٣) شعراء السودان ص ٢٨١ .

(٤) شعراء السودان ص ٢٦٥ .

(٥) ريم : ظلى . أغن : بصوته غنة . لفته : أثره .

صخرة أو صفاة أو حجر لا يلين أبدا . ويُذرى الدَّمع كأنما يريد أن يسقي روض خدوده ، ويقول له قف الدمع لنجنى الورد من روض الخدود البديع . ويقول صالح^(١) عبد القادر :

وَعَزَّالِ هَمْتُ فِيهِ أَشْهَرَ الْعَيْنِ وَنَامَا
مَا كَفَاهُ الْمَجْرُ حَتَّى حَرَمَ الْعَيْنَ الْمَنَامَا
هُوَ عَمَدَا نَكْتُ الْعَهْدَ لَمْ تَمْرُغِ الذَّمَامَا
لَا تَلُومُوا ذَا شَجُونٍ سَنَ لِلنَّاسِ الْفَرَامَا
كَلِمَا نَاحِ اسْتِيقَا عُلْمُ النَّوْحِ الْحَمَامَا

وصالح عبد القادر هام بنزال أسهره ، وكأنما لم يكفه المجران ، فحرم عينيه النوم ، وقد نقض العهد ولم يرع الذمام والميثاق ، ويقول لقومه لا تلوموا عجا شرع للناس سنن الحب وكلما ناح اشتياقا وولما وهياما خيل إلى سامعه كأنما هو الذى علم الحمام النوح والعويل . ويقول عثمان هاشم منزلا^(٢) :

يَا ظَنِّيْ هَلْ لِأَسِيرٍ لَحْظِيْكَ فَادَى
جَرُدْتُ مِنْ لَحْظِيْكَ غَضَبًا فَاتَكَ
نَلْتُ الْمَنَى فِي الْحَسَنِ أَنْتَ وَلَمْ أَقْلُ
لَوْلَا الْحَيَاءُ لَقَادَنِي لَكَ فِي الدُّجَى
أَمْ لَا فَكَأَنَّكَ لَمْ مِنَ الْأَصْفَادِ^(٣)
وَهَزَزْتَهُ فَفَتَكَتَ بِالْأَسَادِ^(٤)
مِنْ طِيبٍ وَصَلَّكَ بُغْيَتِي وَمَرَادِي
شَوْقُ أَذَابِ حُشَاشَتِي وَفَوَادِي^(٥)

وهو يسأل صاحبه هل يوجد من يفتدى أسيرا لعينيك الجميلتين أم لا خلاص له من أغلال هذا الأسر وقيوده ، ويقول : لقد سللت من عينيك سيفا قاطعا ، وضكت بالأسد الشجاع ، ولقد نلت فى الحسن كل ما تمنيت ، ولم أتل شيئا من طيب وصلك ، ولولا حيائي لقادني إليك فى الليل شوق أذاب منى الحشاشة والفؤاد . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسي^(٦) :

بِاللَّهِ يَا حُلُوَ اللَّمَّا
صَدَدْتُ عَنِ ظَلَمًا
هَلَا ذَكَرْتُ يَا رَشَا
رَفَقًا بَصْبُ رَاحِ يَهْدِ
إِنْ شَأْمٌ مِنْ غَوْكُمُ
وَيَكُفُّ الْوَجْدَ وَكَمْ
مَالِكُ تَجَفُّو مُرَمَّتَا^(٧)
أَفْدِيكَ يَا مِنْ ظَلَمًا
غَيْشًا تَقْضَى بِالْحِيَمَى
سَوَى طَيْفِكَ الْمُسْلَمَا
بِرَقَا أَقَامَ مَاتَمَا^(٨)
يَغْلِيهِ أَنْ يَكُفَّا

(١) شعراء السودان ص ١٤٩ .

(٢) شعراء السودان ص ٢٢١ .

(٣) الأصفاة : الأغلال .

(٤) جردت: سللت. غضبا: سيفاحدا. فاتكا: قاطعا .

(٥) حشاشتي : بقية روحى .

(٦) نفقات البراع ص ١٣٦ وشعراء السودان ص ٢٩٥ .

وكتاب محمد سعيد القبلى ص ١٩٧ وراجع ديوانه .

(٧) اللما : سيرة فى الشفة .

(٨) شام : رأى .

والنزل عذب رقيق رقة مفرطة ، وهو يستهله باستحلافه لحلو اللما أو سمره الشفة ماله
يجفو صباً مغرماً به . ومع أنه يصد عنه ظالماً يفديه بروحه ، ويذكره بعيشه وأيام مرت بالحمى ،
ويقول له : ارفق بصب ، لم يعد له إلا طيفك فى الحلم يهواه ، وإن رأى برقاً لمع من أفقكم
نذب وبكى طويلاً ، ويحكم الوجد والهيام وكم يغلبه كملته . ويمضى فى القصيدة منشداً :

لله محسوب رأى حبة قلبى فرمى
أعیده من جائر حكنه فاحكماً^(١)
لقينه فى أربع بيض كأمثال الدما
شابهن أزهار الربيع مع وحكين الأنجما
وقفت فاستقيته وشد ما بي من ظما
جاء بماء قلت هل حاجة مثل منك ما^(٢)

وهو يشكو محبوه لربه فقد أبصر سويداء قلبه وفؤاده فرماه ، ويعيده أن يكون ظالماً فقد
حكّمه فتصرف حسب هواه ومشيته . ويقول إنه لقينها فى أربع جميلات من حولها كأمثال
الدُمى البديعة ، شابهن أزهار الربيع العاطرة والأنجم الساطعة ، وطلب منها جرعة ماء تشفى
ظمأه ، وجاءته بالماء ، فقال لها مداعباً : وهل حاجة الصب المرم مثل منك إلى ماء ؟ ! . وهو
يسترسل فى القصيدة من هذا الحب للفتاة إلى حبه لمصر التى قضى فيها فترة من شبابه ،
فلكت عليه ذات نفسه ، وظل يمجدها ويتغنى بها غناء حاراً طوال حياته فى أشعاره وقصائده
الرائعة . وتوقف قليلاً لترجم للشيخ الجليل أبى القاسم أحمد هاشم ، ونعرض بعض غزلياته
العفيفة الطاهرة .

الشيخ أبو القاسم^(٣) أحمد هاشم وغزله العذرى العفيف

ولد فى « برى » إحدى ضواحي الخرطوم سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٦١ م وهو من بيت شيوخ
دين وقضاة يتمون إلى العباس بن عبد المطلب ، وألفه أبوه الشيخ أحمد هاشم بقرء حفظوه
القرآن الكريم ، وحفظه وهو فى العاشرة من عمره ، وانتقل أبوه إلى بربر قاضياً لمدينتها ،
وألفه بمدرستها ، حتى إذا اشتد عوده قليلاً أخذ يدرس العلوم الدينية واللغوية على أستاذه
الشيخ محمد الخير عبد الله ، ثم على أستاذه الحسن السيد حسين المجدى الأزهرى ، وعليه
درس النحو وكتاب جمع الجوامع فى الأصول . حتى إذا نضج علمياً عُيِّن مدرساً بجامع بربر
واستولى عليها المهدي ففرّ به منه واتخذة كاتباً له ، وبالمثل اتخذة خليفته عبد الله التعايشى ،

ص ٣١ وما بعدها والشر الحديث فى السودان للدكتور

الشوش ص ١٧.

(١) احكم هنا : تصرف كما يشاء .

(٢) ما : ماء .

(٣) انظر فى ترجمة أبى القاسم وشره شعراء السودان

حتى إذا سقطت الدعوة المهدية وقام الحكم الثنائي المصرى الإنجليزى بالسودان عيّن قاضيا لمدينة سنار سنة ١٨٩٩ للميلاد . وفى سنة ١٩٠٦ نقل إلى مديرية النيل الأزرق قاضيا ، ولكائه العلمية وسيرته الحميدة عين سنة ١٩١٢ شيخا لعلماء السودان ، وأنتع الحكومة ببناء مسجد جديد فى أم درمان وبناء معهد دينى يلحق به ، وكان المعهد قد أنشئ منذ سنة ١٩٠١ فى جامع أم درمان لتدريس العلوم الدينية ، فجعل له مبنى مستقلا ، وجعل نظام التدريس فيه مثل نظام الأزهر ، فالطلاب يختلفون فيه إلى ثلاث مراحل ، كل مرحلة أربع سنوات ، وفى السنة الأخيرة يتألون شهادة العالمية ، وكان ذلك عملا جليلا للشيخ أبى القاسم ، إذ بدأ به نهضة علمية دينية فى السودان ، وظل يتمهده نحو عشرين عاما إلى وفاته . وكان شاعرا بارعا ، وله غزليات عذرية غفيفة تارة يفردها وتارة يجعلها مقدمة لمداخحه النبوية ، ومن مقدماته لإحدى تلك المداخح قوله :

للى بدتْ لما أضاء الكوكبُ فمحتْ ضيَاهُ وزال عنا الفَيَّهْبُ^(١)
واستقبلتْ قمرَ الزمانِ فناله من حسنِها الكَلْفُ الذى لا يذهبُ^(٢)
وتفرَّدتْ فى حُسْنِها ودلالِها وحوثُ من الأوصافِ ما يُستغربُ
فتزاحمتْ عشاقُ حُسْنِ جمالِها كلُّ لحسنٍ وصلِها يتطلَّبُ
والعشقُ صعبٌ لا يطيقُ صُروفه إلا الذى لعذبِهِ يَستعذبُ

والشيخ أبو القاسم يقول لما بدا ضياء وجه للى عجا ضياء الكوكب لأنه أشد منه سطوعا ، واستقبلت القمر فناله من حسنها - خفرا وحياء - غضون لا تفارق وجهه أبدا . ويقول إنها انفردت بحسنها ودلالها وحوث من أوصاف الجمال ما يخال مستغربا ، فتزاحمت عشاقها وكل يمتنى الوصال ، والعشق - بحق - صعب ، ولا يطيق أحواله وآلامه إلا من يجد عذبه مستعذبا حلوا . ويقول متغزلا :

خوَرٌ بَجَنَّتْنِي من أحبِّ سبلى وتوريدُ خديهِ استطار جَنَّتْنِي^(١)
ورقةٌ خَصِرٍ واحتشامُ شمائلِ حكمن بأُسرى واستنَّ هوائى
وإن الهوى المُذْرى أُنْسُ حاله توقدُ نيرانَ بغيرِ دخانِ
وَقَيْ مَذْ عُلَّقْتُ لى بخاطرى جفيتُ منامى وانتقدتُ الأُمى
سلاها فهل قلى سلاها وهل جرى حديثُ سواها فى فمى ولسانى

وهو يذكر أن الفتنور بجفنى محبوبته أسره ، وتوريد خديها أذهله وأطار عقله ، وبالمثل رقة الخصر وحسن الخلال ، كل ذلك حكم عليه بالأسر واستنَّ هوائه . وما أشد الهوى المذرى

(١) الشهب : الظلام .

(٢) كلف القمر : ما يؤى على سطحه من بعض

التفريات .

(٤) استطار : أطار ، أذهل . الجنان : العقل .

إن أيسر أحواله توفد نيراته في الصدر والفرود ، وإنه مذ أحب لى جفاه النوم وقد كل أمانيه
إلا أمنية وصلها ، وأسألاها هل سلاها قلبى وهل نطق فمى ولستى بمحدث سواها ، إنها كل
شغلى فى الحياة . ويقول :

بسمت عن دُرْ ثغر مستين منع البدر ضياه أن بين
وبدت للورد فى خد نصيب سر فراح الورد مصفر الجين
وأملت قدّها فالبان فى خجلة يضحك منها الياسمين
ورمت باللحظ منها فأصا بت به حبّ قلوب العاشقين
فتراهم من جراحات اللوا حظ ما بين قتيلى وطمين
هكذا من يعيش الخود الحسا ن يذق مرّ الهوى غنبا معين^(١)
وكان الله قد صورها من هوى الأنفس لا ماء وطين

فصاحته أو محبوبته بسمت عن لآلى ثغر واضح منع ضياه البدر أن بين ، وبدا للورد
خدها الناضر فصار مصفر الجين حياء وخجلا ، وأملت قدّها المشوق فخجل شجر البان
المشهور بقده الجميل خجلا يضحك منه الياسمين ، ورمت بسهام لحظها فأصابت به أفدة
العاشقين ، فتراهم من جراح السهام ما بين قتل وجرح طمين . وهكذا من يعيش الفاتنات
الحسان يذق مرّ الهوى ، ويصبح فى فمه غنبا سائفا ، وكان الله صورها من هوى الأنفس
ومحبته لا من ماء وطين كغيرها من البشر ، إنها ملاك إيسى . ويقول متغزلا :

تجنّى على مقتوله وتجرمّا أشأن غزال الحسن أن يهدر الدما
وما حيلتى والقلب أسر لحاظها ومهما رنت مال الضمير مسلما
فإن أقبلت فالجنة الخلد نزله وإن أعرضت قد حلّ نزلًا جهنما^(٢)
فكيف خلاصى يا رفاقى ودلّيتها صدود وركن الصبر متى تهديما
وإن قلت لى صادق الود والوفا تقول ألا مت فى صدودى متيما
وجرت لأنى لم أجد من غنا الهوى خلاصا فنجو أو إلى الوصل سلما
وحسبى أن أخطف بطيف خيالها إذا هى لم تسمح بوصل تكرما

والشيخ أبو القاسم يذكر أن صاحبه تجنت على قتلها بسهام عينها ، وهل ذلك شأن
الغزال الجميل أن يهدر الدماء ، ويقول ما حيلتى وقد أسرت القلب بلحاظها ، والضمير دائما
مسلم لها مستسلم ، وإن هى أقبلت أحسن القلب كنه فى منزل من منازل الجنة ، وإن هى
أعرضت أحسن كنه فى منزل من منازل الجحيم ، فكيف خلاصه ودلّيتها دائما الصدود

(٢) نزلا : منزلا .

(١) معين : سائق .

والمهجران وقد تهدم منه ركن الصبر الجميل ؟ . وإن قال لها ضارعا إني صادق الحب والوفا قالت له : مت في هجراتي متيما بي عاشقا ، وحاراً لأنه لم يجد خلاصاً من شقائه بمجها ولا طريقاً إلى وصلها ، ويعود إلى نفسه قائلاً : حسبي أن أحظى بطيف خيالها في الحلم ، مادامت لا تسمح بوصولها كراماً وعطفاً على العاشق الولهان . وغزليات الشيخ فمي القاسم - كما رأينا - سلسة عذبة . وهي غزليات حب عذرى عفيف نفى سام ، في لغة سهلة وموسيقى وافرة حلوة .

٢

شعراء النقد العفيف والشكوى من الزمن

أخذ الشباب السوداني الطامح في الربع الأول من القرن الحاضر يشعر شعوراً عميقاً بالآلام التي تعيشها أمة وأتفانها ، واقرن ذلك في نفسه يأس من أن تتحقق آماله ، وبذلك اجتمع عليه الإحساس بمرارة حياته ، والإحساس بمرارة حياة أمة ، أما مرارة حياته فقد عبر عنها الشاعر السوداني بشكوى طويلة من الزمن ، وأما مرارة حياة أمة فقد عبر عنها بنقد صارخ صوّر فيه فعودها عن المطالبة بحقوقها ، وهو نارة يعرض على الشباب مجد آبائه الأولين لعله يحاكيهم ويسترد شيئاً من مجدهم ، ونارة ثمانية يعرض عليه عيوبه الاجتماعية والأخلاقية كي يتخلص منها ويسترد كرامته ومكانته الخليقة به ، ومن يتردد على لسانهم اللونان من النقد والشكوى من الزمن محمود أنيس المولود سنة ١٨٩٣ للميلاد ، إذ ينشد في حفل للمولد النبوي سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م قوله في مدحة نبوية^(١) :

زُرِغَ الجفَاءُ بنا وأثمر غرسُهُ فتنافر الأبناء والآباءُ
وتفاخرتْ بالمويقات صفارُنَا وشيوخُنَا فَهَرَا بنا الأعداءُ
وتسايلتْ منا النفوسُ حزينَةً جَرَحَى ونال جميعنا الإعياءُ
وأما على الإسلام ماذا ناله وهو الشفاء وما سواه شفاءُ

وهو يقول إن الجفاء غرس بيننا جميعاً وتنافرنا حتى لقد تنافر الأبناء والآباء ، وأعجب العجب أن يفاخر الشباب والشيوخ باقتراف المحرمات مما جعل الأعداء تهزأ بنا هزءاً شديداً ، وإننا ليشملنا حزن بالغ حتى لكأننا جرحى ، بل لقد نالنا جميعاً الإعياء ، فواحسرتنا على الإسلام ماذا أصابه ، وهو الشفاء والبلسم لكل النفوس . وعلى نفس هذه القيثارة يقول عبد الرحمن شوقي في ذكرى الهجرة بالسنة التالية^(٢) :

وراجع حديث الدكتور الشوش عن الشاعر في كتابه
الشعر الحديث في السودان .

(١) شعراء السودان ص ٣٢٥ .

(٢) نغفات الرباع ص ١٨٤ وشعراء السودان ص ٢٠٤ .

تبيتُ على ألمٍ المعضُ نفوساً وتمشى على جفَرٍ من الذل أضرباً
 نائمٌ وملءُ العين همٌ وحسرةٌ وأعيتنا حزناً تفيض لنا دماً
 فياليت شعري هل أرى النيل جارياً طليفاً كدمعى إذ يسيل مُقدماً^(١)
 وهل سأرى يوماً عن الغاب أسدُهُ تذودُ إذا ما الليل في الغاب أظلماً
 وهل يُرتجى الإصلاحُ والشعب نائمٌ وهل يبلغ الآمال من كان نائماً
 ولم لا أرى ما بيننا غير صامتٍ وقد آن للأحجار أن تتكلماً

ونفس عبد الرحمن شوقي ونفوس أمثاله من أبناء وطنه تبيت مسهدة على هم مؤلم غاية
 الألم ، وكأنما إذا مشت تمشى على جمر مشتل من الذل ، وإذا ناموا ينامون وعيونهم ملأى
 بالهموم والحسرات على وطنهم مكظفة حزناً لا بالدموع ولكن بدماء القلوب والأنفدة . ويتساءل
 هل سيرى أهل النيل طلقاء من الأسر ، والنيل يجرى عملاً بذهب الطغي الأحر كمداته ،
 وهل سيدود أسد الغاب عن عرينه الذى خيم عليه الظلام . وغمره اليأس ، فالشعب نائم ،
 والنائم لا يبلغ أملاً من آماله ، ويعجب لصمت من حوله من أهل السودان بينما توشك الأحجار
 الخرساء على النطق بآمال الشعب وأمانيه . ويصرخ فى قصيدة ثالثة^(٢) :

مضى زمانٌ وقلبي ممتلئُ ألماً وفى فؤادى أسمى كالنار مضطرباً
 حزناً على أمةٍ بالنيل نائمةٍ تشكو الأوار وأخشى أن تموت ظمناً

فقد مر به زمان طويل وقلبه مكظظ بالألم وفؤاده ملء بلواعج أسمى مشتل كالنار الحامية
 حزناً على أمة النائمة فى وديان النيل تشكو حرارة العطش ولهبه المتقد ، ويشفق لها الشاعر
 شفقة حزينة إذ يخشى عليها من الموت ظمناً والماء مذ أبديها وتحت أنصارها . ومثل هذا النقد
 العنيف كثير فى الشعر السودانى وسترجم فيه للشاعر عبد الله محمد عمر البنا بعد قليل . ويقول
 الشيخ حسب داعيا عناصر الأمة السودانية إلى وقف ما بينها من تناحر شديد^(٣) :

الاتحادُ هو الحياةُ وإنما موتُ الشعوب تفرقُ الأفراد
 كم أمةٍ نهضتْ به ختمتْ بحياتها من بعد ما استعبد
 ولكم نرى من قُوَّةٍ ومالكٍ نزل الشقاق بها لشرُّ مهادٍ
 تلك الشعوبُ تروم جَمْعَ شتاتها وهنا نبيع الجمعُ بالآحادٍ
 إني سمعتُ النصحَ غيرَ موثَّرٍ وعتابَ قسومٍ فى سينات رُقَادٍ

وهو يدعو قومه السودانيين إلى الاتحاد ، ويقول إن الشعوب لا تحيا بدونه إذ بدونه تفقد
 حياتها وتموت إلى الأبد ، وكم من أمة نهضت بالاتحاد فاستمعت بحياتها لتخلصها من نير

(٣) شعراء السودان ص ١٢٣ وانظر ترجمته عند الدكتور

الشوش فى كتابه الشعر الحديث فى السودان ص ١١٥ .

(١) مختلماً : دما أحر .

(٢) نشأت البراق ص ١٨٧ وشعراء السودان ص ٢٠٤ .

الاستبعاد ، وكم من ممالك حدث بين أهلها الشقاق فوقعت في شر أعمالها ، ولذلك تعمل جميع الشعوب على الاتحاد الدائم بين أبنائها ، بينما نحن نقسم ونتفرق . ولقد سمعت تقديم نصحي لأمتي إذ أراه غير موثر ، وكنتي أُنصح وأُعاتب قوماً نياماً . ويقول شاكيا من الزمن وهمومه وتناوبها له هماً من وراء هم^(١) :

أَلِفَ المَهمومُ برغد. وَأَلْفَنُهُ
لَا تَسْتَقِرُّ رِكْبَتُهُ فِي بِلْدَةٍ
وَكُنْتُ كِرَّةً وَدَهْرِي لَاعِبٌ
لِيَصِيهَا بِى بِلَ بِهَا لِيَصِيْنِي
لَكِنَّهُمَا ارْتَقَى لَا يَرْتَقَى
إِنْ شَابَ رَأْسِي بِالْخَطُوبِ فَلَمْ يَشِبْ
فَقَدَا بِوَادٍ وَالسُّرُورُ بِوَادِي
حَتَّى يَنَادِي بِالرَّحِيلِ مُنَادِي
يَرْمِي بِهَا الْحَدَثَانِ بِاسْتِبدَادِ
وَالدَّهْرُ أَرْمِي لَاعِبٌ وَمُعَادِ
لِنَالٍ مِنْ صَبْرِي بِذَا الْإِسَادِ^(٢)
عَزَمْتُ الْفَتَى وَلَا ذَكِي فَوَادِي

وكان الشيخ حسب قد وُظف كاتباً في المحاكم الشرعية ، وكان رؤسائه ينقلونه من محكمة إلى أخرى في أنحاء السودان . وهو يقول إنه أصبح - منذ توظف - ترباً للهموم بألفها وتألفه ، وفارقه السرور ، وكأنما غدا بوادٍ والسرور بوادٍ آخر . ويشكو من كثرة تنقلاته في وظيفته ، فلا يكاد يستقر في بلدة حتى يؤثر بمبارحتها إلى بلدة أخرى ، وكأنما أصبح كرة يلعب بها الزمان ، ويرمي بالنوائب والأحداث ليصيبها بى ، بل ليصيبني بها ، والدهر أرمى لاعباً ومُعَادٍ ، ولكنه مهما صنع ومهما رماي ليلاً أو نهاراً فلن ينال من صبري ، وحتى لو شاب رأسي لما ينزل بى من خطوب فلن يشيب عزمي القوي ولا فؤادي الذكي . وله قصيدة يشكو فيها من مرتبه الضئيل ساخراً ، وفيها يقول مخاطباً لمرتبته^(٣) :

أُمرَّبِي مَالِي أَرَا
أَشْكُوكَ أَمْ أَشْكُوكَ إِلَيَّ
الْجَيْبُ خَالٍ أَيْضٌ
إِنْ رَمْتُ صَبْرًا عَزَمْتُ
أَوْ رَمْتُ قَرْضًا رَدُّنِي
أَوْ هَكَذَا حَظُّ الْأَلَى
كَ قَصَّرْتُ عَنْ نَيْلِ الْمَرَادِ
كَ نَوَازِلَ الْهَنِّ الشَّدَادِ
وَبَيَاضُهُ عَيْنَ السَّوَادِ
وَأَمْضَى طَوْلُ السُّهَادِ^(٤)
عَنِ الْحَيَاءِ مِنَ الْعِبَادِ
طَلَبُوا الْمَعَالِيَ بِالْمِدَادِ

وهو يذكر لمرتبته أنه لا يكفيه لئيل المراد المطلوب ، ولا يدرى أيشكوه أم يشكو إليه ما ينزل به من الهن الصعاب ، فجيبه خال أبيض ليس فيه أى نقود وهو يبيض في الظاهر لكنه في حقيقته أشد من السواد ، وإن طلبت صبراً عزمي ولم أستطعه ، أو فكرت في قرض ردني

(٣) شعراء السودان ص ١١٨ .

(١) شعراء السودان ص ١٢٤ .

(٤) عزني : فهرى . أمضى : آلتى .

(٢) الإسَاد : السير ليلاً ويريد نزول الهموم به .

الحياء عن طلبه من الناس . وتتوقف لترجم للشيخ عبد الله البنا أحد شعراء النقد العنيف لأتمته ،
ولصالح عبد القادر المشارك فى النقد العنيف والشكوى من الزمن .

الشيخ عبد الله^(١) البنا

هو نجل الشاعر الشيخ محمد عمر البنا المترجم له بين شعراء المديح ، رزق به سنة
١٣٠٨ هـ / ١٨٩١ م وحفظ القرآن الكريم فى بيته ، ثم انتظم فى مدرسة رفاة الأولية ،
وتخرج فيها فالتحق بقسم المعلمين فى كلية غردون وتخرج فيه سنة ١٩١٢ واشتغل مدرسا
بالكلية فترة ثم عمل فى مدرسة أم درمان . ويقول الأستاذ على الملك محقق ديوانه : « آخر
عهده أنه كان رئيس شعبة اللغة العربية فى المدارس العليا » . وقد تفتحت ملكته الشعرية
مبكرا ، وسرعان ما تألّى اسمه مع علمين فى الشعر هما محمد سعيد العباسى وعبد الله عبد الرحمن
وهم شعراء أفذاذ وتسبّم الثلاثة ذروة الشعر السودانى فى النصف الأول من القرن الحالى ،
ولكل منهم ديوان منشور يدل على شاعرية فذة . وكما تقيدنا فى الشاعر الشيخ محمد سعيد
العباسى بما نشر من شعره قبل نهاية هذا العصر الذى نورخ له حتى سنة ١٩٢٤ للميلاد
كذلك سنصنع بالشيخ عبد الله البنا مع أن له فرائد كثيرة مثل زميله بعد هذا العصر . ومن
أروع ما أنشد له صاحب شعراء السودان ومحمد عبد الرحيم فى كتابه نفثات اليراع قصيدته^(٢)
فى ذكرى الهجرة النبوية التى دوّت شهرتها ، وهى فى مخاطبة الهلال الذى أهل ليلة رأس
السنة الهجرية ، وله يقول :

ياذا الهلال عن الدنيا أو الدين حَدِّثْ فإن حديثنا منك يَهْشِفُنِي
خَبَرٌ عن الأَغْصُرِ الأولى لتضحكني فإن أخبار هذا العصر تُبْكِينِي

وهو يسأل الهلال أن يحدثه عن الدين أو الدنيا حتى يشفى نفسه من آلامها إزاء السودان
وشعبه وأحواله ، وحتى يدخل السرور على نفسه المكلمة الباكية من أخبار السودان ولبنائه .
ويرفع أمام أبصار السودانيين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعمر الفاروق ودمشق وبغداد
وخلفائهما الذين أتاحوا للإسلام والعروبة مجدا عظيما ، لعل شيئا من سيرتهم يعود ، ويظهر
من يحقق للأمة السودانية أو للأمة العربية عامة شيئا من هذا المجد ، ويتجه بالخطاب إلى الشعب
السودانى منشدا :

متعددة (انظر الفهرس) . وله ديوان باسم ديوان البنا
(طبع الخرطوم) .
(٢) انظر القصيدة أيضا فى كتاب شعراء الوطنية فى
السودان ص ٣٤١ والديوان ٦٤/١ .

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبدالله البنا وشعره كتاب
شعره السودان ص ١٥٧ وكتاب نفثات اليراع
ص ١٢٩ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للذكور
محمد إبراهيم الشوش ص ٥١ وفى مواضع مختلفة
وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان فى مواضع

أُحْبِئِي ودعاءُ الحبِّ رَحْمَةً لَا يُخَزِّنُكُمُ بالتَّضَنُّعِ تلقيني
تَرْضَوْنَ بالدُّونِ والعِلياءِ تَقْسَمُ لَا تَدِينُ يوماً لِرَاضِيِ النَّفْسِ بالدُّونِ
والمَجْدُ يَنأى فَلَا تَدْنُو مَراكِبُهُ مِنَ الْجَبَانِ وَلَا يَتَقَادُ بِالْهُونِ^(١)
تَفَرِّقُ وَتَوَانٍ وَاتِّبَاعُ هَوَى إِنْ الْهُوى لِهَوَانٌ غَيْرُ مَأْمُونٍ
وَلَا اعْتِبَارٌ وَلَا رُقْيَى لِنَازِلَةٍ وَلَا احْتِيَاظٌ وَلَا رُخْمَى لِمَغْبُونٍ

وهو ينادى قومه قبل تقديم النقد العنيف لهم بقوله : « أُحْبِئِي » تلطفاً وجنباً لهم كي يستمعوا إلى نقده لهم ونصحه ويصدروا عنه ، ويقول لهم إنه قول غليظ ولكن باطنه الرحمة ويسجل عليهم أنهم يرضون بالدون ، والعلياء لا تخضع لمن يرضى به ، والمجد يبعد عنه إذ لا تقرب مراكبه من الجبان ولا ممن يرضى بالهون والهوان ، وهل شأنكم إلا تفرق وتشتت وتوان ، والرجوع إلى الهوى فى حياتكم ، وما الهوى إلا ذل ما بعده ذل ، ولا اعتبار ولا عظة ولا مراقبة لنازلة نزلت بكم ، ولا احتياط ولا حذر ، ولا رحمة لمغبون أو ضعيف واهن .
ويهدف بأته :

يَا أُمَّةً جَهَلَتْ طُرُقَ الْعِلَاءِ فَلَمْ تَسْبِقْ لِنَايَةِ مَعْقُولٍ وَمُخْزُونٍ
وَلِلْمَدَارِسِ هِجْرَانٌ وَسُخْرِيَةٌ وَلِلْمَتَاجِرِ ضَعْفٌ غَيْرُ مَوْزُونٍ
وَلِلْمَفَاسِدِ إِسْرَاعٌ وَتَلْيِيسَةٌ وَلَا التَّفَاتِ لِمَفْرُوضٍ وَمَسْنُونٍ
وَالنَّاسُ فِي الْقَطْرِ أَشْيَاءٌ مَلْفَقَةٌ فَإِنْ تَكْشَفْ فَنَنْ ضَعْفٍ وَتَوْهِينٍ
فَمَنْ غَنَى فَقِيرٌ فِي مَرْوَةِ وَمَنْ قَوَى بِضَعْفِ النَّفْسِ مَرْهُونٍ
وَمَنْ طَلَيْقٍ حَبِيسٍ الرَّأْيِ مُنْقَبِضٍ فَاعْجَبْ لِمُنْطَلِقٍ فِي الْأَرْضِ مَسْجُونٍ

وهو يقول لأمة جهلت طرق العلاء والشرف ، فلم تجر فيها للوصول إلى غاية معقولة أو مخزونه تنتظرك ، وإليك لتهجرين المدارس بل تسخرين منها ، ولا تهتمين بمزاولة التجارة ، فالتاجر ضعيفة ضعفا شديدا ، وتسرعين إلى المفاصد ، بل ما أشد تلبيتك لها ، دون أى التفات لواجباتك الدينية وما عليك من الفروض والنوافل . ويلغ بالشاعر السخط أن يسمى أهل السودان أشياء ملفقة ، وكلما تكشف جانب منها ظهر فيه الوهن والضعف ، وهل بها إلا غنى فقير أشد الفقر فى مروءته فلا يمد يدا إلى البؤساء وإلا قوى ضعيف النفس ذليل مهين ، وحتى الحر الطليق يحبس رأيه عن أمته ، وكأنه ليس حرا طليقا بل سجيناً مكبلاً بالأغلال . ويكثر مثل هذا النقد يوجهه الشيخ عبدالله البنا إلى قومه السودانيين معبرا عن نفسه السودانية الطامحة إلى أن تأخذ أمته السودانية مكانتها فى العالمين . وهو مهما قرع وصور من عيوب المجتمع السودانى إنما يريد أن يستثير حية السودانيين لكي يتحدوا ويطلبوا كل ما يطلبه النفوس

الكريمة من العلاء والشرف والعلم ، وينصرفوا عن الملامى والمفاسد ، ويؤدوا واجباتهم الدينية من الفروض والسنن ، حتى تصبح حياة الشعب عزيزة كريمة ، وحتى يشعر كل غنى بواجبه من عون أخيه الفقير ، وحتى لا يقعد القوى عن قيامه بواجبه لأتمته ، وحتى لا ينقبض سودانى عن بيان رأيه الشديد فى كل ما يعود على الأمة السودانية بالخير . وينشد له صاحب كتاب الشعر فى السودان قصيدة^(١) طويلة بعنوان : دمة على اللغة العربية ، وهو فيها يمرض ازدهارها وعلماءها وشعرها التابهين ورجالاتها فى العصور الماضية ، ويطلب فى بكائها وعويله على ما صارت إليه فى العصر الحاضر من ضيم شديد ، ويرد ذلك إلى ما أصاب بُناءها من النوم والهوان ، يقول :

أُطِلْتُ عَنِّي عَلَى الْأَيَّامِ حِينَ جَنَّتْ عَلَيْكَ فَاسْتَلَبْتُ أَنْهَى مَزَايِكِ
 وَلَوْ أُجَلِّبْتُ لَقَالَتْ إِنَّهُمْ نَفَرُوا نَامُوا فَحَالَتْ بِمَا نَامُوا سَجَايِكِ
 وَلَوْ أُجَلِّبْتُ لَقَالَتْ إِنْ قَوْمَكَ قَدْ رَضُوا الْهَوَانَ فَطَالَتْ فِيهِ سَكَنَاكِ
 لَوْ قَدَّرُوكِ لَعَادَتْ فِيكَ نَاصِرَةٌ رَوْحُ الْحَيَاةِ وَسَرُّ الْكُونِ عِمَّاكِ

وهو يقول للغة العربية التى يكيها فى قصيدته إنه أطال عتبه على الأيام لما جنت عليها وسلبتها بلاغتها الرائعة ، ويقول إن الأيام لو أجابت على هذه التهمة لتعلت بأن بُناءها ناموا على النهوض بها فتغيرت روعتها البائية ، بل لتعلت بأنهم رضوا الهوان ، فطال سكانها له معهم ، ولو قَدَّرُوها فى عصرنا حق قدرها لعادت روح الحياة فى أعطاف جسمها ناصرة ، وسَرُّ الْكُونِ عَوْدُهَا إِلَى الْحَيَاةِ . والشاعر بذلك يستثير قومه للنهوض بالعربية ، فينتعهم بالنوم والهوان كى يثوروا غضبا ويحققوا للعربية كل ما يمكن من ازدهار ورونق وبهاء . وللشاعر نبويات متعددة منها نبوية طويلة شطر فيها بردة البوصيرى ، وله أيضا شعر اجتماعى كبير .

صالح^(٢) عبد القادر

لا نعرف شيئا عن نشأته ، غير أنه درس فى كلية غردون ، مثل كثير من الشعراء المعاصرين له ، وعكف فيها على قراءة كتب الأدب ودواوين الشعر واستيقظت فيه ملكة الشعر ، وتخرج فيها وعمل موظفا بالبريد . وتغلب على أشعاره مسحة الحزن والشكوى ، ويقول محمد عبد الرحيم إنه كان دائما فى صراع مع الأيام ، يعانى من نكد العيش . ويقول الأستاذ مصطفى طيب الأسماء إنه ممن شُرِّدُوا وَسُجِنُوا فى سبيل الوطنية ، واعتُقل بمصر منهما بالاشتراك فى قتل

الحدث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص

١١٠ وكتاب درر الأدب فى النضال الوطنى فى السودان

لمصطفى طيب الأسماء ص ٣١ .

(١) انظر القصيدة فى ديوان البنا ٩٦/١ .

(٢) انظر فى ترجمة صالح عبد القادر وشعره نشأت

البراع ص ١٥٣ ، وشعره السودان ص ١٤٧ ، والشعر

السيرى ستاك : حاكم السودان وسردار الجيش المصرى هناك ، وثبتت براءته فُرِدتْ إليه حريته .
وشعره يتوزع بين نقد عنيف لأمته وشكوى صارخة من الزمن ، ومن النوع الأول قوله فى
قومه : أهل السودان :

قَوْمٌ قِيَامُ الْفَضْلِ بَيْنَ صُدُورِهِمْ كَفَيَاكُمُ هُودٌ بَيْنَ أَسَمَةِ هُودٍ
لَا يَشْعُرُونَ بِمَا أَلَمَ بِشَعْبِهِمْ فَكُنْتُمْ قُدُّوْا مِنَ الْجُمُودِ^(١)
وَمِنَ الْحَجَارَةِ مَا يَلِينُ وَتِهِمْ لَا يَمَيَّأُونَ بِقَارِصِ التَّنِيدِ^(٢)
يَا أُمَّةً غَفَلَتْ وَطَالَ جُمُودُهَا مَاذَا كَسَبَتْ بِغَفْلَةٍ وَجُمُودٍ

وهو يبالغ فى استثارته لأمته فيقول إن قومه لا يمكن أن يؤتى الفضل ثماره بينهم فمثله
فيهم كمثل هود فى قومه لا يشعرون أى شعور بما حل بهم من هوان ، وكُنْتُمْ خَلَقُوا مِنْ
صَخْرٍ ، وَمِنَ الصَّخْرِ وَالْحَجَارَةِ مَا يَلِينُ أَمَا هُمْ فَلَا يَلِينُونَ وَلَا يَحْفَلُونَ بِأَيِّ تَنْدِيدٍ مَهْمَا كَانَ
شَدِيدًا عَنِيفًا ، وَيَقُولُ إِنَّهُمْ أَحَالُوا دُنْيَانَا شَقَاءً وَأَغْلَالًا ، وَيَهْتَفُ بِأَمْتِهِ ضَجْرًا غَاضِبًا نَاعَتًا لَهَا
بِالْغَفْلَةِ وَالْجُمُودِ . ودائمًا كان يشكو من الزمن وما ينزل به من الكوارث والخطوب ، وانه
ليصرخ :

أَلَا هَلْ مَعِينٌ أَوْ مُوَاثِقٌ فَاشْتَكَيْ إِلَيْهِ هُمُومًا بَتُّ عَفْوَا لَهَا مُلْقَى
إِلَى الدَّهْرِ أَشْكُو وَهَوَّ عَنَى مَعْزُ أَصَمُّ فَلَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يَحْسِنِ التَّنْقِصَا
صَمُوتٌ وَيَقْضَى كُلُّ مَا لَا أُرِيدُهُ فَيَا بَشًّا مَا يَقْضَى وَيَا شَرًّا مَا أَلْقَى
وَأَسْأَلُهُ سَلْمًا فَيَشْهَرُ سَيْفُهُ فَيَا دَهْرًا مَا أَقْسَى وَيَا بَوْسَ مَا تُبْقَى
تَحْمَلْتُ طِفْلًا مِنْكَ كُلُّ عَظِيمَةٍ وَمَا الْعَدْلُ أُنَى بَعْدَ ذَا عُلْفَمًا أَسْفَى
وَتَطْلُبُ مِنِّي أَنْ أَغِيرَ مَبْدُئِي فَيَا بُعْدَ مُطْلُوبٍ بِهِ طَارَتْ الْعَنْفَا^(٣)

وهو يتمنى معينا له أو مواسيا ليشتكى إليه هومًا ثقالا باتت جاثمة على صدره ، ويقول
إنه يشكو إلى الدهر ، والدهر معرض عنه كأنه أصم لا يسمع ولا ينطق ، صامت ويقضى
بكل ما لا أريد ، فذمًا لما يقضى به ويا شر ما ألقى من الآلام الطوال ، وأضرع إليه أن يسألنى
في شهر سيفه ويسله لحربي ، فما أقساه ويا بؤس ما أبغاه منى وقد تحملت كوارثه فى طفولتى
وليس عدلا أن يظل ينهكنى ويسقبنى علقما مرا . ويطلب إليه الدهر أن يغير مبادئه حتى يجد
عونا من بعض أصحاب الأمر والجاه ، فيقول إن ذلك مستحيل ، ويا بُعْدَ هَذَا الطَّلَبِ الَّذِي
طَارَتْ بِهِ الْعَنْفَاءُ إِلَى غَيْرِ مَآبٍ . ويعود إلى الشكوى من الدهر منشدا :

(٣) العنفا : العنفا : طائر أسطوري .

(١) قدوا : خلقوا .

(٢) قارص : لادغ .

لا تَلْمَنِي فَتَكُنْ مَتَّهِمِي إِنْ عَقِلِي لَمْ يَكُنْ مَتَّهِمًا
 وَلَمْ أَدْهَرْ عَلَى تَقْصِيرِهِ أَخْطَأُ الدَّهْرُ وَعَمْدًا ظَلَمًا
 أَبْدَا وَاللَّهِ لَا أَعْذِرُهُ طَالَمَا جَارُ وَحَقِّي هَضْمًا^(١)
 وَطَوَّلْتِي فِي زَوَايَاهُ الَّتِي ضَبَعْتُ نَاسًا وَوَارَتْ أَمَّا
 وَلَكُمْ أَرْعَجِي مَتَّقِمًا وَلَكُمْ وَجْهٌ نَحْوِي تُنْهَمًا

وهو يخاطب صاحبه وقد رأى ما عليه من بؤس قائلا : لا تلمني ولا تتهمني فإن عقلي
 كما عهدته لا يأتي ما ينهم به ، ولم الدهر على تقصيره في حقى ، فقد أخطأ في ظلمي عمدا
 ولا أعذره فطالما ظلمنى وطالما نقصنى حتى وطولتني في زواياه المظلمة التي طالما طوى فيها
 ناسا وأخفى أئما ، ولكم أزعجني بما يصب على من انتقامه الشديد ، ولكم وجه إلى نهما
 ظالمة . ويتجه إلى قومه يريد أن يدفعهم إلى تلافى ما حدث لهم . منشدا :

مَنْ لِقَوْمِي ؟ إِنَّهُمْ قَدْ أَهْلَوْا مَا بَنَى آبَاؤُهُمْ فَانْهَدَمَا
 غَلَبَ الْيَأْسُ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ ضَعُفُوا رَأْيَا فَزَلُوا قَدَمَا
 يَا بَنِي قَوْمِي أَفْبِقُوا إِنَّكُمْ مَا خَلَقْتُمْ لِتَعِيشُوا غِنَمَا
 وَلَقَدْ يَحْزِنُنِي أَنِّي أَرَى وَأَبْكُمْ مَخْتَلِفًا مَتَّقِمَا
 فَأَفْبِقُوا - يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ - وَاطْلُبُوا الْعِلْيَا وَجَارُوا الْأَمَّا

وهو يسأل من ينبه قومي إنهم أهملوا ما شاده آبائهم فانهدم ، وغلب عليهم اليأس من
 تحقيق آمالهم ، إذ ضعفوا رأيا فزلت بهم الأقدام ، ويقول يا بني قومي أفبقوا من غفلتكم فإنكم
 ما خلقتم لتعيشوا غنما تتحكم فيكم الأمم ، وإنه لتحزني فرقتكم وانقسامكم شيئا ، فأفبقوا
 من هذا الهم الثقيل واتخذوا واطلبوا العلياء والمجد ، وجاروا الأمم الناهضة في حياتها العاملة
 النشيطة .

٣

شعراء التصوف

كان التصوف شائعا منتشرا في العالم العربي منذ أن ظهرت طرق التصوف السني في
 القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، وأخذت تتكاثر تلك الطرق بعد ذلك ، وكان
 طبيعيا أن يعم التصوف في السودان منذ القرن العاشر الهجري ، إذ كثر فيه بناء الخلایا الخاصة
 بالصوفية وكثر دعاة التصوف وخاصة دعاة الطريقتين : القادرية التي أسسها بيغداد عبد القادر

(١) مضم : نفس .

الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م والشاذلية لأبي الحسن الشاذلي التونسي المتوفى بمصر سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقال - كما أسلفنا - إن الذي أدخل الطريقة القادرية إلى السودان الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي . إذ نزل السودان في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري ودعا إلى تلك الطريقة وكثر أتباعه ، وشاعت بجانب الطريقة الصوفية القادرية الطريقة الشاذلية ، ويبدو أنها سبقت الطريقة القادرية في النزول بالسودان عن طريق بعض المغاربة النازلين فيه وطريق برنو وأبضا عن طريق مصر لأنها كانت شائعة بها شيوعا شديدا ، وألفت أسرة المجاذيب لها فرعا مهما في مدينة الدامر . وبخيل إلى الإنسان أنه لم يكن في السودان أحد طوال عصر الفونج إلا يتسبب إلى إحدى الطريقتين . وقد أفضنا في الحديث عن تلك الطريقتين في صدر عرضنا للمجتمع السوداني . وأبضا عن اتساع النزعة الصوفية فيه ، وقد دعا شعراؤهم دعوة واسعة إلى الزهد والتقشف ورفض متاع الدنيا انتظارا لمتاع الآخرة ، ويقول الشيخ فرح تكتوك المار ذكره والمتوفى بمصر الفونج كما أسلفنا^(١) :

كم دودة في عميق الأرض في جُحُرٍ	يأتى لها رزقها في الوقت والحين
ألا الزم العلم والتقوى وما تنجت	من التمار تفر بالخرد العيين
من باع ديناً بدنياً واستعز بها	كلما باع فرذوساً بسجين ^(٢)
ولقمة من طعام البر تشبعني	وجرة من قليل الماء تروني
وقطعة من قليل الثوب تسترني	إن مت تكفيني أو عشت تكسوني

فإنه يرزق كل خلقه حتى الدود في أعماق الأرض فلا تحمل هما لجلب رزق والزم التقوى وعبادة ربك تظهر في الآخرة بالخور جميالات العيون ، وما أشقى من يبيع متاع الآخرة بمتاع الدنيا إنه يبيع فردوسا بواد من وديان جهنم وما متاع الدنيا ؟ إن لقمة من خبز القمح تشبع الشاعر وترويه جرة من قليل الماء ، وتكفيه قطعة من قماش تستر جسمه ، إن مات كفته ، وإن عاش كسته . ومرُّنا في كتاب الأندلس أن للزاهد أبي إسحق الإليري قصيدة ختم أبياتها بلفظ الجلالة . ويبدو أن صوفيا سودانيا رأى أن يحاكيه في هذا الصنيع ، فنظم مقطوعة ختمها بلفظ الجلالة تُشدها ودَّ ضيف الله في طبقاته من مثل قوله^(٣) :

اللَّهُ لى عُدَّةٌ فى كل نائبةٍ	أقول فى كل حالٍ حَسْبى اللهُ
إلى متى أنت فى لُهوٍ وفى لعبٍ	فما مقلّك فيما يعلم الله
إن الذنوب التى قدمتها كُتِبَ	إن كنت ناسيها لم ينسها الله

(٣) طبقات ود ضيف الله ص ١٥٨ .

(١) شعراء السودان ص ٢٦١ .

(٢) سجين : واد فى جهنم .

وهو يتخذ الله عدة في كل نائية . وكلما نزلت به كرامة قال حسبي الله ، ويخاطب نفسه إلى متى هو في لعب وهو منصرفا عن تقوى الله الذى يعلم كل ذنوبه إذ كتبها الملكان الرقيبان عليه ، وكأنه يستحث نفسه على الرجوع إلى تقوى ربه والانصراف عن اللهو واللعب إلى السك والعبادة . وتكرر عند المتصوفة فى عصر الفونج مثل هذه المعارضات لقصائد النساك ، وقد عارضوا ابن الفارض المصرى فى بعض قصائده الصوفية ، من ذلك معارضة الشيخ الصوفى موسى ثائيبته المشهورة قائلا^(١) :

سلامٌ على قومٍ إذا ذُكر اسمهم تهتُّكُ أشتارٌ إليهم يرَجْفَةُ
تَلالُتِ الأنوارِ من نحو خالقي بوقتٍ قيامي أو جلوسى بخلوة

وهى لا تلتحق نائية ابن الفارض فى روعة الصياغة والمعاني الصوفية ، ولكنها على كل حال تدل على نزعة صوفية قوية عند الشيخ موسى وإن لم يغمسها فى نور الشهود والفناء فى الذات العلية مثل ابن الفارض . واستمر تشطير الأبيات لأئمة الصوفية طويلا ، من ذلك ما أتسده صاحب كتاب الشعراء فى السودان من تشطير على الشامى السودانى لبعض أبيات لابن الفارض ، منها قوله :

(إن كان منزلى فى الحب عندكم) نحولُ جسمي وآلامي وإيلامي
أو أن يكون جزا روحى التى زهقتُ (ما قد رأيتُ فقد ضيَّعتُ أياي)
(أُميَّة ظفرت روحى بها زما) حتى تركتُ مقامي بين أقوامي
كانت بأيام صفوٍ إذ حلتُ فخلتُ (واليوم أحسبها أضغاث أحلام)

وهو يقول إن كانت منزلى فى الحب الإلهي لا تزيد عن نحول وآلام متصلة ، أو يكون هكذا جزاء روحى التى بلغت الحلقوم فقد ضيعت أياي . وإنها لأمنية فازت بها روحى زما حتى نسيت قومي ، وهو زمن كانت أيامه أيام صفو وهناء ، أياما حلوة مضت واليوم أحسبها أضغاث أحلام . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسى متبلا لربه^(٢) :

يا ربُّ أنت حمايتي فتولني يا ربُّ أنت من التَّوائب مفرجي
جذلي - وزين ظاهري - بعوارفي وبباطني نور المصارف أودع
واقبل شكايه فاتني وتطلبي لندك وارحم ذلتي وتوجعي
أنا عبدٌ سوء أوثقت ذنوبه أنا لاندُ يحيمي الرُّحساب الأوسع
إن لم تكن لي من ذنوب أثقلت ظهري فما أقوى ، وأفقر مرتني^(٣)

العباسى للدكتور أحمد عبد الله سلى ص ٥٣ ودويان العباسى .

(٣) مرتني : معرشتى .

(١) طبقات رد ضيف الله ص ١٥٤ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .

(٢) شعراء السودان ص ٣١٠ وراجع كتاب محمد سعيد

وهو يضرع إلى ربه قائلاً أنت حمايتي فاحنني ، وأنت ملجئتي من التوابع فأغثنني وجذلي
 بإحسان منك أزين به ظاهري ، وأودع بدخائل نور المعارف ، وأقبل شكوى حاجتي لكرمك
 الفيض ، وارحم ذلي وتوجعي لرأيتك ، إني عبد سوء من عبادك المذنبين وأنا لآئذ بحمي
 ساحتك الواسعة ، وإن لم تكن لي وملجئتي من هذه الذنوب الثقيلة فما أفقر مرتعي ومعيشتي .
 وعارض الشيخ محمد الطاهر المجذوب ياتية ابن الفارض المشهورة بقصيدة استهلها بقوله^(١) :
 زائري في الطيف هل من عودة تحي منها مهجتي بل أضغري
 والأصفران : القلب واللسان . وللشيخ محمد سعيد العباسي تخميس لبيتين للشبلي الصوفي
 على هذا النمط :

هوائى أنت وهل فى ذلك من حرج أتم ملاذى وأتم فى الدجى سرجى
 يا سادة قويت فى حبكم حُججى

(لا أبرح الباب حتى تُصلحوا عوجي وتقبلوني على عيبي وتقصاني)
 قلبى بكم يا سرّة الحى فى شغف دمعى بمهد رسوع الطاعتين وفى

بالله عطفاً على صَبِّ لكم دَنَفِ

(فإن رضيتُم فيا عزى وبا شرفى وإن أيتُم فمن أرجو لمصيتي)

والتخميس محكم ، وشطور العباسي الستة متداخلة فى بيتي الشبلي بدقة ، إذ كان بارعاً
 فى صوغ شعره وألياته .

٤

شعراء المدائح النبوية

تغنى كثيرون من شعراء السودان بمدائح الرسول ﷺ ، مثلهم فى ذلك مثل الشعراء فى
 جميع بلدان الوطن العربى ، إذ هو المثل الرفيع لكل مسلم فى تقواه وعبادته لربه وورعه . وقد
 أخذت هذه المدائح تتكاثر بالسودان منذ القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى حتى
 لينظم بعض الشعراء دواوين كاملة فى المدح النبوى مثل محمد عثمان الميرغنى وديوانه : « النور
 البراق فى مدح النبى المصداق » والسيد أحمد بن إدريس وديوانه : « رياض المدح » والشيخ
 نبي القاسم أحمد هاشم وديوانه : « روض الصفا فى مدح المصطفى » . ولتلقى عند الشيخ
 الأمين الضمير المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م بمدحة نبوية ورى فيها بسور القرآن الكريم

(١) تاريخ الصحافة العربية فى السودان ص ١٩١ .

على غرار مدحة نبوة لآين جابر الأندلسي ، أنشدنا منها قطعة في ترجمته بكتابنا عن الأندلس ، ويقول الشيخ الأمين الضمر في فواتح مدحته^(١) :

إذ منه مائدة الأنعام والمُعَلَّ	ما للنساء كمثل المصطفى ولد
لمن به توبة كي تُذهَب الوجَل ^(٢)	أعرافه المسك والأفنان وافر
ويوسف حسنه من أجله كمالا	به ليونس أنس ثم هود هدى

والآيات تذكر بالترتيب سور النساء والمائدة والأنعام في البيت الأول وسور الأعراف والأنفال والتوبة في البيت الثاني وسور يونس وهود ويوسف في البيت الثالث ، واسم السورة ينتجم بمعناه في البيت ، والأعراف جمع عرف بمعنى المعروف والأنفال العطايا ، وهما اسم السورتين بعد الأنعام ، وتوالى السور بترتيب المصحف . ويختتم القصيدة بالصلاة على الرسول ﷺ . وللشيخ أبي القاسم أحمد هاشم المترجم له في شعراء الغزل العذري مدحة نبوية بديعة يقول فيها^(٣) :

وأحق من بمدحيه يتقرب	أحمد ولأنك أكرم مرسل
وبشارة ، لك كل خير ينسب	أحمد ما أنت إلا رحمة
سير الوجود لك الفناء الأرحب	يا بن العوالى الشئ من مضر وبا
م ومن إليك المتلج والمهرب	يا سيدى يا خاتم الرسل الكرا
بفضائل عن ذرك غيرك تحجب	مدحتك آيات الكتاب ونوّهت
ما نال ما قد نلته متقرب	كل الكمال فنت غايته حده

والشيخ أبو القاسم يخاطب الرسول قائلا إنه أحق مرسل يتقرب المسلم بمدحيه إلى ربه ، وقد أرسله رحمة وبشرى لعباده ، وإليه ينسب كل خير ، إنه ابن السادة العظام من مضر ، وسر الوجود جميعه ، وله المجد الأرحب ، إنه خاتم الرسل الكرام والمُلجأ لكل خائف فرع ، وقد مدحته آيات القرآن بمثل (وإنك لعل خلق عظيم) ونوّهت له بفضائل دون غيره ، إنه عين الكمال وغايته ومتناه ، ولم ينل أحد من ربه ما نال من فضله . والمدحة بديعة ولم يترجم له صاحب نفثات اليراع ولم ينشد له صاحب شعراء السودان سوى هذه المدحة مع أن له ديوانا جميعه مدائح نبوية باسم « روض الصفا في مدح المصطفى » كما أسلفنا . وكان يعاصره

(٣) شعراء السودان ص ٣٣ .

(١) شعراء السودان ص ٢٢ .

(٢) الوجل : الخوف .

الشيخ عمر الأزهرى وأنشد له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وسفرد له ترجمة . وللشيخ إبراهيم هاشم مدحتان نبويتان يقول فى إحداها^(١) :

هذا محمد الذى ملأ البلاد هدىً وجاد

وهو الموصل للطريق المستقيم والسداد

وهو المبشر والمخذر والمعرض للجهاد

وهو الموصل للسلامة فى القيامة والمعاد

والله أعلى ذكره وأذاعه فى كل ناد

وهو يقول إن هدى محمد ﷺ ملأ البلاد ومازال يجود ويفيض ، وهو الموصل لطريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، طريق الرشd والسداد ، وهو المبشر بنعيم الله والمخذر من عذابه وحجيمه والمعرض للجهاد فى سبيله ، وهو الموصل للأمن والسلامة يوم القيامة وفى الحياة الآخرة ، وقد أعلى الله ذكره ، ونشره فى كل ناد بين الناس أجمعين . ويلقانا الشيخ عبد الله عبد الرحمن ، وستترجم له عما قليل . ويقول عثمان هاشم فى الاحتفال بليلة الميلاد النبوى سنة ١٣٣٩ هـ / ١٩٢١ م منشداً^(٢) :

بجلال ذكرك تفخر الأعوام وبحسن يومك تزدهى الأيام
يا ليلة الميلاد حبسك مفخرا نوراً عليه من النبى تمام
ضاءت به الدنيا وأزهر نورها بالمسلمين وأشرق الإسلام
شرفاً بأحمد خير من وطىء الثرى وله على السبع الطباق مقام
لولك يا بن الأكرمين لما اهدت تلك الشعوب ولا استقام نظام

وهو يحى ليلة ميلاد الرسول ﷺ ، ويقول لما إن الأعوام تفخر بذكرك وتبته بيومك الأيام وحسبك مفخرا وزهوا وعظمة ما رافق الرسول فى مولده من النور العظيم . أضاءت به الدنيا وعظم نورها بالمسلمين وأشرق الإسلام وتلج فى الآفاق نوره ، شرفا لا يماثله شرف بالرسول العظيم خير إنسان وطىء الثرى وقد صعد به ربه وأتاح له فى معراجيه مقاماً فوق السموات السبع ، ولولاه ما اهدت الشعوب الإسلامية ولا استقام لها ملك ولا حكم ولا نظام . ويكى فى مدحته الإسلام مقارنا بين ماضيه وحاضره وما أصاب أقوامه وشعوبه من التخاذل . ويعود إلى نحية العام المجرى فى قصيدة ثلثة باكيا الإسلام والمسلمين وما عم بينهم من عداء وأحقاد ، ويهتف^(٣) :

(٣) شعراء السودان ص ٢٢٩ .

(١) شعراء السودان ص ٥٩ .

(٢) شعراء السودان ص ٢١٧ .

عَدَتْ مَلَّةُ الْإِسْلَامِ تَبْكِي تَأْسًا
تَسُوحُ عَلَى أَيْامِهَا وَشِبَاهِهَا
لَقَدْ عَمِلَ الْأَعْدَاءُ كَيْدًا لَسَخَفَهَا
تَذَكَّرْتُ الصَّدِيقَ إِسْمَانَ مَجْدَهَا
كَانَ لَمْ يَكُنْ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ مُسْلِمًا
فِيكِي لَهَا الْبَيْتُ الْعَنِيقُ وَزَمَزَمَ
فَهَا هِيَ بَيْنَ الْقَوْمِ نَهَبَ مَقْسَمُ
فَلَمَّا سَحَّ مِنَ الدَّمْعِ مُنْجِمٌ^(١)
تَنَادَى بِصَوْتٍ يَقْطَعُ الْقَلْبَ حَسْرَةً
دِرَاكُ أَبَا حَفْصٍ فَقَدْ كَدَتْ أَعْدَمُ

وملة الإسلام تبكى متحسرة ، كان لم يكن فوق الأرض مسلم ، تسوح على أيامها الماضية وشباب مجدها الغابر، ويكى لها المسجد الحرام وبثر زمزم ، فقد اجتمع أعداؤها على الكيد لها، وتلك ديارها نهب مقسم بينهم . وتذكرت أبا بكر الصديق العظيم في أوائل مجدها وعزتها وذرفت الدمع مدرارا، وتقول بصوت محزون منادية الفاروق عمر بن الخطاب أدركنى قبل أن يفتك بى الأعداء. وللشيخ مدثر البوشى المولود سنة ١٩٠٣ للميلاد مدحة نبوية بديعة ، استهلها بنقد عفيف لشعبه السوداني ، يريد أن يدفعه إلى العمل والعلم على هدى الشريعة المحمدية، وينشد^(٢) :

اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا يَوْمُ مَوْلَدِهِ
حَيْثُ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ مَشْرِقَةً
حَيْثُ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ جَالِيَةً
حَيْثُ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ كَمْ رَقِصَتْ
حَيْثُ يَا لَيْلَةَ الْمِيلَادِ إِنْ لَنَا
هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ
فَالْكَوْنُ مَبْتَهَجٌ مِنْ نُورِهِ الْحَسَنِ
عَلَى الرَّبْعِ بَوَجْهِ سَاطِعِ الزَّمَنِ
لِلْبَشَرِ مَذْهَبَةً لِلْهَمِّ وَالْحَزَنِ
فِيكَوِ النَّفُوسُ فَحَاكَتْ مَائِنَ الْغَضَنِ
فَخِرَا بِتَجْدِيدِ ذِكْرَى خَيْرِ مَوْتَمَنِ
كُلُّ الْوُجُودِ كَصَوَّبِ الْعَارِضِ الْهَيْنِ

والشيخ مدثر يكبر معظما يوم مولد الرسول الذى عمت الكون بهجته من نوره الوضاء ، ويحى ليلة ميلاده التى استحالت على الآفاق ليلة مضيئة بوجه مشرق مزدان بالأضواء والأنوار ، وقد جلبت البشر والسرور وعت المم والحزن ، ويقول كم رقصت فيها النفوس طربا محامية الغصون المختالة ، وإن لنا فيها لفخرا عظيما بتمجيد ذكرى خير الرسل ، إبه النبى الذى عمت أنفضاله كل الوجود كما يعم مطر السحاب الماطل أطباق الأرض . وللشيخ مدثر هزمية اختصر بها السيرة النبوية فى ١٢٣ بيتا^(٣) .

الشيخ عمر^(٤) الأزهرى

هو الشيخ عمر بن عبد الله الأزهرى ، من ذرية عقيل بن لى طالب ، ولد سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م وتوفى سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٥ م رزق به أبوه الصوفى من أعمال القطارف جنوبى

النبوة كتاب الشعراء فى السودان ص ٢٤٩ وراجع
نفحات البراع ص ٩٨ وكتاب الشعر الحديث فى السودان
للدكتور الشوش فى حديثه عن المدح النبوى وشعراء
الوطنية فى السودان ص ٣١٠ وما بعدها .

(١) سح : سبل . مسجىم دائم السيلان .

(٢) شعراء السودان ص ٣٣٦ .

(٣) أنشد هذه الهزمية صاحب نفحات البراع ص ١٧٥ .

(٤) انظر فى ترجمة الشيخ عمر الأزهرى ومدائحه

نهر عطبرة رافد النيل ، وعنى به أبوه ، فحفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه درس على شيوخ مختلفين علوم الفقه واللغة العربية . وفى سن العشرين رحل إلى القاهرة واختلف إلى حلقات شيوخ الأزهر ينهل منها ما شاء ، حتى ثقف العلوم الدينية وعلوم العربية ثقافة جيدة ، وعاد إلى موطنه وفيه عُنى بتدريس الفقه والنحو وعلوم البلاغة ، وتقلد منصب القضاء فى عهد الدعوة المهدية وأقرته دولة الحكم الثامن فى منصبه . وكان عالما جليلا وشاعرا مجيدا ، وأُشيد له صاحب الشراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وفى إحداها يقول عن الرسول منوها به ومشيدا :

المتنقى المبعوث من بين الورى للخلق طرّاً بِسْمُهُ أَوْجَانُهُ
لولاه ما كان الوجودُ ولم يكن مُلْكٌ ولا يَمَلِكُ ولا أَعْوَانُهُ
حتى ولم يَكُ آدَمُ كَلًّا ولا شَيْثٌ ولا نوحٌ ولا طوفانُهُ
وَنَجَا الخليلُ بجاهه من نارِ نَمَ سرودٍ لعمري إذ جفا خيلانُهُ

وهو يصف الرسول بأنه المختار المبعوث لهداية الخلق جميعا من الإنس والجن ، ويستضىء بشعاع ممن نوهوا قبله بالحقيقة المحمدية وأن الرسول علة الوجود ، فيقول لولاه ما كان الوجود ولا دول ولا ملوك ولا كان آدم ولا شيث ولا نوح وطوفانته . وبجاهه نجا إبراهيم الخليل من نار نمرود واستحالت بردا وسلاما . وبمضى فى القصيدة قائلا : بجاهه نجا كلم الله موسى من فرعون وهاماته ، وباسمه دعا ذو النون ربه فى ظلمات البحار فاستجاب له ، وبالمثل استجاب لأيوب وكشف عنه ما به من ضرر ، فهو سرُّ الوجود الذى لولاه ما خرجت الدنيا من العدم ، وهو مبدأ الأنبياء والرسل ومتهاهم وكل ما حدث لهم من معجزات فبفضله الأزل ، ويقول الشيخ عمر فى نفس القصيدة :

جُمِعَتْ خِصَالُ المرسلين له كما جَمَعَ الذى فى كَتَبِهِمْ قُرْآنُهُ
كم قد عفا عَمَّنْ أَسَاءَ وَكَمْ هَدَى من ضَلُّ عن طَرُقِ الهدى بَيِّنُهُ
يمشى وَيَكْبِسُ دَارَهُ وَيَخِيطُ نَوْرَ بَا قد عفا والصنح ذلك شَتْنُهُ
يا من علا فوق الطبايق ومن علا الـ رُسُلَ الكرام هو المَكْبِيُّ مكانُهُ
يا سَيِّدَ الثَّقَلَيْنِ يا مَجْلَى الصُّدَا يا عَيْنَ هذا الكونِ بل إِسْئَانُهُ

وهو يقول إن كل الخصال الفاضلة للرسل جمعت له كما جمع قرآنه كل ما فى الكتب السماوية قبله . ومن صفاته الكبرى العفو وكَمْ هَدَى أَناسا كانوا ضالين يبينه الرائع ، وإته مثال للتواضع كما حكى كتاب السيرة وقالوا إنه كان أحيانا يكس داره ويخيط ثوبه ، وكان دُلبه الصنح والعفو والغفران ، ويقول إته علا فى معراجة فوق السموات السبع وعلا الرسل وسما فوقهم ، إته سيد الإنس من الجن ، وإته يجلو الصُّدا وكل غشاوة ، وهو عين الكون

بل إسنائه الذى به يصير . وهذه المدحة أروع مدحِه الثلاث ، وهو فى المدحتين الآخرين
يعنى بيان معجزات الرسول التى ترددها كتب السيرة .
الشيخ عبد^(١) الله عبد الرحمن

ولد فى جزيرة تونى المواجهة للخرطوم سنة ١٣٠٩ هـ / ١٨٩٢ م لأبيه القاضى
عبد الرحمن بن الأمين الضير شيخ علماء السودان وكان شاعرا مجيدا ومرت بنا مدحة نبوية
بديمة له ، وعني به أبوه ، فوجهه لحفظ القرآن الكريم وأتمه سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م
ولزم أباه فى تنقله قاضيا شرعيا بلوى حمد ودنفلة والقطينة ، وكان أهم أساتذته إذ درس عليه
العربية والفقه وعلم التوحيد أو الكلام . والتحق بكلية غوردون سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م
بقسم المعلمين والقضاة . وتخرج فيه سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١١ م وعين مدرسا للغة العربية
بالمدارس الثانوية فى وزارة المعارف السودانية . وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة وما هى
إلا سنوات حتى اشتهر ، ومن فرائده نونية فى وصف الطبيعة السودانية استهلها بقوله :

كم للطبيعة فى السودان من فينٍ وكم لأطيافها من سيخرٍ أَلحانٍ

وقد نظمها سنة ١٩٣٤ بعد هذا العصر الذى نُوْرخ له ، وهو أحد ثلاثة أفئدة من الشعراء
السودانيين تعاصروا فى النصف الأول من القرن العشرين ، وكانت لهم شهرة مدوية فى عالم
الشعر السودانى هو ومحمد سعيد العباسى وعبد الله البنا ، ولهم جميعا شعر وطنى واجتماعى
كثير ، وكل منهم خليف بدراسة مستقلة . ويقول صاحب كتاب شعراء السودان : « له فى
المدائح النبوية الباع الطويل والقدح الملى » وأشد له نبوية ألفاها سنة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ م فى
حفل المولد النبوى ، وفيها يقول :

نبيٌّ كان للدينا جمالا وذخرا للعديم وللغنى
نبيٌّ قد يُجير على الليالى إذا ما جِئنا بالأمر الفرى^(٢)
لمعرك ما النبىُّ - فدنك نفسى - بمنطلقى اللسان على البذى
ولا هَلِجْ تزعزعه خطوبٌ ولا مُهدى الملاسة للمسى
ولكن قد عرفناه رءوفاً يردُّ عوادى الدهر العتى^(٣)

فالنبي ﷺ كان جمالا لا يماثله جمال وكثرا ماديا للفقير ومعنويا للغنى ، وكان يجير على
الليالى إذا ما جاءت بالخطوب الخطيرة ، وكان عف اللسان حتى مع البذى المذموم ، ولم

(١) طبع دارالمعارف بيروت (ص ٣٣ . وكتاب تاريخ
الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين
(انظر الفهرس) وله ديوان منشور من قديم .
(٢) الفرى : المختلق ويريد الخطير .
(٣) عوادى الدهر : نوابه . العتى : الجبار .

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبد الله عبد الرحمن وشعره
نفاثات البراع ص ١١٥ وكتاب الشعراء فى السودان ص
١٨٧ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد
إبراهيم الشوش ص ٦٤ ومابعدا وفى مواضع مختلفة
وكتاب الشعر والشعراء فى السودان لأحمد أبوسعد

يكن جَزَعاً نصف به الخطوب الخطيرة ، وكان رفيق الحسّ حتى لا يلوم المسيء على إساءته ، وكانت الرأفة والرحمة ملء فؤاده ، وكان يعرف كيف يرد كوارث الدهر الجبار . ولا يلبث أن يقول في الرسول الكريم :

وَهُوَ أَصْلُ الْوُجُودِ بِلَا مِرَاءٍ وَهُوَ سُرُّ الْحَيَاةِ لِكُلِّ حَيٍّ
أَتَى بِالْمَلَّةِ السَّحَابَ يَدْعُو إِلَى الْأَخْلَاقِ وَالشَّرْعِ السَّوِيِّ
وَأَقْسَمَ مَا سَحَابٌ مَكْفَهَرٌ كَأَن بَرِيقَهُ قِسْمَاتُ مَيٍّ^(١)
يُرْوَى الْأَرْضُ مِنْ غَوْرٍ وَنَجْدٍ بِأَجْوَدَ مِنْ بَنَانِ الْمَاشِمِيِّ
وَمَا أَسَدٌ لَهُ بِالْقَابِ زَارٌ يُصَيِّمُ الْأُذُنَ مِنْ قِرْطِ الدَّوِيِّ
بَأَشْجَعِ مِنْهُ فِي الْمِجَاءِ قَلْبًا إِذَا بَرَقَتْ شِبَاةُ السَّمْهَرِيِّ^(٢)

والشيخ عبد الله يستلهم في البيت الأول فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ الأصل الأزل للوجود قبل نشأته وكل حياة لموجود في الكون مستمدة منه . ويصف الشاعر الدين الخفيف بأنه دين سمح وأن شرعه شرع سوى عادل لا إفراط فيه ولا تفريط ، ويقسم أن السحاب الماتم لكثرة أمطاره وبريقه الذي يشبه قسماوات وجهه مـ مـ في ضيائه ، المروى للأرض في ودياتها وأنجادها أو مرتفعاتها العالية ليس هذا السحاب أكرم من بنان الرسول الفائضة بالجدود ، وليس الأسد الغضنفر الذي يزأر في غابه زئيرا يصم دويه الأذن بأشجع من الرسول إذا حيت الحرب . وللشاعر مدحة نبوية دالية أتشد منها صاحب كتاب الشعراء في السودان مقدمتها الغزلية وقوله في وصف معجزة القرآن الخالدة :

مَثَلَتْنِي حَارَتُ الشَّعْرَاءِ فِيهَا وَرَدَّتْ كُلُّ جَبَّارٍ عِنْدِي
مَتَى مَا يَتْلَاهَا أَحَدٌ بِنَادٍ يَقُولُ الْمُتَنَذِي هَلْ مِنْ مَزِيدٍ

والثلاثي يريد بها آيات القرآن الكريم لأنها تعاد في السنة حفاظها . ويقول إن الشعراء حارت في روعتها البلاغية وبُهِت كل جبار معاند للرسول ورسائله ، وحين يتلوها أحد بنادٍ يشدُّ إليها انتباه الناس ويطلبون المزيد منها لبلاغتها الرفيعة المعجزة .

(١) المكفهر : الأسود الماتم .

(٢) شاة السمهرى : حد السيف .

فهرس الكتاب

الصلة

مقدمة ١٥-٥

القسم الأول : الجزائر

الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ ١٩-٤٩

١ - الجغرافية ١٩

٢ - التاريخ القديم ٢١

٣ - الفتح والولاة - الأغالبة - الإباضيون - تلمسان ٢٣

٤ - الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - بنو حماد ٣٢

٥ - دولة الموحدين - الدولة الحفصية - بنو عبد الواد ٣٩

٦ - العهد الشملي ٤٤

الفصل الثاني : المجتمع الجزائري ٥٠-٧٥

١ - عناصر السكان ٥٠

٢ - المعيشة ٥٤

٣ - الثراء - الرفه - الموسيقى ٦١

٤ - الدين - المالكية والحنفية - الإباضية والصفرية - المعتزلة ٦٥

٥ - الزهد والتصوف ٧٣

الفصل الثالث : الثقافة ٧٦-١٠٩

١ - الحركة العلمية : فائحون ناشرون للإسلام ومعلمون - دور العلم - نمر ٧٦

الحركة العلمية ٧٦

٢ - علوم الأوائل ٨٥

٣ - علوم اللغة والنحو والمروض والبلاغة والنقد ٨٩

٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقہ والكلام ٩٦

٥ - التاريخ ١٠٧

الفصل الرابع : نشاط الشعر والشعراء ١١٠-١٧٠

١ - تعرب الجزائر ١١٠

- ٢ - كثرة الشعراء ١١٦
- ٣ - شعراء المدح : عبد الكريم النهشلي ، عبد الله بن محمد التنوخي (ابن قاضي ميلة) ، ابن خميس ، محمد بن يوسف القيسي الثغري التلمساني ، الشهاب بن الخلوف ، محمد القوجلي ١٢٠
- ٤ - شعراء الفخر والمجاء ١٤٩
- (أ) شعراء الفخر : أبو حمو موسى الثاني ١٤٩-١٦٤
- (ب) شعراء المجاء : بكر بن حماد التاهرتي ، سعيد المنداسي ١٥٦
- ٥ - الشعراء والشعر التعليمي : عبد الرحمن الأخضرى ١٦٤
- الفصل الخامس : طوائف من الشعراء** ١٧١-٢٢١
- ١ - شعراء الغزل : محمد أحمد الأريسي ، ابن علي ١٧١
- ٢ - شعراء وصف الطبيعة : عبد الله بن محمد الجراوي - إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي التلمساني ١٨٣
- ٣ - شعراء الرثاء : محمد بن علي بن حماد القلعي ١٩١
- ٤ - شعراء الزهد والتصوف ١٩٨
- (أ) شعراء الزهد والتصوف ١٩٨-٢٠٩
- (ب) شعراء التصوف : أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي ، إبراهيم التازي ٢٠٠
- ٥ - شعراء المدائح النبوية : محمد بن عبد الله العطار ٢٠٩
- الفصل السادس : الشعر وكتابه** ٢٢٢-٢٥٢
- ١ - الخطب والوصايا ٢٢٢
- ٢ - الرسائل الديوانية ٢٢٧
- ٣ - الرسائل الشخصية ٢٣٢
- ٤ - المقامات ٢٣٧
- ٥ - كبار الكتاب: أبو القاسم عبد الرحمن القالمى، الوهراني ، أبو الفضل بن محشرة ٢٤٢

القسم الثاني : المغرب الأقصى

- الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ** ٢٥٥-٢٩٧
- ١ - الجغرافية ٢٥٥
- ٢ - التاريخ القديم ٢٥٨
- ٣ - الفتح والولاة - ثورة الصفريّة - بنومندرار - الأدارسة - بعد الأدارسة والمدرايين ٢٦١

٢٧٤	٤ - الرباطون - الموحدون - بنو مرين
٢٩١	٥ - السعديون - الطرق الصوفية - العلويون
٣٢٨-٢٩٨	الفصل الثاني : المجمع المغربي
٢٩٨	١ - عناصر السكان
٣٠٥	٢ - المعيشة
٣١٢	٣ - الثراء - الرِّفْه - الموسيقى - المرأة
٣١٩	٤ - المالكبة - الصغرية - المعتزلة - الظاهرية
٣٢٨-٣٢٥	٥ - الزهاد - المتصوفة
٣٢٥	(أ) الزهاد
٣٢٦	(ب) المتصوفة
٣٧١-٣٢٩	الفصل الثالث : الثقافة
	١ - الحركة العلمية : فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون - دور العلم - نمو
٣٢٩	الحركة العلمية
٣٣٧	٢ - علوم الأوائل
٣٤٣	٣ - علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة
٣٥٤	٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام
٣٦٧	٥ - التاريخ
٤٣٣-٣٧٢	الفصل الرابع : نشاط الشعر والشعراء
٣٧٢	١ - تمرب المغرب الأقصى - كثرة الشعراء
٣٩٣-٣٨١	٢ - شعراء الموشحات والأزجال
٣٨١	(أ) شعراء الموشحات : ابن غُرْلة ، ابن الصباغ ، ابن زاكور
٣٨٩	(ب) شعراء الأزجال : ابن عمير ، ابن شجاع التازي
	٣ - شعراء المديح : ابن زبناع ، ابن حبوس ، الجراوى ، ابن عبد المنان ، الهوزالى ،
٣٩٣	أحمد بن القاضى ، الدغوغى ، البوعنتى
٤٢٨-٤٢١	٤ - شعراء الفخر والمجاء
٤٢١	(أ) شعراء الفخر : الشاذلى
٤٢٦	(ب) شعراء المجاء
٤٢٩	٥ - الشعراء والشعر التعليمي : عبد العزيز المازوزى ، ابن الونان

الفصل الخامس : طوائف من الشعراء	٤٣٤-٤٨٤
١ - شعراء الغزل : أبو الريح الموحدي ، عمر السلمي	٤٣٤
٢ - شعراء الوصف : عبد العزيز الفشتالي	٤٤٣
٣ - شعراء الرثاء : ابن شعيب الجزنائي ، أبو علي اليوسى : الحسن بن مسعود	٤٥٢
٤ - شعراء الزهد والتصوف	٤٦٢-٤٧٥
(أ) شعراء الزهد	٤٦٢
(ب) شعراء التصوف : ابن المحلى	٤٦٨
٥ - شعراء المدايح النبوية : ميمون بن خبازة ، مالك بن المرحل	٤٧٥
الفصل السادس : الشعر وكتابه	٤٨٥-٥٣٩
١ - الخطب والمواظ	٤٨٥
٢ - الرسائل الديوانية	٤٩٠
٣ - الرسائل الشخصية	٤٩٩
٤ - المقامات والرحلات	٥٠٣-٥١٨
(أ) المقامات	٥٠٣
(ب) الرحلات : رحلة ابن رشيد ، رحلة البدرى ، رحلة العياشى ، رحلة	
ابن ناصر ، رحلة الوزير الفسائى ، رحلة محمد بن عثمان المكناسى	٥١٠
٥ - كبار الكتاب : الفاضى عياض ، أبو جعفر أحمد بن عطية ، ابن بطوطة ،	
محمد بن علي الفشتالى ، محمد بن الطيب العلمى	٥١٨
القسم الثالث : موريتانيا	

الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ	٥٤٣-٥٥٢
١ - الجغرافية	٥٤٣
٢ - التاريخ	٥٤٥
الفصل الثانى : المجمع والطائفة	٥٥٣-٥٦٦
١ - المجمع	٥٥٣-٥٥٥
(أ) صنهاجة وقبائل المعقل العربية	٥٥٣
(ب) الزروع والمراعى	٥٥٤
(ج) التجارة	٥٥٤
(د) حيلة بدوية	٥٥٥

٢ - الثقافة	٥٥٦-٥٦٦
(أ) نشاط ديني تعليمي كبير	٥٥٦
(ب) التعليم والطلاب والشيخوخة	٥٥٧
(ج) أمهات الكتب والمتون والشروح المتداولة	٥٥٩
(د) أعلام العلماء	٥٦٠
(هـ) القراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء	٥٦١
(و) أعلام النحاة والمتكلمين	٥٦٤
الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء	٥٦٧-٥٩٠
١ - تعرب موريتانيا	٥٦٧
٢ - شعراء المديح : ابن رازكه، محمد اليدالي الديمتي، حرم بن عبد الجليل العلوي	٥٦٩
٣ - شعراء الفخر والهجاء	٥٧٧-٥٨٤
(أ) شعراء الفخر : المختار بن بون ، محمد بن سيدى الايبرى	٥٧٧
(ب) شعراء الهجاء	٥٨٣
٤ - شعراء الرثاء : باب بن أحمد ييب العلوي	٥٨٥
الفصل الرابع : طوائف من الشعراء	٥٩١-٦١١
١ - شعراء الغزل : الأحول الحسنى ، محمد بن الطلبة اليعقوبى ، يقوى الفاضلى	٥٩١
٢ - شعراء التصوف : المختار الكتى ، الشيخ سيداً	٥٩٨
٣ - شعراء المدايح النبوية : مولود بن أحمد الجواد اليعقوبى ، محمد بن محمد العلوى ، محمد بن حنبل	٦٠٢
٤ - الشعراء والشعر التعليمي	٦٠٩

القسم الرابع : السودان

الفصل الأول : الجغرافية والتاريخ	٦١٥-٦٢٣
١ - الجغرافية	٦١٥
٢ - التاريخ	٦١٧-٦١٨
(أ) السودان فى العصور القديمة	٦١٧
(ب) السودان فى العصور الإسلامية	٦١٨
٣ - دولة الفونج	٦٢١
٤ - محمد على والسودان - عهد إسماعيل	٦٢٤

٥ - حركة المهدي - خليفته عبد الله التعايشي	٦٢٨
٦ - الحكم الثنائي المصري الإنجليزي في السودان	٦٣٢
الفصل الثاني : المجتمع والثقافة	
١ - المجتمع السوداني	٦٣٤-٦٤٣
(أ) نزعة صوفية عامة	٦٣٤
(ب) المرأة ومكانتها في التصوف	٦٣٨
(ج) التصوف والتربية الخلقية والدينية	٦٣٩
(د) طرق صوفية جديدة	٦٤٠
(هـ) دعوة المهدي ومبادئها الستة	٦٤١
٢ - الثقافة	٦٤٤-٦٥٣
(أ) كُتّاب - زوايا - مساجد	٦٤٤
(ب) حركة علمية نشيطة في عهد الفونج	٦٤٥
(ج) سودانيون أزهريون وعلماء مصريون	٦٤٦
(د) التعليم المدني الحديث وتوقفه	٦٥٠
(هـ) إنشاء معهد ديني وعودة التعليم المدني الحديث	٦٥٢
الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء	
١ - تعرب السودان	٦٥٤
٢ - شعراء المدح : الشيخ حسين زهراء ، الشيخ محمد عمر البنا	٦٥٧
٣ - شعراء الفخر والحماسة : الشيخ يحيى السلاوي السوداني ، عثمان هاشم	٦٦٣
٤ - شعراء الرثاء	٦٧٠-٦٧٦
(أ) رثاء الأفراد : الشيخ محمد سعيد العباسي	٦٧٠
(ب) رثاء المدن	٦٧٤
الفصل الرابع : طوائف من الشعراء	
١ - شعراء الغزل العفيف : الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم وغزله العذري العفيف	٦٧٧
٢ - شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن : الشيخ عبد الله البنا ، صالح عبدالقادر	٦٨٣
٣ - شعراء التصوف	٦٩٠
٤ - شعراء المدايح النبوية : الشيخ عمر الأزهرى ، الشيخ عبد الله عبد الرحمن	٦٩٣